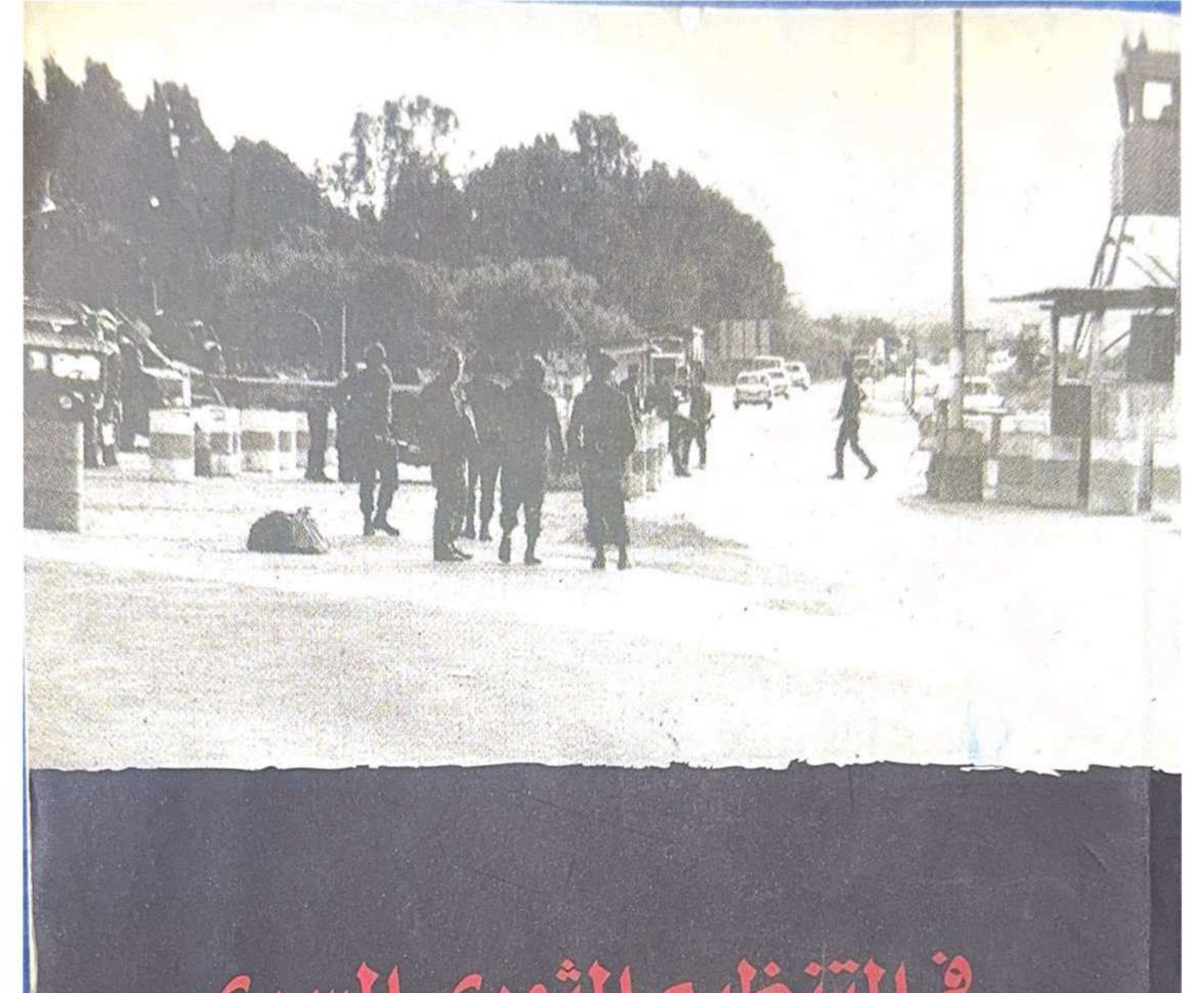


في التنظيم الثوري السري

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الوطن المحتل انموذجاً

حزيران ١٩٦٧ - اوسلو ١٩٩٣

الدكتور أحمد قطامش

٢٠١١

في التنظيم الثوري السري

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الوطن المحتل انموذجاً

حزيران ١٩٦٧ - أوسلو ١٩٩٣

د. أحمد قطامش

٢٠١١

الإهــــــــداء

أهدي هذه الأطروحة للراحل الكبير، قائدي وصديقي جورج حبش، وقوة مثالي الموشح بنقاوة ثورية محمد قطامش الذي شُل في زنازين الاحتلال العنصري، والأم الفريدة رسمية البرغوثي «أم العبد»، وسهى البرغوثي شريكة النضال في مسيرة استثنائية، والشهيد الذي ترك بصمات تربوية ربحي حداد، والزعيم المحترم بشير الخيري، وملك الثقافة والاجتهاد في السجون الاحتلالية يعقوب دواني، ومحمد الأسود «جيفارا غزة»، وفرسان تجربة الاستخفاء الذين صانوا، وكوكبة الرفيقات اللائي ثابرن وكن محفّزات، وأشقائي الذين رفعوا هاماتهم في الزنازين، وعلى الأخص المحامي ربحي قطامش الذي كانت روحه معلقة بخيط رفيع، والحرّاس القدامى الذين شقوا الدرب، وكل البناة الذين لم يهدموا، وكل أبطال الزنازين الذين صمدوا، وكل الذين أرسوا المداميك ولم تلوثهم مرحلة أوسلو وعطاياها...

ولا تفوتني الإشارة إلى أن هذا النص في عداد تحية إكبار وتذكير بقبضة المحترفين الثوريين السريين الأحياء منهم والأموات الذين سكبوا رحيق عمرهم في شرايين صيرورة لا تعرف المشهدية والتراخي في درب مجرب لاقتحام السماء وصناعة التاريخ والذين عملوا بدأب لتحرير الوطن والإنسان بوجدان الثوريين الأقحاح وعافية الشباب الفوارة متجشمين كل التضحيات والعمل اليومي دون ان تفتر حماستهم، تخليدا لهم وللمقطع التاريخي الذي صنعوه.

وهو أقرب لإطار أولي للسياق العام للجبهة الشعبية في مقطع زمني محدد، من المنطقي، بل لامهرب من جزءٍ ثانٍ يجيب عن سؤال كيف، كيف تحقق هذا السياق؟ وبذلك أكون قد حافظت على مسيرة عمل من التبدد والنسيان. فأية تجربة تفتقد لأرشيفها هي تجربة دون ذاكرة، وأبعد من ذلك فالذي (يكتب حكايته يرث أرض الحكاية)، م. درويش، طالما أن الكتابة جزء بنيوي في كلية المواجهة، في مرحلة تكتسح فيها المشهد الفلسطيني تحولات يمينية منهجية مسنودة بقوى اجتماعية- سياسية وإعلام وإمكانات مالية تشن حملة منظمة ضد الإرث الثوري ورموزه. فلعل هذا الكتاب يسهم في حماية الحقيقة التاريخية من الاغتيال الواعي.

ملحوظة: قدّم هذا النص في الأساس كأطروحة للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة لاهاي، وتم الاتكاء عليه والإبحار في فضاءات واستطرادات أوسع. ولم أتطرق لتجربتي مرجئاً ذلك للجزء الثاني.

أحمد سليمان قطامش/ مطلع ٢٠١٠

المحتويات

مفتتح

ثمة أساس كاف، بل بات من الضروري، إبراز النموذج النقيض، أو النموذج الآخر، لما هو سائد اليوم، بما يتماشى مع كلمات «لا تستوحشوا طريق الحق لقلة السائرين فيه» بما تحمله من مدلولات في ظل ما تشهده الساحة الفلسطينية «والعقل القيادي» من طغيان للعلانية والمكتبية والإخفاق وإضاعة الاتجاه. وهذه الأطروحة كعملية عقلية طليقة، بحثاً عن جوهر الأشياء إنما تحاول الاسترشاد بالتراث الرشدي (ذلك أن فلسفة ابن رشد قد مثلت قاعدة انطلاق للعقلانية الأوروبية الحديثة... حيث كتب أنجلز: لقد ورث الأوروبيون حرية الفكر المشرق من العرب)[1]، فكم بالحري بنا، ألا يجدر الاتكاء عليه في استقراء البراكسيس الذي جسدته الجبهة الشعبية؟ استقراءً لا يكتفي بالقشور أو السرد الصحفي بل يذهب للتعلم من المنهج الخلدوني (فالتاريخ عند ابن خلدون ليس سرداً للأخبار... فالعلم يقضي نقض الظاهر للوصول إلى الباطن، والنقض عملية استخراج للواقع من ظاهر يحجبه، ولا بد في هذه العملية من إنتاج الأدوات النظرية الضرورية لها... الواقع كمادة للمعرفة ليس حدثاً بل علاقة، أو مجموعة مترابطة من العلاقات التي تولد الأحداث)[2]، وبالتالي فالمقاربة محاولة للجمع بين العقل والعلم، في تناغم بين الجبهة ككائن حي يفعل وينفعل وبين (علم السياسة باعتباره كائناً حياً ينمو ويتطور)[3]، ذلك أن الصواب يقتضي أن تعكس الصورة الذهنية الواقع المعين لبراكسيس الجبهة الذي ولد واشتد ساعده واستفحلت أزمته وتهمش وهو ينبض في رحم الشعب ومنعطفات مسيرته، دون أن تخونه العزيمة، إجمالاً، يضافر جهده مع جهد سواه لقلب المعادلة التي صورها بمرارة فرانزفانون (إن مدينة المستوطنين مدينة راسخة، مدينة مشرقة، بنيت من الحجر والصلب، حسنة التغذية، ميسورة... أما مدينة الشعب المستعمر، مدينة الوطنيين، فالناس يعيشون فوق بعضهم بعضا، مدينة جائعة، تتمرغ في الوحل)[4]، ومواجهة العنصرية الإقصائية التي لخصها إدوارد سعيد بالقول (من المهم أن نلاحظ أن فكرة التخلص من الفلسطينيين كانت أمراً ثابتاً في الفكر الصهيوني منذ بدايات القرن العشرين سواء كان ذلك لدى اليسار أو اليمين أو الوسط. كل مفكر صهيوني رئيسي تحدث دائماً عن ترحيل الفلسطينيين، طرد الفلسطينيين، التخلص من الفلسطينيين، جعلهم يتلاشون في الهواء كالأرواح)[5].

---

١) المؤذن، عبد السلام. ثورة ماركس في نظرية المعرفة. ص١٠

٢) د. عامل، مهدي. في علمية الفكر الخلدوني. دار الفارابي. ٢٠٠٦. ص ١٣، ١٤

٣) غرامشي، أنطونيو. كراسات السجن، دار المستقبل. ص١٥٢

٤) ووديس، جاك. نظريات حديثة في الثورة. دار الفارابي. ١٩٨٦. ص٣٢

٥) حمد، علي. التسامح في فكر إدوارد سعيد. مركز رام الله لدراسة حقوق الإنسان. ٢٠٠٧. ص١٢٢

فلعل هذا النص يتحول إلى زخة مطر تساعد على إعادة الحياة لجذور كانت ذات يوم أشجاراً باسقة وروحاً محركة للمسيرة التحررية الفلسطينية، التي نقشت حروفها ولوّنتها تضحيات مجاميع من الناس العاديين من مثقفين وطلبة وعمال وفلاحين وربات بيوت ومهمشين، ورواد امتشقوا جرأة الاكتشاف وآثروا القبض على زناد أحلامهم، مهتدين بكلمات هيجل (بالمجازفة بالحياة يتم انتزاع الحرية)، مدركين منطق باولو فريري (إن اكتساب وعي انتقادي للاضطهاد يتطلب ممارسة النضال، وأخطر العقبات أن يطمس الاضطهاد ضمائر المضطهدين ويدّجنهم)[٦]، وسوف نكتشف في المتن النتائج الجدية لكلماته (الثوريون الذين لا يتصرفون بشكل حواري ليسوا ثوريين حقيقيين، فالعمل التحرري حواري بطبيعته... التحرر حالة دائمة، وبالتالي فالحوار جانبٌ مستمرٌ في العمل التحرري.. ولا يوجد حوار دون تواضع، فإعادة خلق العالم لا تكون عملية عجرفة)[٧].

ولأن الحلقة المركزية في الأطروحة تتمحور حول العملية التنظيمية، فمن البديهي أن تحظى النظرية التنظيمية وترجماتها بالمساحة الأساسية، وبشكل أخص الوجه السري. فهل جاء براكسيس الجبهة الشعبية كفصيلة وطنية يسارية منسجما أم متناقضا مع منظور ماركس (في النشاط الثوري يتطابق تحويل الذات مع تحويل الظروف)[٨]. وأن (نظرية لينين تنطلق من تكوين الوعي الطبقي من التمييز الجوهري بالنسبة للماركسية بين الطبقة في ذاتها والطبقة لذاتها... فاستنتج مفهوم النضال الطبقي الابتدائي والنضال الطبقي الثوري). وأن (أحد الأفكار الأساسية لكتاب لينين ما العمل؟ هي أن البروليتاريا عبر الممارسة الأساسية تبلغ الوعي الطبقي المرتفع، وهذا هو الأساس الذي يوجب ضرورة حزب الطليعة، كذاكرة جماعية وضمير جمعي)[٩]. فهل كانت الجبهة الشعبية سحباً ميكانيكياً لهذه المضامين أم أن النظرية رمادية وشجرة الحياة خضراء وأكثر تعقيداً وأوسع فضاء من النظريات، وبالتالي حضرت الممارسة السياسية ضمن شروطها الخاصة. وهذه الشروط لا يكفيها منظورات ماركس الطبقية، ولا منظورات لينين للمسألة القومية، بل تبدأ قبلئذ وبعدئذ من الخصوصية الأبرز للمسألة الفلسطينية، أي اقتلاع معظم الشعب من وطنه واحتلال كامل ترابه الوطني وزرعه بمجتمع استيطاني كولونيالي عنصري غريب عن الجغرافيا والتاريخ. وإلى أية درجة كانت الجبهة الشعبية فصيلة وطنية تحررية تلتزم

---

٦) فريري، باولو. نظرات في تربية المضطدين. دار التنوير – رام الله. ص١٨

٧) فريري، المرجع السابق. ص ٢٥،٦٩،١١٢

٨) د. ماركس، كارل. الأيديولوجيا الألمانية. ص٣٣

٩) د. مندل، أرنست. لينين ومسألة الوعي الطبقي. ١٩٧٠، ص ١٢،١٣،١٤

وتعبىء بالحقوق الوطنية المستقاة من الحقائق التاريخية التي تنقض الرواية الصهيونية، وتجسد كلمات لينين (إن الموضوعة الأهم هي بناء الحزب الثوري وحماية مواقفه الثورية) ناطقة بكلمات جيفارا (باستطاعتكم أن تبنوا ملاكات تتمزق في السجون دون البوح بكلمة لكن ليس باستطاعتكم أن تبنوا ملاكات تستولي على موقع عسكري) وكلمات دوبريه (في النظرية التي اخترتها، إن الانتماء الوحيد الشريف هو انتماء المقاتل انتماءً كاملاً... من أجل الفعالية الثورية... فمهمتنا جميعاً هي النضال من أجل الفعالية العقلانية في التاريخ)[١٠]. وما تمظهرات حضور الفكر - الثقافة تماشياً مع رؤية الدكتور دراج (لا ثقافة وطنية خارج المشروع الوطني...) أم يا ترى إن كلماته صحيحة (لقد اكتسح المكان مسؤول يكتفي بخبرته الشخصية ولا يحتاج إلى المعرفة... وإن المؤسسة الفلسطينية كانت تطرد المثقف الحديث، وتبتعد عن الشروط التي تساعد عليه)[١١]. أما الجبهة، وكما يتحدث الدكتور جورج حبش في «الثوريون لا يموتون أبداً» كانت «تضع برنامجاً تثقيفياً، إن على مستوى الأيديولوجيا أو على مستوى الثقافة والسياسة». وأخيراً هل ثمة تقاطعات بين نشأة الجبهة الشعبية وبدايات حزب الله، أم تراهما تجربتان متباعدتان؟ (كانت البداية عمليات بسيطة دون إطار تنظيمي أو قيادة موحدة... قوة تشكل لها تنظيم سياسي) و(اعتمدت النشأة الأولى على الروح المعنوية المستمدة من الإلهام الروحي والتدريبات العسكرية القاسية والتعبئة الفكرية التي وضعت نصب أعينها إزالة إسرائيل)[١٢].

وأكثر حصراً، هل أفلحت الجبهة الشعبية في حمل راية مقولة أمينها العام (لقد تصدرت البرجوازية الكفاح المسلح وكانت صادقة... لكن أمام الصعوبات بدأت بالتراجع البرنامجي مرحلة بعد مرحلة... فهل كانت فصائل اليسار كافة متنبهة باستمرار إلى أن تناقضها الرئيسي الداخلي فلسطينياً هو مع اليمين وسياسة اليمين، ألم يجرها اليمين إلى مصالح فئوية على حساب تبلور قوة اليسار... هناك حاجة لوقفة جادة أمام الأخطاء... لقد استندنا في مواجهة المخططات الإمبريالية لسلاحين أساسيين: السلاح القومي والسلاح الطبقي والربط الجدلي بينهما)[١٣]. وهل تصرفت في فهم أزمتها وأزمة المقاومة بناءً على استخلاصه (يجب أن نرى التناقضات الداخلية قبل أن نرى العوامل الخارجية. هذا قانون في التناقضات)[١٤]. بما يتسق مع كلمات

---

١٠) دوبريه، ريجيس. ثورة في الثورة. دار الأداب. ١٩٨٣. ص١٩،٢٣

١١) د. دراج، فيصل. بؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية. ص٤٤،٤٨

١٢) د. أحمد، رفعت السيد. ثائر من الجنوب. حسن نصر الله. دار الكتاب العربي. ٢٠٠٦ ص٢٨،٣١

١٣) د. حبش، جورج. محاضرة في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين. ١٩٨٤/١/٧. ص٧٠،٧١،٧٤،٧٧

١٤) د. حبش، جورج. أزمة الثورة الفلسطينية. ١٩٨٣/١٠/٣١. دار الفارابي. ص٤٦

ماوتسي تونغ (إن العلة الأساسية في تطور الشيء تكمن في باطنه لا خارجه، في تناقضه الباطني)[١٥]. وانتهاءً بـ هل فهمت الجبهة الشعبية المنظور الماركسي للممارسة (تحتل وحدة النظرية والممارسة المكانة المركزية... الممارسة تشمل كافة أشكال النشاط الاجتماعي)[١٦]. وما صلة ذلك بالثنائية المتناقضة. التحول لتنظيم يساري والتفكك والانحسار؟

وأخيراً لا تفوتني الإشارة إلى أن الأطروحة تتفادى الزعم بأنها مصيبة في كل ما ذهبت إليه. فهي ليست سوى بداية، والبداية تشوبها عادة عثرات وثغرات، وإن سعيت لتقليصها ما أمكن، مؤملاً أن تثير أسئلة عديدة حول بديهيات أوصلتنا إلى المآل الحالي. فالأطروحة تأمل أن يتوالد عنها شكوك أكثر بكثير مما يتوالد عنها يقين، مثلما تطمح أن تتحول لمهماز يحفز المزيد من الأبحاث، بمنظورات جديدة تميل للنقد لا للبصم وللإبداع لا للاتباع، فالقضية الفلسطينية جرى تغطيسها في زحمة معضلات ومنازعات لا ينفع معها اي تفكير تسطيحي أو نمذجة عقيمة أو نخب فاشلة.

---

١٥) ماوتسي تونغ، في التناقض. ص١٢

١٦) ياروشفسكي، مفهوم الممارسة لدى ماركس. دار الفارابي. ١٩٧٩. ص٢٠٥

مقدمة

ثمة العديد من التجارب الثورية في الوطن العربي والعالم، منها من تكللت مسيرته بالانتصار ومنها من أخفق بعد عقود من النضال الدؤوب الشاق، الأمر الذي ينسحب على العمل الفلسطيني الذي لم ينفك قابضاً على الجمر منغمساً في الكفاح التحرري رغم ما يعصِف فيه من تحولات سلبية وإخلالات بنيوية وانقسامات فئوية وتغليب للنخبوية على الوطنية، ناهيكم عن المخططات المعادية واستباحات الاحتلال المنفلتة، بما يضعه في نهاية المطاف أمام احتمالين رئيسين:

وبالتالي ينتفي الاحتمال الثالث، أي استمرار الوضعية الراهنة الملتبسة، ذلك أن ديناميات الاحتمالين الأولين هما الأقوى فعلاً، يحاول كل منهما مراكمة عوامل غلبته لكيما ترجح الكفة له، فالوضعية الراهنة مؤقتة ومتأرجحة ولن تدوم طويلاً.

وعلى امتداد عقود دار صراع مرير بين اتجاهين متناقضين، الاتجاه الوطني الفلسطيني والاتجاه المعادي الساعي لتدميره، وقد صمد الاتجاه الوطني الفلسطيني رغم المذابح السياسية والعسكرية وراكم بعض النجاحات مستنداً إلى عامل ذاتي قادته عوامل الوحدة ومنطق التحرر، أما وقد أصاب هذا العامل ما أصابه فالقلعة لم تعد محكمة الإغلاق وتتنامى فيها تيارات تراهن على وترتهن لسياسات دولية لا تعيد حقوقاً للشعب الفلسطيني بل تسهم في تفكيكه واختزاله، كما أوساط لا تخفي يأسها من المشروع الوطني وحنينها لما كانت عليه الحال قبل عام ٦٧، أي الحل الإقليمي، بإعادة غزة للإدارة المصرية، واقتسام الضفة بين إسرائيل والأردن كتوليفة بين التقاسم الوظيفي والمملكة المتحدة.

وأن تتناول الأطروحة تأريخ ومسيرة الجبهة الشعبية وتحليلها، فهذا عمل جدي سواء من الناحية العلمية أو من الناحية السياسية.

وببعض المجازفة يمكن القول "أن التاريخ الذي لا يكتب ينسى".

ثمة عنصران متوافران لهذا الجهد البحثي، الأول: أنه يتم من داخل شعاب الجبهة ممزوجاً بدمائها الحارة وخلجات مسارها بما يحمله ذلك من سحر الأسئلة وجمال الاكتشاف ونبض التضحيات الإنسانية.

والثاني: أن هذه العملية تستقرئ وتحلل الأمس، أي بعد سنوات على تدفق التجربة وما آلت

إليه، بما يجعل الحيثيات والفهم أكثر وضوحاً، فالكثير من زوايا الأمس الغامضة والتي تبدو عفوية باتت اليوم جلية.

وبالنظر لندرة الكتابات التي تتعقب العملية التنظيمية، أي سيرورة البنية بما تحمله من أبعاد فكرية وسياسية وممارسة عملية وخط أخلاقي وأمني، بل يكاد لا يوجد في المكتبة الفلسطينية سوى الشذرات التي تتعرض لهذا الجانب، بما لا يغني ولا يسمن من جوع، بينما ثمة فيض من النشريات السياسية التي تتابع التاكتيكات والرؤى الاستراتيجية والفكر السياسي عموماً... أي ثمة فراغ كبير هنا بما يحرم العقل البحثي كما الأجيال الجديدة من مراجع متخصصة عميقة، الأمر الذي يوجب على العقل البحثي، بالتالي، الحرث في هذه الأرض البور، سيما أن هذه الأرض ليست مجرد بقعة صخرية نائية، بل مساحات خصبة لتجربة فلسطينية متشعبة، ليس دون أساس القول أنها كانت على امتداد عقود مركز الصراع في المنطقة وخندقاً متقدماً لحركة التحرر الوطني، بما لها من اسقاطات وتفاعلات دولية.

وما تعتزم الرسالة التصدي له ليس سرداً صحفياً لمسيرة عمل دون الوقوف التحليلي لمقاطع ومحطات نوعية، كما ليس تأريخاً رصيناً شاملاً يتطلب دراسات وأقلاماً لكل جزئية، بل مزيج من هذا وذاك، هو أقرب إلى إضاءات موضوعية وقرع ما يمكن من بوابات، باقتضاب على الدوام، بما يكفل إنعاش ذاكرة جمعية منسية وصفحات مسكوت عنها، مستقاة من تجربة غنية وإلمام واسع كناظم وموجه للإضاءات، علاوة على نبض قاعدي وكادري وعاطفة ثورية تختلج في صدور من صنعوا المسيرة وتاريخها المستور. بل تتضمن الرسالة اشتباكات نقدية أيضاً. فإن لم يتوشح الباحث والمؤرخ والمثقف عموماً بنظرة نقدية فهو لا يعدو كونه أمّعة وصوتاً تبريرياً لما آلت إليه المسيرة الفلسطينية من كوارث. فروعة النقد – الصدق قادرة أيضاً على نبش الذاكرة الجميلة لسنوات الإنجاز ومجد التراكم ما قبل الأزمة والاخفاق. فالنقد ليس في عداد جهد علمي فقط بل هو سلاح لتبيان الغث من السمين وردم الثغرات – الفجوات وتحليل أسبابها تفادياً لتكرارها. فالرسالة تطمح إلى أن تكون عملاً أكاديمياً وسياسياً في آن، أو بصورة أدق عملاً أكاديمياً يمكن أن يفاد منه سياسياً أيضاً.

ولما يتصف به العمل السري من قوانين خاصة سوف نكتشف أن مهمة هنا أو قراراً هناك، كتغيير في الأشكال التنظيمية في لحظة معينة أو الانخراط بثقل أكثر أو أقل في الميدان في لحظة أخرى، أو سلوك صمودي في الزنازين أو تدبير مبلغ مالي لتلبية حاجات ماسة قد ارتقت إلى مستوى

الدور الانقاذي ومنصة الانطلاق بما يفوق كثيراً أهميتها المجردة. ففي الملموس والمعيّن تضاعفت أهميتها مرات، دون أن ننسى، بل يتعين اضفاء بطولة "والبطولة عمل يستحق التعميم" على هؤلاء الذين شقوا الطريق وسجلوا صفحة مشرفة في تاريخ شعبهم، إذا جاز القول، واستخراج دروس نظرية من تلكم المواقف والخبرات أيضاً.

تسلط الرسالة كشافات قوية على قوانين، مفردات، معطيات، خبرات... العمل التنظيمي السري، بل هنا يكمن محورها الأساس، فهي حين تغوص في عمق التجربة وتناقضاتها ومعضلاتها إنما تكتشف وتعكس النبض الحي، النبض الذي يرتعش ويتدفق في شرايين التجربة العملية، بما هو قريب من مقولة (نظرية الممارسة). وحينذاك يتوحد الجهد البحثي بالمضامين التعبوية بما يسمح بتفادي عبارة (إن شعباً لا ذاكرة له لا مستقبل له) فلشعبنا ذاكرة تاريخية مديدة وذاكرة تحررية معاصرة، وبكلمات موشحة بالأيديولوجيا، لقد وجد ليبقى وينتظر فجر الحرية والعودة للديار أيضاً، الأمر الذي ينبغي التشبث به والعمل لأجله دون تردد.

المنهجية

إذا كان صائباً إلى حد كبير الأخذ «بنظرية الممارسة» ذلك أن محرك الرسالة يبدأ وينتهي من البراكسيس الذي مثلته الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الوطن المحتل، براكسيس صنعه الناس وطوروه وتطوروا فيه، فاستصوبوا أفكاراً ومواقف وخطوات وجهوداً وصوبوا أفكاراً ومواقف وخطوات وجهوداً في عملية تراكمية، هي سيرورة الجبهة الشعبية، فمن الصائب أيضاً الإشارة إلى جذور الجبهة في حركة القوميين العرب وتأثرها بمقولات ومنظورات الفكر الاشتراكي الماركسي – اللينيني بعدئذ. غير أن البراكسيس المحلي كمخاض عملي / نظري كان القوة المركزية في بناء ورؤية الجبهة في الوطن المحتل ارتباطاً بخصائص النضال المباشر واستحقاقاته وضرباته ومستوى الموهبة والخبرة وطباع الكوادر الأساسية الذين قادوها في مختلف مراحلها ومحطاتها ومناشطاتها... فهي إنتاج محلي أولاً وعاشراً. وهذا البراكسيس بداهة إنما يفعل وينفعل في الإطار الكلي للجبهة والإطار الوطني الفلسطيني كذلك وحال الشعب في الداخل والخارج عموما، مثلما أن الكفاح التحرري الفلسطيني يندرج في سياق بنيوي لأمة العرب وخصائصها وصراعها مع المخطط الإمبريالي – الصهيوني، فالحلقة الفلسطينية ليست مفصولة ومنعزلة عن السلسلة العربية، فلم تكن الجغرافيا – السياسية العربية محايدة، بل لها نتائج كبيرة مزدوجة بين إسناد واحتضان وعوّن من جهة ومذابح وضغوط ومحاولات احتواء وتجفيف موارد... من جهة أخرى تبعاً لسياسات

النظم وفعالية الشارع العربي.

وبطبيعة الحال، تأثر براكسيس الجبهة الشعبية بالوضع الدولي والصراع بين المعسكر السوفييتي والمعسكر الأمريكي، وفي لحظات تعاظمت إسقاطات العامل الدولي وفي لحظات أخرى تراجعت وخفتت، سواء كانت سلبية، أو إيجابية.

وعليه، لئن كانت الجبهة الشعبية في الوطن المحتل هي العامل الذاتي محط الدرس، فالوضع الفلسطيني في الداخل والخارج هو الموضوعية بل يمكن القول إن مسيرة المقاومة في الخارج تركت آثاراً أكثر من سواها على مسيرة العمل في الداخل، الأمر الذي أوجب على الرسالة إفراد مساحة تناسب ذلك بتتبع محطات ومعارك البندقية الفلسطينية ومنظمة التحرير. وبداهة يشكل تضافر جناحي المقاومة في الخارج والداخل الذي يتحول لعامل ذاتي في صراعه مع السياسات والإجراءات التدميرية والقهرية الاحتلالية الأمر الذي ينطبق أيضا على الوضع العربي الذي ينتقل من موضوعي وأرضية للعامل الفلسطيني إلى ذاتي في صراعه مع المخططات الإمبريالية والصهيونية.

لكن سيبقى على الدوام مقطع الجبهة الشعبية في الوطن المحتل بين حزيران ٦٧ – أوسلو ٩٣ هو بيت القصيد وهدف الدراسة، وما عدا ذلك إنما تجري الإشارة له في سياق تأثيره على هذا المقطع وحسب. كما أن الرسالة تتكئ علاوة على نظرية الممارسة، على المنهاج المادي التاريخي الذي حضر واقعياً في مرحلة محددة عاشها الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة لها خصائصها السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الطبقية، الثقافية، الديموغرافية، الجغرافية، في تفاعل وتوافق بين البناء الفوقي والبناء التحتي، فيما يقوم المنهاج المادي التاريخي في الأطروحة باستقراء قراءة التناقضات الواقعية وحركتها سواء مع المحتل العنصري أو التناقضات الفلسطينية، أو الداخلية في الجبهة، ومنعكساتها وتمظهراتها وما توالد عنها من تحولات كمية ونوعية والتمييز بين التناقض الأساس/ الرئيس والثانوي، الدائم والمؤقت، التناحري وغير التناحري، وأشكال حلها، وخصائص الجزء ونظام الكل والعلاقة بينهما،... وعلى الأقل كإشارات سريعة، على أن يحظى التحليل لبعض المقاطع بمساحة، كل ذلك في إطار دراسة عملية بناء الجبهة ونضالها، نجاحاتها وإخفاقاتها، نقاط قوتها ونقاط ضعفها، والضربات التي تلقتها ونتائج ذلك على مسيرتها وما آلت إليه أوضاعها سيما في المحطات والمنعطفات الأبرز. فهذا المنهاج بما يتصل به من تحليل مقتضب هو المرجعية الفكرية وزاوية النظر في قراءة البراكسيس الذي مثلته الجبهة الشعبية في الواقع المعيّن الفلسطيني بمكوناته الطبقية ومزاياها ودور «الكتلة التاريخية التقدمية» التي تصطدم

باحتلال عنصري، عسكري، إقصائي جاثم على صدر الوطن والشعب.

وأخيراً تحظى المقابلات الشخصية لعشرات المفاصل والكادرات الذين اضطلعوا بأدوار بارزة في مسيرة الجبهة، وعناصر قاعدية لها وجهة نظرها في هذه المسيرة أو أجزاء منها، بأصداء كبيرة في الرسالة. ناهيكم عن أدبيات الجبهة وتقاريرها ومراسلاتها وما يتوافر من أرشيفها، ذلك أن ملفات كثيرة من أرشيفها التنظيمي قد أتلفته إجراءات التحوط الأمني والضربات الاعتقالية.

دوافع اختيار الموضوع

١- دافع بحثي أكاديمي: إذ ثمة براكسيس جدير بالفحص، فالجبهة في الوطن شكلت مقطعاً غنياً وأدت دوراً كبيراً، بل تفوقت في ميادين وتخلفت في ميادين في الفترة ٦٧ – ٩٣، وأن تعقبها وتشريحها والكشف عن بواطن قوتها وبواطن ضعفها، والعوامل التي مهدت لتأزيمها وتفككها وتهميشها، هو تحدٍ بحثي في حد ذاته. فمشهد مستور، العملية التنظيمية السرية، خليق برسالة ورسائل، وهذا ينطبق على العملية التنظيمية السرية لفصائل المقاومة الأخرى.

وهنا يتعين التنويه أنه لم يصدر أي بحث من هذا الطراز، بما يجعل من هذه الرسالة إضافة بل تطمح إلى أن تكون إضافة نوعية، وعامل تحفيز لجهود بحثية أخرى، بما تثيره من تساؤلات وتطرحه من مقاربات.

٢- دافع سياسي تعبوي: إذ أعتزم نشر الرسالة على غرار كتابات سابقة لي، بما يتركه ذلك من بصمات على القراء سيما الفلسطينيين، فمن الهام تعميم التجارب وتسليح الأجيال الجديدة بخبرات الأمس؛ سيما أن الجبهة تنتمي لنموذج المقاومة، وهذا النموذج يتعرض منذ أوسلو، لموجات من الرياح السامة التي تبغي تجويفه والتطويح به بما يصل إلى تخلي الفلسطينيين عن يوتوبيا حقوقهم الوطنية والاعتذار الصريح عن تضحياتهم في سبيل حريتهم وكرامتهم. ثمة هجوم منهاجي ثقافي – سياسي – معنوي يحمل معاني التشكيك بكل ما هو ثوري وشريف في المسيرة التحررية وتمجيد النقيض المذموم لما كان يوصف باستدخال الهزيمة والإذعان وبالتالي تصفية الحقوق التاريخية إضافة إلى استغوال الانتهاز اليميني البرجوازي الصغير على الصعد التنظيمية/ السياسية/ الفكرية/ الأخلاقية بما هو نقيض للإرث الجذري...

صرّح مرة، رئيس اتحاد الكتاب التركي (إنني أغبط المرأة الفلسطينية، لأنها الوحيدة التي تزغرد على استشهاد ابنها) ربما أن هذه اللغة المطلقة مبالغ فيها، إذ يتعين بداهة تقليص خسائر الشعب، ولكن ذلك لا ينبغي أن يفهم منه إدانة التضحيات وتعظيم الانبطاح. فقد غدا الانبطاح

والارتهان للإملاءات المعادية فلسفة رائجة هذه الأيام، فيما يهال التراب على الفلسفة المعاكسة، بصرف النظر عن عيوبها، بما يوجب إزاحة الستار عن الصفحات الأخرى، دون أن ننسى أن العملية الصراعية ضد العنصريين والإمبرياليين والتخلف والخرائب الداخلية هي عملية تاريخية مديدة، ومن الضروري حماية إرثها الثوري ودروسها البناءة.

٣- دافع شخصي: ربما أتمتع بمقدرة أكثر من سواي على تناول هذا الموضوع بما يشكل شرطاً أخلاقياً يرقى إلى مستوى الواجب الأخلاقي. فالرسالة تبحر في بطون معتمة، العملية التنظيمية السرية، بما يذهب إلى ما هو أكثر من رسالة أكاديمية تستند لمراجع وتحلل وثائق، فهي تتطلب أيضاً الإلمام وربما الغوص في خلجات التجربة ودروبها.

هذا جانب، أما الجانب الآخر، فثمة مسيرة لا يجوز أن تنطفئ في تلافيف الذاكرة، سيما أنبعض أبرز أركانها يرحلون عن الحياة أو عن الممارسة السياسية، الواحد تلو الآخر، بما يشبه كلمات الشاعر أحمد شوقي

غاب الرفاق كأن لم يكن ... بهم لك عهد ولم تصحبِ
إلى أن فنوا ثلة ثلة ... فناء السراب على السيسبِ

وهذا يستدعي نوعاً من التوثيق للمسيرة، وعلى الأقل أهم معالمها ومواقفها وقراراتها... ولأن المسيرة من لحم ودم وأحلام وتضحيات فالرسالة تتطرق إليها كأداة جمعية وما أمكن من إضاءات على مناشطات محلية أو نشطاء أفراد كان لهم تمايزهم، ولكن بالانضباط، دائما، لإشكالية الرسالة وأسئلتها ومحورها فلا يجري تفريغ الجوهري أو جوهرة الفرعي.

حزيران ٦٧ – أوسلو ٩٣ في الأرض المحتلة لماذا؟

ذلك أن الجبهة الشعبية، كمحصلة عامة، مرت بمرحلتين، مرحلة البناء والتركيم ومرحلة الأزمة والإخفاق، مرحلة قادتها السرية دون اهمال الجوانب العلنية، ومرحلة طغت عليها العلنية وتهمشت فيها السرية... ومرحلة البناء السري هي ميدان البحث بما انطوت عليه من قوانين وأشكال عمل وتوجهات وممارسات.

والرسالة تعّرج على عدد من المفردات والاخلالات التي استبقت أوسلو، ممهدة، بعد أن سيطرت، لمرحلة التفكك والأزمات. فبعض عناصر المرحلة الثانية إنما تمتد جذورها في المرحلة الأولى، وحسب لغة هيجل – ماركس إن أ = أ + ب، غير أن سمات أ كانت قيادية في المرحلة الأولى وسمات ب ثانوية، أما وقد نمت صفات ب وأصبحت قيادية فقد انتقلت الجبهة للمرحلة الثانية أي ج، وهذه ج إنما تتكون من مركبات متناقضة أيضاً. ولا تعرف أية ظاهرة سيسيولوجية أو التاريخ عموماً قطعاً كلياً للسياق. وكأن الكيفية الجديدة نقيض مطلق للكيفية السابقة أو أنها تولد من العدم، وإنما ثمة تواشج وتواصل من جهة وولادة الجديد من جهة أخرى. فما يتبدل هو جوهر الكيفية، أي سماتها المركزية التي تحدد طبيعتها، أي أن السمات الجديدة تغدو قيادية وتنظم الكيفية الجديدة في سياق متناسل مكون من سلسلة حلقات. ولكن لا تبدأ حركة من لا شيء كما لا تنتهي إلى لا شيء، إنما تتبدل قوة عناصرها ويلد الجديد منها، وهذا ما تبرهن الرسالة عليه بما يتفق في أبعاد معينة مع مقولة إدوارد سعيد (الثقافات متمازجة كثيراً والمراحل متداخلة كثيراً). ومرة أخرى فإن المحور المركزي في الأطروحة هو البنية التنظيمية السرية.

أما لماذا التوقف زمنياً عند أوسلو؟

لأن اتفاق أوسلو نقل القضية الوطنية الفلسطينية من مرحلة إلى مرحلة أخرى وهذا ما تأتي عليه الرسالة لاحقاً. شهدت فيها الجبهة تحولات انعطافية جدية حيث تأزمت في هذه المرحلة وانكمشت وطغى عليها العلانية والمكتبية والضعف، ولم تعد حالة صالحة للبحث الذي يتناول ويتمحور على التنظيم السري.

وما أصبحت عليه الجبهة يتطلب دراسة منفصلة لا أجد نفسي ملائماً لها، ذلك أن ما أصبحت عليه تزامن مع سنوات اعتقالي الإداري الخمس...

وعليه، ثمة أساس لتغطية الفترة الزمنية من حزيران ٦٧ إلى أوسلو ٩٣ كمحور للرسالة وموضوع تعمُّلها.

ولكن لماذا انحصرت الرسالة بـ (الجبهة في الأرض المحتلة) فذلك مرده:

أنها تجربة قائمة بذاتها وإن ارتبطت صيرورة الجبهة في الوطن المحتل بصيرورة الجبهة بشكل عام، ارتباط الجزء بالكل، غير أن لهذا الجزء ميكانيزماته وسماته ومساره وخبراته ومعاركه... ولكن المتصلة بالجبهة والمسيرة الوطنية في آن. الأمر الذي يستوجب الوقوف على هذا الجزء، وأي ذكر لما هو أوسع إنما يأتي في السياق وما يخدم ويؤثر على الجزء وحسب. أي أن الأضواء تتركز على الجزء ولكن دون تجاهل الكل. وفي اللغة الحزبية تكونت الجبهة من خمسة فروع هي الأرض المحتلة – الأردن – لبنان – سوريا – الساحة الدولية، ومع تنامي حجم ودور الداخل باتت جناحين: جناح الداخل وجناح الخارج، وفي زمن الجيشان الانتفاضي ٨٨ – ١٩٩٢ أصبح الوطن المحتل الساحة الأساسية ورجحت كفة جناح الداخل الذي بات أكثر من نصف قوام الجبهة. وأيضاً لقد قصدت الرسالة ألا تعرض لبنية منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها وفصائلها، رغم أنها الشجرة، لنفس السبب، ما عدا سياقها السياسي ومعاركها بما شكل أرضية موضوعية لعمل الجبهة والنضال الوطني عموماً في الأرض المحتلة.

ولا مندوحة من تكرار القول إن الرسالة وإن احتوت على ملامح تأريخية، غير أنها لن تكون وثيقة تاريخية صارمة، ذلك أنها ستشمل ابعاداً متنوعة تتناسب مع أهدافها وإشكالياتها وأسئلتها.

ربما صحيح القول، أن التاريخ كسارة تضم أحجاراً متنوعة يصطفي الباحث ما يشاء من هذه الحجارة، بما يجعل الروايات متعددة بل متباينة في كثير من الأحيان، ولكن الرسالة تفادت هذا الفخ بالانشداد لما هو أساسي وبشكل قاسماً مشتركاً على نطاق واسع مشفوعة أحيانا بمسحة تحليلية ونقدية ومقابلات عديدة أفسحت المجال لأصحابها التحدث باسم تجاربهم.

وأكثر من ذلك، ليس ثمة انتصارات مطلقة الصحة ذلك أنها تنطوي على أخطاء ونواقص أيضاً، والعكس صحيح. وهذا سنلحظه في مرحلة العصف الثوري والتركيم التي هيمنت على معظم مسيرة الجبهة، وكيف تضخمت نواقصها وما توالد من سلبيات جديدة تحولت لمعول هدم في مرحلة الأزمة والإخفاق.

الحلقة المركزية وأسئلة الرسالة

امعانا في التوضيح.

لئن كان من الطبيعي أن يفرد هذا النص مساحة للخطاب السياسي - الفكري للجبهة والتعرض المكثف لمجريات المسيرة الفلسطينية وتواشجها مع العمق العربي، إضافة لاستحضار تجارب ثورية أخرى في العمل السري، غير أن المساحة الواسعة ستعطى للمفردتين الأساسيتين (التنظيم/ السري) فهما المحرك والدينمو الموجه، وكل شيء إنما يدخل من بوابتهما، وبما يساعد على كشف سماتهما، وأيديولوجيتهما، وهنا تكمن الإضافة الجديدة.

يمكن الزعم أن أحد أبرز عيوب التنظيم السياسي الفلسطيني، وعلى الأقل اليسار القومي، واليمين الوطني، ذلك أن الاتجاه الشيوعي كان ولم ينفك محدود الوجود والدور، سيما في مرحلة أوسلو أن تولى قيادة هذه الفصائل شخصيات هي أقرب للزعامة السياسية منها للقيادة، فغاب المنظمون من طراز رفيع، والقيادات القادرة على التخطيط الإستراتيجي وبناء أدوات النضال وحمايتها والتماهي بجماع الشخصية في المشروع الثوري، سواء لأسباب تتعلق بالاعتقال أو التصفية أو الشيخوخة، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر.

ورغم ما تشهده الساحة الفلسطينية من تجاذبات وتقاطبات وصلت حد الصراع العنيف، لم ينهض اتجاه وطني - يساري له وزن قادر على لجم نزيف الدم وبث الكراهية والعدائية التي يسهل معها الضغط على الزناد، له ما يكفي من حضور للحفاظ على وحدة الشعب الذي تنخره دينامية تفكيكية متواترة أو على الأقل أن يكون جسر توسط يساعد على الوصول لقواسم مشتركة بين الاتجاهين المتباعدين سياسياً والمتنازعين على السلطة في الضفة وغزة، علماً أن هذه السلطة دون سيادة والاحتلال يستبيح فلسطين شعباً وأرضاً وكرامة... ولا يخفي سياسته الهجومية: جدار، أغوار، استيطان استعماري، تهويد فعلي للقدس، اغتيال ممأسس، تمزيق الجسم الفلسطيني... ومؤخراً العدوان الواسع على قطاع غزة بغية استئصال المقاومة والتمهيد لترتيبات تسووية، وربما أن الخلل القيادي المشار إليه أعلاه هو السبب الأكثر أهمية، إضافة لأسباب عديدة.

وتأسيسا عليه، فعلاوة على تمحيص الجسم التنظيمي، يتطرق النص لفعل هذا الجسم ميدانياً، سياسياً، ثقافياً، وجماهيرياً... ودون ذلك يتحول الجسم إلى عملية تكنيكية مجردة، وهذا

فصل تعسفي يرقى إلى مستوى الخلل المنهجي علاوة على أنه يناقض العمل السياسي. فالسياسة في نهاية الأمر هي صراعات ومساومات وتسويات، وتبعاً للينين (هي الصراع القومي والطبقي) ولعالم الاجتماع الأمريكي هالويل (هي النزاعات والتسويات)، وهذا كله لا يتم دون جسم قوي يصارع ويفعل ويعبئ ويعقد مساومات وتسويات، ودون هذا الدور الاشتباكي في سبيل أهداف سياسية أو نقابية أو ديموقراطية إنما يتحول «الجسم» لمركز تبشيري أو دعاوي يغيب عن ساحة الفعل السياسي أو يستقيل من السياسة. ولما كانت زاوية النظر والمحور المركزي هو التنظيم السري، فمن البدهي أن يحضر الشرط الأساسي للتنظيم السري، أي القيادة السرية الكفؤة المحجوبة عن الأعداء والقادرة فعلاً على حماية نفسها، وأن تحضر الفلسفة الأمنية والضربات ومواجهتها كركن ركين في الرسالة، بل تلاحظ الرسالة أنه لولا الفلسفة الأمنية وإجراءاتها ونجاحاتها لما أمكن حماية الجسم التنظيمي كعمود فقري وجذع شجرة بما له من فروع ومناشطات بل إن كثيراً من الضربات الاعتقالية حطمت الفروع وأعادت الأمور للبدايات.

وعليه، فالسؤال العام للأطروحة هو: هل العامل الذاتي أم العامل الموضوعي هو الذي أفضى إلى انبثاق الجبهة الشعبية وتطورها وصولاً إلى انحسارها وتحللها، أم تراه تشابك الذاتي والموضوعي وما دور كل منهما في مرحلة المد والتركيم كما في مرحلة الجزر والتهميش؟ ولأن الرواية في غاية التشعب، وتغدلي مسيرة عمل تناهز ربع قرن، من الجائز تمحيص أهم محطاتها وأجزائها ومفرداتها مع تفادي فيض التفاصيل، ما أمكن، وبالتالي الحرث في الحقل لاكتشاف المقاربة التي تجيب عن سؤال وإشكالية الدراسة.

وفي السياق يتبين إذا كانت الجبهة الشعبية جزءاً أصيلاً من حركة التحرر الوطني الفلسطينية والحركة النهضوية العربية وضرورة تاريخية؟ وإن كانت ضرورة تاريخية لمَ أحرزت نجاحات ملموسة وجدية في مرحلة وهزلت وتهمشت في مرحلة أخرى، أم تراها زوبعة في فنجان توهجت وانطفأت وباتت في ذاكرة الأمس كما حال الكثير من الأحزاب السياسية في العالم؟ وأبعد من ذلك لم يعد ثمة فرصة لحركات ثورية في زمن العولمة (الاسم الحركي للأمركة) بلقزيز، ولم يعد ثمة حاجة ليسار أو وطنيين يساريين بعد انهيار النموذج السوفييتي وانتصار الرأسمالية (فرضية فوكوياما) وأمريكا (تفكر وتنتج لكم) بريجينكسي.

أما سؤال الرسالة الأكثر تحديداً كنواة للسؤال العام، فهو: هل القيادة هي العامل الحاسم؟ تماشياً مع منطق جورج حبش مؤسس وأمين عام الجبهة الشعبية (الحزب قيادته أولاً)[١٧]. وجورج حاوي الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني (إن الأخطاء الكبرى ليست أخطاء العناصر القاعدية والكادرات الوسيطة بل أخطاء القيادات)[١٨]. و(يتوقف النجاح أو الإخفاق على هيئة الأركان في القطاع، شأن أي جيش ثوري فالذي يبنيه أو يهزمه هو هيئة الأركان، أولاً وقبل أي شيء آخر/ موهبتها، بصيرتها، كفاءتها، متابعاتها، صلابتها، تعاطيها مع المصاعب، فهم اللحظة المحددة، تكتيكها، تصميمها، مسلكيتها، فهي الطبيب المعالج، دواؤها يعالج أو يقتل المريض)[١٩].

ولئن كان السؤال العام يتناول العامل الذاتي بشكل عام، فالسؤال الأكثر تخصيصاً يتناول الشرط القيادي بشكل أكثر تحديدا. وهذا له مشروعيته اتصالاً بخصائص العمل السياسي الفلسطيني، سيما أن معظم الشعب اقتلع من وطنه وفقد وسيلة إنتاجه الأساسية (الأرض) فانفكت الديموغرافيا عن الجغرافيا، وباتت قوة العمل – في معظمها – تكدح في اقتصادات غير وطنية، فلم يراكم قاعدة اقتصادية تولد طبقات وحركات اجتماعية مستقرة ومبلورة وصولاً إلى مجتمع مدني نشط، فتعاظم دور النشاط السياسي في حماية القضية ووحدة أو ترابط الشعب، الأمر الذي أعطى الأفراد المبادرين دوراً بارزاً. وكلما ترسخت وتطورت البنية الاقتصادية، ترسخت وتطورت البنية المؤسساتية للمجتمع وبات لها قضاياها وآلياتها، بما يقلص من دور الزعامات الفردية، والعكس صحيح أيضاً، وهذا تبرهن عليه الرسالة لاحقاً.

وكأية ظاهرة سيسيولوجية لا يمكن اختزال نشوئها ونموها أو تقلصها واندثارها في عامل واحد، الأمر الذي يتقصاه النص، مثلما يتقصى العامل الأساس في كل مرحلة ومحطة وتوجه، وفي السياق الناظم لمختلف المراحل والمهام في آن بالتقيد بطبيعة الحال بمساحة الدراسة ومحورها المركزي واشكالياتها.

لقد أجاب النص عن سؤال، هو مثابة الدم الذي يتدفق في الشرايين فيغذي الجسم التنظيمي، أي سؤال الحقوق الفلسطينية، السؤال الأيديولوجي الأهم للعملية النضالية بأسرها. فالجبهة أسوة بأية حركة سياسية استندت لمرجعيات فكرية – سياسية، بل ويحظى الصراع بين الرؤية

---

١٧) د. حبش، جورج. رسالة لقيادة الداخل. ١٩٨٨/٦

١٨) حاوي، جورج. نقلا عن عزيز صليبا. العمل السري، ص

١٩) قيادة الجبهة الشعبية في الداخل، رسالة إلى قيادة غزة. آب/ ١٩٨٥

العربية والرؤية الصهيونية لتاريخ فلسطين بأهمية استثنائية. فهو الخلفية الموجهة والمعبئة للخط السياسي والممارسات السياسية، إلى درجة دفعت الدكتور فيصل دراج للقول «دون نظرية للتاريخ ليس ثمة نظرية للسياسة» بما استدعى إلقاء نظرة مختزلة، ولكن مثابرة، على السياق التاريخي لفلسطين. فأول ما يصطدم به النضال الفلسطيني الزعم بأن هذه الأرض توراتيا لليهود، بناء على وعد سماوي (أعطيك ونسلك هذه الأرض من الفرات إلى البحر)، وهي لليهود تاريخيا (مملكة سليمان) (وأرض الميعاد) التي عاد لها اليهود بعد شتات، وإنهم عانوا الأمرّين بعد خروجهم من مصر مؤيدين بإرادة السماء، كما تتحدث أسفار الملوك في التوراة بما لا يعوزها التفاصيل، لإرساء مملكتهم المقدسة التي هدمها الأشوريون ثم الرومان ولكن ليؤسسوا ثانية بوابة الأمل (بيتح تكفا) ١٨٨١ وإسرائيل ١٩٤٨، هذه الرواية يتعبأ بها كل جندي وضابط مخابرات ومواطن إسرائيلي عموماً، إلى درجة أن يتحمس المؤرخ اللاهوتي مالينوفسكي لكتابة ٥٠ مؤلفاً عن «الخروج من مصر»، علما أن هذا السيناريو هو أقرب إلى الأسطورة منه إلى رواية التاريخ كما توصل إليه علماء الآثار الأجانب قبل العرب فـ «الأبحاث والتقنيات الأثرية الحديثة تقوض يوما بعد يوم «الرواية الشعبية» عن استعباد الإسرائيليين في مصر وخروجهم من سيناء وغزو فلسطين من الشرق وتحطيم أسوار أريحا وإنشاء مملكة مزدهرة واضمحلالها» وهذا يصل إليه الباحثان البريطانيان ن. روبرت ول. تشابمان في مؤلفهما (الآثار والتوراة) بالقول (ليس ثمة اثبات على دخول الآباء الأوائل إلى فلسطين ولا الخروج من مصر ولا غزو فلسطين من قبل الإسرائيليين ولا قيام مملكة إسرائيلية)، وكذا عالمة الآثار كاثلين كينون في (التوراة والمكتشفات الأثرية الحديثة) بأن الادعاء المبني على اكتشاف اسوار أريحا في فترة يشوع ثبت بطلانه تماما... وأن لا دليل على الدخول الإسرائيلي لفلسطين، ولا اثر لأي نوع من الثقافة الإسرائيلية أو اصطبلات سليمان في مجيدو، فهي لا تعدو كونها أخباراً مختلقة)، وما قاله الباحث من جامعة كوبنهاجن نيلز ليمش في تقريره (القدس ومملكة سليمان) في ندوة روما ٢٠٠٣ (إن المعطيات الأثرية أثبتت الآن نهائيا أن مملكتي داوود وسليمان لم توجدا أبداً)[٢٠]. وهذا ما يذهب إليه الدكتور سيد القمني بالقول إن (أهم مكونات التوراة مجرد مبالغات مغرقة في الأسطورة... وليس ثمة دليل مباشر على تلكم الأحداث في الآثار المصرية أو مدونات البردى أو وثائق بلاد النهرين أو فلسطين)[٢١].

ماذا تقول الرواية الأخرى، رواية التاريخ، وهل تتناقض مع الأسطورة ورواية الأسطورة؟ وإلى

---

٢٠) الأسعد، محمد بحث المشكلة التوراتية. مجلة كنعان العدد ١٣٦. ٢٠٠٩. ص١٥٢،٣٧

٢١) د. القمني، سيد. إسرائيل. التوراة التاريخ ١٩٩٨. ص ١٦٦،١٦٥

أي درجة صحيحة كلمات عشرات المثقفين والأكاديميين الفلسطينيين في نداء من الأعماق جاء فيه (جاء استعمار فلسطين بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي بين مشرق الوطن العربي ومغربه ولقربها من الممر الرئيسي – قناة السويس – إلى مستعمرات أوروبا في جنوب شرق أسيا ولظهور بوادر اكتشاف الثروة النفطية في المشرق العربي، آنذاك، قررت تلك الدول اقتطاع وطننا وتحويله إلى قاعدة لها شكل استعمار استيطاني احلالي)[٢٢]. ونفس الورقة اقتبست عن سكرتير سابق للحلف الأطلسي (جوزيف لانز) أن إسرائيل كانت الجندي المرتزق الأقل كلفة في العصر الحديث بما يكشف ليس عن صريتها في إنكار الحقوق الفلسطينية بل كولونياليتها ووظيفتها الامبريالية أيضا.

هذا مفصل هام في الفكر السياسي للجبهة الشعبية أسوة بالتطهير العرقي وإحداثيات النكبة عام ١٩٤٨ وصولاً إلى حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم الأصلية وأملاكهم. فما حصل عام ١٩٤٨ موصولا بحق العودة والطابع الكولونيالي العنصري لإسرائيل كجسم غريب، عاملان مقرران في الفكر السياسي للجبهة الشعبية، تؤسس عليهما رؤيتها الإستراتيجية وتحالفاتها وافتراقاتها، بما أوجب على الرسالة تبيان ذلك بجلاء لا لبس فيه، من خلال عرض السياق التاريخي للقضية الفلسطينية، بل هذا هو المضمون الجوهري في برنامجها السياسي.

مصاعب الدراسة

رغم أن عنوان الرسالة في غاية الغنى (في التنظيم السري – الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حزيران ٦٧ – أوسلو ٩٣ في الوطن المحتل نموذجاً) يمكن التعمُّل فيه وكتابة أكثر من رسالة دكتوراة، غير أن ثمة مصاعب رئيسة انتصبت في الطريق خليق ذكرها.

١) طابع الموضوع، فهو من السرية بمكان بحيث يشكل الوصول لوثائقه وإجراء مقابلات مع رموزه ودفعهم للبوح ببعض ما في جعبتهم أمراً لا يخلو من تعقيدات وجهد. بل إن الكثير من الصفحات يجري التكتم عليها، أو يتاح إفشاؤها بلغة رمزية وتكثيف شديد، اتصالا باعتبارات الأمن، كما أشار غير مرجع في السجون وخارجها وقد تم التقيد بهذه الرمزية على قاعدة أكبر فائدة «لنا» وأقل ضرر «علينا» تماشياً مع منظور لينين للمسألة حينما نشر كتاب «خطوة للأمام، خطوتان للوراء» عن مؤتمر حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا الملاحق من قِبَل القيصرية وقتذاك.

ولولا بعض الوثائق والمقابلات لتضاعفت هذه العقبة. ومن جانب آخر توجب المزيد من التدقيق في

---

٢٢) نداء من الأعماق، ورقة فلسطينية، أيلول/٢٠٠٨، ص٣٠

المكتوب والمحكي كما بعض المقارنات حفاظاً على الأمانة والموضوعية فلا يحل التخيل محل الواقع.

وشكّل التواضع الثوري من ناحية أخرى سداً حاجباً، فرجال ونساء العمل السري يميلون للعمل كجنود مجهولين، وهم في طباعهم أبعد ما يكونون عن التباهي والثرثرة والمشهدية التلفزيونية. ناهيكم عن أن بعض المفاصل، قد باتوا في ذمة التاريخ، الشيء الذي ترك لآخرين، على تماس بهم، التحدث باسم تجاربهم، بتلخيص شديد سواء ارتبط ذلك بحدود معرفتهم أو كان التزاماً أخلاقياً كيلا يفتئتوا على الحقيقة.

٢) شح الكتابات التي خاضت في هذا الحقل محلياً وعالمياً، بل يمكن القول بحزم أن ليس ثمة مؤلف واحد ذو اختصاص، وما اقتنصته من عشرات الكتب والنشريات هو مجرد شظايا وأنصاف جمل بما أجبرني على عدم الإسهاب في مراجعة أو الاسترشاد بتجارب أخرى ونماذجها التطبيقية سواء عربياً أو عالمياً، وبالتالي إفراد الحيز

الأساسي، كما نوّه مقترح الرسالة، لتجربة الجبهة الشعبية، كما لو كانت الأطروحة إضافة نوعية وتأسيسية في هذا الحقل، وهذا لا بأس به أكاديمياً، بل لربما يتحول إلى ميزة.

٣) تعقيدات المقطع، فهو ربع قرن، بما فرض النبش في بطون التاريخ، فالكثير من المفردات والقرارات والمراسلات باتت في عداد الأمس، توالد عنها أو توالد بعدها الجديد، وهذا الأمس مضى منذ عقدين أو ثلاثة أو أربعة، ويشكل التاريخ دائماً مادة خصبة ومبهمة في آن، علاوة على تعدد الروايات في استنطاقه واستدعائه. بما اضطر النص بعد انجاز الجهد البحثي الأولي إلى اصطفاء المعطيات المتفق عليها "ونبذ" "المعلومات" الملتبسة أو المتشنجة دون المساس بتعدد الاجتهادات ذات الطابع النظري. فما جرى استبعاده هو "المعطيات" الملتبسة لا الآراء المتعددة.

٤) ما أصاب الساحة الفلسطينية من وهن وتفكك، وأحد مكوناتها الجبهة الشعبية، ولكن بحدة أكبر، فقد انتقلت من فصيل ثانٍ بحجم يصل ٢٣ -٢٥٪ من الخارطة السياسية بقيادة كفؤة كرزماتية إلى مجرد ٤ — ٥٪ يغلب عليها التراخي وفقدان الدافعية وقصور الدينامية. فلعل رسالة من هذا القبيل تفيد الجبهة والعمل الوطني بمجمله، بل إن هذه المسألة تزداد إلحاحاً وتطلباً. وربما أن كلمة نابليون صحيحة (الهزيمة يتيمة والنصر له مئة أب) فما هي عوامل النصر وما هي عوامل الهزيمة والفشل في الموضوع المعينّ.

والرسالة تؤشر بين سطورها فيما تؤشر إلى سبل الخروج من الدائرة الحالية، استناداً إلى "إننا لا نعترف إلا بالتاريخ وعلم التاريخ" بما يحويه من أحداث ودروس.

تمت الدراسة في ظروف سياسية – أمنية مجافية، حيث الأرض المحتلة مقطعة الأوصال، ٥٠٠ حاجز احتلالي في الضفة الغربية، وسلخ القدس عنها، وانفصالهما القسري عن قطاع غزة، وهما عن مناطق ٤٨، وهذا كله يعيق الحركة والتنقل وإجراء المقابلات، وذات الشيء يقال عن عدد من رفقاء الأسر الذين يتعين إشراكهم في الجانب التوثيقي فيما زياراتهم شبه مستحيلة والاتصال المباشر بهم بات متعذرا في ضوء القيود الجديدة على الحركة الأسيرة ونظام الزيارة عبر الهاتف.

هذا وسواه جعل تلقي التقارير والشهادات عملية محفوفة بالمخاطر وببعض المجازفة أيضاً.

لم يتم إعداد الأطروحة في ظروف سلسة، ومع ذلك أمكن التغلب على وطأة هذه الظروف بهذا الشكل أو ذاك، ناهيكم عن أن الحصول على أجزاء من الأرشيف المبعثر، بالمفرق، هنا وهناك، لا يخلو من طرافة واستعصاءات، مجرد توصيفها ومزجها ببعض الخيال ينتج فانتازيا أو مادة خاماً لرواية أدبية.

٥) الصعوبة التي يجدر تكرارها، هي العودة إلى لتاريخ لاثبات الحقوق الوطنية بناء على "نظرية" أو فهم تاريخي بما تطلبه من استدعاء الجذور وتتبع سياق مديد يفصل بين التاريخي واللاتاريخي لتاريخ فلسطين، الأمر الذي اقتضى العودة لمراجع عديدة وإن لم ينعكس هذا الجهد إلا شذرات وإضاءات في الأطروحة.

هذا لا يمليه تعليل وجهة نظر الجبهة الشعبية فقط، بل إنه يعود بالفائدة على قراء الأطروحة أيضاً. لقد تم استخلاص مختزلات مبسطة، دون التخويض في التفاصيل، بدءاً بالعهد الكنعاني مروراً بالزمن الإغريقي – الروماني، وصولاً إلى العهد العربي – الإسلامي، فالعثماني، نهاية بالمشروع الصهيوني والتطهير العرقي عام ١٩٤٨ والاحتلال العسكري الغاشم عام ١٩٦٧. وبلا شك أن المقطع الزمني ٤٨ – ١٩٩٣ هو اقل التباسا وأوسع حضورا في الرسالة ذلك أنه البيئة الحية التي زرعت الجبهة الشعبية بذورها فيها، وبشكل اخص بعد عام ١٩٦٧ حيث فعلت وانفعلت.

وختاما، ليس ثمة مصطلحات نظرية لافتة يجدر التعريف بها، فاللغة والمصطلحات والأدوات المفاهيمية، تبدو جلية والسياق يضيء مضامينها ومعانيها. ولنترك للمتن الإثبات والإسهاب،

بل يمكن القول أن الرسالة انحازت لهذا الشكل من الكتابة، أي الإيضاح السريع، دون إقحام، للمصطلحات القليلة التي قد تبدو "مستغلقة". وبالتالي لم تنشأ حاجة لدليل نظري مستقل للمصطلحات والأدوات المفاهيمية.

مكونات الرسالة

١- مفتتح تمهيدي ينطوي على تساؤلات تحفيزية وعناصر مرشدة.

٢- مقدمة تبرز مسوغات الرسالة وأسئلتها ومنهجيتها وتحدياتها.

٣- الفصل الأول: ويتكون من ثلاثة أبواب.

الباب الأول: يتعرض لسياق تاريخي هو ذاكرة الأمس، ويضمر فيما يضمر قراءة الجبهة الشعبية والرد على الرواية الصهيونية، ولكن بشكل استنتاجي أكثر منه سجالياً تفاديا لتسييس التاريخ أو حصره في دوائر ضيقة. والرواية التاريخية محور مفصلي في العملية الصراعية الجارية اليوم، ودون العودة إليها والوقوف عليها ينحرف التفكير ويتيه العمل السياسي ويتعذر فهم الكثير من المقولات الأيديولوجية وما تنطوي عليه من دور تعبوي وما تفضي إليه من سياسات وممارسات، بل إن ثمة تشابهات بين أحوال فلسطين والعرب ما قبل الغزو الفرنجي – الصليبي منذ ثمانية قرون وبين أحوال فلسطين والعرب ما قبل الغزو الصهيوني في القرن العشرين، إضافة إلى تشابهات في سياسة الممالك الصليبية في فلسطين وسياسات الاحتلال الصهيوني؛ والتطهير العرقي الذي تعرض له أهالي فلسطين /٤٨ إنما تعرضوا له إبان الغزو المغولي والحملات الأوروبية الصليبية أيضاً بالتهجير إلى مصر! فلربما لا تخلو من صحة مقولة ماركس (أن التاريخ يعيد نفسه مرة على شكل مأساة ومرة على شكل ملهاة).

الباب الثاني: يتعرض ل:

احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ وولادة ثنائية متناقضة. فمن جهة اقتلاع ثلثي الشعب الفلسطيني من خلال تطهير عرقي منظم. ومن جهة أخرى قيام إسرائيل العنصرية على ثلاثة أرباع فلسطين، بالاستناد إلى وثائق ومعطيات تدحض أكذوبة (لقد غادر الفلسطيني من تلقاء نفسه لأنه لا ينتمي للبلاد).

هذا المنعطف النوعي إنما هو جوهر القضية الفلسطينية، أما الاحتلال التوسعي عام ١٩٦٧

فهو الفرع. وتبعاً لرؤية الجبهة الشعبية لا ينبغي تفريع الجوهر ولا جوهرة الفرع لأن ذلك افتئات على التاريخ والحقوق ولا يفضي إلى إنهاء الصراع ويتماهى كوزموبوليتياً مع اشتراطات العدو.

والباب يتابع أهم التحولات في الخمسينات والستينات وصولاً إلى حزيران ٦٧ كبيئة نشأت فيها بدايات المقاومة الفلسطينية سيما الجبهة الشعبية وحركة فتح.

الباب الثالث: لئن وشى الباب الأول والثاني بالخصوصية الفلسطينية الناجمة عن تعاقب التاريخ الفلسطيني، فهذا الباب إنما يتابع محطات المسيرة الفلسطينية، سيما، مسيرة العمل الفدائي ومنظمة التحرير، حيث شاركت الجبهة في المعمعان ومعاركه ومذابحه، كفاعل ومفعول به، وهذا شكل في النهاية مركز ثقل الثورة والركيزة الأساسية للبندقية لفترة طويلة، وبداهة الشرط الموضوعي السياسي للنضال في الوطن المحتل، ضمن مبدأ ارتباط الجزء بالكل.

الفصل الثاني: بعد المقدمة يفرد الباب الأول فرشاً نظرياً مقتضباً، لعدد من الحركات الثورية عربية وغير عربية، في العمل السري، وتحديداً أهم النقاط التي استرشدت بها الجبهة الشعبية، وبشكل أخص مفاصلها الأكثر حضوراً، سيما الذين قرروا وأنتجوا التعميمات حيث شكلت هذه الإضاءات خلفية في تفكيرهم، انعكست في القرارات والتوجهات والمراسلات والنشريات، الناظمة بدرجة أو بأخرى للتفكير الجماعي والعمل على حد سواء، سيما في المرحلة الحزبية.

أما الباب الثاني، فيتعرض بايجاز للظرف الملموس في الأراضي المحتلة عام ٦٧، الذي شكّل البيئة الموضوعية المباشرة، التي نشطت فيها الجبهة الشعبية.

الباب الثالث الذي استعرض مقولات ومفاهيم يسارية موجّهة، او نحتتها الجبهة الشعبية، وانتقلت بها من «العلم» النظري المجرد إلى المقولات الملموسة الحية، إضافة لآراء الأمين العام جورج حبش، كبوصلة وضابط إيقاع، فالداخل تأثر بقدر هائل بوديع حداد في البدايات وبالحكيم على امتداد المسيرة...

الباب الرابع، التحليل الخاص والمقاربة الخاصة للجبهة في الداخل والمتصلة بالقراءة الطبقية/ السياسية/ الفكرية/ التنظيمية/ الأمنية... وبعض مساحاتها منشورٌ في الملاحق أيضاً.

الفصل الثالث: هذا الفصل إنما يتقصّى السياق العام للجبهة الشعبية في الداخل، محطاتها، ضرباتها، نضالاتها، وانتقالها من العمل الفدائي للعمل الحلقي ومنه للعمل الحزبي، انتهاءً

بمدريد – أوسلو. وأبحاث هذا الفصل تعرض وتنتقل وتعرّف هذا السياق، كما أن طائفة المقابلات المضمرة تضيء «التاريخ» السري وتغني بما يكثّف أبعاداً تحليلية ويعفي الكاتب من بعض التحليل.

وبطبيعة الحال لقد عرّجت هذه النصوص على أهم أسس العمل السري وقواعده، ليس نظرياً فقط، بل استدعاء إشارات من تجارب عملية للتدليل على هذه القواعد، بما يشمل السري ونصف السري، والثقافة والإعلام وجوانب ميدانية...

الفصل الرابع: الذي أفرد حيّزاً للانتفاضة، ومفاعيلها ودور الجبهة فيها وتاكتيكاتها وشعار العصيان، ومسوغات واشتراطات ومعوقات التحول لقوة أولى، وصولاً إلى إسقاطات«مدريد»، وهو يتضمن أيضاً مقتطفات من رسائل حزبية ذات صلة، توطئة للملاحق التي، رغم محدوديتها، إنما تؤشر وتساعد على تظهير مناخات داخلية نابضة بمفردات وزوايا هامة في العمل السري بما يثري الفصلين الثالث والرابع ويعبّد الطريق لـ...

استخلاصات الخاتمة التي تكثّف، وكأنها المرآة المقعرة، الإجابة عن إشكالية الدراسة وحلقتها المركزية، كما الإجابة عن بعض الأسئلة الفرعية، وهي تنطوي فيما تنطوي على جوهر الاستنتاجات والتوصيات.

الفصل الأول

الباب الأول

خلفية تاريخية - اضاءات

إن اكتشاف مئات الوثائق والمخطوطات في أوغاريت - سوريا وتل العمارنة - مصر ووثائق فرعونية كثيرة، تعود لثلاثة أو أربعة آلاف عام، قد هتك أسرار تلك المرحلة المستغلقة، أسوة بآلاف الوثائق الهندوكية التي تحكي فلسفة الشرق الأقصى وأخباره في تلكم الفترة أو قبلئذ.. وتتحدث الآثار المصرية عن هجرات أمورية، كنعانية، آرامية، أشورية، كلدانية، مؤابية، وأدومية من الجزيرة العربية إلى المشرق العربي. وتفصّل الأكاديمية بيان الحوت بالقول (إن أبرز المكتشفات الأثرية بالإضافة إلى نقوش البابليين والآشوريين والمصريين، هي تلك المعروفة بمكتشفات تل العمارنة في صعيد مصر، التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، وهي لوحات مسمارية كتبت باللغة الأكادية وموضوعها مراسلات بين ولاة الأقاليم والحكام إلى فراعنة مصر، ويظهر على بعض اللوحات في الرسائل الواردة من أرض كنعان تفسيرات باللغة الكنعانية... عثر على ٣٦٠ لوحة مسمارية... وكما اكتشف فلاح سوري عام ١٩٢٨ المنطقة الأثرية في رأس شمرا إلى الشمال من اللاذقية التي عرفت باسم مدينة أوغاريت، حيث اكتشف قصراً كبيراً وتماثيل وعظاماً... ومجموعة كبيرة من اللوحات المسمارية معظمها أساطير وملاحم وأناشيد باللغة الكنعانية والفينيقية تعود إلى ١٥٠٠ ق.م وقبلئذ بما هو أقدم من الإسرائيليين بزمن طويل.... تعود المكتشفات الأثرية في تل العمارنة وأوغاريت إلى زمن أقدم مما ورد في التوارة... وهي تعود لعدد من شعوب المنطقة: إلى السومريين والكنعانين والفينيقين والأكادين والبابلين والحثين والآشورين والمصرين، وهي باللغات الأصلية وتعود إلى الزمن الذي جرت فيه الأحداث... ويقدر عدد الوثائق الأصلية القديمة بنصف مليون قطعة تتناول شؤون الحياة المختلفة لتلك المرحلة التاريخية. وفي ضوء هذه المكتشفات عمد فريق من المؤرخين إلى التمييز بين الحقائق التاريخية والأساطير في التوراة وقد تمكنوا من ضبط التواريخ وفقا للتسلسل الزمني.

وبسبب الجفاف في الجزيرة العربية تعرضت فلسطين لموجات من الهجرات. والمكتشفات الأثرية ما بين النهرين في العراق تثبت أن أول الهجرات جرت قبل سبعة آلاف سنة... ووفقا للتقديرات الموثقة فإن الهجرة الأمورية - الكنعانية قد حدثت منذ بداية الألف الثالث ق.م استنادا

إلى اللغة الكنعانية)[٢٣].

يقول مأثورنا الشعبي (أعط القوس باريها) فيلخص المؤرخ الفلسطيني زعيتر (أطلق على فلسطين قديماً أرض كنعان، لأنها كانت وطن العرب الكنعانيين منذ فجر التاريخ)، (حيث نزحت قبائل عربية كنعانية من جزيرة العرب، حوالي ٢٥٠٠ ق.م. واستوطنت فلسطين، ثم رحل فريق منها إلى جبال لبنان وعرفوا بالفينيقيين. فالفينيقيون والكنعانيون شعب واحد. والكنعانيون قبائل من أهمها اليبوسيون الذين سكنوا القدس وجوارها، وباسمهم دعيت البلاد أرض كنعان، ولا غرابة فقد ظلت السيادة لهم من ٢٥٠٠ق.م – ١٠٠٠ ق.م ومن مدنهم أريحا، بيسان، شكيم (نابلس) ومجدو...)[٢٤]. وبنفس الاتجاه كتب الشاعر المرموق أبو سلمى (في بداية الأمر أطلق اسم كنعان على الساحل وغربي فلسطين ثم أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سوريا. أما اسم فلسطين فقد أطلق عليها ق.م بنحو ألف ومئتي سنة نسبة إلى إحدى القبائل التي نزلت شواطئها بين يافا وغزة وبقيت فلسطين مرتبطة بوحدة ديار الشام حتى الحكم العثماني)[٢٥]. وعلى نفس المنوال ينسج الدكتور رشيد (اكتسبت فلسطين الكنعانية العربية اسمها كبقعة جغرافية ارتباطا بالشعب الذي سكنها على مر الأجيال) و(ذكر اسمها لأول مرة في وثيقة مصرية رسمية يعود تاريخها إلى ١٧٥٠ ق.م وقد استمرت بهذا الاسم في العهد الروماني) و(لم تكن فلسطين طوال العصور وحدة إدارية ثابتة المعالم وواضحة الحدود، تماما مثلها مثل سوريا ولبنان، إذ أن كل هذه المناطق إضافة إلى شرقي الأردن عرفت ببلاد الشام)[٢٦].

وإن قال المؤرخ الروماني شيشرون عن أثينا (حيثما تطأ أقدامنا نمشي على التاريخ) فهذا ينسحب على فلسطين أيضاً التي تضم ثناياها مدينة (أريحا التي يناهز عمرها ١٠ آلاف سنة، وبيسان ٧ آلاف سنة، ناهيكم عن الخليل ويبوس (القدس) وشكيم ٦ آلاف سنة، وعكو وأشدود وكريات أربع ويافا ٥ آلاف سنة، وكلها أسماء كنعانية، وعشرات «المدن» الأخرى التي انتشرت على رؤوس التلال بمساحة مئات الدونمات لم تنفك آثارها العمرانية وحفريات صهاريجها وأنفاقها قائمة لهذا اليوم. وفيما يتكلم د. الياس شوفاني في موجز التاريخ السياسي لفلسطين عن ٢٠٠ مدينة كنعانية، يتحدث د. إبراهيم عبد الكريم في «دراسة تحليلية» عن ٢١٧ تجمعاً كنعانياً، بينما

---

٢٣) د. الحوت، بيان نويهض. فلسطين القضية، الشعب، الحضارة، دار الاستقلال، بيروت ص ١٦، ١٧، ١٩، ٢١

٢٤) د. زعيتر، أكرم. القضية الفلسطينية ١٩٥٥، ص١٥، ١٧

٢٥) الكرمي، عبد الكريم. كفاح عرب فلسطين، دار الاسوار، ١٩٨٤، ص٦

٢٦) د. رشيد، فايز. تزوير التاريخ، ١٩٩٧، ص١١، ٤٥، ٤٧

يشير د. محمد غوشة إلى أن القدس هدمت وأعيد تشييدها سبع عشرة مرة تبعاً لعدد الطبقات الأثرية. ولو أردنا الإبحار أبعد في الماضي وبالاستناد إلى غوشة في (القدس اليبوسية) لقلنا: لقد عثر المنقبون على آثار إنسان من العصر الحجري، قصير القامة يعود إلى ١٥٠ ألف سنة في العبيدية، مغارة الطابون، أم قطفة، وعلى آثار الإنسان العاقل، ٤٠ ألف سنة، في مغارة يوسف ومغارة الواد غربي القدس... كما إنسان الجليل وأريحا منذ ٢٥ ألف سنة، بينما عرف إنسان فلسطين تدجين الأبقار منذ ١٢ ألف سنة)[٢٧].

وحسب الدكتور شوفاني تم الكشف عن كهوف ومدافن عمرها عشرات آلاف السنين، بل أدوات حجرية وأسلحة عظمية في جبل الكرمل أيضاً، فضلاً عن أسرجة وأدوات معدنية مدببة عمرها أكثر من ١٠ آلاف سنة في عتليت غربي القدس، وآثار مساكن ومناجل وأدوات صيد وقبور تحتوي أشياء شخصية مخضّبة اعتقاداً بالبعث بعد الموت، كما قطع فخارية ومحاريث ومعادن وقطع نحاسية ووسائل زينة في الألوف التالية ما قبل التاريخ المكتوب منذ ٦ آلاف سنة)[٢٨].

أما فراس السواح في (لغز عشتار) فيقول «لقد ظهرت أول التجارب الزراعية في أريحا جنوباً وتل المريبط شمالاً قبل نحو ١٠ آلاف سنة حيث زرع القمح والشعير وظهر تدجين الماشية وظهرت أريحا كقرية مكتملة منذ ٨٣٥٠ عام ق.م. فشهدت حركة بناء الطين والطوب على شكل قباب وأقامت أول سور من الحجارة في التاريخ». أما الدكتور المزين فيشير إلى (إن الزي الفلسطيني من أقدم الأزياء التراثية في العالم، ويعود لآلاف السنين وقد اتخذت الأثواب أشكالا وألوانا تناسب البيئة. وتعود الوقاية (غطاء الرأس) إلى تسعة آلاف سنة حسب جماجم اكتشفت في أريحا، وهناك رسومات يبدو فيها تطريز الأزياء والأحذية تعود ل ٤٥٠٠ ق.م)[٢٩].

وبلاد كنعان امتدت على طول الساحل الفلسطيني – الفينيقي ومن جنوب سوريا إلى سيناء. وهذا نجده تقريباً في خارطة ولاية فلسطين في العهد الروماني. وبكلمات الدكتور سخنيني (لم يكن اسم فلسطين هو أول ما أطلق على هذه الأرض بل سبقه اسم أرض كنعان الذي أطلق دون تحديد التخوم على الأرض الواقعة بين جنوب سوريا وجنوب المرتفعات اللبنانية وعلى طول الساحل جنوبا إلى ما بعد غزة وامتداداً إلى الشرق بأبعاد متفارقة)[٣٠].

---

٢٧) قطامش، أحمد. التسوية الجارية إدارة أزمة أم حل أزمة. مركز منيف البرغوثي الثقافي. رام الله. ٢٠٠١ ص١٤، ١٥

٢٨) د. شوفاني، الياس. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ١٩٩٦. ص٢٧، ٢٨

٢٩) د. المزين، عبد الرحمن. موسوعة التراث الفلسطيني. الأزياء الشعبية. ص١٢٩

٣٠) د. سخنيني، عصام. فلسطين الدولة. جذور المسألة. دار الأسوار عكا. ١٩٨٦. ص١٨

وبينما طغت اللغة الآرامية تأثراً بالحضارة البابلية حينذاك، إذ كانت تنعت كل الشعوب التي تعيش بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط بالشعوب الأمورية، انتشرت أيضا الكنعانية. وقد تزامن ايمان الكنعانيين بالإله (إيل) في فترة الفرعون المصري اخناتون الذي وحّد عبادة معظم المصريين في اله واحد هو آتون، بينما أشارت المخطوطات الفرعونية إلى بلاد كنعان بأنها أرض اللبن والعسل والتين والعنب والزيتون. وأن المصريين غزوها للتحكم بطرق التجارة إلى الشرق.

وحسب الدكتور غوشة، كان اليبوسيون يقدسون موقع الصخرة التي تعلو مغارة طولها ١٧ متراً وعرضها ١٣ متراً، وقد بنى عليها عبد الملك بن مروان بعد أكثر من ٣ آلاف سنة الصخرة المشرفة، وأسماها الكنعانيون يبوس اورسالم، أي مدينة السلام والنور، وفيها عرف تقديم الأضحية في زمن الكاهن ملكي صادق، المحب للسلام، وهو نفسه الذي استقبل الكلداني إبراهيم وباركه حيث دفع الثاني للأول ١٠٪ كجزية. وقد أحيطت القدس بسور منذ ٤ آلاف سنة)[٣١].

ويمكننا بيسر هنا، استخراج عناصر أولية للهوية، أي جغرافيا تحولت بتدرج إلى وطن يسكنه وجود حضاري، معتقدات، نظم عمل اقتصادية، تراكمت في سيرورة مستمرة عبر القرون، رغم الغزوات الخارجية والانقطاعات، بإتجاه هوية فلسطينية تحمل معها عناصرها ومركباتها وأبعادها العربية المتصلة بالجغرافيا العربية المحيطة وما تحملة من علاقات وتفاعل.

وحسب الوثائق: العبرانيون، العابرون، هم قبائل عربية من البدو الرحل، ينطبق عليهم ما ينطبق على سواهم من هجرات عربية قصدت الانتقال من الصحراء إلى الخضراء، وسواء عبروا الفرات أو عبروا الصحراء، فهم جزء من هجرات. والدكتور المسيري يتعرض لجوهر المسألة بالقول (اتسمت حياة العبرانيين في عصر الآباء ٢٠٠٠ ق.م بالتنقل البدوي من بلد إلى آخر وبالبقاء على حواف المدن وطرق التجارة. وفي هذه المرحلة استوطنت بعض العناصر العبرانية أرض كنعان وفي مصر دون أن تضرب جذورا في أي منهما... ثم فترة الاستقرار النسبي بعد قيام اتحاد القبائل العبرانية في شكل المملكة العبرانية ثم المملكة الشمالية والجنوبية وقد انتهت هذه المرحلة بالتهجير الآشوري ثم التهجير البابلي)[٣٢].

وحسب أرشيف أخناتون تحالف العابرون مع أمراء المدن الكنعانية ضد الحكم المصري مستفدين من الحرب بين الفراعنة والفلسطينيين... وما عشيرة الكلداني من بلدة آور العراقية، إبراهيم

٣١) د. غوشة، محمد. االقدس اليبوسية. ١٩٨٤. ص٦٣

٣٢) د. المسيري، عبد الوهاب. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. دار الشروق الجزء ٢. ص١٣،١٩

الخليل منذ ٣٨٠٠ عام الذي انتقل إلى فلسطين والجزيرة ومصر إلا نموذج على حياة الترحال حينئذٍ... كل ذلك سبق عهد موسى الذي تفصله سبعة قرون عن إبراهيم... وتصف التوراة في سفر الخروج تمرد بني إسرائيل في القرن ١٣ ق.م على اضطهاد الفراعنة وحياة التيه التي استمرت أربعة عقود في سيناء.. ومنها إلى الأردن حيث ارتكبت أول مذبحة ضد قرية عربية تلاها مجزرة أريحا، ليستمر القتال سبعة اعوام في فلسطين التي غدت موزعة إلى مناطق تحت السيطرة الكنعانية وأخرى تحت السيطرة الفلسطينية وثالثة تحت السيطرة الإسرائيلية. وسيناريو التوراة يتضمن الكثير من المعارك والأخبار... بصرف النظر عن الجدل بين رواية التاريخ ورواية الأسطورة...

وفي سفر يشوع جاء (هيئوا أنفسكم لتمتلكوا الأرض التي اعطاها الرب لكم) وسفر التثنية يؤكد (أمر الرب باحتلال الأرض من البحر الأبيض إلى الفرات ومن النقب إلى شمال لبنان) بما ينسجم مع منظورات التوراة (يرفعك الله فوق جميع شعوب الأرض، ويجعلك الشعب المختار... ويقف الأجانب يرعون أغنامكم. انتم بنو إسرائيل تأكلون ثمرة الأمم) واستطراداً جاء في سفر صموئيل (أضرب عماليق... أقتل رجلاً وإمرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً) وهذا القول جاء بعد أن اصطدم اتباع موسى بعد خروجهم من مصر بالعماليق العرب، وهو حسب النص التوراتي أمَر من النبي صموئيل للملك شاؤول الذي نجح جزئيا وأتم مهمته الملك داوود. وترجح الأكاديمية الحوت أن المدينة العملاقة الرئيسة كانت في منطقة بئر السبع، ليلخص التلمود شارح التوراة في جزء «المشناة» بالقول (لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة على الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس. والفرق بين الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وباقي الأمم).

ويضيف د. غوشة (نقلاً عن هنري برستند في (العصور القديمة)، (لا شك أن المدن التي عجز مهاجموها عن افتتاحها نشأت منذ ألف وخمسمائة عام قبل العبرانيين، فيها منازل، صناعة، تجارة ومعرفة بالكتابة ودين.

وعموماً، لقد أقامت وتفاعلت قبائل بني إسرائيل مع النسيج المجتمعي للإقليم. حيث جاء في سفر القضاة (أقام بنو إسرائيل بين الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحوييين واليبوسيين وعبدوا البلعيم وعشتاروت والهة صيدا والفلسطينيين). أما اللغوي أحمد سوسة فكتب في (العرب واليهود) أن العبرية لهجة مشتقة من الآرامية وأن المعتقدات العبرانية تأثرت كثيراً بالعبادات الكنعانية)[٣٣].

---

٣٣) قطامش، مرجع سابق. ص١٨

ويذهب بنفس الاتجاه عالم الآثار في جامعة تل أبيب فلنكشتاين، بالقول (لقد تطور الإسرائيليون القدماء من الحضارة الكنعانية)، وأبعد من ذلك (لا يوجد أي شاهد تاريخي على وجود مملكة من النيل إلى الفرات، فهي مجرد وهم وخيال)[٣٤]. بما يتفق بهذا القدر أو ذاك مع الدكتور كمال الصليبي بأن (الأرض الحقيقية للتوارة في بلاد السراة غربي شبه الجزيرة العربية، من الطائف شمالا حتى مشارف اليمن جنوبا. بالمقارنة بين أسماء الأماكن في التوراة باللغة العبرية القديمة والأسماء العربية المتداولة في المنطقة... أي البحث في الجغرافيا التاريخية للتوراة، حيث لم يثبت وجود معظم الأماكن في فلسطين)[٣٥]. ومثل هذه النظرية تبني عليها الأكاديمية الحوت لتقول: إن صحت فهي تنسف الحقوق الدينية والتاريخية لليهود، مع التأكيد على الدوام أن اليهود كانوا أقلية في فلسطين. مجرد قبيلة ممتدة من بين آلاف القبائل.

أما الفيلسوف اليهودي الفرنسي غوستاف لوبون فكتب (لم يبلغ اليهود الدرجات الدنيا من الحضارة. بقوا، بدوا، رعاة، أفاقين، سفاكين، مندفعين في الخصام والوحشية... اخلاطاً من عصابات جامحة)[٣٦]. فيما أنيس فريحة يلخص مسيرتهم بالقول: لقد مروا بالمراحل التالية:

١- مرحلة البداوة: قبائل رحل في زمن العبرانيين.

٢- استقرارهم في أجزاء من كنعان لمدة ٩٠ عاماً، كيان صغير ما لبث أن انقسم.

٣- هدم الأشوريون مملكتهم الشمالية والكلدانيون مملكتهم الجنوبية وتشتيتهم وسبيهم.

٤- عودتهم بمساعدة الفرس إلى فلسطين واليمن إلى أن دمرهم الروماني طيطس ٧٠ ق.م.

وفيما يستنتج الدكتور فوزي (لقد مر على الأراضي الفلسطينية عبر التاريخ عديد من المحتلين، ولكن عراقة الشعب الفلسطيني وأصالة تراثه صفة راسخة في التاريخ... أما التراث اليهودي فيتسم بالعقم وقد وصفه المؤرخ البريطاني توينبي بالمتحجر...)[٣٧]. ويذهب الدكتور المسيري إلى نفي جوهر يهودي ثابت لخصائص خارج الزمان والمكان، أو أن اليهود عرق خاص له سمات بيولوجية كحجم الجمجمة ولون الجلد أو العيون أو الشعر... فمثل (هذا المنظور يدفع اليهود للتركيز على

---

٣٤) د. فلكشتاين، مقالة نشرتها صحيفة القدس. الانترنت. حزيران/٢٠٠١

٣٥) د. رشيد، فايز. المرجع السابق. ص٢٧،٢٨

٣٦) د. لوبون، غوستاف. تاريخ الحضارات الأولى. ١٩٥٠ ص١١٤

٣٧) د. فوزي، فاروق عمر. الوسيط في تاريخ فلسطين. دار الشروق ١٩٩٩. ص٩

ما جاء في التوراة والتلموذ ولا يظهر العالم الخارجي إلا كهجمات ومذابح ضد اليهود أو متسامح معهم ولا علاقة لليهود بحياة كل البشر وأن اليهود محرك أساسي للأحداث)[٣٨].

في ٣٣٠ ق.م انهارت الإمبراطورية الفارسية تحت ضربات الإغريق اليونانيين الذين اثارتهم محاولة داريوس الفارسي اجتياح بلادهم، وبهزيمة الفرس دمر وحرق الغزاة اليونانيون مدينة غزة التي قاومتهم ببسالة على غرار صور التي صمدت سبعة اشهر، وفي العهد السلوقي قسمت فلسطين إلى ثلاث ولايات (الساحل، الشمال، الجنوب) بما هو أقل من التقسيم الفارسي الذي نظر لفلسطين كولاية تشمل أيضاً جنوب سوريا ولبنان... وسيطرت اللغة اليونانية، فيما استمرت الآرامية كلغة محكية.

أما اليهود في أورسالم فقد رحبوا في البداية بالإغريق سيما التجار والأغنياء منهم واندمجوا في الهيلينية غير أن الفئات الحشمونية والمكابية عارضوا وأصبحت لهم بعض السيطرة لبعض الوقت على مناطق فلسطينية وفرضوا دينهم على الآخرين، الأمر الذي نظر له المؤرخ البريطاني توينبي كأول تعصب ديني في التاريخ. بيد أن الحاكم اليوناني أنطيوخس هزمهم في ١٢٠ ق.م.

ويتحدث الدكتور شوفاني «عن تقارب الأقوام الكنعانية والفلسطينية، على امتداد القرون سائرة نحو تشكيل مجتمع له هياكله التنظيمية المدينية كما القروية والقبائلية المتوافقة مع قاعدته الاقتصادية الزراعية – الرعوية – التجارية وصولاً إلى تراتب طبقي ضم النبلاء والعوائل، الكهنة ورجال الدين، التجار والحرفيين، المزراعين والبدو والعبيد».

وقد تزايد عدد السكان سيما في المدن كمعلم بارز في البلاد الكنعانية. والدكتور سخنيني يصل للاستنتاج التالي (إن التأثير الفلسطيني ظل مستديماً لفترة طويلة... وظل الفلسطينيون أغلبية السكان حتى بعد قيام الممالك العبرية. وإن السيطرة العبرانية لم تكن أكثر من شكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني الذي لم يستطع تغيير البنية السكانية التحتية. فالفلسطينيون ظلوا محتفظين بخصائصهم القومية المميزة. فالديانة اليهودية منغلقة على نفسها بما أبقى المجموعة العبرانية منعزلة عن سائر المجموعات... ومما يؤكد احتفاظ الفلسطينيين بخصائصهم القومية أنه في الفترة التي أعقبت الفتح اليوناني (٣٣٣ ق.م) كانت هذه الخصائص راسخة... أما التأثير الأجنبي فكان يلمس في المدن الساحلية فقط)[٣٩].

---

٣٨) د. المسيري، مرجع سابق. ص١٣، ١٩.

٣٩) د. سخنيني، عصام. المرجع السابق ص٢٢

ن الممالك والدول خصوصاً في اليمن وفي كندة والحيرة وغسان،،، وهناك مكة التي
(٤١)، شكل العرب ما قبل الفتح العربي الإسلامي، أغلبية ملحوظة في فلسطين
جرة من الجزيرة العربية استمرت تباعاً على امتداد القرون، ولم يكن العمالقة
جزء من طوفان قبائلي عرفت منه قبائل تيماء، سبأ، ددن، قيدار، والقين،
على الكنعانيين وبتشكيلاتهم والفلسطينيين، وفي مرحلة سابقة شكلت هجرة
العمونية، الأدومية، وبطون وقضاعة، اندمج كل هؤلاء في تشكيل حضاري
و الحضاري بما تخلله من علاقات تجارية وثقافية ومصاهرة،،، وأن
لص لفلسطين في فترة صعود مملكة الأنباط وعاصمتهم البتراء، فإن
وتأثير إلى تعاظم هجرة الأنباط إلى فلسطين بعد تحطيم البتراء على
اني تراجان في ١٠٦م، (ونتيجة ثقل الوجود العربي والثورة على الرومان
أهل اعترف الإمبراطور الروماني ديوقلتيان ٢٩٥م بزعامة العربي الكندي
ء واسعة من فلسطين وشرقي الأردن وحق القبائل العربية بالتوطن في
ر اعتها، على إثر ذلك شهدت فلسطين سيلاً من الهجرات العربية المتلاحقة
،،،، وغسان، بل تمرد العرب في بلاد الفينيق وفلسطين بقيادة ملكة العرب
ي القرن الرابع للميلاد حيث أصبح العرب أغلبية على أرض فلسطين قبل

ا على الاستمرار، ولم يعد
ـها،

مثلما قضى الغزو الإغريقي على الإمبراطورية الفارسية التي استمرت ثلاثة قرون، وقضى الرومان على الإمبراطورية الإغريقية التي دامت ٢٧٠ سنة وحلوا محلها في أوروبا والشرق. ولأن التشريعات الرومانية جاءت مخالفة للمعتقدات اليهودية تمردت بعض الجماعات اليهودية فاجتاح الحاكم الروماني طيطس «أورشاليم» ودمر الهيكل اليهودي عام ٧٠ ق.م وكرر الحاكم الروماني هدريان الأمر في العام ٢٠٠م. أما الدكتور رشيد فكتب «لقد وشى اليهود بالمسيح للرومان واتهموه بالكفر إلى أن صلب عام سبعة وثلاثين ميلادية، وفي العام ٧٠م هدم هيكلهم طيطس وقتل كهنتهم وفر من تبقى منهم إلى مصر وسوريا، وبعدئذ لم يظهروا في تاريخ فلسطين إلا في القرن العشرين.»

فرض الرومان ضرائب متنوعة على أهالي فلسطين ووزعوها على مقاطعات، وأوكلوا لمتعاون آدومي اعتنق اليهودية (هيرودوس) حكمها فبنى جيشاً قوياً مكنه من هزيمة الأنباط الذين تعود جذورهم للقبائل العدنانية التي تتحدث العربية، وبطشت الإمبراطورية الرومانية في عز قوتها بالتمردات العربية ولم تتسامح مع المسيحية إلا بعد ثلاثة قرون بعدما تنصرت هيلانة وابنها الإمبراطور قسطنطين الذي نظر لفلسطين كأرض مقدسة نشط فيها الزراعة والحياة التجارية وصناعة النسيج والزجاج والعمران بما في ذلك بناء كنيستي المهد والقيامة، والعديد من المسارح...

في أواخر العهد الروماني ٦١٣م. حاول الفرس بقيادة كسرى استعادة أمجادهم بالسيطرة على المشرق العربي ومصر لمدة عقدين، ساعدهم في فلسطين اليهود، غير أن هرقل قائد الروم نظم حملة مضادة دعمه فيها العرب الغساسنة الذين تنصروا فاستعاد ايليا كابيتولينا (القدس) ومنع اليهود من دخولها، ودان له الحكم بالسيطرة القوية على فلسطين وأهلها.

ويشير الدكتور فوزي إلى أن فلسطين وبلاد الشام شهدا أربعة كيانات عربية قبل الإسلام هي:

(الأنباط ثم قضاعة في الجنوب وتدمر في الشمال والغساسنة بينهما... وفي أوج المملكة الأنباطية شملت الأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين... وفي زمن ملكة تدمر زنوبيا شمل نفوذها سوريا وفلسطين وأجزاء من أسيا الصغرى وشمالي الجزيرة العربية)[٤٠]. فيما تشير الأكاديمية الحوت إلى (أن المنطقة المعروفة بالشرق الأوسط اليوم كانت قبل الإسلام ساحة صراع بين المسيحية الرومانية والمجوسية الفارسية، وأن المسيحية انقسمت إلى فرق وطوائف وكذلك المجوسية... وأن الطبيعة الجغرافية قامت بدور بارز في حماية شبه الجزيرة العربية من التبعية...

---

٤٠) د. فوزي، المرجع السابق. ص١٥، ١٦

وكان فيها عدد من الممالك والدول خصوصا في اليمن وفي كندة والحيرة وغسان... وهناك مكة التي تحكمها قريش) (٤١). شكل العرب ما قبل الفتح العربي الإسلامي، أغلبية ملحوظة في فلسطين وشرق الأردن. فالهجرة من الجزيرة العربية استمرت تباعاً على امتداد القرون، ولم يكن العماليق أبناء إسماعيل سوى جزء من طوفان قبائلي عرفت منه قبائل تيماء، سبأ، دون، قينر، بلقين، قيدم، النبت، علاوة على الكنعانيين بتشكيلاتهم والفلسطينين. وفي مرحلة سابقة نشطت هجرة القبائل العربية المؤابية، العمونية، الأدومية، وبطون وقضاعه، اندمج كل هؤلاء في تشكيل حضاري استقر في المدن والأرياف والصحاري بما تخللته من علاقات تجارية وتحالفية ومصاهرة... ولئن كان ثمة حكم عربي خالص لفلسطين في فترة صعود مملكة الأنباط وعاصمتهم البتراء، فإن الأكاديمي خليل عثامنة يشير إلى تعاظم هجرة الأنباط إلى فلسطين بعد تحطيم البتراء على أيدي الإمبراطور الروماني تراجان في ١٠٦م.(ونتيجة ثقل الوجود العربي والثورة على الرومان والغارات على طرق القوافل اعترف الإمبراطور الروماني ديوقلتيان ٢٩٥م بزعامة العربي الكندي امرئ القيس على أجزاء واسعة من فلسطين وشرقي الأردن وحق القبائل العربية بالتوطن في فلسطين وبلاد الشام وزراعتها. على إثر ذلك شهدت فلسطين سيلاً من الهجرات العربية المتعاقبة سيما قبائل سليح، لخم،... وغسان، بل تمرد العرب في بلاد الفينيق وفلسطين بقيادة ملكة العرب ماوية في الربع الأخير من القرن الرابع للميلاد حيث أصبح العرب أغلبية على أرض فلسطين قبل الإسلام وبعده) [٤٢].

وبعد ستة قرون متتالية استنفدت الإمبراطورية الرومانية قدرتها على الاستمرار، ولم يعد لديها مقومات الاستدامة، كما أن صراعاتها الداخلية وحروبها الطاحنة مع الفرس قد استنزفتها، بما مهد لقوات الفتح العربي الإسلامي بمزاياها القتالية والعقائدية للانتصار عليها.

ويستخلص الدكتور حسين مروة في (النزعات المادية) «أن جيشاً منبته رعوي وقبلي انتصر على جيوش تنتمي لحضارة زراعية».

وببعض المجازفة يمكن القول إن نزعات قومية قد تشكلت في الجزيرة وبلاد الشام، بما يؤكده قتال قبائل كندة وجفنا والملكة ماوية ومملكة تدمر الرومان... وتاريخياً تستبق النزعة القومية الدولة القومية.

---

٤١) د. الحوت، بيان. المرجع السابق. ص٧٣،٧٤

٤٢) د. عثامنة، خليل. خمسة قرون من الفتح الإسلامي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ٢٠٠٠ ص٦

وراحت الدعوة الإسلامية تزرع جذورها في تربة تطاحنت فيها المسيحية واليهودية ومعتقدات محلية ناهيكم عن تأثيرات الغزوات الخارجية، تزامن ذلك مع تحولات في الواقع الاجتماعي حيث تنامى مجتمع المدينة والتجارة في الجزيرة. في هذا الوقت ولدت الدعوة الإسلامية التي دعت للتآلف بين القبائل وأفاضت في دعوتها التوحيدية والحياة الآخرة في الآيات المكية وأسهبت في تنظيم الحياة في الآيات المدينية جنباً إلى جنب مع نجاحاتها السياسية وتحول الإسلام لدين دولة امتدت على نطاق واسع في زمن الخليفة العادل عمر بن الخطاب.

فتح فلسطين: نزل العرب المسلمون إليها ليصطدموا بمائة ألف مقاتل من الروم، فاستشار عمرو بن العاص رجاله... وبعد مناوشات أرسل الخليفة أبو بكر إلى خالد بن الوليد في العراق يستدعيه لقيادة الجيش... اتفق خالد مع أبي عبيدة بن الجراح على التوجه نحو المعركة الكبرى في أجنادين، وكتب لشرحبيل بن حسنة في بصرى ومعاذ بن جبل في حوران ويزيد بن أبي سفيان في البلقاء والنعمان بن المغيرة في تدمر وعمرو بن العاص في فلسطين يطلب منهم جميعا التوجه نحو أجنادين.

بدأ الفتح العربي الإسلامي في معركة أجنادين المجاورة للخليل في تموز ٦٣٦م حيث التقى الجيشان العربي الإسلامي وحشود الروم (وذو دلالة تلخيص ما كتبه المؤرخ الواقدي بعد اقل من قرنين عن حوار بين خالد والرسول الروماني (هل أنت أمير القوم؟ أجاب خالد: مادمت على طاعة الله ورسوله. ملكي وردان أشفق عليكم وقد بعثني ليعطي كل واحد منكم دينارا وثوبا وعمامة ولك أنت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل بجيشك. فجيشنا بعدد الذر... والفرس دخلوا بلادنا وعادوا خائبين. رد خالد: لن نرجع إلا بإحدى ثلاث خصال: تدخلون ديننا أو تؤدون الجزية أو القتال وإن شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم في ملكنا وبأيدينا) [٤٣]. لقد (استخف الروم بالخصم والعرب المسلمون كانوا واثقين بإيمانهم وبتحقيق النصر... لم تخلُ المعركة من روح المنازلة... كان القتال عنيفاً وانتهت في ٣٠/تموز... وكانت الغنائم لا تحصى وقد رفض خالد بن الوليد توزيعها حتى يتم فتح دمشق. كانت المعركة الكبرى لكنها لم تكن الأخيرة) [٤٤].

بعد معركة أجنادين لمع اسم خالد بن الوليد الذي انتصر أيضاً في معركة اليرموك و«انصرفت الجيوش العربية لاتمام فتح فلسطين وسوريا... ثم فتح معاوية عسقلان وقيسارية» عاصمة

---

٤٣) الواقدي، أبو عبد الله محمد. فتوح الشام. الجزء الأول. ص٨

٤٤) د. الحوت، بيان. المرجع السابق. ص٨٨

البيزنطيين التي حاصرها سبعة أعوام وتم فتح فلسطين كلها، ومنذ ذلك الحين طبعت فلسطين بالطابع العربي)[٤٥]. وتشير الأكاديمية بيان الحوت إلى أن قيسارية لم تكن أهم المدن الساحلية والعاصمة السياسية والحصن الأخير للروم، بل بسقوطها سقطت أحلام الروم نهائياً بحكم سوريا، ومن هنا قال ملك الروم كلمته (عليك السلام يا سوريا، سلاماً لا اجتماع بعده).

أما القدس فدام الحصار المفروض عليها أربعة أشهر، إلى أن استسلمت دون قتال، للخليفة عمر، الذي خيرّ أهل فلسطين بين حرية العبادة ودفع الجزية أو دخول الإسلام ودفع الزكاة، ومشهورة العهدة العمرية في القدس.

دام القتال في فلسطين سبعة أعوام توج بفرار الحاكم الروماني ابن هرقل وتعيين عمرو بن العاص والياً عليها، كانت أغلبية جند المسلمين من اليمن في حين كان القيسية من نجد والحجاز ثلث الجند. وبفتح فلسطين غدت حركة الهجرة إليها أكثر سهولة سيما القبائل القيسية (بني كنانة، بني سليم، بني مرة، تميم، فزارة، ثقيف، غفار، جهينة...) والقبائل اليمنية (بني جذام، لخم، عاملة، كلب، كندة، الأزد، غسان، سليح، همدان، الأشعر...).

وبعض هذه القبائل امتدت للأردن والشام والعراق.

ويشير د. عثامنة إلى أن صلح طبريا الذي تم بموجبه اقتسام المنازل مناصفة بين العرب الفاتحين والأهالي المقيمين قد عمم على المدن الأخرى، سيما أن الكثير من هذه المنازل قد هجرها الرومان وسواهم. وحسب رسالة هرقل كان في فلسطين ٣٠ مدينة، يقطن في القدس وحدها ٨٠ ألفاً وفي المدن الأخرى بين ٤٠ – ٥٠ ألفا. وتشير الأكاديمية الحوت نقلا عن المؤرخ مصطفى الدباغ إلى أن الخليفة عثمان بن عفان قد شجع هجرة القبائل العربية وسكنها في أرجاء الإمبراطورية. وأن الهجرة من الجزيرة لم تتوقف يوماً لكنها اشتدت سيما في عهد هشام بن عبد الملك. فقد شجع الأمويون سكان الجزيرة على السكن في السواحل باقطاعهم الأراضي وكان الهدف تعريب المدن اليونانية.

انتعشت الأسواق والحوانيت في العهد الإسلامي كما أقيمت أحياء وقصور جديدة وجرى ترميم ميناء عكا، يافا، وميناء قيسارية النشط. أما في زمن الأمويين فقد نشطت الزراعة وأقيمت قرى جديدة، وقد اقطع معاوية القادة والجند أطياناً من أراضي الغرباء (بيزنطيين، يوناناً، بلغاراً)

---

٤٥) د. زعيتر، المرجع السابق، ص٢٥، ٢٦

بعد أن هزمتهم قواته في الرملة، اللد، طبريا، بيسان، ليهاجموا ثانية فلسطين بعد عقود ويدمروا عسقلان، عكا، قيسارية، التي أعاد عبد الملك بن مروان وأبناؤه الأربعة تحريرها.

(انتشرت اللغة العربية وأصبحت وسيلة التخاطب والتواصل فيما انحسرت وانطفأت اللغات الأخرى. وفي عهد عبد الملك بن مروان جرى تعريب الدواوين فحلت العربية محل القبطية في مصر واليونانية في بلاد الشام والفارسية في بلاد فارس، كما بنيت الصخرة، وفي عهد ابنه الوليد بني المسجد الأقصى)[٤٦].

استمر الحكم الأموي نحو ٩٠ عاماً إلى أن انتصر العباسيون، فانتقل مركز ثقل العاصمة من دمشق إلى العاصمة الجديدة الكوفة ومنها لبغداد دون أن تتغير سياسة تعريب المدن والأمصار.

وفي هذه الحقبة وما تلاها من أحقاب، رغم الانقسامات والدويلات والخلافات، لم تتوقف عملية انتشار اللغة العربية وبناء مجتمعٍ عربي الانتماء والحضارة والثقافة، وإن قويت أحياناً وضعفت أحياناً أخرى.

وفلسطين بالذات، كانت أسرع من سائر الامصار في الانتقال من العهد البيزنطي إلى العهد العربي، أي في تقبل الإسلام والتعريب على حد سواء، وذلك (لكثرة القبائل التي هاجرت إليها قبل الإسلام ثم استمرت بعد الإسلام، وأيضاً للاهتمام الخاص الذي أولاها إياه العديد من الخلفاء نظراً إلى أهميتها وأهمية بيت المقدس)[٤٧].

وحري الإشارة إلى أن أغلبية أهالي فلسطين قد اعتنقوا الإسلام بعد ثلاثة قرون، أما المسيحيون فغدوا أقلية يدفعون الجزية، وهذا تقليد قديم مارسته الدولة البيزنطية والساسانية لمن لا يؤدون الخدمة العسكرية. إذ لم تكن المواطنة المتساوية معروفة آنذاك.

أما اليهود فكانوا متحمسين للفتح العربي ورأوا فيه مخلصاً من الرومان (عثامنة) وهم الذين منعتهم السلطات البيزنطية من الإقامة في القدس. واستناداً إلى المؤرخ جيمس باركس كتبت الأكاديمية الحوت (رحب اليهود بالعهد الإسلامي كثيرا وكان ذلك متوقعا بسبب الاضطهاد الذي لاقوه في العهد الروماني، وارتفعت منزلة الفكر الديني في العهدين الأموي والعباسي فكانت النتيجة استكمال التلمود والعمل على لغة التوراة... أما سولومون غرايزل فكتب في «تاريخ اليهود»

٤٦) د. الحوت، مرجع سابق. ص٩٩

٤٧) د. الحوت، مرجع سابق. ص١٠١

إننا مدينون ليهود فلسطين... فقد أعطاهم مجيء المحمديين دفعة جديدة من الحياة)[٤٨].

وبالنظر إلى محدودية عددهم في فلسطين لا توجد اتفاقية صلح معهم حيث عاملهم الرومان، كأفراد يتبعون رعية الزعيم المسيحي المحلي. وقد طردهم العرب المسلمون من القدس في البداية غير أنهم سمحوا لهم بعد أربعة قرون ببناء كنيس على جبل الزيتون ونقل مجمعهم الديني السنهدرين من طبريا إلى القدس، وأصبح بعض رموزهم في حاشية الخلفاء الفاطميين. وفي القرن ١١ ميلادي راحت أعداد منهم تهاجر إلى العراق ومصر على أثر الحرب الطاحنة بين القرامطة والطائيين.

«والسامريون اليهود عادوا من سبي بابل إلى نابلس، وهم موجودون لهذا اليوم اعتقاداً منهم أن جبل جرزيم وليس القدس، هو المكان الذي خصصه الرب لبناء الهيكل، ولأنهم لا يؤمنون بمعظم أسفار التوراة، فإنهم قد «ساعدوا الفتح العربي الإسلامي إلى درجة أن أعفاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من الجزية والخراج» عثامنة.

وفي بداية العهد العربي (امتد جند فلسطين من البحر إلى النهر ومن مرج ابن عامر إلى العقبة وصولاً إلى أعماق فلسطين، فيما استثنيت حيفا وشمال فلسطين اللذان ضُما إلى جند الأردن، فيما بعض مناطق الأردن ضمت لفلسطين)[٤٩].

وعلى امتداد القرون اللاحقة لم يعد يذكر عن اليهود سوى النزر اليسير، فليس لهم شأن ملموس في الحياة السياسية أو الاقتصادية، فوجودهم هامشي بينما دار الصراع بين الكبار من أمويين وعباسيين. أما النظام السياسي، فكان الخلفاء يعينون ولاة على فلسطين من أهل الثقة. وذكر اليعقوبي في مؤلفاته الجغرافية أن اللد كانت عاصمة جند فلسطين حتى جاء سليمان بن عبد الملك فجعل العاصمة مدينة الرملة، وبقيت العاصمة حتى الحروب الصليبية. وفي العهد المملوكي قسمت البلاد إلى مناطق دعيت بالممالك... أما في العهد العثماني فأصبحت فلسطين تعرف بسوريا الجنوبية وتقسم داخلياً إلى ثلاث متصرفيات. أما الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز فقد ابتدأ بعزل الولاة الظالمين، وأمر بوقف التعرض لعلي بن أبي طالب من على المنابر كعادة بني أمية، وأمر بإعادة الكنائس والأراضي لأصحابها ورفع الجزية عن أهل الذمة الذين اعتنقوا الإسلام وقال مقولته (إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً).

---

٤٨) د. الحوت، مرجع سابق. ص١٢٦

٤٩) د. سخنيني، مرجع سابق. ص٢٤٠

وفي عهد هارون الرشيد ازدهرت العلوم واللغة وازدهر الاقتصاد وهو صاحب الكلمة (اذهبي يا سحابة أينما شئت فخراجك يأتيني). وفي زمن ابنه المأمون اعتنق أغلب سكان فلسطين مذهب الإمام الشافعي الذي ولد في غزة ١٥٠ هجرية. أما الخليفة الشجاع المعتصم فقد خاض معركة عمورية ضد الروم استجابة لصرخة المرأة (وا معتصماه).

ويجدر التذكير أيضاً أن فلسطين شهدت سلسلة تمردات على «الحكم المركزي». واستنادا إلى الأكاديمي عثامنة كان «التمرد الكبير الأول على الحكم الأموي بقيادة نائل الجذامي الذي أيَّد في وقت سابق علياً بن أبي طالب على معاوية، لتنطلق حركة في زمن عبد الملك بن مروان بزعامة الحارث التي انحازت للقدرية... وهناك أيضاً حركة الجذاميان سعيد وضبعان تأييداً للخليفة المغدور الوليد بن يزيد، انضم لها أهالي فلسطين والأردن، وتمرد الجذامي ثابت على الخليفة مروان بن محمد عام ٧٤٤م. الذي انضمت له أجناد الشام ومصر.

ومرة أخرى تمرد القائد الفلسطيني حبيب بن مرة على الخليفة السفاح وقد انضم للتمرد القيسيون في جند الأردن ودمشق... ليتمرد ثانية عيسى بن بشخ ويعلن استقلال فلسطين والأردن ويبسط نفوذه على دمشق (٢٦١ هجرية) ويرفض مبايعة الخليفة المعتز».

وقد تزامنت التمردات الأخيرة مع الصراعات المريرة مع أهل الحكم في المركز، وجاءت لتعكس الميل المتنامي لدى أطراف الخلافة الإسلامية لمزيد من الاستقلال سيما في العهد العباسي، حين تفاقمت التناقضات وتمردت الأندلس، الأغالبة في تونس، الطولونيون في مصر والأخشيديون من بعدهم».

وتعتقد الأكاديمية الحوت أن (الصراع بشأن الحكم بين العرب من جهة والفرس ثم الأتراك من جهة أخرى، كان له أثره في فقدان هيبة الحكم ومركز الخلافة)[٥٠].

أما الخليفة أحمد بن طولون (تركي من أصل منغولي) فقد أنشأ قلعة يافا والقاعدة البحرية في عكا وحلبات سباق. وكتب الأكاديمي عثامنة (أن الطولونيين شجعوا الزراعة ومنحوا الفلاحين قروضاً كما شهدت المدن الفلسطينية إعماراً وتحصينات كما اتبعت سياسة متسامحة حيال أهل الذمة وسمح بترميم الكنائس والأديرة)[٥١].

---

٥٠) د. الحوت، مرجع سابق. ص١١٠

٥١) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١١٢

وفي القرن ١١ ميلادي تمدد السلاجقة من أصل قرغيزي بقيادة سلجوق شرقي بلاد فارس وأواسط أسيا وصولاً إلى سوريا وفلسطين فقهروا الفاطميين في الرملة وقتلوا الآلاف منهم وحكموا فلسطين نحو ربع قرن ١٠٧٠ – ١٠٩٦م. واتصف عهدهم بالحروب الداخلية وعدم الاستقرار، وكانوا من أنصار العباسيين، مما مكن الفاطميين من استرداد فلسطين ثانية.

وقصارى القول، فإنه إضافةً لتحرير فلسطين من الرومان وتعريبها وتنمية الكثير من مرافقها، فقد شهد تاريخها على امتداد أربعة قرون حروباً ضارية أكثرها عنفاً في القرن العاشر الميلادي بما استنزفها وأنهك قواها، وجعلها لقمة سائغة للغزو الأوروبي الإقطاعي في القرن الحادي عشر، حيث توشح الفرنجة بالصليب وشعار انقاذ المسيحين في بيت المقدس من الكفار!!

ويذكر الأكاديمي عثامنة أن خراج فلسطين والأردن كان يتراوح بين ٤٠ – ٦٠٪ من خراج أجناد الشام والجزيرة الأمر الذي يعكس وفرة المحاصيل ونشاط الموانئ الفلسطينية علاوة على عوائد الحجيج إلى المراكز الدينية. وشملت غلال فلسطين الزيتون والحبوب والتمور والموز وصناعة الصابون والزجاج والسجاد والسيوف والعطور...

وبالنسبة لليهود فرواية التاريخ لا تذكرهم إلا لماما وبصورة ثانوية بعد أن تضاءل وجودهم في فلسطين. ويسجل ايفانوف (أن أقلية من اليهود عاشت في القدس في عهد الإمبراطورية الرومانية بينما الأغلبية الساحقة انتشرت في الإمبراطورية، وأنهم كانوا يتحدثون الآرامية وكفوا عن العبرية القديمة، وفي الخارج باليونانية)[٥٢].

× × ×

في ١٠٩٥م ألقى البابا أوربان الثاني خطاباً نارياً في كليرمونت – فرنسا بحضور الآلاف من النبلاء ورجال الدين، دعا فية المسيحيين المؤمنين (لحمل السلاح لتحرير القيامة وحماية مسيحيي الشرق) معتبراً أن (محاربة المسلمين الكفار) طريقٌ لتطهير النفس من ذنوبها.

لم يكن اختيار البابا لجنوب فرنسا مكانا صدفةً فهو الأرض التي دارت عليها المعركة الفاصلة (بلاط الشهداء) التي حاول فيها المسلمون احتلال فرنسا، كما لم يكن اختيار الزمان صدفة، فقد انهكت الحروب الطاحنة بين الفاطميين والسلاجقة، وما سبقها من حروب بين العرب والممالك الإسلامية. وعلى امتداد قرنين، الثاني عشر والثالث عشر، شن الفرنجة ثماني حملات رئيسة

---

٥٢) ايفانوف، حذارِ من الصهيونية. دار التقدم. ١٩٧٠ ص٢٧

قاسية انتهت عام ١٢٩١ بعد سقوط حصن عكا، آخر حصن للأوروبيين في فترة السلطان المملوكي أشرف خليل. (وتقسم الحملات الصليبية من حيث المراحل الزمنية إلى ثلاث، الأولى استولى فيها الصليبيون على القدس وأسست المملكة اللاتينية التي امتدت من بيروت إلى دير البلح إضافة لولاية البلقاء الأردنية، واستمرت حتى ١١٤٤م، والثانية بدأت بردود الفعل الإسلامية التي بدأها عماد الدين زنكي، وأنتهت بانتصار صلاح الدين الأيوبي، والثالثة هي مرحلة المناوشات والحروب الصغيرة في القرن الثالث عشر وقد انتهت بإخراج الصليبين نهائياً من البلاد)[٥٣].

أما بداية الغزو الفرنجي فكانت أن تجمعت جيوش أوروبا الغربية في القسطنطينية التي كانت تخضع للإمبراطورية البيزنطية، وشرعت بالزحف عام ١٠٩٩ الذي استمر سبعة أعوام فسقطت سوريا وفلسطين بما فيها القدس التي ارتكبت فيها مذبحة فظيعة راح ضحيتها عشرات الآلاف غالبيتهم من المسلمين وأقلية يهودية. وأحد شعراء القرون الوسطى وصف المجزرة كما كتب زوباروف (الصليبيون في الشرق) (الإفرنج يجوسون المدينة / شاهري السيوف / لا يشفقون على أحد حتى الذين يتوسلون الرحمة / سقط شعب من الكفار تحت ضرباتهم مثلما / تسقط الجوزات المهترئةعن شجرة البلوط التي يهزون أغصانها). وضحايا المذبحة يناهزون ٥٠ ألفاً، أما ابن الأثير فيذكر ٧٠ ألفا (منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وقادتهم). والفرنسي غوستاف لوبون يقول (قطعت رؤوس بعض العرب وبقرت بطون بعضهم وقذف بعضهم من أعلى أسوار القدس وحرق بعضهم في النار... ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ٦٠ ألفاً فافنوهم عن بكرة ابيهم)[٥٤].

وهناك من كتب (حاصر الفرنجة القدس ٤٠ يوماً، فانهارت مقاومة الحامية الفاطمية المكونة من ألف رجل، واقتحم الغزاة المدينة وفتكوا بأهلها، وبالغوا في القتل حتى غطت الجثث شوارع المدينة وأزقتها)[٥٥]. أما الدكتور فوزي فيشرح (في ٧/حزيران/١٠٩٩ عسكر الصليبيون أمام بيت المقدس. هاجموا بقوة مكونة من ١٣٠٠ فارس و١٢٠٠٠ من المشاة... قاوم افتخار الدولة إلى أن منحه ريموند الأمان إن سلم نفسه ورجاله فخرجوا إلى حامية عسقلان... أما من بقي في المدينة ولم يستطع الإفلات فتعرض لمذابح رهيبة... وقدم إلى بغداد جماعة من شهود العيان فوصفوا

---

٥٣) د. الحوت، مرجع سابق. ص١١٤. نقلا عن حتي ص٥٩٩

٥٤) لوبون، غوستان. حضارة العرب. دار الأحياء – القاهرة. ١٩٤٥ ص٣٥٣

٥٥) د. عثامنة، خليل. فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيرون ٢٠٠٦ ص٢٤

ما حصل في المدينة المقدسة، فأبكوا العيون وأوجعوا القلوب من قتل للرجال وسبي للحريم والأولاد ولشدة ما أصاب الناس أفطروا في رمضان)[٥٦].

والدكتورة الحوت كتبت أن الصليبيين قتلوا كل من صادفوه من رجال ونساء وأطفال، وأنهم في اليوم التالي اقتحموا المسجد الأقصى وأجهزوا على جميع الذين لجؤوا إليه. ويجمع المؤرخون من شرقيين وغربيين على أن المذبحة الوحشية قد شملت جميع المسلمين واليهود.

وبالتالي كان عام احتلال القدس ١٠٩٩م شديد السواد. استسلمت قيسارية دون قتال. وصمدت عكا أكثر من سواها، أما أهالي الرملة ففروا... وأعلن عن مملكة أورشليم اللاتينبة التي ضمت أجزاء واسعة من فلسطين وسوريا ولبنان. وبعد عام من احتلال عسقلان ثار الأهالي وراحوا يخوضون الحرب بين كرٍ وفر في ظروف اختلت فيها موازين القوى وقد اشتدت عليهم الضرائب والجزية.

وحسب الأكاديمية الحوت (كانت العلاقات بالسكان تختلف وفقا لعوامل عديدة. فقد أقام الصليبيون علاقات ودية مع الموارنة، وكانت بعض المدن المسلمة تطلب المساعدة من المملكة اللاتينية ضد مسلمين آخرين... وقام الصليبيون بعدد من عمليات الإبادة الشاملة والمذابح... وبعد حصار أشهر لأنطاكيا قتلوا وأسروا من الرجال والنساء ما لا يمكن حصره)[٥٧]. وأنطاكيا كانت أكبر مدن الشام وأهمها في ذلك العصر. وفي الوقت الذي يشير فيه الدكتور شوفاني إلى أن النجاح العسكري/ السياسي للحملة الأوروبية لم يسفر عن أي نجاح ثقافي، ذلك ان الأهالي العرب لم يغيروا من معتقداتهم، وإن كانت الظروف قد اضطرتهم للتبادل التجاري ودفع الضرائب، فإن الدكتورة الحوت تفسر المسألة على النحو التالي (لم يتم تبادل حضاري يذكر بين الفريقين طيلة المئتي عام، ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت في انحدار. ولولا ذلك لما نجحت الحملات الصليبية أصلاً. وكان الافرنج، هم أنفسهم، أقل حضارة من المسلمين في حالتهم تلك. لكن العداء «القومي» والتعصب الديني حالا دون اقدام الافرنج على الاقتباس كما يجب)[٥٨].

في عهد الملك بولدوين الثالث أخذت المملكة اللاتينية بالاهتزاز مع ظهور شرارة الجهاد التي أعلنها عماد الدين زنكي (حاكم الموصل من أصل تركي) الذي صمم على توحيد سوريا وتطهيرها

---

٥٦) د. فوزي، مرجع سابق. ص١٦٤

٥٧) د. الحوت، مرجع سابق. ص ١١٤

٥٨) د. الحوت، مرجع سابق. ص ١١٥

من الفرنجة. وللترك صلة بفلسطين حينئذ وقبلئذ «حينما استعان الوالي بدر الجمال الذي كان يحكم أجزاء من فلسطين بالتركمان المتمردين على السلاجقة / بقيادة ابن اوق ومعه بضعة آلاف من الفرسان فانضموا اليه في ١٠٧١م. وقد زاد وزنهم بعد أن أسهموا في اصلاح الخراب الذي أصاب الرملة بعد زلزال قوي وحماية أمن القوافل التجارية بين عكا ودمشق وصولاً إلى اجتياح القدس وطرد قائد حاميتها الفاطمي، فخضعت أغلبية فلسطين لسيطرتهم ولم يبق تحت سيطرة بدر الجمال إلا مدينتا طبريا وعكا. ولاحقاً تمت السيطرة على عكا وجنوب بلاد الشام... ولكنهم هزموا على أيدي الفاطميين (كانت فلسطين في الأعوام السبعة عشر الأخيرة، التي سبقت الغزو الصليبي تتقاسمها: الدولة الفاطمية ودولة السلاجقة في الشام... وبالتالي بدأ الفاطميون يوسعون منطقة نفوذهم على حساب مناطق نفوذ السلاجقة... وقبل الغزو الصليبي لفلسطين وسقوط مدينة القدس في يدهم بوقت قصير استعاد الفاطميون سيطرتهم على مدينة القدس) (٥٩).

ولكن أيضاً (خارت عزائم المسلمين عن التصدي للغزو وتعطلت لديهم إرادة القتال والمقاومة... وساد التمزق السياسي القوى الإسلامية الحاكمة آنذاك، سعى كل أمير أو والي مدينة أو حاكم ناحية، للحصول على رضا ملك الفرنجة أملاً بالحفاظ على البقاء... ويبدو أن حكام هذه الإمارات استمرؤوا الذل والاستكانة... فلم يُر منهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد... إزاء العجز الذي أبدته كل من القاهرة ودمشق في الدفاع عن فلسطين وحماية أهلها، وإزاء حجم الكارثة التي حلت بأهل بيت المقدس خاصة، هام كثيرون من الأهالي ممن ظلوا على قيد الحياة على وجوههم بحثاً عن مكان يأوون إليه... ولم يحدث قيام المملكة اللاتينية أي تغيير في التوجه الستراتيجي لدى حكام المسلمين في مصر وبلاد الشام، فظلت انقساماتهم... وخلال العقد الأول من القرن الثاني عشر سجل الفرنجة انجازات عسكرية وسياسية ضخمة) (٦٠).

وجولات الجهاد الأولى من إمراء قلائل سيما أمير الموصل مودود والأمير برسق الذي اغتيل على يدي امير دمشق كما شاع، لم تثمر شيئاً. إلى أن تقدم الصفوف والي الموصل عماد الدين زنكي الذي دانت له حلب في ١١٢٨م وإمارات أخرى كحمص وحماة وحرّر مناطق أخرى كانت تحت سيطرة الفرنجة، وراحت أنظاره تتجه إلى دمشق التي تفصله عن مملكة القدس وقد حاصر دمشق بعد سيطرته على بعلبك غير أن حصاره لم يحقق أهدافه بعد أن استنجد حاكم دمشق بالفرنجة! ولاحقاً اغتيل عماد الدين زنكي على يدي أحد عبيده في ١١٤٦م وتنازع ورثته على الحكم. أما ابنه

---

٥٩) د. عثامنة، خليل. فلسطين في العهدين العربي والمملوكي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت ٢٠٠٦ ص١٥

٦٠) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٢٢،٢٤

نور الدين فقد سار على نهج أبيه الجهادي في مواجهة الفرنجة وضعاف الحكام المسلمين. وكانت له صولته في الدفاع عن دمشق التي خطط الفرنجة لاحتلالها في الحملة الصليبية الثانية، بما جعله يصبح حامي دمشق والمجاهد الأكبر.

بدأت الحملة الأوروبية الثانية عام ١١٤٨م وجوبهت بمقاومة باسلة من جبال طوروس شمالاً إلى أغوار الأردن جنوباً، مروراً بدمشق التي قاتل أميرها معين الدين وعقد هدنة مع الفرنجة عام ١١٤٩م، متخوفاً من تمدد نور الدين زنكي، وفي الجبهة الجنوبية اجتاح الغزاة الفرنجة معظم المدن الفلسطينية التي كانت تحت الحكم الفاطمي وحاصروا عسقلان سبعة أشهر إلى أن استسلمت بعد نصف قرن من سقوط القدس، وأصبح حاكم دمشق يخضع لإملاءات الفرنجة المالية والسياسية أكثر فأكثر...

استخلص ابن الأثير: لما رأى نور الدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج فراسل صاحبها وواصله بالهدايا إلى أن وثق إليه وصوّر له أن قادته العسكريين يتآمرون عليه، بما أضعفه، فزحف على دمشق واجتاحها في ١١٥٤م، وبذلك توسعت مملكة نور الدين زنكي وحسّن من ميزان القوى في الصراع مع الفرنجة»... ومن جانب آخر (أرسل قوة عسكرية إلى مصر لحمايتها من الفرنجة، خصوصاً أن أوضاعها الداخلية في فوضى والفلتان الأمني بلغ ذراه حتى أن الخليفة بات العوبة في أيدي الوزراء، فاستنجد بنور الدين زنكي فيما وزيره شاور استعان بالفرنجة ودارت معارك طاحنة إلى أن انتصرت قوات نور الدين بقيادة شيركوه الذي تولى الوزارة في ١١٦٩م ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لتصبح مصر جزءاً من مملكة نور الدين زنكي)[٦١].

بعد عام تقرر ارسال حملة فرنجية تقدمت قواتها البرية من عسقلان في تحالف مع الأسطول البيزنطي الذي أبحر نحو دمياط في خطة شاملة لاحتلال مصر، غير أن الحملة عادت خائبة وقد أعد لها صلاح الدين العدة، أما نور الدين زنكي فقد توسع في الشام، وبضغوط منه أعلن الحكم في مصر ولاءه للخلافة العباسية بما اثار استياء أهل مصر سيما أنه قد (جرت تصفية مؤسسات النظام الشيعية وتطهيرها من مؤيدي الخلافة الفاطمية)[٦٢].

وزادت مخاوف صلاح الدين من سيده نور الدين فرتب حملة عسكرية بقيادة أخيه نوران إلى اليمن واستولى عليها...

---

٦١) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٦٤

٦٢) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٦٨

بعد وفاة نور الدين زنكي خرج صلاح الدين على رأس قوة من الخيالة ووصل دمشق في ١١٧٤م وسط ترحيب الأهالي. قام بنشاط عسكري مكثف لضم باقي مناطق الشام لسلطته، فزحف على حمص، حماة، حلب... وبذلك توحدت مصر وسوريا تحت قيادة سياسية واحدة كان الهدف منها حشد الطاقات المادية والبشرية لمعركة تحرير الديار العربية والإسلامية.

في ١١٧٧م هاجمت قوات صلاح الدين الفرنجة في رفح ومنها توغل إلى عمق الأراضي الفلسطينية، ولكن قواته هزمت في الرملة وتشتتت ولم يصل السلطان القاهرة إلا بعد أسبوعين ضارباً في رمال الصحراء...

ومن جانب آخر توالت غارات المسلمين على شمال فلسطين، بما أفقد الفرنجة أمنهم وثقتهم بأنفسهم، فوقعت عدد من الممالك والامارات هدنة مع صلاح الدين.

أعد صلاح الدين جيشه وتوجه لفلسطين مرة ثانية، وكانت المعركة الأولى تحرير طبريا، وفي تموز ١١٨٧م دارت معركة حطين التي انتهت بهزيمة الفرنجة، وكان الانتصار في حطين بداية الانتصار في عموم فلسطين.

أما تحرير القدس بعد قتال ضارٍ فكان الذروة. ويؤرخ ستيفن رنسيمان بالقول (الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فيما الفرنج منذ ثمانٍ وثمانين سنة خاضوا بدماء ضحاياهم... انتشرت شرطة صلاح الدين في الشوارع لمنع الاعتداء على بيوت المسيحيين) (٦٣). وبعد دفع الفدية غادر الفرنجة مع عائلاتهم، ولم يتبق سوى الأرثوذكس واليعاقبة، فابتاع أغنياؤهم املاكاً خاوية وأعفي فقراؤهم من دفع الجزية. ومع ذلك (بلغ عدد الذين استرقوا بعد عجزهم عن دفع الفدية ١٥ ألفا سيقوا زرافات إلى أسواق الرقيق في أقطار الإسلام) (٦٤).

لم يتبق في أيدي الفرنجة سوى بعض الحصون ومناطق ساحلية محدودة.

وانطلقت الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٨٩م التي مهد لها بالصيام يوم الجمعة على امتداد خمسة أعوام كما أفتى البابا غريغور، واشترك فيها كبار الفرسان ورجال الدين والإقطاعيون. واتسعت المعارك حول صور والشقيف وعكا... وحملت النتائج أبعاداً ايجابية للفرنجة حتى أن عكا سقطت في أيدي الفرنجة وتعرضت لمذبحة جماعية، (وأمر صلاح الدين بتدمير عسقلان واللد

---

٦٣) د. الحوت، مرجع سابق. ص١٢٣

٦٤) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١٠٠

والرملة وبيت نوبا وحصن اللطرون)[٦٥]، بما يشبه سياسة الأرض المحروقة لئلا يستفيد منها الفرنجة أثناء غزوهم لمدينة القدس. وفي عام ١١٩٢م وقع صلح الرملة بين المسلمين والفرنجة، وينص على اقتسام مدن ومناطق فلسطين بين الطرفين مع تأمين حق الجميع في زيارة الأماكن المقدسة.

وفي العهد الأيوبي اضيف إلى الحرم الشريف في القدس وحرم الخليل المنابر والأروقة، وتم ترميم سور القدس وبناء قلاع عديدة.

(وافت المنية صلاح الدين في آذار ١١٩٣م وخسر العرب قائدهم المرموق بما يتمتع به من مزايا سياسية وعسكرية ومكارم أخلاق نقشت في ذاكرة الأمة فتوزعت مملكته على ست ممالك، ثلاث لأبنائه (دمشق، حلب، مصر) واثنان لأخويه (اليمن، البلاد الشرقية) وحماة لابن أخيه... أما الحصون والقلاع فوضعت بامرة قادة الجيش... وألحقت المناطق المحررة من فلسطين بولاية دمشق دون ان ننسى تعاظم الصراعات الدامية في العائلة الايوبية، واستيلاء العادل شقيق صلاح الدين على ممالك ولدي اخيه ومن ثم توزيع مملكته بين ابنائه اقساما أربعة، وقد ضمت فلسطين ومناطق أردنية لمملكة دمشق...)[٦٦].

وفي اطار اتفاقية يافا (تنازل سلطان مصر الكامل عن القدس للإمبراطور الروماني فريدريك الثاني في ١٢٢٩م، وضمت المناطق الفلسطينية التي لا تخضع للاحتلال الأجنبي لمصر)[٦٧].

ومع إنتهاء أجل الاتفاقية بعد عشر سنوات قام ملك الكرك وفلسطين الناصر داود بمحاصرة القدس وقصفها بالمنجيق إلى أن استسلم الفرنجة عام ١٢٣٩م.

تنامت قوى المماليك ذوي الأصول التركية في هذه الفترة لما تميزوا به من كفاءة عسكرية ليتزوج قائدهم أيبك بشجرة الدر زوج نجم الدين أيوب سلطان مصر بعد وفاته، وبالتالي تأسيسهم حكماً دام قرنين في مصر وبلاد الشام وهم الذين تصدوا للحملة الصليبية السادسة والسابعة وطردوا قوات الفرنجة من دمياط. وبرز هنا القائدان قطز وبيبرس، والثاني قاد القتال ضد هولاكو قائد المغول الذين نجحوا في تدمير بغداد وقتل مئات الآلاف واحتلال حلب ودمشق وفلسطين وصولاً

---

٦٥) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١١٥

٦٦) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١٢٠، ١٢١

٦٧) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١٣٦، ١٣٧

لغزة. أنزل المماليك هزيمة منكرة بالمغول في معركة عين جالوت، وواصلوا زحفهم إلى أن طردوا الفرنجة من باقي المدن الفلسطينية والسورية وشرقي الأردن مدينة تلو المدينة. وبيبرس هو نفسه الذي اغتال سلطانه قطز وحل محله سلطانا على بلاد الشام ومصر. وفيما استعصت عكا على الظاهر بيبرس نجح قلاوون بتحريرها ليحكمها ومعها الساحل اللبناني. وكل محاولات المؤسسة الكنسية بعدئذ لم تفلح في إثارة العاطفة الأوروبية. إذ (في أواخر الحروب الصليبية استخف الناس بدعوات البابا لتحرير الأراضي المقدسة وامتنعوا عن دفع الضرائب بإسم الجهاد المقدس ولاحظوا الفساد والترف في بيوت النبلاء)[٦٨]. وبالتالي انتهت حملات الفرنجة على الشرق العربي، بعد أن أثبتت، كما تستخلص الدكتورة الحوت، غلبة المطامع التجارية والدنيوية على الدوافع الدينية مما أدى إلى تبديد حلم البابا إقامة حكومة ثيوقراطية.

وبالتالي انهارت الى الأبد المملكة اللاتينية التي اسسها الملك بولدوين ومقرها القدس وامتدت الى بيروت والبحر الاحمر، وإن لم تسيطر الا في وقت متأخر على عسقلان التي بقيت في يد الفاطميين.

استمر عهد المماليك بين ١٢٥٠ – ١٥١٧م، وفي بدايات عهدهم، أي زمن المماليك البحرية الذين بلغ عدد سلاطينهم أربعة وعشرين معظمهم من الأتراك، نشطت التجارة والزراعة وبناء الطرق وأنشئت مكتبة في غزة وأنشئت المدارس. (ومن ميزات المماليك أنهم، كالأيوبيين، أعتنوا بانشاء مجلس للشورى، وكان عندهم محكمة للمظالم برئاسة السلطان وعضوية المذاهب الأربعة، وهي تقابل محكمة العدل العليا في عصرنا)[٦٩].

وفي المرحلة الثانية في عهد المماليك البرجية (شركس) بين ١٣٨٢ – ١٥١٦م وعددهم ٢١ سلطانا، تعرضت البلاد لهجوم من المغول بقيادة تيمور لنك، وهو الذي ترك دمشق خرابا، وتخوفا من غزو صليبي قام المماليك بتدمير عكا، عسقلان، قيسارية. وغيرها من المدن الساحلية الفلسطينية.

في عهدهم تطور فن العمارة، العلوم الطبيعية، الفلك، السلاح. وحتى اللحظة ثمة العشرات من البيوت المملوكية في القدس، كما أن الفلسطينيين توارثوا عن المماليك عادات (الاحتفال باول

---

٦٨) د. فوزي، مرجع سابق. ص١٨١

٦٩) د. بيان الحوت، مرجع سابق. ص١٢٧

رمضان وليلة القدر واطلاق المدافع في الأعياد والاحتفال بختم القرآن)[٧٠].

ومن جانب آخر فتكت الصراعات الداخلية بفلسطين التي اجتاحها الطاعون والقحط في القرن ١٥ فازدادت أحوال الأهلين بؤساً وضنكا، وتزامن ذلك مع صعود نفوذ العثمانيين الأتراك في آسيا الوسطى.

جدير بالذكر أن فلسطين في الأربعة قرون والنصف الأولى من العهد العربي الإسلامي قد شهدت تفاعلات سياسية – فكرية – ثقافية أصبحت معها (سمة العروبة وسمة الإسلام هما السمتين المميزتين للبلد وأهله... فقد وحدت الحضارة العربية الإسلامية أبناء فلسطين، وشخصية المجتمع الفلسطيني بشقية المسلم والمسيحي... أما العناصر اليهودية والسامرية فقد توزعت كفئة قليلة على المدن والتجمعات كأفراد مبعثرين دون أن تجمعهم أحياء سكنية خاصة لهم)[٧١].

تضاءلت أعداد اليهود إبان الحكم الفاطمي وما تلاه من حكم التركمان الناوكية وكانت حياتهم تعتمد على ممارسة التجارة وبعض الحرف، والمصادر العربية تخلو من أي ذكر لهم في العهد الأيوبي.

وما أن وطئت أقدام الفرنجة الغزاة أرض فلسطين في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي (أخذت البلاد تفقد هويتها العربية الإسلامية مدينة بعد أخرى وأخذت تحل محلها هوية أوروبية الوجه والزي واللسان... فبات المرء يسمع اللغات اللاتينية والفرنسية والألمانية والإيطالية بينما رحلت لغة الضاد من فضاء المدينة الفلسطينية كما رحل أهلها. إلا أن الريف الفلسطيني ظل يحمل الملامح العربية)[٧٢].

وفي وقت جرت فيه مذابح في بعض المدن الفلسطينية سيما القدس وقيسارية، هجر العرب معظم المدن أو استسلموا دون قتال. أما الأرياف فقد أبقاها الصليبيون على حالها إضافة لإقامة عدد من المستوطنات الزراعية والقلاع المحصنة. وقد (أحصي أكثرمن ٢٠٠ مستوطنة كهذه قدرها بعضهم بـ ٢٣٥ قرية شكلت ما نسبته ٢٠٪ من مجموع القرى الزراعية الفلسطينية في تلك الحقبة)[٧٣].

---

٧٠) د. بيان، مرجع سابق. ص١٢٨

٧١) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١٩٣

٧٢) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١٩٣

٧٣) د. عثامنة، مرجع سابق. ص١٩٨

لكن ترك الريف الفلسطيني وشأنه لم يحل دون ممارسة سياسة العسف والتنكيل على الاقطاعات الفلسطينية التي أصبحت ملكاً للعوائل الأوروبية، الأمر الذي دفع بعض الأهالي للهجرة فضلاً عن أن الظلم قد أذكى مشاعر الجهاد والعداء للصليبيين.

ويقدر بعض الباحثين عدد المستوطنين الأوروبيين في فلسطين بأكثر من ١٠٠ ألف مستوطن سكنت أغلبيتهم في المدن.

ومفيد هنا، التنويه، إلى تعرض المجتمع الفلسطيني لضربات قوية أطاحت بالحياة المدنية، وهجرة الكثير من أهل البلاد بما يشبه التطهير العرقي الاحلالي، سيما في المدن الساحلية، وهذا يذكرنا بما تعرض له الفلسطينيون لاحقاً عام ١٩٤٨، وحتى بعد تحرير المماليك لفلسطين من القبضة الأوروبية، اضطر هؤلاء لتدمير الموانئ والمدن الساحلية التي تحولت لخرائب، كتاكيتك اتبعه صلاح الدين من قبل، أي خطة دفاعية، تحسبا من غزوات الأساطيل الأوروبية، أفضى هذا بالتالي إلى ركود اقتصادي في الأسواق والأرياف الفلسطينية، وبالمقابل نشأت مدن جديدة أهمها صفد، وانتعاش الحياة الدينية والتجارية في مدينة القدس وسواها.

وبناءً على الأكاديمي عثامنة (لم تساهم الأوضاع الأمنية المضطربة التي سادت فلسطين وبلاد الشام في العهد الأيوبي والتي امتدت قرابة ثلاثة أرباع القرن، في إعادة توطين المدن الفلسطينية، إذ أصبحت مسرحاً للصراعات والتنافس على السلطة بين ورثة صلاح الدين من أبنائه ثم ورثة أخيه العادل، مع ما يرافق هذا التنافس المسلح الدامي أحيانا من تفريط بالمناطق الفلسطينية المحررة استرضاء للفرنجة... ثم تعرض النمو السكاني في فلسطين لضربة قاضية جراء الغزو المغولي الجارف بما صاحبه من تقتيل ونهب، ففر أهل فلسطين بقضهم وقضيضهم نحو مصر... والزلزال الرهيب في ١٢٠١م الذي شمل المناطق الواقعة في أيدي المسلمين وقبضة الفرنجة على حد سواء... ففي نابلس وحدها مات تحت الردم ٣٠ ألفاً... وتكرر الزلزال الرهيب ١٢٩٣م الذي دمر مدناً وتجمعات سكنية مركزية كغزة والرملة... ومرض الطاعون ١٣٤٨م الذي أفنى البشر والبهائم في صفد ونابلس والقدس ويافا والرملة والأرياف وبيسان والأغوار. ففي غزة وحدها مات ٢٢ ألفاً، وفي جنين لم يفلت سوى امرأة واحدة)[٧٤].

وإن لم يكن ثمة إحصاءات دقيقة عن عدد سكان فلسطين في الحقبة الصليبية وما تلاها في

---

٧٤) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٢٥٣ – ٢٥٤

العهدين الأيوبي والمملوكي، غير أن ثمة أرقاماً متداولة في بدايات العهد العثماني ١٥٢٦م، تشير إلى أن لواء صفد ضم ٣٠ ألفاً ولواء القدس ١٥ ألفاً ولواء غزة ٢٨ الافاً... أما إحصاءات أواخر القرن ١٦ فتشير إلى ٤٢ ألفاً في لواء القدس و٣٩ في لواء نابلس و٥٦ في لواء غزة و٨٢ ألفاً في لواء صفد... استناداً إلى ضبط الجبايات الضريبية الذي كان يستثني موظفي الدولة ورجال الدين والجنود القدامى والجواري والغلمان والأرقاء...

وعن الريف الفلسطيني فقد ساده نمط الإنتاج الفلاحي وزراعة الحبوب والأشجار المثمرة، ومعظم القرى أقيمت على التلال المرتفعة، ولم تنفك على هذا النحو لهذا اليوم، وحسب المعطيات الدفترية للحكم العثماني فمرج ابن عامر سنة ١٥٣٨م كان يشمل ٨١ قرية تضم الواحدة منها بين ١٠ – ٦٠ أسرة... وفي أغلب الحالات كان للقرية سيد إقطاعي.

وفي الصحاري والأغوار والجبال الفلسطينية انتشرت القبائل وحياة البداوة، وإن لم تنجح الحملات الصليبية في إخراجهم من مناطقهم واعترف لهم بحق الرعي والاستفادة من مصادر المياه، غير أن الفرنجة في المقابل حصلوا على (الإتاوة والخدمات الاستخبارية حتى وصل الأمر ببعض القبائل درجة المشاركة مع الفرنجة في قتال المسلمين)[٧٥].

أما هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية واليمن نحو فلسطين فلم تتوقف.

وعلى صعيد إداري حصلت تبدلات في فلسطين، فبينما كانت جنداً في زمن عمر بن الخطاب مروراً بالأمويين والعباسيين، جرى تقسيمها إلى نواح ومدن لكل منها وال، وهذا ينسحب على بلاد الشام عموما، بما عزز من قبضة الخلفاء الفاطميين الذين كانوا مرجعيةً للولاة. أما في زمن الفرنجة ففصلت فلسطين عن محيطها العربي وتوزعت على إقطاعات يحكمها القادة الفرنجة. أما بعد تحرير معظم فلسطين على أيدي الأيوبيين فقد تراوحت بين إلحاقها بمملكه دمشق التي يحكمها ابن صلاح الدين الأفضل ومنافسه شقيق صلاح الدين العزيز ملك مصر. وفي العقود الأخيرة من حكم الأيوبيين توسعت المملكة اللاتينية في فلسطين على حساب مناطق سيطرتهم بتسهيلات من ملوك الأسرة الأيوبية المتنافسة، وبعد التحرير الثاني لفلسطين على أيدي المماليك ألحقت ثانية بمملكة دمشق، وبعد حين (تفشت الرشوة وبيع وشراء الوظائف الإدارية لولايات المدن المختلفة)[٧٦].

---

٧٥) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٢٦٣

٧٦) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٣٠٩

أما المعتقد المذهبي فقد أعلن صلاح الدين عودة الديار المصرية وبلاد الشام إلى السنة، وعزل قاضي القضاة الشيعي وأحل محله الإمام الشافعي (فلسطيني) وأقام مدرسة دينية للشافعية. وقد انحازت العائلة الأيوبية للمذهب الشافعي فيما عدا عيسى بن صلاح الدين ملك دمشق الذي انحاز للمذهب الحنفي. واستمر الحال على هذا النحو حتى قام السلطان الظاهر بيبرس، الذي حرص على تمثيل المذاهب المالكية والحنفية والحنبلية في جهاز القضاء وأصبح لقاضي القضاة الشافعي نواب من المذاهب الثلاثة. أما الملك قلاوون الذي خلف الظاهر بيبرس فألغى إصلاحات الأخير.

وبينما كان لدولة الأيوبيين مؤسسة قضائية تستند للشريعة الإسلامية أضاف المماليك قضاء آخر غير ديني للعسكر من أصول تركية ومغولية، ولم تنته هذه الازدواجية إلا في العهد العثماني. وبالعودة لقرون سابقة فالخليفة عمر بن الخطاب الذي أقام الدواوين (الوزارات) هو الذي عين أيضا القضاة دون خضوعهم لولاة الأقاليم والأجناد بما يشبه سلطة قضائية مستقلة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى نظام الإقطاع العسكري – الاقتصادي في فلسطين. إذ اعتبرت (أراضي مملكة الإسلام وسكان المملكة جميعاً مِلْكاً للسلطان... وقد وزع السلطان صلاح الدين المملكة على عائلته وقادته العسكريين والجنود ولم يستثن إلا نسبة ضئيلة جعلت وقفاً على المؤسسات الدينية والخيرية... واستمرت الحال على هذا النحو في العهدين الأيوبي والمملوكي. ونظام الإقطاع لم يكن عسكريا فقط بل اقتصاديا واجتماعيا أيضا. لكن انتقال الإقطاع بالوراثة إلى ذرية الأمير كان يتطلب موافقة السلطان. والريف الفلسطيني كان مسرحا للممارسة الإقطاعية، إذ كانت الإقطاعات تمنح للقادة العسكريين من الأراضي الزراعية بما عليها من قرى)[٧٧]. ومثل هذا النمط الإنتاجي، عمومية الناس والأرض بملكية الدولة، ساد أيضا في مناطق واسعة من الصين والهند ومصر في زمن الفراعنة، وقد أطلق عليها بعض المنظرين وأبرزهم ماركس «نمط الإنتاج الآسيوي».

أما ملكيات الفلاحين فلا سبيل للإقطاعي عليها وإن كانت تختزل السلطات التنفيذية والقضائية في يديه بما في ذلك إعادة الفلاحين الفارين إلى قراهم وإخضاعهم لنظام السخرة بما يصل ٥٠٪ من المحصول، ناهيكم عن الهدايا وتخفيض أسعار السلع فيذهب الفارق للأمراء إضافة لحصة السلطان من المكوس، بما يجعل الفلاحين اقنانا وتحميلهم أعباء مصاريف الجيش وتقديم الدواب والأعلاف. وإلزام الفلاح والبدوي على التجنّد في الجيش. بل زادت هذه الضغوط مع تصاعد التهديد العثماني، يساعد السلاطين والولاة الزعماء المحليين من شيوخ العشائر والعوائل، بما عزز

---

٧٧) د. عثامنة، مرجع سابق. ص٣٠٩

من قوة هؤلاء الزعماء ومدّ نفوذهم للمدن. وأمام حالة العجز والمعاناة انتشر بين أهالي فلسطين معتقد بظهور المهدي المنتظر، بل ظهر أكثر من شخص إدعى لنفسه هذه الصفة.

حكم سلاطين آل عثمان بلادهم قبل الاستيلاء على بلاد العرب من ١٥١٦ – ١٩١٧م، وتعود جذور آل عثمان إلى أسيا الوسطى. وقد احتل العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٦٣م واستبدلوا اسمها باسطنبول واتخذوها عاصمة لهم. وتزامن مع صعود العثمانيين أفول نجم العرب في الأندلس. وعلى غرار قائدهم عثمان واصلوا نهجه القتالي التوسعي إلى أن أصبحوا إمبراطورية مترامية الأطراف. وبين مد وجزر دحروا المغول وهزموا بيزنطة والدولة الصفوية في إيران والمماليك في بلاد الشام ومصر ووصلوا بلغاريا وهنجاريا ويوغسلافيا وأثينا. والسلطان سليم الفاتح أول من حكم بلاد العرب باستثناء المغرب التي تركها ابنه سليمان القانوني لحليفته فرنسا التي ساندته ضد مملكة النمسا. وقد (منح الفرنسيين مراكز تجارية (١٥٣٠م) في عكا ومدن الساحل، وكانت هذه بداية الامتيازات الأجنبية التي منحها العثمانيون للأوروبيين، وبعد ٥٠عاما (١٥٨٠م) منح الانجليز الامتيازات نفسها)[٧٨]. وفي (١٧٤٠م وقع السلطان محمود الأول معاهدة مع الفرنسي لويس الخامس عشر فتحت فلسطين لجميع المسيحيين الوافدين تحت العلم الفرنسي... ونتيجة ذلك أسس اللاتين مدرسة للبنات في كل من بيت جالا وغزة وكانت تلك أول تجربة من نوعها في فلسطين)[٧٩]. وفي أواخر القرن ١٨ هزم الروس العثمانيين بعد حرب طويلة واستحوذوا على امتيازات مشابهة.

حسب الدكتور شوفاني: «أن فلسطين لم تقاوم الزحف العثماني وقد كفرت بالمماليك في أواخر حكمهم، فيما عدا نابلس التي تمردت وسحقت، والقدس وصفد بعد حين... سيما أن المماليك أثقلوا على الناس بالضرائب وفرضوا التجنيد الاجباري وقسموا فلسطين إلى أربعة أجناد».

بعد أن قضى السلطان سليم على المماليك في فلسطين انعكست القوانين والأنظمة الإدارية وانتعاش التجارة في إمبراطوريته على فلسطين وتم بناء سور القدس وأبراجه، وأصبح عدد سكان القدس ١٦ ألفا، ثلاثة أرباعهم من الملسمين وربع من المسيحيين واليهود، وغزة ١٤ ألفا وصفد ١٢ ألفا والخليل ستة آلاف، كما زاد عدد القرى والتجمعات إلى أن أصبحت تضم فلسطين ٣٠٠ ألف بينهم ٢٠٪ في المدن.

---

٧٨) د. بيان الحوت، مصدر سابق ص١٢٩

٧٩) د. الدباغ، مصطفى. الموجز في تاريخ الدولة الإسلامية. فلسطينيات ص٤٠

(واهتم الحكام المحليون بحماية أطراف الدولة، وقد صرفوا اهتمامهم لترميم وإعادة بناء قلاع وأسوار المدن المهدمة جراء الحروب الصليبية، كما حصل في عكا، وصفد وحيفا)[٨٠].

تجمدت الإمبراطورية العثمانية في القرنين ١٧ و١٨ وبقيت أسيرة نظام الاقطاع. فيما شهدت أوروبا بدايات نهضة واكتشافات علمية وفتوحات تجارية مركنتيلية بالذهب والفضة مهدت لثورة صناعية وعلاقات إنتاج رأسمالية ومدينة معاصرة وجيوش حديثة. وفي الوقت الذي شهدت فيه أوروبا اندلاع ثورات وولادة دول قومية تكرس نظام السلاطين وعلاقات الإنتاج الاقطاعية في الإمبراطورية العثمانية واهمال التعليم والزراعة، وهذا ما دفعت ثمنه لاحقا.

وأنشأت الدكتورة الحوت: (كان مستوى التعليم في المدارس الحكومية الرسمية متأخرا جدا... واتصف العهد العثماني، خصوصا في مرحلته الأخيرة، بالقوة والبطش)[٨١].

وأحوال الإمبراطورية العثمانية انعكست على فلسطين التي وزعت على ٥ ألوية فيما استقطع شمالها وضم لصيدا، وعانت من ضرائب باهضة وتنامي نفوذ العوائل المحلية التي لم تعرف الآستانة سياسة ثابتة حيالها، بين دعم وتقليص نفوذ تبعاً لمصالحها.

وفي أواخر القرن ١٧ انتشرت ظاهرة التسلح ومشايخ القرى المتصارعين فاشتد التنافس بين القيسيه واليمنية، وكل منهما يقيم جيوشاً تدعم تطلعاته، اضافة للقبائل المسلحة التي وسعت من سطوها على طريق المواصلات. ولوحظ تنامي دور رجال الدين والنخب الإسلامية الذين سيطروا على المحاكم الشرعية والمدارس والجمعيات الخيرية، وفي مقدمة هؤلاء عائلة الحسيني.

لا تفوتنا الإشارة إلى الهبة الشعبية بين ١٧٠٣ – ١٧٠٥م التي قادها محمد الحسيني نقيب اشراف القدس وشارك فيها الفلاحون، البدو، أهالي المدن احتجاجاً على جبروت الحكم العثماني وتقهقر الأوضاع الاقتصادية ارتباطا بعسف الضرائب والمحْل واحتباس الأمطار. وكانت الشرارة تعيين العثمانيين قنصلاً فرنسيا في القدس هو الأول منذ صلاح الدين، فاجتمعت العوائل والوجهاء والمشايخ ورفعوا مذكرة للسلطان حذرت من تسرب الفرنجة للاستيلاء على القدس... وبدأت التململات التي أفشلت التعيين.

وتواصل التمرد وتفشى في أرجاء واسعة، وقد قوبل بالضرب بيدٍ من حديد على أيدي

---

٨٠) د. الدباغ، المرجع السابق. ص٤٢

٨١) د. الحوت، مرجع سابق. ص١٣١، ١٣٢

الانكشارية التي حاصرت المحتجين في بيت جبرين ثمانية أشهر إلى أن كسرت شوكتهم، وأوقفت الآستانة رواتب الموظفين في القدس وشلت الحياة التجارية والاقتصادية إلى أن تبعثرت الحركة وفرار النقيب الحسيني ورجاله وملاحقتهم وإعدامه. أما المحاولة الأبعد مدى فهي ثورة ظاهر العمر الزيداني الذي لم يخف نزعته الاستقلالية عن الآستانة. وقد اغتنم فرصة الحرب بين السلطنة وروسيا وتنازل العثمانيين عن منطقة القرم والتفسخات في الجيش الانكشاري، فسيطر على عرابة، الدامون، صفد، طبريا، يافا، اللد، الرملة... فوحد شمال فلسطين وجعل عكا مركزاً تجاريا وعاصمة سياسية واقتصادية.

ودارت معارك حامية بين قواته وقوات حاكم دمشق المرتبط بالآستانة، وقوات العوائل الفلسطينية المحلية المرتبطة بالآستانة ايضا فذاق أهالي فلسطين ويلات الحرب والعذاب، وتحالف مع محمد علي بك الكبير في مصر عام ١٧٦٥م الذي قام بأول محاولة استقلالية عن الباب العالي فسيطر على مصر والجزيرة لبعض الوقت، كما فخر الدين المعني الذي تمرد على العثمانيين في جبال لبنان.

(في ١٧٧٣م اعترف عثمان باشا قائد الحملة العسكرية العثمانية، بظاهر العمر حاكما على الوية غزة ونابلس ويافا والرملة وعجلون وصيدا) (٨٢).

سيطر ظاهر العمر نحو نصف قرن على مسرح الأحداث وقد اتسم حكمه بالعدل والمعاملة الحسنة (وتميزت فترته بانتعاش الحياة الاقتصادية سيما زراعة القطن والحبوب وتصديرهما لفرنسا. وأقام تحالفا بين الفلاحين والبدو وسكان المدن فصاروا شركاء في الحكم والازدهار، واتبع سياسة من التسامح الديني مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود الذين أيدوه في حربه مع حكام دمشق والعثمانيين، وتجمع المسيحيون في عكا العاصمة التي كان عدد سكانها ٢٠ ألفا بما يعادل ثلاثة أضعاف سكان صيدا حينذاك، وقد أحيا مدينة حيفا، ولجأ له أهالي يافا وغزة فراراً من بطش حكام دمشق وقمعهم الدموي. ولما زحفت القوات المصرية المكونة من ٦٠ ألفا بقيادة (أبو الذهب) على غزة والرملة، قاومتها القوات الفلسطينية في يافا المحصنة لمدة شهر ونصف إلى أن اقتحمتها ومارست مجزرة فظيعة بعد تقييد أهلها بالجنازير وسبي النساء والصبيان وقتل جميع الأسرى عن آخرهم دون تمييز بين مسلم، مسيحي، يهودي وبناء عدة صوامع من الجماجم

---

٨٢) د. مناع، عادل. تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني. مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ٢٠٠٣. ص٦٩

ووجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة والرياح والزوابع)[٨٣]. بيد أن أبا الذهب مات فعاد ظاهر العمر لها وما كاد ظاهر العمر يتخلص من أبي الذهب ومماليكه حتى أرسلت الدولة العثمانية أسطولا بحريا وقوات برية ضخمة عام ١٧٧٥م بمشاركة المملوكي البوسني أحمد الجزار فأجهزت عليه ومثلت في جثته سيما أن ابنه علياً حاكم صفد تخلى عنه.

بمقتل ظاهر العمر فشلت محاولة الاستقلال عن الآستانة ولكنها أيضا كانت شاهداً قوياً على نمو الكيانية الوطنية الفلسطينية.

كافأ الباب العالي الجزار بتعيينه حاكما على عكا، وقد اشتهر بظلمه للرعية والبطش فيها، ولكنه ما لبث أن تمرد على الباب العالي ووسع سلطانه ليشمل دمشق، طرابلس، صور، صيدا، بيروت، صفد... وليسجل صفحة مجيدة بصموده عام ١٨٠٠م مدة شهرين أمام حصار نابليون وهجماته السبع على عكا، دون جدوى، ففشلت حملته التي نجحت باحتلال القاهرة ١٧٩٨م، وإصدار نابليون بياناً يدعو يهود الشرق للعمل تحت الراية الفرنسية لإعادة بناء مملكة أورشليم، وإن كانت قوته قد نجحت باجتياح العريش، غزة، أسدود، الرملة، الناصرة، وبعد اقتحام يافا التي قاومت تحصيناتها ببسالة (وفقد فيها الفرنسيون ١٥٠٠ جندي وأسر نحو ثلاثة آلاف شخص أرسلوا المصريين منهم إلى القاهرة بينما قاموا بذبح الآخرين في ١١ آذار ١٧٩٩م وهم أكثر من ألفي شخص)[٨٤]. ويقول المؤرخ الجبرتي ٤ آلاف، كوصمة عار في جبين العسكرية الفرنسية، سيما أن سبقها تدمير وحرق طبريا، صفد وجنين.

تناغم أحمد الجزار مع مماليك آخرين تفردوا بحكم سوريا، العراق، مصر، وتميزوا جميعاً بالبطش والدموية ضد الرعية وفرض الضرائب الباهظة.

تمردت مدن فلسطين على فظاعات أحمد الجزار سيما اعدامه قادة عكا، وحظيت هذه التمردات بدعم محمد علي حاكم مصر الذي باشر باصلاحات تحديثية بعيدة المدى ضمن توجه لاقامة دولة عربية مركزية، الأمر الذي أوجب التمرد على السلطنة العثمانية والاندفاع شرقاً لتوحيد الهلال الخصيب وبلاد الشام مع مصر... حيث (كان محمد علي يطمح في حكم بلاد الشام لأسباب اقتصادية وعسكرية واستراتيجية.... وتقدمت الجيوش المصرية من خان يونس إلى غزة واحتلتها دون مقاومة تذكر في تشرين أول ١٨٣١م... فإلى يافا وعكا التي حاصرتها ستة

---

٨٣) د. مناع، عادل. المرجع السابق. ص٧٠

٨٤) د. مناع، عادل. المرجع السابق. ص٩٥

اشهر... نابلس التي رحبت بها، أما في لواء القدس فاختلفت ردات فعل العلماء إلى أن دخلت فرقة عسكرية مصرية القدس في كانون أول ١٨٣١م وأعلن المصريون إلغاء كل الضرائب والعوائد التي كانت مفروضة على الطوائف المسيحية واليهودية وعلى أماكنهم المقدسة... وأشار الراهب القبرصي الذي دون أخبار فلسطين في تلك الفترة، إلى أن أهالي القدس خرجوا للشوارع ورقصوا فرحا مدة خمسة أيام متتالية عندما وصلت أخبار سقوط عكا)[٨٥].

لقد رحبت الجماهير المشرقية بحملة إبراهيم بن محمد علي ونظرت له كمحرر، وباشرت إدارته عام ١٨٣١م بتجفيف المستنقعات وتشجيع الزراعة، وتأسيس نظام تعليمي عصري قلص من دور المشا يخ مثلما اتسم حكمه بالتسامح الديني.

وذهب لأبعاد أخرى فقتال القوات المصرية للجيش العثماني والانتصار عليه عمق المشاعر القومية العربية سيما أن إبراهيم انتمى للعربية لغة وسياسة... وتشير مراسلات الأب والابن إلى سعيهما لمد مشروعهما لأرجاء المنطقة العربية وفصل الوطن العربي عن تركيا، الأمر الذي استخطرته وناهضته بريطانيا (ليس من مصلحة بريطانيا بروز ملك عربي يوحد العرب ويفتت تركيا بما يهدد الطريق إلى الهند) كتب بالمرستون وزير خارجية بريطانيا.

نظرت القوى الاستعمارية الأخرى بعدائية لمشروع محمد علي وعقدت بريطانيا، فرنسا، روسيا القيصرية والنمسا، مؤتمراً في لندن ١٨٤٠م لتنسيق جهدها وهاجمت القوات البريطانية - العثمانية وبعض الأوساط التقليدية المحلية، فتقهقر مشروع محمد علي وانكفأت قواته في مصر والسودان وعادت فلسطين وسواها للسيطرة العثمانية.

حري الإشارة إلى أن أعيان فلسطين ووجهاءها كما بلاد الشام عموما قد استقبلوا القوات المصرية بالفرح والتفاؤل لتخليصهم من العثمانيين وامكانية تطوير الزراعة على غرار ما حصل في مصر، سيما أن إبراهيم باشا حاول خلال تلك المدة معاملة الناس بالحسنى لكسب ودهم وتعاونهم. والأكاديمي مناع يشير إلى أن إدارة إبراهيم باشا قد ألغت الضرائب عن المسيحيين واليهود بما أزعج الزعامات الدينية المرتبطة بالآستانة.

و(ضمن الاصلاحات الإدارية التي ادخلها إبراهيم باشا في فلسطين انشاء مجالس الشورى في كل مدينة تعداد سكانها ألفا نسمة، أما عدد أعضاء المجلس الواحد فيتراوح بين ١٢ و٢١ عضوا

---

٨٥) د. مناع، عادل. المرجع السابق. ص١٣١، ١٣٤، ١٣٥

ينتخبون من أعيان البلد وكبار تجارها... وقد نقل بعض صلاحيات المحاكم الشرعية إلى مجالس الشورى التي اهتمت اساسا بإدارة شؤون الحياة اليومية في المدن)[٨٦].

وبعد ٩ سنوات من حكم إبراهيم الذي دام بين ١٨٣١ - ١٨٤٠م زادت الضرائب على الشعب وفرض قانون التجنيد الإلزامي الغريب عن عادات أهل فلسطين، الذين يألفون السلاح للصراع بين قيس ويمن، كما نظرت العوائل الاقطاعية وزعماء القبائل بريبة للاصلاحات القضائية والإدارية التي تقلص من صلاحياتها. اندلعت تمردات في القدس امتدت إلى بيت لحم ورام الله وغزة وعموم فلسطين.

حضر محمد علي على رأس جيش مكون من ١٥ ألف جندي لنجدة ابنه في يافا وتجددت المعارك الطاحنة وملاحقة الثوار من مدينة إلى أخرى إلى أن أخمدت التمردات.

وفي النهاية تدخلت أوروبا لدعم السلطنة العثمانية ودارت معارك وانكفأت قوات محمد علي في مصر.

بعودة فلسطين للحكم العثماني أطلت مقالات نشرتها الصحف البريطانية عام ١٨٤٠م تدعو (لإقامة دولة يهودية في فلسطين) بينما كان عدد اليهود مجرد ٢٪ من السكان، ونظمت رحلات استكشافية أوروبية - أمريكية بغية مواءمة الآثار الفلسطينية مع رواية التوراة. ووزعت فلسطين على سناجق (يافا، نابلس، غزة) لكل واحد حاكم ومسؤول مالي ومأمور زراعة، بما يشبه حكما ذاتيا محليا، وراحوا يتنافسون فيما بينهم لاسترضاء الباب العالي.

انتقل مركز الثقل للمدينة بطابعها الخدماتي وحجمها المحدود ونشأت فيها شرائح وسطى واتسعت الفجوة الطبقية. وباع العثمانيون ١٧ قرية لعوائل لبنانية وهؤلاء باعوها لليهود، وتجدد استياء الناس من كثرة الضرائب وتجددت المواجهات.

وهناك أكثر من دراسة تشير إلى سيادة نمط الإنتاج الفلاحي في فلسطين، إضافة للجيوب الإقطاعية والإنتاج البضاعي الصغير، ناهيكم عن أراضي المشاع التي يقطعها رجال الدولة لمن يشاؤون أو تستخدم كمراعٍ، إضافة لأراضي الوقف.

صحيح أن القبائلية والإقطاعية وقيس ويمن بما لها من جيوش قد تواصلت، غير أن زعماء

---

٨٦) د. مناع، عادل. المرجع السابق. ص١٤٠

المدن باتوا أكثر حضوراً سيما عائلة الحسيني في القدس التي جمعت أهم مركزين (مفتي القدس ونقيب الأشراف) الأمر الذي كان له تأثيره على الزعامة السياسية الفلسطينية بعدئذ. وتشكلت شرائح من البرجوازية الصغيرة بما تحمله من وعي سياسي وثقافي... وكانت ملكية الأرض في فلسطين حسب (القانون العثماني لسنة ١٨٥٨م: ١- ملك خاص وكانت أراضي الملك تشكل نسبة صغيرة من مجموع الأراضي المزروعة. ٢- الميري وهي الأراضي التي تعود ملكيتها للدولة. ٣- أراضي الوقف وهي نوعان: أهلي من أملاك الناس وخيري وأصلها أراضٍ أميرية وتذهب مداخيلها للوقف. ٤- أراضي متروكة وهي نوعان: ما لا يجوز تملكه كالطرق وما خصص لاستعمال الأهالي والمدن والأسواق. ٥- أراضٍ موات، وهي الأراضي البعيدة عن العمران... وهذا سمح للأعيان والتجار بتسجيل مساحات واسعة من الأراضي بأسمائهم بما عزز من المكانة الاقتصادية للنخب السياسية – الاجتماعية)[٨٧]. ويوزع الدكتور مناع التركيب الطبقي في فلسطين على النحو التالي:

(فلاحون، اقطاعيون، عمال زراعيون، افنان، برجوازية تجارية ومالية، بيروقراطية إدارية، بدو، رأس مال أجنبي ويهودي..

أما عدد سكان فلسطين في (أواسط القرن ١٩ فكان ٣٥٠ ألفا عاش أكثر من ٢٠٪ منهم في المدن و١٠٪ بدو و٧٠٪ في الأرياف، منهم ٨٥٪ مسلمون و١١٪ مسيحيون و٤٪ يهود. .اصبح عدد السكان ٤٧٠ ألفا في ١٨٨٠م وتزايد إلى ٦٥٠ ألفاً عام ١٩٠٦م وأكثر من مليون عام ١٩٢٢م. حيث ارتفع سكان المدن إلى أكثر من ٢٥٪)[٨٨].

إن اقتتال القبائل والتصارع بين العوائل الاقطاعية وسياسة التتريك لم تحُل دون تنامي النزعة الوطنية التي لوحظت في مقاومة نابليون وأحمد الجزار والحكم العثماني، بل راحت ترتفع أصوات ثقافية تدعو للعروبة تأثراً بالأفغاني ومحمد عبده والكواكبي والطهطاوي.

وفيما تستنج الدكتورة الحوت بعض سمات العهد العثماني (١- كانت السلطة مركزية إلى أبعد الحدود... الآستانة الكل بالكل، الأقاليم تأتي إليها الأموال وترسل لها... فلم يعرف الحكم اهتماما لزيارة البلاد الشاسعة... وهذا فارق مع الأيوبيين والمماليك. ٢- لم يصعد العثمانيون للحكم من داخل المجتمع العربي الإسلامي، فقد كانوا حكاما لبلادهم لمائتين وخمسين سنة، ولما جاؤوا لحكم البلاد الشاسعة حكموا حكما مستبداً خصوصاً في المراحل الأخيرة. ٣- تخلى

---

٨٧) د. مناع، عادل. المرجع السابق. ص١٩١، ١٩٢

٨٨) د. مناع، عادل. المرجع السابق. ص٢٠٨، ٢٠٩

العثمانيون عن اللغة العربية لجهة اللغة التركية التي أصبحت اللغة الرسمية للبلاد، بينما كانوا هم الأقلية عدداً بالنسبة للعرب. ٤- التجربة العثمانية التي استمرت أربعة قرون وانتهت بانفصال العرب عن الأتراك تضع البرهان على أن الدين وحده لم يكن الجامع الوحيد... والحضارة لا تلغي الخصوصية التي تتمتع بها الأقليات القومية والدينية)[٨٩].

لا يفوتنا الانتباه لليقظة القومية الحديثة، التي ربما، لخصها الشاعر اليازجي بالقول (تنبهوا واستفيقوا أيها العرب... لقد طغى الخطب حتى غاصت الركب).

لو شاءت الأطروحة التكثيف:

كان لسلسلة التمردات والاحتجاجات الفلسطينية، التي بلغت ذروتها في المحاولة الاستقلالية لظاهر العمر، توجهات ومضامين سجلها التاريخ، أما اليقظة الوطنية التي تزامنت مع أوائل القرن التاسع عشر فإنما تندرج في إطار اليقظة القومية العربية، التي ابتدأت يقظة قومية ثقافية مناهضة للتتريك. وثمة رأي مفاده أن مشروع محمد علي قد أذكى التطلعات القومية والتمرد على الأتراك، مثلما أذكت حركة ظاهر العمر التطلعات الاستقلالية الفلسطينية وتحدي الباب العالي. الشيء الذي لاحظناه أيضا في اندفاع الحركة السنوسية في تونس والقادرية في الجزائر رداً على الاحتلال الفرنسي.

لا تسعى الأطروحة للغوص في الجدل الدائر حول النظرية القومية. ولكن لا ينبغي اغفال أن الثورتين الأمريكية ١٧٧٦م والفرنسية ١٧٨٩م قد أكدتا على الهوية القومية، وسلطة العقل الأولى في بعدها الاستقلالي عن بريطانيا والثانية في بعدها الاجتماعي وولادة دولة قومية بديلة للإمارات ونقض الملكية الارستقراطية، والمرجعية الدينية وبالتالي اكتسحت الفكرة القومية أوروبا في القرن التاسع عشر لتزحف إلى أسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية في القرن العشرين، الأمر الذي نهضت في بداياته التطلعات القومية العربية، كل ذلك تلا عصر الحضارات الدينية، حيث كان المنظور الديني الممزوج بالسياسة هو العامل المحرك والقائد في الممالك الأوروبية والإمبراطورية العثمانية وما سبقهما.

(ولئن عرّف الأكاديمي الإيطالي ماتشيني في محاضرته (الأمة) في أواسط القرن التاسع عشر القومية بـ (المجتمع الطبيعي الذي يرتبط بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة جراء الحياة

---

٨٩) د. الحوت، بيان. مرجع سابق. ص١٣٢

المشتركة) فقد عرفها العربي ساطع الحصري في أواسط القرن العشرين (بوحدة اللغة ووحدة التاريخ وما ينتج عن ذلك من مشاعر وآلام وآمال)، فيما ستالين ركز على الحياة الاقتصادية المشتركة، وتحديداً في المرحلة الرأسمالية، إضافة للغة، التاريخ، الجغرافيا، العادات كمكونات للأمة)[٩٠].

من الواضح أن اللغة عنصر أساسي ووعاء للهوية القومية، وحضور اللغة العربية في فلسطين وسيادتها إنما توحي (بانتماء فلسطين لهويتها القومية العربية كتراث وحضارة. وإن الإشارة إلى وحدة الإرادة الناتجة عن الحياة المشتركة على بقعة جغرافية، إنما نجد جذوره في فلسطين منذ آلاف السنين، ليزداد عمقاً وتواشجاً في العهد العربي الإسلامي منذ أربعة عشر قرناً، بما تخلل هذا السياق من ثقافة عربية – إسلامية وآداب وأشعار ونتاجات ورموز. وبيسر يمكن ملاحظة ان العروبة حامل ومحمول للدين في تآخٍ في مراحل الصعود وانفكاك نسبي في مراحل الضعف. وهذا لاحظناه ايضا في نهاية القرن الثامن عشر في الحركة الوهابية التي ثارت على العثمانيين وامتدت في الجزيرة ببعدها العروبي الاستقلالي وبعدها الديني «التجديدي»، كما الحركة السنوسية في أواسط القرن التاسع عشر في ليبيا بما عرفت به من اجتهادات دينية ومقاومة للمحتل الايطالي، وشائع قول المهدي السنوسي (لا تحتقرن مسلما او نصرانيا او يهوديا او كافرا فربما خاتمته عند الله افضل منك) بما هو قريب من مفهوم المواطنة او النظر للانسان بناء على السلوك العملي الاخلاقي لدى سبينوزا. وذات الشيء يقال عن الحركة المهدية في السودان باجتهاداتها وعدائها لمفاسد الحكم ونضالها ضد المستعمر البريطاني.

وعموما، في غمرة الصراع إنما يتكرس بتدرج الانتماء الجمعي التحرري سعيا (لحياة مشتركة وإرادة مشتركة) (رينان) على (الثوابت الجغرافية) (مونتسيكيو))[٩١].

من هنا جاء (انخراط النخب الثقافية الفلسطينية في جمعيات عربية، كالجمعية العلمية في بيروت ١٨٦٨م، وحزب اللامركزية في القاهرة، والمنتدى العربي والشبيبة العربية والعربية الفتاة... ولمع اسم ضياء الخالدي الذي فاز بعضوية البرلمان العثماني عام ١٨٧٦م.

مثل هذه النخب تأثرت بأطروحات رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا الذين ساروا خطوات للأمام في طروحاتهم النهضوية والإصلاحية، ومنهم

---

٩٠) قطامش، أحمد. محاضرة. الهوية القومية. ٢٠٠٤. ص٦

٩١) قطامش، أحمد. المرجع السابق. ص٩

من درس في الأزهر الذي كان حاضنة لصراع الأفكار حينئذٍ، ومن هؤلاء الحاج أمين الحسيني والشيخ عز الدين القسام بأصوله السورية والذي انتمى لفلسطين وأقام في حيفا وأنشأ حركته السرية. وهناك أيضا من الفلسطينيين سليمان التاجي الفاروقي القانوني والشاعر والصحافي نجيب العازوري الذي أسس حزبا قوميا عربيا ووضع كتاب (يقظة الأمة العربية) في بدايات القرن العشرين، وسعيد الكرمي وعبد الله غوشة وخليل الخالدي... والعشرات من الأسماء البارزة، الذين شكلوا النخبة السياسية القيادية ومعظمهم حصل على تعليم جامعي.

لاحظ هؤلاء تزايد عدد اليهود في فلسطين من ٢٪ بعدد ٥ آلاف إلى ٥٪ بعدد ٢٥ ألفاً عام ١٨٨٢م.

وعلى أثر اغتيال القيصر الروسي عام ١٨٨١م بمشاركة يهودية ثورية انطلقت موجة من اللاسامية ضد يهود روسيا وبولندا دفعت أعداداً كبيرة للفرار لأوروبا وأمريكا وفلسطين.

وتحت عين وبصر الحكم العثماني تسرّب اليهود وأقاموا تعاونيات زراعية صغيرة في فلسطين. ولأن الشيء يستولد نقيضه، فمع تدفق الهجرات اليهودية راحت بتدرج تتضح الأهداف السياسية بما أثار ريبة الفلسطينيين ومقاومتهم التي تجلت بداياتها في صدامات الفلاحين والبدو الذين استشعروا منافساً على مراعيهم.

يستخلص الدكتور المسيري أن اليهود تاريخيا لم يكونوا مزارعين بيد أن مخططاتهم السياسية أوجبت مثل هذا التوجه الذي أخفق على امتداد عقدين إلى أن تولت إدارته شركات اليهودي الفرنسي روتشليد.

رفع أعيان فلسطين منذ ١٨٩٠م وقبلئذ مذكرات تدعو لوقف الهجرة اليهودية وتدين نقل ملكية الأرض لأيدي اليهود. وتعكس رسالة المثقف الفلسطيني رئيس بلدية القدس وعضو البرلمان العثماني ضياء الخالدي في أواخر القرن التاسع عشر لهرتزل زعيم الحركة الصهيونية نموذجا، حيث جاء فيها (أن فلسطين آهلة بسكانها المسلمين والمسيحيين، وأن لليهود الحق بالعيش فيها كما في العصور الغابرة. وأن الاستيلاء على فلسطين فعل عدائي لا يتم إلا بالحرب والمدافع). جاء رد هرتزل (أن المشروع الصهيوني سيجلب الموهبة والمبادرة والإمكانات المالية بما يؤدي إلى تحسين أوضاع البلاد ورفع أسعار الأرض... وأنه لا يفكر بطرد غير اليهود)(٩٢).

---

٩٢) د. مناع، عادل. المرجع السابق ص٢٣٤، ٢٣٥

أي أنه يتكلم بثقة مستوحاة من العبارة الصهيونية (فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض)، المقتبسة عن اللورد البريطاني ميتفورد عام ١٨٣٩م (هناك أرض بلا شعب والله يوجهنا بحكمته ورحمته نحو شعب بلا وطن). وما كتبه ١٨٤٥م داعياً الشعب اليهودي للترابط مع السياسة البريطانية من أجل إعادة إنشاء كيان لليهود في فلسطين تحت وصاية بريطانيا وذلك لإعادة قوة بريطانيا في الشرق وتأمين خط مواصلاتها إلى الهند). وهذا ينسجم تماماً مع ما كتبه وزير خارجية بريطانيا بالمرستون عام ١٨٤٠م بعد هزيمة مشروع محمد علي الوحدوي «ليس في مصلحة بريطانيا قيام ملك عربي قوي... يتعين إقامة قاعدة يهودية في فلسطين» وما كان قد تعهد به هرتزل في أواخر القرن التاسع عشر وشرحه في رسائله لعائلة روتشليد في كتابه (الدولة اليهودية) ١٨٩٥م (بأن الحضارة الأوروبية بحاجة لمتراس متقدم ضد البربرية) وما قاله القائد الصهيوني نوردو (تريدوننا حراساً على قناة السويس. إننا نقبل ولكن أعطونا الإمكانات).

وقد تطلب الأمر أيضاً استدعاء التراث الديني وتوظيفه (فالعودة اليهودية لفلسطين اقتضت استدعاء التراث التوراتي اليهودي من طراز (هيئوا أنفسكم لتتملكوا الأرض التي أعطاها الرب لكم) سفر يشوع و(على أنهار بابل جلسنا وبكينا صهيون. إن نسيتك يا أورشاليم تنساني يميني وليلتصق لساني في حلقي) سفر المزامير. والتمهيد لذلك بدعوة الحاخام البولندي كاليشر (لإقامة مستعمرات زراعية)، وحاخام يوغسلافيا قلعي الذي سعى لتأسيس جمعية يهودية، والطبيب الروسي بنكسر الذي قال بخصوصية اليهود الثقافية وضرورة إيجاد قطعة أرض لهم لخلق قومية يهودية)[٩٣].

كل ذلك قبل هرتزل بعقد أو عقدين وأكثر. أما الذي حظي بمكانة أكبر وله تأثير فاق الجميع فهو الألماني هيس الذي أصدر كتابه (روما والقدس عام ١٨٦٢م، الذي اعتقد أنه ممكن إغراء السلطان العثماني بالمال، أما رسائله الاثنتا عشرة في كتابه فهي تبشير بضرورة قيام حركة يهودية قومية للاستيطان في فلسطين، هاتفاً تقدموا أن أرض أجدادكم تناديكم. سيرتجف الشرق لدى قدومكم. وهو يطلق على اليهود الشعب الممتاز ويقول إن اليهود وحدهم قادرون على السمو، أما اليهودية فهي أساس الحضارات والأديان. ويضيف في الرسالة السادسة: إن اليهود يمتلكون بوحي من روح الله، موهبة مميزة في الرؤى الاجتماعية... ولا يخفي نظرته التحقيرية للعرب بمخاطبة اليهود (أنتم يجب أن تكونوا حملة الحضارة للشعوب البدائية في آسيا وأساتذة العلوم الأوروبية

٩٣) قطامش، محاضرة بدايات المشروع الصهيوني. مركز منيف آب/٢٠٠٣. ص٤

التي أضاف إليها شعبكم الكثير.. أنتم الدعامة الأخلاقية للشرق، أنتم قوس النصر للحقبة التاريخية المقبلة، الذي سوف يكتب تحته عهد الإنسانية العظيم، ويختم في حضوركم كشهود على التاريخ والمستقبل)[٩٤].

لقد مهدت الصهيونية الثقافية للصهيونية السياسية، بل نشأت وتوطدت الحركة الصهيونية بتلاحم استراتيجي بنيوي مع المشروع الاستعماري كما يوضح الفرنسي مكسيم رودنسون... ونشطت الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى أن بلغت مستعمراتها عشرين في نهاية القرن ١٩ وكانت بدايتها مستعمرة ملبس التي أسميت (بيتح تكفا) أي بوابة الأمل في ١٨٨١م. وقد استخلص قائد الحركة الصهيونية ومنظرها هرتزل تعريفاً للشعب (أنه جماعة تاريخية متماسكة لها عدو مشترك) وبالتالي وظف اللاسامية في خدمة المشروع الصهيوني واختزل المقاربة الفكرية بما يتناسب مع حاجته السياسية.

ويفسر ايفانوف أسباب ظهور الصهيونية بِ

١- مصلحة مباشرة إمبريالية في ضوء التنافس البريطاني – الفرنسي.

٢- دعم هيمنة الفئات العليا اليهودية على الشغيلة اليهود.

٣- عقلية الجيتو الانعزالية.

لمنع اندماج اليهود في الشعوب (كل القوى الرجعية تعارض الاندماج) لينين[٩٥].

ويضيف الدكتور بشير نافع في (الإمبريالية والصهيونية) أن حكومة لندن قد أنزعجت من هجرة يهود روس وبولنديين إلى بريطانيا فاقترح وزير الخارجية تشامبرلين توطينهم في أفريقيا.

أما الرواية الصهيونية فتقول، إن الصهيونية حركة عالمية أطلقها هرتزل، وهي (تبدو فريدة في نوعها، تنادي بالسيادة والوحدة السياسية بين جماعة من البشر وتتوزع على قارات خمس وتتحدث لغات مختلفة)[٩٦].

أما الدكتور توما فيلخص المنطق الصهيوني (تصر الصهيونية على اعتبار اليهود شعبا عالميا

---

٩٤) هس، موسى. روما والقدس. ملخص. نشرة فلسطينية. ١٩٨٥. ص٦

٩٥) ايفانوف، حذارِ من الصهيونية. دار التقدم موسكو. ص٤٤،٤٥

٩٦) د. سيفر، دان. أزمة هوية إسرائيل والصهيونية. ١٩٨٠. ص٣

واحداً وظاهرة فريدة لا ينطبق عليها القوانين الاجتماعية، حتى أنهم يعتبرون أنفسهم أكثر من أمة وقومية)[٩٧].

وفي الانسيكلوبيديا اليهودية جاء (تعني الهوية اليهودية جماعة يؤلف التاريخ والقدر بينها، ما زال أفرادها يشعرون بانتماء لهذه الجماعة).

معروف أن الصهيونية ظاهرة أوروبية، ولدت في أوروبا في أرحام الغيتوات حيث منع الأوروبيون منذ القرن السادس عشر اختلاط اليهود بسائر السكان، وأول جيتو نشأ في البندقية ١٥١٦م وكان أكبر من جيتو وارسو – بولندا الذي ضم ٢٢٠ ألفا وفيه نشأت لغة اليديش. وفي أواخر القرن التاسع عشر اندثر نظام الغيتو فيما عدا روسيا القيصرية. وكان نابليون قد منح اليهود حقوقا مدنية منذ ١٧٩١م نتيجة إلغاء حواجز الإقطاع والدين بمساواة مواطنية كاملة، وفي ١٨٣٠م أقرت فرنسا المساواة بين الأديان. وثورات ١٨٤٨م التي اجتاحت أوروبا حملت معها قوانين حررت اليهود ومنحتهم حقوقا مدنية كاملة.

عموما، (لقد شهدت أوروبا أربع موجات من الطرد والتهجير الجماعيين لليهود:

الموجة الأولى: رافقت الحروب الصليبية في نهايات القرن الحادي عشر... وكان اضطهادهم غوغائيا.

الموجة الثانية: تزامناً مع الموت الأسود حين تفشى مرض الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر، وانتشرت شائعات أن الطاعون بلاء من اليهود، فهوجموا بعنف وأحرقت بيوتهم وخصوصا في المدن الألمانية.

الموجه الثالثة: جاءت عقب انتهاء الحكم العربي في اسبانيا وانتشار محاكم التفتيش، وكان الانتقام من اليهود بطردهم في أواخر القرن الخامس عشر. بينما كانوا قد طردوا من بريطانيا في ١٢٩٠م.

الموجة الرابعة: مصدرها روسيا القيصرية اثر مقتل القيصر في ١٨٨١م. وكانوا نواة الصهيونية في فلسطين. وبلا شك أن الاضطهاد القيصري لليهود كان عاملا محرضا للمشروع الصهيوني)[٩٨].

---

٩٧) د. توما، اميل. الصهيونية المعاصرة. دار الأسوار عكا. ص٤٧

٩٨) د. الحوت، المرجع السابق. ص٢٣٢

لم تكن حياة اليهود سلسلة من الاضطهادات المتلاحقة وإلا لما أمكن لهم الاستقرار وبناء قوة اقتصادية متعاظمة، ناهيكم عن أن الاضطهادات قد شملت الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها كما الجاليات الدينية الأخرى. أما يهود الأندلس حيث استمر الحكم العربي سبعة قرون ويزيد فكان لهم الدور الأكبر وبلغوا أعلى المراتب ولاقوا ما لاقاه العرب بعد دحرهم، والكثير منهم تحول دينيا باتجاه المسيحية، وهذا حال المسلمين من أصل أوروبي الذين بقوا في الأندلس. والأديبة المصرية د. رضوى عاشور في روايتها (ثلاثية غرناطة) صورت هذا المعمعان ببراعة وشفافية.

وعليه، كان العامل الأساس في إذكاء الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين، ليس الاضطهاد، وإن وجد بعضه، ذلك أن اليهود قد حصلوا على حقوقهم المدنية وتراجعت جذريا ولم تعد ذات شأن موجة معاداة السامية (فمعاداة السامية بين ١٨٩٧ – ١٩١٧م كانت في أضعف حلقاتها)[٩٩]. بل المخططات الاستعمارية. ولو ذهبنا للنهايات، أي تحقيق حلم هرتزل بدولة (فإسرائيل واقع استعماري) مكسيم رودنسون، لها وظيفة إمبريالية وهي منذ نشأتها لهذا اليوم (حليف استراتيجي وكنز استراتيجي) ريغن.

وعلى الصعيد الأيديولوجي (لا يلحق العداء للسامية ضرراً باليهود، فهو حركة نافعة لأجل تطوير الفردية واليهودية) هرتزل، و(حين يغادر الدين اليهودي جدران الغيتو يتعرض لخطر فقدان وجوده الجوهري) آحاد هعام. وبن غوريون قال (إن العداء العربي بركة) وفسر الأمر لينين بالقول (لا ريب أن ثمة صلة بين العداء للسامية وبن مصالح الفئات الرأسمالية).

ولا يجوز نسيان أن الصهاينة قد استفادوا من تواطؤ بعض العائلات الاقطاعية التي باع لها الفلاحون أرضهم لتسديد ضرائب السلطات العثمانية ومن تواطؤ ضباط في جهاز الحكم العثماني، إلى درجة أن ينجح الصندوق القومي اليهودي بشراء أكثر من ٤٠٠ ألف دونم خصصها لبناء ٤٥ مستعمرة، والأمر نفسه ينسحب على شراء أراضٍ في ١٧ قرية في شمال فلسطين من عائلة سرسق اللبنانية.

تسارع تكون المسألة الوطنية الفلسطينية في علاقة اضطرادية تناقضية مع تسارع موجات المشروع الصهيوني، ودار الصراع بين زمنين: زمان الرأسمالية التي انبثقت من أرحامها الصهيونية بإمكاناتها وعلومها ومشروعاتها الاستعمارية، وزمان ما قبل الرأسمالية، إلى ما هو قريب من العقلية الفلاحية والجبرية وأدواتها البسيطة.

---

٩٩) د. الحوت، المرجع السابق. ص٢٥٦

حين عقد مؤتمر بازل الصهيوني الأول عام ١٨٩٧، حضره ٢٠٤ رأسماليين من ١٥ دولة في سعي جدي لإحياء الشخصية اليهودية، وتوجيه الأنظار لفلسطين، وتمخض عنه عدة قرارات أهمها، تأسيس منظمة عالمية، بناء مؤسسات يهودية، تعزيز الاستيطان في فلسطين، وانتزاع اعتراف دولي. كان لكلمة هرتزل رئيس المؤتمر وقعها وتأثيرها على القرارات حيث قال (إن معاداة السامية منحتنا القوة الذاتية... إن الصهيونية عودة اليهود لليهودية... أهمية الوعد الدولي) ودحرت مقترحات الحاخام هيرش الذي اقترح أن يكون الاستيطان في الأرجنتين، ومقترحات البوند الروسي الذين أيدوا أن يكون المشروع في أوغندا. وتماثل هرتزل العلماني مع عالم التلمود الروسي ليفي بأن (أرض إسرائيل لشعب إسرائيل) تماشياً مع ما جاء في التوراة (الإصحاح العاشر) بأن (كل ما تطؤه أقدامكم لكم من نهر الفرات إلى البحر الكبير) وكتب هرتزل في يومياته عقب بازل (لو شئت اختصار بازل بكلمة واحدة، سأحاول جاهداً عدم نشرها، لكانت: بازل أنشأت الدولة اليهودية وخلال خمسين عاما سيعرف العالم هذا). وجاءت بازل التي استفادت من التوراة أشد تطرفا منها. ففي سفر يشوع يجري الإقرار بأن فلسطين ليست خالية، (تقدموا لأن الرب سيعمل الأعاجيب، يطرد أمامك الكنعانيين، الحثيين، اليبوسيين، الأموريين...) وفي سفر القضاة (بقي الكثير من الشعوب تحت سيطرة اليهود) أما مقولة هرتزل فكانت (فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض) تلك (الفكرة التي كررتها الدعاية الصهيونية ألف مرة – كتب مكسيم رودنسون – والتي تقول أن فلسطين في بداية القرن العشرين صحراء، هي فكرة خاطئة تماماً. ففلسطين كانت آهلة بسكانها) الأمر الذي يكشف الصهيونية، منذ البدايات، بأنها غير أخلاقية وعنصرية لا تعترف بالشعب الأصلاني وحقوقه، بل ولا تتورع عن تزوير التاريخ لخدمة أهدافها الاستعمارية، وهذا وحده كافٍ لاستمرار الصراع المفتوح في المنطقة.

لقد دخلت فلسطين منعطفاً كبيراً بعد أن دق بابها مشروع استعماري غربي بأداة صهيونية استيطانية كولونيالية. وراحت تعاني بأكملها، الشعب بأسره، بطبقاته وفئاته: الفلاحون والبدو، عمال المدن والمرافئ، الفئات الوسطى من حرفيين صغار وموظفين وأصحاب حوانيت، العوائل الاقطاعية والتقليدية بما تملكه من أطيان وتجارة،. وقد سهل قانون الطوائف العثماني على اليهود التسرب إلى فلسطين، فنشطت الهجرة اليهودية إليها سيما المؤتمر الصهيوني الخامس ١٩٠٥م قرر اعتبار فلسطين هدفا للمشروع الصهيوني إضافة إلى اعتماد اللغة العبرية. وفي عام ١٩٠٨م تقرر تشكيل حرس المستعمرات (هاشومير) وأنشئ معهد العلوم التطبيقية عام ١٩١٢م في حيفا والجامعة العبرية في القدس ١٩١٨م، وتجددت حمى زيارات البعثات الأكاديمية الأوروبية لدراسة

مزايا فلسطين وخصائص البلاد لتعبيد الطريق أمام عربة المشروع السياسي.

وفي غمرة الحرب العالمية الأولى التحقت كتائب عسكرية يهودية بقوات الحلفاء، وقد وجه القائد الصهيوني وايزمن رسالة إلى الحكومة البريطانية (إننا نضع مصيرنا القومي الصهيوني بين أيديكم آملين النظر في القضية على ضوء المصالح البريطانية) بما مهد لوعد بلفور ١٩١٧، الذي ضاعف الهجرة اليهودية وساعد على إقامة مؤسسات إدارية واقتصادية خلقت الأساس لإنشاء دولة يهودية تماشيا مع حلم هرتزل (جسر يهودي للعالم المصنع في عالم التخلف) في (إطار التوسع الأوروبي الاستعماري) رودنسون.

وعليه، فبينما كان عدد اليهود الفلسطينيين ٥٠٠ نسمة عام ١٨٢٧ أصبحوا نحو ٢٥ ألفا عام ١٨٨٠ من أصل ٥٠٠ ألف أي ٥٪ من سكان فلسطين، و٦٥ ألفا في سنوات الحرب العالمية الأولى ونسبتهم ١١٪ من عدد السكان عام ١٩٢٢م وحوالي ٢٥٠ ألفا، ١٧٪ عام ١٩٣١م، و٢٨٪ عام ١٩٣٣ ونصف مليون بنسبة ٣٢٪ عام ٤٣، أي لقد تضاعف الفلسطينيون خلال ٦٠ عاما نحو ١٠٠٪ بينما تضاعف اليهود ٦٠٠٪ خلال نفس الفترة، ليس بفعل الخصوبة الطبيعية بل بفعل استقدام مستعمرين غرباء عن تارخ البلاد.

بطبيعة الحال كان لوعد بلفور المكون من ٦٧ كلمة في ١٩١٧/١١/٢ الذي جاء فيه (تتعهد حكومة جلالة الملك ببذل الجهد لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين... إن الدول الكبرى لا تعبأ برأي العرب الذين يعيشون في فلسطين ولا تعتزم استشارتهم) رغم أن فلسطين ليست قطعة من بريطانيا والفلسطينيين ليسوا مواطنين إنجليز، ومع ذلك صدر الوعد الذي تحول صيرورة سياسية انسجاما مع اتفاقية سايكس – بيكو ١٩١٦ التي اقتسمت البلاد العربية وقسمتها دون أن يتجاوز العرب آثار هذه الاتفاقية لهذا اليوم.

وقد فنّد القانوني الفلسطيني هنري كتن شرعية وعد بلفور بالقول (لم يكن لبريطانيا أية سيادة على فلسطين ولا سلطة لإصدار الوعد. وهذا ما يجعل الوعد باطلاً قانونا... إن أي اعتراف من الدول الكبرى بالوعد، باطلٌ، ذلك لأنها لا تملك سيادة على فلسطين)[١٠٠].

وفي مؤتمر باريس ١٩١٨ تبدى للعيان التحالف الأوروبي – الأمريكي مع الحركة الصهيونية ضد الوفد العربي برئاسة الأمير فيصل وتبخرت وعود بريطانيا للشريف حسين بإقامة دولة

---

١٠٠) د. الحوت، المرجع السابق. ص٤٥٨

عربية، وجاء مؤتمر يافا اليهودي العالمي في نفس العام ليخلص إلى الآتي:

١- الاعتراف بفلسطين وطناً قومياً لليهود... تشمل حدودها المناطق المائية من منحدرات الليطاني وسفح جبل الشيخ ووداي اليرموك وشرقي الأردن وصولا لرأس النقب.

٢- الإصرار على الحماية البريطانية.

وتم استقدام ١٠٠ ألف مستوطن عامي ٢١ – ١٩٢٢ وأسست الهاجاناة (نواة الجيش) بما يعكس وضوح الرؤية ووحدة الأداة بينما طغى على العمل الفلسطيني تعدد الهيئات والخلافات.

ولئن كانت فلسطين قد افتقرت لكيانية سياسية واحدة، شأن البلدان العربية الأخرى، والكثير من الشعوب غير أنها امتلكت خصائص جماعية تشكلت عبر سياق تاريخي طويل، ولولا الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني لنالت استقلالها بعد هزيمة تركيا وأقامت دولة مستقلة أسوة بشعوب أخرى. وقد غلب على سكانها حينذاك الهوية القومية العربية (٩٠٪ عرب، ٨٪ يهود، ٢٪ أجانب)[١٠١]. وكان من بين العرب ٨٩٪ مسلمون و١١٪ مسيحيون. استقر ٥٠٪ في المدن و٥٠٪ في الأرياف والصحاري.

وبلغة التوصيفات الطبقية، كانت هناك أغلبية كادحة من الفلاحين والبدو وعمال الموانئ والمزارعين والحرف الصغيرة، والفئات الوسطى من موظفي الدوائر الرسمية والمهن الحرة والتجارة سيما في المدن. وأقلية من كبار التجار والملاكين العقاريين والعوائل الاقطاعية.

وكانت معظم القرى أنشئت على التلال والمرتفعات، وتمتعت باكتفاء اقتصادي واجتماعي، مثلما سادت الحمائلية والعائلية البطريركية. وفي المدينة تعزز نفوذ العوائل الثرية، وانصرف الكثير من أبنائها للاهتمام بالشؤون الدينية والعلمية، وأتاح لها الحكم العثماني الحصول على بعض أراضي الأوقاف التي تحولت مع الزمن ونظام الإرث لملكيات خاصة، وأبناؤها كانوا يتقلدون أعلى المناصب الإدارية.

لا تفوتنا الإشارة إلى أن الحياة الزراعية قد طغت على فلسطين حيث تميزت بتصدير الحمضيات والصابون والموز والخضروات... وارتفع ميزانها التجاري في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين عدة مرات، إلى درجة أنه يتفوق على الميزان التجاري لسوريا، كما فاق معدل

---

١٠١) د. الحوت، المرجع السابق. ص٤٧٦

الصادرات من ميناء يافا معدل الصادرات من ميناء بيروت)[١٠٢].

حاولت بريطانيا التي احتلت فلسطين بعد هزيمة تركيا ١٩١٧ تمرير مشروع سياسي بإقامة حكم ذاتي «وانتخاب مجلس تشريعي» عام ١٩٢٢ غير أن المقاطعة الفلسطينية والاحتجاجات أفشلته.

فأهل فلسطين الذين استقبلوا في القرن السادس عشر هجرة يهودية جماعية هربت من اضطهاد اسبانيا والبرتغال بعد هزيمة العرب، عادت واستقبلت اليهود الفارين من اضطهاد القيصرية الروسية في القرن التاسع عشر، ولكن مع تدفق المزيد من المستعمرين (المهاجرين) راح يتكون وعي وطني يستخطر هذه الهجرة، سيما أن بعض الاحتكاكات قد حصلت في قرية ملبس ومدينتي القدس وطبريا، ما قبل انعقاد بازل. وتشكلت لجنة محلية في القدس للتحقيق في العديد من العرائض احتجاجا على صفقات بيع الأراضي لليهود. ولخص الصحافي الفلسطيني عازوري في بدايات القرن العشرين، ببصيرة ثاقبة، المسألة على النحو التالي: (هناك جهد يهودي خفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة... وهناك يقظة الأمة العربية... وسوف تتعارك هاتان الحركتان باستمرار إلى أن تنتصر إحداهما على الأخرى)[١٠٣].

وقد تصاعدت الاحتجاجات التي اتخذت اشكالا أوسع بعد افتضاح وعد بلفور وإن أصابها الخفوت وصدمة الناس بعد أن حلت القوات البريطانية محل القوات التركية، ولكن لتنهض ثانية في السنوات اللاحقة.

وباسقاط مشروع الحكم الذاتي تصاعد التماسك الفلسطيني وعقدت القيادة الوطنية في حزيران ١٩٢٨م مؤتمراً طالب لندن بحكومة نيابية في فلسطين، كما أعلن احتجاجه على كثرة الموظفين الإنجليز ومنح شركة أجنبية امتياز البحر الميت الغني بالأملاح. كان ذلك مقدمة لمنعطف عام ١٩٢٩م، حين قامت مجموعة يهودية بالصلاة في ساحة حائط المبكى، فجاء رد الفلسطينيين بالصلاة والتظاهر. وبيْنما ينظر اليهود لحائط المبكى كجدار لهيكل سليمان دون أي دليل تاريخي أو أثري، ينظر له الفلسطينيون بأنه الحائط الذي ربط فيه رسول الإسلام دابته في ليلة الإسراء.

انفجر الموقف وامتدت الصدامات للعديد من المدن الفلسطينية فسقط أكثر من ١٠٠ يهودي

---

١٠٢) صلاح، حنا. فلسطين وتجديد حياتها. اصدار الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية. ص٦٥

١٠٣) عازوري، نجيب. ملخص. يقظة الأمة العربية. ص١٢

وجرح ٣٠٠ وأقل بقليل في الجانب العربي، إضافة للمحاكمات الجائرة لمئات الفلسطينين في محاكم الاحتلال البريطاني حيث أعدم عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي في سجن عكا يوم الثلاثاء الحمراء ٣٠/حزيران ١٩٢٩، وغدا هذا اليوم أحد الرموز الوطنية للشعب الفلسطيني. وقامت السلطات البريطانية باجلاء ٥٠٠ عائلة فلاحية فلسطينية من أراضيها في وادي الحوارث وسلمتها للمنظمات الصهيونية، فاندلعت المواجهات مع القوات البريطانية.

تم ايفاد لجنة شو لتقصي الحقائق وصدر الكتاب الأبيض الذي طغى عليه ارهاب الفلسطينيين وتأمين الهجرة الوافدة إلى فلسطين، غير أنه لم يلب كامل المطالب الصهيونية فأعربت قيادتها عن امتعاضها، وتقدم وايزمن باستقالته إلى أن تراجعت بريطانيا وفتحت البوابات لهجرة يهودية مكثفة تضاعف فيها عدد اليهود إلى ¼ مليون، علاوة على التسهيلات والمنح التي سمحت لليهود بإقامة قاعدة اقتصادية حديثة في قطاع الزراعة واحتكار الصناعة وإقامة أجهزة إدارية ومؤسساتية...

في تلكم الفترة صعد الحزب النازي إلى الحكم بعد أن فاز في الانتخابات الألمانية عام ١٩٣٣، مستفيداً من عدم تحالف الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي اللذين حصلا على مجموع اصوات تفوق ما حصل عليه الحزب النازي، وقد أنذر هذا الفوز بقرع طبول الحرب العالمية الثانية. تعاظم الغليان الفلسطيني وتجددت المظاهرات والمصادمات، وبعد أن استشعرت قيادات شبابية عقم اللجنة التنفيذية، قامت بتأسيس حزب الاستقلال عام ١٩٣٢ الذي قال بالخطر الصهيوني الاستيطاني والخطر الاستعماري البريطاني في آن، ودعا لتحالف شعبي يتجاوز مناشدات اللجنة التنفيذية لبريطانيا، كما تشكل الحزب العربي، الإصلاح، الكتلة الوطنية، الدفاع كما مؤتمر الشباب، إضافة للحزب الشيوعي الفلسطيني الذي جمع عناصر فلسطينية ويهودية، وبتأثير تنامي الهوية الوطنية الفلسطينية أصبح أمينه العام فلسطينيا.

وفي هذه الأجواء المشحونة والتظاهرات الصاخبة وسقوط الشهداء والجرحى نشأت الحركة القسامية السرية التي حملت السلاح بقيادة الشيخ عز الدين القسام، (سوري الأصل وأحد قادة الثورة السورية ١٩٢٠) الذي استشهد في يعبد شمالي فلسطين ١٩٣٥ لتستمر مجموعاته المقاتلة كشرارات لإضراب الستة أشهر واندلاع ثورة ٣٦ - ١٩٣٩ التي حرضها واستثارها تدفق موجات من المستعرين الصهاينة ومصادرة المزيد من الأراضي الفلسطينية وثقل الضرائب وتدهور الأحوال المعيشية وتوق الشعب للانعتاق والاستقلال وهو الذي يرزح تحت ضغوط الاحتلال البريطاني.

استخدمت بريطانيا قوات عسكرية ضخمة لضرب المقاومة المسلحة حيث قتلت واعتقلت ١٢ ألف مواطن فلسطيني وفرضت نظام منع التجول وهدمت البيوت بغية امتصاص واحتواء النقمة الشعبية المتصاعدة. تقدمت حكومة الانتداب بمشروع التقسيم الذي ينص على إقامة حكومة عربية تضم شرقي الأردن وجزءاً من فلسطين وحكومة يهودية على معظم فلسطين، واستبقاء الأماكن المقدسة تحت الإشراف البريطاني.

ولد الاقتراح ميتاً أمام تصاعد الصدامات وتوالد اللجان القومية في أرجاء المدن الفلسطينية وإعلان الاضراب الجماهيري العام وتوحّد القيادة الفلسطينية بزعامة الحاج أمين الحسيني... واتسع نطاق التظاهرات الشعبية والإضرابات لتمتد إلى سوريا والعراق ومصر رافضة التقسيم ومؤكدة على عروبة فلسطين.

مع تواصل الإضراب العام الذي استمر ستة أشهر بما صاحبه من امتناع عن تسديد الضرائب ومقاطعة البريطانيين وتنامي دور الخلايا المسلحة شهدت الثورة بقدوم فوزي الفاوقجي من العراق كما العديد من المتطوعين السوريين واللبنانيين قفزة في تنظيم صفوفها واشتباكها مع المحتل والصهاينة. لم تنجح القبضة الحديدية بما فيها العقوبات الجماعية والإعدامات وحظر التجوال والترويع... إلى أن جاءت الضربة من الملوك العرب الذين دعوا (للإخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا الصديقة بريطانيا).

تجاوبت القيادة الفلسطينية (اللجنة العليا) وانسحب القاوقجي والمتطوعون العرب! وتألفت لجنة بيل لتقصي الحقائق وتوصلت لمقترح التقسيم آنف الذكر. استؤنف القتال ودارت معارك حامية الوطيس قتل فيها مئات اليهود والجنود البريطانيين وحرقت مؤسسات ومقرات انتدابية... أما الخسائر البشرية والاقتصادية الفلسطينية فكانت أضعافاً... استمرت المواجهات إلى أن صدر الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ الذي نص على قيام دولة فلسطينية في عموم فلسطين بعد فترة انتقالية لمدة عشرة أعوام تراعي مصالح الفريقين العربي واليهودي على أن تكون مرتبطة ببريطانيا. هدأت الأوضاع.

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية تسلطت الأضواء على قضايا كبرى وتضاءل الاهتمام بفلسطين ونقلت القيادة الصهيونية مقرها إلى أمريكا مستفيدة من المذابح الواسعة التي نفذها الحكم النازي ضد اليهود بعد أن أعلن هتلر عن أوروبا الوسطى خالية من اليهود...

وفيما يتحدث المفكر الفرنسي روجيه جارودي وسواه عن قتل ٢ – ٣ ملايين يهودي هم جزء من ٤٠ – ٥٠ مليوناً قتلوا في الحرب العالمية الثانية تتحدث المصادر الصهيونية عن ٦ ملايين فيما أصبح يعرف بالمحرقة (الهولوكست).

تعهد تشيرشل رئيس وزراء بريطانيا لوايزمن زعيم الحركة الصهيونية بإقامة دولة يهودية تضم ٣ – ٤ ملايين يهودي في فلسطين. وبلغ التحالف الصهيوني – الأمريكي ذروته بعقد مؤتمر صهيوني عالمي عقد في نيويورك عام ١٩٤٢ وقد خلص إلى قرار صريح لا لبس فيه (بإقامة دولة يهودية فوراً وتشكيل قوة عسكرية ضاربة)، فيما أعلن الرئيس الأمريكي ترومان عن ضرورة تأمين هجرة ١٠٠ ألف يهودي إلى فلسطين، نسفاً لحق تقرير المصير للفلسطينيين وشطباً للكتاب الأبيض الذي تنصلت منه بريطانيا علانية بعدئذ حينما طالبت اللجنة التحضيرية للجامعة العربية بتطبيقه عام ١٩٤٤. ولاسترضاء الحكومات العربية عقدت الحكومة البريطانية مؤتمر لندن بمشاركة عربية، تمهيداً لنقل الملف الفلسطيني للأمم المتحدة، حيث أقرت الجمعية العمومية في نيسان ٤٧ إرسال لجنة تقصي حقائق أوصت بإنهاء الانتداب وإقامة نظام ديموقراطي يضمن حكومتين مستقلتين في دولة اتحادية، غير أن القرار بقي حبراً على ورق.

تصاعدت الاشتباكات وزادت موجة العداء لبريطانيا التي سهلت تمدد قوات الهاجاناة ميدانيا، وفي ١٩٤٧/١١/٢٩ اجتمعت الجمعية العامة وناقشت رأيين: أحدهما يدعو لدولة اتحادية والثاني يدعو لدولتين ووحدة اقتصادية. أقرت الأغلبية قرار التقسيم رقم ١٨١الذي منح اليهود ٥٦٪ من فلسطين فيما لم يكن لهم سوى ٥،٦ ٪ حسب الوثائق البريطانية. تضم دولة اليهود ٤٩٥ ألف يهودي و٤٩٠ ألف فلسطيني، أما الدولة العربية فتضم ٨٠٠ ألف فلسطيني ونحو ١٠ آلاف يهودي، ومدينة القدس دولية بمساحة ١٪ والصحافي الشهير هيكل كتب (أن المفوض البريطاني ذكر للوزير المصري كمال الدين حسين (إن مشروع التقسيم غير عملي ويكفي إلقاء نظرة واحدة على الخارطة لنرى مدى تداخل حدود الدولتين. وأكد أنه لو كانت هاتان الدولتان عربيتين لما استطاعتا أبدا العيش في وئام على أساس خط الحدود الذي رسمته لجنة التقسيم)[١٠٤].

جوبه قرار التقسيم برفض فلسطيني وعربي رسمي وشعبي، وطافت المظاهرات في عديد من المدن والعواصم العربية، وأصدرت الجامعة العربية بياناً اعتبرت فيه قرار التقسيم باطلاً من أساسه، ودعت الهيئة العليا الفلسطينية لإضراب استمر ثلاثة أيام عمّ أرجاء فلسطين واندلعت

١٠٤) هيكل، محمد حسنين. العروش والجيوش. قراءة في يوميات الحرب. دار الشروق. ١٩٩٨. ص٧٣

مواجهات مع اليهود وشنت هجمات مسلحة على المستعمرات الصهيونية استخدمت فيها أسلحة هزيلة.

تشكل الجهاد المقدس بمشاركة ١٥ ألف متطوع فلسطيني بقيادة أمين الحسيني وعبد القادر الحسيني وجيش الإنقاذ العربي بمشاركة ٧ جيوش عربية قوامه ١٥ ألفاً بقيادة الأمير عبد الله والضابط البريطاني كلوب ليواجه جيشاً صهيونيا مدربا ومسلحا ناهز ٦٨ ألفا بقيادة بن غوريون.

ويذكر الصحافي هيكل أن الملك فاروق ملك أهم دولة عربية كان يعتقد بضرورة تجنيب مصر ويلات الحرب بتأييد من شيخ الأزهر، وأنه كان منغمساً في مغامرات والدته وزوجته ويحاول تبرير جموحه في غواية متحمسة لكي ينسى من خانوه... أما الملك عبد الله فكان يعتقد (إذا لم تدخل مصر الحرب فالكل معطل وإنه وحده القادر على الحركة)... وفي استقباله الوزير المفوض للملك فاروق قال له (قرار التقسيم تم تنفيذه فعلا وقوات يهودية وهيئات بلدية تسيطر على مناطقها، والدول العربية لا تشعر بشيء، وأنا كرجل عربي واجبي حماية الأماكن المقدسة في فلسطين ولن أتركها بعون الله تقع تحت أيدي اليهود. ونحن في الأردن لا موانئ لنا سوى العقبة وإذا وقعت فلسطين فكيف لنا أن ننفذ إلى البحر. هل نشق سرداباً تحت الأرض... إن فكرة الدفاع المشترك مع بريطانيا مقبولة... واختتم أقسم بالله العظيم أنني أحب الملك فاروق كما أحب ولدي)[١٠٥].

جاءت النتيجة نكبة كبرى للفلسطينيين وتطهير عرقي اقتلع ثلثي الشعب الفلسطيني واحتلال ثلاثة أرباع الوطن وأعلنت إسرائيل على ٧٨٪ من فلسطين.

حاولت الأمم المتحدة التحرك فأوفدت السويدي برنادوت الذي دعا للتهدئة بما يتناقض مع المخطط الصهيوني التوسعي الذي اتكأ على اختلال ميزان القوى واجتياح معظم فلسطين، فاغتالته مجموعة صهيونية. تمددت السيطرة الصهيونية وابتلعت إقليم السبع وحيفا ويافا بالاتفاق مع أمريكا ومساحات كانت كلها مخصصة للدولة العربية حسب قرار التقسيم ١٨١.

انتهت الحرب وتشرد نحو مليون فلسطيني إلى الضفة الفلسطينية ودول الجوار. رفضت إسرائيل إعادتهم إلى ديارهم وأملاكهم بناء على قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الصادر في ١٩٤٨/١٢/١١، واستمرت القوات الأردنية في الضفة الفلسطينية إلى أن تم ضمها للأردن بتأييد من بعض العوائل الفلسطينية التي عقدت مؤتمرين في أريحا والخليل.

---

١٠٥) هيكل، المرجع السابق. ص٥٤،٥٥،٥٦.

من جانبه أعلن أمين الحسيني زعيم الحركة الوطنية استقلال فلسطين وتشكيل حكومة عموم فلسطين، بما يشبه خطوة معلقة في الهواء، ذلك أن إسرائيل توطدت على الأرض وشرق الأردن بعد ضم الضفة الغربية أصبح المملكة الأردنية، وقطاع غزة وضع تحت إدارة الملك فاروق في مصر، حتى أن عدداً من وزراء حكومة عموم فلسطين أصبحوا وزراء في حكومة عمان...

تشتت الفلسطينيون وتمزقت وحدتهم وباتوا يعيشون ذل التشرد وحلم العودة.

حفّزت الكارثة الفلسطينيين فأنشؤوا حركات سياسية جديدة تجاوزت القيادات التقليدية وتنفذت فيها عناصر من الانتلجنسيا.

من المفيد التذكير هنا أن الحرب العالمية الثانية توجت أمريكا زعيمة للمعسكر الغربي الرأسمالي، وأن مسار الحرب عزز من القوى العسكرية الصهيونية التي أسهمت كتائبها في الحرب تحت أمرة القوات البريطانية. ولما رفضت القيادة الفلسطينية قرار التقسيم، لأنه يعطي لليهود ما ليس لهم ويتجاهل أصحاب البلاد وحقهم في تقرير مصيرهم على وطنهم، وما أن انسحبت بريطانيا في أيار /٤٨ حتى قامت قوات الهاجاناة المدربة والمسلحة جيداً بحسم المعركة ميدانيا.

رغم المقاومة والقتال هنا وهناك زحفت القوات الصهيونية وقصفت خطوط المواجهة واحتلت المدن الواحدة تلو الأخرى، وبالتالي لم تنجح الجامعة العربية وجيوشها السبعة في حماية فلسطين وإحباط المخططات الجاهزة لاقتلاع الفلسطينيين وتشريدهم، إلى درجة أن يكتب توم سيغف أحد المؤرخين الإسرائيليين الجدد أن دورية يهودية عسكرية واحدة سيطرت على جنوب فلسطين ورسمت حدوده فيما أحد الضباط الأردنيين استخدم قلم رصاص سميكا في رسم الحدود فخسر المثلث الفلسطيني!!

لنترك للأكاديمي الإسرائيلي إيلان بابيه الحديث عن المخططات المدروسة والمذابح المروعة التي نفذتها القوات الصهيونية، بما ينسف الرواية الصهيونية عن هجرة الفلسطينيين من تلقاء أنفسهم، وتحت تأثير الإذاعات العربية بغية التشكيك في انتماء الفلسطينيين لفلسطين، وكأنهم عنصر نافل وجد صدفة في هذه الجغرافيا اليهودية، بما شجع وثائق الخارجية الإسرائيلية على لقول عام ١٩٤٩م إن «الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض».

× × ×

(استناداً إلى بن غوريون (أنا أؤيد الترحيل القسري ولا أرى فيه شيئاً غير أخلاقي) حزيران ١٩٣٨... والتطهير العرقي جريمة ضد الإنسانية والذين يقدمون على ارتكابه اليوم يعتبرون مجرمين يجب محاكمتهم أمام هيئات قضائية خاصة...

إن جذور مفهوم الترحيل عميق جداً في الفكر السياسي الصهيوني، فمن مؤسس الحركة الصهيونية هرتزل إلى أكثر القادة ليبرالية موتسكين الذي كتب عام ١٩١٧ (إن استعمار فلسطين يجب أن يسير في اتجاهين: استيطان يهودي في أرض إسرائيل، وإعادة توطين عرب أرض إسرائيل في أراضٍ خارج البلد... وهذا لا يتطلب الكثير من المال.

ولتحقيق ذلك تعين على المفكرين الصهاينة استحضار الأرض التوراتية، أو بالأحرى اختراعها مهداً للحركة الصهيونية، فأصبحت فلسطين بلداً يحتله «غرباء» يتوجب استردادها منهم... ومن قبل عام ١٨٨٢ كان ينظر لفلسطين كأرضٍ خالية من البشر... ووعد بلفور الذي أعطاه وزير خارجية بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فتح الباب لنزاع مستديم وكان مناقضاً لطموحات الفلسطينيين وحقهم بالاستقلال... وهذا الوعد كان ينطوي في جوهره على عنف مدمر... كانت ثورة الفلسطينيين سنة ١٩٢٩م... واندلاع ثورة ١٩٣٦م الشعبية التي قاتلت بتصميم شديد أرغم الحكومة البريطانية على حشد قوات عسكرية في فلسطين أكثر مما كان في شبه الجزيرة الهندية، تخللتها هجمات وحشية وعديمة الرحمة على الريف الفلسطيني... نفيت القيادات الفلسطينية وحلت الوحدات شبه النظامية التي أدارت حرب عصابات ضد قوات الانتداب. وفي غضون ذلك اعتقل وقتل وجرح عدد كبير من الفلسطينيين)[١٠٦].

و(هذا سهل على القوات اليهودية في سنة ١٩٤٧م اجتياح المناطق الريفية الفلسطينية دون أية صعوبة... وفيما بين الثورتين لم يهدر القادة الصهيونيون الوقت لوضع الخطط من أجل تحويل فلسطين إلى بلد يقطن فيه اليهود حصراً...

منذ البداية، سمحت السلطات الانتدابية البريطانية للحركة الصهيونية بإنشاء كيان مستقل لها في فلسطين ليكون مثابة بنية تحتية للدولة العتيدة... وقد اشتملت التحضيرات للاستيلاء على البلاد بالقوة إنشاء منظمة عسكرية فعالة بمساعدة ضباط بريطانيين متعاطفين... وتم ربط قوات الهاجاناة بالقوات البريطانية خلال الثورة العربية ١٩٣٦... كما اكتسبت القوات الصهيونية

---

١٠٦) د. بابيه، ايلان. التطهير العرقي في فلسطين. مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٢٠٠٧. ص ٣، ١٥، ١٩، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٣٢، ٣٧، ٤٨

خبرة ثمينة في الحرب العالمية الثانية عندما تطوع كثيرون من أعضائها للمشاركة في المجهود الحربي البريطاني...

كان الصندوق القومي اليهودي قد أنشئ في سنة ١٩٠١ كأداة رئيسية لاستعمار فلسطين، فهو الوكالة التي استخدمتها الصهيونية لشراء الأراضي الفلسطينية. واقترن معظم نشاطات الصندوق القومي بمدير دائرة الاستيطان فايس الذي كانت أولويته القصوى تسهيل طرد المزارعين الفلسطينيين.... وقد كتب في عام ١٩٤٨: يحق لنا أن نرحل العرب. وفي سنة ١٩٤٨ لم يكن يملك اليهود سوى ٥،٨٪ من أراضي فلسطين... كانت المهمة رسم خرائط القرى والقيام بمسح فوتوغرافي جوي... والمحصلة النهائية لجهود الطوبوغرافيين والمستشرقين ملفات مفصلة لجميع قرى فلسطين، بحيث أصبح الأرشيف مكتملاً في أواخر عام ١٩٣٧، وقد تضمن ملف كل قرية موقعها، طرق الوصول إليها، أراضيها، ينابيعها، تركيبتها الاجتماعية – الاقتصادية، الانتماءات الدينية، أعمال الرجال، المشاركة في ثورة ٣٦ والذين زعموا أنهم قتلوا يهوداً، ونجم عن هذه المعلومات أشد الأعمال وحشية وإعدامات جماعية عام ١٩٤٨... وروى الجنرال يغآل يادين «أن هذه المعرفة الدقيقة التفصيلية بما كان يجري في كل قرية فلسطينية هي التي مكنت القيادة العسكرية الصهيونية في تشرين ثانٍ/ ١٩٤٧».

قاد بن غوريون الحركة الصهيونية منذ أواسط العشرينات، وهو من مواليد بولندا. وعندما عرض البريطانيون على المجتمع اليهودي سنة ١٩٣٧ دولة على جزء من فلسطين قبل بالاقتراح كبداية جيدة لكنه كان يطمح إلى سيادة أكثر... أما كيف يمكن إنشاء دولة؟ فقد برزت وقتئذ كلمتان سحريتان: القوة والفرصة. وشاريت الرجل الثاني في محاضرة له في القدس ١٩٣٨ قال (لقد رافق شراء الأراضي ترحيل السكان)... وفي عام ١٩٤٦ أخذ يعمل بن غوريون مع مساعديه على وضع استراتيجيا يمكن تطبيقها على السكان الفلسطينيين في اللحظة التي يغادر فيها البريطانيون، هي الخطة ج، وهي نسخة مطورة عن الخطة أ التي وضعت عام ٣٧ للاستيلاء على فلسطين والخطة ب. وطمحت الخطة ج مثل الخطة أ وب لإعداد القوات المسلحة للقيام بحملات هجومية على مدن فلسطين وقراها فور خروج البريطانيين من البلد، والقيام بأعمال تأديبية مثل: قتل القيادة السياسية، قتل المحرضين والذين يقدمون لهم دعماً مالياً، قتل النشطاء، قتل الضباط والموظفين الفلسطينيين، إلحاق الضرر بحركة النقل ومصادر العيش من آبار مياه وطواحين، مهاجمة القرى، النوادي، المقاهي وأماكن التجمع.

وخلال بضعة أشهر تم وضع الخطة د التي قضت بطرد الفلسطينيين من وطنهم بشكل منهجي وكلي.

عندما بدأت الحركة الصهيونية عمليات التطهير العرقي في فلسطين في أوائل كانون أول/١٩٤٧ كان السكان الفلسطينيون الأصليون يشكلون الثلثين، وثلث قدم حديثاً من مستوطنين صهيونيين ولاجئين من أوروبا التي مزقتها الحرب... كان الفلسطينيون الأصليون يسعون إلى حق تقرير المصير منذ أواخر القرن ١٩. والأمم المتحدة المفتقرة إلى الخبرة أقرت في ١٩٤٧/١١/٢٩ القرار ١٨١ القاضي بتقسيم فلسطين والذي تجاهل التركيبة الأثنية لسكان البلد... وهكذا منحت الحركة الصهيونية دولة تمتد مساحتها على أكثر من نصف فلسطين... قاطعت جامعة الدول العربية والهيئة العليا (الحكومة الفلسطينية الجنينية) التفاوض مع الأمم المتحدة. وهيمنت الحركة الصهيونية على اللعبة الدبلوماسية إلى درجة المطالبة بدولة تمتد على ٨٠٪ من مساحة البلد... انهار القانون والنظام العام وخيم إحساس بالشؤم وأن الصدام النهائي واقع لا محالة... سيما وقد أدرك الفلسطينيون أن أوراق اللعبة مرتبة سلفاً ضدهم. وكما لاحظ وليد الخالدي (فإن القرار ١٨١ كان عملا متسرعا منح نصف فلسطين لحركة أيدولوجية كانت تعلن بصراحة منذ ثلاثينيات القرن العشرين رغبتها بازالة عروبة فلسطين) وهكذا فإن أشد جوانب القرار ١٨١ لا أخلاقية يتمثل في كونه لم يتضمن آلية لحماية فلسطين من التطهير العرقي.

وإذا ألقينا نظرة على حريطة الأمم المتحدة كانت فلسطين ستقسم عمليا إلى ثلاثة أجزاء: على ٤٢٪ من الأرض سيقيم ٨١٨ ألف فلسطيني و١٠ آلاف يهودي، بينما دولة اليهود ٥٦٪ من الأرض فيها ٤٩٩ ألف يهودي و٤٣٨ ألف فلسطيني، أما الجزء الثالث المحيط بالقدس فنصف سكانه ال ٢٠٠ ألف من الفلسطينيين والنصف الآخر من اليهود... هذه الخارطة وصفة مؤكدة للمأساة التي بدأت تتجلى منذ اليوم الأول للقرار ١٨١... ونتيجتها الحتمية التطهير العرقي. والذين صوتوا على القرار ساهموا مساهمة مباشرة في الجريمة)[١٠٧].

إن تسلسل الأحداث الرئيسة بين شباط/١٩٤٧ وأيار/١٩٤٨ جدير بالتلخيص. (ففي شباط اتخذت الحكومة البريطانية قراراً بالانسحاب من فلسطين. وفي ٢٩/تشرين ثانٍ ٤٧ تبنت الأمم المتحدة قرار التقسيم وبدأ التطهير العرقي ضد الفلسطينيين. في كانون أول/٤٧ القيام بسلسة من الهجمات اليهودية على قرى عربية وأحياء في المدن.

---

١٠٧) د. بابيه، المرجع السابق، ص٤٣،٤٤،٤٥

في ٩/كانون ثانٍ/١٩٤٨ دخلت وحدات جيش الانقاذ وانتشرت في الأغلب على حدود الدولة المتخيلة حسب قرار التقسيم واتبعت سياسة دفاعية... في شباط/ ٤٨ نجحت القوات اليهودية في إخلاء خمس قرى في يوم واحد. في ١٠/آذار تم تبني الخطة د التي نصت (يمكن تنفيذ العمليات إما بتدمير القرى باحراقها ونسفها وزرع ألغام بين الانقاض خصوصا المراكز السكانية، وإما القيام بعمليات تمشيط وفي حالة حدوث مقاومة إبادة القوى المسلحة وطرد السكان خارج الحدود).

واقترح بعض أعضاء الهيئة الاستشارية الاستمرار في عمليات التطهير العرقي لحماية طرق المواصلات، أما بن غوريون فكان مصمماً على ما هو أكثر شمولية... واستدعى رئيس الأركان يغآل يادين وضباط الاستخبارات وقال لهم (أن أوامر ستصدر اليهم لاحتلال واخضاع وطرد سكان... لدينا كل ما نحتاجه من أسلحة)...

وأول عملية في خطة د كانت الهضاب الريفية لجبال القدس التي ستشكل نموذجا للحملات التالية، بالطرد الجماعي المفاجئ، تدمير القرى العربية وطرد الفلسطينيين... وأول قرية سقطت كانت القسطل. وفي ٩/نيسان قتل عبد القادر الحسيني في المعركة... وفي نفس اليوم سقطت دير ياسين بعد قصف مدفعي وتم جمع القرويين وقتلهم بدم بارد بعد انتهاك حرمة أجسادهم في حين اغتصب عدد من النسوة... واعتبرت كل قرية فلسطينية قاعدة عسكرية معادية... والهدف الثاني كان القرى المجاورة قالونيا، ساريس، بدو... نسفت البيوت وطرد السكان... ومئات القرى لاقت نفس المصير.

وكانت طبريا أول المراكز الحضرية المستهدفة، حيث كان نحو خمسة آلاف عربي وستة آلاف يهودي يعيشون بسلام منذ قرون.. وقد ادى البريطانيون دوراً مشبوها... وبعد طبريا جاء دور حيفا وصفد...

وفي نيسان/٤٨ تم احتلال كامل المراكز الحضرية واقتلاع ٢٥٠ ألف من أماكن سكنهم، رافق ذلك مجازر عديدة أبرزها مجزرة دير ياسين.

لقد انتقلت الهجمات المتفرقة إلى عملية ضخمة منظمة هدفها تطهير فلسطين عرقيا... غادر البريطانيون في ١٥/أيار وأعلنت الوكالة اليهودية على الفور قيام دولة يهودية في فلسطين)[١٠٨].

وهذا يؤكده الأكاديمي الفلسطيني عبد الجواد... فهو بالاستناد إلى الكاتبة الإسرائيلية حنا

١٠٨) د. بابيه، المرجع السابق، ص٤٩، ٥٠، ٩٤، ٩٨، ١٠١، ١١٦

أرندت (إن هول الجريمة بحد ذاته يجعل القتلة الذين يدعون براءتهم أقرب للتصديق من الضحايا الذين يقولون الحقيقة)، سجل (أن المجازر نفذت من قبل قوات الاحتلال والمستوطنين... من قبل المنظمات العسكرية الصهيونية الثلاث خصوصا الهاجاناة التي أصبحت جيش «الدفاع» الإسرائيلي... وكان الهدف ليس انزال هزيمة عسكرية بالخصم لتحقيق أهداف سياسية (كلاوزفيتز) ولا تدمير الكيان السياسي الفلسطيني وإنما أيضا تدمير الفلسطينين كمجتمع بهدف اقتلاعه من وطنه وأرضه...

لقد أنكرت الرواية التاريخية الصهيونية ارتكاب المذابح والفظائع... رغم أن المؤرخين الجدد أوردوا الكثير من أعمال القتل... وأستطيع الجزم اعتماداً على الحقائق و٧٦ مجزرة، أن معظم التجمعات الفلسطينية التي لم يقم أهلها بالفرار قبل احتلالها، قد ذاقت طعم المذبحة المر والأليم، بما يؤكده الصحفي الإسرائيلي أرييه يتسحاقي (ما من قرية احتلها الجيش الإسرائيلي وبقي فيها ناس إلا وفاحت منها رائحة المذبحة).

كان غرض الرواية الصهيونية الرسمية تصوير الفلسطينيين كأشخاص سلبيين فروا دون قتال... كتب بن غوريون (البرهان الدامغ على تفوق الحب الصهيوني للوطن مقارنة بالفلسطينيين موجود في قصة هروب مئات آلاف الفلسطينيين في فزع) بينما كتب المؤرخ الفلسطيني عارف العارف عن حيفا (لقد اقترف اليهود بعد احتلالهم المدينة من الآثام ما تقشعر له الأبدان).

إن دراسة دوافع المجازر وتوقيتها وشمولها ونمطها مرتبط بخطة يقف وراءها عقل مركزي مدبر... كانت الهجمات تؤدي إلى قتل البعض وتدمير البيوت والمزروعات وإضافة إلى القصف الجوي والمدفعي كان النهب منظما والقتل لكل من يطالب بملكيته كالمجوهرات أو النقود... والشاحنات تنقل الناس للحدود... ومن يحاولون العودة كانت تصطادهم الكمائن والألغام... هناك أنماط للمجازر... مذابح الأسرى، القتل العشوائي الواسع، الغارات الانتقامية، عمليات ارهابية، القصف الجوي للمدنيين، إعدام المسنين، كان هناك خطة مركزية للتهجير، والأمر المروع أن أولئك القادة القتلة الذين خططوا للمذابح: بن غوريون، فايتس، دايان، كيلمان، لحيس، شارون لم ينجوا من العقاب فحسب وإنما تقلدوا أعلى المناصب في إسرائيل)[١٠٩].

وبالعودة إلى بابيه (كان هناك تقسيم واضح للعمل بين الهاجاناة والأرغون... وكانت العمليات

---

١٠٩) د. عبد الجواد، صالح. الجمعية الفلسطينية – راصد كانون أول ٢٠٠٨. ص١،٢،٤،٥،٨،٩،١٠.

منسقة لتدمير المدن وطرد سكان القرى بما تقتضيه من ارهاب ومجازر... وبين ٣٠/آذار و٥/أيار احتلت ٢٠٠ قرية وطرد سكانها، وهذه حقيقة يجب تكرارها لأنها تقوض الخرافة الإسرائيلية بأن الفلسطينيين هربوا عندما بدأ (الغزو العربي) جيش الانقاذ... وبعد ايام من احتلال قرية الكفرين وطرد سكانها تمرن الجيش بمحوها من على وجه الأرض. وتكرر هذا النمط من التمرين مرة بعد أخرى... في حيفا وحواليها اكتسبت عملية التطهير زخماً شديداً. ١٥ قرية طرد سكانها الواحدة تلو الأخرى ومسحت من خريطة فلسطين داخل قضاء حافل بالجنود البريطانيين ومبعوثي الأمم المتحدة والمراسلين الأجانب... ولم يكن الطرد والهروب كافيين لإنقاذ القرويين. فكثيرون منهم اصطادهم أعضاء الكيبوتسات. لقد اتبعت القوات اليهودية سياسة ارتكاب المجازر كي تسرّع هروب السكان في المدن والبلدات المجاورة).

ويضيف

(هل علم البريطانيون بالخطة د؟ يفترض المرء أنهم علموا. وبعد الخطة أعلنوا أنهم لم يعودوا مسؤولين عن الأمن... وهذا يعني أن حيفا ويافا والمنطقة الساحلية باتت مساحة مكشوفة تسطيع القيادة الصهيونية تطبيق الخطة دون خوف...).

وساهم البريطانيون أحيانا بطرق أخرى، مباشرة أكثر، في التطهير العرقي. وعن خيانة الأمم المتحدة، كان ينبغي أن تكون الأمم المتحدة حاضرة على الأرض لحماية القرار ١٨١ بإقامة دولتين تجمعهما وحدة اقتصادية ومنع أية محاولة من أي الطرفين لمصادرة أراضي الطرف الآخر... ولا يمكن تبرئتها من التخلي عن الشعب الفلسطيني الذي قسّمت أرضه وسلمت أرواحه وأرزاقه لليهود...)[١١٠].

ويمكن أن تضاف أيضا ادانة الأمم المتحدة من ناحية عدم تنفيذ القرار ١٩٤ القاضي بعودة اللاجئين إلى ديارهم...

ويعّرج بابيه على مذابح أخرى تعرض لها الفلسطينيون بعد ١٥/ايار بالقول (بعد اسبوع في ٢٢/أيار/١٩٤٨ هوجمت قرية الطنطورة الساحلية، جاء الهجموم من أربع جهات، وتحت تهديد السلاح أجبر أهل القرية على التجمع، وفصل الرجال من عشر سنوات إلى خمسين سنة... الضابط ماشفيتسي اقتادهم في مجموعات حيث جرى إعدامهم. وعلى الشاطئ جرت عمليات

---

١١٠) د. بابيه، مصدر سابق. ص١٢٠، ١٢١، ١٢٢.

مشابهة... وكتب الضابط المذكور بعد اثنتين وخمسين سنة (لا يوجد لدي شك في أن مجزرة حدثت في الطنطورة... وإسرائيل باتت قوية وناضجة بما فيه الكفاية لمواجهة ماضيها. وأحد شهود العيان أبومشايخ رأى بأم عينيه إعدام خمسة وثمانين شابا من أهل الطنطورة... وحصل شيء مشابه في قرية البصة، حيث كتب نزار الحنا في مذكراته (إن جدته الصبية شاهدت إعدام شقيقيها ٢١ و٢٣ سنة بعد تجمع الشبان أمام إحدى الكنائس. وهذا حصل في قرية طيرة حيفا حيث قتلت قوات الأرغون ثلاثة عشر أكثرهم من الأطفال والشيوخ، وتم إخراج جميع النساء والأطفال ونقلهم إلى الضفة الغربية... وما حصل في اللد والرملة... استناداً إلى الشاهد اسبير الذي شاهد قوات الاحتلال ومجزرة الجامع واقتحام الجنود لكل بيت وراقب البيوت وهي تنهب واجبار الناس على الرحيل تحت تهديد السلاح في أشد أماكن فلسطين حرارة، حيث كان اسبير ممرضاً في المستشفى المحلي إلى جانب الطبيب جورج حبش الذي أسس لاحقا وقاد الجبهة الشعبية، ويتذكر اسبير عدداً لا يحصى من الجثث والجرحى الذين كانوا يحضرون للمستشفى من مكان القتل).

وبين حزيران وأيلول ١٩٤٨ تصاعدت عمليات التطهير العرقي، وكتب بن غوريون (هدفنا تطهير البلاد من الفلسطينيين) وحصل على تفويض من حكومته لئلا يعترض بعض الأعضاء الأكثر ليبرالية... ووقعت الهدنة الأولى في ٨/حزيران، قام خلالها الجيش الإسرائيلي بعمليات تدمير هائلة لعدد من القرى التي تم طرد أهلها، وانتهت الهدنة في ٨/تموز... في تلك الأيام كانت القوات الإسرائيلية قادرة على احتلال القرى وتطهيرها، وصمدت أحيانا جيوب مقاومة مدة أطول... لم ينجح الجيش الإسرائيلي في احتلال جنين وصولاً إلى جسر الأردن... وتكررت الهدنة في ١٨/تموز وجرى تسريع بعض عمليات التطهير العرقي سيما في الجليل الأوسط... واستمرت العمليات إلى أن أصبح ٨٥٪ من الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في المناطق التي أصبحت دولة إسرائيل لاجئين... وتشير التقديرات إلى أنه في ٢٠٠٣ كان هناك أكثر من سبعة ملايين لاجئ فلسطيني.

وعمليات التخلص ممن تبقى استمرت حيث احتلت المدينتان الجنوبيتان المجدل وأسدود في تشرين ثانٍ/١٩٤٨ وطرد سكانهما إلى قطاع غزة... في زمن السلم!! وفي ٢١/ تشرين ثانٍ احتلت بئر السبع وقريتان كبيرتان: القبيبة والدوايمة... حيث جمع الناس والجنود المصريون وأطلقت عليهم النار بصورة عشوائية... وما حصل في الدوايمة ربما كان أسوأ ما حدث في تاريخ الأعمال الوحشية خلال النكبة، فالكتيبة ٨٩ التي شارك فيها الكاتب الإسرائيلي المعروف كينان هو نفسه يعترف بوقوع المجزرة.

كانت تضم القرية ألفين من أهلها وأكثر من أربعة آلاف لاجئ هجروا إليها... طوقت القرية، قفز الجنود من عرباتهم وراحوا يطلقون النار على الناس دون تمييز، لجأ الناس إلى الجامع وكهف الزاغ وعندما عاد المختار في اليوم التالي رأى الجثث في الجامع والشوارع وهي لرجال ونساء وأطفال وبينهم والده، والكهف مسدود بعشرات الجثث، وأظهر التعداد ٤٥٥ شخصا مفقوداً. كما استمرت العمليات في قرية الوعرة حيث جمع رجال القرية وأعدم أربعة عشر منهم بعد أن اشتعلت النيران بجميع البيوت)[١١١].

ويختتم بابيه شهادته الموثقة بالقول (حتى بعد استكمال تطهيرفلسطين عرقيا، فإن معاناة الفلسطينيين لم تنته، إذ أمضى نحو ٨ آلاف مدة سنة في السجن وعانى آخرون جراء الاعتداءات الجسدية... ويمثل نحو ٥ آلاف فلسطيني في حيفا نموذجا بعد أن طرد منها ٧٠ ألفا. حيث أمر القائد العسكري الجميع بالرحيل في أيلول ١٩٤٩ من المدينة إلى وادي النسناس الصغير والأكثر فقراً... وفي يافا حصلت حالات اغتصاب للنساء والفتيات، ولدينا روايات دقيقة وموجزة، وهذا سجله بن غوريون في يومياته، نفذتها الكتيبة ٣ التي طهرت صفد بما عرف عن جنودها من وحشية وارتكاب مجزرتين في الخصاص وسعسع.

وخلال الفترة نيسان/ أيار/١٩٤٩ كان رد فعل بن غوريون تكثيف توطين المهاجرين اليهود في الأراضي المصادرة والبيوت المفرّغة من أصحابها... وتشجيع مئات الآلاف من اليهود المستقدمين على الاستيلاء على البيوت الفلسطينية المتروكة في البلدات والمدن، وعلى بناء مستعمرات على أنقاض القرى التي طرد سكانها... واستولت إسرائيل على أكثر من ٣،٥ مليون دونم من الأراضي في الريف الفلسطيني.

وفي سنة ١٩٥٠ أقرت الكنيست قانون أملاك الغائبين. وفي عام ١٩٥٣ أصبح الصندوق القومي اليهودي مالكا للأرض نيابة عن الدولة. وقد استطاعت الأقلية الفلسطينية في إسرائيل البالغة نسبتها ١٧٪ من إجمالي السكان بعد التطهير العرقي أن تدبر أمرها بـ ٣٪ من الأرض فقط، ويسمح لها بالبناء والعيش على ٢٪ من الأرض أي أن ١،٣ مليون فلسطيني اليوم يعيشون على ٢٪ من الأرض)[١١٢].

أما استاذ الجغرافيا في جامعة حيفا أرنون سوفير فقد برر السياسة النهبية للأرض بالقول

---

١١١) د. بابيه، المصدر السابق. ١٣٩،١١٤،١٧٥،١٨٩،١٩٥،٢٠٥،٢٠٧،٢١٥،٢٢٤

١١٢) د. بابيه، مصدر سابق. ص٢٤٣،٢٤٥،٢٥١،٢٧٧

(كنا قتلة... لكنا بحاجة لتواصل جغرافي يهودي... إذا أردنا البقاء أحياء علينا أن نقتل ونقتل ونقتل طوال اليوم، وفي كل يوم إذا لم نقتل سينتهي وجودنا)[١١٣].

ويستنبئ بابيه بالآتي (ليس الفلسطينيون اليوم بمنأى عن خطر تطهير عرقي محتمل في المستقبل. فالتطهير العرقي أولوية إسرائيلية... فالفلسطينيون في منطقة القدس يتعرضون لتطهير عرقي، وأولئك الذين يعيشون بالقرب من الجدار العنصري، والذين يعيشون في إسرائيل قد يصبحون هدفاً في المستقبل)[١١٤].

١١٣) صحيفة جروسالم بوست ٢٠/آيار/٢٠٠٤

١١٤) د. بابيه. المصدر السابق. ص٢٩٠

الباب الثاني

مرحلة جديدة

أفضى الانتصار الصهيوني، أو بصورة أدق المشروع الاستعماري الغربي عام ١٩٤٨، إلى ثنائية متناقضة، فمن جهة انبثقت «دولة إسرائيل» دون رسم حدودها، فحدودها حيث يقف جيشها، ومن جهة أخرى تطهير عرقي وكارثة حلت بالفلسطينيين لم تنفك آثارها تتعمق لهذا اليوم. فقد انتهت الجولة الأولى من الصراع بفوز الحركة الصهيونية التي نذرت نفسها لإقامة كيان يهودي في فلسطين يكون قاعدة متقدمة للمخططات الغربية، يتولى مهمة وظيفية إمبريالية لا لبْس فيها. وجاء الثمن غاليا ومفجعا نتيجة تجاهل الأصوات الثقافية الفلسطينية في بدايات القرن العشرين التي حذرت من الهجرة اليهودية وبيوع الأرض وعدم إصدار المجلس النيابي العثماني في استنبول ما يكفي من قوانين لقطع الطريق على هذه العملية المنظمة، وتحققت الطبعة الأسوأ، لوعد وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور في تشرين ثانٍ/١٩١٧ لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين معززا بموجات متلاحقة من المهاجرين اليهود الذين نظموا صفوفهم على أسس رأسمالية: صناعة، تعليم، إدارة، والانتقال من حرس المستعمرات إلى جيش الهاجاناة، وعلى الدوام بتسهيلات وخبرات بريطانية. وفيما كانت حكومة لندن تكيل الوعود للشريف حسين بأن ثورته على الأتراك ستكافأ بدولة عربية وقعت في السر عام ١٩١٦ اتفاق سايكس – بيكو لاقتسام الوطن العربي بين فرنسا وبريطانيا.

لقد قاوم الفلسطينيون وهم الذين يتعرضون لسياط السياسات البريطانية وتنامي الوجود اليهودي الاستعماري على أرضهم، وتوجت احتجاجاتهم وتظاهراتهم بولادة الحركة القسامية في الثلاثينات ومحاولة إقامة قاعدة عسكرية في ريف جنين، لكن القسام سقط في مواجهة مع القوات البريطانية عام ١٩٣٥ ليشكل أتباعه عنصراً محركا لثورة ٣٦ التي ابتدأت بإضراب جماهيري عام استمر ستة أشهر، وامتدت قواعدها لتسيطر على معظم فلسطين، غير أن التجاوزات والإخلالات البنيوية والتنازعات السياسية بين الأوساط الشعبية من المثقفين الراديكاليين والعمال والفلاحين وبين الأعيان وقيادات العوائل التقليدية، من جهة، والتنافس بين الحسينية والنشاشيبية كما بين النافذين في العوائل الاقطاعية، اضافة لنداء الحكومات العربية (اخلدوا إلى السكينة)، والبطش الدموي والعصا الغليظة لقوات الاحتلال البريطاني التي قتلت أكثر من (٥ آلاف فلسطيني وجرحت

نحو ١٤ ألفاً واعتقلت ٥٠ ألفا صدرت بحق ألفين منهم أحكام بالسجن المؤبد وإعدام ١٤٠ وهدم ٥ آلاف منزل وهجرة نحو ٤٠ ألف عائلة ميسورة إلى دول الجوار... واعتقال ونفي القيادات)[١١٥]. أسفر في النهاية عن ذبح الثورة.

تراجع وزن القضية الفلسطينية في سنوات الحرب العالمية الثانية، تخللها نكوص بريطانيا عن الكتاب الأبيض وتنفيذ النازية الهولوكست الذي ولد فرارا جماعيا لليهود إلى فلسطين وأمريكا، وباتت جلية الاستعدادات الصهيونية لإعلان دولة. وقد تلقفت القيادة الصهيونية التواطؤ العالمي بصدور قرار التقسيم ١٩٤٧ بالترحيب، وتعاظمت المواجهات العربية – الصهيونية للسيطرة على طرق المواصلات، وأحرزت القوات الصهيونية المتفوقة تدريبا وتسليحا بعض النجاحات باحتلال عدد من المدن والبلدات ما قبل رحيل القوات البريطانية في أيار ١٩٤٨ مما أدى إلى تهجير أكثر من ¼ مليون فلسطيني. ولما أرسلت الجامعة العربية جيش الإنقاذ بعد ساعات من إعلان زعيم الييشوف بن غوريون بيان الاستقلال في ١٥/أيار/٤٨، جاءت الخطوة هزيلة، فلم يستطع جيش الإنقاذ حماية فلسطين أو حماية الدولة الفلسطينية بموجب قرار التقسيم، فاحتل «الجيش الإسرائيلي» ٧٨٪ من فلسطين ونفذ تطهيراً عرقياً مدروساً شمل أكثر من نصف مليون فلسطيني فأصبح ثلثا الشعب الفلسطيني مقتلعين ولاجئين.

وبين أيار ٤٨ وأيار ٤٩ استكملت عمليات التطهير العرقي للقرى الفلسطينية الحدودية، ولم يتبق من الفلسطينيين في «الدولة الإسرائيلية» سوى ١٥٠ ألفاً بينهم ٢٠٪ اقتلعوا من ٣٧ قرية وتجمع هم «الغائبون الحاضرون» يناهزون في مجموعهم اليوم ١،٤ مليون نسمة.

وبالتالي فنحو ثلاثة أرباع مليون فلسطيني طردوا من منازلهم وقراهم ومدنهم، انضم بعضهم إلى ١٠٠ ألف مواطن في الضفة الغربية و٦٠ ألف مواطن في غزة، واجتازت الأغلبية الحدود إلى الأردن ولبنان وسوريا وهي الدول التي تحولت لملجأ «دائم». وقامت الجمعية العمومية في ١٩٤٨/١٢/١١ بإصدار القرار ١٩٤ الذي أكد على حق اللاجئين بالعودة لديارهم والتعويض عن الأضرار التي لحقت بهم، وبعد مماطلات إسرائيلية تحول هذا القرار لحبر على ورق، ولم تستطع الأمم المتحدة سوى إقامة وكالة الغوث (الأنروا) في أيار ١٩٥٠ التي تولت تقديم مساعدات لإغاثة اللاجئين.

---

١١٥) الرضيعي، رجب، ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، بيروت ١٩٨٣، ص٤٩

أما الدول العربية فتوصلت لاتفاق هدنة مع إسرائيل عام ١٩٤٩، مصر في شباط والأردن في نيسان وسوريا في تموز، لتقوم الجامعة العربية في ١٩٥٠ بتأييد ضم الضفة الغربية للأردن. فذابت حكومة عموم فلسطين ولم يتبق من القيادة الفلسطينية سوى الهيئة العليا بزعامة المفتي أمين الحسيني الذي اعتصم في بيروت.

وبذلك حرم الشعب الفلسطيني من حق تقرير المصير بعد احتلال وطنه وتشتيت تجمعاته، خلافا للاتجاه الذي سارت فيه موجة التحرر الوطني التي اجتاحت العالم بعد الحرب الكونية الثانية واستقلال عشرات الدول.

ولئن تشكلت وقويت شريحة الأعيان الفلسطينية من ملاك الأراضي والتجار والإقطاعيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد تعرضت نخب الفئات الوسطى لكبح نموها في تلكم الفترة بما يعاكس السياسات الكولونيالية في بلدان أخرى، حيث ساعدت على نشوء هذه الفئات لتتولى مناصب وظيفية حكومية لإدارة شؤون البلد المستعمر، وتجلى ضعف الطبقة الوسطى السياسي في الظهور المتأخر للأحزاب الفلسطينية.

وعلاوة على إهمال الإمبراطورية العثمانية للعلم والزراعة، فالاحتلال البريطاني لم يحافظ على المصالح الاقتصادية الفلسطينية، بل مارس شتى الضغوط من فرض الضرائب العالية إلى التنكيل الواسع بالأهالي بما عبّد الطريق لتسريب الأراضي الفلسطينية للحركة الصهيونية، ناهيكم عن حرمان الشعب الفلسطيني من الاستقلال واكتساب تقاليد وخبرة بناء مؤسسات الحكم، بل ضربت السياسات العثمانية غير مرة النزعات الاستقلالية والتمردات الفلسطينية.

أما النكبة فقد عهد لها تدمير كل الأسس الاجتماعية – الاقتصادية – الجغرافية التي تكفل وحدة الشعب، ناهيكم عن تهويد المدينة الفلسطينية، العمود الفقري للدولة الحديثة وحلول مدينة يهودية على أنقاضها، وبالتالي تفكيك وتشريد بدايات المجتمع المدني من حركة نقابية ومنظمات شعبية، سيما في حيفا، وقد أوجز المؤرخ الإسرائيلي كيمبرلنغ هذه التراجيديا بالقول (لقد هزمت تل أبيب العبرية حيفا العربية).

هذا التهجير الكثيف لم يعرف في التجربة الكولونيالية العنصرية في الجزائر وجنوب أفريقيا، حيث استمر معظم الشعب الاصلاني في وطنه، وهو أقل دموية من الإبادة الجماعية لعشرات الملايين من الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية ونيوزيلندا وقتل واصطياد ملايين الأفارقة.

لقد أصبح الشعب الفلسطيني بعد النكبة مشتتا ودون قيادة، فأحزاب الثلاثينيات تفككت في الأربعينيات وقد نهشتها الصراعات الشخصية والفئوية، وهذا كان مآل (الفتوة والنجادة) الشبابيتين شبه العسكريتين واللجان القومية والجهاد المقدس. فإضافة إلى ضياع معظم فلسطين تلاشت الزعامة السياسية وتبعثرت الفئات الوسطى، وأصبحت الأغلبية الفلاحية دون وسيلة إنتاجها، ولم تصمد مؤسسة فلسطينية واحدة، وبات المجتمع الفلسطيني مقطع الأوصال ويخضع لقوانين وأنظمة الجغرافيا السياسية للحكومات العربية. ولكن هذه الكارثة بتمظهراتها العديدة لم تنتزع الشعور التضامني الفلسطيني وحنين العودة للوطن، عزّز ذلك حياة اللجوء والخيام وسياسة التمييز السلبي حيث لم يحصل الفلسطيني على المساواة في الفرص الاقتصادية والسياسية.

وإن كان الفلسطيني قد حصل في سوريا على المساواة القانونية في مجال العمل وسلك الخدمة المدنية وممارسة المهن الحرة والخدمة العسكرية والتجارة في قانون ١٩٥٦، ففي لبنان جرت معاملة الفلسطيني كأجنبي لجهة حقوق العمل والملكية وممارسة المهن الحرة باتجاه القيود لا المساواة القانونية مع اللبناني، وكان حينذاك قد لجأ إلى كل من لبنان وسوريا نحو ١٠٠ ألف فلسطيني.

أما قطاع غزة الذي خضع لسلطة الجيش المصري فقد ضم نحو ٣٠٠ ألفاً ثلثاهم من اللاجئين. واستمرت الإدارة العسكرية المصرية إلى عام ١٩٦٢ فيما سمح لعدد محدود من الفلسطينيين بحق التعلم في مصر فضلا عن تجنيس البعض.

وفي الأردن اختلفت التجربة، حيث بقي الجيش الأردني في الضفة الفلسطينية التي أعلن عن ضمها قانونيا عام ١٩٥٠ وإنشاء المملكة الأردنية الهاشمية بقوام سكاني ٣٨٠ ألف أردني و٨٠٠ ألف فلسطيني، وحمل الجميع الجنسية الأردنية وتمتع الفلسطيني بجميع الحقوق السياسية والاقتصادية، بل اندمج في جميع الميادين بما في ذلك المؤسسة العسكرية، وأتيح لأبناء العوائل الحصول على وظائف حكومية رفيعة انسجاما مع الطابع الطبقي للنظام فيما حظر استخدام كلمة (فلسطين) في الوثائق الرسمية.

وفي أجواء النكبة والتهجير وعدم الاستقرار في البلدان العربية المجاورة لفلسطين، اغتيل النقراشي رئيس الحكومة المصرية عام ١٩٤٨ وتغيرت الحكومة تسع مرات إلى أن نجح الضباط

الأحرار بإطاحة النظام الملكي عام ١٩٥٢، وانقلابات متكررة في سوريا بدلت رئيس الجمهورية خمس مرات بحلول ١٩٥٤، واغتيال الملك الأردني عبد الله في تموز ١٩٥١ واعتلاء حفيده حسين العرش في ١٩٥٣، الذي سمح بالنشاط السياسي ولكن ليعزل الحكومة الوطنية بزعامة النابلسي عام ١٩٥٧. وقد أغتيل رئيس الحكومة اللبنانية الصلح عام ١٩٥١ وأجبر الرئيس الخوري على الاستقالة في أيلول/١٩٥٢.

من جهة أخرى حظي الشعب الفلسطيني بالتعاطف من الشعوب العربية، إذ كانت القضية الفلسطينية بحق هي القضية القومية الأولى، بل تعاظمت كراهية العرب للصهاينة المغتصبين.

كان للسياسة وطأتها الثقيلة على فلسطين وأهل فلسطين الذين باتت أغلبيتهم مقتلعة من أوطانها ومشردة في مخيمات اللجوء، بما جعل من العناصر المثقفة وأبناء العائلات الوطنية والعناصر المبادرة في المخيمات تربة خصبة للرد المقبل.

فمن جهة، الجامعة العربية فاشلة والأنظمة التقليدية عاجزة والصهيونية توطد أقدامها، ودول العالم تتسابق على الاعتراف بإسرائيل وفي المقدمة منها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الذي كان وزير خارجيته غروميكو قد أعلن أثناء مناقشة قضية فلسطين في الجمعية العامة للأمم المتحدة (إن الاتحاد السوفييتي يفضل دولة ثنائية القومية أو دولة فدرالية للعرب واليهود، وقد يقبل بالتقسيم إذا أوجب الوضع).

أصبحت العناصر الفلسطينية الفعالة، سيما أن بعضها قد حاز على تعليم جامعي، أمام اختبار المبادرة. تتوج ذلك بتأسيس حركة القوميين العرب والانخراط في حزب البعث العربي الاشتراكي، والحزب الشيوعي والأحزاب الإسلامية...

واستخلص الدكتور جورج حبش ما يلي:

(بسقوط فلسطين إنما سقطت الأنظمة التقليدية وبرامجها... وإن أحد الأسباب الرئيسة لفشل ثورات شعبنا هو طبيعة القيادة الطبقية الإقطاعية والبرجوازية)[١١٦].

واستطرد (إن معارك التحرر الوطني ضد الاستعمار هي في الوقت ذاته معارك طبقية ضد القوى الرجعية والرأسمالية المرتبطة بالاستعمار).

---

١١٦) د. حبش، جورج. خطاب في الذكرى العاشرة للجبهة الشعبية ١١/١٢/١٩٧٧. أوراق حمراء ص١١

ومثلما كان اللاجئون بيئة ملائمة كان للمثقفين من البرجوازية الصغيرة شرف تعليق الجرس، إضافة للعمال والتجار ورجال الدين، فانطلقت جهود العمل الحزبي المنظم في السنوات الأولى بعد النكبة، وثمة إحصائية يقتبسها الدكتور الصايغ تفيد (إن الحزب الشيوعي في الأردن قد ضم ٢٣٠٠ عضو، والإخوان المسلمين بين ٧٠٠ – ١٠٠٠، والقوميين العرب بضع مئات وعدد متواضع للبعث وحزب التحرير. وفي غزة ٢٢٠ عضواً في الحزب الشيوعي، وللإخوان ألف وللقوميين العرب بضع مئات وللبعث بضع عشرات)[١١٧]. وهذه الأرقام كما يبدو تختزل حجم القوميين العرب.

وتجدر الإشارة هنا إلى الأهمية البالغة لعدد من كادرات الجامعة الأمريكية في بيروت ورابطة طلبة فلسطين في القاهرة وكوادر نقابية عمالية في عمان ونابلس ورام الله ولد في صفوفهم قادة بارزون.

وقد حظيت الأحزاب العلمانية بجاذبية لدى أصحاب المهن الحرة والمعلمين والفئات المستنيرة الأكثر تأكيداً على الهوية القومية، أما الأحزاب الدينية فكان لديها جاذبية في أوساط التجار والمؤسسات الدينية، ولكن الجميع تأثر بالفضاء السياسي لأنظمة الحكم، وتعرض للقمع السلطوي. وهذا لاحظناه في الاعتقالات الواسعة التي شهدتها الساحة الأردنية، اللبنانية، المصرية، ليس ضد الفلسطينيين فقط بل ضد أحزاب المعارضة عموما، بيد أن القهر والاكتظاظ وذل التشرد وتنامى أعداد البرجوازية الصغيرة والطلبة بفعل توجه الناس نحو التعليم سواء في مدارس وكالة الغوث أو المدارس الحكومية والجامعات، كما العمل في أجهزة الدولة، سيما في الأردن والبلدان النفطية، قد وفرّ قاعدة اجتماعية متنوعة وغير متجانسة للتطلعات السياسية والحزبية، وفيما بعد أفرز جيلا من نشطاء الكفاح المسلح والقيادات الوطنية. أما البرجوازية الفلسطينية والعوائل التقليدية، وثمة تداخل بين شريحتيهما، فتهافتت على الحصول على جنسيات الدول العربية والاندماج في النظام الأردني.

وسيكون لحياة اللجوء من جهة والانتشار الفلسطيني في جغرافية سياسية غير منسجمة والافتقار لكيان دولاتي من جهة أخرى، أثره الدامغ على طول المسيرة الفلسطينية.

مع صعود نجم عبد الناصر الذي لم يخفِ توجهاته النهضوية والقومية تعاقدت فرنسا مع إسرائيل سراً عام ١٩٥٤ لتزويدها بطائرات حربية ودبابات ومدفعية ثقيلة، تزامن ذلك مع غارات إسرائيلية على القوات المصرية في قطاع غزة، فاندفع عبد الناصر عام ١٩٥٥ للحصول على

---

١١٧) د. صايغ، يزيد. الكفاح المسلح والبحث عن هوية. مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص١٠٤

صفقة سلاح من تشيكوسلوفاكيا، وأعلن تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦، تبع ذلك العدوان الثلاثي الفرنسي – البريطاني – الإسرائيلي على مصر، الذي جوبه بمقاومة مصرية ودعم سوفييتي حاسم هدد بضربات صاروخية انتقامية.

وفي عام ١٩٥٧ تعهد الرئيس الأمريكي أيزنهاور (بمساعدة الدول الصديقة التي يتهددها الخطر الشيوعي). وهذا بطبيعة الحال شمل أول ما شمل إسرائيل، فزجت المنطقة في أتون الحرب الباردة والاستقطاب الثنائي.

في عام ١٩٥٨ نفذ النظام المصري الإصلاح الزراعي بتوزيع أراضي الإقطاعيين على الفلاحين، وفي عام ١٩٦٠ أعلن عن إقامة الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) وفي ١٩٦١ أممت الصناعة الثقيلة والقطاع المالي والتجارة الكبيرة، الأمر الذي حمل أبعاداً يسارية.

وفي لبنان بعد انتهاء الحرب الأهلية عام ١٩٥٨، (بلا غالب أو مغلوب) وبلغة ريجيس دوبريه «ثمة فارق بين الأزمة الثورية وبين الوضعً الثوري، ففي الحالة الأولى لا يحسم الصراع بين القطبين المتنازعين، أما في الحالة الثانية فيحسم سواء لجهة هذا القطب أو ذلك، ولكل منهما اشتراطاته».

اتجه البلد للموازنة بين الميول الغربية «المارونية» والميول العروبية «السنية»، وشهد تنمية سريعة في قطاع الخدمات ومرافق الدولة العامة والموانئ وحريات ليبرالية واسعة.

أما المملكة الأردنية فارتبطت بمعاهدة عسكرية مع بريطانيا وضاعفت من قوة جيشها وطردت الضابط البريطاني كلوب، فيما حرصت سياستها على احتواء التطلعات الوطنية الفلسطينية سيما قد أصبحت الضفة جزءاً من المملكة، وباتت تضم أكبر تجمع فلسطيني.

وفي فترة الخمسينات تنامى وزن مصر وقائدها الكرزماتي عبد الناصر سيما بعد حرب السويس ومعارضته لحلف بغداد الذي رعته بريطانيا واعترافه بجمهورية الصين الشعبية ودعم الثورة الجزائرية والضباط الجمهوريين الذي أسقطوا حكم الأمامة في اليمن، مثلما تعاظم أيضا التنافس بين أمريكا والاتحاد السوفييتي وتأثير السياسات العالمية على الصراع العربي – الإسرائيلي.

فأمريكا وأوروبا تدعمان إسرائيل بسخاء، والسوفييت يوثقون علاقاتهم أكثر فأكثر بمصر وسوريا اللتين اتحدتا وما لبثتا أن انفصلتا عام ١٩٦١ بعد أن قام عدد من الضباط السوريين

بزعامة النحلاوي بالاستيلاء على السلطة في دمشق، وعلى أثر اعتراف الأردن وتركيا بالحكومة السورية الجديدة قطعت مصر علاقتها الدبلوماسية بهما، واستبدل ناصر الاتحاد القومي في مصر بالاتحاد الاشتراكي تعبيراً عن (تحالف قوى الشعب من عمال وفلاحين ومثقفين ورأسماليين وطنيين وجنود).

في عام ١٩٦٤ سعى عبد الناصر لتطبيع العلاقات العربية – العربية بعد أن أشتد نزاعه مع الحكم الملكي في السعودية. فدعا رؤساء وملوك العرب للاجتماع في القاهرة في كانون ثانٍ/١٩٦٤ لمناقشة المخططات الإسرائيلية لتحويل مجرى نهر الأردن. وأصبح يعرف هذا اللقاء بمؤتمر القمة الأول، وفيه أنشئت قيادة دفاع مشتركة برئاسة الجنرال المصري علي علي عامر، كما جرى التأكيد على الهوية الوطنية الفلسطينية بتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. وفي تلكم الفترة كان يتواجد في الساحة الفلسطينية تياران أساسيان، حركة القوميين العرب بقيادة د. جورج حبش التي تأسست عام 1951 وحملت شعار الوحدة العربية، فطغى القومي على الوطني، إلى أن قامت بتأليف دائرة فلسطينية عام 1959، وحركة فتح التي تعود جذورها إلى أواخر الخمسينات بزعامة ياسر عرفات، وتعتبر المنافس القوي لحركة القوميين العرب، إضافة لتنظيمات وحركات أقل وزنا (الشيوعيين، جبهة تحرير فلسطين، ومجموعات طالبية وفدائية تسللت لتنفيذ عمليات عسكرية، كما جناح فلسطيني تابع لحزب البعث العربي الاشتراكي والحركات الإسلامية التي كانت تحظى بتأييد ملموس).

باشرت فتح تنفيذ أول عملية عسكرية في ١٩٦٥/١/١ فكان لها قصب السبق، علماً أن التنظيم الفلسطيني التابع للقوميين العرب نفّذ عمليته الأولى في أواخر ١٩٦٤. وكانت فتح على علاقة قوية مع سوريا، أما القوميون العرب فعلاقتهم القوية كانت مع عبد الناصر وكان هناك لقاء فصلي منتظم بين حبش وناصر منذ ١٩٦٣.

(جرت محاولة عام ١٩٦٣ من قبل ضباط ناصريين وحركة القوميين العرب في سوريا للإطاحة بحكومة البعث في سوريا، غير أنها فشلت... وفي ١٩٦٦ تم اسقاط الرئيس أمين الحافظ وقامت الحكومة الجديدة بتجذير الخط السياسي والاقتصادي من خلال تبني الشعار الماوي حرب الشعب ضد إسرائيل ودعت للتحالف مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية وقامت بتأميم معظم المرافق الاقتصادية... وتدهورت علاقات عبد الناصر مع الملكية في السعودية والأردن بعد دعوة الملك السعودي فيصل في كانون ثانٍ/١٩٦٦، بدعم من الملك حسين، لعقد مؤتمر اسلامي، وقرار الأردن

شراء أسلحة أمريكية... فاستنتج ناصر أن الموالين للغرب يتحركون بإسناد أمريكي لإسقاطه كما حصل مع نكروما في غانا وسيكارنو في أندونيسيا... واستفاد عبد الناصر من السياسة الهجومية السوفييتية وتعزيز الوجود العسكري في البحر الأبيض المتوسط، فتحالف مع السوفييت وقطع علاقاته مع ألمانيا الغربية. وبات عبد الناصر مقتنعاً أن إسرائيل حصلت على قوة نووية)[118].

وهذا أكدته الصحافة العالمية بعد عقود بأن بيرس حصل على أسرار القنبلة النووية من فرنسا عام ١٩٦٥.

من جانب آخر أنشأت القيادة المصرية في أواسط الخمسينات عدة كتائب فلسطينية في قطاع غزة معظم ضباطها من المصريين فيما الجنود من الفلسطينيين، وأسهم هؤلاء بعدة اشتباكات على خط الهدنة مع القوات الإسرائيلية، كما أنشأت مجموعات أخرى من الفدائيين. ومع تصاعد المواجهات (قامت المدفعية الإسرائيلية بقصف مدينة غزة فسقط ٥٩ من المدنيين وجرح٩٣، وردت القيادة المصرية بعشرات العمليات التي نفذتها كتيبة الفدائيين نتج عنها ١٢ قتيلا إسرائيلياً وأضرار مادية)[119].

وجاء تأميم قناة السويس في تموز/١٩٥٦ ودعم عبد الناصرللثورة الجزائرية ذريعة لشن العدوان الثلاثي على مصر حيث نجح الجيش الإسرائيلي بغطاء جوي فرنسي - بريطاني في احتلال غزة وسيناء. وفي النهاية فشل العدوان وانسحبت القوات الإسرائيلية في آذار/١٩٥٧ ووصلت قوات حفظ السلام الدولية بعد أن ضمنت إسرائيل حرية الملاحة في مضائق تيران على البحر الأحمر.

وشيء مشابه، إذ أنشأت القيادة السورية كتيبة عسكرية فلسطينية والأمر نفسه تكرر في لبنان، فيما أنشأ عبد الكريم قاسم فوج التحرير الفلسطيني في العراق. ومن جانبه أنشأ فرع القوميين العرب في سوريا وجوداً عسكرياً في زمن الوحدة المصرية السورية، وحصلت الحركة على دورات عسكرية في مصر، وفي عام ١٩٦٤ تشكل فرع فلسطيني مستقل لحركة القوميين العرب بقيادة الدكتور وديع حداد إبرازاً للهوية الوطنية واستعداداً للعمل المسلح، علماً أن حركة القوميين العرب منذ تأسيسها اعتبرت القضية الفلسطينية محورها الأساس.

---

١١٨) د. صايغ، يزيد، المرجع السابق، ص٨١

١١٩) د. صايغ، يزيد، المرجع السابق ص١٢٢

وكانت فتح قد أسست تنظيماً فلسطينيا مستقلا قبلئذ، وبدأت الفكرة بعد العدوان الثلاثي حين تشكلت أول خلية سنة ١٩٥٨ وأصدرت العدد الأول من مجلة فلسطيننا عام ١٩٥٩ التي اعتبرت الأولوية للكفاح المسلح.

أما حزب البعث فأسس فرعه في لبنان شعبة فلسطينية مستقلة سنة ١٩٦٠ وبعض الضباط البعثيين الفلسطينيين تخرجوا من الكليات العسكرية في أواخر الخمسينات، وفي هذه الفترة تشكلت جبهة تحرير فلسطين بقيادة الضابط أحمد جبريل.

تنامت الارهاصات التي تدفع باتجاه الكيانية الفلسطينية. فعلاوة على الحركات السياسية كما أسلفنا، وانعقاد مؤتمر القمة الأول، راحت الحكومة العراقية تدعو في إطار منافستها لقيادة عبد الناصر، لإقامة حكومة فلسطينة تنبثق عن مجلس وطني منتخب وجيش تحرير فلسطيني، وقد عارض الملك حسين المقترح الذي رأى فيه تحديا لسيطرته على الضفة الغربية، فيما اقترح الرئيس السوري أمين الحافظ إعطاء سلطة للفلسطينيين على الضفة وغزة. وأمام اصرار أحمد الشقيري ممثل فلسطين في الجامعة العربية، الذي كان وزيرا في حكومة عموم فلسطين بعد النكبة، وبالتنسيق مع عبد الناصر، وبعد أن فرض الشقيري حضوره ورؤيته على مؤتمر القمة (انعقد المجلس الوطني الفلسطيني الأول في القدس بمشاركة ٢٤٢ عضواً قام الملك بتسمية أغلبيتهم... شدد الشقيري في كلمته على أهمية بناء قيادة وطنية ومعسكرات تدريب وقوات نظامية... دون المساس بالسيادة الأردنية على الضفة الغربية والسيادة الإقليمية على غزة ومنطقة الحمة». رغم القيود تأسست م.ت.ف وأقر ميثاقها ولوائحها الداخلية، وأعلنت بوضوح عن التوجه لتحرير فلسطين بالكفاح المسلح وعن عنصرية إسرائيل ورفض الاعتراف بها. وحازت المنظمة في مؤتمر القمة الثاني على اعتراف العرب. غير أن «حركة القوميين العرب شأنها شأن حزب التحرير الإسلامي اعترضت على م.ت.ف من زاوية انفصالها عن الجماهير وافتقارها لقاعدة قتالية ورضوخها لمطالب الأردن والقوى الرجعية» وهذا كرره اتحاد طلبة فلسطين الإطار الشعبي النشيط. وكان الدكتور وديع حداد القيادي في حركة القوميين العرب، قد شرع منذ ١٩٦٣ بتأسيس وتدريب الجهاز النضالي الذي ضم أكثر من ٣٠٠ كادر تخرجوا من دورات عسكرية في مصر، ونفذ أول عملية في ٢/تشرين ثانٍ ١٩٦٤ سقط فيها الشهيد خالد أبو عيشة ولكن دون إعلان. وهو نفسه انتخب نائباً أول لرئيس المجلس الوطني الذي حضره برفقة أحمد اليماني (أبو ماهر) أما حركة فتح فشاركت القوميين نظرتهم السلبية للشقيري سيما اختياره «أبناء الطبقات العليا» معلنة تخوفها من ارتباط المنظمة

بالأنظمة العربية وإن كانت قد شاركت بنحو ١٥ – ٢٥ مندوبا في دورة القدس)[١٢٠].

وحسب الدكتور الصايغ فمع إنشاء جيش التحرير الفلسطيني بخوذهم الحديدية وزيهم المرقط، راحت فتح تخطط لإطلاق الكفاح المسلح مستفيدة من العلاقة مع الجزائر وسوريا والصين وفيتنام، ونفذت أول عملية في ١٩٦٥/١/١. أما حزب البعث فقد أيد الخطوات العربية لتأسيس كيان فلسطيني وإن كان بعض الضباط البعثيين الفلسطينيين قد انتقدوا أيضا تبعية المنظمة للدول العربية.

نظر عبد الناصر للعمليات الفلسطينية بأنها أمر في غير محله، فيما أنكرت م.ت.ف أي علاقة وقالت: يجب أن تكون العمليات حكراً على جيش التحرير الفلسطيني، ولكنها في المقابل انتزعت قراراً يسمح لها بتجنيد الفلسطينيين في غزة وقد انضم لها ٤ آلاف مجند مع افتقار شديد في الضباط ونحو ٦٠٠ في سوريا وأقل من ذلك في العراق، إلى أن انضم لهم متطوعون من الأردن والكويت ولبنان. أما حركة القوميين فكانت تخشى من توريط عبد الناصر في حرب سابقة لأوانها وإن كانت تعد العدة للقتال.

١٢٠) د. صايغ، يزيد، المرجع السابق ص١٧٠، ١٦٦، ١٨٤

الباب الثالث

من ولادة الكيانية الوطنية - الفدائية إلى أوسلو

يمكننا الاستنتاج بيسر أن انطلاق العمل الفدائي الفلسطيني وانتشار مقولة حرب الشعب طويلة الأمد، المستقاه من التجارب الصينية، الفيتنامية، الجزائرية، إنما انطوت على خلفية، بأن الحرب النظامية الخاطفة، كعقيدة عسكرية لجيوش الأنظمة العربية الوطنية، ليست مضمونة النتائج. ومثل هذه الرؤية طورتها فصائل المقاومة الفلسطينية بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، بصرف النظر عن معوقات الظرف الموضوعي، وما آلت إليه المسيرة الفلسطينية في العقدين الأخيرين، سيما تاكتيك الانتفاض الشعبي في آواخر الثمانينات، والذي أعاد إنتاج نفسه بابداعيه أقل ومشاركة جماهيرية أقل في سنوات ٢٠٠٠ – ٢٠٠٢، والخيار التفاوضي الذي أفضى لأوسلو بنتائجها المعروفة، وبالتالي لم يتبق من نظريات حرب الشعب وحرب العصابات إلا النزر القليل دون نسيان العدوان الواسع على غزة والصمود البطولي الجماعي أوائل/ ٢٠٠٩.

وتتقاطع تجربة فتح في بداياتها مع التجربة الكوبية من ناحية نموذج البؤرة المقاتلة التي تروج دعايتها السياسية من خلال عملياتها العسكرية المتصلة، فيما تجربة الجبهة الشعبية كانت أقرب للتجربة الفيتنامية، أي بنية حزبية محدودة هي امتداد حركة القوميين العرب في فلسطين، تولت انتاج فصيلة مسلحة من خلال الممارسة والدورات النظرية. ولكن بعد سنوات قليلة تغلبت المشتركات وتقلصت الفوارق إلا من الناحية الأيدولوجية ودمقرطة المؤسسة الفلسطينية.

والأمر نفسه ينطبق على الفصائل الوطنية الأخرى، سواء نتجت عن تفاعلات محلية أو احتضنتها منذ البدايات أحزاب وأنظمة قومية، سيما في سوريا والعراق.

أما حزب التحرير الإسلامي والإخوان المسلمون والحزب الشيوعي، فلم ينخرطوا في المقاومة المسلحة، وإن جرت محاولة مؤقتة هي قوات الأنصار التي رفدتها أربعة أحزاب شيوعية عربية عام ١٩٧٠ ولكنها تبعثرت وتبخرت بعد مذابح أيلول من العام نفسه في الأردن.

وذات الشيء يقال عن جيش التحرير الفلسطيني الذي اصبح متأثراً بهذا القدر أو ذاك بسياسات الأنظمة التي يتواجد على جغرافيتها. أما محاولته مجاراة فصائل المقاومة بتأسيس قوات تحرير فلم تستمر سوى بضع سنوات.

فارهاصات العمل الفدائي قبل ٦٧ تحولت لمقاومة مسلحة كخيار وخط سير بعد ٦٧ وباتت تطبع الهوية الوطنية وتعيد نظم وتأطير وتربية الشعب الفلسطيني.

لكن من باب التدقيق ينبغي القول إن سنوات ٦٥ – ٦٧ لم تخل من تباينات بين فتح وحركة القوميين العرب، إذ كانت الأخيرة تستأثر بالعلاقة مع نظام عبد الناصر ومنحازة للمقاربة التي تدعو لإحداث تحولات سياسية في دول الطوق ما قبل خوض الحرب مع إسرائيل، أما فتح فاعتبرت العمليات العسكرية وسيلة لتغيير الأوضاع العربية، وهذا لخصه شعار حركة القوميين (الوحدة طريق التحرير) وشعار فتح (التحرير طريق الوحدة).

وقد استندت فتح لسلسلة عمليات نفذتها لنقد قيادة الشقيري (المولع بالخطابة والأسلوب الطنان) أما القوميون العرب فخشوا من توريط عبد الناصر في حرب سابقة لأوانها وكان رد فتح (أن إسرائيل تعيش في حالة استعداد كامل ولا تحتاج إلى إثارة... وإنها تسعى لامتلاك سلاح نووي)[١٢١].

وبطبيعة الحال نالت فتح بعض الحظوة والتسهيلات من القيادة السورية، سواء بغض النظر أو بمساعدة بعض الضباط. ولبعض الوقت حصل تقارب وتعاون بين فتح وجبهة تحرير فلسطين، سيما أنهما مشدودتان للعمل الوطني دون اهتمامات فكرية. وبمنأى عن التباينات الداخلية لحركة القوميين العرب حول تبني الاشتراكية... أعلن الدكتور حبش (بدأنا التحضير للكفاح المسلح وتخصيص جهدنا الأساسي لفلسطين)[١٢٢].

وتشكلت منظمة شباب الثأر ولاحقا أبطال العودة بمشاركة ضباط آخرين مع الحصول على دورات عسكرية، وتولى غسان كنفاني التنظير لهذا التوجه في ملحق فلسطين في جريدة المحرر، وراحت مجموعات فدائية تتسلل إلى فلسطين ٤٨ للاستطلاع وتنفيذ عمليات اطلاق نار وزرع ألغام، سيما أن عبد الناصر قد حصر تأييده للعمليات داخل حدود ٤٨. وهذا التباطؤ من قبل قيادة الحركة حاز على نقد الجبهة الشعبية فيما بعد حيث عزت الخلل (للطابع الطبقي لقيادة الحركة الذي أبقاها محكومة للفكر البرجوازي القومي والتحالف العميق مع نظام عبد الناصر)[١٢٣].

تعرضت حركة القوميين في عامي ٦٥ – ١٩٦٦ لحملة اعتقالات واسعة في الأردن وسوريا، كما نشبت خلافات بينها وبين نظام عبد الناصر سيما في اليمن وانسحبت من صيغ تحالفية اشتراكية في مصر والعراق كانت مؤيدة لناصر. باتت أيديها أكثر حرية في تنفيذ العمليات، فكانت العملية الأولى لأبطال العودة في تشرين أول/١٩٦٦ سقط فيها ثلاثة شهداء وأسر سكران، وبرز

---

١٢١) نشرة الفتح، كيف تتفجر الثورة الشعبية المسلحة. ص١٧٨

١٢٢) فؤاد مطر، حكيم الثورة. ص٩٣،٣٢

١٢٣) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تقرير المؤتمر الوطني الرابع. ١٩٨١. ص١٠٣

هنا اسم وديع حداد كرئيس للجنة العمل العسكري الفلسطيني في الحركة.

على صعيد منظمة التحرير الفلسطينية، ظهرت بعض الاستياءات نتيجة تفرد الشقيري بالقرارات، كما ظهر ضعف المنظمة نظراً إلى التباطؤ في بناء جيش التحرير الفلسطيني وفقر عتاده وتبعية قياداته للجغرافيا السياسية العربية أكثر من تبعيتها لقيادة المنظمة، إلى درجة أن يضع الشقيري لواء سوريا تحت إمرة القيادة السورية. أما التحدي الأكبر فكان اتساع القوى السياسية والمجموعات العسكرية الفلسطينية التي لم تنضو تحت راية المنظمة. وأخفقت محاولتها تأليف (اللجنة التحضيرية للعمل الفلسطيني الموحد) في شباط/١٩٦٦ بعد أن انسحبت فتح وأطلقت تصريحات لاذعة (المطلوب فعل على الأرض لا في المكاتب). وتوترت العلاقات بين الشقيري والملك حسين بعد العدوان الإسرائيلي على السموع، حيث رفض الثاني التعاون العسكري مع الأول. فأطلق الشقيري تهديدات نارية (سيدخل جيشنا الأردن في الوقت المناسب) ليتعرض بعض ضباطه للاعتقال على أثر ذلك.

تنامت قدرات فتح العسكرية واتسعت رقعة عملياتها، رغم تعرض المئات من قوات العاصفة للاعتقال في الأردن، وتصاعدت التوترات الحدودية بين سوريا «وإسرائيل» توجت باشتباك جوي سقط فيه ٦ طائرات عسكرية سورية في نيسان ٦٧.

من جانب آخر، انتقل الاقتصاد الإسرائيلي في الخمسينات والستينات من اقتصاد زراعي إلى اقتصاد صناعي، وبات يعاني من أزمة فيض إنتاج. وحاجات إسرائيل للماء تزايدت. كما أن تعاظم قوة جيشها باتت تستوجب المزيد من التوسع بعد أن أثبتت أنها شريك كامل للإمبريالية في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وأنها مهيئة لتأدية دورها الوظيفي مرة أخرى.

نظرت الإمبريالية الأمريكية بكثير من الخطورة والعداء لنظام عبد الناصر وتطلعاته القومية والنهضوية وشيء مشابه حيال النظام السوري.

قصارى القول، باتت الساحة مهيئة للحرب. وما أن أغلق عبد الناصر مضائق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية، حتى جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير. وقد نشرت الوثائق في سنوات لاحقة، أن إسرائيل استعدت للحرب منذ وقت وأن جيشها قد تلقى التدريبات والتعزيزات الأمريكية – البريطانية – الفرنسية ليكون على أهبة الاستعداد. أما العقيدة العسكرية الإسرائيلية فتقوم على الحرب الخاطفة ونقل المعركة إلى أرض العدو. ولأسباب عديدة حسمت الحرب في ساعات

وأيام قليلة، وهزم الجيش المصري - السوري - الأردني واحتلت الضفة وغزة ووادي عربة، والجولان وسيناء. واستخرج الدكتور حبش، وهو المشهور باستخلاصاته النظرية وربط الفكر بالسياسة (لقد سقطت برامج البرجوازية القومية العسكرية/السياسية/الاجتماعية/الثقافية - المقصود الناصرية في مصر والبعثية في سوريا - وسقط دورها القيادي دون أن يسقط دورها التاريخي).

من ضمن النتائج الكبرى التي أفضت إليها الحرب التوسع الإسرائيلي في أراضٍ شاسعة واهتزاز العلمانية العربية. وشرح السوفييت حرب حزيران/٦٧ على النحو التالي (كان من السمات المميزة للتطور الاجتماعي السياسي في البلدان العربية في أواسط الستينات اشتداد الصراع بين القوى التقدمية من أجل التحويلات الاجتماعية، وبين القوى الرجعية المتحالفة مع الإمبريالية... ونتيجة التحويلات الاجتماعية الاقتصادية التقدمية بدأت عملية فصم البنية الاستعمارية للاقتصاد الوطني وتكوين بناء تحتي جديد مستند لقطاع الدولة في مصر وسوريا والعراق والجزائر، وصارت الحركة القومية تكتسب باضطراد مضمونا اجتماعيا ترسخت فيه مواقع البرجوازية الصغيرة والفئات الوسطى في المدينة والريف... واتسع نطاق الحركة التحررية.

وبلغت حصة العرب من ارساليات النفط إلى البلدان الرأسمالية عام ١٩٦٦ ما نسبته ٣٩٪. بدأت الأوساط الإمبريالية وعملاؤها في الشرق الأوسط والحكام الصهاينة في إسرائيل التحضير لمؤامرة واسعة)[١٢٤].

وبهزيمة الجيوش النظامية إنما توجهت أنظار الفلسطينيين للحرب الشعبية والمقاومة المسلحة بصرف النظر عن تعقيدات ومجافاة الظروف.

انعقد مؤتمر القمة العربي في الخرطوم آب/٦٧ متوائما مع شعار عبد الناصر (لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف)، وإن كان قد اعترف بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذي صدر في تشرين ثانٍ/٦٧.

صرح ناصر (لقد اكتشفت أننا نحارب أمريكا). وقام بزيارة سرية للاتحاد السوفييتي مكنته من إعادة تسليح جيشه، والأمر نفسه مع سوريا، بما سمح له بعمليات استنزاف شاملة في آذار ١٩٦٩ والقيام بقصف مدفعي وعمليات للقوات الخاصة على امتداد قناة السويس. كان يمارس الضغط غير أن إسرائيل لم تبد استعداداً للانسحاب من الأراضي التي احتلتها في حزيران،

١٢٤) مجموعة مؤلفين سوفييت، تاريخ الاقطار العربية المعاصر. دار التقدم. ١٩٧٦. ص٤٧١. ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٣

مدعومة بموقف الرئيس الأمريكي جونسون الذي دعا (للاعتراف بحق جميع الدول بالحياة وحرية الملاحة) ناهيكم عن الدعم التسليحي لإسرائيل الذي ضمن تفوقها. فأصبحت الأراضي التي احتلتها بالقوة ورقة مساومة وهدفا للتوسع سيما «أن حدود إسرائيل حيث يقف جيشها».

استمر نيكسون على نهج جونسون، اللذين وجدا في الشرق الأوسط فرصتهما للتعويض عن خسائر أمريكا في فيتنام، فثمة رؤية استراتيجية للإدارة الأمريكية، وكانت إسرائيل حليفاً ولاعباً فيها، إضافة إلى أن الإستراتيجية الأمريكية تتسع للتطلعات التوسعية الإسرائيلية.

وبينما كان يتفاوض الأمريكان والسوفييت ويختلفون كانت القوات الإسرائيلية تبني خط بارليف على امتداد قناة السويس وتتهيأ لمعركة طويلة استمرت ثلاثة أشهر، شن فيها سلاح الجو غارات تدميرية في العمق المصري وحول القاهرة، وراحت التصريحات الإسرائيلية تهدد باسقاط نظام عبد الناصر.

استنجد عبد الناصر بالسوفييت الذين زودوه ب «١٥٠ طياراً سوفييتياً و٨ آلاف فني وصواريخ مضادة للطائرات و٤ آلاف عسكري لدعم الدفاع المصري»[١٢٥].

تقدم الأميركيون بمبادرة روجرز تموز/ ١٩٧٠ فقبلها عبد الناصر والملك حسين كما الحكومة الإسرائيلية التي استقال بعض وزرائها احتجاجا، أما المقاومة الفلسطينية فقد رفضتها وهي التي توطد أقدامها على أرض المواجهة، عمليات فدائية في الداخل وعبر الحدود، سيطرت على م.ت.ف وعززت من وجودها في الأردن وسوريا ولبنان، إلى درجة خوض معركة الكرامة آذار/٦٨ بفاعلية واقتدار، بما كبد القوات الإسرائيلية التي اجتازت النهر «لتهشيم البيضة قبل أن تفقس» خسائر فادحة، دون نسيان دور المدفعية الأردنية، بما دفع المقاومة الفلسطينية لدائرة الضوء والتحاق آلاف المتطوعين بها، وبالتالي أصبحت لاعباً له وزنه وليس مجرد مجموعات سرية وإرهاصات أولية. دون أن ننسى أنه كان ثمة مصلحة للنظامين المصري والسوري في تقويتها وتأدية دورها الفدائي في إطار الاشتباكات الحدودية والتحضير للحرب، مثلما تلقت المقاومة اعترافا ومساعدات من الصين وفيتنام وكوريا الشمالية وكوبا، أما الحكومة السوفييتية فقد تفاجأت من اصطحاب عبد الناصر لعرفات في زيارته لموسكو، ولكنها استقبلته وأغدقت عليه الدعم.

بعد مشروع روجرز تفاقم التناقض بين الخط السياسي للمقاومة وخط القصر في عمان، أجج

١٢٥) د. صايغ، مصدر سابق، ص٢٣٢

ذلك خطف الجبهة الشعبية للطائرات فاندلعت الصدامات التي تحولت لحرب ضارية حسمت فيها ازدواجية السلطة، سلطة القصر وسلطة المقاومة، ذلك أن ازدواجية السلطة قانون مؤقت في التاريخ، ولكن ليدحر الملك المقاومة بعد عشرات الآلاف من القتلى والجرحى، فيما اصطلح على تسميتها (مذابح أيلول الأسود)، فتقهقرت الحالة الثورية الفلسطينية، وانسحب وجودها الأساسي إلى لبنان، وما تبقى في الأغوار وجرش وعجلون جرى إبادته في تموز/٧١. وفي غمرة حرب أيلول ١٩٧٠ انعقدت القمة العربية في القاهرة وفارق عبد الناصر الحياة.

وتفاقم التناقض في سوريا بين الاتجاه اليساري الذي تزعمه صلاح جديد الأمين العام المساعد لحزب البعث، وبين وزير الدفاع حافظ الأسد. إذ انشد الأول للشعارات الاشتراكية أما الثاني فأعطى الأولوية القصوى للصراع مع إسرائيل. وفي شباط/٧١ سيطرت القوات العسكرية المؤيدة لوزير الدفاع حافظ الأسد على عدد من المرافق العامة والحزبية بما مهد لسيطرته على الحكم. ومن جانب آخر نجح انقلاب القذافي في ليبيا وانقلاب النميري في السودان، وكلاهما مؤيد لعبد الناصر، فيما سيطر الاتجاه الماركسي على الحكم في اليمن الجنوبي عام ٦٨ بعد ثورة ظافرة قادها فرع القوميين العرب على الاستعمار البريطاني.

في العراق تحالف رئيس الجمهورية البكر مع نائبه صدام حسين ضد أمين عام الحزب عفلق ونائب وزير الدفاع حردان، ومرت سنوات من التنازعات والاعتقالات والاغتيالات إلى أن سيطر صدام على الحكم عام ١٩٧٣.

تشكل عام ١٩٧١ اتحاد الجمهوريات العربية الذي ضم مصر وسوريا وليبيا، وفي غضون ذلك حافظت سوريا على علاقة ايجابية مع الملك فيصل في السعودية، بينما كان لمصر وليبيا دورٌ جزئيٌّ في الإطاحة بالانقلاب اليساري في السودان الذي قاده هاشم العطا ونجح مؤقتا في عزل النميري.

إنها فترة صاخبة بالتفاصيل، وهي ابعد ما تكون عن الزمن الرمادي البطيء.

بعد وفاة عبد الناصر حل محله نائبه السادات الذي نجح في تكريس سلطته بعد أن تخلص من الفريق المنافس، النائب الثاني على صبري أمين عام الاتحاد الاشتراكي، وسامي شرف مدير مكتب عبد الناصر ورئيس الاستخبارات العامة، وشعراوي جمعة وزير الداخلية ورئيس الحرس الجمهوري... وجرت اعتقالات واسعة وأحكام عالية بتهمة «الخيانة العظمى» فيما سمي (الثورة التصحيحية) التي قادها السادات، الذي قام باستبدال شعار الاشتراكية بالليبرالية السياسية

والقيم الدينية، ورفع الحراسة وأعاد الأملاك المؤممة للبرجوازية وفتح البوابة للرأسمال الأجنبي وأعلن أن سنة ٧١ هي سنة الحسم وفي تموز/١٩٧٢ أمر فجأة الخبراء السوفييت البالغ عددهم بين ١٥ – ٢٠ ألفاً بمغادرة مصر.

وكان السادات والأسد قد توصلا إلى حالة من اليأس من الولايات المتحدة، وقطعا شوطا في الإعداد لحرب ذات هدف محدد، هو دفع القوى العظمى للانخراط النشط في عملية التسوية. وكان الملك فيصل ملك العربية السعودية قد تحدث عدة مرات عن ضرورة استخدام سلاح النفط العربي للضغط على الولايات المتحدة.

× × ×

من الضرورة بمكان استعراض متواليات تأسيس المقاومة الفلسطينية المسلحة بعد حزيران/ ١٩٦٧ وبعض خصائصها، وما حملته من سمات كان لها أبعد الأثر عليها في السنوات التالية.

في الوقت الذي يتعين الاعتراف بالدور البارز والطليعي للأفراد المبادرين، لا ينبغي إغفال أن هذا الدور قد تحول لقيادة فردية سواء لدى الشقيري أو ياسر عرفات.

فمنذ البدايات توشحت قيادة فتح بالفردية، وهذا لوحظ في المؤتمر الأول لفتح بعد هزيمة حزيران/٦٧، إذ (اعترض خالد الحسن وصلاح خلف وفتحي عرفات ونمر صالح ومحمود مسودة مجدداً على القيادة الفردية لعرفات وعلى استخدامه غير المنضبط للأموال)[١٢٦].

وهذا تكرر في سنوات لاحقة من قبل خلف والقدومي وقيادات عسكرية، وذات الشيء قيل عن قيادة الشقيري إذ تعالت الأصوات اعتراضا على فرديته مطالبة باستقالته. وكانت استقالته محتومة سيما بعد تصاعد العمل الفدائي فيما الشقيري محسوب على النظام الرسمي الذي هزم في حزيران.

وبعدما تولى ياسر عرفات قيادة منظمة التحرير/١٩٦٩، وعلى امتداد عقود من رئاسته للجنة التنفيذية والعديد من المناصب في نفس الوقت لم تتوقف الاعتراضات على فرديته من مختلف الفصائل، حتى أن جورج حبش قائد الفصيل الثاني في الثورة صرح (أنا لا أعرف كيف يتخذ القرار الفلسطيني) وطالب مرارا وتكرارا بقيادة جماعية لمنظمة التحرير، وهذا حال حواتمة

١٢٦) د. صايغ، المرجع السابق. ص٢٤٤

وسواهما. وكان للتفرد في القرار أثره في كافة المحطات، أما ثالثة الأثافي فهو التوقيع على مبادئ أوسلو/١٩٩٣ دون علم اللجنة التنفيذية للمنظمة ودون علم اللجنة المركزية لفتح ودون علم قيادات الفصائل ودون علم قيادة الداخل التي تقود الانتفاضة، مركز ثقل القضية الوطنية حينذاك، إذ لم يعلم بالأمر سوى حفنة أشخاص.

ومنذ بدايات المقاومة، أيضا جرى التشديد على خط الكفاح المسلح، فهو الخط الثابت وطريق التحرير، وهذا تكرس في أدبيات مختلف الفصائل بل أن الثورة هي ثورة مسلحة، وكل شيء يتمحور حول الكفاح المسلح ويتوالد عنه. حتى أن علاقة فتح قد توترت في لحظة معينة مع سوريا بعد أن قررت أغلبية اللجنة المركزية في تموز/٦٧ شن عمليات فدائية، الأمر الذي عارضه رئيس الأركان السوري سويدان بعد أن صادر (مخازن أسلحة فتح التي جمعت ٦ آلاف قطعة من مختلف الميادين) وتحديدا من مرتفعات الجولان بعد تراجع الجيش السوري السريع، أما الرئيس الأتاسي فأسمع القدومي وخليل الوزير الكلمات التالية (إذا أصررتم على هذا النهج، فإننا سنضطر آسفين لتصفيتكم)[١٢٧]. ولاحقا تمت تسوية الخلاف. وفي وثيقة داخلية لفتح أكدت (لقد نزلت فتح لميدان العمل المسلح فاستطاعت أن توجد الحافز الذي لا ينطفئ بريقه)[١٢٨]. وقد حث عرفات الذي تولى قيادة النضال في الضفة الغربية حين ذاك، قيادة فتح في دمشق على أن تكون العملية الأولى في ٢٠/آب/٦٧ غير أن قيادة فتح كانت قد توصلت مع قيادة حركة القوميين العرب وغيرها من المنظمات الفدائية على تأجيل القتال إلى نهاية العام لمزيد من الاستعداد... وتسلل عرفات مع مجموعة من مقاتليه عبر الحدود لإقامة قيادة سرية في نابلس.

وهذا حال حركة القوميين العرب التي راحت تعد العدة للمقاومة المسلحة بعد تأقلم شاق مع نتائج حرب حزيران، وقد تطوع المئات من أعضائها في مصر ولبنان وسوريا... إضافة لاستعدادات أبطال العودة قبل عام ١٩٦٧. وهي أذ تريثت في تقييم حرب حزيران سيما أن الضربة الاعتقالية الواسعة في الأردن عام ١٩٦٦ قد أحدثت تشرذما عقائديا وتنظيميا... بيد أن اجتماعا قياديا تم في بيروت بمشاركة ١٢ عضواً خرج بقرار التحضير للعمل العسكري. وفي تموز (التأمت اللجنة التنفيذية القومية وخرجت بوثيقة مطولة تظهر بوضوح تأثير يسار الحركة فيها سيما تحليل أسباب هزيمة الأنظمة البرجوازية الصغيرة التى تخشى الديموقراطية الشعبية وتسليح الجماهير أو انتشار النمط الاستهلاكي على حساب الصناعة الإنتاجية أو البيروقراطية المتحجرة... ونقد

---

١٢٧) عباس، محمود. ثورة المستحيل. ص٢٢

١٢٨) دورية صادرة عن فتح. ثورتنا والحزبية. ص١٠٢

انقسام المعسكر الاشتراكي بالانغماس في الخلاف الصيني – السوفييتي والخلوص إلى الالتزام بالكفاح الشعبي المسلح وضرب العدو في كل مكان)[129].

استقبل عبد الناصر قيادة الحركة وأكد لها أنه يعد لجولة ثانية من الحرب.

أما سوريا فقد رفعت القيود عن تحركات قيادة الحركة بين دمشق وبيروت، وتألفت قيادة عليا للإشراف على العمل الفلسطيني مكونة من الدكتور حبش والدكتور وديع حداد وهاني الهندي بقيادة الأول، وقيادة مساندة في الأردن (مصطفى الزبري، حمدي مطر، محمود عيسى...).

اتفقت قيادتا الحركة وفتح على تأجيل البدء بالعمليات القتالية لمدة شهر، وبعض الأوساط في الحركة قالت لكانون أول. غير أن فتح أدارت الظهر للاتفاق بتفيذ أول عملية في آب. فيما أسمته (الانطلاقة الثانية) على أثر اعتقالات نفذتها سلطات الاحتلال في الضفة الغربية ضد نشطاء فتح، حيث استفادت سلطات الاحتلال من ملفات الاستخبارات الأردنية التي استولت عليها خلال الحرب... ومن جديد قامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقالات واسعة شملت فتح والحركة وعناصر وطنية أخرى. واتجهت الأنظار لغزة فتشكلت الجبهة الوطنية المتحدة من التنظيم الشيوعي وحزب البعث وجبهة تحرير فلسطين إضافة لشخصيات مستقلة. فيما اكتفى الإخوان المسلمون وحركة القومين العرب بالتنسيق معها.

أثارت مبادرة فتح جدلاً في قيادة حركة القوميين العرب، التي أرسلت أحمد خليفة إلى الضفة لإعادة بناء فرع الحركة المبعثر، ونجحت الجهود بإقامة خمس قيادات مناطقية مرتبطة بمركز ميداني في رام الله، أما قيادة غزة (صباح ثابت، عمر خليل عمر، اسماعيل سالم، ناصر ثابت...). فاكتفت بصيغة تعاونية... وفي أيلول تسلل مصطفى الزَبري إلى الضفة لقيادة العمل.

من جانب آخر استوعبت فتح مجموعة فصائل صغيرة، أما قيادة حركة القوميين فحاورت جبهة تحرير فلسطين بقيادة أحمد جبريل بامتداداتها العسكرية في سوريا والأردن والضفة، واتفقتا على تأسيس جبهة متحدة، انضم لها أبطال العودة ومجموعة من الناصريين بزعامة الضابط أحمد زعرور. وتشكلت قيادة عسكرية أمامية في الضفة، وبعد اعتقال فيصل الحسيني تولى المهمة الضابط عبد الله العجرمي الذي تسلل ومعه العشرات إلى الضفة، وكانوا جميعا من الحركة، وانضم العجرمي للزبري وأحمد خليفة وعزمي الخواجا وعادل سمارة في القيادة الميدانية.

---

١٢٩) حركة القوميين العرب، الثورة العربية أمام معركة الصين. تقرير اللجنة التنفيذية./تموز/٩٦٧/ص١٤

وبينما رأت القيادة الميدانية ضرورة التريث بغية الإعداد بصورة أفضل ألح مركز الحركة على الشروع بالعمل سيما عبد الناصر قد حث قيادة الحركة على إتباع خطى فتح... ونفذت عملية مطار اللد في ١١/١٢/٦٧ ليصدر بيان في بيروت يعلن تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين... كان الثمن غاليا باعتقال المئات في الضفة وغزة بما في ذلك غالبية القيادة الميدانية، أي لقد جرى تصفية الجسم الرئيسي للتنظيم وامتداداته المسلحة.

لا تفوتنا الإشارة هنا، «أن الشيوعيين قد نأوا بأنفسهم عن أي مجهود عسكري، سواء الحزب الشيوعي الأردني في الضفة الغربية أو التنظيم الشيوعي الفلسطيني في غزة، وانخرطت القيادة الحزبية في الضفة (نعيم الأشهب، فائق وراد، سليمان النجاب، عربي عواد... في عملية البناء التنظيمي... ملتزمة التزاما كاملاً بالاحتجاج السلمي والعمل الجماهيري... وفي عمان رفض السلفيتي نائب الأمين العام أي عمل عسكري فلسطيني... «كظاهرة يسارية مغامرة»، وأيد أغلبية اللجنة المركزية والمكتب السياسي هذا الرأي».

أما جيش التحرير الفلسطيني، فقد شارك في حرب حزيران/٦٧، من خلال قوات عين جالوت المكونة من ٥ آلاف عسكري، وقوات حطين في سوريا التي تمركزت حول مدينة درعا، والكتيبة ٤٢١ التي عبرت مع القوات العراقية إلى الأردن وتعرضت لقصف جوي إسرائيلي في أريحا.

وفي غزة أسرت قوات الاحتلال ٦ آلاف عسكري من قوات التحرير رحّلت معظمهم إلى مصر.. والبعض ظل طريداً لبعض الوقت يمده اقاربه بالطعام والبعض جمع السلاح وأخفاه لكي يستعمله مستقبلا. وفي آب ٦٧ أقرت قيادة جيش التحرير (وجيه المدني، صبحي الجابي، فايز الترك، فخري شقورة) تأليف جناح فدائي يدعم بعناصر عسكرية من (طريق العودة) التابعة لشفيق الحوت. وقد تسلل عدد من الضباط إلى الضفة وغزة... غير أن سلطات الاحتلال لاحقتهم بقسوة. وقد أثارت تصريحات رئيس المنظمة الشقيري بأن العمل الفدائي الفلسطيني قد تحول لثورة جماهيرية مسلحة وأن م.ت.ف تقود الكفاح المسلح بقوى منظمة داخل المناطق المحتلة، استياء حركة فتح سيما أنه انتقدها بالقول أنها تتطلع إلى تحرير الضفة وغزة فقط مثلما استنكرت الجبهة الشعبية تصريحاته التي ادعى فيها تنفيذ عملية مطار اللد...

أرسلت فتح شكوى شديدة اللهجة لمجلس الجامعة العربية تطالب باستقالة الشقيري، وقام سبعة من أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة بانتقاد الشقيري فرد عليهم بفصل بعضهم، إلا أن مصيره انتهى عندما قام رئيس الصندوق القومي عبد المجيد شومان وعدد من كبار السياسيين

ورجال الأعمال بتأييد المحتجين، فقدم استقالته في أواخر كانون أول/٦٧، وانتخب يحيى حمودة رئيساً بالوكالة.

لم تتوقف أعمال المقاومة في الوطن المحتل، سواء من قبل العناصر المنتمية للفصائل أو مبادرات محلية أو عبر المجموعات الفدائية التي تعبر الحدود، ناهيكم عن الاحتجاجات والتظاهرات. وقد تكبد العدو الإسرائيلي خسائر متنامية، أما خسائر المقاومة فكانت أضعافاً. غير أن التضحيات تلهب حماس الشعب عندما يتسلح بقضية عادلة ويثق بقيادته. وولادة المقاومة شكلت في التحليل الأخير املاً عظيما وعنوان استقطاب كبير. وقد انتشرت القواعد الفدائية في طول وعرض الأردن، وفي غور الأردن وحده كان هناك ٥٠٠ فدائيٍ لفتح و٤٠٠ للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ونحو ٨٠ عنصراً لقوات التحرير الشعبية. وفي ١٥/ شباط قصفت الدبابات وسلاح الجو الإسرائيلي مخيم الكرامة في غور الأردن فقتلت ٢٠ جنديا ومدنيا أردنيا وجرحت ٥٨ آخرين. قام الجيش الأردني بتطويق البلدة وطالب باستسلام الفدائيين ولكنه رفع الحصار في اليوم التالي بعد توسط الأهالي لدى السلطات الأردنية. وفي ٢١ آذار/١٩٦٨ اجتاز لواءا مدرعات ومشاة وثلاث كتائب مظليين ودبابات من الجيش الإسرائيلي نهر الأردن فسيطرت على الكرامة وراحت تدمر البلدة تدميراً منظماً وسط مقاومة الفدائيين وقصف المدفعية الإردنية. وكانت حصيلة الجيش الإسرائيلي ٢٨ قتيلا و٩٠ جريحاً وتدمير ٤ دبابات و٥ عربات وطائرة، حسب البيان الإسرائيلي. وبلغت خسائر الجيش الأردني ٦١ قتيلا و١٠٨ جرحى وتدمير ١٣ دبابة واعطاب ٢٠ أخرى وتعطيل ٣٩ عربة. أما خسارة المقاومة فناهزت ١٣٠ شهيداً أغلبيتهم من فتح وجرح ١٠٠ وحوالي ٦٠ وقعوا في الأسر)[١٣٠].

أثبتت معركة الكرامة قدرة الفدائي الفلسطيني على القتال والصمود فلم تكن نزهة سهلة على «الجيش الذي لا يقهر» الذي ترك بعض دباباته ومصفحاته المدمرة في أرض المعركة، سحبها رجال المقاومة لعرضها في شوارع عمان، وعلى أثر خلافات في الجبهة الشعبية خرج فريق أحمد جبريل ليؤسس الجبهة الشعبية – القيادة العامة.

تمددت القواعد الفدائية على المنطقة الحدودية وأقبل المتطوعون، فلسطينيين وعربا بما يتعدى قدرة الفصائل على التنظيم والتسليح، ويعتقد أن عدد الفدائيين في الأردن حينذاك قد ناهز ثلاثة آلاف، إضافة لأضعافهم من الأنصار. واستقبل ملك السعودية فيصل كلاً من خليل الوزير وصلاح خلف وتعهد لهما بمساعدة مالية كبيرة، وأرسل عبد الناصر شحنة سلاح لفتح واستقبل قيادتها

١٣٠) الحسن، هاني. وقفة عند الذكرى الرابعة. ص٥٧

التي أصبحت تحظى بعلاقة أقوى من علاقة الجبهة الشعبية بعد أن استفز عبد الناصر القانون الذي استخلصته الجبهة الشعبية في علاقتها مع الأنظمة الوطنية (تحالف وصراع).

مع شحنات الأسلحة التي وصلت من سوريا والعراق ومصر، والصين والجزائر، تنامى عدد الفدائيين بتواتر وأصبح ٩ آلاف عام ٦٩ و١٤ ألفاً عام ٧٠)[١٣١]. مع تفوق ملحوظ لفتح. وراحت الفصائل سيما فتح والشعبية تنظم دورات كادرية علاوة على التدريبات في الكليات العسكرية في مصر والجزائر... وعلى صعيد الانتشار امتدت الفصائل الفدائية في المخيمات والأغوار والمدن بما يشبه ازدواج سلطة.

وانتشرت المجموعات الفدائية في الجولان، مع تسهيلات خاصة من النظام السوري لمنظمة الصاعقة التي أصبح لها قواعد وأجهزة وامتدادات واسعة في الأردن وسوريا.

تمددت الفصائل الفدائية أيضا في الجنوب اللبناني حيث احتضنها الشعب اللبناني كتعبير عن اصطفافه وراء المقاومة. وفيما كانت الدولة اللبنانية مشغولة بنتائج غارة إسرائيلية على مطار بيروت في كانون أول/١٩٦٧ افضت إلى تدمير ١٣ طائرة مدنية، واستقالة رئيس الوزراء، تحدى المواطنون قراراً حكومياً يمنعهم من التظاهر فأصطدموا بالقوات الحكومية التي قتلت ١١ متظاهراً وجرحت العشرات، نتج عن ذلك استقطاب حاد في الساحة اللبنانية وانحياز أعداد كبيرة للفدائيين، فقامت الحكومة بحملة اعتقالات واسعة شملت المئات من الصاعقة وفتح وسواهما، غير أن هذا لم يثن الفصائل الفدائية عن تعزيز وجودها في الجنوب بمئات المقاتلين الذين نفذوا أعمالا فدائية ضد أهداف إسرائيلية.

وتزايدت الاحتكاكات مع السياسة اللبنانية التي كانت تنظر بامتعاض للوجود الفدائي، فقام الجيش اللبناني بتطويق قواعد فدائية في تشرين أول/٦٨ وقتل ١٦ فدائيا. وتوسعت الاحتكاكات حين طرد الدرك اللبناني من مخيمات اللاجئين، ودعت المعارضة اللبنانية لإضراب جماهيري دعماً للفدائيين واتسعت المصادمات، فأغلقت سوريا حدودها مع لبنان وأعلنت ليبيا والجزائر تأييدهما للفدائيين، إلى أن هدأت الأوضاع بتدخل مصري وتوقيع اتفاق القاهرة الذي ينظم العلاقات الفلسطينية – اللبنانية، بما في ذلك رفع القيود الحكومية عن المخيمات الفلسطينية، بما أتاح انتشاراً سريعاً للفصائل الفدائية وتوزيع السلاح على الأتباع، الأمر الذي لم يخلُ من تجاوزات.

---

١٣١) الوزير، خليل. حركة فتح. النشوء. ص٨٢

وعليه، فالظاهرة الفدائية التي انتشرت انتشار النار في الهشيم راحت تواجه سياسة رسمية مجافية في الأردن ولبنان، كما أخطاء في صفوفها. وكانت الساحة الأساسية للمقاومة حينذاك خارج الوطن ارتباطاً بنشأتها، وقد انعكست مخاضات مسيرتها في الخارج على مخاضات مسيرتها في الداخل... فكان المخاض عظيما والنزف أعظم.

وبالعودة للمنطلقات، أصبح العمل الفدائي الفلسطيني مصدراً للشرعية السياسية ورمزاً للهوية الوطنية. وحفر الفلسطيني صورته في وسائل الإعلام والرأي العام العالمي بأنه الثائر الملثم الذي يتمنطق بالبندقية، وربما أن لوحة للفنان الفلسطيني اسماعيل شموط هي خير من عكس هذه الصورة.

ثار الشعب على اللجوء والاقتلاع والبؤس والعوز والتهميش وباتت كلمة ثورة واسعة الانتشار، مع تفاوت في فهمها، بين ثورة على «الواقع الفاسد» فتح، وثورة تحمل مضامين تحريرية شاملة (سياسية، طبقية جنسية، ثقافية) الجبهة الشعبية.

أما أسلوب الثورة فهو البندقية والكفاح المسلح، ولاحقا الحرب الشعبية. ورغم التعبئة والحماسة لقوانين ومقولات الحرب الشعبية، بالاستناد للتجربتين الصينية والفيتنامية، كما للتجربتين الجزائرية والكوبية، غير أنه اصطدم بعقبات الظرف الموضوعي. مساحة المعركة ضيقة وغير ملائمة للحرب الشعبية، فلا غابات ولا طبوغرافية عصية، كما أن المستعمرين في الجزائر وفيتنام كانوا أقلية قياسا بالشعب الاصلاني. أما امكانية الانتقال من مرحلة الدفاع السراتيجي إلى مرحلة الهجموم الستراتيجي والتفوق على العدو، فهو متعذر دون حركة تحرر عربية قوية وأنظمة عربية مستعدة للقتال. وفيما ركزت قيادة فتح على العلاقة مع الأنظمة، اجمالا، ركزت قيادة الجبهة على الحركات الشعبية، اجمالا، ولكن ليس للنهاية، وهذا حال الفصائل الأقل وزنا وشعار «هانوي العرب» أو «قاعدة الارتكاز» الذي نظّرت له الجبهة الشعبية لم يتحقق، بل لقد اجتثت الثورة من الأردن، وراحت تواجه استنزافا دائما في لبنان.

مع ذلك أكدت البندقية المقاتلة في سنوات كفاحها الأولى على وجود شعب فلسطين فهو لم (يتحول لغبار الأرض) كما تمنت وثائق الخارجية الإسرائيلية بعد النكبة ودحر محاولات طمس هويته حد الأردنة بين ٤٨ – ١٩٦٧.

أي لقد أكدت البندقية وجوده مثلما أكدت هويته الوطنية، ناهيكم عن أنها أكدت شخصيته

الكفاحية، فهو يتمتع بشخصية فدائية وليس مجرد مجموعات من اللاجئين المذعورين الذين ينتظرون الاعاشة من وكالة الغوث، ويذلهم برد الشتاء وقيظ الصيف في خيام ومخيمات اللاجئين.

كانت سنوات العمل الفدائي ولادة حقيقية للكيانية الوطنية التي عبرت عنها الفصائل وجبهتها العريضة منظمة التحرير، فهي العنوان المؤسسي والقائد الذي تلتف حوله الجماهير ويتعامل مع القريب والبعيد وينتزع اعترافاً عالمياً متنامياً.

وبينما هزمت الأنظمة في حزيران/٦٧ انبثقت المقاومة من رحم الهزيمة وترسمت طريق الكفاح المعمد بالتضحيات والدم واجتراح البطولات. فهي الرد الثوري رغم ما اعتورها من عيوب وأخطاء.

تناسلت القواعد الفدائية واخترقت عوائق الطبيعة، وذهب شبابها إلى أقاصي الدنيا لتعلم فنون القتال. في الصين وفيتنام وكوبا والاتحاد السوفييتي ووو... فالفلسطيني امتشق صليبه على ظهره ولم يسمح لأحد بصلبه. أما المذابح السياسية والعسكرية فلم تحل دون تواصل البندقية التي غدت أقرب لجيش شعبي يمتشق أسحلة متنوعة وخبرات ميدانية غنية إضافة لبناء خدمات دولاتية صحية واجتماعية وتعليمية. لقد أصبحت مجتمع ثورة، مجتمع يحتضنها وثورة تحتضنه، رغم افتقارها لقاعدة جغرافية حرة وبنية مجتمعية واحدة.

فالشعب مشتت والمقاومة توحده، والمقاومة مجنحة والنظم تقصقص أجنحتها. لقد صنعت مجالها السياسي وفعلها القتالي في أسوأ الظروف الموضوعية.

ورغم التمنيات الكبيرة بأن تتحول المقاومة الفلسطينية لرأس حربة للجيوش والجماهير العربية، ورغم التعاطف الشعبي الواسع، غير أن ذلك لم يتحقق دون أن ننسى محاولات الأنظمة تجيير المقاومة واحتواءها وأحيانا ذبحها سياسيا وعسكريا.

أما السعي لجعل ساحة الداخل هي الساحة الأساسية في مواجهة العدو الصهيوني، فانشغالات البندقية في الدفاع عن نفسها في الخارج وغطسها في بناء مؤسسات هي أشبه بمؤسسات دولة، من جهة، والملاحقة الدؤوبة من قبل سلطات الاحتلال للمقاومة في الوطن المحتل، من جهة أخرى، وعدم المثابرة الكافية على استراتيجية ثابتة تنظر للداخل كساحة اساسية، كلها عوامل جعلت من ساحة الخارج هي الساحة الأولى إلى أن اندلع الجيشان الانتفاضي في أواخر/١٩٨٧، دون أن ننسى أن سياسة الرفد الكادري والتسليحي من الخارج للداخل، هذه السياسة الفاعلة بين ٦٧ — ٦٩ قد تراجعت وبهتت في السنوات اللاحقة وإن تمايزت فتح على سواها هنا.

أما النقطة التي لا ينبغي اهمالها فهي مستوى الأداء، فالمقاومة رغم تضحياتها الهائلة غير أن أخطاءها لم تنل ما يكفي من النقد والتصويب وبالتالي ترميم عيوبها ورفع مستوى فاعليتها، بما يتطلبه ذلك من تجديد قيادي ومأسسة قيادية توحد بين التخصص والكفاءة والجماعية، وهذا تعرى تماما وتكشفت عوراته عندما ظهر نموذج آخر، تجربة حزب الله. فالمقارنة وسيلة للمعرفة.

ويجوز الافتراض هنا، أن ذلك يحيلنا إلى فقر التخطيط الستراتيجي وعدم الافادة من الكادرات النابهة والموهوبة لإغناء العقل القيادي. أما البلاغة اللفظية والشعاراتية وتمايز أسماء قيادية وتضحيات قاعدية فلم تكُ كافية للتغطية على القصورات والاخلالات.

وعلى سبيل المثال كان يتعين اسناد وتعزيز الحركة الوطنية الأردنية لكيما تكون حليفا وحاميا، كما بناء وجود سري قادر على المقاومة والاستمرار، والأمر نفسه في لبنان، بما يضمن دوراً دائماً رئيسياً لساحة الخارج، غير أن هذا شابه خلل بنيوي. كما كان يمكن الدأب على حياة التقشف الثوري ونظافة الصفوف التي عرفتها المقاومة الفلسطينية في سنواتها الأولى، غير أن البترودولار أحدث تحولات معاكسة بعدئذ، كان لها اسقاطاتها الاجهاضية والتخريبية... كما كان يمكن اعتماد قيادة جماعية بدل قيادة فردية مرة تصيب ومرة تخيب ومرة تبدع ومرة تدمر. ناهيكم عن أن التنبه للعمل الجماهيري في الداخل لم يكن بالدينامية الكافية وجاء متأخراً، فقد كانت المقاومة المسلحة هي الفيصل ومقياس العمل، دونما تهيئة تنظيمية كافية أو تربية أمنية كافية أو إعداد قتالي كافٍ للصمود وتأدية المهمات. أما الاتجاه الشيوعي الذي انحاز للمقولات الطبقية والعمل النقابي والجماهيري فكان محدود الوزن ويغرد خارج سرب العمل الفدائي، فانطبقت عليه مقولة انجلز (تأتي لحظات في التاريخ إما أن تقتنصها أو تبقى في معزل) رغم أن تراكمه الكادري وخبرته السياسية ومرشده الفكري كلها عوامل، كان يمكن أن تساعده على الاضطلاع بدور رئيس فيما لو انخرط في بدايات العمل الفدائي.

ورغم السلبيات التي يجدر قراءتها تاريخيا، وما أفضت إليه لاحقا غير أنه لا يجوز خلط الأوارق. فما هو مركزي هو قدرة البندقية على الصمود في الخارج وتوسيع صفوفها واستقطاب التأييد لها، والقيام بأعمال مدوية فرضت القضية الفلسطينية على أجندة العالم والضمير العالمي، واستمرار النضال في الداخل، الذي جمع أشكال مواجهة متعددة، أعلاها وتيرة في قطاع غزة حيث تمايزت الجبهة الشعبية فيما تمايزت فتح في الضفة، بصرف النظر عن المبالغات في الإعلام الفلسطيني عن حجم الهجمات الفدائية وخسائر العدو. وفيما أفرطت فتح بالقول (إنها جاهزة

للتحرير الدائم لمواقع العدو) نظرت الجبهة الشعبية بحذر (لقد نزع العمل الفدائي الطمأنينة والأمن من العدو، والتقليل من هالة إسرائيل العسكرية)[١٣٢].

وإن طغت القواسم المشتركة بين مختلف فصائل المقاومة في السنوات الأولى، فقد شهد انتخاب ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير في شباط/٦٩ وحصول فتح على ٣٣ مقعداً في المجلس الوطني المكون من ١٠٥ أعضاء، بداية نزاعات تنظيمية، سيما أن الجبهة الشعبية قد حصلت على ١٢ مقعدا وهذا حال منظمة الصاعقة المرتبطة بحزب البعث الحاكم في دمشق.

من ناحية أخرى حمل انتخاب عرفات انتقال القيادة الوطنية من أيدي أبناء البرجوازية والعوائل إلى أبناء البرجوازية الصغيرة المقاتلة، وبالتالي تعززت الميول الاستقلالية عن الأنظمة العربية. وبلا شك أن معركة الكرامة قد دفعت فتح للصفوف الأولى زادها قوة انفتاح النظام المصري عليها، بل واستطاع عرفات أن يمسك بكافة خيوط فتح الداخلية، سيما أن تباينات قد نشأت بين مؤسسي فتح والكادرات التي التحقت بها من جذور بعثية وشيوعية، ناهيكم عن الضباط الكبار الذين التحقوا بها، إضافة إلى مجموعة (فتح الإسلام) التي دعمها عرفات والوزير وضمت الكثير من عناصر الإخوان المسلمين، وقد احتج على ذلك صلاح خلف وسواه إلى أن جاءت مذابح أيلول/٧٠ وخلقت معطيات جديدة)[١٣٣].

عرفت الجبهة الشعبية تمزقات داخلية، ففي البداية انسلخت جبهة تحرير فلسطين بقيادة أحمد جبريل سيما أن الوحدة لم تكن اندماجية، فلكل طرف عضويته وقوته العسكرية ورؤيته الفكرية والسياسية. واعتقلت السلطات السورية الدكتور حبش مع عشرين من كوادره بمن فيهم أحمد اليماني قبل معركة الكرامة بيومين، و(تنامى الخلاف بين «اليسار» «واليمين» واتصلت العناصر اليسارية بصلاح جديد في سوريا الذي أيدها ووعد بمدها بالسلاح سيما قد جرحه هرب حبش من السجن السوري، كما وعد صلاح خلف رئيس استخبارات فتح تلكم العناصر بالدعم المالي والعسكري وفي ٢٢/شباط/٦٩ انشق الفريق الذي يرأسه نايف حواتمة ومعه نحو ١٥٠ عنصراً وعشرات المقاتلين، بينما انفصل محمد كشلي ومحسن إبراهيم ومعهم الكثير من اللبنانيين لتأسيس منظمة الاشتراكيين اللبنانيين)[١٣٤].

---

١٣٢) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. الفكر العسكري ١٩٦٩. ص١٠

١٣٣) د.صايغ، يزيد. مرجع سابق ص٣٢٩

١٣٤) د.صايغ، يزيد. المرجع السابق. ص٣٤٥، ص٣٤٦

كان ثمة عوامل ومبررات أخرى للانشقاق، غير أن أهمها كان التوصيف النظري، فقد رأى الفريق المنشق نفسه يساريا فيما صنف قيادة الجبهة كيمين برجوازي صغير. أما الجبهة فأكدت على أن أبناء المخيمات والفلاحين والعمال والشريحة الدنيا من البرجوازية الصغيرة بقوا مخلصين لها. وإنها تنتمي للديموقراطية الثورية القادرة على التحول ليسار ماركسي كما حصل في التجربة الكوبية والكورية الشمالية واتحاد الاشتراكيين في بلغاريا... وتأكد بعد سنوات أن التعبئة الفكرية في الجبهتين تنهلان من نفس النبع، وأن البنية التنظيمية للشعبية هي أصلب وأكبر حجما من الديموقراطية، بل في كثير من الأحيان جاء التاكتيك السياسي للديموقراطية وسطاً بين الشعبية وفتح، وعقدت الجبهة الشعبية مؤتمرها في أواخر عام ٦٩ الذي صدر عنه الاستراتيجية السياسية والتنظيمية التي كتبها حبش في إحدى القواعد الفدائية بعد أن تم تحريره من السجن السوري، وفيها يتحدد معسكر الأصدقاء ومعسكر الأعداء وطبقات الثورة وأشكال النضال... الخ من المفردات اليسارية، بل كان لها دورها في تحويل فروع حركة القوميين العرب إلى حزب العمل الاشتراكي العربي الذي جمع الخطاب الطبقي الاشتراكي والإطار القومي في آن، وتبين مجلته (طريق الثورة) طابع الثورة العربية – الوطني – الديموقراطي – بآفاق اشتراكية وحدوية. وعليه تكرست الهوية الماركسية – اللينينية للجبهة الشعبية، وأعلن حبش ذلك اعلامياً، بل انعكس بوضوح في التثقيف الداخلي ومدرسة الكادر في الأردن ودورات الكادر في البلدان الاشتراكية، ولكن حبش أضاف (إننا نسترشد ولا نأخذ بالقوالب الجامدة، والذي يريد أن يفهمنا عليه أن يفهم أننا نفكر ونفهم الفكر في اطار الخصوصية والبعد القومي). واستخلصت الجبهة قانون (التحالف والنقد) في العلاقة مع البلدان الاشتراكية.

لم يكن للتحول الفكري تأثير ملموس على الجهاز الخاص بالعمليات الخارجية الذي يتولاه الدكتور وديع حداد الذي فتنته الأعمال وقد اضطلع بعدد من عمليات التفجير وخطف الطائرات في أوروبا...

وشهد عام ٦٩ نجاح فتح في توثيق علاقاتها بمصر وسوريا، فيما تقلصت علاقة الشعبية بهما، لترتفع أسهمها في العلاقة مع العراق، بما تحمله العلاقة من دعم عسكري ومالي. كما شهدت الساحة الفلسطينية توالد العديد من المنظمات الصغيرة بما هو قريب من التشرذم والكثير من المزايدات السياسية.

أما الأشد أهمية: فهو تنامي قواعد الثورة في الأردن وبقدر أقل في لبنان وسوريا، بما هو قريب

من قواعد ارتكاز مستقلة، أما ثقلها في الأردن فأفضى إلى ازدواج سلطة. وعلاوة على التناقض بين الخط السياسي للثورة والخط السياسي للنظام، فالقصف الإسرائيلي للأردن الذي شمل مناطق عديدة أدى إلى ترحيل ١٠٠ ألف من أهالي وادي الأردن عام ١٩٦٨، ناهيكم عن التجاوزات وحواجز التفتيش التي أقامها الفدائيون الفلسطينيون، وتمرد الشباب الفلسطيني على الخدمة العسكرية في الجيش الأردني.

(والنظام الذي فقد الضفة الغربية في حزيران ٦٧ قام بإعادة بناء مؤسسته العسكرية بدعم خليجي وسلاح غربي، وبدأ الملك عام ٦٩ العمل المنظم لمواجهة التحديات بتقوية علاقاته مع العشائر والقبائل الشرق أردنية، ونشط جهاز الاستخبارات... الذي نشر تقارير مبالغاً فيها عن إساءات الفدائيين، وأنشأ ميليشيا وفوجاً مدرعاً من القبائل الجنوبية...

في عام ٧٠ شعرت الحكومة الأردنية أنها مستعدة لتعديل موقفها الدفاعي، وبعد مناوشات في شباط أعلنت الجبهة الديموقراطية أن لا سلطة فوق سلطة المقاومة، فيما أعلنت الجبهة الشعبية أن المعركة هي نضال وطني وطبقي في آن... أما فتح فكانت التهديد الأكبر للعرش، منحتها قوتها ثقة بأنها على قدر متساوٍ مع الحكومة إن لم تكن متفوقة عليها.

والتقى الملك في شباط/ ١٩٧٠ ممثلين عن ٢٣ عشيرة ووقع بيانا مشتركا يدعو إلى إعادة فرض القانون والنظام. وفي نيسان أعلن عن نية وزير الخارجية الأمريكي سيسكو زيارة الأردن، وتحت وقع التظاهرات ألغيت زيارته. وفي أوائل أيار استولى الجيش الأردني على قاعدتين للفدائيين، وفي ٧/حزيران اندلع القتال وسقط ٣٠ شخصا في الزرقاء وامتد القتال إلى عمان، وحاولت الجبهة الشعبية الاستيلاء على الإذاعة الحكومية بينما كانت صواريخ فتح تضرب القصر الملكي رداً على نيران مدفعية الجيش الأردني، وقدرت الخسائر بين ٨٠٠ – ١٠٠٠. في ٢٢/تموز وافق عبد الناصر على مشروع روجزر بوقف إطلاق النار على قناة السويس، وحذا الملك حسين حذوه بأن تعهد بوقف الأعمال القتالية ضد إسرائيل. خرجت مظاهرات فلسطينية تدين عبد الناصر وتهينه...)[١٣٥].

تفاقمت الأمور (في ٦/أيلول خطفت مجموعات للجبهة الشعبية ثلاث طائرات وبعد ثلاثة أيام طائرة رابعة، اقتيدت واحدة إلى مطار القاهرة حيث جرى تدميرها بعد إطلاق سراح ركابها، والثلاث الأخريات إلى مطار صحراوي في الأردن حيث طوقتها وحدات عسكرية أردنية... وقد

---

١٣٥) د. صايغ، يزيد. المرجع السابق ص٢٦٥،٣٦٩،٣٧٢

بررت الجبهة هذه الخطوة بإبراز القضية الفلسطينية ورفض الخنوع العربي لمشاريع التسوية، في وقت كان فيه حبش في زيارة لكوريا الشمالية.

تفاوتت الاجتهادات في قيادة فتح بين خليل الوزير (الذي رفض أي استيلاء على السلطة في الأردن) والقدومي الذي قال (إن الملك نمر من ورق، نتمكن من إطاحته في نصف ساعة)، أما فتح فتباهت بأن لديها تنظيماً سرياً واسعا داخل الجيش الأردني، وأحد القيادات قال أن لدى الثورة الفلسطينية ٣٦ ألف بندقية)[١٣٦].

ويشار إلى أن بيان المجلس الوطني في أواخر آب قد ذكر أن الساحة الأردنية – الفلسطينية ساحة نضالية واحدة يجري تحويلها لمعقل للثورة الشعبية المسلحة.

تجدد القتال، وفي أواخر آب تحولت المناوشات إلى قتال مستمر، قصف خلاله الجيش الأردني مخيمات اللاجئين، وسقط عشرات القتلى من الطرفين كما ألقت السلطات الأردنية القبض على عشرات الفدائيين، وتقدمت وحدات عسكرية أردنية لتطهير الجنوب من الفدائيين، وكان عددهم بين مقاتلين وميليشيات حوالي الألف في الكرك ومعان والطفيلة... واشتعلت النيران في عمان والزرقاء وبلغت الحصيلة الإجمالية مئات القتلى والجرحى.

في ٢٦/أيلول ألف الملك حكومة عسكرية أعلنت حالة الطوارئ والأحكام العرفية وطالبت القوات الفلسطينية جميعا في المدن والمخيمات تسليم أسلحتها... وفي اليوم التالي دعت القيادة الفلسطينية لإضراب جماهيري عام.

حشد الجيش الأردني نحو ٣٥ ألف عسكري في عمان... ودارت معارك طاحنة استمرت أسابيع إلى أن سيطر الجيش على مختلف المناطق، باستثناء جرش وعجلون اللتين اقتلع الوجود الفدائي منهما في تموز/٧١. وتحدثت التقديرات عن سقوط أكثر من ٢٠ ألف فلسطيني بين فدائي وميليشيا ومدني، أما في جرش وعجلون فسقط أكثر من ٢٥٠ من الفدائيين وأسر ٢٣٠٠ بينما عبر نهر الأردن ١٠٠ استسلموا لجيش الاحتلال الإسرائيلي.

وبالتالي انتهى الوجود الفدائي الفلسطيني في الأردن. ولم يغير من هذه الحقيقة أن قطعت ليبيا والجزائر وسوريا والعراق علاقتها الدبلوماسية مع حكومة عمان. ولم تعد الساحة الأردنية سنيداً للمقاومة في الأراضي المحتلة.

---

١٣٦) د. صايغ، المرجع السابق ص٣٨٣، ٣٨٤

انتقل مركز ثقل الثورة في الخارج إلى لبنان حيث تمركز نحو ٣ آلاف مقاتل في الجنوب اللبناني ناهيكم عن أعداد أكثر في البقاع والشمال.

اغتنم العدو الإسرائيلي هذا الانكسار الفلسطيني لتشديد قبضته على غزة، فشق طرقات عريضة في المخيمات أدت إلى إجلاء قسري لأكثر من ١٠٠ ألف من اللاجئين لتسهيل حركة العربات العسكرية الاحتلالية ومحاصرة وإبادة الخلايا الفدائية، وفي عام ٧١ سقط نحو ١٠٠ فدائي واعتقل عشرة أضعاف هذا العدد، واستشهد في آذار/٧٣ محمد الأسود قائد الجبهة الشعبية وزياد الحسيني قائد قوات التحرير.

عقدت حركة فتح مؤتمرها في أيلول/٧١، وقد استبق عرفات الهجمات النقدية عليه بنقد نفسه، وأحرز يسار فتح بعض النفوذ بانتخاب عشرة لعضوية المجلس الثوري. وفي نهاية المطاف تمكنت اللجنة المركزية لفتح من توحيد صفوفها. وما أصاب فتح أصاب الجبهة الشعبية التي التحق معظم كادراتها بساحتي لبنان وسوريا، وتفاقمت الخلافات إلى درجة عقد مؤتمر انشقاقي «للظاهرة اليسارية» في شباط/٧٢، كان لسوريا بعض الأصابع فيه، انتقد وديع حداد على خطفه للطائرات. أما الحكيم جورج حبش فدعا لعقد مؤتمر عام للجبهة في آذار/٧٢.

في آيار بادر علي طه العضو في الجهاز الخاص لوديع حداد ومعه ثلاثة من فتح باختطاف طائرة بلجيكية على متنها ١٠٠ راكب إلى مطار بن غوريون في اللد، وكانت عملية مدوية استشهد فيها اثنان وأسر اثنان، ونفذ ثلاثة من الجيش الأحمر الياباني منخرطون في صفوف الجبهة الشعبية عملية في نفس المطار حيث فتحوا النار في ٣٠/أيار فقتلوا ثلاثين وجرحوا خمسين آخرين قبل أن يسقط اثنان منهم ويؤسر الثالث. وفي أيلول نفذت مجموعة أيلول الأسود تابعة لفتح عملية في ميونخ قتل فيها أحد عشر رياضيا إسرائيليا وخمسة مهاجمين واعتقل ثلاثة.

وقد شرح صلاح خلف (هناك سلسلة تبدأ بالإمبريالية الأمريكية مروراً بالأنظمة العربية المرتبطة وصولا لإسرائيل، إذا أردنا النجاح علينا الاتصال بجميع القوى التي تقاوم هذه السلسلة) .[١٢٧]

بما يشبه تماما كلمات جيفارا (الإمبريالية سلسلة عالمية وعلينا مواجهتها في جبهة عالمية).

انتقمت إسرائيل بشن غارات واسعة على سوريا ولبنان فقتلت حوالي ٢٠٠، وزرعت عبوة في

١٢٧) الوثائق الفلسطينية، ١٩٧١، ص١١٠

سيارة غسان كنفاني الأديب الفلسطيني والناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية في تموز فسقط شهيداً... وتوالت الرسائل المفخخة حيث أصيب أنيس صايغ مدير مركز الأبحاث الفلسطيني وبسام أبو شريف رئيس تحرير مجلة الهدف، وهجوم أيلول الأسود على السفارة الإسرائيلية في بانكونك وآخر على السفارة السعودية في الخرطوم... وهجوميان إسرائيليان على مخيم البداوي شمال لبنان سقط فيهما ٤٠ فلسطينيا معظمهم من الجبهة الشعبية، وأخر في قلب بيروت سقط فيه ثلاثة من قادة فتح: النجار وعدوان وناصر. وفي أيلول/٧٢ سقط أكثر من ٨٠ فدائياً وجندياً ومدنياً لبنانياً في عمليات إسرائيلية واسعة في الجنوب اللبناني حيث ارتفعت أصوات أحزاب اليمين اللبناني تطالب بإخلاء ٥ آلاف مقاوم فلسطيني من الجنوب وإلغاء اتفاقية القاهرة ٦٩ التي تنظم العلاقة بين الفلسطينيين والحكومة اللبنانية، وقال زعيم الكتائب الجميل (لا تعايش مع العمل الفدائي)[١٣٨].

في نيسان اعتقلت دورية للجيش اللبناني ثلاثة عناصر للجبهة الديموقراطية، فردت الجبهة بخطف جنديين وجاء الجواب بمحاصرة وقصف مخيمات بيروت من قبل الدبابات اللبنانية، وفرض نظام منع التجول في أنحاء لبنان، وتوسعت المعركة باستخدام سلاح الطيران اللبناني والسلاح الصاروخي الفلسطيني، وانضمت المعارضة اللبنانية للمقاومة الفلسطينية التي استقدمت بعض الإسناد من قواتها في سوريا إلى أن هدأت المعارك الطاحنة ورفعت حالة الطوارئ وعاد رئيس الحكومة الحافظ عن استقالته، ولكن النتيجة لم ترض التيار المتشدد في الجيش اللبناني ولا الأحزاب اليمينية التي راحت تدرب وتسلح عناصرها. وعززت الفصائل الفدائية علاقتها مع المعارضة اللبنانية إلى أن اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي كانت دمشق والقاهرة تعدان سرا لها رداً على حرب حزيران/٦٧ التي بادرت إليها إسرائيل واحتلت سيناء والجولان والضفة وغزة ووادي عربة.

كانت حرب أكتوبر حربا حقيقية على طول قناة السويس والهضبة السورية، وحاربت القوات الفلسطينية على الجبهتين كما من الجنوب اللبناني، ووصل عشرون ألف جندي عراقي لإسناد الجيش السوري، وقوات أردنية وجزائرية وكويتية لإسناد الجيش المصري، وقلصت البلدان العربية النفطية إنتاجها فاشتعلت أزمة طاقة عالمية. وأقيم الجسر الجوي الأمريكي لتعويض الخسائر الإسرائيلية والجسر السوفييتي لتعويض الخسائر العربية، وكلفت الحرب إسرائيل نحو

---

١٣٨) صحيفة النهار، ١٩٧٣/٣/١٣

ثلاثة آلاف قتيل وأكثر من مائة طائرة و٨٠٠ دبابة بينما خسرت مصر وسوريا وحلفاؤهما ٨٥٠٠ قتيل و٤٥٠ طائرة و٢٥٠٠ دبابة.

في البداية تقدم الجيشان السوري والمصري، وهما المبادران، ولكن هجوما مضاداً أجبرهما على التراجع. وفي أثناء المعارك اختلف الرئيسان الأسد والسادات بشأن سير العمليات وأختلفا أكثر بشأن توقيت وقف اطلاق النار. وتوصلت مصر وإسرائيل لاتفاقية فصل القوات في ١٩٧٤/١ فيما واصلت سوريا حرب الاستنزاف حتى أيار/٧٤ وصولا إلى اتفاقية مماثلة.

اعتبرت حرب أكتوبر/٧٣ نقطة تحول رئيسة في الصراع مع العدو الصهيوني، فقد «ثأرت» من حرب حزيران/٦٧، وأحرزت بعض النجاح، ولكن القيادة المصرية لم تذهب بالحرب للنهايات، ونظرت لها كحرب تحريكية دفعت مصر للخيار التفاوضي بما أوصلها لكامب ديفيد/١٩٧٨ والخروج من جبهة القتال، وهي الدولة العربية الأهم والأقوى، بل منها جاء صلاح الدين مرة لتحرير فلسطين من الغزو الأوروبي الاقطاعي (الصليبي) ومنها ثار محمد علي على الحكم العثماني وسيطر على الجزيرة وبلاد الشام، ومنها رفع عبد الناصر شعار (ارفع رأسك يا أخي) وانخرط في مشروع دولاتي عصري وتصدى لمخططات الاستعمار وإسرائيل... الأمر الذي كان له اسقاطات ثقيلة على مجريات الأحداث بعدئذ. من هنا جاءت كلمات الدكتور جورج حبش (لقد ثبت بشكل قاطع أنه مجرد وهم الحديث عن حلول سياسية وطنية في ظل ميزان القوى القائم.... إن الحلول المطروحة مهما تبدلت أشكالها تبقى محصلتها النهائية حلولاً إمبريالية – صهيونية – رجعية... إن انتقال نظام السادات إلى موقع الاعتراف والتفاوض جاء نتيجة تراكمات في النهج الاقتصادي – السياسي الذي تتبعه البرجوازية العربية. جاء نمو الكومبرادور العربي ليخلق مصالح اقتصادية مشتركة مع البرجوازية الإسرائيلية)[١٣٩].

أما فلسطينياً فانعقد المجلس الوطني في حزيران/١٩٧٤ وتبنى برنامج السلطة الوطنية والهدف المرحلي بالدولة والعودة وتقرير المصير، الأمر الذي فسر من قبل الكثير بأنه استعداد ضمني للقبول بتسوية سياسية تؤدي لدولة بديلا للتحرير، بما دفع عجلة الاعتراف العالمي والدعم على نطاق واسع بمنظمة التحرير، وبالتالي تكريس المنظمة ككيان وطني للفلسطينيين مع تكيف مستمر للعمل الفدائي مع التحركات السياسية للمنظمة، وليس العكس. إذ يجوز القول: كانت السياسة تنبع من فوهة البندقية، فأصبحت البندقية تطلق من فوهة السياسة. وراحت قيادة

---

١٣٩) د. حبش. جورج، خطابات ومقالات، خطاب في أيار ١٩٧٥. الأرض المحتلة

المنظمة تسعى لفرض حضورها في الجهود السياسية الأمريكية – المصرية.

قاومت جبهة القوى الرافضة بقيادة الجبهة الشعبية رؤية رئيس المنظمة، دعمها في ذلك ليبيا والعراق. أما الجبهة الديموقراطية فدافعت عن «المرحلية» وانتقدت اصطفاف فتح بجانب المحور المصري – السعودي، والحوار مع أمريكا.

رحب السادات بسياسة كيسنجر وزير خارجية أمريكا (الخطوة – خطوة) منطلقا من قناعة أن ٩٩٪ من أوراق الحل بأيدي أمريكا، متجاوبا مع مقولة كسينجر (يستطيع السوفييت إعطاؤكم السلاح أما أمريكا فتعطيكم الحل العادل) فيما استخطرت سوريا وحليفها السوفييتي التساوق المصري مع السياسة الأمريكية. رأت سوريا في ذلك عزلاً لها أما السوفييت فرأوا فيه استبعاداً لهم.

انعقد المؤتمر الدولي في جنيف /٧٤ صاحبه انقسام فلسطيني بين مؤيد سيما عرفات وحواتمة، وجبهة رفض على رأسها جورج حبش. وقد نظّرت الجبهة الديموقراطية للمؤتمر (بأن حرب تشرين أحدثت تكافؤاً نسبيا في التوازن الستراتيجي بما يتيح استرجاع ولو بعض الأرض الفلسطينية لإقامة حكم مستقل)[١٤٠].

أما صلاح خلف فصرح (بأن حرب أكتوبر خلقت وقائع جديدة... والمسألة الحيوية عدم إعادة الضفة للأردن... وبشأن المرحلية، المهم أن تنتزع الضفة وغزة دون تنازلات)[١٤١].

وسخر جورج حبش من هذه التصريحات والمواقف بناء على تحليله لحرب أكتوبر بأنها تحريركية لا تحريرية (وأن الصهيونية لن تجلو عن شبر واحد إلا نتيجة نضال سياسي – عسكري يرغمها ارغاما على هذا الجلاء. فالطريق طويل وميزان القوى لا يسمح بعد بدحر الاحتلال)[١٤٢].

واصل كسينجر ديبلوماسيته المكوكية، وفي ايلول/١٩٧٤ وقعت اتفاقية فض الاشتباك الثانية في سيناء ووثائق سرية مع إسرائيل تتعلق بالدعم العسكري والاقتصادي وعدم تحدث أمريكا مع منظمة التحرير إلا بعد أن تعترف المنظمة بإسرائيل والقرار ٢٤٢.

ورداً على تصريح رابين (لن نعيد الجولان) تألفت قيادة مشتركة سياسية – عسكرية، سورية

---

١٤٠) بيان، الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، مجلة الحرية ١٩٧٣/١١/١٢

١٤١) صلاح خلف، أفكار واضحة في مرحلة غامضة. ص٥

١٤٢) خطاب جورج حبش، النهج الثوري في مواجهة التحديات، بيروت ١٩٧٤. ص١٤

- فلسطينية. واعتبر الأسد لبنان الجناح الغربي للدفاعات السورية وخاصرتها الحساسة، ولما بادرت الميليشيات اللبنانية اليمينية بالاشتباكات في بيروت نيسان/١٩٧٥، نظر الأسد لذلك كصدى لدبلوماسية كيسنجر المكوكية. وتفاقمت المواجهات بعد باص الفاكهاني الذي سقط فيه عشرات الفلسطينيين، اتسعت رقعة المعركة وأصبحت بين سيطرة الحركة الوطنية اللبنانية، بقيادة كمال جنبلاط المتحالف مع منظمة التحرير الفلسطينية، التي اكتسحت معظم لبنان بعد دحر الميليشيات اليمينية اللبنانية، وبين الحل التوفيقي الذي ترعاه سوريا وتستفيد منه الميليشيات اليمينية وينطوي على الحد من قدرة منظمة التحرير على الحركة والنشاط. ولما أرسل أبو عمار إلى القاهرة خالد الحسن، صرح زهير محسن قائد الصاعقة (أن ما يجري في لبنان هو معركة شاملة بين الخط القومي والصمود الوطني وبين التخاذل والاستسلام الذي يقوده السادات...)[١٤٣].

دعمت فتح الضابط اللبناني أحمد الخطيب الذي أعلن عن تأسيس جيش لبنان العربي الذي تضخم بسرعة، وقامت بتسهيل تحركاته وأنصاره في البقاع الأمر الذي دفع خليل الوزير نائب القائد العام لفتح لنقل مقر قيادته من دمشق إليه. بينما تمرد قائد ثكنة ماروني، أنطوان بركات، دعماً للشرعية واستولى عسكريون موارنة على وحدات الجيش وأسلحته في عدد من المناطق إلى أن تحلل الجيش في الشهور اللاحقة.

تصاعدت المواجهات في آذار بين التحالف الفلسطيني – اللبناني الوطني وبين المعسكر اليميني، وانتشر ظن بين بعض القيادات الفلسطينية أن سوريا لن تتدخل. أما الرئيس الأسد فاعتقد أن الوسيلة الوحيدة لاجبار الجميع على قبول تسوية توافقية هو نشر قوات سورية في لبنان. نظر كسينجر لذلك بايجابية وأعلن الأردن دعمه للمبادرة السورية فيما صرح رابين (بعد التأكد من حجم التدخل السوري في ١٠/نيسان فإسرائيل تعتبره مسألة داخلية لبنانية)[١٤٤].

أشعل القرار السوري بابعاد جيش التحرير الفلسطيني من بيروت تبادلا للقصف المدفعي وقتال شوارع فسقط ٢٠٠ قتيل و٦٥٠ جريحاً. ولاحكام القبضة، ضاعفت سوريا من حجم قواتها في لبنان، وتراشقت قوات الصاعقة قذائف المدفعية مع القوات الفلسطينية، وتقدمت الكتائب السورية للسيطرة على بيروت فاتسع القتال وتضاعفت الخسائر، وحاصرت قوات كميل شمعون والميليشيات اليمينية مخيّمَيّ تل الزعتر وجسر الباشا الفلسطينيين، ودارت معارك طاحنة

---

١٤٣) خطاب زهير محسن، مجلة الطلائع. الصاعقة. ١٩٧٦/٣/١

١٤٤) صحيفة القدس. ١٩٧٦/٦/١

استخدمت فيها كل الأسلحة في مناطق الاحتكاك التي تحولت لحرب أهلية استمرت عاماً ونصفاً إلى أن تم التوقيع على وقف إطلاق النار.

تشير الاحصاءات إلى سقوط ثلاثة آلاف مقاتل فلسطيني ووطني لبناني ومثلهم من المليشيات اليمينية اللبنانية، واضعاف ذلك من المدنيين، اما الخسائر السورية فغير معروفة.

وفي وقت أحرز فيه حلفاء السوفييت انتصارات عظمى في الهند الصينية وفرار السفير الأمريكي بالطائرة من هانوي، تقدمت السياسة الأمريكية في مصر بالغاء السادات معاهدة الصداقة السوفييتية – المصرية وطرد ما تبقى من خبراء سوفييت وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل عام١٩٧٨، وفي المقابل تلقى السادات مساعدات عسكرية واقتصادية أمريكية. وعقابا لنظام مصر انعقدت قمة الصمود والتصدي في بغداد وفرضت عقوبات جماعية وعزلة على نظام السادات، فيما منحت مساعدات لسوريا والأردن ومنظمة التحرير. من جهة أخرى انعقد مؤتمر فلسطيني في طرابلس – ليبيا خلص إلى بيان يرفض السلام أو الصلح او التفاوض مع إسرائيل.

في آذار/١٩٧٨ اجتاحت القوات الصهيونية الجنوب اللبناني بما لا يقل عن ثلاثين ألف جندي و٣٠٠ دبابة. قاوم الفدائيون بببسالة وتم تدمير اثنتين وعشرين دبابة في منطة العرقوب الوعرة، واعترف الجيش الإسرائيلي بمقتل واحد وعشرين جنديا فيما سقط خمسة وستون فدائيا وأكثر من ١٠٠٠ من الأهلين، وأقيم شريط سعد حداد المتعاون مع الإسرائيليين.

لم تتوقف الأعمال الفدائية الفلسطينية واللبنانية مخترقة الشريط الحدودي.

انضم حواتمة لحبش في نقد (القيادة العرفاتية وسعيها للتكيف مع النظام الساداتي المستسلم). وفي خريف/١٩٧٨ نشأ أئتلاف فلسطيني عريض شمل كل القوى ما عدا فتح، وقد حظى بتأييد سوريا والعراق. وجرت مصالحة بين سوريا والجبهة الشعبية التي ظلت على رأيها بأن التدخل السوري العسكري في لبنان قد فوّت على الحركة الوطنية اللبنانية ومنظمة التحرير احراز النصر الكامل. لكن الأسد استقبل حبش في دمشق، وبعده استقبلت موسكو حبش لمدة أسبوع، داعيا من موسكو الأنظمة التقدمية العربية لإقامة تحالف استراتيجي مع السوفييت ومناهضة السياسة الأمريكية.

شعر عرفات بالعزلة، فقامت مجموعات منتمية لفتح بمهاجمة مكتب لجبهة النضال الشعبي، وبعد يومين قتلت أربعة من الجبهة الديموقراطية واحتلت مؤقتا مركز الابحاث الفلسطيني، وقد

فسرت الجبهة الديموقراطية (هجموم اليمين الفلسطيني على اليسار الفلسطيني بأنه رسالة لمصر والسعودية تشهد على اعتداله)[١٤٥]. أما حبش فدعا (لاصلاح منظمة التحرير الفلسطينية والتخلص من الفردية في القرار المالي والسياسي والعسكري)[١٤٦]. وقد أيده في ذلك عدد من أعضاء اللجنة المركزية لفتح.

من ناحية ثانية، اندلعت الثورة الشعبية التي قادها الخميني في إيران، وأطاحت بنظام الشاه، ونشأت مناخات واصطفافات ومخاوف مهدت للحرب العراقية – الإيرانية المدمرة بما حملته من اسقاطات على الإقليم والقضية الفلسطينية.

أما على الصعيد الفلسطيني فقد شجع توافر الموارد المالية في فترة السبعينات على نتيجتين:

بناء مؤسسات بيروقراطية، وبناء كتائب عسكرية نظامية، بما هو قريب من جهاز دولة. ومن هنا شاع تعبير «جمهورية الفاكهاني». والاستطراد المنطقي أن تحمي منظمة التحرير المناطق التي تنتشر فيها في لبنان، وتحدث العسكري الفلسطيني البارز سعد صايل (نتطلع للوصول إلى الجيش النظامي، فالحرب النظامية أفضل الحروب)[١٤٧].

وبات لدى مختلف الفصائل أسلحة ثقيلة. وتقدر القوة العسكرية لفتح، باعتبارها الفصيل الأقوى عام ١٩٨٠ ب خمسة ألوية تتضمن ٢٦ كتيبة، إضافة ل ٧ كتائب لجيش التحرير الفلسطيني. وقد صرّح أبو عمار مرارا أن قوة فتح النظامية تناهز ١٠ آلاف مقاتل ناهيكم عن المليشيات. وهذا شمل تخصصات مختلفة. كتائب مشاة، مدفعية، صواريخ، دفاع جوي، أمن، دبابات.

أما الفصيل الثاني فكان الجبهة الشعبية بما ناهز ١٣٠٠ مقاتل وضعفهم من الميليشيا المدربة والمسلحة، يليها الجبهة الديموقراطية وبقية الفصائل. وسار هؤلاء على نهج فتح، وتلقت الجبهتان الشعبية والديموقراطية والقيادة العامة راجمات صواريخ وقاذفات فردية ومدافع، علاوة على التدرب على سلاح الجو من القيادة الليبية، ناهيكم عن شحنات الأسلحة من الاتحاد السوفييتي وألمانيا الديموقراطية وكوبا.

لقد تنامى اليسار بشكل ملحوظ بين ١٩٧٨ – ١٩٨٠، ناهيكم عن تنامي اليسار داخل فتح

---

١٤٥) نايف حواتمة، الوضع الراهن ومهمات الثورة. ١٩٧٩ ص٣٩

١٤٦) جورج حبش، خطابات ومقالات. ص١١٢

١٤٧) صايل، سعد. عمل الثورة العسكري. ص٧

بشخصياته البارزة ماجد أبو شرار، نمر صالح، سميح أبو كويك، وقد حظي هذا اليسار بتأييد كبير في مؤتمر فتح أيار/١٩٨٠، إذ (أصبح ٢٥٪ من اللجنة المركزية لفتح... بينما كانت اللجنة المركزية في مؤتمر ١٩٦٨ الذي انعقد في سوريا مكونة من ياسر عرفات، خليل الوزير، صلاح خلف، ممدوح صيدم، عبد الفتاح حمود، محمود عباس، محمد يوسف النجار، وكلهم كانوا من الاخوان المسلمين سابقا، وأبو علي إياد وخالد الحسن من حزب التحرير سابقا، وفاروق القدومي من حزب البعث سابقا). يؤكد عبد الفتاح القلقيلي.

وذهبت الجبهة الديموقراطية بعيداً في تصوراتها فظنت أنها أضحت (نقطة استقطاب للتحالف الديموقراطي الثوري) وهي التي ستقود اليسار المنحاز للماركسية – اللينينية. فكتبت (إن النهوض بالثورة يتطلب بروز طليعة طبقية جديدة) [١٤٨].

لكن قوة فتح العسكرية كانت تفوق بأضعاف مجموع القوى الأخرى، وهذا حال نفوذها في مؤسسات ودوائر ومكاتب المنظمة، ناهيكم عن امكاناتها المالية وتحكمها بالصندوق القومي لمنظمة التحرير، بما أتاح لها قيادة المسيرة الفلسطينية بشكل عام والاستئثار بحصة الأسد في الدورات العسكرية والأكاديمية في البلدان الاشتراكية وسواها، حيث جرى تأهيل الآلاف، ناهيكم عن الكليات العسكرية التابعة للفصائل، إلى درجة أن تدعم فتح جيش الرئيس عيدي أمين بخبراء وأن ترسل شحنات عسكرية وطيارين للثورة الساندينستية في نيكاراغوا.

والرؤية العسكرية الفلسطينية حملت فيما حملت بروز نخب عسكرية، مثلما أن الإفراط في المكتبية أفضت إلى بروز نخب بيروقراطية. ناهيكم عن أن رئيس المنظمة احتفظ بصلاحيات واسعة وسلطة فردية في مختلف الجوانب. فاضافة للجانب الإداري فهو صاحب القرار والملجأ الذي يلبي المطالب!! وهذا كله انطوى على أبعاد سلبية كان لها تأثيرها في سنوات لاحقة. أي لقد تغلغل التراخي والفساد والامتيازات في جيوب وأماكن عديدة، بل ارتبط الكثيرون بهذا النظام في مراتبهم ورواتبهم ومطالبهم، ناهيكم عن تنامي مراكز النفوذ وعلاقاتها ومستزلميها.

لقد نشأت علاقات ريعية وأبوية في تبادلية بين التابع والمتبوع. التابع الذي يتلقى منحا علاجية وأجور سكن وتذاكر سفر وسيارات ومنحاً جامعية لعائلته وأقاربه وإجازات راحة في البلدان الصديقة، ومساعدات مالية لبناء مسكن، علاوة على الراتب الذي يتضمن علاوة الزواج وعدد

---

١٤٨) الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، التقرير النظري والسياسي والتنظيمي ص٤٧٤

الأطفال وسنوات الخدمة... والمتبوع الذي يحوز على التأييد لمواقفه ونزاعه مع الآخرين الذين يتزاحمون معه على المناصب القيادية وامتيازاتها.

وعاد الاستزلام والمحسوبية عل بعض الكوادر بمنافع شخصية كبيرة حيث جيرّوا مراكزهم لخدمة أنفسهم دون رقيب أو حسيب، أو في التهريب أو التزوير في السوق السوداء والمتاجرة في السلاح والبضائع المهربة. ناهيكم عن الرواتب الخيالية للبعض التي كانت ٣٠ ضعف راتب المقاتل كما كتب الصحفي نزيه أبو نضال.

وبالتالي تشكلت شريحة بيروقراطية متبرجزة تعيش بترف وتترهل بتواتر، صورها خير تصوير الشهيد ناجي العلي في لوحاته الجسورة.

وكان التفريغ المفرط ظاهرة شائعة وأصبح أسهل الطرق لتأمين شبكة أمان مالية لأعداد متزايدة، وإستراتيجية بقاء لكثير من العائلات، ثمنه بطبيعة الحال الولاء واسترضاء أصحاب النعمة الذين استفاد بعضهم من حالة الجماهير الفقيرة وافتقاد المنظمة لمشروع تنموي. فالذي ساد هو عكس الحكمة الصينية (بدل أن تعطيني كل يوم سمكة علمني صيد السمك).

وأخطر ما نجم عن ذلك، بصرف النظر عن أية عوائد إيجابية، هو انتشار الارتزاق المضمر والارتخاء النضالي وخبو الروح الكفاحية التي كان يغطى عليها دافعية المبدأ والروح الوطنية المتوقدة والمخلصة لدى الكثيرين، سيما الفئات الشبابية، غير أن أوساط واسعة في المراكز النافذة باتت مجهضة وشائخة روحيا وجسميا بما لا يلائم استحقاقات الكفاح المسلح، فحاضرها أصبح عكس ماضيها، بعد أن طرأت عليها تحولات سلبية كبيرة.

والتفريغ لم يشمل الكادرات التنظيمية والمقاتلين فقط بل المنظمات الشعبية واتحادات الطلبة والكثير من المستزلمين، بما يصل نصف قوام الفصيل أو أكثر. حتى أن الجبهة الشعبية التي كانت أكثر تقشفا وصلت نسبة المتفرغين لديها ٣٠٪ في الخارج بينما كان يدعو أمينها العام بأن (لا تزيد النسبة على ٤٪)[١٤٩]. وأشارت دراسة عام ١٩٨٢ إلى أن منظمة التحرير قد وظفت ١٠ آلاف في مختلف أجهزتها، دون احتساب العسكريين بما يمكن أن ينظر له بإيجابية، رعاية مؤسسة الشهداء، والشؤون الاجتماعية لعشرات الآلاف من الأسر، علاوة على ٥ آلاف عامل وموظف في مؤسسة صامد في ٥٠ مشغلاً في لبنان وسوريا، أو التعاونيات الاستهلاكية التي ضمنت ٢٥ ألف

---

١٤٩) حبش، رسالة لقيادة الداخل. أيار/١٩٨٦

لاجئ من مخيمات لبنان والخدمات الصحية بأجور رمزية لمئات الآلاف من الفلسطينيين ومحو الأمية ورعاية الطفولة لمعظم اللاجئين الفلسطينيين... كجهود إيجابية بلا شك.

تكثفت الهجمات الإسرائيلية على القواعد الفدائية الفلسطينية في لبنان وبلغت عام ١٩٨٠ أكثر من ٣٦٠ سواء بقصف مدفعي أو بقصف جوي أو بقوات مشاة. لكن الهجوم الأكثر شهرة كان على قلعة الشقيف حيث سقط ٢٩ فدائيا وثلاثة جنود إسرائيليين.

أشارت التقديرات السياسية إلى إمكانية أن تتعرض الثورة لضربة كبيرة، وذهب اجتهاد البعض إلى أن الجيش اللبناني سيتولى المهمة، واجتهاد آخر توقع أن تقوم القوات الإسرائيلية بهذه المهمة. فأصدرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير قراراً يستدعي للخدمة العسكرية الطلبة الجامعيين الفلسطينيين. وكان هناك نحو ٢٥ ألفاً يدرسون في الجامعات العربية والاشتراكية والأجنبية، وأوكل لاتحاد طلبة فلسطين تنظيم وصولهم إلى لبنان.

وعلى الصعيد البعيد – القريب فاز ريغن اليميني في انتخابات الرئاسة الأمريكية، وعين الجنرال هيج وزيرا للخارجية، فيما استمر الليكود برئاسة شامير على رأس حكومة تل أبيب. أما مبادرة بريجنيف الزعيم السوفييتي التي استندت للقرار ٢٤٢ وحق إسرائيل في الوجود وتضمنت الدعوة لدولة فلسطينية، فبقيت حبرا على ورق، رغم التباين حولها في القيادة الفلسطينية بين مؤيد ومتحفظ. وفي كانون ثانٍ/١٩٨١ أكدت القمة العربية في الطائف على الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري للبنان، فضاعفت القوات الإسرائيلية غاراتها على قواعد الفدائيين لتنبري الطائرات السورية بالتصدي لسلاح الجو الإسرائيلي ففقدت ست طائرات عسكرية نشرت سوريا على أثرها صواريخ سام ٦ في البقاع، وقام الجميل زعيم الكتائب بذبح سريع لميليشيا المردة التابعة لشمعون فسقط منها ٥٠٠ قتيل.

استمر القصف المتبادل بين قوات الثورة والجيش الإسرائيلي، وشمل القصف المخيمات الفلسطينية والمستعمرات الإسرائيلية الشمالية، إلى أن قام سلاح الجو الإسرائيلي الذي يستبيح سماء لبنان بتدمير مقرات قيادة المنظمة والجبهة الديموقراطية ومكتب عرفات مما أدى إلى سقوط ١٥٠ مدنيا وجرح ٧٥٠ آخرين، وأرسلت إسرائيل حشودات عسكرية للمناطق الحدودية. فردت منظمة التحرير بأكثر من ١٢٠٠ صاروخ على ٣٥ مستعمرة ومعسكراً للجيش بما تسبب بنزوح ٤٠ ألف مدني إسرائيلي.

بعد مسعى المبعوث الأمريكي فيليب حبيب، معتمداً على الوساطة السعودية، تم الوصول لوقف إطلاق النار لسيناريو حرب المدافع والصواريخ. حينها انتهز الأمير فهد اللحظة لتقديم مبادرته في آب/١٩٨١ التي شملت دعوة إسرائيل للانسحاب إلى حدود ٦٧ وإقامة دولة فلسطينية وحق جميع دول المنطقة في العيش بسلام. كان ذلك مثابة حوار غير مباشر بين منظمة التحرير وإسرائيل. أيد عرفات المبادرة وعارضها اليسار الفلسطيني وبعض رموز فتح لأنها مثابة اعتراف بإسرائيل بما يقطع الطريق على حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم كما أنها مثابة دعوة لتعميم كامب ديفيد واللحاق بالسادات.

وفي ٦/تشرين ثانٍ اغتيل السادات الرئيس المصري بما أثار شكوكاً كبيرة حيال المفاوضات المصرية – الإسرائيلية للوصول لحكم ذاتي للفلسطينيين. وأصبحت إسرائيل أمام خيارين: ضربة قاصمة لمنظمة التحرير أو التفاوض معها، دون أن يخطر في بالها العودة لحدود ٦٧ من طرف واحد. وجاء تصويت الكنيست الإسرائيلي في كانون أول/٨١ بتطبيق القانون الإسرائيلي على هضبة الجولان، توتيراً إضافيا مع سوريا التي رأت في ذلك إلغاء للهدنة وإعلاناً للحرب.

أما شارون وزير الحرب الإسرائيلي فرأى أن المصالح الستراتيجية الإسرائيلية تشمل مناطق واسعة في الشرق الأوسط، واعتبر منظمة التحرير خطراً كامنا على وجود إسرائيل. وتسربت معلومات لقيادة المنظمة عن خطة إسرائيلية هجومية، تزامن ذلك مع زيارة سرية لشارون لبيروت الشرقية بتسهيلات من الكتائب المارونية. وبالغت الدعاية الإسرائيلية في قوة م.ت.ف العسكرية. وكرر نفس الدعاية الكسندرهيج وزير الخارجية الأمريكية.

وفي شباط/١٩٨٢ توطدت القناعة الفلسطينية بأن إسرائيل عازمة على اجتياح واسع بمشاركة لبنانية، وتنبأت الجبهة الشعبية بأن الهجوم سيكون أوسع من غزو آذار/٧٨، وأن منظمة التحرير والحركة اللبنانية الوطنية وسوريا ستكون جميعها مستهدفة.

أصدر عرفات قراراً بوضع قوات م.ت.ف في حالة استنفار، وتوقع أن يصل الجيش الإسرائيلي إلى خلدة جنوبي بيروت في حركة كماشة مع القوات اللبنانية. كان ثمة تحليلات تقول أن القوات الدولية في الجنوب والضغط الدولي سيكبحان جماح إسرائيل، فيما تحليلات أخرى تستعد للمواجهة في بيروت. في آذار أصبح الغزو الإسرائيلي مسألة وقت، سيما أن ثمة تدريبات وحشودات إسرائيلية في الجبهة الشمالية، وحصلت بعض المناوشات والقصف المتبادل في الأسابيع اللاحقة.

اتبعت سياسة القبضة الحديدية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، من اعتقالات واسعة إلى إغلاق جامعات وصحف وزيادة حظر التجول. سبق ذلك قرار سلطات الاحتلال بإنشاء الإدارة المدنية في الضفة وغزة استباقاً للمحادثات مع مصر حول الحكم الذاتي وتطبيق كامب ديفيد من طرف واحد، ووضعت أوامر الحكم العسكري بمصاف القوانين الأردنية والمصرية وبالتالي تسهيل الاستيطان الاستعماري وإلحاق دائم للضفة وغزة.

وعلى قدر آخر من سوء الطالع اندلعت اشتباكات بين حركة أمل والحزب الشيوعي اللبناني، وبين حركة أمل واليسار الفلسطيني في مناطق عديدة وأسفر ذلك عن عشرات القتلى وضعفهم من الجرحى. وانتقدت الحركة الوطنية قيادة فتح لاتخاذها موقفاً محايداً حيال النزاع مع أمل ولدعمها الميليشيات الإسلامية في طرابلس، وانفجرت عدة عبوات في بيروت حصدت عشرة قتلى وخمسة وعشرين جريحا وسيارة أخرى مفخخة حصدت ثلاثين قتيلا وخمسة وثلاثين جريحا... واشتباكات بين جناحي حزب البعث وبين فتح وأنصار سوريا في طرابلس حصدت خمسة وعشرين قتيلاً وجرح خمسة وتسعين، وتزعزع التحالف الفلسطيني – اللبناني ومنع الحزب الاشتراكي التقدمي الحليف الوفي لمنظمة التحرير، أي وجود عسكري فلسطيني في منطقة الشوف الستراتيجية. وفي وقت كانت السماء فيه ملبدة بنذر الحرب كانت الثورة تعيش في جغرافيا ليست جغرافيتها الوطنية، بما يعينه ذلك من تعقيدات، وفي مجتمع فلسطيني مشتت في المنفى ومنفصل عن المجتمع الفلسطيني في الداخل بما له من استحقاقات في لحظة الحرب والمساومات المحتملة. فالثورة كانت أشبه بجهاز دولاتي حائر بين دولة المنفى ومجتمع الثورة، بما تعنيه دولة المنفى من التزامات كبيرة ومساوئ ومفاسد بيروقراطية ومنافع ريعية، وبالتالي استخدامية للطاقات النضالية الهائلة التي انخرطت في صفوف الثورة، دون إشراك حقيقي للجماهير في القرار أو تربيتها لتكون قادرة على الاحتجاج ونقد الأخطاء، ناهيكم عن عدم الذهاب للعمق في المنظورات العقلانية والاجتماعية، بما جعل البنية الذهنية والاجتماعية أقرب للبنى التقليدية التي يسهل إعادتها لبيت الطاعة الجبري والمنظورات الغيبية وتكريس التخلف الاجتماعي والثقافي بما لا يرقى إلى متطلبات الصراع مع عدو عصري وعنصري في آن.

وبعد الاعتراف بالتطور العسكري فقد نهش البنى التنظيمية الضعف والشللية وصراع مراكز النفوذ والاستزلام وتخلف العمل الإداري. والقيادي في فتح خالد الحسن أشار لهذا الجانب (في عبقرية الفشل) بأن القيادة (تقاوم بشدة العمل الجماعي والتخطيط للطوارئ والنزوع للعلاقات الداخلية العدائية وعلاقات التبعية وعدم الثقة بأية معلومات إلا من مصادر موالية، والعزوف عن

إخضاع المعلومات للتحليل... والمزيد من السجون والقمع والحجز على الأفكار والعقول)[150].

لا ينبغي نسيان أحد الاخلالات الأخرى، وهو أن تكريس الهيمنة الفردية كان يوجب ربط كل أجهزة المنظمة بفرد ورهن الجمهور الفلسطيني برؤيته السياسية وتحييد وإخصاء المعارضين بدل الحوار معهم للوصول لرؤية مشتركة بمنطق هيجل - ماركس أ + ب = ج، إذ قام بإقصاء وإخصاء ب فلم تلد ج. وهذا أعاق التطور واستخلاص الدروس وردم الثغرات التي (انتقلت من أخطاء إلى خطايا) جورج حبش، ناهيكم عن إدارة التناقض مع سوريا بما لها من نفوذ في لبنان بتوتر عالٍ تحت عنوان واحد (القرار الفلسطيني المستقل). وشائع الرأي في الساحة الفلسطينية أن عرفات قد حرص على الصدام مع خصومه في لبنان لتشويه صورتهم... بما لذلك من ثمن، دون نسيان محاولات سوريا احتواء الورقة الفلسطينية في عدة محطات.

في ٣/حزيران/١٩٨٢ أطلقت مجموعة محسوبة على فتح أبونضال النار على السفير الإسرائيلي في لندن. وكان شارون وزير الجيش قد وضع الكسندرهيج، منذ وقت، في صورة مخططاته وحصل على الضوء الأخضر لاجتياح لبنان. وفي ٤/حزيران باشر سلاح الجو الإسرائيلي بغارات عنيفة على بيروت الغربية وصور والنبطية. ردت المدفعية الفلسطينية وراجمات الصواريخ بـ ألف قذيفة وصاروخ على ٢٠ مستعمرة. وبدأت قوات الغزو بالتمدد في مناطق القوات الدولية اليونيفيل وزحفت شمالا بمشاركة ٧٥ ألف عسكري و٢٧٥٠ دبابة ومصفحة، بينما كان عدد المقاتلين الفلسطينيين المتفرغين ١٥ ألفاً منهم ٦ آلاف في الجنوب معهم ٦٠ دبابة معظمها غير قادر على الحركة و٢٠٠ مدفعية)[151].

في يومين تم اجتياح الجنوب وصور وصيدا وتقدمت قوات الاحتلال نحو بيروت وسقط الشوف، وقاتل مئات من الفلسطينيين في الدامور فرقتين إسرائيليتين مؤللتين وفي أحد الكمائن قتلوا نائب رئيس الأركان الإسرائيلي، واستطاعت القوات المختلطة الفلسطينية - اللبنانية - السورية صد الهجمات الإسرائيلية المتكررة على خلدة جنوبي بيروت، وقاوم مخيم عين الحلوة ببسالة. ودارت معارك طاحنة في بلدة بحمدون الجبلية، ولم يسيطر عليها جيش الاحتلال إلا بعد ١٧٠ قتيلا وجريحاً في صفوفه.

كانت المعركة الكبرى في بيروت. فمنذ ٩/حزيران باتت بيروت هي الهدف، (وليس مجرد

---

١٥٠) الحسن، خالد. عبقرية الفشل. ص١٤٨، ١٤٩.

١٥١) د. الخالدي، تحت الحصار. ص١٢٠

التقدم ٤٠ كم كما أعلن الجيش الإسرائيلي وبضعة أيام وتنتهي المعارك) كما وعد شارون.

أصبحت القيادة الفلسطينية أمام وضع خطة دفاعية بتقسيم بيروت إلى قطاعات، لكل قطاع قيادته وقواته، وتحققت الوحدة بأجلى صورها، وحدة قتالية – تسليحية – تذخيرية، إضافة لوحدات لبنانية وطنية ووحدات من الجيش السوري. كان حجم المقاتلين الفلسطينيين ٨ آلاف بما يملكونه من سلاح صاروخي ودبابات ومدافع هاون ومضادات للطيران ومراكز إسعاف.

بعد الخسائر التي منيت بها سوريا في ٨-١١/حزيران في البقاع وسواه ووقف إطلاق النار بواسطة المبعوث الأمريكي فيليب حبيب، شعرت أنها أدت دورها كعضو في جبهة الصمود والتصدي، فيما أرسل القذافي كتيبة دفاع جوي لاسنادها في البقاع، وأرسل اليمن بشقيه الجنوبي والشمالي مئات المتطوعين. ولم تجتمع القمة العربية، إلا أن وزراء الخارجية العرب اجتمعوا في ٢٩/تموز بعد شهرين من المعارك الطاحنة.

في ١٣/حزيران طلبت إسرائيل من قوات منظمة التحرير إلقاء سلاحها والانسحاب، غير أن مجمل الموقف الفلسطيني كان مع الصمود والقتال، بصرف النظر عن بعض الأصوات التي كانت تسعى للحوار مع أمريكا أو مع شارون، وكان حبش وحواتمة وصلاح خلف ونمر صالح من القيادات الأكثر ثباتا على القتال رغم أن بعض الأوساط الوطنية اللبنانية صارت أميل للانسحاب سيما أن بيروت تتعرض لقصف تدميري ولجأ لها الكثير من المدنيين الجنوبيين. وضغطت القوات الإسرائيلية في ١٥/حزيران بقصف مبنى سكني بصاروخ من زورق حربي فسقط ٧٣ مدنيا ودمرت مستشفيات تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني، كما استخدمت قذائف انشطارية وقذائف فسفورية وتفخيخ سيارات، وحصد انفجار واحد أرواح ٦٠ نازحاً.

تميز الضباط الميدانيون الفلسطينيون بصلابة استثنائية ومقدرة قتالية عالية، وكان لجولات قادة غرفة العمليات المركزية، والقادة البارزين كجورج حبش وخليل الوزير وياسر عرفات وشجاعة المقاتل الفلسطيني، كل هذا أنعش المعنويات وصلّب الاستعدادات. أما القيادة الوطنية اللبنانية فكان ردها على تمدد المليشيات اليمينية اللبنانية إلى مرتفعات عالية وما ارتكبته من قتل وخطف ونهب مشابه لأعمال جيش سعد حداد في الشريط الحدودي، المزيد من الثبات. وحسب الاحصاءات (بلغت الخسائر حتى ٢٥/حزيران أكثر من ١٠ آلاف قتيل و١٩ ألف جريح ٨٤٪ منهم

مدنيون فيما اعترف الجيش الإسرائيلي بـ ٢٧٠ قتيلا و١٢٦٠ جريحاً من جنوده)[١٥٢].

وفي ٢/تموز تقدم قائد منظمة التحرير ياسر عرفات برسالة خطية إلى رئيس الحكومة اللبنانية الوزان يعرب فيها عن استعداده للانسحاب من بيروت، وهذا بدروه عرضها على وزير الخارجية الأمريكي الجديد شولتز. ورد شولتز باقتراح يدعو لانسحاب القوات الفلسطينية إلى داخل المخيمات...

جاء الرد الإسرائيلي قصف بيروت بـ ٨٠٠ مدفع بصورة كثيفة ناهيكم عن سلاح الطيران، وتقدمت ثلاث فرق من الدامور إلى بيروت، وشنت قصفاً تدميرياً للمطار الذي يدافع عنه ٦٥٠ مقاتلاً فلسطينياً أغلبيتهم من فتح صمدوا ومنعوا الدبابات الإسرائيلية من احتلاله، وتكررت المحاولات وتكرر الصمود والتعزيزات، ودحرت محاولة انزال بحرية خلف خطوط القوات الفلسطينية في ٧/تموز.

على امتداد الفترة قامت مجموعات فدائية فلسطينية بالإغارة على أهداف عسكرية إسرائيلية في مناطق انتشارها، ونفذت المقاومة اللبنانية الكثير من أعمال المقاومة.

وبين المساعي الديبلوماسية الفرنسية والمبعوثين الأمريكان، كان شارون يتبجج بأن هدفه (تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير وتمرير الحكم الذاتي في أراضي ٦٧)[١٥٣]. ولكن كتابات ظهرت مؤخراً أشارت إلى أنه كان يتطلع لما هو أبعد من ذلك «التدمير الكلي للمخيمات الفلسطينية والترحيل الجماعي للاجئين خارج لبنان». ودارت معركة كبيرة مع الدبابات السورية التي اشتبكت بمهارة في ٢٤/تموز، واستمر قصف بيروت والاشتباكات في كل قاطع وزاوية إلى أن اندفعت الدبابات الإسرائيلية إلى منطقة المطار واعترف ناطق عسكري إسرائيلي بمقتل ١٩ وجرح ٦٤ جنديا فيما الحصيلة على الجانب العربي كانت ٣٠٠ قتيل و٦٧٠ جريح، غالبيتهم من المدنيين.

لجأ العدو الإسرائيلي للوسائل الاستخبارية أيضا محاولا إبادة القيادة الفلسطينية مستعينا بالعملاء. فوجه ضربات جوية لأماكن محددة أصابت غرفة العمليات المركزية بعد إخلائها بساعات قليلة، وضربة أخرى لمقر قيادي سابق أدى لمقتل ٢٠٠ لاجئ فلسطيني، ناهيكم عن تفجير عدد من السيارات المفخخة من قبل العملاء.

---

١٥٢) د.الخالدي، المرجع السابق. ص١٢٢

١٥٣) جريدة القدس، ١٩٨٢/٧/٢٣

وقع وقف إطلاق النار في ٣/آب وصادقت الحكومة الإسرائيلية عليه في ١٢/آب، وبين الموعدين استمر القصف المدفعي الإسرائيلي والطائرات الحربية... فسقط أكثر من ٥٠٠ قتيل وجريح، ووصل ضباط القوة متعددة الجنسية للإشراف على انسحاب القوات الفلسطينية التي غادر منها على امتداد أحد عشر يوما نحو ١٥ ألف عنصر من الفصائل وجيش التحرير، وسط وداع عاطفي مؤثر للجماهير التي اصطفت في الشوارع وشرفات المباني... توزع المقاتلون على ثماني دول عربية، بعد تسليم سلاحهم للحركة الوطنية والجيش اللبناني.

في هذه المناخات انتخب مجلس النواب اللبناني في ٢٣/آب بشير الجميل رئيساً للجمهورية بدلاً من الياس سركيس. وتقدم الرئيس الأمريكي ريغن بمشروعه لإقامة حكم ذاتي فلسطيني على أجزاء من الضفة وغزة يرتبط لاحقا بالأردن دون أي اعتراف بحق الفلسطينيين بالاستقلال...

في ١٤/ أيلول حصل انفجار ضخم في مقر قيادة حزب الكتائب سقط فيه ٨٥ قتيلا وجريحاً بمن فيهم بشير الجميل، واجتمع مجلس النواب وانتخب شقيقه أمين الجميل رئيسا للجمهورية. وفي غضون يومين اجتاحت القوات الإسرائيلية بيروت وطوقت مخيمي صبرا وشاتيلا الفلسطينيين، وسهلت ودعمت ميليشيات القوات اللبنانية. وعلى امتداد ٤٨ ساعة نفذت مجزرة رهيبة بكل ما هو حي على مرأى من المواقع الإسرائيلية المطلة على المخيمين وبقنابل إضاءة في الليل. كما أعادت حواجز الجيش الإسرائيلي الفلسطينيين المذعورين الذين حاولوا الفرار حيث قام المسلحون الموارنة بذبحهم. ونشرت نيويورك تايمز في ١/أكتوبر تقريرا للجنة تحقيق دولية قانونية أن العدد النهائي للقتلى بلغ ٢٧٥٠. وعلى أثر تظاهر حوالي ٣٥٠ ألف في تل أبيب طالبوا بإجراء تحقيق تشكلت لجنة القاضي كاهان التي اعترفت بمسؤولية غير مباشرة لإسرائيل، ووجهت انتقادات لرئيس الأركان ايتان وأوصت بنقل قادة عسكريين واستقالة شارون وزير الجيش.

أما عن حرب ٨٢ فقد تضاربت الأرقام حول حجم الخسائر، لكن الأكثر قربا للصوابية هو ١٨ ألف قتيل و٣٠ ألف جريح فلسطيني ولبناني حسب إحصاءات الشرطة اللبنانية. أما الهلال الأحمر الفلسطيني ففي بيروت وحدها تعامل مع ٥٦٧٠ قتيلا و٢٩ ألف جريح أكثر من ٨٣٪ منهم مدنيون ناهيكم عن المستشفيات الأخرى والإصابات في الجنوب. واعترفت مصادر منظمة التحرير بسقوط ٥٦٠ مقاتلا نظاميا إضافة للمليشيات بما لا يصل إلى حجم الإدعاءات الإسرائيلية بأنها قتلت ٣ آلاف من أعضاء م.ت.ف. وقدرت الخسائر السورية بـ ١٢٠٠ قتيل و٣ آلاف جريح و٤٠٠ دبابة وناقلة جند و٧٦ طائرة.

ناهيكم عن الأسلحة التي استولت عليها قوات الغزو والخسائر المادية الأخرى. فيما نشرت الصحافة الإسرائيلية بعد حين أن حرب ٨٢ كلفت إسرائيل ٦٥٠ قتيلا و٥ مليار دولار.

والخلاصة السياسية: أن الحرب أثبتت القدرة على القتال والصمود ثلاثة أشهر متصلة، بما اسقط أحد أسس نظرية الحرب الإسرائيلية: الحرب الخاطفة. مثلما تلقت الثورة الفلسطينية ضربة قاسية أفقدتها وجودها الأساسي على الساحة اللبنانية، ناهيكم عن خسائر الحركة الوطنية اللبنانية والجيش السوري، والدمار العظيم للبنان.

من جانبها استخلصت الجبهة الشعبية (ستحاول الأنظمة العربية المستسلمة احتواء المقاومة الفلسطينية وتدجينها وجرها إلى مستنقع التسوية السياسية التصفوية خطوة وراء خطوة، بما يتفق مع أهداف المخطط الإمبريالي – الصهيوني – الرجعي)[١٥٤].

أما أوساط قيادية في فتح م.ت.ف فرأت أن الحرب وضعت م.ت.ف كلاعب أساسي، بما يتيح إطلاق استراتيجية دبلوماسية فلسطينية وشيء مشابه قالته الجبهة الديموقراطية.

انطلق جهد القيادة الرسمية لمنظمة التحرير لإدراج هدف الدولة المستقلة على رأس الأجندة وضمان مشاركتها في أية مفاوضات. ولما قال رئيس المنظمة عرفات «نعم» لمشروع ريغن قالت الجبهتان الشعبية والديموقراطية وسواهما لا. وبعد أيام انعقد مؤتمر القمة العربية في فاس الذي خلص لثماني نقاط كمبادئ للتسوية السياسية. أهم ما فيها وضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت إشراف دولي تمهيداً لدولة فلسطينية، أما الأثر الأكثر أهمية فهو البند السابع الذي ينص على (يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة) بما ينطوي على اعتراف عربي – فلسطيني ضمني بإسرائيل ومفاوضتها بناء على القرار ٢٤٢، وهذا دفع القذافي لمقاطعة القمة والتنديد ببيانها. أما الأسد فنظر بعدم ارتياح للقمة ونتائجها ونقل بطائرته الخاصة القادة الفلسطينيين المعارضين. أحمد اليماني – الشعبية وطلال ناجي – القيادة العامة ونمر صالح – اللجنة المركزية لفتح، إلى دمشق.

أرسل عرفات وفدا فلسطينيا للقاهرة للقاء القيادة المصرية بما أثار انتقادات فلسطينية واسعة. وانعقد المجلس المركزي لمنظمة التحرير في دمشق في أواخر تشرين ثانٍ دون أن ينجح في تمرير إعلان فاس، فيما لم يذكر جبهة الصمود والتصدي بكلمة ولكنه أيّد احياء العلاقات

١٥٤) الجبهة الشعبية، تقرير اللجنة المركزية، دورة نيسان/١٩٨٣، ص٥١

العربية – المصرية بعيدا عن كامب ديفيد.

تفاقمت خلافات فتح الداخلية ودار قتال دام بين فتح الانتفاضة وفتح أبو عمار في آيار/حزيران/١٩٨٣ أدانته الجبهتان الشعبية والديموقراطية، ولم تثمر دعوات جورج حبش بتحريم الاقتتال (مجرم من يشارك فيه ومجرم من يحرض عليه) فيما انضمت الصاعقة والقيادة العامة بدعم سوري للمنشقين على قيادة عرفات، وكانت معارك البقاع والبداوي أكثرها دموية وضراوة حيث شارك الآلاف من كلا الطرفين بدباباتهما وأسلحتهما وصواريخهما إلى أن وقعت الهدنة وغادر ٤٧٠٠ من أنصار عرفات إلى الجزائر واليمن بخسائر تناهز ٤٣٠ قتيلا و٢٣٠٠ جريحا، أما عرفات فاتجه بسفينته إلى القاهرة بما وسع من الخلافات الفلسطينية الداخلية.

انطلق حوار فلسطيني – فلسطيني بين (التحالف الديموقراطي الذي يجمع اليسار الفلسطيني وفتح اللجنة المركزية في عدن والجزائر أثمر عن توقيع اتفاق في تموز/١٩٨٤ بحضور قادة من الحزب الاشتراكي اليمني وجبهة التحرير الجزائرية. أدان الاتفاق زيارة عرفات للقاهرة وتعهد بايقاف الاتصالات بمصر ورفض خطة ريغن والخيار الأردني، مثلما أدان اتخاذ قرارات من طرف واحد ودعا لحوار ديموقراطي ووحدة وطنية)[١٥٥].

بعد حين تحرك رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ياسر عرفات لعقد دورة المجلس الوطني في عمان، قاطعته معظم الفصائل، واختتم «مجلس اللون الواحد» بالدعوة لكونفدرالية بين الدولة الفلسطينة والمملكة الأردنية.

انقسمت الساحة الفلسطينية بعمق حيث اعتبرت الجبهة الشعبية الكونفدرالية تصفية لمنظمة التحرير، واشراك للأردن في تمثيل الشعب الفلسطيني، وتساءلت كيف يمكن أن تقام كونفدرالية بين دولة متخيلة ودولة واقعية؟ أما الجبهة الديموقراطية فاعتبرت ذلك عودة لمشروع المملكة المتحدة الذي اقترحه الملك في ١٩٧٢، وعارض الكونفدرالية التحالف الوطني والحزب الشيوعي والحزب الشيوعي الثوري بقيادة عربي عواد.

صرح حبش (إن عرفات مصمم على المضي في طريق كامب ديفيد والنظام الأردني وهذا لن ينجز للشعب الفلسطيني شيئا)[١٥٦]. وتشكلت جبهة الانقاذ الوطني التي ترأسها الفاهوم وإن كان

---

١٥٥) مجلة الهدف، ٨٤/٧/١٤

١٥٦) مجلة الهدف، ١٩٨٤/١٢/٣

أكبر تشيكلاتها الجبهة الشعبية وفتح الانتفاضة.

جذب الفعل الميداني عددا من القوى، فتشكلت جبهة المقاومة الوطنية التي ضمت اليسار الفلسطيني (الجبهتين الشعبية والديموقراطية) واليسار اللبناني الذي ضم الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي وحزب العمل الاشتراكي)، كما قامت مجموعات لحركة أمل وحزب الله بدور متنام، وارتفع منسوب الهجمات الفدائية على قوات الاحتلال الإسرائيلي التي اضطرت للانسحاب لاحقاً من صيدا في شباط/١٩٨٥ ومن النبطية وجزين في نيسان بعد أن أطلقت سراح المئات من سجن أنصار، ومن البقاع وحاصبيا في حزيران. أما القصف الماروني على مخيم عين الحلوة الذي أصاب العشرات وهجّر ٣٠ ألفا فتمت معالجته بهجوم معاكس حررّ التلال المشرفة وأباد الميليشيات المارونية بمساعدة كتيبة من لجيش اللبناني تمردت على قيادتها.

كان من الملحوظ عودة فتح للجنوب اللبناني، وهذا أزعج حركة أمل والنظام السوري الذي كان يتابع بقلق التعاون السياسي بين عرفات والملك حسين والرئيس المصري، سيما بعد زيارة عرفات للقاهرة على أثر معارك طرابلس – البداوي.

بادرت حركة أمل والحزب التقدمي (جنبلاط) بالهجوم على المرابطين الذين تربطهم علاقات تعاون مع فتح. وراحت حواجز حركة أمل تضايق الفلسطينين وشنت قواتها هجوما واسعا على صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة باستخدام المدفعية وأعداد كبيرة يعاونها لواء دبابات من الجيش اللبناني. وتدخلت مجموعات لبنانية سنية ضدها كما انضمت الجبهة الشعبية والديموقراطية وجبهة الانقاذ في وحدة ميدانية دفاعاً عن البندقية والمخيمات.. ودارت معارك ساخنة وهجمات كر وفر، ولم تترد أمل التي كانت في ذروة قوتها في قتل عشرات المدنين الفلسطينيين واجبار أكثر من ١٥ ألفا على النزوح من منازلهم ومنع الطعام والوقود عن مخيم شاتيلا.

تفاجأ النظام السوري من انضمام الجبهات الفلسطينية للقتال الدفاعي فمنعها من اصدار صحافتها من دمشق، واعتقل المئات وقتل عدداً من المتظاهرين في مخيم اليرموك، وبعد مغادرة حبش سوريا فرض حظر سفر على قياديين آخرين. وفي ٢٠/آيار ١٩٨٥ تمت صفقة تبادل الأسرى بين القيادة العامة وإسرائيل، حيث أطلقت الأولى ثلاثة جنود لقاء إطلاق الثانية سراح ١١٥٠ أسيرا.

كانت حرب المخيمات مريرة، امتزج فيها السياسي بالمذهبي، وهي إضاعة اتجاه بكل معنى الكلمة سيما أن الذين زجوا في المعارك كانوا في الأمس القريب يقاتلون معا أثناء حصار بيروت

ولم تلتئم جراحهم بعد. وتضاربت التقديرات حول الخسائر، ولكنها لم تكن أقل من ٧٠٠ قتيل فلسطيني بمن فيهم عشرات المخطوفين و٢٥٠٠ جريح، ٨٠٪ من اللاجئين المدنيين و٦٠٠ قتيل من أمل، إضافة إلى ألف جريح وحوالي ٣٠٠ قتيل من الجيش اللبناني)[١٥٧].

وكان لافتا تماما وحدة الموقف الميداني الفلسطيني رغم التباينات السياسية.

اصطدمت السياسة السورية بفتح بصورة مكشوفة سيما أن حركة التوحيد الإسلامية في الشمال اللبناني التي تتلقى الدعم من عرفات اشتبكت مع الجيش السوري. وتشكلت لجنة تضم بعض القوى اللبنانية والفلسطينية بمشاركة ضباط سوريين لملاحقة «أعضاء خط عرفات الاستسلامي» ومنع وصول الأسلحة للمخيمات الفلسطينية وكذلك مواد البناء، وحصلت حركة أمل على عشرات الدبابات السورية، وفي هذه الأجواء المتوترة جرى قصف لمخيم برج البراجنة واغتيالات متبادلة، ونجح الأمن الفلسطيني بتعقب ثلاثة ضباط استخبارات إسرائيليين في قبرص وتصفيتهم، فردت الطائرات الإسرائيلية بقصف مقر قيادي لمنظمة التحرير في تونس الأمر الذي أدى لمقتل ٧٣ فلسطينيا وتونسيا.

ضاعف خليل الوزير من نشاطات مجموعاته الفدائية في الوطن المحتل، إذ كانت مقاومة المحتل أولوية جهده ومتابعاته وتدريباته. وكان للجبهة الشعبية بعض المناشطات أيضا.

من جانب آخر تقاربت السياسة الأردنية – السورية بعد اعتذار الملك عن اسناده للإخوان المسلمين الذين كادوا أن يسيطروا على حماة وحلب، وانتقد علانية عدم وفاء قيادة عرفات بشروط الحوار مع أمريكا بالاعتراف صراحة بالقرار ٢٤٢. وأغلقت السلطات الأردنية مكاتب فتح في عمان وسهلت سيطرة مجموعة عطا الله عطا الله على المكاتب. بل ووصل الأمر بعطا الله عطا الله رئيس الاستخبارات الفلسطينية أن عقد اجتماعا بحضور المئات انتخبوه رئيسا للمنظمة بدلا من عرفات! وقام ملك المغرب الحسن باستقبال بيريس، وحاولت حكومة تونس طرد أحد ضباط عرفات فنقل عرفات قيادته إلى بغداد وصنعاء مؤقتا.

تجاوبا مع سياسة رابين (إيجاد مظلة إسرائيلية – أردنية) لإدارة الشؤون المدنية للفلسطينيين، أعلنت الحكومة الأردنية عن خطة تنموية للأراضي المحتلة ١٩٨٦ ومنحت الحق لأهالي غزة بالحصول على جواز سفر أردني مؤقت، وأستأنفت صرف الرواتب لموظفيها في الضفة... وتعيين بعض رؤساء

١٥٧) مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١٥٠

البلديات، بالاتفاق مع الإسرائيليين، بما يشير إلى مظاهر لتقاسم وظيفي أردني/ إسرائيلي.

حسم جعجع الصراع مع جماعة ايلي حبيقة الذي مدّ خيوطاً مع السياسة السورية بقتل ٤٠٠ من عناصره، رأت سوريا في ذلك خدمة للنفوذ الإسرائيلي. ورداً على تزايد النشاط الفلسطيني في لبنان قامت أمل بقصف مخيم برج البراجنة، جاوبتها المدفعية الفلسطينية في التلال فأسكتتها، ولكن قوات أمل هاجمت في منطقة صور وطرت ٢٥٠ عائلة فلسطينية وتواصلت الاشتباكات التي حصدت أكثر من ألف قتيل وجريح من الطرفين ونزوح ١٧ ألف فلسطيني، وانضمت الفصائل الفلسطينية للقيادة الموحدة في المخيمات بعد أن اكتسب قائدان من فتح سمعة وكفاءة جيدة (سطان أبو العينين وعلي أبو طوق). وأصبح حفر الأنفاق في المخيمات لحماية اللاجئين مهمة ملحة نظراً لأن نذر حرب تتطاير في الأفق، ناهيكم عن قصف الطائرات الإسرائيلية واستمرار تسلل مجموعات فدائية لشمال فلسطين. وتدفقت التعزيزات العسكرية الفلسطينية إلى ميناء صيدا بما جعل من قوة فتح – عرفات نحو ١٠ آلاف مقاتل إضافة للميليشيات.

ضربت حركة أمل طوقاً على مخيم الرشيدية لمنع وصول المواد الغذائية حد التجويع الحقيقي ل ٢٠ ألف لاجئ فلسطيني، معززة بقوتها التي تناهز ١٣ ألف مسلح وعشرات الدبابات ووحدات من الجيش اللبناني. ودار قتال كبير حول الرشيدية وعين الحلوة وبلدة مغدوشة، وانضم القادة الميدانيون الفلسطينيون من مختلف الفصائل بصرف النظر عن رأي قياداتهم في دمشق وتونس، سيما أن سوريا رأت في الاقتتال ضرراً لسوريا التي تواجه ضغطاً أمريكيا... والحصار التجويعي ونزيف الدم اليومي للمخيمات دفع القذافي والقيادة الإيرانية والحزب الشيوعي اللبناني للاحتجاج والإدانة، وحزب الله لتهريب مواد غذائية تضامنا مع الفلسطينيين. وخرج عن المألوف ودخل عالم اللامعقول أن تقوم عناصر من فتح الانتفاضة باغتيال القائد أبو طوق، حسب اعترافات رشحت لاحقا.

نشرت القوات السورية آلاف العناصر في بيروت والمخيمات ونهر الليطاني في محاولة لضبط الأوضاع، وبتدرج هدأت خطوط القتال ورفع الحصار التجويعي الذي استمر خمسة أشهر.

ومن بين النتائج العديدة لحرب المخيمات كان انفضاض أعداد كبيرة عن فتح الانتفاضة بما يشبه خروجا جماعيا، وبينما كانت تتحدث عن ١٠ آلاف متفرغ نصفهم من العسكريين في بدايات الانشقاق باتت لا تحتفظ بثلث هذا العدد بعد عامين، كما برز نفوذ أبو خالد العملة وتراجع نفوذ القادة الآخرين. وأما محاولة الاتحاد مع المجلس الثوري – أبو نضال فقد ازدادت تأزما. جماعة أبو نضال التي تضاعفت صفوفها نهشتها نزاعات دامية وإعدامات جماعية طالت أعلى المناصب.

في هذه الفترة صعد غورباتشوف إلى الحكم، وتوالد قلق فلسطيني من البريسترويكا والتفكير السياسي الجديد الذي يحمل على الاعتقاد بتقليص الدعم السوفييتي للنضال الفلسطيني، كما أصبحت الحرب العراقية- الإيرانية أكثر جاذبية لاهتمام العالم. وهذا تأكد في تشرين ثان أثناء انعقاد القمة العربية في عمان، حيث تعمد الملك اهانة عرفات بعدم استقباله في المطار وأغفل في خطابه الإشارة لمنظمة التحرير بما عكس تراجع وزن المنظمة واستهدافها في آن.

جاء الرد من الأراضي المحتلة. اندلع الجيشان الانتفاضي المجيد بما أعاد القضية الفلسطينية إلى مركز الضوء.

وكانت الشرارة في ١٩٨٧/١٢/٨ حينها دهست حافلة إسرائيلية عمالا فلسطينيين في جباليا فقتلت أربعة وتجمعت الحشود واصطدمت بالجيبات العسكرية. وفي اليوم التالي استشهد متظاهر في نابلس، وتفاعلت الأحداث بمتواليات هندسية.

قبلئذ في ٧/تشرين أول هبطت طائرة شراعية للقيادة العامة في معسكر للجيش الإسرائيلي في شمالي فلسطين. ونجح الفدائي في قتل ستة جنود وجرح سبعة قبل أن يستشهد... وقبلئذ في نيسان أعلنت الحركة الأسيرة الفلسطينية اضرابا مفتوحا عن الطعام صاحبه تحركات شعبية واسعة في الوطن المحتل وصدامات وجرحى وشهداء.

قرأ رئيس الحكومة الإسرائيلية شامير التفاعلات الغاضبة بأنها مجرد (تدافع للأحداث)، أما رابين فصرح (نحتاج لثلاثة أيام لإنهاء الاضطراب)[١٥٨]. وتم ابعاد ٣٥ كادراً خارج الحدود واعتقال المئات التي تنامت إلى آلاف، واتسع اطلاق النار وقنابل الغاز على المتظاهرين والمتظاهرات... بيد أن المواجهات تصاعدت وتوسعت القاعدة الشعبية وانتقلت الهبة المفرقة هنا وهناك إلى انتفاض شعبي عارم ينظمها نداءات قيادة الانتفاضة التي ضمت فتح والشعبية والديموقراطية والحزب الشيوعي.

دفن انطلاق الجيشان وتواصله الخلافات الفلسطينية حول حكومة المنفى، وقطع الطريق على دعاة الاستثمار السريع للانتفاضة بعد أسابيع أو شهرين.

رفعت الانتفاضة شعار الحرية والاستقلال ولا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة. والشعار الأول جرى انتحاله من عبد القادر الجزائري الذي قاد النضال ضد الفرنسيين في أواخر القرن التاسع

١٥٨) تصريحا، شامير ورابين نشرهما الإعلام المحلي وصحيفة القدس في ١٩٨٧/١٢/١٠

عشر، إذ طالب بالحرية والاستقلال رداً على عرض فرنسا: الحكم الذاتي. أما الشعار الثاني فهو تحوير للشعار الفلسطيني في أواخر الستينات: لا صوت يعلو فوق الثورة.

تدافعت فصائل المقاومة في الخارج لدعم الحالة الثورية في الوطن المحتل، ماليا وسياسيا ومعنويا، وصرح جورج حبش: لقد انتقل مركز ثقل الثورة للداخل، أما خليل الوزير فدفع مجموعة فدائية جسورة لاختراق النقب نحو مفاعل ديمونة في السبع، رغم ما يقال عن انحيازه للطابع الشعبي للانتفاضة. استشهدت المجموعة ونفذ رجال كوماندوز إسرائيليون عملية معقدة لاغتياله في ١٦/ نيسان في بيته في تونس.

اشتعلت الأرض المحتلة في دينامية متصاعدة وانتقلت المبادرة لإيدي عشرات آلاف من النشطاء المؤطرين في لجان شعبية تحيط بهم استعدادات جماهيرية عارمة للانخراط في الفعاليات بشتى أشكالها. والأمر اللافت كان تعزيز قوة فتح الانتفاضة بمئات المقاتلين تمهيدا لمهاجمة مخيم شاتيلا وعين الحلوة، ولم يتوقف اطلاق النار إلا في أواخر حزيران إلى أن خرجت قوات فتح - أبو عمار من المخيمين، وتجدد القتال في مخيم برج البراجنة إلى أن تحققت نفس النتيجة. وبالتالي (سقط ١٥٠ قتيلا و٦٠٠ جريح)[١٥٩]. وقد أدان أبو علي مصطفى نائب الأمين العام للجبهة الشعبية بالقول (كان يدفع الفريق المنشق من حركة فتح الأمور منذ سنوات تجاه الاقتتال في وقت كنا نحذر من هذا النهج التدميري)[١٦٠]. فيما ردد المنشقون أن الجبهة الشعبية تبقرطت وفقدت روحها الثورية السابقة ولم يتبق سوانا نعترض على نهج عرفات السياسي.

تراجع الملك عن خطة التنمية التي وضعها عام ١٩٨٦ للأراضي الفلسطينية وأصدر قراراً يقضي بفك الارتباط الإداري والقانوني بالضفة الفلسطينية، وحصر مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في الجزائر الدعم المالي بمنظمة التحرير، حيث تلقت هبه مقدارها ١٢٨ مليون دولار ومخصصاً شهرياً بـ ٤٣ مليون دولار، أي لم يعد الأردن بعد اندلاع الانتفاضة قناة دعم للأراضي الفلسطينية. وهذا لم يكن صدفة. إذ تصارعت ثلاثة اتجاهات بعد احتلال الضفة وغزة عام ١٩٦٧. فصائل المقاومة التي انضوت في منظمة التحرير الفلسطينية، والنظام الأردني الذي كانت له امتدادات وظيفية ووجاهية، وسسلطات الاحتلال الكولونيالية باجراءاتها وأدواتها.

(لقد فشل الأردن والاحتلال في تشكيل نخب لهما صدقية ونفوذ لأن مشروعهما قام على

---

١٥٩) مصدر من الجبهة الشعبية.

١٦٠) الهدف، مقابلة مع أبو علي مصطفى في ١٩٨٨/٦/٥

صناعة نخب محلية تتولى دور الوكيل لدولة متخارجة، مع فارق بينهما...، وكأي حقل سياسي وطني يفرز مؤسساته التي تتولى عملية إنتاج وإعادة إنتاج نخبها السياسية)[١٦١].

وقد سعى كل طرف لتوليد رموزه ومنصات انطلاقه. فمن جهة الاحتلال الذي فرض وجوده بالقوة والنار وحظر العمل الوطني الفلسطيني ولاحق امتداداته بالاعتقال والتعذيب والإبعاد وهدم البيوت... ومن جهة أخرى نضالات المقاومة المنظمة علاوة على المبادرات المحلية التي شقت طريقها وهيكلت نفسها من خلال الفصائل ولجان التوجيه الوطني والجبهة الوطنية، ومن خلال المؤسسات والاتحادات والنقابات، وقد انحازت لها الفئات والنخب التي تنتمي في معظمها للانتلجنسيا والطبقة والوسطى والطلبة والعمال والمخيمات بما يتجاوز كثيرا نفوذ ودور النخب العوائلية والأجهزة الوظيفية للنظام الأردني.

وجاءت معارك أيلول/ ١٩٧٠ في الأردن وتموز/ ١٩٧١ لتحسم انحياز الحقل السياسي في الوطن المحتل لصالح منظمة التحرير وفصائلها، بما في ذلك الحزب الشيوعي الذي لم يكن فصيلا فدائيا، ولكنه نأى بنفسه عن السياسة الأردنية الرسمية وتجاوز فهمه للقرار ٢٤٢ الذي ينادي بعودة الضفة للأردن.

ومحاولة النظام الأردني الحفاظ على نفوذه من خلال دفع الرواتب والتسهيلات أو خطة تحسين ظروف المعيشة أو الترويج للخيار الأردني أو المملكة المتحدة أو التحكم بصرف أموال اللجنة المشتركة الأردنية – الفلسطينية... لم تأت أكلها، وبعد اندلاع الجيشان الانتفاضي أواخر ١٩٨٧ اكتسحت فصائل المنظمة كما فصائل الاسلام السياسي، الحيز الفلسطيني بأسره.

وعلى أبواب دورة المجلس الوطني الفلسطيني في أواخر ١٩٨٨ صرح حبش الأمين العام للجبهة الشعبية (ثمة اجماع على أن تعلن م.ت.ف قيام دولة لملء الفراغ الذي خلفه فك الارتباط الأردني بالضفة ولاستباق قيام إسرائيل بضمها)[١٦٢]. وانعقد المجلس الوطني في ١٩٨٨/١١/١٢. وقرأ عرفات بيان الاستقلال في ١١/١٥، ولكن البرنامج السياسي اعترف بالقرار ٢٤٢ وقرار التقسيم ١٩٤٧ بعد ربطهما بالحقوق الفلسطينية. وحصلت معارضة وتخفظات غير أن الأهم هو تمرير البرنامج. أما قيادة الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة فوزعت بيانا رفضت القرار ٢٤٢ واعتبرته (الشيء الوحيد الذي سيبقى من أدبيات الدورة وأن الدولة ليست على الأبواب... ودعت الجماهير لمواصلة الكفاح)[١٦٣].

١٦١) د. هلال، جميل. تكوين النخبة الفلسطينية. اصدار مواطن ٢٠٠٢. ص٥٤

١٦٢) مجلة الهدف. ١٩٨٨/٩/١١

١٦٣) بيان صادر عن الجبهة الشعبية في الداخل. ١٩٨٨/١١/١٦

من جانب آخر تنامى وزن الإسلام السياسي، سيما حماس والجهاد، أما حزب التحرير والدعوة وسواهما فلم يظهرا على مسرح الأحداث. وبرهنت حماس على قوتها من خلال الدعوة لاضراب جماهيري عام في آب/ ١٩٨٨ تجاوب معه الجمهور الفلسطيني في الضفة وغزة، وكررت ذلك، وأصبحت لها بواباتها المالية المفتوحة على الكويت والخليج وبطبيعة الحال حركة الاخوان المسلمون. وجاء اعتقال الشيخ ياسين ومئات من الأعضاء فرصة للتقييم والانطلاق، كما أن إبعاد ٤٠٠ ناشط إسلامي إلى مرج الزهور في الجنوب اللبناني في ١٩٩٢/١٢ أكسب الإسلاميين، سيما حماس، صدقية وتعاطفاً شعبياً، وهي التي راكمت في سنوات المد الانتفاضي امتدادات ومناشطات واسعة، بما شجعها لاحقا على طلب ٤٠٪ من مقاعد المجلس الوطني والغاء البرنامج السياسي للمنظمة الذي أقر في ١٩٨٨. وصرح القيادي في حماس إبراهيم غوشة (أن الحركة تتمتع بتأييد ٤٥٪ من الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وأنه لا بد من إعادة تأليف المجلس الوطني الفلسطيني على هذا الاساس) ([١٦٤]).

مع الجيشان الانتفاضي الباسل انتعشت القضية الوطنية وانتعشت منظمة التحرير. ومع أن الجيشان الانتفاضي عمل جماعي بمشاركة شعبية واسعة ولجان شعبية تمتد في كل مكان وقراراتها توافقية، وقيادة انتفاضة توافقية أيضا، يعاد تشكيلها كلما تعرضت للاعتقال من قبل قيادات التنظيمات في الأراضي المحتلة، ولا فرصة أبداً لقرار فردي أو فئوي، غير أن ما حصل في الخارج كان معاكسا.

فاستشهاد خليل الوزير الذي لم يخف انتقاداته المتكررة لتفرد عرفات وتوسيع اللجنة المركزية لفتح من شخصيات مقربة من رئيس المنظمة عرفات، دفع الأخير لمزيد من التفرد سيما أنه أصبح اضافة لمسؤولياته مسؤولا عن فتح في الأراضي المحتلة بعد استشهاد أبو جهاد الوزير، الأمر الذي يفسره الأكاديمي الفلسطيني أحمد برقاوي (أنه قائد لفتح وزعيم للمنظمة، وفتح هي كبرى الفصائل وتتمتع بتأييد شعبي كبير، بالاضافة إلى أن عرفات يمتلك جهازاً مهما من المستشارين وتأييداً عربياً واسعاً ومكانة خاصة لدى دول العالم، ولديه جهاز كبير من ممثلي المنظمة في الخارج ويحظى بتأييد شعبي عارم)، ويمكن الاضافة هنا أنه القائد العسكري الأعلى لقوات الثورة والمسؤول المالي وصاحب القرار التوظيفي والتراتبي ومرجعية كل الأنشطة، إذ ليس ثمة مؤسسة مهنية بلجان تخصصية واضحة الصلاحيات واللوائح الناظمة، وفي ظل التنازع على السلطات

---

١٦٤) القدس العربي، مقابلة مع غوشة. ١٩٩٣/١/١٣

والمناصب فهو القادر على فضها ومنح المكافآت والترضيات والحصص، دون أن ننسى قنواته الخاصة التي يمولها مباشرة في الداخل والخارج.

عمليا، أصبحت سلطات ابو عمار، في مطلع التسعينات مطلقة على فتح ومنظمة التحرير، وقد غادر الحياة شخصيات كبيرة كالوزير وصلاح خلف وأبو شرار.. بما أفسح المجال لتنفذ شخصيات قيادية أخرى غير مقتنعة بجدوى الانتفاضة والخيار النضالي.

ومع انهيار الاتحاد السوفييتي صرح عرفات في اجتماع للجنة التنفيذية في تونس (الدور على كاسترو وأفضل شيء أن نحني رؤوسنا للعاصفة)[١٦٥].

في ١٩٩٠/١/١ أشار عرفات في خطابه إلى (أن الدولة على مرمى حجر) بينما صرح جورج حبش (لقد انتقلت الدولة من امكانية تاريخية إلى امكانية واقعية بما تتطلبه من نضالات وتضحيات). أما الذي جرى على الأرض فهو استثمار العملية الانتفاضية في خدمة النهج السياسي لعرفات، دون الاتكاء عليها كمحطة عليا لشق آفاق نضالية جديدة وتصليب الموقف السياسي الفلسطيني، وبالتالي الانتقال بصيغة منظمة التحرير إلى صيغة جبهوية ديموقراطية سيما أنه تنامى وزن اليسار في الأراضي المحتلة، كما الإسلام السياسي، فزادت مخاوف قيادة المنظمة في تونس وتعززت فردية الزعيم (إلى درجة يصعب فيها التمييز بين الحالة المعنوية والسمات الشخصية للقائد، بما فيها حبه للمشهدية الاعلامية والتفرد بالقرار الفلسطيني. فالقائد هو القرار وما يقرره ينعكس على القضية، وأكبر القرارات أهمية هو تأسيس فتح بدورها الأساسي في الثورة المعاصرة، وقرار السير في طريق مدريد – أوسلو (كممر إجباري) بنتائجه التي باتت بوضوح الشمس، وما بين هذين القرارين من قرارات لا تعد ولا تحصى فيها الغث وفيها السمين.

ألم يكن بالامكان قيادة المسيرة التحررية وإدارة الصراع بصيغ أكثر ابداعية ونجاعة وجماعية، ألم يكن بالامكان تنظيف البيت الداخلي في الدوائر العليا من الفساد والاخفاق والتراخي أولا بأول فلا نصل للمآل الحالي الكارثي. إن الثورة قلعة لا تقتحم إلا من الداخل. فالصوص يفقص من البيضة وليس من بيضة حجريه، قال ماوتسي تونغ، أما مأثورنا الشعبي فيقول (سوس المش منٍه فيه)[١٦٦].

---

١٦٥) رسالة قيادية من الجبهة الشعبية لقيادة الداخل، محضر اجتماع اللجنة التنفيذية ١٩٩٠

١٦٦) تصريح لقيادي من الجبهة الشعبية في الداخل

فتح غورباتشوف باب الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي، التي تسارعت على النحو الذي شجع شامير رئيس الحكومة الإسرائيلية على القول (إن هجرة كبيرة تتطلب دولة كبيرة). وفي آذار ۱۹۹۰ اعلن وزير خارجية أمريكا بيكر عن خطته للتسوية من خلال (مؤتمر دولي ومحادثات ثنائية منفصلة ووفد أردني – فلسطيني مشترك ومفاوضين فلسطينيين من الداخل).

وأوكل عرفات لفيصل الحسيني وحنان عشراوي مناقشة التمثيل الفلسطيني مع بيكر، واعلنت الجبهة الشعبية (لا للمؤتمر الأمريكي) واقر المجلس المركزي للمنظمة في أكتوبر أن يترأس الدكتور حيدر عبد الشافي الوفد الفلسطيني.

انعقد مؤتمر مدريد الذي عارضه المشهد السياسي الفلسطيني بمجمله ودعت الجبهتان الشعبية والديموقراطية لتصعيد الانتفاضة. وفي ندوة بين حبش وحواتمة وصلاح خلف وسليمان النجاب أجمعوا على (إدانة الفساد والبيروقراطية والاستزلام في منظمة التحرير، وهي مظاهر مرتبطة بقيادة عرفات التسلطية)[١٦٧]. وطالب الجميع باصلاح ديموقراطي وكرر حبش دعوته (للتمثيل النسبي في مؤسسات منظمة التحرير، ذلك أن هذه المؤسسات هي في الواقع مؤسسات فتح مع ديكور من الفصائل الأخرى)[١٦٨].

جاءت حرب الخليج الثانية بعد أن حشدت أمريكا نصف مليون جندي في مياه الخليج، وتمكنت بعد قصف جوي كثيف لمدة شهر ونصف على بغداد وسواها، وأيام من الهجوم البري، من السيطرة على الكويت ودحر الجيش العراقي الذي بدأ انسحابا. وجراء ذلك طرد ۲۷۰ ألف فلسطيني من الكويت. وبفوز رابين برئاسة الحكومة الإسرائيلية في حزيران/١٩٩٢ تعاظمت آمال رئيس المنظمة بالوصول لتسوية.

لم تثمر جلسات مؤتمر مدريد عن نتائج، فجرت مفاوضات سرية فلسطينية – إسرائيلية في أوسلو العاصمة النرويخية، لم يعلم بسرها سوى حفنة تحيط برئيس المنظمة، وقد صاحب المفاوضات أزمة مالية في منظمة التحرير مع توقف المساعدات من الخليج والعراق، بما أدى إلى خفض ميزانية المنظمة ٥٠٪ ورواتب أعضاء فتح والعسكريين ٩ – ١٢٪، وتسريح ٥ آلاف متفرغ لفتح في لبنان من أصل ٢٠ ألفاً)[١٦٩]. وانقطعت الأموال عن دائرة الشؤون الاجتماعية في عمان

---

١٦٧) ندوة منشورة في تموز ١٩٩٠

١٦٨) مجلة الهدف.، ١٩٩٠/٣/٨

١٦٩) تعميم داخلي فلسطيني، الجبهة الشعبية

وأغلقت مكاتب وعيادات في عدة بلدان...

شكّل هذا الوضع تهديداً للعلاقات الريعية والأبوية وبالتالي للهيمنة الفردية، ولكن الأنظار اتجهت أيضا للمخلص الأوحد كما جرت العادة، بما عزز من قدرة الزعيم على اجتراح الحل واستقطاب التأييد والاستزلام له.

فنهج المنظمة المالي غطّسها في إنفاق هائل، وهذا لخصه خالد الحسن بطريقته عندما خاطب المجلس الوطني في الجزائر (الوضع يتطلب النزول تحت الأرض»، ولأنني أعرفكم، لا خيار سوى التجاوب مع المسعى الأمريكي) فمثل هذا النهج الاستهلاكي بات يلح في مطالبه المالية المتنامية. ومن هنا انتشرت المقولة التي نسبت للقائد العسكري في الثورة الفيتنامية جياب «أن فتات الثورة الفلسطينية يصرف على الثورة الفيتنامية»... وهذا النهج وجدنا ترجمات حية له ولكن على نطاق واسع بعد تشكيل السلطة الفلسطينية في الضفة وغزة.

أفضت لقاءات أوسلو السرية إلى اتفاق مبادئ في أيلول/١٩٩٣ بعد المرور بمحطة الرسائل المتبادلة التي تعترف بموجبها المنظمة بحق إسرائيل في الوجود، وتعتمد التفاوض بديلا للكفاح المسلح، أما إسرائيل فقد اعترفت بالمنظمة!!

وينص اتفاق المبادئ على سلطة حكم ذاتي إداري تبدأ في غزة – أريحا وتمتد للمراكز السكانية بالتزامن مع إجراء انتخابات عامة لتأليف مجلس إداري (تشريعي) كترتيبات انتقالية لمدة خمسة أعوام، وبعد عامين يجري التفاوض على قضايا المرحلة النهائية (القدس – اللاجئون – المستوطنات – الحدود – المياه). بينما صرح بيرس (هذا هو الانتصار التاريخي الثاني بعد قيام إسرائيل).

أثار الإعلان عن الاتفاق عاصفة هوجاء من النقد والاعتراض في الساحة الفلسطينية شاركت فيها جميع الفصائل. وعلى الفور استقال الشاعر محمود درويش من اللجنة التنفيذية للمنظمة، فيما علق شفيق الحوت مشاركته في اجتماعاتها، وتوالت بيانات التنديد والتحركات والاصطفافات...

رعى الرئيس الأمريكي في البيت الأبيض احتفالا بحضور رابين وعرفات وثلاثة آلاف شخصية، حيث قام محمود عباس وبيرس بتوقيع إعلان المبادئ، الذي وصفه قيادي في فتح (إن اتفاقية

إعلان المبادئ هي في الحقيقة إعلان تخلي عن المبادئ من الجانب الفلسطيني)[١٧٠].

في ايار/١٩٩٤ وقع عرفات ورابين اتفاق القاهرة الخاص بغزة - أريحا، وسمح لعرفات والنخب البيروقراطية من حوله والآلاف من مرافقيه ومن عناصر منظمة التحرير بالعودة، عودة طال انتظارها وحلم داعب الخيال ليل نهار.

---

[١٧٠] مجموعة كتاب، أضواء على المسيرة اليسارية الفلسطينية، ورقة عبد الفتاح القلقيلي. (اليسار في فتح) اصدار مركز منيف البرغوثي الثقافي ٢٠٠٥ ص١٠٦

الفصل الثاني

لمحات من تجارب ثورية في العمل التنظيمي السري ورؤية الجبهة الشعبية

مقدمة

ثمة أساس للقول إن خبرة العمل الثوري السري هي أغنى بما لا يقاس من الشذرات التي كتبت عنها، علاوة على أن البحث عن هذه الشذرات هو أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش. فالعديد من الحركات الثورية طغت السرية على مسيرتها عقوداً وعقوداً، غير أن ما وُثق عن هذه التجارب هو "أفقر من فأر الكنيسة"، مجرد عبارة هنا أو صفحة هناك، علماً أنها سطرّت مجلدات في أرض الواقع. فعلى سبيل المثال المقاومة السرية الفرنسية ضد النازية، أو الحزب الشيوعي الصيني، أو جبهة التحرير الجزائرية، أو الحركات القومية واليسارية الهندية، أو حركة التاميل أو التجارب السرية في العراق، أو الدرب المضيء في البيرو...

من ناحية "العلم النظري" يمكن الاعتقاد أن هناك قوانين عامة للتاريخ البشري وتشابهات في المراحل والظروف التي تمر بها الشعوب، الشيء الذي يوجب استخلاصات عامة مرشدة للعمل الثوري، مثلما هناك الخاص الملموس المرتبط بالشروط الموضوعية لكل شعب ومرحلة، بما يوجب القبض عليها أيضا، أي ثمة العام والخاص في آن.

ومن هنا لم تبدأ تجربة الجبهة الشعبية في الأرض المحتلة من الصفر، بل اختزنت بعض خبرات ودروس من تجارب أخرى، وهناك مفاصل في الجبهة الشعبية اطلعت بهذا القدر أو ذاك على تلكم التجارب، بما ترك أثراً على عقل الجبهة وبراكسيس/ها، فهي قد استفادت من تراث من سبقها، وأكثر ما تأثرت به هو التاريخ والتجارب العربية مما يستوجب استدعاء بعض الخلاصات، ناهيكم عن جذورها في حركة القوميين العرب، وحضور هذه الجذور في مسيرتها، سيما أن معظم قياداتها في العقدين الأولين قد انحدروا من القوميين العرب.

وفي الاستعراض المكثف لسلسلة النماذج، إنما سعت الرسالة لإبراز النقاط ذات الصلة بعمل الجبهة، بل وسوف يشار لإضاءات كان لها طابع توجيهي بما يتجاوز المعرفة إلى مستوى الإرشاد، على أن يفهم ذلك ضمن مساحته، فالمساحة الأكبر كانت للتجريب، وارتبطت بمستوى وطباع ومزايا العقل القيادي وقدرته على فهم الخاص والملموس، ليس فقط لأن حبش ردد مرات (الذي

يريد أن يفهمنا، عليه أن يفهم أننا نفكر) وبالتالي كان نهجه، عموماً، اجتهادياً وليس حفظياً، بما جعله مهيأ للاختلاف مع أقرب حلفائه سواء على الصعيد الوطني أو القومي أو العالمي، بل للبعد العملياتي للجبهة في الوطن المحتل أيضاً، فهي مفعمان من محاولات البناء والنشاط والضربات، فالاحتلال بالمرصاد، ولا يترك الكثير من ترف الابتعاد عن هموم العمل اليومي وتفاصيله، فوقع الملاحقات والمهام أكبر أثراً، وإن كانت منسجمة مع كلمات لينين (عليكم أن تتكيفوا مع ظروفكم وأوضاعكم الخاصة). وهذا جعل التماهي عاليا بين جزئيات نظرية وجزئيات عملية فتحقق تعبير المفكر الفرنسي التوسير (نظرية الممارسة).

لا مهرب في ظروف القمع والبطش من السرية، مثلما أن اختلال ميزان القوى يوجب على الحركة الثورية اللجوء للسرية أيضاً. فالسرية وسيلة لحماية وضمان الوجود والنشاط، وتغدو نافلة وغير ضرورية، حينما تتأمن شروط الوجود والنشاط دونها.

والجماعات السرية قديمة وقد امتدت في أنحاء كثيرة من العالم، إلى درجة أن بعض التحليلات السيكولوجية ذهبت للقول (إن السرية حاجة إنسانية أساسية، وهي تثير انفعالات قوية... إن الولوع بالسرية شيء كامن في النفس البشرية... والجماعة السرية قد تكون حالة من التمرد على النظام القائم... ولكن ما الذي يجذب الإنسان للانضمام لجماعة سرية؟ ليس مجرد حب صبياني لبعض الطقوس، أو إسناد الجماعة لبعضها البعض، بل هي أيضاً حاجة إنسانية فتضطلع الجماعة السرية بدور في المجتمع... ويذهب عالم النفس غوستاف يونغ للقول: إن السرية عملية تربوية تعطي لكيان الفرد مكانة ليشعر أنه ينبعث من جديد.

ودون سرية قد يدمر الأعداء الجماعة أو تعجز عن القيام بدورها أو الحفاظ على أعضائها)[١٧١] أما عالم الاجتماع الألماني سيميل فكتب (إن السرية تمنح إمكانية عالم ثانٍ إلى جانب العالم العلني، وتوفر فضاءً إضافياً في الحياة... وأن السر يمنح صاحبه شعوراً بالملكية الخاصة والتمايز)[١٧٢] بل وباعتراف الآخرين بدوره بما يشبه إعادة اعتبار للذات والذاتية وبقدرتهما على الفعل والتأثير، علاوة على شعور التطامن النفسي الناتج عن الترابط الجماعي والحمائي، وأكثر من ذلك فهو يرفع من فاعلية عضو الجماعة بما يناط به من أعمال ومهام، والفاعلية مسألة جوهرية في المجتمع المعاصر.

---

١٧١) د. ماكينزي، نورمان. الجمعيات السرية، مجموعة مؤلفين. دار الشروق ١٩٩٩، ص ١٠،١٥،١٧،٢٤

١٧٢) المرجع السابق، ص٢٨٧

وجاءت التزكية الطازجة في الأمس القريب، إذ كان لتجاوز المشهدية والاستعراضية، وتغليب الكتبية الرخوة والمهرجانات التي حلت محل البنية التنظيمية، كأمراض شاعت في الساحة الفلسطينية، تجاوز ذلك بالتوشح بسرية المخابئ والأنفاق والمجموعات وتحركات القيادة، أثره الحاسم في صمود المقاومة اللبنانية في صيف ٢٠٠٦، وتفشيل العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في ٢٠٠٩. ولولا ذلك لأمكن الافتراض أن لدى التكنولوجية العسكرية الإسرائيلية القدرة على إبادة خطوط قتال ومواضع وجود المقاومة، وهنا يمكن التذكير بالضربة الجوية الخاطفة للطيران الإسرائيلي عام ١٩٦٧ وتدمير صواريخ سام في البقاع ودحر المقاومة الفلسطينية من الجنوب اللبناني عام ١٩٨٢.

فدرع الوقاية، ودرء ما أمكن من شر التفوق التكنولوجي والأمني، هو ستار السرية، وهذا ما ضمن استمرار المقاومة الشعبية للقوات النازية التي اجتاحت مساحات هائلة من أوروبا، واستمرار جماعات متنوعة في العراق في العهدين الملكي والجمهوري، وانتصار مقاتلي حرب الغوار على نظام باتيستا في كوبا، التي دأبت على الحركة في غابات السييرامايتسرا فلم تسمح لجيش النظام بمحاصرتها وإبادتها، الأمر الذي دفع جيفارا للكتابة (على المغاور أن يتقن المراوغة والانسحاب السريع وأماكن الاختباء، وقد يقطع في ليلة ثلاثين أو خمسين كيلو متراً)[١٧٣].

أما حسن حمادة فقد استخلص، في كتابه عن حزب الله، أن الحفاظ على السرية كان من (أبرز الأسباب التي مكنت المقاومة الإسلامية من تجنب العديد من الضربات... فمن القيادة إلى القاعدة كان حزب الله يتحلى بأعلى درجات التكتم... لقد استطاعت المقاومة تحقيق المعجزات العسكرية بفضل اتباع هذه السياسة... إن أحد أهم أسرار انتصار حزب الله كان وسيبقى هو السرية الشديدة).[١٧٤] بما ينسجم مع الفهم الديني (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان).

---

[١٧٣]) د. جيفارا، تشي. مبادئ حرب الغوار. دار الفارابي. بيروت ١٩٩٨. ص٢٧

[١٧٤]) حمادة، حسن. سر الانتصار. دار الهادي. ص١١٠ – ١١١

أهم السمات والقواسم المشتركة للجماعات السرية:-

١. أنها حركات منظمة لها بناء هرمي متماسك بهذا القدر أو ذاك، ولها رموزها وتقاليدها وطقوسها ولغتها، وطرق تساعد على تماسك الجماعة والتعبئة بنشأتها وأصولها ومزاياها.

٢. لها وظيفة قد تكون وطنية أو طبقية أو أخلاقية... وقد تكون عنصرية وإرهابية أيضاً بناء على أهدافها. فما يقرر وظيفة الجماعة هو مضمون أهدافها، دون إهمال تاكتيكاتها، أي الوسائل والدروب التي تنتهجها.

٣. لها معاييرها واشتراطاتها للعضوية كما واجبات والتزامات على العضو.

٤. لها تضحياتها، فالمهمات تستوجب التضحية بالوقت والمال، وأحياناً إهمال الأمور الشخصية، وأحياناً الاعتقال بل والموت ثمناً للانتماء للجماعة.

ففي التاريخ القديم كانت ثورة سبارتاكوس نموذجاً للتضحية الجماعية، ومسيرة المسيح رمزاً ودلالة وهو صاحب القول (إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، لكن موتها يأتي بثمر كثير)، والدعوة الإسلامية في البدايات وما لاقته من تنكيل... وكلمة رسول الإسلام (المسلمون كالجسد الواحد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) فيها من البلاغة والمعنى الكثير.والحركات اليسارية في الكثير من البلدان، تتمتع بتضامن جمعي وتساند حمائي.

٥. عملية جماعية تراكمية، تبدأ بدايات بسيطة، مجرد قبضة في حال جبهة التحرير الجزائرية التي هزمت المستعمر الفرنسي، وقبضة في حال جيش الشعب الفيتنامي الذي هزم المستعمر الفرنسي ومن بعده المستعمر الأمريكي... وأما تشييدها فيمر بحلقات متتابعة من العمل الدؤوب، فيشتد ساعدها بتدرج وتتبلور ملامحها ومضامينها بتدرج أيضاً.

وسوف ينطوي الاستعراض المقتضب لطائفة حركات ثورية سرية على الكثير من المنظورات والمقولات المعاصرة في حقول الفكر السياسي والتنظيم، وهي مستقاة وتتكئ على منظورات ومقولات من تجارب سبقتها، فالتاريخ يترابط ويتناسل ارتقائياً، وبكلمات إدوارد سعيد (إن ثقافات الشعوب متمازجة كثيراً ومتشابهة كثيراً)، ولكننا نقتبسها لأنها حضرت بهذا القدر أو ذاك في التفكير الإرشادي للجبهة سيما في مرحلة التركيم.

الباب الأول

١- حركة الموحدين

كتب ابن خلدون عن محمد بن تومرت مؤسس حركة دولة الموحدين التي انتشرت في شمال أفريقيا والأندلس أنه (شبّ قارئا للعلم متأثراً (بالغزالي الذي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد، وكان ابن تومرت متحرراً من الجمود ومتنوراً في أطروحته التغييرية)[١٧٥]. وقد (انتقل من الجانب التنظيري في دعوته إلى الجانب العملي، حيث جدّ في تكوين قاعدة لدعوته... وأقام حلقات للتدريس... وتمكن من تكوين قاعدة شعبية قوية وكانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة... وهو أول من أدخل التأويل الكلامي إلى بلاد المغرب... ونشر مذهب المتكلمين، إنه أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة الذي يقوم على الأدلة العقلية، وأخذ شيئاً من الخوارج لا سيما في التساهل في الدعاء ومقاومة السلطان الجائر، ونهج منهج الشدة في التربية والتعليم... وألف كتباً ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي... والتزهيد في متاع الدنيا والإعداد للجهاد... ومن شعره (تجرد من الدنيا فإنك إنما... خرجت من الدنيا وأنت مجرد). وقد طالب أصحابه (لا تنازعوا ولا تغتروا بالدنيا) وشرع في بناء المجتمع الجديد على أسس التعاون والتناصر والتآخي)[١٧٦].

وقد توزع أصحابه على حلقات، لكل عشرة أحد الطلبة النابهين، وهم على أربعة أجهزة: ١- جهاز سياسي. ٢- جهاز علمي ثقافي. ٣- جهاز عسكري. ٤- جهاز شعبي... وغرس فيهم الثقة بأنفسهم وأنهم على حق... والثقة بالإمام (القائد)... كان شخصية فريدة اجتمعت فيها صفات قلما تجتمع في شخصية قيادية... وكان على قسط وافر من العلم... مستفيداً من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي، ينتقي ما يلائمه، وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه)[١٧٧].

٢- الإسماعيليون والحشاشون

في القرن الثامن الميلادي، بعد وفاة الإمام السادس جعفر الصادق، نشأ نزاع بين الإثنا عشرية الذين يؤيدون خلافة ابنه موسى ونسله وصولاً إلى الإمام الثاني عشر حيث يعم العهد السعيد، وبين المؤيدين لأخيه إسماعيل، وأن ابنه محمد سيكون الإمام السابع حيث سيحل العهد السعيد.

---

١٧٥) د. الصلابي، علي. دولة الموحدين. دار الإيمان. ٢٠٠٤ ص٢٠

١٧٦) المرجع السابق، ص ٤١، ٦٨، ٧٧، ٧٨

١٧٧) المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٩٥

انتشرت الإسماعيلية (في إيران والعراق وبلاد الشام وقد حظوا بتأييد الكادحين في المدن وبعض النجاحات في أوساط الفلاحين والبدو)[١٧٨] وادعى خليفتهم عبد الله أنه ينتسب لفاطمة ابنة الرسول، وبالتالي أسموا بالفاطميين وسيطروا على مصر وشمال أفريقيا. وفي بدايات دعوتهم حجبوا أسرارهم إلى أن اشتد ساعدهم، سيما أنهم (ادعوا أن للقرآن معنى باطنياً لا يعرفه سوى الأئمة، وان هناك سبعة أنبياء فقط هم ادم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإسماعيل، الأمر الذي يدخل في عداد الهرطقة من وجهة نظر إسلامية.)[١٧٩]

أما الحشاشون فترجع أصولهم إلى القرن الحادي عشر في بلاد فارس وزعيمهم هو حسن الصباح الذي اختار قلعة على جبل شاهق، لم تنفك آثارها قائمة، مركزاً استراتيجياً له. وتتحدث الروايات أنه اعتكف في قلعته ثلاثين عاماً لم يظهر خارجها سوى مرتين. وقد ربى أتباعه على الطاعة العمياء والثقة بالإمام القائد، إلى درجة أن يرحبوا بالموت أثناء قيامهم بالاغتيالات سواء ضد الأمراء الفرنجة أو الحكام المسلمين.

لقد انعزلوا في مناطق نائية آمنة أسسوا فيها مزارعهم الجبلية، وتعبؤوا بمعتقداتهم، وتدربوا على القتال إلى أن سقطت قلاعهم المحصنة في أيدي المغول. وأكثر ما ميّزهم هو طاعة القائد والاستعداد للتضحية بكل شيء وكتم الأسرار، والاغتيالات كانت نهجهم الأساس.

٣- القرامطة

تأسست حركتهم السرية حسب بولص فرح (إبان ثورة الزنج، وقد توسعت بعد أن انضم لها فقراء البلاد والفلاحون والحرفيون في البحرين والعراق وخراسان واليمن وبلاد الشام... رفعوا شعارات اشتراكية نادت بالملكية الجماعية، وأدخلوا نظام توزيع المواد الاستهلاكية بالتساوي، وأقاموا وجبة الإخاء، والحكومة تولت الشؤون التجارية، ولم يفرضوا الضرائب على مواطني دولتهم، أما القرمطي فيدفع خُمس دخله السنوي للخزينة العامة... وكانوا يمدون المحتاجين من الزراع والصناع بالقروض.

أشعل القرامطة ثورتهم في البحرين عام ٨٩٤م ثم امتدت حركتهم إلى الإحساء التي أعلنوها عاصمة لهم، وعاشت دولتهم نحو ١٥٠ سنة، وواصلوا كفاحهم في بلاد الشام وحاصروا دمشق في القرن العاشر، واعترفوا بالإسماعيلية زعامة لهم.

---

١٧٨) فرح، بولص. مقدمات في تاريخ العرب الاجتماعي. شركة الكتاب العربي. ١٩٧١. ص١٩٢

١٧٩) ماكينزي، نورمان. الجمعيات السرية. مجموعة مؤلفين. دار الشروق ١٩٩٩ ص١٠٧

كان لهم رئاسة دولة تتكون من ستة ومساعديهم تتوزع بينهم المهام، أما جيشهم فمكون من الميليشيات، وقد شجعوا التعاونيات وعمل المرأة ولم يؤدوا الصلاة أو الصيام)[١٨٠].

٤- الحزب البلشفي – اللينينية

تعتبر التجربة الروسية من أنجح التجارب المعاصرة في العمل الثوري السري سيما أنها انتصرت في أكتوبر ١٩١٧. وراحت تتشكل شخصية لينين كمنظم وقائد نظري في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ولمع كقائد للبلاشفة بعد انقسام حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي ١٩٠٣. ونجح الحزب بعد نضالات سلمية وعنيفة، طلائعية وانتفاضية، في الاستيلاء على السلطة في روسيا. تركت كتابات لينين بصمات دامغة على روسيا والعالم.

و(النظرية اللينينية تنطلق في تكوين الوعي الطبقي البروليتاري من التمييز الجوهري بالنسبة للماركسية بين الطبقة في ذاتها والطبقة لذاتها، الذي سبق أن أرساه ماركس في مؤلفه (بؤس الفلسفة)، ويتفرع عن هذا التمييز مفهوم الوجود الموضوعي للطبقات الاجتماعية يالاستقلال عن مستوى الوعي لديها،... وقد استنتج لينين من تمييز ماركس بين مفهوم الطبقة في ذاتها والطبقة لذاتها مفهوم النضال الطبقي، الابتدائي، والنضال الطبقي الثوري)[١٨١] اي الانتقال من النضال النقابي الاقتصادي إلى النضال السياسي العام، وبالتالي فالنضال والوعي ينقلان الطبقة من، في ذاتها إلى، لذاتها. ومن خلال التجربة تتعلم وتتنظم الطبقة والجمهور العريض، وهذا يتطلب الجمع بين أساليب العمل السري والعلني ونصف السري وما تتطلبه من أشكال نضالية.

ولينين بعقليته الجدلية، كشف الارتباط الوثيق بين النظرية التنظيمية وتطور الممارسة. إذ شملت نظريته ثلاثة عناصر (نظرية في وضع الثورة في البلدان المتخلفة في عصر الإمبريالية، وقد امتدت لتصبح نظرية على المستوى العالمي في عصر الأزمة العامة للرأسمالية، ونظرية في التطور المتقطع والمتناقض للوعي الطبقي البروليتاري وأهمية التمييز بين هذه الأطوار... ونظرية جوهر الماركسية في علاقتها بالعلم والنضال الطبقي البروليتاري)[١٨٢]، وبالتالي لا يمكن فصل المفهوم اللينيني للتنظيم عن تحليل الوعي الطبقي المرتبط بطابع الصراع. فنضال البلدان المحوطة مستوى، والنضال النقابي مستوى، والنضال الجبهي الشامل في البلدان المتطورة لإطاحة

---

١٨٠) فرح، بولص. مقدمات في تاريخ العرب الاجتماعي. (١٩٧١). إصدار شركة الكتاب العربي. ص٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢

١٨١) مندل، ارنست. النظرية اللينينية في التنظيم (١٩٧٠) رام الله ص ١٢، ١٣

١٨٢) مندل، رانست، لينين ومشكلة الوعي الطبقي (١٩٧٠) ص ٢

الرأسمالية مستوى ثالث، ولكل منهما أشكاله التنظيمية.

والنضال الفلسطيني إنما ينتمي للمستوى الأول. ويضيف مندل (أن أحد الأفكار الأساسية لكتاب لينين ما العمل؟ هي أن البروليتاريا عبر الممارسة السياسية تبلغ الوعي الطبقي الرفيع، وهذا هو الأساس الذي يوجب ضرورة حزب الطليعة... كذاكرة جماعية وضمير جمعي بما يؤديه من دور تربوي وقيادي)[١٨٣].

من هنا كتب لينين «أن حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة» وأولى أهمية للمحترفين الثوريين الذين يمنحون النضال جماع شخصياتهم. وتعبير «المحترفين الثوريين» إنما استقاه من الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وتحديداً أتباع بوبوف الذين استغرقتهم الثورة والإعداد لها، وقد رأوا في الحكومة مؤامرة من الأغنياء على فقراء الشعب، وأن هدف الثورة هو الإطاحة بالطغمة الحاكمة وإقامة «ديكتاتورية العمال»، هذا التعبير الذي استخدمه أول من استخدمه بلانكي الذي أمضى عشرات السنوات في السجون، ولاحقا اعتبره ماركس الشكل السياسي لسلطة الثورة الاشتراكية.

والحزب الثوري بمفهوم لينين يلتحم بالجماهير ويستهدف قيادة الثورة للفوز بالسلطة تحقيقاً لكلمات ماركس الداعية لإقامة (حكم الشغيلة الأحرار) محذراً من البيروقراطية وناظراً (للاشتراكية والديموقراطية كصنوين) ووجهين لعملة واحدة. وعبر مسيرته كان متناغما مع منظور ماركس في الموضوعة الثالثة حول فورباخ (يحتاج المربي هو ذاته للتربية) بل (وفي النشاط الثوري يتطابق تحويل الذات مع تحويل الظروف)[١٨٤] حيث التعلم والتعليم عملية متداخلة ومتواصلة، أي براكسيس.

والاطاحة بالنظام القيصري الروسي ومن بعده إطاحة الحكومة المؤقتة بقيادة كيرنسكي كان يتطلب حزباً ثورياً من طراز جديد وقيادة ثورية صلبة غير مثلومة النصل وكفؤة تتسلح بوعي يخدم طبقات الثورة، لا النخب البيروقراطية، وقادرة على قيادة العملية الثورية نحو الانتصار.

وكان لتجربة لينين في بناء الحزب أثر خاص على مسيرة الجبهة في الوطن المحتل.

---

١٨٣) مندل، مرجع سابق، النظرية اللينينية. ص١٤، ١٥

١٨٤) د. ماركس، كارل، الأيديولوجية الألمانية. ص٣٣

٥- الماو ماو في كينيا

نشأت كجمعية سرية عام ١٩٤٨، وقد ضمت نحو (١٢ ألف متشدد لمواجه البريطانيين والمستوطنين الذين حازوا على الأراضي والمبشرين المسيحيين)... وكانت أهدافهم استرداد الأرض الضائعة، الحصول على الحكم الذاتي، طرد جميع الأجانب، التعليم العلماني واستعادة التقاليد القديمة... وعرف عن قائدهم تيماثي من قبيلة الكيكويو جدية الالتزام بمبادئ الماو ماو والعنف. وقد نجح ببناء قوة قتالية اتخذت من الغابات قاعدة ارتكاز لها... أضفت جدته وهي على فراش الموت بركاتها عليه كوعد من الإلهة نجاي بأنه سيصبح زعيماً لكل قبائل الكيكويو...

استمرت الحركة الثورية نحو عقد من السنين، وتحت قيادته خاضت معارك مع المستعمرين البريطانيين والشرطة القبلية سقط فيها ١٠ آلاف من أتباعه و٤ آلاف من البريطانيين والشرطة... استقلت كينيا في ١٩٦٣ وفاز عدد من الماو ماو بمقاعد في الجمعية الوطنية...

كان للحركة قسم (أقول الحق وأقسم أمام الله وأمام هذه الحركة، حركة الوحدة، بأني سأقاتل من أجل الأرض، الأرض التي زرعناها، واغتصبها الأوروبيون، وإذا لم أفعل فليقتلني هذا القسم... وسأطيع إذا طلب مني أن أقتل من أجل ترابنا وأن احرق مخازن البيض... لن أخون بلادي ولن أشي بأي عضو وأن أساعد أعضاء الحركة. لن أغتصب إمرأة رجل آخر ولن أسير مع العاهرات ولن أبيع بلادي مقابل المال ولن أفشي سراً وأن أسدد رسوم العضوية)[١٨٥].

٦- الجمعية القومية الإيرلندية

عاش الإيرلنديون حياة بائسة حرموا فيها من جميع الحقوق المدنية في القرن الثاني عشر، ولم يكن لدى جماهير الفلاحين العلاج الطبي ففتكت فيهم الأمراض ولم يكن من غذاء سوى البطاطا تقريباً. وقد اتصفت الإدارة البريطانية بالخشونة والقسوة وبالتالي نشأت مقاومة إيرلندية تميزت بالشجاعة والصمود. وقد أظهر الإيرلنديون موهبة في إقامة التنظيم السري. ومع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر باتت الكادرات القتالية منتشرة في الأرياف والمدن وتنظيم هرمي يقودها. وراحت تشن حرب عصابات عنيفة ضد البريطانيين. وامتدت الحركة، و(في ١٨٤٥ توزعت على خلايا تضم الواحدة عشرة أعضاء لا يعرفون عن الخلايا الأخرى. وكان العضو يقسم على الإنجيل بأن يكتم أسرار الحركة وأن يطيع الله وأوامر قائده والنضال من أجل

---

١٨٥) ماكينزي، نورمان، الجمعيات السرية. مجموعة مؤلفين. دار الشروق ١٩٩٩ ص٤٢، ٥٣، ١٥٤، ٦٤، ٦٥

إيرلندا جمهورية ديموقراطية مستقلة)[186].

وبين مد وجزر تواصل النضال الإيرلندي، إلى أن تصاعد بصورة ملحوظة بعد الحرب العالمية الأولى. وجاء إعدام ستة عشر من الثوار الذين تم أسرهم ليعطي الحركة شهداءها فصبت ذكراهم زيتاً على مرجل يغلي، حيث انتشرت حرب العصابات وتصاعدت إلى أن نالت إيرلندا الجنوبية استقلالها في ١٩٢١. والذي شاهد فيلم «مايكل كولينز» تغتني رؤيته بالكفاح القومي الإيرلندي الذي (قاده متعلمون من الطبقة الوسطى وما أصابه من خلافات وتشققات)[187]. وحتى اللحظة ثمة كفاح ثوري في إيرلندا الشمالية من خلال الجيش الإيرلندي السري وحزبه العلني الممثل في البرلمان.

٧- البوكسرز (الملاكمون) في الصين

جمعية سرية نشأت في بدايات القرن العشرين، في وقت كان يقود صن يات صن الحركة القومية الديموقراطية المناهضة للنظام الإمبراطوري الإقطاعي. والكونفوشية، الفلسفة الأكثر انتشاراً في الصين، تعتقد أن الإمبراطور (ابن الشمس هو مطلق الصلاحيات) و(قدوة أخلاقية، وإذا فشل في واجباته اقتضت الثورة عليه).

لقد انتفض البوكسرز في بكين التي حوصرت مدة شهرين من قبل قوات الإمبراطور يعاونها قوات بريطانية وروسية وفرنسية إلى أن ذبحت الانتفاضة.

وبالعودة للوراء كانت الصين حتى القرن الثامن عشر أكثر تطوراً من أوروبا، أما بعد الثورة الصناعية، فقد نهضت أوروبا وتجمدت الصين بما يذكرنا بالإمبراطورية العثمانية.

أما الكونفوشية فشأن بدايات البوذية والمسيحية والإسلام عرفت مرحلة من العمل السري في فترة اضطهاد أتباعها، ومما يؤسف له أنه لم تتوافر مراجع واضحة بهذا الشأن. ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة (لجمعية اللوتس البيضاء الكونفوشية في القرن الرابع عشر والجميعة الثلاثية في القرن الثامن عشر لما تمتعا به من زعامة قوية وولاء جذري لا يهتز للأعضاء)، كما حركة تايبنغ بقيادة شوان في القرن التاسع عشر الذي فسر أحد أحلامه على الطريقة الدينية والثقافات القديمة في بلاد الرافدين، بأن الله كلمّة وهناك ملائكة وشياطين، وقد امتدت ثورته على مساحات واسعة

١٨٦) المرجع السابق، ص١٠٧

١٨٧) نفس المرجع، ص١٨٦

من الصين بما فيها مدينة شنغهاي)[188]. وهذا كان في تراث التجربة الثورية الصينية بعدئذ.

٨- التجارب الصينية / الفيتنامية / الكوبية

رغم الفوارق بين هذه التجارب والمسيرة الخاصة لكل واحدة غير أنها جميعاً استندت لكلمات ماركس (أن سلاح النقد لا يغني عن نقد السلاح) وكلمات لينين (إن طبقة لا تتعلم حمل السلاح تستحق أن تعامل معاملة العبيد) و(الذين يخشون الانتفاض المسلح ينبغي تحزيمهم وإرسالهم كرزمة إلى الأعداء). ففهم قياديي هذه التجارب للتناقض التناحري أوجب عليهم بناء أدوات تنظيمية قادرة على الصراع المسلح، لها أهدافها السياسية ورؤيتها للمجتمع المنشود.

كتب لي ذوان الأمين العام السابق للحزب الشيوعي الفيتنامي (مع اندلاع الحرب العالمية الثانية نقل الحزب نشاطه إلى الأرياف... وشن عمليات غوارية... كانت مقدمة الانتفاضة ١٩٤٥، والحزب استرشد على نحو خلاق بمبادئ لينين عن العنف الثوري والانتفاضة الثورية من أجل الاستيلاء المحلي على السلطة في الارياف والانتفاضة في المدن، اعداد طويل الامد للقوى الثورية والتعبئة السريعة للجماهير في اللحظة المناسبة)[189] ولتبيان دور الثورة الثقافي وما يطرأعلى الثوريين من تحولات: يستطرد (تهدف الثورة من الوجهة الأيديولوجية إلى تثقيف الفئات المختلفة... ورفع مستوى معرفة الشعب العامل وتغيير العادات والتقاليد وتدريب مثقفين من الطبقة العاملة أمناء للاشتراكية... وتكوين أناس يمتلكون أرفع الفضائل الثورية... وبناء حزب ماركسي – لينيني قوي متحد وثيق الصلة بالجماهير)[190].

وصولا الى تحقيق ما كتبه هوتشي مِنَه قائد الثورة في وصيته (ان امنيتي النهائية ان يتحد حزبنا في النضال من اجل فيتنام مسالمة متحدة مستقلة ديموقراطية والاسهام بجدارة في الثورة العالمية).

أما نغوين جياب القائد العسكري للثورة ورئيس البرلمان لاحقا فقد تحدث عن أبعاد أخرى بالقول (استخدم الاستعمار الأمريكي صنائعه في جنوب فيتنام، أداة رئيسة لتنفيذ سياسته العدوانية... وأنشأ النظام العميل في الجنوب وجيشه من المرتزقة، مموها سياسته بشعارات «الاستقلال والديموقراطية والحرية» واستئصال الرذائل... لقد تعاونت الإمبريالية الأمريكية

١٨٨) المرجع السابق، ص٢٠٨

١٨٩) لي ذوان، مقالات فيتنامية، دليل المناضل، دار بن خلدون ١٩٧٤ ص١٤-

١٩٠) نفس المرجع، ص٢٥، ٢٦

وبيروقراطية البرجوازية الكومبرادورية وطبقة الاملاكين العقاريين الكبار...

تشكل الطبقة العاملة في جنوب فيتنام حوالي المليون محتشدين في المدن والمزارع يعانون من نير ثالوثي وهم الأكثر ثورية وجذرية. والفلاحون الذين يناهزون عشرة ملايين، هم أضخم قوة ثورية ويعيشون حياة الشقاء وقد اكتسبوا تجربة غنية في النضال... وتضم البرجوازية الصغيرة نحو أربعة ملايين نسمة تزداد ظروف معيشتهم سوءاً وتدفعهم وطنية متأججة وهم أغلبية سكان المدن... أما البرجوازية الوطنية فضعيفة اقتصادياً ومكونة من بضعة آلاف أفلس الكثير منهم وتعاني من القهر وتظهر روحاً معادية للإمبريالية والإقطاع... كما تقاتل الأقليات القومية التي تزيد على ٢٠ قومية بعناد ضد الإمبرياليين وعملائهم، فيما عدا حفنة من الشرائح العليا)[١٩١].

ويحسم بالقول: ان العامل الاساس في كل نضال ثوري هو العنصر الانساني، والقوة الحاسمة هي قوة الجماهير الشعبية).

وتشير الادبيات الفيتنامية إلى (أدرك الحزب الاهداف الحقيقية للعدوان الامبريالي الفرنسي فعمل منذ البداية على تجميع القوى الوطنية كافة في جبهة متحدة... كان العدو متفوقا من الناحية المادية على القوى الوطنية، وكان يجند قوى مأجورة من الفيتناميين وينصّب في كل مكان سلطات عميلة... بذل الفيتناميون جهوداً رائعة في معركة بيان ديان فو التي غيرت مجرى الأحداث وقادت لتوقيع اتفاقية جنيف ١٩٥٤ التي أدت الى الاعتراف بجمهورية فيتنام الديموقراطية كدولة حرة وباستقلال لاووس وكامبوديا)[١٩٢].

وعن طابع الثورة ومراحلها وعن العملية التثقيفية التنظيمية الشاملة جاء (كانت المسألة الاساسية للحرب الشعبية تثقيف وتجنيد وتنظيم وتسليح الشعب كله كيما يشارك في المقاومة المسلحة... كانت حرب التحرير الفيتنامية ثورة وطنية ديموقراطية شعبية مسلحة، مهمتاها الأساسيتان قلب الإمبريالية وقلب الطبقة الاقطاعية... كانت الاستراتيجية والتاكتيك استراتيجية وتاكتيك حرب شعبية طويلة الامد على عدة مراحل، المرحلة الدفاعية ومرحلة التوازن ومرحلة الهجوم الثوري بما يتيح تجنيد الفيتناميين والتغلب على عجزهم المادي.

وبرهنت التجربة أن بناء قواعد المقاومة في الأرياف أمر في غاية الخطورة والضرورة، وأن

---

١٩١) نفس المرجع، ص٢٨، ٣٣، ٣٩، ٤٠، ٤٢

١٩٢) التجربة الصينية/الفيتنامية/الكوبية، دار القبس الكويت دون تاريخ ص٥٥، ٥٨

الثورة على الإمبريالية والإقطاع كل لا يتجزأ... وانتصرت الثورة أيضاً بفضل جيش شعبي مسلح عالي التضحوية بدأ من الصفر وكانت نواته الأولى نخبة محدودة من العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين الثوريين...

وبرهنت التجربة الفيتنامية أن الحزب احتفظ بقيادة الحركة الثورية الشعبية وكانت قيادته وراء النجاح الكبير)[١٩٣]. وجياب (في كتابه حرب الشعب اهتم بشكل خاص في بناء قيادة القوات الثورية)[١٩٤].

وعلى غرار فيتنام كان في الصين حزب شيوعي له جهاز عسكري هو جيش الشعب، الذي تعاظمت قوته إلى أن أصبح خمسة ملايين مقاتل في لحظة انتصار الثورة ١٩٤٩، غير أن قيادة الحزب، التي يتمثل فيها جيش الشعب، هي المرجعية العليا. والأدب الصيني يفصّل بالقول (تدلنا التجارب التاريخية على أن نجاح حرب العصابات يعتمد إلى حدٍ كبير على قادة سياسيين أشداء يعملون دائبين من أجل الوحدة الوطنية ويركزون جهدهم على الجماهير وفكرهم السياسي صائب... لتنظيم حرب العصابات التي تعاني عجزاً في تنظيمها في البدايات لكنها القادرة على التنظيم الجيد مع الزمن، لا بد من أن تكون هناك قيادة سياسية وعسكرية في كل وحدة ممن تثقفوا ثقافة ثورية، صلاب مخلصون وأوفياء واثقون بأنفسهم... أي نماذج ثورية للشعب.

وحرب العصابات تعتمد على اليقظة والسرية والحركة السريعة والهجوم المباغت واجتناب العدو القوي ومهاجمته في نقاط ضعفه... وتلعب المجموعات العصابية الصغيرة المستقلة الدور الرئيس... ولا يوجد شيء اسمه معركة فاصلة أو مواقع دفاعية...

وهناك خطوات أساسية نتبعها لتحرير الشعب الصيني من عدو استعماري: ١- تحريك الجماهير وتنظيمها. ٢- تحقيق الوحدة السياسية الوطنية. ٣- إقامة القواعد. ٤- إعداد القوى المحاربة. ٥- استرداد ثقة الشعب بنفسه. ٦- تحطيم قوة العدو. ٧- استعادة الأرض المحتلة)[١٩٥].

وفي الجانب التنظيمي للعمل العصابي (يوجد في كل حظيرة عشرة أشخاص، وكل ثلاثة حظائر فصيلة، وكل ثلاثة فصائل سرية، وكل ثلاث سرايا كتيبة، وكل ثلاث كتائب لواء، وكل

١٩٣) نفس المرجع، ص٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٧

١٩٤) المرجع السابق، ص٤٧

١٩٥) التجربة الصينية/الفيتنامية/الكوبية، دار القبس الكويت ص ٥، ٦، ٧، ٩

لوائين يشكلان فرقة... ولكل وحدة قائدها العسكري والتنفيذي وضابط سياسي، وهي عصابات مقاتلة تتكون من الجنسيين نساء ورجالا.

أما الكادر (فالضباط يتحلون بقوة الاحتمال على المشاق ويتوحدون روحياً مع جنودهم، يؤمنون بتحرير الشعب وتحطيم العدو، يخططون ويدرسون التاكتيك بعناية، يندمجون في الشعب، يثقفون الجند... إن انتصار حرب العصابات يتوقف على نقاوة وصفات عناصرها.

يتوجب الإمساك بزمام المبادرة لتوفير حرية العمل... وهذا ممكن إذا هاجمت العصابات نقاط ضعف العدو.

ويمكن تقسيم القواعد حسب مواقعها، قواعد الجبال، قواعد السهول، وقواعد الانهار والبحيرات والخلجان)[١٩٦].

أما التجربة الكوبية فكان لها تأثيرات أكثر من سواها على الجبهة الشعبية، وبلغة قيادي (لقد استلهمنا في مرحلة صعود الجبهة الشعبية في الوطن المحتل أكثر ما استلهمنا خبرة الثورة الكوبية، سيما في مسائل التربية الثورية والابتكار وبعض الاستخلاصات التنظيمية والمزايا القيادية، خصوصاً على صعيد دور الفرد، ولم يكن صدفة أن نقرأ بعمق كتابات جيفارا وكاسترو ودوبريه وأن نطبع بعض إصداراتهم، وأظن أننا أول من أحضر مختارات جيفارا من بيروت للوطن، وأول من طبع بوستر جيفارا قبل أن يحوله البعض لرمز زينة ومصدر ربح، ولا ننسى أن الشهيد محمد الأسود عضو المكتب السياسي وقائد قطاع غزة قد اشتهر باسمه المستعار جيفارا)[١٩٧].

والثورة الكوبية أضافت الكثير إلى الفكر النظري اليساري، سيما نظرية البؤرة التي تطورت في المعمعان وغيرت شروط النضال، الأمر الذي وجد صداه في تفكير الدكتور وديع حداد. وقد لخص جيفارا المسألة بالقول (لا ينبغي الانتظار ريثما تتوافر شروط الثورة، يمكن أن تفجر الثورة هذه الظروف... مع توافر حد أدنى من هذه الظروف)[١٩٨].

ومن نفس المنطق نقد دوبريه النظرية المعاكسة (إن المنظمة تتقوى... لا تنتقل للكفاح المسلح لأن عليها أن تنتظر حتى يتشكل حزب طليعي متين... بينما هي لا تستطيع... أنها دائرة تفسد

١٩٦) المصدر السابق، ص١٥، ١٦، ٢٠، ٢٧، ٣٦

١٩٧) قيادي في الجبهة الشعبية

١٩٨) جيفارا، تشي. مبادئ حرب العصابات (١٩٦٨) بيروت دار الفارابي. ص٩

الكفاح الثوري)[199]. وشرح جيفارا مرةً أخرى (أن الغوار نضال جماهيري، نضال الشعب، والغوار هي الطليعة المقاتلة... وتكمن قوتها في جمهور السكان، وتتمتع بالتماسك واحترام القائد والشجاعة ومعرفة الأرض وفن التاكتيك)[200]. ومشهورة كلماته التي ردت على نقاد شيوعيين «للكاستروية» (باستطاعتكم أن تبنوا ملاكات تتمزق في السجون دون البوح بكلمة، ولكن ليس باستطاعتكم أن تبنوا ملاكات تستولي على موقع عسكري). وبنفس الاتجاه أنشأ دوبريه (إن وضع أفكار فيديل وتشي موضع التنفيذ لخلق أكثر من فيتنام، لا يحتاج لرجال خارقين، بل يحتاج من كل منا كثيراً من نكران الذات، والكفر بكل شيء، وربما بالحياة، والصمود والعناد ومعدة تتحمل البقاء خاوية لأسابيع... وفي النظرية التي اخترتها، فإن الانتساب الوحيد الشريف، هو انتساب المقاتل انتسابا كاملاً)[201] ويتوسع جيفارا بالقول (يندمج المغاور في إرادة الشعب التحررية، إنه مصلح اجتماعي، حاضرٌ دائماً لمساعدة الفقير، معبأً فكرياً، يضرب المثل بسلوكه... مقدام، ويجازف بحياته كلما لزم الأمر. ويكون حذراً، ولا يعرض نفسه في آن... أبكم كل ما يقال أو يجري أمامه لا يعرفه سواه، لا يسمح لنفسه بكلمة زائدة... غير تعوب، يحتمل الألم إلى أقصى الحدود، يتحمل حرمان الغذاء والماء والثياب والجراح... يتمتع بصحة من حديد...)[202].

ومرت الحرب الثورية في كوبا بثلاث مراحل (مرحلة مدّ الجذور أولاً، ثم مرحلة النمو التي تميزت بهجمات على العدو... ومرحلة الهجوم الثوري سياسياً وعسكرياً... والمرحلة الأولى هي أشدها صعوبة والأكثر تعرضاً للتغييرات)[203].

وفي الوقت الذي رفع فيه كاسترو شعار: كل البنادق، كل الموارد للسييرا، بما ينطوي على تحديد دقيق للحلقة المركزية ومركز الثقل، فالثورة أيضاً أمسكت بالربط الجدلي بين النظرية والممارسة حين أكدت على منظور ماركس للفاعلية بالقول (مهمتنا جميعاً النضال من أجل الفعالية... الفعالية التاريخية لعمل ما، هي فعل ما هو عقلاني في التاريخ... والفعالية تتعارض مع النظرة المنفصلة عن التطبيق... والنضال من أجل حد أعلى من الفعالية، هو نضال من أجل العقل الذي يوضع على محك التجربة، في قلب التجارب...)[204]، من هنا جاء توصيف التوسير

199) دوبريه، ريجيس. ثورة في الثورة (١٩٦٩) دار الأدب ص١٤٥

200) جيفارا، المرجع السابق. ص١١، ١٢

201) دوبريه، المرجع السابق. ص١٤، ١٦

202) جيفارا، المرجع السابق. ص٣٧، ٣٨، ٤١

203) دوبريه، المرجع السابق. ص٤٠

204) دوبريه، المرجع السابق. ص٢٣، ٢٤

للتجربة الكوبية بأنها (نظرية الممارسة) و(في الجبل تعلمنا الماركسية) كاسترو، دون أن تستهوي جيفارا العبارات المنمطة أو النمذجة أو أي تقليد أعمى (لم أؤمن يوما بالسلوك النهجي) أي السير على نهج السابقين، مما يتطلب عقولاً قيادية تقرأ الخاص والملموس وتبدع في استخراج مقارباتها، وتختبر نظرياتها ومقارباتها في لهيب التطبيق، فهذا هو المعيار، ومن جانب آخر فالممارسة (تتطلب السيطرة على التفاصيل، فهي الشيء الوحيد الذي يمنح المخططات العامة قيمتها الجدية... فالعمل هو التفاصيل)[٢٠٥] و(البطولة وحدها ليست كافية) دوبريه، ولا كلمات لينين عن الأساس الطبقي (لكي تتعرف على الاشتراكيين، أنظر إلى أيديهم قبل أفواههم) إنما ينبغي قبلئذ الجمع بين (الخط السياسي السليم والخط القتالي السليم) حبش، (لأن أي خط سياسي لا يستطيع أن يعبر عن نفسه بخط عسكري متماسك ودقيق لا يمكن اعتباره خطاً ثورياً)[٢٠٦] تطبيقا لمنظور لينين عن الطبقات والتعلم على السلاح وفنون الانتفاض.

وفي وقت توافرت فيه قيادة مرموقة للثورة الكوبية، حيث تمايز كاسترو بشخصيته الكرزماتية (الذي ربط مصيره واستمراره نهائيا بالحفاظ على المبادئ الثورية والأخلاق الاشتراكية والتضامن والكرامة البروليتارية، ومزاياه القيادية العديدة. فقد تطورت حركة ٢٦ تموز وتجددت، وكذا الحال بالنسبة للحزب الشيوعي لاحقا... إن إعادة بناء الحزب تسير جنباً إلى جنب مع تجديد شبابه... وهو يقطع عهده بفيض اللجان والاجتماعات والسكرتاريات... ناهيكم عن استقلال تاكتيكي للفروع)[٢٠٧]. فالروح العملية هي المحرك بما تتطلبه من إطاحة بالبيروقراطية... استمراراً لروح العصابات في الجبل، حيث، (تتألف الزمرة من ثمانية إلى اثنى عشر مقاتلاً على رأسها ملازم... وتستند ترقية المقاتل إلى شجاعته وكفاءته وروح فدائه)[٢٠٨]. من هنا كتب عن الثورة الكوبية (أنها شجّعت روح الأخوة والمنافسة الشريفة وأن يكون القادة نموذجاً... وهي لا تعطي رتبة لأحد إن لم ينجح في امتحان المعركة)[٢٠٩]، وربط تجنيد الثوار بامكانات الحركة (فليبقَ المتطوعون في الحقل يزرعون) و(إقامة التنظيم المدني للحركة الانتفاضية).

ولكن الشيء الذي يجدر الانتباه له هو موقفها من المرأة وضرورة اشراكها في النضال الثوري

---

٢٠٥) المرجع السابق، ص١٧٩

٢٠٦) جيفارا، المرجع السابق. ص٥٥

٢٠٧) دوبريه، المرجع السابق. ص٢٥، ٢٦

٢٠٨) جيفارا، المرجع السابق. ص٥٥

٢٠٩) التجربة الصينية- الكوبية، مرجع سابق ١١٩، ١٢٤

(فهي تستطيع أن تؤدي (دوراً خارق الأهمية) رغم (الذهنية الاستعمارية التي تستصغر شأنها)، (المرأة رفيقة، تأتي إلى حياة القتال الشاقة بالصفات الخاصة بجنسها، ولكنها مثل الرجل تستطيع العمل والقتال... وهي ليست أقل احتمالا وتستطيع انجاز طائفة من المهام القتالية... والقيام بأعمال الارتباط بين القوى المقاتلة لا سيما منطقة العدو... ونقل الرسائل والمال والأعمال الاستخبارية وتستطيع أن تنجح أكثر من الرجل... وتعليم القراءة والسياسة للفلاحين والجنود الثوريين وتسيير المدارس كجزء من التنظيم المدني والاسعاف الاجتماعي وتلطيف الأعباء الاقتصادية والاجتماعية... ودور الممرضة والطبيبة بلطف لا يدانيها فيه رفيق السلاح الخشن... ناهيكم عن الصناعات الصغيرة... والسماح للأشخاص الذين يتحابون أن يعقدوا قرانهم بعد اداء الشكليات البسيطة التي يقتضيها قانون الغوار في الجبال)[٢١٠].

كما في الميدان الأمني (إن أول مبدأ هو السرية المطلقة وعدم تسريب معلومات للعدو. والمبدأ الثاني هو اختيار الإنسان... وأن لا يعلم أحد مطلقاً أي شيء ليست له ضرورة ماسة وأن لا يثرثر أبداً... على الثوري أن يكون ناسكا... والحكام الطغاة يستخدمون الجاسوسات... وهذا يتطلب الانضباط وعدم إقامة صداقات غير مباحة... (ينبغي أن تكون دائرة الاستخبار على تماس مباشر بجبهة العدو... وأن يتسلل الرجال والنساء لهذه الجبهة)[٢١١] و(أن توضع مجموعات منطقة تحت إمرة قادة من مناطق أخرى... وتنفيذ المهمات بدقة دون توسيع العمليات... والمزيد من الانضباط والتكتم والاختفاء والتنظيم وتكوين اختصاصيين)[٢١٢].

وعن الدور المعنوي والقيادي (ينبغي اعداد القوى من اجل نضالات قاسية بلا تبجح ولا أوهام خادعة وبمستوى معنوي رفيع وانضباطية صارمة وإيمان راسخ بالنصر النهائي والصفات الاستثنائية للقائد... وما كان لاثني عشر رجلاً أن يخلقوا جيشاً لولا هذه الشروط ولأن قائدهم هو فيديل كاسترو «إن النضال هو نضال حياة أو موت» وبكلمات كاسترو (النصر أو الموت).

---

٢١٠) جيفارا، تشي، المرجع السابق ص٧٩، ٨٠
٢١١) جيفارا، المرجع السابق، ص٩٩، ١٠٠
٢١٢) جيفارا، المرجع السابق، ٣٢، ٣٣

٩- لحركة التوبا ماروس بصماتها

نشأت هذه الحركة في الباراغواي في امريكا اللاتينية أواسط الستينات واشتد ساعدها في السبعينات والثمانينات، إنما اجتذبت الأنظار بأعمالها الجريئة وما كتب عنها، ونشريات الجبهة الشعبية استخدمت مراراً وتكراراً احدى مقولاتها (العمل المتكلم.) (فالمبدأ الأساسي هو العمل نفسه، أن تتسلح وأن تتهيأ والقيام بأعمال تضرب مرتكزات البرجوازية... الأعمال الثورية هي التي تخلق الظروف الثورية. والقوى الثورية إما أن تنخرط في الصراع أو تتلاشى)(٢١٣). بما يتقاطع مع مقولة انجلز (تأتي لحظات في التاريخ إما أن تنخرط فيها أو تبقى في معزل) وهذا ما حصل فلسطينيا، وعلى وجه الخصوص، بعد هزيمة حزيران ٦٧، فالقوى التي رفعت راية المقاومة المسلحة غدت فصائل أساسية وقيادة لمنظمة التحرير، أما التي اكتفت بالتحليلات السياسية وإصدار البيانات فكان مآلها التهميش.

والتوباماروس (شبان آمنوا بالثورة المسلحة وسيلة وحيدة للتغيير)(٢١٤) بما يذكرنا بانطلاقة فتح والجبهة الشعبية وميثاق منظمة التحرير (إن حرب الشعب هي الطريق الوحيد للتحرير). وفي عام ١٩٦٣ هاجموا عشرين شاحنة تحمل حبشاً ودجاجاً معداً للساهرين ووزعوها على سكان الأكواخ مما لقي استحساناً شعبياً... ومرت التوباماروس في فترة تمهيدية بين ١٨ – ٢٠ شهراً منذ ولادتها حتى الكتابة على الجدران في المدينة إلى أن باتت كلمة التوباماوس معروفة... وعملياتها في البداية كانت تستهدف ١- الحصول على السلاح والمال. ٢- النفاذ للرأي العام الشعبي لذلك فإنها لم تحرق المراحل، ففي البداية تثبيت وتقوية وتسليح الحركة... لان حزباً لا يتهيأ للكفاح المسلح لا يستطيع أن يقول إنه ثوري). واستطراداً (يجب على قيادة الحزب أن تكون متوافقة مع مبادئها، وان تظهر عمليا تلاحمها وقناعاتها بالنضال المسلح... بأن تعطيه الأهمية وتؤمن له الوسائل الضرورية والتحضير الكامل وان توفر له الضمانات اللازمة وان يكون مجهولاً تماما الجناح العسكري)(٢١٥).

وعليه يمكن استخلاص ثلاثة أركان: الشرط القيادي، الكفاح المسلح، الفترة التمهيدية، والشرط الأول بداهة يخلق الشرطين الأخيرين. واحد القياديين المتخفين شرح المسالة على النحو التالي (لا يمكن القيام بالمهام إذا لم تؤمن القيادة ١- بعد نظر والوسائل الضرورية وان تتلاحم

---

٢١٣) شحادة، عبد الفتاح. التوباماروس (١٩٧٧) دار المسيرة بيروت. ص٦١

٢١٤) المرجع السابق، ص ٧

٢١٥) المرجع السابق، ص٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨

بالنضال ٢- توفير الضمانات الأمنية الضرورية ٣- أن تبني قواعد في الطبقات العمالية وان تكون لديها المقدرة والمرونة) ويضيف (إذا لم نخلق منذ البدء من كل ملتزم عقلية مقاتلة سنصل في النهاية إلى اللاشيء... والصراع المسلح هو عمل تقني يبدأ بالقابلية والإعداد النفسي للمقاتل والتدريب والتطبيق القتالي... وأي عمل ارتجالي يكون ثمنه غاليا ومصيره الفشل)[٢١٦].

والبدايات كانت على غرار التجربة الجزائرية والفلسطينية والفيتنامية والكوبية، (حفنة من الثوار اجتمعوا، شكلوا النواة الرئيسية، وكان عليهم اختيار شكل انطلاق الثورة، أهي ريفية أم من داخل المدن... جاء الجواب أن الريف غير ملائم لاعتصام المقاتلين، وذلك لعدم وجود تضاريس وجبال صعب الوصول إليها...

وعليه، فالجواب هو العمل السري في المدن حيث الكثافة السكانية)[٢١٧] وهذا منطقي، ذلك أن مونتفيديو العاصمة والمدن الأخرى يقطنها غالبية الشعب ٧٨٪ وثمة هجرة متواترة منذ الستينات من الريف إلى المدينة. وهذا انعكس على التركيبة الطبقية للتوباماروس، إذ رغم أنها حركة يسارية غير أنها تزرع امتداداتها في بيئتها الاجتماعية. واستناداً إلى عينة في السجن تبين أن ١٨٪ عمال، ١٣٪ مهن حرة، ٢٩٪ مستخدمون، ٢٧٪ طلبة، ١٣٪ مختلف القطاعات بمن في ذلك عساكر ورجال دين)[٢١٨].

وأول عملية عسكرية رسمية كانت في ١٩٦٩ بمهاجمة مسرح ومصادرة عشرين بندقية مع حرابها وبزات عسكرية كانت مستعارة لاستخدامها في المسرحية... وبعدها انتقلت إلى عمليات ميدانية اشد تعقيداً كمهاجمة مراكز شرطة وسجون وثكنات عسكرية...

وقد أتقنت التوباماروس تزييف الوثائق وأوصاف السيارات واستخدام السلاح والتخطيط والاقتحام... وعلى الدوام (سرية المنظمة وأمنها وصلابة قواعدها التنظيمية واستخدام الأسماء المستعارة وسرية اللقاءات وكادرات مجهولة...)[٢١٩].

وقد (اتبعت في تشكليها الشكل الهرمي، القاعدة من الأعضاء الجدد وفوقها خلايا مكونة من خمسة إلى سبعة أعضاء بأسماء حركية، وأعلى منها قيادة سياسية وقيادة عسكرية... ولدى

---

٢١٦) المرجع السابق، ص٦٧، ٦٥

٢١٧) المرجع السابق، ص٥٢

٢١٨) المرجع السابق، ص٢١٤

٢١٩) المرجع السابق، ص٥٧

المنظمة جهاز أمني... وأي عضو جديد يجري استقصاء طويل ودقيق قبل تزكيته ويخضع لسلسلة من تجارب وتدريبات عسكرية صارمة... والكحول ممنوعة، والرياضة الزامية كما دراسة الكتب العقائدية، وهناك بيوت ومخابئ سرية ومئات المطلوبين...

أما النساء فعديدات داخل المنظمة ومهامهن متنوعة، والكثير من الأعمال الفدائية تمت بقيادة نساء)[٢٢٠].

١٠- بعض ملامح المقاومة في اليونان وفرنسا

حملت اليوميات التي كتبها الموسيقار العالمي ميكيس ثيودوراكيس عن النضال السري ضد الانقلاب العسكري في اليونان نيسان/١٩٦٧، أهمية مباشرة، فهي يوميات حية، من المفيد اقتباس اشارات ذات مغزى لا تختلف في شيء عن أجواء النضال الفلسطيني

(قالت زوجتي: ارتد ملابسك في الحال. سأقوم أنا بحرق الأوراق)، (إنها الديكتاتورية... على الفور بدأت أخطط لتشكيل أول خلية للمقاومة... بدأنا كتابة البيان الأول والاتصال برفاقنا لتوزيع النداء على مناطقهم... جاء فيه: لقد ضربت الفاشية بلادنا، ويعتقد الملك وجنرالاته والاستخبارات الأمريكية أنه بالإمكان إسكات شعبنا بالقوة والعنف... أيها الديموقراطيون اليونانيون... تظاهروا في الشوارع...)..

هناك احتمال كبير لتفتيش المخبأ الذي التجأت له، يجب البحث عن مكان آخر... تعاني زوجتي من مرض القلب... قررت العودة إلى يانيس قبل الفجر، أعرف المنطقة مثل راحة يدي. تنكرت، وضعت شاربا مزيفاً .

ماذا عن قادة الحزب؟ لقد تم اعتقال الغالبية منهم في الساعات الأولى من صبيحة الانقلاب واستطاع بعضهم الافلات والاختفاء... حددنا موعداً لاجتماع قوى المقاومة في ٢٩/ نيسان، ورد ... على التوالي... السؤال الأول: لماذا وصلنا إلى مرحلة الديكتاتورية. الثاني: لماذا لم نتنبأ بما حدث؟... المكتب السياسي في الخارج يتحمل المسؤولية الأولى... نحن في الداخل مسؤولون عن العمل الطليعي، وعلى المكتب السياسي امدادنا بالتوجيهات والرجال... المهمة الآن تنظيم النضال، الرجوع إلى قلب المعركة... إننا بحاجة لمنظمين وقيادة... اقتراح: لتأسيس جبهة وطنية من الشيوعيين وكل الذين يعارضون النظام الديكتارتوري... ضرورة بناء الحزب

٢٢٠) المرجع السابق، ص٥٨، ٥٩

بما ينسجم مع متطلبات الشعب والزمن، إعداد برامج مرحلية وطويلة، تشكيل هيئات للبحوث والدراسة من بين صفوف العمال... يجب أن نولي الشباب اهتماماً كبيراً، وتشكيل أول منظمة للمقاومة في الجامعة... أنهينا الاجتماع في ساعة متاخرة من الليل... تملكنا فرح طاغٍ... ودع الرفاق بعضهم بعضا بالعناق... نزلت، المصعد... السماء تمطر، لم يرني أحد... وصلناً منطقة تكثر فيها الحدائق... ومنها إلى البيت السري... (هذه غرفتك) قالها صاحب المنزل وهو محاط بعائلته... أرجو اعطائي قلماً وبعض الأوراق... أصدرنا صحيفة سرية... أمضيت غالبية الوقت في المطالعة... صاحب البيت اشترى ألواحاً خشبية لإعداد مخبأ لي...

أعد الرفاق سيارة ومكاناً أمنيا فيه رفيق آخر متخفٍ... وكتبنا بيانا جديدا...

في ١٩٤٨ وقف ستالين ضد تيتو، وقفنا مع ستالين، فنحن نؤمن بقادتنا، نتصورهم حكماء أتقياء... كان أؤلئك القادة يتآمرون فيما بينهم ويريد نصفهم الاطاحة بالنصف الآخر... في سنوات لاحقة اتهم قائد الحزب في بث إذاعي عضواً في المكتب السياسي، وقد أعيد الاعتبار له بعد أن قتلته أجهزة الأمن في الزنازين... توصلت مع الرفيق بيتروس أن الحركة أقوى من أية قيادة، وأنها بحاجة لقيادة عظيمة... جاء صوت قائدنا زكارياديس (سنبقى على استعداد لحمل السلاح)... كان حولي عدة ألوف من الرفاق يفكرون ويتطورون وينخرطون في القتال...

راح بعض الرفاق يطلبون مني تزويدهم ببعض الأدوات غير القانونية... أعلنت نفسي جنديا غير نظامي للحركة... كمؤلف موسيقي كان عليَّ تسليح نفسي وتهيئتها لنضال طويل وتوسيع افاقي باستمرار، فالفنان في رآيي يجب أن يكون مطلعا على ميادين واسعة من المعرفة وليس المعرفة الفنية فحسب...

في ٢٨/آيار/٦٧ بدأنا نستعد لأول اضراب شامل في أثينا، وفي تموز فجرنا أول قنبلة، وفي آب نظمنا أول مظاهرة...

جاءتني تعليمات بأن أغادر البلاد... قلت: لا أستطيع. إنهم بحاجة إليَّ هنا. وخطتي هي خلق مقاومة قوية تهز المجلس العسكري...

ما يزال الباب مغلقاً عليَّ طوال الليل والنهار. الحر شديد، النوافذ مغلقة، الهواء الوحيد الذي استنشقه هو ما يجود به مصراعا النافذة...

أمامي جهازا التسجيل اللذان اشتريناهما لتسجيل البيانات والرسائل... أنظم أغاني المقاومة ونرسل التسجيلات للخارج في الحال... ومقطع من إحدى الأغنيات يقول (عندما تكون الشمس متعبة/ قبل أن تشرق بقليل/ ينبثق الشباب الشجعان/ من أماكنهم السرية/ مرة أخرى تدعو الجبهة اليونانيين إلى المعركة/ الحرية أو الموت/ مكتوب على راياتنا/...

سيارة سوداء أبطأت في سيرها، في داخلها من يتطلع إلى المنزل... تكرر الأمر في اليوم التالي... إنهم يتربصون بنا... تبدأ عملية التفكير، أجمع حاجياتي، أجلس على أريكة، لقد تعودت عيناي على الظلمة في القبو... حضرت رفيقة لاخراجي... دبرت المال وأماكن الاختفاء... انتقلت لمنزل آخر بجوار غابة الصنوبر.. الرفيقة مراقبة، أوقفناها عن العمل لفترة وغادرت إلى الريف.. عملنا في المطبعة السرية منذ الفجر.. إننا بحاجة لبعض المواد، وبدأت الكتابة.. الاعتقالات لم تتوقف للرفاق والرفيقات.

في منتصف الليل، طرقات على الباب، جندي صوب مسدسه، مزق بيجامتي، شدوا الوثاق على الرسغين، أصبحت عارياً، خجلت من رفيقة لأنها شاهدتني على هذا النحو، هذا هوميكس، وضعوا قناعاً على رأسي، ضربوني بالعصي على بطني ومعدتي، راحوا يلوون يدي خلف ظهري، تطقطق العظام وتكاد تنكسر، أصبحت في مديرية الأمن، (إن حزبك من وشى بك) لا أصدقاء لي، (لا أحد يقدر على الإطاحة بنا..) كنت سعيداً، فالموت هو الملجأ الأخير.

الحرية ليست هدية إنما شيء يكتسب بالنضال.

أما يوانيدس أحد قادة الحزب الشيوعي وقائد في حركة الأنصار اليونانية في الحرب العالمية الثانية فأنشأ:

(بعد خمسة أيام من دخول الألمان سالونيكا اجتمعت سراً لجنة الحزب الشيوعي وقررت بدء الكفاح المسلح ضد الغزاة. تم الحصول على أسلحة وخلال أسابيع بدأنا بتكوين المجموعات الفدائية.

لم يكن الكفاح ضد الألمان أمراً سهلاً، كان كصعود الجبل، فقد بعثرت الدكتاتورية اليونانية والاحتلال الألماني القوى والتنظيمات في البلاد.

كانت جبهة التحرير اليونانية تضم في البداية الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي وحزب

المزارعين، وقد انضمت تنظيمات وأحزاب أخرى إليها لاحقاً.. وأصبحت عام ١٩٤٢قوة يحسب لها حساب، وأعلنت برنامجها: ١. تحرير اليونان ٢. تأليف حكومة مؤقتة بعد التحرير من العناصر المناوئة للفاشية ٣. معاقبة العملاء ومجرمي الحرب ٤. عدم السماح للملك بالعودة إلى اليونان إلى أن يبت الشعب بأمر الملكية بواسطة استفتاء حر.

كان يتم جمع مئة جثة صباح كل يوم من شوارع أثينا بسبب الجوع، وقامت جبهة التحرير بتوزيع الطعام والمؤن سراً على أهالي المدن وأحياناً تلزم المزارعين الأغنياء بالتنازل عن بعض محصولهم. كما حاربت الجبهة السوق السوداء.

كان يتم تخطيط كل عملية عسكرية ضد الألمان بعناية وسرية وبشكل منفرد، وكان احتمال نجاحها يحسب بدقة.. ودعمت المقاومة المسلحة بوسائل مقاومة سلمية. كان الشعب يقوم بالإضرابات وإفشال جهود الألمان لاستقدام عمال يونانيين للعمل في ألمانيا)[٢٢١].

وربما مفيد هنا سوق نقاط محددة عن المستعمر الفرنسي للجزائر كما جاءت في كتاب حملة الحقائب للفرنسيين هامون وروتمان.

في سعي فرنسا لمحو الهوية العربية للجزائر كما حاولت النازية محو الهوية القومية لمناطق احتلتها، (قال الجندي الفرنسي روبير دافيزي: كنت أعتقد حتى ١٩٥٤ أن فرنسا تمتد على جانبي شواطئ البحر المتوسط وأن من بين سكانها أقلية مسلمة.. أما القانون الذي صادق عليه البرلمان الفرنسي فينص على تشكيل ثلاث محافظات فرنسية على أرض الجزائر توضع تحت إدارة الحكم العام، كما ينص على إقامة مجلس جزائري مكون من هيئتين انتخابيتين الأولى للأوروبيين والنخبة المندمجة معها، والثانية تمثل بقية السكان.

والتحركات الشعبية الجزائرية جوبهت بإطلاق النار والمذابح والتقتيل في الشوارع، وفي المقابل في أواسط أربعينات القرن العشرين، انقسمت حركة الميثاق والحرية التي ضمت نصف مليون عضو وتكونت من تيارات شتى، إلى فرعين، الأول قانوني والآخر سري، وفي ظل الأزمة الداخلية للحركة خرجت مجموعة من المناضلين وشكلت اللجنة الثورية وحددت هدفاً وحيداً لها هو التحضير للثورة المسلحة.. أما المظاهرات العارمة والمذابح الجماعية في مطلع الخمسينات فقد مهدت لولادة جبهة

٢٢١) ثيودو راكس، ميكيس، يوميات المقاومة في اليونان (١٩٧٣) دار ابن خلدون، ص٥٢، ٥٥، ٥٤، ٥٦، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٩، ٩٤، ٩٥، ١٠٥، ١٠٨، ١١٢، ١٣٧، ١٤٤، ١٥٣، ٣٢٨.

التحرير الجزائرية التي زرعت منهجها القتالي في الأرياف ومن ثم في المدن..)[٢٢٢].

وعن التعذيب يقول العريف (لقد رأيت معتقلين يخرجون من الغرفة التي استجوبوا فيها، وقد شوهوا تماماً، ويستحيل التعرف على عيونهم أو أنوفهم، أما رقابهم فكانت متورمة.

في أحد الأيام جرح جندي فرنسي، فقام الجيش بإخراج عشرة رجال جزائريين كرهائن من البيوت والأكواخ وأعدمهم.

وأحد الضباط يقول (لقد رأيت مخابرات المظليين يقومون بالتعذيب طوال اليوم لإجبار المعتقل على الاعتراف، كما رأيت أنابيب المياه المضغوطة تدخل في الفم ويخرج الماء من كل مكان، ورأيت الأيادي مربوطة من الخلف، يعلق منها المعتقل حتى تتفكك أوصاله، ويلصق أحد الشريطين الكهربائيين على العضو التناسلي والآخر على الرأس، ويمرر التيار الكهربائي، وعندما يفرغ المعتقل ما عنده يتلقى خنجراً بين كتفيه.

ويروي جندي احتياطي (إن أفضل وسيلة للتسلية يوم الأحد، هو تعذيب جزائري بدعوى أنه من الثوار، طيلة اليوم، حتى ينتهي به الأمر في حفرة المرحاض بعد أن تفشل محاولة شنقه..

يقول جان مولير: أريد أن أحدثكم عن التعذيب الذي يمارسه عشرات الضباط والمجندين ضد مائة وخمسين معتقلاً خضعوا جميعاً للتعذيب بالتيار الكهربائي على الأعضاء التناسلية والأذنين، أو البقاء تحت الشمس الحارقة في قفص من الحديد أو الركوب عراة على عصا خشبية بعد ربط القدمين واليدين أو الضرب بسوط من عصب الثور أو وضع اليد تحت الضغط على الباب بقوة، إن هذا يحمل اسم الفظاظة والهول.

أما الجنرال ماسو فيقول (إن الشرط الذي لابد منه لنجاح عملنا في الجزائر هو أن نقبل بروحنا وضميرنا أن أساليب التعذيب هي ضرورية ومقبولة أخلاقياً)[٢٢٣].

والتعذيب شمل الفرنسيين أيضاً الذين حاولوا تنظيم صفوفهم تضامناً مع الثورة الجزائرية، ويقول أحدهم:

(اجتمعت لجنة التحرير التأسيسية الأولى في شقة استأجرناها لهذا الغرض، أصدرنا نشرتنا

٢٢٢) هامون، هيري في وروتمان، باتريك، حملة الحقائب (١٩٨١) دار الكلمة، بيروت، ص١٢، ١٤، ٢٤

٢٢٣) المرجع السابق، ص٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠

التي بينت مخاطر الفاشية.. وأن استقلال الجزائريين هووحده الذي يستطيع القضاء على الخطر الفاشي.

واعتقل روجيه وهو يلصق اللافتات واغتيل بنو سعيد واقتيد قبايلي بعد تجريده من ملابسه وربط رجال الشرطة قدمي ثم يدي، وربطوا رسغي بكعبي ومرر جندي ضخم قضيباً معدنياً بين ساقيّ وذراعيّ ومرر التيار الكهربائي في القضيب وفي نفس الوقت كان آخران يضعان المساري في جسدي وفي الفم والشرج وعلى القلب. وفي مرة وضعوا رأسي بين رجلي كرسي وقام مساعدون بتثبيت يدي فيما رئيسهم يضغط على فقراتي الظهرية.. ولكن من قلب الزنازين تتفتح زهرة التفاؤل.

بدأ عام ١٩٦٢، عام السلام، بصوت القنابل، وأحصيت أكثر من ٤١ عملية تفجير في يومين، ونجا ابن جيروم من الموت.

كنا في الزنزانة دافيزي وقبايلي ومصطفى وأنا، وبدأ النور يتلاشى وأشعة الشمس تظهر، ووقع الخبر أخيراً، تم التوقيع على وقف النار، فهمت أن باستطاعة الإنسان أن يصنع التاريخ هنا)[٢٢٤].

١١- ملامح من تجارب سرية كانت على تماس مباشر وتركت بصماتها

١. الحزب الشيوعي الأردني، الذي تشكل من مجموعات لعصبة التحرر الوطني ونويات شيوعية في الأردن، وعرف عنه مطالبته بحرية العمل الحزبي والنقابي منذ أواخر أربعينات القرن العشرين، مما عرضه للملاحقة والاعتقال. وقد انتشرت قصص صموده في الزنازين وسجن الجفر الصحراوي. كتب أحد قادته الدكتور زيادين (في ١٩٥٠ اجتمعنا في القدس ثلاثة أشخاص في دكان أحد الأعضاء وباشرنا بإصدار مجلة سرية يكتبها الرفيق عربي عواد المدرس في بيت لحم آنذاك بخط يده. وكانت زوجتي تلقي محاضرات اجتماعية وسياسية في جمعية الشابات المسيحيات.

التحقت زوجتي بإحدى الخلايا القاعدية السرية وكنا نجتمع لندرس بعض الكتب النظرية والسياسية.

في ١٩٥١ جاءني أحدهم يطلب مني زيارة أحد المرضى، سافرنا بسيارة أجرة إلى نابلس،

---

٢٢٤) المرجع السابق، ص١١٠، ١١٧، ٣٣٨.

في أحد البيوت السرية وجدت أمامي شخصاً طويل القامة مهيب الطلعة يرفع يديه في الهواء وقد اكتسى بالقروح.. جلست إلى حافة سريره المتواضع جداً، وكانت ملاءته مرقعة ولكنها نظيفة ومرتبة وعلى الطاولة العتيقة انتشرت كراسات ومسودات مقالات عرفت أنه أبو خالد (فؤاد نصار) قائد الحزب عندما اعتقل في عمان أوائل ١٩٥٢ مع المطبعة السرية ونشرت الصحف أخباره وصوره. أبقوني للغداء، فجاؤوا بصينية كبيرة فيها الكثير من الأرز والقليل القليل من اللحم. شعرت بالأسى وبعظم التضحية التي يتحملها هؤلاء الرجال، فالطعام قليل والثياب متواضعة، والبيت بارد جداً ودون تدفئة والسجائر من أرخص الأنواع، بالإضافة للمطاردة..)[٢٢٥].

في أواخر ١٩٥١ قررت وكالة الغوث إغلاق مستشفى اوغستا فكتوريا بتحريض من وكيل وزارة الصحة.. في اليوم الثالث أعلنا الاضراب عن الطعام احتجاجاً شارك فيه كل العاملين في المستشفى، وانضم إلينا المرضى ليوم واحد.. بعد أيام من التوترات جاءت الأخبار تعلن عن وقف تنفيذ إغلاق المستشفى.

وفي خريف ١٩٥٢ كلفنا بالمشاركة في مظاهرة في عمان دفاعاً عن الشعب العراقي في انتفاضة تشرين ضد حكم نوري السعيد.. اعتقل الدرك عدداً من النساء وزجهن في سجن مع المومسات اللاتي اعتدين بالضرب على السياسيات بتحريض من إدارة السجن.

بعدها جاءني تكليف للسفر في وفد إلى فيينا لحضور مؤتمر الدفاع عن الشباب وكان أول وفد أردني يخرج للعالم، بعد عودتنا اعتقلنا جميعاً ما عدا زوجتي، وإثر اعتقالي بساعات فصلوني من عملي في المستشفى.

في ١٣/شباط/١٩٥٣ اعتقلت، نصبوا العروسة، وهي صليب من الخشب يربط به السجين ليجلد أمام كل السجناء تأديباً له وإرهاباً للآخرين.

وعن الطعام، كان الغداء مرق عدس عدد الحجار فيه أكثر من العدس، والعشاء فاصوليا مسلوقة، والإفطار قطعة خبز عليها غرامات من الحلاوة الرديئة أو مغموسة بشيء من الزعتر والزيت، وبعد الظهر يخرج السجناء للساحة يقلبون ثيابهم القذرة ويطاردون البق والقمل الذي يمتص دمهم)[٢٢٦].

---

٢٢٥) د. زيادين، يعقوب البدايات، أربعون سنة في الحركة الوطنية (١٩٨٢) منشورات صلاح الدين. ص٤٦، ٤٧، ٤٨

٢٢٦) نفس المرجع، ص٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤

في منتصف ١٩٥٣ وقعنا برقية موجهة للجامعة العربية تطالبها بدفع مليون دينار لليبيا بدلاً من أن تضطر ليبيا إلى تأجير قاعدة طيران للولايات المتحدة. جمعنا التواقيع وطيرناها في نفس الوقت، لكن دون جدوى، فأجرت ليبيا السنوسي القاعدة للأمريكان ولم تلغ إلا بثورة الفاتح من أيلول.

وفي الحملة الانتخابية (كانت لدينا سيارة قديمة استأجرناها ببضعة دنانير في الشهر نركبها ونتجول بها، وكثيراً ما كانت تتعطل. كنا نحمل مكبرات الصوت ونطوف على القرى والمخيمات والورش..) [٢٢٧].

٢. الحزب الشيوعي اللبناني: اتسمت سمعة الحزب في الساحة الفلسطينية بالايجابية سيما بعد المؤتمر الثاني ١٩٦٨ الذي ربط بجدلية محكمة الطبقي بالوطني بالقومي.. ويلخص القيادي جورج بطل على النحو التالي:

(هي مرحلة صراع سياسي تنظيمي بين نهجين، نهج ثوري وآخر انتهازي يقفز من اليمين إلى اليسار ولا يقر له قرار.. ليعود في المؤتمر الثاني ١٩٦٨ إلى أصوله حزباً ثورياً ماركسياً-لينياً، حزباً للطبقة العاملة والكادحين) [٢٢٨].

أما عن الحزب الشيوعي السوري، الذي كانت الامتدادات اللبنانية جزءاً منه، (فقد تأسس في تشرين الأول ١٩٢٤ من خمسة شباب عمال ومثقفين، ولكن تطلعاتهم ورؤاهم كانت أكبر بكثير من حجمهم التنظيمي.

ويؤكد خطار الحلو على الشرط القيادي بالقول (إننا على الدرب بما يعكس خطة صحيحة لوحدة القيادة ولدقة نظرتها وبعد تطلعها.. إننا على الدرب لأننا نملك قيادة مجربة متسلحة بأهداف وآمال مؤسسي حزبنا.

ويشد الأنظار لقائد الحزب فرج الحلو (بعد دورة لمدة سنة في موسكو لدراسة اللينينية والاقتصاد السياسي، عاد فرج الله الحلو وطاف في عشرين قرية.

في هذه الأثناء أصبح فرج الله الحلو قائداً فعلياً للشيوعيين اللبنانيين، حيث أولى العمل في

---

٢٢٧) نفس المرجع، ٥٤، ٦١

٢٢٨) الحلو، يوسف خطار. الدرب والرفاق. (١٩٨٠) دار الفارابي، ص٦

أوساط العمال والفلاحين والمثقفين جهداً مميزاً فاتسع التنظيم الحزبي ونشأت فرق ومنظمات شيوعية في أحياء بيروت والمناطق القروية في الجنوب والبقاع والجبل والشمال.

واظب على الكتابة في جريدة صوت الشعب وكان لمقالاته أثر بالغ الأهمية في الوسط الوطني. كان خطيباً مفوهاً يقنع سامعه، بطرح قضايا على أساس علمي ومنطقي.

أمضى واحداً وعشرون شهراً في السجن، ومثلما كان قائداً خارج السجن، كان قائداً ومربياً داخل السجن.. بعد الخروج عام ١٩٤١، كانت المهمة إعادة تنظيم الحزب وتوسيع منظماته.. وتحت قيادة فرج الله الحلو حقق الحزب الكثير من المهمات، وفي مؤتمر ١٩٤٣ كان لفرج الله دورٌ بارزٌ) ([٢٢٩]).

وعن حياة التخفي (بسبب ظروف السرية، بعد انتقاله لدمشق في العام ١٩٥٤، ابتعد فرج الله الحلو عن عائلته وما كان ليتمكن من رؤيتها إلا مرة كل ستة أشهر.

ويتميز فرج الله الحلو بصلابة لا حدود لها.. في كل سلوكه كان مربياً، يدفع رفاقه للعمل وإذا أخطؤوا نبههم وافهمهم بطول أناة.. لم يدخن واكره ما يكون عليه الإفراط في التدخين وكثافة الدخان في الاجتماعات.. أنيقاً في مظهره، مهذباً في محادثاته، صارماً في تطبيق القوانين والقرارات الحزبية، حريصاً على القيام بواجباته الاجتماعية.. اشتهر بسمو أخلاقه، صاحب رأي مستقل يبديه دون وجل ولطالما سبب له ذلك المصاعب.

لقد أزيح عن قيادة الحزب بأساليب اعتباطية بما يعكس خلافات سياسية حول القضية الفلسطينية وقرار التقسيم ١٩٤٧، وفرج الله كتب عدة مقالات ضد قرار التقسيم، وجريدة صوت الشعب ناهضت التقسيم.

كان فرج الله مدرسة ماركسية لينينية صادقة، التف حولها عشرات الألوف من أبناء شعبنا.. صدر قرار بذهابه إلى دمشق، وحاول أن يقنع الرفاق بالعكس..) ([٢٣٠])، ذهب وقتل في السجن بما يحيلنا إلى الثورة الايرلندية واغتيال قائد استقلال الجنوب من قبل رفاقه والمحاكمات السوفييتية في فترة الثلاثينات، واغتيال علي بن أبي طالب وصراعه مع الأمويين.

---

٢٢٩) المرجع السابق، ص١٠، ١٣، ٢٧، ٣٢، ٣٣

٢٣٠) المرجع السابق، ص٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤٧

ويكثف خطار الحلو بعض دروس الحرب الأهلية في لبنان ١٩٥٨ (تحركت قوات الدرك المزودة بالمصفحات والرشاشات بناء على خطة مدبرة من حكومة العصابات.. لم تنطلق رصاصة من أبناء الشعب، تم اغتيال نسيب المتني من أبرز رجالات الحركة الوطنية.. اندلعت انتفاضة مسلحة عفوية، اشترك حزبنا ولم يكن لدينا سلاح، سوى بندقية اشتريناها وشاركنا كرفاق في الانتفاضة)[٢٣١]، بما يذكر بكلمات لينين (البرجوازية أول من يضع الحراب على رأس الأجندة) و(في الزمن الرمادي يتم البناء وفي الزمن المكثف نصنع التاريخ).

واستطراداً، نسوق ما كتبه القيادي في الحزب الشيوعي كريم مروة في أثناء احتلال الصهاينة لبيروت ١٩٨٢، ورؤية الحزب ودوره وما طرأ على إمكاناته.. (لقد طرحنا شعار التحرير، فهو الشعار الواقعي الحقيقي الوحيد وليس المفاوضات تحت أية صيغة من الصيغ، وذلك يعني أن ملف الصراع مع العدو الإسرائيلي سيظل مفتوحاً في لبنان كجزء من الصراع العام العربي الإسرائيلي.. وعلاقة التجربة النضالية اللبنانية الحية بواقع حركة التحرر الوطني العربية.. فما ندعو إليه هو نشوء حركة ثورية عربية من نوع جديد)[٢٣٢].

ويستطرد (إنني أدعو كل المعنيين بموضوع المقاومة، ممن أسهموا في تأسيس نواتها الأولى وممن شاركوا ويشاركون في نضالها إلى نقاش غني يكون مثقفاً للجماهير مسهماً في تعميق وعيها الوطني الديمقراطي وان يجري بحرية كاملة وفي ظل أقصى الديمقراطية.. الصدق والصراحة هما اللذان رافقا بأمانة محاولتي في هذا الكتاب عن المقاومة)[٢٣٣].

وفي اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني في آذار/١٩٨٢ قلنا أن اجتياحاً كبيراً لم نشهد له مثيلاً سيحصل وسيصل الإسرائيليون إلى أبواب بيروت وسيحاولون احتلالها.. لم يكن هذا الذي قاله الرفيق جورج حاوي أمين عام الحزب في تقريره معلومات يملكها، كان نوعاً من التقدير السياسي.. أعلن الاستنفار العام في صفوف الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية خلال شهر نيسان ١٩٨٢ وحملة تعبئة سياسية وحملة إعداد للمقاومة.

لم يكن مقبولاً أن يكون الجواب على الاجتياح أولاً، ثم على حصار بيروت بغير هذا النوع من الصمود. أي سلوك آخر سيعني الموت، الاستسلام لإرادة الغزاة.

---

٢٣١) المرجع السابق ص٤٨

٢٣٢) مروة، كريم، المقاومة اللبنانية (١٩٨٥) ودار الفارابي، ص٨٠٧

٢٣٣) المرجع السابق، ص١٠

الغازي الإسرائيلي، برغم وحشية آلته العسكرية المدمرة، دفع ثمناً باهظاً لاجتياحه ولحصار بيروت)[٢٣٤].

وعن العملية الأولى التي أعلنت عن انطلاق المقاومة الوطنية اللبنانية: نفذها ثلاثة رفاق، توجهوا إلى منزل الرفيقة.. كان واحد منهم يعلم، كان المطلوب قاذف بـ ٧ ورشاش.. لم يتوافر السلاح.. استطلع هدف آخر.. تم تمويه الوجوه، تقدم اثنان وألقيا قنبلتين على الحاجز الإسرائيلي وانسحبا عدواً بسرعة. كانت جبهة المقاومة جبهة بالمعنى الدقيق للكلمة، تجمعاً واعياً ومنظماً للقوى.. وكانت القوى الديمقراطية، وفي مقدمتها الشيوعيون، هي التي اضطلعت بمهمة الكفاح في المرحلة الأولى من انطلاق جبهة المقاومة.. وتقتضي الأمانة الإشادة بالدور الذي اضطلعت به فصائل الثورة الفلسطينية والجبهة الشعبية قبل سواها، في مسيرة الكفاح دون أن تعلن عن عملياتها)[٢٣٥].

و(كانت الكمائن هي من أبرز العمليات وأكثرها جرأة.. والتفجيرات سواء عمليات استشهادية أو بوسائط فنية، وهناك انتفاضات القرى بمشاركة فئات اجتماعية مختلفة ومن قوى سياسية متعددة، وأحياناً شملت سكان القرى بكاملها ومشاركة رجال دين.

لم يكن للمقاومة أن تستمر وأن تحرر الأرض، لو لم يكن مقاتلوها مناضلين من طراز خاص، ثواراً من نوع جديد، لو لم يكونوا أبطالاً حقيقيين. قاموا بأعمال بطولية لا حدود للشجاعة فيها، أبطال أعطوا كل ما يملكون.

أجل، تم تحرير الجبل وانتفضت بيروت...

وكون المقاومة تصدت لمهمة أساسية لها الأولوية، مهمة تحرير الأرض من الاحتلال، أصبحت محور اهتمام كل أوساط الشعب اللبناني، فهي قد أعادت الاعتبار للوطنية اللبنانية.

وأول درس ينبغي استخلاصه من هذه الحرب أن إسرائيل عاجزة عن تحقيق أهدافها البعيدة من الاجتياح، وضعفت قدرتها على العمل مما اضطرها للانسحاب دون شروط.. لقد سقطت الأسطورة.

---

٢٣٤) المرجع السابق، ص١٤، ١٥، ١٦، ١٨.

٢٣٥) المرجع السابق، ص٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٣.

قبل أن تصبح المقاومة اللبنانية ظاهرة ثورية لبنانية تحظى باهتمام واسع، كان يجري نقاش حول جدواها.. لقد تحولت المقاومة لثورة وإرادة حقيقة للتحرير، فانتهى بذلك الجدل العقيم) [٢٣٦].

ويستخلص في الفكر النظري انسجاماً مع كلمات جورج حاوي (لا أبالغ إذا قلت أن بعض فصول المقاومة اللبنانية سيتضمن دون شك إضافات هامة للتراث الثوري في مجال التنظيم والعمل العسكري وسواهما..

وعليه (إذا كان المقصود بثقافة المقاومة، النظرية الثورية الخاصة بحرب الأنصار، فإن هذا الفكر لا ينشأ بمعزل عن الممارسة، ولا يتخذ شكله المحدد ومحتواه إلا بالارتباط بالممارسة.

بما يتناغم مع كلمات انجلز (إن الانتفاضة مثل الحرب، مثل سائر الفنون، وهي تخضع لقواعد معينة.. ينبغي إحراز انجازات كل يوم، حتى لو كانت صغيرة، ينبغي الاحتفاظ بالتفوق المعنوي، الجرأة، الجرأة، وأيضاً الجرأة) [٢٣٧].

ولكن لندع سهى بشارة التي اشتهر اسمها بعد أن حاولت تصفية الجنرال أنطوان لحد قائد الجيش الجنوبي الذي تعاون مع قوات الاحتلال الإسرائيلي، لما تمثله من معانٍ. كتبت (إن الالتزام بالمقاومة ممكن، وإلى حد التضحية بالنفس أحياناً.. لقد عانيت الكثير لكي يتحقق هذا الطموح، شاركت مشاركة نشطة في الحملة التي أدت إلى إسقاط اتفاق العار أيار/١٩٨٣.. لكن كل محاولاتي الأولى للاتصال بالمقاومين كانت تبوء بالفشل.

في اليوم الموعود توجهت إلى أحد الأبنية في بيروت الغربية.. رجل طويل القامة وسيمٌ، أربعيني.

بدا كتوماً.. سألني محدثي عن قراءاتي.. توسعت النقاشات..

تم ربطي باتصال آخر، والإشارة كانت أن أحمل في يدي مجلة نسائية... كلفت بمهام في المنطقة المحتلة.

في الحالتين «مازن» «وأحمد»هما اسمان مستعاران، و«أحمد» علمني الوقاية من المخاطر والحذر والعمل بسرية تامة.

---

٢٣٦) المرجع السابق، ص٣٥، ٤٠، ٤٤، ٩٨، ١٢٤، ١٧١، ١٧٢

٢٣٧) المرجع السابق، ص٦، ٢١٤، ٢١٦

جاءت اللحظة.. قبضت بيمناي على أخمص المسدس وببرودة أعصاب صوبت نحو قائد الميليشيا وأسندت معصمي بيسراي، صوبت نحو القلب وأطلقت، وأطلقت ثانية)[٢٣٨].

٣. الحزب الشيوعي العراقي: عرفت الساحة الفلسطينية اسم فهد (يوسف سلمان) قائد الحزب الشيوعي، مبكراً وهو شأن فرج الحلو ذهب شهيداً لقناعاته وصلابته، وكان عموم الناس يرددون الحكايا عنهما. وكتب القيادي زكي خيري (يخوض حزبنا أوجه النضال الثلاثة: السياسي والفكري والاقتصادي من أجل الانتصار النهائي للثورة الاجتماعية.. وقد لعب فهد الدور الرئيسي في تأسيسه وتوطيد نظامه وبناء كيانه وتثقيفه بالماركسية-اللينينية وتشريبه بالروح الأممية البروليتارية وتصليبه بالتقاليد الثورية.

جعل فهد تحرير فلسطين هدفاً أساسياً من أهداف حركة التحرر العربية.. وشخّص الوحدة العربية بأنها وحدة الشعوب العربية وليس وحدة الحكومات التي لا تمثل مصالح شعوبها)[٢٣٩].

وفي كتابه «حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية» يشرح فهد على النحو التالي (أخذ الحزب على عاتقه أن يرفع وعي الجماهير الكادحة وأن يهيئ الطبقة العاملة الفتية لتكون الأساس في بنائه ونضاله.. وهو ينتقد الميول البرجوازية الصغيرة بالقول: إنهم يبغضون الانضباط الحزبي والتنظيم الحديدي، أي الشرطان الأساسيان اللذان يحافظان على الحزب من عبث العابثين وتخريبات الانتهازيين وهجمات المعادين، شرطان لا تحتملهما أعصاب البرجوازية الصغيرة.

إن التنظيم يتطور وينمو ويتكامل وفق قوانين الديالكتيك، كلما تطورت الحركة وتكاملت، وهو ككل شيء في الكون والمجتمع متحرك وغير منفصل عن الظروف المحيطة به. وهو يتكيف مع النظرية الثورية وخططها.)[٢٤٠]

ويختم بالقول عن دور القيادة (ودون حزب كالحزب البلشفي ودون قيادة لينينية وكالينية وستالينية وفرونزا دون قيادة الحزب، ما استطاعت البروليتاريا الروسية بلوغ هدفها ولما استطاعت دحر جيوش الفاشية)[٢٤١].

---

٢٣٨) بشارة، سهى، مقاومة (٢٠٠٠) دار الساقي. ص٩٤، ٩٥، ٩٨، ١٠٧، ١٣٢

٢٣٩) مؤلفات فهد، إصدار الحزب الشيوعي العراقي (١٩٧٤) ص ح،ط،م

٢٤٠) المرجع السابق ص٩، ١١، ٢٠، ٢٣

٢٤١) المرجع السابق ص ٢٠

وعن العمل العلني والعمل السري أنشأ (تمشي الأحزاب العلنية على قاعدة المركزية الديمقراطية، فتسند المسؤوليات إلى أشخاص ينتخبون من القاعدة إلى القمة.. والمؤتمر ينتخب اللجنة المركزية والأمين العام ولجنة الرقابة.

أما الحزب السري فيأخذ بقاعدة المركزية الديمقراطية بالقدر الذي تسمح به الظروف التي فرضت السرية، ومن نتائجها عدم معرفة أعضاء الحزب بعضهم البعض إلا بصورة ضيقة وعدم معرفة الرفيق ما يقوم به الرفيق في خلية أخرى.. وقاعدة التنظيم السري موزعة على خلايا ومنظم اللجنة (الكادرية) ترشحه أو تعينه الهيئة الأعلى وللجنة التصويت له أو رفضه.. ويتقدم المنظمون في مراكزهم الحزبية حسب نشاطهم ووعيهم.. ومن الصعوبات التي تعترض عقد مؤتمر الحزب السري ١. خطر الشرطة ٢. انكشاف المندوبين بعضهم على بعض ٣. عدم إمكانية حضور القادة البارزين لوجودهم في السجون أو المهجر. أما الثرثرة لعقد المؤتمر فغرضها فضح أعضاء الحزب العاملين وإرسالهم للسجون ليتسنى للانتهازيين تزعم الحركة)[٢٤٢].

وعن التربية أنشأ (أن يكون الكادر ثورياً محترفاً يشتم رائحة الخطر قبل وقوعه كأن يكون ذكياً يتخلص من شراك الدرك والضحك على ذقونهم، أن لا يخاف التضحية مؤمناً بطبقته وحزبه وشعبه، وثيق الصلة بالجماهير ومحبوباً في محيطه، وأن تكون له معرفة نسبية بكل شيء وقوى أعدائه وتناقضاتهم والعوامل الاقتصادية وما يشتق عنها من عوامل سياسية وحقوقية ودينية تسيّر الطبقات.. إن الأحزاب الثورية السرية اشد احتياجاً لهذا الكادر..

على حزبنا خلق الكادر وتربيته وتثقيفه وتوفير الأدبيات الثورية المرتبطة بظروفنا وتسليح الكادر بالنظرية الثورية.

والماركسية ليست وصفة جاهزة.. على كادرنا أن يتعلم كيف يقرن النظرية بالعمل الثوري وأن يتذكر أن الماركسية-اللينينية ليست «إلياذه» تُغَنّى على الربابة، إنها دليل عمل وضعت للحياة..)[٢٤٣]

ويستطرد (فيما يخص المقررات كتمان كل قرار أو مناقشة أو إجراءات.. كل ما من شأنه أن يكشف ويضر بتشكيلات الحزب أو كادره وأعضائه ونشاطه في الحاضر والمستقبل.

---

٢٤٢) المرجع السابق ص. ٣٧، ٣٨، ٣٩

٢٤٣) المرجع السابق، ص٤٩، ٥٠، ٥١

وفي رسالته لرفيق جديد يبسّط قضايا كبرى (أيها الرفيق أحب شعبك ووطنك وكن في مقدمة المناضلين من أجل حريتهما وليكن لك إيمان راسخ بقدرة شعبك على تحرير نفسه وانبعاثه. أحب الطبقة العاملة وسر مع الطليعة الواعية المناضلة في سبيل أهدافها. أيها الرفيق إكره الفاشية كرهاً صادقاً وحارب عملاءها ومروجي دعايتها. حارب الانتهازية لأنها في الحركة الوطنية مطيّة للإمبريالية وفي الحركة العمالية مطية للرجعية المحلية.. ودافع عن حرية الفكر)[٢٤٤].

حزب الله والقائد حسن نصر الله

منذ البدء ينبغي اقتباس ما يلي (إن قيادة حزب الله ضربت أروع الأمثلة في إدارة دفة المعركة.. فقيادة حزب الله شكلت قدوة ونموذجاً.. أدارت المعركة السياسية والعسكرية بإخلاص وحنكة وحكمة، وهي تنتمي مع عائلاتها لجمهور المقاومة.. وسريتها وكفاءتها مكنت الحزب من التصدي للاحتلال.. وما كان ذلك ليكون إلا بفضل وجود قيادة ناضجة تمسك بخيوط العمل القيادي)[٢٤٥]

وفي نفس الاتجاه كتب حسن حمادة (يبقى للقائد الدور البارز.. وبالنظر لأهمية الشخصيات القيادية.. وندرة توفرها من جهة وتأثيرها الكبير في تحقيق النصر من جهة أخرى)[٢٤٦]

ويستطرد (إن أحد أهم أسرار انتصار حزب الله كان وسيبقى هو السرية الشديدة)[٢٤٧] أما كواملة فكتب ــــ جنود حزب الله لا يظهرون في الشوارع ولا يظهرون سلاحهم.. إن سرية حزب الله جعلت العدو يخطئ في كل تقديراته)[٢٤٨].

وعليه، ثمة شرطان كبيران، الشرط القيادي والسرية. وهذا يؤكد عليه القائد نعيم قاسم بالعودة لسنوات السبعينات حيث راحت الأضواء تتسلط على ثلاثة من هؤلاء العلماء، الإمام موسى الصدر الذي أسس حركة المحرومين، وآية الله محمد شمس الدين، الذي تميز بباعه الفكري، وآية الله السيد محمد حسين فضل الله الذي اهتم بالعمل الثقافي، وكان رمزاً لحزب الله ويلقي الكلمات في أغلب المهرجانات.

بل تعتبر السرية في العمل الجهادي أساس النجاح في الميدان، فعنصر المباغتة يحقق أفضل

---

٢٤٤) المرجع السابق ص٤٠٥

٢٤٥) كواملة، محمد. مقاومة وتحرير (٢٠٠٧) ص٢٨، ٢٩

٢٤٦) حمادة، حسن، سر الانتصار، دار الهادي، ص١٥١

٢٤٧) حمادة، المرجع السابق، ص١١١

٢٤٨) كواملة، المرجع السابق، ص٢٥

الأهداف وبأقل الخسائر.. ولم يكن من ضرورة لبروز السلاح في المراكز العسكرية في الخطوط الخلفية)[٢٤٩].

أما الدكتور رفعت السعيد فيتحدث عن بدايات حزب الله بالقول (لم تكن النشأة الأولى شيئاً هيناً.. لقد اعتمدت على الروح المعنوية المستمدة من الإلهام الروحي والتدريبات العسكرية القاسية، والتعبئة الفكرية التي وضعت نصب أعينها إزالة إسرائيل)[٢٥٠]

بالإفادة من تدريبات الحرس الثوري الإيراني في البقاع اللبناني (عندما قاتلت المجموعة الجيش الإسرائيلي على مشارف الضاحية الجنوبية (خلدة) عام ١٩٨٢ إضافة إلى مجموعة المساجد والحسينيات التقوا جميعاً في معسكرات التدريب التي كان يشرف عليها الحرس الثوري الإيراني في البقاع. كانت بسيطة دون إطار تنظيمي أو قيادة موحدة، قوة تشكل لها تنظيم سياسي)[٢٥١]

ومعروف أن العدوانية الإسرائيلية استباحت لبنان على امتداد السنين، وقد اختارت ذريعة واهية حينما أطلق مسلحون النار على السفير الإسرائيلي في لندن ١٩٨٢/٦/٣ لاجتياح لبنان في عملية (سلامة الجليل) بغية (تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير وتمرير الحكم الذاتي) شارون، وبعد ٣٥ جولة مفاوضات وقع اتفاق أيار/١٩٨٣ «الذي ينهي حالة الحرب بين لبنان وإسرائيل وإنشاء منطقة أمنية في الجنوب وتولي السلطات اللبنانية تدابير أمنية لكشف النشاطات العدائية».

ولكن بعد تفجيرين استشهاديين في ١٩٨٣/١١/١٣ سقط فيهما ٢٤١ جندياً أمريكياً و٥٨ جندياً فرنسياً انسحبت متعددة الجنسيات دون قيد أو شرط ليقوم مجلس الوزراء اللبناني في ٥/ آذار/١٩٨٤ بإلغاء اتفاق أيار. ويقول الشيخ قاسم (تم تفجير مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور، كعملية استشهادية نفذها أحمد قصير، ولم تعلن المقاومة مسؤوليتها عنها لكي لا يتم اكتشاف التنظيم قبل اكتمال بنائه)[٢٥٢] إذ توحدت هنا ثلاثة عناصر: عملية فدائية/ السرية/ التوقيت.

---

٢٤٩) قاسم، نعيم. جزب الله (ص....٩٦، ٩٨

٢٥٠) د. سيد أحمد، رفعت. (ثائر من الجنوب، حسن نصر الله) (٢٠٠٦) دار الكتاب العربي، ص٣١

٢٥١) المرجع السابق، ص٢٨

٢٥٢) نعيم قاسم، المرجع السابق. ص٢٩

وهو يستطرد في اعتماد عنصر التوقيت تفسيراً لتأخر حزب الله في الانخراط في «العملية السياسية» بالقول ١ - التركيز على الإعداد العسكري في الفترة التأسيسية ٢. السرية التي طبعت تلك الفترة، فالعمل المقاوم يتطلب إعداداً تحت الأرض ٣. التخوف في بداية الأمر من ضياع المقاومة ٤. الرغبة باستقرار خصوصية الحزب ووضوح أهدافه نظرياً وعملياً). (٢٥٣)

ورسالة الحزب المفتوحة عام ١٩٨٣ حددت معسكر الإعداء (بأن أول جذور المنكر أمريكا.. ولا نرضى الظلم والعدوان والمهانة وأن أمريكا وحلفاءها من دول حلف شمال الأطلسي والكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين الإسلامية المقدسة، كل هؤلاء مارسوا العدوان علينا ويعملون لإذلالنا. لقد ذبح الإسرائيليون والكتائب عدة آلاف من أبنائنا وأطفالنا ونسائنا وإخواننا في صبرا وشاتيلا في ليلة واحدة.. مئة ألف ضحية هو العدد التقريبي لجرائم أمريكا وإسرائيل والكتائب فينا.. لقد وصل الجزار بشير الجميل إلى سدة الرئاسة مستعيناً بإسرائيل وبالنفطيين العرب وبالزعماء المستزلمين للكتائب.

وتحدد أهداف الحزب (أهدافنا في لبنان أن تخرج إسرائيل كلياً من لبنان كمقدمة لإزالتها نهائياً من الوجود، وأن تخرج أمريكا وفرنسا وحلفاؤهما من لبنان) (٢٥٤).

وفي بيان ١٦/شباط/١٩٨٥ جاء (إننا مقتنعون بالإسلام عقيدة ونظاماً، فكراً وعملاً وندعو الجميع للاحتكام لشريعته.. والحد الأدنى إنقاذ لبنان من التبعية للغرب أو الشرق وطرد الاحتلال الصهيوني.. لا الرأسمالية الغربية ولا الاشتراكية الشرقية نجحتا في إرساء قواعد المجتمع العادل.. في لبنان وفلسطين إننا معنيون بمواجهة أمريكا بشكل رئيسي وكذلك إسرائيل ربيبة الصهيونية العالمية.. إسرائيل رأس الحربة الأمريكية في عالمنا الإسلامي، ونرفض كل مشروع يتضمن اعترافاً ولو ضمنياً بالكيان الصهيوني.. إن مقاتلة إسرائيل هي مسؤولية كل المسلمين.. أما الأنظمة العربية المستسلمة، فهي أنظمة عاجزة وقاصرة ولا تستطيع أن تفكر بمواجهة الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين لأنها نشأت في ظل وصاية استعمارية) (٢٥٥)

ويؤكد الحزب (إن إسرائيل شر مطلق وجسم غريب، ولبنان دولة مواجهة، ومن الضروري الاستعداد للمعركة المحتومة..

---

٢٥٣) المرجع السابق، ص١١٠

٢٥٤) د. السعيد، مرجع سابق، ص٣٧، ٣٨، ٣٩

٢٥٥) المرجع السابق، ص٤١-٤٦

أما الأمين العام حسن نصر الله فأضاء زاوية أخرى بالقول (علينا الاعتراف أن حزبنا أكبر من الطائفة.. إننا مشروع قومي لا تنتهي أهدافنا عند حدود لبنان مع فلسطين)[٢٥٦]

وعن الوضعية السياسية، حسب الدكتور السعيد «إن المقاومة الفلسطينية كانت في أسوأ حالاتها بعد استنزافها في مستنقع الحرب الأهلية اللبنانية، وبعد صدامها مع سوريا، وأن الكادرات المتقدمة ذهبت في مناصب دبلوماسية ووظائف وهمية ومخصصات ضخمة بغية استرضائها.. وبالنتيجة أخرج الاجتياح الإسرائيلي قوات المقاومة من معظم لبنان، عدا الشمال وبعلبك. وإن سوريا خرجت من حرب ١٩٨٢ مثخنة بالجراح، فيما إسرائيل نصبت بدباباتها بشير الجميل رئيساً للبنان، والذي قتل بعد أيام، وجاء القرار الدولي لينص على إنزال قوات أطلسية في لبنان.. الشيوعيون والقوميون باشروا المقاومة.. وتم تفجير قيادة المارينز ومقر الكتيبة الفرنسية..

(وعلى امتداد ثلاث سنوات بين ١٩٨٢-١٩٨٥ تنامى تنظيم حزب الله برجاله حسني التدريب والحريصين على السرية وعدم الظهور العلني.. وكان للحزب نشاطات اجتماعية واسعة جداً ومؤسسات قوية في حقول التربية والمساعدات الاجتماعية، إضافة إلى مؤسساته الإعلامية الهائلة النشاط.. وهناك مؤسسة جهاد البناء التي لعبت دوراً رئيسياً في إعادة بناء ما تهدم في الجنوب بعد الاجتياح الإسرائيلي ومؤسسة الشهيد وو..)[٢٥٧]

وبعد الشيخ الطفيلي قاد الحزب عباس موسوي الذي استشهد في ١٩٩٢/٢/١٦ بما دفع الحزب للرد بعشرات صواريخ الكاتيوشا لأول مرة على المستوطنات الشمالية.. تلاها «عملية تصفية الحساب» في تموز ١٩٩٣ بغية نزع سلاح حزب الله وتصفية بنيته التحتية والضغط على الحكومة اللبنانية لاتخاذ إجراءات ضد المقاومة، وقد صاحب هذه العملية غارات جوية على بيروت والبقاع ونزوح ٢٠٠ ألف لبناني.. وفي المقابل رد صاروخي من حزب الله مقروناً بسلسلة عمليات فدائية.. فهو قادر على الرد، إلى أن تم تفاهم شفوي في ٣١/تموز بوقف تبادل إطلاق النار واعتراف رابين في ٨/١٩ (إنني أأسف لأن حزب الله تغلب علينا)..

وبعد الشهيد الموسوي انتخب حسن نصر الله أميناً عاماً للحزب وبذلك دخل مرحلة نوعية جديدة تتوجت بانتصار ٢٠٠٠ وفشل العدوان التدميري في تموز ٢٠٠٦ وصعد نجم نصر الله الذي بات بشخصيته الكرزماتية القائد الفعلي للمقاومة اللبنانية والقائد السياسي والمعنوي للمقاومة

---

٢٥٦) المرجع السابق ص٦١، ٧٧

٢٥٧) المرجع السابق، ص٩٢، ٩٣، ٩٤

العربية، ليحظى بتأييد شعبي جارف في الساحة العربية وبشكل أخص في الساحة الفلسطينية.

وسوف يتبين في سياق الرسالة كيف حضرت كثرة كثيرة من خلاصات ودروس التجارب آنفة الذكر، في مسيرة عمل الجبهة، مرحلة التراكم والصعود.

الباب الثاني

رؤوس أقلام في العامل الموضوعي

باحتلال الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، إنما (تشتت الفلسطينيون مرة أخرى، حيث نزح قسم إلى الأردن فيما قسم من أهالي الضفة وغزة كانوا خارجهما ولم تسمح لهم سلطات الاحتلال بالعودة فانقطعوا عن ذويهم)[٢٥٨] وبذلك (اختفت عن الساحة الفلسطينية في الأراضي المحتلة أية قيادة سواء كانت سياسية أو إدارية أو اجتماعية، فقد تعطلت القيادات الأردنية بسبب نزوحها أو بسبب فقدانها لمقومات القيادة بعد الاحتلال، كما اختفت القيادات الفلسطينية الناشئة التي أوجدتها منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت ملاحقة من الحكومة الأردنية.. ولكن سرعان ما استعاد الفلسطينيون نشاطهم وأخذوا بتشكيل قيادات سرية وعلنية... ومن أسرع التنظيمات المهنية إنشاء إتحاد المعلمين.. فيما أسس الشيخ عبد الحميد السائح الهيئة الإسلامية ولجنة التوجيه الوطني الأولى عام ٦٧)[٢٥٩]

هذا الزلزال سبقه حسب الدكتور سمارة (أن قرر النظام الهاشمي منذ البداية امتصاص الشخصية الوطنية الفلسطينية وفرض الجنسية الأردنية على الشعب الفلسطيني، والشيء نفسه فعلته إسرائيل مع الأقلية الفلسطينية التي بقيت في أراضيها)[٢٦٠]، بل (ومارس النظام الأردني تمييزاً اقتصادياً واضحاً تجاه الضفة الغربية بأن فرض على المؤسسات الصناعية التي يتعدى رأسمالها ١٠ آلاف دينار أن تقام في الضفة الشرقية.. ولم تختلف سياسة النظام في الزراعة حيث لم يقدم أية تسهيلات.

أما البطالة فهي في الضفة الغربية أكبر مما هي في الضفة الشرقية... وعن قطاع غزة فقد تحول لبؤرة تهريب ونمت فيه شريحة المنتفعين وأشباه الباشوات مقابل إفقار الشرائح الأكبر من الناس)[٢٦١]

وتضيف الدكتورة تراكي (إذا نظرنا إلى نظام السيطرة الإسرائيلي الذي أنشئ في الضفة وغزة في سنة ١٩٦٧، بمنظور تاريخي، نرى أنه يشكل من الناحية الفعلية امتداداً للمشروع الصهيوني

---

٢٥٨) علقم، نبيل. تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية (٢٠٠٥) انعاش الأسرة-البيرة ص١٤٤

٢٥٩) المرجع السابق. ص١٥٥

٢٦٠) د. سمارة، عادل اقتصاديات الجوع في الضفة والقطاع (١٩٧٩) منشورات مفتاح، ص٥

٢٦١) د.سمارة، احتجاز التطور (١٩٨٧) مكتب الحياة، ص١٠٦٩

في فلسطين)[٢٦٢]. وهذا تجلى أكثر ما تجلى في فرض القوانين العسكرية وملاحقة المقاومة وبناء المستعمرات اليهودية في إطار رؤية إستراتيجية لتنفيذ تطهير عرقي للفلسطينيين وتهويد فلسطين. ويسوق الدكتور سمارة السياسة الإسرائيلية في الضفة وغزة على النحو التالي:

١. الاستيلاء على أكبر مساحة من الأرض ٢. تدمير القاعدة الإنتاجية وإغلاق فرص النمو ٣. التبديد الطبقي من خلال امتصاص وربط كل طبقة على حدة بعجلة الاقتصاد الإسرائيلي واستغلال مضاعف لليد العاملة الفلسطينية (فائض إنتاج العامل وفائض من تدني الأجرة وفائض عدم تأمين ضمانات وفائض من خلال اضطرار الفلسطيني لاستهلاك السلع الإسرائيلية) ناهيكم عن الضرائب المتنوعة. ٤. تقويض الثقافة الوطنية ٥. إدخال رأسمال إسرائيلي في الهيكل العظمي للاقتصاد الفلسطيني ٦. تهجير أكبر عدد من الفلسطينيين ٧. استغلال ونهب الموارد الخام. وصولاً إلى تدمير التماسك الوطني الفلسطيني وتدمير الهيكل الطبقي)[٢٦٣]

والسياسة الإسرائيلية العنصرية لم تعترف بالفلسطيني وحقوقه وقد استمرأت النظر له والتعامل معه بدونية وإذلال، ولمقاومته كإرهاب، لا يجدي معه إلا القوة والتحقير اليومي.

وبالتالي أدارت ظهرها «للشرعية الدولية» التي تجسدت في قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ الصادر في ٢٢/تشرين ثان/٦٧ والذي نص على (عدم جواز الاستيلاء على أراضٍ بواسطة الحرب وسحب القوات الإسرائيلية من أراضٍ احتلتها وتسوية عادلة لمشكلة اللاجئين) استمراراً لرفضها القرار ١٨١ والقرار ١٩٤ وو.. فكل هذه القرارات وسواها، وإن كانت لا تلامس الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية، لم تجد سوى الاستخفاف من إسرائيل، بما عزز من قناعة منظمة التحرير أن إسرائيل كيان عنصري وأن تحرير فلسطين لا يتم إلا بالكفاح المسلح.

والشعب الفلسطيني في الضفة وغزة بفعل الحرب والنزوح تقلص من مليون وربع المليون إلا ثلاثة أرباع مليون عام ١٩٦٧.

ورغم الاحتلال العسكري التنكيلي وبؤس الأوضاع الفلسطينية (كان من الطبيعي أن يجري إلحاق ومحوطة اقتصاد المناطق المحتلة بالاقتصاد الإسرائيلي، ليس عن طريق القوة وحسب بل التبادل اللامتكافئ أيضاً.. وليس غريباً أن يكون ٩٠٪ من واردات المناطق الفلسطينية من السوق

---

٢٦٢) د. تراكي، ليزا، مجموعة مؤلفين، الحياة تحت الاحتلال (٢٠٠٨) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص٢٢

٢٦٣) د. سمارة، المرجع السابق، ص٢٥، ٢٦، ٢٠٧

الإسرائيلية ونحو ٦٠-٧٠٪ من الصادرات للسوق الإسرائيلية)[٢٦٤] في وقت لم يتجاوز فيه دخل الفرد في الأردن قبل ٦٧ بما في ذلك الضفة الفلسطينية ١٥٠$ سنوياً فيما الأرض المزروعة ٢٦٪ بما يشكل ٤٧-٦٠٪ من الدخل القومي، وبطالة مقنعة ٥٦٪ وعجز تجاري سنوي ٥٠٠٪ من الصادرات في أحسن السنوات. أما الصناعة فشكلت ١٠٪ من الدخل القومي)[٢٦٥]

ومنذ البدء وضعت سلطات الاحتلال يدها على الحدود والمعابر وباتت تتحكم بالدخول والخروج وضبط حركة الناس والبضائع في الإطار الذي تسمح به المصالح الإسرائيلية. وكانت أو ل خطوة منع عودة نصف مليون نازح كانوا خارج البلاد قبل الحرب التي شنتها إسرائيل بتخطيط مسبق مع الإدارة الأمريكية. مثلما أعلنت عن ضم القدس واعتبارها عاصمة أبدية لإسرائيل لما تحمله من أبعاد تاريخية وإستراتيجية ودينية (إذ لدى تقويم نشوء الوطنية الفلسطينية ليس بالإمكان تجاهل الصعود المضطرد لمدينة القدس منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد أعلن في عام ١٨٨٧ عن سنجق القدس الذي يضمها وغزة والخليل ويدار مباشرة من الآستانة)[٢٦٦]، ناهيكم عن أن الدورة الأولى للمجلس الوطني الفلسطيني في ٢٨/أيار/١٩٦٤ قد انعقدت في القدس وأعلنت عن قيام م.ت.ف وميثاقها القومي، أما رئيسها المحامي أحمد الشقيري فأعلن (أن لا حل سياسياً لقضية فلسطين وأن لا حل لها في الأمم المتحدة ولا في المحافل الدولية الأخرى، وأن قضية فلسطين لا تحل إلا في فلسطين، وأنها لا تحل إلا بالكفاح المسلح)[٢٦٧].

رغم اختلال ميزان القوى ومحدودية العامل الديمغرافي وضيق الجغرافيا الفلسطينية وتمزقها وافتقارها للغابات والطبوغرافيا المساعدة على حرب العصابات، ولدت خلايا المقاومة في أرجاء الوطن، وراحت تنظم المظاهرات والإضرابات والاحتجاجات.. وكان أهم مصدر للسلاح ما يجمع من مخلفات الجيش الأردني وجيش التحرير الفلسطيني، وهو في غزة أيسر منه في الضفة، ناهيكم عن التسلل عبر الحدود.. إلى درجة أن لا يخلو يوم من عمليات عسكرية.

وقد انتشرت القواعد الفدائية في الأردن، مستفيدة من ضعف النظام بعد هزيمة حزيران، وراحت المجموعات الفدائية تخترق الحدود والبحار لزرع الألغام والاشتباك مع قوات الاحتلال. (وحققت العمليات العسكرية نجاحاً كبيراً للفلسطينيين، فاستعادوا هويتهم على الخارطة

---

٢٦٤) د. سمارة، احتجاز التطور، مرجع سبق ذكره، ص١١

٢٦٥) د. سمارة، اقتصاديات الجوع، مصدر سابق، ص٥، ٦، ٧

٢٦٦) د. نافع بشير، الإمبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية (١٩٩٩) دار الشروق، ص١٢٨

٢٦٧) ملف الوثائق الفلسطينية، القاهرة، خطاب الشقيري، ص١٠٥

السياسية العالمية وبخاصة لدى الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث، وارتفعت معنوياتهم سواء في الشتات أو في الأرض المحتلة) (٢٦٨).

وكان لابد من مرور النضال الفلسطيني في مرحلة التأكيد على هويته الوطنية الكفاحية، وكانت الفصائل الفدائية وامتداداتها هي الرافعة، ومن هنا جاء الالتفاف الشعبي حولها فأصبحت معقد الأمل وعنوان التحرر، وحظي موقفها الرافض لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ بأوسع التأييد. فمنظمة التحرير الفلسطينية عبرت بصريح العبارة عن رفض القرار، رغم أنها تأسست بقرار من مؤتمر القمة العربي وبتشجيع من نظام عبد الناصر الذي اعترف بالقرار. وحركة القوميين العرب قالت الموقف نفسه، أما فتح فأصدرت بياناً في ١٠/كانون أول/٦٧ جاء فيه (نعلن رفضنا الحاسم لهذا المشروع الاستعماري الصهيوني الذي يحمل في طياته تصفية القضية الوطنية نهائياً، وتثبيت الاحتلال الصهيوني وتأكيد الوصاية الدولية على شعبنا وإجهاض ثورة التحرير الفلسطينية، فضلاً عن تجاهله ملايين اللاجئين) (٢٦٩).

وكان هذا حال الفصائل الفلسطينية الأخرى. أما موقف الحزب الشيوعي الأردني الذي قبل القرار بما في ذلك امتداداته الفلسطينية فبقي معزولاً دون تأثير يذكر.

أما الشخصيات التقليدية في الضفة التي لم تكن محسوبة على المقاومة، ومحسوبة على أوساط اجتماعية تقليدية وسياسات معينة من طراز الدكتور حمدي التاجي الذي دعا في بيان (لدولة فلسطينية تحت إشراف الأمم المتحدة لمدة خمس سنوات بناء على قرار التقسيم والقدس العربية عاصمتها)... والمحامي عزيز شحادة الذي أعلن في مقابلة مع نيويورك تايمز ونشر بياناً في ٦٧/٩/٩ دعا فيها لعقد مؤتمر فلسطيني ينتخب هيئة وطنية تطالب بتقرير المصير... وأعرب في لقائه مع وزير جيش الاحتلال ديان في ٦٨/٤/١٦ عن نيته تأليف وفد من أهالي الضفة وغزة لإجراء مفاوضات... والشيخ محمد الجعبري الذي تمحورت فكرته على وضع الأراضي الفلسطينية والعربية التي احتلت عام ٦٧ تحت إشراف هيئة دولية لمدة خمس سنوات، وبعد انقضاء الفترة يترك للشعب الفلسطيني أن يقرر مصيره بنفسه..) (٢٧٠) فلم يكن لها رصيد شعبي إلا في نطاقات ضيقة، مثلما أن أطروحاتها تبخرت أمام سياسات الاحتلال البطشية التوسعية وصعود المقاومة

---

٢٦٨) علقم، نبيل، مرجع سابق، ص١٤٩

٢٦٩) د. عبد الهادي، مهدي، المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السياسية (١٩٧٥) منشورات المكتبة العصرية، ص٢٧٠

٢٧٠) د. عبد الهادي، مرجع سابق. ص ٣٣٠، ٣٣٦، ٣٧٤، ٣٧٥

التي تنادي بالكفاح المسلح وتحرير فلسطين... وقد لخص الدكتور جورج حبش المسألة بالقول (إن الخطوط الأساسية لمعارك التحرير الوطني الديمقراطي صارت معروفة حزب ماركسي ــ لينيني كقياده، جبهة وطنية عريضة، كفاح مسلح... ونحن نقول إن العدو هو إسرائيل والصهيونية العالمية والامبريالية والرجعية... إننا نسعى لتحرير فلسطين وهدم الكيان الصهيوني).

شهدت الضفة الفلسطينية تنازعاً بين نفوذ فصائل المقاومة ونفوذ النظام الهاشمي، إلى أن رجحت الكفة لصالح منظمة التحرير، غير أن تكريس الهوية الوطنية في قطاع غزة كان أكثر يسراً.فقطاع غزة لم يجر ضمه لمصر كما حصل مع الضفة والأردن، لقد تم وضعه تحت الإدارة المصرية وحسب، فاحتفظ بطابعه الفلسطيني، بخلاف الفلسطينيين في الضفة والأردن الذين جرى تجنيسهم بالجنسية الأردنية.

وجرت محاولة في عام ١٩٥٣ لتوطين اللاجئين الفلسطينيين في شمال غربي سيناء بناء على اتفاق بين الحكومة المصرية ووكالة غوث وتشغيل اللاجئين غير أن الفلسطينيين جابهوا هذا المشروع بالتظاهرات والتحركات. وبعد عامين سهلت وأشرفت الإدارة المصرية على تشكيل وتسلل مجموعات فدائية فلسطينية للقيام بعمليات ضد أهداف إسرائيلية، الأمر الذي أدى لعمليات انتقامية.. ويعتقد الدكتور أبو النمل(أن قوام المجموعات الفدائية الفلسطينية قد بلغ ٧٠٠ فدائي.)[٢٧١] أما القوى السياسية المنظمة التي كانت تنشط في قطاع غزة حينذاك فقد انحصرت تقريباً في الشيوعيين والإخوان المسلمين الذين تحالفوا ضد مشروع التوطين في سيناء.

وفي تشرين ثان ١٩٥٦ اجتاحت القوات الإسرائيلية قطاع غزة ولم تنسحب إلا في آذار ١٩٥٧ بما صاحب ذلك من تقتيل وتنكيل سيما ضد نشطاء جبهة المقاومة الشعبية المكونة من البعثيين والإخوان المسلمين(والجبهة الوطنية المكونة من الشيوعيين وعناصر أخرى حيث تعرض ٢٥٦ للاعتقال عام ١٩٥٧)[٢٧٢] وبعد الانسحاب الإسرائيلي واجهت القوى السياسية تحدياً آخر تجسد في ضرورة إفشال مشروع تدويل قطاع غزة الذي تزعمه بيرسوم وزير الدولة الكندي للشؤون الخارجية، بأن تقوم سلطات الاحتلال الإسرائيلي بتسليم قطاع غزة لقوات دولية تابعة للأمم المتحدة في ٧/ آذار/ غير أن تظاهرات شعبية زحفت على مقر القوات الدولية رافضة السيطرة الأجنبية إلى أن عاد الحكم المصري.

---

٢٧١) د. أبو النملأ حسين، قطاع غزة ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧ ــ (١٩٧٩) مركز الابحاث منظمة التحرير. ص ٣٤

٢٧٢) ياسيناً عبد القادر، حزب شيوعي ظهره الى الحائط(٩٧٨) دار بن خلدون. ص ٤٧

وفي (عام ١٩٥٨ تأسس المجلس التشريعي في القطاع كما الاتحاد القومي الذي شكل امتداداً للنظام، ناهيكم عن انتشار التيار القومي المؤيد لحركة القوميين العرب.)[٢٧٣]

واستناداً إلى الدكتور أبو عمرو(كان اثر الشيوعيين اكبر من حجمهم العددي بكثير، فقد كانوا إضافة إلى كونهم حملة فكر جديد، من أوائل الحركات السياسية التي مارست العمل الحزبي والسياسي، رغم قلة إمكاناتهم وما تعرضوا له من ملاحقات وسجن وتعذيب، لقد لعبوا دوراً بارزاً في حماية القضية الوطنية...

أما الإخوان المسلمون فانحصر نشاطهم العلني في جمعية التوحيد.. ولاحقاً في بعثة الوعظ والإرشاد.. وكان لهم نشاطهم في رابطة الطلبة الفلسطينيين بالقاهرة... وقد بدؤوا العمل السري في القطاع عام ١٩٥٤ بعد قرار حظر الإخوان في مصر على اثر محاولة اغتيال عبد الناصر.. مما أدى إلى تقليص عدد المنتمين للتنظيم ناهيكم عن هجرة كوادر إلى السعودية والخليج... ومن أهم الأسباب التي أدت لإضعاف الإخوان المسلمين انتقال عدد كبير من مؤسسي التنظيم وأعضائه إلى حركة فتح التي تأسست في أواخر الخمسينات)[٢٧٤] وعن فتح لقد(اتسمت المرحلة الواقعة بين ١٩٥٩___ ١٩٦٤ بالتوسع العددي والتنظيمي لحركة فتح، ناهيكم عن الأطر والكوادر، مئات الخلايا على أطراف دولة إسرائيل في الضفة وغزة ومخيمات اللاجئين في سوريا ولبنان...)[٢٧٥] وذلك لسببين(الأول: فشل الوحدة المصرية___ السورية. الثاني: افتقار الأنظمة العربية لإستراتيجية محددة لتحرير فلسطين، الأمر الذي أكده عبد الناصر في خطابه أمام عدد من أعضاء المجلس التشريعي... ولهذا اقسم مؤسسو فتح، كما صرح صلاح خلف، على الاستقلال عن الحكومات العربية مأخوذين بمسيرة الوطنيين الجزائريين، ومن جانب آخر استمرت المراقبة والملاحقة لأعضاء فتح من قبل الإدارة المصرية حتى وقوع حرب حزيران/ ١٩٦٧ لاعتقاد السلطات المصرية أن جماعات فتح إنما مكونة من فلول الإخوان المسلمين.. كما أن فتح منذ نشوئها في القطاع لم ترتبط بأية علاقة تعاون مع الشيوعيين أو القوميين العرب... وحاولت التنسيق مع رئيس منظمة التحرير أحمد الشقيري، وشارك عدد من قادتها في المؤتمر الوطني الفلسطيني عام ١٩٦٤، بل كان لإنشاء منظمة التحرير وجيش التحرير أثره في التسريع بمباشرة الكفاح المسلح..)[٢٧٦]

---

٢٧٣) د. ابو عمرو، زياد. (اصول الحركات السياسية في قطاع غزة (١٩٨٧) دار الاسوار عكا. ص ٥٣

٢٧٤) د. ابو عمرو، المرجع السابق ص ٦٨، ٧٤، ٨١

٢٧٥) خلف، صلاح، فلسطيني بلا هوية. الكويت شركة كاظمة. ص٦١

٢٧٦) د. ابو عمرو، المرجع السابق. ص ١٠٠، ١٠٧، ١٠٨

أما حزب البعث فقد تميز بانحيازه لرؤية (علمية ثورية وعلمانية عصرية) وانتمت عناصره المؤسسة في معظمها لأصول اجتماعية ميسورة الحال.. وقد شارك البعثيون ضد مشروع التوطين وكانت الفترة بين ٥٦ ــ ١٩٥٨ الفترة الذهبية للبعث في القطاع... والعلاقة الايجابية بالإدارة المصرية لم تشعر التنظيم بالحاجة لبناء تنظيم سري وتنمية تراث حزبي أو نضالي... ولكن فترة الانسجام لم تدم طويلا وكان قرار حل الحزب بداية تدهور العلاقة... وإن كان الاضطهاد للبعثيين لم يكن مشابها لاضطهاد الشيوعيين والإخوان... وبعد انفصال سوريا عن مصر لم يعد البعثيون يحظون برعاية مصرية وقام عدد من الأعضاء والكوادر بالهجرة للخليج والسعودية.)[٢٧٧]

و أخيرا حركة القوميين العرب التي تأسست في غزة عام ١٩٥٨ (و استطاعت في فترة وجيزة أن تفرض نفسها وان تتفوق على اتجاهات وقوى أخرى ذات تجربة غنية نسبياً في العمل الحزبي والجماهيري والسياسي... بما أضافته من فكر قومي عربي... وأسس الحركة في غزة مجموعة من الطلبة الدارسين في الجامعات المصرية... في ظروف ملائمة للغاية وشعاراتها (تحرر، اشتراكية، وحدة) وجدت قدراً من التجاوب الجماهيري... وبداية النشاط كان من خلال المدرسين... ومعتمدة على الأسس اللينينية في التنظيم كمبدأ القيادة الجماعية والديموقراطية المركزية والنقد الذاتي.. وقد شاركت في الاتحاد القومي وانتخاباته وفازت بعدد من المراكز القيادية. وفي فترة ١٩٦١ ــ ١٩٦٦ تطورت الحركة، ورغم إنشاء التنظيم الناصري غير أن أعضاء التنظيم في الإدارة المصرية دعموا أعضاء الحركة، كما شاركت عناصر الحركة في التنظيم الشعبي المنتشر في مدن ومخيمات القطاع وكان لها خمسة عناصر من أصل ١٣ في قيادته. ووصلت قوة الحركة أوجها قبل حرب حزيران ٦٧... وبعد الحرب اعتقلت سلطات الاحتلال معظم من تبقى من قادة الحركة فيما هاجر آخرون للخارج)[٢٧٨]

× × ×

في فترة السبعينات حتى أواسط الثمانينات، أعادت سياسات الاحتلال نفسها، وأعادت السياسة الوطنية الفلسطينية نفسها، فهما في وحدة جدلية، الشيء ونقيضه، أما النفوذ الأردني ونفوذ العوائل التقليدية، بما بينهما من تشابكات، فهما في عد تنازلي.

ومن المفيد سوق ما يلي هنا:

٢٧٧) د. ابو عمرو، المرجع السابق، ص ١١٢ ، ١١٩ ، ١١٧، ١٢٢ ، ١٢٤

٢٧٨) د. ابو عمرو، المرجع السابق، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٣، ١٣٩

لقد تنامى عدد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ بزيادة طبيعية تصل ٤-٥٪ سنوياً وأصبح نحو ١,٧ مليون في أواسط الثمانينات، هو في الضفة ضعفه في غزة، بما يشبه ما كان عليه قبل حرب عام ٦٧. أما نزيف الهجرة للخارج فكان يصل ١٥ ألفاً سنوياً غالبيتهم العظمى من المتعلمين والجيل الشبابي تحت ضغط الشروط التي خلقها الاحتلال أولا، وان كان الدكتور جميل هلال يفصل بالقول(شكلت الهجرة، منذ نكبة ١٩٤٨، سمة بارزة مطردة في حياة المجتمعات المحلية الفلسطينية في الضفة وغزة... أما محركاتها فكانت العمل، الزواج، التعليم، الإبعاد... الأمر الذي جعل ١٠٪ من العائلات الفلسطينية تتلقى تحويلات مالية من الأقارب في الخارج... وقد قادت الهجرة إلى تعزيز المحافظة الاجتماعية...)[٢٧٩]

فمحور أساسي في التفكير الصهيوني(أن فلسطين ارض بلا شعب) وما تمنته وزارة الخارجية الإسرائيلية(أن يتحول الفلسطيني لغبار الأرض) وغولدامئير، (أين هو الشعب الفلسطيني) بما يقتضيه ذلك من سياسات وخطط عملية، اصطدمت كلها بحقيقة أن ثمة وجوداً فلسطينياً، بل وجوداً مقاوماً أيضا. وهذه معضلة إستراتيجية، يعجز التفوق التكنولوجي ـــ النووي الإسرائيلي ـــ الأمريكي عن إزاحتها. فالديموغرافيا المتوطّنة في الجغرافيا والتاريخ أقوى حضورا من السياسة وجيوشها في نهاية الأمر.

وسيستمر الصراع بين الوجود الفلسطيني والسياسة العنصرية الإسرائيلية، ترتفع وتائره حينا وتنخفض حينا آخر، دون الوصول لمخرج ينهي الصراع. فالفلسطيني يقاوم دون قدرة على دحر المشروع الصهيوني، والإسرائيلي يبطش دون قدرة على فرض الاستسلام على الفلسطيني، إلى أن تتغير المعطيات وموازين القوى سيما على صعيد عربي وإقليمي.

٢. في الوقت الذي كان فيه (مجموع قوة العمل الفلسطينية عام ٦٧ نحو١٤٦ ألفا أصبحت ١٦٢ألفآ عام ٧١ منهم ١٣٦ ألف رجل و٢٦ ألف امرأة أي ١٤٪ نساء)[٢٨٠]، ارتفع الرقم (إلى ١٩٥ ألفاً عام ٧٥ منهم ١٢٤ ألفا في الضفة و١٧ ألفا في غزة بينهم ٧٠ ألفا يعملون في المشاريع اليهودية ٤٠ من الضفة و٣٠ من غزة)[٢٨١]

---

٢٧٩) مجموعة اقلام- تحرير د. ليزا تراكي. الحياة تحت الاحتلال في الضفة والقطاع(٢٠٠٨) مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٠

٢٨٠) د. سمارة، عادل، اقتصاديات الجوع. مرجع سابق. ص ١٣٣

٢٨١) مكتب الإحصاء الإسرائيلي، مجلة المرصاد (اوائل ١٩٧٥) ص ١٤٣

وهم يتوزعون حسب قطاعات العمل ٣٠٪ زراعة، ١٦٪ صناعة، ٢٢٪ بناء، ١١٪ تجارة، ١١٪ خدمات عامة، و١٠٪ أعمال أخرى. واستنادا إلى الجروزاليم بوست توزع العاملون في المشاريع اليهودية ١١٪ زراعة، ١٩٪ صناعة،٥٦٪ بناء، و١٤٪ أعمال أخرى. بما شكل ٢٨٪ من قوة العمل الفلسطينية. وعام ١٩٧٧ كان من بين هؤلاء ٧٠٪ متزوجين و٩٧٪ ذكوراً أما متوسط أجر العامل الفلسطيني إلى أجر العامل اليهودي فهو ٤٣٪)[٢٨٢] وعادة تقل حافلات محشوة بالعمال كما علب السردين من الساعة الرابعة صباحا وتعود بهم بين السادسة والسابعة مساء، ومن بين هؤلاء أعداد من الصبية وكبار السن، حيث يقوم مقاول بالتعاقد معهم دون أية حقوق نقابية على أن يستقطع نسبة من أجورهم لجيبه الخاص، يضاف لهؤلاء أعداد يتسللون من القرى الحدودية، والكثير من العاملين ينامون في الورش دون أية خدمات، حيث يتعرضون للملاحقة والاعتقال أحيانا، أما في حالة الإضراب عن العمل كما حصل في أواخر ١٩٧٥ حين(اضرب ٥٠٠ عامل في شركة ليشر فتم فصل " المحرضين " دون أية تعويضات)[٢٨٣] بل هناك مستقطعات من أجور العاملين تصل نسبتها ٢٠٪ في صندوق خاص راكم مليارات الدولارات منذ عام ٦٧ ناهيكم عن فوائده دون أن يدفع لأصحابه.

والنظرة الصهيونية العنصرية للعمال العرب إنما تتوافق تماما مع نظرة المستعمرين لشعوب المستعمرات التي كتب عنها ببصيرة ثاقبة فرانز فانون "أغبياء، جهلة،خاملون، دون قضية عادلة، يخضعون للقوة..."

٣. أهم التغيرات هنا هو انخفاض نسبة الزراعة الوطنية من ٧٠٪ عام ٦٧ إلى ٣٠٪ عام ١٩٧٥، وانخفاض نسبة الزراعة في الإنتاج الوطني من ٦٩٪ إلى ٤١٪، وانخفاض العاملين فيها من ٥٥ ألفاً عام ١٩٧٠ إلى ٣٣ ألفاً عام ١٩٧٣ وتناقص المساحة المزروعة من ٢ مليون و٤٥٠ ألف دونم إلى ٢ مليون دونم عام ١٩٧٤، وانخفاض الثروة الحيوانية من نسبة ٣:١ إلى ٤:١ عام ١٩٧٨ ...)[٢٨٤] سواء نتيجة مصادرة الأراضي ووضع اليد على الثروة المائية، أو بفعل المنافسة الإسرائيلية التي أصابت الكثير من الفلاحين الصغار بالإفلاس، أو نتيجة الضرائب وارتفاع الأسعار بما دفع الكثيرين للتحول "لبروليتاريا" تتقاضى أجرا يفوق مردود الاستثمارة الفلاحية المحاصرة والمحرومة من القروض والدعم علاوة على عقبات التسويق...

---

٢٨٢) د. سمارة، مرجع سابق. ص ١٤٥، ١٤٧

٢٨٣) صحيفة الفجر المقدسية ١٩٧٥/١٢/٢٤

٢٨٤) د. سمارة، مرجع سابق ص ٥٨، ٦٠

أما الثروة المائية فمن أصل ٦٢٠ مليون م٣ تستخرج من الضفة فقط ١٠٥ مليون م٣ للاستهلاك الفلسطيني... وحسب دراسة الدكتور اوري ديفيز فإن استهلاك المستوطن هو ضعفان ونصف استهلاك المواطن الفلسطيني، أما البنك الدولي فقد أعلن في نيسان ٢٠٠٩ أن استهلاك المستوطن هو أربعة أضعاف، بينما كتابات فلسطينية عديدة تشير إلى أنه ستة أضعاف وان إسرائيل تستولي على ٨٠٪ من مياه الضفة.

وعن الأرض فهي الهدف المركزي للمشروع الصهيوني والسياسات الاحتلالية. فمنذ الأيام الأولى بعد حرب حزيران ٦٧(وضعت سلطات الاحتلال يدها على الأراضي التابعة للحكومة الأردنية، أي ٦:١ من الأرض و٣٣٪ من قطاع غزة كانت تابعة للإدارة المصرية، وأعلنت عن ضم القدس، بما يعيدنا إلى عام ١٩٤٨ حينما وضعت يدها على ٨٤٪ من القدس الغربية كأملاك غائبين، وراحت تصادر الأرض وتنشئ المستعمرات إلى درجة أن صرح فايتس من وزارة الاستيعاب لصحيفة معاريف ١٩٧٦/٤/٢٠ انه تم إنشاء ٨٠ مستوطنة زراعية وصناعية والخطة تتجه لبناء ٢٠٠ مستوطنة تستوعب ١٠-١٥٪ من العائلات الإسرائيلية...) [٢٨٥] وهذه العملية تسير على قدم وساق، بل تقفز قفزا، وقد ناهز عدد المستعمرات اليوم ٢٨٠ علاوة على تهويد واقعي وقانوني للقدس الشرقية بعد توسيعها لتناهز ١٧٪ من مساحة الضفة أيضا بينما كانت ٣٪.

٤. (راوحت الصناعة من ناحية نسبتها في الإنتاج الوطني فهي مجرد ١٦٪، ولكن حجم العاملين فيها تقلص من ٢١ ألفاً عام ٧٠ إلى ١٤ ألفاً عام ١٩٧٣) [٢٨٦] واستمرت على حالها من ناحية المشروعات التي تستوعب أكثر من ٥٠ عاملاً وأكثر من ١٠٠ عامل، مجرد ١٣ مشروعاً.

وفي ظل تدهور الزراعة ومراوحة الصناعة، بل تدهورها قياساً بحركة الحياة، أضعف القطاع الإنتاجي ميكانيزم أية تنمية حقيقية، بما أفضى إلى عجز تجاري مريع مع السوق الإسرائيلية ارتقت إلى مستوى الإلحاق الاقتصادي.

وبلغة الأرقام كانت واردات السوق الفلسطينية من السوق الإسرائيلية ١٨٧ مليون ليرة عام ٦٨ والصادرات ٥٣ بعجز قوامه ١٢٤ مليون، أصبحت الواردات ٢٥٤ والصادرات ٥٢ عام ٧٠ بعجز ٢٠٢، أما عام ٧٥ فأصبحت الواردات ٢٣٥٠ والصادرات ٧٧٨ بعجز ١٥٧٢.) [٢٨٧] أما اليوم فحجم

---

٢٨٥) د. سمارة، المرجع السابق. ص ١٧٣

٢٨٦) د. سمارة، نفس المرجع. ص ٩٢

٢٨٧) المرجع السابق، ص ١٣٤

الواردات يناهز ٣ مليارات دولار والصادرات بالكاد تصل ٧٠٠ مليون!! وعليه، فديناميات سياسات الاحتلال تمضي للأمام، سيما سرقة الأرض والمياه وتهويد القدس وحجز الاقتصاد ومحوطته والحاقه وتشويه التركيب الطبقي وتشظية وتفكيك المجتمع الفلسطيني..

أما القمع السياسي والتنكيل الجماعي والفردي بالفلسطينيين، فهو سيف ديموقليط المسلط الذي يحصد الرقاب والعباد يومياً، بين إطلاق نار واعتقال وهدم بيوت وتجريف أشجار ومنع تجوال وحواجز...

ففي العقد الأول جرى تقتيل أكثر من ألف فلسطيني، واعتقال أكثر من ١٠٠ ألف وهدم مئات البيوت، وكان اكبر في مخيمات غزة ناهيكم عن إبعاد المئات ومنع عودة نصف مليون نازح.

ف(عام ٦٧-١٩٦٨ تم إبعاد ٥١٤ فلسطينيا) [٢٨٨]

ناهيكم عن القتل الجماعي الفوري الذي صاحب بدايات الاحتلال (لقد هدم حي المغاربة في القدس فيما بلغ عدد شهدائها من المدنيين ٣٣١ وقلقيلية ٧٢ وو و.. وتم نسف جميع بيوت بيت عوا الـ ٢٤٧ و٤٠ بيتاً في قرية بردلة و٨٠٠ في الجفتلك وغور الفارعة.. وتدمير قرى اللطرون: عمواس ويالو وبيت نوبا وتشريد الأهالي ...) [٢٨٩]

أما القدس فلها الأولوية في التخطيط الإسرائيلي. فعام ١٩٤٨ تم احتلال غربها وتشريد أكثر من ٥٠ قرية من قراها، وعام ٦٧ تم احتلال شرقها بدعاوى توراتية تاريخية تزعم أنها كانت عاصمة داوود قبل ثلاثة آلاف عام. (علماً أن اليبوسيين وهم أحد بطون الكنعانيين- كما كتبت ليت ماجواير- بنوها منذ ٢٥٠٠ قبل الميلاد واتخذت اسم أورشليم أي (مدينة السلام) منذئذ، ومعروف السجل التاريخي للقدس قبل اليهود واليهودية غير أن الحكومة الإسرائيلية سارعت منذ عام ١٩٤٨ للإعلان في الكنيست أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل (دون أن تعترف بذلك الأمم المتحدة ناهيكم عن أن كل التغييرات غير شرعية من وجهة نظر القانون الدولي) والأمر نفسه جرى عام ١٩٦٧ حيث أعلنت أن القدس الموحدة عاصمة أبدية حيث قامت بتوسيعها وفصلها عن المناطق الفلسطينية بما يشكل خرقاً للمواثيق الدولية.

وقد قام الحاخام الأكبر للجيش بالصلاة بأتباعه في الحرم الشريف...

---

٢٨٨) د. الصايغ، مرجع سابق ص٦٥٨

٢٨٩) علقم، نبيل، مرجع سابق، ص١٦٠، ١٦٤

إن جميع مخططات تطوير المدينة وتوسيعها تهدف لتقوية وتكريس الوجود اليهودي بالدرجة الأولى... وبناء مجمعات سكنية يفوق حجمها أحيانا حجم مدينة وإعادة بناء الحي اليهودي وربط جبل المكبر حيث الجامعة العبرية بالقدس الغربية وإقامة مستعمرة جيلو وتل بيوت والنبي يعقوب وراموت... واستمرت العملية التي عبر عنها ديفيد زعزون نائب مدير هيئة الاعمار عام ١٩٧٧ بالقول: سوف يتم إبعاد أسر عربية كثيرة من أجل تخفيض الكثافة السكانية، إذ لا يمكن بناء حي يهودي جميل ونظيف وعلى مسافة منه أحياء عربية قذرة)[٢٩٠]

أما علماء الآثار الإسرائيليون، فهم منذ أعوام، يؤكدون على عدم توافر أي أثر تاريخي يدلل على وجود يهودي في القدس...

ومن جانب آخر فإن دينامية المقاومة كانت صاعدة في المقابل، بين استقطاب وتدريب وتنفيذ عمليات وتنظيم تظاهرات وإضرابات واعتصامات وتوزيع بيانات وإبداع فنون ملتزمة بثقافة المقاومة.. وفي عام ١٩٧٣ تشكلت الجبهة الوطنية في الأراضي المحتلة وضمت شخصيات من الضفة وغزة.. وفي انتخابات البلدية ١٩٧٦ فازت القوائم الوطنية بأغلب المقاعد تحت شعار: لا للإدارة المدنية.

وكما رفع تشيرشل وزير المستعمرات عام ١٩١٨ شعار (تهشيم البيضة قبل أن تفقس) بتجييش أوروبا لمهاجمة الثورة البلشفية الوليدة (أرادت إسرائيل توجيه ضربة قاصمة للفدائيين في الأردن فاختارت أن تهاجم موقعهم في بلدة الكرامة الأردنية في ١٩٦٨/٣/٢١ حيث عبرت أربعة ألوية بما صاحبها من سلاح مدفعية وأسراب طائرات، بما يناهز ١٥ ألف جندي...)[٢٩١] غير أن العملية فشلت وقد انسحب المهاجمون بعد أن خسروا ٣٠ قتيلاً و١٠٠ جريح فيما استشهد أكثر من ١٠٠ فلسطيني..

وبعد الكرامة ارتفع معدل العمليات من ٥٢ عملية عام ٦٨ وطبقاً للمصادر الإسرائيلية نتج عنها ١١٦ إصابة بين قتيل وجريح، إلى ٢٧٩ عملية عام ٧٠. وقامت الجبهة الشعبية باختطاف ثلاث طائرات وهاجم فدائيوها ناقلة النفط الإسرائيلية كورال سي عند مدخل البحر الأحمر عام ٧١. وقبلئذ هاجمت مطار اللد عام ١٩٦٨ واتسعت عمليات الفصائل سيما فتح الأكثر فاعلية عسكرية.

---

٢٩٠) ماجواير، كيت، تهويد القدس(١٩٨١) دار الافاق الجديدة ص١٨، ٢٠، ٢٧، ٢٨

٢٩١) د. زيادين، يعقوب، مرجع سابق، ص١٦٤

ومثلما اتحد الموقف الفلسطيني في مقاومة الاحتلال، اتحد في الموقف من مبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكي تموز/١٩٧٠ (التي نصت على تسوية مؤقتة بين مصر وإسرائيل تبدأ بوقف إطلاق النار). وكان غرض عبد الناصر كسب الوقت لتطوير جهازه الصاروخي، أما الموقف الفلسطيني فصدم بالموقف المصري سيما أن مصر قد قبلت من قبل بالقرار ٢٤٢، وانعقدت دورة استثنائية للمجلس الوطني في آب/١٩٧٠ في عمان، أدانت السياسة الأمريكية ومبادرة روجرز وأعلنت أن حركة المقاومة المسلحة هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني.

بعد نحو شهر بدأ الجيش الأردني هجومه الشامل للسيطرة على الفدائيين والحركة الوطنية الأردنية، ووقعت المجابهة الشاملة بين الجانبين، أيام هزت الشرق الأوسط هزاً عنيفاً.. ودعا عبد الناصر لمؤتمر قمة عربي طارئ..)[٢٩٢]

وكان لمذابح أيلول/١٩٧٠ أثر بالغ على ساحة الوطن المحتل، فقد خسرت الإمداد الكبير بالمجموعات الفدائية والسلاح وسهولة لقاء المقاومين في الداخل بقياداتهم في الأردن والحصول على تدريبات.. الخ. وبكلمات الدكتور يعقوب زيادين (كان لرحيل المقاومة من عمان ومن أحراش جرش أثرٌ بالغ الخطورة والسوء. لف اليأس القاتل الجماهير، ساءت الأحوال الاقتصادية، توقف البيع والشراء، عمليات المطاردة الليلية استمرت.. السيارات المسلحة تجوب الشوارع، السجون والزنازين تغص بالوطنيين، التعذيب..)[٢٩٣]

ولكن النضال في الوطن لم يتوقف، وإن شددت قوات الاحتلال هجومها على خلايا المقاومة سيما حملة السلاح في غزة والتنكيل الوحشي بالمخيمات، ومن جانب آخر رحبت ساحة الداخل بالدورة الثامنة للمجلس الوطني التي انعقدت في شباط/١٩٧١ وأكدت على حماية الثورة من أعدائها وعلى الوقوف بحزم ضد دعاة إقامة دولة فلسطينية فوق جزء من التراب الوطني بما يقع في نطاق تصفية قضية فلسطين.

وأثناء انعقاد الدورة التاسعة للمجلس الوطني في تموز/١٩٧١ تعرضت آخر القواعد الفدائية في جرش وعجلون والأغوار لهجمات عسكرية من الجيش الأردني، بغية استكمال ما بُدئ في أيلول/١٩٧٠ بما أفضى إلى إنهاء الوجود الفلسطيني المسلح كتوطئة أتاحت للملك عرض مشروع آذار/١٩٧٢ الداعي لمملكة متحدة على أساس إقليمين أردني وفلسطيني في إطار وحدة فدرالية

---

٢٩٢) الحوراني، فيصل. الفكر السياسي الفلسطيني (١٩٨٠) القدس وكالة أبو عرفة للنشر ص١٦٩، ١٧٠، ١٧٢.

٢٩٣) الدكتور زيادين، مرجع سابق. ص١٦٦

بقيادة الملك. أما العاصمة فهي عمان. وهذا لم يحظ إلا بتأييد هامشي في الأرض المحتلة. أما التأييد الطاغي فكان لدورة المجلس الوطني في نيسان التي انعقد بموازاتها مؤتمر شعبي بحضور مئات الشخصيات الفلسطينية، بمشاركة من الداخل، وأعلن المؤتمران عن رفض قاطع لمشروع المملكة المتحدة، إضافة للتنديد بالملك لأنه نصب نفسه وصياً على الشعب الفلسطيني متجاهلاً حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بنفسه. ناهيكم عن الدعوة لتعبئة وتنظيم الجماهير للإطاحة بالنظام الهاشمي بما توالد عن ذلك من مصاعب وملاحقة للفلسطينيين في الأردن والوطن المحتل. أما الدورة الحادية عشرة في القاهرة فقد أكدت على ضرورة إجراء الاتصالات اللازمة لتشكيل جبهة وطنية في الداخل بما يزيد من استقلالية العمل الفلسطيني وتجاوز النفوذ الأردني.. أما الجبهة الشعبية فقد رفضت جميع المشاريع التآمرية سواء الإدارة المدنية والحكم الذاتي أو مشروع ألون أو مشروع الملك والحلول الأمريكية.

وحلت حرب أكتوبر/١٩٧٣ تلاها مؤتمر جنيف حيث انقسم الموقف الفلسطيني في الداخل والخارج بين نهج التسوية والنهج الرافض للتسوية، وأعربت الجبهة الشعبية مراراً في بياناتها في الأراضي المحتلة عن رفضها مؤتمر جنيف ونهج التفاوض برمته.. وفيما تشكلت جبهة القوى الرافضة في الخارج وفصيلها الأقوى الجبهة الشعبية، تحركت الأخيرة في الداخل بالاعتماد على نفسها ذلك أن أطراف الرفض الأخرى تكاد غير موجودة، وأن كان تيار الرفض واسعا في أوساط الشعب. وكنا نرى في جنيف مجرد ممر للاعتراف بإسرائيل وتلهية الناس في جلسات تفاوضية لا طائل تحتها بما يشكل غطاء لسياسات الاحتلال الهجومية. وقد أيدنا عن قناعة تحليل قيادتنا أن حرب أكتوبر مجرد حرب تحريكية لا تحريرية مثلما تأثرنا بكتاب العراقي هاشم علي محسن بهذا الصدد و(لكن علينا أن نعترف أيضاً أننا في الوقت الذي تحمسنا لقرار الدورة الحادية عشرة القاضي بالنضال ضد عقلية التسوية ومسخ القضية الوطنية إلى مجرد كيانات أو دولة على جزء من فلسطين، راقبنا بقلق النقاشات المتشعبة في الدورة الثانية عشرة حزيران/١٩٧٤، التي خلصت إلى برنامج النقاط العشر، بما في ذلك القبول بإقامة سلطة وطنية وتفويض القيادة لوضع التكتيك الملائم وصولاً إلى الدورة الثالثة عشرة في آذار/١٩٧٧ التي قالت صراحة بالدولة والعودة وتقرير المصير.. وبعضنا لم ينسجم مع هذا الطرح بتاتاً، وخشي أن يحمل تنازلات برنامجية، تأكدت لاحقاً في نعم لمشروع ريغن، كادوك، رسالة الاعتراف بإسرائيل وصولاً لأوسلو..

والتعبئة في الداخل كانت بالموقف الرسمي بداهة، وإن كانت تشمل على الدوام عدم الفصل بين

الأهداف الوطنية والحقوق التاريخية، مع التركيز على بناء الكادر الصلب للمرحلة المقبلة..)[٢٩٤]

إن ما كان جامحاً في الوطن المحتل هو الجيل الشبابي الذي راح يصنع الأحداث ويحل بتدرج محل القيادات التقليدية، دون أن يعرف انصياعاً لسلطات الاحتلال. فمحركات التمرد كانت أقوى أثراً من (سيطرة الجيل القديم وتعليم الطفل كيف يقمع عدوانيته تجاه السلطة وكيف يتحاشاها.. -بلغة الدكتور هشام شرابي- ولم ينجح المجتمع التقليدي الذي تحل فيه روح الخضوع على روح الاقتحام والشجاعة، أو ثقافة المجتمع البرجوازي الإقطاعي التي تدفع للشك في الذات والحط من قيمتها)[٢٩٥] في إخصاء وكبح دافعية الشباب للنضال وتوقهم للحرية.. وقد التفوا على نطاق واسع حول المبادرة التاريخية للثورة.

وفي أواسط السبعينات باتت فصائل المقاومة هي اللاعب السياسي الأول، إن لم يكن القيادي في المجتمع الفلسطيني. والضربات الاعتقالية والتصفيات والابعادات إنما شحذت نصل التعاطف مع هذه الفصائل التي تعاظمت امتداداتها والإقبال على الانتظام فيها، سيما فتح والجبهة الشعبية، مع وجود منظم في الحقل النقابي للحزب الشيوعي.

(لقد أعطت المرحلة الجديدة الفلسطينيين شعوراً قوياً بالذات والهوية الوطنية.. ولئن كان من الطبيعي إزاحة الشقيري عن قيادة المنظمة وإعادة تشكيل المجلس الوطني حيث أعطيت فصائل المقاومة نصف مقاعده وأن يصبح عرفات في شباط/١٩٦٩ رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير)[٢٩٦] فمن الطبيعي أيضاً أن تصبح فصائل المقاومة ومناصروها من الشخصيات قيادة للشعب في الوطن المحتل.

وتوقيع نظام السادات لاتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ التي تضمنت بنداً يقضي بإقامة حكم ذاتي للفلسطينيين، لم تجد حاضنة فلسطينية لها باستثناء أصوات هامشية، واكتساح الجنوب اللبناني في "عملية الليطاني" وحرب لبنان ٨٢ ومحاصرة بيروت وتشتيت المقاومة (بغية تمرير الحكم الذاتي) لم ينجحا في التحليل الأخير في اختراق ساحة الداخل.

وكل مخططات الاحتلال بما في ذلك روابط القرى، وعزل مجالس بلدية وتعيين لجان أخرى

---

٢٩٤) قيادي في الجبهة

٢٩٥) د. شرابي، هشام، مقدمات لدراسة المجتمع العربي (١٩٧٥) الأهلية للنشر، بيروت ص٥٠، ٥٥، ٥٩

٢٩٦) د. نافع، بشير، الإمبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية، مرجع سابق، ص١٥١، ١٥٢

وتفجير عدد من رؤساء البلديات وإبعاد آخرين، وسيل لا يتوقف من الحملات الاعتقالية، لم تساعد على بناء قاعدة اجتماعية متساوقة مع سياسات وتمنيات الاحتلال.

و(هذا حال النشاط الأردني من صناديق ولجان وقنوات استفاد منها بعض الموظفين والمنتفعين والهيئات والعوائل التقليدية... أما القوى الصاعدة، بلغة ستالين، فكانت منحازة لفصائل المقاومة ومنظمة التحرير.

لقد شهدت الأرض المحتلة بين أوائل السبعينات وأواسط الثمانينات نشاطاً محموماً لعله يحصد قيادة فلسطينية، أو فريقاً له وزن شعبي منافساً لنفوذ منظمة التحرير، ولكن ذلك لم يجدِ نفعاً.

فما تكرس في مؤتمر القمة العربية ١٩٧٤ بأن المنظمة هي الممثل الشرعي والوحيد تكرس في الأرض المحتلة مع الاعتراف أن ذلك أثار سؤالاً لدينا: هل يمكن أن يفهم منه عزلة فلسطينية، وتحرير للعرب من مسؤوليتهم القومية، فاغتيال جنبلاط رئيس اللجان العربية القومية المناصرة للثورة، ومن قبل تحول الميثاق القومي لمنظمة التحرير لميثاق وطني، وإنهاء تجربة حزب العمل الاشتراكي العربي التي كانت الجبهة الشعبية عموده الفقري، وانفلات التناقض بين ميل عرفات لقرار وطني مستقل ومحاولات سوريا احتواء الورقة الفلسطينية، وكأنه لا يمكن الجمع بين الوطني والقومي، أثار تساؤلات لدى مفاصل قيادية في الداخل.. فهل نسير نحو العزلة الوطنية، حتى أن أحدنا كتب منذ بداية الثمانينات عن تشكيكه بشعار الدولة المستقلة، فليس ثمة مقومات في الضفة وغزة لإقامة دولة بقاعدة اقتصادية-مؤسساتية، كما أن هذا الشعار أو ما هو أقل منه سوف يستخدم لمقايضة حق العودة، بينما كانت غالبية الأسرى وبُنى المقاومة من اللاجئين، ناهيكم عن أن حق العودة هو الجوهر والأساس وهو مدخلنا للتحرير دون أن ننسى أن جهدنا المركزي كان يتوجه لبناء أدوات المقاومة وليس للجدل السياسي)[٢٩٧].

وكان لتنامي العامل الديمغرافي وظهور الصحف والمجلات وتحول كلية بيرزيت إلى جامعة وولادة جامعات أخرى، وكانت الجامعات مركزاً متقدماً لفصائل المقاومة، أسوة بالمخيمات، ناهيكم عن تنامي القاعدة العمالية والفئات الوسطى، وظهور بعض مؤسسات المجتمع المدني التي تدور في فلك فصائل المقاومة وليس التمويل الأجنبي، والمدن التي اتسعت رقعتها وأعداد سكانها،

---

٢٩٧) قيادي في الجبهة الشعبية

كان لكل ذلك وسواه أثره البالغ في تفشيل جهود الاحتلال لضرب الهوية الوطنية وأدواتها وثقافتها.

وبلغة الأرقام ناهز الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة ٦٧ الـ ١.٧ مليون عام ١٩٨٥ (وحسب تقارير إسرائيلية زاد الدخل القومي بنسبة ٤٪ فيما الزيادة السكانية ٢.٥٪. أما قوة العمل فأصبحت ٢٦٠ ألفاً بزيادة ٧٪ سنوياً من بين هؤلاء ٣٠ – ٤٠٪ في المشاريع اليهودية، وحسب الجروزاليم بوست في ٩/١٠/١٩٨٧ بلغوا ٩٠ ألف عامل أي (أن حوالي ثلث قوة العمل المستخدمة من الضفة الغربية تعمل وراء الخط الأخضر وما يقارب ٥٠٪ من قطاع غزة بما يشكل ٦.٥٪ من قوة العمل الإسرائيلية، أما قوة العمل الفلسطينية فقد توزعت ٦١٪ بأجر و٣٦٪ يعمل لحسابه الخاص و٣٪ أصحاب عمل)[٢٩٨].

وقد تقهقرت الزراعة الفلسطينية أكثر فأكثر، فتراجعت أعداد العاملين لما هو أقل من ٢٥ ألفاً كما تراجعت نسبتها في الدخل القومي إلى ما هو أقل من ٢٠٪. أما الصناعة فبقيت على حالها تشغل ١٦٪ من قوة العمل و٨.٥٪ من الدخل القومي، بما يصل ١.٤٪ من الإنتاج الصناعي الإسرائيلي، أي لقد صممت السياسة الإسرائيلية لاستبقاء المناطق المحتلة سوقاً مفتوحة للسلع الإسرائيلية.

وحسب كتاب الإحصاء السنوي الإسرائيلي ١٩٨١، فالصناعة الفلسطينية مكونة من ١٠ مشروعات فيها أكثر من ٥٠ عاملا و٢٨ مشروعاً بين ٢٠-٤٥ عاملا وأكثر من ٧٣٠ مشروعاً فيها ١-٤ عمال.

وقد استمرت الضرائب المتنوعة في عد تصاعدي دون أن ينفق على الإدارة المدنية أكثر من ٢٥٪، كما تصاعد عجز الميزان التجاري إلى ثلاثة وأربعة أضعاف الصادرات، والأمر نفسه ينسحب على الزحف الاستيطاني الاستعماري ومصادرة الأراضي والثروة المائية.

(وبلغ عدد المستوطنات التي أقامها حزب العمل بين ٦٧ –١٩٧٧ نحو ٦٣ مستوطنة، وما أن غادر السادات القدس حتى شرع بإقامة مستعمرة جديدة، وفي ميزانية ٧٨ بعد شهر من توقيع اتفاقية كامب ديفيد رصدت مبالغ لإنشاء ١١ مستوطنة، وزادت الاندفاعة الاستيطانية بعدئذ وقد بلغ عدد المستعمرات ١٠٩ حتى أوائل ٨٣)[٢٩٩].

---

٢٩٨) د. سمارة، عادل، احتجاز التطور. مرجع سابق، ص٢٠، ٢٩

٢٩٩) علقم، نبيل، مرجع سابق. ص٢١٧

وحسب تقرير إسرائيلي في أوائل الثمانينات ناهز عدد المستوطنين ١٠٠ ألف -يضاف لهم بداهة الاستيطان الاستعماري في القدس- ٢٠٪ منهم في الجيش والشرطة و٢٥٪ مهنيون و٢٦٪ ياقات بيضاء و٢٦٪ قطاعات أخرى، وأن المتدينين منهم ٨٪ و٤٦٪ تقليديون و٤٦٪ علمانيين.

وعليه، لم يحافظ المجتمع الفلسطيني على نفسه كمجتمع زراعي تطغى عليه الحيازة الفلاحية والإنتاج البضائعي الصغير، مثلما لم يتحول لمجتمع صناعي تسوده علاقات الإنتاج الرأسمالية، إنما حجز تطوره وألحقت القطاعات الاقتصادية-الاجتماعية، ومناطقه، كتمفصلات بالمفرق مع السوق الإسرائيلية في إطار علاقة كولونيالية عنصرية تمارس البطش والنهب والإقصاء ضمن خطة منهاجية تتمنى "فلسطين بلا شعب" وتنظر للديمغرافيا كعقبة أمام المخطط الصهيوني.

وهذا بلا شك لم يهدد الوطن الفلسطيني فقط بل الوطنية الفلسطينية أيضاً، وكبح أواليات التحديث والحداثة، فلا ينطلق الاقتصاد ولا تنطلق الحداثة، وهذا أذكى المنظورات الجبرية والجذور العشائرية وشتى التقسيمات الجهوية والمناطقية والطائفية، بما زاد من أعباء الوطنية الفلسطينية الجامعة التي راحت تدافع عن نفسها كرابط جماعي للشعب موشحة بالتطلعات التحررية والاستقلالية يغذيها بداهة العملية النضالية وثقافة المقاومة.

فمن جهة، تحمل الهوية الوطنية قواسم مشتركة تتمرد على التشظية، ومن جهة فهي تشق طريقها باتجاه حداثي، "فالهوية حركة وحركية" أدونيس، سيما أن التيار النافذ في فصائل المقاومة خليط من "العلمانية واليسارية" ولربما أن ما كتبه الدكتور هشام شرابي عن العائلة العربية ينطبق بقدر كبير على العائلة الفلسطينية (إن الشكل السائد في بنية العائلة العربية هو العائلة الكبيرة أو الممتدة. قد تعيش في حي واحد أو عدة أحياء، مع استمرار الأنماط الأساسية للروابط العشائرية) ...و(العائلة في خصائصها الأساسية صورة مصغرة عن المجتمع.. سلطة وتسلسل وتبعية وقمع) ...و(الطفل يلجأ للخضوع من أجل الدفاع عن نفسه ضد الغضب والاستهزاء، لذا نجد الأنا الأعلى، دون الشعور بالمسؤولية وتبقى كياناً غامضاً) ...و(التعليم يقلل من أهمية الإقناع والمكافأة ويزيد من أهمية العقاب الجسدي والتلقين) ...و(التدريب على المسايرة يفضي للتهرب من المواجهة ومعالجة المشكلات من جذورها..) ...لقد (غلبت في مجتمعنا المعرفة الدفاعية والفكر الدفاعي على المعرفة النقدية والفكر النقدي)[٢٠٠]

---

٢٠٠) د. شرابي، هشام. مقدمات لدراسة المجتمع العربي (١٩٧٥) الأهلية للنشر، بيروت، ص٣٠، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٤، ٦٨.

ولأن "العلمانية واليسارية" لم تكونا بالعمق الذي يؤسس لمرحلة جديدة، وباستثناء بؤر وأوساط محدودة، هي أقرب للتسطيح لأننا "لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية" قباني، بقي العقل والعلاقات الاجتماعية أقرب للبنية التقليدية وما يحمله الموروث، الأمر الذي عبرّ عن نفسه في تيار جارف ما أن تقهقرت القوى السياسية "الوطنية واليسارية" في مرحلة أوسلو لاحقاً.

"فالعلمانية واليسارية" والمعاصرة إجمالا كانت مقولات سياسية أكثر بكثير مما كانت منهجاً فكرياً ومقاربات علمية واجتماعية مناظرة.

ولئن نظمت المقاومة إرادة وروح الشعب في صراع مع العدو وأعادت ترتيب وصناعة السيكولوجية الاجتماعية والوعي الاجتماعي باتجاه مقاوم، حيث نبذ النضال الخوف والدونية والاستكانة وأحل محلها طاقة حالمة بالتحرر والفخر والتشبث بالأهداف والتضحية في سبيلها، فكانت منصة انطلاق نحو المستقبل، غير أن المنظور الفلسفي والرؤية والموقف الاجتماعي، ورغم احتضانه أوساطاً لما هو معاصر بقي ماضوياً، فالصفة التقليدية بقيت سائدة جذّرها وجعلها أكثر حضوراً وتحزيباً، ما طرأ على المسيرة من تقهقر سياسي وتحولات في النظام السياسي الفلسطيني.

الباب الثالث

مقولات ومفاهيم يسارية موجهة

الجبهة كبراكسيس تاريخي معينّ، أي جتمعة مشخصة بتراكماتها وتموجاتها، تقدمها وتقهقرها، مرت في مراحل، وهي تفعل وتنفعل في مجتمع تقليدي تغلب عليه الثقافة الجبرية/ الفلاحية/العشائرية. (لم يتبق بعد احتلال حزيران/٦٧ بما صاحبه وتوالد عنه من نزوح وتهجير سوى ثلاثة أرباع مليون نسمة في الضفة وغزة، الأغلبية الساحقة في الريف والمخيمات، دون أية أشكال تنظيمية، ونسبة أمية عالية لا تقل عن ٤٠٪ ونسبة مشابهة أقرب للأمية حصيلتها لا تتعدى الابتدائية، تؤمن بالشياطين والحظ، ولا حول لا قوة فكل شيء مرسوم سلفاً، وبالقضاء العشائري، ونظرة دونية للمرأة وحجزها في البيت فلا تخرج للتعليم العالي والعمل إلا على نطاق ضيق لا يتعدى ٤٪ من قوة العمل، ناهيكم عن طغيان العائلة البطريركية الذكورية والممتدة بما تعنيه من سيطرة الجيل الأقدم والذكور، ولئن تحدث الدكتور مناع (بأن ظاهرة الانقسام الحمائلي والاقتتال العائلي كانت عاملاً أساسياً في ضعف تكاتف المجتمع الفلسطيني أمام الأخطار الخارجية قبل ٤٨، فقد استمرت هذه الظواهر ما بعد ٦٧ أيضاً ولكن بحدة اقل)[٣٠١]

وتتكدس غالب الأسر في بيوت تفتقر للخدمات الأساسية وهي في المخيم أسوأ منها في الريف، وفي كليهما أسوأ من المدينة الخدماتية الصغيرة، حيث يعمل معظم الناس في زراعة بعلية تنتظر رحمة السماء أو في ورش البناء دون أي تمركز أو أية تقاليد نقابية واضحة، وأما قطاع الصناعة فهو محدود وبضاعي صغير ويراوح في المكان.

ولئن ساد المنهج التعليمي الحفظي والتلقيني بعيداً عن النقد والتحليل، فلم يكن ثمة جامعات بعد.

(في هذه البيئة تحركنا وزرعنا بذور المقاومة الأولى، مقاومة المحتل ومقاومة المنظورات المتخلفة الرجعية، ورحنا نؤسس بدايات العمل الفدائي وما يتصل به من ثقافة تحررية وعقلانية تعيد الثقة للناس بأنهم أداة وهدف النضال، وإن سلوك الإنسان ودوره وعمله هو أساس تقييمه، وأن التعليم والثقافة منصتا انطلاق للنهوض، ومنذ البدايات كنا نؤمن بالمواطنة دون تمييز ديني أو جنسي، ولهذا تجد مجموعاتنا الأولى وأفواج أسرنا تجسيداً لهذا الفهم تشمل رفاقاً من عائلات إسلامية ومسيحية نساءً ورجالاً)[٣٠٢]

---

٣٠١) د. مناع، عادل، حوليات القدس، شتاء ٢٠٠٨، العدد٦، مؤسسة الدراسات المقدسية

٣٠٢) رفيق قيادي، عن البدايات

والجبهة في فعلها الواعي إنما حاولت إذكاء العناصر والمفردات القادرة على تجاوز صيغ الأمس وثقافتها التواكلية والانتقال إلى مجتمع حداثي تحرري ومقولاتها المقاومة في إطار مساهمتها في العملية الصراعية مع العدو العنصري الكولونيالي الصهيوني.

وفي سنوات عملها الأولى، إنما اشتقت طائفة مقولات محددة، كخلفية موجهة، وفي أطوار لاحقة اشتقت وأضافت مقولات أخرى، تماشياً مع متغيرات، وتعقيدات الواقع وجدلية الذاتي والموضوعي وما راكمته من خبرات وما رسمته من آفاق وتوجهات، فالجبهة كائن حي ينمو.

وقد انسجمت مبكراً مع منهجية لينين (تحليل ملموس للواقع الملموس) بصرف النظر عن مدى إبداعيتها في تحليل الملموس، وبالتالي نأت عن النمذجة، بل كان لها موقفها من الكيان الصهيوني وتقييمها لأنظمة البرجوازية القومية، وحرب العصابات والحرب الشعبية، بما لا يتفق مع (قلعة الاشتراكية) الاتحاد السوفييتي، وكونها امتداداً لحركة القوميين العرب، والذين قادوا تأسيسها في الوطن المحتل هم كادرات من هذه الحركة، إنما حملت منظورات الحركة في ربط الوطني بالقومي، وأن الكفاح المسلح هو طريق التحرير، وفي عقلها الواعي النماذج الناجحة في الجزائر واليمن الجنوبي وفيتنام لاسيما أن فرع الحركة في اليمن (الجبهة القومية) هو الذي قاد الثورة والاستقلال، وبالتالي استرشدت الجبهة بكلمات ماركس عن حضور (المجرد العام في الملموس الخاص) قبل أن تكتشفها. أما جهدها الدؤوب فكان ينصرف لبناء (الطليعة الثورية) التي تحمل هموم المقاومة والتحرير. ومنذ «اللقاء الثلاثي» الأول الذي تم بعد هزيمة حزيران، وحتى نهاية تحقيب هذه الرسالة- توقيع أوسلو، كانت مضمرة كلمات لينين (إن بناء الحزب هو المسألة الأصعب).

ولنترك لـ (أضواء على المسيرة اليسارية الفلسطينية) سوق أهم المقولات التي وجهت الجبهة حتى أواسط السبعينات:

١. (الثورة تنبع من فوهة البنادق) و(حرب الشعب طويلة الأمد) ماوتسي تونغ. (شعب لا يتعلم حمل السلاح يستحق أن يعامل معاملة العبيد)لينين. (ما أخذ بالقوة لن يسترد بغير القوة) عبد الناصر. (حرب العصابات هي الطريق) جيفارا. (حزب سياسي مقاتل) جورج حبش. فدائيون فدائيون، طل سلاحي من جراحي. فالمحور الأساس هو المقاومة المسلحة.

نواجه احتلالاً عسكرياً عنصرياً توسعياً هجومياً وجهاز مخابرات لا يتورع عن استخدام كل

صنوف التعذيب ووسائل البطش لتدمير المقاومة وعزلها عن جمهورها ومنع تحولها إلى ثورة. وتقوم سياسة الاحتلال على الإقصاء والتدمير للوجود الفلسطيني ضمن مقولة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) وعليه فالصمود في الوطن أولاً.

٢. الرد على تقطيع أوصال شعبنا في الضفة وغزة والأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ٤٨ بإشراك الجماهير في أوسع عملية نضالية، وإقامة أوسع الاتصالات والتفاعلات، والزمن في مصلحتنا ديمغرافياً وثقافياً ووشائجياً)[٣٠٣]

الروح العملية الميدانية (فخطوة واحدة أهم من دزينة برامج) ماركس، وترجمة ذلك بتأسيس مجموعات وشبكات وتنظيم مناشطات وتنفيذ عمليات.

٣. القيادة في المقدمة، وكان للروح المعنوية والشجاعة أثرهما، فهي التي تبادر وتعبئ وتخطط. بكلمات الأمين العام جورج حبش (الحزب قيادته أولاً) فهي قوة المثال التي جسدتها عملياً شخصيات مميزة كالمحامي بشير الخيري (رام الله) الذي قاد البدايات وتعرض لتنكيل وحشي في السجون وعمر خليل في غزة ومحمد الأسود (جيفارا غزة) الذي استشهد في ١٩٧٣/٣/٩ وأبو منصور الذي عاش طريداً في جبال الخليل إلى أن استشهد في اشتباك، ناهيكم عن القيادة الأولى وعلى رأسها أبو علي مصطفى. وسواهم (كل واحد فينا بادر من موقعه وراح يؤطر ويجمع السلاح ويوفر ما أمكن من متطلبات العمل، فهو على رأس المهام، وليس ثمة مراتب وسيطة تذكر. فالمسؤول يقود المجموعات مباشرة، وأصبح مسؤولاً لأنه أسس المجموعات وفي حالة اعتقاله أو استشهاده أو اعتقال رفقائه، يتولى كادر مبادر تأدية نفس الدور. كنا المحركين والمنظمين في آن)[٣٠٤]

٤. السرية والسرية ثانية، إذ لا يوجد أدغال أو كثافة سكانية، فدرع الوقاية الأول هو سرية المجموعات والاتصالات وما تستدعيه من مخابئ وقدرة على اجتياز الحدود. وحضرت هنا طباع الدكتور وديع حداد قائد الجهاز الخاص (إذ لا يمكن لهذا النوع من العمل السري أن يكون علنياً أو على مرأى ومسمع من الفصائل)[٣٠٥] بل كانت له اتصالاته بالداخل.

---

٣٠٣) قطامش وآخرون (اضواء على المسيرة اليسارية) ٢٠٠٥. مركز منيف الثقافي، ص٨٠٧

٣٠٤) كادر قيادي في الجبهة الشعبية

٣٠٥) شربل، غسان. أسرار الصندوق الأسود (٢٠٠٨) دار رياض الريس. ص٤٤

٥. التثقيف السياسي، سيما بالإستراتيجية السياسية والتنظيمية الصادرة عام ١٩٦٩، ومهمات المرحلة (١٩٧٢) وبعض المقالات من مجلة الهدف وتعاميم مركزية، والنظام الداخلي وبعض المؤلفات. وفي منظمات الأسر الأكثر استقراراً في بنيتها اعتمد التثقيف الماركسي-اللينيني والتقيد النسبي بالنظام الداخلي.

أما في أواسط السبعينات وبعدئذ وصولاً إلى أوسلو، وتحديداً ما أطلق عليه (التجربة الحزبية المركزية ٧٦-٩٣) فقد أضيفت نقاط موجهة أخرى بغية (الحزب جسر التوسط بين النظرية والتطبيق) لوكاش؟

و...

١. (حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة) لينين. (النظرية تدرس كعلم مذ غدت علماً) و(هي رمادية وشجرة الحياة خضراء، إنها ملزمة بتمثل كل إنجاز) انجلر و(لم أضع إلا حجر الزاوية) ماركس، وبمنظور وزير الدفاع الفيتنامي (كلما زادت المهمات زاد التثقيف الذاتي).

٢. (نظرية الممارسة) التوسير. (الممارسة المفكرة) غرامشي (إلباس النظرية عقالاً وكوفية) جورج حبش. (أهم الأفكار الأفكار التي تمارس) لين بياو. (لن تجدوا حلولاً لمشاكلكم في الكتب الشيوعية) لينين. (الذي يريد أن يفهمنا عليه أن يفهم أننا نفكر) حبش.

٣. (الحزب قيادته أولاً) حبش. (تأسيس فريق المحترفين الثوريين الذين يهبون الحزب جماع شخصياتهم.) (الحزب أولاً الحزب عاشراً.) (بلورة السلسلة الكادرية.) (الشرط السياسي والعملي والأمني للكادر.) (على المربي أن يخضع للتربية) ماركس.

٤. (الحلقة المركزية حل المسألة التنظيمية.) (تفعيل الطاقات فالفاعلية هي المعيار).. (تطور القوى الإنسانية هدف بحد ذاته) ماركس. (تكريس التقاليد الحزبية.) (المرتبة قوام ومنجزات.) (السري يقود العلني) .(توزيع القوى.) (العقل الجماعي.. الجماعية والفردية.) (تعزيز الانتماء وتشديد التطلب الحزبي.) (الحزبي والديمقراطي.) (الاشتراك شرط للعضوية). (جماعية القرار والمسؤولية الفردية.) (التركيب النوعي للحزب). (الأصل الطبقي والموقف الطبقي.) (التوسع والانتشار والسياج الحلقي.) (تدوير الكادر) .(الوقفة السنوية ونصف السنوية.) (الحزب يخطئ كالفرد.. والذي يخرس صوت النقد عضو لم يفصل بعد) لينين (المحاسبة) و(المتابعة جوهر العمل الحزبي) لينين.

٥. (نسبة المرأة في القوام والهيئات.) (المزيد من الجهد في قطاع المرأة.) (منظمات قطاعية ومنظمات مختلطة حسب الملموس). (تنتصر الثورات بقدر مشاركة النساء فيها).. (تحرر المرأة معيار تحرر الشعب.. انبش قشرة الشيوعي في موضوع المرأة تكتشفه رجعياً عفناً). لينين. (إنها مضطهدة المضطهدين) ببيل. (المرأة شريك نضال وحياة.) (اللجوء للحزب في المسائل العاطفية والاجتماعية عند الضرورة) (لا لنظرية الحب الحر وكأس الماء.. ونعم للحب بمفهوم انجلز في أصل العائلة.) (المرأة شريك كامل ولكافة المهام).

٦. (التفاعل والحوار الرفاقي). (انتخاب المستوى الحزبي للمسؤول) (الحوار قبل القرار.) (المبادرة، تشجيع المبادرة). (لا خوف من الخطأ فالأموات وحدهم لا يخطئون). (تشجيع وتعميم الجديد والتجارب الناجحة.) (الاحتكام لقواعد الديمقراطية في الأطر العلنية وتوسيع المجالس والهيئات.) (مطلوب جهاز لتنفيذ سياسة، لا سياسة لإرضاء جهاز) لينين.

٧. الأمن أولاً والسرية درع الوقاية والصمود خط أحمر. النماذج العملية الحية أهم من الكتب. التعبئة الأمنية خط دائم. الاعتراف تفريط بشرف الحزب. خلق مناخ واتخاذ إجراءات. الصمود في الزنازين المعيار الأول في تقييم الكادر.

٨. التكتيك، إتقان التكتيك، ديناميكية التكتيك، على أن (لا يَنتهك التكتيك الاستراتيجية ولا أن تنتهك السياسة الأيديولوجية) جورج حبش.

٩. قراءة التناقضات، جدلية التناقضات، عدم الخلط بين التناقضات، الاستجابة للتناقضات، أرضية برنامجية وعملية.)[٣٠٦]

وسواها الكثير من المقولات والأدوات المفاهيمية، وهي في معظمها مستقاة من التجربة الحية، إذ لا يوجد وصفة جاهزة قوالبية، وأنسنة العضو بين كونه إنساناً حراً منتمياً لأصلٍ اجتماعي وعائلي ويحمل موروث الأمس، وكذا موقف طبقي جماعي على قاعدة (تعدد القابليات والميول) ماركس. وفي المعمعان الثوري تتعمد العضوية بالتضحيات وحلاوة الانجازات، فالسعادة في النضال) ماركس

٣٠٦) أضواء على المسيرة اليسارية، مرجع سابق. ص١٦٩

الباب الرابع

مواقف الحكيم هي البوصلة والسكة والمساحة الأولى في التعبئة

(جواباً على سؤال المرجعية والموجه. لقد بقينا مشدودين لشخص الحكيم، فهو القائد الوحيد بالنسبة لنا، ليس لموقعه كرجل أول في حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية، بل الأشد أهمية لسجاياه القيادية الكرزماتية أيضاً. وكل الذين التقاهم يلهجون بذلك، والحلقات التي نشرها الرفيق قطامش في صحيفة القدس بعد رحيله عن كرزماتيته وأنه براكسيس متشعب مزج الفكر بالسياسة بالأخلاق.. تكثف رأينا، فالذين عرفوه في سنوات المقاومة الأولى، كانت أحاديثه وتوجيهاته مرشدهم الأول، وتأثيرات الرفيق وديع حداد كانت تصب بنفس الاتجاه. أما الذين تابعهم مباشرة في مرحلة البناء الحزبي، فكانت رسائله هي التيار الكهربائي الذي يضخ الطاقة في أسلاك وعضلات التجربة.

ينبغي الاعتراف أن مستوى الحكيم يتقدم مسافات على مستوى الجبهة والصف الثاني في الخارج والداخل في جوانب عديدة، ونحن في الداخل نكاد لا نعرف سواه، نتابع تصريحاته وخطاباته ورسائله، فهي البوصلة التي تحدد الوجهة في المسائل العامة. أما كيف تتحقق المسائل العامة في الملموس وفي تفاصيل العمل، وكيف نبني أدوات النضال، فهذا إبداع داخلي وجهد داخلي.

وربما يستغرب البعض إذا قلت أن تأثيرات الحكيم وصلت الزنازين، إذ ماذا أقول للحكيم إذا هزمت في التحقيق؟ فهو محفز على الصمود، ووصلت المسائل السلوكية: هذا التصرف لن يقبله الحكيم، وهذه المعالجة لا تتماشى مع منهجية الحكيم... فهو الغائب الحاضر دوماً الذي يرسم الطريق.

والحكيم تطور في المسيرة وتطورنا معه، ولغة التفاعل معه اتسعت في فترة الثمانينات بعد أن تمركز العمل وراح يراكم مداميكه فلا يتبعثر تحت ضربات الاعتقال.

وما كان يعلنه من مواقف سياسية، يحظى بالتفاف جارف ويجري التعبئة به على الفور، وفي المرات القليلة التي اختلف بعضنا في الداخل مع تاكتيكات مركزية، لم يتم الإعلان عن ذلك وبقي في أضيق الحدود التزاماً وانضباطاً بالموقف المركزي، من هذه الاجتهادات التباين حول مبادرة بريجنيف وتقييم الانتفاضة والبيرسترويكا، ولقاء بيكر الأول وبعض القرارات التنظيمية.[٢٠٧]

---

٢٠٧) قيادي في الجبهة الشعبية

يمكن القول إن تحليلات الحكيم، وهو مشهود له على هذا الصعيد، كصناعة فلسطينية صرفة يمتزج فيها الفكر النظري بالفكر السياسي، علاوة على المواقف المركزية للجبهة، بما للحكيم من حضور كبير فيها، وهو غالباً آخر المتحدثين في الاجتماعات المركزية، لكنه الأكثر أثراً، هي الخلفية التي اتكأت عليها مسيرة الداخل في كل أطوارها، بل زاد الاتكاء عليها في سنوات انتظام العلاقة ووصول التعاميم والبيانات ومجلة الهدف.

ولأنها ترقى إلى عنصر من عناصر الشرط الموضوعي الذي استندت إليه مسيرة الداخل، فمن الضروري سوق سلسلة مواقف ومقاربات.

(منذ ما قبل حزيران ٦٧ إلى أيلول ٧٠، كانت قيادة الحركة والجهاز الخاص بقيادة الدكتور وديع يهيئون الرفاق للمقاومة المسلحة، وهناك المئات جرى تدريبهم في مصر وسواها، ناهيكم عن تهريب وتخزين السلاح في الضفة، بل بعض كوادرنا انخرطوا في التنظيم الشعبي في غزة.

وفي ٦٧/١٢/١١ أعلن عن ولادة الجبهة الشعبية رسمياً بينما الاجتماعات والتدريبات والتحضيرات سبقت ذلك، حيث شهدت الأراضي المحتلة محاولات جريئة لعبور الحدود والاشتباك مع العدو وتخزين السلاح، وبعدئذ تسلل عدد من الكادرات.

كانت الدافعية الوطنية هي المحرك، والجرأة هي الراية المرفوعة ولم يكن الاحتلال قد أحكم قبضته على الحدود بعد، فالبعض استشهد والبعض أتم مهمته بنجاح.

اندفاعات متلاحقة، سيل من المجموعات تحاول الرد على هزيمة الأنظمة في حزيران، والتأكيد على أن الشعب الفلسطيني موجود وقادر على الرفض والمقاومة، لم تكن الأمور محكمة. فإمكانات العمل وخبرة العمل تنمو وتتعلم في أتون الممارسة، التي تعني فيما تعني الاستشهاد والاعتقال والتعذيب والأحكام العالية... والسلاح الأول كان الروح المعنوية العالية، والإرادة المقاتلة، والحكيم قال (حرب عصابات بعد فشل حرب الجيوش)، وكان في المقدمة، ووديع يعمل ليل نهار وأبو علي وسواه يجتازون الحدود للاشتباك مع العدو. الجيوش تفر شرقاً والرفاق يتسللون غرباً.. لوحة سريالية ولكنها مفعمة بالبطولة ومحاولة اقتحام السماء... لقد شق الفلسطيني من جميع الفصائل في تلكم السنوات طريق المستقبل) [٣٠٨].

ومن الضروري الإشارة هنا لبصمات الدكتور وديع حداد اتصالاً بمهامه فوديع ابن مدينة

---

٣٠٨) قيادي في الجبهة

صفد الفلسطينية تخرج طبيباً من الجامعة الأمريكية في بيروت، وسبقه لذلك الدكتور جورج حبش، كما الدكتور أحمد الخطيب (كويتي) وثلاثتهم من مؤسسي حركة القوميين العرب..

في أوائل الستينات من القرن العشرين ارتفع الصوت الفلسطيني داخل حركة القوميين العرب داعياً لمباشرة العمل المسلح بينما كان الحوار مستمراً بين قيادة الحركة (الحكيم ووديع وسواهما) والرئيس عبد الناصر. كان عبد الناصر يرى أن الوضع غير موات لعمل عسكري ضد إسرائيل، فانبثقت مقولة (فوق الصفر وتحت التوريط) أي القيام بعمل عسكري محدود لا يدفع "إسرائيل" للحرب. بما أتاح للحركة الحصول على دورات تدريبية في مصر.

عقد إقليم فلسطين في حركة القوميين العرب مؤتمراً عام ١٩٦٣ حضره الفلسطينيون من مختلف الساحات وانتخب وديع حداد قائداً للإقليم، وبعدئذ زار قطاع غزة وأقام في الأردن لأهداف سياسية. وفي ٢/تشرين ثانٍ/١٩٦٤ سقط أول شهيد للحركة هو خالد أبو عيشة، وفي العملية الثانية سقط قائد الدورية رفيق عساف وسعيد العبد سعيد ومحمد اليماني (شقيق أبو ماهر اليماني الذي أصبح لاحقاً عضواً في المكتب السياسي للجبهة الشعبية وعضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير..) كما أسر سكران سكران، وهذا كله سبق أول عملية لفتح في ١٩٦٥/١/١؟.

في المؤتمر الأول للجبهة الشعبية آب/١٩٦٨، كان الحكيم معتقلاً في سوريا، فبرز ميلين، أحدهما يغلب الجانب النظري ويعتبر الكفاح المسلح يأتي تالياً بعد بناء الحزب الثوري، والميل الثاني قاده الدكتور وديع ويرى أن بناء الحزب يتم في غمرة العمل اليومي الكفاحي وأن المجابهة مع العدو هي وسيلة تصليب الحزب وهو بذلك ينسجم مع فهم ماركس- لينين للممارسة، بل ولم تتردد مجموعة بقيادة الدكتور وديع في تدبير أمر خطف الحكيم من السجن دون أن تراق قطرة دم واحدة. وقبلئذ نفذت الجبهة عملية مطار اللد وبعدها في ١٩٦٨/١٢/١١ سقطت الشهيدة شادية أبو غزالة في نابلس جرّاء عبوة متفجرة، وبين هذه العناوين راحت الجبهة ترسم ملامحها.

وفي الوقت الذي كان فيه الدكتور وديع أحد ابرز المؤسسين للجبهة الشعبية، وعضواً في هيئتها القيادية، فقد تردد اسمه منذ اختطاف الطائرات في الأردن (أيلول/١٩٧٠)، في وكالات الأنباء والإذاعات والتلفزيونات، حيث اعتبر منذ ذلك اليوم حتى اغتياله ووفاته في ١٩٧٨ كأخطر رجل في الشرق الأوسط. بدأت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والغربية عملية مطاردة طويلة بحثاً عنه.[٢٠٩]

---

٢٠٩) شربل، غسان، أسرار الصندوق الأسود (٢٠٠٨) دار رياض الريس، ص٤٢

وعاش دائم التخفي ومناقلاته شملت الأردن، لبنان، الجزائر، العراق، اليمن، الصومال...

في تلك الفترة كان هناك حرص على عدم استخدام التكنولوجيا في الاتصالات، وعلى الكلام المرمّز والمراسلات المحكمة.. التزاماً بأمن العمل وسرية التنقلات والامتدادات. وقد عارض وديع منذ البدايات طغيان العلنية وتحول الفصائل الفلسطينية لجيوش علنية في الأردن ولبنان، وتفاعلاته مع الداخل كانت تشدد على ضوابط العمل السري وكان (يرى أن القوى المعادية تسعى في أحيان كثيرة لاجتذاب مناضلي العمل السري إلى دائرة الضوء ليسهل ضربهم)[٣١٠] وإجهاضهم، بل كان يرى في الظاهرة العلنية أحد أبرز نقاط ضعف العمل الفلسطيني جنباً إلى جنب مع نقطة ضعف أخرى هي العمل القطري تنظيمياً وسياسياً ونضالياً، مثلما كان يحذر من المعارك الجانبية، ومن هنا كان يدعو للمراجعة المستمرة سواء على المستوى التنظيمي أو السياسي أو الفكري أو النضالي، ودون ذلك لا يمكن تجاوز المرحلة..)[٣١١]

ومواقفه واضحة، حاسمة، وقد أعلنها حتى في لقائه مع أندروبوف قائد الكي جي بي في أيلول/١٩٧٤ (بلادنا واحدة لا تتجزأ، لم نفكر يوماً بدولتين، فلسطين محتلة ومن حق شعبنا أن يناضل لتحريرها. يمكن أن نتعايش مع اليهود في فلسطين. لو عرضت علينا كل فلسطين دون القدس أو صفد بلدي أو حيفا نرفض. خطنا هو الحرب الشعبية طويلة الأمد. جرّب العرب الحروب الكلاسيكية ولم ينجحوا)[٣١٢] أسس الدكتور وديع منظمة ضمت ثواراً عالميين وعرباً وفلسطينيين، لتأدية مهام تخدم النضال الفلسطيني. و(كان قادراً على مفاجأة الأعداء في باريس، لندن، روما، أثينا، نيروبي، إسرائيل... بمشاركة رفاق من جنسيات كثيرة وشبكات معقدة ووثائق مزورة وأسماء مستعارة... مجموعة تقوم بالاستطلاع وتقدم معلومات تفصيلية عن الهدف، ومجموعة ثانية تتولى نقل السلاح دون علاقة بالأولى، ويتسلم السلاح شخص منفصل عن المجموعة، والمنفذون لا يعرفون من قام بالاستطلاع أو من أوصل السلاح... وكان هناك معسكرات تدريب سرية تضم رفاقاً من جنسيات مختلفة تدربوا على الرماية والمتفجرات والاقتحام.. وأخضعوا لعمليات تثقيف... المعسكر السري كان أشبه بالغربال، في ضوء التجربة يتضح من يصلح للعمل العسكري أو التثقيفي أو الإداري.

---

٣١٠) شربل، المرجع السابق، ص٩٨

٣١١) شربل، المرجع السابق، ص٩٨

٣١٢) شربل، المرجع السابق، ص٩٨

فقد شرح وديع للمجموعة اليابانية الخطة كاملة: الصعود إلى الطائرة والأسلحة التي ستكون بحوزتهم وبينها قنابل صنعها المجال الخارجي لم تكن أجهزة المطارات قادرة على اكتشافها.. وتنقلت المجموعة وتدربت في سرية كاملة..)[٢١٣]

وعن أخلاقيته الثورية كما يصفه أحد رفاقه (لم يكن يميز الليل من النهار، يعمل ويرتاح ويعمل. لم يكن يخرج للمقاهي والمطاعم والسهرات... خياره واضح لا عودة عنه. رسم كل تفاصيل حياته من اجل الهدف الذي نذر نفسه له. لم يتعب أو ييأس، إنه محارب في سبيل قضيته.. يستمع إلى محاوره بانتباه وشغف. كان سخياً إلا على نفسه. كان زاهداً تماماً. لم تكن له حياة خاصة. حمل لعائلته وزوجته مشاعر فياضة غير أنه كرس نفسه لقضيته.

بنيته قوية ويلعب كرة الطاولة والقدم. ملابسه بسيطة، المال لم يعن له شيئاً. أحب الاستماع لوديع الصافي وفيروز. كان يحفظ أغنيات الشيخ إمام ويرددها. كان قارئاً ويحب شعر المتنبي وسميح القاسم ودرويش، ولغته العربية كما الانجليزية ممتازتان)[٢١٤] هذه الصفات كما سيناريو بعض العمليات رشحت للداخل.

(كان الشهيد وديع، قائداً استراتيجياً/ واسع الأفق، بذكاء استثنائي، وقدرة فائقة على التخطيط والتنفيذ لأعقد العمليات والمهمات، مقنعاً لرفاقه الذين ينظرون له بثقة عالية، دمثاً وحازماً في آن، قادراً على تنظيف الأوساخ، في وقت نرى هذه الأيام من هو غير قادر على تنظيف أوساخه، احترف العمل الثوري بأعمق وأغنى نماذجه، وكلمات لينين عن المحترف الثوري الحقيقي المبدع تنطبق عليه، وليس على الموظفين المخصيين الذين يتناسلون ويفسدون بعضهم بعضا، ومنسجماً مع كلمات ماركس (النضال بنكران الذات لأجل القضية التي لا يمكن إنقاذها من الانحطاط وبعثها إلى حياة جديدة إلا بالتحطيم الثوري للأوضاع). الدكتور وديع مرآة مقعرة للنقاء الثوري الذي يتجلى في الانجازات، إنه رجل المهمات الصعبة والمعقدة بما يتجاوز العقل المحلي، وكان استشهاده ومن قبله استشهاد غسان كنفاني ومرض الحكيم لاحقاً، نذيراً بسوء العواقب على مسيرة الجبهة في الخارج، وقد سمعت روايتين عن شعار (اعرف عدوك) الذي طرزته مجلة الهدف على غلافها، رواية تقول إن وديع اقترحه، ورواية ثانية تقول إن غسان كنفاني اقترحه... وعموماً الشعار مستقى من حكمة صينية (اعرف عدوك واعرف نفسك).

---

٢١٣) شربل، المرجع السابق، ص٥٠، ٥٩، ٦٢، ٧٨

٢١٤) شربل، المرجع السابق، ص١١٥

لقد تأثر البعض منا بشخصية وديع ورحنا نتسابق كيف نجترح مأثرة تتلاءم مع ظروفنا، مأثرة متميزة بعيداً عن هبوط هذه الأيام. ولما كنا كادرات شبابية تساءلنا لماذا يحاصر ويعتّم عليه، وقد احتجنا لوقت وخبرات إلى أن استوعبنا أن العمل الثوري يمكن أيضاً أن يعتريه اللغوصات والأنانيات والثقالات وان هذا حصل في غير تجربة عالمية. ولكن الحكيم بقي على موقفه ومشاعره الخاصة نحو الشهيد وديع. فالدكتوران هما العقل الإستراتيجي للجبهة، كل على طريقته وفي ميدانه.

ومرات تحدث الحكيم عنه، ومرات سمعت أحاديث من أناس عايشوه). ولربما يفيد استدعاء ما قاله الحكيم عن وديع في مقابلة صحفية (لوديع حداد من الخصائص ما لم أرها مجتمعة في شخص واحد.. صدقية عالية جداً جداً، ارتباط بالقضية لا حدود له، كان إنساناً ديناميكياً في عمله وصلباً في إرادته وجباراً في متابعة مهماته. لا مكان للخوف لديه، يعمل طوال الوقت ليلاً ونهاراً، كان بحق مبدعاً في قضايا التكتيك ولديه القدرة على اقتراح الخطوات ومتابعة وتنفيذ التكتيكات...[٣١٥]

(... أما الهدف الأساس من خطف الطائرات فهو محاولتنا إبراز القضية الفلسطينية لدى الرأي العام الغربي.. كنا مدركين أن عمليات خطف الطائرات لا تشكل عنوان مواجهة مع إسرائيل... عندما استنفدت هذه الوسيلة أغراضها وأدت وظيفتها قررنا وقفها.. بالطبع كان لوديع حداد الدور الأساسي فهو المسؤول الأول عن المجال الخارجي)[٣١٦]

وأول طائرة خطفتها الجبهة الشعبية كانت في ٢٣/تموز/١٩٦٨ المتوجهة من روما إلى تل أبيب حيث أجبرتها على التوجه للجزائر وإطلاق عدد من الأسرى الفلسطينيين.

والثانية في ٢٩/آب/١٩٦٩ إلى دمشق حيث جرى تفجيرها بعد إطلاق سراح الركاب، والعملية الثالثة شملت ثلاث طائرات إلى مطار الثورة في الأردن ١٩٧٠ وكان بين الركاب جنود أمريكان وإسرائيليون...

وهناك طائرة لوفتهانزا من نيودلهي إلى عدن في شباط/١٩٧٢ وقد تسلمت الجبهة ٥ ملايين دولار من ألمانيا، وتزامناً هاجمت المجموعة اليابانية مطار اللد، وقبلئذ قصفت الباخرة الإسرائيلية كورال سي في البحر الأحمر، وبعدئذ عملية وزراء نفط أوبيك في فيينا، وما بينهما أهداف إسرائيلية وأمريكية في طول عرض الكرة الأرضية ضمن شعار وراء العدو في كل مكان.

---

٣١٥) قيادي في الجبهة الشعبية

٣١٦) شربل، مرجع سابق، ص ٣٨٠، ٤١٢

كان وديع يركز على الفاعلية، فهي الأمر الحاسم، لا الرتبة ولا المرتبة ولا الراتب ولا الأضواء والابتسامات أمام الكاميرات.. وكان ينتقي الكوادر الملائمة لذلك، فمطلوب جهاز لتنفيذ سياسة لا جهاز معطوب متثاقل بلا روح في النزع الأخير، وبعض رفاقه الذين استقطبهم أصبحوا رؤساء حكومات ودول ووزراء في دول عربية وأجنبية، فهو يصطفي ذوي السجايا الخاصة وليس من يصطفون في الوسط أو قاع المزايا الإنسانية (رفاق يمثلون نموذجاً لم يعد شائعاً، إنهم انقياء في هذا العالم الملوث)[٣١٧] يتميزون بنكران الذات، وأن العمل السري هو الأنجح في مقاومة العدو وإيذائه... يتقيدون بقواعد صارمة، من بينها لا تعرف أكثر من مهمتك، ولا للاستعراضات والمهاترات واللهاث وراء المال..

وبالعودة للحكيم،

للحكيم تراث فكري سياسي غزير، يقع في آلاف الصفحات، بين كراسات ومداخلات وأحاديث صحفية وخطابات وتقارير تغطي مساحة زمنية تناهز ستة عقود، وتتصدى لإحداث وقضايا ومتغيرات.

إذا كان الدكتور جورج حبش كما وصفته دار نشر الفارابي (قائداً شارك في العمل السياسي الفلسطيني والعربي في مختلف مراحله منذ إنشاء الكيان الصهيوني في عام ١٩٤٨ حتى اللحظة، وكان له دوره ومكانه المؤثرين في مسار الصراع العربي -الصهيوني)[٣١٨] ها هي الأطروحة تسوق نماذج من أحاديث الحكيم يراعي فيها التسلسل التاريخي ما أمكن، وكانت النبع الذي ارتوى منه الآلاف في الوطن المحتل.

٣١٧) شربل، مرجع سابق، ص١٣

٣١٨) أزمة الثورة الفلسطينية، دار الفارابي (١٩٨٥) من التقديم ص٤

ما قبل عام ١٩٦٧.

١. (بعد النكبة جرت نقاشات في العروة الوثقى في الجامعة الأمريكية عن أسباب هزيمة ٤٨ يمكن تكثيفها بالخلاصة التالية: إن تفتت العرب وانقسامهم وغياب وحدتهم كان العامل الرئيسي) والحكيم يشير أيضاً إلى سقوط وتواطؤ وعجز الأنظمة التقليدية -الإقطاعية-.. و(كان خلافنا مع الشيوعيين على قرار التقسيم والاعتراف بإسرائيل، ومع البعثيين أنهم لم يضعوا القضية الفلسطينية في المقام الأول.

الأولوية لدينا كانت فلسطين.

من هنا قلنا إن المشروع الصهيوني المندفع مشروعٌ استعماريٌ توسعيٌ يستهدف عموم المنطقة العربية والأمة العربية، وبالتالي فإن مواجهته تكون من خلال مشروع قومي عربي يكون في رأس جدول أعماله تحرير فلسطين...

وقد انتقلنا في حركة القوميين العرب من شعار وحدة تحرر ثأر إلى وحدة تحرر اشتراكية، استرداد فلسطين...

خلال ثلاث سنوات بعد التخرج من الجامعة في بداية الخمسينات أصبحنا نوازي أحزاباً عريقة كحزب البعث والحزب الشيوعي وأصبحت حركة القوميين العرب إحدى القوى الرئيسة الثلاث في الأردن وفلسطين...)[٣١٩]

٢. (قيام الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨، خصوصاً أنها تمت بين أكبر بلدين عربيين مجاورين لفلسطين..

ثار نقاش داخل صفوف الحركة حول مشروعية بقاء الحركة وقد أصبح للوحدة العربية قيادة رسمية.. كان رأيي أن قيادة عبد الناصر هي القيادة الرسمية، ولكن ماذا عن الجماهير وقيادتها، فهي بحاجة لقيادة شعبية مما يوجب استمرار الحركة..

بعد انفصال الوحدة أوفدنا الرفيقين هاني الهندي ومحسن إبراهيم لمناقشة عبد الناصر، وقد اختلفنا حول أسباب فشل الوحدة... كنا نرى أن السبب الأساسي يعود لغياب الديمقراطية وتسلط الأجهزة الأمنية وسيطرتها على العمل السياسي مما أفرغ الوحدة من أي مضمون ديمقراطي

---

٣١٩) شربل، غسان، مرجع سابق، ص٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٣

وجعل الوحدة وكأنها قرار مفروض.. إضافة إلى ضيق أفق كبار الضباط الذين قادوا الحياة السياسية في سوريا.. أما عبد الناصر فأعاد الأسباب إلى التآمر الخارجي.)[٣٢٠]

٣. (بمناسبة افتتاح السد العالي تم اللقاء الأول بيني وبين عبد الناصر، وجرى تداول كثير من الموضوعات وفي طليعتها الوضع في سوريا بعد الانفصال، وأزمة العمل القومي وضرورة إخراجه من أزمته عبر فتح بوابة الصراع مع العدو الصهيوني والبدء بالعمل المسلح الفلسطيني، إلا أن عبد الناصر لم يكن متحمساً لأن الوقت غير ملائم لمواجهة مع إسرائيل وأمريكا.. ولكنه وافق على تقديم مساعدة للإعداد.. والحقيقة أنني ألححت على عبد الناصر بناء على إلحاح الرفيق وديع حداد) وفي لقاء الحكيم مع فؤاد مطير ذكر أن (اللقاء تم في منزل عبد الناصر، وأن اللقاء خلا من ضغوط الرسميات.. وكان في ذهني موضوعان أساسيان، الأول يتعلق بإحياء حركة الجماهير والثاني يتعلق بمسألة الكفاح المسلح في الجنوب العربي والثورة المسلحة في فلسطين، وكنا نرى أن العمل الثوري هو الكفيل بتوليد الظروف لمواجهة الإمبريالية.. وكان عبد الناصر يؤمن إيماناً حقيقياً بإمكانية تحرير فلسطين بالكفاح المسلح والخلاف كان على التوقيت)[٣٢١]

٤. (اخذ العمل الفلسطيني مكانة رئيسية في حركة القوميين العرب منذ العام ١٩٦١ حين بدأنا الإعداد للعمل الفدائي المسلح.. كان لدينا جناح خاص بالعمل الفدائي بإشراف الرفيق وديع حداد)[٣٢٢]

٥. (نحن لم نكن ضد تأسيس منظمة التحرير.. لكننا لم نكن راغبين في القول لجماهير شعبنا إن منظمة التحرير هي طريق تحرير فلسطين، لأننا نظرنا إليها كجزء من النظام الرسمي العربي في تلك الفترة.. وبالمناسبة إننا كقوميين عرب شاركنا في مؤتمرها التأسيسي الأول من خلال وديع حداد وأبو ماهر اليماني وأرسلنا بعض الكوادر للتدريب من خلال بعثات جيش التحرير.. ولاحقاً استطاع أبو عمار التقاط اللحظة المناسبة والسيطرة على منظمة التحرير بمساعدة عبد الناصر وبعض الدول العربية..

---

٣٢٠) شربل، المرجع السابق، ص٣٦٢

٣٢١) مطر، فؤاد، حكيم الثورة (١٩٨٤) دار هاي لايت، لندن، ص٩٢، ٩٦

٣٢٢) شربل، مرجع سابق، ص٣٦٩، ٣٧٠

كنا نعتبر المجموعات التي أسستها فتح مجموعات وطنية متحمسة لقتال إسرائيل وممارسة الكفاح المسلح، وانطلاقاً من هذه الرؤية أجريت اتصالات عام ١٩٦٦ مع الأخ هاني الحسن وبعض قيادات فتح للعمل على تشكيل جبهة وطنية عريضة، غير أن فتح لم تستجب.. كانت علاقتي مع فتح قبل عام ١٩٦٧ من خلال هاني الحسن، ولقاءاتي مع عرفات كانت بعد ٦٧. والانطباع الذي تركه لدي أنه يفكر في شخصه أكثر مما يفكر في شعبه، إذ كان يرغب على الدوام في تشكيل هالة كبيرة لنفسه، وهذا حكم الكثير من تصرفاته ومواقفه السياسية، وهذه الخاصية ربما تضخمت مع الزمن)[٣٢٣]

وفي حديثه مع الصحفي فؤاد مطر قال (إن حركة القوميين العرب هي وليدة نكبة ١٩٤٨.. كنا نرى أن القومية هي الأساس في تنظيم المجتمعات وأن الثورة العربية تمر بمرحلتين متشابكتين متمايزتين في الوقت نفسه، مرحلة الثورة السياسية ومرحلة الثورة الاجتماعية.. وكانت رؤيتنا تدعو لإقامة جبهة تضم كل القوى الوطنية والقومية.. واعتبرنا أن الإيمان بالأمة العربية وحقها في التحرر واسترداد فلسطين هو الحد الأدنى.. إن نشأة الحركة تميزت بطابع جيفاري حيال المسلكية الشخصية للثوريين.. وفي البدايات كان نشاطنا محصوراً في أربعة بلدان هي الأردن وفلسطين وسوريا والكويت، وبعدها مصر وو.. وفي مرحلة التأسيس كان طابع الحركة طلائعياً وفي المرحلة الثانية أصبحت تنظيماً جماهيرياً.

لم نكن في البداية نملك نظرية ثورية، وهذا أوقعنا في أخطاء كثيرة سياسية وتنظيمية..)[٣٢٤]

وفي موضوعات حول الثورة أشار الحكيم (إن مجابهة إسرائيل والانتصار عليها هي مهمة من مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية العربية.. وهذا يتطلب تعبئة كافة القوى المحركة للثورة وتوفير الظروف الملائمة لنمو حركة الجماهير عامة وجماهير العمال والفلاحين والفقراء على وجه الخصوص.. إن عجز الثورة يكمن في قيادتها الطبقية البرجوازية الصغيرة.. إن تخطي القيادات هو الحل لأزمة الثورة العربية التي باتت تعيش أزمة متفاقمة لن تخرج منها إلا ببرنامج جديد ونهج جديد وصيغة جديدة للعمل الثوري)[٣٢٥]

وفي مقالته «الانتفاضة محطة نوعية» أنشأ (لا ينبغي تغييب الوطني لصالح القومي أو الانغلاق

---

٣٢٣) المرجع السابق ٣٧١

٣٢٤) مطر، فؤاد، حكيم الثورة (١٩٨٤) دار هاي لايت. لندن ص٤٤، ٤٦، ٤٧، ٥٧، ٩٣

٣٢٥) حزب العمل الاشتراكي العربي، موضوعات حول الثورة والثوريين العرب. أوراق حمراء، ص١٩، ٢١، ٢٨

على الوطني ونبذ القومي)[٣٢٦]

وإسناد الداخل الفلسطيني (لقد تمثلت المحاولات في إرسال الأسلحة والذخائر والكوادر والقيادات والمقاتلين إلى الأرض المحتلة.

اصطدمت هذه العملية بعوائق أهمها: ١) الإجراءات الأمنية الشاملة من سلطات الاحتلال والتي أدت لاعتقال وطرد المئات. ٢) الطابع العفوي الناجم عن ضعف الخبرة والتنظيم. بما أدى لإخفاق محاولاتنا تعزيز ركيزة الثورة في الأرض المحتلة، تزامن ذلك مع وجودنا في الأردن مما أتاح القيام بعمليات عسكرية حدودية بما أعاد الاعتبار للكفاح المسلح خصوصاً بعد معارك المواجهة البطولية في الكرامة والوحدات والأغوار.

وإن انشغالنا بالدفاع عن البندقية الفلسطينية في وجه مؤامرات التصفية قد أدى إلى تبديد جزء رئيسي من إمكاناتنا بما اضعف إسناد الداخل.. وقد انتهت هذه العملية في تموز ١٩٧١ وانتقل مركز ثقل الثورة للبنان)[٣٢٧].

٨. كرر الحكيم مراراً مقولات (الخط السياسي السليم، والخط القتالي السليم)، وأن (لا تنتهك السياسة الأيديولوجيا) وهو كمثقف ثوري أولى أهمية للثقافة والمثقفين (فالإطار النظري-الفكري للممارسة السياسية بحاجة للتبلور.. إن تحدي البحث عن الإجابة العلمية على التساؤلات ينبغي أن يظل ماثلاً أمامنا أحزاباً وفصائل ومثقفين.. إن سلاح النقد والمراجعة وتقييم المسيرة وتسليط النار على كل ما رافق تجربتنا من أزمات ومشكلات هو نقطة البدء)[٣٢٨]

(قد نواجه هزيمة عسكرية أو اثنتين وهذه مشكلة. ولكن في تقديري ليست كارثة، وقد يلي الهزيمة العسكرية كما حصل في عام ١٩٦٧ انهيار سياسي، وهذه مشكلة مضاعفة، ولكنها أيضاً ليست كارثة. فالأمور ستعود للاستقامة، ولو بعد حين، ولكن الكارثة تحدث عندما تنهار الجبهة الثقافية-النظرية. إن هذا الانهيار، يمتد ليصل إلى عمق الإنسان، نعم الإنسان الذي يشكل الأساس لأي نصر عسكري أو سياسي. إذن فخطورة الانهيار الثقافي-النظري، تنبع من كونه يصيب البنية الداخلية الذاتية للمجتمع، يدمر الروح المعنوية، والإرادة والتصميم)[٣٢٩]

٣٢٦) حبش، جورج، الانتفاضة محطة نوعية، ص٢٥

٣٢٧) حبش، جورج، أربعة نصوص (١٩٨٩) دار الشعلة، ص١٧

٣٢٨) المرجع السابق ص٣٣

٣٢٩) الغول، عمر حلمي، الانتفاضة (١٩٩٠) مؤسسة عيبال، ص ١٠،٩

وقد رأى في غسان كنفاني المثقف والأديب والإعلامي والثوري رمزاً للإبداع «عرفته في الخمسينات، كان شاباً واعداً متحمساً فقيراً يتعثر في الليالي لتأمين خبز أسرته. في إبداعه الأدبي معطاء، سيالا يغرف من بحر التجربة ليبدع الصورة الأروع والأصدق، ويعود له الفضل الأكبر في تقديم الأدب الفلسطيني والأدباء الفلسطينيين في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ودور أهلنا هناك. كانت له باع طويلة في السياسة بما له من دور قيادي في الجبهة، وكان محاوراً ديمقراطياً حين تتفق معه أو تختلف. واستطاع بعقله الشامل أن يقوم بدور إعلامي بارز في إيصال القضية الفلسطينية إلى الرأي العام العالمي، كما أنه كان من المتابعين الجيدين للفكر والفلسفة الغربيين. عبقريته تكمن في قدرته الخارقة على الإحساس باللحظة والتعبير عنها. إنه بأمانة لغز بديع في عقله وطاقته التي لا حدود لها وروحه الفاعلة المتحفزة دوماً للعمل»[٢٣٠].

ومن توجيهاته (إقرؤوا هيجل قبل ماركس، سان سيمون وريكاردو وآدم سميث، ابن خلدون وابن رشد، ولينين وجيفارا وسمير أمين، إقرأوا بنفنستي وتجارب القادة الصهاينة.. هل تتابعون الصحف العبرية وتقرير مراقبة أمن الدولة.. وما آخر ما كتبه شاحاك وعوز، وصدر كتاب لابن شاريت هل ثمة ترجمة عربية أو انجليزية. وماذا يقول المؤرخون الجدد وما بعد الصهيونية، بما ينسجم مع كلمات ادوارد سعيد (في سعينا نحو العدالة لا يكفي أن نعرف أنفسنا، على معرفتنا أن تكون كالرحالة في اكتشاف الآخرين).. أكثروا من قراءة الأدب وأشعار درويش والقاسم وكنفاني والأقلام الشبابية.. إقرؤوا كتاب فيصل دراج «بؤس الثقافة» لما فيه من جوانب مفيدة، فقد تخلفت المؤسسة السياسية والكثير من الطلاء إنما يهدف لإخفاء الخيبات المتلاحقة)[٢٣١].

وهو قوة مثال للكثيرين (الرجل الرسالة الذي جعلني أعيش حالة انخطاف على امتداد زمني الواعي، فكان عنصراً فاعلاً في صنع صفحات من تاريخ أمتنا في مرحلة هبوب رياح التحرر القومي، وعنصراً متصدياً لمرحلة الردة وحراكها الطبقي اليميني، وثائراً طليعياً على الزمان والمكان اللذين نجما عن التطهير العرقي وعذابات شعبنا المشرد، فامتشق راية الكفاح العنيد في زمن الهزيمة والذلة متجشماً ببطولة أسطورية تحديات ومخاطرات أن يكون في المقدمة والاستدارة بشعبنا من طوابير الإعاشة إلى كتائب الفداء في سبيل قضيته العادلة.. وعلى مدار ستة عقود، انغمس الحكيم، بجماع شخصيته، وكما وصفته مجموعة فرنسية (لم نعرف قائداً أخلص وتفانى كما أخلص الحكيم وتفانى) سائراً على الأشواك والألغام في منعطفات شتى، ومخاضات كبرى،

٢٣٠) شربل. مرجع سابق. ص٤٠٩، ٤١٤

٢٣١) قطامش، أحمد، حبش القائد الكرزماتي. هل رحل أم رحل المشروع الذي يمثل. القدس ٢٠٠٨/١/٢٩

اتسعت للمد والجزر، لمؤامرات الذبح السياسي والذبح العسكري.. فمحايثة الحكيم أن يكون حيث التمرد والثورة، ولكن ليجسد حالة من الرقي والإبداع وغزارة الخيال..

لقد اختبر حياة السجون وحياة التخفي، وعاش طريداً مستهدفاً سنوات وسنوات لا يستقر على حال.. مسيرة الحكيم ملحمية، نقلت الأسطورة الإغريقية إلى رواية واقعية من لحم ودم.. تحركه الأحلام، فهو حالم عظيم، وكما العنقاء يخرج من تحت الرماد، وكما طائر منيرفا الذي لا يأتي إلا عند الغسق.. وينخرط حد النخاع في الراهن وتعقيداته ومعاركه الفكرية/ السياسية/ القتالية/ مترسماً طريق المستقبل.. والذين عايشوه يعرفون مدى رهافته ونظافة قلبه ولسانه ويده.. يصغي برهافة وانتباه للصغير قبل الكبير.. رجل متفولذ طوّقته شظايا الصواريخ وزخات الرصاص مرات ومرات.. قارئ عميق للتاريخ، ويعرف أن لا أحد يحالفه اليقين، ولكن ثمة ما يكفي ليقول (لا مستقبل للعنصرية، ومساومتها تزيدها شراهة، أما المستقبل فهو للإنسانية والعدالة..

يتمتع الحكيم بقوة معنوية هائلة، لا تعرف الفتور، قادر على استنهاض همة أعداد كبيرة من الناس.. إنه منظّم من طراز رفيع أثبت مقدرته على تأسيس وقيادة حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية التي كانت قوة ثانية تحت قيادته حتى أوسلو.. له إشراقاته البعيدة عن النمطية، ومن جايلوني عزفوا على لحنه مفعمين بأمثولته فهو عامل التحفيز الأعظم الذي يضيء عتمة الأسئلة والمسالك الغامضة، إضافة إلى أنه شخصية موحية بشّرت بطول النفس وإمكانية الانتصار)[٣٣٢].

استطرادات للحكيم

أولاً: (إننا نسترشد بالماركسية منهجاً وأداة تحليل دون الاستغراق في تفاصيل قضايا الماركسية- اللينية التي ارتبطت بتفاصيل التجربة الروسية وبعض التجارب الأوروبية.. والاسترشاد مرهون بكيفية فهم النظرية والقدرة على فهم واقع معيّن ومرحلة معينة. فجوهر الماركسية هو المنهاج الذي تمثله في رؤية الأمور وتحليلها.. وفهمي منذ الستينات يقوم على أن الماركسية دليل عمل مرتبط بعلاقة جدلية بالممارسة التي تغني النظرية وتجعلها في حالة نمو وارتقاء.

وبالتالي استخراج إستراتيجية العمل التي تحدد طبيعة المرحلة وطبيعة المعركة وتحديد القوى المتصارعة والإحاطة بالظروف الموضوعية.. وفترة الاعتقال في سوريا ١٩٦٨ من أغزر الفترات

٣٣٢) قطامش، المرجع السابق، القدس ٢٠٠٨/١/٢٩

التي قرأت فيها الماركسية)[٣٣٣] والحكيم هنا ربما ينسجم مع كلمات ماوتسي تونغ قائد الثورة الظافرة في الصين (يجب على الماركسية أن تأخذ شكلاً قومياً قبل تطبيقها، وليس هناك ماركسية مجردة، بل ماركسية محددة، أي الماركسية التي طبقت على الكفاح المحدد والظروف المحددة، ولو أن ماركسياً صينياً تحدث عن الماركسية دون خصوصيات صينية فحينها يكون محض تجريد فارغ)[٣٣٤]

والحكيم برع في قراءة لوحة التناقضات وجدليتها، وكان يميّز بين الأساسي والرئيسي، والثانوي والمؤقت والعارض.. دون الخلط بينها، مستقرئاً الأساس الاقتصادي- الاجتماعي للبنية الفوقية والسياسية، بما في ذلك مزايا النخب وطباع الأفراد. ومن هنا أجاب على سؤال الصحفي شربل بالقول (اسمح لي ونحن نعالج موضوع التناقضات في الحركات السياسية أن أتساءل: كيف نقرأ التناقضات الراهنة والمعاصرة وما هي المناهج والأدوات التي يجب استعمالها وتوظيفها في عمليات التحليل والتركيب والاستنتاج ولاحقاً إعادة بناء صورة التناقضات.

ألاحظ خفة وسطحية وتسرّعاً في أحيان كثيرة. لذا أدعو الباحثين ورجال العلم إلى استحداث أدوات تحليل ومناهج متجددة وعلمية لدرس وقائع وحقائق اجتماعية- اقتصادية وسياسية جديدة ومتجددة تجاوزت أدوات التحليل الكلاسيكية والتقليدية...)[٣٣٥]

وهو منفتح العقل واسع الصدر، لا يتزمت في رأيه ولا يزعم احتكاراً للحقيقة متمثلاً منطق هيجل-ماركس:

أ= أ+ب، أ+ب=ج، أي التناقض والتطوير، ومن هنا قال (بعد مناقشة ديمقراطية عميقة لكل قضايا الخلاف توصلنا إلى قواسم مشتركة واستطعنا الخروج بموقف سياسي موحد كانت محصلته متقدمة عن وجهة نظر أي من الاتجاهين)[٣٣٦]

وأعلن قيادي في الجبهة: بصراحة، وعلى امتداد عشر سنوات، بقينا مشدودين لكلمات ماركس: أنا لست ماركسياً،، وكلمة ماركس تحمل معنىً يرفض الجمود العقائدي والنمذجة، وهو في نفس الوقت يحذّر (إياكم والتنازل النظري، إياكم والمساومة على المبادئ). وقد بقينا متشبثين

---

٣٣٣) شربل، مرجع سابق، ص٢٩٠

٣٣٤) ماو، تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (١٩٣٨) ص١٣

٣٣٥) شربل، نفس المرجع، ص٣٦٠

٣٣٦) شربل، نفس المرجع، ص٣٦٠

بقناعاتنا ومواقفنا من الإمبريالية والصهيونية والرجعية والبرجوازية الاستغلالية، وسياساتها ورؤاها وتحليلنا للمشروع الصهيوني واضح حاسم، وقتالنا لتحرير فلسطين واضح حاسم، رغم مجافاة الظروف، وكانت تعبئتنا الداخلية عميقة في هذا الميدان سيما على صعيد الكادر، ووحدتنا لم تتزحزح، حتى عندما ارتبكت الساحة الفلسطينية في السبعينات حول المرحلي والإستراتيجي وجاءت كلمات الحكيم قاطعة (إن فهمنا للهدف المرحلي لا يمكن أن يكون بأي شكل من الأشكال تخلياً عن الهدف الإستراتيجي.. أنا جورج حبش مواطن فلسطيني من مدينة اللد، لا يمكن أن أقبل بألا تكون ارضي وأرض أجدادي لي ولأبنائي وأحفادي.. لم أكن يوماً ضد اليهود.. لن نطردهم، وسأبني طبقة ثانية فوق بيتي وأسكن العائلة اليهودية التي تسكن في بيتي اليوم)[٢٣٧]... والسلطات الصهيونية هدمت بيت الحكيم عام ٢٠٠٨.

رافضاً بصورة مطلقة الاعتراف بإسرائيل كجسم نشاز وعنصري، لا يمكن التعايش معه، في نضال تاريخي مديد نحو دولة ديمقراطية في عموم فلسطين. و(هل صحيح أن إسرائيل أرادت فقط أن تكون دولة للمجتمع اليهودي في فلسطين، أم أنها بالممارسة شكلت وحشاً استعمارياً تمدد ليحتل عموم فلسطين وأراضيَ عربية أخرى، بل أصبحت في نفس الوقت شرطي الإمبريالية لضرب حركة التحرر الوطني العربية)[٢٣٨]

ثانياً: بناء الحزب الثوري (الضمير الجمعي) لينين، الذي ينبغي أن تتوافر فيه شروط قيادة العملية النضالية التحررية، فهو الحلقة المركزية الأشد تعقيداً، حزب طليعي في إطار جبهة وطنية متحدة كما جاء في الإستراتيجية السياسية (١٩٦٩). والطليعة ليست لقباً يخلع بل اعترافاً شعبياً، ومن هنا جاءت قناعات الحكيم بإمكانية تحول تنظيم يساري ثوري وليس (فجل أحمر من الخارج وأبيض من الداخل) كضرورة سياسية وعمل طليعي واع، إذ (أدركت الجبهة الشعبية منذ البداية أن الحزب ليس مسألة ثانوية في النضال بل أساسية، إنه الحلقة الأشد استعصاءً في مراحل نضالنا، وتجارب الشعوب برهنت أنه دون حزب ثوري يعبئ وينظم ويخطط ويقود لا يمكن أن تنجح الثورة.. إنه السلاح التنظيمي القادر على تعبئة الجماهير وخوض النضال هو الحلقة المركزية.. والحزب الماركسي-اللينيني الفيتنامي كان كلمة السر والعامل الأساسي في صمود وانتصار الثورة، فوجدت الجبهة لتعطي الثورة الفلسطينية حزبها الثوري القادر على مجابهة المخططات وإدارة المعارك، حزب يسترشد بالماركسية- اللينينية، ويحدد طبقات الثورة ودور ونهج كل طبقة ويقرأ

٢٣٧) د. حبش، جورج، مقابلة مع الأنباء اللبنانية (١٨/١١/١٩٨٨)

٢٣٨) المرجع السابق

الخصوصية الفلسطينية ويربط النضال السياسي بالعسكري بالجماهيري والثقافي والنقابي في ترابط الوطني مع القومي بإقامة أوسع العلاقات مع الحركات الثورية العربية والبلدان الاشتراكية.

وحددت الجبهة هدفها الاستراتيجي بتحرير كامل التراب الوطني، وإقامة الدولة الديمقراطية وإستراتيجيته حرب الشعب الطويلة الأمد كطريق للتحرر.. والوحدة الوطنية على قاعدة البرنامج السياسي..

أما شروط تحول الجبهة لحزب ماركسي-لينيني فهي ١- البناء النظري ٢- البناء الطبقي باستقطاب العمال والشغيلة والطلبة والمثقفين. ٣- استيعاب أدبيات الجبهة بما يكفل تدفق الحيوية وتحقيق الوحدة الفكرية السياسية/ التنظيمية. ٤- الالتزام بالنظام الداخلي على كافة المستويات فهو الناظم والدستور ٥- الحرص على المركزية الديمقراطية والنقد الذاتي ٦- اكتساب التقاليد الحزبية السليمة التي تخدم بناء التنظيم وتصعيد فعالياته ٧- التلاحم مع الجماهير، فهي صانعة التاريخ، بما يتطلبه من كادرات وتأطير وتفعيل ٨- المسلكية الثورية باعتبار العضو، شأن التنظيم، قدوة وقوة ومثالاً ٩- الارتقاء إلى مستوى المهمات التاريخية بصدق وعزم وتفانٍ ١٠- النضال ضد مظاهر الانتهاز اليميني والانتهاز اليساري والبيروقراطية والكسل والخمول والتقصير ١١- تطوير المصادر المالية بالالتزام بالاشتراك وإقامة المشاريع الإنتاجية وجمع التبرعات.

أما الشعار العام فهو (لنعمل من أجل تقوية جبهتنا تنظيمياً وأيديولوجياً وسياسياً وجماهيرياً)[٣٣٩]

من الواضح أن أحلام الجبهة حينذاك قبل نيف وثلاثة عقود كانت كبيرة، ومن الواضح أيضاً أن ثمة نواقص ذات شأن في الشروط، من نوع عدم ذكر المتغيرات التي ينبغي تمثلها والإنتاج الفكري والإبداعي الذي يواكب ذلك، وعدم ذكر موضوعة المرأة وحضورها وحضور العمال بصورة واضحة، كمعيار، في التراكيب القيادية وعدم الوضوح الكافي بشأن البنية التنظيمية وتماسكها وانتشارها ومستوى فاعليتها، وذات الشيء بالنسبة للمبدعين بما لهم من دور خاص، دون أن ننسى أن الجبهة ومجلة الهدف كانتا معبراً لكثير من المثقفين والمبدعين دون أن تنجحا في أن تكونا مستقراً، ورغم أن الجبهة فصيلة فدائية من ناحية الأساس، وتنطلق من مقولات الكفاح المسلح وحرب العصابات والتناقض التناحري مع المشروع الصهيوني كما هو مسجل في عشرات من أدبياتها، غير أنه كان لافتاً عدم التطرق بما يكفي من قوة بأن الفعالية القتالية هي أحد

٣٣٩) تعميم المكتب السياسي ١٩٧٧/١٢/١١

المعايير الأساسية في التحول اليساري اتصالاً بطابعها كفصيلة فدائية ورؤيتها الأيديولوجية لطبيعة الصراع.

وفي الفصل الثالث يتعرض الكتاب للتركيبة الطبقية والنوعية للجبهة في الداخل كما نجاحاتها وإخفاقاتها ومقاييس التحول لحزب يساري.

ثالثاً: يستطرد الحكيم (إن إيماننا بحتمية الانتصار يستند إلى تصميم شعبنا على النضال المتصل.. على ما تختزنه جماهير أمتنا العربية من طاقات في مختلف الميادين.. وما تبرهنه حركة التاريخ من انتصارات متلاحقة للشعوب.

إن اتفاق الوحدة الوطنية الذي تم في طرابلس الذي رفض بشكل قاطع قراري ٢٤٢، ٣٣٨، ورفض مؤتمر جينيف ومبدأ الصلح والاعتراف والتفاوض مع العدو الصهيوني إنما يقوم على أسس سياسية سليمة، وعليه فإننا نؤكد لكم استعدادنا لضرب تحية انضباط لمنظمة التحرير، وندعو لعقد دورة استثنائية للمجلس الوطني تضع برنامجاً سياسياً يستند لهذه الأسس.. بعد المجلس الوطني علينا أن نقف أمام اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي والمؤسسات الشعبية على أساس ديمقراطي وعلمي.. ويجب أن نعرف أن أعداء الثورة لن يرتاحوا لوحدة الفصائل الفلسطينية.

من المفروض أن تترجم الوحدة الوطنية نفسها بتصعيد النضال العسكري والسياسي والجماهيري..

ومن تجربة الثورة الفلسطينية نستطيع أن نعرف أهمية عامل التصميم، التصميم على النضال، عامل المثابرة على التضحية.. فرغم المعارك والمؤامرات مازالت بندقيتنا مرفوعة.

قناعتي بأن الثورة الفلسطينية في مواجهتها لأشرس عدو استيطاني مستند إلى الإمبريالية الأمريكية لا يمكن أن تنتصر إلا إذا استندت بعد تأكيدها على هويتها واستقلاليتها، إلى كل حركة الجماهير العربية وكل حركة الثورة العالمية.. إن الثورة الفلسطينية حليف طبيعي لكل القوى الوطنية والتقدمية العربية) [٣٤٠].

ومعروفة الصلابة الأخلاقية لدى الحكيم، فهو في مختلف معاركه السياسية والعسكرية، لم يعرف الوهن حتى آخر أيامه، وقد أعلن مرات (أنا لا أعرف اليأس مطلقاً فيما يتعلق بقضيتي

---

٣٤٠) د. حبش، جورج. خطاب في ١٩٧٧/١٢/١١، ص٤، ٦، ٨، ١١

الوطنية وقضايا أمتي العربية، لأنني مؤمن بعدالة قضيتي وضرورة النضال من أجل تحرير فلسطين. ومؤمن بطاقة الأمة العربية وبإمكانية انتصار المشروع القومي العربي على المشروع الصهيوني)[٣٤١].

أما تعميم المكتب السياسي ١٩٧٧/١٢/١١ فقد نوه بأن (الجبهة وجدت لكي تعطي الثورة الفلسطينية بعدها القومي.. بربط الثورة الفلسطينية ربطاً عضوياً ملموساً بالثورة العربية، وربط حركة الجماهير الفلسطينية بحركة الجماهير العربية.. إن نهج انكفاء النضال الفلسطيني قطرياً والظن بأن تحرير فلسطين يمكن أن ينجز بالاعتماد على القوى الذاتية الفلسطينية هو استجابة لمتطلبات الأنظمة الرسمية العربية.. إن شروط الانتصار تتطلب توفير نظام أو أنظمة حكم وطنية ديمقراطية في البلدان العربية المحيطة بفلسطين لتأمين قواعد ارتكاز آمنة.

لقد كانت الجبهة من أوائل القوى التي استطاعت أن تكشف مؤامرة التسوية السياسية التصفوية (كامب ديفيد) وقد تصدت لهذه المؤامرة.. مثلما تصدت بكل إمكاناتها لحماية الثورة من أعدائها وحمايتها من الانحراف عن أهدافها السياسية الإستراتيجية..

لقد ثبت بشكل قاطع أنه مجرد وهم الحديث عن حلول سياسية وطنية في ظل ميزان القوى القائم.. وأن الحلول المطروحة مهما تبدلت أشكالها تبقى في محصلتها النهائية حلولاً إمبريالية -صهيونية- رجعية).

ومثابة نبوءة جاء تحليل الحكيم لمسار كامب ديفد ١٩٧٨ بأنه (انتقال نظام السادات لموقع الاعتراف والتفاوض مع الكيان الصهيوني نتيجة تراكمات النهج الاقتصادي والسياسي الذي تتبعه البرجوازية العربية.. إن هذه التغيرات الاقتصادية الطبقية ستحكم إلى حد بعيد مجريات الأمور المقبلة في المنطقة...

السادات يمثل الطبقة الجديدة من سماسرة وكومبرادور المتحالفة مع الإقطاع الريفي.. والمركز الإمبريالي على ضوء نظامه العالمي لتقسيم العمل اتخذ قراراً بحل النزاع السياسي.. والاقتصاد الصهيوني يتطلب انفتاحاً على المناطق المحيطة... وهدف التسوية تثبيت الكيان الصهيوني كقاعدة متقدمة للإمبريالية وإزالة تعارضاته مع القوى العربية المرتبطة بالإمبريالية، وإقامة حلف لضرب بؤر التوتر المناهضة للإمبريالية الأمريكية، علاوة على تأمين إمدادات النفط،

٣٤١) شربل، مرجع سابق ص٤٠٢

ومن برنامج المواجهة يحدد الخطوط التالية:

١. النضال لتحقيق الوحدة الوطنية

٢. تعبئة جماهير الأرض المحتلة وتعميق نضالاتها ضد مؤامرة الحكم الذاتي والضرب على أيدي المتعاونين مع العدو

٣. حماية البندقية في لبنان وزيادة قدراتها القتالية وتصعيد العمل المسلح. وبعدها ينتقل للمهام التكتيكية عربياً...

ويستخلص (على ضوء تقييمنا لواقع حركة التحرر العربية سواء التي في السلطة أو خارجها فهي غير قادرة على المجابهة الجذرية للتحالف الجديد المنبثق عن كامب ديفيد.. بما يوجب بناء التنظيم الثوري العربي الموحد. دون ذلك ستبقى حركتنا الوطنية العربية معرضة للهزات والنكسات.

ويضيف: إن المصالح المادية للرجعية العربية والبرجوازية المستسلمة تضعها في معسكر الخصم وضمن التحالف المعادي. ونهج السادات هو نهج طبقة، ولقاء التهامي،-ديان في المغرب برعاية الملك الحسن مهدت لزيارة السادات للقدس.. معروفة مقولة الملك عن تزاوج العبقرية الإسرائيلية بالمال العربي.

ويختم: تسعى الإمبريالية والصهيونية لتصفية القضية الفلسطينية التي هي صلب مشكلة الشرق الأوسط من خلال الحكم الذاتي الساداتي-البغيني بما يحمله من أبعاد خطيرة بتكريس السيطرة الصهيونية على مجمل الأراضي الفلسطينية والاعتراف بالسيادة الإسرائيلية على كامل فلسطين.. وفصل قضية غزة والضفة عن قضايا الفلسطينيين في الخارج وتصفية قوات الثورة في الخارج.. كما إعطاء العدو الصهيوني فرصة تغيير ديموغرافية فلسطين بإطلاق عملية لتهجير الفلسطينيين واستقدام مستعمرين صهاينة)(٢٤٢) مثل هذه الرؤية تحققت صوابيتها في السنين اللاحقة وهي بطبيعة الحال المرجعية التي تعبأت بها الجبهة في الداخل بما أبقاها مناهضة لمسار الحكم الذاتي ومفاوضات كامب ديفيد.

٢٤٢) د. حبش، جورج، اليسار الفلسطيني يتحدث (١٩٧٨) إصدار أوراق حمراء، الوطن المحتل، ص٦، ٧، ٩، ١٣، ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٥، ٤٩، ٥٠.

بعد أشهر اجتاحت القوات الإسرائيلية الجنوب اللبناني وصولاً لنهر الليطاني.

رابعاً: شرح حبش بعض التناقضات الكبيرة:

أ- (اسمح لي أن أوضح مسألة أساسية، لم يكن في وأردنا إطلاقاً فتح معركة مع العدو الصهيوني والنظام الأردني.. كنا نرى معركتنا الأساسية مع العدو الصهيوني، مع انتباهنا للمخططات والتحضيرات التي كانت تحوكها قوى عربية.. وجولات الصراع في الأردن قبل أيلول/ ٧٠ فرضت علينا، وكنا في موقع الدفاع عن النفس في معظمها.. أول جولة كانت عام ١٩٦٨ حيث نشرت الحكومة الأردنية قواتها في الكرامة للحد من انتشار المقاومة.. وجاء اشتباك ٦٨/١١ بقصف مخيم الوحدات بالمدفعية من منطقة القويسمة بدعوى ملاحقة مجموعات طاهر ذبلان التي تتطاول على أمن المواطنين، والحقيقة أنه لم يكن لمجموعات دبلان أي وجود في المخيم، بعدها تعرض رفاقنا في جسر المحطة بعيداً عن منطقة الاشتباكات لكمين أدى لاستشهاد ثلاثة منهم الملازم سرور.

الصدام الآخر كان في ١٩٧٠/٢/١٠ حينما أصدرت الحكومة بياناً تقيد فيه تنقلات المقاومة دون بحث ذلك مع المقاومة، وقامت القوات الأردنية بدهم مكاتب للفصائل تلاها اشتباكات ومحادثات وتهدئة. الاتفاق إجرائي لأن أوساطاً في المؤسسة الأمنية والعسكرية والعشائرية كانت تحرض لحسم ازدواج السلطة في الأردن. هذا تأكد في الاشتباكات الواسعة في حزيران...)[٢٤٣].

كان ذلك مقدمات لمذابح أيلول/ ٧٠ وما حملته من نتائج.

أما تحليل الجبهة لمشروع المملكة المتحدة، ١٩٧٢ الذي أعلنه الملك... أنه جاء بعد مذابح أيلول/ ٧٠ وتموز وحزيران/٧١، نص على (أن تصبح المملكة الأردنية مملكة عربية متحدة تتكون من قطر فلسطيني في الضفة وأية أراضٍ أخرى وقطر الأردن في الضفة الشرقية، تكون عمان عاصمة للملكة والملك رئيساً للدولة الذي يتولى السلطة التنفيذية وقائداً للقوات المسلحة.

إن هدف هذا المشروع شق الشعب الفلسطيني واقتناص الملك صفة الممثل للفلسطينيين بدلاً من م.ت.ف دون فتح الساحة الأردنية أمام المقاومة الفلسطينية، بل جاء إطار العمل المشترك بين المنظمة والأردن بعدئذ لينص على التزام م.ت.ف بالقوانين الأردنية وأن جميع المواطنين في الأردن متساوون أمام القانون الأردني، وبالتالي شطب مليونين ونصف المليون فلسطيني من معركة

٢٤٣) شربل. مرجع سبق ذكره. ص٢٧٢، ٢٧٣

التحرر الوطني بل أردنتهم)[٣٤٤].

ب- بعد زيارة السادات للقدس في ١٩/١١/١٩٧٧ وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد في آذار/١٩٧٩ صرح الحكيم (إن لسياسة كامب ديفيد ونهجها جذوراً اقتصادية) ورغم دور السادات الشخصي فهي محصلة عوامل اقتصادية/ اجتماعية.

تراكم عائدات النفط في أيدي البرجوازية الكومبرارورية التي لا تسعى لبناء مشروع قومي لمواجهة إسرائيل.. الأهمية المتعاظمة للمنطقة بثروتها النفطية.. ضرورة إزالة أية عقبة تهدد المصالح الإمبريالية.

لكن هل التحالف الثلاثي بين الإمبريالية الأمريكية والصهيونية والبرجوازية الرجعية المستسلمة ينهي التعارضات ما بين أطراف هذا المعسكر الثلاثي؟ لا. لكن هذه التعارضات تتم في إطار نهج كامب ديفيد وأرضيته.. وسيستند هذا الطرف العربي أو الفلسطيني لهذه التعارضات لتضليل الجماهير.

إن نظام مبارك، هو استمرار لنظام السادات، ويستهدف من الفروقات التكتيكية، تعميم نهج كامب ديفيد على المنطقة العربية.

من بين أسلحة الإمبريالية ضرب الفكرة القومية بغية ضرب الجبهة القومية العربية.. لقد استندنا في مواجهة المخططات الإمبريالية لسلاحين أساسيين: السلاح القومي والسلاح الطبقي بالربط الجدلي بين السلاح الوطني والقومي وبين السلاح الطبقي.. القضية الفلسطينية مهددة، آمالنا العربية مهددة، قوميتنا مهددة، تحالف كامب ديفيد موجه ضد الطبقات الشعبية والأهداف الوطنية والقومية...)[٣٤٥]

ج- يذهب الحكيم للثورة وأزمتها وقيادتها للقول (إن خروج الثورة من أزمتها لا يمكن أن يتم إلا بعد توفر وضوح الرؤية والتحليل، بعد تحديد الجذور والحلول، إلا بعمل نضالي تراكمي متصل ينتج عنه بالمحصلة تغيير الواقع الطبقي لقيادة الثورة الفلسطينية، تغيير وتصحيح في الخط السياسي.. تغيير في الخط التنظيمي والعسكري، تصحيح الميادين المالية والإدارية والمسلكية..

---

[٣٤٤] بيان صادر عن الجبهة الشعبية ١٧/٣/١٩٧٢

[٣٤٥] د. حبش، محاضرة في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ٧/١/١٩٨٤، ص٥٥، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٧٣، ٧٥

بعد بيروت دخلت الثورة في أزمة نوعية جديدة.. السبب الرئيسي هو الخط السياسي اليميني الذي بدأ يهدد الثورة بالاحتواء من قبل المشاريع الإمبريالية والرجعية المطروحة كحلول للقضية الفلسطينية.

إن العناصر المتنفذة في قيادة الثورة وصلت لقناعة خلاصتها: لقد بذلنا كل شيء ممكن نتيجة نضال ١٨ سنة، فلنأخذ ما يمكن أخذه مهما كان حجم هذه الحصة.. من هنا قال ياسر عرفات (لعم لمشروع ريغن).

نحن نقف أمام استعدادات حقيقية للتعاطي مع الحلول الأمريكية المعروضة في الساحة في الوقت المناسب، في الوقت الذي يضمن فيه الحصول على حصة للبرجوازية الفلسطينية.. وهذا ينسجم مع طبيعتها.. إن أهدافنا لا يمكن أن تكون قابلة للانتصار بقيادة اليمين، لم يعد ممكناً فصل الثورة الوطنية عن الثورة الديمقراطية.

كنا ننتقد خطوات عرفات قبل ١١/شباط بأنها تغازل الحلول الأمريكية.. أما اتفاق عرفات-حسين في ١١/شباط فهو انخراط في الحلول الأمريكية بما وضعنا أمام مرحلة نوعية في فهم أزمة م.ت.ف.

هذا الاتفاق يمثل استسلاماً واضحاً من شريحة من شرائح البرجوازية الفلسطينية، بما يتيح فرصة تعميم نهج كامب ديفيد على الساحة الفلسطينية-الأردنية.

إن الاتفاق يضرب بشكل واضح، نصاً وفعلاً، وحدانية تمثيل م.ت.ف والميثاق والبرنامج الوطني في العودة والدولة وتقرير المصير. غير وارد استرجاع الأرض التي احتلت عام ٦٧. الوارد هو التفاوض على جزء من الأرض.

في عام ١٩٧٤ عندما شعرنا كجبهة شعبية أن موضوع التسوية خطير ومدمر للساحة الفلسطينية شكلنا جبهة الرفض التي لعبت دوراً في مواجهة نهج التسوية إلى أن وصلنا لوثيقة طرابلس، وهي من حيث النص تنسف أية تسوية إمبريالية رجعية.. إنها جبهة لتصحيح الخط السياسي لمنظمة التحرير.

يجب تحديد خريطة التناقضات بشكل دقيق وإقامة التحالفات ورسم التكتيكات السياسية على أساس هذا التحديد.. علينا أن نقوم بتكتيل وتحشيد كافة القوى لدحر نهج اتفاق عمان

واسقاطه بإقامة جبهة إنقاذ للتصحيح التنظيمي والمسلكي والجماهيري واستعادة م.ت.ف إلى الخط الوطني.

إن خبرتي الطويلة قد علمتني أن البرنامج السياسي حتى لو أقر بالإجماع لا يمكن أن أطمئن إلى تحقيقه ما لم تتوافر الضمانات التنظيمية من قيادة جماعية ومشاركة كل الفصائل الوطنية على قاعدة التمثيل النسبي وتحديد أسس دقيقة لكيفية تنفيذ البرامج وكيفية اتخاذ القرار.. من يظن أن الموضوع التنظيمي معزول عن الموضوع السياسي فهو مخطئ.

إن التناقضات داخل الثورة الفلسطينية يجب أن تحسم عن طريق النضال السياسي الجماهيري وعن طريق الحوار.. مجرم من بدأ القتال، مجرم من فكر فيه وخطط له ومجرم من يغذيه.. موقفنا نبذ الاقتتال.. لا نجد مبرراً سياسياً أو نظرياً أو عسكرياً للاقتتال.. إنه موضوع مدمر.)[٣٤٦]

وبعد عامين (إن هذا العام ١٩٨٥ هو أصعب عام مرت به ثورتنا الفلسطينية.. أصعب من أعوام ٧٠، ٧١، ١٩٨٢.. في تلك الأعوام كانت الثورة تواجه الهجمات الصهيونية والإمبريالية والرجعية متكاتفة موحدة، أما في هذا العام فحصل انهيار في م.ت.ف عقدت فيه القيادة اليمينية المنحرفة المتحكمة اتفاق عمان المشؤوم الذي يعني الأخذ بالخيار الأمريكي-حزب العمل الصهيوني.. أي أن تحل القضية الفلسطينية من خلال حكم ذاتي للفلسطينيين.. وهذا أدى إلى تنشيط روابط القرى والإعلان عن سياسة القبضة الحديدية.. هذه القيادة تجيب على عنجهية الإمبريالية وإسرائيل بالمزيد من التنازلات..

إن الإلغاء العلني لاتفاق عمان شرط لعودة القيادة للموقع الوطني.. سنعمل من أجل الوحدة الميدانية مع كافة الوطنيين والمناضلين ضد الاحتلال ومشاريعه.

لا داعي للهلع.. سيستمر النضال، وسينجح شعبنا في إلغاء اتفاق عمان.. وفي لبنان سنبقى مشدودين للتناقض الرئيس رافعين شعار كل البنادق نحو العدو الصهيوني.

وفي لقاء مع الهدف ١٩٨٥/١٢/١١ أكد من جديد على المنطلقات.. (منذ التأسيس كان لنا رؤيتنا الإستراتيجية.. فمن جهة أولى فهمنا لطبيعة العدو الصهيوني.. طابعه الكولونيالي الفاشي

---

٣٤٦) د. حبش، محاضرة حول أزمة الثورة الفلسطينية٣١/١٠/٨٣، دار الفارابي، ص١٠، ١٣، ١٦، ٢٠، ٢٢، ٢٦، ٢٨، ٣٦، ٤٢، ٩٦، ٩٧، ١٠٠.

واستحالة التعايش معه.. ومن جهة ثانية الوحدة الوطنية على أسس سياسية صلبة وبناء الجبهة الوطنية بوصفها السلاح الأمضى في معركة التحرير..

ومن جهة ثالثة فهمنا الخاص للوطني والقومي حيث أكدنا على العلاقة الجدلية وعلى قواعد الارتكاز.. وأعطينا خصوصية للأردن لعوامل الجغرافيا والديمغرافيا والتاريخ والروابط المشتركة.. ومن جهة رابعة قلنا إن الكفاح المسلح هو الوسيلة الرئيسية وهو أرقى أشكال الكفاح ودونه تتعذر إمكانية انتزاع حقوقنا، ومن جهة خامسة أكدنا على بناء الحزب الثوري والتحول لحزب ماركسي-لينيني قادر على قيادة العملية الثورية.. ولسنا الوحيدين الذين يتحولون من تيارات ديمقراطية ثورية إلى مواقع الماركسية-اللينية، فهي ظاهرة كونية تحكمها جملة ظروف وعوامل هي...

وعلى صعيد داخلي ركزنا في السبعينات على العملية التنظيمية وفي هذه الفترة على التحول الأيديولوجي حيث ثلث الهيئات القيادية والكثير من الكادرات حصلوا على دورات فكرية في البلدان الاشتراكية.. كما يجري التركيز على البنية الاجتماعية.) (٣٤٧)

(بالنسبة لواشنطن فإن شروطها للاعتراف بمنظمة التحرير هي قبول المنظمة بالقرار ٢٤٢ والاعتراف بإسرائيل ونبذ العنف والكفاح المسلح وإدانة الإرهاب.. وهذه في محصلتها تحويل المنظمة لكاريكاتور مسخ عن الأنظمة الرجعية العربية..

التسوية السياسية بهذا المعنى هي عجلة اقتصادية-سياسية- اجتماعية شاملة تعني خلق شروط التبعية للغرب داخل الهياكل والبنى السياسية-الاقتصادية العربية، وتعني قتل روح المقاومة والمواجهة لدى الجماهير العربية..

منذ خروجنا من بيروت بدا واضحاً أن القيادة اليمينية المتنفذة في م.ت.ف تتجه للتساوق مع المشاريع الأمريكية وتبدي الاستعداد للتكيف مع شروط واشنطن.

نعتقد أن للأرض المحتلة الموقع الرئيسي في إستراتيجية النضال الفلسطيني في المرحلة المقبلة، فهي الركيزة الأولى والأساسية خصوصاً في ظل الصعوبات التي تواجهها الثورة في الخارج.. ونحن ندرك الترابط الجدلي بين الركيزتين..) (٣٤٨)

وقد كرّس النظام الداخلي للجبهة الشعبية مبدأ النقد والنقد الذاتي، فالماركسية- اللينية بلغة

---

٣٤٧) مجلة الهدف، لقاء مع الحكيم. ١١/١٢/١٩٨٥ ص٣

٣٤٨) المرجع السابق، ص٤، ٦٦، ٧٠، ١٠٧، ١١٠، ١١٢

جورج طرابيشي هي (النظرية النقدية الكبرى) أما عقل الحكيم فتميز بنقدية متسقة ونقديته تراوحت من (نقد السلاح) ماركس، ضد العدو الصهيوني ومجابهة الاستهدافات التي تعرضت لها المسيرة التحررية وبندقيتها المشرعة، والتي كانت غالبية مسيرتها دفاعية، إلى استخلاص قانون التحالف والتناقض مع الأنظمة الوطنية العربية وقانون التحالف والنقد في العلاقة مع المعسكر الاشتراكي، إلى قانون الوحدة والتناقض على صعيد قوى الثورة إلى الوحدة والنقد على صعيد حزبي. وتجليات ذلك إنما تقتضي أطروحة مستقلة، ولكن مفيد التذكير بمقولته (علينا أن نعترف أن أخطاءنا وسلبياتنا الداخلية كانت أحياناً أكبر من خطأ بل وأحياناً تكون خطيئة، وقد استفاد من كل تلك الأخطاء والخطايا العدو الخارجي من استعمار وصهيونية).

وقد كثف بعض انجازات الثورة مثلما كثف بعض الانتقادات بالقول:

بلورة الهوية الكفاحية الوطنية للشعب الفلسطيني وبلورة الثقافة حول كيانه الوطني ٢. معركة بيروت، الصمود الكبير، أطول حرب في تاريخ الصراع العربي، لا يجوز أن يضيع هذا المثل، حرب بيروت كاشفة العورات.. عجز الأنظمة الوطنية العربية وعورات الثورة الفلسطينية)[٣٤٩] ولكنه لا يتردد في القول (كان أداء المقاومة في الجنوب اللبناني في حرب ٨٢ بائساً في مظهره الرئيس، وأقصد صور وصيدا، رغم المواقف المشرفة، كمظهر ثانوي، في الشقيف والنبطية.

في بيروت كان الأداء الفلسطيني أكثر تنظيماً، دافع المقاتلون ٨٦ يوماً عن بيروت المحاصرة دفاعاً مستميتاً في ظل صمت عربي وهجوم إسرائيلي أطلسي مركز ومكثف.. رحنا نشارك بفعالية في قتال المقاومة حيث تكبدت إسرائيل خسائر كبيرة)[٣٥٠]

ومن قبل انتقد مراراً تجاوزات المقاومة في الأردن، وانتقد مرات فردية عرفات (أنا لا أعرف كيف يتخذ القرار الفلسطيني) "يهمه الهالة حوله أولا" و(للتاريخ كانت علاقتي به بعد الخروج من الأردن جيدة جداً وعملنا معاً لإعادة بناء الثورة وتثبيت جسم المقاومة في لبنان.. لكن بدأ الخلاف عندما أراد التحرك باتجاه التسوية السياسية بعد حرب تشرين/١٩٧٣، بعد أن بدأت الأطراف العربية الدخول في مشروع الخطوة خطوة وفصل القوات.. فهو يريد استثمار أي حدث سياسي بغض النظر عن موازين القوى وحقائق الواقع، فهو يحدد موقفه على أساس مصلحته الشخصية

---

٣٤٩) د. حبش، أزمة الثورة، مرجع سابق. ص١١، ١٢

٣٥٠) شربل، مرجع سابق. ص٣٩٣، ٣٩٦

والطبقية وليس المصلحة الوطنية، وهذا ما حصل لاحقاً في مدريد-أوسلو والقاهرة)[351]

مثلما انتقد القوى الديمقراطية اليسارية والاذناب لليمين "وتغطيسها في المحاصصة الفئوية" ناهيكم عن الخلاف البرنامجي والتكتيكي في مواقف عديدة.. (فهل كانت فصائل اليسار متنبهة باستمرار إلى أن تناقضها الرئيس الداخلي فلسطينياً هو مع اليمين وسياسة اليمين؟ ألم يجرها اليمين لمصالح فئوية على حساب نمو وتبلور قوة اليسار؟ لن نسمح بأن نكون غطاء لشرعية فلسطينية غير وطنية، ويخطئ اليسار إذا سمح لنفسه بأن يلعب دور الوزير الأحمر في حكومة رجعية)[352]

وعلى صعيد حزبي، لا يكف الحكيم عن التحضير والتصليب ونقد الثغرات والعيوب، مجترحاً قوة المثال، بأسلوب تربوي متحضر، بعيداً عن الفظاظة.

ومسيرته كلها منحازة للعقلانية الثورية والعلوم على الضد من الخرافة والجهل والتخلف والجبرية.

إن استعراض نقدية الحكيم وتجلياتها يقتضي أطروحة مستقلة، أما الأولوية فهي كيف حضرت ووجهت مسيرة العمل في الداخل.

والمناخ الأخلاقي الذي حفز العمل

كان للحكيم جورج حبش تأثيره المبكر على أخلاقيات حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية، فهو مؤسسهما وقائدهما، وكان ينظر له كقوة مثال، ذلك (لأن الأفكار والحجج والمحاكمات لا تكون قدوة، وحدهم البشر يدلّون على الطريق)[353]. فهو قد انحاز حتى نخاع العظم لقضية الجماهير وتحرير فلسطين وتوحيد الأمة العربية، وقال بعدم التعايش مع الصهيونية، وكرس عمره كله من أجل قيم أخلاقية كبرى كالحرية والديمقراطية والعدالة والنهضة، مثلما رفض المساومة على المبادئ مهما كانت الضغوط والإغراءات، وحذر مرات ومرات من البراغماتية التي تفرط بالمبادئ والحقوق، وانخرط بجماع شخصيته وطاقته، كمحترف ثوري، في أتون العمل بما صاحبه من مخاطر وتحديات، وعرف عنه عقله الديالكتيكي المتجدد دوماً الذي يتابع المتغيرات ويفعل فيها

---

٣٥١) شربل، مرجع سابق. ص٣٨٤، ٣٨٥

٣٥٢) د. حبش، محاضرة في ١/٤/١٩٨٤

٣٥٣) دوبريه، ريجيس، مذكرات برجوازي صغير (١٩٧٠) دار الآداب ص١٥

ويستخلص الدروس (ينبغي تلبيس الماركسية عقالاً وكوفية.. إننا نفكر..) فهد، براكسيس متشعب وابن الممارسة (فخطوة عملية واحدة أهم من دزينة برامج)..

والمناخات الأخلاقية التي أشاعها الحكيم ركزت على الجماعية التي تتسع للفردية ومزاياها، كما اتسعت للانضباط القائم على الحوار وعلى السلطة الأخلاقية لا سلطة الإجراءات وشعار (اتبعوني لا تقدموا.) (منذ أن أصبحت عضواً في المكتب السياسي في أواسط العشرينات من عمري انفتحت مساحة من التناقض المتعدد الوجوه مع قيادة الخارج، سيما في المسائل التنظيمية، علاوة على جملة مواقف سياسية تكتيكية، وكان تبادل الآراء يستمر شهوراً طويلة، وعلى امتداد السنوات توالدت تباينات وتناقضات بما هو أشبه بالحفر في الصخر بأصابع عارية.. ولكن لم أحاسب مرة واحدة ولم يلجأ الحكيم لزجري أو تجنيد أغلبية ولم يتخذ قراراً انضباطياً ولو لمرة واحدة.. فهو ديمقراطي وإنساني معاً يميز بين القمح والزوان)[٣٥٤]

وكان الحكيم في الأماكن الأشد خطورة، فقد تعرض مرات لمحاولات الخطف والتصفية وزخات الرصاص (لأنه بالمجازفة بالحياة يتم نيل الحرية) هيجل، منسجماً مع جذرية لينين (هنا الثورة وهنا ما يقابل الثورة أما من يدعون الوسط فإما أن يكونوا خدّاعين أو مخدوعين) وتضحوية جيفارا (لا يهمني أين ومتى أموت، المهم أن لا يعيش العالم على رفات البائسين) بالتركيز على الفاعلية، (فهو يعمل ١٤، ١٥، ١٦ ساعة يومياً، دون أن يعرف نظام الإجازات، عموماً، حتى أنه استأنف العمل بعد يومين من زواجه (علينا أن نصنع شيئاً لشعبنا) وأن نكون بعدالة عمر وثورية علي وأصحاب رسالة كمحمد وعيسى)، منخرطاً حتى نخاع العظم في صيرورة تغييرية دون أن تفارقه حماسة اللحظة الأولى)[٣٥٥] (فإذا كانت الظروف هي التي تصنع الإنسان، علينا أن نصنع ظروفاً إنسانية) ماركس، بالتركيز على الصدق ونبذ الكذب والمحاسبة عليه، وقد صوّت لجهة قرار يخفض مرتبة عضو مكتب سياسي لأنه عرض تقريراً كاذباً عن لقاء مع رئيس دولة أجنبية، وبمنظور باولو فريري (إن هيمنة الوعي القمعي تفضي إلى انتشار الأكاذيب) بينما الطليعة الثورية صادقة، ودون صدقها لا يمكن تغيير الواقع (فالكلمة غير الحقيقية تلك التي تعجز عن تحويل الواقع)[٣٥٦] ومن هنا طرزت مجلة الهدف شعارها (الحقيقة كل الحقيقة للجماهير) بما عرف عنها من نشر تحليلات نقدية متناغمة مع الدور النضالي للجبهة الشعبية فإن (اكتساب

---

٣٥٤) قيادي في الجبهة الشعبية

٣٥٥) قطامش، مقالة براكسيس متشعب، مرجع سابق

٣٥٦) فريري، باولو. نظرات في تربية المعذبين ٢٠٠٣) دار التنوير. ص٢٥

الوعي الانتقادي للاضطهاد يتم من خلال الممارسة)[٣٥٧]

والحكيم شخصية محاورة وشفيفة ومحبة ودمثة، علاوة على أنه رجل فكر وقائد سياسي ومنظم من طراز رفيع، وقد ترجمت مسيرته بعمق كلمات فريري (لا تتحقق الثورة دون نظرية ثورية وبالتالي علم وحب.. والحوار لا يتوفر في غياب حب عميق للعالم والناس.. ولا يوجد الحوار دون تواضع.. فإعادة خلق العالم لا تكون عملية عجرفة.. كيف أتحاور إذا رفضت مشاركة الآخرين ولا أدرك جهلي.. ودون حوار لا تواصل ودون تواصل لا تعليم حقيقياً)[٣٥٨].

وكان ثمة موقف أخلاقي جذري من الرأسمالية مثلما لكلمات فيديل كاسترو (للرأسمالية أخلاقياتها ولنا أخلاقياتنا) وقعها، فالرأسمالية استغلالية، احتكارية، مشعلة حرائق (وتكذب إذا كانت ربحيتها ١٠٪ وتقتل إذا كانت ربحيتها ٥٠٪ وتشعل حربا إذا كان ربحيتها ١٠٠٪) ماركس، و(هي أول من يضع الحراب على رأس الأجندة) لينين، من أجل (أن تمتص الرحيق من جماجم العمال والفقراء) وتنهب الشعوب وثرواتها، وطبعتها الأسوأ هي الصهيونية العنصرية التي لم تكتف بكل ذلك بل اقتلعت الشعب الفلسطيني من وطنه وتنكر وجوده وحقوقه وتطلعه للحرية والكرامة والعودة للديار.. إضافة لعدائها للعرب.. وهذا كله يتطلب النفس الطويل في النضال كما الشجاعة والثبات على المبدأ، سيما أن الشعب الفلسطيني مجزأ ومحدود العدد وفقير.. ويواجه عدواً رأسمالياً عنصرياً متطوراً، بما يضاعف من شروط وأهمية العامل الذاتي... مثلما كان ثمة إقبال على الفكر والثقافة وصون الجماعة الثورية، الأمر الذي أوجب ثلاثة معايير في تقييم الكادر والأعضاء عموماً: ١. المستوى الفكري والسياسي ٢. الانجازات العملية ٣. الصلابة الأمنية (لقد استحثنا الحكيم على الغوص في بحر الثقافة وعلى التعلم الذاتي ونشر المنظمات الحزبية في كل مكان وتوسيع دورها الميداني.. لقد درس بعضنا الفكر الميثولوجي والفكر الديني كما الفكر الرأسمالي وعلوماً شتى في البيولوجيا والفلك وداروين وفرويد وتجارب ثورية عديدة كما دراسة التاريخ الفلسطيني والتاريخ العربي بما هو قريب من مقولة الدكتور فيصل دراج (لا وجود لنظرية سياسية دون نظرية في التاريخ... إن التاريخ الفلسطيني الحديث هو تاريخ خصوصيته، الذي جعل منه تاريخاً سياسياً وطنياً.. من لا يحسن قراءة الماضي لا يستطيع قراءة الحاضر)[٣٥٩] كان علينا تعليل انحيازنا للفكر الاشتراكي والثورة الوطنية بخصائص طبقية تقدمية منحازة للطبقات

---

٣٥٧) المرجع السابق. ص٦٧

٣٥٨) فريري، المرجع السابق. ص٦٧، ٦٩، ٧٣

٣٥٩) د. دراج، فيصل. مقالة ما خسرته إسرائيل ولم يربحه الفلسطينيون (الأيام ٢٠٠٩/١/١٩)

الشعبية، وفي بداية السبعينات، سيما في السجون خضنا معركة التحول الفكري الداخلي وتعرضنا لهجوم من الاتجاهات الأخرى، وبعض هؤلاء أذكياء، بما رفع مستوى الجدل، وأحياناً كان يهبط إلى مجرد هجمات اتهامية ساذجة لا علاقة لها بالفكر والعلم، والبعض استعظم التعددية وحقنا في اختيار هويتنا الفكرية) لقد كان السجن المختبر والمدرسة الكبرى).[٣٦٠]

وتجربة الداخل تأثرت كثيراً بتصريحات وتحليلات وأخلاقيات الحكيم، فهو القائد والزعيم، وقد أتيح للبعض الاجتماع به، والانبهار بخصاله الإنسانية ودفء مشاعره ولطف كلماته، فالحكيم لا يعرف فحش الكلام أو السلوك، ويحنو على رفاقه ورفيقاته ولا يغفل مناسباتهم الاجتماعية، والعلاقة طردية بين تفولذه ورقة مشاعره، الأمر الذي ترك بصمات على البعض في الداخل. (احرزوا المزيد من النجاحات وانظروا للأمور من كل الزوايا، وفي حالة الخطأ أدرسوا الأسباب واستخلصوا الدروس) الحكيم. و(مطلوب انتشار أوسع وفاعلية أكبر ولولا الإرادوية لقلت ينبغي كذا وكذا..).

وفي الجانب الجنسي والمشروبات الروحية قال القيادي في الجبهة الشعبية (استمرت الجبهة من ناحية التعبئة على ما كانت عليه حركة القوميين العرب، أي النأي عن هذين المسلكين، آخذين بالحسبان الثقافة الاجتماعية السائدة التي لا تتسامح مع العلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج أو معاقرة الخمر).

وفي أواسط السبعينات جرى تعميم عدد من المقولات اللينينية التي ترفض الحب الحر ونظرية كأس الماء وما هو سطحي في السلوك الليبرالي وجرى التركيز على مفهوم انجلز (في أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) الداعي للحب المتبادل المنزه عن الاعتبارات المالية والوجاهية، فيما يعتبر الانفصال بليّة كبرى للطرفين، بما يرقى إلى مستوى الارتباط، وما أضافه فوتشيك عن (أهداف مشتركة للحبيبين)، وتشجيع التقارب والزواج بين الرفاق والرفيقات، على أن يعتبر ذلك في نهاية الأمر مسألة شخصية، والتشديد دائماً على الجدية في النضال وأن الحزب أولاً. وكانت التعبئة تشمل فيما تشمل نقد ظاهرة تعدد الزوجات في المجتمع والتي تصل ٥-٦٪ والتقسيم الجنسي للعمل، الرجل خارج البيت والمرأة داخل البيت، وتبني موقف داعٍ للتشارك خارج وداخل البيت، كما إدانة تعنيف النساء ومضايقتهن في الشوارع.

وكان ثمة احترام لدور النساء في النضال واجتذابهن للقضايا العامة، وعدم التهاون مع النظرة الدونية. كما لم تعرف المسيرة تمييزاً طائفياً على أساس الدين، وحوصرت حد التبديد

٣٦٠) قيادي في الجبهة الشعبية

النزعة الحلقية بين المدينة والمخيم أو بين الضفة وغزة أو بين الأهل في ٤٨ والأهل في ٦٧، كان التثقيف حداثياً على قاعدة المواطنة المتساوية ووحدة الشعب والمصير تجاوزاً للعشائرية والمناطقية والجنسوية والطائفية الموروثة من المجتمع التقليدي.

أما عن التماهي مع العدو الذي يقهر شعبنا ويتعالى عليه وينظر له كمتخلف وجاهل وخامل ودون قضية عادلة ولا جدوى من نضاله ويخضع للقوة، أي نظرة الاستعمار للشعب المستعمر التي كتب عنها فرانز فانون في (معذبو الأرض)، فالتعبئة كانت مغايرة للتماهي، فثمة تعزيز للثقة بالشعب فإنه مقاتل في سبيل الحرية وكفاحه سوف يتكلل بالانتصار، مع إدانة أية إساءة للجماهير ورفقاء العمل.

وثمة قناعة بكلمات فرانز فانون (إن التحرر يتحقق بالعنف) وكلمات راؤول كاسترو (إن العنف هو المحرك الصغير الذي يحرك المحرك الكبير) وتساءلنا عن امكاناتنا وتساءلنا عن الخصوصية الفلسطينية؟

لم تشدنا المشهدية والاستعراضية متأثرين بكلمات لينين (إن البروليتاريا تترك خطابات المآدب والمنابر للبرجوازيين الديمقراطيين.. ولكنها تتقدم في نضال الجماهير الثوري) وأن النضال والتضحيات غرضهما أنسنة الإنسان، أي تحريره فهو أعلى القيم، ذات وهدف النضال.. بغية صنع الجنة للناس على الأرض، كدافع أخلاقي تحريري للشعب وليس ديني استرضاء للسماء.. ومع الزمن حضرت مقولة باولو فريري (الحوار شرط أساسي من شروط أنسنة الناس بشكل حقيقي)، ومراراً وتكراراً، اقتبسنا كلمات لينين (إن الصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال والأفعال) وكان هذا تحدياً ومهمازاً في آن بصرف النظر عن حجم النجاح، وكلمات ماركس (إن السعادة في النضال) والنجاحات تشحذ السعادة وتذكيها، ورأينا في تجربتنا الثورية مصداقاً لكلمات دوبريه (السعادة حين تستطيع أن تسمى ما تراه وتفعله وتحس به.. وقرقعة المفتاح الذي يدخل صائباً في القفل بعد أن تكون جرّبت في القفل على غير طائل حزمة من المفاتيح غير الصالحة، تلك الرعشة الصغيرة واللذيذة التي تدلك على أن هذه هي التركيبة الجيدة)[٣٦١] لهذا لم يكن صدفة أن نستمر سنوات وسنوات في العمل الثوري، نستأنف النشاط ما أن نتحرر من أكياس السجن)[٣٦٢].

---

٣٦١) ريجنس، مذكرات برجوازي صغير، دار الأدب ١٩٧٠، ص١٩١

٣٦٢) قيادي في الجبهة

الباب الخامس

العقل النظري الملموس للجبهة في الوطن المحتل

لا ريب أن هذا العقل قد تطور مع تطور العمل، فهو في حوار مع نفسه وحوار مع المجتمع وصراع مع المحتل. والحوار الأول هو حوار أ + ب سواء تمثلت أ + ب بأفكار أو أشخاص أو تجارب بما أفسح في المجال لولادة ج، أي التطور. واتساقاً مع ذلك انتقلت الجبهة من مرحلة الى مرحلة ومن طور الى طور اعلى شأناً، الامر الذي سيلاحظه السياق.

وولادة ج لم تحمل دائماً كافة العناصر الايجابية من جدلية أ + ب بما جعل الطور الاعلى ليس اعلى في كافة ابعاده.

ولئن كان السياق في محصلته العامة تطوريا، فإن ما حدث داخل السياق لا يعكس دائما نتائجه، بل هناك أخطاء وتقصيرات واخفاقات قطعت السياق التطوري واعادته مرات ومرات للوراء، اما الصراع مع المحتل، فهو وان صلب الجبهة واكسبها خبرة كمحصلة عامة، (ففي التناقض الحياة) مهدي عامل، غير انه ايضا دمرها وهدم تراكماتها مرات ومرات وكبدها خسائر فادحة بين شهداء وجرحى واسرى وهدم بيوت وتصفية بنى ومصادرة ادوات كفاح وفرض قيوداً عليها واغلق مؤسساتها... الخ.

كان ثمة وعي بان الصراع التحرري انما يدور مع عدو قومي عنصري كولونيالي اقتلاعي عسكري اقصائي، الامر الذي طبع المسيرة الفلسطينية بهذه الخصيصة، وبالتالي فاية حوارات داخلية في الجبهة او حوارات وخلافات مع التيارات المجتمعية والسياسية والثقافية الاخرى انما هدفها الاول ان تخدم العملية الصراعية مع هذا العدو. وبلغة الدكتور جورج حبش (كان للجبهة رؤية واضحة لخصوصية وفرادة القضية الفلسطينية نابعة من طبيعة وجوهر العدو... اسرائيل جسم استعماري مصطنع وغريب زرع بالقوة في قلب العالم العربي وهو يتناقض بصورة جذرية مع مصالح وطموحات الشعب الفلسطيني وجماهير الامة العربية... ستقاتله جماهير الامة...)[٣٦٣].

وحول الحوار مع المجتمع، فهو رصد وتفاعل وفعل في معطياته وتناقضاته ومتغيراته، وهذا حمل رياحاً ايجابية كمظهر رئيس سواء من ناحية تمثل المجتمع او من ناحية التاثير فيه والفعل فيما راكمته البنية المجتمعية وبلورته الهوية الوطنية، وان كان تخلف البنية اجتماعيا وثقافيا وطغيان

---

٣٦٣) لقاء د. حبش جورج، الواقع الراهن، دار الفداء ١٩٧١ ص٩٠٨

المنظورات العشائرية والجبرية وعدم تبلور المجتمع المدني سيما الحركة النقابية والحركة النسوية تطلب جهودا مضاعفة لاحراز درجات اولية من الوعي الحداثي والقاعدة الاجتماعية المنظمة، بل أحيانا استنزفت التناقضات الفصائلية الجهود الواعية لتوحيد الارادة الفلسطينية في مواجهة عدوها القومي، سيما الانقسامات السياسية في الخارج حول مؤتمر جنيف واتفاق عمان ومؤتمر مدريد... "ولان العقل القيادي الفلسطيني لم يراكم تراثا ناجحا في حل التناقضات الداخلية انتقلت الامور لاحقا على شكل صراع دموي في غزة وتنكيل متبادل ودعاية تبث الكراهية...)[٣٦٤]

لقد طغى الخطاب السياسي التحرري على مجمل المسيرة الوطنية، موشحاً ببعض المقولات الحداثية عن المواطنة دون تمييز ديني او جنسي، كما انتشرت مقولات الثقة بالشعب والجماهير بديلا لروح التواكل والانتظار، ولكن دون ازاحة للفئوية وثقافة القرون الوسطى، ونشأت اقلام اعلامية وثقافية تعبئ بمقولات الثورة.

والخصيصة التي يتوجب لفت النظر إليها ان السياسة في النموذج الفلسطيني هي المحرك والعامل الحاسم، وليس القاعدة الاقتصادية التي جرى الاستيلاء عليها وشل آلياتها، وليس الثقافة كممهد وارضية للسياسة (هيمنة ثقافية فهيمنة سياسية) غرامشي، كما ليس ثمة تطور علمي وتكنولوجي... فالعامل الأكثر فاعلية هو الصراع السياسي بين الشعب وفصائل المقاومة وبين سياسات واجراءات الاحتلال، بل لقد اكتسبت الفصائل شرعيتها الشعبية من شرعيتها الثورية حيث جندت واستقطبت القوى الحية في الشعب وبالتالي عبأت أعضاءها وانصارها وجماهيرها بمقولاتها ورؤيتها.

من البديهي أن للعامل الاقتصادي دوراً وللعامل الثقافي والديني عموما دوراً وللزمان والمكان دوراً... اما المحرك والعامل الاول فهو العامل السياسي، بل الفيصل الذي قاد النضال التحرري وبات القيادة المعترف بها للشعب وزعيمه ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير.

والقوى اليسارية، سيما الجبهة الشعبية، كانت تؤدلج بفحوى تنسجم مع (لا ادب بلا ايديولوجيا) دوبريه، و(لا ثقافة وطنية خارج السياسة الوطنية) دراج، (لا خوف على شعب لم تهزم ثقافته) ونّوس، أما فرانز فانون فأنشأ (هناك اتجاهان، اتجاه المثقف الذي يتحرر في مجرى النضال الحقيقي من اجل الحرية، اتجاه تقدمي... وهناك المثقفون الماكرون، الاطفال المدللون

---

٣٦٤) قطامش، أحمد، كراسة هل يمكن تثمير صمود غزة في حوار القاهرة. آذار ٢٠٠٩

للاستعمار والحكومات الوطنية الذين ينهبون الموارد القومية ويستغلون المحنة الوطنية كوسيلة للصعود والسرقة القانونية)[٣٦٥].

والجبهة الشعبية لم تكتف بالحديث عن الشعب وجماهير الشعب بل راحت تشير الى طبقات الثورة (تسعى الجبهة لتحقيق اهداف وحقوق الشعب الفلسطيني وكادحية وفي مقدمتهم العمال والفلاحون وطبقات وفئات الثورة من المثقفين والبرجوازية الصغيرة والوطنية)[٣٦٦].

وفيما ولدت البندقية الفلسطينية في رحم المخيمات بما تعنيه المخيمات من بؤس شديد واكتظاظ وصبغة عمالية، كان المبادرون الاوائل الذين اقتحموا معترك المقاومة واسسوا بداياتها، والامر ينسحب على الجبهة الشعبية في الوطن المحتل، من المثقفين الثوريين.

لم يكن في الوطن المحتل، حينذاك، جامعات، والبداية كانت جامعة بيرزيت في اواسط السبعينات، ولاحقاً اصبحت الجامعات معقلا قويا لفصائل المقاومة.

كان يطغى العنصر الشبابي على فصائل المقاومة (لقد امضيت سنوات في سجون رام الله ونابلس والسبع، والاغلبية الساحقة من الاسرى كانت شبابية في العشرينات من مثقفين وعمال وطلبة وفلاحين)[٣٦٧].

وبالتالي لم تكن بديهية كلمات المنظر الفيتنامي ترونغ شينه (الفلاحون هم الطبقة الثورية في المستعمرات والطبقة العاملة هي الطبقة الثورية في الراسمالية، وفي فيتنام كانت الطبقة العاملة هي القائدة، اما الفلاحون فيشكلون جيش الثورة الرئيسي... والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية الوطنية حليفان للطبقة العاملة)[٣٦٨] فالطبقة العاملة الفيتنامية وان كانت محدودة العدد في ظل سيطرة نمط الانتاج البضاعي الصغير، فإن حزب الشغيلة الفيتنامي (الشيوعي) الذي يستند للنظرية الاشتراكية العمالية هو الذي استولى على السلطة عام ١٩٤٥ وتحت قيادته تم تحرير الشمال عام ١٩٥٤ وشن حرباً شعبية تكللت بفرار السفير الامريكي بطائرته التي حطت على سطح السفارة عام ١٩٧٥. ورغم وجود سبعة عشر تنظيما في جبهة الفيتكونغ غير ان جيش الشعب الذراع العسكري لحزب الشغيلة كان القوة الحاسمة، وبالتالي ثمة اساس لقول ترونغ شينه.

---

٣٦٥) ووديس، جاك، ثورة في الثورة ١٩٧٨ ص ٤٥، ٤٦

٣٦٦) النظام الداخلي للجبهة الشعبية، المادة الثالثة ١٩٧٢

٣٦٧) أسير سابق بين ١٩٦٨ - ١٩٧٣

٣٦٨) ووديس، جاك، المرجع السابق ص ٦٠

أما الطبقة العاملة الفلسطينية، فهي ليست محدودة ومبعثرة فقط/ بل "والاتجاه الشيوعي" لم ينخرط في المقاومة المسلحة، فيما عناصر برجوازية صغيرة من فتح والقوميين العرب ومن هم على شلكلتهم هم الذين امتشقوا السلاح قبل ١٩٦٧ وبعده، ومعركة الكرامة عام ٦٨ التي قادتها فتح كانت منعطفا اتاح لها قيادة منظمة التحرير بعدئذ. وحركة فتح منذ نشأتها لم تزعم يوما انها تمثل العمال والفكر الاشتراكي، ومآلها بعد اوسلو دفعها ابعد فابعد كممثل للبرجوازية الفلسطينية البيروقراطية والكومبرادورية اضافة لتيارات شعبية أخرى، الى درجة ان تمول الراسمالية العالمية سلطتها الاوسلوية. ولئن كانت الاغلبية الساحقة للجنتها المركزية التاسيسية تنتمي للاخوان المسلمين فان حراكا نقلها بتدرج الى رؤية لا تتفق مع الاسلام السياسي الذي بات منافساً لها اليوم.

فيما اليسار المقاتل، وبصرف النظر عن عمق تحولاته الطبقية والفكرية، لم يقد المقاومة، كان الشريك الاصغر وحسب، ويتراوح بين نهج مغاير أو بديل ونهج وسطي. حتى ان زعيمه الابرز جورج حبش لم يحظ يوما بتاييد شعبي يعادل تاييد ياسر عرفات.

ناهيكم عن أن القاعدة العمالية في الوطن المحتل كانت هامشية في سنوات الاحتلال الاولى، وان اتساع قاعدتها المتواتر، لا يجوز أن يُغْفِل ان غالبيتها تحمل ثقافة فلاحية وتقطن في الريف ولديها حيازات فلاحية ايضا.

(فمنذ زمن هدف الاستعمار البريطاني لطمس اية بلورة اقتصادية او سياسية او حتى ثقافية للشعب الفلسطيني، الامر الذي اعاق تبلور الطبقة العاملة، اما عام ٤٨ فقد انشطرت الجغرافيا الفلسطينية الى ثلاث بقع، ٧٨٪ اصبحت (اسرائيل)، وهكذا تمزقت القاعدة الانتاجية الفلسطينية ليتمزق اثرها التكوين الاجتماعي وكذلك التكوين الطبقي، وخضعت مزق الشعب الفلسطيني لسياسات إذابة هويتها كليا. وكان للاردن قصب السبق في تجريد الفلسطينيين من هويتهم الوطنية وفرض الجنسية الاردنية – والشيء نفسه فعلته اسرائيل)[٢٦٩].

ولربما مفيد التذكير بعبارة ماركس (طبقة في ذاتها وطبقة لذاتها)، فالعمال الفلسطينيون وان كان ثمة يسار فلسطيني قوي نسبيا في السبعينات والثمانينات الى اوسلو، ثلث الخارطة السياسية واكثر، وإن لم يكف عن التصريح انه اشتراكي وممثل للطبقة العاملة، فالعمال الفلسطينيون في

---

٢٦٩) د. سمارة، عادل، اقتصاديات الجوع في الضفة والقطاع ١٩٧٩، دار مفتاح ص ٣٠- ٣١

أغلبيتهم كانوا اقرب لعبارة ماركس فهم مستغلون طبقيا، غير ان رابطهم الجماعي التضامني غير واضح ومعظمهم غير مؤطرين في نقابات عمالية، والذين ينحازون لفتح (اليمين) اكثر من الذين ينحازون لليسار...

وحسب الدكتور سمارة، في اواسط السبعينات، كانت نسبة العمال الفلسطينيين في قطاع البناء الوطني ٢٢٪ وفي قطاع البناء الاسرائيلي ٥٦٪ بما يعنيه ذلك من عدم استقرار وعدم تمركز، اما الصناعة الفلسطينية فهي ابعد ما تكون عن التمركز، فاكثر من ٩٠٪ من الصناعات مجرد ورش صغيرة تضم بين ١ – ٩ عمال، اي انها اقرب للملكيات عائلية، ونحو ١٢ مصنعا فيها بين ٥٠ – ١٠٠ عامل فاكثر، فالقطاع الصناعي كما الاقتصاد الوطني عموما محجوز على تطوره نتيجة سياسة مبرمجة للاحتلال بل هومنهوب ومستباح وممحوط واقرب لتعاقدات من الباطن مع السوق الاسرائيلية)[٣٧٠] والامر ذاته يقال عن عمال الزراعة وعمال الخدمات، فالمزارع الراسمالية محدودة جداً، اما قطاع الخدمات، فاهم وحداته المستشفيات والجامعات والمدارس والبلديات وشركات الكهرباء والماء حيث أغلبية العاملين ينتمون للبرجوازية الصغيرة، دون ان ننسى ان ٣١٪ من قوة العمل الفلسطينية، حتى اللحظة، انما تعمل في مشروعات عائلية دون اجر وعليه فانخفاض تطور قوى الانتاج (قاعدة اقتصادية وقوة عمل) مارس تاثيراته على التكوينات الطبقية والتعبيرات السياسية اليسارية سيما انها تخوض نضالا تحرريا اولا ثم نضالا طبقيا ثانيا، رغم التداخلات، وعدم رسوخ الرؤية اليسارية وتغليب السياسي وفقر النظري كان لها اسقاطات ايضا.

وبالنسبة للطبقة الفلاحية الفلسطينية، فمن المجازفة القول انها طبقة، فهي بعد ان استولى المشروع الصهيوني على وسيلة انتاجها الاساسية (الارض) سواء عام ٤٨ او الزحف الاستيطاني الاستعماري بعد عام ٦٧، ضاق اساسها المادي وضاق اساسها الاجتماعي، وراح الفلسطينيون، لمواجهة حياة التشرد واللجوء، يقبلون على التعليم، الذي اصبح اهم منصة انطلاق للحصول على وظيفة ومصدر دخل ثابت سواء في المناطق الفلسطينية او الاردن او الخليج...

وبالتالي لم يعد الفلاح يعيد انتاج نفسه من خلال ابنائه واحفاده بل تحول هؤلاء لعمال مياومة ومتعلمين وموظفين، وهذه العملية تصاعدت بعد احتلال ٦٧.

وعليه، فما تبقى من فلاحين من اصحاب الملكيات الصغيرة الذين يعتمدون على استثماراتهم

---

٣٧٠) ورقة قيادي في الوطن للمكتب السياسي للجبهة الشعبية ١٩٨٣

ومحاصيلهم لاعالة اسرهم تضاءل بتواتر، وتحول معظم هؤلاء لمواقع العمل الماجور في المدينة والمشروعات اليهودية ناهيكم عن أن الفلاحين دون اتحادٍ يجمعهم أو حزبٍ يمثلهم، وكانت العلاقة عكسية بين حجم قوة العمل في الزراعة وحجم قوة العمل في قطاع الخدمات والبناء، اذ انكمشت الاولى بدأب وتنامت الثانية بدأب، بل تقلصت الزراعة في الانتاج الوطني من ٤٠٪ عام ١٩٧٥ الى ١٥٪ عام ١٩٩٠ والامر نفسه يقال عن قوة العمل...) [٣٧١] وهذه الدينامية تواصلت لاحقا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثمة فارقا بين الريف والفلاحين، فالريف مستودع للعمال والموظفين اما اعداد الفلاحين الذين يعتمدون في معيشتهم على حقولهم فهم في عدٍ تنازلي، الى درجة ان لا يزيد اسهام الزراعة في الانتاج الوطني اليوم عن ١٠٪ من انتاج فلاحي ومزارع رأسمالية.

وعن السوق الفلسطينية والسوق الاسرائيلية، فالسوق الفلسطينية هي ثاني سوق للصادرات الاسرائيلية بعد أوروبا، وقد ارتفع باضطراد عدد العمال الفلسطينيين في الاقتصاد الاسرائيلي الى ان اصبح ثلث قوة العمل الفلسطينية في اواسط السبعينات. وصحيفة جروزاليم بوست في ٣٠/ حزيران/١٩٧٧ اشارت الى ان ٢٨٪ من قوة العمل الفلسطينية تعمل في المشاريع اليهودية دون احتساب عمال القدس...

والخصيصة الفلسطينية تجلت اكثر ما تجلت في القدس، ففي عام ٤٨ وضع المشروع الصهيوني يده على القدس الغربية التي تشكل ٩٠٪ من اراضيها وقراها ملكية فلسطينية، واتبع نفس السياسة في القدس الشرقية التي ضمها عام ٦٧ واعتبر المدينة بشطريها الغربي والشرقي عاصمة ابدية لاسرائيل، وعلى الفور وفي الشهر الاول تم (هدم حي المغاربة واجلاء قسم كبير من حي الشرف ومصادرة ٢٠٪ من مساحة البلدة القديمة وطرد اكثر من ٦ الاف فلسطيني خارج الاسوار ومصادرة ٦٣٠ عقارا وهدم ١٣٥ عقارا) [٣٧٢]. وهدم وهجّر قرى اللطرون وأبوغوش وعمواس وراح يكثف الاستيطان الى ان اصبح اليهود اغلبية في القدس الشرقية بمايناهز ٢٢٠ الفا، اما العرب فنحو ٢٠٠ الفا موزعون على جزر ومحاصرون باسيجة استطانية استعمارية ناهيكم عن الجدار العنصري التوسعي في السنوات الاخيرة بعد ان فصلت القدس بحاجز دولي يمنع دخول الفلسطينيين من الضفة اليها...

والجبهة رغم فهمها لخصوصية القدس (غير أننا لم ننظر لها في أي يوم من الايام مجرد

---

٣٧١) المرجع السابق

٣٧٢) أبو عرفة، عبد الرحمن، الاستيطان التطبيق العملي للصهيونية. ١٩٨٨. وكالة أبو عرفة للنشر ص ٢٢٣

١٤٤ كم مربع هي مساحة الحرم او الاماكن الدينية فقط، فهي بشرقها وغربها مدينة فلسطينية عربية، حتى ان قرار التقسيم ١٨١ وضعها بمجملها تحت اشراف ادارة دولية مؤقتة، وهي بطبيعة الحال جزء صميمي من الخارطة الفلسطينية، ونضالنا يسعى لتحرير الخارطة واسترداد الحقوق الفلسطينية كاملة، وليس هناك شبر في فلسطين اقل قدسية من سواه، فالوطن لا يتجزا الا لدى التسوويين الذين ارتهنوا للاملاءات الامريكية فما حصدوا سوى الاوهام وانتفاخ جيوبهم... حتى ان النظام الساداتي الذي وقع على كامب ديفيد بمضامينه الستراتيجية الكارثية، لم يتنازل عن فندق طابا الى ان استرجعه بعد سنوات. ومرة صرح الرئيس الارجنتيني اثناء صراعه مع بريطانيا على جزر فوكلاند (انا لست عربيا لكي اتنازل عن جزء من وطني) وبكل تاكيد لن نكون من هؤلاء «العرب» الذين يفرطون بوطنهم وشرفهم الوطني، بل كان لنا جهدنا المنظم على امتداد السنوات لمقاومة التهويد وترجمنا ذلك مناشطات وتضحيات)[٢٧٣].

ولهذا كله كان على الجبهة ان تفهم خصائص المجتمع الفلسطيني وخصائص طبقاته، وخصائص قضيته الوطنية، الشيء الذي انعكس في رؤيتها من جهة وصيغ عملها التنظيمي من جهة اخرى ونظرية نضالها من جهة ثالثة، وهذا سيجد صداه في الفصل الثالث.

لقد اصطدم عقل الجبهة القيادي يوميا بالمخططات الاستيطانية - العنصرية - الاقصائية التي كثفها الصهيوني جابو تنسكي (الصهيونية هي الاستيطان). فمنذ ان كان اليهود بضعة الاف ينتشرون في مدن القدس وطبريا وصفد، توجهت مجموعة تدعمها جهات خارجية لتاسيس مستعمرة بتاح تكفا ١٨٨٠ على أراضي قرية ملبس الفلسطينية، وراحت تتوالد المستعمرات بعدئذ الى ان اصبحت ٢٢ مع انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول ١٨٩٧. (وتضاعف الرقم الى ٤٧ مع بدايات الحرب العالمية الاولى، واكتسبت زخما هائلا مع وعد بلفور/١٩١٧ وتضخمت وتزايدت في فترة الثلاثينات الى درجة ان تقام ١١ مستعمرة في «ليلة الغفران» ١٩٤٦...

ما قبل خروج القوات البريطانية من فلسطين ١٩٤٨ (كان ربع المستوطنات اليهودية في سهول الخضيرة و١٢٪ في سهول يافا و١٧٪ في سهول طبريا والحولة وبيسان و١١٪ في سهول الجليل الاسفل ومرج ابن عامر و٤٪ في الجليل والقدس و٩٪ في النقب بما محجموعه ٢٧٧ مستعمرة وثلث سكان فلسطين)[٢٧٤] وبين اعوام ١٩٤٨ - ١٩٥٣ بما تخللها من تطهير عرقي انشئت ٣٤٥

٢٧٣) قيادي في الجبهة الشعبية

٢٧٤) أبو عرفة. المرجع السابق. ص ٢٠٢- ٢٠٣- ٢٠٤

مستعمرة اصبحت ٤١٩ مستعمرة عام ١٩٦٧، حيث اقام نصف المجتمع اليهودي في مدن تل ابيب والقدس وحيفا والنصف الاخر يتوزع في عشرات المدن والمستوطنات الزراعية، واستمرت هذه العملية بعدئذ الى ان اصبح عدد اليهود ٢،٨ مليون عام ١٩٧٨.

ومنذ احتلال ٦٧ جاء مشروع ألون أحد قادة حزب العمل، الذي رفع شعار (اكبر مساحة من الارض واقل عدد من السكان العرب) ونظر للضفة كمنطقتين، شمالية ترتبط بشريط ضيق ينتهي بالجسر وصولا الى الاردن، وجنوبية تتركز في المدن وما بينهما مستباح للاستيطان الاستعماري، اضافة لخطة خاصة لتهويد القدس.

وحتى اللحظة، تعتبر هذه الخطة هي الاساس. اما خطة شارون العشرينية التي بدات عام ١٩٧٧ باقامة مستعمرات تقطع شمال الضفة عن جنوبها وابتلاع القدس، فهي جاءت تطويرا وتضمنت فيما تضمنت المزيد من العزل للمدن الفلسطينية وربط المستعمرات :ب«إسرائيل». ونشرت صحيفة هآرتس الاسرائيلية البنود التالية من خطة شارون.

١- اقامة اربع مدن استطانية كبيرة تستوعب بين ٣٠ – ١٥٠ الف نسمة على الحدود بين الضفة واسرائيل.

٢- انشاء مدن استيطانية حول القدس الشرقية.

٣- انشاء مدن استيطانية في الاغوار وتطويق نابلس ب ١٥ مستوطنة ورام الله ب ٨ مستوطنات والخليل بـ ١٢ مستوطنة وبيت لحم ب ٤ مستوطنات.

٤- انشاء قواعد عسكرية ثابتة للجيش الاسرائيلي في الضفة.

٥- منع العرب من البناء على الطرق المؤدية للمستوطنات) [٢٧٥]

وفي قطاع غزة الذي صودر ثلث اراضيه فور الاحتلال (كاراض اميرية) توسعت المستعمرات لتشمل ٤٠٪ من مساحته سيما على الشريط الساحلي. ولكن عقبتين موضوعيتين انتصبتا امام المخطط الاحتلالي هما: الكثافة السكانية وشح المصادر المائية. فالكثافة السكانية هي من اعلى النسب في العالم، فالقطاع مجرد بقعة طولها ٤٥ كم وعرضها بين ٧ – ١٢ كم أي ١٪ من عموم فلسطين و٦٪ من مساحة الضفة فيما تكتظ بكثافة سكانية اكثر من ثلثيها من اللاجئين الذين

---

٢٧٥) هآرتس ١٩٧٩/٠٣/٢٢

بقطن معظمهم في مخيمات مزدحمة. وقد أشار (مخطط معهد رحوبوت ١٩٦٩ لتحريك اللاجئين من غزة الى الضفة، ومخطط فايس من دائرة الاستيعاب لنقل سكاني من غزة الى العريش، لم تحدثا أي تغيير على الارض، حتى عندما استخدمت القوة العسكرية لافراغ بعض سكان المخيمات) [٢٧٦].

وقطاع غزة لم يجتذب الكثير من المستوطنين، مجرد بضعة الاف محاطين ببحر من السكان المعادين، ربع مليون عام ٦٧ ونصف مليون في السبعينات ومليون في التسعينات.

وحالياً نحو ١,٥ مليون، وقد اضطر الاحتلال أخيراً لإخلاء القطاع مع ضرب حصار محكم عليه.

أما (فتح بوابات العمل للايدي العاملة الفلسطينية لعلها تخلق ارتباطا بين اصحاب العمل والعمال الفلسطينيين) [٢٧٧] لم تبدل شيئاً.

٢٧٦) نشرة المرصاد ١٨/٠٥/١٩٧٢. العدد ١١٠٩

٢٧٧) المرجع السابق

الباب السادس

قيادي من داخل الوطن يضيء صفحات منسية

قبل هزيمة حزيران ١٩٦٧ وبعدها راحت بعض الكادرات تقرأ الفكر الاشتراكي وتجارب ثورية، ومع نهايات الستينات وبدايات السبعينات انغمست الكادرات داخل سجون الاحتلال بدراسة منهجية وكثيفة، ومع مرور الوقت ارتقى أفراد من هؤلاء سواء في فترة اعتقالهم أو بعد التحرر، وأصبحوا يقتربون، وإن بتفاوت، من مستوى القيادة النظرية. بما أوجب عليهم الدراسات الغزيرة لعلوم شتى ونظريات شتى وأداب شتى، والميثولوجيا والديانات، والكثيرمن الفكر الرأسمالي والفكر الاشتراكي، في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفلسفة. إن امتدادات الجبهة اتسعت في السجون وخارجها، وتوالدت أسئلة كثيرة باتت تتطلب اجابات عميقة، كما أن الصفوف الكادرية تضاعفت وأحرزت تراكما ثقافيا وفكريا، وهي من نفس العمر، ولم تعد الإجابات الساذجة تقنعها. وبات من الضروري إقامة علاقة حوارية معها تفضي لاستنتاجات ومقاربات مشتركة، سيما أن هؤلاء ينتشرون في اللجان الحزبية، فهم شركاء عمل، وبعضهم ارتقى للهيئات المركزية في مؤتمر ١٩٨١، ناهيكم عن أن سنوات التحول، سيما في قلاع السجون، لم تشهد جدالات حامية الوطيس على صعيد داخلي فقط، بل جدالات و«مخافشات» أوسع مع الفصائل الأخرى، سيما فتح التي كانت أغلبية القاعدة الاعتقالية، مثل هذه «المخافشات والجدالات» كانت حافزا على المعرفة، فالتناقص جذر التطور.

لقد ارتقت العملية التنظيمية وتعقدت العملية النضالية وطرأت تحولات ملموسة على المجتمع في الوطن المحتل الذي انتقل من ثلاثة أرباع مليون في أواخر عام ١٩٦٧ م الى ضعف ذلك في أواسط السبعينات، وهو اليوم أربعة ملايين ناهيكم عن مليون ونصف داخل «الخط الأخضر».

واتسعت العملية التعليمية، وراحت تتأسس الجامعات وتتشكل النخب وبدايات المجتمع المدني سيما الفصائلية السياسية والنقابات العمالية والمهنية إضافة للجمعيات والأطر النسوية.

هذا كله أوجب كفاءات قادرة على بناء المنظمات الحزبية وحمايتها وتطويرها وتفعيل طاقاتها ورسم خطط وتاكتيكات صائبة، كما فهم الواقع وتحولاته، والأهم من ذلك مقاومة الاحتلال الذي لم يكف ليوم واحد عن مهاجمة أدوات اليقظة الوطنية وكل ما هو فلسطيني.

لم يكن صعبا استيعاب الخاصية الاساسية للنضال الفلسطيني، فالعدو عنصري أجلائي يعمم مخططاته في ١٩٤٨ على ١٩٦٧.

وأهم الكادرات الفكرية والمنظمة تشكلت في السجون. فالسجن مدرسة أسسناها وأسستنا، والمسيرة صرح بنيناه وبنانا.

إنها سيرورة متصاعدة صنعناها وصنعتنا. وفي أواسط السبعينات اكتشفنا مفردة ماركس (براكسيس) ودلالاتها، فغدت مرشدا، عززتها كلمات لينين في مؤتمر شعوب الشرق ١٩١٩م (إنكم تواجهون اوضاعا خاصة ....عليكم أن تتكيفوا مع ظروفكم وأن تشنوا نضالات ضد بقايا القرون الوسطى)[٣٧٨]، وقد استهوتنا هذه الكلمات، ليس لما فيها من نظرة دياليكتيكية تقرأ الملموس وتعدده ومستوى تطوره، بل تستحث ايضا على فهم الخصوصية واستحدات افكار بما يستجيب لمزاجي المتمرد الذي لا يقبل القوالب الجامدة. وحينما قرأت مقولة لينين (إن حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة) تساءل بعضنا هل ثمة فارق بينها وبين قرار الجبهة (بتبني الماركسية-اللينينية) وفي معمعات النضال تبين لنا الفارق بين تبنٍ واسترشاد.

لقد قرانا عشرات المؤلفات لماركس ولينين، استوعبنا روحها ونصوصها حينا ولم نستوعبها حينا آخر.

واذكر انني استمعت لأول مرة، لشروحات عن كتاب راس المال والفلسفة الديالكتيكية وعمري لم يتجاوز السابعة عشرة. اما جيفارا فقد حسم المسألة سيما أنه بهرتنا صورته الوسيمة، وقد غدا ملهما منذئذ، فهو قوة المثال، وقرأت مذكراته في السييرا مايسترا، وأهم ما استخلصناه أن التجربة الكوبية لم تقلد أحدا ولم تسر على أفكار منمطة جاهزة من الكتب. فكاسترو وجيفارا شقا طريقا جديدا في الممارسة والنظرية. مجموعة شبابية اقتحمت الأدغال وتحولت من بؤرة ثورية طريدة الى حركة يسارية ظافرة، ولم أكن بعد قد قرأت كتاب دوبريه» ثورة في الثورة» ولا تعبير التوسير «نظرية الممارسة» ولا معذبو الأرض». لفرانز فانون الذي أكد « أن عنف الاستعمار يولد العنف الثوري في الشعوب المستعمرة وأن العنف الثوري هو الطريقة الوحيدة للتحرر والتخلص من الخوف والكسل والدونية». وعبارة انجلز «إن العنف هو قابلة التاريخ».... ولكن الجبهة وفتح وسواهما قد ساروا في هذا النهج، وتعاظم العمل الفدائي في الوطن والجوار، وجاءت مذابح أيلول ١٩٧٠ م هزة كبيرة وضعت بديهياتنا على المحك وراحت تتكون الاجابة بتدرج على سؤال المذبحة: لماذا خسرنا الساحة الأهم، قاعدة الارتكاز الأولى، التي يربطها حدود تصل ٦٥٠ كم مع فلسطين، ويشكل الفلسطينيون فيها ثلثي الشعب وهي رئة تنفس للأهل في الضفة الفلسطينية بل يندر وجود

٣٧٨) لينين، المؤلفات الكاملة، دار التقدم ص ١٦١

عائلة لا تمتد على ضفتي النهر؟ كنا في بدايات الشباب، تابعنا بمرارة وذهول المعارك الطاحنة في الأردن، والوساطة العربية الرسمية، وقرأنا لاحقا عن القنابل الفسفورية، في أحراش جرش وعجلون ومحاولات التدخل السورية والطلعات الجوية التخويفية للطائرات العسكرية الاسرائيلية، وعن قانون ازدواج السلطة المؤقت وعن تجاوزات وأخطاء المقاومة... وغرامشي كتب(مبادئ علم السياسة ١- يوجد في الواقع حاكمون ومحكومون وبالتالي انقسام بين الجماعات الانسانية. ٢- الأمير الحديث في العصر الحديث لا يكون بطلا فرديا بل حزبا سياسيا، وضرورات النضال وأسباب أخرى أدت الى الانقسام الى أحزاب... وكل حزب تعبير عن طبقته... وعليه كيف نعد القادة؟...

ولكي يتكون الحزب لا بد أن تجتمع ثلاثة عناصر ١- عنصر جماهيري ٢- التماسك الداخلي ٣- عنصر وسيط)[٢٧٩]

ولوكاش المنظر الهنغاري كتب أن الحزب هو جسر التوسط بين النظرية والتطبيق.

فهل ارتقت الفصائل الى مستوى قضية التحرر وشروط انتصارها أم أنها اكتفت بالروح التضحوية والنضال؟ وبحكم خبرتنا العملية الابتدائية في مقاومة الاحتلال، تعلمنا أن السريّة هي درع الوقاية الأول، وكنا قد قرأنا عن المرحلة السرية في الثورة القبرصية، والمقاومة السرية في أوكرانيا، وعن القواعد الآمنة في كوبا...فلماذا غطست المقاومة في العلنية، ولماذا لم تتحالف مع الحركة الوطنية الأردنية لتحييد النظام؟ وبقي الجواب معلقا في الهواء. الى أن اعطت الجواب المقاومة اللبنانية (حزب الله تحديداً) في السنوات الأخيرة، فسلوكها أعطى الاجابة وليس المساجلات النظرية.

كانت خسارة الساحة الأردنية أكبر من كل التحليلات، وأن اندفاع المقاومة وتطورها السريع في لبنان، بما يفوق كل التصورات، لم يحمل أي تخفيف من حجم الخسارة وابعادها الاستراتيجية والاثمان المدفوعة.

والكثير من الافكار السياسية كانت تتناثر هنا وهناك، فولادة المقاومة وتمددها ومعاركها في مرحلة تاريخية عاصفة. يبني ثلث البشرية تحولات اشتراكية وعشرات الدول تستقل وتبني نماذجها التنموية، وثورة تقنية متصاعدة، ومتغيرات كثيرة لا تكف عن الولادة، فديالكتيك الواقع

---

٢٧٩) غرامشي، انطونيو، كراسات السجن، دار المستقبل ص١٥٢-١٦٧،١٥٣-١٦٨

يستوجب دياليكتيك النظرية والا تجاوزها الزمن.

وكنا قرأنا عبارة لينين «التعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات» وعبارة دوبريه (ان النصوص حقبة معينة ليس لها كلها العمر نفسه، فالشيخوخة تتم في الأيدولوجي بأسرع منه في الفني والأدبي)(٣٨٠)، وما هي المقاربة أو المقاربات الصحيحة، إذ من الطبيعي أن يقوم أوعى الناس سياسيا الذين مسهم اللهيب الثوري والذين يتوقون للتغيير السياسي والاجتماعي باعادة تقويم الخبرة الثورية الماضية محاولين استخلاص أوثق طريق نحو النصر المستقبلي... وأن السؤال الحارق (كيف تصنع الثورة هو السؤال الكبير... كل شيء يبحث بدقة: دور العفوية ودور الطليعة السياسية، النضال الجماهيري، حرب العصابات، الانتقال البرلماني السلمي، والانتفاضة المسلحة، الاضراب العام واحتلال المصانع..»أشكال النضال ودور مختلف الطبقات)(٣٨١).

لم تكن اجابتنا شاملة، انما عملية تتصل بمهامنا المباشرة في بناء نويات المقاومة وزاد نظري يغتني يوما بعد يوم بما شكل خلفية لتوجهاتنا في سنوات لاحقة حينما أصبحنا أمام سؤال الجمع بين العمل النخبوي والعمل الجماهيري وتوزيع الكادر، والجمع بين أساليب العمل وأشكال النضال.

(إن الثورة من الخطورة بمكان بحيث لا نستطيع أن نتجاهل مفاهيم جديدة، ولنفس السبب ليس بوسعنا أن نسترشد فحسب بموضات الأفكار، وأن نتبع شعارات غير مؤكدة)(٣٨٢).

كنا نستوعب أن الثورة مرحلة تغيير شاملة في أسس المجتمع وبنيته، وأن التنظيم السياسي يساهم وربما يقود الوعي الشعبي، والمثل الصيني يقول:»وتّر القوس ودعه ينطلق». وأن لكل ثورة نموذجها وتخوض تجربتها الخاصة وان كانت الثورات تتعلم من بعضها البعض...

و جرت محاولات عديدة في الوطن المحتل لبناء تنظيم ثوري وتنفيذ أعمال مقاومة جماهيرية وقتالية، ولكنها تعرضت لضربات ماحقة فما العمل؟

كانت واضحة مقولة «المحترفين الثوريين» التي استخدمها لينين والمستقاة من الثورة الفرنسية لاتباع بوبوف الذين كان همهم الوحيد الانغماس والسهر على الثورة...و كان جليا التصميم على النضال واجتراح مأثرة وكلمات جيفارا شعارنا: (لايهمني أين ومتى...) وكلمات دوبريه إن

---

٣٨٠) ووديس، جاك، نظريات حديثة حول الثورة ١٩٨٦ دار الفارابي ص ٨٠٧

٣٨١) المرجع السابق، ص١٢

٣٨٢) دوبريه، ريجيس، ١٩٧٠ مذكرات برجوازي صغير ص ٣٣

أهدافي الحربية في نهاية المطاف بضع كلمات مكتسبة بشرف: نزيه، مستقيم، متصبر، مقاوم، (أهدافي الحربية في نهاية المطاف بضع كلمات مكتسبة بشرف: نزيه، مستقيم، متصبر، مقاوم، منطقي، غير مساوم، والسعي لاجتراح قوة مثال من لحم ودم).

المسألة الأساسية كيف نناضل؟ كيف؟ باتت هذه المفردة هي الأكثر تحديا وتعقيدا في أواسط السبعينات.

الثورة الروسية استندت أولا للعمال واتبعت طريق الانتفاضة في المدن وانتقلت بعدها للريف، والثورة الصينية استندت أولا للفلاحين واعتمدت طريق حرب الشعب طويلة الأمد، وانتقلت من الريف إلى المدينة، وكلاهما قادهما حزب شيوعي، أما كاسترو في كوبا فخاض تجربة مختلفة: حرب عصابات فجرتها نواة ثورية تحولت لاحقا لحركة ماركسية...

ولكل تجربة ثورية خصائص وسمات بما ينسجم مع منظور لينين (تحليل ملموس لواقع ملموس) وأن (نظرية ماركس انما أسست حجر الأساس وعلى الاشتراكيين اذا أرادوا أن يواكبوا الحياة أن يطوروه في كل الاتجاهات)[٢٨٣]

فما هي نظرية الثورة الفلسطينية؟ سؤال بدأ ضبابيا واتضح مع مرور السنوات، أما الجواب فكان عملية تراكمية بطيئة.

تعرضت فلسطين لاحتلال عنصري استيطاني ابتلع أكثر من ثلاثة أرباع الوطن عام ١٩٤٨ واقتلع أكثر من ثلثي الشعب، واحتلت بقية فلسطين وأراض عربية أخرى عام ١٩٦٧... ولم تعد كافية كلمات فرانز فانون عن مدينة المستوطنين ومدينة الشعب الأصلي، فقد حلت مدينة المستوطنين المستعمرين محل المدينة الفلسطينية وعلى أنقاضها. واذا كانت الجغرافيا السياسية المحيطة محايدة نسبيا في الثورة الفيتنامية، وبعد انتصارها في الشمال غدت سنيدا وشريكا للنضال في الجنوب، فالجغرافيا السياسية العربية أكثر قسوة تغلب فيها السلب على الايجاب، وفلسطين موزعة على ثلاث وحدات منفصلة احداها عن الأخرى بحواجز وحدود وقوانين وقوات عسكرية «احتلالية» ونصف الشعب في الوطن ونصفه في الشتات» ودول الطوق» التي لم تتردد، بصرف النظر عن التفاصيل والأسباب، عن تعريض المقاومة والشعب الفلسطيني لمذابح سياسية وعسكرية وأحيانا تجويعية، وأحياناً احتضان ودعم.

وقبل أي حديث عن التركيب الطبقي ودور الفئات والطبقات الاجتماعية يتعيَّن الاشارة الى

٢٨٣) لينين، فلاديمير، المجلد الرابع، دار التقدم ص٢١١

اللاجئين واقتلاعهم وتشريدهم من جهة واقبالهم على التعليم من جهة أخرى، فكونوا مناخا ملائما لانتاج قيادات وحيز سياسي. وبحزم يمكن القول إن المخيمات كانت رحم البندقية المعاصرة وحاضنتها. فحياة الشقاء والبؤس لم تنتج «برولتياريا رثة» بتعبير ماركس بل طاقة نضالية متفجرة.

فالمخيم كيان له خصوصية وأداة تحليلية رغم أية تداخلات وجوهر مشترك مع قطاعات الشعب الأخرى في المدينة والريف، وهو ينتمي عموما للطبقات الشعبية من عمال ومسحوقين وبرجوازية صغيرة أغلبيتها من المثقفين والموظفين، ناهيكم عن انتشار الفكر التقليدي والعشائرية الممتدة في منشأ العائلات والبلدات الأصلية.

لقد تعرض الشعب الفلسطيني لعملية تطهير عرقي منظمة وبالتالي كان لنا رؤيتنا للمنعطف النوعي الكارثي عام ١٩٤٨، ودون عودة أهالي البلاد الأصليين الى ديارهم واقامة دولة ديموقراطية تعيد توزيع الثروات ويسري فيها قانون المساواة الفردية والجماعية، ليس ثمة فرصة لانهاء الصراع، وما جرى ويجري من تسويات ومشاريع هو مجرد ادارة أزمة لتوفير الغطاء للتوسعية الاسرائيلية واذكاء التناقضات لتفكيك الهوية الوطنية والشعب الفلسطيني.

ولئن كانت (الثورة تنبع من فوهة البنادق) ماو، فقد تعلمنا أيضا أن «لا حركة ثورية دون نظرية ثورية» لينين، نظرية مرشدة تساعدنا على فهم الملموس والمتغيرات وبناء أدوات النضال.

من هنا تم ربط الخطوة العملية بالفكر السياسي. ومبكرا، قبل حزيران ١٩٦٧ وبعدئذ في الاستراتيجية السياسية والتنظيمية عام ١٩٦٩ جرى تحديد معسكر الاعداء ومعسكر الاصدقاء وطبقات وأدوات الثورة ودور التنظيم الطليعي والكفاح المسلح، وموقف رافض ومقاوم للتطبيع والاعتراف باسرائيل، الذي يعني التفريط ب٧٨٪ من فلسطين وتصفية حق العودة لملايين اللاجئين الذين اقتلعوا وهجروا من منازلهم وأرضهم، وتكريس العنصرية العدوانية المعادية للعرب.

وكان الشغل الشاغل هو ترجمة هذه الخطوط لأن «الصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال بالأفعال» لينين. وقد أدركنا منذ البداية أن بناء الحزب هو المسألة المحورية، وعلى امتداد عقدين ويزيد لم نستخدم تعبير جبهة في تعاميمنا ومراسلاتنا ونشرياتنا، بل حزب، حزب بالمفهوم الثوري اقتداء بالحزب البلشفي والشغيلة الفيتنامي والشيوعي الكوبي والشيوعي العراقي في زمن فهد واللبناني في زمن حاوي..و كانت احاطتنا بهذه التجارب واسعة.

ومسيرة الجبهة هي ثلاث مفردات: تنظيم، تعبئة، نضال.

فهذه المفردات هي المهماز والمحرك الأكبر، يضاف لها الانبعاث من جديد بعد كل ضربة اعتقالية تصفوية، وما أكثر الحملات الاعتقالية التصفوية، فقط في أواخر السبعينات راحت تصمد التجربة التنظيمية ويصعد البناء، وهنا توالدت مفردة جديدة: «المتابعة» فهي «جوهر العمل الحزبي» لينين. و«العمل هو التفاصيل» دوبريه، و «الابداع في السياسة» الحكيم. وكلما تصلبت التجربة وأبدعت أحرزت نجاحات تركيمية، وكلما وهنت وخلت من الابداع تراخت وأصبحت عاجزة عن امتصاص الضربات الاعتقالية.

والضربات الاعتقالية هي كاشفة العورات، ففيها تتكشف مزايا الكادر ومدى انتمائه الفكري والسياسي، والضوابط الداخلية، فالأكثر صلابة وقناعة وأقل أخطاء يصمدون، والعكس صحيح. وكنا نصطدم بمحدودية امكاناتنا بما هو مصداق لكلمات دوبريه في حديثه عن تجارب ثورية في أمريكا اللاتينية، حينذاك (لقد ثبت بعد بضع سنوات من العمل الثوري أن البطولة وحدها ليست كافية وأنه كان هناك افتقار الى النضج الأيديولوجي، وفي المقام الأول الحس السياسي والتخلص من الحلقية والجدية في الاعداد للكفاح المسلح.) [٣٨٤]

ورغم اطلاعنا على تجارب في أمريكا اللاتينية سيما حركة التوباماروس ومارجيلا في البرازيل، وتأثرنا بالتجربة الكوبية، غير أن المقاربة الفلسطينية اختلفت.

ففي فلسطين لا يوجد « قواعد حمراء كما في السييرا مايسترا أو غابات كما في فيتنام، أو حتى في الجزائر، لبلترة الثوار من أصل فلاحي أو طالبي أو برجوازي صغير، أي خلق تضامن جماعي وثقافة جديدة، كما أن الريف الفلسطيني ضيق وعارٍ ولاحقا جرى تمزيقه بالمستعمرات وشوارعها.. ولا يوجد مدينة تحول العمال لبرجوازية صغيرة كما كتب فانون ودوبريه، وعلى الأقل حتى أوسلو، ونصفها تقريبا يكدح في مشروعات المستعمرين العنصريين، والبرجوازية الفلسطينية انتجت حركة فتح كحركة مقاومة غير مرتبطة بالاستعمار كما في تجارب أخرى، واستمر الحال الى أن جاءت أوسلو بامتيازاتها وما نتج عنها.

العمل السري والتضحيات وحياة الاسر زرعت الجماعية الثورية سيما أنه لم يكن لدى المناضلين ما يخسرونه، أما وقد أصبح لبعضهم شيءٌ قبل أوسلو ولدى أغلبيتهم شيءٌ بعد أوسلو، فقد جرى

٣٨٤) دوبريه، ريجيس، مشكلات في الاستراتيجية الثورية، ص ١٢٩

تغطيس الكثير من الكادرات والنشطاء في نزعة استهلاكية وتسابق على الوظائف والرواتب والامتيازات والارتخاء والحسابات الذاتية، يعزز من هذه العملية توالد المنظمات غير الحكومية التي ناهزت الألفين، وأصبحت الفئات الوسطى التي أنتجت المقاومة وثقافتها ووسائل اعلامها وفكرها السياسي، بل تعليم الآلاف في جامعات البلدان الاشتراكية، وتناهز اليوم ٢٥٪ من قوة العمل و٤٩٪ في رام الله حسب الدكتور جميل هلال، غاية في الضياع والضبابية، بما ينطبق عليها كلمات المفكر اكونور عن أمريكا اللاتينية قبل ثلاثة عقود (كانت الطبقة الوسطى ممزقة متحللة، لم يكن لها مقاومة منظمة)[٣٨٥].

وتضاعفت أعداد الطلبة، بما جعل نسبتهم تفوق نسبة الطلبة في بلدان خضعت للاستعمار، فهم في الصفوف الثانوية يناهزون ربع مليون، وتناسلت الجامعات المحلية وأصبحت تضم ١٣٠ الف طالب وطالبة، بما يشكل تمركزا وقاعدة واسعة نسبيا. وفي استبيانين عامي١٩٩٣ و١٩٩٤ في سجون جنيد والنقب وعسقلان تبين أن ٣٤٪ من الأسرى طلبة و٣٠٪ عمال والبقية فئات من الموظفين والمستخدمين الذين يصنفون «برجوازية صغيرة»، و٢-٣٪ فلاحون ومثلهم من البرجوازية الوطنية و٨٥٪ أعمارهم دون ٤٠ سنة و٦٥٪ لاجئون.

يمكن القول إن المدينة الفلسطينية، رغم أنها مدينة خدماتية وصغيرة، غير أنها مركز الحركة السياسية، مثلما أن الامتدادات الفصائلية في المخيمات والأرياف مركز الفعل المقاوم، الأمر الذي جعل مركز ثقل النضال مشوشاً فالذي يقود لا يقاوم والذي يقاوم لا يقود.

ومثل هذا المثال لم يكن منذ البدايات، بل سارت الأمور بتدرج في هذا الاتجاه.

(وعلى وجه الاجمال تكونت بتدرج الرؤية الاستراتيجية التالية في الوطن المحتل:

١. لن يستسلم الشعب الفلسطيني للمشروع الصهيوني العنصري، وسينتج على الدوام ارادة مقاومة تعبر عن قضيته العادلة، وهو في تنام ديموغرافيا وتعليميا وينتقل بتواتر من مرحلة التعويم الطبقي الى التقسيمات الطبقية التقليدية.

٢. العدو متفوق عسكريا واقتصاديا..... وسوف يزداد شراسة ووحشية وتوسعية واقصائية، وأنه لا يسعى لسلام حقيقي مع الشعب الفلسطيني، بل يسعى للاستيلاء على وطنه، وبعد ازاحته من الجغرافيا ازاحته من السياسة والتاريخ مستفيدا من الدعم الامبريالي والضعف العربي

٣٨٥) ووديس، جاك، نظريات حديثة.. مرجع سابق ص ٢٣٢

واخلالات الساحة الفلسطينية.

٣. الجغرافيا الفلسطينية ضيقة ومجزأة وغير منيعة ولا تلائم حرب عصابات جبلية تقليدية، والمدن بلدات صغيرة ومحاصرة. وهناك تعاون رسمي أو ضمني عربي واسرائيلي لضبط الحدود، أما الفجوات والثغرات التي عرفتها سنوات الاحتلال الأولى فقد جرى ردمها، مما يجعل السرية هي المخرج الوحيد.

٤. الجماهير الفلسطينية غير منظمة في مجتمع مدني نشط، ارتباطا بمستوى التطور الاقتصادي والثقافي، بما يجعل الحركة السياسية هي اللاعب الأول وقيادتها عاملاً حاسماً في تقرير المسيرة وخط سيرها.

والشعب الفلسطيني فقير في ثقافة القتال والحرب، مما يستدعي زجه في تجارب متنوعة لكيما يتعلم فنون السياسة والمقاومة ونضاله لمن ينتصر بضربة واحدة.

٥. تسعى الامبريالية والانظمة العربية العاجزة والعدو الاسرائيلي لاختراقه وافساد نُخَبه، مستفيدة من التحولات الطبقية وانطفاء عزيمة أوساط نافذة فيه.

٦. النضال مديد، والشعب قادر على تجديد نفسه وتجديد أدواته، مهما تثاقلت ديناميته.

٧. ثمة فرصة للصمود والتشبث بالحقوق، أما الانتصار فيشترط العمق العربي والعمل المشترك (٢٨٦).

(لمزيد من المتابعات الفكرية انظر الملحق رقم ١٣)

٢٨٦) اجابة مكتوبة لقيادي في الجبهة

الفصل الثالث

مقدمة

فور اجتياح قوات الاحتلال الإسرائيلي للضفة الفلسطينية وقطاع غزة... أصبح الشعب الفلسطيني أمام سؤال ما العمل؟ هل يرفع الرايات البيضاء بعد هزيمة الأنظمة وبرامجها العسكرية- السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية، أم يمتشق سيفه لقتال عدو يتفوق عليه في كافة الميادين، ما عدا الميدان الأخلاقي فهو عنصري احتلالي إجلائي.... ناهيكم عن الشروط الجغرافية والديموغرافية والطبوغرافية المجافية. فالبلد ضيق ومجزأ وعدد السكان محدود ولا غابات أو جبال مستعصية...، أي أن العامل الموضوعي مجافٍ لحرب العصابات. ناهيكم عن أن رفع رايات المقاومة الفلسطينية جاء متزامناً مع تقهقر الوضع العربي الرسمي حيث وضعت هزيمة حزيران نهايةً لمرحلة المد القومي. وفي الأرض المحتلة مثلت المقاومة تحدياً لجبروت الاحتلال «والجيش الذي لا يقهر» الذي شرع دون تباطؤ بإحكام قبضته على الحدود وتشكيل أجهزة أمنية متخصصة في ملاحقة «الإرهاب».

غير أن بعض الفراغات أتاحت للمجموعة الفدائية والمواطنين على حد سواء التسلل عبر الحدود، كما أن الأجهزة الأمنية لم تنجح في منع ولادة خلايا المقاومة رغم القسوة في ملاحقتها....

يسهل القول أن جوهر المبادئ التنظيمية للحزب الثوري يتمحور على الدور الطليعي للحزب في ممارسة وقيادة النضال والأشكال والقواعد الناظمة لحياته الداخلية وطرائق عمله في أوساط الجماهير بغية تأدية دوره السياسي.

ولكن هذه العبارات «الخشبية» تبدو مجردة جداً ويمكن الذهاب أكثر للقول أنها تكاد تكون منفصلة عن المسيرة الحية للجبهة، وإن اشتملت على بعض روحها ونبضها. الحياة العملية أكثر تعقيدا وصعوبة، وتمر بمفردات ومراحل عديدة قبل أن تقترب من هذه العبارات العامة وقبل أن تصبح وضعية الحزب مقاربة لما جاء في النظام الداخلي.

وعلى الدوام ينشأ التناقض بين مستوى أداء الحزب وبين الدور القيادي المطلوب منه، بين القواعد التنظيمية المحددة نظريا وبين الواقع الملموس للحزب، وكلما رسخ الحزب صفوفه وارتقى بمستوى بنيته وضاعف دوره النضالي اقترب أكثر فأكثر من التصورات النظرية المرسومة له.

فقد تحمست الجبهة الشعبية للينين واعتبرته من أرسى أسس وقواعد الحزب الثوري ارتباطا

بالمسيرة العملية للحزب البلشفي، في علاقة جدلية بين الممارسة والرؤية، بما يتجاوز كثيرا كتابات ماركس – انجلز وتجربة عصبة الشيوعيين والأممية الأولى، بل برهن هذا الحزب على قدرته الثورية بإطاحة النظام القيصري ومن بعده الحكومة المؤقتة وتدشين مرحلة تاريخية جديدة بما حملته من مقومات اقتصادية سياسية فكرية تنظيمية وعسكرية...

(العبارة القاطعة، الحاسمة التي يتعين تشربها من الرأس إلى الكعب، بل تشريبها الجميع، وإذا أردنا الاختصار إنها مفردة، نعم مفردة واحدة هي البناء:

علينا أن نبني، أن ننجح في بناء حزب، ثقافة، كادرات، خبرات، نضالات، نقابات، أطر نسائية، أطر طالبية، مؤسسات خدمية طبية وزراعية ولجان سجين، وأن نبني أدواتنا الإعلامية ونشاطنا البحثي.

أن نبني ونبني ونبني.

لقد بدأنا من الحجر الأول، ومن المدماك الأول، لم نتورث شيئا سوى اسم الحزب، بدأنا من الصفر تقريبا، لا مرجعيات قيادية، ولا كادرات مفرزة ولا امتدادات لتأدية مهمات ولا أقلام ثقافية وإعلامية... ولا ولا ولا... لقد وضعنا قدرنا التاريخي في بقعة مقفرة، كأسطورة حي بن يقظان وتعلمنا كما تعلم كل شيء وكأنه فتح جديد... إنها بطولة فردية غدت جماعية بلا شك...

بهذه الروح يجب أن نتعبأ لا بروح أن نكون شراحا للمواقف ولسيرتنا الذاتية أو الجماعية، بل بناة، نعم بناة استقطعوا الصخر من المحاجر وصنعوا أدوات العمل ووسائل النقل وراكموا ما يلزم من علم وخيال...

وعلى خيالنا أن يكون جامحاً «فالثورة تبدأ بحلم» والاشتراكية هي حلم متخيل، وتحرير فلسطين هو حلم متخيل، أو دعونا نقول هدف متصور.

كل ذلك من اجل أن نبني وطنيتنا الفلسطينية الحديثة ونحرر وطننا المغتصب ونسترد حقوق شعبنا...)[٢٨٧]

كان على الجبهة الشعبية أن تثبت وجودها وفاعليتها وإضافاتها جنباً إلى جنب مع تمايز في رؤيتها السياسية والفكرية والأمنية كونها احد التعبيرات اليسارية ذات الشأن، بالحرص على

٢٨٧) رسالة قيادية ١٩٨٣

الحقوق الوطنية ومصالح الشعب وفي المقدمة العمال والفقراء (الكتلة التاريخية) غرامشي، ليس قولا وحبراً على ورق بل عملا وحضوراً فاعلا في أوساط الشعب أيضاً.

لا يكفي القول حزب الطليعة، أو حزب طليعي بل ينبغي أن تعترف الجماهير بذلك، وان يتقدم الحزب الصفوف في المعارك الفكرية والطبقية والتحررية بما ينعكس على وزنه وحجمه في الخارطة السياسية. فالحزب يبنى في معمعان الممارسة، وفقط قيادة جبانة لا تفهم ذلك.

ومن البدهي أن لا ينحصر دور الجبهة في النضالات التحررية من أجل تحرير الوطن، بل أن تتولى نضالات فكرية وتنويرية واشتراكية أيضا، وان تسهم في صياغة الرؤية التنموية والصمودية للشعب، إضافة للأبعاد الديموقراطية الأخرى، والنظرة العقلانية الثورية، حتى النهايات.

فاليسار لا يمكن أن يكون الا اذا جمع النضال الوطني والديموقراطي في آن، فهو يسار وطني ديموقراطي، وهذا من البدهي، أن ينعكس في طابع وشكل وقوانين التنظيم. ومثلما أكد لينين على ضرورة الحزب الثوري من طراز جديد، في زمن الامبريالية، مكتشفا قانون تفاوت التطور وكسر الحلقة الأضعف في السلسلة، أكدت الجبهة على حاجة الشعب الفلسطيني للحزب الثوري وراحت تصب الجهود في هذه الطاحونة، مع سواها من القوى اليسارية والعمالية...

لقد بذر الحزب الشيوعي الكثير من البذور الفكرية والتقاليد الثورية، ولكن جاءت الجبهة الشعبية لتضيف رؤيتها وتبني فصيلتها المقاتلة ممتدة على نحو «جارف» في مخيمات اللاجئين في الخارج والداخل، مهدته بهذا القدر أو ذاك بكلمات لينين (إن حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة) كامتحان تاريخي، يتكرر في كل معركة وكل محطة وكل يوم للإجابة عن سؤال أساسي: هل ثمة قدرة على بناء الحزب الثوري وبناء القاعدة الجماهيرية المنظمة وحماية المقاومة والبندقية... وهل ثمة ما يكفي من إبداع لفهم الخصوصية وطابع المرحلة التاريخية كمرحلة تحرر وطني تهدف لدحر الغزاة العنصريين وتحرير الوطن وعودة أهل البلاد الأصليين.

ففلسطين ليست فرنسا أو أوروبا التي حللها ماركس – انجلز في البيان الشيوعي لكيما تكون اللغة الطبقية بهذا الحسم والهدف الاشتراكي بهذا الوضوح... إذ أنها تعيش مرحلة ما قبل الرأسمالية مع دخول بدايات العلاقات الرأسمالية، والانكى من ذلك اقتلاع الشعب من وطنه وحلول مجتمع المستعمرين العنصريين محله في نفس المكان، بل هذا العدو معادٍ للأمة العربية وتطلعاتها التنموية والقومية. فالصراع يدور على المكان: أرض، سيادة، أولا...

وان تخلع الجبهة الشعبية على نفسها لقب فصيلة طليعية ماركسية – لينينية شيء، وان تحقق ذلك على الأرض شيء آخر. كان هذا التناقض الداخلي هو المحرك الأول للعمل.

لقد عاشت الجبهة في الأراضي المحتلة عقدين ونصفا، كأبطال الإغريق، في صراع مرير بين الوجود واللاوجود، بين عملية البناء وعملية الهدم، إلى أن راكمت ما راكمت.

ولئن كتب لينين في بدايات القرن العشرين «إن المهمة تكمن بالحفاظ على الحزب وصلابته وثباته... ورفع لقب عضو الحزب وقيمته أعلى فأعلى» فالجبهة تمثلت هذه الكلمات وقامت بتأصيلها لكيما تصبح (المهمة هي بناء الحزب في مجتمع مشتت تقليدي لم تنفك مظاهره الحداثية في بدايتها»، والحزب الحديث هو حداثي اولا ويضم أفرادا «أحرارا» يلتحقون به بصفة افرادية طوعية متجاوزين التقسيمات الطائفية والعشائرية والعوائلية غير الطوعية والتراتبية التسلطية التي تسود المجتمع التقليدي عادة.

فكيف يمكن بناء حزب يعتبر نظريا أرقى أشكال التنظيم الطبقي في ظل هذا الواقع الخاص بما يتصل به من منظورات ثقافية وتخلف علمي وديموقراطي؟ وكيف يفهم القانون الأساسي الذي أكد عليه النظام الداخلي للجبهة الشعبية (المركزية الديموقراطية) وكيف تجلت ترجماته؟ وهل حقاً نبضت نفسية «المحارب البرولتياري» أم نفسية «المثقف البرجوازي الذي يتأنق بالجملة الثورية» وهل قامت «القاعدة والقيادة بتنفيذ الواجبات» لينين؟

وانحياز الجبهة للقواعد اللينينية في البناء التنظيمي جعلها تستوحي الكثير من هذه القواعد، وفي نفس الوقت أن تفهمها بطريقتها، وقبل كل شيء أن تتعامل مع ظروفها حيث تمضي والنار تطلق عليها من كل الجهات، خصوصاً نيران الاعتقال التي لا تخمد أبدا...

إضافة إلى قانون المركزية الديموقراطية، هناك قانون القيادة الجماعية والمسؤولية الفردية والتخصصات، والوحدة الفكرية والسياسية وحق التفكير والاجتهاد والمبادرة، ونسبة المرأة ودورها، وشروط وحقوق وواجبات العضوية، التركيب التنظيمي والبنية الحزبية وتوزعها في الوطن المحتل والمضمون الطبقي وشتى تقاليد العمل الحزبي التي يتعرض لها هذا الفصل تباعاً...

المبحث الأول

البدايات

- ١ -

(بعد ثلاثة أيام أو أربعة اجتمع ثلاثتنا، رفيقان ورفيقة من كادرات حركة القوميين العرب، وكانت الخلاصة أن حربا حقيقية لم تحصل، فالجيوش انهزمت دون قتال جدي ومرير، ففي سيناء تلقى الجيش المصري الضربات وتشتت في طريق انسحابه إلى القاهرة، وهذا حال الجيش الأردني في الضفة، واجبنا عن سؤال ما العمل؟ ١- البدء بلملمة القوميين العرب ٢- جمع السلاح وخصوصا من بقايا معسكرات الجيش الأردني ٣- التعبئة بالصمود وعدم تكرار التهجير عام ٤٨. ٤- دعوة العسكريين من أبناء الحركة للانخراط في المقاومة الشعبية ٥- الاتصال بالخارج)[٢٨٨].

ما يجدر ذكره أن حركة القوميين العرب في الضفة والأردن قد تعرضت لسلسة ضربات اعتقالية أهمها الضربة الواسعة عام ١٩٦٥. فيما راحت تعيد تشكيل نفسها قبل هزيمة حزيران على أسس جديدة محورها المزيد من السرية والصمود في التحقيق.

كان هناك في المجمل المئات من نشطاء وكوادر الحركة الذين انهوا دورات عسكرية في مصر، ما قبل حزيران ٦٧، بناءً على اتفاق بين الحكيم وعبد الناصر. و(لأننا استشعرنا غيوم الحرب التي تتلبد في سماء المنطقة، اجتمعنا قبل حرب حزيران بمحافظ رام الله ورؤساء الأجهزة الأمنية طالبين توزيع السلاح على المواطنين، غير أننا جوبهنا بالرفض خشية أن يتحول السلاح لصدر النظام!

كان على المبادرة الثلاثية أن تتصل بمن تبقى من عسكريي الحركة في الضفة.)[٢٨٩]

وكانت قيادة الحركة في بيروت قد اتخذت قراراً يقضي بعودة الطلبة الدارسين في الجامعات وسواهم من العناصر الفلسطينية للداخل.

تحرك القوميون العرب مع القوى الأخرى سيما الشيوعيون والبعثيون لتأسيس اللجنة الوطنية التي تكونت في البداية من تسعة عشر عضوا وتوسعت لاحقا. وكان من ابرز الأسماء (عبد الجواد

---

٢٨٨) قيادي تاريخي

٢٨٩) نفس المرجع

صالح، نديم الزرو، بشير الخيري، عزمي الخواجا، إبراهيم بكر، نهيل عويضة، عبد الحميد السائح، إيليا خوري، يعقوب العبيدي، سميحة خليل، صبحي غوشة، كمال ناصر، سليمان النجاب، فائق ورّاد ... فيما كانت الصلة افرادية مع ممثل فتح (محمد عيسى).

واهم القرارات التي اتخذتها اللجنة ١- مقاطعة الاحتلال ٢- التحرك الشعبي للضغط على الاحتلال لرفع الحواجز ٣- رفض ضم القدس سيما أنه أزيل السور من بين القدس الشرقية والقدس الغربية.

وكان الموقف مناهضاً لمحاولة الاحتلال ضم رام الله للقدس جمركيا بتسهيل حركة التجار في إطار مشروع القدس الكبرى، بما يشبه ما جاء في قرار التقسيم عام ٤٧ ولكن تحت السيادة الاحتلالية. وقد تعرض اجتماع التجار في رام الله للاقتحام، وفيما بعد اعتقل بشير الخيري على هذه الخلفية.

وجرى التوافق على إعلان إضراب المحامين، وكذا إضراب المعلمين لبعض الوقت. وقد بادرت الحركة الى تأسيس اتحاد طلبة ثانويين خاص واتحاد معلمين وبعض النقابات العمالية ولجنة مرأة قامت بإيفاد عدد من نشيطاتها لدورات فدائية في الأردن، وفي المقدمة شادية أبو غزالة التي سقطت شهيدة في نابلس.

كانت تتميز الحركة بامتداداتها الشعبية، أما الحزب الشيوعي فبكادراته البارزة والبعثيين بزعامتهم السياسية، أما فتح فلم تكن قد توطدت بعد، دون نسيان شخصيات بارزة للحركة كالدكتور صبحي غوشة في القدس والدكتور صلاح عنبتاوي في نابلس...

والمعْلم الآخر في نشاط الحركة كان استقبال العديد من الدوريات الفدائية والقيادات التي تسللت عبر الحدود لإنشاء قواعد سرية في الجبال والمدن، وبعض هؤلاء أثبت جدارته، فمنهم من استشهد أو اعتقل أو عاد أدراجه للخارج.

ومن بين هؤلاء الرفاق أبو علي مصطفى، احمد خليفة، عدنان منصور، صالح رأفت، تيسير قبعة، اسعد عبد الرحمن، عبد الله العجرمي، عطا الله الخطيب، ماجد عثمان، عبد الله حمودة، أمية نمراوي، وعشرات الضباط والكوادر.

- ٢ -

وتزامناً مع الداخل تحركت القيادة في الخارج وتفكيرها السياسي واضح: إطلاق حركة مقاومة مسلحة في الوطن.

ويتحدث د.عادل سمارة «لقد اعتقلني الجيش الأردني على الحدود مع ٤٨، على السلك، وفي الاثناء اصيبت ركبتي الى حد انكشاف العظم، لم أتلقَ علاجاً، ونفيت تهمة أنني قومي عربي مكلف بايصال سلاح للداخل.»

وكان عادل حينذاك عضوا في «أبطال العودة» التي يقودها الدكتور وديع حداد، والكثير من عناصرها تلقوا تدريبات عسكرية.

وفور هزيمة حزيران عقدت عدة اجتماعات في الاردن تمخضت عن تشكيل قيادة متقدمة خماسية مكونة من (مصطفى الزبري (أبو علي) مسؤولا أول، عبد الله العجرمي مسؤولا عسكريا، عزمي الخواجا مسؤولا سياسيا، عادل سمارة مسؤولا تسليحيا، أحمد خليفة مسؤولا عن القدس... جرى تعزيزهم لاحقاً بتيسير قبعة وأسعد عبد الرحمن...)[٢٩٠] وأغلبيتهم عبروا الحدود إلى الوطن ومعهم العشرات من الفدائيين.

كانت المهمة واضحة: بناء مجموعات قتالية وتأمين السلاح والعناية بالفدائيين الذين انتشروا في الجبال والمدن...

(كان التفكير متجها للقيام بعملية كبيرة، فمال المسؤول العسكري العجرمي للهجوم على الكنيست بثلاثين مقاتلاً، أما الآخرون فلم يتحمسوا إلى أن استقر الرأي على الهجوم على مطار اللد.)[٢٩١] ويتحدث عزمي الخواجا عن أنه لم يكن متحمساً لها.

وهنا يجدر التذكير أن القائد وديع حداد كان على علاقة مع وجيه مدني قائد جيش التحرير من خلال ضابط الارتباط الحاج فايز جابر، بما عاد بالفائدة على «أبطال العودة» وتوجهاتها القتالية، كما أن جبهة تحرير فلسطين بزعامة أحمد جبريل قد اتحدت – ائتلفت. وهذا ما يفسر أن يقود ضابطها محمد جابر شتل عملية المطار.

---

٢٩٠) مقابلة مع عادل سمارة... ٢٠٠٩/١٢. رام الله

٢٩١) قيادي

ولما كان قرار الحركة أن يعود الطلبة وكل من يستطيع الوصول للوطن، (هجر خلف أبو الوفا الكادر النشط في الحركة، عمله في العراق وقام بتصفية يوسف البيتوني بعد أن جاهر بارتباطه... ولكن المجموعة المتجهة إلى مطار اللد اصطدمت بكمين عسكري، على مقربة من المطار وعلى اثر اشتباك جرح قائد المجموعة محمد... وحمله رفيقه فايز حسن من أبناء الحركة إلى رام الله حيث أسعفه الدكتور محمد غوشة... كان هذا في ٦٧/١٢/١١ الذي اعتبر ميلاداً للجبهة الشعبية... وبالتالي فأهم عملين في ذلك الوقت في الضفة هما عملية المطار وتصفية البيتوني.)[٣٩٢]

استنفرت قوات الاحتلال وراحت تتعقب الآثار، ولكن بلا جدوى. إلى أن صادفت دورية للجيش شابا ملتحيا وبعد تفتيشه عثرت على قنبلة، وهذا قاد الجيش إلى مغارة حيث استشهد صائب سويد ومحمد النجار ومحمود اللحام، واعتقل عادل سمارة الذي هدم بيته على الفور... واقتحم بيت في البيرة أصيب فيه أمّية نمراوي بجروح... وشنت حملة اعتقالات...

وعن الفكر السياسي لهذه التجربة التي استمرت ستة أشهر، فهو فكر الحركة... ولكن منذ عام ٦٥/٦٤ جرت نقاشات حول الاشتراكية والماركسية... وكان بين المتحمسين للماركسية وقرائها (غسان كنفاني، بلال الحسن، محمد كشلي، محسن ابراهيم... وفي سجن السبع تكونت قيادة التنظيم عام ٦٨ من عدنان جابر، عطا الله أبو غطاس، على العواودة، يونس الجرو، أحمد دخيل، ساجي سلامة، محمد رشيد هلال، عادل سمارة، سهيل الشنطي...

لم يكن لدينا مراجع وكتب، ولكن أغلبيتنا لم تؤيد التعبئة بموضوعات ماركسية...)[٣٩٣]

(ما أن انقشع غبار معركة الاعتقالات، قمنا بإعادة تشكيل القيادة التي شمل نشاطها الضفة الفلسطينية وقطاع غزة. وشهد عام ٦٨ مداً تنظيمياً كاسحاً حيث انتشرنا في عشرات المواقع الجديدة. ولمع اسم الأستاذ مصطفى الصافي والكادر العمالي خليل أبو خديجة الذي اقترن اسمه برقم ٢٩ لأنه كان يقود ٢٩ صلة تنظيمية مباشرة)[٣٩٤]. كما ظهرت للعيان تجربة أبو منصور الريادية في الخليل ورفيقه عبد الرحيم جابر الذي تميز بالجرأة قبل وبعد عام ٦٧.

كانت الأولويات فدائية، أي بناء تنظيم مقاتل، حتى أن الجبهة أصدرت نشرة عسكرية في

---

٣٩٢) عادل سمارة

٣٩٣) نفس المقابلة

٣٩٤) قيادي تاريخي

الأرض المحتلة، مزاياها تدريبية وميدانية، وكان يقوم فيصل الحسيني بمراجعتها والتدقيق في موضوعاتها.

أما عن الجانب التعبوي، فيمكن القول إن مجمل الخارطة التنظيمية كان يتعبأ بالخط التاريخي للحركة فيما يخص المسألة الوطنية والكيان الصهيوني، وبعض قضايا الأمة العربية، أضيف لها تحليل الحركة لهزيمة حزيران وفشل الأنظمة البرجوازية، والبعض قرأ عن التجربة الكوبية والأفكار الجيفارية والثورات الفيتنامية والصينية والجزائرية واليمنية... وكان للبعض إطلالة على الفكر الاشتراكي، الأمر الذي تعمق لاحقا في السجون.

ونشاط الجبهة في تلك المرحلة، أسوة بنشاط الفصائل الأخرى، شمل الكمائن الفدائية وزرع الألغام وعبور الحدود وموجة واسعة من التدريبات العسكرية في الداخل والأردن.

-٣-

والسياق الاجمالي في قطاع غزة كان على النحو التالي:

بعد أسبوع من احتلال القطاع عام ١٩٦٧، بدأت قيادة حركة القوميين العرب في القطاع بالاتصال بأعضاء الحركة الذين وافق حوالي ٣٠٠ عضو منهم- بروح ثورية عالية- على إعادة تنظيم صفوفهم... وقامت قيادة الحركة بتشكيل «طلائع المقاومة الشعبية» إضافة لكوادر من الحركة شخصيات وطنية مستقلة كالمرحومين منير الريس وفاروق الحسيني...كما تأسيس الجهاز العسكري وجمع الأسلحة.

وفي بداية تشرين الأول ١٩٦٧ تقرر قيادة الحركة البدء بعمليات الكفاح المسلح عبر جهازها العسكري بقيادة النقيب عمر خليل ونائبه رمضان داود... وتشكلت النواة آنذاك من ٧١ عضواً... كما أصدرت الحركة جريدة الجماهير.

توسعت عضوية الحركة وناهزت ألف عضو وتميزت بزرع الألغام ونصب الكمائن.

في ٢٤/ كانون ثانٍ/ ١٩٦٨ تعرض الجهاز العسكري لضربة قوية على أثر ضبط قائمة بأسماء الجهاز...

"بعد سبعة ايام من احتلال قطاع غزة بدأت الكوادر الاكثر طليعية في حركة القوميين العرب بتشكيل جهازها النضالي العسكري (طلائع المقاومة الشعبية) مستفيدة من خبراتها في جيش التحرير الفلسطيني،

... على الفور شرعت مجموعاتها بنصب الكمائن وزرع الألغام والعبوات الناسفة، وقد احتضن الاهالي المقاومين وفتحوا لهم بيوتهم. سيما في مدن الساحل.»

وهذا تؤكده كراسة «نسور الشعب» المتداولة في سجون الاحتلال.

تفاجأ العدو الذي حسم الحرب في سبعة ايام او سبع ساعات واجتاحت قواته سيناء والضفة والجولان ... وقد أصاب قيادته الاغترار الى درجة أن يطلق على الجيش الاسرائيلي «الجيش الذي لا يقهر» وراح الاعلام الغربي يستهين بالجندي العربي والسلاح السوفييتي ... (كنا قد قرأنا عن استسلام الجيوش واستسلام المدن وتسليم المفاتيح للغزاة، في غير بلد، مثلما قرأنا عن احتلال نابليون لموسكو التي أخلاها رئيس الأركان القيصري من السكان دون أن يستسلم، وترك الثلوج تنخر عظام الجيش الغازي قبل أن يهاجمه وهو في طريق انسحابه...

ظروف الأراضي الفلسطينية مختلفة، وقررنا تحدي الهزيمة واختيار طريق المقاومة) (٣٩٥).

استجابت المقاومة في غزة بسرعة، وكأنها على أهبة الاستعداد، بل كانت كذلك ارتباطاً بسياسة النظام الناصري الذي سهل التدريبات العسكرية وبناء جيش التحرير وتوفير دورات عسكرية لكوادر القوميين العرب...

وتستطرد «نسور الشعب»

«قام العدو بمداهمات وحملة اعتقالات واسعة إلى أن عثر على كشوفات في أحد البيوت، فتوسعت الاعتقالات والبعض اصبح مطارداً.

سجل أغلبية الرفاق صموداً بطولياً وتحولوا للإداري وبعضهم أبعد، وبين الذين تحولوا للإداري محمد الأسود (جيفارا غزة) وأحمد أبو وردة وعارف عاشور وموسى عاشور. وكلهم استشهدوا لاحقاً.»

بعد الإعلان عن تأسيس الجبهة في ٦٧/١٢/١١ رفدت القيادة في الأردن، قطاع غزة، بعدد من الكادرات العسكرية الذين تسللوا عبر سيناء، «أما الدورية التي تسللت عبر وادي عربة فقد استشهد قائدها رجب دردونة، إلى أن شق عبد العزيز الميناوي طريق البحر في قارب استمر ستة ايام نصفها دون طعام، وبين الدوخة والتقيؤ، حط بهم الرحال على شواطئ خان يونس.

٣٩٥) مفصل أيديولوجي

تولى الميناوي المسؤولية العسكرية عن قطاع غزة وقد وزعه على ثلاث مناطق، وبما حملته المجموعات العسكرية من أسلحة وما توافر بين أيدي الرفاق من عتاد شنت سلسلة عمليات ناجحة وقوية، استخدمت فيها الرشاشات والقنابل والـ آر. بي. جي والألغام... لقد اشتعل القطاع من شماله إلى جنوبه.»

وكراسة «نسور الشعب» تستعرض عشرات العمليات التي غلب عليها نصب الكمائن ومباغتة العدو، وزرع الألغام، والاشتباك المباشر، ولافت تماما عملية هجومية بمشاركة رفيقة اسمها رندة، استشهد فيها علي قاسم وجرح أحمد عمران الذي حملته رندة إلى وكر آمن، حيث كانت الأوكار في البدايات وسيلة التخفي الأساسية في بقعة جغرافية خالية من الغابات والطبوغرافية الملائمة.

وفي عملية رفح استشهد أربعة رفاق فيما جرح الحاكم العسكري وأصيب عشرة من جنوده... وتوالت العمليات والاستشهادات التي شملت عشرات المقاتلين... وبروز قيادي جديد (جلال حافظ عزيزة) الذي اعتقل لاحقاً سنوات طويلة...

«كان وراء كل مجزرة عميل» فالعدو اخترق المجتمع وصفوف الفدائيين من خلال العملاء والأسلحة المعطوبة. ورغم اتباع تاكتيك الكر والفر والمجموعات المتحركة غير أن الاختراقات الأمنية حصدت المزيد من الفدائيين... فيما استهدفت الجبهة المزيد من العملاء...

وسجل الجبهة يضم قائمة من الشهداء الأبرار وفي مقدمتهم الكادرات المسؤولة تنفيذاً لقاعدة اتبعوني، فالقائد في المقدمة.

ولافت أيضاً ما بلغته الجبهة من تركيم وصل حد أن تنفذ بعض العمليات الهجومية بعشرة مقاتلين وأكثر، وأن تخرج المدينة والمخيمات بأسرها لتوديع كوكبة من الشهداء، كما لافت التعاون اللوجستي مع قوات التحرير ومجموعات فتح على أوسع نطاق حد العمليات المشتركة والأوكار المشتركة دون حساسيات تنظيمية.

دون أن ننسى أساليب البطش الاحتلالية إلى درجة استخدام الصواريخ وقنابل الأنيرجا والتحقيق الميداني مع الجرحى والاغتيال بعد الاعتقال ودس السم في طعام الفدائيين... والاختراق الأمني حيث نشرت «نسور الشعب» قصة اغتيال حريص أبو حية بعد ثلاثة أيام من التحقيق معه دون أن يفلح جهاز المخابرات في انتزاع اعترافات منه، فحملته مجنزرة وأطلق الجنود النار عليه في ١٩٧٠/٣/١٨ وبعد أيام اعتقل الكادر علي أبو سلطان، الذي ادعى اسماً غير اسمه فحكم ثلاثة

أشهر على اسم سعيد نبهان بجريمة عدم حمله هوية، وفي يوم الافراج عنه احتجز ثانية وقد اكتشف أمره.

وكان لدى المخابرات قرارٌ بتصفيته مع مجموعته التي نفذت عملية العمدان، وحضر ضابط المخابرات إلى زنزانته وخاطبه: جهّز نفسك للإعدام اليوم. وعلى مسمع قسم الزنازين خاطب الجميع من كوة الزنزانة: سيأخذوني اليوم للإعدام... وداعاً يا رفاق.

وبالفعل أعدم في مخيم النصيرات، تلاه إعدام سميح حسب الله، ومحاولة اخرى لاغتيال شيبوب أنقذ صدفة حينما صرخ من داخل الجيب العسكري على أخته في السوق: يريدون قتلي، فراحت تهلل وتكبر وانضم لها الناس وحضر الصليب الأحمر... قال له ضابط الدورية: لك بقية عمر خذ دخّن سيجارة.

وتصاعدت قوة الجبهة ولم تعد الوسائل العسكرية المباشرة كافية ولا بد من وسائل استخبارية، من خلال الاختراقات الأمنية الخطرة. حيث نشرت «نسور الشعب» أن الاختراق الأمني وصل حد المواقع المتقدمة من خلال محمد أبو خوصة الذي قام بتصفية أربعة مقاتلين دفعة واحدة بعد تجريدهم من سلاحهم وتكبيلهم بأسلاك وإعدامهم بدم بارد وحرق جثامينهم وهم (أحمد فكري قائد الشمالية ورفاقه بشير مهدي، تيسير عبد ربه، بشير أبو وردة) ومحاولة أخرى أكثر خطورة حيث دعا لاجتماع واسع لمقاتلي الجبهة في معسكر الشاطئ، على أن تنصب قوات الاحتلال كميناً ضخماً... وقد هتك سره في آخر اللحظات فنشب اشتباك وتبادل إطلاق نار... ولاحقاً انتقل لصفوف العدو ونجح في قتل المسؤول العسكري يوسف غبن والمقاتل عايش دواس.

وجاء إسكات المدافع على جبهة قناة السويس بناءً على مشروع روجرز، الأمر الذي سمح بسحب عشرات آلاف الجنود الإسرائيليين وزجهم في قطاع غزة للتخلص من الظاهرة الفدائية...

ووزير الجيش ديان وقائد المنطقة الجنوبية شارون حاولا تفجير الفصائل من داخلها، حيث أرسلا عبر رئيس البلدية رشاد الشّوا اقتراحاً بأن يغادر المسلحون قطاع غزة، وقد نقل الاقتراح لزياد الحسيني القائد المرموق لقوات التحرير الفلسطينية، كما تسرب لصفوف الجبهة الشعبية...

تضيف «نسور الشعب» من غير جيفارا غزة يستطيع أن يغلق الهوة وينظف سمعة الجبهة. وكان قد أطلق سراحه بعد عامين ونصف من الاعتقال الإداري، « وأصبح مسؤولاً سياسياً، وقائداً عاماً بعد أن اغتيل القائد العسكري يوسف غبن، لما تميز به من إخلاص وحنكة ومكانة عالية بين

المقاتلين والجماهير، فهو أسطع نموذج قيادي عرفه القطاع.

وبعد زمن قصير ردم الاختراق الأمني وأعاد الهيبة للجبهة وضاعف من العمليات العسكرية... ودارت طاحونة النضال والعمليات إلى أن اعتقل نائبه محمد موسى بخبرته العسكرية عام ٧١، وما نتج عن ذلك من اعتقالات في شمال القطاع.

«ومن جديد أثبت جيفارا غزة قدرة على استخدام وسائل الدعاية التي ردت على فبركات الاحتلال بأن الفدائيين جبناء ويخنعون في التحقيق، بإبراز نماذج الصمود وشجاعة الفدائي وإطلاق سلسلة من العمليات الفدائية الموجعة، وإقامة أوسع العلاقات مع الجماهير وتفهم مقترحاتها وهمومها.»

وتحسم «نسور الشعب» بالقول (لقد أعادت الجبهة عام ٧١ سمعتها كفصيل أول في مقاومة المحتل وتصاعدت قوة الجبهة «ففي لهيب النضال يبنى الحزب وجماهيره...)[٢٩٦]

«ولكن ما أن نهضت الجبهة حتى تلقت ضربة جديدة قوية سببها أحد أفراد دورية وصلت من لبنان (علي أبو شمالة) الذي اعتقل وأدلى باعترافات واسعة وانتقل إلى صف المخابرات في التحقيق مع الرفاق، وتشكيل مجموعات فدائية وهمية باسم «الكف الأسود» بغية توريط الوطنيين.

ومن جديد وضع على كاهل جيفارا غزة، « بما لديه من حنكة قيادية ترميم الأضرار وبناء المزيد من الخلايا السرية، والمجموعات العسكرية وتنفيذ سلسلة من العمليات وإتقان المزيد من وسائل التمويه...

ومع استشهاد زياد الحسيني تحللت قوات التحرير بينما فتح كانت محدودة الوجود والدور بما وضع على قيادة الجبهة في غزة أعباء مضاعفة...

وفي الأعوام ٧١ و٧٢ و٧٣ قدمت الجبهة عشرات الشهداء إلى أن رصدت أجهزة العدو وكر محمد الأسود وكامل العمصي وعبد الهادي الحايك تحت بيت عائلة الصوراني ومدخله مرآب بيت الدكتور رشاد مسمار...

ولما أطلق جيش الاحتلال نداءً لهم بالاستسلام، رد الرفاق بنار حامية، وتعرض الملجأ لقصف بالمدفعية والرشاشات إلى أن استشهد الرفاق الثلاثة في ١٩٧٣/٣/٩...

---

٢٩٦) كراسة نسور الشعب المنسوخة بخط اليد. إصدار المنظمة الحزبية في سجن عسقلان. بلا اسم للمؤلف

وبعد استشهاد جيفارا غزة تولت المهمة قيادة جديدة في محاولة لبناء التنظيم وممارسة بعض العمليات غير أنها لم تصمد.

- ٤ -

جاء مؤتمر الجبهة الأول في آب/١٩٦٨ منعطفاً نوعياً. إذ رغم غياب الحكيم الذي كان معتقلا في السجن السوري، جاء تقرير آب مفعماً بالمقولات اليسارية، وان غلبت في النهاية، رؤية وديع حداد الذي تبنى فلسفة «في أتون الكفاح المسلح يبنى التنظيم الطلائعي، وتتجسد المقولات الثورية، بما هو قريب من التجربة الكوبية.

خرج نايف حواتمة ومجموعة من الكادرات اليسارية في شباط/٦٩، وانعقد مؤتمر الجبهة الثاني الذي قاده الحكيم، وبرهن على قفزة فكرية وسياسية تجلت في صياغة الإستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة، حيث جرى تحديد طبقات الثورة ومعسكر الأعداء والتحالفات وأساليب النضال وبناء الحزب الطليعي...

وانعقاد المؤتمر (انعكس ايجابا على الداخل فاعتقد أن الرفيق وديع هو الذي نسّق أهم العمليات منها عملية السوبرسول والقنصليتين الأمريكية والبريطانية والجامعة العبرية... وكان له صلات بالقس إيليا خوري وايلاريون كبوتشي وأكاديميين بارزين ورؤساء بلديات)[٢٩٧].

وما اسلفناه يعكس حيوية الفئات الوسطى المثقفة في مجتمع تقليدي تطغى عليه الحياة الفلاحية ومنظوراتها حيث برزت اسماء بشير خيري، صلاح عنبتاوي، وداد قمري، عبد اللطيف غيث، يعقوب عودة، سميحة خليل، عطا الله أبو غطاس، سلافة البرغوثي، لطفية حواري، نائلة الخياط، يعقوب العبيدي، عدنان جابر، نهيل عويضة، عزمي الخواجا، وسواهم، كما تجلت قدرة الدكتور وديع حداد الذي نجح فيما نجح ليس بخطف الحكيم من السجن السوري دون إراقة دماء، بل تجنيد شخصيات دينية بارزة وشخصيات عامة أيضا. فمنذ دخول وديع إلى قطاع غزة عام ٦٣ والمشاركة في الدورة الأولى للمجلس الوطني التي انعقدت في القدس أواخر/٦٤، كانت عيناه متجهتين إلى فلسطين. ومن هنا قاد تنظيم فلسطين في حركة القوميين العرب وألّح على الحكيم، وهذا بدوره على عبد الناصر لتأمين دورات عسكرية لأبناء الحركة في مصر.

مفيد الاستماع لتجربة كادر محلي أيضاً. (بداياتي تعود إلى ما قبل ٦٧. إذ انطلقت بعض

---

٢٩٧) مخضرم

العمليات الفدائية داخل ٤٨ فيما استباحت القوات الصهيونية مدينة جنين بين تقتيل ونسف...،
اتصل بي الشهيد احمد من قرية فقوعة شارحاً لي عن حركة القوميين العرب، محاولا تجنيدي
في الجناح العسكري للحركة. لم يمض وقت طويل حتى أعلن عبد الناصر إغلاق مضائق تيران
واندلاع حرب ٦٧ وما نتج عنها.) (٣٩٨)

كان الغضب شديدا على النظام الأردني الذي لم يحم الضفة وراح الناس يقارنون ما حصل
عام ٦٧ بما حصل عام ٤٨. وشرعت قوات الاحتلال تلاحق بعض المطلوبين مثل أبو علي مصطفى
وحسين احمد ممن كانوا متهمين بتنفيذ عمليات فدائية داخل ٤٨...

(انتظمت مع الرفاق حسين وتوفيق محمود واحمد حسين. وتلقينا شروحات عن المهام المنتظرة.
وقد حددنا الأولويات التالية:

١- استقطاب عناصر كفاحية موثوق بها. ٢- التهيؤ لاستقطاب وافدين من الخارج ٣- تأمين
مخابئ لتخزين السلاح ومسح الذخائر. ٤- التحريض على الاحتلال ومقاطعته، كما ضغطنا
على أحد التجار إلى أن تخلّص من البضائع الإسرائيلية.

بين تموز وآب درسنا الواقع الطبوغرافي في واستخلصنا أن منطقة جنين ملائمة لحرب الغوار،
ولكننا اكتشفنا لاحقاً أن الجانبين الفكري والأمني غائبان.) (٣٩٩)

كان قرار الحركة عدم الاشتباك المبكر مع الاحتلال حتى يتسنى توفير مقومات العمل. وراحت
تدرب طلائع كفاحية على السلاح واجتياز الحدود إلى الأردن بما تحمله معها من لوازم أثناء
عودتها. وفي تشرين أول سقط الرفيق حسن احمد أثناء تنفيذ مهمة استطلاعية واعتقل رفيقه
طاهر جلغوم.

(كنا نعاني من شح بل انعدام الإمكانات المالية. وحينها تلقينا تعليمات لاجتياز النهر إلى
الأردن. لم يكن بحوزتنا أية أموال فاعتمدنا على أنفسنا. تلقينا تدريباً في موقع سري بالقرب من
المفرق، ساعدنا ضابط عراقي منتم لحركة القوميين العرب... بعد الانتهاء من التدريب عدنا
إدراجنا إلى الوطن، وقد مررنا بأول قاعدة للحركة في الأغوار، وكان فيها الرفاق أبو علي، حمدي
مطر، عدنان منصور، عبد الرحيم ملوح، أبو عيسى، خالد عبد الرحيم، توفيق محمود... وكان

٣٩٨) كادر نوعي

٣٩٩) نفس المرجع

غالبيتهم من الضباط. ولما كان ينقصنا السلاح تسللنا لقاعدة عسكرية عراقية واستولينا على بعض السلاح. أثناء العودة انطلقت رصاصات أصابت قدم صالح رأفت... افترقنا وفي القرب من طوباس حاصرتني دورية احتلالية واعتقلتني حيث مكثت مدة شهر في تعذيب وحشي، منها مهاجمتي من قبل الجنود بأعقاب البنادق والقبضات والركلات... وعلى مقربة مني شاهدت أحد المناضلين مطروحا أرضا والدماء تنزف منه.)(٤٠٠)

الاعتقال يعني عزلة وطعاما فقيرا وغرفا مزدحمة وفراشا لا يقي شر البرد وماءً قليلا للشرب دون أن نعرف الماء الساخن للاغتسال، وزيارة أهل ربع ساعة كل شهر أو بضعة أشهر، ولا وجود لكتب أو جرائد أو مذياع... والجهة الوحيدة التي كانت تزور السجن دوريا هي الصليب الأحمر. واستمرت الحال على هذا النحو إلى أن اندلع إضراب الأسرى في سجن نابلس الذي استمر ستة أيام، وقد أثمر عن إدخال الجريدة وسماع الراديو الذي تتحكم به الإدارة مدة ساعتين يوميا.

لعب بعض الرفاق الأكثر خبرة دوراً متميزاً في تنظيم الحياة داخل السجون ورفع مستوى الوعي، منهم عطا الله أبو غطاس، بشير الخيري، عادل سمارة، عدنان جابر، محمد عوض، ربحي حداد، يعقوب ديواني، أديب عساف، أبو ناصر البوريني، عدنان منصور، علي جبر...

(عليّ أن اذكر هنا أن التجربة الاعتقالية مرت في ثلاث مراحل بين ٦٧ – ٧٣.

الأولى بين ٦٧ – ٦٩ وقد تميزت بالقمع الشديد من إدارات السجون والفقر الشديد في الكادر التنظيمي والتركيز على التعبئة الكفاحية وتغليب الوطني على الفصائلي.

الثانية بين ٦٩ – ٧٠ حيث انضمت كادرات واعية من أفواج المعتقلين الجدد، فانتظم التثقيف والتعبئة والتربية التنظيمية، ونشأت بدايات لمكتبات، كما شهدت السجون بعض التوترات بين الجبهة الشعبية وفتح.

الثالثة بعد الـ ٧٠ حيث تطورت الأوضاع التنظيمية وأنتجت قيادات اعتقالية وتبلور الوضوح الفكري والسياسي للجبهة وانتظمت الصلات بالرفاق في الخارج...

وتلخيصا: ١- لقد كانت بدايات العمل الفدائي متعثرة وإمكاناتها شحيحة على كل الصعد، ولكن أحلامها كبيرة وإرادتها قوية ٢- طغى التثقيف الوطني والقومي في البداية، وطغى لاحقاً

---

٤٠٠) نفس المرجع

التثقيف بالماركسية – اللينينية. ٣- خَرّجت السجون طائفة من الكادرات والقيادات التي تركت بصماتها على المسيرة التنظيمية في الوطن ٤- كان يوم انطلاق الجبهة ١٢/١١ يوماً للفرح والتفاؤل والوعد بمزيد من التضحيات، وكان الانتماء للجبهة وثابا وفخراً كبيراً يقتضي الاستعداد لكل المهام...)[٤٠١]

xxxxxx

(عندما يجري الحديث عن قيادة موحدة للضفة وغزة، إنما يعني ذلك وجود مركز قيادي واحد. والجبهة هنا تفردت. إذ كان يقوم عمل الفصائل على الشبكات، وقد يوجد في المنطقة الواحدة عدة شبكات، أي عمل حلقي باللغة الحزبية، وحتى الاتجاه الشيوعي، كان له حزب شيوعي فلسطيني في غزة وآخر شيوعي أردني في الضفة، وثالث شيوعي إسرائيلي في ٤٨، أما الجبهة فقيادة واحدة في عموم فلسطين، وكانت لها نشريات مشتركة وميزانية واحدة.

لم يتوافر ما يكفي من وقت لتوطيد التجربة، إذ في أوائل عام ٦٩ تلقت ضربة اعتقالية متسلسلة بدأت بعنصر طلابي من فتح على صلة ميدانية بعنصر طلابي من الجبهة، ومنه إلى والى، وراح التحقيق يفتش عن منفذين لعمليات عسكرية وتصنيع متفجرات ونقل أسلحة...

---

[٤٠١] نفس المرجع

-٥-

(في السجن عقدنا اجتماعا بمشاركة كل الرفاق ذوي الصلة لتقييم أسباب الضربة حيث عرض كل رفيق اعترافاته ورأيه وتوقيعه وختمنا التقييم: لنبدأ صفحة جديدة.

ولا تفوتني الإشارة الى أن التحقيق في ذاك الوقت كان مسلخاً ومن بين أربعة عشر كنا في زنازين المسكوبية استشهد قاسم أبو عكر الكادر المميز في فتح فيما أصيب أبو ارميلة باضطرابات عقلية.

ولا أنسى أن اختتم حديثي عن تلك الفترة بالقول إن انشقاق الديموقراطية لم يترك أي اثر على الداخل. بل إن محاولة ابو النوف التأثير على احد المفاصل لم تؤت ثمارها، وهذه حال عدد من الرسائل، إذ كانت أنظارنا شاخصة نحو الحكيم من جهة ونحو الجبهة من جهة أخرى التي تعبر عن قناعاتنا الكفاحية والعملية. وكنا قد عقدنا العزم على المقولة النضالية.

واستطيع القول إن عربة التثقيف الماركسي قد انطلقت في السجون، أما قبلئذ فاطلاع بعضنا كان محدوداً...) (٤٠٢)

وهذه العملية التثقيفية بدأت بسيطة غير أنها تعقدت مع الوقت وبات لدى الجبهة شراح للماركسية – اللينينية وموضوعات فلسفية واقتصادية وعلم اجتماع، إضافة للقدرة على الإجابة عن أسئلة كثيرة.

على امتداد عام أو أكثر عقدت جلسات تثقيفية لكافة المعتقلين دون تمييز فصائلي، وبشكل اخص الشعبية وفتح، ومع بداية السبعينات، حصل التقاطب التنظيمي وكل عضو التحق بفصيله.

و(بصراحة لقد تمايزنا في النظام والنظافة وعقد جلسة تثقيفية يومية أو أكثر. واستثمار الوقت في المطالعة وقمنا بتهريب الكتب الماركسية والثورية من غرفة لأخرى ومن سجن لآخر، ذلك أن إدارات السجون تمنع هذه الكتب. وبعضها تم إدخاله مموها أو عبر محامين شجعان أو الأهالي. وأحيانا تخف القبضة عن سجن الرملة فيقوم الرفاق بنسخ الكتب بخط مُنمنم على ورق شفاف (ورق السجائر) وتوزيعه على سجون أخرى من خلال المناقلات، حيث يقوم الرفاق من ذوي الخط الجميل بنسخ عدة نسخ على نفس الورق أو على دفاتر يجري إخفاؤها جيداً في

---

٤٠٢) قيادي تاريخي، مرجع سابق

الحملات التفتيشية، وكان قرارنا: منع العدو من الوصول لأية مستندات مهما تطلب الأمر، حتى الاشتباك بالأيدي أو مضغ الأوراق وابتلاعها، وهذا خط استمر على امتداد السنين، وكان من العار أن يقوم احد المناضلين بتسليم سلاحه قبل الاعتقال، وبنفس الدرجة كان ينظر للمناضل الذي يسلم دفترا أو نشرة...)[٤٠٣]

والحديث عن حياة الأسر ذو شجون. ولكن يجدر الإشارة الى أن ابرز قيادات الجبهة أصبحت قيادات للحركة الأسيرة وتمثلها أمام إدارات السجون والصليب الأحمر وأية وفود خارجية. وكانت إدارات السجون تنظر بعدائية لا تخلو من احترام، فكوادر الجبهة متعلمون ومثقفون وتأثيرهم ملحوظ. وقد انتزعت الجبهة حقها بالتثقيف وعقد الجلسات التنظيمية بعد طول صدام. وهنا أحرزت نقله نوعية.

ومع هيكلة أوضاع الرفاق في منظمات حزبية، بات في كل سجن قيادة ولجنة مسؤولة في كل قسم أو غرفة، تتابع شؤون التعبئة الأيديولوجية والسياسية وعقد الجلسات ومعالجة قضايا ومشكلات الرفاق، وإصدار نشرة وتعاميم دورية وعقد مؤتمرات.

بعد إفراغ سجن بيت ليد على اثر إضراب عن الطعام استمر تسعة ايام تم نقل الأسرى إلى سجن بئر السبع الصحراوي، وهو من ناحية المناخ شبيه بمعتقل النقب الصحراوي، بارد حد الصقيع شتاء سيما في الليل وحار حد اللهيب في الصيف سيما في النهار. ولكن سجن السبع المكون من«بركسات» كبيرة يتسع الواحد ل ٧٠ – ٨٠ معتقلا مزودة بمرافق خدمية فيما البناء يخفف من قيظ الصيف، الذي يشل حركة السجناء بين ساعات الظهر والعصر في معتقل النقب، فيلوذون من اللهيب إلى اللهيب،فيما يتمتعون بساعات من أجمل الأوقات مساء والى أواسط الليل.

فللمكان تأثير كبير على حيوية الأسرى ومعاناتهم. والنشاط الثقافي الجماعي كان يعقد في الصباح ما قبل ارتفاع قرص الشمس في قبة السماء... أما المطالعة الذاتية فتستمر على طول النهار.

(كنا نتلقف كل كتاب جديد وتتداوله الأيدي بحساب صارم، ففي غضون يوم أو يومين يتعين تمريره لآخرين، وكنت أثابر عليه ولا اخرج «للفورة» وأتمدد بحوار الباب الذي يتسلل من بين قضبانه ضوء الممرات من المساء حتى مطلع النهار، إذ كان نظام السجن يقضي بقطع الكهرباء عن الغرف في التاسعة ليلاً)[٤٠٤].

---

[٤٠٣] المرجع السابق

[٤٠٤] أحمد قطامش

(بإنصاف يمكن القول إن المربي الأول كان الرفيق الشهيد ربحي حداد وملك الثقافة الأول كان يعقوب دواني الصحافي في جريدة القدس العربي اليوم، أما الزعيم الأول فهو الرفيق بشير الخيري... وصعدت أسماء شبابية بات لها شان قيادي لاحقاً مثل فتحي البواب ومحمود الغرباوي وأحمد قطامش وعدنان جابر ولاحقاً أحمد سعدات، دون نسيان عدنان منصور بمزاياه الفولاذية وعبد العليم دعنا وعلي القطاوي وغازي أبو جياب ومنصور ثابت ويحيى الغلبان ومحمود فنون وأبو خالد الغول...

لقد تربى وتكون في السجن مئات الكادرات الذين قادوا منظمات الأسر وتثقفوا بالفكر الماركسي – اللينيني، وبعضهم أبحر عميقا في الفلسفة الإغريقية والديانات وقرأ الاقتصاد الرأسمالي وعرّج على الثورات وعلم النفس وعالم الأدب الواسع والعلوم الإشكالية كنظريات داروين واينشتاين وفرويد والتاريخ العربي والحروب التي لا تنتهي بين النخب الحاكمة والحملات الصليبية والحقبة العثمانية.

كانت مرحلة ولادة تتفتح فيها الأزهار، وكان ثمة إعجاب بكلمة ماو (دع مئة وردة تتفتح) وحوارات مستفيضة تجري وأسئلة تنبثق ولا قيد على حرية الفكر والاجتهاد، وإن كان الجميع منحازين للماركسية – اللينينية في روحها الثورية وحلمها بالعدالة الاجتماعية ورؤية لينين للمسالة اليهودية والحركة الصهيونية... أما المحرك الأكبر فهو الطموح لبناء حزب ثوري على مستوى عربي. وكانت النزعة الأممية عالية، و(نتابع بلهفة أخبار الثورة العالمية والتجارب الاشتراكية والمقولة الأكثر شيوعا كانت: النضال المشترك وأحيانا الحليف الاستراتيجي، دون أن نتردد في إظهار خلافاتنا مع السوفييت، سيما حول الاعتراف بإسرائيل والقرار٢٤٢ والكفاح المسلح والطريق الثالث...)[٤٠٥]

واحد الكادرات الشبابية أردف:

(اسمحوا لي أن أضيف ما يلي: لا اعرف متى انعقد أول مؤتمر حزبي في السجن، ولكنني اذكر مؤتمر السبع عام ٧٥، حين كنا نحو ١٣٠ رفيقا أبرزهم الشهيد ربحي حداد ويعقوب دوائي. لقد جرى تقييم أوضاع المنظمة والعلاقات الوطنية، وأطلق صوت النقد للعديد من الأخطاء وفي النهاية جرى الاقتراع السري وانتخبت قيادة جديدة.

---

٤٠٥) أيديولوجي

أما في مؤتمرات لاحقة فتمت الوقفة أمام برامج المنظمة الحزبية ومسيرتها ونقد المسؤولين قبل إجراء انتخاب لقيادتها الجديدة...

واذكر أن يعقوب دواني سجل مأثرة جديدة حين عمم على الرفاق سبعة عشر نقدا ذاتيا لنفسه، بما جعلنا لا نتهيب من الاعتراف بأخطائنا وتصويبها. أما ربحي حداد فكان يعزز الروح الجماعية والتضامن الرفاقي والنزاهة وحماية هيبة الحزب، والاستغراق في التعبئة الفكرية سيما الفلسفة والمنظورات الديالكتيكية، وكان بعضنا ينعته سراً ب (لينين) نظراً لتشابه سحنتيهما. وقد تعرض لهجوم غادر مفاجئ أصابه بجروح دائمة في الوجه والعنق على اثر خلافات مع فتح. وكانت الأجواء نزقة وشبابية ولم تتعلم بعض آليات إدارة التناقضات الوطنية...)[٤٠٦]

وظروف السجن تميزت بالخشونة إذ كان الطعام رديئا والبطانيات رثة وكريهة الرائحة، وزيارة الأهل نصف ساعة، والقمل منتشرا والاستحمام مجرد سطل ماء ساخن. كان الهدف الأول التخفيف من اضطهاد السجان وتحسين الأوضاع وحماية المعتقلين الجدد من الانهيار واليأس.

وفي المقابل ثمة رعاية خاصة للرفاق المميزين وشحنهم بروح النضال واستئناف العمل بعد التحرر، سيما من ذوي المحكوميات الخفيفة، بل الحفاظ على صلة معهم بعد إطلاق سراحهم.

وخيضت إضرابات عديدة عن الطعام لوقف الاهانات والمطالبة بالكتب والدفاتر والأقلام ومن اجل الحد الأدنى من العلاج والحد الأدنى من الطعام. إن تحويل نصف حبة برتقال إلى حبة يوميا تطلب إضرابا والحصول على حبة بندورة تطلب إضرابا، وتوفير ماء ساخن وصابون تطلب إضرابا ورفع شبك واستبقاء شبك فاصل في الزيارة تطلب إضرابا، وتخفيف الاكتظاظ في الغرف تطلب إضرابا وإدخال بعض الملابس من الأهل تطلب إضرابا، ووقف اقتحام غرف الأسرى بالهراوات والتفتيش المذل تطلب إضرابا... وهكذا دواليك، كل سجن يحمل صليبه على ظهره ويخوض سلسلة احتجاجات وإضرابات إلى أن يجبر إدارة السجن على التراجع... وصولا إلى نمط الحياة الحالي حيث تتوافر بلاطة للطبخ وتلفزيون وو... بل إنه في ظل تراجع الحياة السياسية في السجون وارتخاء التنظيمات جرى تغطيس الأسرى في شراء طعامهم وتأمين كروت للاتصال الهاتفي... الخ أما «المحرضون» فيجري عزلهم في أقسام خاصة أو زنازين انفرادية.

إن سعي سياسات الاحتلال لعزل المقاومة عن الشعب والتنكيل بالمقاومين وترك عاهات أبدية

٤٠٦) قيادي

على الكثيرين وإصدار أحكام عالية بعشرات السنين على الآلاف وتحويل السجون لمقابر جماعية يطويها النسيان قد أخفقت. فقد التحمت المقاومة بالشعب، ووسائل البطش وهدم البيوت والتقتيل لم تكسر إرادة المقاومة، أما السجون فتحولت لمدارس ثورية بكل ما في الكلمة من معنى...

أما الضياع الحالي وثلم نصل المقاومة وتسرب النزعة السلبية والاستهلاكية إلى قلاع الأسر، فتعود لأسباب سياسية وتراجع المستوى القيادي...

ويختتم القيادي (لم تنقطع صلة قيادة الداخل بالسجون، وكان الرفاق ينتظرون عودتي من الزيارة. وعلى الفور أخلو بنفسي لتدوين النقاط والمستجدات لتعميمها... وهذا هام جداً لضمان التفاعل بين منظمات الأسر والرفاق، بل هو دليل احترام للرفاق الأسرى الذين حافظوا على بعض الدور خارج السجن)[٤٠٧]

وآخر تحدث عن فترة اخرى بالقول (تجربتي تختلف عن الخاتمة أعلاه، إذ اعرف عن انقطاع الصلة برفاق مركزيين في فترة أوسلو، بل لم يعمل بالاقتراح الأهم، بإحالة بعض المهام على الرفاق المركزيين ومهام أخرى على الرفاق في الخارج، بما هو قريب من العمل المناطقي، كإجراء مؤقت يناسب تراجع حجم ومستوى الفريق القيادي في الداخل، لو تحقق ذلك ربما أسهم في الحيلولة دون تفكك البنية الحزبية في أعوام ٩٣ – ٩٥.

أما تشكيل مركز قيادي للمنظمات الحزبية في الأسر في أوائل التسعينات، فهو وان كانت له نتائج ايجابية سيما على صعيد كيفي، فان اصطفاء عدد من المفاصل للهيئات المركزية في المؤتمر الوطني ١٩٩٣ لم يترك أصداء عملية، وبقيت الألقاب المركزية إسمية دون المشاركة في حمل أعباء العمل خارج السجن، بينما كانت الحالة تقتضي العكس في ضوء ما أصاب قيادة الداخل من تقهقر واعتقالات متتالية)[٤٠٨].

وكادر أضاف (من جانبي أرى الأمور على النحو التالي: لقد التحقت بالجبهة في السجن، ولم تغرني الأموال، بل لم تكن تصل لعناصر الجبهة أية أموال، وحياة الرفاق ومسلكيتهم وكرزمية بعضهم شدتني لهم سيما عداؤهم للأنظمة الرجعية وحاجة الثورة لقاعدة ارتكاز. وكنت احصل على بعض التعميمات والأوراق بصورة سرية، خصوصا الإجابات عن أسئلتي عن الاشتراكية

٤٠٧) المرجع السابق

٤٠٨) مفصل تنظيمي

والدين واليمين واليسار. وكنت قد رأيت صورة الدكتور جورج حبش والشهيد غسان كنفاني قبل اعتقالي، ورأيت الهيبة والمعاني فيهما... وقد عاملني الرفاق باحترام وكانت علاقاتهم فيما بينهم مبدئية وصادقة ولم الحظ عنفا جسديا أو عقوبات بدنية كما كان يحصل لدى التنظيمات الأخرى، وكان إقبالهم على التثقيف أعلى وأكثر بكثير من الآخرين، وان كنت لم الحظ فوارق في البنية الطبقية للفصائل، كل ذلك شدّني للجبهة، فالتحقت بها سراً، ذلك أن قوانين الاعتقال تمنع التحول من تنظيم إلى آخر. وبعد تحرري نشطت سنوات عديدة في الجبهة إلى أن أصبح حالها غير مقنع وتخبطت في انتخابات التشريعي عام ٩٦... بل إن الأنكى من ذلك المشاركة في انتخابات مجلس أوسلو والتصويت لمصطفى)[٤٠٩].

٤٠٩) كادر

المبحث الثاني

أسس وقواعد العمل السري للجبهة الشعبية في الوطن المحتل

نسوق سرداً وتتبعاً لطائفة العناوين الأهم التي شكلت في مجملها الضفيرة التي نسجت منها الجبهة الشعبية تجربتها التنظيمية السرية، هذه الضفيرة التي تراكمت خصلاتها سنة بعد سنة، تعثرت وانتصبت، تقطعت وتواصلت، افتقرت واغتنت في غمرة الممارسة بما للأفراد المميزين من بصمات وتأثيرات.

وكون الاحتلال جاثما على صدر فلسطين ارضاً وشعباً، وينطلق من ارضية عنصرية تقوم على اقصاء دموي للفلسطيني من الجغرافيا والتاريخ، انكاراً لوجوده وحقوقه، فالعملية الصراعية كانت شديدة البأس، وقد تطلبت جذرية ومهارة من قبل فصائل العمل الفلسطيني، وبشكل اخص الجبهة الشعبية التي راكمت خبرة وبنية منظمة مشهودا لها بالقدرة على الصمود والمراكمة رغم استهدافها الشرس، على امتداد فترات بما تميزت به من مفردات جنباً إلى جنب مع التعثرات والاخلالات...

١- الاستخفاء ركن ركين في العمل السري

ليست جديدة تجارب الاستخفاء في العمل السري، وعلى اقل تقدير ثمة إشارات منثورة في كتابات عن حزب لينين والمقاومة الفرنسية والتجربة القبرصية والتجارب اللاتينية والهند الصينية والحزب الشيوعي الأردني... وكذا يوحنا المعمدان الذي تحدى الحكم الروماني أربعين سنة طريدا في الأغوار كما جاء في الإنجيل...

وتجربة جيفارا غزة، هي الأغنى في زمانها، إذ استمرت عامين ونيفاً إلى أن اكتشفت قوات الاحتلال، بوسائل استخبارية، مخبأه المحصّن تحت احد البيوت فقصفته بالصواريخ ومدافع الدبابات إلى أن سقط شهيدا مع رفيقيه الحايك والعمصي في ١٩٧٣/٣/٩. وهذه حال تجربة أبو منصور في جبال الخليل، وتجارب فلسطينية عديدة إحداها تخفي قيادات شيوعية فلسطينية كسليمان النجاب وعربي عواد وعبد الحفيظ زيدان ومحمد قطامش في سنوات الاحتلال الأولى وبداية السبعينات...

وهذه التجارب لم تكن مجرد هرب من الاعتقال كما حصل مع ثوري اسباني لمدة ربع قرن استهدفه نظام موسوليني الفاشي، بل تخفياً لتأدية دور ثوري يرقى إلى مستوى العمل القيادي بتعقيداته واشتراطاته.

في أواسط السبعينات تم اعتماد التخفي كخط ومتطلب لا مهرب منه، بما يتجاوز المطاردة، فالطريد دائم الحركة ويمكن أن يظهر هنا وهناك لتأدية مهامه، وهؤلاء في العادة لا يطول بهم الحال، أشهر أو سنوات قليلة، وكان منهم المئات في سنوات الانتفاضة الكانونية المجيدة.

أما قطاع غزة فعرف نموذجا مسلحاً، عشرات وعشرات المطاردين بين عامي ٦٨ و٧٣، من نشطاء الجبهة الشعبية وفتح وقوات التحرير، كان مآلهم الاستشهاد أو الاعتقال لسنوات مديدة.

أما التخفي فهو «الاحتجاب الكلي وعدم الظهور إلا على أهل الشأن»، حسب التوصيف الذي نحته البعض، وهؤلاء دائرة ضيقة، مجرد آحاد أو أقل قليلا أو أكثر قليلا تبعا لحجم المسؤوليات. والتخفي يصبح أثرا بعد عين، فينقطع عن العمل والتعليم والأهل والأصدقاء، ويصبح ملكا جماعيا للعمل الثوري الذي يتكفل بتلبية متطلباته الأساسية من إقامة وطعام وملابس وعلاج... فهو محترف ثوري بالمعنى اللينيني، يمنح النضال جماع شخصيته وكل وقته، فهو شغله الشاغل، وعليه الاصطبار على ذلك واثبات كفاءة مميزة وقدرة عالية على الاضطلاع بما يناط به من مهام متنامية تتطلب سجايا متنوعة.

ولأنه محترف وليس هاويا، فهو يتصرف على هذا النحو بما يتصل بذلك من قوة شكيمة ومجالدة على الحرمان. وقد تشمل الحرمانات عدم تمتعه بالشمس أو الهواء النقي لأشهر وسنوات. إذ يغدو مطلبا عزيزاً مجرد تسفُّعه باشعة الشمس او تمتعه بنسمات عليلة، والأمر نفسه ينطبق على التمشي في الطرقات أو إقامة علاقة بامرأة أو لقاء بصديق. فهو يستجيب للدور المناط به بحزم.

ولئن اعتقل في وقت قصير أدين دون مواربة، سواء نتيجة خطأ منه أو خطا من الذين حوله. فهو لا يملك حق التصرف بنفسه وإنما يرقى إلى مستوى التماهي في مهامه ترشده كلمات لينين (مطلوب جهاز لتنفيذ سياسة لا سياسة لإرضاء جهاز) والذين لا يصلحون عليهم الاختباء تحت تنورات زوجاتهم، فلا يتجشمون مواقع اكبر منهم، وان فعلوا جلبوا الضرر والمضرة، وهذا لا يمكن التسامح معه.

كما عليه أن يحافظ على صحة جيدة إجمالا، والإعياء المسموح به هو إعياء العمل، أما المرض فينطوي على أعباء قد تتوافر وقد لا تتوافر. والصبر وطول النفس يلازمان المتخفي دون ترف التذمر أو التشكي، فهو قائد لمهامه، والقائد يبث العزيمة وقوة الإرادة.

والمتخفون يتموضعون في قلب فريق المحترفين الثوريين، وقد يكونون رأس الجسم التنظيمي

وعموده الفقري، فهم الأكثر عطاء وإنتاجية، اتصالا بتفرغهم الكلي وقدراتهم ومهاراتهم، بل لأنهم يتمتعون بهذه المزايا يتم اصطفاؤهم، وقد تكون بداياتهم أكثر بساطة ولكنهم يستجيبون في غمرة الممارسة.

والمتخفي لا تناقش معه الصفات الفكرية والسياسية والعملية أو الصمودية أو السلوكية، فهي تحصيل حاصل وبدهية، وما يناقش معه هو الارتقاء بهذه الصفات استجابة لمطالب العمل المتنوعة والمتعاظمة. أما إذا اخل بأية صفة فقد اخل بالشروط التي يقتضيها التخفي... فمثلا لا يناسب الاستخفاء من يفتقر لمؤهلات منظّم من طراز رفيع أو جيد، أو العمق الفكري والقدرة الصحافية أو قد يفرط بالأسرار تحت أي ظرف أو يبدي ارتخاء في التقيد بالمسلكية الثورية أو يتسامح مع احتياجاته كانسان بما لا يتيحه التخفي...

(كان ثمة إطلالة جزئية على تجارب المجموعات الفدائية الفلسطينية، وقراءات للأدب السوفييتي الذي يصور ظاهرة التخفي في أوكرانيا لمقاومة النازية، والصباح في إيران ضد الأيوبيين والفرنجة على حد سواء، والتجربة العجيبة لبول بوت الذي اختفى أربعين سنة في الأدغال، أو اليسار المقاتل في البيرو وقائده غوزمي ومن قبله في الاوروغواي وما كتبه دوبريه.

لكن نقاشا دار في سجن السبع في أواسط السبعينات بين ربحي حداد واحمد قطامش ومحمود فنون حول عبارة قالها ماوتسي تونغ «التخفي في المدينة لمواجهة القمع». تركت أثرها وكانت منعطفا في الإجابة عن السؤال الفلسطيني.)[٤١٠]

هل ثمة حاجة للتخفي وما هي نظريته في فلسطين؟ سيما أن الخصائص الفلسطينية معروفة: فلا أدغال ولا كثافة سكانية ولا مدن، مجرد قرى صغيرة تدعى مدناً تجاوزا، وثمة حدود «سياسية» تفصل التجمعات الفلسطينية بعضها عن بعض، إلى درجة أن يكتب المفكر إلياس مرقص أن نظرية حرب الشعب كلها لا تلائم فلسطين... وبالتالي فالبعض قال إن البديل لكل ذلك هو الاستنجاد بالموقف السوفييتي وقرار ٢٤٢؟

كانت الإجابة تحمل ضمنا الانحياز لخيار التخفي، أما نظرية التخفي فقد تشكلت لاحقاً مدماكا بعد آخر في أتون البراكسيس. وفي تلكمّ الفترة تم التعرف على مضامين هذا التعبير الماركسي مثلما تم التعرف على غرامشي ومقولاته حول الثقافة والمثقفين والكتلة التاريخية والمجتمع المدني

٤١٠) أحمد قطامش، سجن السبع

بما لم أعهده- كاتب النص- في الكتابات اللينينية التي كنت مستغرقا في التهامها، ورحت أقارن بينها وبين التاريخ الفلسطيني والعربي المفتون بقراءته... بما سمح لي بصورة عفوية اكتشاف مقولة لينين «تحليل ملموس للواقع الملموس» ولاحقا قلت (تبييء الفكر).

إن تأسيس تنظيم أو الانتقال بالنويات الأولى إلى مستوى تنظيم فاعل في السياسة، أي له ما يكفي من وجود منظم وإمكانات للصراع، إنما يتطلب حاضنة الزمن «فالزمن عامل العوامل» وفيه يمكن أن يتحقق التركيم... ومن بدايات تنظيمية هشة حلقية متناثرة إلى قاعدة منظمة تحوي مقومات الاستمرار باللغة الحزبية.

وتأمين هذه الحاضنة إنما يتطلب تامين قبضة لا تتعرض للاعتقال، قبضة من البنائين/ المؤدلجين/ الطلائعيين/ الذين يستأثرون بثقة غيرهم ويتكاملون مع غيرهم، كل من موقعه في تناغم وتعاضد وأحلام مشتركة. وهنا حضرت نماذج قيادة الحزب البلشفي، فهد في العراق، فرج الله الحلو في لبنان، حبش ووديع في فلسطين، جيفارا وفيدل، وهوتشي منه، ونماذج من القيادات في التاريخ العربي...

«السعادة في النضال» ماركس، النضال بشتى صوره، نضال يراكم نجاحات، يبث معنى خاصا للحياة، ويخدم رسالة عظيمة، ويجعل صاحبه يقف على أرضية أخلاقية يتفوق فيها على العنصريين والاستغلاليين وقوى القهر، ولكن النضال ليس مجرد نزهة في البراري وحفلة شواء، واجتماعات في مكاتب وإصدار بيانات...فهو تضحية ومعاناة واعتقال وتعذيب، يضاف لها في ظروف التخفي الوحدة والحرمان من ابسط الأشياء الطبيعية وعدم الاستقرار وضغوط المكان وتباطؤ الزمان أحيانا، في انتظار معلومة أو اتصال أو تقرير أو....

(بوجه عام، قام الحزب بتأمين البيت السري ومن يرعى الجوانب الحياتية، وقليلة هي المرات التي وجدت نفسي فيها طريداً دون بيت، أو دون طعام، أو دون فنجان شاي، أو كهرباء وأحيانا تشتد المصاعب اتصالا بلحظات التحوط والمناقلات، وغير مستبعد أن تذهب لبيت لا يوجد فيه شيء من متاع الدنيا، ولكن هذه اللحظات مؤقتة، بل لربما أن تجربتنا الحزبية على هذا الصعيد قد تفوقت على أية تجربة أخرى في العالم من ناحية مستوى الرعاية، إلى درجة أن يتوافر جهاز تلفزيون صغير بالأبيض والأسود والجريدة، وان لم يكن بصورة يومية، والكتب، ووسيلة مواصلات مأمونة كلما دعت الحاجة .... لم نكن كالذئاب الجائعة، اذهب أنت وربك فقاتلا .... والأهم من كل ذلك هو توظيف الطاقة أي الفاعلية العقلانية، فأنا تخفيت لتأدية دور وليس نأيا عن السجن،

فالسجن مريح أكثر من الناحية الإنسانية، بعد انتهاء فترة التحقيق الأكثر قساوة وكثافة، سيما أنه توافر بيئة اجتماعية واستقرار نسبي وزوال المخاطر...)[411]

وفي العادة تناط بالمتخفي مهام واسعة تستغرق وقته بالكامل، وقد يعمل يوميا ١٠ - ١٢ - ١٤ساعة، وقد يصل الليل بالنهار، تبعاً لحجم مسؤولياته، إضافة لساعات القراءة اليومية، فهو يدأب على توسيع ثقافته ومعارفه العلمية ويتعمق إيديولوجيا، وهذا أكثر من ضروري لمهامه.

وهناك أيضاً عائلته، وبشكل اخص الزوجة والأم، إذ ينبغي الاعتراف أن المرور بتجربة التخفي يعني التقصير الجذري نحو العائلة، وهذه حال الذي يخوض تجربة السجن أو الحياة العسكرية أو العمل في باخرة أو السفر لبلد أجنبي... وهذا التقصير ليس قراراً إراديا بل نتاجا لخيار ثوري، ولا حاجة لتبكيت الضمير... «إذ التقيت بزوجتي لأول مرة بعد عامين وفترة مشابهة فصلتني عن أمي.»

لكن ينبغي التمييز هنا بين التخفي في المدن والتحوط في الريف أو حياة الجبل. فكثرة عرفتهم الأرياف كمطاردين، وبعضهم حاول إقامة قواعد فدائية في الجبل والكهوف.

أما المتخفي فيمضي سنوات على رأس عمله بما يتطلبه ذلك من صلة منتظمة وسريعة بمن يقودهم أو يعمل معهم... ولا يناسبه أن يقيم في الريف لفترة طويلة نظرا لمصاعب الاتصال به، أي المواصلات واحتمالات التفتيش... كما أن مناخات الريف الاجتماعية تقليدية ويسهل معها كشف أي وجه غريب، بينما الاتصال بالمتخفي يتطلب انتظاما وسرعة وتحرراً من فضولية الجيران، والمتخفي قد يلجا للريف، لكن كإجراء تحوطي انتقالي وحسب، بل إنه أحيانا يغادر مدينته لمدينة أخرى لتامين ساتر امني أفضل.

وكانت سلطات الاحتلال قد اعتقلت في سنوات الثمانينات وبداية التسعينات قبضة من المفاصل الذين تعرضوا لتجارب تحقيق وحشية ولئيمة، ولكنها لم تنجح في انتزاع إقرار بنشاطهم أو تخفيهم، إذ وجهت (تهمة لمحمود فنون انه عاش طريداً خمسة أعوام وزكريا النحاس سبعة أعوام ووسام الرفيدي تسعة أعوام وعماد السبع أربعة أعوام وحسن أبو خضير وعلي جرادات وهيثم الحموري ثلاثة أعوام واحمد قطامش سبعة عشر عاما. ووسام كتب عن تجربته في رواية الاقانيم الثلاثة. أما أحاديث قطامش في السجن فنوهت بعزمه على كتابة تجربته لاحقاً)[412]

---

٤١١) متخف سابق

٤١٢) أسير من الجبهة

قيل قديماً، دلالة وجود الفطيرة أن تأكلها، وهنا القلعة فأقفز هنا. وأدناه صفحات من تجربة مفصل عاش التخفي بضع سنوات...

(كنت مقتنعاً بالعمل السري تحت الأرض، بما في ذلك التخفي حفاظاً على استمرارية العمل وحمايته، كما حفاظاً على الكادرات إذ لا يجب التسليم باعتقالها، ناهيكم عن أن عدم الامتثال للاعتقال يقوي معنوية الرفاق ويتيح المجال لتوظيف كامل طاقة المتخفي في العمل الثوري.)[٤١٣]

لقد فلسف الأمر على هذا النحو... أما مفصل قيادي آخر فأضاف (المسألة حصراً هي بناء حزب قادر على تأدية وظيفته التاريخية وهذا مشروط بتوافر وسلامة شرطه القيادي، والاستخفاء هو البيئة لبناء قيادة كما حمايتها.)[٤١٤]

ويبدو أن الأشهر الأولى كانت مربكة في تجربة الأول (لم تتوافر شروط التخفي في الشهور الثلاثة الأولى، فقد انتقلت من بيت إلى آخر بما في ذلك الإقامة في بيت مجاور للمستوطنين ودون وجبات طعام منتظمة، أو إمكانية تبديل ملابس طال ارتدائي لها... لم يكن ثمة جهاز خاص، حيث كلفت بمهامي الجديدة، يرعى مثل هذا التوجه...)[٤١٥] مع أن الجبهة باتت «خبيرة» في مثل هذا التوجه في الثمانينات، وعلى أقل تقدير كان عدد من الأسماء البارزة قد مرّوا بمثل هذه التجربة...

والمتخفي السابق أضاف (كان ثمة امتدادات ولكن الجهد انصب على بناء منظمة حزبية مناطقية تمتد في الريف الواسع والمدينة كما في قطاعي الطلبة والمرأة.)[٤١٦]

ويبدو أن تواجده في بيئة اجتماعية «غريبة» وفرت له فرصا.

«لقد أسبغت على نفسي لقباً أكاديمياً، وتفاعلت نسبياً مع بعض الأوساط، علاوة على علاقاتي الحزبية المباشرة حيث لم يعرفني معظم الرفاق...بل إنني قمت بمهام خدمية لمشروع استثماري في وقت لاحق.»

ومن الواضح أنه نجح في أخفاء شخصيته الحقيقية في منطقة واسعة نسبياً ومكتظة بالناس، كما احتفظ ببعض الكتب الدينية وكأنه رجل دين... ولم يلتقِ بعائلته على امتداد العام الأول، وملفت

---

[٤١٣]) متخف سابق

[٤١٤]) أيديولوجي

[٤١٥]) متخف سابق

[٤١٦]) نفس المرجع

أن أحداً من الرفاق لم يزر أمه العجوز أيضاً، فلم يقرع بابها سوى «قوات الجيش والمخابرات».

(كان علينا المثابرة لإنجاز المهمة التنظيمية، التي فرَّخت صفاً من الكادرات الطلابية والشبابية لها حضورها الواضح في بيئتها الريفية... وكنا فعلاً قوة تضخ في روح الانتفاضة، وقد عبأنا بالنشريات الحزبية وشددنا على الجوانب الأمنية... وميزانيتنا لم تكن قادرة على تغطية مصاريف العمل المتنامية، إذ حصرنا الصرف بتغطية النشاطات والمساعدات الثورية المحدودة وآحاد المتفرغين.)(٤١٧)

وشدد الرفيق على أهمية الاحتكام للنظام الداخلي، وليس المشاعر، في تقييم الرفاق... وإن الخلل على هذا الصعيد في مرحلة أوسلو قد أفضى إلى المآل الذي وصلت إليه الجبهة.

وآخر لخَّص «لم يكن لي علاقات اجتماعية سوى مع أمي... فالعلاقات محصورة بالرفقاء وذوي الصلة المباشرة. لقد انفصلت عن الحياة الاجتماعية تماماً، منصرفاً للعمل الحزبي، بما أتاح لي الصمود سنوات في تجربة التخفي.

أما حركتي فقد ارتبطت بمهامي. أي كانت تخفيا كاملاً»

«ثمة مشكلة اسمها التلازمية. أي تلازم النجاح والتخفي. فهل التركيم شرطه التخفي؟

طالما أن النضال ملاحق من قبل الاحتلال فينبغي ضمان سلامة المفاصل القيادية. فلينين وستالين وفرونزة ودزريجنسكي اختفوا لبناء الحزب وقيادة النضال.

فشرط نجاح أي تجربة تنظيمية ثورية ملاحقة هو حماية المفاصل القيادية. سواء إخفاؤها أو عدم وصول الاعتقالات لها. إذ لم توجد تجارب سرية ليس لها قيادات متخفية سواء في فرنسا أو العراق أو السودان...

فالتلازم سبب ونتيجة في آن.

فالقيادة السرية شرط حاسم.

وفي حالتنا كان للمتخفين دورهم المميز».

---

٤١٧) نفس المرجع

وآخر قال: (تجربتي أطول وأكثر تعقيداً، وأقترح أن يتولى أصحاب الشأن كتابة تجاربهم، فلعلها تكون مفيدة للأجيال، كما أن هذا النموذج من الثوريين هو راس حربة أي عمل جدي، وغيابه أفضى إلى دمار الجبهة في التسعينات، فهؤلاء هم روح الجبهة المحركة ودونهم تنطفئ، هذه خصيصة من خصائص الجبهة في الوطن المحتل، وهي مستقاة من شروط نضالها الملموس.)[418]

٢- سرية الهيئات القيادية

هذا العنوان يتواشج مع العنوان السابق، دون أن يتطابق معه، فليس بالضرورة أن يكون كل متخف قياديا أو أن لا يكون غير المتخفين قياديين. فالمتخفي ينخرط في هذا الخيار لتأدية وظيفة ثورية محددة بصرف النظر عن موقعها، ولكن بكل تأكيد فإن مزايا بعض المتخفين تتوافق مع المطالب القيادية.

وسواء كان القيادي متخفياً أو غير متخف فهو بكل تأكيد سريٌّ أي لا يعرف احد بموقعه ودوره إلا «أهل الشأن»، ولو استشعر العدو موقعه يعتقله على الفور دون أن يتردد في اتخاذ أي إجراء للتخلص منه.

(لئلا يحصل أي التباس، فإننا نقصد بالقيادي في لغتنا الحزبية، الذي يتولى مهامَّ قيادية على مستوى الوطن، أما الذي يتولى مهامَّ جزئية أو مناطقية فهو يصنف كادراً. وبالتالي فالعناصر القيادية هي حالات فردية سواء في الخارج أو الداخل، والذين يتسمون بالمواصفات والكفاءات القيادية هم اقل من ذلك وربما آحاد لا أكثر...

لكن ثمة هيئة قيادية، سيما الهيئة المركزية، ومن الطبيعي أن لا يعتبر كل عضو فيها قياديا أو يمتلك الصفات القيادية، فهو يؤدي دوراً جزئيا ويشارك في بعض القرارات. وهذه الهيئة هي الأهم وشخوصها هي الأبرز وهي مثابة الرأس للجسم التنظيمي، وبما يقودونه من لجان وأنشطة هم في عداد العمود الفقري للحزب، ومن هنا خطورة أن يغيب أهمهم فاستعواضه ليس بالأمر اليسير...

وفي تجربة الجبهة، أي الملموس، كان الحكيم هو القائد المرموق على امتداد المسيرة، والدكتور وديع في فترة، وأبو علي في فترة... وفي الداخل كان هناك أفراد في فترات قصيرة أو طويلة)[419].

٤١٨) قيادي
٤١٩) منظم

أما مرجع آخر فقال (اتفق جزئيا مع التعريف السابق، ولكنني اعتبر أبو ماهر اليماني وغسان كنفاني وصابر محيي الدين وليلى خالد قيادات أيضا، بما تركوه من تأثيرات طبقية وضميرية في الحالة الأولى وثقافية وإعلامية في الحالتين الثانية والثالثة ومآثرها لا تنسى في الحالة الرابعة... ويمكن القول ببعض المجازفة إن كل المركزيين قياديين وان كان بعضهم اقرب إلى لقب منه إلى مسمى، بل إن بعضهم إخفاقاته أكثر من انجازاته، والذين استشهدوا أصبحوا رموزاً معنوية أما الذين أنتجوا فكراً وثقافة فأثرهم خالد، والسجن هو مقتل القادة لأنه يصادر دورهم فيتحولون لجنرالات دون جيش أو مهام قيادية، وهذا حصل مع قطامش، رغم انه ينفي صفته، وسعدات مؤخراً)[420].

ولسنوات ساد مظهر واحد في عمل الجبهة هو العمل السري، أما في السبعينات وبعدئذ فظهر نموذج آخر هو نصف السري وبالتالي استرشدت الجبهة بقرار الأممية الثالثة (السري يقود العلني) ولكن في وطن يستبيحه الاحتلال ويستهدف كل مظاهر كيانيته الوطنية، حتى النقابات العمالية والمعارض الفنية والجامعات... فليس ثمة فرص لعمل علني بالكامل، حتى الأطر الديموقراطية المحيطة بالجبهة كجبهات العمل كانت تلاحق ويحاكم اعضاؤها بتهمة الانتماء لتنظيم غير مشروع.

(يمكن الزعم أن سلطات الاحتلال كانت تستهدف بشدة المظاهر نصف العلنية للجبهة الشعبية في الثمانينات وسنوات الانتفاضة أكثر ما تستهدف مظاهر الفصائل الأخرى التي احتفظت بوسائل إعلامها وجامعاتها ونشطائها العلنيين، فيما أغلقت العديد من متنفسات الجبهة واعتقلت العديد من نشطائها المفترضين... فالجبهة منذ أواخر السبعينات رفضت المساومة التي عرضها ضباط المخابرات: أنشطوا فوق الطاولة وابتعدوا عن السلاح ولن نتعرض لكم)[421].

وكان لا مهرب من تشديد السرية انسجاما مع الرؤية اللينينية «الجمع بين أساليب العمل» بتغليب السرية والتقيد بقواعدها وضوابطها.

وأكثر تمظهرات السرية هو الاستخفاء والهيئات القيادية بما يجمعها من تداخلات وينجم عنهما من آليات واتصالات ومناشطات...

٤٢٠) مرجع

٤٢١) أيديولوجي

وبالتالي فإن الحفاظ على سرية القيادة يأتي في مقدمة الاهتمامات وأي تسريب أو خلل إنما يهدد العمل برمته... إذ يكفي رصد اجتماع قيادي أو سلسلة اتصالات قيادية أو وضع يد الاحتلال على بيت سري خاص أو اكتشاف مخبأ هام أو الوصول لمقر للاستخفاء... فمن شأن ذلك أن يضع العمل في مأزق وامتحان.. والمخابرات على قدر من الذكاء بحيث تتماهل في الهجوم، فتريثها أسبوع أو أسابيع يمنحها الوقت لمزيد من الرصد وكشف المزيد من الخيوط... وقد فعلت ذلك وحاولت توجيه ضربات قاضية، غير أن سلاح الصمود كان يحاصر الضرر: «انتم تفوقتم علينا في الصمود ونحن تفوقنا عليكم في التكنولوجيا والوسائل الاستخبارية» صرح ضابط لأحد قياديي الجبهة في الزنازين.

ولكن الضرر، ضرر، وقد يتسع وقد يضيق، وأحيانا يكون بداية لضرر اكبر منه حينما تنشأ شواغر قيادية مميزة لا تتوافر بدائل لملئها.

وعليه، ففي ظروف النضال الجدي ضد الاحتلال، أو حتى ضد نظام قمعي إقصائي، يتعين الحرص على المركز القيادي، من ناحية سلامته ومن ناحية قدرته على تأدية مهامه بما يتطلبه ذلك من تكتم عليه ولوجستيك لمساعدته، وإحاطته بلجان كادرية نشطة ودقيقة وسريعة الحركة، فهي الأدوات التي تقود المنظمات والمهام والتوجيهات... فهي شريك دائم ودونها يصاب المركز بالشلل أو يضطر لتأدية مهمتين، المهمة القيادية والمهمة الكادرية، بما يضاعف من أعبائه ويكشفه على صلات وأنشطة إضافية. وهذا يحصل عادة في حالة الاعتقالات، أن يضطر بعض المركزيين لتولي مهامَّ إضافية واتصالات إضافية... وهذا لا باس به طالما لا يعود بأضرار أمنية عليهم.

فسلامة المركز القيادي أولا، فهو مركز ثقل العمل بمجمله والدماغ الذي تتجمع فيه أعصاب الجسم ومصدر القرار ومخزن الخبرات المتراكمة»... وأي اهتزاز فيه يفضي لاهتزازات في كامل الجسم...

(ليس أسوأ من أن يضطر قياديٌ إلى تأدية مهام قاعدية، فذلك يعني افتقاره للكادرات الوسيطة المطلوبة، وأسرع طريق لهتك سره واستهدافه... وهذا يحصل أحيانا...

أما الحنكة القيادية فهي تستوجب منه إعادة فحص الخارطة التنظيمية وتحديد الأولويات بما لا يضطره لهذا «الخيار» البائس وتأجيل بعض المهام ريثما تتوافر الأدوات القادرة على تنفيذها... فالقائد مهمته الأساسية بناء الجيش الثوري لا تنفيذ مهام الجنود. فمثل هذه المهام تصدى لها

مرات ومرات وما هو اكبر منها مرات ومرات في سياق ارتقائه السلم التنظيمي... أما قائد يؤدي مهمة جندي فليس بقائد وثمة خلل استراتيجي في عقله وأدائه.... وهذا النمط في العادة لا يعمّر طويلا ويسهل على العدو التخلص منه.

والمسالة هنا ليست أخلاقية، تتعلق بالتواضع أو الناي عن العمل المنمنم والقاعدي، فهو قد يفعل ذلك، ولكن بالحفاظ على دوره القيادي، فهذا واجبه وشرفه الحزبي والأكثر نجاعة في العمل الثوري، وإنه موجود في خانته للاضطلاع بمسؤولياته وليس لإثبات تواضعه... فهذا التواضع يثبته بألف شكل وشكل وليس بتعريض نفسه ودوره للخطر. فالقائد محترف وليس هاويا. وهو يعتمد معايير حزبية وليس معايير شعبوية)[٤٢٢].

وشهدت مسيرة الجبهة ثلاثة نماذج قيادية، نموذج عمّر سنوات قليلة بما انطوت عليه من انشطة ودور ونموذج عمر سنوات أكثر، ونموذج ثالث هو الأكثر سطوعا ممن اثبت مقدرة على الصمود في ساحة العمل الحي عقدا من الزمن وأكثر دون أن يسمح للعدو بتصفيته أو اعتقاله. ولهذا لم يكن صدفة أن يتدخل السوفييت والقيادة الليبية لثني الحكيم عن التواجد في خطوط القتال الأولى أثناء حصار بيروت... وان يحاول الحكيم غير مرة إقناع الأسماء التي لمعت في سماء التخفي بمغادرة الوطن، ولو لفترة حرصاً عليها. وهناك من غادر مسرعا قبل أن تتاح له فرصة تأدية دوره المنتظر.

وتأسيسا، (إن انضباط المركز القيادي لقواعد العمل السري التي تكفل سلامته وتأدية مهامه المتنامية، توفر له سحب نفس القواعد، تقريبا، على المستوى الثاني والثالث، فيحفظ سلامتهما ودورهما... ويكفي ٦ – ٧ سنوات لإرساء المداميك الأولى لتنظيم صلب ومتماسك، فالعمل السري ينبذ الرخاوة والترهل ولا يتعايش معهما اتصالا بالاستحقاقات النظرية والأخلاقية والعملية المطلوبة منه.

ولئن توافرت هذه الشروط يمكننا الاستنباء بإمكانية توافر دينامية داخلية لارتقاء مداميك جديدة وجديدة في السنوات اللاحقة بما يجعل من تمنيات العدو للإجهاز على التنظيم مستعصية... وهذا الاستخلاص ليس خطاباً تمجيدياً أو ادعاءً، بل لقد تعرضت الجبهة في أواسط الثمانينات والانتفاضة المجيدة لضربات كبيرة وموجعة، ولكن هذا لم يقصم ظهرها ولم يضعف

---

٤٢٢) المرجع السابق

فاعليها، بل على العكس فالضربة التي لا تقتلك تقويك، كما يقول مأثورنا الشعبي... أما الضربة المميتة فتاتي من الداخل، من العجز، من عدم الكفاءة القيادية... «فالحزب قلعة لا تقتحم إلا من الداخل» لينين. ويكفي أن نتذكر ما جرى في التجربة السوفييتية.)(٤٢٣)

٣- السياسة الكادرية والعمل السري

المحور الأساس في السياسة الكادرية هو بناء وتوزيع الكادر، سواء كان كادراً وسيطا أو قاعديا. وان (اصطفاء الكادر مسألة حاسمة) هوتشي منَه. وبالتالي فأي خطأ في بناء الكادر أو اختياره لخانة خاطئة يحمل معه نتائج سلبية، وثمنا لا بد من دفعه مهما تأجل.

(في البدايات اعتمدت التجربة على كادرات حركة القوميين العرب، وبصورة أدق من تبقى منهم وانخرط في الجبهة، وفي السبعينات وبعدئذ صعدت كادرات جديدة. وهؤلاء في مجملهم هم الهيكل التنظيمي. فهم المبادرون والمنظمون والأقلام الفكرية والتحليلية وكادرات العمل النقابي النسائي والنضالي... ولا يمكن تصور أي انتشار أو مهام عملية أو علاقات تحالفية دونهم فكيف تشكلوا؟ والحديث هنا عن مرحلة صعود الجبهة وليس تفككها وخبّوها في المرحلة الأخيرة.

في غمرة الممارسة والمهام. وكتاب لينين (ما العمل) كان له أهمية كما كتاب كالينين (الملاكات) ونصائح جيفارا ومتابعات القيادة في الداخل... وتجربة منظمات الأسر... الخ

وعموما كان ثمة خطوط أربعة في السياسة الكادرية:

١- انبثاق الكادر من القاعدة، وانبثاق الكادرات العليا من الكادرات الوسطى. أي الذين يحرزون نجاحات أكثر ويبرهنون على (سمات نظرية وعملية) لينين، ويصمدون في الزنازين. فالكادر يرتقي الدرجات بعزيمته ومواصفاته. ونتائج عمله هي الحكم والفيْصل. (فالصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال بالأفعال) لينين. فالممارسة هي المربي الأول للكادرات سيما العمل التنظيمي والمهمات الميدانية.

٢- التربية الفكرية والسياسية والأخلاقية، فالكادرات هي المرايا الأكثر صفاءً في عكس التحولات التي طرأت على الجبهة الشعبية من مواقع الديموقراطية الثورية للشرائح البرجوازية الصغيرة القومية الأكثر تجذرا إلى المواقع اليسارية الماركسية – اللينينية المتفاوتة العمق. وجميع الكادرات في الوطن المحتل حظيت بتعبئة فكرية يسارية... بل أن هذا هو الشغل الشاغل

٤٢٣) المرجع السابق

في السجن.

فمئات الكادرات تشكلت في السجن وبعضها ارتقى إلى مستويات عليا فأنتج فكرا وإبداعا وعمل في الحقل الأكاديمي والإعلامي... وهؤلاء سهروا على تثقيف القاعدة التنظيمية بالفكر الاشتراكيِّ الماركسي – اللينيني، ضمن فهمهم ومستواهم. فالكثير من مؤلفات ماركس ولينين وماو وتشي والياس مرقص وياسين الحافظ وسميح غنادري وسمير أمين وبولس فرح وإميل توما وإصدارات الحزب الشيوعي اللبناني والحزب الشيوعي العراقي... شرحت والبعض غاصوا عميقا في الفكر والتهموا مئات المؤلفات الفلسفية والاقتصادية وكتبا متخصصة بعلم الاجتماع والجمال والتاريخ... الخ.

والشيء نفسه يقال عن الرؤية التاريخية للجبهة والتعبئة السياسية ببرنامج الجبهة وتكتيكاتها والسجال مع المواقف والبرامج الأخرى ومتابعة وتحليل الخبر الصحفي، ناهيكم عن التعبئة بعدالة النضال الفلسطيني والثقة بالمستقبل وإمكانية الانتصار وتبيان لا شرعية وخطورة المشروع الصهيوني على الشعب والأمة العربية، والنفس الطويل في النضال وتفادي استفزاز نقاط قوة العدو والبحث عن نقاط ضعفه وتقديم رؤية ديموقراطية وأخلاقية لحل المسالة اليهودية بديلاً للرؤية العنصرية الصهيونية.

والاجتماع هو الآلية الأكثر نجاعة في التعبئة ناهيكم عن التعاميم والكراسات ومجلة الهدف التي بات وصولها شبه منتظم مع بداية السبعينات، كما نشريات فصائلية أخرى.

أما التربية الأخلاقية، بالمفهوم الواسع للكلمة، بغرس قيم الصدق والصلابة والتهذيب والإخلاص في العمل والتفاني في سبيل الوطن والايثارية والجماعية، والشجاعة وعدم الخضوع للظلم... والانضباط السلوكي والابتعاد عن المشروبات الروحية، تحديد موقف من الدين والعلاقات الحبية... بل إنه صدر تعميمٌ بذلك في أوائل الثمانينات في (الملحق رقم ١).

٣- العناية النوعية، فبعض الكادرات النابهة والأكثر تمايزاً حظيت بمتابعات وتفاعلات أكثر من سواها مع القيادة، كما أنيطت بها مهام متنوعة وجرى تدويرها في غير ميدان ونشاط تماشيا مع المنظور اللينيني «الكادر الذي يستأنس فيه الخير يتم تفريغه ونقله من مهمة لأخرى»، ومن بين هؤلاء برز فريق المحترفين الثوريين... وكان يطلب منهم الكتابة في النشريات الحزبية والتقدم بمقترحات معللة أو ورقة حول موضوع محدد أو إبداء رأي في قضية معينة، للاستئناس

برأيهم واشراكهم في التفكير القيادي...

٤- تفريغ الكادرات، فهو المعيار الحاسم في قياس حزبية التنظيم، ومستوى قيادته، فعملية بناء الكادرات هي المرآة المقعرة التي يتجمع فيها كل انعكاسات تجارب القيادة وسجاياها وكفاءاتها ومهاراتها...

(فقيادة لا تفرخ كادرات ليست قيادة ولا تساوي شيئا. والتفريخ يجب أن يكون غزيراً ومستداماً لتلبية احتياجات العمل المتنامية والمتنوعة، وهذا معيار موضوعي وليس مسألة مزاجية، وتفريخ الكادرات لا يعني تفريخ المتفرغين والموظفين بل بناء كادرات ثورية وحسب...)(٤٢٤)

والكادرات يجري توزيعها على مختلف أوجه العمل، والثقل الأساس في الخانات التنظيمية تليها الجماهيرية، ناهيكم عن اللجان الوظيفية والنوعية. وهنا ثمة تكامل. إذ لا تسير البنية التنظيمية دون العمل الوظيفي السياسي والإعلامي والإيديولوجي و... ولا تتكون البنية من الخط السري فقط، بل من نصف السري أيضا، وحجم القاعدة المنظمة في نصف السري أصبحت أربعة أضعاف القاعدة السرية في الثمانينات.

وقد تنشأ نزعة حلقية نشاطية، بان يبالغ العاملون في الحقل السري من أهميتهم وهذا حال العاملين في الحقل نصف السري... ولكن هذه النزعة تتضاءل مع مرور الوقت وشيوع المنظور الحزبي الذي يرى الخارطة كخارطة متكاملة الأجزاء ومتواشجة المكونات مع خصوصية كل نشاط، بل إمكانية تدوير بعض الكادرات بالانتقال من ميدان إلى آخر...

إضافة لذلك كان ثمة حرص من نواحٍ ثلاث:

أ- تقليص المناقلات تحسباً من كشف الكادرات بما يحمله ذلك من مخاطر أمنية. فهي تتم تحت الاضطرار، لملء فراغ أو توسيع مسؤوليات وهذا يتطلب علاقة رسمية. أما المهام الميدانية فكانت توجب في كثير من الأحيان، صلات عملية وتنسيقية وحسب دون البوح بأكثر من ذلك. والمناقلات الكثيرة تعني رخاوة وتسيّبا في البنية التنظيمية في التحليل الأخير.

ب- تشريب بالموقف الصمودي في الزنازين، فمقتل الكادر هو الانكسار وهذا سلوك مرذول ومثابة «الكفر في الدين» وقوة النموذج هنا هي وسيلة التعبئة الأكثر فاعلية بان يرى الكادر تجربة

---

٤٢٤) قيادي تنظيمي

مسؤوله أو تجربة المسؤولين أمامه، وقد صمدوا في يوم الامتحان الصعب كما صمدوا في تجارب صعبة أخرى... وبالتالي عدم الالتفات إلى إغراءات الحياة.

ت- تكليف الكادر بالمهام بصورة متدرجة دون أن يوضع على كاهله ما لا قبل له به، بمراعاة "القابليات" ماركس، "والميول" لينين، ومتطلبات العمل. بل عدم مراعاة ذلك يعني الإخفاق. والإخفاق هو شر شرور العمل الذي ينبغي عدم السماح به، وعدم التردد في إعادة النظر بمهام أي كادر يشي بالفشل. والتريث هنا يعني الهدم. وليس أسوأ من حزب فاشل أو قائد فاشل. ونقيض الفشل هو إحراز النجاحات والتراكمات."

والفشل أن يعجز الكادر في بناء منظمة أو نشاط مكلف به أو حماية منظمة أوكلت اليه سواء لتقصيراته أو عدم صدقه أو تباطئه أو افتقاده للكفاءة المطلوبة. فهذا لا يقل ضرراً في النتيجة، عن كادر يفرط بمرؤوسيه في الزنازين...

أما النقطة التي لا مهرب من ذكرها، فهي الكارد النوعي. وما يقصد به هو الكادر الذي يتولى مهمة نوعية يتقنها فيما لا يتقنها كثرة من الكادرات.

مثلا تأمين بيت سري بمواصفات محددة، فيلبي ذلك بسرعة كما لو كان "قصاص اثر" أو حلقة وصل بين مستويات معينة دون لفت نظر بما يستدعيه ذلك من دقة وأمانة وتكتم وجهوزية في كل وقت، أو تولي الطباعة والتوزيع، أو تامين مخبأ لكل الاحتمالات، أو رصد أهداف معينة أو امتلاك مهارات...

والمهارات هذه عديدة ودونها يتحول الجسم التنظيمي مهما كان ضخماً لجسم دون روح... فالنشريات تصدر وتعمم بسرعة، والذي يتولى سيارة يتقن قيادتها وحجب مخابئها ومعرفة طرق المواصلات المأمونة والوصول لأبعد الأماكن، وهذه حال الذي يجتاز حاجزاً فيلتف حوله ويتوغل في البراري التي يعرف تضاريسها كمعرفته لكف يده، والذي يرصد هدفا يأتي بمعلومات دقيقة، والذي ينزل قصاصا يتقيد بالضوابط فلا يزهو "بقوته". والذي يعهد له بمتخفٍ يؤتمن عليه من الألف إلى الياء دون أية ثغرة، يضحي بروحه ولا يضحي به، ومهارة تنظيم تظاهرة أو تحرك شعبي أو قيادة إضراب أو تمثيل الحزب أو صناعة زجاجة حارقة أو تزوير أوراق رسمية أو التعامل بالشيفرة واللغة المرمزة أو حفظ التقارير والمراسلات الحزبية دون أخطاء أو ذاكرة نشطة يستعاض بها عن الأرشفة، أو مهارة طبية لوقت الحاجة ومهارات مهنية عديدة... فوديع حداد كانت لديه مهارات تامين ما يلزم من جوازات سفر وعبور الحدود والاحتيال على أجهزة

التفتيش في المطارات. ومجموعاته تتقن الاقتحام واستخدام الأسلحة باحتراف بدءاً بالمسدس وصولاً لقذف الصاروخ وتدمير طائرات وخطف طائرات... وجيفارا غزة أتقن صنع كاتم الصوت وتركيب الألغام، وبناء الأوكار، وأبو منصور في جبال الخليل اصطبر على حياة الجبال والكهوف واصطياد الطيور وجمع الثمار دون المساس بأملاك الناس. وهناك من أتقن استدراج العملاء والتحقيق معهم سيما في السجون أو تصنيع متفجرات من مواد طبيعية أو ترويع وردع مسيئين دون تصفيتهم. وكانت البداية اقتحام اجتماع التجار في رام الله بعد شهور من احتلال الضفة لقطع الطريق على مخطط احتلالي، أو عبور الحدود...

٤- الجبهة والمرأة والعمل السري

معروفة الخلفية التاريخية بأن الشعب الفلسطيني تعرض برجاله ونسائه وكل مركباته، لمذابح ونكبة وتطهير عرقي عام ٤٨، وان الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة تعرض لاحتلال عسكري دموي يحاول سحب تجربته في ٤٨ على ٦٧، أما طائرات العدو فقصفت المخيمات الفلسطينية والقواعد الفدائية في الأردن ولبنان، إلى درجة الحرب التدميرية عام ٨٢...

كما معروفة الخلفية الأيديولوجية بأن (علاقة الرجل بالمرأة هي العلاقة الأكثر طبيعية بين الإنسان والإنسان التي يظهر فيها إلى أي حد أصبح الإنسان إنسانا) ماركس، لأنها تكشف في النهاية العلاقة الإنسانية ومدى تجاوز الاستلابات. (وأننا ضد كل اضطهاد قومي أو جنسي أو ديني) لينين، والمرأة شريكة الرجل في الحياة والنضال الوطني. وهي وإن كانت مضطهدة كنوع اجتماعي غير أنها أيضا تتحالف مع الرجل والحركات التقدمية التي تؤمن بمساواتها وحريتها... ولأن تحرر المرأة معيار لتحرر المجتمع».

والأمر نفسه ينطبق على الحزب، فمكانتها، دورها، إطلاق طاقاتها، التخلص من اغترابها، مساواتها، مراعاة خصوصيتها، تعامل الرفاق والقيادة معها، هي مؤشرات على مدى الأنسنة في العلاقة بين الرفاق والرفيقات... وتجربة الجبهة في الأردن ما قبل ايلول/ ٧٠ حاضرة حيث انتشرت الرفيقات في القواعد الفدائية ومدرسة الكادر ومختلف المهام وبرز اسم ليلى خالد وأمينة دحبور وسلافة البرغوثي ... في عملية خطف الطائرات.

منذ البدايات شاركت الرفيقات في تأسيس الجبهة ومحطاتها الأولى، كما جاء في المتن، وفي مرحلة لاحقة سكبت الجهود المثابرة لبناء منظمات حزبية وديموقراطية نسوية، وتوسيع نسبة وحضور المرأة في الجبهة وهيئاتها القيادية. فعملية تحصين الجبهة بالنساء لم تتوقف ورعاية

الرفيقات لم تتوقف (والملحق رقم ٢ مؤشر) إلى أن بلغت نسبة المرأة في الأرض المحتلة ٢٧٪ من القوام الحزبي وأكثر من ٢٠٪ من القوام الديمقراطي.

(لم الاحظ اي تمييز جنسي بل لقد حظيت المرأة بتمييز إيجابي... والرفيقات المميزات حظين برعاية حزبية وفرص مساعدة.

والجبهة لم تتقبل منظور التوراة أن حواء غررت بآدم وهذا سمعته على لسان أكثر من رفيق قيادي، وكان الانحياز أوضح لأسطورة جلجامش حيث قامت فتاة المعبد بانسنة انكيدو، نصف الإنسان ونصف الحيوان، وأن الرجل بعد نشوء الملكية الخاصة، حسبما كتب انجلز في "أصل العائلة" قهر المرأة، أما الجبهة فهي تؤمن بإنسانية المرأة وترفض دونيتها، وهي على قدم المساواة في العضوية والانتماء والمهام مع الرفاق، والكثير كتب حول هذا الموضوع)[٤٢٥].

في نص الأطروحة تتناثر معلومات وأفكار ذات صلة، ولكن الملاحق تتضمن ايضا موقفا نظريا (الملحق رقم ١)

والمرأة تتعرض لاضطهاد ثالوثي (قومي وطبقي وجنسي) ولهذا اعتبرها بيبل (مضطهدة المضطهدين)، ويقاس تحرر الشعوب بقدر تحررها، ولا تنتصر الثورات إلا بمشاركتها. وصمود الشعب الفلسطيني يهتز إن لم يدعمه صمود المرأة، والتنمية تختل إن لم تشارك فيها المرأة. ولهذا توجهت الجبهة مبكراً للنساء الطلائعيات، اللائي شاركن بأعمال فدائية كالشهيدة شادية أبو غزالة، عائشة عودة، وداد قمري، نعمتي كمال، سارة جودة، رسمية عودة، مريم الشنار، عبيدة كمال، سلافة البرغوثي، لطفية الحواري، دوريس خوري وروضة عودة... بل إن الاجتماع الثلاثي الاول بعد حزيران/٦٧ تكون من رفيقين ورفيقة هي وداد قمري، كما ضمت القيادة الأولى عام/٦٨ رفيقتين.

وتأطير وتحزيب المرأة وضع على جدول أعمال الجبهة في فترات الصعود بما أفضى لبروز كادرات نسوية ومنظمات حزبية لا تقل عن ربع القوام الحزبي والديموقراطي...

وهذا دليل على الفهم النظري والصدقية العملية، الأمر الذي أثمر على نحو خاص في سنوات الانتفاضة الكانونية.

---

٤٢٥) كادر نسوي

لم تكن المسألة استخدامية، بل شركاء نضال وتعبئة دؤوبة بمقولات تحرير المرأة وفهم خصوصيتها ليس كمضطهدة قوميا مع الرجل ومستغلة طبقيا مع العمال والشغيلة بل كامرأة يضطهدها المنظور الذكوري والثقافة القهرية، وفي الجانب الآخر نضال يتفهم خصائصها البيولوجية والإنسانية ما أمكن... (ولكن هذا الفهم وإن تغلغل في مساحات واسعة ورفع رايته أبرز المفاصل، غير أنه لم يكن جذريا بما يكفي وعميقا بما يكفي، شأن الهوية الأيديولوجية عموما وصلابة البنية التنظيمية...)[٤٢٦]

ويجدر التأكيد أيضا، أن المرأة شاركت في كافة الخانات والمهمات، واكتسبت ثقة بالنفس ومهارات وخبرات، وكان يناط بها مهمات فنية مميزة. كحوارات قيادية نوعية مع الخارج أو الاحتفاظ أو نقل مواد حزبية أو صلات بين مستويات عليا أو تأمين شروط حماية لحالات خاصة، ناهيكم عن الرفيقات اللواتي اعتقلن لتنفيذ عمليات عسكرية...

(حسب الوقفة نصف السنوية آب/٩٢ بلغت نسبة المرأة ٢٧٪ وفي المستويات الكادرية ٢٢٪ والمستوى القيادي ١٤٪)[٤٢٧] وهذه النسب أحرزتها بجهدها وتضحياتها، فهي تطير على أجنحتها، رغم ثقالات المجتمع التقليدي، والأعباء العائلية المضاعفة.

ولأهمية هذا العنوان، من المنطقي أن يفرد النص مساحة مناسبة، وأن يترك للرفيقات مجالاً للاستطراد:

(الحزب صقلني ومهامي استحثت طاقاتي، والمصاعب تطلبت مني تطوير مهاراتي وكفاءاتي ووسعت آفاقي لنشاط متعدد.

لقد أصبحت جزءاً من عمل واسع وتوليت مهامَّ كادرية متقدمة قدت فيها هيئات مكونة من رفاق، وأحدهم لم يستوعب ذلك وآخرون وضعوني تحت اختبار)[٤٢٨].

وما أنجزته الجبهة وطنيا وحزبيا واجتماعيا لا يمكن أن يكون دون نساء. بل إن النساء حرثن الأرض وأنبتن الزرع بما دحر أية منظورات ذكورية تقليدية. (وصولاً إلى بناء منظمة حزبية مركزية نسوية واطار نسوي مركزي بما لهما من تداخلات مع العمل الحزبي والجماهيري، كان

٤٢٦) مرجع تنظيمي

٤٢٧) شذرات من الوقفة آب/٩٢

٤٢٨) مفصل حزبي نسوي

حجمنا يعادل فرعا، وقد أنتج قيادات وكادرات نسوية وأنشطة متعددة باستمرار، وقدرة على المشاركة الجدية في العمل السياسي والانتفاضي)[429].

ورفيقة أخرى (بصراحة، ما شدني في البدايات حينما كنت في الثانوية هو الفهم الاجتماعي، فالمرأة قادرة على المشاركة في لجان العمل التطوعي مع الرجل... وفي الجامعة كان هناك وعاء تثقيفي مختلط، ولكنني انتميت حزبيا لمنظمة سرية. والحزب كان يلتقط الحالات المميزة ويشجعها ويرعاها. ولم أشعر بأي تمييز ذكوري سلبي، في المجمل، ولكن بعض المسؤولين لديهم ضيق أفق. وما كنت أشعر به هو التمييز الايجابي والدعم والحماية. حتى أن الحزب كان يختار رفاقاً مسؤولين مناسبين كيلا يحصل استغلالٌ للمنصب)[430].

وذهاباً لفضاءات أبعد في الجانب الاجتماعي (كنا مجتمعاً داخل مجتمع. أداة تغيير في مجتمع تقليدي. وقد تقبلنا المجتمع لإرادتنا التغييرية وسلوكنا القويم. وقد أسهمنا ببناء قيم جديدة، علاقات حبية جدية، زواج دون مهر أو بمهر رمزي، مشاركة المرأة في النضال وحرية الحركة والتأخر في الليل، زواج رفاق من رفيقات في ظروف العمل السري المشدد، بعلم بعض القيادة وبعض الأهل، الزواج دون تمييز ديني وحصل هذا مراراً، والحزب كان يؤمن الحماية دائماً، وفي حالة تعرض رفيقات للقمع في بيوتهن، من الأهل أو الزوج، كان يتدخل ايجاباً.

ومرة قام بفصل كادر أمضى سنوات طويلة في السجن لأنه أمعن في قمع زوجته ورفض العودة عن هذا السلوك...

ولا ننسى اجتذاب واشراك آلاف النسوة في النشاط العام السياسي والانتاجي والاجتماعي، وتأمين رياض أطفال وحضانات للتخفيف من أعباء المرأة)[431].

وهذا كله يسبقه توطئة، وجزئيا تصلح كلمات غرامشي «هيمنة فكرية فهيمنة سياسية» أي لا مهرب من نشر أفكار جديدة (كان التثقيف خطاً ثابتاً، ومن خلال التعبئة كسرنا حاجز التمييز بين المرأة والرجل، النظرة الدونية للمرأة، بما شكّل خلفية لبناء منظمات حزبية نسوية أو مختلطة تتولى شتى المهمات، وتصل لأعلى المستويات، والأهم هو التعامل معها واستقطاب واشراك آلاف

---

٤٢٩) نفس المرجع

٤٣٠) كادر نسوي

٤٣١) مفصل نسوي

مؤلفة من النساء... وقد أسهمنا في احتفالات يوم المرأة/ الثامن من آذار بالمسيرات والبيانات والشعارات الجدارية وفي تكريس شعار أجر متساوٍ لعمل متساوٍ، ناهيكم عن إسهامنا المتقدم، باعتراف الرفاق في فعاليات الانتفاضة المتنوعة، هل تتصور معاني أن تقوم الرفيقات بتوزيع النداءات وهن ملثمات بعد منتصف الليل أو قبل الفجر بقليل، والاشتباك بالأيدي مع جنود الاحتلال، أو أن تفقأ عين احداهن في تظاهرة ويستمررن في التظاهرة، أو أن يصمدن في الزنازين، أو أن يلجأ لهن الحزب في مهام يعجز الرفاق عن تأديتها، وأن تنشأ علاقة حب علانية بين رفيقة ورفيق باحترام الأهل والمجتمع وأن ننأى عن ظاهرة تعدد الزوجات التي تناهز في المجتمع ٦٪ وأن يشارك معظم الرفاق في الأمور المنزلية، وأن ينظر باسهجان لمن يتأفف من ذلك... لقد قطعنا شوطا...) [٤٣٢]

أما على صعيد فهم الخصوصية النسائية (فالحزب أجاز بناء منظمات حزبية نسوية أو مختلطة منذ أوائل الثمنينات، آخذاً بالحسبان العقبات الاجتماعية. كما كان يجري التدقيق بشكل مضاعف في مسلكية الرفاق الكادريين الذين على احتكاك بالرفيقات، هل تعلم ان الحزب عاقب كادراً لأنه عانق رفيقة بصورة غير بريئة بينما كان على ارتباط بأخرى. وما أشارت إليه الإجابة السابقة يغني... أما المفردات التي يروجها اليوم بعض الليبراليين وكأنهم اكتشفوا عنصراً جديداً في جدول مندليف، عن حرية المرأة، المساواة، الخصوصية، فقد حولناها لتيار جارف وقاعدة اجتماعية منظمة منذ زمن، دون إنكار للمظاهر المتخلفة والحالات المتخلفة في صفوفنا.) [٤٣٣]

وأخرى استطردت:

(اسمح لي أن أضيف، رغم أن الاعتقال وسام شرف واستحقاق وطني غير أن الرفاق كانوا يحرصون على تقليص المخاطر عن الرفيقات، كنا نشعر بحماية الحزب، ولم أسمع عن قيادي أو كادر أو مجرد عضو اعترف على رفيقة، بل كنا كرفيقات عامل تحفيز لصمود الرفاق، ويجب الاعتراف أيضا أن البيئة الاجتماعية للرفاق من أزواج وأشقاء كانت محفزة ومتفهمة... والكثير من هؤلاء بدؤوا منغلقين ولكن المناخات الحزبية والنماذج التي سطرتها الرفيقات، حررتهم من انغلاقهم أو حررت الأغلبية الساحقة...

وغير مرة تدخل الحزب لوضع حد لسلوك رفيق قام بتعنيف زوجته أو اخته أو استطاب له

٤٣٢) المرجع السابق

٤٣٣) المرجع السابق

السلوك التقليدي في البيت... فكانت الرفيقات يرفعن شكوى، والحزب يعالج)[٤٣٤].

واخرى قالت (عندما أنجبت، أصابني المرض ولكنني لم أتأخر عن الاجتماعات وممارسة مسؤولياتي... إنه دافع ذاتي فالأحلام كبيرة والكل يبذل أقصى ما لديه.)[٤٣٥]

وقيادية أخرى كانت بدايتها مشابهة لأخريات وآخرين، ولكن حديثها يفرد مساحات تجمع ما هو مألوف وغير مألوف (كانت أختي منظمة وقد ساعدتها في ايصال مطبوعات لمدينة مجاورة، كما شاركت أمي ببعض المهمات، كنت في سن الطفولة، وقد بهرتني المغامرة. وجذبتني أجواء الرفيقات اللواتي كن يترددن على بيتنا، وكان لالتحاق بعض أفراد عائلتي بالقواعد الفدائية، وكان هناك قواعد للرفاق والرفيقات، أثر خاص، كما خطف الطائرات لمطار الثورة في الأردن، حيث لمست البعد الأممي، فعدد من الذين خطفوا الطائرات كانوا أجانب، جازفوا بحياتهم في نضال أممي ضد الإمبريالية.

شعرت بقدرات الدكتور وديع حداد وجهازه للعمليات الخارجية وتفوقه على أجهزة مخابرات عالمية بما أزال الانطباع أن شعبنا ضعيف وعاجز.)[٤٣٦]

لا تنسى هذه القيادية العودة للجذور، فأمها حملت السلاح والطعام لثوار ٣٦ وهي من السباقات لاحتضان أحد المطارَدين لحركة القوميين العرب قبل ٦٧ ومن المنخرطات في أنشطة الجبهة بعد ٦٧، إضافة لنشاطها الاجتماعي البارز وما تتميز به من قوة شخصية وصلابة إرادة وصدق وكرامة... (هذا كله ترك بصمات علي وكان أحد عوامل صمودي في الزنازين... وحينما تفككت الحركة السياسية وحصلت ارتدادات حافظت على توازني... فالمفاهيم والقيم نشأت لدي في غمرة التجارب قبل أن أتعبأ بالرؤية السياسية...)[٤٣٧]

ورغم حياتها المرفهة نسبياً، وملمسها الناعم، غير أنها اختارت أصعب الخيارات. إذ يقال إن «الرفيق الأفضل يكون حيث الظروف أكثر صعوبة، حسب ماوتسي تونغ، أما جيفارا فكان يختار أشق المهام وأكثرها خطورة.

---

٤٣٤) رفيقة

٤٣٥) كادر

٤٣٦) مفصل جزبي نسوي

٤٣٧) نفس المرجع

وشأن الجميع فالتجربة التنظيمية تصلب الانتماء وتوسع الآفاق (رغم أنني لاحظت الفارق بين تجربة الخارج وتجربة الداخل. فالتعبئة في الداخل أكثر جذرية ولا مجال فيها لامتيازات مكتبية أو ساعات دوام وكأنها وظيفة. فالعمل مقدس في الليل والنهار. وفي الداخل يطغى العمل السري وما يعنيه ذلك من استحقاقات، وفي الخارج يطغى العمل العلني وما يعنيه من آثار. والأوساط القيادية في الداخل لا تتسامح مع مسلكيات جنسية منفلتة أو تعدد زوجات أو مسلكيات تقليدية في البيت وكأن العمل المنزلي وتربية الأطفال من مسؤولية المرأة، غير أنني شاهدت أشياء مغايرة في بعض أوساط الخارج، وإن كنت لاحظت أيضاً وجود رفيقات مقاتلات. كما صادفت سذاجةً وتخلفاً لدى حالات في الداخل لا تستوعب العناية بالمظهر، بما يشبه «ترييف المدينة» أو كأن الجمال نقيض الثورة.)[٤٣٨]

«وباختصار، ثمة تناقض بين الفكر الثوري المتطور والمسلكية المتخلفة، بل أمي كانت أكثر انسجاماً مع منظورات الفكر الثوري رغم أنها لم تستغرق عمرها في الكتب، حتى في المواقف الأكثر حساسية وجدية... بما جعلني أصل لخلاصة أن التربية البيتية أكثر أهمية من التربية السياسية فالفكر يضيف على المضمون ولكنه لا يغيره، سيما أنني ألاحظ اليوم كيف بدل البعض قناعاته الفكرية اليسارية ورؤيته السياسية الجذرية.»

وتصل لخلاصة أخرى «لقد استقبلنا العائدين كثوار ولكننا اكتشفنا أموراً معاكسة.»

«وتتساءل: لماذا استدار بعض الشباب المقاوم المنحاز لفتح الذي نزف دمه في الأزقة والروابي والسجون، فجأة، ورفعوا أغصان الزيتون على دوريات جيش الاحتلال؟!

ثمة إخلالات في التعبئة الوطنية... كان علينا أن نرى العيوب ونتصدى لها.

صحيح أن هناك تفاوتاً بين فصيل وفصيل، ولكن من الجائز القول أيضاً أن الناس عوملوا كأدوات نضالية... وإلا كيف نفسر وجود عشرات آلاف العمال في المشاريع اليهودية قبل أوسلو، ألم يكن جديراً وضع خطة تنموية؟»

وتجدر الإشارة إلى أن الجبهة دعت لاستصلاح الأراضي منذ أواخر السبعينات، وكانت تشدد على المثل الصيني «بدل أن تعطيني كل يوم سمكة علمني صيد السمك» وتبذر بعض الأفكار الداعية للاقتصاد الانتاجي وربط التعليم بمتطلبات السوق... غير أنها لم تعتبر ذلك شرطاً من شروط

٤٣٨) نفس المرجع

العضوية...

(لقد أهملت المسيرة الوطنية التوجه للأرض فوقعنا في خللين كبيرين مرة بالتوجه للعمل الواسع في المشاريع الاحتلالية بما يناهز ١٥٠ ألف عامل ومرة بالتوظيف الواسع في سلطة أوسلو بما يزيد عن ١٧٥ ألف، ناهيكم عن الميليشيات... بما أفضى إلى ارتهان سياسي للجهات التمويلية وهذا كله يعكس ضياعاً في البرنامج.)[٤٣٩]

وتعترف أن الجبهة عززت لديها السلوك الاجتماعي النقي والأخلاقي والإنساني. «فانتمائي صلبني لأعلى درجة كما شكل حصانة كبيرة جداً ومناعة سياسية من الضعف والأزمات المعنوية سيما في ضوء ما أصاب الحركة السياسية، كما زودني بخبرات متنوعة وقدرات قيادية وكاريزما، وكان لحالات فردية أثرٌ علي. فقد عشت في أجواء رفاقية حقيقية بمفهومها الأخلاقي العميق حد أن يستشهد الرفيق حماية لرفاقه، وهذه خصيصة للجبهة حينذاك... وإن اعتكاف معظم الجبهة اليوم هو انتماء للجبهة التي عرفوها، فهي لم تخرج منهم، ولم تحصل أية تحولات جماعية نحو التنظيمات الأخرى، وأينما ذهبت ترى كادرات الجبهة من التجربة السابقة يحققون النجاحات وسمعتهم محمودة.

لقد تأثرت بالأمين العام جورج حبش بأبعاده القيادية والإنسانية كما بتجربة قطامش الناجحة وتخفيه سنوات طويلة...

فاسم الجبهة ارتبط في أوساط الشعب بالمواقف الصلبة الراسخة الثورية والنزاهة المالية والأخلاقية، بصرف النظر عن الاتفاق أو الخلاف معها، لقد كانت معياراً في الوطنية كما معياراً في التضامن الجماعي، ففي شباط/٩٢ اقتحمت قوات الاحتلال مئات البيوت في المدن والأرياف وخربت وحطمت واعتقلت... ولكن قبل المساء كانت البيوت قد رممت.»

وعن الموقف من المراة والتعاطي معها (بحكم تربيتي وثقافتي كنت أحمل منظورات عصرية نحو المرأة، ولكن الجبهة أكثر من أية قوى أخرى عبأت نساء واستقطبت نساء، ولم يكن هناك أي تمييز ديني أو جنسي، كما وصلت الجبهة للقاع الشعبي وكانت الأكثر إخلاصاً للفقراء والأكثر تفانياً في العمل والتضحية بلا حدود، وهذا ما يفسر انحياز قطاعات واسعة لها. وقد أسهمت الجبهة في بناء قاعدة منظمة للنساء وتعاملت معها بتمييز، ايجابي، وتحفيزها المتواصل ومنحها

---

٤٣٩) نفس المرجع

الثقة العالية بما أوصلها لأعلى المواقع وأكثر الخانات أهمية رغم العوائق الاجتماعية والموروث التاريخي وخصائصها البيولوجية... ناهيكم عن زجها في كل المهمات وتشجيعها على الثقافة المقروءة وتزويدها بثقافة سمعية متنوعة...

واعتقد أن الرفيقات القياديات حظين برعاية حزبية مثابرة ساعدت على تهيئتهن لشتى المهمات دون تهيب، فهن مؤتمنات على العمل كما أعلى المراتب والثقة فيهن بنفس المستوى في عمل سري ليس من السهل في محض الثقة أو الارتقاء للمستويات العليا.)[٤٤٠]

ولو عدنا للوراء، فالجبهة في سنوات انطلاقتها الأولى نجحت باجتراح قوة نموذج من نساء فدائيات اعتقلن وتعرضن لتنكيل بشع كرسمية عودة، عائشة عودة، مريم الشخشير وو ... بل احتجزت في السجن نساء بارزات اجتماعياً كسميحة خليل ورسمية البرغوثي (أم العبد) في فترة خطف الطائرات وحكم بعضهن عشرات السنوات وكن أغلبية في سجن النساء... بل إن عدداً من منظمات الجبهة في السجن أضربن عن الطعام تضامناً مع الأمهات اللآئي اعتقلن بعد خطف الطائرات.

أما كادر نسوي آخر فتروي (اتفق مع الإجابة السابقة، ولكن الاهتمام بنا كان أقل وقد تحدينا عقبات كثيرة بما فيها ضيق أفق بعض الرفاق وتحجر عقلياتهم، فكلمة لينين تنطبق عليهم «إنبش قشرة الثوري في موضوع المرأة تكتشفه رجعياً عفناً» وقد تطورنا معاً. وللصفات الفردية كما للبيئة الاجتماعية تأثيرها، فكادر من بيت لحم أو رام الله غيره من قرية.. أو مخيم...)[٤٤١]

رغم الثقافة التقليدية للمجتمع، «فسمعة الجبهة التي كانت في الأعالي والمسلكية النضالية للرفيقات» شكلت حماية لهن.

صحيح أن الجبهة نشرت وعبأت الرفيقات والمحيط الاجتماعي وأوساطاً شعبية واسعة بمقولات تنويرية عن المساواة وحق الاختيار والمواطنة دون تمييز ديني أو جنسي، وحق المرأة بالتعليم والعمل... وهذا ما يفسر أنها «استقطبت فئات اجتماعية متعددة من الريف إلى المخيم إلى العاملات إلى البرجوازية الصغيرة والمتعلمات، حتى من أوساط العوائل البرجوازية المستنيرة، بل كان الأهالي يتضامنون مع بناتهم وأبنائهم ويشعرون بالاطمئنان عليهم...» وأكثر من ذلك، هناك

---

٤٤٠) نفس المرجع

٤٤١) كادر نسوي

عائلات انحاز عدد من أفرادها للجبهة وأدّوا دوراً كبيراً أو هاماً، مثل دار عودة وعائلة قطامش والمسلماني في الضفة والصوراني ودردونة والسقا والغول في غزة...

«وأحياناً تميزنا بالجامعات فكنا الأكثر تفوقاً أكاديمياً، والحزب كان يستحث الكادرات الحزبية على التفوق الأكاديمي، ومن البدهي أن لا يشجع على الشرب أو التدخين أو المسلكيات الطائشة... بل يسأل ويحاسِب.»

«اتصفنا بالجدية والمسلكية المحمودة، الأمر الذي يبعث الطمأنينة في نفوس الأهالي، فهم يعرفون أن الحزب يقوم بدور تربوي تكميلي لبناتهم» «وماذا تتوقع أن ينظر لنا الأهالي والمجتمع وعشرات الرفيقات أجهضن في المواجهات مع المحتل، ورفيقة أصيبت بجلطة دون أن تتوقف عن المشاركة بالاجتماعات وتأدية المهمات، وأخرى سقط جنينها وهي تؤدي مهمة حزبية حساسة وثالثة سقط جنينها وهي على المسرح... ورفيقات ورفاق يتزوجون بعد قصة حب جدية دون اهتمام بالمهر أو فرش البيت أو الفوارق الطبقية...»

«أذكر أن أبي وهو من الرعيل الأول، قرأ مقالة في نشرة «الرفاق» في أواسط الثمانينات تستحث الرفاق والرفيقات على التعارف والدعم المتبادل وإبراز ايجابيات الزواج فيما بينهم، كما قرأ تعميماً عن (العلاقات الحبيّة) وضوابطها... فتفاجأ قائلاً: لقد سرتم للأمام في عملكم الحزبي وتعبئتكم الأيديولوجية.»

و«لكن الأولوية بقيت للمسألة السياسية التحررية ببناء تنظيم والنضال ضد الاحتلال والأفكار الرجعية.»

وكان لنشيطات الجبهة حضورٌ إداريٌ في مجالس الطلبة والجمعيات النسائية، والنقابات المهنية، والنقابات العمالية وعدد أقل في الصحافة... كما تميزن في الحقل الفني من رقص شعبي وموسيقى... وكان للجبهة حضور قوي في أبرز الفرق الفنية الفلسطينية... أما وجودنا الأساس فهو في الحزب والاتحاد.

(إذا أردت أن تعرف دور المرأة في الحزب ونظرة الأهالي للرفيقات ما عليك سوى أن تقوم بإحصاء لعدد البيوت التي احتضنت رفاقاً مطاردين أو تخفوا سنوات طويلة، وأن تقوم بإحصاء لعدد الشباب المنتفضين الذين تم تخليصهم من أيدي جنود الاحتلال والهراوات تسقط على ظهور وأكتاف الرفيقات... وأن تعلم عدد الرفيقات اللواتي تزوجن سراً، بعلم بعض الأهل وبعض

القيادة، من رفاق متخفين ومطاردين، في كتمان شديد، وعدد الرفيقات اللواتي أصبن بالرصاص الحي والرصاص المطاطي...

وعدد الرفاق والرفيقات الأزواج الذين كانوا يتبادلون العناية بالأطفال لتأدية مهام كل منهما في الليل والنهار...

وكيف صبرت الرفيقات على شظف العيش جراء تفرغات لا توفر الحد الأدنى... هل تعلم أن الكثير من الرفيقات كن لا يعرفن في بيوتهن اللحمة الطازجة، فيكتفين باللحمة المجمدة الرخيصة ناهيكم عن اصطبارهن على أزواجهن الذين يخرجون من السجون ليعودوا إليها...

هل تعلم أن شخصية بارزة كسهى البرغوثي تلقت قنبلة حارقة في صدرها ووجهها واحتاجت لأشهر من العلاج دون أن تنكس الراية، وهل تعلم من تزوجت وكيف؟ دلني على تجربة مشابهة لتجربة سهى وقطامش؟

وهل تعلم أن إحدى الرفيقات النشيطات أضربت عن الطعام أياماً في بيتها لأن أهلها رفضوا زواجها من كادر حزبي فقير... وهل تعلم أن الرفيقة فاطمة من غزة اعتقلت وهي تهرب السلاح، وقد تركت أطفالها فيما زوجها شهيد... ورفيقة طلبت من الحزب مساعدة مالية بمئات الدولارات لفصل واحد في الجامعة، وهي تتكفل بالحصول على منحة تفوق في الفصل الثاني، وقد فعلت، ذلك أن أهلها معدمون...

وهل تعلم أن رفيقات غزة اخترقن الحصار الذكوري والتقاليد الخانقة وقد تسلحن بالثقة والتصميم ودافعية الواجب وأسسن عدداً من اللجان والامتدادات في بيئة ضاغطة؟ (٤٤٢)

«إننا يا رفيق لم نستفد مالياً من الحزب كما الآخرين، إننا ندفع تبرعات واشتراكات وقد بعنا مصاغنا قبل ذلك... وعلى استعداد لدفع أرواحنا ولكن أعيدوا بناء الحزب ليعود للوطن وهجه ولا شيء أتمناه، قبل أن أموت، سوى ذلك.»

وكادر نسوي آخر انتقدت دور الجبهة في أوساط العاملات «لم يكن الحزب مثابراً في تبني قضايا العاملات وبناء امتدادات حزبية في صفوفهن.»

و(لا يجب اعتبار تعاطي القيادة الحزبية وأوساط الرفاق المتنورين في عدد من المدن، كمعيار

---

(٤٤٢) مفصل نسوي

لتعاطي بقية الرفاق، فالفارق كبير. إذ هناك جيوب متخلفة ولا تختلف عن القوى الأخرى، إنها نفس البيئة ونفس المنظورات تقريباً، فهل الذين يحرصون على فرض الغطاء على رؤوس زوجاتهم رفاقٌ يساريون أو حتى ليبراليون... هذه علامة قهرية باسم التقاليد بينما فكرنا يقوم على حق الاختيار والتفكير... انظر الردة التي حصلت بعد تفكك الجبهة).(٤٤٣)

ومن جانب آخر اختتمت رفيقة قائلة: «في الزنازين صرح أحد الضباط: أنتم مترابطون وليس سهلاً اختراقكم وانتزاع الاعترافات منكم.»

أما كادر وسيط تقدمت الصفوف لاحقاً فكانت بدايتها قراءات سياسية لبرنامج الأخوان المسلمين وفتح وقوى يسارية... وقد شدها الموقف الاجتماعي للجبهة حيال المرأة ولاحقاً الموقف الطبقي، أما خلفية ذلك فكانت ليلى خالد وما مثلته من نموذج فدائي...

"مع الزمن تبلور جوهر تفكيري بأن الطبقات الشعبية صانعة التغيير والثورة. أما بدايات الانتماء فكانت للجنة المرأة الفلسطينية ومنها إلى الجبهة الشعبية حيث انخرطنا في أنشطة ميدانية عديدة كالتظاهرات وتوزيع البيانات والكتابة على الجدران... وتدارسنا في الخلية "النظام الداخلي" و"ما العمل" وكتاب عن تحرير المرأة ودوريات "كيف سقينا الفولاذ" و"اللاز" ودوريات لغسان كنفاني وحنا مينا، كما كتاب "تاريخ الحركة العمالية" و"فرونزة" و"تحت أعواد المشانق" و"الديالكتيك" ...

وكان لمها نصار تأثيرات إيجابية علي واحتكاكي بها زادني نشاطاً بما كلفتني به من مهام متنوعة..."

"وكوني جماهيرية وميدانية على اتصال بالجماهير استشعرت صدقية ما جاء في تعميم حزبي صدر في الداخل قبل اندلاع الانتفاضة الكانونية الذي وصف الأرض المحتلة "بمرجل يغلي" ولم أتفاجأ بالانتفاضة... صحيح أن الشرارة الحافلة كانت في جباليا ولكن كان لدينا جهوزية من بنية حزبية وجماهيرية منظمة... لقد تلاحمنا بالشعب وشاركنا بلجان الحراسة وكل الأنشطة الانتفاضية"

"وتبلورت لدينا في المعمعان صفوف كادرية. والمقياس الحقيقي لتحرر المرأة، ليس فقط المنظور الليبرالي عن وجود قيادات نسائية، فهو مؤشر، وإنما الانخراط في الممارسة الثورية... وشخصياً لم أشعر بتمييز جنسي سلبي على صعيد رسمي بل بالعكس لقد كنا على قدم المساواة،

٤٤٣) رفيقة

والترفيعات الحزبية كانت تتم بموجب النظام الداخلي. وبعد اعتقال زوجي كان علي أن اتحوط، وقد التزمت بالقرار عن قناعة، وقد حظيت بالرعاية الحزبية اللائقة والاحترام الرفاقي، والحد الأدنى من المتطلبات لي ولابنتي، دون انقطاع عن مهامي، ولم أشعر بأية نظرات مريبة أو من يختزل انسانيتي، كان الرفاق رفاقاً وأخوة...".

و"من خلال تجربتي لاحظت أن سمعة الجبهة المحمودة وفرت لي حماية اجتماعية، وعمّقت خبرتي ووعيي وقدرتي على النقد والحوار والاعتراف بالأخطاء كما تكونت لدي خبرات كادرية متنوعة...

لقد أعطتنا الجبهة قبل أوسلو أملاً ووعداً، بأنها الخيار الاستراتيجي للجماهير، أما الآن فالجماهير لا ترى فيها أملاً، لكيما تستعيد دورها عليها ردم ثغراتها وعيوبها... فاليسار مؤهل للعب الدور التاريخي إذا توافرت الإرادة والقيادة والرؤية العلمية".

المبحث الثالث

١ - الحزبي والجماهيري (السري ونصف السري)

منذ زمن عالج لينين مسألة الوعي الطبقي والأشكال التنظيمية، فعلى طبيعة الوعي الطبقي يتوقف الشكل التنظيمي، فوعي نقابي يتطلب أشكالا تنظيمية ملائمة، ووعي سياسي لنضال برلماني ديموقراطي يتطلب أشكالا تنظيمية أخرى، ووعي سياسي ثوري يتطلب أشكالا تنظيمية ثورية ثالثة، وما يحدد كل ذلك، بداهة، هو طابع التناقضات والشروط التاريخية واستعداد الجماهير. وتأتي الأشكال والصيغ نتاجا إبداعيا نظريا مرتبطا بالممارسة ووتيرتها.

وقد تناول هذه المسألة أيضا لوكاش في مؤلفه (التاريخ والوعي الطبقي) الذي اتكأ فيه على مقولة ماركس الممارسة الثورية في (الايديولوجيا الألمانية) وكتاب لينين (ما العمل).

ولينين أشار إلى أن الهدف الأساسي للثورة هو الإمساك بالسلطة وبالتالي تنظيم المجتمع وفق رؤية جديدة، وهو الذي طور شعار ماركس (يا عمال العالم اتحدوا) فأضاف (وشعوبه المضطهدة) بما يتطلبه الاتحاد والتحالف من أشكال تنظيمية.

والمسيرة الفلسطينية تجاوزت منذ عهد بعيد حصر النضال في المستوى الطبقي النقابي، والنضال الشعبي السلمي والنضال الفكري التنويري والسجالي، وتمثلت ذلك وأضافت إليه النضال الفدائي والعنفي وقواعد الارتكاز في الخارج وصولا للجيشان الانتفاضي في الداخل...

وبالتالي تهمشت الاتجاهات التي حصرت نفسها في النضال النقابي والسلمي دون أن تستفيد من الفهم اللينيني «بان البرجوازية تستطيع التعايش مع هذا النضال وان تجد له مخرجا دون المساس بسيطرتها على وسائل الإنتاج والنظام»، وهذه حال الاحتلال أيضا، وصولا إلى منظور لينين أن النظرية التنظيمية لا تكتمل إلا من خلال سيرورة الوعي المتصل بالممارسة إلى نهاياتها الثورية الظافرة.

(أجل كان لدينا هذا الإدراك للينين ومقولاته عن الحزب الطليعي والمحترف الثوري والعمال الثوريين والعمال الرجعيين، ومقولة غرامشي عن الكتلة التاريخية التقدمية والكتلة التاريخية الرجعية، وذات الشيء حول المثقف البنيوي الثوري والمثقف البنيوي المعادي...)[٤٤٤] ولكن هذا

---

٤٤٤) قيادي

الإدراك اتضح أكثر في أواخر السبعينات... مثلما إدراك قانون لينين عن تفاوت التطور واكتشافه في الواقع الفلسطيني، إذ أن الوعي متفاوت والاستعدادات متفاوتة بين مخيم وقرية وبين مدينة ومدينة وبين شريحة وشريحة، بل بين طباع شخص وآخر، ومن هنا تحدث ماركس عن القابليات والحزب عن الإنسان المناسب في المكان المناسب وعن الميول والتخصصات... وهذا كله يصب في طاحونة النظرية التنظيمية.

وسكبت الجهود المثابرة لنقل العمال من طبقة في ذاتهم إلى طبقة لذاتهم، هذا التعبير الذكي الذي استخدمه ماركس في "بؤس الفلسفة" وتشعب فيه لينين لاحقا.

و(من الحالة العفوية للجمهرة إلى الحالة المنظمة، ومن الثقافة الجبرية إلى الثقافة العقلانية النقدية التي تعزز الثقة بقدرة الإنسان على التغيير والانتصار وبالتالي خلق التلاحم بين الطليعة الواعية وجماهير الثورة... ودعني أقول لقد سرنا في هذا الدرب وصنعنا هذه السيرورة بصرف النظر عن الشوط الذي انجزناه. ففي أحسن الأحوال لم يتجاوز حجمنا ربع الخارطة السياسية الفلسطينية.

والشيء المؤكد أننا لم نساير الجمهرة في عفويتها ولم نستسلم للنضال العفوي، رغم أهميته واعترافنا به، ذلك انه لا يملك ديناميات الاستمرار، فهو اندفاعات وهبات وينطفئ، بينما العمل المنظم الواعي يستمر ويخطط على نطاق واسع. وأفضل نموذج للتمييز بينهما كان انتفاضة كانون أول ١٩٨٧. ومن هنا كرسنا الجهد الأساسي في بناء الحزب الثوري الذي يتسلح بالوعي الثوري والانخراط في ممارسة متشعبة).[٤٤٥] ومع الوقت استوعبت مقولة لينين عن اللحظة المناسبة «أمس لم يحن بعد وغداً يكون قد فات الأوان». وأصبح هذا مبدأ تاكتيكيا لا يمكن القفز عنه، كما مقولة الحلقة المركزية وربط التاكتيك بالستراتيجية والعمل اليومي بالخطة السنوية وإيجاد آليات العمل المتنوعة للمهام المتنوعة، واستيعاب المتغيرات «لان التعاسة في السياسة هي عدم استيعاب المتغيرات»، لينين، وتشديد التطلب دائما (لأنه ليس ثمة ما هو أسخف من الرضى عن النفس) لينين، ولكن دون الغطس في الارادوية، ذلك أن الإرادة الثورية والتربية الثورية ليستا كل الصورة، بل هناك ميزان القوى أيضا والحالة الراهنة والوضعية الجماعية للشعب والتقطعات في النضال، أي الزمن الرمادي والزمن الثوري بلغة لينين، كما أن الجبهة ليست وحدها في الساحة بل هناك شركاء وطنيون وعدو عنصري دموي له مخططاته وقدراته. وكان ثمة اهتداء بالمثل الصيني «وتر

٤٤٥) نفس المرجع

القوس ودعه ينطلق»، حينا والمبادرة الجسورة الطلائعية أحيانا اتصالا بنوع المناشطة، ولكن كل ذلك دفع الشعب نحو الانفجار العارم الذي تجسد باجلى صورة في أواخر الثمانينات، وبرهاناً فعلياً على اندماج حقيقي بالجماهير ونضالاتها وغضباتها وكرها وفرّها، بل المساهمة الفعلية في صيغها الأقرب للتنظيم الذاتي، اللجان الشعبية المتنوعة، بما يؤكد الوعي الصحيح لدور الطليعة الثورية والدور القيادي للحزب، فالحزب ليس بديلا للجماهير في نهاية الأمر. وبعد أخطاء متكررة تم قطع الطريق على المحاولات الواعية للاحتلال لعزل الفصائل المنظمة عن الجماهير، بل في كثير من الأحيان إنزال اشد القصاص والإجراءات القمعية بالجماهير لفك لحمتها بالفصائل/ التنظيمات السياسية.

لم تتبقرط الجبهة، فحرارة العمل في الداخل لا تتيح نشوء بيروقراطية أو امتيازات أو أية ترتيبات خشبية جامدة، فالحراك سريع سواء نتيجة سيف الاعتقال الذي يحصد دون توقف أو طابع المهام المتحرك، فمياه النهر سريعة، ومن لا يتجاوب مع سرعتها تُقْصِه جانبا، وهناك من يقف في الطليعة دائما في صفاته ومنجزاته ويعبر عن الروح الجمعية الفوارة التي لا تقبل التثاقل والنفعيات بشتى صورها... لقد عاشت الجبهة على امتداد مسيرتها مناخات الولادة وانبثاق الجديد «حماسة اللحظة الأولى» بلغة كاسترو.

و(في التحليل الأخير ليس ثمة مكتبية في العمل السري الجدي، وكل ما كتب عن الاتحاد السوفييتي بشأن البيروقراطية ليس له صلة بتجربة الجبهة في الداخل حينذاك.. فالخلل الذي أصابنا من نوع آخر، وهذا يحتاج لوقفة أخرى، بل لقد ظللتنا أجواء محفزة وحوارية ورفاقية وديموقراطية فجّرت طاقاتنا المجموعية)[٤٤٦].

يعود تشكيل لجان غير حزبية محيطة بالجبهة الشعبية إلى بدايات عام ١٩٦٨، بعد انقشاع الغبار الداكن للحملة الاعتقالية المسعورة على اثر عملية مطار اللد وسلسلة العمليات الفدائية في قطاع غزة. فمع تشكيل القيادة الأولى تأسست لجان مرأة ولجان معلمين واتحاد طلبة للثانويين وان لم تمتد في أرجاء الوطن، وكان مركزها مدينة رام الله اتصالا بإفلات معظم بنية حركة القوميين العرب من اعتقالات عام ١٩٦٦ ومعظم بنية الجبهة من اعتقالات عام ١٩٦٨، والاهم من ذلك الأفق الرحب للقائمين على التجربة حينذاك، وتحديدا المحامي بشير الخيري.

---

٤٤٦) مفصل تاريخي

وبعد الضربة التصفوية عام ١٩٦٩ استمرت بعض النشاطات النسوية التي تمحورت حول السيدتين سميحة خليل ورسمية البرغوثي، سواء داخل جمعية إنعاش الأسرة التي وطدت أقدامها أو العديد من الفعاليات الشعبية كالتظاهرات والاعتصامات والمسيرات وإسناد الأسرى، كما بعض النشاط في جامعة بيرزيت ومدينة القدس.

ومع انقطاع السياق التنظيمي لم يعد للجبهة صلات منتظمة بهذه الأجواء، مثلما مالت الشخصيتان البارزتان (سميحة خليل وفيصل الحسيني) لإنهاء علاقتهما الرسمية بالجبهة، وهذه حال بعض الأكاديميين. أما العناصر العمالية التي انخرطت في نقابات نابلس والعناصر المهنية في نقابات غزة فلم تترك بصمات خاصة.

كما كان ثمة حالات مشابهة في جمعيات نسوية في القدس ونابلس. أما النشاط الذي اجتذب كادرات أكثر في تلك الفترة فهو النشاط الفدائي... حيث برزت أسماء أتينا على ذكرها سابقاً، وغالبيتهن أمضين سنوات في سجون الاحتلال وتعرضن لوجبات من التعذيب الوحشي كما يصوره كتاب عائشة عودة (أحلام بالحرية).

(اذكر أنني التحقت باتحاد الطلبة في رام الله في مطلع عام ٦٨ وأصبحت مسؤولا عنه في أواخر العام، وهذا مهد لالتحاقي بالجبهة الشعبية. وبعد الضربة الاعتقالية وجدت نفسي في مقدمة الذين تنكبوا مهمة إعادة بناء الجبهة، أو بصورة أدق بناء شبكة انتشرت في عدة مواقع ومدن.

ضربة شباط/٦٩ كانت قاصمة وبدايتها طالبية وامتدت إلى أن جرفت مجموعات الجبهة العسكرية والسياسية، حيث أدين البعض بالمسؤولية عن عمليات فدائية وحكموا بالمؤبد وعشرات السنين. وبالنسبة لنا، فقد نهشت الجبهة الاعتقالات على امتداد عامي ٧٠ و٧١ وتبعثرنا في السجون، والذين لم يتعرضوا للاعتقال، بعضهم استأنف النشاط وبعضهم ابتلعته هموم التعليم والحياة...

كانت تجربتنا اقل نضجاً من التجربة السابقة التي قادتها كادرات بارزة، ومنهم من حصل على تدريبات عسكرية في الأردن. أما تجربتنا فلم تتعد محاولة بناء نويات تنظيمية شبابية، أو في بدايات الشباب، ارتباطا بأعمارنا وعلاقاتنا الاجتماعية، والبحث الخائب عن سلاح بسيط لا نتقن استخدامه، وقراءة ومناقشة بعض مقالات مجلة الهدف والبيانات العسكرية للجبهة، وبعض الأفراد، راحوا يقرؤون، كتعلم ذاتي، الأدب السوفييتي «والنقد الذاتي بعد الهزيمة» «ونقد الفكر

الديني»للدكتور صادق جلال العظم، وروايات نجيب محفوظ وكتاب جيفارا عن تجربته في السييرا مايسترا الكوبية... لم تصلنا الستراتيجية السياسية والتنظيمية التي صدرت عن المؤتمر الثاني عام/٦٩ ولم نكن جزءاً من النقاش الفكري، وان كنا انتقدنا انشقاق حواتمة دون أن نفهم دوافعه سوى زعمه انه أكثر ثورية من د. جورج حبش، الأمر الذي استخففنا به، وقد استنكرنا على حواتمة أن يتلقى تشجيعا ودعماً من سوريا وفتح، أي أن يستقوي بآخرين سيما أنه كان يهاجم القيادة البرجوازية الفلسطينية بتطرف. وبعد عام ونيف حصلنا على كتاب «قضية الانشقاق»، الذي أدخلنا في عالم السجالات الفكرية والسياسية، بما دفع وعينا للأمام وزادنا قناعة بخط الجبهة، كما تسرّب إلينا أن الحكيم رفض أي خيار عسكري لتصفية الظاهرة الانشقاقية.

ومنذئذ تعلمنا: إن الانشقاق غير ضروري في حركة ثورية إذ يمكن النضال من الداخل. وان استخدام السلاح ممنوع في حل التناقضات الداخلية. وان على القائد أن يتصرف بمسؤولية تاريخية بعيداً عن النزق وردات الفعل.

لم تكن لغتنا النظرية بهذا المستوى ولكنها قريبة أو تحمل مضامين ذلك، وقد اغتنت وتعمقت في فترة الاعتقال)[٤٤٧]

كان للحزب الشيوعي عددٌ من النقابات العمالية في الضفة أما في غزة فالتجربة النقابية كانت أكثر تواضعا. وعدد من عناصر الجبهة والمقربين منها التحقوا بهذه النقابات. أما التوجه الحاسم والأساسي للشعبية وفتح وفصائل المقاومة فكان العمل الفدائي واستحقاقاته. فالبندقية تلد في الأردن والمجموعات الفدائية تتسلل للوطن، والاستقطاب تحركه الرغبة بالمقاومة المسلحة، وهناك سيل من العمليات والاشتباكات حيث تقدم قطاع غزة على الضفة في هذا الشأن، وحملات اعتقالية لا تتوقف وأقاصيص تنشر عن وسائل التعذيب تقشعر لها الأبدان، إذ كانت السياسة الاحتلالية تعتقد بإمكانية «تهشيم البيضة قبل أن تفقس» وهذا يعني التنكيل الوحشي وكسر الأضلاع وشج الرؤوس وهدم البيوت...

في مثل هذه المناخات سادت السرية.

والتوجهات النظرية عامي ٧٤ – ٧٦ لإعادة بناء الوجود الجماهيري لم تر النور، ذلك أن التجربة الحزبية لم تستمر، فيما عدا بعض النشاط الفني، أما نشر بعض الإصدارات اليسارية

٤٤٧) كادر.

فقد توقف، وشيء مشابه يقال عن البدايات لأنشطة اقتصادية.

أما الهمهمات الطلابية في بعض الجامعات فلم تتضح معالمها إلا في بداية الثمانينات، وهذه حال النشيطات في لجان نسوية مشتركة استقلت لاحقا في إطارها الخاص، وقد قاطعت الجبهة انتخاب البلديات عام ١٩٧٦ ظنا منها أنها تأتي في إطار الإدارة المدنية الاحتلالية، وهذا الأمر لم يتأكد لاحقا، بل إنَّ سلطات الاحتلال قد استهدفت أبرز رؤساء البلديات بالإبعاد وزرع العبوات المتفجرة.

لقد سيطر العمل الفدائي ومحاولات بناء مجموعات فدائية على عقل وتوجهات الجبهة في العقد الأول بين ٦٧ – ٧٧. وهي أن أحرزت نجاحات وفاعلية في العامين الأولين بعد الاحتلال، سيما بعد أن رفدها الخارج في البدايات بعشرات الكادرات والقيادات المدربة، فقد انقطع سياقها في الضفة بعدئذ، واستمر ثلاثة أعوام آخرى في قطاع غزة إلى أن استشهد محمد الأسود ورفيقاه، وفي السنوات اللاحقة تبعثرت هذه المحاولات ولم تختلف الجبهة في أدائها عن العمل الفلسطيني الذي جمع التضحية والعزم والبدائية في آن، إذ كان يعوز العمل العلم العسكري والكوادر الكفؤة، والسلاح الذي لا يمكن الحصول عليه إلا بمشقة هائلة.

أما التجربة المركزية عامي ٧٤ – ٧٦ فقد تحطمت في الزنازين وسقط عضوها القيادي محمد الخواجا شهيداً تحت التعذيب.

في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات تمت إعادة الصياغة المفاهيمية للعمل الجماهيري، وبات توجها رئيسا ومكملا للتوجه الأساس لبناء منظمات حزبية في علاقة جدلية بين الشكلين المتكاملين.

بل يمكن أن يصاب الشكل الحزبي بالانغلاقية والعزلة إن لم يكن له فضاء أوسع منه، كما أن الشكل الجماهيري الأكثر اتساعا لا يمكن أن يتقدم ويشتد ساعده دون الشكل الحزبي والكادرات الحزبية المبادرة...

(من الصعب الحديث عن توالي، والأصح الحديث عن تزامن صياغة الرؤية وتأسيس الأطر. وبالعودة لعام ٧٦ فقد اقتضت المبادرة تأسيس تيار فكري وحلقات صديقة، وقد امتد هذا التيار في أوساط طالبية وعمالية ونسوية وبعض المثقفين، ولاحقا جرى تحزيب أغلبيتهم.

والدرس المستخلص على صعيد نظري انه ينبغي الانفتاح على صيغة عمل أوسع من الصيغة الحزبية، وأقل التزاما وأكثر تنوعا بما يستجيب لميول واستعدادات واسعة من الناس ومهام متنوعة أيضاً.)[٤٤٨]

تبلور هذا الفهم وسار خطوة للأمام لاحقا، داعيا لتأسيس اطر قطاعية نصف سرية، في أوساط المرأة، الطلبة، العمال، المثقفين، وبالتالي الانخراط في النوادي ومؤسسات المجتمع والمشاركة في انتخاباتها والتمثيل الإداري فيها سواء لهدف تعزيز الحضور السياسي للجبهة أو للتعبير عن القضايا النقابية والديموقراطية، مع الاعتراف بأن الهدف الأول كان يتقدم على الهدف الثاني.

وعليه، انطلق قارب لجان المرأة وأطر العمل الطلابية والنقابية وجبهات عمل وأسماء أخرى في قطاع المثقفين من أطباء، محامين، اتحاد كتاب وصحفيين، اتحاد فنانين... بل يجوز القول انه تكونت للجبهة صيغ صديقة في كل المستشفيات والجامعات والكليات والنوادي والجمعيات والمخيمات...

ينبغي الاستدراك، أن اللغة التي كانت تستخدم في النصف الأول من عقد الثمانينات هي اطر محيطة أو اطر ديموقراطية، أي تكاد تقتصر عضويتها على الأصدقاء المقربين للحزب الذين يؤيدون سياسته وبعض أفكاره، بما هو اقل بقليل من العضوية الحزبية السرية، وحتى عندما كان يستخدم تعبير اطر جماهيرية، فهو لم يكتسب مضمونا مغايراً إلا في السنوات اللاحقة، حين انتمى للأطر أعضاء ونشطاء اقل التزاما فكريا وسياسيا، سواء جيل شبابي أو جيل أقدم أو ربات بيوت غلب عليهن النشاط الخدمي والميداني والنقابي دون إغفال التعاطف السياسي، ولكن تحت قيادة النشطاء الحزبيين المنتشرين بكثافة في الهيئات القيادية والهياكل الكادرية، والكثير من هؤلاء خريجو سجون أو ينتمون «لأسر» معروفة بانتمائها السياسي.

أما الاستدراك الثاني، فهو، وان كانت هذه الأطر ديموقراطية محيطة أو جماهيرية، فقد تطور بعضها كيفيا على صعيد الانتظام والمهمات والمتابعات والتثقيف والروح العملية وحجم العضوية وتسديد الاشتراك بما يفوق المنظمات الحزبية المناطقية الأقل تطوراً. ومفيد التذكير بفرع اتحاد الطلبة الثانويين عامي ٨٨ – ٩٠ في الوسط واتحاد المرأة بين ٨٩ – ٩٢ في عموم الضفة، وتمايز بعض النوادي الريفية التي كان يقودها بعض النشطاء، وما حصدته جبهة العمل في نقابتي

---

٤٤٨) قيادي

المهندسين والأطباء من أصوات ناهزت ٣٥٪ وفوزها بنقابة العاملين في جامعة بيرزيت ومجلس طلبة جامعة بيت لحم وحضور قيادي في مستشفيي المقاصد والمطلع وشركة الكهرباء...

ومن نشيطات في لجان العمل النسائي ونشيطات أخريات تم تشكيل لجان المرأة الفلسطينية،.. التي امتدت في الضفة وغزة، كإطار صديق للجبهة وضم المئات، وتوسع لاحقا ليضم الآلاف، وحسب تقرير للجان (... يناهز القوام خمسة آلاف معظمهن مؤطرات في لجان محلية وآلاف أخرى حولهن... تنتشر في كل مدن الضفة وغزة وأكثر من ٢٠٠ قرية ومخيم... عدد رياض الأطفال ناهز ١٢٠ روضة وحضانة... والموظفات ١٤٠ بينهن غالبية اللجنة التنفيذية... اجتماعات اللوائيات منتظمة... يشرف الاتحاد على تعاونيات ومئات المشروعات الإنتاجية)[٤٤٩].

ويشير تقرير لجبهة العمل النقابي في حزيران/٨٧ إلى (... بعد عقد المؤتمرات باتت اللجنة التنفيذية واللوائيات أكثر انسجاما وقوة... ولا نبالغ في شيء إذا قلنا أن فروع جبهة العمل تضم نحو ستة آلاف إضافة لمن حولهم... أقوى فرعين في رام الله والقدس واضعف فرع في غزة... العلاقات ايجابية بين مختلف الفروع... وبعد صدامات ٨٥ انتظمت زياراتنا لغزة والروح العملية قوية، ولكن القطاع لم يألف العمل النقابي. والتقاطب السياسي حاد... لنا وجود في كل المناطق والمدن والكثير من القرى، ومقراتنا النقابية تستقطب المزيد من الزوار... ولولا ضيق اليد لامكن افتتاح المزيد من المقرات ومراكز الاستقطاب... نتحرك لتوسيع التأمين الصحي للعمال، ونشرتنا تصدر بين الوقت والآخر...)[٤٥٠]

(كان مفتاح الاستقطاب وبناء لجان قاعدية هو الزيارة الميدانية. فالسر يكمن في الزيارة الميدانية، وهذه ابتكرها وثابر عليها جمال قطامش وفراس البرغوثي كما غالب عطيوي... المئات من الزيارات للقرى والتجمعات العمالية ومراكز السكن وأحيانا تتوفر سيارة وأحيانا نتدبر أنفسنا... والأجواء مشجعة وتؤسس لمزيد من التقدم...)[٤٥١] وعلى رأي أحد النقابيين القاعديين «كنا نبحث عن وقت داخل الوقت لتأمين المزيد من الزيارات العمالية».

---

[٤٤٩] تقرير اتحاد لجان المرأة الفلسطينية/ أواخر/٩١

[٤٥٠] تقرير جبهة العمل النقابي/ أواسط/٨٧

[٤٥١] قائد عمّالي

ولنترك لقائد نقابي الاسترسال:

(كانت الشرارة الأولى في بداية الثمانينات. وكان تأسيس جبهة العمل ضرورة طبقية - فصائلية، أي تأطير العمال من جهة وسياج صديق للجبهة الشعبية من جهة أخرى. من الصعب الادعاء بوجود تعددية فكرية أو سياسية خصوصا في اللوائيات والتنفيذية، فالجميع تقريبا منحازون أو يؤيدون الخط السياسي للجبهة. ولكي نتحول لإطار جماهيري كنا بحاجة لمساحة زمنية اكبر وخوض نضال نقابي كما تأمين مقرات وموازنات.

يجب الاعتراف بأن العمل النقابي في فلسطين هو عمل فصائلي ممكن أن يصب في خدمة الطبقة العاملة والوطن)[٤٥٢]

واهم عوامل تأسيس جبهة العمل هو الوعي الأيديولوجي الطبقي الذي وصل درجة من التطور لخدمة العمال وتأطيرهم وبث روح العمل الجماعي في صفوفهم. وعدد من الكادرات لعبوا دوراً مفصليا بما تسلحوا به من وعي اشتراكي وما صرفوه من جهود تأطيرية. وطبعا كان الهدف أيضا الامتداد والانتشار كمواقع نفوذ للحزب.

أما عن أهم ميزات جبهة العمل، فهي ميدانيتها حيث التحمت بالأرياف والمخيمات وأحياء العمال، وقد رفعت فعلا مستوى الوعي الاشتراكي والسياسي للعمال ونجحت في بلورة عديد من الكادرات، أما مفتاح النجاح فهو الزيارات لمواقع العمل والسكن بما أشاعته من تلاحم وتآلف وتفاعل وتضامن واسع اجتماعي وطبقي وتنظيم أنشطة رياضية ومعالجة قضايا شخصية... كان الشعار الذهاب للعمال لا انتظار قدومهم، ومعالجة قضايا ومشكلات العمل أولا بأول وعدم تأجيلها. (إذ كنا نتمتع بدينامية داخلية عالية. كما خضنا بعض النضالات النقابية الناجحة في شركة سجائر القدس وعمال الكهرباء وبعض مصانع رام الله، وعدد من الورش لتحسين شروط العمل...)[٤٥٣]

وأهم انجازات جبهة العمل هو تأطير قاعدة عمالية بما يحمله التأطير من تضامن جماعي ووعي اشتراكي وتنويري ووعي نقابي وحقوقي حل محل الغيبيات والوعي المبسط، وفي سياق هذه العملية المتنامية تبلورت كادرات عمالية نظمت دورات تثقيفية للعمال شملت تاريخ الحركة العمالية

---

٤٥٢) قائد نقابي

٤٥٣) المرجع السابق

العالمية وتاريخ الحركة العمالية في فلسطين ونشوء الرأسمالية وتحولاتها وصولا إلى الاحتكارات والامبريالية وتشديد وتائر الاستغلال الطبقي... (وقد أصدرنا تعاميمَ داخلية وبيانات جماهيرية ونشرنا مقالات وإخباريات في الصحافة المحلية.

وبالنسبة للمظاهر الديموقراطية... فما أنجزته جبهة العمل من تأطير وتوعية إنما دفعت العمال للمشاركة، وهذه حال الزيارات العمالية وما توالد عنها من تفاعلات.)[٤٥٤]

لقد كانت إطاراً نصف سري مستهدفاً من الاحتلال ولا يمضي عام إلا وعشرات النشطاء في السجون. ومع ذلك «لقد عقدت اللوائيات مؤتمراتها المتباعدة وانتخبت قياداتها. وكانت اللوائية تتراوح بين ٧ – ٩ كوادر نقابية، ومن مندوبيها تعقد كونفرنساً على مستوى الوطن. أما قيادة جبهة العمل فهي اللجنة التنفيذية التي يشارك فيها ممثلون عن كل اللوائيات.

و(رغم التعاون بين السياسي والنقابي، غير ان تباينات نشأت مع بعض الأفراد الذي حاولوا تمرير مقترحات من شانها تكبيل عمل النقابي أو فرض مرجعيات عليه، كما لاحظنا أن السياسي عطّل توجهنا الاستثماري لشراء قطع ارض، وأحيانا لاحظنا تفكيراً انغلاقيا ولكننا كمحصلة سرنا وتعاونا مغلبين المصلحة الوطنية. طبعا إن العديد من الكوادر والنشطاء منحازون سياسيا، وانخرط في الإطار المزيد من الكوادر سيما وقد توسعنا في مئات المواقع، إضافة لبعض الدعم المالي، والتفاعل مع تقاريرنا والرد على تساؤلاتنا ومقترحاتنا.

والملاحظة التي اسمح لنفسي بالتأكيد عليها: إن بعض السياسيين لم يستوعبوا بما يكفي استقلالية الإطار، وهذا سبب بعض المعاناة، ولكن إخلاصنا الطبقي واقتناعنا برسالة الإطار وأهدافه جعلتنا نمتص هذه المعاناة. فالمصلحة العامة أقوى تأثيرا من التباينات الجزئية.

مثلما لاحظنا في فترة ميّل بعض السياسيين لإبراز كادر مثقف لقيادة المهمة الجماهيرية وليس عاملا، ولكن هذا لم يعطل نجاحاتنا ولم يخل بالانسجام داخل المركز الجماهيري...

والإطار في النهاية يتحرك في محيط الحزب وان لم يكن منظمة حزبية، كما تأمن للإطار تمثيل فاعل في الهيئات الجماهيرية، بما جعله طرفاً في القرار الجماهيري وأكثر من ذلك في القرار المالي، وهذا حمل بعدين كبيرين: المشاركة كأحد أركان الديموقراطية، وتمثيل العمال كأحد أركان المضمون الطبقي. ومن المؤكد أن وزن الإطار ونشاطه هما الأساس الموضوعي لهذا الشكل

٤٥٤) المرجع السابق

الذاتي، ولما اندلعت الانتفاضة قمنا بتحريك سريع للمهمات، وباتت المشاركة الميدانية هي العنوان الأبرز، من تظاهرات ورفع أعلام وكتابة شعارات وتوزيع بيانات... وإقامة حواجز... كما انخرط جديا في استصلاح الأراضي وحدائق المنزل وتقديم مساعدات للمعوزين والمستورين...)[455] وأغلبيته التحقت بلجان المقاومة الشعبية بمهامها الانتفاضية والعنفية، فيما المئات والمئات بما في ذلك أغلبية اللجنة التنفيذية واللوائيات تعرضوا للاعتقال مرة ومرات، وأعداد منهم أصيبوا بجروح وبعضهم استشهد، فليس اقل من ٥٠٪ من المعتقلين والجرحى والشهداء، هم من العمال وعوائلهم... الأمر الذي أدى إلى انحسار الإطار، دون أن تنحسر العضوية، إذ انتقلت إلى أنشطة أخرى وحسب، بل استقطبت المزيد من الأعضاء.

(ويتعين عليّ إضافة ما يلي:

من الطبيعي أن يتداخل النقابي مع السياسي سواء من ناحية الصيغ أو من ناحية النشاط، فلم نكن حزباً مستقلاً أو عملاً نقابياً دون صلات.

كما أن التناقض الأساسي هو مع المحتل رغم وجود التناقض مع البرجوازية، وهذا يعني أن يكون للإطار مهام سياسية تجلت أكثر ما تجلت في المارد الانتفاضي ودورنا فيه.)[456]

وهذا إدراك، بلا شك، للخصوصية الفلسطينية، فالمرحلة هي مرحلة تحرر وطني بما تحمله من نضالات طبقية ورؤية فكرية اشتراكية.

وفي عام ١٩٨٦ نوقشت هذه القضية كما نوقشت المرحلة الانتقالية التي تمر بها الطبقة العاملة، فالعمال في أغلبيتهم هم فلاحون أيضا ولديهم ملكية زراعية ويحملون ثقافة فلاحية وغيبية (الأمر الذي ينعكس على فهمنا وعملنا. وكان علينا كقيادة أن نؤدي دورنا الحاسم.

وعموما اتسمت القيادة السياسية بالنضج سواء من ناحية بناء قيادات جماهيرية أو الإسهام والمتابعة لبناء الأطر الجماهيرية وشد عزيمتها، ولولا ذلك لكان العمل الجماهيري في واد والعمل السياسي في وادٍ آخر، ولما تصلب وتطور العمل الجماهيري.

لقد لعبت القيادة دوراً حاسماً ومركزيا في البناء والتربية وبلورة الكادر وفرز المزيد من الكوادر،

---

٤٥٥) المرجع السابق

٤٥٦) المرجع السابق

وهؤلاء في أغلبيتهم أصبح لهم شأن في الحياة المجتمعية حتى بعد تفكك الإطار في زمن أوسلو)[٤٥٧]

ويجدر الاستدراك أن الأطر الديمقراطية قد انخرطت في ميدان الانتفاضة على أوسع مدى، وفي صيغها سيما لجان المقاومة الشعبية. فغالبية جبهات العمل النقابي العمالية والمهنية والطلابية قد انغمست واعتقل الآلاف منهم وجرح المئات واستشهد العشرات... وهذه حال اتحاد المرأة الذي تميّز على نحو خاص.

ففي لحظات معينة ومركبات معينة يصعب رؤية الحدود بين الحزبي والديموقراطي، بل يمكن أن تكون ردة فعل العديدين اقرب إلى الصدمة والخذلان فيما لو تسرب إليهم أنهم ليسوا أعضاء في الحزب... وقد «صادفنا العشرات من هذا النموذج في السجن، مستعظماً ومستنكراً، انه لم يحظ بشرف العضوية بعد، وكان يتطلب الأمر «طبيباً نفسياً» ومعالجات صبورة ومتفهمة سيما أن سجّل كل واحد التنظيمي والنضالي وشجاعته ومزاياه والنشريات التي قرأها تؤهله للعضوية الكادرية وليس مجرد العضوية الحزبية.

لقد فجرت الانتفاضة مخزوناً كامناً وطاقات هائلة لدى أبناء وبنات الشعب الفلسطيني.»

لجان المرأة:

لقد تطورت وتشعبت تجربة لجان المرأة التي انطلقت من مدينة رام الله الأكثر تطوراً اجتماعيا وانفتاحاً ثقافيا، وراحت تنتشر إلى أن عمت مختلف المدن والمخيمات وغالبية القرى. وهي منذ البدء ميّزت نفسها عن الجمعيات النسائية، إذ طغى عليها العنصر الشبابي من جهة والنشاط السياسي من جهة أخرى، كما توجهات عمل أخرى في مقدمتها إنشاء تعاونيات ومشاريع إنتاجية...

ولئن كانت المبادرات من العناصر المثقفة البرجوازية الصغيرة، فقد امتلكت أيضا مزايا عملية وتضحوية وقدرة على الوصول لفئات شعبية بما تطلبه ذلك من مراعاة للقالب الاجتماعي.

«لقد ابتكرنا في تلك الفترة تعبير مراعاة لا مجاراة»، بعدم تحدي القيم السائدة وفي نفس الوقت عدم التماثل معها. فإننا قوة نقدية نسعى للتغير، ولكيما نؤدي هذه الوظيفة علينا الغوص عميقا في الطبقات الشعبية، التربة الخصبة للتغيير وهدف التغيير في آن، وهذا يستدعي اجتناب النقاط الحساسة في الوعي الاجتماعي أو مناقشتها بهدوء وروية.

---

[٤٥٧]) المرجع السابق

وفي تلك الفترة «اصدر الحزب تعميما تضمن إجابة عن ثلاثة أو أربعة أسئلة منها سؤال الدين وسؤال الحب وسؤال العقل...» (الملحق رقم ١)

في مرحلة المراهقة الفكرية والانحياز للحرية، قد يفرط بعض الرفاق في التعبير عن نقدهم لمقولات دينية أو قد لا تتفهم أوساط في مخيم أو قرية رفيقة تجاهر بتدخينها السجائر، كان التركيز على أهمية اجتذاب الناس وتعبئتهم والتدرج في رفع مستوى الوعي الفكري والاجتماعي، بغية النضال بل كانت الرفيقات، وهن يتميزن باستقامة السلوك والاحتشام في اللباس، يتفادين التدخين في مثل هذه الأوساط ويرتدين البنطال بدل التنورة.

البدايات صعبة، ولكن الرفيقات زرعن البذور التي أنتجت سنابل، وكن محبوبات جداً في الأوساط الشعبية وامتددن بسرعة في الأوساط الطالبية، كن طليعيات بكل معنى الكلمة يستثمرن أوقاتهن في العمل والحرث وكان الانجاز يحفزهن على مزيد من الجهد والتضامن، ومن بين هؤلاء ومن بين الناشطات في العمل الحزبي تشكلت الصفوف الكادرية النسوية.

وقانون التراكم أساسي في بناء الجماعات الثورية أو أية صيغ جماعية أخرى، فالحزب كمقولة حداثية يتجاوز التقسيمات الطائفية والعشائرية والجنسوية، وهو مقولة تراكمية أيضا (براكسيس) ولأن «المرأة مضطهدة» ولها خصوصية، فهي مضطهدة قوميا من الاحتلال الصهيوني ومستغلة طبقيا من البرجوازية كالعمال وأكثر، ذلك أنها لا تكافأ باجر متساوٍ على العمل المتساوي، وهي مضطهدة ذكوريا أيضا بأشكال من القمع الجسدي ومصادرة حرية الحركة وحركة الاختيار ووو... وصولا إلى قانون الأحوال الشخصية، أي ليس ثمة اعتراف بالمواطنة المتساوية قانونيا في المجتمعات التقليدية...

كان على الجبهة مراعاة خصوصية المرأة، وهذا كان واضحاً في التعبئة الفكرية، أما مراعاة خصائصها، فذلك لم يكن واضحا، ذلك أن الرفيقات عموما شابات لم يتزوجن وينجبن أطفالا بعد، كما أن اندفاعهن الثوري كان لا يعبأ بهذه الخصائص حتى في مرحلة لاحقة... واستغراق بعضهن في النضال، سيما في سنوات الانتفاضة، شأن الرفاق، كان على حساب الأطفال ووجبات الطعام...

وكانت التوجيهات والمتابعات صريحة ودؤوبة... استقطاب نساء للعضوية الحزبية، وتكليف رفاق ورفيقات لهذه الغاية، كما إنشاء لجان خاصة...

«والعضوية الحزبية لا تميز بين ذكور وإناث، من أبسط المهام إلى اعقدها، فما يحدد المهام هي القدرة والاستعدادية، والجميع يتأدلج ويعبأ بنفس الموقف الفكري والسياسي ويدفع للمعمعان العملي ويطلب منه الانجاز والمجالدة والصمود في أقسى الظروف، والتعميمات كانت واضحة بهذا الشأن كما نشره «الرفاق». والعودة لأرشيف الجبهة يغني ويضيف.»

وفي مقابلة مع كادر نسوي قالت (من تجربتي الشخصية لاحظت اهتماماً بالمرأة، كانت الجهود منصبة لتنسيب رفيقات وتوعية منظمة بموضوع النوع الاجتماعي. ولا اعرف إذا كان ذلك بنداً على برنامج الجبهة أم في إطار ضيق في حدود الحقل الذي نشطت فيه... والحديث يدور هنا عن النصف الثاني من الثمانينات... أما مؤخراً فقد لاحظت تخلفاً اجتماعيا كبيراً لدى الرفاق والرفيقات، هل كانوا كذلك من قبل أم حصلت ردة نتيجة ما أصاب الجبهة؟

في كل المواقع التي عملت فيها لمست جدية وصدقاً في التوجه الحزبي لبناء منظمة حزبية وإطار مرأة، وتقدمنا كثيراً، ولكن كمحصلة عامة تراجعت المفاهيم في مرحلة أوسلو وانتشر الحجاب دون اختيار وزادت القيود على عمل المرأة بما يعكس أن المجتمع لم يتطور، والخارج عن النسق اليوم طفرات.

كان ثمة قناعة أن المرأة قادرة على النضال وقيادة النضال، حينما ارجع بالذاكرة لتلك السنوات أتذكر حجم الاهتمام ورعاية الحالات الخاصة من الرفيقات. لم تهمل رفيقة واحدة لديها صفات مميزة، ولم استشعر أي تفكير ذكوري. الجميع ينخرط في العمل والبناء. كنا نناضل بقناعة ولا ينتابنا لحظة أننا على خطأ...

في لحظات كنا قساة لا نعذر الرفيقات اللائي لديهن ظروف اجتماعية صعبة أو توزيع المهام بما يراعي الخصائص سيما الرفيقات المتزوجات وكأنهن دون مسؤولية بيتيه... كن يتركن الأطفال ويذهبن للمهام... السبب ثورية الرفيقات أكثر منه قصور في الفهم النظري... والرفيقات لم يتذمرن أبدا... إننا أبناء وبنات تلك المرحلة... الرفيقات والرفاق في المقدمة والتضحيات كبيرة...

لقد اضطلعت شخصياً بمهام متنوعة جماهيرية وحزبية ومهنية وعائلية وكان علي الجمع بينها...)(٤٥٨)

التجربة في اتحاد المرأة حية، ما كان عليه الوضع وما أصبح عليه منذ أن كان إطاراً محدوداً

(٤٥٨) قيادية نسوية

إلى أن أصبح إطاراً جماهيريا. البداية لجنة المدينة، وأصبحت اللجان منتشرة في عديد من المدن والقرى والمخيمات. وكانت التوعية خطاً ثابتاً، توعية سياسية وتوعية اجتماعية ومسائل المرأة والعمل، المرأة والعمل النقابي، حقوق المرأة... ونشأت قناعة بأن على المرأة أن تكون منتجة إضافة لعملها كمنتجة في البيت، وبدايات وعي لأهمية التعاونيات الإنتاجية إضافة للاقتصاد البيتي، وضرورة دعم النساء لتأمين نشاط اقتصادي يعود عليهن بدخل... وكانت اللجان تدعم النساء بالصوف والخيطان والقماش لإنتاج مطرزات و...

«سرنا خطوات اكبر في تأسيس رياض أطفال وتجنيد أموال لدعمها، وزرنا غزة وخلصنا إلى تقييم وضرورة دفع النشاط هناك. رفعنا شعار على كل عضو في اللجان أن تكون منتجة من خلال نشاطها في اللجان، رعاية أطفال، تطريز، خياطة أعلام، خياطة بلايز لأطفال الشهداء والأسرى، معجنات، خبز، أصواف، مخللات... بالانخراط في نشاط إنتاجي ومشاريع خياطة وتعاونيات، إضافة للنشاط الانتفاضي.... وتقييم العضوية بناء على الالتزام بالنشاط والإنتاج».

كانت الأنشطة الإنتاجية في كل مكان، ويشارك فيها ليس اقل من ألفي عضو، أما التعاونيات فابرزها تعاونية سعير وتعاونية بيتللو، لإنتاج المواد الغذائية من مخللات وخضار مجففة... بمشاركة عشرات النسوة بما يتطلبه ذلك من مهارات لرفع مستوى العمل والإنتاج والتسويق والمحاسبة... كانت هذه تجارب اشتراكية، وما تقوم به بعض الورشات اليوم عن التخطيط الستراتيجي وفنون الإدارة مارسناه بمفاهيم مختلفة منذ زمن، حيث كانت آليات التطبيق تعتمد في مجملها على العمل التطوعي، وليس كما اليوم الوقت بالمال!!

فالإطار ناهز خمسة آلاف عضو في مئات اللجان وخمسة آلاف أخرى كتيار لصيق، وأكثر من ١٢٠ روضة وحضانة، وعشرات المقرات، ونحو ١٤٠ موظفة في الرياض واللوائيات والتنفيذية، ومئات اللجان الإنتاجية، بما يتصل بذلك من أنشطة اجتماعية واقتصادية، علاوة على الأنشطة الوطنية والانتفاضية، هذا يتجاوز كثيراً «التخطيط الستراتيجي» ودورات «بناء الكادر» و«الاتصال بالجماهير» هذه الأيام...

«لقد صدمت واستخلصت الدروس من زيارة وفدنا لأوروبا حين استقبلنا سفير منظمة التحرير في بيته، وهو فيلا محاطة بأشجار وفراش وثير وتحف نادرة، راح يشرح لنا عن المزادات التي ابتيعت فيها هذه التحف ورحنا نشرح له عن الانتفاضة وفاعلياتها... الحالة النضالية مختلفة والظروف كذلك والناس أيضاً!»

في مسيرتنا لبناء الإطار كنا نعتمد التوجه المباشر للمرأة في البيت، في الريف، في المخيم، في الأحياء، في العمل ولا ننتظر أن تأتي إلينا. وكان اجتماع اللجان أسبوعيا، والاستقطاب والتوسع وبناء لجان جديدة خطاً أساسياً. ولم يكن مستهجناً في ذلك الوقت أن يكون للإطار صلات بالحزب أو للحزب صلات بالنشيطات، وان لم يكن الإطار منظمة حزبية، بل كنا نتلقى الإسناد من الرفاق في المواقع، سيما قرار الحزب أن يستقطب كل رفيق عضواً للاتحاد، وهذا لمسناه على نطاق واسع في الضفة، أما في غزة فالأمر ليس كذلك ولم يتعد بعض الهوامش، ربما أن التقاليد الاجتماعية هي السبب أو كما قيل إن تقاليد العمل الحزبي هناك غير متجذرة، فلا تتابع قرارات من هذا القبيل... وفي ذروة قوة الاتحاد كانت لجاننا في غزة قليلة.

واستطيع القول انه توافرت لدينا شخصيات نسائية كان لها الدور الأهم في رسم ملامح العمل ليس من التنفيذية فقط بل من اللوائيات أيضا»...

كانت التنفيذية قيادة للاتحاد وممثلة لكافة المناطق، واللوائيات مسؤولة عن المناطق من مدن وقرى ومخيمات. كان لدى اللوائيات الدينامية التي تضمن التوسع وتنفيذ القرارات، كما كان الرفاق يدعمون من خلال متابعات أعلى لقرارات الاستقطاب.

(والاستقطاب الأساسي كان من خلال النشاط، ومع الانتقال من المناخات الحزبية وعوائل الرفاق، إلى مناخات أوسع من جمهرة الناس انفتحت بوابات جديدة وتحولنا لإطار جماهيري.

ساعد على الوصول للجماهير الزيارات المنتظمة وتأسيس رياض الأطفال وإنشاء الأنشطة الإنتاجية... ولولا ذلك لما أصبح إطارا جماهيريا.

والجبهة رفدت الإطار بكادرات نسوية تماشيا مع شعار «التحول لقوة أولى»، وكان ذلك يتطلب نقلة نوعية في عمل الإطار، إذ لا يمكن التحول لقوة أولى أو قوة كبيرة» دون قطاع المرأة...

في البداية كان يتميز العمل القيادي للإطار بعقد الاجتماعات وتوزيع المهام ومتابعتها وإحصاء عدد البيوت التي تمت زيارتها وذوي الأسرى... كان ينبغي إحداث قفزة وتجاوز أي روتين، وهذا يتطلب طاقات جديدة ورعاية إضافية وآفاق جديدة...)[٤٥٩] فتحقق توسع كبير وتضاعفت الأنشطة، وكانت هذه الفترة الذهبية للإطار بجهود وتضحيات الجميع قيادة وقاعدة، تنفيذية ولجاناً محلية، فأصبح وجود الاطار قويا في الشارع ويحظى باعتراف الجماهير. وكانت

---

٤٥٩) المرجع السابق

الصلة منتظمة بين التنفيذية واللوائيات من خلال اللقاء المباشر والزيارة المباشرة للمواقع وعقد الاجتماعات والرد على التقارير ومعالجة المصاعب، و(كنا نحظى برعاية مماثلة من أعلى. ولتامين أماكن لعقد الاجتماعات كنا نستخدم البيوت العائلية، ومع زيادة رياض الأطفال والمشاريع الإنتاجية خففنا الضغط على البيوت.

كنا نجمع في نفس الوقت مهمتين كبيرتين: الانتفاضة حيث كانت مشاركتنا في فاعلياتها واضحة، والقرار أن يشارك كل عضو في المسيرات والتظاهرات اليومية والأسبوعية ويرفع الأعلام ويوزع البيانات... ويحاسب بناء على ذلك.

من هنا سقط لنا عدد من الشهيدات وأضعافهن من الجريحات كما اعتقلت قوات الاحتلال العشرات، وكنا نلحظ قساوة وحقد جنود الاحتلال بالضرب بالهراوات على الجسم والقاء قنابل الغاز الأمر الذي أدى إلى فقدان العشرات من العضوات أجنتهن)[٤٦٠]...

«ولكيما تنتظم مشاركة الاطار في الانتفاضة كان عليه ضبط آليات الاتحاد من اللجنة التنفيذية إلى لجان الأحياء والمواقع وما بينها، وكل عضو ينخرط في لجنة وحولها حلقة ومقربات، والتقرير شهري من أدنى لأعلى بما في ذلك اللجنة التنفيذية ويتم الرد عليها.

فتقليد المراسلات ثابت بما يخلق مناخات من الثقة المتبادلة. بل تمثل الإطار في أهم الصيغ الجماهيرية وتشارك في قراراتها وتلقى تفاعلا مع قضاياه وإجابة عن أسئلته وهمومه. كانت الأمور منتظمة وجدية ومحفزة من أعلى».

ومن جانب آخر كان يتوجب على قيادة الإطار وامتداداته (مضاعفة قواه وتفعيل طاقاته ليس في الشأن الانتفاضي فقط بل الاجتماعي والإنتاجي أيضاً. تصور ماذا يحتاج من جهد موقع إنتاجي لشراء ماكينة صوف وإنتاج بلايز وتوزيعها، كان لدينا المئات من المواقع... وماذا تحتاج روضة أطفال من مستلزمات ترفيهية وتعليمة وإدارية وتأهيل. كان لدينا أكثر من مئة روضة وحضانة)[٤٦١].

وكان الاتحاد يوفر دورات مهنية معترفاً بشهاداتها، دورات إدارية وإنتاجية وتوعية صحية وأمومة وأحيانا رسم على الزجاج وأشغال فنية وطباعة وسكرتاريا ودورات تغذية...

---

٤٦٠) المرجع السابق

٤٦١) المرجع السابق

«كنا نتعامل مع أنفسنا كما لو كنا حزبا ثوريا من ناحية النشاط، وحتى الجيل الأقدم من النساء يكلّفن بمهام ويتجاوبن...

وكنا نعطي تعليمات محددة لتوزيع النداءات والبيانات بتسليمها باليد أو تحت الباب فلا تضيع النسخ، فإذا وزعنا ٥٠٠٠ نسخة يعني ٥٠٠٠ شخص وعائلة.

وختاما، كنا نعمم التقرير العام للاتحاد على اللوائيات كما كنا نصدر رسالة شهرية، ونتلقى تقريراً شهريا من اللوائيات ونشعر بنشاطها وتجاوبها.»

وأضافت (كنت أشعر بتمييز ايجابي للمرأة. واعتقد أن الجبهة تميّزت بشكل عام، بخطها السياسي الواضح والجرأة في الموقف وفي أسلوبها النضالي ونوعية كوادرها وقيادتها بما جعلها تحظى باحترام الناس. واليوم حين يسجل الناس ملاحظاتهم فلأن لديهم صورة قديمة عن الجبهة تميز بالنقاء والثورية. ولأن الجبهة كانت بهذه المزايا فقد أعطتنا جميعاً القناعة والأمل والقدرة على الصمود... كان النضال حقيقياً وليس استعراضياً أو مجرد برستيج أو لأطماع شخصية فالفهم للنضال الثوري كان حقيقياً، فالشعب يصنع انتصاره وعليه أن يستميت في النضال ولن يأتيه النصر من السماء. والنضال كان واعياً وليس تبعية عمياء أو لأهداف فئوية، وقد توافرت قوة المثل والقيادة المبدئية. فمبدئية القيادة وصلابتها أساس حاسم، وكنا نتميّز بالانسجام والتفاعل الخلاق ولم يحاسب أحد بناءً على اجتهاده، وحتى لو لم يصله الموقف الرسمي يكون اجتهاده صائباً ومنسجماً مع الموقف الرسمي.)[٤٦٢]

أما كادر وسيط تقدمت الصفوف لاحقاً فكانت بدايتها قراءات سياسية لبرنامج الإخوان المسلمين وفتح وقوى يسارية... وقد شدها الموقف الاجتماعي للجبهة حيال المرأة ولاحقاً الموقف الطبقي، أما خلفية ذلك فكانت ليلى خالد وما مثلته من نموذج فدائي...

(مع الزمن تبلور جوهر تفكيري بأن الطبقات الشعبية صانعة التغيير والثورة. أما بدايات الانتماء فكانت للجنة المرأة الفلسطينية ومنها إلى الجبهة الشعبية حيث انخرطنا في أنشطة ميدانية عديدة كالتظاهرات وتوزيع البيانات والكتابة على الجدران... وتدارسنا في الخلية «النظام الداخلي» و«ما العمل» وكتاباً عن تحرير المرأة ودوريات «كيف سقينا الفولاذ» و«اللاز» ودوريات لغسان كنفاني وحنا مينا، كما كتاب «تاريخ الحركة العمالية» و«فرونزة» وتحت أعواد

---

(٤٦٢) المرجع السابق

المشانق» و«الديالكتيك»...

وكان لها نصار تأثيرات إيجابية علي واحتكاكي بها زادني نشاطاً بما كلفتني به من مهام متنوعة...)

(وكوني جماهيرية وميدانية على اتصال بالجماهير استشعرت صدقية ما جاء في تعميم حزبي صدر في الداخل قبل اندلاع الانتفاضة الكانونية الذي وصف الأرض المحتلة «بمرجل يغلي» ولم أتفاجأ بالانتفاضة... صحيح أن الشرارة الحافلة كانت في جباليا ولكن كان لدينا جهوزية من بنية حزبية وجماهيرية منظمة... لقد تلاحمنا بالشعب وشاركنا بلجان الحراسة وكل الأنشطة الانتفاضية).

(وتبلورت لدينا في المعمعان صفوف كادرية. والمقياس الحقيقي لتحرر المرأة، ليس فقط المنظور الليبرالي عن وجود قيادات نسائية، فهو مؤشر، وإنما الانخراط في الممارسة الثورية... وشخصياً لم أشعر بتمييز جنسي سلبي على صعيد رسمي بل بالعكس لقد كنا على قدم المساواة، والترفيعات الحزبية كانت تتم بموجب النظام الداخلي. وبعد اعتقال زوجي كان علي أن اتحوط، وقد التزمت بالقرار عن قناعة، وقد حظيت بالرعاية الحزبية اللائقة والاحترام الرفاقي، والحد الأدنى من المتطلبات لي ولابنتي، دون انقطاع عن مهامي ولم أشعر بأية نظرات مريبة أو من يختزل انسانيتي، كان الرفاق رفاقاً وأخوة...)

ومن خلال تجربتي لاحظت أن سمعة الجبهة المحمودة وفرت لي حماية اجتماعية، وعمّقت خبرتي ووعيي وقدرتي على النقد والحوار والاعتراف بالأخطاء كما تكونت لدي خبرات كادرية متنوعة...

لقد أعطتنا الجبهة قبل أوسلو أملاً ووعداً، بأنها الخيار الاستراتيجي للجماهير، أما الآن فالجماهير لا ترى فيها أملاً، لكيما تستعيد دورها عليها ردم ثغراتها وعيوبها... فاليسار مؤهل للعب الدور التاريخي إذا توافرت الإرادة والقيادة والرؤية العلمية)[٤٦٣].

الطلبة

طريفة هي بداية أحد الطلبة، وطرافتها وإن لم تخل من فرادة، أنها تتشابه مع حالات أخرى أيضاً،

---

٤٦٣) كادر نسوي

والقيمة الخاصة للمتحدث أنه بات لامعاً ومؤسساً لإطار جبهة العمل الطلابي.

(كان علي تزوير عمري لكيما أقبل في عضوية الجبهة، إذ لم أكن قد بلغت السادسة عشرة بعد. حركني التمرد والجموح الثوري والرغبة بالاشتباك مع العدو.

طفولتي شقية، فأنا أنحدر من عائلة مسحوقة طبقياً، كان مصروفي مجرد قرش يومياً وفي أيام الجمع لا شيء، بينما الاشتراك الشهري ثلاثون قرشاً. تحدثت مع المسؤول عن فارق الأربعة قروش. لقد حرمت نفسي من أية مشتريات يتمتع بها الطلبة.)[٤٦٤]

من الواضح أن الخط الفكري – السياسي للجبهة لم يكن حاضراً، أو لم يكن حاضراً بصورة كافية، ذلك أن مجرد النزعة الوطنية والمضمون الطبقي يشكلان ركنين كبيرين في شخصية الجبهة.

(لقد حظيت بتربية تنظيمية واخلاقية، وبهدف الاستقطاب رحت أعطي دروساً في اللغة الانجليزية، ومعها أبذر أفكاراً تحريضية استمالت عناصر باتت كادرية لاحقاً. وفي السجن حظيت بالتعبئة الفكرية والسياسية واهتمام من قبل الرفاق، إذ لاحظوا سماتي القيادية وكنت مسؤولاً عن منظمة السجن المكونة من مئة عضو وعمري لم يتجاوز السابعة عشرة.

وإدارة السجن أعاقت حصولي على الثانوية لعامين متاليين، تحتجزني في الزنزانة في موعد الامتحانات، فيفوتني الفصل الثاني بعد أن أكون قد اجتزت الفصل الأول)[٤٦٥].

ومعلوم أن جبهة العمل الطلابي قد نشأت في الجامعات قبل أن تتعمم في المعاهد والمدارس. والبداية في جامعة بيت لحم عام ٨٠.

(لفتني النقاشات النظرية للرفاق أما ميولي فكانت عملية. ورغم أنني لم اكن قد خضت تجربة العمل الجماهيري بعد، غير أنني تقدمت الصفوف. وفي نيسان/ ٨٠ أعلنا عن جبهة العمل الأمر الذي أثار حفيظة القوى الأخرى. ومن خلال الجدل معها ومع إدارة الجامعة تبلورت رؤيتي أكثر فأكثر بأننا نسعى لإقامة إطار طلابي يقوم على الأسس الديموقراطية ويتبنى قضايا نقابية منها، مجانية التعليم، تعريب المناهج... توثيق العلاقة بين الطلبة وأنشطة ثقافية لا صفية...

---

٤٦٤) قيادي طلابي

٤٦٥) نفس المرجع

وبخلاف الأبعاد الفكرية السياسية والحزبية، فقد اكتسبت خبرتي الجماهيرية من تجربتي الشخصية. إذ كل مفهوم وكل خطوة إنما جاءتا نتاجاً للممارسة الحية.

لقد تهيب الرفاق في البداية من القاعدة الانتخابية التي اقترحتها كآلية لتشكيل هيئات جبهة العمل، تحسباً من أن نفقد السيطرة عليها...

كنت أميل للانتخابات وتوسيع جبهة العمل، فهي ليست منظمة حزبية.)(٤٦٦)

في السطور أعلاه تتكثف ولادة إطار طلابي ضم لاحقاً الآلاف، وأنتج صفوفاً من الكادرات والمفاصل. وهو تجل مكتمل للبراكسيس. فالذاتي والموضوعي يتفاعلان بحيوية عالية، ما أن يتوافر الشرط المبادر. وإن تخرّج غسان جرار وفريق من كادرات الإطار، بما لهم من وزن كبير لم يصل حد تعطيل دينامية الإطار التي تصاعدت في السنوات اللاحقة.

كانت المنظمة الحزبية موزعة على خط سري ..... وآخر جماهيري...

«كان تقييم الرفاق أنني اعمل بقوة الجرافة وصلابة الصخرة، لقد أقنعتني الجبهة واستجبت للمهمات. فالجبهة تجربة فريدة من نوعها وفَولذت العديدين.

وتمت صياغة برنامج الإطار عبر عملية حوارية طويلة، عشرات النقاشات، أما بناء الإطار فتم من خلال المنهج التجريبي خطوة وراء خطوة.

كنت أعاني من الاجتماعات الحزبية خصوصا عرض القضايا النظرية بطريقة مدرسية جامدة. ماذا قالت صحيفة ديلو او ميسل في كتاب ما العمل...»

ويستطرد انتقاديا (شعرت بتهميش للكادر الجماهيري وان فرص الترفيعات للكادر في الخط السري هي أضعاف فُرَصه في الخط الجماهيري دون التفات للقدرات والانجازات والاستعدادات، وذات الشيء يقال عن المشاركة في القرار. إذ عومل الخط الجماهيري كجنود وليس كشركاء في الهيئات، بل كان يستخف برسالة حزبية من الخط الجماهيري ولا تصل للقيادة... ناهيكم عن بعض الجهوية في التعيينات الكادرية...

ولما قيل لي أن مرتبتي عضو رابطة، بينما كنت عضو قطاع قبل سنوات تأكدت من النظرة

---

٤٦٦) نفس المرجع

الاستخفافية للعمل الجماهيري وطلبت أن أتولى مهامي دون مرتبة، فالمهم هو الدور والاستعدادية لكل المهام والجهد المطلوب من محترف ثوري...)[٤٦٧]

ويدلل على رأيه ثانية بتوجه حماس للشخصية الجماهيرية المعروفة في الجبهة الشعبية أبو ناصر البوريني، لتسوية خلاف حيث خطفت الأولى كادراً من الثانية، أي لم تتوجه للكادرات التنظيمية...

وعن التجربة الديمقراطية للإطار الطالبي أضاف (كيما أكون صادقاً، لقد انتزعنا الديموقراطية انتزاعاً. ففي البداية أصرت المرجعية الحزبية المباشرة على أن تكون جبهة العمل إبنة الجبهة الشعبية، وتتدخل مباشرة في تشكيل هيئاتها ومتابعة يومياتها...

دفعنا الأمور باتجاه أن يكون الإطار أوسع وأن يشعر كل طالب أنه جزء من القرار، فلا تسقط القرارات بالباراشوت... أردنا إطلاق الطاقات وخلق أوسع عملية حوارية... أما الاستقطاب فهو مهمة جماعية ولكن دون فرض وصاية.

في السياق نسجنا علاقات مع «الجماعات»، اقتحمنا هذه التجمعات الطلابية واستقطبناها ومنحنا النشطاء صلاحيات أوسع. وكانت النتائج هي الحكم، حيث اندفع الإطار خطوات للأمام واستقطب نشطاء التحقوا فيما بعد بالحزب.

كما دفعنا الأمور باتجاه أن يفوز الأعضاء الحزبيون في هيئات الإطار بفعل حضورهم وتأثيرهم وليس بناءً على قرارات من أعلى، اعتقد أن خللاً كان يعتور المفاهيم الشائعة.)[٤٦٨]

والحياة الطالبية، إجمالاً، حيوية وغزيرة المفردات، بما يكسب الناشطين فيها وعياً وخبرة، سيما أن الإطار امتد من الجامعة إلى المنطقة وإلى المناطق الأخرى، وبالتالي تشكيل هيئة تنسيقية بين مختلف فروع جبهة العمل في الوطن.

(قلنا يتوجب التمييز بين ما هو سياسي، وهو من صلاحية الحزب، وبين ما هو بنائي وديموقراطي ونقابي، وهو من مسؤولية الإطار، يتقرر عبر الحوار والانتخابات... مع وجود خط حزبي نافذ في الإطار. إذ لم ينقطع الخط الحزبي في الإطار، فنحن أول من بادر ولكن برزت

---

٤٦٧) نفس المرجع

٤٦٨) نفس المرجع

الالتباسات أثناء عملية البناء، أي كيف، وما هي الصلاحيات؟)[٤٦٩]

(لقد عقدنا ثلاث دورات انتخابية في أواخر الثمانينات وكانت الترشيحات على أساس فردي حر، وليس على نظام القائمة الموحدة...

وقد احتضنا الشعارات التي زودنا بها الحزب، أو دعني أقول انها نتاج نضالات الحركة الطلابية، من طراز: ديموقراطية التعليم ووطنيته، مجانية التعليم، تعريب المناهج...

كما نفذنا إضراباً احتجاجياً على ارتفاع الأقساط، وبعد حوارات مع إدارة الجامعة، مستفيدين من معلومات عن منحة مالية من إحدى الدول، توصلنا لتشكيل لجنة مالية بمشاركة الطلبة، وبعد مسح شامل تم إعفاء كامل لـ ٣٠٪ من الأقساط وإعفاء ٣٠٪ من نصف الأقساط...

لقد تصرفنا بمسؤولية دون تهييج الخواطر.)[٤٧٠]

ومنذ بداية الإشهار عن جبهة العمل كان للمرأة حضور ودور، وهذا تجلى في وجود رفيقات في مجالس الطلبة وهيئات الإطار.

ويمكن القول أن نسبة الطالبات في الإطار وصلت إلى ٤٠٪ وأقل من ذلك في هيئات الفروع، أما في الهيئة العليا فنادراً.

وكانت الهيئة العليا مثابة القيادة المركزية للإطار في الأراضي المحتلة عام ٦٧. وقد وصلت نسبة الإطار في أوساط الطلبة بين ٢٥ – ٣٠٪ في بعض الجامعات. كما كان الإطار جزءاً من صيغة أوسع للعمل الجماهيري في تبادل تأثر وتأثير للإطار ومختلف أوجه العمل الجماهيري في الوطن، بما تنطوي عليه هذه الآلية من محفزات لبلورة قيادات جماهيرية عامة.

أما النقطة النظرية الهامة التي اقتبسناها من رسالة قيادية في أواسط الثمانينات فهي: «إننا نجمع ببراعة وتكاملية العمل الحزبي السري والعمل نصف السري، ولا يجب نسيان ما أصاب الحزب الشيوعي، ليس من ناحية حجمه، فهو محدود أساساً، ولكن غطسه في العلنية منذ أواسط السبعينات. فأين فؤاد نصار القائد المرموق الذي قاد متخفياً يفترسه المرض والجوع في بداية الخمسينات، وعربي عواد الذي كتب النشرة بخط يده كما جاء في كتاب الدكتور زيادين...

---

٤٦٩) نفس المرجع

٤٧٠) نفس المرجع

لا نريد تكرار ذلك. فأولاً البنية الحزبية بامتدادها السري وبعدئذ الأطر رغم أهميتها العظيمة: هذا هو الهيكل العظمي لمختلف المهام، ودونها تتحلل الأطر الجماهيرية وتصبح مجرد هوامش ونتحول من حركة تحررية لها وجه ديموقراطي إلى قزم لا أهمية له لا في الشأن السياسي ولا الشأن الاجتماعي.»

كادر وسيط... مرآة لسياق

لم يبدأ نشاطه بعد أن بلغ السادسة عشرة من عمره كما ينص النظام الداخلي للجبهة، بل قبلئذ عندما كان في الخامسة عشرة، وقد قبلت عضويته كاستثناء.

كان يتجاذبه خطان، فشقيق له في فتح والآخر في الجبهة، وهذه حال الكثير من العائلات الفلسطينية، وقد حصل على بعض مطبوعات الجبهة فقرأها، والتحق بلجان العمل التطوعي، حيث شارك في نقاشات عن القضية الوطنية وكلّف بقراءة أدب ومقالات سياسية وصلت حد ثلاثة كتب أسبوعياً...

(لاحظت صدقية سياسية لدى الجبهة، فالنشطاء في بيت لحم يقولون ما يقوله النشطاء في رام الله أو نابلس... وجرى تأطيري في حلقة تدارسنا فيها النظام الداخلي للجبهة وبرنامج المؤتمر الرابع وقد وجدت في ذلك ذاتي ومعبراً عني... حزب ثوري، كفاح مسلح، تحرير فلسطين، يسار ويمين، عمال وبرجوازية، بطولات في الزنازين... هذا جذبني وأقنعني.) [٤٧١]

انخرط في اتحاد الطلبة المرتبط بالجبهة، وتقدم في صفوفه وأصبح مسؤولاً عنه. (كتبت مقالة للنشرة الطلابية وبعد أن وصلنا تعميم المكتب السياسي وجدت المقالة متناغمة مع ما جاء في التعميم... وتوسعنا في الاتحاد وبتنا أكثر من ٥٠٠ مؤطرين في حلقات وامتدادات أخرى في مدارس الإعدادية (طلائع غسان كنفاني) بقيادة ياسر أبو غوش ورفيقه رجا صالح وثالث.) [٤٧٢]

تقدمت مسيرة الاتحاد واعترفت بعض المدارس به كممثل يتبنى قضايا الطلبة ويتدخل في معالجة مشاكلهم، كما حقه بتعليق مجلته على حائط المدارس، وكان يصدر جريدة كما رسالة داخلية تحث على المهمات والاستقطاب والعلاقات الرفاقية والعلاقة الايجابية مع الهيئات التدريسية، كما نجاحات الاتحاد والمشاركة في العمل التطوعي...

٤٧١) كادر وسيط

٤٧٢) نفس المرجع

كان يتعين إرساء وتعميم نفس التوجه في الأرض المحتلة ٦٧ (وجدنا امتدادات هنا وهناك وحضر المندوبون وذهبنا لغزة لنقل خبرة التجربة، وأقمنا أنشطة مشتركة ثقافية، رياضية، رحلات، مهرجانات، بما في ذلك مهرجان الشهيد خليل أبو خديجة لكرة القدم، ومهرجان الدبكة في الحكواتي...

ومرة سلّم أحد الرفاق مئات النسخ من «فلسفة المواجهة» وتقرير المؤتمر الرابع لمندوب من الشمال تبين أنه عميل، مما أدى إلى اعتقال رفيق حيث واجه تحقيقاً شرساً ولكن دون جدوى.) (٤٧٣)

ومن الواضح أن «الوسط» كان مركز الثقل حيث استخدمت مقرات النقابات العمالية وسواها كأماكن للاجتماعات... وبدخول الانتفاضة تضاعفت عضوية الاتحاد، وبات مستقلاً مالياً من عائدات الاشتراكات وعائدات التبرعات... وتعرض لضربة اعتقالية عام ٨٩ ولكنها حوصرت بفضل صمود كادراته... (كانت تلك هي الفترة الذهبية، امتد الاتحاد في الوطن، على رأسه هيئة وسكرتير... كنا مضخة للجامعات وجبهات العمل النقابي، وأقسام كبيرة انخرطت في لجان المقاومة الشعبية.) (٤٧٤)

اعتقل اسم بارز وبعد فشل المخابرات أحيل إلى غرف العصافير (العملاء) الذين حاولوا استغفاله والتغرير به (استقبلوني وقد توزعوا على جلسات لفتح وأخرى للشعبية، وأحدهم حاول إقناعي بأنه مسؤول الشعبية ونبهني بأن عليّ الحذر من الجميع بمن فيهم هو نفسه وأراني ساقه المصابة بعدة رصاصات... وفي اليوم التالي قال لي جهّز نفسك للزيارة واكتب كبسولتك للرفاق، فهم يثمنون صمودك وأنك أوقفت الضربة... ما أن خرجت من الغرفة وإذا بضابط يمسك بزمارة عنقي كيلا أبلع الكبسولة. سحبوني وراحوا يسخرون مني: الصمود شرف والاعتراف خيانة... فتحوا الكبسولة وإذا بها لوحة مربعات ومثلثات... اعترفوا بخيبتهم وأحدهم أعطاني سيجارة: هذه سيجارة الانتصار علينا.) (٤٧٥)

وجدير التعريج على الشهيدين ياسر أبو غوش وعطا صالح... (منح الأول العضوية قبل أن يبلغ السن القانونية، وهذه حال رفيقه رجا... وكانا يتسابقان مع رفاقهما على قراءة الأدب الثوري،

---

٤٧٣) نفس المرجع

٤٧٤) نفس المرجع

٤٧٥) نفس المرجع

رجال في الشمس، عائد إلى حيفا لغسان كنفاني وروايات حنا مينة.... وعلى تنفيذ أوسع المهمات الانتفاضية بما في ذلك الزجاجات الحارقة... تميّز ياسر أكاديمياً، وهو مقدام، ينفذ المهمات فوراً دون تبييتها لليوم التالي، محبوب جداً، حرارته عالية... ورجا مثله، «قل لي من تعاشر أقل لك من أنت» وكلاهما لاحقته القوات الخاصة وبعد استشهاد ياسر حاول رجا الثأر له بقنبلة مولوتوف فلحقه شهيداً في نفس اليوم... وقد رشحا العشرات للعمل الحزبي وأضعافهم للانخراط في العملية الانتفاضية)[٤٧٦].

وبالعودة للكادر الوسيط الذي كان مرجعية لاتحاد الطلبة، فاعتقالاته المتكررة أبعدته عن أجواء الطلبة... وأوكلت له مهمة حزبية في الريف مرة وأوساط العمال مرة أخرى، وأحرز نجاحات وتقدم في السلم التنظيمي...

(بتنا قوة فاعلة في الانتفاضة بما دفع العمل الحزبي خطوات كبيرة للأمام، نبني ونبني... وقرارات الحزب صريحة وتقضي بالانخراط الواسع في مناشطات الانتفاضة والتركيز على كمائن الحجارة والزجاجات الحارقة... وهذه تكليفات أسبوعية... ومرة كدت أموت لأن مسؤولي جبان لم يشعل سيجارته كإشارة على وجود جيش في المكان... ولكنني نفذت من بينهم دون ارتباك ومعي حمولتي... وبعدها رفضت التعامل معه... وقد تبين لاحقاً أنه لم يتدرج تنظيمياً، بل أحد أقاربه عينه كادراً... رغم مزاياه الصمودية أنا تدرجت من حلقة فحلقة مرشحين فخلية فرابطة فقطاع فمنطقة... بما جعلني أتطور في سياق منطقي... حتى أنني في البدايات تعلمت طريقة كتابة التقرير الحزبي... وشرح لي الرفاق وثائق حزبية والكثير من مقالات «الرفاق» و«المستمرة» و«ضمير الانتفاضة» وتعاميم مركزية وأحياناً مقالات من «الهدف»...

وعليّ القول أننا كنا نحترم ونثق بقيادة المحتلة وننفذ تعليماتها باندفاع ثوري، فأنا أنتمي لتلك الفترة وما بعد أوسلو لا يعنيني في شيء ولا مكان له عندي.)[٤٧٧]

وتجدر الإشارة إلى أن المذكور عاش طريداً سنوات وأن ميوله الميدانية والعملية وسعة اتصالاته حالتا دون انخراطه في تجربة التخفي رغم رغبة رفاقه بذلك... أما لماذا صمد مرات في الزنازين ف(لقناعاتي وحماية لرفاقي وتاريخي، إذ لا يمكن أن أؤذي العمل والرفاق كما لا يمكن أن أسمح

---

٤٧٦) نفس المرجع

٤٧٧) نفس المرجع

بأن تهتز صورتي أمام حبيبتي وعائلتي.)[٤٧٨]

العمل التطوعي

لا شك أنها ظاهرة تعبر عن الانتماء للوطن وخدمة الناس وتعزيز الروح الجماعية، وفي بعض الأعمال إنما أرادت مواجهة الزحف الاستيطاني وتقوية صمود الفئات المهمشة، كما أن العمل التطوعي ظاهرة تربوية للصبايا والشباب...

ومن الناحية الفلسفية فمعظم النضال الفلسطيني هو عملية تطوعية، بما صاحبه من تضحيات هائلة، وكذا معظم العمل الاجتماعي إنما يصب في هذه العملية التطوعية أيضاً، أما بعد أوسلو فقد جرى توظيف معظم المناضلين وانتشرت المنظمات غير الحكومية بأجورها المجزية نسبياً قياساً بمتوسط الأجور. وغدت قوة العمل موزعة اليوم ٤٦٪ قطاع خاص، ٤٥٪ قطاع حكومي و٩٪ منظمات غير حكومية.

أما كحركة تطوعية مباشرة، فتعود إلى أواسط ٧٢، حين حاولت مجموعة من الطلبة والمثقفين في رام الله - البيرة إحياء ظاهرة «العونة» الفلسطينية بصيغة جديدة، وقد احتضنت مكتبة بلدية البيرة ومكتبة بلدية رام الله عدة اجتماعات شارك فيها منير فاشة، سليم تماري، حنان عشراوي، سهير وسهام البرغوثي، عزمي الشعيبي، أحمد سعدات، رياض رشيد، زكريا النحاس، محرم البرغوثي، بسام الصالحي، ربحي قطامش، مها مستكلم، فؤاد سلوم، وسواهم... كما عبد الجواد صالح... وفي العام التالي تبنت جامعة بيرزيت العمل التطوعي كأحد متطلبات التخرج...

وكان أول عمل تطوعي هو صب وتوضيب ملعب في مخيم الأمعري، والثاني صب باطون في أزقة وقنوات مجارٍ في مخيم الجلزون بمشاركة نحو مائة متطوع (انتشرت الفكرة وشملت نابلس، القدس، الخليل، ووصلنا قرية نائية (العدسية) في ريف الخليل حيث أقمنا مخيماً لمدة أسبوعين لشق شارع... وتنظيف مقبرة وشوارع مدينتي رام الله والبيرة... ورحنا نوسع أعمالنا في الأرياف.)[٤٧٩]

كان العمل التطوعي حركة توحيدية، إذ ضمت اللجان في المواقع مقربين من الاتجاهات اليسارية: الجبهة الشعبية، الحزب الشيوعي، الجبهة الديمقراطية، كما كان ثمة لجان خاصة

٤٧٨) نفس المرجع

٤٧٩) قائد تطوعي

أيضاً.. أما فتح فأسست لجان الشبيبة بعدئذ.

تخلل النشاط التطوعي الخدماتي بعض الأنشطة الإنتاجية، كمحاولة تأسيس «كوميونة» زراعية في أريحا بالتعاون مع نبيل المصري، وزراعة بصل في قطعة أرض في البيرة.

وفوز الحركة الوطنية في العديد من البلديات في انتخابات عام ٧٦ دفع العمل التطوعي للأمام، إذ أصبحت هذه البلديات حاضنة للعمل التطوعي تمده بأدوات ودهانات... (فأقمنا مخيماً لمدة أسبوع في نابلس وآخر في سرية رام الله وثالثاً في الخليل، وبعدها شاركنا في مخيم الناصرة الدولي بنحو ١٥٠٠ متطوع... وشاركنا في موسم قطاف الزيتون وزراعة آلاف الشجيرات وبناء أرصفة في قرية كفر نعمة ونصب مئات أعمدة الكهرباء في عابود بما قطع الطريق على «روابط القرى»، شارك في كل منها المئات، ونفس الشيء بإعادة بناء منزل في بيت ساحور هدمته قوات الاحتلال عقاباً على إلقاء زجاجة حارقة... وتثبيت الأسس لبناء جامع في العيسوية استهدفه المستوطنون...)[٤٨٠]

في غضون هذه السنوات تغيرت تركيبة اللجان وباتت أكثر شبابية وأغلبيتها من الطلبة وتشكلت الهيئة العليا للعمل التطوعي في الضفة وغزة عام ١٩٨٠ حيث برز فيها علي حسونة، محرم البرغوثي، جواد البشير، سعد النشاشيبي، عبد دنديس وسواهم...

وإن كان ثمة جهود قد بذلت لإقناع الأهالي بأهمية العمل التطوعي ومصاعب التحريض المضاد من قبل «مجموعات دينية» على اللجان المختلطة بين الجنسين وأن هذه الظاهرة مستوردة وتعود لتقليد «السبوت الشيوعية» السوفييتية، غير أن الناس احتضنوا الظاهرة وراحوا يتسابقون لتقديم الضيافة ومشاركة كل عائلة بما تجود به من طعام....

لقد نشبت لاحقا خلافات (على رفع العلم الإسرائيلي في مخيم الناصرة الدولي حيث اعترض المقربون من الشعبية فيما أيد المقربون من الحزب الشيوعي، وتمسكنا بإنزال العلم الإسرائيلي ورفضنا حذف بعض الرموز من عروضنا الفنية كالبندقية والأغاني التي تمجد المقاومة. وظهر التراشق في البيانات بما أدى إلى أن يؤسس كل اتجاه إطاره الخاص.. فتشكل (الاتحاد العام للعمل التطوعي في الضفة وغزة)[٤٨١] بقيادة غسان جرار لبضعة أشهر خلفه علي حسونة عام ٨٣ الذي استمر على رأس الاتحاد حتى عام ٩٠.

٤٨٠) نفس المرجع

٤٨١) ناشط تطوعي

وأهم التحديات كانت سيف الاعتقال الذي لا يغمد بغية ضرب التجربة ذلك أنها وعاء لطاقات واسعة ويمكن أن تساعد في تأسيس قيادات جماهيرية بما يصاحبها من تربية ميدانية وتعلم من خلال العمل، ناهيكم عن التربية الديمقراطية، حيث النقاش مفتوح بعد كل عمل للتقييم وإبداء الآراء والمقترحات... وإجراء انتخابات، دون تمييز بين الجنسين...

إضافة أن هذه الصيرورة قد مهدت لإرساء مفهوم العمل التطوعي الاختصاصي في الحقل الصحي والزراعي و... وهذا كله تجذر وتوسع في الانتفاضة الكانونية...

(أستطيع القول إن هيكليات العمل التطوعي خاصتنا قد ضمت نحو ٣٠٠٠ عضو عام ٨٩، هم في أغلبيتهم الساحقة انخرطوا في اللجان الشعبية واعتقلوا... لقد استجابوا للمهام الجديدة... ويكفي القول إن ٢٥ شخصاً قد اعترفوا على مندوب قلقيلية دون أن يحرك لسانه...) [٤٨٢]

لقد أصبح للاتحاد لجنة تنفيذية يشارك فيها مندوبون عن الضفة وغزة ولوائيات ولجان مواقع في مختلف المناطق، وكان يعكس التراتب التنظيمي جسماً منظماً بكل ما في الكلمة من معنى.

(كنا ننظم حملة تطوعية واسعة في يوم الأرض من كل عام، حيث نزرع أشتالاً وشجيرات... ونفذنا أنشطة في الأغوار لقطف المحصول وفي الجولان لقطف التفاح، ناهيكم عن مشاركتنا في مخيمات الناصرة، أم الفحم، يافا... ومرة شاركت جامعة بيرزيت ب ٧٠٠ متطوع في غزة، وفي يوم تطوعي للجامعة بمشاركة ١٥٠٠ لاستصلاح جبل وزراعته، وغابته خضراء حتى اليوم... وقد حاول الاحتلال قطع الطرق علينا غير أننا اعتمدنا دروباً أوصلتنا حيث أقيم مهرجانٌ ضخمٌ تخللته خطابات ورقص شعبي..) [٤٨٣]

واحتراماً لدور الاتحاد في موسم قطف الزيتون كانت معاصر الزيت تتبرع له لمساعدة الطلبة المعوزين والأسرى... فمسيرة الاتحاد مكنته من الاحتكاك بالبسطاء والوجهاء والنخب النافذة على حد سواء... ومع مرور الوقت باتت رموزه تحظى باعتراف الهرم الاجتماعي وعلى علاقة مع جغرافية سكانية واسعة، فالعمل التطوعي رحلة بنّاءة في المجتمع والبلاد على حدٍ سواء...

أصدر الاتحاد نشرة «جذور» شبه الفصلية...

---

٤٨٢) قائد تطوعي

٤٨٣) قائد تطوعي

(كنا نتمتع بصلاحيات واسعة ودعم مالي وردود على التقارير من أعلى، واتيحت لنا المشاركة في صياغة الرؤية الجماهيرية ومتابعة أوجه العمل، وبين أيدينا ما يكفي من تسهيلات لوجستية...

وكنا على انسجام عالٍ مع الفكر السياسي وننظر بتقديس للمواقف والقرارات، أما أولويتنا فكانت ميدانية عمليةً...)(٤٨٤)

وبطبيعة الحال كان للجبهة بعض النشطاء في الاتحاد، بما جعل أحدهم يضيف بعض الانتقادات (جرى تغليب المعايير الحزبية في تقييم العمل التطوعي، كالصلابة الأمنية بينما العمل التطوعي ممكن أن يشمل أناساً لديهم مزايا مهنية... بما يشبه إسقاطاً للمعايير الحزبية على أنشطة جماهيرية... ناهيكم عن ضعف الانسجام أحياناً بين مركز الاتحاد والمناطق الحزبية رغم وجود بعض التنسيقات والتعاون، وكان التفسير هو مستوى تطور بعض المناطق الحزبية... وقد صادفنا أيضاً مغالاة في التقشف ومحاربة النزعة الاستهلاكية لدرجة انتقاد أن يكون لدى الرفيق غرفة نوم جيدة أو وجبة كورنفليكس... وأحياناً كان ثمة تباطؤ في التعميم والمعالجة بما يقتضي ربما، اختصار عدد المراتب.)(٤٨٥)

لجنة السجين

تولى هذه اللجنة كادرات أمضت في سجون الاحتلال فترات طويلة، فأهل مكة أدرى بشعابها، ومن يشعر بالجريح أكثر من جريح مثله، ومن الحالم الثوري أكثر من حالم ثوري مثله؟

كان التحقيق يقوم على فلسفة التحطيم الجسدي الذي يؤدي إلى تحطيم معنوي. كان الضرب والتهشيم الأسلوب الرئيس. ولهذا لم يكن صدفة أن يستشهد قاسم أبو عكر أو تتعفن جلدة رأس يعقوب عودة وتتسلخ، وأن تتكسر أضلع وأصابع... وأن يجري التنكيل ببشير الخيري وعبد اللطيف غيث ومحفوظ جابر ورسمية وعائشة عودة وو... لقد مضى وقت قبل أن يستعيد البعض توازنه العقلي...

(دون مبالغة، لقد زادتنا هذه الأساليب صلابة، وهذا يسهل اكتشافه إذا تذكرنا أن عدداً من هؤلاء باتوا قيادات للحركة الأسيرة، في السبعينات، فالجبهة ساعدتنا على اكتشاف أنفسنا كمناضلين لهم مكانة في الحياة ويسعون لإزالة الظلم عن شعبهم، وقدرة على التحليل وثقافة

---

٤٨٤) ناشط حزبي في العمل التطوعي

٤٨٥) قائد تطوعي

واسعة... وكان علينا أن نسند رفاقنا في الأسر الذين عشنا بين ظهرانيهم.)[٤٨٦]

لقد تشكلت لجان السجين التي تعنى بأسرى الجبهة في مطلع الثمانينات، وهذا ساعد على تنظيم العلاقة المبعثرة والمتقطعة بالسجون في فترة سابقة وتأمين المحامين والكتب ومتابعة الحالات المرضية، كما إقامة علاقة رسمية منتظمة يجري فيها تبادل الرسائل والتعاميم والمتابعات... كان للجبهة، حينذاك، المئات، أطلق سراح قسم كبير منهم في عملية تبادل الأسرى التي نفذتها القيادة العامة عام ٨٥، ولكن الرقم ارتفع لاحقاً وأصبح ألفين في سنوات الانتفاضة الكانونية.

«ناقشنا قبل اندلاع الانتفاضة وبعد اندلاعها التوجه لإنشاء مؤسسة يتجاوز عملها لجان السجين، وأكثر كفاءة قانونية وأكثر شمولية بحيث ترعى ما يمكن من أسرى دون تمييز فصائلي.»

ومن الواضح أن حجم الاعتقالات وتشعب قضايا الأسرى دفعا لتأسيس المزيد من المراكز القانونية. وهنا ينبغي ذكر «مانديلا» والضمير و«السجين» وسواها لباعها الطويل في خدمة الأسرى.

«بالنسبة لنا كان ثمة مرجعية عليا، وكان لنا ميزانيتنا الرسمية إضافة للتبرعات ومتابعات وردود، ولكن كان هناك ضيق أفق أحياناً، مثلاً الأرشفة وشح المال بما لا يساعدنا على تقديم المزيد من الخدمات للأسرى وذويهم، ناهيكم عن أن رعاية الأسرى بعد تحررهم تتطلب إمكانات كبرى لم تتوافر. وأحياناً كنا نستدين ونسدد بعد حين.»

ويبدو أن الوجع المالي كان مشتركاً، فجميع المقابلات أشارت له، كما الرسائل القيادية المنشورة في الملاحق. بما يحمل على الاعتقاد أن ضيق ذات اليد مرده ضيق ذات الإمكانات بما تطلبه ذلك، عادة، من سياسة تقشفية ومصاعب واختراع حلول. وكان هذا من التحديات الصعبة في الأرض المحتلة.

(هل تعلم حجم ميزانية فتح السنوية للأرض المحتلة، وهل تعلم حجم ميزانية حماس؟ إن قاعدتنا المنظمة وفاعليتنا الانتفاضية نافستا قاعدة وفاعلية غيرنا، أما ميزانيتنا فهي لا تصل ١٠٪ من ميزانيته... كان هذا تحدياً تصدينا له، فلم ندخل اختناقات ولم نصبح من البكائين، ومرة صادر الاحتلال عشرات آلاف الدولارات أثناء اعتقال رفيقين وصادر ألفي دولار أثناء اعتقال ثالث غير أن المحامين استعادوا المبلغ الأخير، وهناك مبلغ تبدد في العمل الصحفي وآخر

---

٤٨٦) تاريخي

في متابعات نضالية...)[487]

ويختتم المفصل التاريخي «كان همنا الأوحد تقديم أقصى ما لدينا للنضال، كجنود مجهولين دون أن نعبأ بمرتبة حزبية أو مصلحة شخصية. ولكن كان يفترض أن يعطي الحزب المسألة الفكرية جهوداً أكبر، فالفقر الأيديولوجي سهّل الانقلاب على الهوية اليسارية في مرحلة أوسلو، بما أفقدنا أحد تمايزاتنا. فالتنظيم السياسي يرشده الفكر النظري في النهاية. ناهيكم عن بعض المراهقات كإظهار الكفر والشرب والميوعة السلوكية هذه الأيام.»

اللجان الصحية

قامت فلسفة اللجان على تقديم خدمات صحية للجماهير الأكثر عوزاً، من خلال فهم ديموقراطي غير تقليدي أساسه المشاركة والعمل التطوعي، والذين بادروا كانت لديهم رؤية سياسية، وباع في العمل النقابي وحافز بالعدالة الاجتماعية، وأيضاً يمكن استثمار هذا الفضاء لخدمة أهداف سياسية وطنية. وتجدر الإشارة إلى أنه من الصعب الحديث عن توالي السياسي ثم الاجتماعي إذ أنهما متداخلان منذ البدء.

كانت البدايات عام ٨٥ في إطار العمل الجماهيري الأعم. أما المؤتمر التأسيسي فانعقد عام ٨٦ بمشاركة ٨٠ مندوبا من الضفة وغزة. وهنا خليق التذكير بأسماء الدكتور احمد المسلماني، والشهيد مصطفى عكاوي والدكتور نعيم أبو طير وسواهم.

(لقد تعلمنا من التجربة العملية ديالكتيك النقد والمراجعة والتقييم وجماعية الإرادة بما يشبه مقولة التوسير «نظرية الممارسة».

ومرت المسيرة بثلاث مراحل:

١- مرحلة التأسيس ٨٥ – ٨٨ وقامت على العمل التطوعي. وقد بدأنا من الصفر دون امتلاك الأدوات والمال لخدمة البرامج. اذكر أنني استقطعت ثمن علبة سجائر وتبرعت بالخمسة دنانير التي حصلت عليها من والدي، وهذا فعله سواي كل بطريقته، وكنا ننتقل بسيارات الأصدقاء ونحصل على الأدوية كتبرعات، أما اجتماعاتنا فكانت في بيوتنا، حيث يتولى «المضيف» ضيافتهم... لقد افتتحنا العيادة العصرية في جباليا بألف دينار، ومركز بيت ساحور بأثاث مستعمل من بيت عوا.

[487] مرجعية

٢- مرحلة الانتفاضة بين ٨٨ – ٩٢ التي اكتسبنا فيها زخماً وتوسعاً كأحد أشكال التنظيم الشعبي، وقد انتمى الكثيرون للجان إذ راحوا يفتشون عن مكان لخدمة شعبهم وتقديم العلاج للأعداد المتزايدة من الجرحى والمرضى. واستجابت قيادة الاتحاد لهذا الإقبال المتزايد وبات لدينا ٥٥ عيادة من رفح إلى جنين، ناهيكم عن العيادات المتنقلة والمستشفيات، بكل ما يلزم ذلك من كادرات طبية وفنية وإدارية وأدوية. لقد ذهبنا إلى أقاصي الأرياف والمخيمات. وفي عام ٩١ عالجنا نحو ٢٠٠ ألف حالة مرضية وعام ٩٢ أكثر من ذلك.

وقد تكرست القيادة الجماعية للجان التي اضطرت لتبديل اسمها بعد أن حظر رابين اللجان الشعبية، وتشكيل مجلس واسع بما لذلك من تفاعلات وعلاقات بناءة مع الجهات الجماهيرية والسياسية.

٣- مرحلة أوسلو: إذ على مشارفها دارت نقاشات حيوية تمحورت حول رأيين، الأول علينا استبقاء المقاربة على حالها دون تخوف من المتغيرات. والثاني: لن نستطيع الاستمرار بنفس المقاربة، ذلك أن خدماتنا واسعة ومصاريفها المالية عالية، بينما موقفنا السياسي المناهض لمدريد – أوسلو سيعاقب بإقفال نسبي لحنفية المال. الأمر الذي يستوجب اتخاذ إجراءات كتقليص العيادات والكادر الوظيفي واعتماد التطوير العمودي بتطوير بعض العيادات وتحسين الخدمات بحيث تشمل برامج صحة المرأة والمدارس...

وقد انحزنا في النهاية للرأي الثاني)[٤٨٨].

كانت الروح جماعية وتضامنية والعلاقات حميمة وصادقة وحوارية وتتسلح برؤية واحدة ودرجة عالية من العطاء والمبادرة دون أية مصلحة شخصية.

فعلى سبيل المثال عملت الممرضات طيلة أربعة أعوام دون إجازة، ذلك أنهن في يوم الإجازة يلتحقن بالعيادة المتنقلة. وفي احد أيام الانتفاضة الكانونية كان يفترض أن يتطوع حفنة لعمل في الأغوار، ولكن حضر ستون طبيبا وفنيا وممرضة في مكان التجمع فتوزعوا على منطقة الأغوار والزبيدات...

اما الجماهير فقد احتضنت اللجان حيثما حلت تقديرا لخدماتها وصدقيتها، حيث تسابق الناس على استضافتها في بيوتهم لتقديم وجبة غداء...

---

٤٨٨) قيادي طبي

وبالنظر لشفافية الإطار ومعقولية رواتب الموظفين والأعداد الكبيرة من المتطوعين، استطاع أن يؤدي مهامه المتشعبة دون أزمات مالية.

وبطبيعة الحال كان للبعض اهتمامات سياسية محددة، ولآخرين اهتمامات طبية صرفة، ولكن الإطار ككل في الخندق الوطني يتبادل الإسناد وفي علاقة تعاضدية وتوحيد جهود مع الجهات والأطر الأخرى، وقد بقي الإطار مثابراً على أجواء ديموقراطية فعالة ومشاركة واسعة بما في ذلك عقد المؤتمرات وانتخاب القيادات أعوام ٨٨، ٨٩، ٩٠، رغم القمع الاحتلالي.

مع إفساح مجال حقيقي لصعود كادرات شبابية وتوسيع الهيئات في كل الفروع وتشكيل مجلس واسع إضافة للجنة التنفيذية. حتى أن احد الأكاديميين الدارسين في الدول الأجنبية تفاجأ من مؤتمر القدس الذي حضره ثمانون مندوبا لما شاهده من تقارير وتخطيط ونقاشات ومحاسبات وتحفيز وفي النهاية انتخابات نزيهة...

واحد الأطباء المحزبين قال (كنا بحاجة لعلاقة منفتحة أكثر ولمن يساعدنا في تسوية تباينات جزئية مع المناطق، ولكن الصورة ايجابية إجمالاً وساد التناغم والانسجام)[٤٨٩].

اللجان الزراعية

يقوم المشروع الصهيوني، منذ البدء، على الاستيلاء على الأرض والثروة المائية، وأحد أهداف احتلال الضفة الفلسطينية وقطاع غزة... هو التوسع الجغرافي ومصادرة الأرض. وقد تمأسس ذلك بصورة واضحة في مشروع يغآل ألون عام ٦٨، فانطلقت عملية منظمة للاستيطان الاستعماري في تطبيق واضح للسياسة التي اعتمدت في المناطق المحتلة عام ٤٨ على المناطق المحتلة عام٦٧.

وقد خاضت الحركة الوطنية نضالاً مثابراً ضد التوسع الاستيطاني، غير أن اللجان الزراعية تشكلت في أواسط الثمانينات تدعيماً لصمود المزارعين وحماية الأرض. وقد انطلقت نقاشات مبعثرة قبلئذ وتأسست لجان هنا وهناك إلى أن تهيكلت في هيئة تأسيسية شملت الضفة وغزة عام ٨٧، وكان من بين نشطاء الهيئة خالد الهدمي، جمال مشعل، علي حسونة، ذيب نجار، بسام الصوراني، نادي فراج، غسان جرار، ومحمود العطاري. كما تبلور برنامج العمل.

(كانت الاجتماعات والجهود حثيثة وتمظهرت في القيام بأعمال تطوعية، سواء تنظيف المزارع

---

٤٨٩) نفس المرجع

أو تطعيم المواشي أو المساعدة في موسم القطاف.)[490] وقد بدأت في الأغوار وأريحا حيث اعتبرت منطقة منكوبة في احد الأعوام ومستهدفة في آن ومنها امتدت إلى أماكن عديدة.

وراحت اللجان تنتشر، والأعمال التطوعية تتواصل، وقد اكتسبت زخماً كبيراً بعد اندلاع الانتفاضة الكانونية ومقاطعة العمل في المستوطنات والمشاريع اليهودية، ونظام منع التجول الذي دأب الاحتلال على فرضه لضرب الشعب المنتفض.

صاغت اللجان شعارها: نحو بناء حركة تعاونية فلسطينية. وأجابت عن سؤال: كيف نبني لجاناً قاعدية وهيكلتها في المناطق وصولاً إلى إقامة اتحاد على مستوى الوطن؟!

(قمنا بتوزيع أشتال خضروات وشجريات كما أرانب ودجاجات على الفلاحين وأنشأنا ٨٧ لجنة زراعية في ٨٧ قرية في الضفة، ونحو ٥٠ لجنة في أحياء غزة وريفها المحدود، لكل منها نشاطها الخدمي والتنموي.

أما المنجز الذي يتعين الإشارة له فهو سلسلة تعاونيات إنتاجية، كتعاونيات الأبقار في بيت ساحور وبيرزيت وقلقيلية، وتعاونيات الدجاج في نعلين وبيت جالا، وخراف وأبقار في الخليل، واستصلاح أراضٍ وزراعتها وتراكتور ودكان للمواد الزراعية في عورتا، وشيء مشابه في بورين وبيتللو وقرية عجول، وشراء أرض وجرافة وتعاونيات لصناعة المربى والمخللات...

والصورة مشابهة في قطاع غزة، بل قمنا بزيارات لمواقع اللجان، كما حضر البعض للإسهام في الأعمال التطوعية في الجفتلك...

لقد شارك نحو ألف عائلة في هذه التعاونيات، واكتسبت بعض الخبرات الإنتاجية والتسويقية والإدارية والمحاسبية، رغم تعقيدات البداية وإجراءات الاحتلال.)[491]

كما تم توزيع نشرات إرشادية على الأهالي ونظمت حلقات دراسية مع مختصين ودورات في الاقتصاد المنزلي بالتنسيق مع لجان المرأة والعمل التطوعي، وكان للاتحاد عيادتان متنقلتان إضافة للعيادات الثابتة لمساعدة المزارعين والأهلين. ونفذ مع جامعة بيرزيت مشروعاً لسلامة البيئة الزراعية في الأغوار والزبيدات...

---

٤٩٠) قيادي زراعي

٤٩١) نفس المرجع

وتميّز الاتحاد بتجانسٍ عالٍ سيما الهيئة القيادية التي تضم الضفة وغزة وكان الكثير من نشطائه من المهندسين الزراعيين والمزارعين... وقد وصل في خدماته لأوساط شعبية مسحوقة. وطغى عليه العمل التطوعي (ففي غمرة تطورنا عام ٩٠ لم يكن في الاتحاد سوى موظفين اثنين، أما الباقي فهم متطوعون... وكنا نتقدم إلى أن حصلت العواصف مع أوسلو سواء وطنياً أو حزبياً.)[٤٩٢]

وأهم الانتقادات التي وجهت للتجربة هي (غياب التخصص المهني، بل اعتقال العديدين لنشاطهم السياسي والانتفاضي، كما عدم وضوح الرؤيا والصلاحيات، وبعض المرجعيات أعاقت توجهات الاتحاد الاستثمارية لشراء أراضٍ اعتماداً على الذات.)[٤٩٣]

التجربة الصحفية والإعلام الداخلي والخارجي

منذ البدء، يجب الاعتراف أن فترة عقدين ونصف هي فترة طويلة، وقد تخللتها تجارب عديدة داخل السجون وخارجها. والسياق يكتفي بالاشارات وحسب. أما الوقوف الجدي فيتطلب دراسة مستقلة. كما أن الذين عملوا في الحقل الصحفي إنما اعتقلوا أيضاً على أنشطة تنظيمية وعسكرية.

كامتداد لحركة القوميين العرب حظي التثقيف بأهمية. قبل الإعلان عن الجبهة في ٦٧/١٢/١١ كانت تتم التعبئة بمقولات تاريخية وسياسية تؤكد على عروبة فلسطين، والنضال ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية، وأن الشعب المنظم والمسلح هو أداة التحرير، وعلى أهمية ساحة الداخل، التي تحرك إطارها الجغرافي من الداخل ٤٨ وكان للقوميين العرب فيها بعض الأنشطة الفدائية منذ استشهاد اليماني وسعيد وأسر سكران سكران عام ١٩٦٤، الى الداخل اراضي الضفة وغزة بعد ٦٧، ومقولة العمق العربي والحاضنة العربية وقاعدة الارتكاز، ووحدة الشعب والجبهة الوطنية... الخ.

لم تتأخر الحركة في التقاط اللحظة بعد هزيمة حزيران إذ أسست أوّل قواعدها الفدائية شرقي نهر الأردن وأقبل عليها كوادر الحركة للتدريب وعبور النهر الى الضفة الفلسطينية وقطاع غزة.

جاءت سلسلة العمليات الفدائية، وأصبحت مقولات فدائي وحرب الشعب والكفاح المسلح من

---

٤٩٢) نفس المرجع

٤٩٣) نفس المرجع

أكثر المقولات رواجا في إعلام الجبهة الشعبية، لهذا لم يكن صدفة أن تصدر نشرات سياسية وأخرى عسكرية في الأراضي المحتلة منذ عام ٦٨.

لم يتوقف الاعلام الداخلي، ولكنه تقطع مع تقطع السياق التنظيمي بفعل الضربات الاعتقالية.

وفي السجون دأبت الجبهة على التثقيف الداخلي على نحو مثابر وشغوف ومنتظم بالمؤلفات الماركسية – اللينية وسوى ذلك، وصدرت تعاميم ونشريات عديدة يصعب حصرها.

كما صدرت تحليلات سياسية وتعاميم ومقالات تنظيمية وبيانات في النصف الثاني من السبعينات في منطقة رام الله التي راح يخفق قلب الجبهة فيها بخفوت ثم بنبضات منتظمة، ويمكن العثور على بعض نصوص تلك السنوات (في ثبت الملاحق) بما يعكس مستوى الفكر السياسي والنظري آنذاك.

في السنوات اللاحقة وحتى أوسلو اتسع نطاق الإعلام الداخلي وانتظم، وتعمم على مختلف المنظمات الحزبية في الوطن، وكان على قدر من الغزارة: تعميمات، تحليلات، نشرة «الرفاق» الداخلية، «الثورة مستمرة» الجماهيرية، أعداد من مجلة الهدف، إضافة إلى الإصدارات المركزية، ومناقشة ذلك في مختلف المستويات الحزبية... لكن لا يجوز النسيان أن غزارة التعميم وغزارة التثقيف ارتبطتا طرداً بمستوى المنظمات الحزبية ومدى تبلور تقاليدها، فالأكثر تبلوراً اكثر غزارة والأشد فقراً في التقاليد أشد فقراً في التثقيف...

ولئن برز قلم دعاوي في البدايات فقد تبلورت اقلام أخرى في النهايات في السجون وخارجها. وعادة الذين يبرزون في حقل الإبداع هم أفراد، ولكن الفكر السياسي للجبهة تغلغل في عقول وأفئدة الآلاف، وتجذر في عقول وأفئدة مئات الكادرات، الأمر الذي يفسر عدم انجرار هؤلاء أوتوماتيكيا وراء اجتهادات الجبهة في مرحلة أزمتها بعد أوسلو، سواء بابداء الممانعة او الاعتكاف في البيت.

ناهيكم عن التقارير لأعلى، والتي باتت معياراً في تقييم أية منظمة أو لجنة حزبية، دون أي تسامح مع تأخير تقديمها أو ظهور أي التباس أو تعويم في معطياتها، والرد على هذه التقارير من أعلى وأحيانا تعميم بعض المؤشرات والنجاحات والانتقادات، مع إعطاء حيز خاص للوقفات نصف السنوية والسنوية. والأمر نفسه ينطبق على العلاقة المنتظمة بين الداخل بالخارج...

أما الإعلام الخارجي، فهو مسيرة متشعبة أيضا، أبسط تعبيراتها البيانات السياسية التي لم تخلُ مناسبة منها سواء كانت من إصدار المركز او اصدار الداخل، كما العمل والنشر في الصحافة العلنية وإصدار سلسلة مؤلفات ودراسات وكراسات.

وفي الملموس لم ينقطع سيل النشرات والبيانات منذ العام الأول بعد هزيمة حزيران عام ٦٧ سواء في الضفة أو غزة، واستمر حتى أوسلو. ولكنها انتظمت وباتت تقليداً راسخاً بين أواخر السبعينات وانتقلت من النشرة الداخلية إلى الصحيفة العلنية وما بينهما كما إصدار دراسات بحثية. وفي السجون صدرت عشرات النشرات بأسماء الشهداء وسواهم، فأحد تقاليد العمل اصدار نشرة في كل معتقل.

ويمكن القول إنه أمر بدهي أن يصدر التنظيم السياسي بيانات ونشريات، ولكن الحركات اليسارية في فلسطين أولت هذا الموضوع أهمية أكبر، تبعاً للتقليد اللينيني (الجريدة محرض وداعية ومنظم جماعي) والكثير من الأحزاب والمجموعات الماركسية في العالم كانت بدايتها التحلق حول جريدة.

وانحصرت تجربة الجبهة في الإعلام المقروء، دون الانتقال للإعلام المسموع والمرئي، وكل تمنياتها وتحضيراتها الأولية لبث إذاعة متنقلة في سنوات الانتفاضة الكانونية لم ترَ النور.

لكيما تصدر الجبهة نشرة أو جريدة أو أن تقوم بالترجمة كان عليها تكوين الكادرات الملائمة أولاً. فماذا يقول أحد أقلامها الذي كانت له باعُ طويلة (في السجن انتقلت من تنظيمي السابق إلى الجبهة، وفي سنوات الاعتقال تكونت لدي رؤية فكرية وسياسية، وكلما اعتقلت من جديد تعمقت رؤيتي أكثر.

وقد عملت في الورش قبل أن أتحول للصحافة، وانتقلت من مستمع إلى الراديو إلى كاتب عمود ومنه إلى محرر... ونتيجة الفئوية السياسية جرى فصلي من وظيفتي الأولى، كما رفضت إغراءات الحصول على دورات في الغرب ارتبطت بشكل أو بآخر بمحاولة استقطابي لتنظيم آخر.

عملت في مجلة علنية مقربة من الجبهة بتفرغ يصل نصف راتبي السابق. وكنت مؤتمناً على الخط السياسي للمجلة التي أغلقها الاحتلال بعد أن توسع توزيعها وتناولت بجرأة عدة موضوعات منها الاستيطان في القدس القديمة...) [٤٩٤]

٤٩٤) مخضرم

وصحافي آخر قال (لقد انتقلت لجريدة «الميثاق» الصديقة، وعملت بجهود أكبر، وتم تحويل الجريدة من أسبوعية إلى يومية، وأصبحت منافسة لأكبر الصحف، إلى أن أغلقها الاحتلال بدعوى «ارتباطها بتنظيم إرهابي». حيث لم يكن للجبهة في الوطن المحتل صحيفة أو مجلة حزبية رسمية، ولكن كان لها تأثير ونفوذ من خلال الصحافيين والمراسلين والمقالات، ولأن سلطات الاحتلال تعادي الكلمة الحرة، فهي تتطير بسرعة، فما أن تخطو الصحيفة أو المجلة ويصبح لها حضورها وقرّاؤها، تقوم بإغلاقها... فكل وسائل الإعلام الصديقة تعرضت للقطع والإغلاق.

لم نتصرف بتثاؤب، ففي الوقت الذي ننشط في صحيفة نكون قد أعددنا الترتيبات للنشاط في صحيفة أخرى، ما أن تغلق الأولى.)[٤٩٥]

وفي غضون سبعة أو ثمانية أعوام أغلق الاحتلال مجلات وصحف (الشراع، الميثاق، العهد، الجماهير، الراصد) كما توقفت «السياسة» و«قضايا الساعة» و«التصدي».

لم يميّز الاحتلال بين نفوذ وتقاطع سياسي وبين ارتباط وامتلاك، حتى أن المخابرات حاولت مساومة أحد المفاصل (ابتعدوا عن الكفاح المسلح ونعيد فتح صحفكم ونطلق سراح رفاقكم في السجن... ولكننا لم نساوم ولم نلطم على خدودنا، إذ حضرنا ثانية من خلال مركز الزهراء البحثي الذي أصدر سلسلة أبحاث ودراسات هامة منها «الرأسمالية الفلسطينية»، «الطبقة العاملة في مواجهة الكولونيالية»، «الفلاحون الفلسطينيون»، «الإسلام السياسي»، «فلسطين من الماركسية إلى البيروسترويكا»، «قضايا المرأة العاملة». وهذا الأخير لم يغلقه الاحتلال بل ضيق أفق البعض، وكذا إصدار مؤلفات «العصيان المدني»، «الحركة الطلابية»، «فلسفة المواجهة»، «بطولات في أقبية التحقيق»، «ضد كامب ديفيد»، «مداخل لصياغة البديل»، «لن ألبس طربوشكم»، «التسوية الجارية إدارة أزمة»... وروايات. وأنشأت الجبهة سلسلة مكاتب صحفية في عموم الوطن.

وهذه المكاتب كانت على درجة جيدة من الحيوية، تتابع شؤون الانتفاضة وتعد التقارير اليومية وتوزع في الداخل وتصل الخارج...

وأصدرت نشرتين رسميتين توزعان جماهيرياً، هما «الثورة مستمرة» و«ضمير الانتفاضة» (إلى درجة أن ينتظر الناس الثانية ويتجاوبون مع توجهاتها، وقد اعتقل المحرران الأساسيان، على

---

٤٩٥) إعلامي بارز

التوالي أثناء تحضير عددين من الأولى، والفارق بينهما مجرد شهرين.)[٤٩٦]

وبعد مدريد صدرت مطبوعة «التصدي» واسعة التوزيع دون الإعلان رسمياً عن ارتباطها بالجبهة.

وبالتالي فالجبهة رغم الملاحقة الأمنية، وصعوبة الحصول على تراخيص وتهيب البعض من أية علاقة معها أو فتح المجال لتوظيف عناصرها أو نشر رؤيتها، أثبتت قدرة على التواجد والاستمرار، بل «الشراع» كانت الأكثر توزيعاً، و«الميثاق» منافساً قوياً لأكبر الصحف المدعومة مالياً... وعدد موظفيها من صحافيين وإداريين وموزعين بلغ الأربعين. أما مركز الزهراء بميزانيته الفقيرة فقد أنتج سلسلة دراسات غنية... ويمكن تصور مدى انتشار «الثورة مستمرة» التي كان يطبع منها مئة ألف نسخة أحياناً و«التصدي» ٤٠ ألفاً فيما يكون شبح الاعتقال جاثماً ينتظر الانقضاض وراء الباب.

ويجدر الذكر أن الاحتلال اعتقل غالبية ناشطي الجبهة في حقل الثقافة والإعلام، حيث أمضوا سنوات في السجون.

(أما النشريات الداخلية، فما أغزرها وأكثرها، بين تعميمات وتحليلات ونشريات، وأهمها فصلية «الرفاق» الفكرية – التنظيمية التي استمر صدورها سنوات. وقد تولاها المستوى الأعلى فكرياً وتنظيمياً، ذلك أنها في النهاية تعكس أسئلة العمل وتجارب المنظمات الحزبية وتعبئ بالقرارات والتوجهات، أي المساحة التي يلم بها، عادة، المستويات القيادية.

لم تنشأ لجنة أيديولوجية متخصصة، ولكن أبرز المفاصل والقيادات تولت هذه المهمة.)[٤٩٧]

وصحافة الجبهة، الداخلية والجماهيرية، حازت على لهفة وتلقف، وكان ينظر لها كمصدر موثوق، والكثير من موضوعاتها نوقشت في الاجتماعات الحزبية، كما جرى توزيعها على نطاق الوطن بأسره بما أسهم ليس في توحيد امتدادات الجبهة فقط بل نشر ثقافة وفكر سياسي في أوساط الشعب عموماً.

(كانت تصل صحافتنا لشعبنا في ٦٧ وبعض الأوساط في ٤٨، وفي سنوات الانتفاضة فتح المكتب

---

٤٩٦) قيادي

٤٩٧) نفس المرجع

السياسي بعض أرشيف الداخل على بعض المستويات الحزبية في الخارج.)[498]

أما عضو قاعدي فقال (كنا نستمتع في الخلية بمناقشة أهم مقالات نشرة «الرفاق» والتعاميم والتحليلات التي تصلنا من أعلى، وأحياناً نحصل على مجلة الهدف ومجلة الحياة الجديدة المركزية... ولكن لنشرة الرفاق نكهة خاصة فهي قريبة من تفكيرنا وأوضاعنا. أما «الثورة مستمرة» فكنا نقرؤها ونوزعها على الأصدقاء والأماكن العامة... ونفس الشيء بالنسبة لـ «ضمير الثورة» ونداءات القيادة الموحدة التي كنا نميّز لغة رفاقنا وأفكارهم فيها، ونتحزر هذه الفقرة أم تلك الفكرة... ولغة نشرياتنا الداخلية مفهومة وصعبة في نفس الوقت، ولكن الشروحات تساعد على فهمها، وكنا نستخلص مواقف تحريضية نعبئ بها الجماهير. فالتحريض مهمة يومية حسب قرارات الحزب.)[499]

ومجرد الوقوف على إصدارات الجبهة ونشرياتها والموضوعات التي عالجتها، يستدعي متابعة مستقلة وأطروحة قائمة بذاتها. فخط الجبهة كان يجمع ما هو وطني وما هو قومي، طبقي وأممي، سياسي وثقافي واجتماعي، نضال جماهيري ونضال انتفاضي ونضال مسلح، نضال نقابي وديموقراطي... وقد ارتبط ذلك بمحطات مسيرتها ومسيرة الوطن عموماً كما بهويتها الوطنية واليسارية في آن، بما أكسبها غنى وتشعباً.

لم تعبئ الجبهة عشرات الآلاف من قاعدتها، وأكثر منهم حولها، فللجبهة بنية وتيار في آن، بل تربى بين ظهرانيها عشرات الأسماء اللامعة في عالم الفكر والإعلام والأدب والترجمة والشعر والرسم والفن...

لنأخذ بعض الأمثلة: سعيد عياش وعطا القيمري وغازي أبو جياب كمترجمين محترفين، محمد أبو لبدة وحلمي غبن ويعقوب ديواني وحسن جبر وفتحي صباح وغازي بني عودة وحسن فرارجة وحسن عبد الله كصحافيين أكفاء، والأخير أكاديمي أيضاً، والثنائي قطامش أحمد وربحي وغازي الصوراني كرجال فكر وبحث، والثنائي علي ومحمود جدة كلغات ودليل سياحي، والكتّاب عبد العليم دعنا ووسام الرفيدي وحبيب هنا ووليد سالم. ومحمد النوباني وناصر اللحام وحمدي فراج وحسن فرارجة وسهى البرغوثي كإعلاميين، والشاعر محمود الغرباوي والأديب منصور ثابت، والرسامين كامل المغني، عدنان الزبيدي والركوعي وسمير صبح، وفنانون بارزون لدرجة قيادة فرق فنية كخالد قطامش ومحمد عطا، وموسيقي كسهيل خوري. وقانونيون وحقوق إنسان كراجي

---

٤٩٨) نفس المرجع

٤٩٩) عضو قاعدي

الصوراني، ربحي قطامش، عمر ياسين، جبر وشاح، شعوان جبارين وعبد الناصر فروانة، وقبضة من الأكاديميين الميزين ومن يتولون مهامَّ عامة متقدمة.

وهناك سواهم ممن لا يحبذون ذكر أسمائهم.

وصرّح دعاوي (كان غرضنا من مركز الابحاث خاصتنا تنوير جمهور القراء، اما الاكثر اهمية فهو تقديم دراسات للقيادة الحزبية في الوطن لكيما تستند اليها في قراراتها وخططها، وبالفعل انتجنا عدة دراسات اجتماعية/اقتصادية/طبقية. ولم نتقيد بالمفهوم المغلوط، حزبي يقود البحثي، بل بحثي وكفاءة بحثية تقود مثل هذا النشاط، ولم نتدخل في ضمائر الباحثين اذ تركنا لهم ان يسكبوا مدادهم على ورق ابحاثهم، وبطبيعة الحال كان بعضنا أقلاماً بحثية وحزبية في آن...)[٥٠٠]

وفي الجانب الآخر كان للأطر الصديقة نشرياتها التي تحمل موقفا سياسيا وقضايا نقابية ومهنية وثقافية... وهي على قدر من التعدد املته تشعبات العمل الجماهيري الى درجة لا تخلو من بعض الشحوم الزائدة.

لكن في المقابل ثمة نقد بارز (لم يكن لدينا شهادات أكاديمية تخصصية في العمل الإعلامي، فهي أقلام نشأت وتطورت في بحر الممارسة مثلما جرى توظيف أناس لا يصلحون في الصحافة العلنية أحياناً، وكان هناك عدم تفهم للانضباط الوظيفي، كما أن التفرغات لا تصل نصف أجور الإعلاميين العاديين في المؤسسات الأخرى، ولم يتوافر دورات أو جولات خارجية لتطوير رفاقنا بعكس الآخرين، وأغلقت المكاتب الصحفية بعد أوسلو بصورة تعسفية ودون تعويض علماً بأن عدد العاملين فيها بلغ العشرات، كما أن المرجعية الحزبية المباشرة لم تكن إعلامية.)[٥٠١]

وآخر يضيف (كان ثمة ثغرة كبيرة في إعلامنا الجماهيري إذ كنا نكتب برؤية واحدة، دون حوار مع الرأي الوطني الآخر، ودون بعد نقدي لأنفسنا.

... ومقياس التقييم لم يكن صائباً دائماً، إذ في السجون تم اكتشاف مزايا القوة لدى البعض من الجنود المجهولين.)[٥٠٢]

---

٥٠٠) إعلامي وسجين سابق

٥٠١) نفس المرجع

٥٠٢) نفس المرجع

المبحث الرابع

١ - سنوات الجدب الست ومراحل العمل الثلاث

بيعض **التجاوز** يمكن الزعم أن الجبهة في الوطن المحتل مرت بثلاث مراحل: ١- مرحلة العمل الفدائي بين ٦٧ - ٧٣. ٢- مرحلة التجربة المركزية بين ٧٤ - ٧٦. ٣- مرحلة العمل الحزبي بين ٨٠ - ٩٣.

معروف أن مراحل التاريخ متداخلة، والأمر نفسه ينطبق على مسيرة الجبهة الشعبية، ولكن هناك علامات فارقة جوهرية طبعت كل مرحلة وميّزتها. إذ (غلب العمل الفدائي على الأولى وكانت الخاتمة استشهاد جيفارا غزة ورفيقيه في آذار/٧٣، أما في الضفة فهذه المرحلة انتهت تقريبا في شباط/٦٩. والمرحلة الثانية استمرت اقل من ثلاث سنوات حينما تمركزت التجربة، وان كان حضورها في الضفة أوسع من غزة، إلى أن هدمت في الزنازين. والثالثة شهدت بدايات عمل حزبي في أواخر السبعينات إلى أن توطدت بتواتر بعدئذ)[٥٠٢].

وقد نعثر في المسيرة على نشطاء مخضرمين خاضوا التجارب الثلاث، كما استفادت كل تجربة من التجربة التي سبقتها بهذا القدر أو ذاك.

أما الشيء الذي يتعين الإشارة إليه فهو، إضافة للمظهر الرئيس، المراحل الثلاث، كان ثمة محاولات كادرية محلية، عشرات وعشرات المحاولات، التي اندفعت لتأسيس مجموعات فدائية أو تنظيمية ولكنها لم تترك بصمات، وان تفاوت تأثيرها، فهي محاولات نضالية تبعثرت تحت ضغط الاعتقال وقلة الخبرة أو تحللت نتيجة الحملات الاعتقالية.

قامت في الضفة مبادرات محلية كثيرة نظمت صلاتها بالقيادة في الأردن، وقف على رأسها في الغالب، كادرات شبابية في بداية العشرينات من العمر أو دون ذلك... وفي غزة شيء مشابه مع محاولات فدائية عديدة. ولكن كمحصلة عاشت الجبهة سنوات جدب ممض لم تنجح في تأكيد وجودها ودورها إلا كهوامش، بما أفضى إلى تبدل الخارطة السياسية في الداخل. ففيما كانت الجبهة القوة الأولى في سنوات الاحتلال الأولى غدت فتح القوة الأولى الفوارة في السنوات اللاحقة، دون نسيان الفصائل والحركات السياسية الأخرى.

والأمر نفسه ينطبق تقريبا على سنوات ٧٦ - ٨٠.

٥٠٢) مخضرم

(معلوماتي انه لم يتبق بعد ضربة ٧٦ سوى كادر عمالي وطالب جامعي في الضفة، وصلات متقطعة لم تتهيكل في غزة، وان وجدت علاقات أخرى غير مرئية فهي لم تثبت حضورها)[٥٠٤]

من هنا جاءت مبادرة «محلية» لتأسيس تيار لا إطار، كفترة انتقالية، ومنها إلى انطلاقة جديدة. وتشقق أديم الأرض بين عامي ٧٨ – ٨٠ ونهضت شتلات هنا وهناك، راحت تتواصل فيما بينها.

(كان العمل حلقيا... وهذا يقضي أن تتصل كل مبادرة محلية بالخارج. غير أن «المحليات» أحجمت وراحت تتواصل فيما بينها يحفزها علاقات الثقة التي نشأت في السجون والامكانات المتواضعة لإحدى «المحليات»: نشرة، مبلغ زهيد، تبادل آراء ولاحقا مرجعية)[٥٠٥]

وسنوات الجدب التي شهدت فقراً تنظيميا مدقعا وفقراً نضاليا حاداً، لم تخل من أجواء صديقة للجبهة من عوائل الأسرى وتراث القوميين العرب ومريدي الحكيم كقائد معروف بثوريته ونزاهته يصغي الناس لخطاباته. وقامت «المحلية» أعلاه، بطباعة سلسلة من خطاباته في كتاب لم ينفك متوافراً لهذا اليوم، كما تصوير الكثير من بيانات ووثائق الجبهة التي حصلت عليها من الجامعة العبرية... إذ لم يكن في الوطن جامعة أو أرشيفٌ من هذا القبيل.

كما لم تخل من بواسل تقدموا الصفوف في رحلة زادها لا يقي جوع أو عطش. ولم تخل من مبادرات طموحة، جسورة، تجذر بعضها وتغلظ وأسس المرحلة الثالثة.

٢- أجواء سبقت ٧٤

"كنت قد التقيت بقياديين أكثر خبرة ووعي مني، وكان في السجون حينذاك عطا الله أبو غطاس، تيسير قبعة، عمر خليل، علي ناصر، عبد الرحمن النتشة الذي تحول إلينا من جبهة تحرير فلسطين، بشير الخيري، ربحي حداد، عبد اللطيف غيث، يعقوب عودة، مصطفى الصافي...»

(في عام ٧٢ دار نقاش. مزاج يرى في النشاط الفردي مخرجاً خشية الاعتقال. ومزاج يرى في العمل المنظم الحل، وكان لدي رؤية تنظيمية... فالنضال الفردي التضحوي أو نضال الشبكات فاشلان. تدارسنا كتابات ماركسية – لينينية والتجربة الكوبية وكتابات للينين منها خطوة للأمام وخطوتان للوراء، وكتاب ستالين «أسس اللينينية».)[٥٠٦]

---

٥٠٤) مرجعية

٥٠٥) مخضرم. المرجع السابق

٥٠٦) قيادي مركز

ويلخص أهم الدروس:

١. لا يمكن حماية العمل العسكري دون عمل سياسي وبالتالي فصلهما وتأمين سلاح ناجح.

٢. أهمية العمل السري وإن لم تتوافر رؤية عميقة.

٣. الضربات الاعتقالية سببها الخارج.

٤. إدانة الاعترافات، أما سببها فهو عدم توافر تربية أمنية.

٥. أهمية التثقيف والأدلجة.

" خرجت من السجن واستقبلت مئات المهنئين... كنت مغتاظاً لأنني لم أقم بنشاط جدي ضد الاحتلال، وتموج في كياني رغبة بالنضال... ورحت أفكر بسؤال ما العمل؟ والإجابة كانت بناء تنظيم ثوري... وضرورة معرفة العدو (إعرف عدوك) فهو بعد دقائق من إطلاق النار يكون جيشه قد حاصر المكان... ونجح بالوصول لغسان كنفاني... فرّغت غضبي بالتجوال بين الجبال والوديان...

اتصل بي الرفاق واجتمعنا في مقهى كان في الجهة الأخرى خطيباتهم - والحديث دار عن توزيع بيان. أجواء لم تشدني... " التقيت بقيادي وكان حصيلة اللقاء إرساء أسس التجربة الجديدة... وتكليفي بالاتصال بعدد من الكوادر.

توجب اللقاء بالقيادة في الخارج والاتفاق على رؤية تقوم على أساس مركزي يمتد في الضفة وغزة و٤٨، أما في عمان فيجب إعادة النظر بالهيكل الموزع على لجان كل منها يقود منطقة في الداخل، وتحويلها لمحطة فنية إسنادية تابعة للداخل ...حضر أحدهم من الخارج وسبب ضرب نواتنا في جنين...

أثمر اللقاء بالحكيم عن تأييده لتصورنا وحضر أبو علي بما يؤشر على توقعات إيجابية.

لولا المفصل الأول في الداخل لما ولدت التجربة المركزية. وكنت كما الزنبرك أتحرك في كل اتجاه لتهيئة الأجواء... واتصلت برام الله من خلال الشهيد محمد الخواجا وكان رجل دين تحول للماركسية. ولم يكن ثمة ميزانية شهرية، بضع مئات من الدنانير، أما المواصلات فنسددها من

جيوبنا... أخلاق طهرانية وخشية من مفاسد المال.)(٥٠٧)

«اعتقل أحدهم في عمان... وعلى الأغلب انعكس ذلك علينا فاعتقلت وصمدت، الذي كان ينهار يقوم بدور تدميري وأخطر أحياناً، لم يكن قد تشكل لدينا بعد فهم للتخفي، واضطرت أمي العجوز الى لعمل للإنفاق على نفسها.»

تراكمت البدايات... نويات، لجان، تعبئة، بحث عن إمكانات للمقاومة، نشرة... هيئة قيادية برز منها الراحل أبو ناصر البوريني القومي العربي سابقاً وو... «كان ثمة تعهد بالصمود وليس تربية على الصمود».

«تم الانتقال من العمل الحلقي للعمل المركزي والهدف مقاومة الاحتلال والتصدي لسماسرة الأرض...» وعن الفكر السياسي في هذه الفترة حصل الانقسام حول مؤتمر جنيف وخطاب عرفات في الأمم المتحدة، وتميزنا بالاستقلالية عن الموقف السوفييتي... لم يكن ثمة توجه لضرب النفوذ الأردني بل الحلول محله... ولاحظنا تنامياً في قاعدة البرجوازية المتوسطة...

(أما تنظيمياً فالبنية من الفقراء والطبقات الشعبية وبعض الموظفين والمدرسين والأغلبية من خريجي السجون... إنها بداية، ولم يتسع لها الوقت للانتشار في قطاع المرأة إلا كحالات محدودة، إذ إنهارت في الزنازين جراء الانكسارات أولاً، دون الاستخفاف بالاسباب الأخرى.)(٥٠٨)

٣- التيار- خطوة انتقالية

«كانت الضربة الاعتقالية عام ١٩٧٦ قاصمة، ولم تترك من عناصر الجبهة في الوطن المحتل إلا آحاداً. وفي وسط الضفة لم يتبقَ سوى عنصرين، أحدهما شملته الاعترافات، وكان عليه أن يتفادى الاعتقال. انه أحمد قطامش الذي كان قد أطلق سراحه منذ وقت وجيز بعد سنوات من الاعتقال.»

فما العمل؟ ينبغي تأسيس تيار عاطف يتعبأ بمواقف فكرية يسارية أولاً وآراء سياسية مستقاة من برنامج الجبهة ثانياً، من خلال تشكيل سلسلة حلقات تنتظم اجتماعاتها على أساس ثقافي. وللوقوف على مزايا وسمات الأشخاص، الأكثر انتظاماً أو الأقل انتظاما، الذي يقبل على الفكر والذي يدبر، الذي لديه قابلية كادرية والذي يفتقر إليها، الذي يعتمد عليه أكثر من سواه...

---

٥٠٧) نفس المرجع

٥٠٨) نفس المرجع

والصفات الذهنية والطباع... إن الأمر يتطلب بين ٨ – ٩ شهور، وفي ضوء النتائج تتحدد الخطوة التالية من قبل الذين يجدون في أنفسهم العزم وتجشم مشاق النضال.

(لم يكن لدى أحد تصور قاطع عن النتائج المحتملة، ولا الذين سيتقدمون الصفوف ولا الذين سينخرطون في «التجربة». فالمسألة مفتوحة، أما اليقين فكان أن هذه العملية التثقيفية مفيدة ولا ضرر أمنياً منها ولا تشكل خطراً على أحد.)[٥٠٩] وحينها لم يكن لدى الجبهة صحيفة أو نشرة أو مرجعية تنظيمية، ولم تصطبغ الحلقات بصبغة حزبية، بل تركت ضبابية وأقرب لحلقات يسارية وحسب.

الذين أقبلوا على الحلقات التثقيفية طلبة الجامعة وعمال المخيمات بشكل خاص، والذين برزوا منهم أيضاً.

كانت تتناثر في تلك الفترة أفكار جيفارية وفيتنامية ولينينية والعفيف الأخضر وسمير أمين وحزب العمال المصري، وكانت هناك أفكار سياسية أقرب إلى التسوية وتبرر مؤتمر جنيف وأفكار تناهض التسوية، وأفكار تعترف بإسرائيل وأفكار تنظر لها كجسم سرطاني عنصري... وهناك من يقول بالكفاح المسلح وحرب الشعب وهناك من يتداول كتاب المفكر إلياس مرقص الذي يرى أن الظروف الموضوعية مجافية، وهناك من ينحازون لمؤلفه الآخر حول حزب بروليتاري عربي، وهناك من ينحصر في القطرية، وهناك من يقول بالنضال السلمي والنقابي، وهناك من يدعو للكفاح المسلح... كما تناثرت أفكار أمنية وتجارب اعتقالية.

كانت المقولة جديدة: تيار عاطف، أي ليس تنظيماً ولا خلايا كما هو مألوف، والتعبئة الفكرية – السياسية دائبة دون مهمات عملية محددة، (وبعد نحو ستة أشهر تبينت الملامح والقسمات، واحتجبت الحلقات ولم يعد يعرف احد من الذي انتظم ام لم ينتظم. والدرسان الأهم هنا ١) اعتماد التفكير غير المألوف، أي حلقات بدل خلايا ومهمات، ٢) تأسيس فكري وأمني... وليس مجرد خطاب سياسي.)[٥١٠]

أما النقطة الجوهرية، فهي توفير إطار زمني اتاح مراكمة صفات وخبرات تمهيدية للانتقال لخطوة تالية، دون ضربات أمنية، وبذلك تمت الإفادة من التجربة القبرصية التي حجبت نشاطها

---

٥٠٩) كادر تنظيمي

٥١٠) المرجع السابق

التمهيدي ثلاثة أعوام ما قبل انطلاق شرارة الكفاح المسلح الذي طرد المستعمر البريطاني في نهاية الأمر، ومثل هذه النقطة تم التفنن في فهمها لاحقاً، بحيث ترتبط المهمات بالجهوزية والتحليل الاستراتيجي للمرحلة وليس بناء على استعدادات فردية فقط، وعلى الدوام، تكوين سجايا كادرية وكادرات، إذ دون بناء كادرات جديدة يفتقر التنظيم لأهم شروط التنظيم، ويتحول لحالة رخوة رجراجة شائخة تتآكل بتدرج إلى أن تصبح عديمة الجدوى السياسية. فالقدرة على تفريخ كادرات جديدة بزخم إنما هو المقياس الأهم على توافر شروط التنظيم السياسي والقيادة الحزبية.

وراحت هذه التجربة البدائية تراكم عناصر استمرارها وتطورها، فالاستمرار يعني تفادي الضربات الأمنية. هذا السيف الذي يحصد امتدادات فصائل المقاومة بدأب، والتطور يعني تبني معايير أرقى ومراكمة إمكانات اكبر. وباتت، مفردة استمرار ومفردة تطور مثابة الروح التي تسري في عروق العمل، سواء كان بسيطاً أولياً أو معقداً متشعباً، بل إنهما أداتا تحليل لا يمكن فهم مسيرة عمل الجبهة دونهما.

(من التيار إلى الانتظام الحلقي والحزبي، ومن الانتظام إلى تأسيس منظمة، ومن تأسيس منظمة رابطية إلى منظمة قطاعية، وقبل أن تمضي للأمام تلقت ضربة اعتقالية، حصدت البعض وتشتت البعض وتحوط البعض وصمد البعض، وتمت اللملمة في الشهور التالية)[٥١١]، وهذا التعبير«لملمة» مستقى من تجربة الجيش المصري بعد هزيمة حزيران حيث أقصي عامر وحل صادق والجنرالات السوفييت... وعلى أعتاب عام ٨٠ بات الحديث يدور عن منظمة مناطقية موزعة على الريف والمدينة والطلبة تشمل فيما تشمل منظمة نسوية ولجاناً كادرية وبدايات لجان وظيفية، تنتظم كلها وفق تقاليد الاجتماع - التقرير - الاشتراك - المهمات - السياج الحلقي - الحزبي والديمقراطي - المبادرة - نشرة وتعاميم داخلية - علاقات وطنية بما فيها المشاركة في الجبهة الوطنية دون السماح لشخصيات تقليدية بالانضمام لها حسب توصيات قيادة منظمة التحرير في بيروت التي أرادت فرض فريج والشّوا وسواهما...

نجم عن هذا الاستمرار وهذا التطور انطباع لدى رفقاء المناطق الأخرى الذين يتحررون من السجون أن ثمة عنواناً يمكن اللجوء إليه وطلب المساعدة منه، مثلما توافرت إمكانات إصدار نشرة يحتاجها الجميع وخبرة بناء يطلبها الجميع وعلاقات وطنية يتعين تعميمها على الجميع، بل استدعى الأمر اصطفاء كادرات صلبة ومتميزة ومحزبة لمهام أوسع. «وصدر قرار ينص على

٥١١) نفس المرجع

المبادرة الكفاحية بما يشمل رفقاء الأسر ورفقاء الميدان وإيجاد الترتيبات الفنية واللوجستية دون رهن ذلك بالمرجعيات التنظيمية المحلية... كان مضمون القرار: ليبادر الجميع.»

بعدها تطورت اللغة الحزبية المرتبطة بالممارسة، وراحت تستخدم تعبير المحترفين الثوريين اللينينيين والمضمون الطبقي للمنظمة الحزبية وترسيخ التقاليد الحزبية وإغنائها، فصل الخطوط التنظيمية، توسيع المبادرة، الأخلاق الثورية، البرنامج التثقيفي، التعلم الذاتي، النفاذ للصحافة العلنية، الحزب أولاً الحزب عاشراً، الصمود وعدم خيانة الشرف الحزبي...

و(بناءً على حوار مع كادرات في السجون تم السماح لها بتأسيس خلايا مقاومة، وإيجاد نافذة في الخارج تؤمن لها الدعم والإسناد في إطار من المبادرة المشروعة، وتوسعت المبادرة لاحقاً لتشمل مختلف الأنشطة، كمبدأ عام، ولكن على قاعدة عدم التداخل...)[٥١٢]

وراحت تتكرر، لفظة مبادرة، في الأدبيات والمراسلات الحزبية، على امتداد السنوات اللاحقة، مبادرة جماهيرية، ميدانية، تنظيمية... كأهم مظهر من مظاهر الديمقراطية الحزبية. وعللت بأن الثورة هي مبادرة تاريخية، وأن وديع حداد بادر إلى أعمال عجزت عنها الجبهة الشعبية، وأن ماو بادر إلى الحرب الشعبية خلافاً لرؤية الحزب الشيوعي الصيني في أواخر العشرينات، وأن رفاقاً من الجيل الأقدم بادروا بعد هزيمة حزيران بدافعية ثورية وحسب، وأن العمل التطوعي الذي انتشر في بداية السبعينات كان مبادرة بنّاءة، وأن بعض الأقلام بادرت إلى الكتابة الصحفية...

لكل مبادرة، كأية ظاهرة أخرى، ايجابيات وسلبيات في وحدة ديالكتيكية، وحصلت أخطاء واعتقالات هنا وهناك، ولكن حجم الفوائد أعظم بما لا يقاس، فالمبادرة تعادل الدم الذي يغذي خلايا الجسم ويدفعها للانشطار والتكاثر، بل إن بعض المبادرات أعلى قدرة وتطلباً من إمكانات القيادات التنظيمية.

٤- «الحلقي والحزبي»

بشرت نشرة «الرفاق» الداخلية، في أوائل الثمانينات، بالدرب الذي ترسمته الجبهة في السنين اللاحقة. ونشرة «الرفاق» هي تنظيمية أولا وفكرية ثانيا، ولم تكن تتطرق للموضوعات السياسية إلا لماما، ذلك أن التحليلات والمواقف السياسية لها تعميمات مستقلة.

---

٥١٢) مخضرم

ونقتبس الآتي من مقالة « بين الحلقي والحرفي والحزبي»:

(بات علينا الانتقال من طور تنظيمي إلى طور آخر أعلى شأنا، فسياق التطور الطبيعي يملي علينا مغادرة الطور الحلقي، حيث العمل المناطقي وما هو أقل من ذلك، والتفكير الحرفي الذي يرى المهمة دون أن يرى اللوحة كلها والمهام كلها، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من ضيق أفق أو انحياز للموقع أو النشاط ووضعهما في تناقض مع الأفق الحزبي الأعم، وما يتصل بذلك، ربما، من فقر في التجربة وفقر في الإمكانية...

لقد استوفت المرحلة السابقة واستنفدت نفسها، والمؤشرات تؤكد على إمكانية تجاوز هذا السقف بعد أن أثبتت مسيرة العمل قدرتها على الصمود والمضي للأمام، بما يعنيه ذلك من ضرورة بلورة كادرات جديرة بالاضطلاع بمسؤوليات وأعباء أوسع والانتقال للطور الحزبي الذي يعني فيما يعني وحدة القيادة ووحدة القرار ووحدة النشريات ووحدة الميزانية ووحدة البرنامج ووحدة المتابعة... أما أية مسؤوليات جزئية أو مناطقية فإنما تأتي منسجمة مع التفكير العام والقرار العام، كما أن أية آراء وأية اجتهادات تنضبط لذلك أيضا دون المساس قيد شعرة بالمبادرة وصلاحية معالجة المحلي.

ودون إبطاء يتعين توفير استحقاقات مغادرة التفكير الحلقي والحسابات الحرفية وإحلال التفكير الحزبي والحسابات الحزبية وتوفير اشتراطاتهما ولو ضمن الحد الأدنى المؤهل للتراكم والارتقاء في إطار من العمل الحزبي ونظام الكلية. وأية خصوصيات وأية جزئيات وأية مبادرات إنما تحتكم للطور الحزبي وإرساء تقاليده وتعميمها على الجميع.

وفلسفيا وواقعيا، يمكن أن يثبت الجزء تمايزا على الكل كما جاء في (أساسيات المادية الديالكتيكية) وأن يثبت نظامه تفوقا أو تقدما على نظام الكل، وحينها يعمم على الكل ويحل محل نظامه، بما يصاحب ذلك من مصاعب عادة تتصل بالانشداء لتفكير الأمس وضيق إمكانات الأمس بينما المطلوب تفكير أرحب وإمكانات أكبر. وهذا نلحظه حينما تمايزت أجزاء وبرهنت على تقدمها على أجزاء أخرى إلى الدرجة التي تحولت فيها لمخزن توجهات وتقاليد ورفد كادري، أي نموذج طليعي بهذا القدر أو ذاك. على أن الطليعة مفردة ديناميكية ولا تتوقف في مكان، بل أن توقفها يعني تأخرها أو موتها... فالحياة في حركة ومتطلبات الطليعة في حركة. وشيء من هذا القبيل كتب عنه كالينين في إطار مخاطبته ملاكات الحزب...

وهذا مرت فيه مسيرتنا في سنوات سابقة، عندما اجترحت أهدافها، ففي كل عام كانت تنتقل بأهدافها من مرحلة إلى أخرى ومن هدف إلى آخر.... كيف تفهم منظمة حزبية، أو كادر أو وعي أو فاعلية سياسية أو أو ... فكانت توسع فهمها للمنظمة وتغني فهمها للكادر وتعمق معايير الوعي والممارسة السياسية... ورحنا بعد السير خطوات نتحدث عن النواقص وعن العيوب وعن المتطلبات الجديدة وعن توجهات جديدة.

وحاليا، إنما نقف، على عتبات طور جديد بما يقتضيه من آفاق وكادرات وما يتجشمه من أعباء وتضحيات. إننا أمام امتحان حقيقي، في الفترة المقبلة...

وبكل تأكيد ستنبثق تعارضات بين الأفكار والعادات والكادرات وو... ولكن كل ذلك مؤقت ومن شأن التدفق الجديد جرفه وإزاحته بما يذكرنا بالدولة القومية التي جاءت على أنقاض الإقطاعيات والإمارات... وبين الرفاق تكون الأمور أيسر ولا حاجة للثورات والعنف، إذ أن الجميع ينطلق من نفس المنطلقات ومن نفس الأهداف، والمسألة تنحصر في كيفية الانتقال من الحلقية والحرفية إلى الحزبية..)[٥١٣]

ولمزيد من التوضيح «كانت نشرة الرفاق تصدر في منطقة رام الله، منذ عام ١٩٨٠، وكانت منظمتها الحزبية قد راكمت بعض اللجان والتقاليد، وكان العديد من كادرات المناطق الأخرى يلجؤون إليها ارتباطا بما ينشأ من صداقات وعلاقات ثقة في السجون، لم يكن قرارا قد صدر عن المركز (بيروت) بمركزة العمل، بل كان القرار يؤكد على العمل المناطقي والصلة المباشرة به.

حري الإشارة إلى أ: كانت المناطق الحزبية الأخرى في غاية الفقر، هي مجرد كادر نشط أو حفنة رفاق أو نواة محدودة لا تملك من إمكانات العمل سوى إرادتها وتصميمها، بل والكثير من هؤلاء تحرروا من جدران السجن للتو. ب: لقد أوجب ضغط العمل أو متطلبات العمل السريعة اللجوء لرفاق يحظون بثقة ولديهم بعض الإمكانية، تعميم أو نشرة أو مبلغ مالي أو صلة فنية... كما الحاجة للنقاش الحي للإجابة عن سؤال: ما العمل؟ كيف العمل؟ بالملموس والمفردات التمهيدية، وهذا لا يتحقق إلا بعلاقات حية وليس من خلال مراسلات حزبية متباعدة...»

وعليه، نشأت علاقات رفاقية ومساعدات، بصرف النظر عن ترسيمها، بل هناك من آثر هذه العلاقة وأمتنع عن الاتصال بالمركز، وحفزه للاتصال بالمركز أو رفع تقرير له لم يثمر...

---

٥١٣) نشرة الرفاق، صدرت عن الجبهة الشعبية في الداخل. ١٩٨٠

«كانت الروح ثورية، وتعمد لحلول عملية ومنتجة، وبطبيعة الحال تم وضع المركز في صورة ما يجري بإيجاز. ولكن كان قد سبق ذلك التباين حول اتساع الهيكل التنظيمي في الخارج المكلف بمتابعة الداخل وتعدد لجانه وصلاحياتها كما التحفظ على بعض الأسماء. وجوهر المسألة «نريد مركزاً فعالاً ضيقاً ومؤتمناً على أسرارنا، سيما أن إخلالات عديدة صاحبت تجربة الخارج مع الداخل منذ عام ٦٧ بل إن الكثير من الأخطاء والضربات علقت على مشجب الخارج دون أن يقوم أحد بفحصها.» وبالتالي كان المناخ العام الذي يسيطر على من يتحرر من كادرات السجون هو عدم تحبيذ العلاقة مع «المركز» بقطع النظر عن شخوصه، بل كان العديد من شخوصه كأفراد يحظون باحترام وسمعة طيبة. وعليه فالمقتضيات العملية وسهولة الاتصال وتوافر الثقة رجحت كفة الميزان... بما سهل السير في طريق خلق مشتركات في التفكير الحي، وتضييق سلبيات العمل الحلقي والتمهيد للعمل الحزبي...

عادة يرتبط بكل توجه جديد أو مبادرة اسم فرد أو أفراد قلائل، يشكلون منصة الانطلاق. ومن الطبيعي أن يشاطرهم الأعباء والتضحيات فريق يضيق أو يتسع حسب درجة التركيم، وهكذا كان.

وتلك اللحظات (كانت منعطفاً نوعيا في مسيرة الجبهة، وقد شهدت جيشاناً وتصميماً ودافعية لم يسبق لها مثيل، انتقلت إلى فضاءات جديدة هنا وهناك في «عمل متكلم» لا يقبل ترف الكلام أو التثاقل أو التماهل.

لقد كان التجاذب صافيا وضفر الجهود تلاحمياً والروح الجماعية وثابه يحركها قبضة المبادرين والذين على تماس بهم، بل غدت هذه المناخات معياراً ومهمازاً للجميع.)[٥١٤]

٥- عام ٨٥ عام حرج اخترق بيروقراطية التراتب

ولعل مقتطفات من تقرير عام ١٩٨٥ تعكس الحالة التي مرت بها الجبهة:

نشاط جماهيري واسع، تجلى في مسيرات وتحركات في مختلف المناطق الفلسطينية المحتلة عام ٦٧، احتجاجاً على اتفاق عمان بين الملك وعرفات، فقد انقسم الموقف الفلسطيني على نحو عمودي مع وضد، ولكل منهما جماهيره وصحافته، بما يتصل بالمسيرات والتحشدات من صدام مع قوات الاحتلال التي كثّفت من تواجدها.

---

٥١٤) قيادي تنظيمي

وقد أثبتت الجبهة قوتها الجماهيرية بشكل ملحوظ وأصبح موقفها يحظى بتأييد شعبي في مواجهة موقف فتح ورئيس منظمة التحرير.

١. أعلنت الجبهة في الخارج عن سلسلة عمليات فدائية، أما الداخل فقد تظاهر وألقى الحجارة والزجاجات الحارقة...

٢. إطلاق سراح أكثر من ١٥٠ ناشطاً من الجبهة الشعبية في إطار صفقة تبادل الأسرى بين الجبهة الشعبية- القيادة العامة وحكومة العدو، حيث أطلق أكثر من ١١٠٠ أسير فلسطيني.

٣. حملة اعتقالات مسعورة لنشطاء الجبهة الشعبية في مختلف المناطق، شملت المئات، بما في ذلك أربعة رفاق من الهيئات المركزية (محمود فنون وعدنان منصور، محمود الغرباوي وجبر وشاح) حيث تم إبعاد الاثنين الأولين.

وكان للضربة آثار جدية على القرار القيادي وعلى معظم القيادات المحلية.

٤. أصبحت المهمة الملحة للجبهة في الوطن مزدوجة أ- الصمود وتقليص الخسائر ما أمكن ب- إعادة البناء وفي المقدمة تأمين الشرط القيادي.

معركة التحقيق معركة بحق، فجراء التعذيب تغيرت ملامح رفيقين مركزيين ولم يعرفهما المحامون، سيما عدنان منصور الذي صمد صموداً أسطورياً رغم اتهامه بأنه المسؤول العسكري للجبهة الشعبية وكذا محمود فنون "جيش في رجل واحد" . وهنا لا مهرب من ذكر اسم المحامية ليئا تسيمل اليسارية اليهودية الأصل بخدماتها القانونية، وأصبحت جلية الآثار على البنية التنظيمية.

كانت الجبهة أمام خيارين أ- الالتزام بالنظام الداخلي ب- تجاوز النظام الداخلي. وجاء الاستنتاج أن اللحظة غير تقليدية واستثنائية وتتطلب تفكيراً غير تقليدي واستثنائياً.

بعد الضربة تبقى نحو ٢٠ عضو مؤتمر ثلثهم أعضاء مكتب سياسي ولجنة مركزية، ولكن أغلبيتهم الساحقة تحررت من قيد السجن للتو بما يعنيه ذلك من انقطاع عن السياق الحي للعمل وأثقال اجتماعية وأمنية وبالتالي تثاقل في الحركة..."

كانت اللحظة تلح أكثر ما تلح على الكادر المنظّم الديناميكي السريع الذي لا يتهيب من سعة

الاتصال، والذي تربى تربية صمودية ويتمتع بحنكة في فهم ومعالجة قضايا العمل الحي... لقد أوجبت اللحظة الرهان على أفضل الحالات من الكادر الشبابي، وبالتالي تجاوز الأغلبية الساحقة من المؤتمرين والمركزيين، وهنا نشب تناقض مع المركز، لم يفتقد الداخل لعناصر المنطق والتصميم للتدليل على رأيه والتشبث به... أما مركزيو الوطن فلم تستمرئهم الألقاب والخانات، فالثقة عالية بالقيادة في الوطن وهم جاهزون لأية مهمة... ولم يكن غريباً أن تقود قيادة منطقة أعضاء لجنة مركزية أو عضو قطاع عضو مؤتمر أو اتصالاً أفرادياً بهذا أو ذاك... فالانسان المناسب في المكان المناسب ويبرهن على مزاياه بالعمل المتكلم ومتطلبات اللحظة، كما كان ينبغي مراعاة الوضع الاجتماعي والعمري والأمني لعدد من المحررين وحمايتهم من الاعتقال السريع ما أمكن.

"في أقل من عام تم ضخ دماء جديدة في مختلف الشرايين، وتهيكلت اللجان وانتظمت المنظمات القاعدية واستقبلت أفواج جديدة، وفي العام التالي تصلبت البنية وصعدت كادرات جديدة."

"كان يخيم على الجميع الشعور بأنه في امتحان مستمر وملاحقة مستمرة، ولا مجال للتهاون أو التباطؤ، وفيما عدا قد ٤ التي راكمت بعض النجاح، بعد تعثر اقتضى رفدها بأكثر من كادر شبابي، فقد نهضت المناطق الحزبية وباتت جاهزة لاستحقاقات عديدة، تجلت في بناء امتدادات جديدة والتخندق مع إضراب الحركة الأسيرة والاستجابة الواسعة لمتطلبات الانتفاض الشعبي."

كان لقرار تجاوز الألقاب التنظيمية والرهان على الكادر الشبابي الذي يستجيب للمهمات أثر إنقاذي أفضى إلى تأمين سرعة في الانجاز واستقطاب طاقات جديدة والتهيؤ العملي للمعارك اللاحقة، ولولا "ذلك لتباطأ القارب وتخثرت الدماء وبقينا قوة هامشية لا حول لها ولا قوة، ولما كنا جاهزين للانتفاض الشعبي... وهذا درس نظري وعملي كبير.)[515]

٦- عناصر من منطقة حزبية

ربما مفيد تتبع وتحليل خط سير منظمة حزبية في مرحلة الثمانينات. أي بعد ضرب التجربة المركزية عام ١٩٧٦ والمرور في التاكتيك الانتقالي (التيار والسياج الحلقي) وتعرض المحاولة لضربة اعتقالية عام ٧٨ والنهوض ثانية، إلى أن أصبحت النويات منتشرة في عدد من المواقع التعليمية والسكنية (قبل أن أخرج من السجن قرأنا تعميماً داخلياً أكثر ما شدد عليه أربع نقاط:

(٥١٥) من تقرير داخلي غير مؤرخ

١. بناء منظمات حزبية بوحي النظام الداخلي على القاعدة الجغرافية والقطاعية، والمهنية ما أمكن.

٢. أدلجة فكرية بالكلاسيكيات الماركسية – اللينينية. وكتابات جيفارا ومهدي عامل وسمير أمين واميل توما.

٣. خط مقاوم يستهدف الجنود أولاً والمستوطنين ثانياً والعملاء ثالثاً مع تفادي النساء والأطفال دائماً والبحث في إمكانية تبادل أسرى.

تأطير الجماهير في صيغ متعددة).[516]

والمنظمة X قطعت شوطاً في النصف الأول من عقد الثمانينات، فمياه كثيرة جرت في نهر العمل، وارتقت بتدرج من البسيط إلى المعقد تبعا لقانون التراكم الكمي والقفزة الكيفية. فمن نويات مبعثرة إلى منظمة موزعة على الريف والمدينة بما في ذلك المخيمات ومؤسسات التعليم، ناهيكم عن منظمة المرأة التي ضمت معظم الرفيقات.

(لم يكن لدينا لجان تخصصية بعد، وانتقلنا من الكتابة اليدوية والسحب على لوح الخشب (جوتنبرج) إلى الطباعة والسحب على الستانسل، صاحب ذلك الانتقال من التعميمات السياسية الخطابية إلى التحليلات المقنعة وإصدار نشرة داخلية (الرفاق) التي اختصت بالجانب الفكري والتنظيمي.)[517]

ومن الجلي فقر المنظمة على كل الصعد، الفقر القيادي والفقر الكادري والفقر المالي والفقر في التقاليد والفقر في المهارات والفقر في كل شيء..... ولكنها تعلمت كل شيء بتدرج .....

(كانت ميزانيتنا الشهرية بضع مئات من الدنانير تضاعفت فيما بعد نوزعها كما ربة البيت الحكيمة.... مبلغ بسيط لاستئجار بيت سري من خلال اسم مستعار وهوية مزيفة يزود بفرش في غاية البساطة مع حرص شديد لمنع صاحب البيت من زيارته خشية لفت الانتباه... ومبلغ بسيط «للحالات الخاصة» والمتفرغة، إذ بتنا بحاجة لاثنين أو ثلاثة، بمفهوم لينين، (للمحترف الثوري الذي يمنح الحزب كل طاقته وكل وقته. ودون هذا النمط لا فرصة «لبناء» منظمة حزبية. فقيادة

---

٥١٦) كادر جماهيري

٥١٧) كادر فني

آمنة ومؤتمنة هي الشرط الأول.)[٥١٨]

في هذه السنوات ارسيت دعائم الأطر الديموقراطية الصديقة العمالية والنسوية والطلابية والمثقفين الذين انبثقت من صفوفهم فيما بعد الخدمات الصحية والزراعية والكتل الإعلامية والأكاديمية والفنية ولجنة السجين...

مثلما بدأ العمل بقاعدة «الكادر يبادر»، وهذا يشمل المبادرات الميدانية، فالأمر نفسه ينطبق على الأطر الديموقراطية الصديقة. والكادر قد يتبلور في التجربة الجديدة أو خاض تجربة سابقة وتبلورت ملامحه في السجن. «فلا شيء تورثناه وكل شيء تعلمناه في غمرة المسيرة.»

وطالما أن هؤلاء المبادرين قد نشأوا في السجن أو تربوا على أيدي من عاشوا تجربة السجن، والسجون حينذاك كانت المدرسة الأولى، فمن الطبيعي أن يكونوا قد تزودوا بمخزون فكري يساري عن الموضوعات الطبقية والاشتراكية والفوارق بين الفلسفات والأديان، وقراءات أدبية وثقافية متنوعة، كما عن حرب العصابات والثورات التحررية، وارتباط الوطني بالقومي وموقف جذري من الحركة الصهيونية وتحالفها مع الإمبريالية، مع ربط المرحلي بالإستراتيجي بإحكام، وتشريب نقدي لمسيرة العمل في الداخل التي ما أن تتأهب للنهوض ألا وتسقط بفعل الأخطاء والانكسارات في الزنازين، رغم الأنشطة الشجاعة وبعض الصمود.

(أكثر الأخطاء شيوعاً الاضطلاع بأعمال سابقة لأوانها دون جهوزية وتوريطات الخارج سواء تسريبات أو عملاء، لهذا اشترطنا عام ٧٤ أن تتبع محطة عمان للداخل كمحطة فنية وحسب.)[٥١٩]

طبعا ثمة تكاملية بين الداخل والخارج وإسناد متعدد الأوجه للداخل، ولكن هناك مرارات لا تحصى، وعديد من الرفاق، اعتقلوا بسبب أخطاء الخارج ... لكن كما يبدو فقد تراجع هذا الموقف ولم يعد ثمة شكوى في فترة الثمانينات على هذا الصعيد، إذ لا يمكن التقدم للأمام إن لم يكن الظهر محمياً. وبالتالي تم التعاطي مع القيادة في الخارج، كما جرت تعديلات هيكلية على «الخارج» و«بعض الرفقاء في الداخل كان مطلبهم واضحا: في رفع التقارير للخارج تحدثوا في العموم واحجبوا الملموس.»

٥١٨) كادر موقعي
٥١٩) المصدر السابق

والعمل السري ليس جهاز دولة له ذاتيات مؤرشفة ومسح للحيثيات والتدليل عليها. والسرية لا تنحصر بين ادنى واعلى بل وبين نفس المستوى (فاليد اليمنى لا تعرف ما في اليد اليسرى) ناهيكم عن أن مساحة المبادرة واسعة وهذه يعلوها الضباب دائما.

(منذ عام ٧٨ اجيزت المبادرة على نطاق واسع لرفقاء العمل في الوطن وفي منظمات الأسر، لتنفيذ عمليات من العنف الثوري، ولا تتعدى ضوابطها الاحتكام للسياسة العامة ومصلحة الوطن وتفادي الاخطاء... انها شيء من اللامركزية تقريبا)[٥٢٠]

ومن دراسة تجارب ثورية، خصوصا بعض الاحزاب الشيوعية العربية، لوحظ قدرتها على بناء كادرات وخوض تجارب سرية، وهذا ترك بصماته، ناهيكم عن دورها في نشر الثقافة الاشتراكية... بصرف النظر عن التفاصيل...

كان على الجبهة أن تنطلق من تلك المستويات لاعلى، اذ اعتبرت نفسها حاملاً لهذا الارث والمكلفة بتجذيره والسير به خطوات نوعية، آخذين بالحسبان ان الجبهة فصيلة فدائية ايضاً.

(لقد اعدنا طباعة عدد من المؤلفات الماركسية كما تولينا توزيع مؤلفات اخرى. كان لدينا مكتبة واصدرنا طائفة من الدراسات والمؤلفات الاجتماعية والاقتصادية والامنية، واتقنا اساليب العمل السري والاستخفاء والصمود في الزنازين اكثر من سوانا الى درجة ان يعترف ابو جهاد اننا الاقوى في رام الله وبيت لحم، وان يعترف وزير الشرطة هليل ان الجبهة هي المسؤولة عن ثلثي اعمال العنف في القدس، وأن تعترف المخابرات الإسرائيلية في السنوات اللاحقة: اننا متماسكون ويصعب اختراقنا وكسرنا)[٥٢١]

واصبحت البنية التنظيمية اصلب واوسع انتشاراً بما لا يقاس،فصلبها نواة المحترفين، «وحالات خاصة» متميزة، وتوزعت على أساس جغرافي ومهني وقطاعي، ولجان تتصدى لمختلف المهمات. ومن الواضح ان الخط التركيمي للمنظمة اعلاه قد استوجب لاحقا استحداث مرتبة جديدة تجمع منطقتين معا، وتحويل الخلية لمؤسسة يحيط بها انشطة متنوعة جماهيرية واعلامية واسناد للمرأة وانشطة ميدانية... ناهيكم عن «لمش» كأشكال تنظيمية جديدة تراعي القفزات التنظيمية التي تحققت ومقتضيات الانتفاضة...

---

٥٢٠) منفصل

٥٢١) المرجع السابق

في أواسط الثمانينات بات ثلث القاعدة الطلابية في المنطقة يصوّت للجبهة إضافة لحضور اداري قوي في عدد من نقابات العمال والمستخدمين والجامعة وكادرات لها وزن اجتماعي ملحوظ، بل قادت رفيقة تظاهرة في وسط رام الله بمشاركة المئات... «وفيما لم يكن لدينا بيت نجتمع فيه بتنا موئلا لمن يلجأ لنا...» هذه مؤشرات ذات دلالة، فمرة سأل الحكيم الأمين العام منظمة حزبية في الأردن عن أوضاعها، فأجاب المسؤول: انها جيدة جداً. أضاف الحكيم: هل تستطيعون الاعتناء برفيق مطارد. كان الجواب. لا.

فعلق الحكيم: أوضاعكم ليست جيدة.

وكانت جريدة «التقدم» الطلابية قد صدرت في رام الله عام ١٩٨٣ بما تميزت به من مستوى اعلامي جيد.»

(خاطبتنا قيادة الداخل غير مرة بأن «الوسط» هو مركز ثقل الوطن المحتل سياسيا وحزبيا، وعلينا الاستجابة للاستحقاقات بما يعنيه ذلك من تفريخ كادرات تتقن تقاليد العمل الحزبي، لمختلف المهمات... ولم نتأخر في تلبية مطالب النمو. ومن صفوفنا صعدت اسماء لاعلى الالقاب المركزية والمهمات العامة... هل تصدق اننا كنا نطبع ١٢٠/ ألف نسخة من «الثورة مستمرة)[٥٢٢]

ومن جانب آخر قام ثان بنقد التجربة من زاوية (انه لم يكن هناك سياسة منهجية لاعداد النائب في حالة غياب المسؤول الاول، فيما عدا الاطلاع على بعض المراسلات القيادية وما يتولاه من مهام مباشرة)[٥٢٣]

ويبدو ان هذا النقد في مكانه الصحيح وقد تأكدت خطورته المدمرة في سنوات لاحقة «مع الاعتراف بالمزايا والقابليات المتفاوتة للقياديين فالمسألة ليست إعداداً فقط».

و(تصاعدت العملية التركيمية وصمدت التجربة امام الضربة الواسعة عام ٨٥، والبعض أدين بأنشطة فدائية وتصفية عملاء وطرّزت نماذج صمودية نتفاخر بها لهذا اليوم، وفي مقدمة هؤلاء المهندس خالد بكير «دلايشة» وقد أعدنا بناء صفوفنا، وبتنا مهيئين للانتفاضة، فأين كنا واين اصبحنا مسافة طويلة... ولولا فريق المحترفين كرأس حربة تبلور في لهيب العمل والمنجزات

٥٢٢) مفصل تنظيمي

٥٢٣) المرجع السابق

والتضحيات لما اصبحنا قوة اولى في دائرتنا)[٥٢٤]

وسياق المنظمة اعلاه ينطبق جزئياً على سياق المنظمات المناطقية الاخرى، (كانت المنظمة اعلاه اكثر نضجا ورسوخاً وباتت الجزء الطليعي الذي تستخلص منه الدروس، ولاحقاً أصبح نظامها هو نظام الكلية في مرحلة العمل المركزي، ارتباطا بمقولة الجزء والكل من ناحية الجوهر)[٥٢٥]

ومفيد تلخيص إحدى المقابلات مع عضو انفصل عن منظمته الحزبية في الجامعة بعد أن قامت سلطات الاحتلال بإغلاقها «بعد اندلاع الانتفاضة قام الاحتلال بإغلاق الجامعات، كنت عضو خلية في الحزب، أسكن في قرية لا يوجد فيها أي عضو حزبي أو جماهيري لنا.

قبيل اندلاع الانتفاضة مارست بعض النشاطات مع أصدقاء لي من المدرسة باسم م.ت.ف وكانوا من المحسوبين على فتح ولم يعرفوا بأنني رفيق، ومع اندلاع الانتفاضة كنت وإياهم من السبّاقين للمشاركة من خلال كتابة الشعارات ورفع الأعلام وتنفيذ قرارات ق.و.م، كنا خمسة أشخاص، علاقتي مميزة جداً بهم، وأنوّه هنا أن العلاقة مع المسؤول الحزبي قد انقطعت بسبب إغلاق الجامعة وهو لم يبادر للاتصال بي إلا بعد أكثر من ثمانية أشهر.

تصاعدت الانتفاضة، وفي الأشهر الأولى استقطبت ثلاثة من الخمسة الذين عملت معهم دون معرفة عناصر فتح، نلتقي نحن الخمسة يومياً مساءً لترتيب النشاطات التي يجب القيام بها، وفي أحد الاجتماعات المسائية أبلغت عناصر فتح أنني أريد أن أعمل باسم الجبهة الشعبية فرفضوا فوراً وطلبت إخضاع طلبي للتصويت، فكان ثلاثة مع اقتراحي ومن هذه اللحظة أصبحنا نعمل بمعزل عن عناصر فتح.

ركزت في هذه الفترة على التعبئة الأمنية من كتاب "فلسفة المواجهة" و"بطولات في أقبية التحقيق" . إضافة إلى التوسع من خلال دائرة الأصدقاء والتوسع كان من أجل المشاركة بالفعل الانتفاضي ومن هؤلاء يتم اختيار الأفضل للعضوية الحزبية. وتوافر العشرات ولكن للأسف لم يتوافر الكادر التنظيمي لاستيعابهم. وللمفارقة فبعض الأشخاص الذين طلبوا الانضمام للحزب رفضناهم فأصبحوا أعضاء في كتائب القسام لاحقاً. كان الرفاق مميزين جداً في نشاطاتهم وفي

---

٥٢٤) المرجع السابق

٥٢٥) قيادي

سلوكهم بحيث يحظون باحترام الجميع، وبعد أشهر أصبح لدينا أكثر من أربعين رفيقاً حزبياً وحولهم أكثر من مئة من الناصرين إضافة للعشرات من الأشبال.

في هذه الفترة راح نشاطنا يمتد إلى القرى المجاورة، ومن خلال بعض الأصدقاء تمكنا من بناء وضع حزبي وجماهيري في أكثر من خمس قرى محيطة.

في النهاية أقول إن بناء الأداة التنظيمية هو أساس بناء الحزب الثوري ودونها لا وجود للحزب وإن وجد فهو هَش ولا أهمية سياسية له.

ولا يفوتني أن أذكر أن أهم نشطائنا قد اعتقلوا بمن فيهم أنا غير أن الجميع صمد في الزنازين وسجل مأثرة».

٧- الخلية منظمة قاعدية ومؤسسة

للحزب تراتب تنظيمي وبناء هرمي، وهذه صفة مشتركة لجميع الأحزاب الثورية اليسارية، والداخل الفلسطيني كان موزع على مناطق حزبية، والمنطقة قطاعان فأكثر والقطاع ثلاث روابط فأكثر والرابطة بين ثلاث إلى سبع خلايا وقوام الخلية بين ثلاثة إلى سبعة أعضاء. والخلية هي قاعدة الحزب.

مرت فترات كانت السمة العامة هي العمل الحلقي، أي كادر نشيط أو أكثر ينجح أو ينجحون في استقطاب العشرات والاتصال بالخارج. وقد يكون في المنطقة الحزبية الواحدة أكثر من شبكة ومجموعة... وكل شبكة ومجموعة لها خبرتها وطريقتها في العمل ودرجة من التعبئة الفكرية والسياسية اتصالا بمستوى وميول المسؤول.

وعرفت المسيرة أيضا العمل الحرفي، أي ما هو أكثر تنظيما بقليل من العمل الحلقي، كأن تنجح شبكة في الامتداد والتوسع ويصبح لها رابطة في الجامعة وأخرى في المدينة وثالثة في المخيم... وبالتالي تتشكل منظمة قطاعية، أو شيء شبيه بذلك وتقوم بأنشطة سياسية وجماهيرية وميدانية، وبعضها فدائي، ولكن تأتي الاعتقالات وتحجز عليها أو على معظمها.

والتجربتان المركزيتان ٦٨ – ٦٩ و٧٤ – ٧٦ هما خليط من العمل الحلقي والحرفي يضاف لهما بعض ملامح العمل الحزبي، أي توافر قيادة مركزية ونشرة مركزية، ولكن الاعتقالات حالت دون استمرارهما والارتقاء بهما، مع غلبة البعد الفدائي على الأولى والبعد السياسي على الثانية.

وهناك مئات التجارب الأخرى الأقل تطوراً حتى أواخر السبعينات.

أما (في عقد الثمانينات وبعدئذ، فقد اختلفت الصورة وباتت أقرب إلى التراتب التنظيمي المنصوص عليه في النظام الداخلي.

وقد زال التناقض تقريبا بين منطقة حزبية ومنظمة حزبية. إذ بات في كل منطقة حزبية منظمة مناطقية مكونة من قطاعين فأكثر... بل بلغ التركيم في بعض المناطق درجة أوجبت تأسيس أكثر من منظمة مناطقية في منطقة حزبية واحدة، كما استحداث مستوى جديد يوحد منطقتين حزبيتين في قيادة واحدة)[٥٢٦].

لقد قفز القوام وبات يستوجب شكلا تنظيميا ملائما له. حينها أصبحت الأرض المحتلة جناحا.

وترسخت هنا معايير العمل الحزبي وغادرت معايير العمل الحلقي والحرفي.

كانت البدايات في أعوام ٨٢ - ٨٤ ولكن الضربة الاعتقالية عام ٨٥ أعادت العربة للوراء، ولكنها لم تقصم ظهرها، وحافظت على وحدة القرار والتوجيه والإعلام الداخلي والأنشطة المتنوعة و...

لكن ماذا حدث بعدئذ وما صلة هذا السياق بتحويل الخلية لمؤسسة؟

(أقلعت قاطرة الحزب وقطعت شوطا جيداً بل أشواطا وباتت الأرض المحتلة ممركزة حزبيا وفكريا وسياسيا وماليا وإعلاميا على جميع المستويات، وتم دحر بقايا الحلقية والحرفية وتعدد الأمزجة. وبتدرج توسعت الهيئات الحزبية والجماهيرية والإعلامية والوظيفية، وبات لدينا جهاز متنوع التخصصات)[٥٢٧]. ومثل هذه القفزة الكيفية لم تكن لتحدث لولا القفزات الكمية، والعلاقة جدلية هنا، بل جدلية في علاقتها مع العملية الانتفاضية أيضا.

ومصدر التوسع الحزبي هو الخلايا التي تضاعفت حيويتها وفاعليتها فصدر قرار الحزب بـ«تحويل الخلية لمؤسسة» أي إحاطتها بسلسلة حلقات من المرشحين وإحاطة هؤلاء بسلسلة حلقات من العاطفين وزج الجميع في العملية الانتفاضية ولجان المقاومة الشعبية والنوادي والإعلام و... وتأمين تعبئة سياسية وفكرية للجميع، أما المرشحون فيعبَّؤون بالنظام الداخلي وبرنامج الحزب ويزودون بالتعاميم والنشريات الداخلية، كما عليهم تسديد اشتراكاتهم والحرص على سريتهم

---

٥٢٦) المرجع السابق

٥٢٧) المرجع السابق

وسرية علاقاتهم... وقدرة لا بأس بها على الاستمرار في حالة انقطاع الاتصال بها.

لقد دفع القرار المنظمات القاعدية للأمام تنظيميا وانتفاضيا وتعبوياً، كما انطلقت المبادرات في كل الاتجاهات.

من الملاحظ أن حالة المد الثوري قد حفزت امتدادات الجبهة مثلما أن امتدادات الجبهة حفزت المد الثوري في علاقة إيجابية متبادلة، ساعد على ذلك التطور الكيفي وتجذير معايير العمل الحزبي.

(لقد أصبحنا قوة منظمة بكل معنى الكلمة وناشطة انتفاضيا على نحو واعد قادر على حماية الانتفاضة وامكانات متنوعة وأنشطة متنوعة، وبات شعار قيادة الداخل (حزب الانتفاضة) مطلبا عمليا، وبتنا نشدد على ضرورة حماية الشرط القيادي والارتقاء به وعدم الامتثال لقرار الاعتقال... كاستحقاقات لازمة لدورنا المستقبلي... ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان) [٥٢٨]

وعضو قاعدي شبابي يرى الأمور من زاويته وهو يضيء الأبعاد التالية:

لقد بدأ انحيازه «إعجاباً بشخصيات بارزة كالحكيم بما يتمتع من هالة وأسماء ليلى خالد وقطامش.

وكحال الكثيرين لم تكن البداية وضوحاً فكرياً أو سياسياً، رغم مسموعات الجبهة وما مثلته من خط وطني.

لقد (أضافت علي الجبهة شعوراً بالفخر بأنني أنتمي لكيان ثوري ومناضل. احترم الناس الجبهة لمزاياها، فهي تتصدى للعملاء، ولها نماذج صمود في الزنازين وقامت بعمليات نوعية. ورغم أنني عضو قاعدي غير أنني شعرت بالاعتزاز وهذا زادني قوة.) [٥٢٩]

كما زوّده الانتماء بقدرة تأثيرية على محيطه الاجتماعي الذي التف حول «الشعبية» وقدّم الخدمات لها، «فاستثمرت تأثيري بما يخدم العمل الوطني».

ويبدو أن المنظمة القاعدية التي ألتحق بها تمتعت بمزايا مستقرة، «كنا على انسجام وحب

---

٥٢٨) مرجع قيادي

٥٢٩) قاعدي

وتضامن، ومتقاربين في الأصل الطبقي ومستوى الوعي كلنا عمّال ويغلب علينا البعد العملي الميداني، نتنافس ايجاباً لتأدية المزيد من المهام ونطالب بالمزيد منها».

التحقت في أواسط الثمانينات حيث بدت التقاليد الحزبية مستقرة من اجتماعات، تثقيف، متابعة للمهام، تحوطات أمنية، «كنا نحترم الاجتماع ونذهب إليه بشغف، بلا مضض أو تذمر، وفيه نراجع المهام وإنجازها، ونمارس النقد والنقد الذاتي...»

و(التوسع الحزبي مهمة دائمة استجابة للبرنامج السنوي، وكل واحد يؤسس حلقات... وبعد شرح النظام الداخلي والتعبئة بكتاب «فلسفة المواجهة» وبعض الموضوعات السياسية وتسديد الاشتراك، يصبح عضو الحلقة جاهزاً للترشيح. لقد استقطبت أعضاء جداً وقمت بتزكيتهم أمام مسؤولي فقام بمراجعة جهات أخرى قبل المصادقة على العضوية.)[٥٣٠]

كان هناك قراءات ذاتية «لكنها محدودة ودون متابعة جدية» أما الوثائق الرسمية فهي تحظى بالمتابعة والشرح... مثلاً لقد ناقشنا كتاب «ما العمل».

ولكن ماذا عن المهمات الانتفاضية؟

«شاركنا في توزيع النداءات والبيانات، والكتابة على الجدران، وتابعنا جماهيرياً تنفيذ البرنامج النضالي من اضرابات ومقاطعة منتوجات إسرائيلية... وشاركنا في التظاهرات وهناك أنشطة لا أريد الحديث عنها.»

وعلى صعيد العلاقة مع القوى الأخرى:

«كانت التعبئة وطنية، والحزب يؤكد على أهمية التلاحم الوطني، وعلاقاتنا الموقعية جيدة وتنسيقنا دائم مع قواعد فتح، أما حماس فكانت العلاقة معها محدودة جداً، وبعض الشيوعيين... وبعض الأصدقاء من القوى الأخرى حصلوا على نسخ من كتاب «فلسفة المواجهة» ونشرة «الثورة مستمرة».

والنشرة كنا نضعها في أكياس نايلون ونتركها على نافذة أو أمام باب البيت المستهدف فلا تتأثر بالأمطار، والبيانات تصل لأهدافها فلا ننثرها في الشوارع على شكل حزم».

---

٥٣٠) نفس المرجع

أما عن الناحية المالية:

(لم يحدث لدينا ولم أسمع عن أي تسيُّب مالي، كنت أجمع الاشتراكات من الخلية ونجمع بعض التبرعات للجنة السجين...

لقد عملنا معاً سنوات، وعندما ترفعنا للجنة الرابطة وتوسعت العضوية لم يكن بيننا أي متفرغ...)[٥٣١]

وأشار إلى الاهتمام الحزبي بأحد الرياضيين وتقديم مساعدة طفيفة له، كما استيعاب الميول الفنية للبعض، إلى أن تشكلت لجنة إبداعية.

وأضاف «كان لنا نفس مهام الرفاق الآخرين، ولكننا لاحظنا أن الحزب يحرص أمنياً علينا، وقد اعتقل بعضنا... وكنا لا نتردد في تنفيذ أية مهمة سواء لقناعتنا أو ثقة واحتراماً للقيادة... وشخصياً كنت أفضل القيادة الجماعية بدل تمجيد الزعيم الفرد، ولم أشارك في رفع صور الزعيم.»

وعن النظر «للقيادة « أكد على ثقة عالية وقد عرف أربعة مسؤولين على مدار تجربته، إثنان متمايزان وثوريان، قاعدتهما اتبعوني وثالث عادي ورابع لم يقنع اللجنة الرابطية، «لقد تذمرنا منه فيما بيننا ولم نرفع شكوى، فهو يكلفنا بمهام ميدانية دون ان يشارك فيها، أي تقدموا، وهذا لم يعجبنا أبداً، ولكننا لم نجاهر باعتراضنا.»

ويستكمل حديثه بأن الخلية توسعت وباتت رابطة، وظهر فيها عناصر متنوعة نقابية وابداعية، وقد شجع الحزب هذه الميول ونظر باكبار للجوانب الإبداعية، وفي إحدى رسائله قال إن «دورها المستقبلي سيكون أكبر».

٨- التركيب الطبقي والاجتماعي ومركز الثقل في العمل السري

لكل بنية مركز ثقل يحافظ على توازنها وهيئتها، سواء كانت إنسانا أو بيتا...، فما هو مركز الثقل في الجبهة الشعبية؟

والبنية التنظيمية مكونة من عناصر لهم أصول طبقية ومكونة من رجال ونساء وفئات عمرية،

٥٣١) نفس المرجع

فما هو حال الجبهة الشعبية حينذاك؟

يمكن القول إن الأغلبية بعد هزيمة حزيران ٦٧ كانت برجوازية صغيرة مثقفة. فالحركة تنظيم كادري أولا وجماهيري ثانيا، وعلى مستوى المبادرين والذين تولوا المهام القيادية كانوا من الأطباء والمحامين والمدرسين، إذ كان للمثقفين دور طليعي في فترة الستينات ومرحلة المد القومي. ولكن الحركة لم تنحصر أيضا في البرجوازية الصغيرة وكان لها امتدادات عمالية وطلابية.

وبعد انطلاق الجبهة أقبلت جماهير عمالية وطالبية وفلاحية بأعداد متزايدة، وهذا لوحظ في السجون بين ٦٨ – ٧٦.

(لا أزعم أن لدي إحصاءات أو نسباً دقيقة، فما لدي هو انطباعات وذاكرة تحفظ الكثير من الأسماء وأماكن سكنهم ومهنهم.

لقد تجولت في معظم السجون، وكانت عضوية الجبهة في السجون آنذاك ولم يتبق خارجها إلا آحاد، وهذا يسمح لي بقول ما يلي:

توزعت البنية التنظيمية طبقيا وعلى نحو تقريبي: ٢٠٪ عمال و٥٠٪ طلبة و٣٠٪ مثقفون ومستخدمون وحرفيون أما العناصر البرجوازية أو البرجوازية التجارية فهي نادرة.

وعن التركيب الجنسوي فهو ٩٥٪ ذكور و٥٪ نساء، والفئات العمرية كان هناك مجرد آحاد٪ فوق الأربعين و١٠٪ فوق الثلاثين و٨٥٪ ما دون. وهناك حوالي ٣٠٪ مدينة و٢٠٪ ريف و٥٠٪ مخيمات)[٥٣٢]

أما في فترة الثمانينات وصولا إلى أوسلو فقد حصل حراك ملحوظ تمظهر في تركيبة منظمات الأسر والمنظمات الحزبية في الوطن المحتل على حدٍ سواء.

لقد تراوحت منظمات الأسر بين ٢٠ – ٢٥٪ من البنية الحزبية في الوطن المحتل، وأحيانا ارتفعت أكثر ارتباطا بضربة ال ٨٥ أو انخفضت ارتباطا بانتشار البنية في مئات المواقع في سنوات الانتفاضة، رغم الاعتقالات الواسعة.

(وفي معتقل النقب، على سبيل المثال، في أواخر الثمانينات كان لنا ألف عضو وأكثر. وفي

٥٣٢) رفيق مخضرم

استبيان عام ٩٣ كانت التركيبة على النحو التالي:

٧٢٪ لاجئون و٢٨٪ مواطنون. وأغلبية اللاجئين يقطنون في المخيمات سيما في قطاع غزة. و٣٠٪ عمال و٤٥٪ طلبة و٢٥٪ شهادات جامعية أو على أبواب تخرج، والعناصر البرجوازية محدودة جداً...

وكان هناك ١٠٪ أعمارهم فوق الأربعين وما دون ذلك، و٩٠٪ ليس اقل من نصفهم حول سن العشرين.

ونسبة الرفيقات في السجون قليلة ولا تزيد عن ٣٪)[٥٣٣].

أما النزر اليسير الذي حصلنا عليه من أرشيف الجبهة في الأرض المحتلة فيتضمن ما يلي، استناداً إلى الوقفة نصف السنوية عام ١٩٩٢.

(٣٠٪ عمال و٣٥٪ مثقفون ومستخدمون و٣٠٪ طلبة. وفي البنية نسبة ضئيلة من العناصر الفلاحية التي يعتمد مصدر رزقها على استثماراتها الفلاحية، وهذه حال العناصر البرجوازية، وهناك نسبة لا تقل عن ٥٪ ربات بيوت دون انتماء طبقي واضح.

والتركيب الجنسوي ٢٧٪ نساء و٧٣٪ رجال. والفئات العمرية ١٢٪ فوق الأربعين ٢٠٪ فوق الثلاثين وحوالي ٦٨٪ دون الثلاثين ليس أقل من ٢٠٪ بين ١٨ – ٢٠ سنة)[٥٣٤].

ولا تتوفر إحصائية دقيقة عن نسبة اللاجئين ولكن يمكن تصور أن غالبية عضوية الجبهة، بل ليس اقل من ٨٠٪ في قطاع غزة لاجئون، ونسبة لا تقل عن ٤٠٪ في الضفة الفلسطينية. فنفوذ الجبهة قوي في المخيمات سيما أنها تتبنى برنامجيا حق العودة وتحرير فلسطين بل إن بعض انتخابات النوادي وانتشار اللجان الشعبية والفعاليات الانتفاضية، توحي بذلك.

وفي إطار التوزعات أعلاه من الصعب وجود مركز ثقل واضح، هل هو المخيمات أم العمال أم المدينة أم الريف... ففي غزة تغلب المخيمات وتغيب الأرياف وفي الضفة تتقدم الجامعات والمدينة، وفي لحظات معينة لم تتحرك المدينة إلا بإسناد من الريف، وليس ثمة نقابات عمالية قوية تطلق شرارات تقطر المجتمع، وليس هناك نقابات مهنية أو اتحاد كتاب يحظيان باعتراف شعبي واسع،

---

٥٣٣) قيادي في السجون

٥٣٤) قيادي

وان تميزت النقابات المهنية في قطاع غزة في بعض المواقف...

لم يتبلور المجتمع الفلسطيني طبقيا، وغالبية العمال غير مؤطرين نقابيا وهم اقرب (لطبقة في ذاتها لا طبقة لذاتها) وهذه حال الفلاحين الذين انحسرت قاعدتهم على نحو جذري ومبعثرون شر تبعثر وأغلبيتهم الساحقة باتت تبيع قوة عملها كأجراء، وتعتمد أولاً على بيع قوة عملها، أي لم تعد فلاحية اولاً وإن كان لها ملكيات فلاحية. أما المثقفون فهم أقوياء داخل الحركات السياسية والمجتمع على حد سواء ولكنهم مشتتون والكثير منهم لا يرتقون بسقف نضالاتهم... ويقصد بذلك حملة الشهادات الجامعية وليس المبدعين كما هو التوصيف الشائع عالمياً.

وعليه (كان مركز ثقلنا، إذا جاز القول، هو القيادة الحزبية فهي قوة الضخ والرأس الذي يحافظ على التوازن ويضبط إيقاع العمود الفقري من خلال الجهاز العصبي الذي يتمركز في الرأس... فكل ما هو هام في العمل السري، مرهون بالقيادة، فهي القرار والمتابعة ومصنع الأفكار،... إنها مركز الثقل للجسم ولكنها دون جسم لا تؤدي دورها، وهذه القيادة كانت تستجيب للمهمات وقادرة على حمل هموم العمل وتطويره وحمايته، وإن لم تفعل حل الدمار وتفككت البنية، كما حصل لاحقاً.)[٥٣٥]

٩- شروط وإشكاليات التحول لقوة أولى في الوطن المحتل

(في صيف عام ١٩٩٠ انتقلت «اللعثمات» الأولية والاستمزاجات لعدد من الهيئات الحزبية والديمقراطية سيما ل.ت + مج + الوظيفي ومفاصل قيادية لها باع في قد ٢، لما لها من خصوصية سيما أنها تحمل على كاهلها المنظمة الحزبية الأقوى، تحولت هذه التداولات لقرار رسمي.)[٥٣٦]

وطالما أصبح بنداً برنامجياً، فقد وضع مسيرة الداخل في امتحان جدي. وعلى امتداد سنة تقريباً لم يخل تعميم داخلي أو رسالة حزبية أو رد على تقرير من التعبئة والشحن بهذا الاتجاه. كما تناولت نشرة «الرفاق» غير مرة هذا العنوان.

والسنيد النظري كان الاستخلاص الذي وصل إليه الحكيم منذ وقت وتمظهر في غير خطاب ومناسبة ووجد تعبيراً حاسماً له بعدئذ في تقرير المؤتمر (إن معركة التحرر الوطني بسبب خصوصيتها وتعقيداتها لا يمكن أن تحقق كامل أهدافها بقيادة البرجوازية الفلسطينية. فقد

٥٣٥) أيديولوجي

٥٣٦) مرجعية تنظيمية

كشفت التجربة عن ترددها وتذبذبها وقصر نفسها وعجزها... البرجوازية معرضة للتراجع والتنازل وتبدي ميولاً للتساوق مع المشاريع الإمبريالية... إن المآل التاريخي للبرجوازية الفلسطينية هو السقوط التاريخي... مع التمييز بين السقوط النظري والسقوط الفعلي.)(٥٢٧)

ولئن كانت الجبهة الشعبية قد استخلصت على أثر هزيمة حزيران عام ٦٧ أن برامج البرجوازية القومية العربية قد سقطت، السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية، الأمر الذي يفقدها القدرة على قيادة المعركة والانتصار على «إسرائيل» وحليفتها الإستراتيجية الولايات المتحدة، فهي قد استخلصت أيضاً أن ثمة فارقاً بين السقوط السياسي والسقوط التاريخي، فهي عاجزة قيادياً ولكنها لم تنفك تحتفظ بدور ما، ومن هنا رفعت شعار (التحالف والصراع) التحالف في المسائل المشتركة بما يعكس «الدور ما» والصراع على القضايا الخلافية سيما في تعاطي الأنظمة مع الجماهير العربية، حيث صادرت حرياتها وحصرت نفسها في الحرب التقليدية بينما يتعين إضافة تسليح الشعب وحرب العصابات، وتأمين سياسة اجتماعية تخدم الطبقات الشعبية بما يقتضيه ذلك من تأميمات وضرب القوى الاجتماعية المرتبطة بالمركز الإمبريالي، وتنمية الريف وتوسيع مشاركة المرأة والمسألة الديمقراطية عموماً... الشيء الذي وجد تجلياً ناضجاً له في رؤية حزب العمل الاشتراكي العربي (المهمات الوطنية الديمقراطية والمهمات الاشتراكية).

وبات للجبهة الشعبية تحليلها للقيادة البرجوازية الفلسطينية منذ الخروج من بيروت ٨٢ «ولعم» لمشروع ريغن، وزيارة القاهرة والكونفدرالية ودورة عمان – الكونفدرالية – ولكنها لم تكف عن اغتنام أية فرصة للتحالف الميداني أو التحالف السياسي. والتحالف الميداني تجسد في الدفاع عن مخيمات لبنان والنضال المشترك ضد الاحتلال، أما التحالف السياسي فقد تحقق في لقاء الحكيم – أبو جهاد وانعقاد دورة المجلس الوطني في نيسان/ ٨٧ التي مهدت للانتفاضة المجيدة.

في الوطن المحتل، كانت تتحد مختلف الألحان في سيمفونية الانتفاضة، وبشكل أخص امتدادات الجبهة وامتدادات فتح، والتلاحم في المواقع كان حقيقياً في القرى والمخيمات والأحياء والمدن والسجون، وفعاليات الانتفاضة تنظّم بصورة مشتركة، ورصاص قوات الاحتلال لا يميّز بين المعتمرين بالكوفية الحمراء أو السوداء، والزنود تحمل الجرحى دون التفات للانتماء الفصائلي، وذات الشيء يقال عن عربات الأطقم الصحية، والمطاردون يقتسمون طعامهم و«فراشهم» ويتناوبون على الحراسة... لقد تحققت الوحدة اللوجستية والمعنوية بأعلى درجاتها... يظلل ذلك

٥٢٧) تقرير المؤتمر الخامس للجبهة الشعبية. ص ٦٨، ٦٩.

نداءات «قوم» والعلاقات القيادية هنا وهناك.

أما وقد باشر بيكر سلسلة جولاته التي أفضت لمدريد فقد استخرجت الجبهة تحليلاتها من الأدراج وحسمت موقفها المشار إليه أعلاه. وهذا ترك بصماته الثقيلة على تفكير وتحسبات قيادة الداخل منذ اللقاء الأول الذي قاطعته مع بيكر في القدس، الأمر الذي انعكس في مراسلاتها الداخلية، وقد استشعرت أن رأس الانتفاضة هو المطلوب وأن البرنامج الوطني لا سيما حق العودة هو اتجاه الضربة في المخطط المعادي، فيما الاستيطان قافز والمستعمرات تزداد وتتسع دون توقف.

لقد استخلصت قيادة الداخل دون لبس أو إبهام أن الاستمرار بالانتفاضة وحماية الاشتباك مع المحتل يتطلبان أن تتقدم الجبهة الصفوف وقيادة الشارع، وهذا لا يكون إلا إن أصبحت قوة أولى.

لم نتقبل حينذاك منظور غرامشي أن أقلية ذكية وواعية ومنظمة يمكن أن تقود الأغلبية، فالساحة الفلسطينية تقاطبية وفئوية والعمل السياسي فيها لم يرقَ إلى مستوى الانحياز البرنامجي. فالشعب توزع على الفصائل، والأعضاء بعد التحاقهم بالفصائل يسيرون معها دون فحص لتاكتيكاتها وعيوبها، أي عضوية شعبوية تحمل بعض الوشائج العائلبة والطائفية، أما الذين يلتحقون بناءً على رؤية فكرية – سياسية أو ينسحبون اتصالاً بذلك فهم أقلية. فالعمل السياسي الفلسطيني يراوح بين العائلة والحزب.

كان الحزب البلشفي قد تبنى برنامج حزب الاشتراكيين الثوريين في المسألة الفلاحية لأنه وجد فيه معبراً عنه، وحكومة حزب العمل حافظت على رئيس الوفد المفاوض الليكودي نظراً لمهنيته، وحكومة الساندينست اليسارية أوكلت لرجل دين وزارة الثقافة... هذا لا يحصل في فلسطين.

و(بالتالي كان علينا أن نتحول لقوة أولى.

وقد استندنا للحيثيات التالية، وهي على التوالي من ناحية الأهمية:

١. وجودنا المنظم، فهو يكاد يغطي كل تجمع فلسطيني في الوطن، حتى أن لنا أصدقاء داخل ٤٨. وهو وجود دينامي فتيّ قابل للزيادة الكمية والتطور الكيفي، وإذا تضاعف يصبح بوزن فتح أو أكثر. أما من ناحية كيفية فهو أرقى بكل تأكيد.

٢. يتسلح وجودنا المنظم بشرط قيادي وما يشهد على كفاءة هذا الشرط ما راكمه هذا الوجود، وهو في معظمه سريّ ويصعب تصفيته.

٣. كان المحرك الأكبر لوجود ودور وتضحيات الجبهة (الحافز الأخلاقي) جيفارا، أي القناعات الفكرية – السياسية، وليس ثمة أرباح شخصية، فالتفرغ نسبته ٦,٢٪ وحقوق المتفرغ لا تناهز الثلثين دون أية امتيازات علاجية أو تعليمية أو فنية، و(الذي يريد أن يحسن الوضع المعيشي لعائلته عليه أن ينهي تفرغه) كان يتندر بعض الرفاق، ولا مؤسسات أو مكاتب تذكر للجبهة... كانت العضوية بحق مقولة نضالية.

٤. صوابية الموقف السياسي، فالجبهة ليست كاملة الأوصاف، ولكنها قادرة على نقد ذاتها وتصويب أخطائها وليس ثمة ما يعيق ذلك في الداخل، فلا مستويات بيروقراطية متحجرة، ولا مصالح نخبوية معطلة، وأي كادر أو مفصل يمكن عزله بيسر طالما أن استحقاق العزل بات متطلباً. كما أن الداخل لا يخضع لمنطق ميزان القوى في الخارج، هذا الميزان الذي قررت معه اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير لقاء بيكر في الداخل، فجاء رد الجبهة في الداخل مقاطعة اللقاء بما يعنيه اللقاء من شق طريق لمدريد.

٥. معظم الشعب يحترم الجبهة، فسمعتها محمودة ولديه قابلية للانحياز لها إذا أثبتت المزيد من النضالية.

هذا عن الداخل، أما الشرطان اللذان لا مناص منهما في الخارج فهما:

١. تكريس الجهود الحقيقية لإسناد بناء حركة جيفارية في الداخل بما تعنيه من كادرات مهنية وإمكانات، وهذا واجب الخارج ارتباطاً بالقدرات والصلاحيات والعلاقات، علماً بأن تعميماً تعبوياً تنظيرياً صدر في الداخل (الرسالة الجيفارية)، كما أن تربة الانتفاضة النضالية هي تربة خصبة للتجنيد والاستقطاب.

الشرط المالي، وهو مرهون أيضاً بالقيادة في الخارج فهي تملك المسؤولية عن رصيد الجبهة والقرار المالي.) [٥٣٨]

وقد أثيرت نقطة جدالية أن لا تربك تاكتيكات المركز في الخارج العمل في الداخل، على غرار قرار اللجنة التنفيذية والفصائل بالاجتماع ببيكر، ولكن هذه النقطة ثانوية ذلك أن الانسجام عالٍ بين الجزء والكل، وبين الداخل والخارج، كما أن "لدى الداخل القدرة على الحوار والحوار والحوار لتفادي تأثيرات أي قرار خاطئ"، وكانت الثقة عالية بالحكيم وبصيرته السياسية وتفهمه لأي تباين جزئي ريثما يتوحد التفكير القيادي ثانية.

٥٣٨) مرجع أيديولوجي

أما البيئة الملائمة للتحول لقوة أولى فهي البيئة الانتفاضية، فهي البيئة والهدف في آن. أي تتوالد فيها مناخات غير مجافية، كما أن الغرض وطنيّ وليس فئوياً، أي حماية الانتفاضة وعدم التفريط بها، أما إن تغيرت البيئة السياسية الانتفاضية دون مراكمة عوامل القوة التي توفر للجبهة القدرة على قيادة النضال فحينها تتبدل الظروف وتتحرك الحلقة المركزية. ولا يعود التحول لقوة أولى هدفاً أو ممكناً.

على امتداد عام تقريباً، بين أواخر ١٩٩٠ – أواخر عام ١٩٩١ (ألقت الجبهة بثقلها الميداني في أتون الانتفاضة، وقد عكست تقارير الفعاليات الموقعية ذلك، ناهيكم عن عدد الشهداء والجرحى والمعتقلين، فقد تضاعفت تقريباً، وأصبح عدد الشهداء بين عضو وصديق يناهز الـ ١٠٠ وأربعة أضعافهم جرحى، أما في السجون فقد ارتفع العدد لـ ١٨٠٠... لكن في المقابل زادت العضوية الحزبية بنسبة ٨٠٪ في العام الأخير رغم ما أصاب الاتحاد السوفييتي بما جعل توصية الحكيم: الانتشار والانتشار.)[٥٣٩] تتحقق، فلم يعد هناك قرية أو مخيم أو حي في مدينة أو مدرسة أو مؤسسة أو غالبيتها... تخلو من وجود منظّم حزبي أو ديمقراطي ولو مجرد عضو أو عاطف.

كانت التعبئة بالشعار تتدفق في القنوات الحزبية كتدفق الدم في شرايين الجسم، والمتابعة لحوحة، والمناطق الأكثر اهمية سياسية وانتفاضية تجاوبت والعدوان الثلاثيني على العراق وفرض منع التجوال لأسابيع وفصل الثلج الذي تساقط ثلاث مرات لم تغير شيئاً، فالتأثيرات كانت مؤقتة، أما ثالثة الأثافي فجاءت من انعقاد مدريد ٩١/١٠/٣٠، فمدريد أدخل الوضع الفلسطيني في مسار جديد شهد توترات داخلية تمهيداً لانقسام عمودي، ارتفع فيه التناقض الداخلي وأدخلت الانتفاضة منعطفاً تراجعياً جذرياً... وبالتالي توالدت حالة باتت تستوجب تحريك المهمة من مهمة حزبية إلى مهمة وطنية، بالتصدي لنهج مدريد ومساره، أما الخارج فلم يؤدِ «الاستحقاق الجيفاري» وبالتالي بقيت بنية وإمكانات الجبهة في الداخل على ما هي عليه، بنية انتفاضية، وقد أشهر الاحتلال سيفاً مثابراً في ملاحقة امتداداتها، إلى درجة أن يحصد في ليلة واحدة عشرات الكادرات ومئات الأعضاء في مطلع عام ٩٢، بين احتجاز أو تحقيق وتحويل الأغلبية للاعتقال الإداري دون اعتراف أو إدانة «قانونية»، وكانت الخسارة نوعية باعتقال وسام الرفيدي وعماد السبع في رام الله، اللذين سجلا مأثرة صمودية مميزة رغم البطش والتنكيل حيث بقرت معدة وسام وتهشمت وجنة عماد، وكان قد أمضى الأول تسع سنوات من حياة المطاردة والتخفي والثاني

٥٣٩) نفس المرجع

خمسة أعوام، ولسوء الصدف تم ضبط قوائم مشفرة لدى الثاني في طريق رفعها للقيادة بما أفضى لاعتقال عشرات النشطاء في القدس وأريحا...

كانت الجبهة قد تجاوزت أرشفة الأسماء والأنشطة في الداخل منذ عقود، وصدفة من هذا القبيل رغم فرادتها لا تمر مرور الكرام، وقد أشار رئيس الاستخبارات يعقوب بيري في كتابه (مهنتي كرجل مخابرات) (أدت النجاحات التي أحرزها جهاز الأمن العام إلى جعل رجال المنظمات أكثر حذرا وحكمة ووسائل تعمية. في صيف ١٩٩١ حاولنا عبثاً العثور على خلية كبيرة للجبهة الشعبية انتظمت في مدينة القدس... وصلنا إليها عن طريق أحد عملائنا الذي تسلل لصفوف الجبهة، ولأنه مبتدئ في صفوف الجبهة تعامل معه المسؤولون في الجبهة عن طرق نقطة ميتة من خلال بئر في حديقة عامة... وكانت الرسائل تشمل توجيهات أيديولوجية وهو أسلوب الجبهة لرفع مستوى أعضائها... طلبنا منه أن يرسل للجبهة أنه عثر على قنبلة. جاءه الرد مفصلاً لوضعها في حفرة في حي سكني... جاء أحدهم بسيارة بعد ساعات وحفر مكان القنبلة واتجه نحو رام الله... تعقبناه إلى المنطقة الصناعية في رام الله... داهمنا العمارة... فحصنا كل سنتيمتر في الشقة إلى أن دققنا على جدار المطبخ فرجع إلينا صدى... بعد هدم الجدار عثرنا على عربي يجلس القرفصاء ومعه هوية مزيفة. واصلنا البحث في العمارة وعثرنا على آخر في داخل جدار اتضح أنه أحد المطلوبين الذين نفتش عليهم منذ سنوات... ووضعنا يدنا على كنز مكون من وثائق وأختام خاصة بوزارة الداخلية والإدارة المدنية وبطاقات هوية إسرائيلية وكاميرات حديثة وملابس تنكرية وباروكات شعر وشنب وذقون مستعارة وآلة طابعة وعشرات آلاف الدولارات...)[٥٤٠]

«لم تتوقف الحملات الاعتقالية في الشهور التالية. فمن جهة أعلنت الجبهة في بياناتها مناهضتها الحازمة لمسار مدريد، واستمرت في مناشطاتها الانتفاضية وعمليات فدائية أخرى، وفي الجهة المقابلة كان قرار الحكومة الإسرئيلية «تنظيف الطريق من أمام قطار مدريد وتصفية النويّات الصلبة»، وكان عاماً صعباً مفعماً بالتحديات.»

وأستطيع استذكار مناخات الوقفة نصف السنوية في آب/ ١٩٩٢:

١. الانتفاضة كعملية جماهيرية واسعة، قد تقهقرت وانكفأت. فالانتفاضة هي كذلك طالما تحافظ على طابعها الشعبي، أما وقد انحصر النضال في أعمال مقاومة متفرقة، فهذا يتطلب

---

٥٤٠) بيري، يعقوب، ٢٩ عاماً من العمل في الشاباك. دار الجليل. عمان. ٢٠٠١ ص ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨.

الاستيعاب وكان قرار الجبهة (أوسع سيل من المناشطات الميدانية) فيما أصبح من الصعوبة بمكان دعوة الجماهير لإضراب عام أو تظاهرات حاشدة...

٢. إصدار نشرة "التصدي" التي تحمل تحليلات ومواقف الجبهة وتوزيعها على نطاق واسع بعشرات آلاف النسخ، سيما أن الصحافة المحلية، خصوصاً اليومية، هي أقرب للقيادة الرسمية لمنظمة التحرير.

٣. التعامل مع الانقسام السياسي كانقسام سياسي ومعالجته على هذا النحو في إطار السجال النظري واستقطاب الجماهير والنأي عن الوسائل الأمنية والتخوينية.

أما على الصعيد التنظيمي فأشارت مسودات الوقفة إلى نسبة توسع صافٍ بلغت ١٧٪ رغم الملاحقة الأمنية وانهيار الاتحاد السوفييتي.

وجاء قرار (تحزيب الذين تنطبق عليهم شروط العضوية في "لمش" (لجان المقاومة الشعبية) والحلقات إلى نهاية العام الحزبي. تماشياً مع البرنامج السنوي الذي حدد نسبة توسع ٣٠٪ إلى شباط/ ٩٣... وكان هناك مؤشرات رقمية عديدة أذكر منها أن نسبة النساء ٢٧٪ بمن فيهن ٦٪ ربات بيوت والطلبة حوالي ٣٠٪ من ذكور وإناث، والعمال ٣١٪ و٣٢٪ مثقفون وموظفون، وللاستزادة يمكن العودة للوقفة التي عممت على نطاق ضيق حينذاك ويمكنكم لمزيد من الدقة الحصول على الوقفة.

أما الذي حصل بعدئذ، فهو اعتقال قطامش في ٩٢/٩/١ فمكث ثلاثة أشهر في التحقيق نافياً صلته بالجبهة، وخمسة أعوام ويزيد في الاعتقال الإداري، وتواصلت الاعتقالات النوعية وبدأ العد التنازلي.)[٥٤١]

١٠- مصادر التمويل والخط المالي

لا غنى عن المال للجماعة الثورية وأية جماعة أخرى، بما في ذلك العائلة. ولكن هناك مال وهناك مال، كيف تصرفت الجبهة؟ دون أن ننسى أن الحياة الاستهلاكية للمجتمع الفلسطيني قد تبدلت، مثلما تبدلت مقومات العمل السياسي.

لنترك لكادر مخضرم أن يعلل الأمور على طريقته:

(ليس اليوم معياراً أو نموذجا للامس: فاليوم إن لم يكن لديك قدرة مالية هائلة بالملايين من

٥٤١) مفصل استناداً لمسودات من مادة مبعثرة

الصعب أن تكون قوة لها وزن، فاهم عناصر الاستقطاب هو السلاح والتوظيف، وهناك عشرات وعشرات آلاف قطع السلاح وعشرات وعشرات آلاف المتفرغين والموظفين لدى التنظيمين الأكبر اللذين أصبحا سلطتين، ولعلهما لا يذهبان أكثر من ذلك فيصبح الانقسام جغرافياً/ سياسياً بين ضفة وغزة) (٥٤٢).

كانت عوامل الاستقطاب من قبل نضالية وسياسية مع تأثيرات عائلية. ففي السنين الأولى التحق الناس بالشعبية أو فتح لدافع نضالي فدائي أولا، ذلك أن الفوارق السياسية بينهما لم تكن واضحة من وجهة نظر الجماهير، ومع الوقت اتضحت الفوارق الفكرية والسياسية، وأصبحت الهوية الفكرية اليسارية للجبهة تعكس نفسها في تحليلاتها السياسية ورؤيتها التنظيمية كما في تعبئة عناصرها بالماركسية – اللينينية، بينما استمرت فتح بأفكار وطنية محدودة وممارسات فدائية واسعة.

وتجلى الفارق أيضا في النظر للساحة الأردنية، حيث رفعت فتح شعار (عدم التدخل في شؤون الأنظمة العربية) فيما الجبهة رفعت شعار قاعدة الارتكاز، ليتسع الفارق أيام مؤتمر جنيف ١٩٧٤، وتوالت الافتراقات التي لم يغب عنها يوما أهمية الدفاع عن البندقية والوحدة الوطنية ومقاومة المحتل...

كان للعائلية تأثيرات على الانتماء وأحيانا للعشائرية القروية، فأبناء حامولة أو قرية في مخيم يلتحقون أو تلتحق أغلبيتهم بالتنظيم الفلاني، وإمكانات فتح على هذا الصعيد أوسع وقد تعاظمت أكثر في الحقبة النفطية حيث نالها جانب من عوائد النفط بعد حرب أكتوبر.

أما هذه الأيام فالخارطة السياسية تتسع لكل هذه العوامل بل يضاف لها العامل الديني، فلا تستطيع فصائل الإسلام السياسي الانتشار في الأوساط غير الإسلامية والليبرالية التي تدعو للمواطنة دون تمييز والعقلانية المبنية على حق التفكير والاختيار...

وباختصار تتشابك في العمل السياسي الفلسطيني عناصر الانتماء الطوعي لبرنامج وفكر معين وعناصر الانتماءين العائلي والطائفي الوراثيين...

كان للمال أهمية في سنوات النضال الأولى، ولكن تفرغ المقاتل كان في حدود عشرة دنانير وأغلبية الأعضاء لا يتلقون تفرغات، ويبحثون عن أدوات المقاومة اعتمادا على أنفسهم حينًا

---

٥٤٢) مراقب

وإسناد التنظيم حينا آخر... كانت الدافعية وطنية حقا ونقية حقا غير ملوثة بإغراء المال والكذب والمصلحة الشخصية.

ما سبق أعلاه هدفه القول إن عمل الجبهة في الداخل اعتمد في العقد الأول على إسناد المركز ماليا وتسليحيا، كما على بعض التبرعات وما خلفه الجيش الأردني في الضفة وجيش التحرير في غزة. وبالتالي كانت الميزانية محدودة.

(ومن مسموعاتي أن ما كان يصل للداخل في السبعينات هو مجرد بضعة آلاف من الدولارات، وقد ارتفع بتدرج حتى أصبحت الميزانية ٣٠ – ٤٠ ألفاً في أواسط الثمانينات، وعندما قررت قيادة الداخل صرف ٢٠٠ دورلار لكل محرر في صفقة التبادل الكبرى حيث أطلق نحو ١٥٠ رفيقاً عام ٨٥ أصيبت الميزانية بدمار لعدة أشهر... وقد تزايدت هذه الميزانية بتدرج في زمن الانتفاضة المجيدة، حينما أصبح للجبهة مئات المطاردين وعشرات البيوت السرية وأكثر من ذلك مقرات للأطر الصديقة وبعض الأنشطة الإعلامية المنظمة ونسبة محدودة من المتفرغين... أما التفرغ فبقي على حاله ثلثا المبلغ بناءً على قرار صدر في الداخل عام ٧٨.

وفي السجن تحدث الرفيق الأبرز... عن تفرغه قبل اعتقاله بأنه (٣٥٠ دولاراً إضافة لمئة دولار كأجرة بيت) وهذا يشمل حقوق عائلته ومرتبته... الخ، يليه في التفرغ الرفيق نائبه بنفس المبلغ ولكن لديه طفلان)[٥٤٣].

وأضاف آخر (سوف احصر حديثي في حقبة الثمانينات وسنوات الانتفاضة.

«من البدهي أن يكون للجبهة سياسة مالية وهي من ثلاثة بنود أ- الموارد ب- النفقات ج- الاستثمار.

أما عن الموارد فهي تنحصر في ميزانية الداخل من المركز وتغطي ٩٠٪ و١٠٪ اشتراكات وتبرعات ومبيعات، على أن يضاف للتبرعات ثلث التفرغ، ذلك أن الرفاق قرروا منذ زمن استبقاء ثلث حقوق المتفرغين في صندوق الحزب لتغطية مصاريف العمل تماشيا مع متوسط دخل الجماهير من جهة، ولعدم كفاية ما يحوّله المركز للداخل من جهة أخرى. ووصلت نسبة تسديد الاشتراكات حوالي ٦٠٪ ونقطة الضعف الأساسية كانت قد ٤.

وعن النفقات فهي ١- تشمل المحترفين والمتفرغين والمطاردين بما لا يقل عن ٥٠٪ من الميزانية. ٢- الأنشطة المتنوعة ٣٠٪. ٣- للأسرى ١٠٪. ٤- الإعلام والثقافة ١٠٪ وكانت الكشوفات المالية في

٥٤٣) مفصل مقرب من القيادة

غاية الدقة، ويلاحق أي رقم إجمالي غير مدعوم بحيثيات الصرف، والمرتبة الوسيطة ترفع تقارير أدنى وتقريرها الإجمالي، وهذا ينطبق على المرتبة الأعلى.) (٥٤٤)

فضبط المالية يعني ضبط الحزب، وأول فساد للحزب يبدأ بالفساد المالي. ولكن مسيرة الجبهة اشتهرت بالنظافة المالية ونقاوة الضمير. وإن حصلت أية ثغرات فهي هامشية وجزئية ولا تكاد تذكر وتعالج بحزم...

مرة قال والد رفيق قيادي «رؤوسكم مملوءة ثقافة وعزيمة وجيوبكم خاوية وكبيركم مفلس أكثر من صغيركم».

وأخيراً، الاستثمار، «لا معلومات رسمية لدي، ولكنني سالت أحد المرجعيات في السجن، فلم يبح بأكثر من: ثمة مشاريع قليلة أهمها تم الحفاظ عليه، واقلها أهمية تبعثرت أو بددت بسبب الاعتقالات، وقد تأخرنا في اعتماد خط الاستثمار اتصالاً بعدم استقرار أوضاعنا ولما بتنا جاهزين تأخر علينا المركز في رصد المبلغ المطلوب.

يمكنكم أن تستزيدوا وأن تصوبوا معلوماتي من خلال الرفاق المعنيين خارج السجن، فهم أكثر اطلاعا مني».

ويجدر إضافة ما يلي، وهو خلاصة إجابات جزئية متنوعة ١- «المال قوة» كرر الحكيم، ولكن الجبهة لم تتميز بإمكاناتها المالية. ٢- كان «صرف الداخل تقشفياً» ولم «ينعم يوما بالراحة» ولكنه «لم يواجه اختناقات أيضا». ٣- «لقد مرت أوقات عصيبة» بلغت المديونية ميزانية شهرين كاملين «فقد استدنا» من الرفاق المقربين» وهم بالآحاد و«من أصدقاء مقربين» ومرة «استعنا بصديق في الخارج طيب القلب والأخلاق فأنقذنا لمدة شهر ونصف ولم نسدد له إلا بعد سنوات»، وحصل أن «تبرعت بعض الرفيقات ببعض مصاغهن كما باعت إحداهن شقتها»، كما سمح لنا «باستخدام بيوت عديدة مجاناً». ٤- الاشتراك، فهو شرط من شروط العضوية ومرآة لقياس مستوى تطور العمل التنظيمي. وفي فترات لم تعرفه الجبهة وفي فترات حاولت ضبطه، لكنها لم تصل يوماً ان سدد كامل الأعضاء اشتراكاتهم أو حتى مجرد ثلاثة ارباعهم... ولكن لم يحصل يوماً أيضاً أن تضمنت التقارير مصاريف مواصلات أو ضيافة او نفقات أنشطة بسيطة...

واختتم احدهم قائلاً "كان على المركز أن يصارحنا بأن الحزب على أبواب أزمة مالية، لأمكن شد الأحزمة على البطون أكثر لمدة عامين مثلاً وادخار مبلغ جدي، فالقرش الأبيض لليوم الأسود."

٥٤٤) سجين

المبحث الخامس

١- التربية الأمنية وفلسفة الصمود

لئن جاز القول إن مسيرة الجبهة في الأرض المحتلة قد وحدت بين عدة خطوط عمل، البناء التنظيمي، النشاط الميداني، التعبئة الفكرية والسياسية، التعبئة الأمنية، الخط المالي، الخط الأخلاقي... فإنه يتعين القول:

لقد تغلب خط بناء المجموعات الفدائية والمحاولات التنظيمية في سنوات الاحتلال الأولى، فيما تغلب خط بناء شبكات تنظيمية في النصف الأول من عقد السبعينات تكلل بتأسيس التجربة المركزية التي أولت اهتماما أفضل للتعبئة الفكرية والسياسية، ولكن لينتكس العمل في السنوات اللاحقة إلى أن بدأ يتشكل وعي جديد في أواخر السبعينات يقوم على بناء تنظيم حزبي معبأ فكرياً وسياسيا وأمنياً وما أمكن من اشتباك ميداني في محوره التحرك الجماهيري الذي تتوج بالانتفاض الشعبي.

(على امتداد المسيرة كان ثمة ثقافة أمنية وتربية أمنية، غير أن الضربات الاعتقالية المتتالية، وعدم صمود التجارب الأهم ٦٩، ٧٦، والضربة الواسعة عام ٨٥، وتصفية مئات المجموعات وأغلبيتها مجموعات عسكرية، لدليل على أن هذه الثقافة وتلكم التربية لا يرقيان إلى مستوى الصراع وغير كافيين لإدامة سيرورة العمل والتركيم عليها...

لم تخل مرحلة من الجمع بين كافة الخطوط، ولكن الذي قاد كل المرحلة هو خط دون سواه، فيما الخطوط الأخرى حضرت بدرجة أو بأخرى أو بهتت أو تهمشت. كما لم تخل مرحلة من العمل الفدائي، ذلك أن الجبهة فصيلة مقاتلة، في التحليل الأخير، ولكن هذا العمل قد يكون رئيساً أو فرعيا أو مجرد محاولات بدائية... وان «اصطياد» عشرات الدوريات الفدائية التي عبرت الحدود أو نجاح الكمائن الاحتلالية باصطياد عشرات المجموعات المقاتلة سيما في قطاع غزة، وتوجيه ضربات اعتقالية متسلسلة بناء على اعترافات من أعلى أوقاعدية ومصادرة أسلحة وممتلكات حزبية، لبرهان على فقر الثقافة الأمنية والخبرة الأمنية وإرداة الصمود.

مثلما أن صمود بعض المجموعات الفدائية عامين وثلاثة وتنفيذ سلسلة عمليات ناجعة، وفي المقدمة تجربة جيفارا غزة ورفاقه وأبو منصور ورفاقه والنسر الأحمر، كما الكشف عن مئات المجموعات التي أدينت بأعمال فدائية وحكم عليها بالمؤبد وعشرات السنين، من جهة، وصمود

بعض المحاولات التنظيمية سنوات في الميدان قبل تعرضها للاعتقال وصمود المئات في الزنازين من جهة أخرى، لهو مثابة البرهان على أن تركيماً ما قد تحقق في المجال الأمني.

أما الخط الأمني كعملية منهجية مستمرة، تعبئة وتربية وإنتاج ثقافة صمود واستخراج دروس وابتكار استخلاصات أمنية وخوض تجربة التخفي الطويل والمطاردة لسنوات، فهو إنما تكرس في الثمانينات. وكان الامتحان الأصعب عام ٨٥ حين شن الاحتلال حملة متواصلة على امتداد عام ويزيد وفق قرار صريح أعلنه ضباط التحقيق (اجتثاث الجبهة الشعبية من الجذور) والنجاح كان ملموسا في غزة أما في الضفة وان كان حجم الاعتقالات أضعافاً، غير أن ظهر التنظيم لم يقصم، وكان الصمود القيادي مأثرة غنت لها الجماهير الأهازيج والأشعار. والامتحان الثاني كان على امتداد خمسة أعوام بين ٨٨ – ٩٢ حيث اعتقل الآلاف وسقط مئات الجرحى وأكثر من ١٢٠ شهيداً وشهيدة من الرفقاء وعوائلهم واعتقال أسماء كبيرة ولكن الحزب خرج من هذا الامتحان وقد تضاعف حجمه ٤ – ٥ مرات وطرز على جبينه وجبين كل رفاقه ورفيقاته وأنصاره، بفخر وتواضع (حزب الانتفاضة) بل بقي مخلصا لها للنهاية، محاولا إدامتها بفعاليات ميدانية متنوعة تطبيقاً لقرار (المزيد من المناشطات) رداً على انقسام الشارع المنتفض على اثر انعقاد مدريد... بل قرر رفاقنا مقاطعة بيكر منذ جولته الأولى، ولم تثنِ عزيمتهم الحملة الأمنية المشددة، وحينها لهجت السنة بعض الرفاق بكلمات الشاعر العظيم مظفر النواب: صافح قادتنا الأعداء ونحن نحارب) (٥٤٥).

لكن كيف عبأت، ماذا أبدعت، وهل تميزت الجبهة؟ (هذا السؤال أجيب عنه على النحو التالي:

الاغترار مقتل الثوري، فقد تعلمنا في مدرسة الحكيم التواضع. وطالما أن السؤال يتعلق بالثمانينات، اسمح لي بقول ما يلي: كنا نتلقى تعميمات وتوجيهات من أعلى، كما كانت دورية «الرفاق» تنشر مقالات بين الوقت والآخر بما يسمح بالقول إن العقل القيادي للحزب يتابع ويرصد تفكير العدو الأمني. فهو يتابع العقل السياسي و... و... كما العقل الأمني. وكنا نهتم بهذا الموضوع، ونرفع أي شيء جديد، ومتداولة لدينا مقولة التفاعل الجدلي بين أدنى وأعلى.

وفي فترة تكرر التأكيد على أجهزة التنصت والمراقبة عن بعد بوسائل تكنولوجية، وفي فترة الانتفاضة تم الكشف عن عملاء مدسوسين في التظاهرات وفي أحزمتهم أجهزة تبث إشارات

---

٥٤٥) شخصية اعتبارية

لاسلكية أو لديهم كاميرات مموهة في علب سجائر أو او... وفي الزنازين يسجلون الأحاديث بأجهزة غير مرئية خصوصا حينما يتعمدون جمع اثنين في زنزانة أو متجاورين لعلهما يفشيان أمرا... وهذا كله كشفه الرفاق وقاموا بتعميمه.)[٥٤٦]

وفي فترة التحقيقات الأمنية في السجون وخارجها، في أواسط الثمانينات، حيث أفضت هذه التحقيقات الوطنية مع العملاء والمشبوهين إلى خلط الحابل بالنابل، والإسقاط الجنسي عبر التصوير المخفي، كان الوسيلة الانجح لإسقاط الفتيات وحتى الفتيان، وبعدها تقوم المخابرات باستدعائهم وتوريطهم...

«ومأثرة الحزب انه لم يقبل هذا السيناريو بعجره وبجره فالإشاعات ملأت البلد والكثير من الأبرياء تلوثت سمعتهم، وحنكة الحزب انه قام بفرز الغث من السمين وانتقد الإجراءات المتطرفة في السجن، وسمعنا انه حاسب بعضهم. فقد مضى عام اختلطت فيه الألوان وعمت فيه الكآبة.

وفي أجواء الأزمات تشيع الروح السلبية والاتهامات ولكننا لم ننجرف كما غيرنا، وتكرر هذا مرتين في السجون.»

والصحيح أن المخابرات تضخم القصص وتزود العميل بخط رجعة في حال انكشافه، بان يتهم عشرات الناس، كل ذلك لزعزعة المجتمع وخلق مناخات من عدم الثقة، كما أنها لا تتورع عن استخدام الوسائل القذرة كالمخدرات والجنس، بل تخترق هذه الأوكار لتوريط ما يمكن توريطه، مستفيدة من تخلف المجتمع...

الجنس والمأزق هما أهم أسلحة المخابرات المعادية، ويقصد بالمأزق منع طالب من السفر لإكمال تحصيله الجامعي في الخارج إلا بعد أن يدفع الثمن، أو إعاقة صفقة تجارية، أو مساومة لص ضبط بالجرم المشهود... أو ضائقة مالية خانقة... أو انهيار ورعب في التحقيق.

«لقد عمم علينا الحزب نماذج عن ذلك كتابة أو شفاهة، وحينما كنا ننظم مظاهرات، كانت التوجيهات واضحة، نقطة الانطلاق، خط السير، نقطة التجمع، وهناك مجموعات تناوش في الشوارع الفرعية ومن على الأسطح وتقطع الطريق على جيبات وآليات العدو... ناهيكم عن استخدام اللثام لتعمية الصورة التي تلتقطها المروحية من الجو...

---

٥٤٦) نفس المرجع

كنا نكشف عقل العدو في الميدان جنباً إلى جنب مع التوجيهات من أعلى....»

وكما دأب الاستعمار، فالاستعمار الكولونيالي العنصري الصهيوني لفلسطين، سعى لتفكيك الشعب (سياسة فرق تسد) وتجنيد العملاء المتعاونين أمنيا، كما المتعاونين سياسياً، إضافة لربط مصالح بعض الفئات التجارية والاقتصادية بالسوق الإسرائيلية، وخلع القدس عن المناطق الفلسطينية ليس بإجراءات سياسية فقط، وتكثيف الحزام الاستيطاني الاستعماري والضم القانوني والواقعي وصولا إلى الجدار والبوابات، ومنع دخول الفلسطينيين وتجارتهم... بل ضمان تأمينات اجتماعية وحركة عمل وتنقل... الخ في محاولة لتطبيع المدينة وأسرلتها وتوفير مستوى حياة أفضل لكيما يصل الناس لاستنتاج: نفضل البقاء في إطار إسرائيل.

غير أن الخطر المحدق بالمقاومة، وسيف ديموقليطس الذي كان يحصد مجاميعها، كان الاعتقال ليس العشوائي والإداري دون محاكمة فقط، بل إن الأكثر اتساعا وأهمية وفاعلية هو التعذيب في الزنازين لكسر إرادة المقاومين وانتزاع اعترافات بما يلزمه ذلك من ممارسة كل أشكال العنف. وإسرائيل لا تعترف ولم توقع على اتفاقية مناهضة التعذيب التي تحظر على أي موظف رسمي ممارسة العنف المادي أو المعنوي، وتحت عنوان «محاربة الإرهاب والوضع الخاص لإسرائيل» تمارس أبشع صنوف التعذيب والإرهاب. فالاحتلال العسكري للأراضي الفلسطينية مقولة قهرية وعنفية تجلياته أكثر من أن تحصى ضد الشعب خارج السجن وبصورة أكثف داخل السجون التي تعتبر الزنازين محطتها الأكثر قساوة وبشاعة.

(وشخصياً تعرضت للاعتقال عشرة أعوام ونصفاً أكثر من نصفها كمعتقل إداري، وثلاث تجارب تحقيق امتدت ستة أشهر... وأصيب شقيقي الأكبر بالشلل في التحقيق واستشهد لاحقا، وأشقائي الخمسة اختبروا الزنازين والسجون سنوات وسنوات... وعائلتنا مجرد مرآة عاكسة لأغلبية العوائل الفلسطينية. فأكثر من ٧٠٠ ألف فلسطيني وفلسطينية اعتقلوا منذ عام ١٩٦٧. وإن تكرر اعتقال الشخص مرات في كثير من الأحيان.) [٥٤٧]

«تفردت الجبهة بإصدار ثلاثة كتب حول التحقيق، الأول هو» فلسفة المواجهة» ويتناول سبل التحقيق والرد عليها، والآخر «بطولات في أقبية التحقيق» بأقلام الرفاق والرفيقات، عن تجاربهم ولكن بتكثيف واختزال شديدين، والثالث «لن البس طربوشكم» عن مأثرة قطامش وما طرأ على

---

٥٤٧) أحمد قطامش

نظرية التحقيق من تغيرات.

وكان لهذه الكتب بصمات وتأثيرات، والأول طبع مرتين والأخير ثلاث مرات، وهي تحظى بإقبال واسع لا سيما القطاع الشبابي، من مختلف المشارب الفكرية والسياسية.

ويجوز القول، إن هذه الكتب أثمرت (فمن ثماركم نعرفكم) المسيح. فالصمود في الزنازين بات تقليدا راسخا لدى كادرات وقيادات الجبهة. وهذا صحيح وليس خطبة عصماء طالما أن السؤال يتحدث عن فترة الثمانينات وبداية التسعينات، أي عن مرحلة صعود الجبهة، ما قبل أزمتها وتفككها في مرحلة أوسلو، فمنذ لحظة صمود كادرات عمالية وطالبية مدانة بالمستمسكات في أواخر السبعينيات لم ينكسر ولو حلقة كادرية واحدة، سوى كادر في العاصمة، وارباك عجيب حصل في غزة أواسط الثمانينات، وحالات قليلة في بيت لحم، وربما هوامش أخرى...» أما الصمود فقد طرزه مئات الكادرات وكل القيادات وكانت هناك تجارب تحقيق فاشية تماما، ودلائل قاطعة واعترافات الغير أحيانا، فعدنان منصور تغيرت ملامحه، ومحمود فنون فقد الإحساس بجسمه، ووسام الرفيدي بقروا بطنه، وهيثم الحموري هلوس ودخل مرحلة الهذيان، وعماد السبع هشموا وجنته، وقطامش تأذى جسميا وكاد يفقد بصره، وقطامش المحامي كان بين الحياة والموت، والمهندس خالد باكير كسروا ضلعه وسرّعوا في وفاته، والمهندس محمد الرجوب رأى من صنوف التعذيب ما تشيب له الرؤوس وهذا حال سلام مطير، أما مصطفى عكاوي فلم يقو جسمه على بشاعة التنكيل وصقيع الثلج فانطفأت روحه المقاتلة، ومن قبل أصبح نادر العفوري قطعة متيبسة لم تتجاوب مع صعقات الكهرباء وقد إختل نسغه سنوات، وعلي الجمال الذي جربت معه كل «الوجبات» وأعيد استخدامها وكأنه حقل تجارب، ويعقوب عودة الذي تعفن رأسه من الصديد والدم، وعبد اللطيف غيث الذي تمزق من إيلاج زجاجة في مؤخرته، والمحامي بشير الخيري الذي تعرض لمجزرة، وذكورية مريضة لم تتردد في دفع قضيب معدني في جسد رسمية عودة وعائشة عودة و و و والقائمة طويلة.

إذ ليس سهلاً أن يحرم المناضل من النوم أسبوعاً أو أسبوعين بصورة متصلة تحاصره وسائل الضغط من كل الجهات، وكان المخابرات ذئاب جائعة تمضغ لحم فريستها بتشه وعنصرية، وتزداد شراسة كلما اصطدمت بجدار الصمت قبل أن تستسلم وترتد خائبة.

وليس سهلاً أن يهاجم مناضل ثلاثة أو أربعة إلى أن يطاح به، اثنان يثبتان جسده فيما الثالث تنقض أصابعه على حنجرته ولكمات هنا وهناك والرابع يعصر خصيتيه ويوجه الضربات له، وبعد

ذلك يلقى في تابوت معتم وكأنه فارق الحياة، أو يترك على البلاط ينزف إلى أن تمارس طقوس التعذيب ثانية.

كما ليس سهلا أن يشبح في مجرى هواء بارد في فصل الشتاء ومروحة مسلطة عليه عارياً من الملابس، وبعدها تعريضه للماء الساخن وتكرار ذلك، وحشره في زنزانة مزودة بأجهزة تشويش، ومنها إلى حجرة مضاءة بمصابيح مضاعفة، واستمرار شبحه على كرسي مائل، واطئ، وقيد في قدميه وآخر يلف ذراعيه للخلف لمدة أيام وأيام إلى أن تأكل الحرارة ردفيه ويتسلل الخدر إلى زنديه والأوجاع إلى كتفيه وجذعه، أو أن تمارس فنون ليّ عنقه وتقويس ظهره وصفعات مدوية على أذنيه إلى أن تنزف ولا يصحو إلا بعد إغماءه تضعه على حافة الموت.

كل هذه الوسائل وسواها فشلت، نعم فشلت، في احناء الهامات الشامخة، ومثلما نجحت مع الكثيرين فقد أخفقت مع الكثيرين أيضاً.

ولكن مثل هذا التحدي العالي الذي يرقى إلى مستوى الاستعداد للموت، فمن لا يخشى الموت لا يخشى شيئا. كتب فوتشيك (إننا نحب الحياة، ولكننا مستعدون للموت في سبيل حياة كريمة). مثل هذا الاستعداد كيف يبنى، كيف يتحقق؟

«في فترة عملي في الثمانينات، لم يتوقف شحن الهمم وتصليب الإرادة. فقد تدارسنا بصورة جماعية «فلسفة المواجهة» و«بطولات» كما تعميمات ومقالات كثيرة، والرفاق طبعوا كتاب فوتشيك «تحت أعواد المشانق» وكتاب روجاس «أبداً لن نركع» وبعضنا كان يعرف عن تجربة الشيوعيين في سجون الأردن والعراق حيث سكب الزيت المغلي والزفتة على البعض ولكنهم لم يفرطوا...

وجيفارا الذي تحدى ضباط «السي. أي. ايه» بعد أسره وقد أصيب برصاصات غادرة، قوة مثال، كما الشيخ عز الدين القسام الذي حاصرته قوات الاحتلال البريطاني في جبال يعبد وقال قولته الشهيرة: «هذا جهاد نصر أو استشهاد»، قوة مثال أيضا، وعبد القادر الحسيني الذي خذلته الأنظمة العربية فاختار الاستشهاد في معركة القسطل. كنا مشربين بقوة المثال ونرى قيادتنا أمامنا. إذ بعد أن اعتقل مسؤولي وصمد لم يعد لي عذر، إذ كيف أواجهه أو أواجه عائلته التي ترحب بي مطأطئ الرأس؟! الأمور كانت عكس ما هي عليه الآن. لا يجب الظن أن هذه الحال كانت حال الجبهة الشعبية»، إن ما يذكرنا بما كنا عليه هو سلوك أحمد سعدات وعاهد أبو غلمة وأمجد الريماوي سواء في لحظة اختطافهم من سجن أريحا أو صمودهم بالزنازين...

ولكن موضوع كبير كالتربية الصمودية لا بد أن يعتمد آليات لبلوغه، فالشعارات لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا مهرب من زرع بذرة الصمود في الجوارح ورعايتها وتجذيرها إلى أن تصبح سنديانه صلبة، ودون ذلك ستقتلعها وتهشمها رياح التحقيق العاصفة. فالتحقيق تجربة مكثفة وأشبه بجدار صلب يتطلب اختراقه صلابة وحنكة في آن.

يجوز القول أن الجبهة تميزت بـ ١- القدرة على تأسيس بنية حزبية سرية قادرة على الاضطلاع بالمهمات الثورية. لقد نجحت في حل المسألة التنظيمية. ٢- اجتراح مأثرتين في العمل السري هما التخفي لسنوات طويلة والصمود الواسع في أقبية التحقيق.

والصمود تحقق نتيجة برنامج تربوي تجلى في أ- وضعه على جدول الأعمال باستمرار. ب- متابعته عبر التقارير التي ترد من السجون والإفادة منها. ج- استخلاص المستجدات وتعميمها في نشرة «الرفاق» وسوى ذلك. د- ترسم ميكانيزمات تعبئة فكرية وسياسية تصليبية.

صحيح أن ثمة حالات انكسرت ولم تتمثل روح الصمود غير أن المظهر الرئيس كان صموديا.

وفي الزنازين تتكشف نوعيات الرفاق. دون نسيان التضامن الجمعي والفخر بالحزب بما يغذي الصلابة.

تسألني لماذا صمدت؟ (سؤال جدي... إنه وعي لذاتي ودوري فأنا في خندق والعدو في خندق، عائلتي مقتلعة وبلدي احتلت... أنا جزء من مشروع التحرير... للأهل دور في تربيتي وللحزب دور... كان يتردد في رأسي كل يوم عبارة أنا ثوري لا أنبطح للعدو... وكنت أعرف نظرة رفاقي لي وتوقعهم الصمود مني... ومهماتنا البسيطة في القاعدة كانت تشعرنا بقيمتنا وأننا ننجز، كتوزيع «الثورة مستمرة» أو كتابة شعارات على الجدران أو إلقاء زجاجات حارقة أو الانخراط في لجنة الحي أو تأسيس خلية جديدة... كان للقيادة هيبة والعلاقات الرفاقية عميقة، لا يمكن أن أفرط بكل ذلك.)[٥٤٨]

وأضاف «كان للجبهة برنامج واضح والآن غير واضح... وكان للجبهة موقف حاسم من الكيان الصهيوني كجسم غريب عنصري غير شرعي، الآن لا أعرف...»

(تريد طرفة... توجهنا لمدينة أخرى لتحرير رفيق معتقل وكان في مستشفى محلي للعلاج

---

٥٤٨) كادر ميداني

بعد أن تدهورت حالته، مستشفى للمجاذيب. اقتحمنا المستشفى وخاطبت الرفيق بكلمة السر... السيارات بانتظارنا... وإذا بالجيش يملؤ المكان... جلست بين أربعة مجاذيب وضربات قلبي تسابق نفسها... تقدم الضابط نحوي وسألني: كيف هون... أجبته: منيح. أضاف: أنصحك أن تبقى هنا لأنه أفضل من خارج المستشفى... وغادر.

أحد المرضين استوعب الموقف. لاذ بالصمت.

غادرنا المكان ونظرة حزن عاتبة في عين الرفيق.

في اليوم التالي «خطفناه»...)[٥٤٩]

كان ثمة أمناء على التجربة، لقد تفانى وضحى آلاف الرفقاء وعوائلهم لبناء هذا الصرح، فهو أغلى ما نملك، بل إن معظمنا افتدى عائلته وعمله وتعليمه وعمره من اجله. فالحزب كان أولا وعاشراً، بما يؤديه من دور وطني وما يمثله من مشروع تاريخي، بل هو معقد الأحلام الشخصية أيضا. لقد ارتبط وجود الأفراد بوجوده كجماعة سياسية، لم يكن مجرد «بضع سويعات حرة يومياً» لينين، بل القض والقضيض نمنحه كل شيء من الرأس إلى الكعب، الانخراط فيه بجماع الشخصية، والذود عنه بجماع الشخصية أيضا.

«لسنا من الذين يكرعون الكؤوس ليلا ويتراخون نهاراً أو يحوزون على امتيازات ورواتب مجزية، فمثل هذا النمط لا يبني حزباً ولا يحمي شيئا، ويكفي شبحه أسبوعين في الزنازين وبضع هزات وصرخات مرعبة لكي يرتعب، وان إشهار أدلة في وجهه تجعله يلملم نفسه مذعوراً محاولا إقناع جلاديه باعترافاته.

كان الحزب خط الفصل والفيْصل، يجمعنا ويفرقنا، والذي يؤذيه نعاديه، والذي يفرط به ننبذه والذي يهدمه نفاصله. وكانت المحاسبة التنظيمية صارمة، فغير كادر تم فصله لأنه ركع في الزنازين»، فالتفريط بشرف الحزب يعادل الفصل من الحزب. فبمثل هذا الانتماء وهذه الروح كانت تعبئ قيادة الجبهة وهي نواة النواة لا فراغات أو انثناءات في صفوفها. ولهذا كان من الطبيعي أن تصونه في زمن «السلم» وزمن «الحرب». كان للحزب معنى ورسالة في ذاك الزمان.

«لا. لم نندم. الذين بنوا حجراً وراء حجر ومدماكا وراء مدماك لهم الفخر، أما الذين هدموه

٥٤٩) نفس المرجع

وهنا يجب التوقف لحظة، فلم تتفكك الجبهة وتتهشم في الزنازين، فالذين بنوها، صانوها، والعدو اخفق في النيل منها، ولكن جاء أوسلو وثقافته والحصار المالي، والاهم فقر الشرط القيادي في لحظة، كانت تعقيدات ومتطلبات العمل القيادي اكبر من إمكاناته فاضطربت الأوضاع وبدا العد التنازلي. وأصبحت العلاقة طردية إذ كلما «غاب» قيادي حل محله «قيادي» اقل كفاءة وأحياناً أقل ثورية منه إلى أن تحللت الجبهة وأصبحت هوامش ركيكة لا تخلو في كل الأحوال من كادرات وعناصر ثورية منتشرة في كل مكان تمثل النهج الحقيقي».

وإضافات الجبهة على الصعيد الأمني، هي على قدر من الغنى بما لا يسمح هذا النص بتخصيص مساحة كافية له. ولكن يمكن العودة لإصداراتها وممارساتها. وفي مقدمة ممارستها التصدي لعيون الاحتلال، العملاء.

(الذي عاش سنوات الاحتلال الأولى في السجن، أو في السبعينات أو سنوات الانتفاضة، يلاحظ أن كثرة كثيرة من رفاق السجن، كانوا محكومين على عدة تهم ولكن المشترك بينها هو إنزالهم القصاص بالعملاء، بل هذه السياسة استمرت في السجون أيضا، باستجواب المشبوهين ومعاقبة المدانين.

والقصاص هنا، عدة مستويات ويتراوح بين الإصلاح والعزل واسترداد الشرف الوطني والإجراءات التأديبية وصولا إلى أقصى الإجراءات بالإعدام.

وما يتداوله الأسرى وتهمهم ومحكومياتهم هو خير مرآة لتتبع تفكير وممارسات الجبهة على هذا الصعيد)[٥٥٠].

---

٥٥٠) مفصل مجرب

٢- الضربات الاعتقالية والتحوطات والإجراءات الأمنية

لم تعش فصائل المقاومة المسلحة يوماً واحداً باطمئنان وسكينة في الوطن المحتل، فهي دائما على خط النار، ملاحقة من قبل قوات وأجهزة امن الاحتلال. وفي أواخر السبعينات، راحت ترتخي قبضة الاحتلال في ملاحقة المظاهر النقابية والجماهيرية كأحد مظاهر التكوين الوطني الذي لم يعد ممكنا قصفه بالدبابات أو حجزه في المعتقلات، وفي نفس الوقت لعل الشعب الفلسطيني يغطس في هذا الميدان بعيداً عن المقاومة المسلحة.

وارتخاء القبضة لا يعني رفعها، إذ لم تتوقف إجراءات القمع والتصفيات التي شملت الكثير من نشطاء العمل الجماهيري وإغلاق مؤسسات التعليم ومعارض الكتاب والمقرات... وعقد المحاكم العسكرية للنظر في «عضوية تنظيم غير مشروع» لجبهات العمل النقابي والطالبي... الخ.

أما خط العمل الدؤوب الذي تكرس له الجهود والإمكانات من جيش وجهاز مخابرات وسجون، فهو استهداف خلايا المقاومة وتنظيماتها السرية.

(معلوماتنا إن جهاز المخابرات الإسرائيلي في الضفة وغزة، كان يتراوح في عقد الثمانينات بين ٢٠٠ – ٣٠٠ ضابط وعنصر يساعدهم مئات العملاء ممن باعوا أنفسهم لشيطان الخيانة، وهؤلاء تضاعفوا مرات، وتم قصقصة أجنحتهم في سنوات الانتفاضة، والكثير منهم أعلن توبته العلنية أو اجبر على الفرار حيث أقام لهم الاحتلال معسكر فحمة بالقرب من جنين.

العدو لا يعرفك، إلا من خلال العملاء، ومن هنا خطورتهم. والجبهة أدركت ذلك منذ عام ٦٧، وقد اشتهرت بالتصدي لهم في غزة والضفة والسجون.) [٥٥١]

ولكن يجب الاعتراف بأن العدو نجح مرات ومئات المرات في اختراق فصائل المقاومة، بما في ذلك الجبهة الشعبية، في الداخل والخارج. ودون مجازفة يمكن القول إن الاختراقات الأمنية والانهيارات في الزنازين، والأولى تفضي للثانية، هما السبب الأول في معظم الضربات الاعتقالية، ناهيكم عن نصب الكمائن للتخلص من الظاهرة الفدائية والعديد من المجموعات الفدائية التي عبرت نهر الأردن.

إن مئات الآلاف قد اعتقلوا بين ٦٧ – أوسلو ومئات الدوريات الفدائية عبرت الحدود... وهؤلاء

٥٥١) كادر

في معظمهم لم تتح لهم فرصة الاشتباك مع قوات الاحتلال.

لقد اكتسبت الجبهة الخبرة الأمنية بتدرج، وهي لم تتمايز عن سواها ولم تبدع في مواجهة الاحتلال إلا بعد حين في بناء تنظيم سري وخوضها تجربة الاختفاء الطويل والصمود في الزنازين، وهذا التطور أرسيت مداميكه الأولى في أواخر السبعينات. أما الضربات الاعتقالية في عامي، ٦٩، ٧٦ وما بينهما، فقد شلت الجبهة. فالضربة الأولى حصدت معظم الكادرات بمن فيهم الكادرات التي عبرت الحدود.

وفي عام ١٩٦٩ تلقى التنظيم الذي قاده بشير الخيري ضربة قاصمة تبعه استشهاد جيفارا غزة عام ١٩٧٣.

وفي ضربة ١٩٧٥ اعتقل المفصل المميز اسحق مراغة الذي استشهد لاحقاً في السجن، وفي ١٩٧٦ تمت تصفية التجربة المركزية واعتقل عطا الله أبو غطاس واحمد سعدات وأديب عساف وعمر أبو عبيد فيما استشهد محمد الخواجا الذي كان أهم كادرات منطقة الوسط، وقبلئذ اعتقل محمود فنون...

تخلل هذه السنوات العاصفة مئات المناشطات الفدائية التي سقط فيها المئات على ارض المعركة، بين قتيل وجريح، وأضعافهم اعتقلوا بأحكام عالية وجرت محاولات لا تحصى لإعادة البناء وتشكيل المجموعات، وتنظيم الاحتجاجات الجماهيرية سيما التظاهرات والاعتصامات والإضرابات...

لم تكن حالات الصمود كثيرة في الزنازين، وإنما أرست البذور الأولى التي اتكأت عليها مسيرة الجبهة لاحقا. كما استخدم التخفي في بيوت سرية لكنها لم تعمر طويلا، وهذه حال الكهوف في جبال الضفة، أو الأوكار في قطاع غزة وهي أكثر غنى وتضحوية ولكنها لم تصمد بعد حرب أكتوبر.

ربما صحيحة كلمات ماركس (على الطبقة العاملة أن تخوض نضالات فاشلة لكي تتعلم) وهذا أجبرت الجبهة عليه، كما أجبرت عليه حركات ثورية أخرى في المراحل الأولى.

كانت التعليمات أن يصمد الفدائي لبعض الوقت، على اقل تقدير، في حال اعتقاله، لكيما يعطي المجال لرفقائه للانسحاب، وكان المناضلون يتحوطون بالابتعاد عن بيت العائلة أو العمل... كما انتشرت ظاهرة المطاردين سيما في غزة... بما شكل تربة خصبة لاستخلاص فلسفة الاستخفاء في سنين لاحقة.

هنا تحضر مفردة ماركس (براكسيس)، ففي لهيب الممارسة يتشكل الوعي والخبرات كما تبنى الأدوات وتنفذ المهمات في عملية جدلية بين الذاتي والموضوعي.

وكما الطفل يجد نفسه مضطراً للحبو والتعثر قبل أن تستقيم خطواته ويتعلم العدو، فهذه حال العمل الثوري أيضا. ولكن من الواضح أن الرصيد الستراتيجي للكادرات التي شقت طريق المقاومة لم يكن كافيا للحفاظ على سيرورة المسيرة التي تقطعت بقوة وتهشمت تحت ضربات الاعتقال والاشتباك. ناهيكم عن إغلاق بوابات الإمداد الخارجي بعد تصفية البندقية في الأردن جراء مذابح أيلول/ ٧٠وتموز/٧١، ووقف إطلاق النار على الحدود المصرية وما تلاها من ترتيبات سياسية. هنا ينبغي الإشارة إلى أن منظمات الأسر قد لعبت دوراً طليعياً في ادلجة مئات الكادرات وتربيتهم سياسيا وإكسابهم خبرات تنظيمية مفيدة، وفي سنوات السبعينات تبلورت الملامح الثورية للعديد من الكادرات الشبابية، بما أهل بعضهم للمبادرة بعد الخروج من السجن والانتقال لمرحلة جديدة في بداية الثمانينات.

لقد تراكمت في فترة الثمانينات، خبرات على كل الصعد وكان لها نكهة خاصة في سنوات العملية الانتفاضية. وهذا ارتبط بداهة بما أنجزه الحرث الجماعي في الحقل التنظيمي، بشقيه الحزبي والديموقراطي.

١- لقد تعاظم الصمود الكادري. ٢- تنامت القدرة على قراءة العقل الأمني للاحتلال. ٣- اتخذت إجراءات استباقية كالتحوط على بعض الرفاق أو تنظيف بعض الأماكن قبل مداهمتها. ٤- تامين المزيد من البيوت والأماكن السرية التي يجهلها العدو ٥- الابتعاد بالمتخفين والمطاردين عن دوائر الخطر. ٦- قطع الصلة مؤقتا "بأهداف" يتعقبها الاحتلال. ٧- توسيع النسيج الاجتماعي للتغطية على الصلات والابتعاد عن الشللية التنظيمية. ٨- الفحص السريع للثغرات وأسباب الاعتقالات وترميمها فوراً. ٩- تشديد الضوابط السرية واختصار التقارير. ١٠- اعتماد لغة الكتابة في بعض اللقاءات بديلا عن الحديث خشية أجهزة التصنت. ١١- عدم استخدام الهاتف. ١٢- تبديل وتجميد بعض حلقات اللوجستيك ١٣- تقييم الموقف الأمني الناشئ، فقد يستدعي التواري عن الأنظار (التهدئة) أو تصعيد الموقف للتأكيد على أن الضربة الاعتقالية أخطأت هدفها. ١٤- نهش العدو في مكان لا يتوقعه كرسالة مفادها: إننا لا نصطبر على الضربات فقط بل نستطيع الفعل أيضا، بما يتطلبه ذلك من جهوزية من جهات الاختصاص، وهذا الخط كان فقيراً في مجمل المسيرة الفلسطينية، وأحيانا اقرب

للاستعراضية التي تعود بمزيد من الخسائر.

وأكثر من مصدر أكد أن الجبهة لم يكن لديها جهاز امني متخصص في الداخل أو "خلية أزمات" وإنما كانت "تتولى ذلك كجزء من العمل وحسب، رفع من قدرتها وحنكتها توافر مسؤولين أكفاء".

وهناك سيل من التعاميم والمقالات عثرنا على واحد منها (الملحق رقم ٤- التعميم الأمني).

٣- السرية الداخلية والسرية الخارجية

يكاد يرقى هذا العنوان إلى مستوى قانون الحياة. فدون الجمع الخلاق بين السرية الداخلية والخارجية يتعذر وجود الحزب الثوري السري. وتأتي السرية لحماية الوجود وضمان فعله، فهي وسيلة وليست هدفا بذاتها. أي أنها متطلب حقيقي وليست طقوسا للعبادة أو بهلوانيات مشهدية يتلاعب بها البعض لتوليد إيحاءات بأهميته أو «وتوتات» يستثمرها لمصلحته الشخصية. فهي أكثر جدية من هذه الصبيانيات، تستدعيها العملية الصراعية الراديكالية مع الأعداء...

وعملية إبداعية الحفاظ على السرية الداخلية، كل ضمن تخصصه ومرتبته وموقع نشاطه، وفي ذات الوقت تعميم ما ينبغي تعميمه، وضمان القرار الجماعي.

أشارت المقابلات والمعلومات إلى أن المسؤول الأول في أي مستوى حزبي سواء كان قاعديا أو كادريا أو قياديا، هو مثابة :مدير الشركة» الذي يعرف كل شيء، ودون ذلك لا يستطيع تأدية مهامه. ورفقاؤه في المستوى المحدد يقفون بصورة جماعية ويقررون ما ينبغي تقريره في إطار صلاحياتهم، لكن دون التطرق للأسماء الصريحة لمرؤوسيهم. فالسرية تتمحور أكثر ما تتمحور على الأسماء الصريحة وبعض المهام. أي أن السرية الداخلية تشمل نفس المستوى. أما أن تشمل مستويات أخرى ولجان أخرى فهذا من البدهيات. إذ لا صلة مباشرة بين لجنة كادرية وأخرى أو بين منظمة قاعدية وأخرى أو بين منطقة حزبية وأخرى أو بين لجنة تنظيمية ولجنة وظيفية، وتحصيل حاصل أن لا تعرض الكف اليمنى أسرارها على الكف اليسرى. فالأمور يتم تداولها ضمن المرتبة المحددة والمرجعية المحددة وحسب... هذا بشكل عام أما في الملموس فثمة ترجمات معاكسة ايضا.

وتسيّب له معانيه أن تتميع الحدود وتنفتح القنوات بين المستويات والمواقع وكأن الحزب السري حزب علني. فالحزب السري لا يسمح بذلك، وان تحقق فهذا معناه انتهاك احد قوانين العمل سواء

من باب الثرثرة أو الأهداف المغرضة غير الشريفة كالشللية أو المناكفة أو التخندقات أو الانحراف اليميني... وهذا كله يخالف أصول العمل الحزبي.

وطالما أن اللجنة الأيديولوجية سر مغلق والقيادة التنظيمية سر مغلق وقيادة المنطقة سر مغلق والخلية سر مغلق... أي أن الحدود محفوظة بين التخصصات والمراتب، فالحزب السري بخير. وأي اختراق امني أو خلل امني إنما يمكن حصره في نطاق ضيق ووضع الأصبع عليه والتخلص منه...

(أما أن يعتقل قيادي على سبيل المثال، أو يتم رصد اجتماعات لجنة كادرية وتوجيه ضربة لها أو لبعضها أو «للرؤوس الحامية» أو اصطياد مقاومين ومخابئهم... دون معرفة مصدر الخلل بسبب شيوع «الإسرار» وامّحاء الحدود، فهذه علامة شيخوخة توحي بموات الحزب...)(٥٥٢)

إضافة على إجابة رفيقي (أهم شيء هو سرية الهيئة القيادية والسرية فيما بينها. فهي الأكثر أهمية وحسماً، وأي خلل يجر عواقب وخيمة. أي لا يجب أن يرصدها العدو أو أية جهة أخرى. فهي هيئة سرية وقوامها سري واليات عملها سرية... وإن لم يتوافر ذلك يجب إثارة سؤال كبير حولها، فهل هي قيادة حقاً أم مصيدة لغيرها بما هو أكثر خطورة من الميول الانتهازية اليمينية البرجوازية الصغيرة؟

بعدئذ، ثمة سرية داخلية بين أعضائها، فالواحد لا يعرف عن الآخر سوى مهمته، سياسية أو تنظيمية أو... وحينما يعرض تقريره فهو لا يتطرق للأسماء الصريحة، وأحيانا يتداول مع المسؤول الأول على انفراد بعض الأسرار التنظيمية...)(٥٥٣)

والأسماء المستعارة رمز من رموز العمل السري كما الألقاب والاصطلاحات التي لا يفهمها إلا «أهل البيت» فالمواقع والأنشطة وعدد من المفردات كلها ملغزّة، ولا تستخدم كثيراً في الأحاديث والتقارير، وأحيانا يكون لها أكثر من لقب بما يضمن التعمية... أي أن الأسماء الصريحة تختفي من التداول... ولان الهيئات تتكون عبر سياق، فهي تخلق لغتها الرمزية المفهومة لها دون سواها... وبهذه اللغة تتحدث في الاجتماعات وفي التقارير...

والحزب السري في ظروف بلادنا يمنع تماما أرشفة الذاتيات أو محاضر الاجتماعات والعديد

---

٥٥٢) نفس المرجع

٥٥٣) مفصل تنظيمي

من القرارات وخطط العمل، سواء على الورق أو في أجهزة الكمبيوتر. (فالأرشيف الوحيد المسموح به هو الأرشيف المخزّن في الرأس. وقيادي ضعيف الذاكرة أو بصورة أدق غير متوقد الذاكرة لا يصلح قياديا، ذلك أن معظم عمله يقوم على استدعاء الذاكرة وربط المعطيات بعضها ببعض... فالقيادة ليست مكانا للعجزة وأنصاف الأذكياء، وحينما تصبح كذلك فهي نموذج مكتمل للفشل ونهاية الحزب)[٥٥٤].

وبالعودة للكادر الأول «كانت القيادة تعمم أشياء كثيرة، فالإعلام الداخلي نشط، من مواقف سياسية وفكرية وتنظيمية وأخلاقية وفعاليات، سواء عبر التعاميم والنشرات أو عبر المراسلات الخاصة والرد على التقارير.. كل ذلك بصورة مجردة، ونادراً ملموسة، فالملموس يتم تداوله في الاجتماع الحزبي وحسب.

ما تلقيناه من تعاميم وتحليلات اكثر من أن يحصى.

أما تقاريرنا لأعلى فهي واضحة، ملموسة لا التباس فيها، إذا كانت القيادة ترفض اللغة المعوّمة والمعلومات الضبابية... فذلك لأنها تستند إليها في تقييم الأمور والمتابعة...

لقد عملت أكثر من نصف عمري في الحزب واعتقلت عدة مرات غير انه لم يحدث ولو مرة واحدة أن ضبطت المخابرات تقريراً أو نشرة أو مستمسكاً...»

أضاف كادر آخر «كانت التربية حازمة بشأن السرية الخارجية... ولا اعرف عن السبعينات، ولكن ما اعرفه أن تعميما صدر في ٧٨ أو ٧٩ يقطع بالقول: إن الاعتراف في الزنازين خيانة للحزب والرفاقية، والشروحات صدرت لاحقا في «فلسفة المواجهة» والتعبئة كانت باتجاه الصمود والتحدي وعدم الانحناء مدللة على ذلك بصمود عدد من رفاقنا، وتمت طباعة كتاب الثوري التشيكي فوتشيك (تحت أعواد المشانق) وكتاب الثوري التشيلي روجارس (أبداً لن نركع) وناقشناهما في الاجتماعات الحزبية، والتسريبات محظورة تماما للعائلة والأصدقاء والأقارب، فعالم الحزب للحزب، واذكر أننا خفضنا مرتبة رفيق لأنه سرّب لزوجته وهي عضو في الحزب... بمثل هذه التربية الصارمة من السرية واجهنا الاعتقال وصمدنا، فالرخاوة لا ينتج عنها إلا رخاوة... أنظر لحالنا اليوم لقد تبخرنا وتراهم على التلفزيونات يسرحون ويمرحون ويجتمعون دون أن يعتقلهم احد...»

---

٥٥٤) مفصل أيديولوجي

المبحث السادس

موضوعات

١ - السرية والتوسع والانتشار

كلما كان التنظيم السري ضيقا وعضويته محدودة أمكن التحكم فيه بسهولة اكبر. غير أن التنظيم المحدود النخبوي لا يستطيع تأدية وظيفته السياسية. ومن هنا جاءت أهمية توسيع عضوية الحزب وتوسيع انتشاره في كل مكان، على طريق بناء الحزب الجماهيري.

بلغت عضوية الحزب البلشفي اللينيني ما قبل إطاحة النظام القيصري في أكتوبر/١٩١٧ حوالي ١٣٠ ألفاً، وبلغ عدد السكان ١٣٠ مليون نسمة، ولكن في شباط ١٩١٨ حصل الحزب البلشفي في انتخابات الجمعية التأسيسية على ٦٥٪ من الأصوات. وهنا قال لينين «إن حزبا لا يحظى بالأغلبية ليس حزبا ولا يساوي شيئاً».

وفي التجربة الفلسطينية تسابقت التنظيمات على استقطاب الجماهير سواء لزيادة نفوذها السياسي في أوساط الشعب، أو لتأدية مهامها المتنوعة التحررية والنقابية والتأطيرية... الخ.

فهل تتعارض السرية والجماهيرية؟

كل شيء وحدة تناقضية. والمهارة كيف تتوحد النقائض؟ فقد يكون الحزب هامشيا وعلنيا في آن أو جماهيريا وعلنيا، وقد يكون هامشيا وسريا، أو جماهيريا وسريا... فالمسألة تتعلق بالقيادة وطرائق عملها.

«ولأننا أدركنا ذلك، كان علينا التشديد على قواعد العمل السري من جهة ومضاعفة العضوية والانتشار من جهة أخرى. وثمة تواشج بين مضاعفة العضوية ومضاعفة الانتشار. إذ كلما انتشر الحزب في موقع جديد، مخيم أو قرية أو حي أو مؤسسة تعليمية أو نادٍ أو نقابة أو... استقطب عناصر جديدة. «

ومن الواضح أن اعتقال المئات من عناصر الجبهة في أواخر الستينات لم يُبق منها سوى اقل من القليل، وكان العديد كادرات في حركة القوميين العرب ممن حازوا على شهادات جامعية وأكاديمية عليا، أما الضربة التصفوية التي شملت مئات قليلة عام ٧٦ فلم تبق سوى آحاد، وكانت الغالبية

من العناصر الطلابية والعمالية مع قلة من المثقفين وكوادر سابقة في حركة القوميين العرب... أما ضربات أواسط الثمانينات التي حصدت المئات وأواخر الثمانينات حيث أصبح للجبهة أكثر من ألفين في سجون الاحتلال، فلم تقصم ظهر الجبهة، وكان هناك الآلاف سواهم وأضعافهم من الأنصار في ميدان الانتفاضة. «ومعروف ما نشره المعلق العسكري زئيف شيف الذي توقع اعتقال خمسة آلاف بعد اعتقال قطامش عام ٩٢، ولكن خاب توقعه فلم يعتقل سواه وتحول للإداري...»

وكانت توجيهات الجبهة حينذاك المزيد من الانتشار ومضاعفة العضوية.

أي أن زيادة العضوية وزيادة الانتشار مكّنا الجبهة من مضاعفة نشاطها في مختلف الميادين، كما الحفاظ على سرية وجودها وتفشيل هجمات الاحتلال لتصفيتها... وفي منظمات السجن كانت تهيئ المزيد من الكادرات للعمل السري.

وبنفس الاتجاه يتحدث كادر قاعدي وصف نفسه على النحو التالي (كنت عضو رابطة في بداية الانتفاضة وأصبحت عضو قطاع وكانت قرارات أعلى تحفزنا على زيادة العضوية ١٠٠٪ وقد أنجزنا ذلك مرتين وأكثر في العضوية الحزبية كما في «لمش». وكنا نركز على الكيف أما الكم الذي لا يتطور فلا يحصل على العضوية. إذ رغم مشاغلنا الانتفاضية والاعتقالات الواسعة فالعضوية الجديدة تتعبأ بمواقف فكرية وسياسية ويشرح لها النظام الداخلي وتتعمّد في نار الانتفاضة، والأغلبية دخلوا السجون، وقلة قليلة أدينت بأنشطة. فالصمود هو الغالب سواء لصفات شخصية أو للتربية الأمنية.

كلنا في المنظمة الرابطية شاركنا بفعاليات انتفاضية عديدة من تظاهرات ورشق حجارة وزجاجات حارقة، ومهمات أمنية... وقد حصلنا على اعتراف الجماهير الذي تجسد بوضوح في إقبال أعداد من الشباب على الحزب وفي إنشاء لجنة مرأة، وبيت احد كوادرنا المحررين استقبل المهنئين أربعة أيام متتالية.) (٥٥٥)

«الامتداد والانتشار لا يعنيان الميوعة والاستعراضية، إذ كنا ننشط ميدانيا كوطنيين أما صلاتنا الحزبية فهي مستورة ولا نكشفها في الزنازين. وحسب اعتقادي إن النشاط الانتفاضي يصّلب العضوية. فالانتفاضة محطة تصليبية وليست محطة لهتك الأسرار. وحتى في السجون كنا نتصرف كاداريين ويساريين... هنا خيمة اليسار وليس خيمة الجبهة الشعبية. وإذا لم تنخرط روابطنا في الانتفاضة فما الجدوى من وجودها؟»

٥٥٥) كادر وسيط

كانت التعميمات والقرارات توحد بين الانتفاضة كحلقة مركزية وزيادة العضوية احتكاما لمعايير العضوية...

وفي السجون كان هناك ايضاً مجرد نشطاء انتفاضيين معبئين بأقل القليل من ثقافة الانتفاضة والفكر السياسي للجبهة، وهذا يعكس استقطابهم دون مرورهم بمرحلة الترشيح، أو اختزلت هذه المرحلة، ولكن السجن مدرسة، كما يقال، وهو يوفر مناخات ومحاضرات ونقاشات ترمم الثغرات وتؤسس لعضوية حزبية صحيحة. وهؤلاء جميعا استأنفوا النضال بعد إطلاق سراحهم واعتقلوا ثانية وتأدلجوا ثانية... كانت السجون في ذلك الوقت مدرسة كادر وليس كما هي الحال الآن. و(أهم قيادات الجبهة كانوا في السجون وهم الذين قادوا عملية التثقيف والتحزيب... ولا نسمع عن عدد منهم هذه الأيام، والذين نسمع عنهم هم نوعيات أخرى تماما... فلا تثقيف ماركسياً ولا سياسة جذرية ولا منظمات حزبية ولا ما يحزنون... كان موقعنا رابطتين وأضعافهما حلقات عاطفة، أما اليوم فإننا مجرد أفراد يلتقون موسميا... أين ذهبت الجبهة وقيادتها؟)[٥٥٦]

وعليه، فالمسألة في الأفق الحزبي الذي تتسلح به القيادة. فقيادة تطغى عليها الروح العملية، أو تفتقر للقناعات والكفاءات، تنشد للتوسع دون تحزيب، أما إن كانت حزبية حقا وكفوءة حقا، تنتج نشرات وتعميمات وتلزم الجميع بالتثقيف الداخلي علاوة على التثقيف الذاتي، بما في ذلك التربية الأمنية والتصليبية، والالتزام بالنظام الداخلي فيما يختص بآليات قبول العضوية الجديدة وضوابط العمل السري، فإنها قيادة تقود حزباً لا فلولاً.

لا أحد يعرف حجم العضوية بالضبط. ولكن الجبهة مرت بمراحل، وفي كل مرحلة كان لها عضوية. ومسموعاتي ان العضوية في سنوات الاحتلال الأولى كانت بالمئات. وربما اقل في ما اصطلح عليه التجربة المركزية بين ٧٤ – ٧٦ ومئات أخرى في السجون وبعدها حصل انقطاع فظيع... وقد شملت اعتقالات الـ ٨٥ في الضفة وغزة المئات ولكن ذلك لم يشل الجبهة، بل كانت جاهزة للانتفاضة بعد عامين... أما بعدئذ، فيكفي القول انه كان ألف من المحكومين وألف ويزيد في الإداري وهؤلاء يخرجون ويأتي سواهم، دون المساس بحيوية وديناميكية ودور الجبهة...

و(مفيد أن أذكر هنا انه كان يجري الجمع بين الاسم والمسمى، فعضو قطاع يقود رابطة من ثلاثين تقريبا بما يحيط بهم من حلقات «ولش وأنشطة»، وعضو ق.م يقود قطاعاً من ثلاث روابط،

٥٥٦) شخصية تاريخية في الجبهة

وأعلى من ذلك يشمل مسؤوليات وقواماً أكبر... فلا يوجد جنرالات دون جيش وأعضاء لجنة مركزية دون فرع... الحال كانت مختلفة...كنا نبني حزباً وليس ترديداً...)[٥٥٧].

وبالعودة للكادر القاعدي «قد يكون الموقع الحزبي الذي التحقت به أكثر نضجاً من مواقع أخرى. إذ كان يقودنا كادر متمرس ومثقف واعتقل أكثر من مرة... وكان حديثه عن المسؤولين يقترب من الرومانسية، فهو تشرّب منهم الفكر والنهج السياسي الجذري وأصول العمل الحزبي.. وقد عرفته أكثر في السجن بعد اعتقال رفاق مطاردين سجلوا بطولة في الزنازين...

لقد تعلمنا منذ البدء عقد الاجتماعات المنتظمة وكتابة التقرير بصورة صحيحة ومناقشة تعاميم ورسائل حزبية، وكلفنا بإنشاء سياج حلقي، وتكلفنا جميعا بأنشطة ميدانية... وما كنت أتعلمه انقله للحلقة. وكان مسؤولنا دقيقاً في مواعيده ومتابعاته وهذا انتقل إلينا. حتى إن انفلونزا شديدة لم تقعده عن المشاركة في اجتماع. لا يكف عن نصحنا بقراءة بعض الكتب والروايات، ولا يكف عن تغذيتنا بتجربته الأمنية في الزنازين. يردد: إن الصمود أمر طبيعي، أما الانهيار فهو عار ويذكر أمثلة... وكل واحد فينا أصبح لديه مخبأ بالقرب من بيته، وكان ينصحنا بتأمين مخابئ في الجبال وان لم نستخدمها... كان يهيئنا لما هو أبعد.»

«واذكر انه نقد احد الرفاق بقسوة لأنه اتصل به تلفونيا يسأله بلغة غير مفهومة عن موعد الاجتماع... قال: الاجتماعات لا تحدد بالتليفونات... ولم يكن لدى أي منا سيارة، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن استقطبنا سائقاً موثوقاً... لقد واجهنا صعوبة في تأمين أماكن للاجتماعات في البداية، وعقدنا اجتماعاتنا حول بيوتنا وأحيانا في البراري أو في الجامعة... ولما بات لبعضنا زوجة وبيت زالت هذه العقبة، فكلنا تزوجنا رفيقات أو أصبحن رفيقات أو أعضاء لجان مرأة باستثناء واحدة...»

«لقد توسعنا، وأصول عملنا أصبحت الأساس لغيرنا... وانتخبنا مسؤول اللجنة الرابطية وكنا منظمة جغرافية وليس مهنية، ضمت عمالا وطلبة ومثقفين... وفي وقت انتقلت أنا لمهمة تنظيمية عمالية...

واذكر أننا كلنا دون استثناء اعتقلنا في فترة الانتفاضة وغالبيتنا أكثر من مرة، ولكن ليس دفعة واحدة، من باب الاشتباه والتصوير الجوي للتظاهرات أو التحقيق مع عملاء، لم يعترف سوى

---

٥٥٧) شخصية مطلعة

عضو خلية، وكلما خرجنا من السجن وجدنا موقعنا التنظيمي قد تقوى وزادت عضويته، فالذين يعتقلون يصمدون والذين يبقون يطورون... إنها أهم تجربة في حياتي وأترحم عليها هذه الأيام».

٢- البنية السرية والتفاعل مع الأحداث العلنية

ثمة وظيفة تاريخية للحزب السري والعلني على حدٍ سواء، وهو لا يستطيع تأدية دوره إلا إذا انخرط في الأحداث، وبدونها يستقيل من السياسة ومن دوره التاريخي.

ولأن للحزب السري خصوصية، ذلك أنه ملاحق واجتماع هيئاته تصطدم بعقبات المكان والزمان، فهو مطالب بتوفير الشروط الفنية التي تؤمن له سير العمل.

قد تبدو ثنائية متناقضة، سريته وعلنية تعبيره، ولكن هذه التناقضية شكلية وحسب، أما في الجوهر فهو موجود أصلاً للتفاعل مع الأحداث وصنع الأحداث.

واستطلاع رأي قبضة من المناضلين يشي بالصورة.

(كان لدينا برنامجنا السنوي، فهو المرجعية والموجه، وهو يوجب علينا المبادرة لتنفيذ بنوده في شتى الميادين، مثلما هناك أحداث مستجدة تتوالد في غمرة الصراع والحركة الواقعية، تملي علينا الفعل، التأثر والتأثير.

فمثلا كان علينا إصدار أربعة أعداد من «نشرة الرفاق» سنويا، وإصدار بيانات في ١٢/١١ و١١/٢ و٥ حزيران .... ولكن قد تستجد أمور تنظيمية توجب إصدار تعميم سريع دون انتظار « نشرة الرفاق»، وقد يستجد تحرك سياسي كزيارة السادات للقدس أو زيارة شولتز لفلسطين، بما يستدعي تصدير بيانين سياسيين نقول فيهما كلمتنا لتعبئة الجماهير بمخاطر هاتين الزيارتين) .(٥٥٨)

وكان الخط العام يوصي بالمبادرة وعدم انتظار القرار في حالة اندلاع تظاهره أو « تحرش» دوريات الجيش بالمواطنين، أو اندفاع عميل للإساءه للناس أو تهديد سلامتهم، أو تسلل شاحنة مستوطنين إلى حي مدني...

و(في انتفاضة الثمانينات كنا نهاجم جماعات أي هدف معادٍ وننصب كمائن بالحجارة والزجاجات ونحرق ما نستطيع حرقه من حافلات وجيبات... الانتفاضة عملية ضخمة وعظيمة،

٥٥٨) أيديولوجي

والعدو مسلح بالرشاشات والمصفحات ولكن العالم رأى على شاشات التلفزة فرار جنوده أمام وابل من الحجارة أو سكب ماء ساخن عليهم.... وما تناقلته وسائل الإعلام عن «عيون الحرامية» التي أصبحت عيون الفدائية حيث قنص شاب واحد أكثر من عشرة جنود)[٥٥٩].

وطبيب لخص المسألة على النحو التالي:

... «صحيح أننا مسيسون ولكن طغى على عملنا النشاط الطبي. إننا نعالج مئات آلاف المرضى سنوياً وعياداتنا تنتشر في عشرات والمواقع وما أكثر المرات التي وجدنا فيها أنفسنا في قلب تظاهرة وجرحى يتساقطون حولنا. كنا نضمد جراحهم ونسارع لنقلهم بعربة الطوارئ أو أية سيارة إلى أقرب مستشفى، وغير مرة أصبح المسعف بحاجة لمن يسعفه. إننا نعيش حالة حرب وقوات الاحتلال لا تعترف بحصانتنا.»

وسجين سياسي حسم موقفه:

(أنا محكوم أكثر من مؤبد وأدانتني محكمة احتلالية بقتل مستعمر وإطلاق نار على دورية جيش فأصيب جندي بجراح بليغة. لست نادماً على شيء، فهؤلاء يحتلون أرضنا ويسقون شعبنا مر العذاب، وعائلتي مشردة منذ عام ٤٨ وهي تعيش في مخيم أقرب لعلب الصفيح، والتحقيق أصابني بتمزقات داخلية تسبب لي الألم في فصل الشتاء .... لا حل إلا بعودة حقوقنا)[٥٦٠].

٣- المهمات وجهوزية الأداة ونقاط قوة وضعف العدو

مغامرة مدفوعة الثمن إقدام الحزب على مهمات فوق طاقته في لحظة معينة، كما مغامرة مدفوعة الثمن استفزاز نقاط قوة العدو. وكانت إحدى انتقادات كاسترو لرأس النظام العراقي انه استفز الأمريكان باجتياح الكويت في وقت لم تكن جبهته الداخلية موحدة...

ومعاينة إمكانات الحزب وإمكانات القوى الوطنية واستعدادات الجماهير مسالة سياسية هامة. إذ لا يجوز توريط الحزب في مهمات تفوق طاقته أو توريط الجماهير في تضحيات مضاعفة غير ضرورية أو مطالبتها بالهجوم فيما مزاجها السائد غير هجومي.

(كنا نتردد في دعوة الجماهير للإضراب العام أثناء حصار بيروت أو حرب المخيمات، ذلك أن

---

٥٥٩) كادر موقعي

٥٦٠) مقاتل

الجماهير مصدومة وغير جاهزة ولن تتجاوب مع دعوة اضرابية.

أما أيام إضراب الحركة الأسيرة في نيسان ٨٧، وقد دارت عجلة التأطير الشعبي على نحو ملحوظ، وأهالي آلاف الأسرى يتحرقون للتضامن مع أبنائهم، فكان شعار التخندق مع إضراب الأسرى بالتظاهرة والإضراب والاشتباك بالحجارة والزجاجات الحارقة والأيدي، أمرا ملائما...)[٥٦١]

والإضرابات الجماهيرية العامة غدت تاكتيكا مألوفا بعد انفجار الانتفاضة الكانونية...

و(على الدوام كانت ترفع أصوات مطالبة بالعمل العصابي غير أن ترتيبات الحزب كانت تقضي بفصل العمل السياسي عن العمل العسكري، وجهات متعددة كانت تقوم بمعالجة الأمر...

لقد شددت تعليمات القيادة على الطابع الشعبي للانتفاضة واستدراج المزيد من القطاعات المترددة للتظاهرات والمصادمات وعارضت بوضوح الآراء الداعية «لانتفاضة مسلحة» واعتبرت ذلك نزعة رغائبية دون مقومات ومقبرة سريعة للانتفاضة، رغم بعض الأنشطة الفدائية ومظاهر العنف الشعبي في كل مكان)[٥٦٢].

فنقاط قوة العدو هي جيشه المدجج بالسلاح المتطور، والاحتيال عليه وتحييده ما أمكن يناسب ظروف النضال في الوطن المحتل. فالداخل ليس جنوب لبنان ولا أدغال فيتنام.

و(صادفت في السجن مناضلاً اسمه هتلر ومجموعة حوكمت بتهمة خطف طفل، وهناك من استهدف المستوطنين وهناك من استهدف العملاء أو استهدف المراقص أو الجنود... إن الستراتيجية الكفاحية مرتبكة والعدو لا يتردد في إطلاق نزعاته العنصرية المنفلتة مستفيداً من بعض الثغرات)[٥٦٣].

بلا شك إن إمكانات العدو التدميرية تفوق إمكانات الشعب النضالية، فعلى صعيد القوى المادية ليس ثمة مقارنة. والمهارة تكمن في تحييد ما أمكن من قوة العدو التدميرية. ويجوز المقارنة بين «الانتفاضة الأولى والثانية» من هذه الزاوية.

---

٥٦١) قيادي ميداني

٥٦٢) نفس المرجع

٥٦٣) نفس المرجع

وما لا يأخذه العدو بالحسبان هو التفوق الأخلاقي للشعب الذي يناضل في سبيل قضية عادلة، ولا يأخذ بالحسبان عامل الإرادة لدى الشعب الثائر، وهذان العاملان قوة أساسية في ميزان الصراع، وهما حينما يقترنان بخط سياسي صحيح وخط نضالي صحيح وخط تاكتيكي صحيح إنما تتضافر مجموعة عوامل ايجابية تساعد على مراكمة النجاحات على طريق انتزاع الانتصار.

(نعم هناك ضربات قاسية تلقتها الجبهة على أثر بعض الأنشطة، ثبت لاحقا أنها لم تكن مهيأة لامتصاصها)[٥٦٤].

٤- قوة المثل والعمل السري

لقوة المثل سحرها على الدوام، أما في العمل السري فهي تجمع السحر مع الإلهام وتملؤ فراغ ديموقراطية الانتخاب في آن. وحينما يتحد العمل السري بغموضه مع قوة المثل لقيادة مجهولة كفؤة، إنما تتحول لحجر زاوية يبث الطمأنينة ويتكأ عليه في كل الأحوال. وهنا تختلط الحقائق بالتمنيات، وكأن القيادة جهاز دولة قادر على ما لا تقدر عليه. وهذا يمكن أن ينهار دفعة واحدة إذا لم تثبت القيادة جدارتها.

قد تكون قوة المثل كادراً محلياً، فالبطولة تتواجد في كل مكان، ولكن تأثير ذلك يبقى محليا ومحدوداً مهما جرى تعميم هذا النموذج. أما العمل السري فيبقى مشدوداً للقيادة، فهي قوة المثال التي يتصور أحيانا أنها تعيش في أنفاق معتمة أو كهوف أو لا ترى الشمس، وأنها ترقى إلى مستوى قيادة العدو وأكثر. وأنها قادرة على معالجة كل شيء.

(وبقدر ما يشكل ذلك قوة جذب وطاقة تحريك للحزب، بقدر ما يحمل محذورات الثقة العمياء، بما يخَدر صوت النقد للقيادة. والكارثة تتحقق فعلاً إذا استجدت معطيات أفضت إلى حلول قيادة غير كفؤة محل قيادة كفؤة، فلا هي قادرة على النهوض بمتطلبات العمل، ولا قام الجسم التنظيمي بنقدها وإصلاح حالها، فيتفكك وتذروه الرياح.)[٥٦٥]

الفكر يبصّر ويرشد بلا أدنى ريب، ويزود الأعضاء بقوة معنوية وثقافة واسعة، ويجيب عن أسئلة كثيرة، والنضال الملموس سيما النجاحات تغذي قناعات ومعنويات الأعضاء، كما أن نظام العمل الجماعي يؤمن دفيئة وسياجاً حامياً للجميع... ولكن كل ذلك وسواه يتماسس في شيء ما، هو القيادة السرية.

---

٥٦٤) نفس المرجع

٥٦٥) مفصل أيديولوجي

(لقد تشكلت ثقتنا بالقيادة سنة بعد سنة وموقفاً بعد موقف، وكلما أحرزنا تقدما أهديناه ضمنياً للقيادة، وكلما صدر قرار عنها التحمنا به مهما علت تضحياته. كانت البوصلة. للحكيم منزلة استثنائية ولكنها مجردة تقريباً، فنحن نقرأ تصريحاته ونرى صوره في المجلات والجرائد... أما قيادتنا السرية فهي تتنفس معنا وعلى وقع خطواتها نمشي ونضبط حركتنا، فهي اقرب إلى الملموس والحاضر يوميا... ومرات صمدت كادرات بارزة وفي ذهنها أسماء قيادية تتحدث معها وتتوقع منها الصمود، ومهمات عديدة أنجزتها لكي تفخر بنفسها وتفخر بها قيادتها وتتلقى رسالة تثمينية منها. لقد جاءتني رسالة مرة من أعلى تقول «إنك مرشح لمهام أوسع» وهذا ترك بصمات كبيرة عليّ. وهناك مسلكيات شائنة أو خائبة عدل عنها البعض لأنه لا يستطيع أن يقف مطأطئ الرأس أمام القيادة...

ليس ثمة مبالغة في القول إن القيادة ارتقت إلى مستوى الضمير المحّفز. وغير مرة خرج كادر من السجن مستاءً من تجارب سابقة وفي نيته «الاستراحة» لبعض الوقت، ولكن ما أن يلتقي بقيادي يثق به حتى يتخلى عن تحفظاته ونواياه ويندفع على الفور معلنا استعداده لكل المهمات... طبعا لا يمكن الثقة بأية قيادة، فالقيادة التي وثقنا بها هي القيادة التي عملنا وذقنا معها حلاوة الانتصارات ومرارة العذابات، وتوحدنا معها كما يتوحد اللحم مع العظم أي ليس ما هو سطحي ومخصي هذه الأيام... لقد تقهقرنا ونشأت قوى سياسية جديدة حلت محلنا...)[٥٦٦]

وشخصية مخضرمة قالت (كانت تجمعنا أرقى المفاهيم والأخلاقيات... والانتفاضة اغتيلت... ودون مبالغة لقد كنا الضمير الحي تظللنا المحبة والدفء الرفاقيان. نتميز سلوكيا وثقافيا ونتمتع بحالة معنوية راقية ونقبض بقوة على حلم التحرير، ونقاء مالي ومصداقية سياسية.

وقد واجهنا الخط المستسلم دون التفات للإغراءات... ولكن هذا كله ذهب. لم أكن متفرغا ولكنني أعطيت ما استطيع والكثير من المهام كانت تستغرق اليوم بكامله لا عمل ولا عائلة... القيادة عامل حاسم ما لم يكن ثمة فساد، أما اليوم... كان يسيطر علينا متطلب تطوير الجبهة وتطوير الصراع ولا نبحث عن مطالب شخصية ونتجشم أعباء أكبر منا ونرتقي إلى مستواها)[٥٦٧].

٥- الاجتماع ببوصلة القرار

يعكس القرار وحدة التفكير ووجهة التفكير، أما التنفيذ فيعكس وحدة الإرادة وتحفيز الإرادة.

٥٦٦) نفس المرجع

٥٦٧) مخضرم

وإضافة للقرارات الستراتيجية التي تتعلق برؤية الحزب وبرنامجه وطبقات الثورة والتحالفات والتناقضات، ثمة قرارات تاكتيكية لا تحصى في جميع الميادين. والاجتماع عادة هو هيئة القرار، ففيه يجري تداول المعطيات وتقييم الموقف واستخراج القرار.

وجدول الاجتماع يحدد سلفا ويقوده المسؤول أو على الأقل ثمة بنود محددة للاجتماع، خصوصا متابعة تنفيذ القرارات التنظيمية ارتباطا بالخطة السنوية أو بمهام محددة كالامتداد والتفعيل والانتشار والمهام الميدانية، والتعبئة الفكرية والسياسية والأمنية، كما موضوعات من النشريات والتعاميم والتحاليل السياسية... «والقيادة لم تكن بخيلة في النشريات الداخلية وبعض الرفاق كانوا يساهمون، تقارير ميدانية أو تجارب أو مقالات أو وجهات نظر، وكنا نرتاح لنشر هذه المساهمات...»

(كنا نجتمع كلجنة بصورة منتظمة في البيوت، وهذا مقدس، كل أسبوعين أو كل أسبوع، والخلايا أسبوعيا، إضافة للقاء الثنائي كلما دعت الحاجة أو اقتضت المتابعة، وهذا يحصل أكثر من مرة أسبوعيا. ومثل هذه اللقاءات قد تستغرق دقائق أو نصف ساعة، أما اجتماع اللجنة فهو في العادة يغطي موضوعات العمل ومتابعة تنفيذ القرارات السابقة، والتثقيف، بما يصل لساعتين أو ثلاث؟، والوقفات نصف السنوية والسنوية قد تستغرق يومين أو أكثر...

صحيح أن الحزب يوصي بتركيز الجهد على العمل الخارجي، ولكن هذا لا يستقيم إلا إذا استقام العمل الداخلي، خصوصا، الاجتماعات وما تفضي إليه، فهي بوصلة العمل) [٥٦٨].

ومن الواضح أن لطابع النشاط أثراً مقرراً على طابع الاجتماع وشكله... فللعمل السياسي والتنظيمي والجماهيري طابع وشكل، وهو الأكثر شيوعا، أما العمل الوظيفي والميداني والأيديولوجي فله طابع آخر وشكل آخر...

«كنا نلتقي أحيانا لدقائق في الشارع، أو في مقهى، أو بالقرب من دار عبادة، لتبليغ أمر ما أو الاتفاق على أمر ما. واذكر أن مسؤولي التقاني أكثر من مرة في البراري ملثما، ولم اعرفه لهذا اليوم، وفي السجن كان احدهم قريبا من ملامحه ولكنه لم يصارحني بشيء...

وقد استخدمنا النقطة الميتة لتسليم نشريات أو أموال أو رسائل أو... كما حصل أن التقينا في الليل في ظلال شجرة أو بجانب ملعب أو حتى في باص لثوانٍ معدودة أو دقيقة دون تبادل حديث،

٥٦٨) كادر وسيط

مجرد النطق بكلمة السر وتسليم واستلام...

وحصل أن تسلمت رفيقاً اجهل أي شيء شخصي عنه، قمت بإيصاله لبيت أو مكان محدد ولم التقه ثانية...

وعلى فترات كانت علاقتي افرادية، وقد دأب رفيق على شرح موضوعات أيديولوجية وسياسية وأمنية كانت تستغرق أحيانا بضع ساعات أو ساعتين وأكثر...

وشرح لي عن الثورة الكوبية، وزودني بكتاب (أحلامي لا تعرف حدود) عن جيفارا وعن الثورة الروسية، وزودني بكتاب عن فرونزه وناقش معي بإسهاب (نظريات حديثة حول الثورة) لجاك ووديس، وقرأت كتاب «معذبو الأرض» لفرانز فانون... أما تعميمات المكتب السياسي وإصدارات الداخل فكنت أتلقفها بلهفة وأناقش الرفيق بمواقفنا وتفكيرنا السياسي... وكنت أتساءل لماذا لا يتوحد اليسار؟ فيقوم الرفيق بشرح الفوارق مع ضرورة التحالفات السياسية والنقابية...»

وكما يبدو فإن هناك اجتماعات نوعية مخصصة لموضوع محدد سياسي أو فكري، بما يشبه حلقة نقاش، أما الأكثر حصراً فهي الاجتماعات النوعية التي تنعكس في قرارات قيادية لتوجيه العمل...

(طبعا كنا نعقد اجتماعات تخصص للوضع السياسي. وهذا دأبنا عليه زمنا طويلاً.

كانت أمامنا مواقف القوى وخلاصة اتصالاتنا معها، كما على الطاولة المستجدات السياسية وسياسات الاحتلال، ونتابع الوضع العربي والدولي وأحوال الثورة وما يرشح من «تونس» و«دمشق».

وفي شهور الانتفاضة كان يتمحور نقاشنا على فهم هذه الطفرة وإذكائها وتجنيد كل القوى للانخراط فيها، ونخلص إلى رسم التاكتيكات، وتوحيد تفكيرنا مع المرجعية الحزبية، كنا إرادة واحدة تلتحم بهموم الشعب وتضحيات الشعب. لا ندعي لأنفسنا الأستذة، فنحن طليعة ثورية متفانية...

وآراؤنا كانت تنعكس في تحليلات الحزب السياسية وقراراته وتوجهاته. لم نكن نغرد بمعزل «كل يغني على ليلاه» بل كنّا فريقاً بكل معنى الكلمة، ورغم احترامنا وثقتنا بالرفاق القياديين، ونستميت لتنفيذ القرارات، غير أن لا حواجز بيننا، فالروح صافية ونقية وتخلو من المفاسد)[٥٦٩].

---

٥٦٩) مخضرم سياسي

٦- العمل الفكري والإعلامي:

كانت البداية جهوداً فردية، ولكن تنامي البنية التنظيمية وتحرر بعض الكادرات من السجن رفد العمل الفكري والصحفي بأقلام إضافية فتكونت قدرة في فترة الثمانينات على إصدار كراسات وكتب ونشريات وصحافة علنية. وبعضها لا يزال على رفوف المكتبات ويحتفظ براهنيته.

«صحيح انه لم تتشكل لجنة تخصصية، ولكن المع المفاصل التنظيمية كانت هي نفسها ألمع العقول النظرية والصحافية، وكان يتوافر ضمن الآلية الحزبية، ما يكفي من وقت لنقاشات وتفاعلات معمقة وتبادل آراء، الأمر الذي ينعكس في الإصدارات ناهيكم عن المساهمات. فنشرة «الرفاق» أو «الثورة مستمرة» أو «قضايا الساعة» أو «التصدي» كلها تضم بين دفتيها مساهمات قبضة من الرفاق. وعلى نطاق أوسع مع أقلام صديقة في الإصدارات البحثية «لمركز الزهراء» فضلاً عن الصحافة العلنية... وهذه حال صحيفة «التقدم» الطالبية ونشريات عديدة للأطر النقابية والخدمية.

كان يتميز إنتاجنا الإعلامي والدعاوي بالحيوية والغنى ويشارك فيه عشرات الأقلام... وهذا يتقدم على مستوى العمل الفلسطيني وإن شابه ثغرتان: أ- لم يرق إلى مستوى دائرة متخصصة للعمل الفكري والإعلامي. ب- كان المستوى متوسطاً، في الاجمال مع تميز أحيانا، من ناحية العمق والشكل في عدد من الدراسات والإشراقات والتحليلات والمعالجات...»

والعمل الثوري شأن أية مؤسسة أخرى، يلزم القيادة باتخاذ القرار في الوقت المحدد دون تأخير، بل إن التأخير قد يجعله مفوّتا بما يعنيه ذلك من أضرار، وأحيانا يناقش مرة أخرى أو كما يقال «القراءة الثانية»...

والامتحان الجدي أن يصار لاستخلاص القرار الصحيح في اللحظة المناسبة.

والعمل الفكري والإعلامي للجبهة في الوطن المحتل هو على قدر من التشعب بحيث يستحق بحثاً مستقلاً.

٧- القرار والمتابعة والعمل السري

كمحصلة عامة، فإن العمل الثوري، هو سلسلة قرارات في جميع الميادين، قرارات تاكتيكية أو إستراتيجية أو تعالج قضية محددة أو تستجيب لحدث معين أو ترسم توجها، وبالتالي الانغماس في تطبيقها.

(من بين القرارات الكبرى في مسيرتنا، عقد العزم على مقاومة المحتل في الأسابيع الأولى من هزيمة حزيران ٦٧ واستمرار هذا الخط على امتداد السنين، وقرار بناء تجربة مركزية عام ٧٤، وتكليف منظمات الأسر بمتابعة قضايا كفاحية مباشرة أو من خلال مندوب لها والتعبئة بقرار الصمود عام ٧٨، واعتبار الانكسار تفريطا بالشرف الحزبي، ومركزة العمل الجماهيري والانتقال من الحلقي للحزبي عام ٨٣، والانخراط في الانتفاضة أواخر ٨٧، ومضاعفة العضوية الحزبية سنويا بين ٨٨ – ٩١....)[٥٧٠]

وهناك مئات القرارات الرئيسة والفرعية في شتى مجالات العمل التنظيمي، النقابي، الأيديولوجي، الإعلامي، الميداني... المحلي والمركزي، القاعدي والقيادي...

وكان التمرد على الاعتقال وعدم الامتثال له قراراً حفظ لبعض الرفاق طاقتهم في سنوات الاحتلال الأولى حيث امتزجت مع الرفد القيادي والكادري الذي عبر الحدود، بما شكل توطئة لظاهرة المطاردين المسلحين ليمهد ذلك لقرار الاستخفاء وآثاره.

وقرار مركزة العمل عام ٧٤، كان قفزة نظرية بصرف النظر عن الجدل حول توافر شروطه، بل مهد لقرار ابعد مدى هو تحزيب العمل عام ٨٣ تجاوزا للحلقية، وقرار السماح لمنظمات الأسر بمتابعة بعض المهام العملية أطلق أيديها بما يتجاوز قدرة البدايات التنظيمية المتعثرة خارج السجن، ناهيكم عن تقليص الأضرار. وهذه حال قرار المبادرة الذي تجاوز فيه بعض النشطاء إمكانات وقدرة مسؤوليهم في الحقل الميداني.

وجاء قرار الرهان على الكادر الشبابي، دون الاحتكام للألقاب المركزية عام ٨٥ إنقاذيا ومنصة انطلاق...

وكذا إصدار نشرة «الرفاق» الداخلية بأبعادها التنظيمية والفكرية، ونشرة «الثورة مستمرة» كآلية تعبئة للجمهور وأداة استقطاب للأنصار والمريدين...

وقرار رعاية الموهوبين، بتوسيع أوسع تفاعل معهم، وإناطة المزيد من المهام بهم، تسريعا وتدعيما لفريق المحترفين الثوريين...

وقرار مركزة العمل النسوي دفع هذا القطاع وبلور كفاءات متقدمة...

---

٥٧٠) تاريخي

وقرار صرف ثلثي التفرغ رفد الصندوق المالي بمبالغ جنبت العمل الاختناقات في الأرض المحتلة.

و وو ....

وما يبرر القرار ليس صوابيته فقط، إذ أن القرارات الخاطئة تعود بالوبال على العمل، بل سرعة استخراجه أيضا، فالتباطؤ يعادل ضياع اللحظة، أي المعطيات التي توجب القرار، وهذا يستدعي بالتالي، عدم تفويته وإشغال الاجتماعات الحزبية في موضوعات أخرى. فلينين كتب عن «اللحظة المناسبة» و«الحلقة المركزية».

ويلي القرار وجزء منه في آن متابعة تنفيذه وتوتير الجميع للانخراط في تحقيقه عمليا. (إذ ما أهمية إصدار بيان إن لم يوزع، وما أهمية اتخاذ قرار بمضاعفة العضوية إن لم ينغمس الجميع في تنفيذه، وما أهمية تنظير الكفاح المسلح إن لم يتم الانخراط فيه... ومن هنا تحدث لينين عن الصدق في السياسة بأنه مطابقة الأقوال بالأفعال.) [٥٧١]

وليس أسوأ من الاشتغال في قرارات تتجاهل أو لا تمسك بالحلقة المركزية، فالقرارات كما المجهود ينبغي أن يتصديا أولا للحلقة المركزية. بل إن استخراج الحلقة المركزية هو قرار وترجمتها والوفاء باستحقاقاتها هو قرار أيضا. ومع كل نجاح جدي يتأكد الامساك بالحلقة المركزية ومع كل فشل جدي يتأكد ضياع الحلقة المركزية.

ولأن العمل السري لا يتقبل ولا يتعايش مع الميوعة والتثاقل حيث يراعى عدم الإكثار من الاجتماعات والاتصالات، ينبغي الدقة والجدية، كيلا تتعوم القرارات وتموت في الطريق. وقيادة لا تنضبط لشروط القرار آنفة الذكر، تكتشف نفسها في واد والأحداث في واد، وعاجزة تماما عن تلبية متطلبات العمل، لا يمر وقت طويل تنفلت تناقضات البناء التنظيمي ويتفكك بنيانه.

ومهم جداً الجمع بين الحاجة الماسة للقرار كبوصلة، وبين أمن العمل، فلا تكون القرارات متسرعة أو سابقة لأوانها أو فوق الجهوزية ولا تحرق بالتالي أوراق العمل السري ونشطاءه. بل إن جزءاً من أمن العمل أن يحافظ على قواعد العمل السري وأدواته. ورفده بمزيد من الإمكانات والطاقات لئلا يتحول الكادر السري لجوكر الكوتشينة، كما التكتم على العديد من القرارات.

---

٥٧١) انتفاضي

٨- البيوت السرية وأمن الاجتماعات والمخابئ

قد تكون هذه جوانب لوجستية وفنية، ولكن دونها لا يستقيم العمل، بل ليس ثمة عمل سري على الإطلاق. وحتى «في الأدغال ثمة قواعد سرية ومخابئ» جيفارا، بل كانت خسارته فادحة في بوليفيا بعد أن وضعت السلطات، المدعومة من أمريكا، يدها على المخبأ الإستراتيجي بما يحويه من أسلحة وأغذية، بعد أيام قليلة من تسلقه ورفاقه جبال بوليفيا... وتجربة المقاومة الأوكرانية والثورة الفيتنامية سجلتا خبرات واسعة في هذا الشأن اتصالا بكثافة واتساع الغابات إلى درجة أن تسع القاعدة لمئات المقاتلين وعوائلهم.

عرف قطاع غزة في أواخر الستينات وبدايات السبعينات خبرة الأوكار التي تُبنى في البيارات، وهذا الشكل كان الأكثر شيوعا، ساعد على ذلك انتشار بيارات الحمضيات في مساحات واسعة، وأوجبه أيضا سهولة محاصرة المخيمات وقصفها واجتياحها، بما يلحق أضراراً بالغة بالمقاومين والمواطنين على حد سواء، إلى درجة أن يقوم شارون بشق طرقات عريضة في عدد من المخيمات وهدم أعداد كبيرة من البيوت لتسهيل السيطرة على المخيمات واصطياد المقاومين...

مثلما عرف قطاع غزة الأوكار تحت البيوت وباحاتها ومرافقها كما الجدار المزدوج والسقف المزدوج...

أما الضفة الفلسطينية فهي أكثر رحابة من قطاع غزة ومساحتها تناهز سبعة عشر ضعفا، ولا تخلو جبالها من كهوف وبعض التلال الحرجية... حيث استقبلت دوريات فدائية عديدة اعتصمت في الجبال أو تسرب بعض نشطائها للمدن والقرى لأغراض التجنيد وتأمين الطعام...

لم تكن خبرة البيوت السرية واضحة إلا كمقرات مؤقتة لفدائيين يمتشقون سلاحهم أو...

فالبيت السري لا يعلم به إلا «أهل الشأن» سواء استخدم للطباعة أو للاجتماعات أو لتخزين النشريات وتوزيعها أو للنوم وقت الاضطرار... ناهيكم عن بيت التخفي الذي يعامل ضمن خصوصيته، أي يقوم عليه من يساعد المتخفي، الذي يحظر عليه الحركة والاحتكاك بالناس إجمالا ويصبح أثراً بعد عين، وأحياناً تتوافر عائلة تحتضنه لبعض الوقت.

كلما كان المتخفي رشيقا، لطيفا، صبورا، معافىً كان أفضل. فمرضه عبء على المحيطين به، وخشونة طباعه أو نزقه قد تجعله يصطدم مع شروط المكان، وإن لم يكن صبوراً سوف تتضاعف معاناته ليس ارتباطا بشروط التخفي المفتوح على عالم المجهول، بل توتير علاقاته كلما استأخر

أحد اللقاء به أو الإجابة عن تساؤل أو الأتيان بخبر أو تقرير... وكلما زادت حركته زادت احتمالات اعتقاله، والبعض يمكن التهاون النسبي مع حركتهم والبعض لا، فالمفاصل الأهم حركتهم محسوبة بالسنتيمتر.

وأجواء الرفاق عادة أكثر اصطباراً على عيوب المتخفي، أما العوائل الصديقة فهي أكثر تحسساً. ويكفي أن يكون مدخنا أحيانا لكي يزعج أو يصدر حشرجات في نومه أو يتمخط بغلظة.

وثمة طقوس، ينبغي مراعاتها، للقاء زوجه أو أمه، منها التباعد والسرية المطلقة ودقة المواعيد، خشية أن يتعارض ذلك مع نظام الأسرة وأنشطتها... او شروط البيت السري.

والبيت السري قد يتحول لمصيدة إن تراخت ضوابطه كأن يجري تعقب أحد الذين يترددون عليه. وبعدها يكفي وضع البيت تحت المراقبة مدة شهر، لاكتشاف «زواره» سيما إذا اجتمعوا في أوقات منتظمة، والباقي يمكن استنتاجه بيسر. أو أن تتواجد سيارة احد «الأهداف» على مقربة من البيت عدة مرات فتتكرر المراقبة ويتكرر الاستنتاج. وحينها يمكن رصد علاقات الذين يترددون على البيت بما يسهل اكتشاف شبكة علاقاتهم، فيحصل العدو على مادة خصبة. فإما أن يقوم بضربة استباقية لعله يكسر احد الحلقات، أو يتصرف بنفس طويل إلى أن يعثر على ثغرة ومستمسكات فيهاجم...

وعليه، فطقوس البيت السري، أو البيت الذي يستخدم لاجتماعات سرية أن يكون سريا حقا، وليس كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال وتكشف جسمها. وهذا يتطلب استبقاء السيارات بعيداً عن أماكن الاجتماعات، والإفادة من الليل كساتر أو الصباح الباكر ما قبل نهوض يوم جديد، واليقظة من قبل كل من يتردد على البيت فلا يتحول لسكين في الظهر.

وقد أتقنت الجبهة هذا الجانب، وإلا كيف نفسر فشل العدو في الوصول لبيوتها السرية كما إفلات المطاردين من قبضة الاعتقال سنوات. وانتظام صدور المطبوعات والقيام بأنشطة متنوعة... و(اذكر مرة نجحت فيها المخابرات بمداهمة بيت في بيت لحم واعتقال من فيه وبحوزتهم أكواع متفجرة ونشريات... ومن المؤكد حصول ثغرات أخرى، ولكنني لست على اطلاع)[٥٧٢].

وقد تكون الحقيقة أعجب من الخيال أحيانا، وإلا كيف نفسر مساهمة مليون فيتنامي في حفر الأنفاق التي قادت لقلعة بيان ديان فو مقر القيادة العسكرية الفرنسية، ومفاجأة الحامية

---

٥٧٢) نفس المرجع

العسكرية وإبادتها عام ١٩٥٤، وعلى اثر ذلك حزم الاستعمار الفرنسي حقائبه ورحل... وكيف نفسر تفوق جهاز امن حزب الله على جهاز امن إسرائيل في حرب ٢٠٠٦ باعتراف لجنة تحقيق إسرائيلية؟ وكيف نفسر تخفي بعض قادة الجبهة سنوات وسنوات؟

(فالسرية هي السلاح الأمضى لمواجهة عدو متفوق، وتبدأ السرية أول ما تبدأ بسرية القيادة وسرية أماكن التجمع والاجتماع، أما في حالة نجاح الوسائل الاستخبارية في اختراق هذا الجدار وتسجيل أهداف كاعتقال متخفين أو ضبط ممتلكات... فلا خيار سوى خيار الصمود. وكل سياق العمل وكل البيئة التربوية إنما تدفع بهذا الاتجاه. ولدينا نماذج صمود ساطعة على هذا الصعيد وتجاربها أضافت إلى الإرث الثوري العالمي.

وهناك مجموعات للنسر الأحمر والفهد الأسود التي برعت في بناء أوكار معقدة بما يشبه سراديب وأنفاقاً وحجرات مسحورة، كما هناك فدائيون حكموا سنوات طويلة دون أن ينجح العدو في الوصول لسلاحهم، كما أن البعض قادوا قوات الاحتلال لمغائر مغلقة ومخابئ صخرية معبأة بالسلاح، بل إن جهاز الكشف عن المعادن عثر على أسلحة في البيوت أيضا... وفي مرات عديدة قام العدو بنسف بيت العائلة قبل أن يستكمل التحقيق انتقاما وترويعا... وهذه وسائل «معتدلة» قياسا بسياسة الاغتيال المأسس وقصف المكاتب والمنازل المدنية بالصواريخ لمواجهة انتفاضة الأقصى) [٥٧٣].

٩- سرية المطابع والجهاز الفني وحلقات الاتصال

تكاد وسائل الإعلام، شأن النظرة الأكاديمية، أن تنطلقا في تقييم الحركة السياسية السرية من خلال ما يصدر عنها من بيانات وتصريحات أولا... وهذه زاوية ليست صحيحة بداهة، فالحركات السياسية هي بنى تنظيمية ووزن جماهيري ونشريات داخلية وفاعلية عملية أولاً.

ومهما عظم شأن الحركة السياسية وتعالى صرحها، فهي يمكن أن ترتبك وتعصف فيها مشكلات شتى إذ ارتبك جهازها الفني المسؤول عن الطباعة والتوزيع والتسلح والمخابئ...

ففي ظل فقر المجتمع المدني الفلسطيني، يتعاظم دور القيادة السياسية، سواء دورها التنظيمي المباشر بتحريك وتوظيف ومتابعة الحركة السياسية أو في تعبئتها وتوجيهها من خلال النشريات. بل إن النشريات تحظى بأهمية مضاعفة في الحركة السرية، ذلك أن صلات القيادة محدودة

---

٥٧٣) مخضرم

والمؤتمرات الواسعة معدومة، والكثير من الأمور تتابع من خلال المراسلات الداخلية.

وعليه، إن أي تماهل أو تقصير من جانب حلقات الاتصال التي تكفل سلاسة وتدفق المراسلات الداخلية، وهذه لها مساحة كبيرة في العمل السري، ينطوي على نتائج سلبية واخلالات مؤكدة.

والحال نفسها بالنسبة للبيانات والتعاميم الداخلية والنشرات... وأي عطب في مطبعة سرية أو تعطل في وسائل النقل المختصة، إنما يعني تأخر وصول الإصدار المحدد في موعده... ماذا لو صدر بيان بمناسبة١١/١٢ في ١٢/١٥ أو تأخر تعميم أمني يحمل توجيهات معينة أسابيع أو نشرة داخلية مدة شهر... فهذا كله يحمل نتائج عكسية... فما بالكم لو شل الجهاز الفني أو صادر العدو المطابع السرية واعتقل القائمين عليها ووضع يده على مخابئ ومراسلات قيادية ونشر ذلك إعلاميا، انه لا يشكل خسارة فقط، بل فضيحة معنوية أيضا.

ومن هنا يجري التشديد على اصطفاء أناس ملائمين للجهاز الفني ولديهم القدرة على حمايته وضمان عمله أيضا. فمثل هذه الوظيفة حساسة أسوة بالمهام الوظيفية الأخرى. فماذا لو تداخلت الوظيفة الفنية السياسية بالوظيفة الفنية العسكرية، وهذا حصل مراراً في المسيرة الفلسطينية، وتمت مصادرة ليس مطابع، بل وأسلحة معا، أو تداخلت الأمور نتيجة صداقات وصلات ميدانية، وان لم تجزها الآليات التنظيمية؟

«أفضل شيء تجزئة التخصصات، فالذين يكتبون لا صلة مباشرة لهم بالذين يطبعون، أو لهم صلة محكمة مستورة، ذلك أن العمل الأيديولوجي سواء تولته لجنة ذات اختصاص او مفاصل قيادية، هو عمل منفصل عن الجهاز الفني والطباعة منفصلة عن جهات التوزيع على المناطق، وهذه منفصلة عن التوزيع الميداني المواقعي، والحلقات الفنية السياسية غير الحلقات الفنية العسكرية... وهناك من يتولى البيوت السرية...»

وكلما تداخلت هذه التخصصات عكست تخلفا وبدائية في العمل التنظيمي. فالتخصص هو احد معايير تطور العملية التنظيمية والإدارية في الحزب الثوري، شأنها شأن العملية الاقتصادية على حد سواء...

وارتباطا بالتخصص يتوالد على الفور الدقة في المواعيد، والدقة في المهام. (بل إنه في السنة الأولى من لانتفاضة المجيدة، طلب الحزب من جميع المناطق تامين قدرة فنية لطباعة النداءات التي تقرها «قوم»، محليا، إذ أن إجراءات الاحتلال من حواجز ومنع تجول... خلقت مصاعب في

الحركة بين مدن الضفة وغزة... ومرات عديدة قام الرفاق بطباعة وتوزيع نداءات «قوم» بالنيابة عن القوى الوطنية، ذلك أن إمكاناتنا كانت منظمة أكثر، وكذا تصنيع زجاجات حارقة. وعموما فإن لدى الحزب فلسفة في التعاطي مع الجهاز الفني والمخابئ تقوم على الدقة وتقليص الحركة، أي عدم الإكثار من التردد على الأماكن السرية، كما اليقظة الدائمة، وهذا يعادل في مجموعه نجاح المهمة أو فشلها... وبطبيعة الحال اصطفاء أناس مناسبين ومؤهلين... إذ ما فائدة جهاز فني طباعته حافلة بالأخطاء أو سياراته غير مجهزة بمخابئ ملائمة أو سائق لا يمتلك الجرأة في مواجهة المفارقات أو لا يعرف الطرقات التي تسمح له بالالتفاف على حواجز الجيش؟

وإذا أردتم تفاصيل أخرى يمكن أن يزودكم بها الرفيق المسؤول في المعتقل فهو أكثر دراية مني) (٥٧٤).

١٠- التمويه والأسماء المستعارة والهويات المزورة ووسائل النقل والنقاط الميتة

ليس ثمة تكافؤ في الصراع بين النضال الفلسطيني ودولة العدو الكولونيالية العنصرية بما تملكه من جيش تكنولوجي نووي وجهاز مخابرات... فدرع الوقاية الذي يحمي النضال هو السرية.

(من ضمن رموز وطقوس السرية التمويه، إذ كل النشطاء والأعضاء ملزمون بالتمويه على انتمائهم ونشاطهم، ومجرد الإعلان عن الانتماء يعني الاعتقال والإدانة. فالاحتلال لا يتهاون مع فصيلة مقاومة، وإذا تهاون اعلم أنها لم تعد فصيلة مقاومة بل جرى تغطيسها تحت سقف يسمح به الاحتلال... وعليه فالاتصالات مموهة والاجتماعات مموهة والمناشطات مموهة... وببعض المجازفة يمكن القول إن كل شيء مموه فيما عدا الفكر السياسي الذي ينبغي أن يكون واضحاً صريحاً غير ملتبس وغير معوّم... بل ينبغي إيجاد ساتر للعلاقات الحزبية، كالنشاط في نادٍ أو نقابة أو مركز ثقافي أو دراسة أو عمل... وأحيانا لمجرد التواجد في مكان «مريب» فالساتر غطاء يساعد على ستر ما تحته...) (٥٧٥)

وربما أن المظهر الأهم، كما تشير تجربة التوبا ماروس، ان يكون العديد من الكادرات مجهولين للمرؤوسين، باستدعاء كادرات من مناطق لتولي مهامّ في مناطق أخرى. وهذا يصلح جزئيا في ظروف النضال الفلسطيني، والصعوبة أن البلاد صغيرة وعدد السكان محدود، والأكثر أهمية أن الغالبية الساحقة للكادرات غير متفرغة وإنما هي مرتبطة بأعمالها وتعليمها...

٥٧٤) مفصل وظيفي

٥٧٥) تاريخي

(اعترف أنني لم اعرف مسؤولي إلا في السجن، وقد اعتقل بعدي بفترة ولأسباب لا تتصل بي، ورفيق آخر عملت معه في لجنة مشتركة، ولم نتبادل أسماء صريحة ولم نتصرف كأننا يعرف بعضنا الآخر، ولكننا في حقيقة الأمر كنا نعرف بعضنا بعضا لأسباب اجتماعية صدفية... ولم نتصارح إلا في السجن.

ورفاق آخرون اعتقلوا بسبب خرق امني، ولكن لم يعتقل مسؤولهم ذلك أنهم لا يعرفون اسمه الصريح، أو هكذا ادعوا وأعطوا روايات متناقضة عن ملامحه...

وفي اعتقال سابق، عرفت رفيقين من ذوي المحكوميات العالية، كان يلتقيهم المسؤول وهو ملثم...) [٥٧٦]

ونشرت الصحافة عن مصادرة مكائن تصوير ووسائل تزوير هويات ووسائل تمويه في اعتقالات عام ٩٢، والكثير من المطاردين والمتخفين ضبطت لديهم هويات مزورة، وهناك من استخدمها في التنقلات... وهذه الخبرة امتلكتها فصائل المقاومة عموما... كما جرت مصادرة أكثر من سيارة اكتشفت فيها مخابئ سرية.

وإن الذين يتقنون مهارات فنية متعددة هم قلة، والكثير من الرفاق لا يتقنون سوى العمل التقليدي... اجتماعات، تقارير، استقطاب... وبالتالي المهم وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب.

(تحضرني حكاية رفيق نجح بصناعة كاتم صوت أما مسؤوله فقد سخر منه، وفقط بعد سنوات اكتشفنا في السجن أن مسؤوله لم يرفع رسالته ودفنها في دروج النسيان...

ورفيق آخر صنع بندقية وقد اعتقل وحكم على ذلك وكان رفيق «برش» وهو من أفضل الرفاق. هذه الأمور كان لها نكهة خاصة وأهمية قبل أوسلو أما اليوم فالسلاح يباع على البسطات وهناك تجار اثروا.

كانت مقاومة دون سلاح واليوم سلاح دون مقاومة) [٥٧٧].

واحد الرموز الشائعة في العمل السري هو الأسماء المستعارة، فالأسماء الصريحة تكاد تندثر،

---

٥٧٦) كادر ميداني

٥٧٧) نفس المرجع

وتحل كلمة رفيق ورفيقة، أو فلان وفلانة بأسماء مستعارة في الاجتماعات والتقارير واللقاءات العابرة... (لم نكن نستخدم لغة المراتب. حتى الردود على تقارير أدنى لم تكن توقع باسم المرتبة الأعلى. فهذا مفهوم ضمنا، ومنطق الرد ومحتواه يشي برسميته...

كما لم نكن نستخدم ختم الجبهة إلا في حالات نادرة... أما في متن التقارير والمراسلات الحزبية فثمة أسماء مستعارة أو أحرف مختصرة أو أرقام أو مصطلحات يفهمها المعنيون وحسب، أو من لهم صلة وهذه تتبدل أحيانا ارتباطا بمتطلبات الأمن.

ونادرا ضبطت المخابرات تقارير ومراسلات، وهذا خلل فظيع...

و(عندما أعتقل قطامش قيل إن المخابرات ضبطت أرشيف الجبهة وخططها ... ووسائل الإعلام طبلت وزمرت، والكثيرون وضعوا أيديهم على قلوبهم... ولكن النتيجة انه لم يعتقل سواه وتحول للإداري وهذا شكل من أشكال الحرب النفسية) (٥٧٨).

أما مفهوم النقطة الميتة في التجربة الفلسطينية، وهي شائعة لدى مختلف فصائل المقاومة، فيقصد به نقطة دون لقاء مباشر بين مناضلين، تستقبل أشياء من جهات مجهولة لتقوم جهات مجهولة أخرى بإفراغها، سواء كانت منشورات أو نقوداً أو رسائل أو أدوات مقاومة...

والغرض من اللجوء إليها هو اعتبارات أمنية، ويقوم بترتيب هذه النقاط ومواعيدها، تسليم واستلام، جهات عليا، إجمالا، على علاقة ما بالجهتين سواء مباشرة أو غير مباشرة.

وأحيانا تستخدم النقطة الميتة لتامين لقاء مباشر بين جهتين، خاصة لاستقبال دوريات فدائية من الخارج أو بغية تهريب احد لخارج الحدود أو لتسليم سلاح أو مطابع أو مال أو...

(رغم التحوطات الأمنية باستخدام النقطة الميتة وهذا في العادة يؤمن نسبة نجاح عالية، نجحت المخابرات في عديد من المرات في رصد النقاط الميتة نتيجة اختراقات أمنية بتسلل عملاء هنا وهناك وأحياناً لمستويات عليا، فوضعت يدها على ما في النقاط من أشخاص أو أسلحة أو مطبوعات، وأحيانا زرعت جهاز تنصت في النقاط الميتة، أو قامت بتفخيخ السلاح أو زرع أجهزة تنصت فيها... فالمسيرة الفلسطينية غنية كما أن تجربة المخابرات غنية أيضا.

---

٥٧٨) إعلامي

والتقيت في السجن بشخص مصاب بعاهة دائمة بل عاهات نتيجة تفخيخ نقطة ميتة)[٥٧٩].

١١- المناقلات وتدوير الكادر والسرية

رغم عدم الميل لكشف الخطوط بعضها على بعض، وهذه تتكشف أكثر ما تتكشف من خلال حركة الكادرات، ذلك أن الهيئات القيادية محدودة والمنظمات القاعدية محصورة المعرفة والدراية بالأسرار، غير أن مسيرة العمل توجب لا محالة إجراء بعض المناقلات لتلبية مطالب أو مهام معينة، سيما نتيجة الاعتقالات التي تورث فراغات وانقطاعات، وهذا يستدعي تكليف كادرات تعيد المياه إلى مسارها. وأحيانا يصار لتدوير الكادرات النابهة الأكثر انجازية لمهام جديدة وإكسابها خبرات جديدة واستثمار طاقتها في خانات جديدة.

(حصل أن اوكلت لمسؤول رابطة «ملمة» رابطة تعرضت لجنتها أو مسؤولها الأول للاعتقال، وكان التقدير أن قوام الرابطة غير مؤهل لقيادة نفسه، فتم استحضار كادر من مكان آخر لتولي هذه المهمة.

وهذا حصل في اللجان القطاعية والمناطقية أيضا.

وهناك من عمل في الحقل التنظيمي والحقل الجماهيري، أو في الحقل التنظيمي والحقل السياسي، سواء انتقل من حقل إلى آخر أو جمع بينهما.

وهناك من تمايز تنظيميا إلى درجة أن «تستقطعه» القيادة لمهام محيطة بها، إذ على البنية التنظيمية تفريخ المزيد من الكادرات لتلبية متطلبات العمل المتنامية.

فنضج العمل يتطلب المزيد من الكادرات المحلية والعامة)[٥٨٠].

ومعروف انه كلما ارتقى السلم التنظيمي للمراتب العليا، تعقدت شروط ومتطلبات العمل، وبالتالي أصبحت السجايا المطلوبة نادرة أكثر فأكثر. فقيادة فرع تتطلب كفاءات وقدرات وسمات أكثر تطوراً من قيادة منطقة، ولجنة سياسية عامة، لها حضور وطني وقدرة تحليلية وكتابية أكثر بكثير من لجنة سياسية محلية «تنفيذية»... وقلم دعاوي يساهم في إصدار نشريات يناط به مهام أكثر تشعبا وعمقاً من صحفي عادي...

---

٥٧٩) أسير

٥٨٠) أسير سابق

(شهدت التجربة في الثمانينات صعود كوكبة من الكادرات الرائعة التي دللت مسيرتها على انجازات بارزة ومواصفات فكرية وعملية وأمنية أهلتها للرهان عليها، وكانت هي على ما أظن الأساس، الذي سمح باستخدام تعبير «الثقات» و«المحترفين الثوريين». فمن هؤلاء تم اصطفاء المفاصل القيادية للعمل التنظيمي بشقيه السري ونصف العلني، وشتى المهام القيادية...

إذ لم يعد بوسع فرد أو هيئة ضيقة حمل أعباء العمل الذي تضخم وتشعبت ميادينه وبات يقتضي التخصص.

ولأننا لسنا جهاز دولة يمكن أن يستوعب كفاءات ينتجها المجتمع والجامعات... كان علينا السير من الألف إلى الياء، أي استقطاب العضو وتربيته حزبيا وانخراطه في المعمعان سنة بعد سنة وعقداً بعد عقد إلى أن يصبح بمستوى الخانات القيادية بما تتطلبه من تضحيات وطول نفس ومزايا، والذين يصمدون عادة في مسيرة طويلة من هذا القبيل ويمتلكون المواصفات الملائمة هم اقل من القليل. إذ يكفي تثاقل في المهام أو تغليب الشخصي على الثوري أو ميوعة ولو جزئية في الزنازين أو تردد في تأدية مهام أو المراوحة في المكان، وهذا يعني التأخر ذلك أن سيرورة الحزب والحياة لا تعرف المراوحة، أو أو... أي شيء من هذا القبيل يجعل صاحبه يفتقد المعايير المطلوبة قياديا. وإذا تميعت المعايير وتميعت القيادة ضاع التنظيم لا محالة، بل إن دولة عظمى ضاعت لأن قيادتها لم تستجب لمتطلبات التطور ومعالجة التناقضات.)[٥٨١]

صحيح أن الحزب تلقى ضربات أفقدته مفاصل قيادية، وصحيح انه لم تتوافر دائما سلاسة في تعبئة الشواغر، بما ضاعف من أعباء البعض، ولكن في النهاية صعدت كادرات شبابية، وراحت تثبت نفسها قولا وعملا، وسجل نشاطها وانجازاتها ومزاياها رفعها إلى أعلى المستويات وأعظم الانجازات. «فالعمل المتكلم» هو المعيار الحاسم في نهاية الأمر.

ولا ريب أن أفضل الكادرات هي التي انبثقت من القاعدة وارتقت تدريجيا، وأحال عليها الحزب المزيد من المهام، ومن الكادرات التي دوّرها الحزب في غير خانة وخانة، الذين صمدوا في تجارب العمل الأشد صعوبة وخطورة وتضحوية وفي الزنازين أيضاً.

من هذه التربة الخصبة والأكثر نقاوة وصلابة نهضت الأسماء الأكثر أهمية في التجربة الحزبية.

---

٥٨١) المرجع السابق

«إن الجمع بين متناقضين: الحفاظ على السرية وتدوير الكادر، هو ضرورة عملية وسياسية، مع الحرص الدائم على تقليص هذه العملية ما أمكن، والنتائج هي التي تحدد فيما إذا كان التدوير المحدد صائباً أم ثمرته فاسدة.»

١٢- أمن التقارير والمراسلات والأرشيف

يتضح من الاحتكاك بمعتقلين كثر من مختلف الفصائل، أن أجهزة امن العدو وضعت يدها مئات المرات على تقارير ومراسلات وأرشيفات بل على مخازن أسلحة، وكان ذلك مقدمة لاعتقالات واسعة.

(بقدر ما تسعفني ذاكرتي، وأنا أيضا اعتقلت لسنوات طويلة، وهذا أتاح لي الاحتكاك برفقاء كثر في سجون عسقلان والسبع ومجيدو ونفحة وسواها، أن مسيرة الجبهة على هذا الصعيد ناصعة نسبياً، فقلما تمت مصادرة سلاح سواء باعترافات أو في الميدان نتيجة اشتباك واستشهاد الرفاق، واستثني من ذلك الدوريات التي كانت تعبر الحدود، إذ أن غالبية هذه الدوريات اعتقلت بعد اشتباك أو دون اشتباك نتيجة الكمائن...

لقد تغيرت المرحلة وأساليب العمل في الثمانينات. لا لم يكن لدينا أرشيف كما هي الحال في أجهزة الدولة، لكيما يدرس الجيل الجديد تجارب الجيل الأسبق، كان الأرشيف الوحيد الموجود هو أرشيف الذاكرة.) (٥٨٢)

وفي مناخات «شبه مستقرة» راح أرشيف الذاكرة ينتقل إلى الصفوف الكادرية الجديدة من خلال المعالجات والمتابعات والتعبئة واستحضار دروس ورموز الأمس...

«كان ثمة بنية تنظيمية قوية وواسعة وتقاليد حزبية، وهذا أتاح تبادل الخبرة واستدعاء الدروس على قاعدة المزيد من الانجاز والتقدم في قاطرة الحزب.

أما لاحقاً فتفككت البنية وتحللت التقاليد وتبعثرت الأسرار وضاعت الدروس وعمت أجواء مريضة...»

وبالفعل فإن مسيرة عقدين أو عقود في ساحة متشعبة، غدت الساحة الأولى في زمن الانتفاض الشعبي في أواخر عام ٨٧، هي أشبه بغابة مترامية الأطراف، ومن المؤكد أن ثغرات وعيوباً كثيرة

---

٥٨٢) المرجع السابق

صاحبها، وفي مقدمتها ضبط تقارير وقوائم وأسماء.

(ولكننا في السجن حملنا نفس توجهاتنا خارج السجن، ممنوع بتاتا تسليم أية وثيقة حزبية للاحتلال، وحصل أن ابتلع بعضنا مراسلات حزبية سواء داخل السجن أو خارجه، أو وضعها بكبسولات في نقاط حساسة بعيداً عن متناول العدو... انظر ما فعله وسام الرفيدي كما يشرحه في روايته «الاقانيم الثلاثة».) [583]

كان من العار أن تضبط مستمسكات، وان حصل فليس اقل من إنكارها مهما كانت الأدلة. فالمسألة مسألة صمود في نهاية الأمر. في السجن هناك من رفضوا تسليم سلاحهم رغم الشواهد والاعترافات، وآخرون أدينوا بتصفية عملاء أو إطلاق نار دون ضبط الأداة... وهناك رفاق كان التحقيق معهم غاشماً لأنهم رفضوا الإدلاء بمعلومات تشي بآليات الطباعة والتوزيع أو... والبشاعة كانت اكبر والصمود كان أعظم لدى القيادات التي صانت المسيرة.

إن مسيرة الجبهة خصبة، وفيها عيوب، ولكنها كمحصلة كانت متفوقة باعتراف جهاز المخابرات الذي وقف مرات ومرات عاجزاً عن متابعة خيط ضبطه او اعتراف انتزعه من واش... أو مستمسكات نتيجة مداهمات مباغتة...

(كان التحدي عالياً، وقلعة الحزب صمدت وتعاظمت، أما الدمار فقد أصابها من داخلها.) [584]

تطورت الجبهة عبر الممارسة، وتعلمت فنون العمل عبر الممارسة، وهذا ينطبق على امن التقارير والمراسلات. وأرشيف الوطن المحتل في الخارج، وفيما عدا النشريات التي كان أرشيفها مبعثراً هنا وهناك وبعض النتف، ليس ثمة أرشيف في الداخل، وهذه كانت إحدى صعوبات هذه الدراسة وإن بعض الأرشيف الذي نشر في الملاحق محدود جداً.

بل دأبت الجبهة على ترميز وتلغيز الكثير من المفردات، بحيث لا يفهمها إلا أصحابها.

«وهذا الترميز من جهة وفصل الخطوط والتخصصات من جهة أخرى، وربط بعض الأنشطة بالسجون والخارج من جهة ثالثة، كان السياج الحامي الذي عزز درع الوقاية الأول: الصمود.»

---

583) المرجع السابق

584) المرجع السابق

أما عن الاتصال بين رفقاء العمل فهو الاتصال المباشر، وأحيانا عبر رسل أو رسائل مغلقة، تخفى جيداً، والتليفون ممنوع وهذه حال الناسخ (الفاكس). و«الحزب ابتكر وسائل فنية مأمونة لا يستطيع العدو الوصول إليها حتى في حالة الاعتقال. ومرة اعتقلوا «واسطة» ظلنوا أن في جوفها ما تخفيه على طريقة العصابات، ولكن دون جدوى إذ طالما لا يوجد خرق امني أو ثرثرة فلا خوف...»

١٣- السرية ورعاية الموهوبين

يتطلب العمل الثوري كل النماذج والطرز، وعليه (مراعاة القابليات) ماركس. والقفز عن الميول والقابليات يلحق ضرراً بالعمل، كأن يتولى كادر مهمة إعلامية بينما مزاياه جماهيرية ويفتقد مواصفات الكادر الإعلامي، أو أن يتولى مهمة تنظيمية سرية بينما ميوله نقابية، أو أن يتولى مهمة قيادية داخلية بينما قابلياته تصلح لعضوية مجلس بلدي... فاصطفاء الكادر مسألة حيوية.

(عرفت في السجن رفاقاً من ذوي الأحكام العالية أدينوا بإطلاق نار على جيش الاحتلال وتصفية عملاء، وبعضهم غير مؤهل وغير مدرب، واحدهم كان يتولى النشرة التي تصدرها المنظمة الاعتقالية، ولو أتيحت له الفرصة، دورة نظرية لثلاثة أو أربعة أعوام في كوبا أو سواها، لامكن تصور أن يتطور باتجاه قلم دعاوي.)(٥٨٥) وهذا يحيلنا إلى الشهيد غسان كنفاني متعدد المواهب، فلولا علاقاته مع مجموعات يسارية ثورية في اليابان وسواها، وتلك المجموعات نفذت أعمالا مسلحة كمطار اللد وسينما حن، لأمكن تصور أن لا تستهدفه أجهزة مخابرات العدو...

هذه ليست دعوة للنهج الإصلاحي الذي يخشى المهام الثورية، بل دعوة للتخطيط الستراتيجي الذي يستثمر في كادرات معينة ويعطيها ما يكفي من وقت ومهام لكيما ترتقي لخانات إستراتيجية لا يقوى عليها إلا حالات فريدة ونادرة. فقد خسرت الساحة الفلسطينية غسان كنفاني، بينما لم تخسر إسماعيل شموط أو إبراهيم نصر الله على سبيل المثال حيث أنتج الأول فناً غزيراً والثاني أدبا مبدعا...

(وعرفت في السجن أيضا رفاقا أحكامهم عالية أدينوا بأنشطة فدائية كإلقاء قنابل ونصب كمائن وتكبيد العدو خسائر بشرية، وقد برز هؤلاء وأصبحوا من قادة الحركة الأسيرة، بمزاياهم التنظيمية والفكرية، ولكن ميولهم وقابليتهم منسجمة، وبعضهم أطلق سراحه في تبادل الأسرى وأعتقل ثانية أو ابتلعته هموم الحياة...)(٥٨٦)

---

٥٨٥) شخصية تاريخية

٥٨٦) نفس المرجع

وتشير الوثائق القليلة التي حصلنا عليها.. إلى أن عام ١٩٨٤ كان منعطفا على صعيد التخصصات ورعاية الموهوبين.....

أي أن التراكم التنظيمي بلغ شأواً بات يسمح بالانتقال للتخصص، ضمن حد أدنى، من جهة، مثلما أن متطلبات العمل باتت تقتضي التخصص من جهة أخرى.

من هنا جاء تشكيل بعض التخصصات، أو بصورة أدق بداياتها، مع بعض التداخل في بعض المهام اتصالا بندرة المفاصل القيادية وطابع المهمات وضوابط العمل السري.

كان الحافز الأول انجاز المهام بأفضل صورة ممكنة، حتى لو تولى ذاك المفصل أو ذاك مهامَّ من ثلاثة أو أربعة بما يقتضيه من جهود وساعات عمل تصل الليل بالنهار، ولكن في نفس الوقت ترفيع عدد من الكادرات للاضطلاع بمهام تخصصية. فالتركيم قطع شوطا، وحفزه يتطلب منح الثقة لمزيد من الكادرات الذين تتحدث عنهم انجازاتهم وصلابتهم... ففي تحدي المهمات تتكون القيادات.

وقبل أن تترسخ التخصصات جاءت الضربة الاعتقالية، أو بصورة أدق الحملات الاعتقالية، ذلك أن كل منطقة حزبية تعرضت لضربة اعتقالية منفصلة عن الثانية، وان كان لنفس الهدف: تصفية امتدادات الجبهة، واقتلاع أنيابها...

كانت حملات لئيمة أصابت عظم ولحم الجبهة ولكنها لم تصبها بمقتل.

(فهمت من الرفاق بعد سنوات، وان لم اشعر بذلك، انه لم يتبق من قياديي الجبهة سوى اقل من القليل، فأحيلت المهام على قيادي لبعض الوقت، لكن المتابعات الحزبية والنشريات والردود على التقارير والمالية والمهام المتنوعة و«آليات» العمل القيادي استمرت على حالها...

كنا نلاحظ أن نفس الخط يخاطبنا وروح معينة تحفزنا ولغة مميزة تسطر التعاميم... ولكن المتابعات تفصيلية كما لو كان مسؤولنا المباشر بيننا، فقررنا الوفاء لصمود رفاقنا في الزنازين وحماية المسيرة وإحراز ما كانوا يتطلعون إليه... وفي ظل هذه المناخات أعربنا وعدد من كادراتنا عن استعدادنا لأية مهام إضافية.)[٥٨٧]

واختزالاً لرأي آخر «الشهادة أعلاه صحيحة مبدئيا، ولكن تفاصيل تلك السنوات أكثر غنى

[٥٨٧] مفصل تنظيمي

ومجازفة ومكابدة، إذ كان ينبغي استخلاص الدروس. وإحكام السيطرة على الامتدادات وتأمين الاستجابة القيادية على كل الصعد، لحماية العمل والمعنوية الرفاقية. فلا اخطر من الشعور باهتزاز الشرط القيادي، فهذا لا يفهم قاعديا بتاتا، فالنظرة رومانسية للقيادة وتكاد تصل ثقة مطلقة، وهذا حافز كبير لمزيد من التضحية ومزيد من الانجاز ومزيد من الصمود من قبل جميع الرفاق خاصة المستويات الكادرية، وعليه يتعين ضمان علاقة مكثفة ومتابعة لحوحة وتلبية متطلباتها والإجابة عن تساؤلاتها بسرعة وحرارة. ففي العمل السري تتضاعف أهمية القيادة مرات بما يفوق حجمها الحقيقي في ظروف أخرى. وقد يتولى قيادي واحد مهام القيادة بما يتطلبه ذلك من حكمة وكفاءة وجهد وتضحيات، إلى أن يسمح العمل بانضمام آخرين إليه...»

كان الصراع مكشوفا مع سلطات الاحتلال وجهاز مخابراتها الشرس الذي لم يتردد في استخدام وسائل تعذيب بشعة جداً وتصفية بعض الرفاق، كان هدف الحملة الواسعة تهشيم عظام الجبهة وإنهاء وجودها، وهذا نشرته الصحافة العبرية... وكان «علينا الصمود والتضحية بكل شيء حتى لو تطلب العمل عشرين ساعة يوميا والطواف على منابع النشاط. والتجاوب الكادري كان هائلا، لا تذمرات ولا تبريرات ولا أعذار ولا انشغال بقضايا عائلية أو هموم عمل أو تعليم، فالحزب أولا، والانتماء بجماع الشخصية... لا. لا. إنه عكس ما يحدث اليوم فتلك سنوات المجد والشرف بنقائه.»

ولكن هل يكفي ما ذكر سالفاً؟

فصرح الحزب له أعمدة، والزمن غير محايد، فان لم تتوافر الأعمدة بأقصى سرعة، يضعف البناء. والبناء قد ينهار تحت ضربات الاعتقال وقد ينهار من ثقل جسمه. وما يصون ذلك هو الأعمدة القوية.

جاءت كلمات الحكيم، ربما عام ٨٤، بان الموهبة لا تتجلى في القتال فقط، بل في السياسة وفي العمل التنظيمي وفي الإبداع الثقافي والفني أيضاً، أو قال شيء من هذا القبيل رداً على انتقادات بعض الرفاق لأنفسهم أثناء حرب بيروت... كما أن بعض رفاق الداخل انتقدوا أنفسهم، فلبنان يشهد حربا والداخل محدود الفاعلية... وهذا خلل استراتيجي في المسيرة الفلسطينية، مرة يضرب بجناح الخارج ومرة يضرب بجناح الداخل دون قدرة على تحريك الجناحين في نفس الوقت. والطائر لا يطير بلا جناحين يرفرفان في الهواء معا...

وقصارى القول، أصبح خط رعاية الموهوبين تقليداً حزبياً، وليس مجرد هممات أو اندفاعات عفوية.

ولئن كان الموهوبون حالات فردية، غير ان رعايتهم تتطلب «سياسة» تنظيمية رسمية، وهذا تجلى من خلال:

١- البحث عن الموهوبين، الأكثر ذكاء، الأكثر قدرة على حل المشكلات، الأكثر تمايزا في أنشطتهم، الأكثر انجازية، الأكثر حضورا، الأكثر تصميما، الأكثر مصابرة، وكان هناك بعض النماذج العملية في السجون وخارج السجون. أي أن المعايير ليست مجردة أو هلامية بل هي نماذج حية أيضاً.

٢- توظيفهم في خانات ملائمة لمواهبهم وقابلياتهم وبما يتجاوب مع متطلبات العمل في آن والتدرج معهم في المهام التي تستحث طاقاتهم وتفجرها بل التعامل معهم بصرامة أكثر من غيرهم، ذلك أن المطلوب منهم أكثر من غيرهم.

٣- الحرص الأمني عليهم، فالحرص عام، ولكن ينبغي تأمين شروط تحمي الموهوب، ذلك أن عدم مراعاة ذلك تجعله ينتقل من مهمة إلى أخرى وتكليفه بمهام مضاعفة نظراً لمزاياه بما ينطوي عليه ذلك من احتمالات تسرّع في اعتقاله....

٤- التفاعل الخاص معه، سواء باللقاء الحي أو عبر الرسائل أو إشراكه في قرارات معينة أو استطلاع رأيه في قضايا لها أهمية وأحيانا الطلب منه الإجابة عن أسئلة فكرية أو سياسية بما يغني التفكير القيادي أو أن يتقدم بمقترح أو مقاربة في موضوع محدد... وفرص التفاعل الحي في السجن هي أوسع ولكن إحداثيات السجن محدودة. (ثمة رسالة مرفقة في الملحق رقم ٣ نموذج على ذلك).

(والسجن هو أفضل جامعة للتعبئة الأيديولوجية وبناء كادرات فكرية، أما خارج السجن فهو أفضل معمعان لبناء كادرات تنظيمية وسياسية، أما العلم العسكري فلا يمكن الحصول عليه إلا بدورات متخصصة سيما في الخارج والبلدان الصديقة ناهيكم عن التجارب الحية.)[٥٨٨]

وتجربة الداخل «أنتجت منظمين من طراز رفيع يتجاوز التجربة الفلسطينية، والأمر نفسه

٥٨٨) المرجع السابق

ينطبق على الخبرة الأمنية وثقافة الصمود، كما العمق الأيديولوجي والتنظيري لدى بعض الرفاق... وبصراحة كان ثمة حرص، بل بذلت جهود متصلة على هدي مقولة «احمر وكفؤ» والموهبة أساس ضروري لبناء قيادة كفؤة، أما الثورية الجذرية فتتطلب طباعا خاصة وقناعات عميقة وتجارب متنوعة، ناهيكم عن المناخات التربوية المحيطة التي تمثل القيادة ابرز عناوينها التحفيزية بما يتصل بذلك من اسس طبقية وكفاحية.... والمكتبية وحدها لا تصنع «احمر وكفؤ» ولا التهاون المتواطئ (حكلي واحك لك) ولا تحبير الأوراق... ولا الاجتماعات الرخوة والمهام المحدودة في اتجاه واحد. فالجبهة متعددة الأبعاد والقائد متعدد الأبعاد أيضاً.» المسالة أكثر تعقيداً وشروطها أكثر تطلباً. وربما كلمة ماوتسي تونغ مفيدة (لا يمكن فصل الإنسان عن الممارسة العملية... والأفكار السديدة تأتي من الممارسة الاجتماعية). ففي لهيب الممارسة والمهمات المتنوعة والنشاطات والنضالات تتكون القيادة، وكلما اغتنت الممارسة اغتنت القيادة، وحينما تكون خبرات القيادة محدودة وفقيرة فهي ليست قيادة ومن المرجح أنها ستختزل الحزب وتدمره.

١٤- المثقفون والثقافة والحزب السري الثوري

(في اواسط السبعينات اكتشفنا في المعتقلات غرامشي ومقولته (على الطبقة العاملة تكوين مثقفيها، نخبة من المثقفين... لا يوجد تنظيم دون مثقفين ومنظمين وقادة... مثقفين يوفرون تجانساً ووعياً للطبقة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا) كما جاء في دفاتر السجن. وقد قرأ بعضنا هذا الكتاب المنسوخ باليد بخطٍ منمنم.

كنا قد قرأنا تعبيرات لينين عن «المثقفين المترددين» وتعبيرات ماو عن المثقفين «الفئة الاشد اهمية وخطورة» ولكننا تأثرنا بالصورة الايجابية للحكيم وكنفاني وجيفارا وكاسترو...)[٥٨٩]

عاشت منظمات الجبهة في الاسر ورشة تثقيف وادلجة ضخمة، ساعات من القراءة يوميا وساعات اخرى للشروحات والنقاشات، والبعض دأب على تثقيف نفسه وكانه يستشرف دوره المستقبلي، ومع مرور الزمن تبلورت كادرات مؤدلجة. فالبنية التنظيمية التي يغلب عليها العمال والطلبة والفئات المهمشة، والقلة من الجامعيين، وكلها تحمل موروثات المجتمع، تعرضت لعملية تعبوية مثابرة يحفزها طموح بناء حزب ثوري مقاتل، مبهورة بالتجارب الظافرة في كوبا وفيتنام وحزب لينين... وكان الانبهار بحزب لينين اكثر بكثير من الانبهار بالتجربة السوفييتية، التي كان البعض لا يخفي عدم اعجابه بها.

٥٨٩) شخصية تاريخية



كان البحث عن ثقافة الثورة، لا عن ثقافة الدولة.

وبعض الافراد الذين تعمقوا فكريا وسياسيا اطلق سراحهم وباتوا من ابرز الاقلام الدعاوية والصحافية للجبهة، الامر الذي حضر في التعميمات والنشريات السرية والاصدارات العلنية لاحقاً.

(ارتبط الفكر بالسياسة والنضال «فالفكر يحدد والسياسة تحسم» بلغة الحكيم. ولم ننظر لانفسنا الا كمثقفين ومنظمين بنيويين نحمل هموم الوطن وهموم الحزب وهموم الفقراء، وراحت تتوالد أسئلة العمل بانتظام وتتطلب منا اجابات بانتظام... جدلية مستمرة.)[٥٩٠]

لم تكف الجبهة يوما واحداً عن التثقيف والأدلجة وهنا تمايزت على الجميع، وفي ساحات السجون كانت الغزارة اكبر وفي ساحات العمل الحي كانت الثقافة النوعية اصوب. واحد شروط العضوية هو الانتماء لهويتها الفكرية اليسارية وفكرها السياسي.

(كنا في الجامعة نعقد اجتماعات تثقيفية مشتركة، طلبة وطالبات، اما اجتماعاتنا الحزبية فكانت في خلايا منفصلة، والتثقيف كان احد اوجه الانتماء للجبهة.)[٥٩١]

وهناك قائمة من المؤلفات التي صدرت في الداخل باقلام الرفاق والاصدقاء، دواوين شعر، روايات، دراسات اجتماعية واقتصادية، مؤلفات فكرية وسياسية وامنية وعدد منها دون اسم المؤلف، ناهيكم عن الصحافة السرية والعلنية.

أغزر الكتابات هي الكتابات التنظيمية والمواقف الفكرية والتحليلات السياسية المتصلة بالعمل... وهناك عشرات المؤلفات الماركسية التي شرحت في الاجتماعات واخرى سياسية وتاريخية... اما تقارير المؤتمرات والنظام الداخلي فهي احد شروط العضوية.

صحيح أن كادرات الداخل لم تشارك في دورات نظرية في الخارج ولكن البنية بأكملها وبشكل اخص كادرات السجون تعبأت فكرياً وثقافياً أضعاف أية دورات أخرى، والكادرات النابهة حظيت بعلاقة مباشرة مع مستويات قيادية متقدمة فكريا وسياسيا، وكانت هناك توصيات من منظمات الاسر لقيادات الداخل لمتابعة هذه الرعاية.

---

٥٩٠) نفس المرجع

٥٩١) مفصل متقدم

وعموما لم تهتز الهوية الفكرية للجبهة في الداخل بعد البيروسترويكا بل (كان لنا موقف نقدي معلن منذ البدء، كما لم تهتز سيقان الداخل جراء انهيار السوفييت، فالسوفييت كانوا يتفككون ونحن نرفع راياتنا الوطنية – اليسارية ونوسع صفوفنا.)(٥٩٢)

وآخر اضاف بطريقته «الجبهة في الداخل تنظيم فتي، وكنا نتمنى وجود المزيد من جيل الشيوخ ونحن مطمئنون ان حرارة العمل في الداخل لا تسمح ببقاء اي كان دون الوفاء باستحقاقات العمل. وكنا بحاجة لبعض الوقت لبلورة المزيد من الدعاة الاكفاء لإنتاج المزيد من الدراسات والتحليلات الأكثر رصانة وعمقاً».

١٥- الخط الأخلاقي والعمل السري

لما كانت الأخلاق جزءاً صميمياً في الفلسفة والبناء الفوقي عموما، فالجبهة شأن الحركات الأخرى استخرجتها من هويتها الوطنية والفكرية وما اقتضته شروط النضال... ودون الإسهاب في القيم العامة (الملحق رقم ١+...) يمكن القول إن الفيصل «هنا الثورة وهنا ما يقابل الثورة» لينين، و(أن أخلاقياتنا ليست كأخلاقيات البرجوازية) كاسترو، و(علينا أن نكون بعدالة عمر وثورية علي وأصحاب رسالة كعيسى ومحمد) حبش...(٥٩٣)

لم تخلُ فترة من محددات أخلاقية وتربية أخلاقية. الحكيم مزج السياسة بالأخلاق، وهذا انعكس على القوميين وعلى الجبهة وكذا تقشفية وديع ونقاوة أحمد اليماني وشجاعة أبو علي.... وكانت الثورية الوقادة والجرأة والصدق قيماً موجهة، دون خشية من احد أو مجاملة لأحد. والانتماء الوطني والقومي لا يقبل الثلم أو التنازل في تغليب واضح للمبادئ على البراغماتية التنازلية. قال الحكيم منذ زمن (لا يجب أن ينتهك التاكتيك الستراتيجية ولا أن تنتهك السياسة الأيديولوجيا) واستمر على هذا النحو إلى أن غادر الدنيا.

و(كانت التربية تحض على استثمار الوقت في النضال والثقافة والرياضة فالجدية علامة فارقة، وكنا ننظر باستغراب لمن يتسرب وقته من بين أصابعه في المقاهي أو التسكع في الطرقات، ومنذ البدايات نقدنا مقارعة الخمر والعلاقات الجنسية المنفلتة، وحرصنا على صورتنا أمام الجماهير واحترامنا للمرأة... واذكر أنني قرأت تعميما صدر في الداخل في أوائل الثمانينات

---

٥٩٢) أيديولوجي

٥٩٣) رسالة للداخل ١٩٨٤

يتضمن هذا المنظور ويطوره.)[٥٩٤]

والأخلاقيات انطلقت من الحقوق والمسيرة الوطنية ومتطلبات النضال لاستردادها والتماهي العميق في الشعب وقضياه والفقراء ومعاناتهم.

لم يكن صدفة أن يؤسس الحكيم ووديع عيادة تعالج الفقراء مجانا، ولا إن يكرسا وأعداد من الرفاق والرفيقات حياتهم من أجل الوطن وحرية الشعب.

والإخلاص والدقة في العمل، أداة تقييم لثورية المناضل/ة دون تمييز ديني أو جنسي. الجبهة حركة علمانية لا تقبل التقسيمات الطائفية أو الجنسية. و«قد نشرنا على امتداد مسيرتنا النظرة العلمية والتفكير العلمي، وشجّعنا حرية الاجتهاد والثقة بالنفس والجماهير وقدرتها على التغيير، ولم نقبل التقاعس والتواكل والجبريات واحتكار الحقيقة والنصوص المقدسة. لقد عشنا كخلية نحل نفكر ونناقش ونعمل، وفي وقت قرأنا كلمات ماو «من المعرفة الحسية إلى المعرفة المنطقية ومنها إلى العمل.

وبطبيعة الحال لقد رفضنا وقاومنا الاضطهاد القومي والاستغلال الطبقي، فخندقنا معاداً للخندق الامبريالي – الصهيوني والخندق البرجوازي والرجعي، وثرنا على مخلفات القرون الوسطى... إننا حركة نهضوية واشتراكية».

وكانت مناخات الجبهة، سيما القيادية والكادرية حوارية توشحها الثقة والرفاقية دون مراسيم بيروقراطية...

ولكن لنترك لحديث أقرب لعفو الخاطر أن ينتقل بالعبارات المجردة إلى نبض الحياة الملموس.

(كان المسؤول يركز على الانضباط للمواعيد، ولا يتقبل أي تأخير أو أعذار، وعلى انجاز المهمة بأكبر قدر من الإتقان. ولما حاولنا تحريك الطلبة في الجامعة ولم ننجح طار صوابه... التحضيرات ليست كافية، الاتصالات بالآخرين غير واضحة، لم توزعوا بيان ١١/٢ على نطاق واسع ولم يكن بارزا على لوحة الإعلانات، لم ينتشر الرفاق بحيوية في أوساط الطلبة، لم تستدعوا من يسندكم من خارج الجامعة، لماذا لم تلقوا حجارة أو مولوتوف على الجيش... ولم ينسَ هذه الحادثة إلا بعد أن نجحنا في تنظيم تظاهرة بدأت في الحرم الجامعي وانتقلت خارجة... هكذا تستخلص الدروس... علّق.

---

٥٩٤) أيديولوجي

في التنظيم الثوري السري حينما نكتب فيه. إن أوضاعنا جيدة، والتثقيف منتظم،

وكان يعيد لنا التقرير الحزبي حينما نكتب فيه. إن أوضاعنا جيدة، والتثقيف منتظم، واستقطبنا المزيد من المؤيدين ووزعنا البيان... فيطلب إعادة الصياغة لتوضيح هذه العبارات الضبابية من خلال المعطيات والأرقام... كنا مفعمين بالآمال والقدرة على صنع مصيرنا ومستقبلنا، كنا طموحين وكل واحد يشجع الآخر.)(٥٩٥)

كان يجري التشديد على السرية وضوابط التمويه والصمود في الزنازين، فالتسريب مهما كان أو الاعتراف مهما كان ثالثة الاثافي والخطأ الذي لا يغتفر، ومرة اعترف رفيق بتوزيع بيانات تأكيدا لاعتراف آخر عليه، فطلب استبعاده من الخلية وإعادة ترشيحه لفترة أطول وتكليفه بمهام عملية عديدة لكسر حاجز الخوف... وأكثر ما كان يركز عليه المتابعة، ويردد «المتابعة جوهر العمل الحزبي» يتابعنا ويتابع معنا مهامنا. في كل اجتماع أو في اللقاءات السريعة يسأل ونقدم الإجابات ونعرض المستجدات ولا ينسى شاردة أو واردة خصوصا المهام التنظيمية والقرارات السياسية والتحريض والتثقيف... وحينما يفوتنا نقاش تعميم أو قضية ثقافية يطلب تخصيص اجتماع لها أو عقد ندوة مفتوحة في النادي يحضرها رفاق وغير رفاق... «كان يلاحقنا لتنفيذ القرارات الحزبية وكأنه عدونا بلا رحمة.

وكان يسألنا ماذا قرأتم... هل قرأتم «أحلامي لا تعرف حدود» عن جيفارا، وماذا عن دومتيلا «دعوني أتكلم» ومحاضرات كولنتاي، والكتاب عن الشيخ عز الدين القسام، وشرح لنا ملخصاً عن كتاب «ما العمل» للينين الذي شرحه الرفاق في السجن، وكان يردد: في السجن تتاح فرصة أوسع للتعبئة الأيديولوجية... نلتقي هناك».

«وقد اولاني رعاية إضافية (أنت دقيق في مهامك) ولا تترك الكتاب من يدك، سوف اعمل لارسالك في دورة للخارج، ولكنه لم يفعل الى ان اعتقلت ولم يعد متاحا السفر...

وفي العام الاول من الانتفاضة كنا مطاردين معا، اكون حيث يكون واشد ازره ويشد ازري، وكان طعامنا الفقير مشتركا وننام احيانا على نفس الفرشة او نسهر للصباح، وقد تعلمت منه عادة سيئة: التدخين، ولم اتركها الا في الشهور الاخيرة من اعتقالي بعد ان عمم علينا الرفاق: اختصار الصرف على السجائر وزيادة الصرف على الحليب. اذ كان الصرف على التدخين يصل ٧٠٪ من الكانتين...»

---

٥٩٥) كادر انتفاضي

«سألته: لماذا لم تتزوج؟ اجاب: اولويات مختلفة، فانا لا اكاد اخرج من السجن الا لاعود اليه، كما علينا توسيع وتصليب المنظمة الحزبية، فهي أولويتي... واذا تزوجت فلن تكون الا رفيقة احبها وتحبني او انسانة تؤيد نضالي (ابنة عمك تعتل همك اما الرفيقة فتسندك).

مرة كلفني مع رفيق آخر بتهشيم شاب من المخيم «وجبة ساخنة» ترسله للمستشفى، والتفاصيل فهمناها لاحقا، فهذا الوسخ تحرش بأخت زوجته مرات وراح يبتزها بالضغط عليها فلجأت للحزب لحمايتها منه...

لقد تأثرت برفيقي المسؤول... وفي السنوات الأخيرة لاحظته يقل من الكلام. معتكفا في البيت متألما على ما اصاب الحزب.»

يمكن استشفاف قيم أخلاقية عديدة من الحديث أعلاه.

ومن الطبيعي ان يتطلب العمل السري التكتم والمزيد من التكتم فاخلاقياته لا تتقبل (الفم الكبير) الذي يستطيب الزهو وبعثرة الكلام، مثلما يتطلب التوقيت الدقيق في اللقاء والاجتماع او تنفيذ المهمات...

ومن الطبيعي ايضا أن تعتوره عيوب عديدة واخلالات عديدة كانت السبب الاول في كشف الاسرار والاعتقالات... وما يلي رأي عنصر قاعدي:

(تغيب مسؤولي السسابق، أو انقطع مدة شهر ونصف، فلم تجتمع الخلية ولم يصلنا آخر تعميم، ولما عاود الاتصال برر سلوكه بظروف اجتماعية، واحضر لنا زجاجات حارقة دون أن يشاركنا بإلقائها. شكوت لأحد الرفاق...

بعد وقت أصبح لنا مسؤول جديد أفضل من الأول ووصلتني رسالة حزبية من بين ما جاء فيها: اذا حصل خلل في عمل الخلية يفضل ان ترفع رسالة مغلقة عبر المسؤول وان تبادر الخلية للاجتماع ومتابعة العمل حتى في غياب المسؤول.

ولاحقا اصبحت نائب مسؤول الخلية والمسؤول المالي حيث كنت اجمع الاشتراكات شهريا، ولكن احد الرفاق كان يتراخى، وآخر كان يحصل على تبرع مقابل «الثورة مستمرة» وقد وزعنا «فلسفة المواجهة» مجانا، وكنا نغطي إخاطة الأعلام والمواصلات من جيوبنا وليس من ميزانية الخلية، ولكن هذه الميزانية لم تعد كافية عندما أصبح لنا رفيق مطارد. فصرف له الحزب ٢٠٠ دولار

شهريا وأحيانا مئة بما يغطي طعامه، وقد بقي مطارداً مدة تزيد عن السنة إلى أن اعتقل. ومثلما صمد في ميدان الانتفاضة صمد في الزنازين..)[٥٩٦]

١٦- الاجتهادات وتعدد الآراء والمركزية الديموقراطية

قانون المركزية الديموقراطية هو القانون الناظم لعمل الحزب، والمركزية لا تعني التزام الأقلية برأى الأغلبية والتزام أدنى بقرار أعلى فقط، بل (التزام الجميع بالنظام الداخلي وبرنامج الحزب، و(البرنامج يعني إعلانا مقتضباً وواضحا عن كل ما يسعى الحزب لبلوغه وكل ما يناضل في سبيله) لينين، ويتم الاحتكام للبرنامج والنظام لتسوية أي تناقض)[٥٩٧].

والديموقراطية تركز أكثر ما تركز على عقد المؤتمرات وانتخاب القيادات والنقاش والتصويت ما قبل اتخاذ القرار، وإتاحة الفرصة للمبادرة، والاعتراف بالمواطن. فلا تمييز دينياً أو جنسياً أو عرقياً في الحزب، حتى أن الجبهة في الوطن حددت موقفها في أواخر السبعينات من الدين والمعتقد (انظر الملاحق).

أما كيف فهمت الجبهة هذا القانون الإشكالي الذي تعددت تفسيراته (دون هذا القانون ليس ثمة حزب ولا جماعة ثورية. ولكننا فهمناه وأكسبناه مضامين تتصل بالممارسة والملموس، وإجمالا فالتجريدات لا تغرينا كثيرا، وهذا فهمناه مبكراً من لينين وماو وكاسترو وجيفارا والحكيم)[٥٩٨].

إذ لا يمكن أن يسير العمل دون مركز قيادي ونشرة مركزية ومالية مركزية، وبرنامج ونظام داخلي ومتابعات ومحاسبات في إطار من الوحدة الجدلية بين المركزية والديموقراطية. دون نسيان نسبية ومرونة هذه الجدلية، ولنترك للمقابلات أن تشرح هذه المسألة الحساسة، مع الاستدراك أن العمل السري للجبهة في الوطن قد أتاح صلاحيات واسعة للقيادات المحلية لكي تقود وتقرر شؤونها...

(كان هناك آراء وتصويت. وفي أصعب الظروف ناقشنا وثائق المؤتمر ومسودة رسالة الداخل وأبدينا الملاحظات والتعديلات عليها... والآراء التي اختلفت مع الرسالة رفعناها كما هي.

وكانت توجد باستمرار اجتهادات مختلفة، وهي صحية ومحمودة طالما لا تعطل العمل ولا تهدد أمن الرفاق...

---

٥٩٦) قاعدي

٥٩٧) أيديولوجي

٥٩٨) نفس المرجع

لم اسمع عن اجتهادات تعكس ميولاً مختلفة في القضايا الستراتيجية، كان هناك وحدة موقف، والخطة السنوية حصيلة نقاش ومشاركة وعمل جميع المنظمات، وهذا تجلٍ للديموقراطية الثورية الحقيقية)[٥٩٩]

وآخر (تميزت حياتنا الداخلية بالحيوية والديناميكية والجميع كان مشدوداً للمواجهة والانجاز فهما المعيار الأساسي في تحديد العلاقات بين الرفاق والهيئات... ولم اعرف عن حالات إقصاء أو تآمر أو شللية أو تكتلات على خلفية اجتهادات مغايرة)[٦٠٠].

وثالث (لقد تمايزنا فكريا وسياسيا رغم أننا لم ننتج الكثير ومزجنا الماركسية بالمسألة الوطنية/ القومية لبسنا حطة وعقالا، وحددنا موقفنا النظري الصحيح من الكيان الصهيوني وحاولنا تأسيس حزب قومي (حزب العمل الاشتراكي) وجبهات قومية تقدمية وبناء تنظيم سري صلب في الأرض المحتلة.)[٦٠١]

ورابع لخص رأيه على شكل نقاط (١- جوهر الديموقراطية المشاركة، والمشاركة موجودة. ٢- شاركنا في نقاش مشاريع القرارات. ٣- قدنا مهامنا دون تدخل فظ من أعلى وترفيعات المراتب الأدنى من مسؤوليتنا. ٤- لم نتعرض لقمع حرية الفكر بدعوى الميول الجيفارية أو التروتسكية أو الماوية أو السوفييتية ولم يحاسب احد على اجتهاداته. ٥- لم يكن ثمة تمييز ديني أو جنسي. ٦- توافرت حريات دون إساءات اجتماعية وتعميم «العلاقات الحبية» كان ناظماً. ٧- طبقنا شعار كل عضو حزبي ملاحق إلى أن يستميل زوجه أو أخته او قريبته للجان المرأة إسنادا للجان. ٨- لم نعرف الشللية والتكتلات بل علاقات رفاقية تضامنية وثورية. ٩- في كثير من الأحيان كان يجري انتخاب مسؤول المرتبة من المرتبة نفسها دون الاعتبار للقب التنظيمي)[٦٠٢]

ولم يعرف الداخل التسابق على المراكز العليا، والذين اقترحت أسماؤهم للهيئات المركزية عام ٨١ اعتذروا وبعد محاولات إقناع قبلوا على مضض... كانت حرارة النضال ومتطلباته طاغية.

وفي السجون عقدت المؤتمرات وانتخبت القيادات وحاسبت كما حال الأحزاب العلنية. في البدايات كان هناك من تحفظ على الفكر الماركسي ومارس طقوسه الدينية دون أن يقمعه احد...

---

٥٩٩) قيادي

٦٠٠) أيديولوجي

٦٠١) مفصل متقدم

٦٠٢) مرجع

وفي مرحلة لاحقة دافعت الجبهة عن حق الاختيار وأمنّت الحماية للمتدينين من القوى الأخرى.

الاقتباسات أعلاه توحي بالمناخات الداخلية للجبهة الشعبية، ولكن يجوز الافتراض أن بعض مظاهر الشللية والجهوية والانانية قد تفشّت في بعض أوساطها أيضاً، قبل أن تفعل العملية الأيديولوجية والتربوية فعلها.

«دون نسيان المبادرة التي أطلقت على نطاق واسع، فهي أهم مظاهر الديمقراطية، مبادرة في تقديم الاقتراحات، مبادرة ميدانية... كما حيوية النقاش، سيما في المستويات العليا، فلا أحد يحجر على النقاش، وهو الأرضية التي تمهد لاستخلاص القرار...»

«لكن لا يجوز إنكار الأنانية بين الصفوف، فهذه إذا تمت محاصرتها وغُلّبت الجماعية في مرحلة المد وتوافر نظام عمل صارم وقيادة كفؤة، غير أنها تنتعش في مرحلة الضعف وتتحول لعامل يعيق تجديد القيادات واجتراح الصيغ الملائمة، وقد تكرّس الفشل وإعادة إنتاج الفشل، وهذا يذهب بالتركيم ويمهد للأزمة.»

المبحث السابع

الذروة التي توسطت مدريد - أوسلو ثنائية متناقضة

زار مراسل صحيفة البرافدا السوفييتية الأراضي الفلسطينية في اواخر عام ١٩٩٠، وطاف في مدن ومخيمات عديدة. كان مألوفا أن يقوم نشطاء الانتفاضة باستقدام او استضافة اجانب لتغطية مناشطات الانتفاضة، بل اقحامهم في الحدث الحي. فعين الغريب اصدق.

انطلقت مسيرة منظمة في مدينة بيرزيت، المئات من نشطاء وانصار الجبهة الشعبية يرفعون الاعلام الفلسطينية واعلام الجبهة الحمراء ويتمنطقون بالسلاح الابيض: فؤوس، خناجر، هراوات... جالوا في شوارع وازقة المدينة يهتفون للوطن والثورة والاشتراكية.

كتب مراسل البرافدا لهيئة التحرير: في بلدة صغيرة، على مقربة من مدينة رام الله، طافت تظاهرة... الحماس يلهب الجميع... الشعارات تتحدى الاحتلال والسياسة الامريكية... لماذا يهتز نظام الدولة السوفييتية؟

مؤتمر مدريد لم ينعقد بعد، والجولات الثماني التي نظمها بيكر في واشنطن على قدم وساق...

ببعض المجازفة يمكن القول إن الجيشان الانتفاضي مرّ بمرحلتين. جيشان انتفاضي عارم اعوام ٨٨ – ٩٠ وانخفاض منسوب الانتفاضة عامي ٩١ – ٩٢ حيث تخلل ذلك مؤتمر مدريد الى ان اسدل اوسلو الستار عليها عام ٩٣.

(في صيف ١٩٩٠ قررت قيادة الجبهة ضخ شرايين الجيشان الانتفاضي بدماء جديدة، وبعد مدريد قررت دفع المزيد من الطاقات لاستبقاء جذوة الانتفاضة مشتعلة...

انا اتحدث عن اوائل التسعينات ما قبل اعتقالي، وقد بت على تماس مع المناخات القيادية وما يتصل بها من هموم. كانت المهمات الاساسية مهمات انتفاضية.)[٦٠٣]

كل المراجع التي استقصي رأيها اكدت ان الجبهة في الوطن المحتل قد تطورت واحرزت قفزات عديدة سواء على الصعيد الحزبي او الديموقراطي. وهذه الايام يجري التمييز بين النمو الذي ينحصر في الارقام الاقتصادية وبين التنمية التي تشمل ذلك وتضيف عليه أبعاداً انسانية وقدرة

٦٠٣) انتفاضي

على الاستدامة. ولئن جاز التشبيه، فالجبهة عملية تنموية شاملة في سنوات الانتفاضة المجيدة، واستمرت هذه العملية بمحركات داخلية، في تفاعل حي بين الذاتي والموضوعي، رغم تموجات الانتفاضة والظروف المجافية احيانا.

ففي مرحلة نوعية مختلفة عن سابقاتها، لا يمكن التقدم للامام دون رؤية استراتيجية للمتغيرات الثورية الضخمة المتنوعة، وبالتالي ابتكار الاشكال التنظيمية الملائمة وتغيير برامج العمل ومعايير العضوية الحزبية والديموقراطية بما يستجيب للمتغيرات. وكلمات لينين التالية فاصلة (التعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات).

(كانت طموحاتنا كبيرة وان لم تكن اداتنا كبيرة، وقد انخرطنا حتى نخاع العظم. ورغم شح الامكانات استطاعت القيادة ان تواكب بشكل خلاق المتغيرات السريعة وان تستجيب لمتطلبات العمل اليومي، وما كان ذلك ليتم لولا توافر مستويات كادرية نشطة وتضحوية وبنية قاعدية قادرة على الفعل الانتفاضي. كل ذلك شكل زخماً نوعيا كبيرا) [٦٠٤].

وآخر اضاء زوايا اخرى بالقول (ليس غرضي نكؤ الجراح... ولكن لا تنظر للجبهة بناء على راهنها... ففي ذلك الوقت حركتنا كلمات هيجل (لا ينجز امر عظيم بلا شغف شديد)[٦٠٥] وكلمات ماركس (المثل العليا...حاجة لابقاء الحماسة في مستوى التراجيديا التاريخية الكبرى)[٦٠٦] وقوة المثل التي جسدتها رموز قيادية في الخارج ورموز قيادية في الداخل كانت لها اسقاطاتها.

كانت دافعية المبدأ توجهنا وكذا مقولات لا خطوة للوراء، اتبعوني، النضال بجماع الشخصية، اننا قادرون على التحدي، اجتراح مأثرة، نضالنا عادل ولنا المستقبل، من حق شعبنا ان يعيش بكرامة، الجميع الى الميدان، زند على زند...)[٦٠٧]

وبالفعل فإن سلسلة المقابلات المكتوبة والمباشرة قد نبضت بهذه الروح، بل تجشمت الجبهة وكل القوى شرف اشعال فتيل الانتفاضة وسكب زيت التضحيات في طواحينها، ومع معظم القوى مهمة التصدي لاثار «مدريد» الاستنزافية، ودفعت ثمن ذلك غاليا دون ان يرف لها جفن او تنحني للمصاعب. لقد كانت في الصف الامامي مع الجماهير المنتفضة وصانت هذه المكانة، دون تدوير

٦٠٤) قيادي

٦٠٥) برتران، ميشيل، (وضعية الدين عند ماركس) ص١٠

٦٠٦) ماركس، كارل، (برومير الثامن عشر) ص١٦

٦٠٧) قيادي

للزوايا، الى ان انطفأت الانتفاضة بتدرج مع حلول مرحلة أوسلو.

«كانت الهيكلية الحزبية فوارة، هيئات، مستويات وسيطة، منظمات قاعدية ولجان مقاومة شعبية، الجميع إلى الميدان، والمتابعة من اعلى لادنى لا تترك شاردة او واردة، بما يعكس استقراراً قيادياً، رغم سيف الاعتقال الذي يحصد دون توقف، والتقاليد الحزبية تترسخ، باستمرار: اجتماعات، مهمات، محاسبات، تقارير، اشتراكات، تنفيذ قرارات، توزيع مطبوعات، مشاركات ميدانية، تثقيف، عدم امتثال للاعتقال، استخفاء وسرية...»

ولئن (اردتم الذهاب أبعد من ذلك، لم نعد نميّز الفوارق بين العضو الحزبي وبين عضو الاتحاد، فالجميع يؤدين نفس المهام الانتفاضية ويتدارسن نفس المطبوعات، وينخرطن في الانشطة الانتاجية، ويتظاهرن ويتكاتفن مع الجرحى وذوي الشهداء والاسرى، ولا يبخلن في التبرع المالي ويبدين جدية في الاجتماعات والنشاط الميداني). اما (اغلبية اطارنا الطلابي فقد التحقت بلجان المقاومة الشعبية، واننا في الوقت الذي نحترم الجميع، لا يجوز ان ننسى تضحياتنا ودورنا الكبير، لقد خضنا المعركة بشجاعة استثنائية وكنا في الاماكن الاكثر خطورة) [٦٠٨].

جولات بيكر استبقت «مدريد»، وانعقاد هذا المؤتمر في آب/٩١ لم يفت في عضد الجبهة الشعبية، بقيت ثابتة، حازمة، في مناهضتها لهذا المسار. وفي آب/٩١ عنونت افتتاحية نشرتها «الثورة مستمرة» ب (آن أوان حمل القنابل لا الحقائب الديبلوماسية)، ووسعت من حجم مساهمتها في الاشتباك الجماهيري مع الاحتلال.

ومع انعقاد مدريد وما نتج عنه من بلبلة توالد سؤال: (ماذا نعمل للحفاظ على وهج الانتفاضة؟ وبات هذا السؤال عمليا، بما اوجب التعميم على جميع المناطق والمواقع الحزبية بغية استحثاثها على مزيد من المبادرات.) [٦٠٩]

لقد اضطربت صفوف الشعب المنتفض بعد مدريد، لكن روح الميدان ما انفكت تسري في العروق. القواعد الجماهيرية، الامتدادات الفصائلية، اللجان الشعبية في مختلف المواقع على «خط القتال»، كمائن الحجارة لم تتوقف، موجات المولوتوف تستهدف جنود الاحتلال ومستوطنيه، المتاريس في كل مكان، لجان الحراسة في الارياف والاحياء الشعبية والمخيمات، وهناك ما يشبه

٦٠٨) قيادية

٦٠٩) أيديولوجي

مناطق محررة، التحشدات والتظاهرات في الشوارع وان تراجعت، الاضرابات على دأبها، الاعلام الفلسطينية ترفرف على اعمدة الكهرباء والاشجار، الشعارات تطرز على الاسوار والجدران.

مقاطعة العمل في مستعمرات ٦٧ على حالها وبقدر اقل العمل في المشاريع اليهودية في ٤٨، اما المنتوجات الاسرائيلية فقد تقلص وجودها في الاسواق الفلسطينية... بل غدت المقاطعة ثقافة جماهيرية، وحدائق المنزل وتربية المواشي والجمعيات الانتاجية اينما يممنا النظر.

اما الركيزة التنظيمية فقد ارتبكت، ولم يعد بالامكان الحفاظ على القيادة الموحدة للانتفاضة او اللجان الشعبية التوحيدية... لقد ظهر للعيان الاصطفاف المؤيد لمدريد والاصطفاف المناهض لمدريد، وتجلى ذلك في البيانات ووسائل الاعلام والتعبئة الداخلية.

حصل تصدع في جدار الانتفاضة.

لبعض الوقت، وفي فترة انتقالية تغلبت روح الانتفاضة، ولكن الوحدة الميدانية تتطلب قراراً سياسيا غائبا تراجعت فُرَصُهُ مع تقدم مسار مدريد. فاللقاءات الثمانية التي عقدها بيكر بين الفلسطينين والاسرائيليين لم تنجح في تفكيك الانتفاضة، اذ حافظت القوى المنتفضة على الوحدة الميدانية، دون ان ينجح التراشق السياسي في نسفها، سيما بعد جيشان انتفاضي استمر سنوات بين التكوين الوطني الفلسطيني وسياسات الاحتلال، بما اكد على الأنموذج الكفاحي للشخصية الفلسطينية والمشاركة الواسعة للجماهير. لقد القى الخلاف السياسي بظلال كثيفة من الشكوك والتباينات ولكنه لم يحدث انعطافا، اما وقد تحول الخلاف لانقسام سياسي، فمدريد انجز المهمة.

انقسم الموقف الفلسطيني وبات هناك تيار اساسي يؤيد هذا المسار وتيار اساسي يناهضه... واصدرت الجبهة اربعة اعداد من جريدة التصدي، كل عدد بعشرات الاف النسخ، وقامت كل القوى بالتنظير لخياراتها المتباينة...

(على امتداد اشهر بعد مدريد، تغلبت روح الميدان، فرياح الامس قاومت، اما بعدئذ فقد تبدلت المناخات وتغلبت الرياح المعاكسة. ويمكن القول ان الانتفاضة كغليان شعبي اصيبت في الصميم وانكفأت الى اعمال وتحركات متفرقة. وراحت تعاميمنا ومراسلاتنا الحزبية تستحث الرفاق والرفيقات على الثبات في الميدان، ولكننا بتنا نسمع ايضا كلمات مظفر النواب «صالح قادتنا الاعداء ونحن نحارب».

وقررت قيادة الداخل دفع المزيد من القوى في المعمعان وفاء لدماء المنتفضين، ولكننا خشينا

من تكرار قلعة الشقيف، حيث قاتل ابطال القلعة عن آخرهم بينما قوات الثورة تتقهقر، وتجربة منظمة الحزب البلشفي في موسكو عام ١٩٠٥ التي خاضت معركتها وسط تراخ شعبي فذبحت. وتطايرت مقترحات من السجون وخارجها تدعو «للتصدي للمستسلمين في «مدريد» وجاء قرار القيادة. المعركة سياسية وتجابه بوسائل سياسية... وبعد هذا الزمن وقد تبعثرت الجبهة اتساءل: هل كان موقفها حازما بما يكفي؟ ولكن من المنصف القول ان تاكتيك الجبهة استمر انتفاضيا رغم الاعتقالات الواسعة في صفوفها ولم يصدر عنها اي قرار تراجعي. فالثوري يقاوم والجبان يستسلم للظروف المجافية،... الخلل ليس هنا بل في الاعتقالات التي اصابت المستوى القيادي لاحقا.)[٦١٠]

كان احد اهداف الانتفاضة الكانونية تاكيد الهوية الوطنية الكفاحية للشعب، للشعب وليس للطلائع فقط، بان يثور ويتحدى الامر، الذي تفاجأت به القيادة السياسية والامنية الاسرائيلية التي لم يخطر في بالها ان لدى الشعب مثل هذه الارادة وهذه القدرة التضحوية. فالعقلية الاستشراقية الاستعمارية لا تعترف بعدالة النضال التحرري والحقوق الوطنية. فالشعوب من وجهة نظرها خاملة، غبية، جاهلة، بلا كرامة او تطلعات وطنية.

وكان احد اهداف الانتفاضة ايضا تنظيم الشعب على اوسع نطاق وتفجير طاقاته على اوسع مدى لكيما يصبح لساحة الداخل تأثير اكبر في التفكير السياسي لقيادة منظمة التحرير بالقول ثمة ارض محتلة ثائرة بالاعتماد على الذات وبالتالي لماذا يتسرب الوهن لبعض القيادات ارتباطا باهتزاز الاتحاد السوفييتي ومحاصرة العراق تمهيدا لضربه (نستطيع وحدنا الصمود والقتال... هذه هي الرسالة التي بعثنا بها للقيادة في تونس، وقد تسرب لنا بالمفرق دون ان يزودنا احد بتقرير اجمالي عن الخراب الذي لحق بفصائل المقاومة في الخارج وتحويل الكثير من المقاتلين الى موظفين والكثير من الكوادر القتالية إلى بيروقراطيين في المكاتب وما يتصل بذلك من امتيازات. وكذلك قول عرفات في اجتماع للجنة التنفيذية علينا ان نحني رؤوسنا للعاصفة.)[٦١١]

وحسب الدكتور براش (تأكد بعد بيروت ٨٢ انه لم يكتب النجاح للثورة خارج فلسطين في ظل وضع عربي رسمي غير ثوري... وان الثورة في الخارج فقدت صفتها الثورية، فكثير من الثوار لم يعودوا ثوارا، والعديد من المؤسسات اصبحت مشلولة وعاجزة وتنخرها البيروقراطية والفساد، وبعض سفراء فلسطين حولوا السفارات لاقطاعيات لعائلاتهم واقاربهم.

---

٦١٠) قيادي

٦١١) نفس المرجع

ابتعدت الانظمة العربية عن القضية الفلسطينية... واستخلصت الولايات المتحدة ان هناك استعدادا عربيا رسميا للتسوية السلمية والاعتراف باسرائيل وان العائق هو الثورة الفلسطينية المسلحة، وكان لزاماً ازالة هذه العقبة...

وذهاب عرفات للقاهرة هو انتقال من منهج الكفاح المسلح الى نهج التسوية، ولكن على م.ت.ف تقديم الكثير من التنازلات كثمن لقبولها في عملية التسوية، وقد اسند للاردن ومصر الدور لتدجينها...)[٦١٢]

وبنفس الاتجاه يؤكد الدكتور شبيب (كان المطلوب اعتراف المنظمة باسرائيل وبالقرار ٢٤٢)[٦١٣]

وبيان المجلس الوطني ١٩٨٨ اعترف بقرارات الشرعية الدولية وقرارات القمم العربية، علما ان ابا اياد منذ نحو عام صرح (ليس هناك تسوية سياسية الا على حسابنا وما يعد له هو مؤتمر لتصفية القضية الفلسطينية)[٦١٤] بما يتفق مع الدكتور براش (ان التسوية التي تحاك هي تسوية صهيونية – امريكية وان التنازلات تتم من طرف واحد، الطرف الفلسطيني – العربي.)[٦١٥]

اما الوفد الفلسطيني المفاوض فيصفه ممدوح نوفل (انه من اشخاص معروفين منذ سنوات لاسرائيل وامريكا برفضهم لنهج الكفاح المسلح وبعدهم عن العمل الجماهيري.)[٦١٦]

قد يخطر في بال الكثيرين ان وضع الجبهة في الارض المحتلة قد انحسر وتقهقر مع تراجع منسوب الانتفاضة عامي ٩٠ – ٩١ وانعقاد مدريد وتدهور الوضع السوفييتي والعدوان الثلاثيني على العراق، وكأن الجبهة، كعامل ذاتي، مرآة عاكسة ميكانيكية، للعامل الموضوعي. وهذا في المجرد لا يخلو من منطق، اما في الملوس والمعطيات والارقام فالامر مغاير، رغم الاسقاطات السلبية للعامل الموضوعي.

(في ٩١/١٢/١١ احتفلت الجبهة بانطلاقتها بمهرجانين مركزيين في الضفة وثالث في غزة، بمشاركة الالاف بكل منها، كما الاعوام السابقة، عوضا عن عشرات الاحتفالات المحلية. وتصاعدت

---

٦١٢) د.ابراش، ابراهيم (فلسطين في عالم متغير) رام الله ٢٠٠٣ ص٣٧، ٢١، ٣١

٦١٣) شبيب، سميح (م.ت.ف وتفاعلاتها في البيئة العربية) ١٩٩٨. ص٩٦

٦١٤) أبو اياد، صلاح خلف، جريدة المستقبل. ١٩٨٧/٤/١١

٦١٥) د.ابراش، المرجع السابق ص١٣٦

٦١٦) نوفل، ممدوح، الانقلاب. رام الله. ص١٢٢

مظاهر العنف الشعبي في مئات المواقع وبشكل أخص الزجاجات الحارقة والحجارة، بل إطلاق نار والقيادة العسكرية في الخارج أعلنت عن عمليات فدائية، ناهيكم عن بيان وزع في عموم الوطن وزيارات لاضرحة الشهداء وذوي الاسرى والجرحى، وانشطة خدمية طبية وزراعية واسعة. كان يوما ساخنا)[٦١٧] وآخر يضيف... ويفضل الحصول على تقرير من ارشيف الجبهة، اذ اعتقلت مع آخرين منذئذ على خلفية اعمال المقاومة.

والجبهة كما القوى الاخرى لم تترنح، تحت صدمة مدريد، وكان قرارها المزيد من المناشطات. وهذا معناه تفعيل العامل الذاتي بوتائر اعلى الامر الذي حمل نتيجتين متناقضتين.

الأولى: الفعل الميداني الواسع الذي استقطب، كنتيجة، المزيد من المؤيدين.

والثانية: هجمة اعتقالية مسعورة، شملت نحو ٦٠٠ في شباط/١٩٩٢ بعد تصريح وزير الجيش آرنس «سوف نسحق الجبهة الشعبية» والاعلان عن عملية «الذئاب والحملان»... ولكن بعد تحقيقات مريرة استشهد فيها الكادر البارز مصطفى عكاوي اعترف ضباط المخابرات (انتم عقبة سياسية قررت الحكومة ازالتها... لكننا اخطأنا بهذه الحملة العشوائية فالاغلبية تحولت للاداري، والذين ادينوا بالعشرات...)[٦١٨]

فيما صرح احد الرفاق «في ليلة واحدة اعتقلوا في منطقتنا ٩٢ ناشطا وكادرا لم يدن منهم سوى اثنين».

طبعا لا يجوز الاستخفاف بأثر اعتقالات آب/٩١ وشباط ٩٢ وما بينهما وما بعدهما، فقد شملت مفاصل بارزة وكادرات ونشطاء انتفاضيين الامر الذي ترك بصماته. فسيف الاعتقال لم يتوقف وقائمة الجرحى تستطيل، والمزيد من الشهداء يسقطون (انتم متطرفون ونشاطكم يشمل اعمالا ارهابية) تردد في الزنازين، ومن جانب اخر تم ابعاد المئات من المحسوبين على الاتجاهات الاسلامية الى الجنوب اللبناني.

كانت البنية كخلية النحل، تملؤ الفراغات، تربط الصلات، في سعي محموم لاستعواض الخسائر والجهد تضاعف في بعض المستويات، الكادر يضفر الكادر، والمفصل يحفز المفصل، في تصميم حقيقي على الصمود في معركة مزدوجة. معركة حماية الحزب وحماية الانتفاضة.

---

٦١٧) من تقرير داخلي

٦١٨) مرجع أيديولوجي

والقاعدة في ذروة اندفاعها، تبادر في كل المواقع تجمع مهمتين اساسيتين: استقطاب افواج جديدة من قلب الانتفاضة وسكب المزيد من الزيت على لهيبها. بل طالبت توجيهات متكررة جميع المواقع الحزبية والديمقراطية تحقيق قفزة على صعيد تنظيمي وانتفاضي، لما بينهما من جدلية وتبادلية.

وجاء في تقرير قيادي في أكتوبر / ٩١

(انظارنا شاخصة للكوكبة الرائعة في الزنازين، ولا ننتظر منهم إلا تسجيل مأثرة صمودية تضاف لصفحات الشرف. والمؤشرات تزكي توقعاتنا رغم قساوة ولؤم التحقيق. لقد نال ماركس حقد الاعداء ومات اطفاله جوعاً، وجيفارا اغتيل بعد اصابته، وأبو ذر الغفاري حوصر وافترسه الضنك ولم تجد زوجه كفناً تدفنه فيه. ولن نكون الا اوفياء للارث الثوري.)[٦١٩]

كان على القيادة تعليق الجرس وامتصاص الاعتقالات (من الناحية الواقعية يمكن القول ان الارادة الجمعية للقيادة هي العامل الحاسم في النجاح او الفشل سيما اننا نتحدث عن بنية محدودة سرية ومستهدفة. ودون ارادة حازمة من هؤلاء لا يمكن احراز اي نجاح. وكانت لدى القيادة قناعات وطنية وأيديولوجية جذرية، بلا مصالح شخصية، بل إنها وظفت وجيّرت كل امكاناناتها بما اعطى قوة النموذج وشكل قوة الهام وقوة دفع.)[٦٢٠]

و (كانت الاعتقالات السابقة تعيق العمل دون أن توقفه او تمنع نهوضه اتصالا بالنهج الثوري والصمودي في الزنازين الذي شكل رافعة معنوية لمجمل الرفاق. كان الاحتلال يعتقل المئات اليوم ويستقطب الحزب غيرهم غداً...)[٦٢١]

مفيد التعريج على شظايا من مسودات الوقفة السنوية لعام ٩١ ونصف السنوية لعام ٩٢ ذلك أننا لم نحصل على النصّين، ولكن هذه الشظايا تشي ببعض المعطيات التي تبين ان بنية الجبهة ودينامياتها كانت قادرة على تخفيف وطأة الظروف الموضوعية، والانطلاق بالعامل الذاتي لمستويات اعلى وتراكمات افضل، وهذه المعطيات انما ترد على الفرضية التي يروجها البعض (بان الجبهة تقهقرت بعد ان تخلت عن الفكر القومي وانتقلت للفكر اليساري الماركسي) دون تبصر في حقيقة رؤيتها التي تجمع الابعاد الماركسية والقومية في آن، بل إنها تميز بين الفكر القومي البرجوازي

---

٦١٩) تقرير في أكتوبر/٩١

٦٢٠) قيادي

٦٢١) نفس المرجع

والفكر القومي الذي يخدم الطبقات الشعبية، بين الرؤية القومية الديموقراطية والرؤية القومية التسلطية... ناهيكم عن تعاظم قوتها وهي تحت النار أيضاً.

كما تشي المعطيات والارقام بقدرة الجبهة على الصمود والانطلاق، رغم استهدافها. وهذه حال الاتجاهات الاسلامية التي استهدفها العدو، ولكنها راكمت وناهضت مثلما ناهضت الجبهة مدريد. بل إنها قادت معركة صمودية كبرى، هي الاولى من نوعها على ارض فلسطين، امام العدوان العسكري التدميري الاسرائيلي على غزة في ٢٠٠٨- ٢٠٠٩ رغم مجافاة الظروف الموضوعية وأوسلو... كما أن المعطيات المتوافرة تحاور ايضا الرأي الذي يقول» لقد تقهقر المشروع الاشتراكي العالمي وقلعته الاهم الاتحاد السوفييتي السابق، وأحد استحقاقاته بالضرورة تقهقر اليسار الفلسطيني. بينما نرى مدا ثوريا يساريا يكتسح معظم القارة اللاتينية وعدة بلدان اخرى، وصمود التجارب الكوبية، الفيتنامية، الكورية الشمالية، ناهيكم عن القفزات التنموية في الصين... بصرف النظر عن التفاصيل... وطابع التجربة التي تبنيها الصين في نفس المرحلة...

بلا شك، ولتجاوز الارادوية التي تتجاهل الشرط الموضوعي، لا مهرب من الاعتراف بالتأثيرات السلبية لانهيار السوفييت واحتلال العراق الذي يقاوم، وانعقاد مدريد تمهيدا لاوسلو الذي افضى لانقسام فلسطيني في العمق... الخ

لكل ذلك تأثيرات بلا ادنى ريب. ولكن كيف تصرف العامل الذاتي، كيف تصرفت الجبهة الشعبية بعد مدريد، وماذا كان الحصاد؟

لقد استشعرت الجبهة مسؤوليتها، ليس باصدار موقف قاطع بمناهضة مدريد، في الخارج والداخل والنأي عن هذا المسار وتعبئة اوسع قطاعات الرأي العام به، والقول: ليس كل فلسطين ذهبت لمدريد ومسار مدريد، بل هناك فلسطين اخرى لديها مقاربة يخلو قاموسها من «كادوك» «والاعتراف» «واستراتيجية التفاوض» وهي تتشبث بالحقوق وخيار النضال.

وفي الداخل كان القرار صريحا، والمتابعة له حازمة (المزيد من المبادرات، خطوات نوعية، المزيد من القوى الى الميدان، التقاطع مع القوى السياسية على ارضية الانتفاضة ومناهضة مدريد وللاستنرادة اكثر اسألوا الرفاق النافذين خارج السجن.) [٦٢٢]

ولكن هذا القرار التاكتيكي يبقى حبرا على ورق، وإن صدر عن العديد من القوى، ما لم تتوافر

٦٢٢) كادر مناطقي

الاداة القادرة على تحويله لسياسة، اي انه موقف اعلامي يحتاج لاداة تحوله لفعل سياسي (فالسياسة هي الصراع القومي والطبقي) لينين، «وهي نزاعات وتسويات»، ودون اداة فاعلة ليس ثمة صراعات او تسويات. فالنزاع والتسوية يتطلبان قوتين متصارعتين اولا.

(أذكر أن أكثر ما شددت عليه المراسلات الحزبية والاحاديث المباشرة في تلك الفترة هو الشرط القيادي. اثناء العدوان الثلاثيني على العراق كنا اكثر «سخاء» في الدعوة لتوزيع القوى لتدعيم صمود الشعب خشية «التطهير العرقي»، اما بعد مدريد فاصبحنا اكثر «بخلا» بالتركيز على القيادة لتأدية دورها في حماية الانتفاضة والقضية، وقد بتنا على قناعة ان الخارج لن يسند الداخل بأكثر من الموقف الاعلامي والحد الادنى من الدعم المالي، وكنا نعلم منذ وقت ان ثمة مراسلات تدعو الخارج لتنفيذ قرار (الانتفاضة محور عملنا) ولكن واقع الحال كان على عكس ذلك.)[٦٢٣]

والملحق رقم٥ يتضمن عبارات قاطعة بهذا الاتجاه...

اذ يبدو ان الجبهة قد رفعت وتيرة استشعارها لدورها السياسي بعد مدريد، كما وتيرة تحوطاتها الامنية واستعداديتها لحماية وجودها، الامر الذي يفسر المأثرة الصمودية في آب/٩١ والمأثرة الصمودية في شباط ٩٢ وما بينهما وما بعدهما... وانتقلت بشعارها (الاعتراف خيانة للشرف الحزبي) الى (حماية الحزب بالدم)، لهذا لم يكن صدفة ان يستشهد اسم بارز كمصطفى عكاوي وان يبقر بطن اسم بارز كوسام الرفيدي، وان تكسر وجنة اسم بارز كعماد السبع، في الزنازين دون ان تنال من صمودهم شيئا.

وقد عمم على بعض المستويات ما يلي، كخلاصات من الوقفة السنوية شباط/٩٢، ذلك ان الوقفة الكاملة ترفع لاعلى. وهذه الخلاصات رغم اقتضابها فهي تقول الكثير:

(١- تحققت نسبة توسع صافي ٢٧٪ على صعيد حزبي و٢٠٪ على صعيد ديموقراطي. ٢- «لمش» على حالها بضعة الاف ومطلوب احصاء دقيق لها في غضون شهرين وتوسيعها وتفعيلها اكثر. ٣- التزام كامل بالفعل الانتفاضي، وما انجز يتجاوز مؤشرات البرنامج السنوي/٩١ في مختلف المجالات والتقرير الميداني منفصل، أما الشهداء من الرفقاء والعاطفين فقد ناهز ٢٠ شهيداً هذا العام وأكثر من ٣٠٠ جريح ونحو ألفي معتقل... ٤- استمرار دورنا الرئيس في «قوم» «والمحليات»

٦٢٣) مفصل متقدم

٥- انتظام الاصدارات الداخلية حسب الخطة واصدار جديد دون ربطه رسميا بالحزب، والشروط الأمنية لا تسمح بابراز ناطق رسمي في الداخل. ٦- الرعاية المالية للاسرى والجرحى اقل من القليل ارتباطا بامكاناتنا اما الرعاية المعنوية فهي افضل بكثير وثمة حاجة لتطوير المركز المتخصص. ٧- تتسع بتدرج الخدمات الطبية والزراعية وتصل لمواقع ريفية ومخيماتية اكثر ٨- الاطاران الاكثر تألقا انتفاضيا هما المرأة «ولش» ومن الصعب تمييزهما عن المنظمات الحزبية والنسبة الحزبية فيهما تربو على ١٥٪ ومطلوب استقطاب المزيد من النساء للاطار بمساعدة المناطق. ٩- الاحتلال يلاحقنا بشراسة، والرفاق يصمدون ببطلولة ومحظور تماما ضبط اية مستمسكات...

ومن جانب آخر استخلصت الجبهة حلقتين مركزيتين:

١- حماية الانتفاضة ومناهضة أوسلو سياسيا.

٢- حماية الحزب وتوسيع صفوفه تنظيميا.)[٦٢٤]

وحشدت صفوفها لخطوات نوعية: تظاهرات حاشدة، مصادمات شعبية تفرض حضورها على وسائل الإعلام، وشجعت الجميع على المبادرة والمزيد من المبادرة في كل الاتجاهات، فلا قيد على المبادرة الميدانية كأفضل تجلٍ لصور الديموقراطية. ودعت لبذل كل الجهد الممكن للحفاظ على الصيغ الوحدوية "قوم" وان لم يكن مركزيا فمحليا.

واحد المفاصل يستحضر مناخات تلك الفترة (قبل اعتقالي بقليل استغرقتنا الوقفة اجتماعاً متواصلاً ليومين متتالين راجعنا فيه كل التقارير الفرعية واستخلصنا الوقفة العامة ومقترحاتنا للعام المقبل.

كانت وقفة معمقة شملت جميع أوجه العمل: التنظيمي، السياسي، الانتفاضي، الفكري، المالي، الأمني، الجماهيري و...

إن اقترابنا من مركز "القرار" أحال علينا الكثير من الأعباء ووفر لنا المزيد من التفاعلات.)[٦٢٥]

وفي الوقت الذي يتكرر فيه الحديث عن النجاح في تحويل الخلية لمؤسسة، والانتشار في مزيد

---

٦٢٤) مؤشرات من الوقفة سابقة الذكر

٦٢٥) قيادي

من الأحياء والمواقع الجغرافية، ثمة إشارات أيضا للوجع الناشئ عن الاعتقالات الواسعة في منطقة الوسط.

وهناك نقد صريح لتقصيرات الثورة والجبهة حيال شعبنا في ٤٨، وان الفهم لا يتجاوز استقطاب بعض المؤيدين دون الارتقاء لمستوى النظر السياسي الذي يرى في مليون وأكثر كجزء من الشعب الفلسطيني...

فما بالكم وقد تجاهلهم اتفاق أوسلو؟

ويمكن بجلاء الاستنتاج أن البنية التنظيمية وتطويرها إنما ارتبطا عضويا بالعملية الانتفاضية سواء تحويل الخلية لمؤسسة أو لجان المقاومة أو الانتشار الجغرافي والمواقعي أو الترفيعات، أو اللجان التخصصية والوظيفية... والأمر نفسه ينسحب على الإعلام الداخلي والجماهيري وأوجه الإنفاق.

ولكن المراسلات الحزبية (الملاحق) ومعظم المقابلات كررت الشكوى من ضيق ذات اليد. فالموارد محدودة وأوجه العمل تتطلب المزيد من الإنفاق. وما حال دون الاختناقات هو تخفيض نسبة المتفرغين وتقليص حقوقهم جنبا إلى جنب مع تأمين موارد محلية وتطبيق شعار (مال اقل ونتائج اكبر).

والتأكيد القاطع على فشل حملة (الذئاب والحملان) الواسعة، دون إنكار أضرارها، وفي نفس الوقت «لقد انتظمت الآليات كلها وأصبحت على درجة من الانسيابية والقدرة على تنفيذ التوجهات، فالتركيم اثبت قدرة عالية على امتصاص الهجمة وترميم آثارها والانطلاق بقوة اكبر».

وأضاء احد المفاصل في إجابته زوايا أخرى (في فترات تشكلت قيادة جماعية توافرت فيها شروط العمل الجماعي من ناحية القناعة المشتركة والرؤية المشتركة والإرادة المشتركة وتوزيع المهام والقرار...

وكانت القيادة تتعاطى بشكل خلاق وديموقراطي مرتبط بمتطلبات العمل الانتفاضي. وفي فترات أخرى كان للاعتقالات تأثيرها. وسواء كان العمل القيادي جماعيا أو أفراداً يتولون مهام القيادة الجماعية فهذه حالة ايجابية)[٦٢٦] فالعدو يسعى لفصل رأس الجبهة عن جسمها، أي شل

---

٦٢٦) قيادي

الدور القيادي، وطالما يصار لملء الفراغ بجهود مضاعفة وتضحيات مضاعفة لتأدية هذا الدور، فهذا ما يفسر توصيفه بالايجابي. ولكن الخلل الأكبر ينشؤ حينما تغيب أسماء قيادية يتعذر ملء فراغها والاضطلاع بدورها.

«كان علينا عدم الخضوع للمستوى السياسي الحكومي ومراقبتكم أكثر قبل مهاجمتكم.»

اعترف احد الضباط في الزنازين «فانتم خطرون وقد تفوقتم علينا بالصمود وتفوقنا عليكم بالتكنولوجيا».

وباتت اللعبة مكشوفة. فالحملات الاعتقالية العشوائية المدعومة ببعض الأدلة لا تجدي نفعا «فالنهج الصمودي قادر على مواجهتها»، ولا بد من اتباع وسائل استخبارية أكثر ذكاء.» من قبل اعتقلنا بعض المهندسين وسنصل للمهندس الأكبر»... ردد أحد الضباط.

وتفيد مصادر الجبهة أن قرار «ضخ دماء جديدة» «والمزيد من القوى في الميدان» بما صاحبهما من متابعة لحوحة «في معظمها ضميري، فالرفاق والرفيقات يحركهم الدافع الأيديولوجي والأخلاقي إذ لا مكاسب شخصية أو مالية»، أما المتابعة من أعلى ففرضها التأكد من حرارة ودقة العمل وتطبيق القرارات والخطط السنوية وضمان التناغم بين مختلف الآليات والتخصصات.

وتبين بالملموس «التقدم على جبهة الكم وجبهة الكيف» رغم الانحسار في المد الانتفاضي، وعلى الدوام هناك مساحة شعبوية، أعداد من الرفاق والرفيقات والعاطفين تشدهم مقولات سياسية قليلة عن النضال وتحرير فلسطين ومقولات فكرية قليلة عن العمال والفقراء والاشتراكية، منبهرين بشخصية الحكيم ورموز الصمود في الزنازين وقدرة تنظيم صغير على تحدي دولة نووية، بما هو قريب من الانحيازات الشعبوية لدى قوى أخرى...

وباتت مكشوفة الثنائية المتناقضة: انحسار الانتفاضة والحملات الاعتقالية من جهة وتشديد التطلب الانتفاضي والحزبي، بزيادة المناشطات الانتفاضية وزيادة العضوية الحزبية من جهة أخرى.

(كان يسيراً استقطاب أعداد جديدة، فهناك قاعدة واسعة في «لمش» والحلقات العاطفة وكلهم تعمدوا في المهام وتلقوا تثقيفا سياسيا وابدوا جدية في الشجاعة والانضباط... لكن ما كان يشغلنا هو ضبط حجم التوسع فلا يتجاوز القدرة الكادرية في القاعدة.

ومعيار الحكم هو البرنامج السنوي الذي تشتق منه الخطط السنوية المناطقية والوظيفية وتتحدد فيه التوجهات والمؤشرات على جميع الصعد، ويصبح ملزما للجميع ومرجعية ناظمة على امتداد العام، وينعكس في التقارير الشهرية والفصلية والوقفتين نصف السنوية والسنوية، وأية متابعات... يضاف له بداهة ما يستجد من متغيرات...

لا احتفظ بنسخة من برنامج عام ٩٢ وهذا يمكن العثور عليه في الأرشيف. ولكن مؤشراته وصلتنا في آذار واستندنا إليها في صياغة خطتنا السنوية)[٦٢٧].

تعمق الشرخ السياسي بعد شهور من مدريد، ومع مرور الوقت راح يترك بصماته على منسوب الانتفاضة والوحدة الفلسطينية. وراحت الجبهة ومعها قوى أخرى عديدة إسلامية ويسارية ووطنية تتصدى لمخاطر هذا المسار إعلاميا وميدانيا. وحددت موقفها «المعركة سياسية وتجابه بوسائل سياسية».

(قلنا مناهضة مدريد، أما إسقاط مدريد فهذا مرهون بميزان قوى، القينا بثقلنا تجسيدا لشعارنا «الجميع إلى الميدان». وفي ذلك الوقت كانت القيادة الرسمية لمنظمة التحرير تحظى بقوة هائلة وإمكانات متنوعة، والاهم أن أمريكا وإسرائيل دفعتا العجلة نحو مدريد ووعوده... فقد صدقت القيادة الرسمية في ذلك الوقت وعود بيكر (حكومة ذاتية أعلى من حكم ذاتي واقل من دولة) وعرفات لم يصح من هذه الأحلام التضليلية إلا بعد مفاوضات كامب ديفيد واجتياح عام ٢٠٠٢ ومحاصرته في المقاطعة.)[٦٢٨]

صحيح أن الحالة التناقضية استمرت مع الاحتلال، ولكن من الصحيح القول أيضا إن الشخصية الوطنية ارتبكت والوحدة الوطنية تفككت، وان اكتسب الشعب قيمة كفاحية مجموعية فقد بدأ العد التنازلي، ولم يعد نيسان/٨٧، أي إضراب الحركة الأسيرة الطويل والهبّة الشعبية التي اكتسحت الوطن، أي النموذج الذي اعتمد في الانتفاضة الكانونية، نموذجا. والتعاضد الشعبي، والتضامن الجمعي بين الأجيال، الريف والمدينة والمخيم، النساء والرجال، القوى السياسية، تراجع بتواتر.

(لقد بهتت روح اللقاء الأول الاستكشافية والتضامنية بين الشعبية وفتح والديموقراطية في سطح مرحبا في البيرة ولاحقا في القدس لإصدار النداء رقم واحد، ولم تعد روح التحدي ورفض

٦٢٧) كادر وسيط

٦٢٨) مرجعية

التعايش مع الاحتلال على حالها... حصل تصدع في الجدار.)[٦٢٩]

حصل من قبل تباينات حول التاكتيك العصياني وحول اللقاءات ببيكر واجتماع عشرة شخصيات مع شامير، (ووساطة الصفطاوي بين رابين وعرفات في صيف ٨٩.)[٦٣٠]

وحضرت مناخات (١٩٨٦/٨/٢٥ حيث التقت ٢٥ شخصية من الضفة والقطاع في مكتب بيرس فاشترط الأخير على أي فلسطيني يريد التفاوض مع اسرائيل أن يكون ضد الإرهاب ويعترف بالقرار ٢٤٢.)[٦٣١] حسبما جاء في صحيفة الاتحاد.

وحينها صدرت بيانات مشتركة بين الشعبية وحماس وأخرى صدرت عن كادرات فتح التي اختلفت مع قيادتها... ولكن كل ذلك لم يحل دون أن تتعاضد الجهود لبناء الانتفاضة مدماكا فوق مدماك من خلال تاكتيكات متلاحقة ومطالب يومية وسياسية وصدامات مع جند الاحتلال في الأزقة والشوارع...

أما مفاعيل مدريد فكان لها مدلولات وأبعاد أخرى.

(دون مبالغة كنا ضمير الانتفاضة الأكثر حرصا على تطويرها وتفادي التثمير السياسي المتعجل لها، ولم ننشد لأية مكاسب نفعية بل كانت تضحياتنا جدية. وحسبي القول أننا كنا ٣٦٪ من عدد المعتقلين في النقب الصحراوي عام ٨٨.)[٦٣٢]

وقد افتتح هذا المعتقل خصيصا لاستيعاب الآلاف المؤلفة من نشطاء الانتفاضة. في أوضاع مزرية حقا، ماء متقطع،/ حفر امتصاصية مكشوفة، طعام لا يشبع، زيارات محامين متباعدة، بلا جرائد أو كتب أو راديوهات، دواء لا يعالج تقرحات ولا إصابات ولا أمراض، ازدحام يصل لثمانية وعشرين سجينا في الخيمة الواحدة، إرهاب يومي، إطلاق نار، اقتحام بالهراوات. السجين رقم، شمس حارقة صيفا وصقيع ينخر العظام شتاء، إلى درجة أن يطلق مدير السجن النار على أسيرين أثناء العدد، فاستشهدا على الفور.

ومع ذلك كانت جذوة الانتفاضة تموج في الصدور والعلاقات الوطنية على أفضل ما يكون...

---

٦٢٩) مرجع سياسي

٦٣٠) شيف ويعاري (انتفاضة) ص٨١

٦٣١) قضايا الساعة، العدد الأول ١٩٨٧، ص٧١

٦٣٢) مرجعية سياسية

أما مدريد فأسس لمسار هدم بتدرج هذه الملحمة الثورية. (لقد اغتيلت الانتفاضة) قال احدهم، وآخر قال (لقد انطفأت).

(إن القيادة مصدر النجاح أو الفشل، وهذا يسري على مستوى وطني أو مستوى حزبي على حد سواء.) [٦٣٣]

وأصبح الوطن المحتل أمام سؤال الوجود، وجود الانتفاضة، بالحفاظ عليها أو الاستسلام لديناميات موتها.

كانت الانتفاضة قد مرت أثناء العدوان الثلاثيني على العراق بامتحان قاس، فنظام منع التجول استمر شهرا تقريبا، والبوابة الشرقية ضربت بعد حصار رهيب أفنى مليون عراقي جراء نقص الغذاء والدواء، وصرف الأنظار عن فلسطين، ولكن الوطن اصطف سياسيا بجانب العراق، ونداءات «قوم» جاهرت بالاصطفاف كما «الثورة مستمرة» و(قرر الحزب حينها الاستنفار والاستعداد لمرحلة جديدة قد يتخللها تهجير جماعي ومذابح والتعليمات تضمنت الاحتفاظ بمبلغ بسيط والتهيؤ للانتشار في الريف والكهوف وتدعيم صمود الناس.) [٦٣٤]

ولكن الوحدة الانتفاضية أعادت إنتاج العملية الانتفاضية من جديد.

صحيح انه برزت اجتهادات جزئية منذ لقاء بيكر الأول بالفصائل، الذي قاطعته الجبهة الشعبية، قالت، إن اليمين يسير في نهج المساومة على الانتفاضة والحقوق الوطنية، غير أن العملية الانتفاضية تواصلت بجهد الجميع... أما مدريد فدفع الأمور باتجاه معاكس.

مرت شهور عصيبة في ربيع وصيف/٩٢ (كنا قبضة متلاحمة أخذنا على عاتقنا مسؤولية كبرى بإدارة الدفة، عشرات الآلاف يتأثرون بتفكيرنا وقراراتنا، الخطأ ممنوع، فهو يتحول لخطيئة في العمل القيادي، والضعف ممنوع، فهو يفضي إلى تراخي الصفوف.) [٦٣٥]

أسهل الخيارات مهادنة مدريد أو الانخراط فيه وأصعب الخيارات تحديه ومناهضة مساره.

(هل تستطيع أن تتصور حجم الأمانة التي وضعت على أعناقنا، حماية الانتفاضة، أي الدماء

---

٦٣٣) مفصل

٦٣٤) قيادي تنظيمي

٦٣٥) قيادي

التي نزفت والعوائل التي ضحت والأسرى الذين اعتقلوا، والأحلام الكبرى التي عقدت عليها.) [٦٣٦]

المسألة ليست أخلاقية فقط، بل سياسية تتطلب العمل في الليل والنهار وتجشم المخاطر وإهمال العائلة والصحة وو... وفترات أطول في الزنازين والسجون.

(كمثقف كنت مقتنعا بكلمات غرامشي، أن المثقف البنيوي الجديد لا يكون بالبلاغة بل بالمشاركة النشطة في الحياة العملية كبنّاء ومنظم.) [٦٣٧]

وقد تحركت مهمات الجميع بما يتلاءم مع استحقاقات الانتفاضة، ولهذا لم يكن صدفة أن يرى أكاديمي في قلب تظاهرة وطبيب يلقي الحجارة، وامرأة تترك أطفالها لتوزيع النداءات وشاب يصوب قنبلة حارقة على دورية جيش ويتلقى بصدره زخات من الرصاص، وآخر يحاول إسعاف جريح فيسقط بجانبه جريحا، فكلمات الشاعر الكبير محمود درويش: إنْ سقطت قربك فالتقطني واضرب عدوك بي... لم تكن مجرد خيال جامح...

لقد صنع الشعب المحاصر أسطورته التي أضيفت إلى ملاحم التاريخ... فكيف تتم حمايتها إن لم يكن بمزيد من الفعاليات. فركائز الانتفاضة كلها غير كافية دون الركيزة النضالية التي تعرضت لأضرار كبيرة نتيجة انقسام الركيزة السياسية.

(لسنا صناع الانتفاضة وحدنا، ولكننا لسنا في الصف الثاني، إننا على قدم المساواة مع اكبر قوة. الانتفاضة ملحمة الشعب ومختلف مركباته السياسية... ولكن مسؤوليتنا تضاعفت بعد مدريد.) [٦٣٨]

ومن خلال عينة المراسلات المنشورة في الملاحق والمقابلات يمكن بيسر الاستنتاج أن الجبهة خاضت معركة الانتفاضة وكأنها المعركة الأخيرة «فالجميع إلى الميدان» يعني القوى الفاعلة والاحتياطية، السري ونصف السري، أعلى وأدنى... ولكن دون إغفال توصيتين: تضحيات اقل وحماية الانوية المحركة سيما الهياكل القيادية...

(في سنوات الانتفاضة أدركنا قيمة كلمات ستالين «الرهان على القوى الصاعدة» وفي حالتنا

---

٦٣٦) نفس المرجع

٦٣٧) أيديولوجي

٦٣٨) نفس المرجع

القوى الشبابية، التي عبدت الطريق أمامها لتتبوّءَ أهم المراكز دون تمييز في النوع الاجتماعي)[٦٣٩].

(كانت تظللنا روح الجماعة ومحبة الرفاق والدفء، وكنا مميزين سلوكيا وثقافيا، هدفنا الأول تطوير الحزب وتأدية مهامنا الوطنية. وفي لهيب النضال أكدنا على نوعيتنا وصدقيتنا.)[٦٤٠]

وقاعدة الجبهة لم تكن منحصرة في المنظمات الحزبية، بل هناك الأطر الديموقراطية الصديقة التي هي أضعاف القاعدة الحزبية، والتيار المحيط من العوائل والمقربين والمتعاطفين والذين تصلهم المطبوعات وعملية التحريض المنظمة... وهؤلاء تيار واسع.

كان المتراس الأول بداهة، الامتدادات الحزبية التي يناط بها تنفيذ القرارات والسياسات، ولكن هذه الامتدادات منتشرة ونافذة في القاعدة الجماهيرية ولجان الأحياء ولجان المقاومة... وهؤلاء هم المتراس الأوسع، إضافة للتفاعلات الميدانية والتقاطعات مع الحلفاء وقواعد القوى الأخرى في كل مكان...

كل هؤلاء كان عليهم التصدي للحلقتين المركزيتين «حماية الانتفاضة ومناهضة مدريد، وحماية الحزب وتوسيع صفوفه».

(كان العدو يستخطرنا، وقالت المخابرات صراحة: انتم لستم جيوشا جرارة ولكنكم اخطر لأنكم تعملون ما تقررون دون تأثر من احد. لقد تفوقتم علينا سبعة عشر عاما، وضحكتم علينا فقيادة الجبهة في الداخل... وقالت لآخر أنت عدو محترم فلو صادرنا مخزن سلاح فلن تعترف.)[٦٤١]

وهذا اوجب حماية الحزب كيما يؤدي دوره وبالتالي الاستجابة لحالة الصدام والقدرة على الرد في نفس الوقت، كما إثارة أدخنة تضليلية ورفع سدود منيعة لحماية أمن الحزب. وحالة الصراع المديد إنما أنتجت أيضا صفوفاً من الثوريين الاقحاح متنوعي المواهب الذين يراهن عليهم في كل الظروف.

ولكن ماذا عن الشرط القيادي وحمايته؟

---

٦٣٩) قيادي

٦٤٠) مرجعية سياسية

٦٤١) قيادي تنظيمي

لقد (اثبتت الجبهة أنها قادرة على الاستمرار عقوداً، كفصيلة تخوض جميع أشكال النضال، دون أن تلقي راية الكفاح المسلح أو النضال الانتفاضي، ودون أن تنجح المساومات في الزنازين وخارج الزنازين في ثلم نصلها.)[٦٤٢]

وحماية الحزب لا تعني فقط قطع الطريق على اختراقه امنيا وتهشيم عظامه في الزنازين، بل إغلاق البوابات على الطابور الخامس (فالتجذر صفة سائدة في المستويات العليا والوسيطة... فهم طواقم من أصول طبقية شعبية، الكثير منهم متفرغون بمبالغ اقل من متوسط دخل العمال، بما خلق لديهم حالة من الانسجام بين السلوك والفكر الاشتراكي والمضمون الطبقي وكلهم تعمدوا في لهيب النضال السري.)[٦٤٣]

ولكن هل حقاً كانت أهم أركان القيادة بمأمن، والقيادة بعيدة عن «عيون» الاحتلال؟

وبالنظر لسياسة الكادر، فبعض هؤلاء برهنت قابلياته انه أكثر صلاحية وإنتاجية في العمل الديموقراطي والجماهيري، أو الوظيفي أو ... أو... وتدوير هؤلاء عزز من الروح الحزبية ووحدة الإرادة.

(لقد انطلقنا بروح هجومية بعد أن تلقينا مؤشرات البرنامج السنوي. والهجوم خير وسيلة للدفاع، والانتفاضة مبادرة هجومية، وكان علينا انجاز المؤشرات.

والحكيم يشدد على القناعة والتصميم، وهذا تمثلناه جميعا في... ولن تردعنا اعتقالات أو سواها. وكل الجهود سكبت في الحلقتين السياسية والتنظيمية. كنا في صراع مع الزمن.)[٦٤٤]

ومفصل آخر أضاف (إجابة الرفيق كثّفت لوحة متشعبة وشهوراً من العمل الدؤوب، وإضافتي تنحصر بأننا بنفس التصميم عملنا في «مج» واستطعنا تحريك قاعدتنا الجماهيرية بأسرها. والحقيقة أنها انطلقت بقواها الذاتية مع ترميمات كادرية كلما دعت الحاجة.)[٦٤٥]

«إن التنظيم يضاعف القوى عشر مرات» لينين، «ولا ثورة دون حماسة ثورية» فانون، «وبالتنظيم والحزم نقاتل» هوتشي مين، مثل هذه المقولات منثورة في أدبيات الجبهة... ولم يتبقَ إلا الوقفة

---

٦٤٢) قيادي

٦٤٣) نفس المرجع

٦٤٤) مفصل

٦٤٥) قيادي جماهيري

(ربما يستغرب البعض، أن عملنا السنوية كمرآة لهذه العملية... أما أوجه النشاط الأخرى الوظيفي الفكري/الإعلامي/السياسي/المالي/الفني لم يرق إلى هذا المستوى من قبل. فقد انضم إلينا المزيد من الكادرات... وبتنا نناقش مقترحات أولية لتشكيل جهاز رقابة متخصص)(٦٤٦).

واستنادا إلى الوقفات نصف السنوية الفرعية تم إعداد الوقفة العامة في آب/٩٢. ومما جاء في مسوداتها:

(... رغم تراجع منسوب الجيشان الانتفاضي، ثمة مواقع أكثر سخونة، كما أن فعالياتنا تراجعت أيضا، والتقرير الميداني المرفق يعكس حجم ونوع أهم فعالياتنا، وهي على وجه العموم متناغمة مع البرنامج السنوي.

لم ينفك تاكتيكنا هجوميا، ولا يوجد ما يحول دون استمراره رغم الثمن الذي ندفعه. فالحالة العامة لم تنطفئ كما أننا حماة الانتفاضة وحزبها، ناهيكم أن استمرار فعلنا هو أفضل آلية لتفعيل طاقاتنا وتجذير بنيتنا واستقطاب المزيد من الأنصار «فالذي ينزل السوق يتسوق».

- تشير التقارير التنظيمية من حزبية وجماهيرية إلى أن التوسع في الأولى بلغ ١٧٪ كربح صافٍ وفي الثانية بين ١٢ – ١٥٪ والأكثر دقة هنا هو إطار م الذي يناهز ٥. أما «لمش» فلم تكن الإحصائية واضحة بما يكفي ولكنها تناهز إطار م بقليل، أما التداخل فهو هامشي، دون أن ننسى التيار المحيط... وقاعدتنا المؤطرة في عموم فلسطين لا تقل عن ٢٥ – ٢٧، والإطار النقابي العمالي استعاد بعض آلياته، أما الإطار النقابي الطلابي فقد حافظ على عافيته بقدر اكبر رغم سياسة إغلاق الجامعات... طبعا لقد تراجع مستوى التعليم في زمن الانتفاضة، أما التعليم الشعبي، فرغم أهميته، فهو لا يشكل بديلا كافيا...

التقاليد الحزبية منتظمة (اجتماع، نقاش، تقرير، تثقيف، متابعة... اشتراك ويغطي ٦٠٪ تقريبا، والخلل الجدي في س كما هناك خلل تنظيمي في ٤ فهي لم تتعاف من الضربة بعد... والنشريات تصدر وتفاصيلها على النحو التالي... ولم يتراجع، فعلنا الميداني الانتفاضي إجمالاً إلا في حدود ضيقة، والتقرير مرفق...)(٦٤٧)

في الأشهر التالية تراجع أكثر منسوب الانتفاضة وتعرضت الجبهة لاعتقالات نوعية...

٦٤٦) قيادي

٦٤٧) مسودات من نصف الوقفة السنوية، آب/٩٢

انعقد مؤتمرها الوطني العام في دمشق، والداخل لم يشارك مباشرة، ذلك أن المندوبين إما في السجون أو في ظروف الملاحقة أو لهم ملفات اعتقالية سابقة بما يمنع سفرهم (تم إعداد رسالة الداخل في السجن، ونوقشت من قبل المؤتمرين في الوطن وأدخلت عليها التعديلات اللازمة، وأرفقت بها الآراء المغايرة ورفعت للمؤتمر...

كان جناح الداخل يفوق جناح الخارج بقليل، ولو احتسبت الحلقات كما الحال في الخارج لأصبح قوامه أكثر من الثلثين، ولكن لنفاجأ أن رسالة الداخل لم تعتمد بدعوى أن المؤتمرين غائبون أو شيء من هذا القبيل)[٦٤٨] ... لم نحصل على رسالة المؤتمر ولكن (الملحق رقم ٥) لا يخلو من فائدة.

وآخر أضاف «بعدها حصل اعتقال نوعي وتقلصت ميزانية الداخل» ووقع اتفاق أوسلو وتأكد دخول القضية الوطنية مرحلة جديدة وغطست الجبهة في أزمة بنيوية شاملة لم تخرج منها.

٦٤٨) فيادي

الفصل الرابع

الانتفاضة محطة نوعية عليا

انتقلت بالجبهة إلى قوة رئيسة تنافس على القوة الأولى

جاء في تعميم صادر عن قيادة الجبهة في الأراضي المحتلة في تموز عام ١٩٨٧ (أن التاريخ قد ألقى على كاهل شعبنا في الداخل مسؤولية مميزة في اللحظة الراهنة، حفاظاً على دوام شعلة الكفاح المسلح الفلسطيني ... إن الجماهير الفلسطينية هي الرجاء الوحيد لمواصلة المسيرة وإحراز المزيد من التقدم على طريق التحرر واسترداد الحقوق الوطنية وإنزال ضربات موجعة بالاحتلال الصهيوني وتكبيده خسائر بشرية واقتصادية مثلما حصل في التجربة اللبنانية عندما انكفأ من بيروت وصور وصيدا... وعشرات التجارب التحررية في العالم ... فالاستعمار لا يجلو عن المستعمرات طواعية بل تحت ضربات المقاومة الوطنية وحينما تستفحل خسائره وتفوق أرباحه.

إن شعبنا الرازح تحت نير الاحتلال هو المرشح والرجاء الأكيد لرسم طريق الخروج من السياج الخانق الذي يحاصر الكفاح المسلح في لبنان، فاللحظة التاريخية الراهنة أحالت عليه شرف سكب الزيت على فتيل الكفاح بما يكفل تواصل توهجه ليغدو ناراً تحرق العدو.

وإذا كان على شعبنا في الخارج حماية البندقية الفلسطينية في لبنان، فإن على شعبنا في الداخل أن يفتح جبهة قتال ثانية تضمن صيرورة العنف الثوري. إن شعبنا في الوطن المحتل بركان ينتظر شرارة الانفجار، وإن الاضرابات الجماهيرية وما صاحبها وتوالد عنها من أعمال مقاومة ومظاهر احتجاجية في الشهور الأخيرة لتدل على أن تيار الثورة والانتماء الفلسطيني يتدفق بغزارة في أوصال وعروق شعبنا، وإن الكلمة الأخيرة في تمييع الحالة الجماهيرية أو تصليبها إنما تكمن بموقف القوى المنظمة)[٦٤٩].

أما رسائل أيلول الصادرة عن قيادة الجبهة في الأراضي المحتلة إلى قيادات المناطق فقد أكدت (أن الأراضي المحتلة مرجل يغلي وعلينا التهيؤ ميدانياً أكثر فأكثر لاستحقاقات انفجاره في اشتباك شعبي مع سياسات الاحتلال بما يتجاوز كثيراً فعالياتنا في العام الأخير، وشعارنا اتبعوني لا تقدموا)[٦٥٠].

---

٦٤٩) تعميم صادر عن قيادة الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة، تموز/ ١٩٨٧

٦٥٠) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قيادة الأرض المحتلة، رسائل أيلول/ ١٩٨٧

يكتسب هذا التحليل بما صاحبه من تحفيز على المهمات العملية أهميته السياسية من كون الجبهة كانت حينذاك تتمتع ببنية لها امتداداتها وقدرة على تنفيذ المهام، ودون ذلك يتحول التحليل لتبشير أو لغو فارغ.

سبق ذلك انعقاد المجلس الوطني التوحيدي في نيسان/١٩٨٧، حيث تكللت الحوارات الفلسطينية عام ١٩٨٦ بإلغاء اتفاق عمان بين الملك وعرفات وربط العلاقات بين المنظمة والنظام المصري بتخلي النظام عن كامب ديفيد بما مهد لدورة ١٧ التوحيدية. وقد استخلص تحليل الجبهة «إن تسلسل الأحداث يشير إلى انسداد الطريق أمام القيادة اليمينية في تسوية سياسية... بل تلقت قيادة منظمة التحرير سلسلة ضربات منها محاولة الحكومة الأردنية تهميشها كما ظهر في قمة عمان وشطبها بخَلق قيادة بديلة وتمرير مشروع التقاسم الوظيفي».

وبذلك تغلبت عوامل الوحدة الوطنية. أما تدفقات «البترودولار التي أفسدت أعداداً متزايدة من كادرات الثورة ورموزها في الخارج بغية خلق إطارات واسعة مهيأة لترويج التوجهات السياسية التسووية والانهزامية، وهي نفس التيارات التي كانت تعارض الإصلاح الديمقراطي في مؤسسات المنظمة وتروّج لسياسات «الاعتدال»... فهي لم تؤثر بصورة ملحوظة على الداخل، وباستثناء بعض الدوائر المستفيدة من هذه التدفقات، فمقولة مقاومة المحتل هي السائدة في أوساط الشعب الفلسطيني وأوساط مختلف فصائل المقاومة، هذه الأوساط هي التي كانت مصدر القرار والفعل وزيت الانتفاضة»...

ناهيكم عن إضراب الحركة الأسيرة عن الطعام في نيسان الذي حظي في الوطن المحتل بتحركات شعبية واسعة وتظاهرات واصطدام بقوات الاحتلال سقط فيها العشرات من الشهداء والجرحى ومئات المعتقلين. وقد حدد تعميم سياسي صادر عن قيادة الأرض المحتلة (إننا نتخندق مع إضراب الحركة الأسيرة التي تتقدم الصفوف في مواجهة شجاعة باسلة مع المحتل الفاشي، فلينخرط الجميع، مع مراعاة الضوابط، في المناشطات الميدانية ليس من موقع التضامن بل التخندق فالمعركة واحدة...

لقد بلغ التركيم السياسي والصمود المجتمعي درجة يتعذر معها تدمير اليقظة الوطنية، وفقط بالنضال ومن خلال عملية تراكمية طويلة يمكن إجبار الاحتلال على التراجع. إن المطلب السياسي بتحرير الأرض وتفكيك المستعمرات وفك التبعية والإلحاق للاقتصاد الوطني تتصدر جدول الأعمال في إطار الهدف المرحلي. وإجراءات الاحتلال لن تنجح في استئصال الروح الوطنية

ومقومات الاستقلال الوطني، طالما أن قيادة المقاومة بخير، فالشعب قلعة لا تقتحم إلا من الداخل) (٦٥١).

وكانت حملة الاعتقالات الواسعة التي تعرضت لها امتدادات الجبهة الشعبية عام ١٩٨٥ قد اكتسحت ما لا يقل عن ٥٠٪ من البنية المحزّبة، بل كانت الضربة تصفوية في غزة، وشيئاً قريباً من ذلك في نابلس، وواسعة في بيت لحم، مع نهش مستمر هنا وهناك، وسقط ثلاثة رفاق اغتيلوا على التوالي في شمال الضفة بما أشار إلى تاكتيك جديد يتبعه جهاز المخابرات، إضافة لاستشهاد الغرباوي في اشتباك مسلح قتل فيه ضابط وجندي إسرائيليان في غزة نتج عنه فيما نتج موجة تعذيب شرسة في الزنازين واعتقال العضو المرشح للمكتب السياسي محمود الغرباوي ورفيقه عضو اللجنة المركزية جبر وشاح...

ناهيكم عن اعتقال عدنان منصور الذي وجهت له تهمة المسؤول العسكري للجبهة ومحمود فتون بعد حياة تخف استمرت سنوات، بما تعرضا له من صنوف تنكيل تفوق الوصف. وكان لصمودهما الأسطوري أثر بالغ في شحن المعنوية الحزبية، ولكن إبعادهما خارج الوطن بما يمثلانه من موقع قيادي ومسؤوليات وهما العضوان في اللجنة المركزية العامة، شكّل خسارة حقيقية، تلاهما بعد وقت إبعاد زكريا النحاس الذي عاش طريداً نحو سبع سنوات.

(على امتداد أربع أو خمس سنوات بين ٨٣-١٩٨٧ أولينا التأطير الجماهيري جهداً مضاعفاً، إذ رغم تغليب السري على العلني، فسياسة توزيع الكادر أخذت في الحسبان زج المزيد من الكادرات والنشطاء في العمل الجماهيري، سواء النقابات وأطر ولجان العمال أو اتحاد وأطر المرأة أو المثقفين والطلبة... وقد انعكس هذا إيجاباً في اكتساب خبرات جديدة وتوسيع القاعدة الديمقراطية المحيطة، كما خوض بعض النضالات الطبقية سيما في شركة كهرباء القدس ومستشفيَي المقاصد والمطلع وجامعة بيرزيت... وتنامى تأثيرنا في الصحافة المقروءة (الشراع، الميثاق، الراصد، الجماهير...) التي تعرضت كلها للإغلاق بدعوى ارتباطها «بتنظيم غير مشروع».

وكان للرفاق والأنصار حضور نشط وملموس في المخيمات والأرياف، مثلما كان لهم دورهم المشهود له في الفعاليات الشعبية سيما إسناد الحركة الأسيرة.

مثل هذه الحيوية سمحت باستقطاب وتحزيب مئات وآلاف العاطفين، ففي لهيب الممارسة يتم بناء التنظيم، وبالتالي فشلت قراءة المعلق العسكري المقرب بين أوساط استخبارية، زئيف

---

٦٥١) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قيادة الأرض المحتلة، تعميم آذار/ ١٩٨٧

شيف، عام ١٩٨٥ (لقد تم القضاء على الجبهة الشعبية) مما اضطره بعد عامين للاعتراف (أن الجبهة الشعبية قوة فعالة ونشطة) أما في عام ٩١ فكتب متهكماً على جاز المخابرات الإسرائيلي الذي نجح بعد عملية أمنية معقدة باعتقال مفصلين بارزين هما وسام الرفيدي وعماد السبع بعد سنوات ناجحة ومثمرة من المطاردة والتخفي (أي مواطن إسرائيلي يواجه صعوبة بيروقراطية في الحصول على أوراق رسمية ليتوجه إلى مكاتب الجبهة الشعبية في رام الله) إذ أن مداهمة المخبأ السري أتاحت مصادرة أجهزة تصوير ووسائل تزييف هويات... وأضاف على أثر صمود الرفيقين رغم كل الأدلة الثبوتية والمستمسكات «أن لدى الجبهة سلسلة كادرية صلبة»)[٦٥٢].

وما ينطبق على الجبهة، في تلكم السنوات، إنما ينطبق على سواها من الفصائل، سيما فتح، وبدرجات أقل بكثير الجبهة الديمقراطية والحزب الشيوعي، من ناحية التأطير وتوسيع القاعدة الجماهيرية والنشاط الميداني، الشيء الذي انعكس في انتخابات المنظمات الشعبية كمعيار رئيس في قياس حجوم القوى ناهيكم عن أوزان القوى في سجون الاحتلال.

مع اندلاع انتفاضة كانون أول/ ١٩٨٧، في الأيام الأولى، استهلت قيادة الجبهة في الأرض المحتلة، تحليلها بالقول(تتصاعد المواجهات مع المحتل وتتفاعل الأحداث حيث يمتزج الوعي بالعفوية... كانت الشرارة حافلة جباليا وما توالد عنها، وفي اليومين التاليين تظاهرة في بلاطة، نابلس... لقد بدأ التفاعل النووي الذي يمكن وصفه بالهبة)[٦٥٣]. وبعد أسبوعين أصدرت تعميماً سياسياً تحدث عن (تحول الهبة والمبادرات المحلية لانتفاض شعبي عارم بمشاركة المدينة، المخيم، الريف في أرجاء الوطن... ومن الأهمية بمكان تعزيز الطابع الشعبي للانتفاضة، فهو الضمانة للاستمرار... على منظمات الجبهة الحزبية والديمقراطية تأدية الدور الطليعي نظرياً وعملياً، وهذا يتطلب المتابعة اللحوحة (فالمتابعة جوهر العمل الحزبي) لينين، والمتابعة تكون حية في الخطوط الأمامية وفي التقارير...)[٦٥٤]

إن العامل الحاسم في انفجار الانتفاض الشعبي في أواخر عام ١٩٨٧ هو ما بلغته الأرض المحتلة من استعداد لمجابهة السياسات الاحتلالية العنصرية والإذلالية... وفي القلب منها القوى المنظمة، وبتبويب أوضح يمكن سوق مايلي:

٦٥٢) قيادي في الجبهة

٦٥٣) تعميم صادر عن قيادة الجبهة في الداخل ١٢/١٩٨٧

٦٥٤) تعميم صادر عن قيادة الجبهة في الداخل ١٢/١٩٨٧

لقد انتفضت الأراضي المحتلة في الضفة وغزة، بإسناد متنوع من الجماهير الفلسطينية في ٤٨، ناهيكم عن الشتات سيما في سوريا ولبنان والأردن.

كان جلياً بما فيه الكفاية دور «العفوية» والمبادرات المحلية، فهي في كل مكان، مثلما كان جارفاً دور الامتدادات المنظمة للفصائل الفلسطينية. وبتشكيل القيادة الموحدة من فتح والشعبية والديمقراطية، وبعد شهور انضم لها الحزب الشيوعي، إنما تشكل العنوان القيادي للعملية الانتفاضية، إضافة للمشاركة الميدانية الواسعة لحركتي حماس والجهاد وإن لم تشاركا رسمياً في القيادة الموحدة (قوم). لقد انخرط الجميع في المعمعان، كل من موقعه ووزنه، وتبدى للعيان التنسيق الميداني الموقعي رغم بعض الاحتكاكات أحياناً.

(كانت «قوم» لجنة فصائلية تتولى صياغة نداءات الانتفاضة، سواء الديباجة السياسية أو برنامج المهمات، يساعدها في ذلك الأفكار والمقترحات التي يزودها كل فصيل لمندوبه، لتجتمع وتناقش وتغني وتقرر، كان يمكن أن يرتقي دورها وخبراتها لولا اعتقالها المتكرر كما طابعها التنسيقي الوظيفي، فهي لا تقود أدوات ولجان الانتفاضة في المناطق.

كلما تعرضت للاعتقال تولت الفصائل تكليف مندوبين جدد بما حافظ على «قوم» وكان ثمة مرجعيات قيادية أكثر استقراراً وأماناً، كظهير للأولى وأكثر سرية، وقد تعرض هؤلاء للاعتقال اتصالاً بمهامهم وآليات عملهم. أما الأكثر تأثيراً فكانت المرجعيات القيادية التي تتولى الركيزة التنظيمية للانتفاضة التي تضطلع بالمهام الميدانية والإعلامية، فجوهر الانتفاضة هو جيشانها ومناشطاتها في مختلف المناطق والمواقع، إنها عملية شعبية عارمة، تنْظمها نداءات «قوم» وقرار عملياتي يتمثل في الاشتباكات اليومية التي تشكل تيار الانتفاضة الهادر، وقرار نظري يوجه ما هو رئيس وتاكتيكي عام. وكان التيار من القوة والاندفاع بما يكفي لابتلاع تباينات جزئية، بل كان المظهر الرئيس هو التنافس بين مختلف القوى لتنفيذ المزيد من المناشطات الانتفاضية والذي يتثاقل يبقى في معزل)[٦٥٥].

يجدر تأكيد أنه لولا القوى المنظمة، لما استمرت الاندفاعية الشعبية سنوات، فهي الهيكل العظمي والرأس المفكر، بل تضاعفت قوة هذا الهيكل مرات في سنوات الجيشان الانتفاضي، واغتنى وتمرس أكثر الرأس المفكر، لكن الطابع الشعبي للانتفاضة كان أوسع بما لا يقاس من

---

٦٥٥) قطامش، أحمد، محاضرة (بين الانتفاضة الكانونية والاشتباك الانتفاضي ٢٠٠٠) أيار/٢٠٠١، مركز منيف البرغوثي الثقافي

عضوية التنظيمات.

وبتكثيف شديد يمكن التعريج على أهم محركات وعوامل الانتفاضة على النحو التالي:

أولاً: العامل الموضوعي متمثلاً بسياسات الاحتلال العسكري التي تستبيح فلسطين شعباً وأرضاً وحقوقاً وكرامة، فالاحتلال الإسرائيلي هو من أسوأ الاحتلالات في التاريخ، فهو عنصري ينكر شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين، وإقصائي لا يتردد في التخطيط لإزاحة شعب فلسطين من التاريخ والجغرافيا وقد نفذ تطهيراً عرقياً دموياً عام ١٩٤٨ وتطهيراً جزئياً شمل نصف سكان الضفة وغزة عام ٦٧ وشيئاً مشابهاً اليوم في القدس، وهو لا ينفك يترجم يومياً اعتقالات وتقتيلاً وإذلالاً ومصادرة أراضٍ وسرقة مياه وفرض قيود على الحركة... وكل ما من شأنه تفكيك الشعب وضرب هويته وتدمير ميكانيزمات وجوده وتطوره، فالكيان الصهيوني يرفض أية تسويات سياسية ويرفض الانسحاب أو التنازل عن «أرض الميعاد» فهو يتمرس وراء لاءاته دون بحث عن حل تاريخي أو حل وسط أو مجرد وقف مشروعه الهجومي الإقصائي. والاحتلال (يستخدم القوانين والأنظمة العسكرية والإلحاق الاقتصادي والاعتقال والإبعاد وهدم البيوت... وضرب الصناعة والزراعة ومصادر المياه... ناهيكم عن الاعتداءات الليلية للمستوطنين على بيوت المواطنين وسياراتهم... وطرد العمال العرب من المشاريع الإسرائيلية)[٦٥٦]. و(على مدى عقدين - كتبت الصحافية الأمريكية أولاس- واصل الاحتلال سياسة الضم والقمع... وبيغن وصف الفلسطينيين عام ١٩٨٢ أنهم حيوانات تمشي على قدمين وبعد ستة أعوام قال شامير: أنتم أيها الفلسطينيون مقارنة بنا لستم سوى جنادب... لقد تحطمت المرآة التي تقول «بالاحتلال المتنور» انفضحت مقولة «نقاوة السلاح» وكشف النقاب عن الفظاظة في التركيبة الفكرية-العسكرية)[٦٥٧]. وعن القمع الاحتلالي نستعين بالجدول الذي خلص إليه الباحثان بسمة أبوصوي وعودة شحادة

٦٥٦) الانتفاضة مبادرة شعبية، مجموعة باحثين، ١٩٩٠. الأرض المحتلة دون دار نشر ص ١٣

٦٥٧) نفس المرجع. أولاس، كريستين. من ص٢٦، ٢٩، ٣١

(تصاعد التنكيل الاحتلالي بين ٨٥-١٩٨٧) (١)

	عام ١٩٨٥	عام ١٩٨٦	عام ١٩٨٧	النصف الأول من عام ١٩٨٨
الشهداء	١٣	٢١	٢٩	٤٣٢
الجرحى	٤٠	٥٢	١٨٠	٤,٦ ألف
المبعدون	٢٠	١١	٨	٣٢
اعتقال إداري	١٣٠	٤٠	١٦٠	٥ آلاف
إغلاق بيوت	٥١	٧٧	٦٢	.....
هدم بيوت	٥١	٧٧	١٣٢	٥٦١
حظر تجول		١٠٠ مرة	٦٠ مرة	ألفي يوم
إقامة جبرية	٧٠	٦٧		
اقتلاع شجر		٨٠٠	١٨ ألف	١٠٠ ألف شجرة

فالاحتلال يعتمد سياسة القبضة الحديدية التي طالت بالإرهاب المنظم والتنكيل العنصري كل مناحي الحياة الفلسطينية ومست بالإهانة كل فلسطيني وفلسطينية.

لقد اشتدت وتائر مصادرة الأرض والقمع وتهويد القدس وو و... في سنوات الثمانينات، ناهيكم عن احتلال نصف لبنان وبيروت وقصف وتدمير المخيمات...

ثانياً: العامل الذاتي وهو العامل الأول والأهم، ذلك أن الموضوعي حالة قائمة ومستمرة منذ عقود، أما الذاتي فهو الاستجابة أو عدم الاستجابة لضرورات الصراع وكيفية تجلي هذه الضرورات...

وقد تجلى العامل الذاتي أكثر ما تجلى في العملية التراكمية لأدوات المجابهة الوطنية، من فصائل ومنظمات شعبية واستعدادات جماهيرية ووعي تحرري وجرأة على التحدي وخبرة في ممارسة أشكال النضال وتكون قيادات فصائلية كفؤة في الداخل أخذت على عاتقها حماية القضية والمقاومة من خلال الاشتباك مع المحتل بعد انحسار البندقية في لبنان... وبلا شك أن هذه العملية قد تصاعدت في سنوات ما قبل الجيشان الانتفاضي، وهذا لخصته دورية قضايا الساعة(شهد النصف الثاني من عام ١٩٨٦ حوالي ١٠٥ عمليات منها ٥٧ زجاجة حارقة، والنصف الأول ١٩٨٧ حوالي ١١٢ عملية منها ٩٨ زجاجة حارقة، والنصف الثاني ٣٦٣ عملية منها ١٨٧ زجاجة حارقة، بما أدى إلى مقتل ٢٧ وجرح ٢٦٠)[٦٥٨] ومثل هذه الفعاليات إنما ينفذها في المجمل خلايا المنظمات الفلسطينية، الشيء الذي يومئ إلى تنامي القاعدة التنظيمية لفصائل المقاومة. ففي

٦٥٨) قضايا الساعة، العدد ٤، مقربة من الجبهة الشعبية، ١٩٨٨، بلا دار نشر

لهيب المواجهات مع المحتل يتعاظم الإقبال على الانتظام الفصائلي سيما من قبل العنصر الشبابي الذي كانت مرآته العاكسة الحملات الاعتقالية والمحاكم التعسفية، فما أن كادت تفرغ السجون بعد عملية تبادل الأسرى عام ١٩٨٥ امتلأت ثانية وتزايدت الأعداد... كما تضاعفت قاعدة المنظمات الشعبية بين حركة نقابية عمالية وأطر وجمعيات نسوية وكتل طلابية ومنظمات مهنية... فغدت تضم أكثر من ٦٠ ألفاً، الأمر الذي نوهت به الانتخابات القطاعية، فضلاً عن تنامي خبرة تنظيم التظاهرات والإضرابات النقابية والسياسية، وبشكل أخص المواجهات إسناداً للحركة الأسيرة التي لجأت لسلاح الإضراب المفتوح عن الطعام في آذار عام ١٩٨٧ بما أحدثه من مفاعيل وتعاطف إلى درجة أن يسقط عشرات الشهداء والجرحى في المدن الفلسطينية...

وتجدر الإشارة للاعتراف الإسرائيلي بأن تحضيرات الجبهة الشعبية للاحتفال بالذكرى العشرين لانطلاقتها كان (أحد الأسباب لإشاعة الاضطرابات والتحريضات).

وكان لإطلاق سراح نحو ١١٥٠ أسيراً على أيدي «القيادة العامة» في عملية تبادل ذكية للأسرى عام ١٩٨٥ أثره في إنعاش المعنوية الفلسطينية، بما أعاد للذاكرة عمليات سابقة أقل شأناً للجبهة الشعبية وحركة فتح، إذ يمكن ليّ عنق العنصرية الإسرائيلية وإجبارها على التراجع، وهذا حصل أيضاً (بإسقاط قرار إبعاد المناضل بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس السابق الذي تعرض ورؤساء بلديات آخرون لمحاولة اغتيال بشعة، لقد تراجعت بعد تحركات شعبية واسعة دفعت قوات الاحتلال لإعادة احتلال المدن الفلسطينية من جديد والاشتباك الواسع مع المتظاهرين دون أن تثني عزيمتهم)[٦٥٩].

أما مشروع روابط القرى لإذكاء التناقض بين المدينة والريف وإيجاد قوى اجتماعية تقليدية متساوقة، فقد تبخر في ضوء تصاعد نفوذ منظمة التحرير، وانتقال مركز ثقل العمل السياسي للمدينة والتصدي الشعبي لهذه الروابط والأمر نفسه ينسحب على اللجان البلدية المعنية.

ويمكن القول إن سلسلة المعارك الجزئية والمحلية قد شكلت خلفية للصراع الجبهي اللاحق إذ كان عام ٨٧ عاماً ساخناً. وقد أشار تقرير «للثورة مستمرة» في آذار (لقد كرم شعبنا الشهداء بالشهداء، وتفاعل سيناريو النضال ليشمل عموم فلسطين، والشرارة كانت مقتل مستوطن إسرائيلي في القدس تلاها اعتداءات المستوطنين على أهالي عقبة الخالدية، فاعتقال محاضر من

---

٦٥٩) بيان غير مؤرخ صادر عن الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة

جامعة بيرزيت، فمظاهرة حاشدة استشهد فيها طالبان،.. وتصاعدت المواجهات وامتدت لتبلغ مستوى هبة شعبية جامحة)(٦٦٠). وشيء مشابه صرّح به المحلل العسكري الإسرائيلي فالتر بعد أن استشهد سائق أجرة فلسطيني قام بدهس جنديين أصابهما بجراح قرب مخيم عسكر، فاندلعت المواجهات، بالقول (لقد نهضت الضفة بثبات بين ذكرى قرار التقسيم ٢٩-١١-٨٦ ويوم الأرض ٣١/آذار ١٩٨٧.

أما الباحث الإسرائيلي بنفنستي فأشار إلى تصاعد عمليات المواجهة (من ٥٠٠ بين ١٩٧٧ – ١٩٨٢ إلى ٣ آلاف بين ٨٢-١٩٨٧ حيث غلبت المبادرات الشعبية التي كانت ١:١١ عام ١٩٨٣ فأصبحت ١:١٨ عام ١٩٨٦ من قبل أفراد ومجموعات لا تعبأ بنتائج ما يقدمون عليه. ويستطرد عمر الغول أنه في ٧-١٠-١٩٨٧ سقط أربعة شهداء في اشتباك مسلح في مثلث الشجاعية، ومقتل ضابط احتلالي... وفي ١١/١٠/٨٧ حاولت جماعة جبل الهيكل الصلاة في المسجد الأقصى فتصدى لها آلاف المواطنين... وفي ١٠/١٦ قاطعت الشخصيات الفلسطينية زيارة شولتز... وفي ١٠/١٥ نفذت المجالس المحلية العربية في ٤٨ إضراباً لساعتين احتجاجاً على قمع سلطات الاحتلال لفلسطينيي ٦٧... وكانت سلطات الاحتلال قد أغلقت الجامعة الإسلامية في غزة ثلاثة أيام وجامعة بيرزيت أربعة أيام وجرحت أكثر من ٩٠ مواطناً وقتلت مواطنا في رام الله ومواطنة أخرى في غزة، فكان الرد طعن تاجر إسرائيلي حتى الموت في ١٩٨٧/١٢/٧. وكان الجنرال ياريف رئيس الاستخبارات السابق قد تحدث عن القنبلة الديموغرافية ومن قبله الجنرال بن إيليعازر الحاكم العسكري السابق للمناطق المحتلة أن الشباب الفلسطيني يؤيدون م.ت.ف ويرفضون الاحتلال ونسبتهم ٥٠٪)(٦٦١). (أما الخلافات بين فتح والشعبية حول مشروع ريغن ومن بعده مشروع فهد وصولاً إلى الكونفيدرالية ودورة مجلس عمان... فقد تحولت لعناوين استقطاب في الأرض المحتلة تجلت في أنشطة إعلامية ومناشطات شعبية وتحريض تعبوي بما عزز في النهاية من قوة الفريقين، مصداقاً لمقولة مهدي عامل (في التناقض الحياة) طالما أن ثمة ضوابط تمنع تحول التناقض لخنادق متعادية أو صراع عنيف أو بث روح الكراهية... رغم الانفلات المحدود في جامعة بيرزيت وصدام الشعبية وحماس في غزة... من حقنا وواجبنا التعبير عن رأينا ومد نفوذنا في أوساط شعبنا والتحرك النضالي مع أو بمعزل عن الآخرين، ولكن يتعين علينا وعلى الآخرين تعلم فن حل التناقضات الثانوية أو التعايش معها دون اللجوء للعنف، ونعلم جيداً أننا الأكثر أخلاقية

٦٦٠) نشرة الثورة مستمرة، الجبهة الشعبية، الأراضي المحتلة، آذار ١٩٨٧

٦٦١) الغول، عمر حلمي، الانتفاضة. إنجازات وآفاق (١٩٨٩) مؤسسة عيبال للنشر ص ٦٤، ٧٢، ٧٣، ٧٤

ومسؤولية وطنية هنا، وهذا ليس تمايزاً بل أمراً طبيعياً والمهم أن نتوحد ميدانياً في حالة الاختلاف السياسي)[٦٦٢].

وبطبيعة الحال ألهبت عملية الطائرة الشراعية في ١٩٨٧/١١/٢٥ التي نفذها استشهادي للقيادة العامة قتل فيها ستة جنود إسرائيليين وجرح سبعة، الحماسة لدى الناس، ويضيف عمر القول (لم تأتِ الانتفاضة نتاج حادث فردي... هي ثمرة تفاعل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والنضالية كافة... فعلى الصعيد الدولي شهدت القضية الفلسطينية تراجعاً ملحوظاً... ففي قمة جوربا تشوف- ريغن في كانون أول/١٩٨٧ جاءت القضية الفلسطينية في الترتيب الرابع بما يعكس تهميشها... وقمة عمان العربية غير العادية في ١٩٨٧/١١/١٨ وضعت القضية الفلسطينية كبند ثانوي... وفي الأرض المحتلة كانت تجري عملية (التطبيع قبل التوقيع) والتنفيذ الفعلي لمشروع «التقاسم الوظيفي» الأردني/ الإسرائيلي واستناداً إلى نشرة «الثورة مستمرة» التي تصدرها الجبهة الشعبية في الوطن المحتل. (ما تعيين لجان بلدية سوى عنوان من عناوين التقاسم الوظيفي، ومن المتوقع أن يليه اقتسام الدوائر الحكومية، وثمة تعيينات وترقيات في جهاز الشرطة تخدم هذا المنحى... وجاء تصريح رشاد الشوا (إنني مستعد للمشاركة في مفاوضات السلام إذا طلب مني الملك حسين ذلك... لقد ضقنا ذرعاً بتصرفات المنظمة) ودعوات سري نسيبة لوضع إستراتيجية فلسطينية جديدة تقضي بالحصول على الجنسية الإسرائيلية والدخول في انتخابات الكنيست... وتصريح السنيورة الداعي للمشاركة في انتخابات بلدية القدس، واجتماع رابين في تشرين ثانٍ بمئة شخصية فلسطينية... ولقاء الحسيني -نسيبة مع الليكودي عميراف)...

كانت الصدور موغرة وغاضبة، حصل الدهس المدبّر في جباليا الذي سقط فيه أربعة عمال... راحت تتدحرج كرة الثلج، وفي اليوم التالي ١٢/٩ اشتعلت التظاهرات في عموم القطاع، وفي ١٢/١٠ انطلقت تظاهرة نابلس التي شارك فيها نحو ألف شخص لمناسبة انطلاق الجبهة الشعبية، وسقط فيها العكليك عضو جبهة العمل النقابي المقربة من الجبهة الشعبية وفي ١٢/١١ انطلقت مظاهرة عارمة في مخيم بلاطة سقط فيها أربعة شهداء...

لقد اشتعلت الضفة وغزة، وانتقلت المواجهات من المبادرات المحلية إلى التحرك الشامل، وصدر بيان المؤسسات في نحو أسبوعين وبيان «قوم» الأول في ١٩٨٨/١/٨.

---

(٦٦٢) رسالة من قيادة الجبهة في الداخل للجنة كادرية مناطقية/ أواخر ١٩٨٥

(لم يكن لدى العقل النظري القيادي للجبهة الشعبية تصور محدد حول الانفجار الشعبي المقبل، ولكننا، منذ وقت، كنّا قد محصّنا انتفاضة أكتوبر الروسية، وقلنا إن الفائدة محدودة، نظراً لتباين شروط الزمان والمكان، وامسكنا بأهمية توافر قيادة عامة للانتفاضة، مثلما أمعنا النظر في كتاب روسّو عن الانتفاضة الإيطالية في بداية الثلاثينات، وكانت الفائدة أكبر بكثير سيما في بعدها التاكتيكي والتنظيمي، ولفتنا موقف عبد القادر الجزائري الذي رفع شعار الحرية والاستقلال رداً على مشروع الحكم الذاتي الذي اقترحه المستعمر الفرنسي فأمسكنا بالشعار، بل لقد انتحلناه وطرزناه هدفاً للانتفاضة الفلسطينية، وبالتالي فإن مزاعم بعض القوى الفلسطينية أنها نحتت هذا الشعار هي باطلة وهنا مفيد استحضار كلمات نابليون (الهزيمة يتيمة والنصر له مئة أب) ولم تشدنا بتاتاً تجربة عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ضد المستعمر رغم عظمتها، فهي مفيدة للثورة الصينية أو الفيتنامية وذات الشيء يقال عن الثورة اليمنية أو الجزائرية.

كنا قد تمرنا مرات على الحكمة الصينية (وتّر القوس ودعه ينطلق) واستخدمنا هذه المقولة في تعاميمنا وتوجيهاتنا، فركن أساسي في مسيرتنا كانت التعبئة وتهيئة أدوات المقاومة، وهذه عملية بنائية دأبنا عليها على امتداد السنين ارتباطاً بالممارسة والمهمات.

وعندما صدرت «الرسالة الجيفارية» بمنطوقها وغناها سألنا وتساءلنا هل انتقلت الجبهة لمرحلة جديدة؟ إذ قرأنا بين سطورها توجهاً ضمنياً لبناء حركة غوارية مركزية، وهذا يتجاوز ما بلغته المسيرة الوطنية في الداخل، وبصراحة لم نكن نعرف عقبات ذلك ولا شروطه... فهذا التوجه كان من مسؤولية القيادة، والأسئلة الفضولية كانت خارج قاموسنا، لماذا ومتى وأين... ولكننا تفاءلنا كثيراً واقتنعنا بالوظيفة السياسية للحركة العصابية، فهي ستكون قفزة في أدائنا النضالي وجسر العبور لتحولنا لقوة أولى، وحينها وحينها فقط يمكن أن تكتسب كلمات الحكيم عن تغيير نهج منظمة التحرير مصداقية عملية... سيما أننا تمايزنا بحق تنظيمياً وكادرياً وصلابة وأحرزنا شهرة في العمل السري والصمود في الزنازين... ولما استمزجنا عن استعداد إحدى الجامعات لفتح بوابات التأثير لقاء الدعم المالي اصطدمنا بحقيقة فقرنا، وقلنا طالما أن المال غير متاح ولا نستطيع منافسة اليمين فيه فلنبحث عن مداخل أخرى لبناء قاعدة وجودنا في المجتمع.

ومرات تكررت مقولة لينين في المراسلات الحزبية (السياسة هي الصراع القومي والطبقي) وطالما أنها صراع يتعين بناء أدوات الصراع، وكانت تستحثنا هذه المقولة يومياً لتأمين استحقاقاتها، فهي شغلنا الأساس، رغم بطش الاحتلال الذي لا يكل ولا يمل... ولاحظنا في أواسط الثمانينات

قدرة رفاقنا على التحرك الشعبي الدينامي في منطقة بيت لحم، وتمايزهم الكفاحي في شمال الضفة وتطورهم الفكري والتنظيمي في أواسط الضفة وتلقائية روحهم العملية في غزة وثباتهم على موقف سياسي محاصر في ٤٨... وبات السؤال الملحّ: كيف يتحقق الدمج الديالكتيكي بين هذه الأبعاد؟

رغم الضربات الاعتقالية الموجعة أحرزنا نجاحات ملموسة بين عامي ٨٦-٨٧، لملمنا فيها صفوفنا وحصدنا تراكمات وجهوزية لا يستهان بها وانتماء فخور رغم عظم التضحيات وثقة راسخة بقيادتنا السرية في الداخل وجذريتها وكفاءاتها، وقد لاحظنا قدرتها على السيطرة على الأوضاع ومعالجة الثغرات والفراغات بسرعة، كما بقيادتنا في الخارج سيما الحكيم ووديع وأبا علي، وإن حظي الشهيد كنفاني بمنزلة خاصة فقد احترمنا تضحوية وذكاء بسام أبو شريف ورصانة وطاقة صابر محيي الدين... لم نكن حينذاك نسمع عن العيوب والأخطاء، فما يستغرقنا هو معاركنا المحلية، وأذكر أن المسؤول تحدث بأنصاف جمل، لأول مرة في أواخر الثمانينات، عن مسموعات سلبية عن قيادات فلسطينية في الخارج، ولم يستطرد. كما أذكر عدة تعاميم ومراسلات وصفت الأرض المحتلة بمرجل يغلي، وضرورة التهيؤ لانفجار شعبي عارم وتعبيد الطريق له وصب الزيت عليه...)[٦٦٣]

استناداً إلى التراث الماركسي – اللينيني كانت مجلة «الرفاق» الداخلية التي تصدرها الجبهة الشعبية في الوطن قد نشرت في مطلع الثمانينات ثلاث مقالات تتضمن اقتباسات وشروحات واستخلاصات عن خصائص الانتفاضة والحرب الشعبية والفوارق بينهما، بما شكّل توطئة لفهم الوضع الفلسطيني والتعامل مع خصائصه، ومما جاء فيها (إن الانتفاضة فن من فنون الحرب، تخضع لقواعد تجاهلها يؤدي لدمار الحزب الثوري... ويدخل فيها عوامل مجهولة... وضرورة التصميم والتحلي بروح هجومية، وإن الدفاع موت كل انتفاضة مسلحة... وأهمية تحقيق انتصارات كل يوم مهما كانت صغيرة... والتفوق المعنوي) ماركس. وكلمات إنجلز عن الهجوم والشجاعة والجرأة والمبادرة والوحدة وتأمين شرط قيادي يتمتع بالهيبة والقدرة النظرية والعملية... واستخلاص لينين من ثورة ١٩٠٥ (عن الانتقال من الإضراب السياسي الشامل إلى العصيان المسلح) وأضاف (إن الماركسية تقر مختلف أشكال النضال ولا تضع صيغاً تجريدية... والماركسية تتطلب منا تفحصاً تاريخياً كاملاً لأشكال النضال) حرب الفوار... و(أن القوة هي

٦٦٣) قيادي في الجبهة الشعبية

القابلة القانونية التي يلد على يديها النظام الاجتماعي الجديد) ماركس/ صراع الطبقات في فرنسا. و(الإطراء الذي كاله ماركس وإنجلز على شرف الثورة المسلحة لم يكن مجرد حفز للهمم أو خطابات حماسية، إنما ينبع من الحاجة إلى تشريب الجماهير بفكر الثورة العنيفة) لينين- الدولة والثورة. (يجب خلق التنظيم القادر على قيادة الجماهير في المعارك الكبيرة كما في الاشتباكات الصغيرة) لينين و(تقوم الانتفاضة على الطبقة المتقدمة لا على التآمر أو على حزب... يجب تعزيز جبهة العمال والفلاحين والفقراء... وإن التضامن السياسي والقيادة السياسية أمران لا يتأجلان) لينين، وضرورة توتير القوى الثورية)[٦٦٤] الأمر الذي سار على دربه القائد العسكري للثورة الفيتنامية نجوين جياب بالقول عن انتفاضة ١٩٤٥ (لقد تحول النضال السياسي الطويل إلى نضال مسلح إقليمي... قمنا بالانتفاض بشكل بطولي في المدن والريف وحطمنا حكم الإمبرياليين والإقطاعيين وأقمنا سلطة الشعب الديمقراطية)[٦٦٥].

(لا أنسى المقالات الثلاث، فهي كانت مثابة خلفية نظرية أفسحت المجال لسؤال كبير: ما هي نظرية الانتفاضة الفلسطينية، إذ لا يمكن النمذجة، بل كان حاضراً في تفكيرنا تهكم ماوتسي تونغ على كتاب الانتفاضة الذي أرسلته القيادة السوفيتية بالقول: من أراد أن ينتحر فليقرأ هذا الكتاب.

بلا شك أن تلكم المقالات، المكونة من عشرات الصفحات، وقد قارنت بين تجارب الثورات في روسيا والصين، كوبا وفيتنام، الجزائر واليمن... مفيدة وأسست لتفكير يترسم طريق الخصوصية... وكانت الإجابة عن سؤال الانتفاضة هي إجابة فلسطينية صرفة... ودون مبالغة أزعم أنه كان لنا الدور الأول في الإرشاد النظري للانتفاضة وصياغة نداءاتها، وحتى حين اختلفنا مع شركائنا واصلنا مسيرتنا بإصدار ثلاثة نداءات مستقلة عن «قوم» إلى أن توافقنا ثانيةً آخذين بالحسبان صوابيّة تفكيرنا، لم يكن حينذاك قد طفا على السطح صراع المصالح الشخصية فكان يسهل الحوار والاتفاق، ناهيكم عن أننا اشتبكنا بقوة في نيسان/٨٨ وحتى ايلول مع بعض التفكير القيادي الفلسطيني الذي رشح من الخارج ودعا لانتفاضة مسلحة، واعتبرنا ذلك مقبرة دموية للجيشان الشعبي وتقصيراً لعمره... فأولاً شعبنا غير مسلح، ثانياً في حال السيطرة على مدينة يسهل أن تقصفها الطائرات والدبابات وتدمير المقاومين القلائل بسلاحهم البسيط، ثالثاً أن هذا التاكتيك يعني اختزال العملية الانتفاضية إلى مجرد أيام أو أسابيع... وهذا كله لا يراكم نجاحات ولا يضغط كثيراً على الاحتلال، ناهيكم عن أنه لا يطرده وهو بداهة يستثير التكنولوجيا

٦٦٤) مجلة الرفاق، الجبهة الشعبية- الأرض المحتلة، ١٩٨٢

٦٦٥) جياب، الماركسية وحرب العصابات، المؤسسة العربية للنشر، ص ١٦٩

العسكرية الإسرائيلية التي تتمتع بتفوق هائل ولا يسعد جنرالات جيش الاحتلال العنصري أكثر من ذلك، فهذه فرصة لانتقالهم إلى مرحلة الهجوم وهم الذين حشرتهم الانتفاضة بطابعها الشعبي الهجومي في موقف دفاعي، بل أربكتهم بعد أن حولت جيشهم إلى جهاز شرطة تقريباً...

كان تفكيرنا ينصب على جعل الانتفاضة معركة رابحة لا خاسرة وهذا لا يكون إلا بالحفاظ على جماهيريتها وهجوميتها وديمومتها وتقليص خسائرها ما أمكن وعدم تغطيس شعبنا في بحر من الدماء. فالنضال مديد ولسنا في ربع الساعة الأخير.)[٦٦٦]

وأضيف على إجابة رفيقي (لقد بلورنا تاكتيكنا في الأسابيع الأولى على النحو التالي: ١- الحفاظ على الطابع الشعبي مع الإفادة من النشاط النخبوي. ٢- إطالة أمد الاشتباك مع العدو واستنزاف جيشه وزج المزيد من القطاعات الشعبية لمناوشته ومحاصرته وإثبات عجزه. ٣- اعتماد العنف الشعبي على نطاق واسع وعدم حصره بالسلاح الناري. ٤- اعتبار الإضراب الجماهيري العام والتظاهرات الشعبية الشكلين الأكثر أهمية بما يمهد الأجواء لمقاطعة الاحتلال وبضائعه... بل اصدر، لاحقاً، رفيقنا جبرا الشوملي كتاب (العصيان المدني) الذي اتكأ على تجربة بيت ساحور الريادية. ٥- اعتبار العصيان المتقطع الآلية الملائمة وليس العصيان المفتوح... أي أيام من الإضرابات العامة وو و... وعودة لمزاولة العمل والتعليم... أيام أخرى لتامين سبل العيش... وهذا المنظور تكون بتدرج ولكننا من بادر إليه وتعمم فلسطينياً)[٦٦٧].

وقد (اشتبكنا أيضاً مع طرح بعض القادة الفلسطينيين الذين حملوا الانتفاضة حملا يفوق طاقتها، كمحرر لعموم فلسطين، أو كآلية تثوير للواقع العربي، كما الذين دعوا لاستثمار سريع للانتفاضة بفتح طريق الاتصالات بأمريكا والتفاوض مع العدو كما الساعين لاختزال مطالبها بانتخابات بلدية من شانها تحريف مسيرتها وشلها... ناهيكم عن رفضنا القاطع لمشروع شامير المقتبس عن بيغن عام ١٩٧٧ والداعي لحكم ذاتي...

قلنا بصريح العبارة: الانتفاضة محطة نوعية تقوم على مشاركة جماهيرية عارمة وإطالة عمرها لأشهر وسنوات بما يخلق ديناميات تؤسس لمرحلة جديدة على طريق الحرية والاستقلال... وعندما سألنا الحكيم: ماذا تقصدون بالحرية والاستقلال؟ أجبنا: لقد انتحلنا الشعار عن عبد القادر الجزائري وهو شعار ناظم للانتفاضة فلا تتراخى أو يختزلها الوسطيون، ويقصد به طرد

---

٦٦٦) قيادي نظري في الجبهة الشعبية

٦٦٧) قيادي انتفاضي في الجبهة الشعبية

الاحتلال بجميع تمظهراته. ولما سُئلنا: هل تفضي الانتفاضة لدولة؟ أجبنا لا، هي محطة نوعية تركيمية وحسب، فميزان القوى لا يصل حد طرد المحتل، أي الشرط السياسي لما سيليه، سيما ان ثمة قوى سياسية واجتماعية فلسطينية على استعداد للمساومة على ما هو اقل من دولة بكثير، كما يمكن أن تلجا سلطات الاحتلال للخيار الأردني قبل الخضوع للخيار الفلسطيني.

كنا، وبخلاف اجتهادات أخرى، نرى الوطأة الثقيلة للحصار المفروض على الأراضي المحتلة، فالجيش الإسرائيلي كما الجيوش العربية يسيطر على الحدود السياسية الفلسطينية، ويجري فصل الضفة عن غزة وأراضي ال ٦٧ عن أراضي ال ٤٨، مثل هذا الحصار له نتائجه. كما أننا لم نتقبل الخفة بالقول أن انتفاضة ٦٧ ستحرر فلسطين أو الضفة وغزة، وكانت تعاميمنا على الدوام تؤكد على الضرب بقبضتين بنفس الوقت، قبضة الأراضي المحتلة وقبضة الساحة الخارجية سيما ساحة البندقية، أما الضرب بقبضة واحدة، مرة في الأردن قبل ذبح المقاومة ودور محدود للداخل، ومرة البندقية في لبنان ودور ضيق في الداخل، ومرة قبضة الداخل وإسناد هامشي في الخارج، فهذا لا يكفي لإجبار العدو على التراجع النوعي، أي تحزيم حقائبه والرحيل عن أراضي ٦٧ ناهيكم عن ما هو ابعد مدى... عودة اللاجئين وصولاً إلى التحرير... وهذا وجدنا صدىً له في مؤلف «الانتفاضة مبادرة شعبية» (أن تترك الانتفاضة تواجه آلة الحرب الإسرائيلية ومطالبتها بتحقيق البرنامج الوطني هو ضرب من الخيال والعجز... إن النضال الفلسطيني يبنى على عدة مرتكزات: الثورة في الخارج والداخل والبعد القومي والبعد الدولي وبشكل أخص الحلفاء... لقد فشلت محاولات التسرّع والتفاؤل القائلة بان الانتفاضة ستحقق دولة خلال أشهر... ما يروج له اليوم ليس عملية سلام حقيقية بل عملية ترويض م. ت. ف. والشعب الفلسطيني والقوى السياسية الفلسطينية... والقوى اليمينية في الخارج والداخل سائرة في نهجها ورهانها على خط التسوية والهرولة لاستجداء الإدارة الأمريكية.)[٦٦٨]

هذا الجذر هو الذي جعلنا ندين لقاء القوى الفلسطينية ببيكر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق وجولاته التي مهدت لمدريد- أوسلو.

وينبغي الاعتراف أيضاً أن بعضنا، وهذا موثق منذ عام ١٩٨١وقبلئذ، كان يتخوف من شعار الدولة الفلسطينية لسببين: ليس ثمة مقومات لدولة بما يفتح المجال لمساومات غير مطمئنة، وثانياً الخشية من أن يتحول هذا الشعار للمقايضة على حق العودة وبالتالي قمنا بالتركيز على الفعل

---

٦٦٨) الانتفاضة مبادرة شعبية، مرجع سابق، ص ٦،٥

الانتفاضي بغية تحسين ميزان القوى سواء مع العدو أو على صعيد الداخل الفلسطيني لكيما نكون جاهزين لاستئناف النضال ما أن تنحني بعض الأطراف الفلسطينية. والاستخلاص الأخير لاحظناه صريحاً في احد تعاليم المكتب السياسي وفي تصريحات الحكيم بعد الخروج من بيروت عام ٨٢، إذ كنا نتحسب من إمكانية التحاق قيادات يمينية فلسطينية بالمشروع الأمريكي ما أن يلوح لها ببعض الفتات. بل إنه في احد اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير عام ١٩٨٩ قال رئيس المنظمة جهاراً نهاراً علينا أن ننحني للعاصفة والدور الآن على كاسترو.

ولما أوكل المكتب السياسي لقيادة الداخل في حزيران أو تموز/٨٩ صياغة تعميم باسم المكتب السياسي تجلت بوضوح المفردات التالية: الانتفاضة محطة عليا تؤسس لمرحلة جديدة من الصراع، إدامة الانتفاضة، رفض الحكم الذاتي وانتخابات البلديات، الحرية والاستقلال، العصيان المتدرج، ولم يأت على ذكر الدولة أو العصيان المسلح... وقد لاحظت الكادرات النابهة الفرق في اللغة بما تحمله من مواقف.) [٦٦٩]

وسواء كانت الانتفاضة بالمفهوم اللينيني أو المفهوم الفلسطيني أو «ثورة في الثورة» بلغة دوبريه، فانتفاضة كانون أضافت إلى المسيرة الفلسطينية والعلم النظري عموماً، فثمة مشترك هنا، (أن الشعب لم يعد قادراً على الاستمرار كالسابق وهو محتقن وغاضب ومستعد للموت في سبيل التغيير، كما أن سلطة الاحتلال لم تعد قادرة على التحكم بالفلسطينيين وتمويه الحقائق بإنكار وجود الشعب الفلسطيني أو أنه خامل ودون قضية عادلة. ثمة أزمة حقيقة ولا مهرب من انفجارها). كما أن الانتفاضة (قضية جديّة لا يمكن اللعب بها أو التفريط بأهدافها، وهذه مسؤولية وطنية كبيرة على القوى والتيارات الجذرية، بل عليها تعزيز فعلها وشل القوى والتيارات المترددة. ولا يجب أن ننسى كلمات الحكيم: على القيادة أن تكون بمستوى القضية وتضحيات الشعب... ولنستعد ليوم الأرض؛ والخطة في الطريق وستعمم على الجميع...) [٦٧٠]

وبقطع النظر عن اعتقال «قوم» غير مرة، كان ثمة قدرة على ملء الفراغ، وثمة فصائل ولجان ممتدة في طول البلاد وعرضها قادرة على تنفيذ المهام...

وكان التاكتيك الانتفاضي هجومياً، فالجيشان الانتفاضي بذاته هو مبادرة شعبية هجومية، ومكوناته كذلك، سواء الإضرابات العامة أو التظاهرات أو المتاريس أو الحجارة... وصولاً

٦٦٩) قيادي في الجبهة الشعبية

٦٧٠) من رسالة قيادة الجبهة في الداخل لقيادة الجبهة في غزة/ آذار/١٩٨٩

إلى العنف الشعبي والعصيان الجزئي المتقطع بما في ذلك حل عدد من أجهزة الإدارة المدنية والاحتلالية والإمساك عن دفع الضرائب... و(ما أن أعلنت «قوم» عن رفضها الغطس في مشروع الانتخابات البلدية والحكم الذاتي بمجمله فقد العدو أية فرصة للانتقال لمرحلة الهجوم، بل فقد «المسار السياسي» الذي يمكنه من الانتقال لمرحلة الهجوم.)[٦٧١]

وعليه، يمكن الإشارة بإيجاز للملامح الأساسية التالية لانتفاضة كانون:

١- أنها وطنية تحررية ضد الاحتلال وفظاعاته وسياساته، وإن حملت بعض الأبعاد الطبقية، ذلك أن فاعلية الطبقات الشعبية والمخيمات كانت أعلى من فاعلية الفئات الميسورة والبرجوازية، وهذا تجلى في الأصول الطبقية لشهداء الانتفاضة وجرحاها وأسراها الأمر الذي حفز الباحث ربحي قطامش على الاستخلاص أن نسبة العمّال في سجن نابلس بلغت ٦٢٪، ونسبتهم في عينة للمعتقلين الإداريين ٥٠٪، وفي عينة ثالثة في سجن غزة ٤٩٪ بينما نسبتهم من معتقلي قطاع غزة عموماً ٤٥٪ و٤٤٪ في الضفة، أما الشهداء فنسبة العمال في الضفة ٤٥٪ وفي غزة ٤٤٪)[٦٧٢]، كما تجلى البعد الطبقي في الثبات السياسي لليسار على هدف الحرية والاستقلال وتفادي الرهان على المشروع الأمريكي – الإسرائيلي، مدريد- أوسلو، وكانت بداية هذا الرهان في الداخل لقاء بيكر الأول الذي لم يقاطعه في اجتماع القدس سوى الجبهة الشعبية، ولاحقاً ناهض اليسار بمجمله وقوى وطنية أخرى مسار مدريد- أوسلو.

٢- هي شاملة جغرافياً، حيث عمّت أرجاء الأراضي المحتلة عام ٦٧ في المدن والمخيمات والأرياف، وشاملة ديموغرافياً حيث شارك الرجال، النساء، الشباب، الأطفال والجيل الأقدم، المجتمع بأسره، ولكن بفاعلية متفاوتة، إذ كلما اقتربت المناشطات من العنف الشعبي: متاريس، حجارة، زجاجات حارقة، سلاح ناري، ملاحقة عملاء، انحصرت أكثر فأكثر في القطاع الشبابي، كما أن مستوى الفعل الانتفاضي في المخيمات كان أعلى على وجه الإجمال، ليس لأن الشرارة انطلقت من مخيم جباليا ومخيم بلاطة فقط، بل لأن التضامن الجماعي في المخيمات بلغ حد أن يتحرك المخيم بأسره في التظاهرات وأيام الغضب، الشيء الذي انعكس في حجم التضحيات (ففي الشهر الأول من الانتفاضة سقط ٦٠ شهيداً بينهم ٢٨ من المخيمات، وفرض منع التجول ١٩ يوماً على مخيم جباليا فيما مكث في مخيم الجلزون ٤٢ يوماً بشكل متصل. وفي العام الأول سقط ٩٣ شهيداً في مخيمات غزة بما نسبته ٦٨٪ من مجموع شهداء القطاع

---

٦٧١) من رسالة قيادة الجبهة في الداخل لقيادة شمال الضفة/ أيلول/١٩٨٨

٦٧٢) الانتفاضة مبادرة شعبية، مرجع سابق، قطامش، ربحي (الانتفاضة بروفة تستوجب احتلال الطبقة العاملة مركز القيادة). ص ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢

و٨٢٪ جرحى و٧٨٪ نسبة المصابين بكسور ضمن سياسة (تكسير العظام)، و٩٢٪ من نسبة المصابين بالغاز.)[٦٧٣]

ناهيكم عن التفاعلات والإسنادات من جماهير شعبنا في ٤٨ والشتات. وهنا نسوق ما يتصل بجماهير ٤٨ التي تكلل تضامنها وإسنادها بتشكيل لجان شعبية في المدن والقرى العربية لدعم الانتفاضة سياسياً ومعنوياً إضافة للتبرعات العينية والمالية، علاوة على الإضراب الجماهيري العام في ١٩٨٧/١٢/٢١ الذي استخطره شامير بالقول (إن ما جرى يستهدف وجود الدولة) أما الليكودي ميللو (فدعى لحرمان السلطات المحلية من المستحقات المالية) إضافةً لاعتقال العديد من النشطاء، الأمر الذي تكرر في تظاهرة الناصرة الحاشدة في ١٩٨٨/١/٢٤ وتظاهرة حيفا التي رفعت فيها الأعلام الفلسطينية... دون أن ننسى وفود التضامن إلى المناطق المحاصرة وكتابة الشعارات الجدارية التي تؤكد على وحدة الشعب الفلسطيني وإلقاء الحجارة على دوريات الجيش والشرطة... والإضراب الجماهيري في يوم الأرض... و(مثلما لم تنجح الجبهة الشعبية بانتزاع موقف من "قوم" يدعو لمقاطعة الجماهير الفلسطينية في ٤٨ لانتخابات الكنيست، حيث اكتفت "قوم" بتثمين وتحية جماهير شعبنا على حملات التضامن، ذلك أن الأطراف الأخرى في "قوم" تؤيد المشاركة في انتخابات الكنيست، بل تنظر ببراغماتية لدور جماهيرنا في ٤٨، فالمهم هو تجنيد دعمهم وليس التأكيد على هويتهم الوطنية والفلسطينية ووحدة المصير لجميع أجزاء وتجمعات الشعب، وعدم تبني سياسة تنطلق من الوحدة "تحمل محذورات أن يتحول شعبنا لعدة شعوب" فالهدف الجمعي هو الذي يمنع تفككه... لم تنجح أيضاً حركة أبناء البلد في تمرير اقتراحها الداعي لإضراب عام ويوم للغضب، وفي ضوء التباين بين المركبات السياسية بين مؤيد ومعارض للإضراب العام تم التوصل في ٤٨ لإضراب هادئ.)[٦٧٤]

٣- طويلة، فهي أقرب لحرب عصابات بطبعة جديدة، استمرت مالا يقل عن ٣ سنوات بطابعها الشعبي العارم، فيما تقلصت في السنة الرابعة وعادت إلى مسار المقاومة النخبوية بعدئذ. والمنعطف كان انعقاد مدريد، حيث انقسم الموقف السياسي الفلسطيني والانتفاضي الميداني على حد سواء، وتنامت الشكوك والتباينات بين شركاء الأمس...

٤- استخدمت جميع وسائل النضال من المنشور إلى العملية العسكرية وما بينهما... أما المظهر

٦٧٣) الانتفاضة مبادرة شعبية ،مرجع سابق، الباحث جبريل محمد (دور المخيمات في الانتفاضة) ص ٢٦١

٦٧٤) قيادي انتفاضي في الجبهة الشعبية

الرئيس فهو انتفاض غير مسلّح، وهذه السمة هي أحد عناصر نجاحها واستمرارها وحشر قوات الاحتلال في موقف دفاعي خلافاً للاستراتيجيات الإسرائيلية التي تعتبر الهجوم أحد أركانها.

٥- توافر قيادة سياسية موحدة لها أذرع محلية في المناطق والتجمعات، كلها تتناغم مع نداءات "قوم" بصرف النظر عن شكل العلاقة التنظيمية بين "الموحدة" و"المحليات"، وإن عدم اشتراك الإسلام السياسي المقاوم "حماس والجهاد" في قوم أو المحليات ليس مرده رفض الانتفاضة، فقد انخرط فيها بقوة منذ البدايات ولكن لأسباب أعمّ تتصل بمنظمة التحرير وبرامجها. وفي الميدان جسدت الانتفاضة أوسع وحدة فلسطينية.

٦- تميزت (بالصمود السياسي والميداني، فلم ينجح بطش الاحتلال في كسر إرادتها أو تمرير مشروع بيغن للحكم الذاتي، كما همّشت رجال الأردن إلى درجة أن يلغي الملك قانون الارتباط الإداري والقانوني بالضفة، مثلما لاحقت الانتفاضة بحزم عملاء الاحتلال)[٦٧٥].

٧- اندلعت في الأراضي المحتلة عام ٦٧ بما أفضى لنقل مركز ثقل الثورة الفلسطينية للداخل...

أما ركائز الانتفاضة فهي:

أولاً- الركيزة الميدانية من إضرابات جماهيرية عامة أو محلية، تظاهرات شعبية عارمة أو تحشدات جزئية، متاريس وحواجز في كل مكان، حجارة على نطاق واسع إلى درجة أن تسمى انتفاضة الحجارة بما في ذلك المقلاع والنقافة، المولوتوف، الكمائن الفدائية، المسدسات... البيانات والنداءات والبوسترات... المهرجانات والجنازات الضخمة وبيوت العزاء والمسيرات... فقد اتحدت جميع أشكال النضال ضمن خصوصية فلسطينية. فلا هي انتفاضة مسلحة ولا هي انتفاضة سلمية، إنها وحدة جدلية تتصل بإمكانات الشعب في لحظة محددة وفهم معين لنظرية الانتفاضة.

ثانياً- الركيزة التنظيمية، فقد انتشرت الفصائل الفلسطينية وأدواتها من لجان مقاومة شعبية ولجان ضاربة ولجان وطنية وشتى المسميات... في كل حارة وحيّ وتجمع ومؤسسة، ناهيكم عن الجمهرة غير المنظمة وغير المحزّبة، فالانتفاض أوسع من كل الفصائل والصيغ المنظمة، وإن كانت الفصائل وامتداداتها هي الأكثر تنظيماً وإمكانات، بل هي ضمانة استمراريتها سنوات.

---

٦٧٥) نشرة الثورة مستمرة- الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة، نيسان/١٩٨٩

ثالثاً- الركيزة السياسية، فالشعب انتفض وترجم هويته الكفاحية بحيوية عالية وإرادة لا تلين، وقد حاصر لسنوات تيارات المساومة المستعدة للتعاطي تفاوضياً مع المشروع الأمريكي الإسرائيلي (الحكومة الذاتية) بيكر، (والحكم الذاتي) شامير، وأسقط الخيار الأردني، متشبثاً بخيار الانتفاض وشعار الحرية والاستقلال.

وحظيت الانتفاضة بتعاطف الرأي العام العربي والعالمي بما في ذلك أوساط في الشارع الإسرائيلي، حيث وقّع مئات المثقفين على مذكرات تدين وحشية الاحتلال، ولم تنجح «إسرائيل» وحلفاؤها في تصوير الانتفاضة «كفعل إرهابي» بل على العكس، فالكاميرات فضحت الممارسات الفاشية للاحتلال الإسرائيلي لدرجة أن يكتب العالم الإسرائيلي الألمع رابينوفتش أن «الاحتلال سمم الروح اليهودية».

رابعاً- الركيزة الاقتصادية، كما الركائز الأخرى هي عملية واعية وليست مجرد رد فعل على إجراءات الاحتلال بالحصار ومنع التجوال والتضييقات العديدة... فقد جرت المقاطعة للبضائع الإسرائيلية على نطاق واسع وهذا خفّض الواردات الفلسطينية إلى أقل من ٥٠٪، ونفس الشيء يقال عن مقاطعة الدوائر الاحتلالية والامتناع عن دفع الضرائب، ناهيكم عن تراجع النزعة الاستهلاكية في أوساط الشعب الفلسطيني والعودة للاقتصاد المنزلي والفلاحي وتأسيس جمعيات تعاونية وزيادة المنتجات الوطنية حيث راحت بعض المصانع تعمل ورديتين في اليوم...

خامساً- الركيزة المعنوية، إذ صاحب تنامي العملية الانتفاضية تنام في روح الشجاعة والإقدام وكسر حاجز الخوف، وبات شائعاً الالتحام بالجنود بالأيدي العارية والحجارة، ولم تعد دورية الجيش تخيف الناس، ومن هنا كتبت أقلام إسرائيلية عن «جيل فلسطيني نشأ في زمن الاحتلال ولا يخشى الاحتلال» وعن «القنبلة الديموغرافية» حيث كان يسقط الشهداء والجرحى وتستمر المواجهة، تقوم قوات الاحتلال باقتحام البيوت والاعتقال بالجملة وما يتصل بذلك من تنكيل وعربدة دون أن تفتر عزيمة النضال، بل انتشرت ظاهرة «الفراريين»، المطاردين، في الجبال والمدن، بالآلاف، تحدياً لقرار الاعتقال وحفاظاً على الدور النضالي، وتقبلت الجمهرة شظف العيش والتراجع الحاد في مستوى المعيشة، الأمر الذي دفع رئيس اتحاد الكتاب التركي للقول (إنني أغبط المرأة الفلسطينية، فهي الوحيدة التي تزغرد على استشهاد ابنها، فقضيتكم أعدل قضية)[٦٧٦].

[٦٧٦]) محضر لقاء مع الدكتور جورج حبش. صيف ١٩٨٩

وتعاظم التضامن بين الناس وتوحدوا على مواجهة العدو يحدوهم الأمل بإمكانية النصر وإزاحة المحتل عن صدورهم، وعلى الأقل (إننا قادرون على التحدي ولم نفر مذعورين من أمام دبابات وجنود الاحتلال. لقد قررنا خوض المعركة للنهاية، ولكيما نحصد ثمارها علينا خوضها بنفس طويل، سنوات، إلى أن تصبح الانتفاضة نمط حياة، ولا ينبغي القول أبداً إن وضعنا السابق ما قبل الجيشان الانتفاضي كان طبيعياً، فحينها تتعذر فرص التغيير، بل ينبغي القول إن وضعية الاشتباك الانتفاضي هي الوضعية الطبيعية، ومع الاعتذار لبريخت فالمعنى مستقى منه. أما اللعثمات الباهتة التي ترشح إلينا عن أوساط «قيادية» في الخارج، وبعض «الشخصيات» التي تسافر لتونس، فتتحدث عن تعب الجماهير، فهي إنما تصب في خانة الانهزام، فهؤلاء انهزاميون ولا يثقون بالجماهير، لأنهم لا يثقون بأنفسهم على المجالدة والتضحية، أما الجماهير فطاقاتها لا تنضب، بل عملنا جهدنا لضبط تاكتيكات الانتفاضة بما يقلص تضحيات الجماهير ما أمكن، وها هي تتظاهر في الشوارع، وتشكل لجان الحراسة، وينزف دمها... ولكنها مصممة على الاستمرار. إننا فصيلة متقدة تلتحم بالجماهير وأوفياء لإرادتها في الاستمرار.

ربما تذكرون كلمات لينين في مؤلفه الرائع «ما العمل» تحت عنوان حرية النقد (نحن نسير جماعة متراصة في طريق وعرة، صعبة، متكاتفين بقوة. ومن جميع الجهات يطوقنا الأعداء، وينبغي لنا أن نسير على الدوام، تقريباً، ونحن عرضة لنيرانهم. لقد اتحدنا بملء إرادتنا، اتحدنا بغية مقارعة الأعداء بالذات، لا للوقوع في المستنقع المجاور الذي لامنا سكانه منذ البدء لأننا اتحدنا في جماعة وفضلنا طريق النضال لا طريق المهادنة. وإذا البعض منا يأخذ بالصياح: هلموا إلى هذا المستنقع! وعندما يقال لهم: ألا تخجلون، يعترضون قائلين: ما أجهلكم يا هؤلاء، ألا تستحون أن تنكروا علينا حرية دعوتكم إلى الطريق الأحسن! صحيح، صحيح أيها السادة! إنكم أحرار لا في أن تدعوا وحسب، بل أيضاً في الذهاب إلى المكان الذي يطيب لكم، إلى المستنقع إن شئتم، ونحن نرى أن مكانكم أنتم هو المستنقع، ولكن رجاءً أن تتركوا أيدينا، لا أن تتعلقوا بأذيالنا... لأننا نحن أيضاً أحرار في النضال لا ضد المستنقع وحسب، أيضاً ضد الذين يعرجون عليه)... ومن المفيد أن تتذكروا كلمات الحكيم أيضاً إن «البرجوازية» الفلسطينية تنتظر الفرصة للحاق بالسياسة الأمريكية و«لعم» لمشروع ريغن والكونفيدرالية... وثمة بؤر «برجوازية» في الداخل منبطحة أكثر من أوساط «برجوازية» في الخارج... ويا ليتها برجوازية لأمكن أن تبني قاعدة اقتصادية إنتاجية ومؤسسات وعلماً وثقافة... ولكن هؤلاء مجرد شرائح بيروقراطية وتجارية- كومبرادورية يتعيشون على فتات البترودولار والتجارة مع الإسرائيليين... يرجى الانتباه لما قاله اجتماع أصحاب

الملايين في تونس فهم يحاولون الظهور كما لو كانوا على يسار قيادة المنظمة... ...المهم علينا الثبات على المبدأ، مبدأ حقوق شعبنا، مبدأ خارطة وطننا، مبدأ المقاومة للاحتلال العنصري، مبدأ رفضنا ومناهضتنا للمشروع الأمريكي المعادي، مبدأ الصمود في معركة كبرى هي الانتفاضة التي وصفها أحد القادة الصهاينة بـ«الحرب السادسة» ومعنا شعبنا، لسنا فصيلة مغامرة معزولة عن الجماهير، بل إننا نندمج فيها في كل المواقع، وهذا ملحوظ في الكوفيات الحمراء التي تطرز صور المتظاهرين، في الآلاف من رفاقنا الذين زجهم الاحتلال في السجون، في أكثر من سبعين شهيداً وشهيدة من الرفاق والأنصار الذين سقطوا حتى اللحظة، في امتداداتنا المنتشرة في كل مكان، إننا ننتفض اليوم في كل مدن الضفة وغزة وفي كل المخيمات وفي أكثر من ٣٨٠ قرية، أي بالكاد نغيب عن موقع جماهيري واحد. ففعلنا الميداني كان الروح المحركة لكثير من الأنشطة. إن فوج الانتفاضة الذي استقطبناه يعد بالآلاف بين نظاميين وعاطفين، لنعزف جميعاً على نفس الربابة، على نفس القيثارة، فلها أجمل الألحان، ونحن جميعاً نتألق وتتفجر طاقاتنا ونغدو أكثر جمالاً بانخراطنا في مزيد من المناشطات. ونقطع بالقول إنه لا يوجد لنا موقع حزبي واحد في الوطن المحتل ظهرت عليه علامات التعب أو التردد، فالجميع في الميدان والروح هجومية... ألم تلاحظوا أن امتداداتنا الحزبية تتولى توزيع نداءات «قوم» بالنيابة عن الآخرين، ذلك أن آلياتنا أكثر انتظاماً، والضربات زادتنا قوة (فالضربة التي لا تقتلك تقويك)، والشيء نفسه يقال عن بعض المساعدات الجماهيرية، فهذه ليست منا، فلسنا مشهورين بإمكاناتنا المالية، فما نقوم به هو عمل وظيفي أخلاقي وحسب كما احتضاننا لعدد من مطاردي القوى الأخرى... إننا نراقب دور رفيقاتنا، فهن في المقدمة مع نساء شعبنا، والعديد منهن سقطت أجنتهن بسبب الغاز السام، وهناك من فقدت عينها أو تشوهت ساقها أو تلقت رصاصة في صدرها، وهناك من استشهدت...

«إن الانتفاضة موضوع جدي» بلغة أنجلز ونتعاطى معها بجدية حقيقية.

يجدر الإشارة أيضاً لدورنا الطليعي، نعم الطليعي، في ابتكار الأفكار وصياغة نداءات الانتفاضة، وفي عدد الزجاجات الحارقة، وفي الكثير من المبادرات المحلية والتحركات... أما بيانات الحزب العسكرية في الخارج فهي تشير إلى تنفيذ عشرات العمليات الحدودية وفي داخل الوطن، ثمة مبالغات كعادة الفصائل، ولكن المبالغات لا تلغي الحقائق والشد على أيدي هؤلاء الذين يتجشمون المهام الأكثر خطورة وحيواتهم على أكفهم...

لسنا بصدد وقفة تقييمية، فهذه عادة تتم في الوقفة السنوية، ولكن ما نريد أن نخلص إليه، في

رسالتنا هذه هي: دون إبطاء الجميع إلى الميدان + في الميدان نشحذ عزائمنا ونعزز قوانا + التهيؤ للمرحلة الأصعب فيما إذا انحنى سوانا + الجهوزية، الجهوزية التنظيمية والعملية هي مفتاح الحكم علينا. فإما أن نؤدي وظيفتنا في حماية القضية الوطنية والاشتباك مع العدو أو الطوفان الذي سيجرف الجميع. كتب الحكيم لمسؤول الداخل (دورك الحقيقي أن تحافظ على سلامتك لتكون على رأس العمل في لحظة تقهقر الانتفاضة) ونحن نضيف. على كل مسؤولي المناطق والدوائر واللجان الوظيفية أن يكونوا على رأس العمل، والعمل اليوم يتطلب إدامة الانتفاضة وصب الزيت على لهيبها... فهذه هي الآلية المجربة التي تعزز جهوزيتنا لامتشاق راية الكفاح في المرحلة المقبلة.

لقد أسست الانتفاضة لمرحلة جديدة، وسيبذل معسكر الأعداء جهوداً طائلة لتبديد منجزاتها. وهذا لا يكون إلا إذا انقسم الموقف الفلسطيني وهرولت بعض القيادات لالتقاط الفتات الذي تلقيه الإدارة الأمريكية، (فالحزب لا يقتحم إلا من الداخل) لينين، والانتفاضة قلعة لا تقتحم إلا من الداخل أيضاً. لقد قطعنا الطريق على شولتز وذهب إلى الاوريانت هاوس دون أن يستقبله أحد. ولكن السياسة الأمريكية لن تتوقف هنا، وقطعنا الطريق على انتخابات البلديات ومشروع الحكم الذاتي الذي عرض معظم الدوائر المدنية، ولكن سياسة الاحتلال لن تتوقف هنا... ثمة فخاخ جديدة في الطريق... استعدوا... وسيصدر تحليلٌ حول المستجدات قريباً... ٤- نتفق معكم أن الموازنة محدودة ارتباطاً بقدرتنا المالية المحدودة، وللعلم لقد تضاعفت ميزانية الأرض المحتلة عشر مرات تقريباً قياساً بعام ١٩٨٥ ومع ذلك فهي لا شيء قياساً بميزانية فتح أو حتى ميزانية مركز الحسيني في القدس أو مستشفى صغير... العلاج الممكن هو الأولويات... اصرفوا على الأولويات، والأولويات في اللحظة الراهنة هم المطاردون+ الجرحى + متطلبات الميدان، وأنتم تلاحظون من تجربتكم الخاصة أن الطاقة الإنتاجية لعشرة دولارات لدينا تفيد الوطن أكثر من ألف دولار لدى غيرنا... وهذا نأسف له من ناحيتين: ناحية فقرنا وناحية تبديد الآخرين لأموال الثورة. أما عن استعدادكم «لمضاعفة فاعلياتكم إن توافرت أموال بسيطة» فليس أمامكم وأمامنا من حل سوى استقطاع شيء من أموال المتفرغين، بحيث تنخفض مستحقاتهم من الثلثين إلى النصف، وإن كنا نعلم، من تجربتنا وتجارب العديدين أن نسبة الثلثين بالكاد تغطي الحاجات الأساسية. ولكن لا بأس، فالمتفرغ ليس موظفاً مكتبيا بل محترفاً ثورياً على الطريقة اللينينية «نستأنس فيه الخير وندوره من مهمة إلى أخرى ويعطي كل وقته للعمل وليس مجرد بضع سويعات» لينين، إنه ينخرط في العمل حتى النخاع، ولأنه كذلك لا بأس أن يقلص طعامه ومطالب عائلته، وبصدق ودون أية خطابية لقد شاهدنا بأعيننا أن مسؤول دائرتكم السابق الذي جرى إبعاده يفتقر للطعام أياماً وقد

بدت عليه علامات الإعياء وذقن غير حليقة، بعد أن صرف تفرغه على العمل... كما ينبغي عدم زيادة الطريدين لأسباب جزئية وشكلانية، فقد ناهزوا في الأرض المحتلة المئتين حتى اللحظة، تصلهم جميعاً مساعدات مالية محدودة تغطي الطعام وعلبة السجائر، وإن كنا على طريقة لينين، وحماية للصحة لا نشجع على التدخين... إننا نتصرف كثوار جذريين، فتذكروا جيفارا الذي لم يكن لديه سوى ما يلبسه وبنطال وقميص احتياطيين يعلقهما على مسمار، وهوتشي منه الذي كان يمارس عمله الرسمي في القصر الجمهوري ليعود للمبيت في كوخه من قصب السكر... وتذكروا رفيقنا أبو أحمد فؤاد المسؤول العسكري للجبهة الذي تجشم حمل رفيق جريح في حرب ٨٢ لمدة يومين إلى أن وصل البقاع، وهو نفسه بنصف معدة جراء إصابة سابقة...

إن بطولات شعبنا عظيمة، ونحن لسنا سوى نبضة أو قطرة في هذا البحر.

وغير واضح لنا بما يكفي، لماذا تبخل قيادة منظمة التحرير على الانتفاضة. ففي وقت سابق قامت بتحويل نصف مليون دولار، احتفظ بها الرفيق المعني لمدة أسبوعين لعلها ترسل المزيد، ولكن لا حياة لمن تنادي، وحينما جرت جردة حساب سريعة بأعداد المعتقلين والمطاردين... تبين أن المبلغ الذي يمكن صرفه للواحد في حدود ٣٠ دولاراً، وهذا مخجل حقاً، فاجتمعت قيادة الانتفاضة وتوزعت المبلغ على أن يقوم كل فصيل «بتجرع» هذه المهمة «المخجلة»... وقد استنجدنا بالخارج، فجاءتنا كشوفات بالصرف على الداخل تشمل الجامعات والمؤسسات والمصانع .... وو... إلا الانتفاضة، إذ تبين أن ما صرف لها قياساً بما جاء في الكشوفات هو ٣٪. طبعاً كل فصيل يتلقى ميزانياته من تنظيمه، ولكن المسألة ليست هنا بل يتعين إسناد الانتفاضة كعملية وطنية متشعبة ولا يجوز تجزئتها فصائلياً، ناهيكم عن أن أكثر من نصف المتضررين هم من جماهير الشعب وهناك متطلبات كثيرة بمعزل عن الفصائل... إننا نخشى تغليب الفصائلية على الوطنية وتغليب النخبوية القيادية على الفصائلية... لقد وقفنا باستغراب أمام تصريح لرئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الذي قال إنه قام بتدبير الأموال لشراء أربعين ألف قطعة سلاح في الداخل... سوف يخدعه المنتفعون واللصوص، وهو قد يورطنا «بانتفاضة مسلحة» دون سلاح حقيقي... لكننا نؤمن أنه «لا يبقى في الوادي غير حجارة» على رأي الطاهر وطّار أما الزبد فيذهب جفاء، ولن ننحاز إلا للحقائق ومصلحة الانتفاضة والوطن...

أما بالنسبة للموضوع الأكثر إلحاحاً...)[٦٧٧]

---

[٦٧٧]) من رسالة موجهة من قيادة الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة إلى قيادة دائرة، تشرين ثانٍ/١٩٨٩.

نقطة إشكالية

روجت بعض الأقلام أن الانتفاضة عفوية وأفرطت أقلام أخرى بالقول إن نداءاتها تصمم في تونس، بل زعمت أن (النداء رقم ٦٧) في جيب رئيس منظمة التحرير بعد النداء ٢٧ الذي دعا (للتوجه لقطف ثمار الزيتون والعمل التعاوني ونظام العونة).

في حال استحضار مسيرة العقدين السابقين، وبشكل أخص عام ٨٧ الذي شهد ارتفاعاً في منسوب المواجهات، يتضح بجلاء تام أن فصائل المقاومة كانت اللاعب الأساسي، وفي كثير من النضالات اللاعب الوحيد. أما الذي حدث عشية الانتفاضة ١٢/٨/ على مدخل قطاع غزة فقد صدمت شاحنة إسرائيلية بصورة متعمّدة شاحنة فلسطينية تقل عمالاً فلسطينيين، ذلك أن شقيق سائق الشاحنة الإسرائيلي كان قد تعرض للطعن في وقت سابق، وكان نتيجة الصدم استشهاد أربعة عمال وجرح عشرة، وفي المساء شيعت الجماهير الجثامين الأربعة وطاف الآلاف في الشوارع والأزقة واستمرت التحشدات إلى منتصف الليل... وفي صبيحة ١٢/٩/ انطلقت تظاهرات حاشدة وسقط عضو الشعبية حاتم السيسي شهيداً في جباليا، وتجددت المواجهات حيث ضم موكب الجنازة ما لا يقل عن عشرة آلاف، وتم حرق جيب عسكري وتجريد جندي من ملابسه، وفي بلاطة انطلقت تظاهرة سقط فيها شهيد آخر.

ويجدر الانتباه أن منظمات الجبهة الشعبية في الوطن المحتل كانت جاهزة لمناشطات عديدة تزامناً مع ذكرى تأسيسها في ١٢/١١ وهذا تقليد سنوي، إذ تكون الخطة مقرّة ومعممة بما تتضمنه من فعاليات وعددها وطابعها، بل جاءت الشرارة التي ساعدت الجبهة على التحرك السريع. وجاء في بيان ١٢/١١ الذي عمم سلفاً على المنظمات الحزبية قبل اندلاع الانتفاضة بأيام (ليكن العيد العشرين لانطلاقة الجبهة يوماً للتصادم المميز مع الاحتلال)[٦٧٨]

(لا يمكن الزعم أن شرارة ١٢/٨ حين انتفض مخيم جباليا والجوار رداً على حادث الدهس هو من صنع الجبهة أو سواها، بل هو اندفاع شعبي عفوي تعبيراً عن الوطنية الفلسطينية الرافضة لبطش الاحتلال، وبطبيعة الحال لقد شارك أعضاء التنظيمات في ذلك... أما في اليوم التالي فقد تدخلنا وسوانا من الفصائل بصورة أوضح سيما وأننا في الجبهة كنا مستنفرين للاحتفال بيوم انطلاقتنا، كما عبأنا، منذ وقت، بشعار الوحدة الميدانية، انسجاماً مع تعليمات تلقيناها من أعلى)

---

٦٧٨) بيان صادر عن الجبهة الشعبية في الوطن المحتل. ١٩٨٧/١٢/١١

(٦٧٩)، ونشرت «الثورة مستمرة» في أواخر تشرين ثانٍ/٨٧ ما يلي (إن خصوصية الأرض المحتلة تفترض تقاطع كل القوى الوطنية على أرضية مقاومة الاحتلال والتقاسم الوظيفي، فضلاً عن أن من مصلحة الجميع صيانة المؤسسات والمنظمات الشعبية ولي عنق الفئوية التي تغذي عناصر هدم وتفتيت هذه المنظمات بوصفها ركنا ركينا في الشخصية الوطنية الفلسطينية...

ونقاط التقاطع هذه هي من الاتساع والأهمية بما يستدعي وحدة ميدانية نشطة تجد تعبيراتها التنظيمية في اللجان القطاعية والشعبية والفعاليات النقابية والجماهيرية المشتركة، وكل ما يمكن أن يقود إلى توحيد الجهد الوطني وتقوية جدار الصمود والنضال... وجاءت تجربة المخيمات في لبنان نموذجاً بارزاً على ممكنات الوحدة الميدانية رغم الانقسام السياسي ومعارك طرابلس)٢٣.

كانت المناخات الوطنية في الضفة وغزة مواتية، وفصائل المقاومة بداهة، هي العمود الفقري الحامل لهذه المناخات.

وعن الإضراب الجماهيري العام رفعت قيادة الجبهة في الداخل تقريراً «للخارج» جاء فيه (لقد صادف الإضراب الجماهيري في الأراضي المحتلة ٦٧ ذكرى انطلاقتنا في ١٢/١١. ولئن كان من الخطأ الادعاء أن الإضراب وما صاحبه من سخونة قد جاء هدية لحزبنا في يوبيله الأول، فإنه لا يجوز أيضاً إنكار دور منظماتنا وأصدقائنا الذين يصعب تصور تصاعد التمرد الشعبي دونهم) (٦٨٠)، بل تداعت القوى والشخصيات الوطنية للاجتماع في غزة والضفة وعقد مؤتمر صحفي في القدس تحدث فيه الدكتور حيدر عبد الشافي عن ممارسات الاحتلال...

وتبجحات رابين الذي قطع زيارته للولايات المتحدة بأنه (سيضع حداً للفوضى والعنف في ثلاثة أيام) تبخرت في الهواء، بل استمرت الانتفاضة ثلاثة أعوام ويزيد، الأمر الذي دفع مصادر إسرائيلية للاعتراف (أن قوات الأمن فقدت السيطرة) و(أن الاضطرابات التي بدأت مشتتة سيطر عليها المحرضون من رجال منظمة التحرير). وبعد أسابيع أحال رابين للجيش مهمة القضاء على «الفوضى» فازدادت اشتعالاً. (أذكر أنني في اليوم العاشر، ولم أكن قد نمت بعد، مشبوحاً على كرسي واطئ ومائل، في أعلى جولات التحقيق كثافة، قلت رداً على اتهامي بأنني القائد السري للانتفاضة وطريداً لقوات الاحتلال منذ سبعة عشر عاماً...

٦٧٩) كادر انتفاضي من الجبهة الشعبية

٦٨٠) الثورة مستمرة، نشرة صادرة عن الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة، تشرين ثانٍ/ ١٩٨٧

- اتهامكم لا أهمية له. فأنتم جهاز فاشل.
- إننا أقوى جهاز مخابرات في الإقليم والعالم كله يشهد بكفاءتنا.
- لقد عزلكم قائدكم وزير الجيش لأنكم أخفقتم مرتين.. الأولى لأن جهازكم لم يتنبأ بالانتفاضة والثانية لأنكم فشلتم في محاصرتها.)[٦٨١] ومن جديد تضافرت جهود الجيش والمخابرات (الشاباك) (لضرب التنظيم الواسع للجان الشعبية القائدة لنضال الجماهير اليومي، مما يتطلب اغتيال وتصفية نشطاء وطلائع الانتفاضة، وإدخال فرقتين إضافيتين من الجيش هما شمشون وشتيرن، على درجة عالية من التدريب القتالي وقوات خاصة تتنكر بملابس مدنية للسكان المحليين)[٦٨٢] ولكن دون جدوى. وكل محاولات عزل «النواة الصلبة» أي فصل القوى المنظمة عن الجماهير باءت بالفشل، ذلك أن القوى المنظمة جزء صميمي من البنية المنتفضة ومعبر عن طموحاتها وهذا تجلى فيما تجلى في هتافات المنتفضين (عل المكشوف، عل المكشوف، صهيوني ما بدنا نشوف/ حطوا الخنجرع السكين إحنا شبابك فلسطين/ وحدة وحدة وطنية، لا فتح ولا جبهاوية/ يا بيرس خبّر رابين، إحنا خمس ملايين/ لا بدنا لبن ولا بدنا طحين، بدنا نحرر فلسطين/ ما في خوف، ما في خوف، الحجر صار كلاشنكوف/ يا للعار يا للعار مخاتير بطفو النار/ وفي بعض الشعارات الجدارية: لا للإبعاد، نعم للاستشهاد/ لا لزيارة شولتز نعم للعصيان المدني/ الموت أو استقالة الشرطة والجمارك/ لا ضرائب ولا بلديات معينة...

إن انتفاض الشعب صدم القيادة الإسرائيلية «وقوض شرعية الاحتلال» بما أطار صواب رابين الذي وعد (بالقضاء على العنف بوسائلنا المتاحة وما نراه مناسباً) فاشتهر «بإطلاق النار وتهشيم العظام» كما تساهل في تنفيذ قوانين الطوارئ بما سمح باعتقال عشرات الآلاف دون تهمة أو محاكمة، بل قام بزيارة سجن النقب ليتوعد الأسرى، وضاعف قوات الجيش ومنحها تسهيلات إضافية في إطلاق الرصاص الحي والمطاطي والبلاستيكي فنتج عن ذلك سقوط أكثر من ١٣٠٠ شهيد وجرح ٢٠ ألفاً واعتقال نحو ٦٠ ألفاً، إضافة لإبعاد العشرات، ناهيكم عن القنابل الدخانية والغازات السامة التي أدت لإجهاض أكثر من ٢٠٠ سيدة، والسماح لسوائب المستوطنين بالاعتداء على المواطنين وأملاكهم ودفن بعض الشباب أحياء كما حصل في قرية سالم المجاورة لنابلس، والهويات الممغنطة للعمال....

---

٦٨١) تقرير من قيادة الجبهة في الداخل إلى القيادة في الخارج ١٢/١٩٨٧

٦٨٢) قطامش، أحمد، لن ألبس طربوشكم، صفحات من تجربتي في أقبية التحقيق، ١٩٩٤

كل ذلك لم يجد فتيلاً، ولم يفت في عضد الانتفاض الشعبي الذي عزف سيمفونية على ألحان نداءات «قوم» وبياناتها وكادرات ونشطاء القوى التي امتدت في اللجان الشعبية في كل مكان، بل انضم غير النظاميين للقوى المنظمة في السجون.

وكانت القيادة الموحدة (قوم) التي تكونت من فتح والشعبية والديموقراطية قد أعلنت عن نفسها من خلال النداء الأول في ١٩٨٨/١/٨، أما الحزب الشيوعي فالتحق بها بعد النداء التاسع، وكانت ترويسة النداءات (لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة) والشعار السياسي الناظم (الحرية والاستقلال) وبرنامج المهام وتواريخها في الصفحة الأخيرة، حيث تتحدد أيام الإضراب وأيام الغضب وباقي الفعاليات، وفي الصفحة الأولى الديباجة السياسية وما يستجد من مواقف. في جمع خلاق بين الأهداف السياسية الكبرى والأهداف الجزئية والمطلبية.

والنداء الثاني لم يكتف بالشعار السياسي العام وتحريض الجماهير على مواجهة الاحتلال، بل حدد أهدافاً مطلبية أيضاً (وقف سياسة القبضة الحديدية/ سحب الجيش من المدن والمخيمات والقرى/ حل اللجان المعينة في البلديات والمجالس القروية والمخيمات/ إطلاق سراح جميع معتقلي الانتفاضة/ وقف مصادرة الأراضي/ تحريم مداهمة وإغلاق المؤسسات التعليمية/ إعادة بناء المخيمات/ كما دعا لمقاطعة العمل في المشاريع اليهودية، كما مقاطعة السلع الإسرائيلية والضرائب، ووضع الأراضي المحتلة تحت إشراف دولي وانسحاب الاحتلال الكامل، وإلغاء جميع إجراءات الضم والإلحاق، ووقف سياسة الإبادة للشعب الفلسطيني).

ونظراً لصمود الشعب وديمومة الانتفاضة اضطر مجلس الأمن لإصدار القرار ٦٠٥ الذي يؤكد على اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين، والنظر للأراضي المحتلة كأراضٍ فلسطينية...

(بصراحة، لم نكن نتوقع تحقيق الشعار السياسي أو الكثير من الشعارات المطلبية، إذ كنا نستهدف أولاً وقبل كل شيء آخر تعبئة وتحشيد الجماهير لكيما تحافظ على اشتعال الجيشان الانتفاضي، فالجيشان بذاته هدف يرد على مخططات الاحتلال لتطبيع الشعب وتيئيسه من النضال، أما إحراز أي هدف فيأتي كتحصيل حاصل ومكسب إضافي وجرّاء عملية نضالية طويلة، ولا ينبغي الاستخفاف بالنقلة النوعية الكبيرة، فالجماهير راحت تشارك ميدانياً في صنع تاريخها ومستقبلها بما يتجاوز أي عمل نخبوي يمكن محاصرته وضربه من قبل الاحتلال، كما أننا حرصنا، وعن وعي، على كسر حاجز الخوف وإثبات عجز الاحتلال عن تدمير الروح النضالية الفلسطينية، وفضح وجهه القبيح على مرأى من العالم، وكنا نعرف ما تقوله نظريات علم السياسة وعلم النفس

الإسرائيلية التي ترى في شعبنا جاهلاً وخامل﴾ ورعاة وسقاة، واعتبرنا إسقاطها خطوة ضرورية لإحراز أية أهداف أخرى.

فالنضال الفلسطيني مر في مراحل لم تعرفها الثورات الأخرى، فمثلاً لقد احتاجت الثورة الفلسطينية عدة سنوات لكيما تؤكد على وجود شعبنا ومثلها للتأكيد على هويته الكفاحية، أي أننا لسنا مجرد «أكوام من البائسين الذين ينتظرون التموين من وكالة الغوث»، وفي الداخل كان الاحتلال قد قطع شوطاً في نشر الرعب وتدجين أوساط من الشعب «أنتم مجرد مليون وقيادتكم تعيش الترف في شوارع الحمراء، تضللكم أنتم الشباب الفقراء بينما أبناء الزعامات في حانات أوروبا»... وقد قرأنا عبارة ماركس (على الطبقة العاملة أن تخوض النضال لكي تتعلم).

في مراسلاتنا الداخلية قلنا: هذه بروفة وتمرين شأن بروفة ١٩٠٥ في روسيا وثورة ١٩٢٣ في بلغاريا، والهجوم على ثكنة مونكادا في كوبا... وشحذنا العزائم وشددنا الأنظار لمقولتين: إدامة الجيشان والاستماتة في سبيل ذلك+ التهيؤ لمرحلة ما بعد الانتفاضة، والأولى تفضي للثانية وتتواشج معها، إذ كنا نخشى أن تنطفئ بتدرج أو أن يجري إخصاؤها سياسياً من قبل قيادات فلسطينية بعد أن تسربت مقولة «الاستثمار المتسرع للانتفاضة» والاتصالات بالخارجية الأمريكية. وأذكر أن وفداً من الكونغرس الأمريكي التقى ببعض النشطاء الميدانيين المحسوبين علينا فتساءل: لماذا لا تشاركون في هذه الاتصالات؟

لم نعمم ولم نكتب ولو لمرة واحدة، وما أكثر تعميماتنا ومراسلاتنا الداخلية، أن الانتفاضة وحدها قادرة على طرد الاحتلال وتفكيك المستعمرات، ومن هنا تفردنا برفض اللقاء ببيكر وزير الخارجية الأمريكي حينذاك، وناهضنا جولات الحوار ما قبل مدريد وما أفضت إليه، ولم تتردد بياناتنا في الدعوة لاستمرار المواجهات والتحذير من أية مشاريع تسووية في ظل ميزان القوى المختل جذرياً لصالح معسكر الأعداء. فإنجازات الانتفاضة كبيرة ولكن ميزان القوى لم يرجح لصالحنا، وكنا نؤيد ما أعلنه أمام بعضنا الدكتور يسرائيل شاحاك «إذا لم يحمل الجيش التوابيت يومياً لن يخرج من الأرض المحتلة»، وكنا نتابع التحولات في الشارع الإسرائيلي مستفيدين من خبرة التجربة الفيتنامية التي قالت: لقد هزمنا العدوانية الأمريكية في شوارع نيويورك قبل أن نهزمها في أرض الميدان، اتصالاً بحجم الخسائر الأمريكية التي ناهزت ٥٠ ألف قتيل و١٠٠ مليار دولار، أما الشارع الإسرائيلي فقد اتجه يميناً بعد شهرين من اندلاع الانتفاضة رغم ارتفاع أصوات نقدية للاحتلال وسياساته، فأكثر من ٧٠٪ أيدوا القبضة الحديدية... وجاءت نتائج انتخابات الكنيست

٨٨ في نفس الاتجاه حين فازت القوى الأكثر تطرفاً بـ٢٥ مقعداً ناهيكم عن الليكود والعمل... فشامير زعيم الليكود يدعو للتفاوض مع الأردن والفلسطينيين المعتدلين لتحقيق تسوية يكون فيها نهر الأردن هو الحدود السياسية لإسرائيل، كما يدعو لقدس موحدة عاصمة أبدية لإسرائيل... أما بيرس زعيم العمل فيدعو للخيار الأردني والتقاسم الوظيفي وحل وسط إقليمي، وما أكثر التشابهات بين الحزبين... ونعتبر ذلك مؤشراً على ضرورة استمرار الاشتباك مع الاحتلال ريثما ينقلب السحر على الساحر، كما حصل في المظاهرات الضخمة في تل أبيب وسواها احتجاجاً على حرب أكتوبر ١٩٧٣... والانسحاب من بيروت والجبل وصور وصيدا...

ف (الاحتلال مشروع رابح ولن يحزم حقائبه ويرحل إلا بعد أن يتحول لمشروع خاسر) حبش. وبلا ريب أن الانتفاضة أنزلت بالعدو خسائر سياسية ملحوظة كما خسائر اقتصادية... وعلى الصعيد الاقتصادي تشير الأرقام بعد سنة ونيف من المواجهات وو و... إلى انخفاض الصادرات الإسرائيلية للسوق الفلسطينية بنسبة ٥٠٪، وسوقنا هي السوق الثانية للسلع الإسرائيلية بعد السوق الأوروبية، وهناك أكثر من ٤٠٪ من العمال الفلسطينيين قاطعوا العمل في المشاريع اليهودية ونسبة أعلى في المستعمرات، بل اعترف وزير الاقتصاد يعقوبي بتراجع السياحة إلى إسرائيل «بنسبة ٢٠٪ وتراجع الصناعة ٣٪ والزراعة ٦٪، علاوة على ارتفاع البطالة من ٥٪ إلى ٧٪ ... والحبل على الجرار...» وتذكروا أن خسائرنا كبيرة أيضا... ولكن يقال إن خسائر الثورة الفيتنامية في كل معركة كانت أعلى من خسائر الامبريالية الأمريكية... ولكنها ربحت الحرب في نهاية المطاف وهرب السفير الأمريكي بالطائرة تاركاً الموظفين في السفارة!!

وأهم خسارة للعدو أن (جيشه الذي لا يقهر) فشل في مواجهة الانتفاضة التي استمرت سنوات وقد حيّدت بقدرٍ كبير تفوقه التكنولوجي وألحقت العار بصورته وهو يتنمر بإطلاق النار على الأطفال والمدنيين الأمر الذي فضح قباحة الاحتلال «الليبرالي». وهذا درس مهم للمستقبل. إذ يمكن الصمود في وجه الاحتلال وتكبيده خسائر وتسجيل أهداف في ملعبه إلى أن يحزم حقائبه ويرحل...

وقد لاحظنا أن هذا العدو النووي قد هرع جماعات جماعات إلى المخابئ بفعل الصواريخ العراقية، فما بالكم لو أن صدام وحّد الجبهة الداخلية ودفع جيشه للأراضي الأردنية وفتح جبهة قتال حقيقية... العدو ليس بالقوة التي يبدو عليها، فقوته من ضعفنا، وتحديداً من ضعف الأنظمة التي تتكفل بتيئيس وتخويف الجماهير.

على امتداد ثلاث أو أربع سنوات لجم شعار (الحرية والاستقلال) التيارات المساومة سواء العوائل والموظفون المحسوبون على الأردن أو تفرعات «لغم» أو «الحكومة الذاتية»، حيث أكدت نداءات «قوم» مراراً على (الحل الفلسطيني وعلى مؤتمر دولي كامل الصلاحيات ووضع الأراضي الفلسطينية تحت إشراف الأمم المتحدة مؤقتا وعلى الحرية والاستقلال).

حري الإشارة أن شامير حاول التجاوب مع أحد مطالب الانتفاضة: انتخاب البلديات، غير أننا رفضنا بقوة واعتبرناه التفافا وتحريفاً لمسارها، وقلنا نعم لانتخابات بعد وضع الأراضي الفلسطينية تحت إشراف دولي، كما أن سلطات الاحتلال ما كانت لتمانع في إحالة معظم الدوائر المدنية لأيد فلسطينية تماشيا مع مشروع بيغن عام ١٩٧٧، ولكن دون جلاء الاحتلال ووقف مصادرة الأراضي وتوسيع المستعمرات الاستيطانية...)[٦٨٣]

(اسمحوا لي أن أضيف إلى الإجابة السابقة مايلي:

علاوة على «قوم» ونداءاتها الموجهة التي كانت ضرورة سياسة لقيادة العملية النضالية، هذا لم يفهمه «البعض» الذي شبه أرقام نداءاتها بمقاسات الأحذية!! سيما أن مؤسسات المجتمع المدني الفلسطيني في بداياتها الأولى غير مبلورة سواء الحركة النقابية العمالية أو الحركة النسوية أو... بل الأغلبية الساحقة من الجمهرة غير مؤطرة، ناهيكم عن أن «المجتمع السياسي» هو القوة القائدة، وبالتالي يتعين «إعطاء القوس باريها» فاضطلعت القوى السياسية من خلال «قوم» واللجان الشعبية كأوسع ائتلاف نضالي وامتدادات الفصائل، بدورها التاريخي. ومنذ النداء الأول ١/٨/ دعت «قوم» اللجان الشعبية لتصعيد الانتفاضة وتقديم يد العون للأسر المحتاجة وتولي المهام الوظيفية من رعاية صحية وزراعية وتعليمية، كما تأسيس لجان إعلامية وعمالية وطالبية ومهنية ولجان تموينية ومرأة وحراسة ولجان تجارية... أوكل إليها في النداء الثالث تنفيذ قرار الامتناع عن دفع الضرائب.

هذه اللجان بتنوع أسمائها كانت أقرب لسلطة شعبية بديلة لسلطة الاحتلال، بل صدرت دعوة صريحة عن «قوم» لحل جهاز الشرطة المكون من نحو ١٢٠٠ عنصر وأجهزة الإدارة المدنية المكونة من ٢٧ ألفا.

لقد سهرت اللجان الشعبية على صب الزيت على طاحونة الانتفاضة والاشتباك اليومي مع

---

٦٨٣) الانتفاضة، نشرة لمرة واحدة، ١٢/١٩٨٨/ ص١٨

قوات الاحتلال وعملائه، وقد انتشرت في أربع جنبات البلاد، وفي القلب منها العناصر المسيّسة التي جمعها النشاط الانتفاضي وإن لم يجمعها هيكل مركزي واحد، وإن كان لبعض الأذرع صلات مباشرة بـ «قوم» المحلية.

لقد انخرطنا في كل هذه اللجان، وهي بالمئات وأكثر ناهيكم عن اللجان الخاصة بكل تنظيم، بل كان مناطاً بمواقعنا الحزبية تأدية أوسع المهام وفي كثير من الأحيان أدت دورا طليعيا مميزا، وتقاريرها المنتظمة تعكس فاعليتها، وكان يصار لجمعها وتبويبها في تقرير شهري عام يرفع للقيادة في الخارج، ولغنى وجدية هذه التقارير استحوذت على دعم مالي من جهة عربية بما خفف من أعباء المركز، بل أتاح لنا توفير مورد مالي غطى الحد الأدنى من معظم مصاريفنا.

لم تستوطننا الفئوية أو المكاسب الخاصة، بقدر ما شغلنا حد الاستغراق، كثوريين محترفين، ضخ الدم في شرايين الانتفاضة لترميم الأنسجة التي تتضرر تحت ضربات الاعتقال والاستشهاد، وتخفيف الأعباء عن شعبنا. لقد اختطف الاعتقال معظم كادراتنا وأعضائنا في الأطر الجماهيرية وآلاف النشطاء الآخرين، ولكننا استعوضنا ذلك باستقطاب الآلاف في» لجان المقاومة الشعبية» خاصتنا وآلاف الأعضاء الحزبيين الجدد.

ومن ضمن التوجهات التي تابعناها باهتمام العمل الإعلامي بما له من خصوصية في التعاطي مع الإعلام المحلي والأجنبي، سيما أن كيسنجر حض الإسرائيليين على «إغلاق الكاميرات» فردد كلماته زعيم حزب العمل بيرس (إذا واجهت الكاميرا الدبابة فالمنتصر هو الكاميرا) فهم يريدون ارتكاب الفظائع تحت جنح الظلام، ولكننا نجحنا مع سوانا في تعرية عنصرية ولا أخلاقية الاحتلال. رغم أن عصر الفضائيات لم يكن قد حل بعد.

وفي الإضرابات العامة، كان الشعب بأسره يلتزم بالإضراب، عمالاً، تجاراً، موظفين، مدارس، جامعات... رغم بعض الخروقات الهامشية أحيانا، وبعض هذه الإضرابات كانت مظهرا عصيانياً يستمر من ٥-٨ أيام شهريا، أما الدعوات الوطنية لإقامة صناديق لدعم العمال وحث البرجوازية الوطنية على تأمين المزيد من فرص العمل والتوقف عن حسم أيام الإضراب، فلم تحصد إلا القليل، وعدة مرات تدخلنا لمنع إنزال قصاص بدني ببعض أصحاب العمل، علما بأننا في النداء الثالث ناشدنا (العمال لزيادة الإنتاجية ورفع مستوى الجودة) ونظمنا حملة واسعة لمقاطعة السلع الإسرائيلية التي يسربها للسوق الكومبرادور الفلسطيني.

ثمة تفاوتات في دور والتزام الطبقات والفئات الاجتماعية.

من جانب آخر جرى تنفيذ قرار الانتفاضة بتخفيض أجور العقارات للحرفيين والأهالي بنسبة ٢٥٪ أو أكثر أو أقل، على نطاق واسع.)[٦٨٤]

واستطراداً، خليق إبراز دور اللجان الزراعية والاقتصاد البيتي، حيث دعا النداء الثامن (لاستزراع الأرض وحديقة المنزل بما يؤمن بعض الاحتياجات) حيث كان التجاوب واسعاً في المدينة وشاملاً في الريف، فانتشرت الحدائق المنزلية واستزرعت الأرض البور، وزادت تربية الماشية والأرانب والدجاج... ولخص تعميم داخلي للجبهة الشعبية هذه الظاهرة بالقول (عشرات وعشرات الألوف يلتفون حول هذه التوجهات. فاستصلاح واستزراع الأراضي في المدينة، ناهيكم عن الريف، حتى في المخيمات المكتظة بالناس، شكّل ظاهرة شعبية متنامية. وتربية الدواجن والطيور والمواشي انتشرت في المدينة كما بالريف، والتصنيع المنزلي من المحاصيل الوطنية ينتشر بسرعة تخفيفاً للإنفاق ومقاطعة لمنتوجات العدو، ويكاد يحصر الناس مشترياتهم في المواد الغذائية، وثمة مقاطعة جزئية للضرائب والعمل في المستعمرات...

إن نمط حياة جديد يشق طريقه، وترسيخه يقوي من دعامات اقتصاد الصمود، ويكيل لكمة قوية لاقتصاد العدو ونهبه، كما أنه يحاصر وينسف قيماً وأفكاراً زرعها الغزو الثقافي الإمبريالي-الإسرائيلي منذ عقدين ويزيد)[٦٨٥]

طبعاً كان لهذا التوجه مصاعبه ونواقصه، ولكن عربته غذّت الخطى يسندها بعض الخبرة المتراكمة لدى لجان ذات اختصاص أسستها القوى السياسية (لجان العمل الزراعي، لجان الإغاثة الزراعية...) وفي الوقت الذي لم يتوافر فيه صناديق إقراضية كان ثمة نقص إداري وتسويقي وعلمي لدى الجمعيات التعاونية بما فيها النُسوية ولكنها أحرزت نجاحات ملموسة أيضاً.

ويتعين الإشارة كذلك للجان التعليم الشعبي، التي جاءت رداً على سياسة الاحتلال التجهيلية التي تجسدت بالملموس عام ١٩٨٨ بإغلاق المدارس معظم أشهر السنة الدراسية، ولم يبلغ مجموع أيام الدراسة في الضفة الفلسطينية سوى ٥٠ يوماً، في نية مقصودة للضغط على الانتفاضة، ناهيكم عن فصل أكثر من ألف مدرس واعتقال المئات وتحويل الكثير من المدارس إلى معسكرات

٦٨٤) قيادي في الجبهة الشعبية

٦٨٥) قيادي انتفاضي في الجبهة الشعبية

للجيش ومعسكرات اعتقال...

لقد تعرض النداء التاسع في الأول من آذار لهذه الظاهرة بدعوة (جماهير الطلبة والمدرسين وادارات المؤسسات التعليمية بتنظيم عملية التعليم على أساس وطني) فانبثق التعليم الشعبي الذي تولته لجان تعليمية شعبية من ذوي الاختصاص، حيث انتظمت الدروس في الأحياء والمنازل والمساجد والكنائس وأي مكان متاح، وقد ارتبط المنهج التعليمي بالقضايا الساخنة التي يواجهها المجتمع، ناهيكم عن ما هو ممكن من المنهاج الرسمي، إلى درجة أن يتلقى أغلبية الطلبة تعليماً في هذه الصفوف، بل في كثير من الأحيان كان يتسلل الطلبة خلسة مغافلين جنود الاحتلال، وبعدئذ إلقاء وابل من الحجارة عليهم أو الزجاجات الحارقة...

لقد أحرزت الانتفاضة نجاحات كبيرة، إذ أخرجت القضية الوطنية من عنق الزجاجة التي حشرت فيها بعد الخروج من بيروت عام ٨٢ وحرب المخيمات واقتتال فتح – فتح، ناهيكم عن قمة عمان التهميشية... ووضعتها على جدول أعمال العالم الذي رأى أكذوبة «الاحتلال الليبرالي» و«أين هو الشعب الفلسطيني» و«سقاة ورعاة» دون قضية عادلة... مما دفع مجلس الأمن، رغم امتناع الولايات المتحدة، لإصدار القرار ٦٠٥ الذي (أدان ممارسات الاحتلال وأكد على اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين لعام ٤٩ الذي ينطبق على الأراضي الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل عام ٦٧ بما فيها القدس) والقرار ٦٠٧ بعد إبعاد عشرات الكوادر إلى لبنان والقرار ٦٠٨، علاوة على التضامن الشعبي العربي وإعادة الاعتبار لعروبة فلسطين في الوجدان والوعي العربيين، وتأثيرات النهوض الفلسطيني في صدامات معان والكرك في الأردن حيث دفع ارتفاع الأسعار وسوء الأحوال المعيشية الأهالي للنزول للشارع، والأشد أهمية هو إلغاء الملك للارتباط القانوني والإداري بالضفة وسقوط مشروع التقاسم الوظيفي، ووقف مخططات التخلص من بندقية المخيمات الفلسطينية في لبنان، بل انعقدت القمة العربية في حزيران/٨٨ في الجزائر التي بحثت سبل دعم الانتفاضة وحثت مجلس الأمن على وضع الأراضي الفلسطينية تحت إشراف مؤقت للأمم المتحدة، على الضد من قمة عمان السابقة...

(أعترف أننا كنا ننظر بريبة لمؤتمرات القمة العربية، رغم التفاوت في المواقف بين نظام ونظام، إذ كنا نستحضر ميلين: الأول يسعى للتخلي عن فلسطين، أي اذهب أنت وربك فقاتلا، مع بعض الفتات، والثاني يسعى لاحتواء الورقة الفلسطينية وطمس خصائصها... بينما كنا نراهن على امكانية تململ الشعب العربي وبعض الدوائر الرسمية لممارسة ضغط يعيد لفلسطين بُعدها

القومي، وحلمنا هذا ضربته القيادة الرسمية الفلسطينية عندما ذهبت لمدريد وبعدئذ وقعت منفردة على مبادئ أوسلو، فتخلى العرب أكثر فأكثر عن فلسطين فيما عدا بعض الأوساط الحية في الشارع ودوائر متضائلة في النظام الرسمي.)[٦٨٦]

وجاء العدوان الثلاثي على العراق وتفكك سبيكة الدولة السوفييتية وانهيار نظامها الدولاتي البيروقراطي ليخدم هذا المسار، الذي ذهب للاعتراف بإسرائيل وكأنه عودة للوعي وتخلٍ عن الكفاح المسلح وكأنه يعلن توبة متأخرة. لقد حلت مرحلة مدريد- أوسلو بديناميتها.

وبالإشارة إلى تعميم صادر عن الجبهة الشعبية (...وعن مشاركتنا في العملية الانتفاضية، ثمة مأثور فلسطيني يقول: الذي ينزل السوق يتسوق، ولأننا فعلنا بحيوية التفت حولنا قطاعات شعبية لا يستهان بها. لقد شاركنا بآلاف المظاهرات والصدامات وأكثر منها زجاجات حارقة، ناهيكم عن بيانات القيادة في الخارج عن سلسلة من العمليات الفدائية، كما التصدي للمئات من حافلات وعربات المستوطنين وقطع طرقهم وحرق مزارعهم، هذا واعترفت الصحافة الإسرائيلية بمئات الحرائق داخل ال ٤٨... لقد شاركنا بالعملية الانتفاضية من ألفها إلى يائها، وإذا كنا نربأ عن الادعاء بأننا تفوقنا على فتح، فإننا بكل تأكيد لم نكن قوة ثانية، إننا على نفس الخط، وأي تسابق هنا إنما كان لخدمة الوطن ومقاومة المحتل... وهذا أفضى لمضاعفة قاعدتنا الحزبية خمس مرات والجماهيرية أربع مرات...)[٦٨٧]

كانت الانتفاضة رواية نجاح بامتياز للشعب الفلسطيني وقوى المقاومة، ورغم خسائر الشعب الفلسطيني البشرية والاقتصادية والتعليمية... فهي أيضاً مبادرة شعبية نهضت بالإرادة الوطنية التي أعلنت رفضها التعايش مع الاحتلال ووضعت تفوقه العسكري والاقتصادي في موقف دفاعي، وكبدته خسائر بشرية بالمئات بين قتيل وجريح ومليارات الدولارات بصورة مباشرة وغير مباشرة، ناهيكم عن الخسائر المعنوية والأخلاقية وتنامي القلق في الشارع الإسرائيلي... لقد شلت التكنولوجيا الإسرائيلية بشكل كبير تماشياً مع الحكمة الصينية (إن تثبيت العدو أكثر جدوى من خوض المعارك معه) اتصالاً بطابع الانتفاضة الذي أزعج «حكومة الجنرالات» وهي تشاهد (تحول جنودها لجهاز شرطة يلاحق فتية في الشوارع) وهم الذين يألفون استخدام قذائف الدبابات

---

٦٨٦) تعميم صادر عن قيادة الجبهة الشعبية في الداخل (الوضعية الراهنة للانتفاضة والحراك في مهامها وأولوياتها). أواخر نسيان/١٩٨٨

٦٨٧) قيادي في الجبهة الشعبية

وصواريخ الطائرات، فمستوى الحرب فرض في النهاية سلاح الحرب.

لقد تفننت الانتفاضة في استخدام شتى الأسلحة، بدءاً بالحجر والنقيفة والمسامير، مروراً بالتظاهرة والإضراب ومعالجة الجرحى وتخليص المعتقلين والتوبة العلنية للعملاء، تعريجاً على السلاح الأبيض والسلاح الناري وصولاً إلى...

(دار جدال حامي ومتشعب حول العصيان الشامل منذ الشهر الثاني للانتفاضة، وتواصل الحوار إلى أيار وتجدد في تشرين ثانٍ، وأسهمت فيه القوى المنتفضة في الداخل كما الفصائل في الخارج.

لم يكن صعباً استبعاد العصيان المسلح الشامل نظراً لإمكانات الشعب وما يمليه تصورنا للانتفاضة كعملية طويلة. فلسنا نواجه نظاماً قمعياً يمكن التطويح به بإضراب جماهيري عام أو عصيان لأيام كما حصل في غير تجربة عالمية، بل غزواً عنصرياً كولونيالياً مسعوراً يسعى للاستيلاء على الجغرافية وإقصاء الديموغرافيا، ولا تجدي معه ضربة خاطفة، بل ليس ثمة إمكانية لضربة خاطفة. فالثورة المعاصرة منذ انطلاقتها اختارت حرب الشعب طويلة الأمد، بصرف النظر عن شروط الزمان والمكان ومدى البراعة والإتقان، ونحن في الداخل نخوض حرب عصابات من طراز خاص، بما يشكل إضافة للإرث النظري، وبالتالي صمتت الأصوات القليلة التي قفزت في الهواء وللأمام دون أن تقفز معها الانتفاضة.

حينذاك لم تكن بيت ساحور قد عرفت عصيانها الرائع وبالتالي استخلاص خبرتها. وكان علينا أن نجتهد وان نبادر. دار حوار بين مفاصل قيادية في الداخل وبلورنا تصورنا على شكل مذكرة دفعنا بها في شهر كانون ثانٍ/١٩٨٨ للقيادة الموحدة كما لرفاقنا في الخارج وهم بدورهم للقوى الأخرى.

كان في خلفية تفكيرنا الانتفاضة الايطالية، البلغارية، الروسية،البوليفية، الفرنسية، وكنا على هذا الصعيد أكثر إلماما من غيرنا ولكننا في النهاية تقدمنا بتصورنا الفلسطيني المكون من سبع صفحات. كان محوره الأساس أن نجيب عن السؤال التالي: ما هو شكل الانتفاض المناسب في ظروف الضفة وغزة؟ كان على مقاربتنا أن تفهم وان تعالج الملموس، أما التجريدات فهي في خلفية الرأس. ومن بين الشروط الذاتية والموضوعية التي احتوتها المذكرة:

١. ضرورة وحدة الموقف في الخارج حول ممكنات وقرار وشكل العصيان وسبل دعمه، أي أن المطلوب قرار سياسي صريح من م.ت.ف.

٢. ضرورة وحدة الموقف في الداخل، أي قرار ميداني حاسم بما يتصل به من أدوات تنفيذية على الأرض وقدرة على الاستمرار والسيطرة.

٣. أن تتولى اللجان الشعبية بمختلف أسمائها الدور المفصلي في توجيه حركة العصيان بديلا عن أجهزة الاحتلال وامتدادا للقيادة السياسية (قوم) وفروعها.

٤. توفير مقومات الحياة الأساسية التي دونها لا يستمر العصيان لفترة طويلة، من طعام، مياه، أدوية... آخذين بالحسبان ارتباط الاقتصاد الفلسطيني بالسوق الإسرائيلية..وهنا يتعين أن تعلن قيادة م.ت.ف استعدادها العملي.

٥. تهيئة الجماهير للعصيان من زاوية استعدادها نفسيا واقتصاديا وما تتطلبه حالة الطوارئ، بما ذلك توسيع الاعتماد على الاقتصاد المنزلي...

٦. تأسيس مخازن في المدن والأرياف والأحياء والمخيمات يحتفظ فيها بالمتطلبات الحياتية تكون تحت إشراف اللجان الشعبية، بما تتطلبه من جمع تبرعات ودعم خارجي.

وخلصت المذكرة للقول (ينبغي الاعتراف أن مثل هذه الشروط الأساسية لم تتوافر بعد، وهي إن كانت ممكنة نظريا،غير أنها عمليا لم تتحقق بعد)، وختمت بالقول،ينبغي التأكيد ثانية على ١- يجب أن يسبق إشهار العصيان الشامل دعم مالي وقرار سياسي من م.ت.ف وبلغة الأرقام ثمة حاجة لمئتي دولار شهريا لثلثي العائلات الفلسطينية في الوطن. ٢- ضبط الاتجاهات الإصلاحية والرخوة وتعبئة جميع القطاعات بشعار العصيان وتعزيز روح التضامن والمشاركة.

وقد اقترحت المذكرة، الآلية التالية تماشيا مع الملموس والجهوزية (عصيان جزئي متقطع طالما أن شروط العصيان الشامل المفتوح غير متوافرة حاليا).

كنا نتعامل بأعلى درجة من المسؤولية الوطنية ونضع جوهرة الانتفاضة في القلب ونحرص عليها كما لو كانت ابناً أو بنتاً لنا، لا يجوز توريطها في أخطاء تقتلها وتبدد تضحيات الناس، وهؤلاء الناس هم عوائلنا وجيراننا وأقاربنا حيث نرى أن بعضهم سقط شهيدا أو جريحا أو نصف العائلة بات في السجن يُسام التعذيب... كنا منزهين عن أي اعتبارات شخصية أو فئوية ولا نريد مناصب تفاوضية أو مشهدية إعلامية. كان علينا حماية الانتفاض من أي تفكير مغامر يجهز عليها في أسبوع أو أسابيع أو تفكير يميني يميعها ويثلم نصلها فتبرد حرارتها.

وقد شرحت المذكرة معنى العصيان الجزئي المتدرج، بان الجزئي يسمح للسوق الفلسطينية باستيراد بعض السلع من أو عبر السوق الإسرائيلية فلا تحدث اختناقات، كبعض الأدوية والمواد الغذائية والمحروقات والمياه والكهرباء... فسياسات الاحتلال ألحقت الاقتصاد الفلسطيني إلى درجة أن يصل التبادل التجاري ٩٢٪ مع السوق الإسرائيلية، وهذا لا يمكن قطعه بالكامل إلا في ظروف الاستقلال السياسي...

أما العصيان المتقطع، فهو يسمح بعصيان لأيام أو أسبوع أو أكثر واستئناف الحياة التعليمية والاقتصادية. بعدئذ والعودة له ثانية وهكذا دواليك، وبذلك تدخل الانتفاضة مرحلة جديدة. على أن يكون في الذهن أن سلطات الاحتلال ستحاول كسر هذه الآلية من ناحيتين: الضغط علينا من خلال إجراءات تنكيلية وبطش شديد لكيما نعلن عصياننا مفتوحا شاملا لا يقوى على الاستمرار أكثر من أسبوع او شهر، او التمييع والإجهاض بإضعاف روح الانضباط والقتال من خلال توسيع الاعتقالات بما يمس (النواة الصلبة) لتمهيد الطريق للأصوات الرخوة...

وقد اعتبرت المذكرة (إن التوقف عن العمل في قطاعات العدو الاقتصادية وإدارته المدنية ومجالسه البلدية قرار قاطع ومطلق) مهما كان شكل الانتفاضة.

وأبدت الجبهة مرونة لاحقا، حيال العمل في المشاريع اليهودية بعد أن تبين في شباط وآذار أن الدعم المالي المنتظر من م .ت.ف لم يصل منه إلا النزر القليل بما لا يطعم أطفالا او جوعى...

في نيسان وقفت قيادة الجبهة في الداخل وأصدرت تعميما بعنوان (الوضعية الراهنة للانتفاضة والحراك في أولوياتها ومهامها) شددت فيه على (الاستماتة، نعم الاستماتة من جميع الرفاق والرفيقات والعاطفين حماية لدينامية الانتفاضة الصاعدة ومنع أي عد تنازلي) وأشارت (إلى المقاطعة الجزئية للضرائب والمنتوجات الإسرائيلية والعمل في «المستوطنات» والاستقالات الواسعة في جهاز الشرطة والضرائب واللجان البلدية المعينة...).

ودعت (إلى الضرب بيد من حديد على رؤوس العملاء وتصعيد المواجهات في الشوارع والأزقة وتعزيز المتاريس لتقييد حركة قوات الاحتلال) واستخلصت (إذا كنا على اقتناع تام، وأول من بادر، بضرورة العصيان لفترة، كخطوة نوعية، في مسار العملية الانتفاضية، ترجمة للعصيان المتقطع، فإن على تكتيكنا أن يتميز بالذكاء والمرونة بحيث يفشل تكتيك العدو ويوفر الاشتراطات والمناخات اللازمة للخطوة النوعية، وذلك بإعطاء الجماهير فرصة لالتقاط أنفاسها وعدم

تحميلها أكثر من طاقتها، لبعض الوقت، والعودة للتصعيد ثانية...)

أما في مذكرتنا للقيادة الموحدة في تشرين ثانٍ /١٩٨٨ فقد حسمنا بما يكفي وشرحنا بما يكفي (الشكل العصياني الملائم للواقع الفلسطيني : العصيان المحدود المتقطع، والذي يعني التقطيع في مظهر الإضراب الجماهيري الشامل من ناحية زمنية، بما يصاحبه من فعاليات عصيانية، واقتراحنا هو: إضراب جماهيري عام لمدة أسبوع او اقل قليلا او أكثر قليلا، ثم مزاولة العمل لأسبوع أو أكثر قليلا، يتخلله فعاليات نضالية دائمة، لنعود ثانية لإضرابنا الشامل لأسبوع وهلمجرا...)

لم يتوقف الحوار الحزبي أو الحوار مع القوى الأخرى، دون المساس بما هو مشترك: تواصل الانتفاضة وقيادتها وضخ المزيد من الطاقات فيها، رغم ما كنا نتعرض له وسوانا من اعتقالات واسعة.

يجوز الزعم أن الانتفاضة انتقلت من التحركات الشعبية الواسعة والمظاهر العصيانية المتناثرة إلى العصيان الجزئي المتقطع منذ نيسان/٨٨ بما يعادل طبعة جديدة للعصيان والانتفاضة، أي فلسفة العصيان والانتفاضة، والتعبير الذي ابتكرناه حينذاك كان (تبييء الانتفاضة وتبييء الفكر) بما ينسجم مع كلمات الحكيم (إلباس النظرية عقالاً وكوفية).

وفي الشهور التالية أعادت الانتفاضة إنتاج نفسها مرتقية إلى درجات جديدة في السلم، بما حدا المجلس الوطني الفلسطيني لعقد الدورة ١٩ في تشرين أول/١٩٨٨ التي توجت بإعلان الاستقلال، ولكنها أيضاً اعترفت بالقرارين ٢٤٢، ٣٣٨ اللذين تحفظت عليهما الجبهة في الخارج ورفضهما تماماً بيان صدر عن الجبهة في الداخل، الذي نظر لقرارات الدورة ١٩ «غطاءً لتمرير الشروط الأمريكية – الإسرائيلية، وما عجز عنه شولتر في شق الطريق لعربة المشروع الأمريكي الإجهاضي للانتفاضة والنضال الوطني».

ونشأ هنا خلاف داخلي بين القوى المنتفضة، كما بعض التباين بين قيادة الجبهة في الداخل وقيادة الجبهة في الخارج... وفي اجتماع ضيق مع مسؤول الداخل قال (لن يبقى من بيان الدورة ١٩ سوى القرار ٢٤٢، كشرط أمريكي ونذير شؤم على الانتفاضة والشعب وتضحياته).

وتعاظمت مخاوف قيادة الجبهة في الداخل من أن بعض القيادات الفلسطينية ذاهبة إلى خط سياسي تدميري للانتفاضة وروحها تحت عنوان «الاستثمار السياسي» دون الالتفات بما يكفي

ميزان القوى، ودون فهم عميق للعدو الذي لا يبحث عن تسوية تاريخية أو حلول وسط!! فهي تظن أن انحناء المجلس الوطني ٨٨ بتمرير القرار ٢٤٢ الذي يعتبر القضية الفلسطينية قضية لاجئين، رغم اعتراض ٤٦ عضواً من الجبهة الشعبية وحلفائها، وبعدئذ مؤتمر رئيس المنظمة في جنيف الذي لبى فيه شروط الحوار مع أمريكا، كما شعاره في أيلول/٨٨ «استراحة المحارب»، بل (قول عرفات لوزير خارجية فرنسا دوما في مطلع ١٩٨٩ أنه يرفض الانتخابات السياسية في المناطق الفلسطينية ولكنه سينصح الشعب بالتعاطي معها إذا فرضت)[٦٨٨] كمؤشر على القبول اللاحق بانتخابات الحكم الذاتي...

وعلى رأي الدكتور سمارة (لقد تحالفت شظايا الرأسمالية الفلسطينية على استثمار الانتفاضة كلٌ بطريقته وحسب موقعه... رأسمالية الداخل بجني الأرباح جراء توجه المستهلك المحلي لشراء منتجاتها... وبرجوازية قيادة المنظمة في الخارج التي تعد الخطط للاعتراف بإسرائيل ومد الجسور مع الولايات المتحدة بغية استكمال أمور التسوية.)[٦٨٩]

(وفيما كنا نعبئ ونهيئ بالكلمة والفعل الميداني للانتقال من العصيان الجزئي إلى العصيان الواسع ونسأل هنا وهناك عن مبلغ لا يزيد عن ٢٥ مليون دولار شهرياً يجري تحويل ثلاثة أشهر دفعة واحدة للآليات الوطنية المعتمدة بما يكفل إيصاله إلى ثلثي العائلات، واجهتنا قيادة المنظمة بآذان من طين وآذان من عجين، إذ كان لها رهان آخر ورؤية أخرى، مشغولة ببعض الاتصالات بأوروبا وأمريكا سواء مباشرة أو عبر «رموزها» في الداخل، بما جعلنا نستشعر الآتي المريب، ونشدد على حماية أدواتنا التنظيمية، الضمان الوحيد لتحويل مواقفنا إلى سياسة وفعل على الأرض، فالمواقف دون حامل تنظيمي قادر على تنفيذها هي كلام لا يغني ولا يسمن...)[٦٩٠]

٦٨٨) تعميم صادر عن الجبهة الشعبية، أواخر كانون أول/١٩٩١

٦٨٩) الانتفاضة مبادرة شعبية، مجموعة باحثين، ١٩٩٠، الأراضي المحتلة، دون دار نشر

٦٩٠) سمارة، عادل، الاقتصاد الآخر للانتفاضة، ص ١٤١

المبحث الثاني

مثلما تزايد القمع الاحتلالي عام ٨٧ ارتفع منسوب المقاومة والتحركات الشعبية، ولأن «السياسة جبر لا حساب» تنطوي على عنصر المجهول ثمة زفرات وجيشان تحت السطح، فالبركان يراكم عناصر انفجاره.

(كنا قد أعدنا بناء منظماتنا واستعوضنا خسارتنا جراء الضربة الاعتقالية التي حصدت مئات الأعضاء والكوادر وخمسة قياديين في اللجنة المركزية، محمود الغرباوبي، جبر وشاح، محمود فنون، عدنان منصور، أحمد سعدات، إضافة للاستثنائي خالد باكير، وطاقم من قيادات الصف الثاني.

كانت الضربة كمية ونوعية في غزة وبيت لحم، جرفت معظم المنظمة الحزبية في الأولى، وزهاء النصف في الثانية، أما في القدس فكانت نوعية وفي رام الله محدودة وفي شمال الضفة موجعة. لم يتوقف سيف الاعتقال في العامين التاليين، بل جرى تصفية ثلاثة كوادر في شمال الضفة. ولولا الصمود الكادري والقيادي لأمكن تصور خسائر مضاعفة بما يزكي كلمات المعلق العسكري زئيف شيف (لقد قضينا على الجبهة الشعبية) كاستخلاص متسرع استقاه من جهاز المخابرات الذي خلط تمنياته بالواقع.

كانت قيادة الداخل قد فقدت معظمها، وبقدر أقل قيادات الدوائر والمناطق والكوادر الوظيفية، لكن ما رشح من صمود بطولي خارق بعد جولات من التعذيب التي غيّرت ملامح منصور وهددت حياة فنون، والانتقام منهما بإبعادهما خارج الوطن، وكذا صمود سعدات وعدد من كادرات الصف الثاني والثالث ونشطاء قاعديين، ألهب الحماسة وضخ روح الفخر بما عمّق من الانتماء الجمعي والثقة بالحزب، ولم يستشعر الرفاق والرفيقات حجم الضربة إلا من زاوية اعتقال هذا المسؤول أو تلك المنظمة بما ينتج عن ذلك من تقطعات وفراغات وهموم عمل وهموم عوائل... إذ كانت النظرة رومانسية، بأن الحزب جبل شامخ يقوى على كل الضربات، أما القيادة فهي متفولذة تأبى الانكسار. وهذا من ناحية الجوهر صحيح نسبياً، بل بات هذا الجوهر محط امتحان حقيقي على امتداد عام كامل.

كان السؤال الأكثر إلحاحية:

كيف يمكن الوفاء بمتطلبات العمل القيادي... مرجعيات، متابعات، صلات، توجيهات،

معالجات، نشريات داخلية، ميزانيات، متطلبات، صحافة، حل التناقضات، ملء فراغات، حماية امتدادات، وصولاً إلى القبض على مختلف أوجه العمل سيما التنظيمي الذي تعرض أكثر من سواه للأذى وكذا الأيديولوجي، أما العمل الجماهيري والسياسي... فكان أقل ضرراً. والحزب كائن حي وبنية مترابطة، لا يمشي على قدم واحدة أو دون قلب، ولا يعمل دون أصابع وعيون، ولا يحمل أثقالاً دون عمود فقري أو هيكل عظمي، ولا يستمر دون ماء وهواء وطعام... واختلال أي عضو فيه بل عضلة أساسية تربكه وتكشف عجزه...

كنا أمام امتحان جدي يتجدد كل يوم في طول وعرض البلاد وما أكثر التفاصيل هنا: فإن لم يتم الرد على تقرير رفعه مسؤول محلي أو لجنة كادرية اعتقل مسؤولها... إن تأخرت النشرة أو التعميم عن موعدهما، إن احتجبت أو اضطربت صحيفة علنية، إن لم تصل الميزانية الشهرية، إن لم تعالج مشكلة أو شكوى رفعت لأعلى، إن لم يصدر قرار سريع بمسألة عملية، إن تباطأت التعبئة بدروس الضربة الاعتقالية، إن استأخر تعيين مسؤول جديد لخانة هامة... إن لم تتأمن الخطة لناشطة ميدانية، إن لم تجتمع الجهات المعنية لمتابعة المهمات واشتقاق القرارات... إن غاب أو انقطع ممثل الحزب في العلاقات الوطنية، إن تماهلت اللجنة السياسية أو سواها عن تقديم مقترحاتها وتصوراتها...إن لم تتم المحاسبة على خطأ أو تقصير له وَقْعُه... إن برزت ميوعة سياسية أو تعميم موقف ملتبس أو هبط مستوى المراسلات القيادية أو أغفلت نقطة أو فهمت خطأ نقطة مرتبطة بسياق سابق... وما أكثر النقاط المرتبطة بسياق ما قبل الضربة.

كانت الثقة بأعلى عميقة ومتجذّرة، ولا تسمح بأي خلل، والثقة بالقيادة في العمل السري لا يضاهيها في الأهمية شيء إلا الثقة بالحزب، والمسألة متواشجة.

ودون ثقة بأعلى تتراخى الصفوف وتنطفئ الدافعية وتبهت الروح التضحوية، أي الدم الذي يغذّي شرايين وأنسجة الجسم.

لسنا حزباً يؤمّن منافع لأعضائه، فلا وظائف ولا أموال ولا ولا... ثمة تضحيات ليس لها أول ولا آخر... إهمال العائلة والاعتقال والتعذيب... ودون ثقة راسخة بالحزب وقيادته يهتز ويتبعثر كل شيء، بل قل يموت الحزب موتاً بطيئاً إلى أن يفقد القدرة على تأدية وظيفته السياسية – الاجتماعية.

كنا وقت ذاك قوة ثانية، أكثر تنظيماً وتسيساً من سوانا، ولنا دور لا يمكن القفز عنه.

كان يتعين بل يجب الوفاء بمتطلبات العمل القيادي، إلى الدرجة التي تشعر فيها المراتب والمنظمات الأدنى أن القيادة بخير وتؤدي دورها كاملاً. وهذا استمر عاماً ونصفاً إلى أن سمح التراكم والمعايير بالانتقال من قيادة فردية إلى قيادة جماعية ومنها إلى قيادة جماعية ضيقة على أبواب الانتفاضة المجيدة مهدت لقيادة واسعة لاحقاً.

وقد استوجب الوضع الملموس مخالفة النظام الداخلي من ناحيتين: القيادة الفردية بما تتطلبه من جهود وسجايا واستجابات متنوعة إلى أن أحرز البعض نجاحات وإنجازات شرّعت ترفيعهم وائتمانهم على مسؤوليات أوسع، والثانية اعتماد معيار الإنجاز والاستجابة للمهمات، وبداهة الصلابة الأمنية وديناميكية الحركة، أي مطلوب جهاز لتنفيذ سياسة لا سياسة لإرضاء جهاز. وكان أبرز مفاصل الرهان كادرات شبابية صاعدة أدنى مرتبة من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية وأعضاء المؤتمر الرابع، وكلهم تحرروا في عملية تبادل الأسرى عام ١٩٨٥...

والتباين نشأ مع رفاق الخارج الذين اعتادوا الترسيمات المألوفة، مرتبة أعلى تعني مسؤولية أولى، بما يتناقض مع الملموس الذي يتطلب الاستجابة للمهمات سيما التنظيمية، فأعضاء المؤتمر الذين ناهزوا العشرين بمن فيهم الأعضاء المركزيون، كانوا قد خرجوا للتو من جدران السجن بعد عقد أو عقد ونصف من الأسر مثقلين بهموم إنسانية كثيرة واستهداف احتلالي، إلى درجة أن يجري تفجير كادرين (عبد الحميد من سلواد وحسان من غزة) واعتقال دموي لعدنان منصور وأبو حافظ عزيزة، أما الغالبية الساحقة من المؤتمرين فقد تم استيعابهم في وظائف حزبية ملائمة وبنّاءة دون أي تذمر سيما أنهم لاحظوا حجم الأعباء والسجايا المطلوبة من الكادرات التنظيمية. فالفراغ الأكبر نشأ في الخانات التنظيمية بعد الضربة الاعتقالية، وهذا كان على رأس الأجندة. وفي العام اللاحق تجاوبت كادرات أسرع من كادرات أخرى وحظيت باعتراف بنّاء على منجزاتها التي اسستها أو قادتها أو طورتها...

لا يبقى في الوادي غير حجارة، أي الحقائق، أما الزبد فيذهب جفاء، وبالتالي فقد تمت لملمة المنظمات الحزبية التي تفككت وأعيد تشكيل اللجان والهيئات من قبل الكادرات التي حرثت الأرض في الزمن الصعب، وبعض هؤلاء طار على أجنحة إنجازاته إلى المستويات الأعلى كممثل وقائد لأنشطة، أي أن المحتوى فرض شكله دون أن يهتم أحد بالألقاب الشكلانية، مكتب سياسي أو لجنة مركزية) أو قيادة الداخل... وبالتالي لم يتبدل سلّم التفرغ ولم يكن هناك أية امتيازات شخصية أو المزيد من التضحيات وتقصير أكبر نحو العائلة والشؤون الخاصة، وفترة أطول في

الزنازين في حالة الاعتقال... مفيد التذكير هنا، انه حينما جرى ترشيح محمود فنون وأحمد سعدات للمكتب السياسي في المؤتمر الرابع عام ١٩٨١، اعتذرا وآثرا تأدية كل المهام المطلوبة دون اللقب، وهذا حصل مع أعضاء آخرين رشّحوا للجنة المركزية العامة... ولكن الأمر لم يتوقف عند اعتذارهم بل ما استوجبته آليات العمل.

كانت تجربة الداخل تقوم على «العمل المتكلم» أولاً وعاشراً، أما المرتبة المركزية فتأتي حينما تفرض نفسها كمسار موضوعي وليس تعييناً بيروقراطياً... أي تأتي كتتويج لمسار يملي رأس قيادي له.

لهذا لم يكن غريباً أن يقود عضو قيادة منطقة لجنة فيها أعضاء من اللجنة المركزية والمكتب السياسي. ذلك أن الألقاب المركزية جاءت من المؤتمر ومعظمها من رفقاء الأسر وليس نتاجاً لسياق تنظيمي مرتبط بالعمل الحي، وهؤلاء الرفاق على قدر من الأخلاقية والثورية بحيث دأبوا على التعاون مع مسؤوليهم الأدنى مرتبة رسمية منهم ولكن الأكثر فاعلية عملية واستجابة لشروط اللحظة. فيما عدا رفيق لجنة مركزية وآخر مكتب سياسي، والأول تراخى اعتراضه بعد أن أنيطت به مهام إعادة البناء في منطقته دون أن يثبت قدرة، والثاني لم يستأنف النشاط الحزبي مما اقتضى وضعه أمام مسؤولياته، دون جدوى، فجرى فصله بعد بضعة أشهر فيما كان العمل في مسيس الحاجة إليه، ولكن ليتبين لاحقاً، وفي مرحلة صعود الحزب وفعله الانتفاضي الواسع والمشرّف أنه أبعد كثيراً. وهذه حرية اختيار في نهاية المطاف، فالانتماء الحزبي ليس انتماءً طائفياً أو عائلياً، إنما انتماء طوعي.

والقيمة الأساسية لقرار الرهان على الكادر الشبابي الصاعد الذي برهن جدارة أكثر من سواه بالعمل المتكلم» ولاحقاً بالصمود بالزنازين، أنه جاء منصة انطلاق لإعادة بناء الجبهة وقطع شوط أبعد في مرحلة التركيم والصعود، ولولا ذلك لما كانت جهوزيتنا جيدة في زمن الانتفاض الشعبي ولتثاقلت الجبهة وترنحت كجسد شائخ.

«إذا لا يصلح التفكير التقليدي في وضع غير تقليدي» عبارة رددها مرات مسؤولنا وقتذاك متهكماً ومنطلقاً من الحكمة الواردة في أسطورة سرير بروكرست، وملخصها (أن ملكاً إغريقياً عزم على تزويج ابنته وافرة الجمال، فأطلق المنادي ينادي كل من يجد في نفسه الكفاءة من الأمراء والفرسان وعلية القوم. وقد نصب سريراً في خيمة بطول وعرض ابنته، يلقى عليه المتقدم لخطبتها، فإذا كان أقصر يمطه وإذا كان أطول يقصّه) أي حاول تفصيل الواقع حسب مقاييس نظرية وليس العكس.

وعليه، جاء القرار الاستثنائي متوائماً مع ظروف استثنائية ومنبثقاً منها، مستقوين ليس

بعقولنا (إننا نفكر) الحكيم، ومقاربتنا تلائم الخصوصية المحددة، بل وبتجربة فيدل – جيفارا التي اختلفت عن المدرسة الشيوعية، ورفض ماو لنصائح القيادة السوفييتية وأغلبية اللجنة المركزية بعد الانتفاضة الفاشلة في شنغهاي ١٩٢٧، وتمرد تيتو على قيادة الحزب التي كانت أغلبيتها تعتصم في موسكو وراح يؤسس لحرب عصابات حررت يوغوسلافيا...

رغم التباين مع «الخارج» أو الذين على تماس مع «الداخل» واستمرار الجدل بعض الوقت، غير أن «الخارج» لم يقم بتجنيد أغلبية ولم يصدر قرارا إلزامياً «للداخل»...

بعد هذا الزمن، يمكن القول إن هذا القرار الاستثنائي كان في عداد قرار إنقاذي أسس لانتقال الجبهة لمرحلة جديدة في وزنها ودورها...)[٦٩١]

في عام ٨٧ غلب على أوضاع الجبهة في الوطن المحتل، بمن في ذلك أنصار خطها في فلسطين المحتلة عام ٤٨، «الاستقرار المشتبك»، فامتدادتها المناطقية في حالة اشتباك، ضمن منسوب ذاك العام، بما يعنيه الاشتباك من تضحيات واستقطاب وخبرات، ولكنه اشتباك لا يزعزع الامتدادات التي لملمت جراحها ونظمت صفوفها، بل شهدت بعض الانتشار والتركيم الكادري.

يجوز القول إن مجمل المواجهات والتحركات الشعبية عام ٨٧ وما تعرضت له جماهير الأرض المحتلة من إجراءات احتلالية هو «بروفة» مبسطة للحريق الثوري في سنوات الجيشان الانتفاضي، بل جاء لقاء الدكتور جورج حبش – أبو جهاد في تشيكوسلوفاكيا «تطبيعاً» للعلاقة بين الشعبية وفتح بعد عامين ونيّف من التوتر والخلاف في الخارج والداخل، بما مهد لأوسع العلاقات الميدانية والسياسية في الوطن المحتل. وهذا جعل البيت الداخلي الفلسطيني، وتحديداً بيت القوة الأولى والقوة الثانية، وقتذاك، مهيأً لتلاحم الزنود وضفر الجهود، بل تأكد ذلك في مصادمات عديدة في الداخل مع المحتل، ناهيكم عن تنقية البيئة الوطنية في المعتقلات، بما للمعتقلات ومنظمات الأسر من تأثير دائم وكبير، فهي الخط الأمامي للأدلجة والتسييس وهي المنبع الأول لتخريج الكادرات.

كان بيان الجبهة في ٨٧/١٢/١١ الذي عمم على المنظمات الحزبية ومعه خطة الفعاليات، قبل اندلاع الانتفاضة بأربعة أيام قد دعا (لمصادمات واسعة) والخطة حددت (عدد التظاهرات والاحتفالات وبنود العنف الشعبي... بما في ذلك تظاهرتان حاشدتان في نابلس وغزة ومهرجانان مركزيان في جامعتي بيرزيت وبيت لحم، ورفع أعلام وكتابة شعارات جدارية في كل مكان، وتوزيع البيان على نطاق واسع، و٤٠ زجاجة حارقة تتوزع على النحو التالي...)[٦٩٢]

٦٩١) قيادي في الجبهة الشعبية

٦٩٢) قصاصات من أرشيف الجبهة، جزء من رسالة غير محددة

وبعد أقل من أسبوع في ١٢/١٦ صدر تعميم حمل نقاطاً هامة منها (تكاد الهبة المبعثرة أن تتجمع في تيار جارف يلهبها وحشية الاحتلال وروح الجماهير الغاضبة... لينخرط الجميع في الميدان من امتدادات حزبية وديمقراطية محيطة، ما عدا الاستثناءات..... بصرف النظر عن أية تباينات مع القوى الأخرى سيما اليمين الوطني، لنضع ذلك وراء الظهر مشدودين إلى استحقاقات اللحظة... القضية اليوم هي الحلقة المركزية... السياسة صراع وعلينا استنهاض أدوات الصراع... ما يدور إنما يجمع العفوية والتنظيم، وهناك مواقع تتقدم على مواقع أخرى... ليس من مصلحة النضال الكلي أن يتقدم الصفوف موقع ويتأخر موقع، بل أن تندفع جميع المواقع الجماهيرية في خط الجابهة الأول مع إدراكنا (لقانون التفاوت) لينين... لا ينبغي أن ينتظر أحد تعليمات من أعلى فالمبادرة سيدة اللحظة ضمن الخط العام... لن تزيدنا الاعتقالات إلا قوة... تثمين حملة الرايات والذين بادروا ميدانياً وإعلامياً واجتماعياً بمساعدة بعض المتضررين... وإلى الأمام) وبعد نحو أسبوعين صدر تعميمٌ جاء فيه (إن ديناميكية الهبة تتحول لانتفاض شعبي جارف... الاحتلال يفقد المبادرة والقدرة على السيطرة، لقد تبخرت وعود رابين... وانتقلت المبادرة لأيدي الجماهير الشعبية في المخيمات والأرياف والأحياء الشعبية... تصنع الإرادة الجمعية الثائرة مأثرة كبرى نتعاطى معها (بجدية كبرى) أنجلز، وهي أوسع وأكثر اندفاعاً من التحركات إسناداً لإضراب الحركة الأسيرة.... ويتحول الشهداء لأيقونات ومنارات زيت يسكب على عجلات الطاحونة... مطلوب المزيد من الفعاليات والمزيد من الجرأة... لنبرهن على أننا طليعة في الميدان لا (أن نخلع على أنفسنا لقب طليعة) لينين، إن الفعل والحصاد عملية واحدة... لنفعل أكثر ونضخ دماء وطاقات أكبر في شرايين العملية النضالية، بما يعزز خطنا ويستقطب المزيد من الأنصار...)[٦٩٣]

وفي اجتماع قيادي في ١٢/٢٩ تقرر (... على أبواب الوقفة السنوية وبداية عام حزبي جديد يتعين... .... ٣- مضاعفة العضوية الحزبية ١٠٠٪ كربح صاف دون احتساب الذين يذهبون للسجن... (اعترض رفيق ولكنه انضبط لقرار الأغلبية)... ٥- بلورة أدوات العنف الشعبي ومطالبة القيادة برفع استعدادات الجانب النوعي... ٨- الاستجابة التنظيمية للحركة الموضوعية... ٩- ربط الخيوط المتقطعة دون ربطاء... ١٠- لا مهرب بل من الضروري تشكيل مركز سياسي وطني للعملية المتصاعدة وتكليف الرفاق بمتابعة الأمر مع القوى الأخرى...)[٦٩٤]

وشروحات البند الثامن جاءت على النحو التالي (ربما تشكل العملية الجارية انعطافاً يتمخض

[٦٩٣]) خطة فعاليات ١١/١٢/٨٧، الأرض المحتلة

[٦٩٤]) تعميمان صادران عن قيادة الجبهة الشعبية في الأرض المحتلة ١٢/١٩٨٧

عنه تحولات واصطفافات تتطلب منا رصدها والتقاطها والفعل فيها... فالحركة الموضوعية توجب حراكاً في الأشكال التنظيمية... فأطرنا الديمقراطية الجماهيرية تتعرض لحملة اعتقالات واسعة أسوة بالقوى الوطنية والجماهيرية عموماً... لم يعد البند الأول اليوم النضال الطبقي العمالي أو النقابي الطلابي أو الانتخابي أو الخدماتي المهني... بل النضال الانتفاضي... وهذا اقتضى قراراً لتأسيس لجان المقاومة الشعبية أداتنا الأساسية في المواجهات الميدانية... وشرارات هذه اللجان وجدت طريقها إلى أرض الواقع في العديد من المواقع...)(٦٩٥)

يبدو أن قيادة الجبهة في الخارج لم تتحمس لتفكير الداخل الخاص بالبند الثامن، أو أنها اعترضت (بما اضطرنا لشرح منظورنا الجدلي مرة أخرى، فالذاتي يرتبط بالموضوعي في نهاية الأمر، والحركة السياسية الانتفاضية تملي إرادتها لا محالة على الأشكال التنظيمية، وكلمة السر أو العنصر الذهبي كان في المقاربة الصحيحة، التي حفرت نفسها في تربة الانتفاضة، عشرات وعشرات لجان المقاومة الشعبية، خاصتنا، المرتبطة بالحزب، في الشهر الأول، وغدت مئات اللجان في الشهور التالية، بل أشارت الوقفة السنوية في شباط/٩١ إلى أن العضوية ناهزت ستة آلاف في عموم فلسطين المحتلة، مؤطرين ويؤدون مهام متنوعة، ويغلب عليهم الطابع الشبابي، دون احتساب نحو ألفين في السجن من رفاق وعاطفين، وأية تشكيلات تنظيمية أخرى بما في ذلك البنية الحزبية التي تنشط معظمها بمعزل عن «لمش»، إذ كانت نسبة الحزبيين في لجان المقاومة والمرأة... لا تتعدى ١٥ – ١٧٪ بغية تصليب هذه الأطر ومدّها بطاقات وخبرات وبما يضمن نفوذ الحزب فيها إضافة لتأثير أفكاره وتوجهاته العامة...

بعض الرفاق في الخارج لم يستوعبوا سرعة التحولات في الواقع، وكانوا يخشون تبديد ما تراكم من جبهات العمل النقابية والطالبية، طبعاً لم يصدر أي قرار في الداخل يقضي بحل جبهات العمل، بل إن المتابعة استمرت لما تبقى منها، ولكن الاعتقالات الكادرية الواسعة وإجراءات الاحتلال بتعطيل الحركة بين المناطق والحراك في مهمات الواقع الموضوعي، كلها كان لها أبلغ الأثر عليها، وكان يتعين ابتكار صيغة جديدة ديناميكية، كانت رأس حربتنا الميدانية، ولكنها لم تكن الحربة الوحيدة، إذ كانت المنظمات الحزبية رأس حربة كبيرة بعد تحريك مهامها انتفاضياً، كما اتحاد لجان المرأة بعد تحريك مهامه أيضاً... وأية تشكيلات صمدت هنا وهناك بما في ذلك جبهات العمل وسواها...

---

٦٩٥) قصاصات من أرشيف الجبهة

إن هذا يعيدنا للجدل الساخن بين ٨٤ – ٨٦ حول الطابع المهني أو الجغرافي للمنظمات الحزبية...

الجميل في الأمر أن التباين بما صاحبه من توتر لم يرق إلى مستوى تعطيل أو تشويش مسار العمل في الداخل، فهو محصور بالمسؤول الأول وبعض العبارات هنا وهناك إن لزم الأمر ارتباطاً بقيود العمل التنظيمي.

وأخيراً، يمكن أن اختتم إجابتي عن هذا السؤال بالقول إن أكثر من ثلث فاعلياتنا الانتفاضية قد ارتبط بلجان المقاومة الشعبية، خاصتنا، وفي المناطق الحزبية الأضعف، أكثر، والمناطق الحزبية الأقوى، أقل، فحيثما كانت المنظمات الحزبية أقوى وآلياتها أكثر انتظاماً، كانت تتصدر الميدان، وتتراجع فاعليتها كلما كانت أقل قوة وانتظاماً، ناهيكم عن الدور الواسع لإطار المرأة وأية تشكيلات أخرى...) (٦٩٦)

أملت سيرورة الانتفاضة وشموليتها وجود قيادة سياسية لها. لم تأت «قوم» بقرار فوقي بل استجابة لعملية ميدانية تتطور أفقياً وعمودياً. كانت فصائل منظمة التحرير هي الأقرب للتفاهم والتلاحم، وبشكل أخص فتح كحركة شعبوية واسعة والجبهة الشعبية الأكثر تنظيماً وأدلجة، ومنذ لقاء حبش – الوزير خيمت مناخات إيجابية على علاقتهما في الداخل وتشكلت «قوم». أما الإسلام السياسي (حماس كحركة شعبوية تنمو بوتائر سريعة والجهاد بمزاياه النضالية) فقد آثر عدم الانضمام «لقوم»، أما فتح الانتفاضة ومجموعات أخرى بمن في ذلك حزب التحرير فكان لها إسهامها وبعض عناصرها في سجون الاحتلال كناشطين انتفاضيين...

ويمكن القول إنه لم تخلُ مناشطة شعبية واحدة من الجمهرة غير النظامية، في كل تظاهرة أو نحشد أو صدام أو مبادرة محلية... كما الكثير من اللجان الشعبية، وهذا كان ملحوظاً في معتقل صحراء السبع (النقب) الذي ضم بين ٦ – ٨ آلاف من المنتفضين بصورة دائمة وعشرات الآلاف على امتداد سنوات الانتفاضة، كما لوحظ ارتفاع نسبة حملة الشهادات الجامعية بين الأسرى كمرآة لتنامي أعداد الدارسين في الجامعات وإقبالهم على الانخراط في النضال التحرري...

لقد حددت أدبيات الجبهة الموقف من الانتفاضة وتصرفت منظماتها الحزبية والديمقراطية بناء على ذلك ونشط إعلامها وأقلامها في نفس الاتجاه.

(٦٩٦) قصاصات من رسالة من قيادة الداخل لقادة في الخارج

(... كان التقليد الحزبي أن نقف في شباط الوقفة السنوية، نراجع فيها كل قرارات وخطط العام المنصرم، في جميع ميادين العمل: السياسية/ التنظيمية/ الفكرية/ الإعلامية/ النضالية/ الجماهيرية/ المالية/ الأخلاقية/ الترفيعات والمحاسبات... ماذا أنجزنا وما نسبة الإنجاز، ما هي المستجدات وكيف تصرّفنا، وهل من شكاوى أو قضايا عالقة... إنها وقفة تقييمية تتعرض للعمل بنداً بنداً، في جميع المناطق والدوائر واللجان الحزبية، واستناداً إليها يقوم المسؤول باستخلاص الوقفة السنوية العامة ويضع مسودّة مؤشرات برنامج السنة الجديدة، بما يراعي الأمن وما يتطلبه من لغة رمزية، فالترميز ركن مهم في العمل السري، كما عدم التطرق للأسماء الصريحة... والوقفة تتكون من ١٠ – ١٥ صفحة أما البرنامج فهو بضع صفحات، ويجري توزيع ذلك على المعنيين أو على بعضهم قبل الاجتماع اتصالاً بالتسهيلات الفنية والأمنية، والشيء القاطع قراءتهما ومناقشتهما الجماعية تمهيداً لإقرارهما وأرشفتهما لدى القيادة. إذ كان محظوراً الأرشفة في الداخل، فلا أرشيف إلا أرشيف الذاكرة، والذاكرة الحية المتصلة بنبض وأسرار العمل هي ذاكرة مجزأة اتصالاً بالتخصصات والصلاحيات....

والوقفة التقييمية السنوية وكذا نصف السنوية قد تستغرق الواحدة يومين أو أكثر، فهما الاجتماعان الأكثر حسماً لأنهما ينظمان العمل بمجمله.

لم يتم التقيد بكامل تقليد الوقفة السنوية في شباط/٨٨، فديالكتيك الواقع وجد صداه في ديالكتيك الذات المنظمة، إذ طغت الانتفاضة وهمومها وما يتصل بها على الاجتماع الذي اختصر إلى يوم واحد دون تناول طعام أو نوم إلا النزر القليل حفاظاً على نشاطية الجسم والعقل وكسب الوقت... واتخاذ سلسلة قرارات وتوجهات.

كانت الروح مفعمة بالآمال والاستعدادات التضحوية بلا حدود، ولغة الإنجاز هي سيدة الموقف.

جرت العادة في الاجتماعات القيادية، أن تعمم رسالة استباقية تتضمن جدول الاجتماع وأهم القضايا ووجهة نظر أولية كأرضية للتفكير والنقاش، وأدناه نستقطع فقرات من رسائل حزبية:

«لقد بات الانتفاض الشعبي الذي يكتسح الوطن المحتل عام ٦٧ وما يحظى به من إسناد جماهير شعبنا في ٤٨ والشتات سيما ساحة البندقية في لبنان، هو الحلقة المركزية للشعب والحزب، والحلقة المركزية بالمنظور اللينيني هي الحلقة التي تقود وتنظم الحلقات الأخرى، ومن الناحية التنظيمية التقنية يتعين سكب الجهد الأساسي فيها. على هذا النحو نتعاطى معها...»

(... وبناءً عليه (لا ينبغي تحويل الضعف إلى نظرية) لينين، و(بالقناعة والتصميم) الأمين العام حبش، نواجه اللحظة النوعية الاستثنائية... فليس أمامنا إلا امتصاص خسائرنا من شهداء وجرحى، ومئات المعتقلين ورعاية المطاردين. إن الحبل على الجرار ولا مهرب من التضحية ولكننا نريدها أقل درجة ممكنة للشعب والحزب، تضحية لا تثلم ولا تشل مهامنا وواجباتنا... إننا أمام اختبار حقيقي للقب الطليعة، هل الطليعة إدعاء أم خطاب أم نرجسية قيادية... أم خطوات ومبادئ وسلوك عملي في زمن «اقتحام السماء»؟ رجال الكومونة «اقتحموا السماء» بلغة ماركس، وعلينا أن نقتحم السماء مع أبناء شعبنا وقواه المناضلة، ولكن دون أن نذبح. فشعبنا لا تعوزه المذابح والتضحيات بل الانتصارات. لنجعل من الانتفاضة محطة نوعية في طريق خلاصنا...»

...«القيادة التنظيمية هي جذع الشجرة التي تحمل فروعها وأغصانها، فهي تتولى معظم البنية وهي المناط بها الجمع بين نقيضين: الانخراط النشط الانتفاضي وتوسيعه وحماية البنية وتعزيزها، وهذا لا يكون إلا بتجسيد شعار: اتبعوني واستقطاب فوج الانتفاضة الذي لا ينبغي أن يكون اقل من ١٠٠٪ هذا العام... منذ زمن قال أحد رفاق الجيل الأقدم: الذي ينزل السوق يتسوق، والسوق اليوم عاصف، بركان هائج، ويجب أن تكون امتداداتنا في عين البركان فعلاً وجرأةً ومبادرةً... وحينها لن يصعب علينا التقاط فوج الانتفاضة. فالناس في الميدان يتجاذبون في مهام عديدة بما يكسبنا الصدقية والثقة كمدخل للاستقطاب...

لا مهرب من التسييس والأدلجة وفق تسلسل حلقات – مرشحين – خلايا... ولجان المقاومة هي بيئة خصبة للتحزيب والتوسع... يجب شرح النظام الداخلي بإيجاز، وكذا محاور تفكيرنا السياسي، ونشرة «الرفاق» و«الثورة مستمرة» والتعميم «الشهري» الميداني... ولاحقاً يجري تعميق الفهم...

العملية الانتفاضية في ذاتها هي عملية توعوية، فهي ممارسة ونظرية، وتجارب المنتفضين وتصرفاتهم هي وعي نظري، وما يتراكم من وعي وخبرة هو أهم مفاصل الوعي... وأنتم تلاحظون أننا عممنا منذ وقت العديد من الأفكار المتصلة بنظرية الانتفاضة سواء من التجربة الفلسطينية أو تجارب عالمية أخرى... وقيمة أي وعي نظري عام أن يخدمنا في استخلاص رؤيتنا الخاصة وممارستنا الانتفاضية اليوم...

لا ينبغي، وغير مقبول بتاتاً، استبقاء أي منظمة قاعدية أو كادر أو خيط تنظيمي منقطعاً

عن البنية بسبب الاعتقالات، على البنية والقيادات الحزبية أن تعالج ذلك بدينامية، دون إهمال الشرط الأمني، فالانتفاضة ليست المعركة الأخيرة، كما هناك الزنازين واحتمالاتها...

من الضروري تزكية الأسماء الأكثر جرأة، فسوف يأتي أوانها...

...«وعلى اللجنة السياسية، التي نثمن دورها، فهي تتولى خانة في غاية الحساسية اليوم تفوق في أهميتها أية فترة سابقة... أنتم أيها الرفاق رأس حربة قوية على الصعيد المركزي والمناطقي... استفيدوا من كل علاقاتكم، وما تسهمون به أمر رائع، ولدينا بعض المقترحات للنداء المقبل... اعتقال رفيقنا المباشر خسارة، ولكنكم رممتم الثغرة بسرعة، ولن تتوقف الاعتقالات، وسوانا أقل مهارة منا في مراعاة الضوابط الأمنية والصمود في الزنازين... من المؤسف أن يعترف أي كان عن نشاطه الانتفاضي أو أن يعطي إيحاءً أنه قيادي انتفاضي، فهذا يمسس هيبة الانتفاضة وقيادتها... رفقاؤنا مميزون هنا كما في كثير من المجالات...

يا حبذا لو وجدتم طريقة لاصطفاء مندوب جديد من فتح، فهذا التنظيم هو التنظيم الأول في الشارع ومع ذلك تنطبق عليه كلمات لينين (يوجد كثرة من الرجال ولا يوجد رجال) إذ غير معقول أن لا يختاروا اسماً مناسباً بعد السابق، أما رجل القدس فهو محترم ولكنه يتهيب من الانغماس، وتعلمون أنه كان منا ذات يوم ولسنوات وهو أباً عن جد من عائلة وطنية لها تضحياتها...

وغريب السلوك السياسي للحزب الشيوعي، فيبدو أنهم تأثروا أو أثّروا على إميل حبيبي الذي يكتب بإهانة وخشونة عن الانتفاضة ونداءاتها. فهذا الرجل الذي يكتب في الأدب ما هو جميل وطليق وله تاريخ سياسي حافل يتخبط في التاكتيك اليوم إلى درجة أن يقارن أرقام نداءات الانتفاضة بمقاسات الأحذية...لا نعرف لماذا يصر بعض السياسيين أن يكون لهم في كل «عرس قرص» فغير مطلوب من السياسي أن يصرح أو أن يتدخل دائماً، خصوصاً في «المهمات القذرة» ولا زلنا نذكر الرسالة المفتوحة التي نشرها وايزمن في الصحافة يشكر فيها قادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي على خدماتهم حرصاً على أمن الدولة «وصفقة السلاح التشيكية». طبعاً كلمة حق يراد بها باطل... فللحزب الشيوعي دوره الايجابي الكبير أيضاً في خدمة شعبنا والحفاظ على لغته وهويته... رغم أية خلافات معه...

المهم، على رفاقنا المعنيين في كل مكان نسج خيوط تعاونية مع قواعد الحزب الشيوعي ومعالجة عدم انضمامهم لـ«قوم»، فهم الخاسر الأول أما تيار الانتفاضة فهو جامح سواء شاركوا أم لم

يشاركوا فيه... وكلمات إنجلز التالية هامة (تأتي لحظات في التاريخ إما أن تنخرط فيها أو تبقى في معزل). انظروا ما أصاب هذا الحزب نتيجة هيمنة الميل اليميني عليه بعد حزيران/٦٧ بنأيه بعيداً عن المقاومة المسلحة. لقد تهمش وهو الذي كان أغنى خبرة وتراثاً من الفصائل الأخرى، لقد أضاع فرصة لا تتكرر للانخراط في صنع المستقبل وبناء وتثوير نفسه.

في كل الأحوال: لسنا معنيين بتصفية حساب مع أحد أو تغليب التباين على التقاطع، فما يهمنا هو مصلحة وحقوق الشعب، والانتفاضة اليوم هي مرآة مقعرة لمصلحة وحقوق الشعب، وبالتالي لا يجب أن نرد على حبيبي وسواه...

أنتم تذكرون رسالتنا المفتوحة إلى قيادات ومنظمات الحزب الشيوعي الفلسطيني، التي نشرناها بمناسبة إشهاره، فاللغة كانت صريحة وغير «طرية» وهي ممكنة في الزمن الرمادي، فلعلها تشكل صدمة كهربائية خفيفة تساعد على إيقاظه، أما اليوم فهي غير ملائمة، فالمطلوب اجتذابه وحسب... وفي الثالثة لهم كادرات جيدة وحيوية...

أما الإسلاميون فلهم أن ينشطوا كما يريدون ويختارون، إذ من الصعب التحاقهم بـ«قوم» رغم انخراطهم في فعاليات الانتفاضة، والإشكالية الوحيدة، تقريباً، هي تفردهم بالدعوة للإضراب العام بما يخالف دعوات «قوم» أما أية فعاليات أخرى فهي تضخ الدماء في عروق الانتفاضة، وإننا أمام خيار أن نعمل مع القوى الأخرى لكسر إضرابهم أو أن لا نعمل، إنني أميل للخيار الثاني رغم محذوراته، ولكنني أرى في الخيار الأول محذورات أكثر... هنا نعود للموقف المأساوي في الأدب الذي اكتشفه أو أثاره أول من أثاره في التاريخ، الأدب الإغريقي... فاختيار أ صح وخطأ واختيار ب صح وخطأ، إذ لا يوجد صح مطلق أو خطأ مطلق، إنه التناقض جذر الديالكتيك...

...دعونا نلتقي للإجابة عن سؤال أساسي:

كيف ننظر وكيف نفعل في الانتفاضة؟... على وجه العموم

١- إنها محطة نوعية وحلقة مركزية. ٢- من الضروري تكريس «قوم» وتوسيعها وتخفيف التناقض مع الإسلاميين. رشح إلينا أن قائدهم في غزة على استعداد للمجيء إلى هنا للالتقاء برفاقنا بما يحمل معاني كثيرة... ٣- المزيد من الفعاليات الميدانية من كل الطرز والمبادرة مفتوحة... ٤- حماية رأس المنظمة ونشاط في كل منطقة وموقع. ٥- ربط الصلات. ٦- فوج الانتفاضة بما لا يقل عن ١٠٠٪. ٧- إقرار حد أدنى للعنف الشعبي «والزجاجات». ٨- توفير الحد

الأدنى من المتطلبات المالية، وسوف نسأل القيادة عن إمكاناتها وإن كنا لم نألف أن نطالب، فعليها أعباء كثيرة أيضاً... ٩- تقديم ما يمكن من خدمات اجتماعية للجماهير. ١٠- البحث عملياً في تأمين آليات التعليم الشعبي، وإلا أنتجنا جيلاً جاهلاً... .....)[٦٩٧]

و«النص» الطويل أعلاه يحمل بين ثناياه، في وقت مبكر، الكثير من تفكير وتوجهات الجبهة الشعبية حيال الانتفاضة، فهو يستقرئها بإيجاز استناداً إلى خلفية فكرية يسارية، ويستخرج موقفاً سياسياً منها ينقله إلى حيّز الأفعال من خلال أدواتها التنظيمية.

كما أن اقتباس مقطتفات من رسالة حزبية أخرى مؤرخة في نيسان يغني ويضيف.

(الرفيق المسؤول، الرفاق ق.د تحية يسارية، نشد على أيديكم بحرارة وقوة في لحظة تستغرقنا جميعاً «الانتفاضة المجيدة» التي لا تني تزداد اشتعالاً وعنفواناً، بما يعيد أملاً للشعب كاد ينطفئ، ويفجر طاقات كانت خاملة، هذا يستدعي منا المزيد من الجرأة والمزيد من التصميم والمزيد من الحرث والمزيد من الاصطبار على التضحيات والحرمانات.

بفضلكم، وأنتم تتقدمون الصفوف، وبفضل أمثالكم إنما بلغ التراكم الكمي قفزة كيفية. لقد أثمر عملكم في الزمن الرمادي نجاحات باهرة في زمن الانفجار الثوري، لنقبض على الرايات بزنود متفولذة ولنتمتع بالحصافة والذكاء والحكمة، فما نواجهه اليوم استولد أسئلة جديدة لم نألفها، وعلينا أن نجيب عليها بعلمية لا تقبل التأويل، مسموح لنا جميعاً أن تكون إجاباتنا صحيحة فقط، فهذه الإجابات ستكون الروح المحركة لقاعدتنا المنظمة، أي ما لا يقل عن ربع الخارطة السياسية بما لها من مفاعيل على بقية الخارطة، إنما ستدخل التاريخ، إننا نشهد لحظة تطوّعها قراراتنا وأفعالنا أديم التاريخ الذي نسهم في صنعه، وهذه مسؤولية كبرى نتعاطى معها بشفافية وأخلاقية سياسية عالية، ونستشعر ما تستشعرونه على هذا الصعيد، وهذه حال كل القيادات المناظرة والحزب بمجمله. لا بد أنكم تتابعون تصريحات الحكيم فهو الضمير الساهر على الانتفاضة، وسهره جسده بالقول إن الداخل بات الساحة الأساسية، بما ينطوي عليه ذلك من أبعاد تنظيمية. سوف نتابع استنطاق هذه الكلمات، ولكن ما يهمنا دون لُبس أو تعويم ١- أن نصون الانتفاضة وندفعها للأمام وأعلى مجتنبين أية تاكتيكات توريطية تعود عليها بالوبال، ومن المؤكد أنكم على إلمام بالجدل المعلن أو المستور حول العصيان، وقد جرى تعميم موقفنا الأولي من ذلك،

٦٩٧) قيادي في الجبهة الشعبية

دائبين على بلورته وإزاحة العقبات من طريقه. فالبعض متحمس للعصيان الشامل المفتوح الذي يمكن أن يضع حداً للوثبة الوطنية في أسابيع، في أحسن التقديرات، وهذا لا يغيّر شيئاً في الصراع مع عدو عنصري كولونيالي وكان يمكن أن يحسم الموقف لو كان الصراع طبقياً ضد نظام قمعي على الطريقة البلشفية أو الخمينية...

واللافت أن بعض الأصوات تتحمس مرة للعصيان الشامل وتتحدث مرة أخرى عن تثمير الانتفاضة سياسياً، وكأنها غيّرت ميزان القوى وباتت الأوضاع جاهزة لقطف الثمرة... وربما أن المنطق الداخلي لهؤلاء يقول: عصيان - استثمار، حتى أن أحد رفاقنا المركزيين في الخارج تحمس لما جاء في تعميمنا السابق عن مجموعات الإزعاج والمقاومة الإسبانية التي طردت المستعمر الفرنسي، فاتكأ عليه للقول: إن الانتفاضة قادرة على طرد الاحتلال...

مطلوب عمق أكبر يذهب إلى ما هو تحت السطح. من الضروري الابتعاد عن الخفة فالانتفاضة في بداياتها، وقد دفعت الجماهير للخطوط الأمامية، و«القتال» سيكون ضروساً ومريراً، قبل أن يتراجع الاحتلال خطوة واحدة، فما بالكم أن يعترف بحقوقنا تمهيداً لدحره... وهذا لا يكون إلا عندما تصبح خسائره كثيرة وأرباحه قليلة، أي عكس المعادلة القائمة على الأرض، لقد سرق وطناً بأكمله وكل يوم يستقطع المزيد من أرضنا وينهب اقتصادنا ومياهنا ويستغل بصورة مضاعفة عمالنا... وهو يبني قواعد عسكرية ثابتة في أراضينا...

السذاجة قد تفيد أحياناً في العلاقات الاجتماعية، أما في السياسة فهي مدمرة. وقد تعاملنا بسذاجة مع بداية الاستيطان الاستعماري في أواخر القرن التاسع عشر، وواجهناه ببعض النضالات في العشرينات ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصبح قوة اقتصادية وثلث السكان في الثلاثينات وأن يقتلعنا من منازلنا ويشرد شعبنا في الأربعينات...

إنه رأس حربة وخندق متقدم للمشروع الإمبريالي، والصراع معه عملية تاريخية طويلة، وحانت لحظة يمكن أن نحرز فيها نجاحات، ولكن علينا تعزيزها بمزيد من النجاحات والصلابة والتشبث بالأهداف، وهذا يتطلب فيما يتطلب نبذ الأوهام من البيت الداخلي الفلسطيني كيلا تتحول لتصدعات، على طريقة «لعم» وما حاول تسويقه أحد رجالات العاصمة في تونس «بالقبول بالانتخابات البلدية التي توقف الاستيطان» علماً أن التفكير الإسرائيلي يسعى لتغطيسنا في الانتخابات دون أي تعهد بوقف الاستيطان، بل للتغطية على الاستيطان وإجهاض الانتفاض الشعبي. فاتجاه الضربة لدى حكومة العدو وحليفها الاستراتيجي الإدارة الأمريكية هو احتواء

أو إجهاض الانتفاضة، وكل التاكتيكات تستهدف ذلك، بينما اتجاه ضربتنا وحلقتنا المركزية هو إدامة الانتفاضة وتصعيدها وتكبيد العدو المزيد من الخسائر السياسية والمعنوية والاقتصادية والبشرية...

لنشمر عن السواعد، وبنفس طويل، لكيما تكون الانتفاضة نمط حياة.

علينا واجبات وعليكم واجبات... واسمحوا لنا بالتعرض للآتي:

...

٤- مفيد أن ترفعوا أية مآثر مميزة بغية تعميمها على المنظمات الحزبية، فالتعميم المختص بذلك شكل مهمازاً وترك أصداءً جيدة.

٥- إن فاعلياتكم في الشهر الأخير أكثر من رائعة وقد وجدت طريقها وتبوأت مساحتها في تقرير الفاعليات الشامل الذي رفعناه للقيادة، وهو يعكس مجمل دورنا الانتفاضي... لا ينبغي تقييد أية مبادرة ايجابية، والمبادرة لا تعني مغامرة، من جهة، كما عليها أن تصب في طاحونة الانتفاضة من جهة أخرى، وعموماً فإن الانتفاضة مبادرة تاريخية جماعية!... ولولا المبادرات التي قادها لينين وكاسترو وديمتروف وبن بيلا... لما عرفنا العالم الذي نعرفه اليوم... «والأهداف العظيمة تبدأ بحلم» على رأي لينين...

٨- ينبغي أن نمتد حزبياً وانتفاضياً في كل موقع، والعلاقة جدلية بين الانتفاض والامتداد، وقد أحرزنا قفزة حقيقية في الأشهر الأخيرة، وإلى نهاية العام يجب أن يصبح صوتنا عالياً في ال ٤٥٠ مدينة وقرية ومخيماً، وفي نطاق عملكم يجب أن نغطي نحو مئة قرية وكل حي في المدينة، وقد لاحظنا عملكم الدؤوب في لجان الأحياء، ولا نستطيع القول إن ثمة مركز ثقل واضحاً للانتفاضة، فالأرض المحتلة بأسرها تنتفض، مع تمايز واضح في مخيمات غزة سيما جباليا وفعاليات شعبية أوسع في مدن الضفة سيما رام الله... وأنتم تعرفون أن رام الله هي مركز ثقل القرار السياسي منذ عقود سواء في العهد «الأردني» أو العهد «الإسرائيلي»، وهذا يتعين حمايته، أي وجود مركز ثقل سياسي وإلا تاهت الانتفاضة وتاه الشعب، ومن المؤكد أن العدو يخطط في الاتجاه المعاكس، ولكم أن تفخروا بأن جهودكم المثابرة على امتداد السنين قد أجبرت العدو على الاعتراف بأننا القوة الأولى في «دائرتكم» وفي الخامسة اعترف الحاكم العسكري بل بعض رجالات فتح أيضاً، ومن جانبنا ننظر لذلك من زاويتين أساسيتين: أ- الاعتزاز بجهودكم وتضحياتكم، أنتم ومن سبقكم

في موضع المسؤولية ومجمل العاملين والنشطاء من الرفاق والرفيقات... فإنجازكم وسام شرف لكم يستحثكم على المزيد حزبياً وانتفاضياً، طبعاً إننا نرى بأم العين الخط التراكمي الكادري وما أحرزته مسيرة «الدائرة» على هذا الصعيد، وهذا يجعلنا نتوجه أول ما نتوجه لبعض كادراتكم، في «مناقلات» ضرورية لمهام أوسع لسد ثغرات... ونعترف أننا ننظر لكم كطليعة على صعيد التحزيب والأدلجة وبناء الكادر بصفاته العملية والسياسية... ونعترف أننا نستمزجكم في قضايا أكثر من سواكم، ونظنكم تلاحظون أن علاقتنا بكم هي أقرب للعلاقة الحوارية بعيداً عن الأوامرية والبيروقراطية وبين أيديكم ما يكفي من صلاحيات...

ب- عليكم مسؤولية كبيرة لحماية مسيرة الحزب في الوطن وحماية مسيرة الانتفاضة في آن. فمن يتجشم موقع الطليعة تناط به مسؤوليات الطليعة، التي لا يمكن التراخي فيها، فأي تقهقر أو تقصير إنما يتولد عنه خذلانات فظيعة وأضرار أكيدة، قد لا ينفع معها أي علاج. فقيادة الجيش تقود الجيش للنصر، والعمود الفقري يحمل الجسم ودونه يتهدل ويفقد هيئته...

فالمسألة أوسع بكثير من عاطفتنا الحارة نحوكم والتقدير الأخلاقي لإنجازكم... إننا جميعاً في نفس القارب ولن نخذل شعبنا وحزبنا وتضحيات عوائلنا وأميننا العام الذي يهتف أحياناً على الإفطار أو الغداء بصورة واعية أو غير واعية (لا شيء يعلو على صوت الانتفاضة) وأنتم ركن ركين في الانتفاضة، وإننا نستند إلى إنجازاتكم وإنجازات سواكم من الرفاق لضمان تعاط إيجابي من القيادة مع الداخل وتفهم أكبر لاستيعاب تفكير ومقاربات الداخل... فالإنجاز هو الذي يمنحنا الصدقية والقدرة على الإقناع أكثر بكثير من البراهين والمحاججات المنطقية... وإلا سوف ينشب تناقض مع الخارج، إذ ثمة تجربتان وتفكيران، رغم المشتركات...

١١- هل لنا أن نتطلع لمناشطات أكثر تنظيماً ونوعية، ففرصتنا للتأثير والتمايز هنا اكثر من المربع الكمي، وشكراً على الصور وفيلم الفيديو، فقد أتاحا لنا ملامسة النبض الحي لنشاط رفاقنا ورفيقاتنا، وبقدر الشحنة الإيجابية التي تسربت لنا، شعرنا بحزن ومسؤولية حيال رفيقنا الشهيد وتشييعه إلى مثواه الأخير... العهد له ولكل الشهداء... ولكن علينا أن نفحص الأسباب والأخطاء التي تقود للاعتقال والاستشهاد، لسنا طلاب سجن وموت بل طلاب ثورة وبقاء في الميدان، أما إن جاءت ساعة الحقيقة بالاعتقال أو الموت فأهلاً وسهلاً... أنتم تذكرون رواية «الرعب والجرأة» لألكسندر بيك... فاوغلي الضابط الصاعد لم يتقبل تمجيد الموت والموت... بل قال: اقتل عدوك، قاوم، اصمد، قاتل... ولا مدعاة للإسهاب... إننا ننحاز لهذا المنظور...

١٥- لكم كامل الصلاحية في العمل السياسي مع القوى الأخرى... فليس ثمة تناقض بين اللجنة الوظيفية العليا وبين مسؤولياتكم، حتى لو تواجدتم جغرافياً في نفس المكان... تصرفوا كما لو كانت «الوظيفية» غير موجودة، فنطاق عملها غير نطاق عملكم، ولكن يفيد أن تقيموا صلة تنسيقية ميدانية معها، وإن لزم الأمر سوف نتيح انضمام أحد كادراتكم إليها ضمن عمل وظيفي فقط... ولأن سيف الاعتقال بالمرصاد، ذلك أن التسريبات أوسع في العلاقات الوطنية، يتوجب تجهيز البدائل باستمرار، فهذه ضريبة لا نستطيع الامتناع عنها...

إننا نلاحظ سريان شعار مقاطعة الضريبة، مثلما نعرف أن معظم الضرائب تسددها المشروعات «البرجوازية»، وهي أقرب لكومبرادور منها برجوازية حقيقية، وهذا يتطلب التفكير المشترك... هل هذا وضع طبيعي لضمان إنتاج سلع وطنية أم ثمة إمكانية أخرى، وكيف؟ كما يرشح إلينا سعار رجال الضريبة في منطقتكم وتماديهم، لماذا تتهاون الأحياء مع سياراتهم ومداهماتهم واستفزازاتهم؟

وفي الجانب التنظيمي الصرف ثمة نقاط:

أ- معروفة القاعدة: الذي يطير إنما يطير بقوة جناحيه وكل الذين أسسوا خلايا حولها سياج حلقي من العاطفين ونشطاء «لمش» يمكن ترفيعهم بعد التأكد من الشوط الفكري السياسي والانضباطي والسلوكي، للرابطة، والأمر نفسه ينطبق على الرابطة ولكن على نطاق أوسع بما لا يقل عن ٣ – ٦ منظمات قاعدية بما يحيط بها وما تضطلع به من أنشطة... بترفيعهم إلى القطاع... ونترك لكم حق توسيع «قم» بناءً على ذلك وما يتصل بها من لجان... فالتقاليد والمعايير واضحة لكم...

ولا ينبغي أن ننسى ضرورة الإسراع في الخطوات والتريث في الألقاب، فالخطوات هي المحتوى أما الألقاب فهي جزء من الشكل الذي يأتي لتنظيم وتحفيز عناصر المحتوى وحسب...

د- نثمن اهتمامكم بالمضمون الطبقي. أجل، حتى في زمن انفجار التناقض القومي مع المحتل العنصري الاقتلاعي لا يجب أن يغيب عن بالنا التوسع في صفوف العمال والمسحوقين وتربية ملاكات عمالية. فأنجلز قال مرة، بما معناه، إن العناصر الأقل وعياً تصبح أكثر إخلاصاً بعد أن تكتسب الوعي، ومن مسيرتنا الحية نعرف مزايا الطبقات والفئات الاجتماعية، ولا يمكننا أن نتصور يساراً قيادته برجوازية صغيرة فقط، أو قيادات مكتبية فقط، أو رجال فقط، أو جيل أقدم

فقط، بل هي تركيب نوعي يشمل هؤلاء وسواهم... وقد حانت لحظة عملية تتيح للكادرات العمالية التألق، وهذا يجب أن ينعكس في الترفيعات... وإننا نفعل الأمر نفسه في قطاع المرأة، بعد أن سجلت المرأة مآثر عظيمة...) [698]

فما يطغى على الرسالة أعلاه، بل العمل بمجمله، هو استحقاقات العملية الانتفاضية، والعملية التنظيمية بأسرها إنما يجري توظيفها وتجهيزها لخدمة العملية الانتفاضية، بشكل أساس، طالما أن الانتفاضة هي الحلقة المركزية. ولافت تماماً جدلية تنظيم – انتفاضة – تنظيم على طريقة المهم الاقتصادي الماركسي ن(نقد) – ب(بضاعة) – نَ (نقد وربح). فانخراط التنظيم في الانتفاضة إنما يؤدي بذلك وظيفته السياسية بل يصبح تنظيماً أكثر مراساً وأقوى شكيمة، ناهيكم عن زيادة عضويته، التي تحددت ١٠٠٪...

(أجل لقد زادت العضوية في العام الأول للانتفاضة ١٢٠٪ كربح صافٍ دون احتساب الذين يقبعون في جدران المعتقلات في لحظة الوقفة السنوية شباط/٨٩، ومن جديد قررت الخطة السنوية ٨٩ أن تتضاعف العضوية ١٠٠٪، وقد تحقق ذلك ثانية في شباط/٩٠، ومن هنا رحنا نتحدث عن التحول لقوة أولى وراحت قيادتنا تسألنا.) [699]

كانت تضحيات الشعب هائلة وكذا القوى المنظمة، وبصعب الحديث عن «أغنياء انتفاضة» سوى أفراد ونخب هامشيين هنا وهناك، أما الشعب بجميع طبقاته وفئاته فقد لسعه اللهيب، وأعداد من العائلات اكتوت بتجربة الاعتقال في سنوات الانتفاضة، اكتوت بالنار للمرة الأولى وهذه حال الجرحى والشهداء. ورقم الذين اعتقلوا يناهز ٨٠ ألفاً، أي نحو ٤٠٪ من عدد العائلات الفلسطينية في الأراضي المحتلة ٦٧. ناهيكم عن الخسائر الاقتصادية التي تراوحت بين ٣ – ٤ مليار دولار لاقتصاد فلسطيني بالكاد ينتج ٨٠٠ مليون دولار سنوياً ومثلها عائدات العمالة في المشاريع اليهودية، وبين ٦٠٠ – ٧٠٠ مليون تحويلات خارجية من الأبناء العاملين في الخليج... ومنظمة التحرير ووكالة الغوث...

أي لقد تراجع مستوى المعيشة ٥٠٪ في مجتمع فقير الموارد ومتدنٍ في سلة المشتريات أصلاً. وكانت الفئات الأكثر فقراً أكثر معاناة وحرماناً، وإن خفف عن أقسام منها التكافل الاجتماعي الذي شهدت شبكاته نمواً ملحوظاً، حيث تقوم عائلة كفيلة بالتزام مالي قد يصل إلى ١٠٠ دولار

---

(٦٩٨) من مراسلات قيادية، أوائل/ ٨٨

(٦٩٩) رسالة من قيادة الداخل ل ق.د. – الجبهة الشعبية، نيسان/١٩٨٨

لعائلة مكفولة... ناهيكم عن أشكال التضامن الأخرى في الحي والمخيم...

رغم استمرار الأتون ٣ – ٤ سنوات، لم تحصل انهيارات جماعية أو تذمرات جماعية أو استعظام لحجم التضحيات، مثلما لم تحصل مجاعات جماعية أيضاً.

فالإضراب الجماهيري العام منتظم بما يصل إلى أسبوع شهرياً، وهذه حال التحشدات والتظاهرات الجماهيرية، كأبرز معلمين جماهيريين ناهيكم عن الاعتقالات الجماعية والمداهمات والتمشيطات والتفتيشات لأحياء وحوار بأكملها.

أما الحجر فكان سلاحاً «رادعاً» ينطلق زخات في التظاهرات وتنصب فيه الكمائن في الزوايا والأزقة ومن على السطوح... الأمر الذي ألحق مئات الإصابات بالجنود والمستوطنين...

كان المظهر الرئيس للجماهير هجومياً وتضحوياً في آن دون التفات لقانون الربح والخسارة أو التطلعات الاستهلاكية والمكاسب الشخصية... لكل ثورة متسلقون ومرتزقة بداهة ولكن هذا النمط تنحى جانباً وحجب نفسه في الدروج في العامين الأولين، وهذه حال العملاء الذين لاحقتهم الانتفاضة بدأب وأعلن المئات منهم التوبة في المساجد والأماكن العامة، وبعضهم تعرض بيته للحرق وعائلته للطرد المؤقت والكثيرون للتصفية...

(... ظاهرة العمالة ليست جديدة، ولسنا بصدد تحليل أسبابها، ولكننا كشعب نفتخر بوطنيتنا، فقد تبخرت روابط القرى، وهرب المئات إلى مخيم فحمة في جنين، وليس لدينا الحرس القومي الذي تعاون مع المحتل النازي في أوكرانيا ضد النظام السوفييتي، ولا نصف مليون جندي في فيتنام الجنوبية تحت إمرة الأمريكان ضد الثورة...

هناك عملاء ومشبوهون والكثير من هؤلاء ارتكبوا جرائم وقاموا بالوشاية على ابناء جلدتهم، إلى درجة أن أغلبية المجموعات الفصائلية في السجون كان سببها المباشر الاختراق من العملاء... وبالتالي لا يصعب تفسير اندفاع جمهرة المنتفضين ضد هؤلاء و...

وكوننا نفتقد لقضاء مؤسسي، تصبح لجان الانتفاضة مثابة قضاء ثوري، وكيلاً يختلط الحابل بالنابل كما حصل في سنوات سابقة في جامعات بيرزيت – النجاح – بيت لحم وعدد من المخيمات والمدن، حيث بلغ الغلو درجة اتهام أبرياء وخلط السم في الدسم... يتعين الاحتكام لضوابط أخلاقية وإدارية وتفادي البطش واعتماد الترغيب في معظم الأحيان. فقد عرف سجنا

السبع ونابلس تجربة مريرة، فمن جهة تنظيف صفوف الحركة الأسيرة من هذا السرطان، ومن جهة أخرى تلويث سمعة أناس شرفاء...

الإنسان بريء حتى تثبت إدانته.

وربما أن المراقبة والترقب يساعدان على وضع اليد على مستمسكات ومعطيات تساعد على بدء الاستجواب وانتزاع الاعتراف... وفي كل الأحوال فإن قتل بريء جريمة لا تغتفر... والتوبة العلنية تفضح العميل وتحاصره... وقد نشر إعلام الانتفاضة أن بعض العملاء مسلحون وأطلقوا النار على الجماهير، وهؤلاء هم الأشد خطورة... وإلى أية درجة صحيح ما رشح عن...)[٧٠٠]

والعمل المنظم لا يسير في اتجاه واحد، قرارات وخطط من أعلى فقط، بل تفاعلات وتقارير من أدنى أيضاً. فالعلاقة تبادلية.

(يمكن القول إن الوقفة السنوية هي الأشمل، فهي مراجعة لمسيرة عام، وتوطئة للبرنامج السنوي التالي. يليها في الأهمية الوقفة نصف السنوية، التي تراجع مسيرة نصف عام، استناداً إلى مؤشرات وبنود البرنامج السنوي والمستجدات التي تطرأ. وكان هناك تقرير شهري أو كل شهرين علاوة على التقارير الشفاهية في الاجتماعات. ولم يكن نادراً أن نرفع لأعلى تقارير من لجان كادرية محلية أو كادر معين، لما فيها من أهمية، بعد معالجتها، علاوة على معالجات «قم».

صحيح أن التوجيهات الحزبية كانت تركز على العمل الخارجي، غير أن العمل الداخلي له أهمية هائلة، فهو يشمل التثقيف والتسييس والمعالجات والمتابعات... وثغرة لها أضرارها أن يرفع مستوى حزبي تقريراً أو مقترحاً ولا يتلقى عليه رداً من أعلى، بل رداً سريعاً.

فتقليد التقارير شأن تقليد الاجتماع معيار هام في قياس نضج العمل الحزبي وفيهما تتجلى كلمات لينين (الصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال بالأفعال). فالتقرير يعكس المهام وتنفيذ القرارات ونظم العمل، أما الاجتماع فهو هيئة للقرار والمتابعة والمحاسبة والنقد ولا أستطيع تصور مسيرة تلك السنوات بلا هذا التقليد)[٧٠١]

وفي الصفحات التالية مقتطفات تدلل على ما أسلفناه، وهي مستقطعة من ثلاثة نصوص:

---

٧٠٠) قيادي تنظيمي في الجبهة الشعبية

٧٠١) مقطع من رسالة حزبية للجنة كادرية. الجبهة الشعبية. أيلول/١٩٨٨

الأولى وقفة سنوية باسم «قم» والثانية رد قيادة الداخل على وقفة سنوية لـ «س»، والثالثة رسالة قيادية لكادر «مميز». ومحاولة استشفاف المعنى المحدد لهذه الرموز لم يفض لأكثر من «أنها مراتب وأسماء حزبية»، «قد» أوسع من «قم»

وجاء في الوقفة السنوية ل «قم» ما يلي:

(الرفقاء الأعزاء، تحية ثورية وبعد،

... بعد المقدمة أعلاه، نرفع وقفتنا...

٤- لقد ترسخ تقليد الاجتماعات في كافة المستويات وبشكل أخص الهيكل الكادري.

٥- تم ترفيع ثلاثة إلى «قط» وتسعة إلى «ر». وقد انضم اثنان إلى «قم».

٦- تم الانتشار في ٣١ موقعاً حزبياً جديداً وأكثر من ذلك جماهيرياً.

...

٩- أنجزنا بند التوسع بنسبة ١١٠٪ والذاتيات في الطريق، والقوام ... أما «لمش» فهي ثلاثة أضعاف ويزيد.

١٣- أصبحت التركيبة الطبقية للمنظمة في نهاية العام على النحو التالي: ٣٦٪ عمال ٣٤٪ طلبة ٤٪ فلاحون ١٢٪ موظفون صغار ومستخدمون ١٤٪ حملة شهادات جامعية غالبيتهم من البرجوازية الصغيرة ومن بين هؤلاء ثلاثة يملكون تجارة رأسمالية أو بصورة أدق لعائلاتهم.

جدير بالإشارة أننا استقطبنا خلية من أصول بدوية وبات لها تأثير ملحوظ ظهر جلياً في فاعلياتها الانتفاضية، ونعتقد أنه يمكن الإفادة من هؤلاء في جوانب أخرى ... «فمضاربهم» محاذية للحدود وهم يعرفون المنطقة كما يعرفون أكفهم.

١٧ــــ لا نستطيع التحدث عن التركيب النوعي إلا من ناحية الأجيال: حيث العنصر الشبابي هو العنصر السائد ولا يتعدى الذين تجاوزا الثلاثينات ١١٪ وآحاد فقط في الخمسينات، وتتوزع المنظمة ٦٠٪ ريف ٣٠٪ مدينة وبعض هؤلاء في الجامعة من أصول ريفية، و١٠٪ مخيمات. أما من ناحية التركيب الجنسي فكلهم رفاق، ذلك أن الرفيقات خارج نطاق مسؤوليتنا وإن كنا أسسنا ٥-٦ مواقع جماهيرية للاتحاد إضافة للتنسيق الميداني، ولدينا حفنة أسماء نقترحها لاحقاً

للاتصال من زوجات وأخوات وقريبات رفاق قطعن شوطاً في التثقيف والنشاط الانتفاضي، مع الإشارة للبنية التقليدية في المنطقة لدرجة أن تكون بعض البلدات في الريف أكثر تحرراً اجتماعياً من المدينة بتركيبتها العشائرية – التجارية...

انتفاضياً: كنا نرفع التقارير أولاً بأول وهنا نكثف الآتي:

١) لقد شاركنا في كافة الفعاليات دون استثناء، مئات التظاهرات والصدامات والمتاريس ولجان الحراسة... وبعد تلكؤ وتأخر نسبي لحقت المنطقة بقية المناطق ولم تعد خاملة وساد الإضراب العام تماماً فيما عدا بعض الخروقات من بعض البقالات... يحتالون بفتح باب خلفي... أما العمال فغالبيتهم قاطعوا العمل في المشاريع الإسرائيلية علماً أننا نطلب التقيد بأيام الإضراب فقط... وهناك عدة حافلات تم حرقها...

وهناك مئات «الزجاجات» سواء من رفاق أو أصدقاء، فالظاهرة باتت شعبية، ولكن الفاعل منه قليل، إذ أننا نواجه صعوبة فنية هنا والحيثيات رفعناها سابقاً.

نأسف لاصطفاء رفاق «غير مناسبين» وسوف ندقق أكثر، ولكن تجربتنا على هذا الصعيد فقيرة ولا تقارن بمناطق أخرى أو قوى أخرى... وبعضنا في «قم» أعلن أكثر من مرة استعداده ولكننا لم نحبذ ارتباطاً بالأولويات.

ونستطيع القول إن المنظمة رغم النقص الكادري، خصوصاً وقد تضاعفت عضويتها، على استعداد «للاستغناء» عن بعض الكادرات لأية مهام أخرى.

تثقيفياً: ١) لقد جرى تعميم ومناقشة كل النشريات التي وصلتنا، ولدينا القدرة الفنية للطباعة المحلية للنداءات وسواها.

٣) فيما عدا بعض الرفاق، الذين يناقشون قضايا فكرية وسياسية، فالجميع يقبل على ثقافة الانتفاضة وما يتصل بها، أما المرشحون فيضاف لهم النظام الداخلي ونقاط في البرنامج السياسي٨١... لعلنا في المستقبل نوسع التثقيف الماركسي- اللينيني، ولكننا نلاحظ أن رفاق الأسر يحوزون على تعبئة جيدة على هذا الصعيد وهم يرفدون المنظمة بالطاقات والوعي...

٥) لقد رفعنا بعض المساهمات الكتابية والإخباريات والتجارب ولدينا ٣-٤ ملكات كتابية والرفيق المسؤول تعرفون مستواه وقدراته.

مالياً: ١) لم نواجه اختناقات مالية رغم تزايد المطالب، ونتقيد بالميزانية الشهرية، وإن واجهنا صعوبة مؤقتة نستدين ونسدد لاحقاً.

٣) نسبة التفرغ ٣,٥٪ ونراعي «الحالات الخاصة» بما يلزمها وأزلنا «البلادة» حسب تعبيركم في التعاطي مع «الرفيق»، أما المطاردون ففي زيادة وتكاد تكون ظاهرة فرّختها الانتفاضة، هؤلاء يتدبرون أمورهم وأماكن نومهم في العراء أو لدى بعضهم البعض أو ... ودورنا لا يتعدى المتابعة الحزبية والمساعدة المحدودة، ونمد يد العون أحياناً في حالة المرض أو الإصابة...

٥) لقد تحسن جمع الاشتراكات وأصبح يشمل حوالي ٦٥٪ من العضوية، وهذا تقليد جديد على المنطقة، أما التبرعات فهي نادرة. والرفاق عموماً يغطون من جيوبهم المواصلات وبعض المصاريف ولا يتطرقون لها في تقاريرهم رغم فقر أحوالهم المعيشية... إن منطقتنا أكثر فقراً من سواها...

٧) لم نواجه إخلالات مالية، فالكشوفات واضحة من اللجان ولم نتلق أية انتقادات من أعلى، ونرفع التقرير المالي بانتظام ومعه أحياناً بعض التقارير الفرعية.

١١) لا زلنا متحمسين لإنشاء «مشروع اقتصادي»، ولعلنا نتقدم بتصورنا في لحظة مواتية، ونعلم أن بعض المحاولات لم تكن ناجحة.

...

أمنياً: من البديهيات أن نجمع بين السري ونصف السري والعلني، ولكن ما يغلب على عملنا هو الأول، والغالبية الساحقة من الكادرات بخير بما في ذلك المستوى الأول، ولم نلحظ رصداً له تبعيات، أما الاعتقالات فهي عشوائية والإدانات قليلة، ونثق تماماً بإمكانية صمود المفاصل الأهم تحت أي ظرف، فقد تشرب «الجميع»، بالثقافة الأمنية والموقف الصمودي، والتعبئة بذلك مستمرة. ولا نتخوف من توسيع اللجان الكادرية، فقد أثبتوا أنفسهم في مرحلة المد والتضحيات، والانتماء لديهم لا يسهل كسره، ونعود بين وقت وآخر «لبطولات» «وفلسفة المواجهة» وما يتيسر من هنا وهناك.

وحتى اللحظة يتخلل «الأمن» العمل بمجمله دون لجان تخصصية إلى أن يأتينا ما يخالف ذلك من أعلى.

ومراعاتنا لضوابط العمل السري قطعت الطريق على «اصطياد» تقارير أو مستمسكات، كما استخدام « اللغة المرمزة» وعدم التهاون حيال أية تسريبات داخلية، حيث لاحظنا ثغرتين أو ثلاثاً تمت معالجتها على الفور.

وعدة مرات حصلت «مصادفات» مع الجيش والمستوطنين ولكنهم لم يصلوا لأكثر من تفتيش عابر أو اعتداء جسدي مؤلم سيما الضرب أسفل البطن. أما الرفاق في الميدان فعدد منهم تعرض لهذا الشكل من الضرب.

أخلاقياً: تسري الروح الجماعية بقوة كما الروح التضحوية والإخلاص للوطن، أما مستوى الأداء فهو أقل من متوسط قياساً بتجربة حزبية مجاورة، ونتابع التفاصيل بهدف إتقان العمل أكثر. ولا تخلو الوضعية من أذكياء وموهوبين غير أن مراسهم لم يصقل بعد، ونتوقع أن يتحسن الأداء في الأعوام المقبلة. ولم نصادف تجاوزات سلوكية، وإن سمعنا أن أحد الكادرات في سنوات سابقة قد عنّف وقمع زوجته، وقد فهمنا أن أعلى من عالج الأمر في حينه. ولم يتكرر ذلك، ولا نستبعد أن تخفي العشائرية مظاهر مستورة متخلفة على هذا الصعيد، فالمنطقة معروفة لكم... واجتهاداتنا نرفعها مع تقاريرنا...

....

وختاماً فإننا ننضبط لخط الحزب وقراراته وخططه ونشرياته، وتظللنا وحدة في الأداء والتفكير، وليست لدينا تباينات تذكر أو اجتهادات مخالفة، وبعد هذه السنين الطويلة نزداد التحاماً بالحزب، وسوف نضطلع بدورنا بمزيد من التفاني لخدمة أهدافنا المشتركة...

وإلى عام جديد مفعم بالانتصارات/قم») [٧٠٢]

أما النص الثاني فجاء فيه:

(« الرفاق الأعزاء في «س»، الرفاق الذين يرفعون رأسنا في الخندق الساخن، بما يعيدنا إلى سنوات المجد في أواخر الستينات وأوائل السبعينات، عندما كانت سمعتنا بنقاء ضمائر قيادة تلك المرحلة وحرارة دمائهم التي سفكت في سبيل الوطن والعودة...

لقد أحرزتم في الأعوام الأخيرة قفزه لها تجلياتها العديدة، وبات القاصي والداني يعترف بوجودكم

---

٧٠٢) كادر تنظيمي في الجبهة الشعبية

ودوركم، وجاءت وقفتكم السنوية، علاوة على تقاريركم الفصلية والفرعية، شاهداً على أنكم تسيرون في الاتجاه الصحيح.

ما أجمل أن ينهض ويعلو صرح حزبنا في «س» بعد أن تلقى ضربات مميتة في ٧٣و٨٥، ولولا مثابرتكم ومضيكم على سكة صحيحة، لما أصبح حالنا على ما أصبحنا عليه.

أنتم تعلمون أننا رفدناكم بما أمكن وخففنا عنكم ما أمكن، وحافظنا على علاقة تفاعلية نشطة معكم علاوة على استحقاقات المرجعية، وبصدق لقد أعطيناكم أفضلية في الميزانية بما يفوق حجم المنظمة الحزبية قياساً بمنظمات أخرى...

أن يلحق بكم ويعمل معكم مفصلان أساسيان، هما نتاج سياق تميز بمعايير العمل الحزبي، إنما يشكل ضمانة لتحزيب والارتقاء بعملنا في «س» علاوة على ذلك سجايا أخرى أهمها الصلابة والقدرة على الصمود في الامتحانات الصعبة.

ولن نسهب بالقول إن مسيرة عملنا في «س» على امتداد عقدين ويزيد قد غلب عليها البعد النضالي، وهذه سمة عظيمة في ظروف النضال التحرري، فلسنا يساراً في السويد أو يساراً يفاخر بقوة انجازات الحلفاء، علماً أن القلعة الأهم مرتبكة وقد تفضي سياسات البيروسترويكا لانهيار النظام وتفكيك سبيكة الدولة. بل إن الاستحقاقات المطلوبة منا كبيرة كيما نكون يساراً بحق وحقيقة، وإحدى الاستحقاقات: الكفاءة النضالية والتضحوية الجيفارية. ولكن هذه يمكن أن تتبدد مالم تتجذر شجرتنا ويتغلظ جذعها وتتصلب أغصانها... وبلغة حزبية صريحة، ينبغي تحزيب المنظمة فكرياً/ سياسياً/ تنظيمياً/... وتصليبها أمنياً... وهنا نقاط ضعف المنظمة. وبصراحة فإننا نراهن عليكم وعلى مسؤولكم وعلى الكادرات النابهة المؤدلجة التي تتحرر من الكيس لترميم نقاط الضعف.

لا خوف عليكم نضالياً، فليس ثمة ميول إصلاحية لديكم، ولا خوف عليكم سياسياً، فأنتم متماهون مع الخط العام وتاكتيكات الداخل، وفعلكم الميداني يؤكد دوركم.

وفي سياق تفاعلنا مع وقفتكم نضع أيدينا على منصات الانطلاق المطلوبة. وقبلئذ مفيد التطرق لما يلي:

١) يسعدنا ونرحب بحرارة أن ينبثق من ثنايا «س» من يقود المنظمة، ولكنها تعثرت عامين ولم

تنطلق إلا بعد رفدها بالمفصلين، وهذا ينبغي النظر إليه بإيجابية، فالحزب قام بإسنادكم لتعزيز مسيرتكم، إذ لا يمكن القبول بانطلاق عربات الحزب وتأخر عربتكم، كما أننا حزبيا تجاوزنا الحلقية التي تحصر الاهتمام «بالمحلي» وتتجاهل أو تنظر بحساسية «للكلي». فالجزء هو جزء في كل، وينضبط لنظام الكل مع الاعتراف بالخصائص المحلية، ولا يهمنا أن يقود الكل مسؤول من أبناء المنطقة أو من خارجها، فهو يؤدي وظيفة بما تتطلبه من كفاءات واستجابات ومرتبة. ومنذ عام ٨٣ تجاوزنا الحلقية والحرفية والمناطقية....

٢) حالياً ولبعض الزمن لا نستطيع تحويل المنظمة "ن" و"الجماهيري" إليكم، فهذان المجالان موحدان في الوطن ولهما آلياتهما ومرجعياتهما. ناهيكم عن أن عربتهما دارت بوضوح أكثر واكتسبا بعض الزخم في ظل الآلية الجارية، فلماذا ترتفع بعض الأصوات لديكم، وهذا الموقف نسوقه لها وليس لكم بشكل عام، سيما أنكم جميعاً تعلمون أن ما تقترحونه يضيف أعباءً عليكم، فهل لديكم قدرة وطاقة للاضطلاع بأعباء إضافية حالياً؟ لا نعتقد ذلك... إذ حسبكم دفع وتطوير العربة الحالية، ولن نتردد لحظه واحدة بإحالة أعباء جديدة عليكم إذا توافر الشرط أعلاه أو نشأت أوضاع سياسية، إجراءات احتلالية، تمنعنا من إسنادكم والتخفيف عنكم.

لا يجب النظر للمسألة وكأن "س" إقطاعه خاصة بفلان أوعلان بل هي دائرة حزبية يتعين النهوض بها وبناء دداميكها مهما تطلبت من جهود وإجراءات... ويا حبذا لو يبلغ تركيمكم القيادي والكادري مستوى يسمح "باستقطاع" بعضكم لمهام عامة حزبية ووظيفية، فالبعض منا يعمل أكثر من ١٢ – ١٦ ساعة يومياً بطاقة مفصلين أو ثلاثة أو أربعة ولا يسعده أكثر من توافر شركاء له يخففون عنه ويشكلون ضمانة إضافية. فمن الخطورة بمكان أن تنحصر المهارات والشروط القيادية في فرد أو أفراد، فمثل هؤلاء قد يصابون بمرض أو يتعرضون للاعتقال أو أو... ومن مصلحة الحزب ومستقبله أن يتبلور فريق قيادي. وما أعظم خسارتنا عندما استشهد غسان كنفاني ووديع حداد وجيفارا غزة... فهل استعوضناهم؟ كلا... إذ ليس من السهولة بمكان بلورة فريق قيادي، وإن كنا في التعاميم والمراسلات لا نبخل في استخدام هذا التعبير...

٥) حديث بعضكم عن الجانب "النوعي" إيجابي من ناحية المضمون، والسؤال هل لديهم استعدادات، وهل لديهم إمكانات، أم أن الأمر مجرد "صلاحيات" اسمية. فلهذا الجانب اشتراطات مهنية وثورية، ويا حبذا لو أن "س" تتقدم على هذا الصعيد، ولئن كان لديكم استعدادات وإمكانات جدية، فسوف نرفع الأمر للجهات المعنية لكيما تتابع الأمر معكم ضمن

الترتيبات الملائمة. فثمة فصل تنظيمي على هذا الصعيد، وهذا توجه قديم، كما ثمة مبادرات من جهات محلية.

٦) ثمة حاجة لأن تساهموا في النشريات، وأن تتقدموا بمقترحات وأوراق تتناول العمل بشكل عام والانتفاضة بشكل خاص... وهناك تفكير يدعو لعقد المؤتمر الخامس وإعداد تقاريره، ما رأيكم وما هي تصوراتكم... وهل تظنون أن لديكم إمكانية لإيفاد مندوبين للخارج أو عقد مؤتمر محلي لكم أو المساهمة في مؤتمر في الداخل؟

لا ينبغي تعميم هذا الموضوع فهو خاص بكم.

٩) من المقطوع به أن الشرط الأمني، وبشكل أخص الصمود في الزنازين، هو مدخل تقييم الكادر، ناهيكم عن القيادي، ودون توافر هذا المدخل ليكون محسوماً ووطيداً، لا يمكن الثقة بالمفاصل سيما التنظيمية، ويكفي مفصل واحد مهزوز أو رخو لتدمير بنية مناطقية أو أكثر. ولكن جنباً إلى جنب هناك المعيار العملي أي القدرة التنظيمية وتنفيذ المهام المتنوعة، والمعيار الفكري السياسي والأخلاقي...

وهذا ينطبق عليكم وعلينا وعلى الجميع... لقد كانت خسارتنا مؤلمة عام ٨٥ عندكم، وقد ذهب فيما ذهب المسؤول الأول بمزاياه التنظيمية/ الفكرية/ الأخلاقية المعروفة. فهو منظم جيد، وكان يمكن أن يتطور لولا ذهابه للكيس... وكذا رفاقه البارزين، سيما الذي تعرض لحكم عالٍ والمحامي...

وعار مجلجل أن ينكسر مفصل في الزنازين، فانكساره يمكن أن يجرف تراكمات صنعها المئات والمئات. ونصدقكم القول إنه لولا الصمود في الزنازين منذ عام ٧٨ لما أصبح لدينا قطار هادر، دون إغفال المواقف المخزية لحالات كادرية خانت الشرف الحزبي بل "وطرطشت" بعض الرفاق. وقد اضطررنا لفصل كادر جماهيري هام لأنه أحنى رأسه، ولولا صمود مسؤوله والذين معه لأمكن إلحاق ضرر بقاطرة أو أكثر...

ينبغي التشرب بالموقف الأمني وشرحه للآخرين، أي ينبغي الوقوف أمام هذا الموضوع المفتاحي، وبينكم رفيق متفولذ نحترم صلابته ومسيرته الطويلة في السجون وقد سجل أكثر من مأثره، وعليه دور خاص هنا، لأن المرء، عموماً، يعطي نفسه، فالذي يسجل مأثره صمودية لديه المقدرة لشحن غيره بها دون لجلجة، وكما تعلمون فإن الموقف الصمودي كائن حي ينمو شأن أية ظاهرة أخرى،

إذا حظي بالرعاية والتثقيف ودراسة التجارب الإيجابية والسلبية... يتعين أن تولوا هذا الموضوع ما يستحقه، فأنتم أمام امتحانات من هذا القبيل...

الرفيق المسؤول: النقطة التالية لك (يبدو أنك تواجه صعوبة جزئية مع بعض الرفاق الذين تحرروا من الأكياس، فهم، ربما، لا يهضمون مسؤولاً أصغر سناً، أو لم يكن معهم سنوات طويلة في الكيس، كما أنهم لا يملكون المقدرة الكافية للاستجابة للمهمة التنظيمية، فالمطلوب أكثر من سواه عندكم، في هذه الفترة، هو المنظّم، والتحسبات الأمنية لهؤلاء وانقطاع سياقهم زمناً طويلاً وأعباؤهم الاجتماعية، كلها تعيق حركتهم، ودون دينامية وانفتاح هنا وهناك بغية لملمة الصفوف واصطفاء الكادرات لا يمكن أن تقلع العربة بقوة كافية، بعدئذ تحصل "الضبضبة" أي بعد تبلور الهيئات...

ثمة ميل حلقي لديهم، تجاوزناه منذ وقت طويل في الوطن، وهذا الميل مؤقت كما يبدو لنا، وسوف نلاحقه. فالجسم واحد والقرار واحد والنشرة واحدة والميزانية واحدة... لقد تجاوزت الدولة القومية الممالك والإقطاعات المحلية، وهذه حالنا حزبياً، وهذا إنجاز نوعي تكلل عن سياق تراكمي...

لا بأس، فالرفقاء جيدون ونحترم تاريخهم وتضحياتهم، ومطلوب رحابة الصدر والحوار الهادئ بغية عبور المسافة التي تمكنهم من الاندراج المنسجم مع نظام العمل الحزبي. فالحزبية لا يمكن أن تعود للحرفية والحلقية. كما أن "المطلوب جهاز لتنفيذ سياسة وليس سياسة لإرضاء جهاز" مع الحرص الأمني عليهم. والمفصل المتفولذ أقدر منك على التعاطي معهم بحكم التجربة المشتركة، فقد عاشوا معاً مرارة وبطولة الأسر بما يتوالد عن ذلك من مشاعر وثقة... وفي النهاية هناك قوانين ناظمة... مطلوب منك إنجاز أكبر وصلابة أكبر ودماثة لا يعكرها تباينات جزئية. ومن المهم استخدام تعبير: إن سمحتم ومن فضلكم، ولعل "البواب" يخرج فهو رهان كبير وعمود خيمة أساسي...

ولأنك تمثل الحزب، فغير مسموح بتاتاً إسقاط مشاعرك المنزعجة، والمسموح فقط هو أصول العمل والتفهم والأخلاق الرفاقية وعدم نسيان احترام ومحبة هؤلاء الرفاق الذين أفنوا أعمارهم في النضال والسجون... وبالمناسبة فإن الرفيق المكلف بكتابة هذه الرسالة لكم يعرف بعض هؤلاء معرفة شخصية ويعرف صلابتهم و"فظاظة طباعهم" أيضاً.

والفظاظة والخشونة، وإن وجدت أحياناً، بين صفوفنا، فهما مظهران سلبيان. فالفظاظة والخشونة مع العدو فقط، أما مع الرفاق والجماهير فتعود بنتائج غير مستحبة أو سلبية، وكان لينين قد تحدث مرة عن فظاظة ستالين. أما الذي ترشح إليه بعض خصال الحكيم، فهو يعرف ويتعلم منه الدماثة والرهافة والشفافية وحميمية المشاعر... فالحكيم قدوتنا وقوة مثالنا رغم أن الحكيم عانى الكثير من رفقاء الأمس، تآمرات وانشقاقات وتكتلات... ولكنه لم يحد عن طريق الصواب تحت ضغط الأحداث والتجاوزات وبقي معتصماً في موقع القائد الملهم والإنسان العميق والشغف بما يتجاوز كثيراً المستوى القيادي والأخلاقي للجبهة. علينا أن نكون صورة مصغرة منه مهما تلوث المحيط... قال مرة (علينا أن نكون بمزايا عمر وعلي ومحمد وعيسى).

الآن اسمحوا لنا التطرق لبعض بنود وقفتكم:-

أولاً: انتفاضياً: أنتم ورفاقكم ورفيقاتكم وأنصاركم وعوائلكم في الخط الأمامي مع قوى شعبكم الحية والمناضلة. هذا هو الجوهر والأهم. وحجم فعاليتكم هو أساس تقييمكم وتثميننا لكم، وما يرشح منكم نرفعه للقيادة، ليس بهدف الأرشفة فقط، بل لما هو أبعد من ذلك، أي الوقوف على نشاط حزبنا في «س». لقد انتفضتم وراكمتم وباتت لديكم المقدرة لاحتواء الضربات...

وسوف تستمر النداءات والنشريات والبيانات في التدفق السريع اليكم، في اليوم التالي، وربما قبلئذ. والباقي عليكم. ونظن أن آلياتكم وإمكاناتكم الفنية على هذا الصعيد باتت جيدة بما يكفي لتلبية المتطلبات العملية... وفي وقت سابق قمنا بتصويب «البسملة» فالنداءات سياسية وتصدر على هذا النحو، ولا داعي لترويس النداء بالبسملة، فلسنا في مسجد أو كنسية بصرف النظر عن فلسفتنا حيال المسائل العقيدية والضميرية... لقد أصدرنا بياناً مشتركاً مع «الشيوخ» دون بسملة، ويتضمن في المتن احترام التعددية وحرية الاختيار، إذ علينا أن ننقل الوعي السياسي الفلسطيني إلى مستوى الخطاب السياسي... هل تصدقون أن أحد القادة الفلسطينيين يحلف على أولاده وبشرفه لكيما يقنع الآخرين بصدقيته... وآخر يخاطب شعبنا يا ربعي وثالث يطالب بالبيعة ورابع يوقف الاجتماع كي يمارس طقوس الصلاة، وخامس يلغي اجتماعات لأنه منغمس في مناسك رمضان. .. وسادس تعتذر زوجته عن استقبال «ضيوف» سياسيين لأن زوجها غادر البيت وسيعود بعد ربع ساعة... فهل بهذه العقلية العشائرية - الغيبية سنواجه عقلية رأسمالية عنصرية... وما أكثر تجليات تخلفنا، لو كان الأمر مسألة شخصية أو ضميرية، فلا بأس وكل الاحترام، لو أرادت عائلة أن تعيش في كهف وتقطع صلاتها بالحياة والتعليم... فهذا خيارها،

ولكن المسألة ليست كذلك، إذ أن شعبنا وقضيتنا تدفعان ثمن أي ضعف أو تخلف يتسرب من خلالهما العدو ويفتك بنا... فأحد عوامل نزوح عام ٦٧ هو الشرف، أي شرف النساء، أي الخشية عليهن من اعتداءات الصهاينة، كما أوضح صادق العظم في «النقد الذاتي بعد الهزيمة» وأحد عوامل الهجرة. بل التهجير الجماعي عام ٤٨ أن الناس اعتقدوا، ولبساطة تفكيرهم، بما في ذلك آلاف العوائل الميسورة «والبرجوازية» التي رحلت في شهور ما قبل التطهير العرقي، اعتقدوا أنهم يغادرون الوطن لبعض الوقت ويعودون ثانية، دون وعي حقيقي للمشروع الصهيوني ومخططاته، بل راحوا ينتظرون تطبيق القرار ١٩٤ ظناً منهم أن الأمم المتحدة ستعيد حقوقهم... أي لم يخوضوا معركتهم بأنفسهم، علماً أن العودة تتطلب أن يخوضوا في دمائهم كأحد شروط عودتهم...

وعليه، فالخطاب السياسي يعامل كخطاب سياسي، إننا عقلانيون وعلمانيون، ناهيكم عن أننا يساريون، وهذا تراث فكري للبشرية عمره أكثر من قرن، وإذا أردنا الخوض أكثر فالعقلانية أحد مبادئ الزمن الإغريقي منذ ألفي سنة ويزيد، العقلانية ترفض مرجعية النص ومنطوقه، فهي طليقة، ولا مدعاة لإثبات انجازات العقل الجماعي منذ الثورة الصناعية لليوم... طبعاً إننا نحترم الخيارات الضميرية وحرية المعتقد ولكننا ندعو للفصل بين الخطاب السياسي والخطاب المعتقدي، ولولا ذلك لما تأسست وانطلقت م.ت.ف. ولما أمكن نشوء تقاطعات مع «الشيوخ». دعونا نبحث عن المشتركات ونتفادى الخلافات، أو نتعايش معها. فمنذ زمن قال الشافعي الفلسطيني (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب) لكيما نتفادى الخلافات الفلسفية التي تبعثر الجهود الجماعية، دعونا نتحد مع الآخرين على المشتركات دون تنازل منهم أو منا، كما السعي لرفع مستوى العمل السياسي بدل العودة به للوراء، إلى ثقافة الأولياء الصالحين الذين ينشرون البركة... ولا بد أنكم تعلمون أن الكثير من القرى الفلسطينية قبل النكبة كانت تتفاءل وتتوقع موسماً وفيراً إذا مرّ الحاج أمين الحسيني وهو يعتلي حصانه في حقولهم.... رغم احترامنا الشديد لدوره الوطني، فهو لم يفرّط بالوطن ولم يعترف بإسرائيل ولم يتنازل عن هوية الفلسطينيين وهذا الشيء الطبيعي، أصبح بطولة عظيمة ونحن نصادف قيادات تفرّط أو تبدي رخاوة في التمسك بهذه الثوابت...!

غير معقول تبهيت الفكر السياسي، بالانتقال من «مناهضة الإمبريالية» إلى استجداء الإمبريالية، ومن «تحرير فلسطين» إلى «الاعتراف بإسرائيل»... كما طغيان الشعبوية باللحاق «بالزعيم» دون فحص خطه ونتائج سياسته على القضية بل عدم محاسبته أو مساءلته...

علينا أن نثابر في تطوير العمل السياسي الفلسطيني إلى مستوى رؤية فكرية وبرنامج سياسي

وشروط عضوية وحقوق وواجبات...

وبالتالي، فالتحالفات تقوم على قواسم سياسية مع الحق في التعبير عن القضايا الخلافية والحق في السجال النظري...

ونعود لفعاليتكم الانتفاضية... إن أكثر ما يميز «س» هو التحرك الشعبي بعشرات الآلاف، وهذا البعد يتعلم منه الوطن بأسره، ولكننا نتوقع منكم أن تضعوا بند الفعالية على الطاولة... فالفعالية هي أساس الانتفاضة بل فاعلية البشر هي التي صنعت التاريخ برمته وهذا التعبير أداة تحليلية في الماركسية وتحليلات ماركس... أي أن تقفوا أمام فاعلية الفاعلية، أي البحث في تطويرها، ولو على الصعيد النخبوي، إذ يمكن هزيمة الاحتلال في «س» قبل سواها، فالوجود الاستيطاني محدود، والاكتظاظ السكاني هائل... وكنا منذ زمن قد قرأنا على لسان السادات: إن الحكومة الإسرائيلية عرضت عليه غزة عام ٧٢، وتصريح رابين معروف «أتمنى أن أنام وأصحو وقد غرقت غزة في البحر» أي يمكن أن ينـدحر الاحتلال في غزة إذا وصل الاحتلال لطريق مسدود وتكبد خسائر لا يقوى على احتمالها... طبعاً سوف يبحث عن عوائل وقيادات فلسطينية تخضع لشروط وتدفع له الثمن... ولئلا ينشأ أي التباس، المعركة ضروس ولسنا على أبواب دحر الاحتلال لا من غزة ولا من سواها، بل إن سياسات الاحتلال، حتى اللحظة، تقوم على توسيع الاستيطان الاستعماري... ولكننا مصممون على قهر ودحر الاحتلال واسترداد حقوقنا، في نهاية الأمر، مهما طال الزمن. والآن تاكتيكنا انتفاضي وليس تسووياً ولا يبحر في أوهام «الاستثمار المتسرع للانتفاضة».

وبالمناسبة فإن تقرير فاعلياتكم غير شامل كما يتأخر، وهذه ثغرة يتوجب ردمها، فثمة مواعيد لرفع التقرير الانتفاضي العام للقيادة، وتقريركم جزء منه...

كما عليكم رفع تقارير بعض المناطق...

ثانياً: تنظيمياً:

لقد قطعت العربة شوطاً ملحوظاً، وهذا هو المظهر الرئيس، يتوجب الآتي لتدعيمه والحيلولة دون نكوصه، آخذين بعين الاعتبار أنكم تجاوزتم آثار ضربة ٨٥ وانتشرتم على نحو لم تعرفه التجربة من قبل، بما يشكل أساساً لمداميك جديدة تعلو وتعلو إلى أن تغدو «س» ما يعادل نسبة العامل الديموغرافي في من جهة والدور السياسي المنوط بها من جهة أخرى. ونعترف أننا نكتب ل «س» هذا الكلام، لأول مرة، ذلك أن درجة التركيم قد بلغت مستوى يسمح بمطالبتكم بالمزيد.

فتشديد التطلب خط ثابت في عملنا، (وليس ثمة ما هو أسخف من الرضى عن النفس) لينين، بهذه الروح إنما نحفزكم ونحفز أنفسنا ونحفز العمل بشكل عام،.. إذ علينا جميعنا السير خطوات أبعد مدى على صعيد كمي وكيفي، ومعروفة الجدلية والتواشج بين الكم والكيف.

وبالملموس:

1) من الضروري تكريس جماعية «قد»، وعلى الأقل اجتماع نصف شهري وقرار جماعي في القضايا الرئيسة، وما عدا ذلك يمكن لنواة «قد» أن تتصدى للإحداثيات اليومية وو... والمتابعة ينبغي أن تكون جماعية أيضاً، أي أن يعرض كل عضو في «قد» تقريره، أو ما استجد بين اجتماعين على رفاقه، مع التقيد بداهة بالسرية الداخلية، دون التطرق للأسماء الصريحة... إلخ. إضافة لمتابعات المسؤول الأول... والمتابعة كما تعلمون (جوهر العمل الحزبي) لينين.

وبلا ريب أنكم أحرزتم بعض النجاح هنا، الأمر الذي يقتضي المزيد منه، ولكن دون تقييد المبادرة. (فالكادر يبادر) جيفارا،...

وما قيل عن "قد" ينسحب بدرجة أقوى على اللجان الكادرية الوظيفية. أما المنظمات القاعدية فيتعين إفراد مساحة أوسع للتثقيف السياسي والفكري والأمني... بند ثابت في كل اجتماع أو كل اجتماعين أو تخصيص اجتماع كل أسبوعين...

الثغرة هنا واضحة وهي أكثر اتساعاً من أي موقع حزبي آخر. وكما أشرنا في المقدمة، ثمة غنى في البعد النضالي وفقر في البعد الفكري/ السياسي/ الأمني، وإن كنا نعترف "بجامعة" السجون والتعبئة المثابرة فيها وتخريجها العديد من الكادرات المؤدلجة والواعية. وهذا لا نقوله من وراء مكاتب بيروقراطية بل دماء تتدفق في عروقنا من سنوات الاعتقال.

فالتحزيب عملية شاملة مترابطة ولا يمكن تجزئتها. إذ ثمة فارق بيننا وبين فتح، وسوف تدفع فتح ثمن ذلك طالما أن الفرد يقرر وأغلبية تكتفي بعدد من المقولات السياسية، وسوف ندفع نفس الثمن إذا اعتورنا نفس الخلل... انظروا ما يحدث في الاتحاد السوفييتي فالشعب نائم والتنازع يتم في رأس الحزب أما الحزب فمخدّر...

لا نأتي بجديد إذا قلنا إن الانحراف أو ... في الطريق إذا ارتبط العمل بقائد فرد كفؤ فكرياً وتنظيمياً وسياسياً... بينما الذين معه في الهيئة يبصمون أو يفصلهم عنه "مسافة حضارية" حينها سيرتبط النجاح والإبداع والمهارات العالية بفرد، قد يغيب بفعل الموت أو المرض أو الاعتقال

أو التصفية... وحينها سيدخل القرار والمتابعة وو وفي حيص بيص أخطر ما فيه فقدان السيطرة على فروع الشجرة، والفقر في المتابعة، والضياع دون الامساك بالحلقة المركزية، وفقر الانتاج النظري... الخ وأي خلل من هذه كافٍ لتدمير، نعم تدمير، البنية الحزبية.

لم تتبلور الطبقات في مجتمعنا ولم يتبلور المجتمع المدني، ولو تبلورت لأمكن أن تكون معظم البنية الحزبية في أطر ونقابات وجمعيات وحركات اجتماعية، وحينها لو ضعف التحزيب أو ضعفت القيادة، تستطيع المنظمات الحزبية الناشطة في المجتمع المدني أن تواصل عملها ضمن برامجها ومؤسساتها واتحاداتها، أما والمجتمع المدني في غاية الفقر في "س" علينا تشديد التحزيب والأدلجة وتطوير الشرط القيادي، فالقيادة الكفؤة والدينامية والصلبة وحدها القادرة على السيطرة على نطاق عملها وحمايته وتطويره، وسوى ذلك تبهت الروابط الحزبية ويصبح "كل مين إيده إله" على رأي دريد لحام، فتتبعثر المنظمة وتتفكك كمقدمة لتحللها.

كتب غرامشي عن هذه المسألة، أي علاقة الطليعة بالمجتمع المدني، وكتب عن حرب المواقع في حالة غياب الصراع الجبهي، ولكننا نعيش في فلسطين صراعاً جبهياً عارماً، جمهرة غاضبة ومكافحة، ولكن في إطار مجتمع مدني لم ينفك في بداياته، وفي "س" في بداية البداية، اللهم اتساع قاعدة القوى السياسية. وهذه خصوصية لها ايجابيات وسلبيات، وسلبياتها تتفاقم وتتحول لمعول هدم إذا ارتبكت القيادة أو ضعفت.

على هذا النحو ينبغي النظر للمسألة بما يضع عليكم مسؤولية مضاعفة.

٢) صحيح أنكم تتحدثون عن الانتشار في مواقع جديدة وعن توسع نسبته ٨٠٪، وهذا هو الجانب الأهم، ولكن من الصحيح أيضاً الإشارة إلى أن بعض "الروابط" لم ترفع تقاريرها إليكم، وأن بعض الضباب يعتور هيكليتكم، ناهيكم عن الثغرات في التقارير المالية. ومن الضروري الاستطراد بالقول:

أ- لا مهرب، بل يجب، احكام القبضة على امتدادات المنظمة الحزبية، سواء بالاتصال المباشر والمتابعة أو التقارير أو الوقوف على التفاصيل، وبصورة أدق على جميع هذه الخيوط، وإذا اعتقل مسؤول موقعي، لتقوم اللجنة المحلية بانتخاب بديل له، وإن لم يتوافر، على أحدكم قيادة الموقع... لا يجب استبقاء موقع واحد دون مرجعية.

ب- ينبغي إحصاء العضوية الحزبية بدقة، وتمييزها عن "لمش" وعن الحلقات، فالحلقات في

الوطن مجرد عاطفين بخلاف الخارج حيث ينظر للحلقة كخلية مرشحين...

والشيء المجدي هنا هو تحزيب الحلقات، أي إكسابها الفكر السياسي وضخها بالتقاليد الحزبية، وفيما لو تأخر قليلاً أو لم يتأخر محضها شرف العضوية، فهذا لا ضير فيه... إذ المحتوى هو الأهم أما اللقب فيمكن الحصول عليه لاحقاً.

ينبغي رفع مستوى العضوية الحزبية، ولا يكفي النشاط الميداني رغم أهميته الأكيدة. وهذا تطرقنا له غير مرة سابقاً...

ونقطة سلبية أن لا تكون العضوية الحزبية واضحة في بعض المناطق، فمثل هذا المؤشر إنما يوجب عليكم المزيد من المتابعة وضبط الأوضاع. طبعاً إننا ندرك أن الحديث يدور عن مظهر ثانوي، أما المظهر الرئيس فهو إيجابي.

ج-ذات الشيء يمكن أن نكتبه لكم عن الكشوفات المالية. إذ طالما لا يوجد رقابة حزبية تخصصية، يتعين أن يتكون تقرير كم المالي من التقرير الاجمالي + تقارير المواقع، وهنا ثمة نقص من زاويتين، فمن جهة لم ترفعوا بعض تقارير المواقع، ومن جهة أخرى أشرتم إلى صرف مبالغ لمواقع وكادرات دون تفاصيل...، ٥٠٠ دولار أو ٧٠٠ دولار... هذا نبهنا إليه من قبل...

نعلم كل العلم أنكم كهيئة في صورة المصاريف، ولكن لا مناص من ترميم الثغرات الفنية، فترميمها دليل عافية وسيطرة على الأوضاع.

ونعلم أيضاً أن هموم الانتفاض كبيرة والتفاصيل كثيرة، وأن الإقبال على العضوية واسع، وأن التقاليد الحزبية ليست راسخة تاريخياً في "س"، وهذا كله عامل يساعد على تفهم الأسباب، أما الذي لا يجب تبريره فهو استمرار الأسباب والدفاع عن الأخطاء والهبوط، ولا نظنكم تقبلون ذلك لأنفسكم أو لنا.

وعليه، نتوقع أن ترمم تقاريركم المقبلة الثغرات، وسنلاحقكم على هذا الأساس، وإن كنا نتوقع، ودون أدنى مجاملة، نبصر بوضوح وعمق خط سيركم الصاعد، وتضحياتكم وانجازاتكم...

وأنتم أيضا لا تترددوا في نقد المسؤول المباشر والمرجعيات القيادية إن لاحظتم أي تقصير أو استخار أو خطأ أو أو... لنلاحق بعضنا البعض برفاقية وصدقية وحزم من أجل دفع قاطرة الحزب، بل مجموع قاطراته إلى الأمام وأعلى.

٥) مرة أخرى، يمكنكم التنسيق وضفر الجهود مع الامتدادات الجماهيرية وأية أنشطة لا تخضع لمسؤولياتكم، فمتطلبات الميدان توجب ذلك، والصيغ الانتفاضية تسمح بذلك أيضاً. وعلى الدوام ثمة تناقض جزئي بين المركزي والمحلي وبين الحزبي والجماهيري وبين وبين... فالحياة كلها لجة من التناقضات، ولكن علينا أن نصوغ الآليات الأكثر جدوى وحزبية وأقل تناقضات...

وننظر بتقدير لنشاطكم الإعلامي والسياسي والاجتماعي، بل إن سمعتكم الايجابية تلهج بها ألسنة الآخرين أيضاً.

٧) من الواضح أن مركز ثقل النشاط الانتفاضي والنشاط الحزبي على حد سواء هو المخيمات، وهذه عملية موضوعية وذاتية في آن، ولكن عليكم التوسع واستقطاب عاطفين من "الطبقة الوسطى" وبالتالي النقابات المهنية، فلهؤلاء أهمية سواء بحد ذاتهم أو فيما لو كانوا نشطاء وكادرات حزبية، أي نريد أن نقرأ نسبة أعلى للبرجوازية الصغيرة في المنظمة الحزبية. فهذه الفئة التي اعتبرها لينين "متذبذبة" وماو "حساسة وخطرة" هي في بلادنا قطاع عريض نسبياً، ومن المتوقع أن يتسع أكثر، وهو أكثر بكل تأكيد في أجهزة منظمة التحرير في الخارج، ومن بين ثنايا هذه الفئة تلمع أسماء ثقافية وسياسية ووطنية... وهنا يجب أن نحرز نجاحات أكبر... ولا ينبغي أن يفهم من هذا الموقف أية ميوعة فكرية أو طبقية، بل على هؤلاء أن يتسلحوا برؤية فكرية وطبقية يسارية تثري تجربتنا الحزبية وترفدها بكادرات جديدة. أما المضمون الطبقي للحزب فهو المبرر الأساسي لوجوده، مع التمييز بين الأساس الطبقي والموقف الطبقي. فالأغلبية الساحقة للبرجوازية الصغيرة إنما تنحدر من أوساط شعبية عمالية وفلاحية، وإن أصبحت بحد ذاتها برجوازية صغيرة، أما إن حملت رؤية فكرية يسارية وناضلت بيسالة عمالية، على طريقة رجال الكومونة والبلاشفة والثورة الجزائرية... فحينها تصبح نموذج "المثقف الثوري" ... وهذا هو اتجاه عملنا... ٩- لم تشمل الوقفة بنداً عن الفئات العمرية... وإن كنا نعلم أن الصبغة العامة هي شبابية وما دون الثلاثين... وأن قلة فقط تجاوزت هذا العمر. وهذا يحمل منحيين متناقضين:

أ- إيجابي كشاهد على التوسع في القطاع الشبابي.

ب - سلبي كشاهد على أنكم لم تجترحوا الصيغ الملائمة التي تستوعب الجيل الأقدم، وهم بالمئات وأكثر من ذلك، من الذين عاشوا تجربة الكيس في السبعينات والثمانينات...

يمكن تكليف مفاصل حزبية محترمة ومقنعة، وهذا متوافر لديكم، لمحاورة هؤلاء واستقطابهم سواء على أسس حزبية صرفة تتلاءم مع أعمارهم... أو على أسس انتفاضية وجماهيرية... ونسمع عن رفاق قدامى في لجان الإصلاح، والمؤسسات واللجان الشعبية والتعليم الشعبي... وهذا يمكن توسيعه وتنظيم صفوفه وحسب، أي عدم الاكتفاء بالمبادرات الفردية، فالانتفاضة أيقظت النيام والأموات معاً...

11) أنتم لا يعوزكم التفاعل مع الأحداث والمناسبات والفعل فيها، فهذه السمة بارزة لديكم... ولكن عليكم التفكير بالجانب النوعي... كيف؟ والصعوبة هي كيف؟ كما لا يعوزكم انخراط الجميع في شتى المهام، إذ لا نزعة بيروقراطية لديكم، بل هي غريبة عنكم، ولكن يتوجب الإصغاء أكثر لشكاوى وانتقادات القاعدة والكادر المحلي... فالشكاوي والانتقادات لا خلفية سلبية لهما، إجمالاً، ولا ضير في انتداب كادر "غير معروف" للالتقاء مباشرة بصاحب شكوى هامة، وفي كل الأحوال الرد على الانتقاد بروح متفهمة تشجيعية وتصويب أية عيوب محتملة... (فمن يلغي صوت النقد عضو لم يفصل بعد) لينين، بل علينا تشجيع صوت النقد في كافة المستويات، وانتقادات القاعدة تحمي القيادة عموماً... وهذا ينبغي تشجيعه والتعامل برحابة صدر معه.

وختاماً، نلاحظ تنامي ميل تكفيري وتخويني في "س" إذ ما أسهل اتهام الآخر بالكفر أو بالخيانة، وهذا تفكير نزق وخطير وقد يقود إلى كوارث، مثلما نلاحظ في منطقة أخرى نزعة طائفية بالمبالغة في استخدام الرموز الدينية، وهذا أيضاً خطير وقد يقود إلى كوارث. فتاريخنا الفلسطيني متنوع ومرن وتعود علينا بأضرار كبيرة المبالغة في الطائفية والتخوينية. فشعبنا يحمل على ظهره تلالاً من المشاكل والمعضلات ولا تعوزه التقسيمات الطائفية أو الفكر التكفيري والتخويني... أما نهجنا فيقوم على المواطنة والوطنية، والخلاف السياسي لا يعني بالضرورة خيانة، فما أكثر الخلافات السياسية، أما الخيانة فهي التفريط بالحقوق الوطنية والتعاون مع العدو... وفي مرحلة المد عادةً تحاصر الميول السلبية والتدميرية، أما في مرحلة الجزر فهي تنتعش. ومسيرتنا الوطنية مرت بمراحل مد وجزر وأكبر كارثة هي النكبة والتطهير العرقي عام ٤٨ يليها احتلال عام ٦٧ ومذابح أيلول في الأردن عام ٧٠ وطرد البندقية من بيروت عام ٨٢ وحرب المخيمات... أما أكبر محطتين وأهم فصلين يصطخبان بالأمل والحياة فهما ولادة البندقية عام ٦٧ أو قبلئذ بقليل علماً أن النهوض تم بعد ٦٧ ورداً على ظلام الهزيمة، وفصل الانتفاضة المجيدة التي لا تني تشتعل وتشتد...

وختاماً، في رسالة قادمة سوف نتابع بعض المفردات. ولتبقَ عزائمنا مشدودة وهاماتنا مرفوعة وإلى الأمام... رفاقكم...)[٧٠٣]

أما النص الثالث فهو:

(الرفيق...

......

بدل أن تؤدي برجوازيتنا العربية دورها المفترض في التنمية والمأسسة وتأمين قانون يحترم التعددية وحق التنظيم والإضراب والتظاهر... وبعض المكاسب الاجتماعية، أي ١٠٪ مما أنجزته البرجوازية الأوروبية أو سواها، نراها تتفنن في إقصاء المناخات التي تتيح ممارسة السياسة... والسياسة على صعيد داخلي ينبغي أن تكون صراعاً وتسويات، الأمر الذي يتطلب وجود الآخر والاعتراف به وبحقوقه لكيما يتم الصراع والتسوية معه، أما في بلداننا العربية «فبرجوازيتنا» تتصرف بعقلية زعيم القبيلة الذي على القبيلة الانصياع له أما أي شخص يعارض فمصيره القتل أو الطرد في الصحارى. فأسلحة برجوازيتنا القتل/السجون/التجويع/الاحتواء/التهجير خارج الوطن، حيث غالبية العقول العربية تعيش في المهاجر. وشيء يرقى إلى مستوى اللعنة أن يجد الكثير من الماركسيين في فرنسا والغرب فرصة عمل وحرية تعبير، أي في البلدان التي يناهضونها، فراراً من «ديموقراطية» أنظمتنا العربية ...!!

ليكن جلياً، من منطلق وطني صرف وليس أخلاقياً فقط، أن أي ضعف في أي فصيل وطني هو ضعف لنا وأن أي قوة لأي فصيل وطني هو قوة لنا. إننا طلاب نضال في سبيل الوطن والشعب ولسنا طلاب نزاع وتعالٍ على الآخرين...

أي تناقض مع فتح أو سواها أنما هو حق مشروع، ضمن حرية الاختيار والاستقلال السياسي والفكري، ولكن أيضاً يجب أن يساعد على تطويرنا وتطوير فتح والآخرين. فهذا هو المنطق الديالكتيكي. وفي كثير من الأحيان كانت علاقتنا تحالفية وجيدة مع فتح والآخرين، وإننا نحرص على ذلك، فالجبهة الوطنية قانون أساسي وشرط من شروط الانتصار، ولكنها جبهة قائمة على «برنامج سياسي وطني وقيادة جماعية» كما صرح الحكيم غير مرة...

---

٧٠٣) تقرير داخلي. الجبهة الشعبية. كانون ثانٍ/١٩٩٠

وهنا نواجه معضلة حقيقية... فعرفات فردي يذكي فرديته أن فتح أقوى منا علاوة على صلاحيته التي تشمل فيما تشمل القرار المالي بل الصندوق القومي، وندرة الأصوات التي تعارضه داخل فتح إذا استثنينا الشهيد أبا جهاد وصلاح خلف أحياناً ومن قبل الشهيد أبو علي إياد الذي استشهد ببسالة في أحراش جرش وعجلون...

وبصراحة، إن مخاوفنا، في عد تصاعدي، على الانتفاض الشعبي الكاسح الذي يجتاح الوطن المحتل ٦٧ بطوله وعرضه وكل زاوية وزقاق فيه. إننا نسمع لأول مرة بأسماء عشرات وعشرات القرى، ورغم مبالغات إذاعة القدس، والمبالغة صفة فلسطينية تحاول استعواض والتغلب على ذاكرة الهزيمة التي تراكمت عقوداً وعقوداً، بل إن العرب بمجملهم لم تقم لهم قائمة بعد انهيار العهد العباسي وتفكيك الإمبراطورية، وبعد أن غزونا أوروبا، والذين ينحازون لحق تقرير المصير أمثالنا لا ينحازون لأي غزو مهما كان، قامت أوروبا بغزونا مرة في عهد الفرنجة (الغزو الصليبي) الذي دحر معظمه صلاح الدين، وعاد واستوطن البلاد بعد التنازع بين شقيق وأبناء صلاح الدين إلى درجة أن يستقووا بالأجنبي ضد بعضهم البعض، بل تكرر ذلك في الأندلس في أواخر العهد العربي، ومرة أخرى في العهد العثماني الذي استمر أربعة قرون إذ سيطروا على العرب وزادوهم تخلفاً وجهلاً بعد أن أهملوا التعليم والزراعة، أي العقل الاقتصادي في ذلك الوقت، هذا إذا اعتبرنا تركيا أوروبية، بصرف النظر عن التخريجات الدينية، وأخيراً الاستعمار الأوروبي الحديث الرأسمالي في القرنين التاسع عشر والعشرين وأحد نتائجه الغزو الصهيوني...

مرارة تصل إلى حد نزف الدم من الروح والفؤاد والجسد، أن نخشى على الانتفاضة، من أهل البيت»... هل قرأت كتاب «أهل البيت» لخالد محمد خالد... لقد فرم، نعم فرم، معاوية أبناء علي وعائلته... يا لقباحتنا عندما نشهر السيوف في وجوه بعضنا بعضاً، واليوم نخشى على الانتفاضة من «سيوفنا» ومن رصاص العدو!!

كتب الحكيم مرة «للداخل» بما معناه «لو أبدت القيادة البرجوازية اليمينية مرونة تاكتيكية فهذا يمكن أن نتفهمه ولكن مرونتها تتحول لتنازلات، وهنا الخطورة». وهؤلاء الذين يحجون لتونس بمعرفة الاحتلال ودون أن يمنعهم وبعض المستشارين هم خطر على تفكير عرفات، يغذي هذا الخطر الوفود الأجنبية بنعومة ملمسها وعبارات التضخيم التي تكيلها عليه، وأحياناً تخويفه «السوفييت ينهارون، العراق في الطريق لمتحف التاريخ... الأرمن بددوا... أنقذ نفسك...»

حتى اللحظة، الانتفاضة تحت السيطرة، وهي قادرة على الثبات والاستمرار ولكنها كأية وحدة

وختاماً، في رسالة قادمة سوف نتابع بعض المفردات. ولتبقَ عزائمنا مشدودة وهاماتنا مرفوعة وإلى الأمام... رفاقكم...)[٧٠٣]

أما النص الثالث فهو:

(الرفيق...

.....

بدل أن تؤدي برجوازيتنا العربية دورها المفترض في التنمية والمأسسة وتأمين قانون يحترم التعددية وحق التنظيم والإضراب والتظاهر... وبعض المكاسب الاجتماعية، أي ١٠٪ مما أنجزته البرجوازية الأوروبية أو سواها، نراها تتفنن في إقصاء المناخات التي تتيح ممارسة السياسة... والسياسة على صعيد داخلي ينبغي أن تكون صراعاً وتسويات، الأمر الذي يتطلب وجود الآخر والاعتراف به وبحقوقه لكيما يتم الصراع والتسوية معه، أما في بلداننا العربية «فبرجوازيتنا» تتصرف بعقلية زعيم القبيلة الذي على القبيلة الانصياع له أما أي شخص يعارض فمصيره القتل أو الطرد في الصحارى. فأسلحة برجوازيتنا القتل/السجون/التجويع/الاحتواء/التهجير خارج الوطن، حيث غالبية العقول العربية تعيش في المهاجر. وشيء يرقى إلى مستوى اللعنة أن يجد الكثير من الماركسيين في فرنسا والغرب فرصة عمل وحرية تعبير، أي في البلدان التي يناهضونها، فراراً من «ديموقراطية» أنظمتنا العربية ...!!

ليكن جلياً، من منطلق وطني صرف وليس أخلاقياً فقط، أن أي ضعف في أي فصيل وطني هو ضعف لنا وأن أي قوة لأي فصيل وطني هو قوة لنا. إننا طلاب نضال في سبيل الوطن والشعب ولسنا طلاب نزاع وتعالٍ على الآخرين...

أي تناقض مع فتح أو سواها أنما هو حق مشروع، ضمن حرية الاختيار والاستقلال السياسي والفكري، ولكن أيضاً يجب أن يساعد على تطويرنا وتطوير فتح والآخرين. فهذا هو المنطق الديالكتيكي. وفي كثير من الأحيان كانت علاقتنا تحالفية وجيدة مع فتح والآخرين، وإننا نحرص على ذلك، فالجبهة الوطنية قانون أساسي وشرط من شروط الانتصار، ولكنها جبهة قائمة على «برنامج سياسي وطني وقيادة جماعية» كما صرح الحكيم غير مرة...

---

٧٠٣) تقرير داخلي. الجبهة الشعبية. كانون ثانٍ/ ١٩٩٠

وهنا نواجه معضلة حقيقية... فعرفات فردي يذكي فرديته أن فتح أقوى منا علاوة على صلاحيته التي تشمل فيما تشمل القرار المالي بل الصندوق القومي، وندرة الأصوات التي تعارضه داخل فتح إذا استثنينا الشهيد أبا جهاد وصلاح خلف أحياناً ومن قبل الشهيد أبو علي إياد الذي سقط ببسالة في أحراش جرش وعجلون...

وبصراحة، إن مخاوفنا، في عد تصاعدي، على الانتفاض الشعبي الكاسح الذي يجتاح الوطن المحتل ٦٧ بطوله وعرضه وكل زاوية وزقاق فيه. إننا نسمع لأول مرة بأسماء عشرات وعشرات القرى، ورغم مبالغات إذاعة القدس، والمبالغة صفة فلسطينية تحاول استعواض والتغلب على ذاكرة الهزيمة التي تراكمت عقوداً وعقوداً، بل إن العرب بمجملهم لم تقم لهم قائمة بعد انهيار العهد العباسي وتفكيك الإمبراطورية، وبعد أن غزونا أوروبا، والذين ينحازون لحق تقرير المصير أمثالنا لا ينحازون لأي غزو مهما كان، قامت أوروبا بغزونا مرة في عهد الفرنجة (الغزو الصليبي) الذي دحر معظمه صلاح الدين، وعاد واستوطن البلاد بعد التنازع بين شقيق وأبناء صلاح الدين إلى درجة أن يستقووا بالأجنبي ضد بعضهم البعض، بل تكرر ذلك في الأندلس في أواخر العهد العربي، ومرة أخرى في العهد العثماني الذي استمر أربعة قرون إذ سيطروا على العرب وزادوهم تخلفاً وجهلاً بعد أن أهملوا التعليم والزراعة، أي العقل الاقتصادي في ذلك الوقت، هذا إذا اعتبرنا تركيا أوروبية، بصرف النظر عن التخريجات الدينية، وأخيراً الاستعمار الأوروبي الحديث الرأسمالي في القرنين التاسع عشر والعشرين وأحد نتائجه الغزو الصهيوني...

مرارة تصل إلى حد نزف الدم من الروح والفؤاد والجسد، أن نخشى على الانتفاضة، من أهل البيت»... هل قرأت كتاب «أهل البيت» لخالد محمد خالد... لقد فرم، نعم فرم، معاوية أبناء علي وعائلته... يا لقباحتنا عندما نشهر السيوف في وجوه بعضنا بعضاً، واليوم نخشى على الانتفاضة من «سيوفنا» ومن رصاص العدو!!

كتب الحكيم مرة «للداخل» بما معناه «لو أبدت القيادة البرجوازية اليمينية مرونة تاكتيكية فهذا يمكن أن نتفهمه ولكن مرونتها تتحول لتنازلات، وهنا الخطورة». وهؤلاء الذين يحجون لتونس بمعرفة الاحتلال ودون أن يمنعهم وبعض المستشارين هم خطر على تفكير عرفات، يغذي هذا الخطر الوفود الأجنبية بنعومة ملمسها وعبارات التضخيم التي تكيلها عليه، وأحياناً تخويفه «السوفييت ينهارون، العراق في الطريق لمتحف التاريخ... الأرمن بددوا... أنقذ نفسك...»

حتى اللحظة، الانتفاضة تحت السيطرة، وهي قادرة على الثبات والاستمرار ولكنها كأية وحدة

ديالكتيكية فيها تيارات إيجابية وأخرى سلبية، وتتأثر بعوامل خارجية إيجابية وأخرى سلبية... والصراع يدور هنا... وليس ثمة ضمانة لترسيخها وحمايتها إلا إن أصبحنا قوة أولى في بنيتنا التنظيمية وفعلنا الانتفاضي بما يتطلبه ذلك من شرط قيادي جماعي كفؤ وبناء أدوات نضالية وإمكانية نضالية أفضل... اما الجوانب الأخرى فهي متوافرة، تقريباً، بحدها الأدنى... وهذا مشروعنا للسنوات المقبلة، وسنفرد وقفة خاصة لهذا الشأن في قادم الشهور.

الآن اسمح لنا، التطرق للملموس:

......

نشد على أيديكم بحرارة، ولعل مسيرة العمل تتيح لنا اللقاء الحي)[٧٠٤]

وختاماً، فالانتفاضة أعادت إنتاج نفسها عامي ٨٩ و٩٠، سائرة على السكة التي ترسمتها عام ٨٨... لكن جولات بيكر مهدت لمدريد... ومدريد مهدت لأوسلو وهنا دخلت المسيرة الفلسطينية مرحلة جديدة.

إذ منذ العام الأول للانتفاضة تشكل رأيان في الأوساط القيادية الفلسطينية. رأي يرى بضرورة استثمارها سياسياً قبل انطفاء جذوتها، بما يشي بعدم الرهان على استمرارها وعدم الثقة بطاقات الجماهير، سيما أنها شاعت مقولة أن «الشعب تعب»، الأمر الذي يفسر اندفاع بعض القيادات لتقديم تنازلات سياسية سيما اعتراف رئيس منظمة التحرير بإسرائيل والتخلي عن الكفاح المسلح (الإرهاب) في مؤتمر جنيف ١٩٨٨ والموافقة على مؤتمر دولي... بينما هناك نظرة أخرى ترى في الانتفاضة محطة نوعية بما تستوجبه من إسناد لتوفير عوامل استمرارها لكيما تكون نمط حياة في مواجهة المحتل وأن على الركيزة الخارجية، أي م.ت.ف بفصائلها، واجب جعل الانتفاضة محور عملها لإحراز المزيد من النجاحات وبذلك يتحقق الاستثمار السياسي، وهذا الرأي مثلته قيادة الجبهة وسواها.

وانعقد مدريد في ١٩٩١/١٠/٢٠ بحضور وفود عربية (وفد سوري، وفد أردني/ فلسطيني مشترك، ممثل عن مجلس التعاون الخليجي وآخر عن دول اتحاد المغرب العربي ووفد إسرائيلي تحت رعاية أمريكية – سوفييتية وممثل عن المجموعة الأوروبية ومراقب عن الأمم المتحدة.

---

٧٠٤) رسالة حزبية قيادية رداً على وقفة سنوية / ١٩٩٠

واللاعب الأساسي والمنظم الأول للمؤتمر كان الولايات المتحدة السنيد الاستراتيجي لإسرائيل ووفدها، أما الحضور الفلسطيني فجاء تكيفاً مع المشروع الأمريكي الذي سبقته جولات بيكر ولقاءات واشنطن ووجد جذوره في الدورة ١٩ للمجلس الوطني ١٩٨٨ التي خصّت اعترافاً بالقرارين ٢٤٢، ٣٣٨ ومن هنا قالت الجبهة الشعبية في الداخل «سيؤدي مدريد إلى استبدال برنامج الاجماع الوطني ببرنامج حكم ذاتي تحت السيادة الإسرائيلية» «دون الحصول على حد أدنى من الأهداف الوطنية» وبما يؤدي إلى «العصف بالانتفاضة وتبديدها وتبديد تضحياتها»، وبالفعل شهدت القوى المنتفضة توترات وانقسامات فور انعقاد مدريد...

(وكانت أيضاً المخابرات الإسرائيلية تحفر مستفيدة من بعض التسريبات وربما الخروقات التي تناثرت هنا وهناك... فتلقينا ضربات مؤلمة عامي ٩٢- ٩٣ كان لها أبعد الأثر في السنوات التالية على بنيتنا ودورنا ومستقبلنا). [٧٠٥]

(ولمزيد من التفاصيل أنظر الملحق رقم ٦ والملحق رقم ٧)

---

٧٠٥) مفصل تنظيمي

خاتمة... استخلاصات

أولاً: كأية ظاهرة سيسيولوجية لا يمكن اختزال نشوء الجبهة الشعبية واشتداد ساعدها، أو تفككها وتهميش دورها، وما بين هاتين المرحلتين من محاولات نهوض وتصفية، إلى عامل واحد، ولكن سياق الأطروحة جاء مصداقاً لكلمات أمينها العام جورج حبش (الحزب قيادته أولاً) وكلمات الرفيق جورج حاوي (الأخطاء الكبرى ليست أخطاء العناصر القاعدية والكادرات الوسيطة بل أخطاء القيادات)، وما ذهبت إليه رسالة قيادية للجبهة «بتوقف النجاح أو الإخفاق أولاً على هيئة الأركان، شأن أي جيش ثوري، فالذي يبنيه أو يهزمه هيئة الأركان أولاً، موهبتها، بصيرتها، كفاءتها، متابعتها، صلابتها، تعاطيها مع المصاعب، فهم الوضع الراهن، خطط عملها، معالجة التناقضات... فهي الطبيب، دواؤها يعالج أو يقتل المريض». وبالتالي فهي التي تستخرج السبل والوسائل الملائمة أو غير الملائمة في التعاطي مع الظروف الموضوعية.

ومحايثة ملموس الجبهة، في الوطن المحتل، مراحلها ومحطاتها وتجاربها، كما عرض النص، بالعبور من الظاهر إلى الباطن وترابط مكوناته، سواء محاولات البناء المتعثرة، وتغليب المظهر الفدائي حيناً، والمظهر «السياسي» حينا آخر، والانتفاض حينا ثالثاً، أو المزج بينها في مقاربة لمنظور ماركس «الممارسة تشمل كافة أشكال النشاط الاجتماعي»، و«الوحدة بين النظرية والممارسة»، في المرحلة الحلقية وكبواتها أو المرحلة الحزبية وتراكماتها، وما تخلل ذلك من أعمال ميدانية وأنشطة متنوعة، وأبعاد ثقافية وأيديولوجية وضربات اعتقالية تصفوية أو صمود بطولي في الزنازين وما نتج عن ذلك من استشهادات وتشوهات، إنما تقطع بالقول إن الشرط القيادي هو العامل الأول، في مسيرة الجبهة، وإن حضرت دائماً العوامل الأخرى المتصلة بالظروف الموضوعية المجافية: عامل ديموغرافي محدود، عدم تبلور البنية الطبقية، طبوغرافية تفتقد للجبال المستعصية والغابات، جغرافية ضيقة ومجزأة، ناهيكم عن احتلال تكنولوجي عنصري متقدم وجهاز أمن شرس إلى حد ارتكاب الاغتيال المأسس وعدم الاعتراف باتفاقية مناهضة التعذيب فأورث العديد من الأسرى الفلسطينيين عاهات دائمة...

في سنوات الاحتلال الأولى بعد ٦٧ تسللت عشرات الدوريات الفدائية وعشرات الكادرات القيادية، بما تحمله من عتاد، للوطن، وهذا ترك أثراً ايجابياً، على الداخل. ولكن ذبح «الثورة» في الأردن / أيلول ٧٠ وسكوت المدافع على الجهة المصرية اتصالاً بمشروع روجرز خلق بيئة مجافية زادت من مصاعب النضال في الوطن المحتل.

رغم ذلك لم تتوقف محاولات البناء والكفاح في الداخل.

إن انتقال البندقية الفلسطينية إلى لبنان، بما يشبه قاعدة ارتكاز، قد حافظ على الإسقاطات التحريضية على الداخل، وحرب ٨٢ واقتلاع معظم البندقية وتشتيتها، والاقتتال الفلسطيني - الفلسطيني في البقاع والبداوي... وزيارة عرفات للقاهرة وما نتج عنها من تباينات فلسطينية، لم يحل دون صعود الجبهة في الوطن المحتل وتحولها لقوة بارزة، ولم يكسر هاماتها الهجمة المسعورة عام ٨٥ واعتقال المئات. فالصمود القيادي في الزنازين، استمراراً للنجاح في عملية البناء، صان التجربة.

وعليه، يجوز القول إن العامل الذاتي، وفي المقدمة القيادي، قد نجح في الميدان والزنازين على حد سواء، رغم مجافاة الظرف الموضوعي مستفيداً من تجارب الجبهة السابقة.

ومتن الدراسة يستند إلى ما يكفي من معطيات وأرقام تكشف بجلاء دينامية الجبهة في الأرض المحتلة، واحرازها المزيد من التراكمات عشية الانتفاضة الكانونية والقفزات في سنواتها، رغم الزلزال الذي اكتسح الاتحاد السوفييتي وأفضى لتفكيك سبيكة الدولة وارتداد نظامها، ورغم انعقاد مدريد، إذ استمرت الجبهة قوة منظمة منتفضة، من أعلى إلى أدنى، إلى أن جاءت الاعتقالات القيادية، التي نتج عنها فيما نتج، تقهقر الشرط القيادي الذي بات لا يقوى على حمل جسم كبير، سيما أن ظاهرة المستخفين المحترفين الثوريين لم تتواصل، وهي الركن الركين في بناء وجود الجبهة وحماية شرطها القيادي وما يضطلع به من دور، «فالقيادة السرية التي يعجز الاحتلال عن اعتقالها سواء عاشت الاستخفاء أو لا يطالها سيف الاعتقال هي الشرط الأول لسنوات التركيم والنجاح» كما لخّص مفصل تنظيمي، فتوالدت بيئة تفاقمت فيها عوامل الأزمة الداخلية التي تنامت طرداً مع ترسخ مرحلة أوسلو.

وهذا الاستخلاص يزكي ما ذهب إليه الدكتور جورج حبش (علينا أن نرى التناقضات الداخلية، قبل أن نرى العوامل الخارجية، هذا قانون في التناقضات) «أزمة الثورة الفلسطينية ٨٣/١/٣١»، وكلمات ماو (إن جيشين يلتحمان في معركة فينتصر أحدهما وينهزم الآخر لأسباب باطنية، أحدهما ينتصر بسبب قوته وبسبب قيادته الصحيحة، وينهزم الآخر بسبب ضعفه وأخطاء قيادته، فالأسباب الخارجية تفعل فعلها عن طريق الأسباب الباطنية).

واستطراداً يمكن التذكير، وحسب، بصمود التجربة الكوبية بقيادة فيدل، التي خرجت من

عنق الزجاجة بعد سنوات عجاف، وهبوب رياح المد اليساري في معظم القارة اللاتينية رغم العولمة المتأمركة!! واشتداد ساعد المقاومة العراقية الباسلة التي توشك معها جيوش الاحتلال على جرجرة ذيول الهزيمة والفرار من أرض المعركة، بل نشاهد روايات نجاح فلسطينية محلية رغم تفشي السواد في معظم اللوحة الوطنية.

ثانياً: على امتداد ربع قرن لم تفتر عزيمة الجبهة الشعبية، في الوطن المحتل، شأن الفصائل الأخرى، كما أبطال الإغريق، تجشمت أعباء البدايات وسحر الأسئلة وشرف الإجابة النظرية والعملية عليها، ضمن مستواها، في براكسيس متشعب أرسى دعائمها وأرست دعائمه، كجدلية متبادلة بين الذاتي والموضوعي، بما تركته من بصمات على النضال التحرري والوعي الاجتماعي.

فهي لم تكن مجرد سحابة صيف، أو فقاعة صابونية، بل غيمة مدرارة هطلت زخاتها على امتداد ربع قرن، بل دفعت ثمن ذلك تضحيات جدية ناهزت ٤٠٠ شهيد و٣٠٠٠ جريح وأكثر من ١٥ ألف سجين سياسي، غالبيتهم تكرس اعتقاله مرات وهناك المئات أمضوا أكثر من عشرة أعوام.

وقد برز هناك من تجشم تعليق الجرس في كل محطة أو تجربة او مرحلة أو توجه أو ميدان، من الكادرات أو القيادات، وليس نادراً أن تكون المبادرة او القيادة، فردية، وقد طبع هؤلاء المبادرون بسجاياهم الفكرية/ التنظيمية/ السياسية/ القتالية/ الأمنية ومزاياهم ومهاراتهم مواقع عملهم، مع التفاوت الأكيد في هذه السجايا، والعمر المتفاوت لكل محطة أو مرحلة، وطابع كل نشاط وتوجه.

ورغم التقطعات التنظيمية الناتجة عن الاستشهادات أو الضربات الاعتقالية التصفوية، كان ثمة تواشج وتناسل، وخيط مضمر ناظم للكلية التي مثلها سياق الجبهة في الداخل.

والمتن جلي بما فيه الكفاية، للقول، إن سلسلة الضربات الاعتقالية، التي لم تتوقف، قد ألحقت الضرر الأكبر بالجبهة، وأن ما قرر حجم الضربات، هو عامل الصمود أو الانكسار في الزنازين. وأن الجبهة لم تتعلم الصمود القيادي الجماعي، والكادري الجارف، والقاعدي الواسع إلا في المرحلة الحزبية، وما قبلئذ كان الصمود نخبوياً وافرادياً ومحدوداً. ومثل هذا الصمود في المرحلة الحزبية كان شارطاً ومشروطاً، فقد وفّر المساحة المعقولة للتراكم الكمي والنوعي، رغم النواقص الممضة والفقر وعدم النضوج هنا وهناك.

ففي المنطق الديالكتيكي كل ماهية تتكون من أ + ب أي أنها تتكون من عناصر يتغلب عليها الايجاب ومن عناصر يتغلب عليها السلب، ولكيما تلد ج الأكثر تطوراً يجب أن تتراكم الصفات

الايجابية وتتغلب، أما إن حصل العكس فتكون الولادة ارتدادية... وهذا يفسر التحولات سلباً وإيجاباً على أية ظاهرة أو ماهية.

ويمكن القول إن عقد الثمانينات وسنوات الانتفاض الشعبي قد أتاحا للمنطق الديالكتيكي أن يمضي بعربته، وبشكل أخص الصمود في الزنازين الذي أفضى لحماية التركيم والزيادة عليه، وبالتالي أخفقت ظاهرة تهدم البناء والعودة به إلى المدماك الأول، تأكيداً على امتلاك أحد أهم شروط العمل السري.

إن البنية الحزبية، شأن الوعي والصمود والصلابة... كائن حيوي ينمو، بدأ بسيطاً وتعقد وتطور بتدرج في غمرة المسيرة، إلى أن بلغت الجبهة شأناً أعطاها في استطلاع عام ٩٢ أكثر من ٢١٪ من الخارطة السياسية ومثل هذه النسبة وأكثر قليلاً في الحركة الأسيرة، وقاعدة منظمة ناهزت ٢٥ ألفاً حسب المتن وأكثر تيار محيط، وقدرة على تأدية المهام الانتفاضية المتنوعة وبعض التخصصات، وهذا لم يكن ممكناً لولا تمتعها بشرط قيادي تتوافر فيه مقومات الحد الأدنى من القدرات والبراعة، وربما أكثر من ذلك، فالمسألة تتلخص بمفردة واحدة، القدرة: القدرة على البناء، القدرة على حماية البناء، القدرة على تفعيل البناء، القدرة على الانخراط الواسع في الانتفاض، القدرة على انتاج الفكر ووسائل الإعلام... الخ من المؤشرات التي يشي بها متن الدراسة.

وهذا كله يقطع بالقول، إن الجبهة جزء صميمي ورئيس في الحركة الوطنية الفلسطينية، وأنها ليست مجرد عابر سبيل، بما يرد بحزم على المشككين بمبررات وجودها، وهي الماركسية – اللينينية في مجتمع تقليدي تتفشى فيه المنظورات الجبرية. وإن كانت الطبقة العاملة «طبقة في ذاتها وليس طبقة لذاتها» ماركس، بما تركته الجبهة من تأثيرات للانتقال لطبقة لذاتها والأمر ينسحب على مقولة غرامشي «الكتلة التاريخية التقدمية»... وما أدته الجبهة من دور تنظيمي وتعبوي.

ولكن الكتاب أيضاً، في المتن والملاحق، تقوّل بعبارات حاسمة لا التباس أو ميوعة فيها، ويتجلى هذا في أماكن عديدة وتمظهرات عديدة، بأن الجبهة في الأرض المحتلة بحاجة لبضعة أعوام أخرى لكيما يرتقي شرطها القيادي الجماعي وبنيتها وإمكاناتها، وهي تشدد على ضرورة حماية هذا الشرط، وفي القلب منه إرادة الاستخفاء، بصرف النظر عن الشخوص، غير أن الاضطراب حصل لاحقاً، تلاه عدم إبداع في اجتراح الأشكال والترتيبات التنظيمية الملائمة بعد استنزاف الشرط القيادي!

ولا يعني بحال من الأحوال أن التاريخ تجاوز الجبهة الشعبية ولفظها، رغم أزمتها وتفككها، إذ حيثما يممنا النظر نعثر على كادرات ونشطاء وأفكار منثورة في كل مكان، كانت على صلة بالجبهة، الجبهة التي نشطوا فيها ويتمنون عودتها وليس الجبهة بوضعيتها الراهنة. ومثل هذا الحضور في المجتمع وثقافته إنما يؤكد على ان التاريخ لم يسدل الستار على الجبهة ورؤيتها بعد، ذلك أن الجبهة أوسع بكثير من وضعيتها الراهنة. إنها تاريخ نضالي مديد، ورموز كبيرة تحوز على احترام في الذاكرة الشعبية، وأفكار عقلانية وحداثية منتشرة، وخبر ودروس مطرزة في عقول وافئدة الكثيرين... «إنها أمام امتحان النهوض أو الانطفاء».

لننظر إلى تجربة حزب الله، ألم تتكئ على مقولات وخبرات التجربة الفلسطينية واللبنانية، فتح والشعبية والشيوعي اللبناني... بل إنها أتت نفياً ارتقائياً في كثير من الجوانب... ولننظر إلى قطاع غزة المحاصر ولكن المشحون بروح الصمود والمقاومة، شعباً وقوى، إلا يشكل امتداداً للنهج المقاوم، بصرف النظر عن التفاصيل، ولننظر لمشروع تشافيز في القارة اللاتينية، ألا يرتبط بصلات وثيقة بالتجربة الاشتراكية العالمية رغم انهيار النموذج السوفييتي...

فما يتراكم في التاريخ لا يمكن هدمه بالكامل.

ولكن يمكن الإضافة، أيضاً، أن الجبهة براهنيتها وإرث الأمس أمام امتحان الوجود، فإما أن يتحد ذلك في مبادرة قيادية كفؤة تنهض بها من جديد كبنية وازنة لها دور حقيقي تنأى عن التطرفين (السرية المنغلقة والعلنية المنفلتة) «فالصوابية بين تطرفين» أرسطو، بحيث تكون قادرة على الاضطلاع بوظيفتها التاريخية التحررية والطبقية والتنويرية أو أن يطويها النسيان، لزمن غير قصير. فالبشر في نهاية الأمر يصنعون مستقبلهم.

<u>ثالثاً:</u> سياق الأطروحة يحايث سمات الجبهة وتحولاتها، ولكن الجبهة كمظهر رئيس، تميزت بالتعاضد الداخلي والروح الجماعية وفخر الانتماء الذي يتقدم على أي انتماء آخر، فقد جسدت الحداثة، إجمالاً، تجاوزاً للعائلية والعشائرية والطائفية، يحفزها حلم موجه لبناء حزب ثوري ودفع استحقاقات ذلك عن طيب خاطر، أحد مظاهره، أن تعتقل غالبية عضويتها مرة ومرات نضال – اعتقال – نضال... وقد عبأت بالخط السياسي التحرري وبالخط الفكري الماركسي على حدٍ سواء، أو بصورة أدق بالخط الماركسي – القومي. وكانت الأدلجة في السجون أعمق وأبعد مدى، وهذا أفضى لرفع مستوى وعي الأعضاء والعاطفين والمحيطين، كما أصدار مطبوعات ووسائل إعلامية ودراسات عديدة، ناهيكم عن تكون قبضة من المثقفين والكتاب والمبدعين، جاء

النص على ذكرهم...

ورغم الفقر المالي للجبهة، غير أنها ابتكرت وسائل تقشفية وإجراءات عملية حالت دون وصولها لاختناقات مالية. وكان ذلك سلاحاً ذا حدين، فمن جهة تفادت الإفساد المالي الذي هو المصدر الأول للفساد السياسي في فلسطين، ومن جهة اخرى وضعت كوابح على تحقيق المزيد من التقدم كما تزايدت حرمانات فريقها المتفرغ.

كان يتطلب ذلك بداهة، سياسة استثمارية واضحة كما إسناداً أوسع من مركز الجبهة للداخل سيما أن الداخل غدا الجناح الأقوى والساحة الأساسية.

والجبهة وإن كان توصيفها في النظام الداخلي أنها حزب سياسي – مقاتل، واعتقل الآلاف منها على خلفية المقاومة المسلحة، سواء تخطيطاً أو تنفيذاً أو إسناداً، غير أن الأغلبية الساحقة منها لم تشارك بأعمال تدريبية قتالية. فالجبهة في المحصلة بنية نضالية وانتفاضية أكثر منها بنية فدائية.

والأمر نفسه يقال عن اسلوب وجودها، فهي وإن اعتمدت الخط نصف السري منذ البدايات، واشتد ساعده في الثمانينات وأصبح يشمل غالبية القاعدة المنظمة، غير أنها اعتمدت أولاً قواعد العمل السري، بل قاد السري نصف السري، وتولى البنية أهم المفاصل السرية الذين دأبوا سنوات على قيادة العمل قبل اعتقالهم أو استشهادهم.

وقد اعتمدت مسيرة الداخل على نفسها من الناحية التنظيمية. وفيما عدا الرفد القوي في السنوات الأولى بعد ٦٧، وضع القدر التاريخي البنائين في امتحان صعب، أن يحملوا صليبهم على ظهورهم بقطع النظر عن مستواهم، وقد حاولوا وأخفقوا وحاولوا وأخفقوا، مرات لا تحصى، ومن بينها محاولات هامة كتبت سطوراً في تاريخ الجبهة إلى أن توافرت شروط النجاح والاستمرار.

والاخفاق وعدم الاستمرارية كان سببه الحاسم عدم الصمود في الزنازين. ومرات عدة اخترقت مخابرات العدو أوساط الجبهة في الخارج ممن لهم اتصال بالداخل كما امتدادات الجبهة في الداخل، من مختلف المستويات، الأمر الذي تحول لطعنة في الظهر وكان سبباً مباشراً في الاعتقال حيناً، وإضعاف البعض في الزنازين حيناً آخر.

فالجبهة وإن أحرزت نجاحات أمنية وتعبئة أمنية وتجربة صمودية متميزة غير انها دفعت ثمن

اختراقها وانهيار كوادرها الكثير أيضاً.

رابعاً: لقد عكست الأطروحة صيغة من صيغ التنظيم الثوري السري، صيغة وطنية تحررية بمضامين طبقية وفكرية تقدمية اعتمدت على نفسها بشكل أساسي واستفادت من تجارب الكثير من الحركات الثورية أيضاً، وقد تمتعت بقدر من الصلابة وقدرة على الاستمرار ربع قرن ويزيد، رغم تقطع سياقها، وكانت على علاقة تعاون أو تحالف مع القوى المناضلة في الوطن والسجون، فهل ما برح هذا النوذج حاجة وطنية؟

أجابت الأطروحة من خلال مئات الصفحات أن هذا النموذج ما برح يحتفظ براهنيته. ولأن «بناء الحزب الثوري هو المسألة الأصعب»، فالحياة سوف تجيب عمّا إذا كان ثمة قدرة ذاتية للاستجابة لهذه الحاجة الموضوعية، استجابة تتمثل المتغيرات «لأن التعاسة في السياسة هي عدم تمثل المتغيرات» بما تستوجبه المتغيرات من تجديد وتعديل وتطوير وإبداع. فنموذج الأمس تفكك وتهمش في أوسلو، وهذه حقيقة تفرض استخلاص الدروس.

وثمة، جوهر مشترك، بين النموذج أعلاه والمقاومة اللبنانية التي قاتلت وصمدت في لبنان عام ٢٠٠٦ والمقاومة الفلسطينية التي صمدت وقاومت عدوان ٢٠٠٩. من زاوية التنظيم السري، بل إن هذا الصمود خلق درجة من درجات الردع إذ لم تعد صالحة الطرفة الإسرائيلية «إذا أردت أن تشعل حرباً مع العرب تسلح بالورود».

فما يتيح ويزكي النموذج أعلاه، هو توافر الشرط القيادي والجهوزية العالية، وما يتصل بذلك من رؤية فكرية عصرية، تتجاوز العشائرية والطائفية وثقافة القرون الوسطى وتتسلح بالعقل الطليق والإرث الثوري، في انحياز برنامجي صريح للطبقات الشعبية والرؤية التنموية الإنتاجية والشاملة وفهم الملموس والاستجابة للتناقضات بما تمليه من أدوات ومهمات.

والديماغوجية التضليلية غير قادرة على حجب الحقائق، فالخيار التفاوضي قد فشل باعتراف رموزه، ولم يتحقق لا «حكومة ذاتية أعلى من حكم ذاتي وأقل من دولة» حسب بيكر، ولا حكم ذاتي للفلسطينيين حسب كامب ديفيد السادات، فالجدار التوسعي العنصري يشارف على النهاية، والأغوار تم وضع اليد عليها والقدس تهوّد بوتائر سريعة، والمستعمرات تنمو بوتائر قافزة... وفلسطين تستباح شعباً، أرضاً، كرامة، أمناً... ودينامية تفكيكية تنهش الشعب...

وبالتالي فالتناقض التناحري على حاله، بين المشروع التحرري الوطني والسياسة العنصرية

الهجومية الإسرائيلية، بل إن أوضاع شعبنا اليوم، هي أسوأ مما كانت عليه قبل عقود، من ناحية ما تبقى من أرض في الأيدي الفلسطينية، ومستوى البطالة التي ناهزت ٣٠٪ والفقر الذي ناهز ٦٠٪ ناهيكم عن الانقسامات الفئوية والتنازع على منافع سلطة دون سيادة وبث روح الكراهية والعداء والتخوين والتكفير التي يسهل معها الضغط على الزناد،... اما حكومة نتنياهو الأشد تطرفاً فهي تطالب الفلسطيني بالاعتراف بيهودية دولة إسرائيل بما يهدد ١,٣ مليون فلسطيني بالتطهير العرقي، ناهيكم عن اجماع صهيوني يرفض حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم التي شرّدوا منها عام ٤٨.

وعليه تجاهر هذه الرسالة بتوصية صريحة للقوى الوطنية الفلسطينية، أن تقبض بثبات على نموذج المقاومة، التنظيم الثوري السري، فالصراع مديد وتاريخي، بل إن التراخي في هذا الدرس إنما ينطوي على تجريد الشعب الفلسطيني من أهم أسلحته النضالية، ويخلق مناخات مواتية لصعود قوى اجتماعية متساوقة أكثر مع الشروط الإسرائيلية أمنياً وسياسياً... الخ

وختاماً، فإن الأطروحة تحمل أبعاداً تاريخية حينا وتحليلية ونقدية حيناً آخر، وسردية وتعريفية حيناً ثالثاً، كما اشتمل السياق على إجابة عن إشكالية الدراسة. وهذا لم يكن ممكناً لولا الاتكاء على شذرات من الفكر الخلدوني والرشدي وصولاً إلى المادية التاريخية الماركسية، وكذا سلسلة المقابلات التي ناهزت ٤٠ مقابلة بما أضاءته من زوايا (فأهل مكة ادرى بشعابها)، وكذا التعميمات والمراسلات في ثبت الملاحق التي تتكامل بنيوياً مع الرسالة وتدلل على مناخات الجبهة ومعالجات قيادتها بما يضيء بصورة حية جوانب تنظيمية وفكرية وسياسية عديدة.

والأطروحة التي عرّجت بايجاز على بعض العناوين، من طراز:

١) التجربة الفدائية للجبهة. ٢. التجربة الثقافية والفكرية للجبهة وما أضافته على هذا الصعيد.

٣. العلاقات الوطنية وجدليتها. ٤. التجربة الأسيرة.

إنها كلها تستأهل رسائل متخصصة.

وأخيراً، لعل هذه الدراسة تحفز أقلاماً كفؤة من كل الاتجاهات للحرث في حقول تجارب الفصائل الفلسطينية الأخرى. فالتاريخ الذي لا يكتب قد ينسى.

الـمـلاحـق

- الملحق رقم ١ -

تعميم / ١٩٨١

طائفة مواقف فكرية / سياسية / أخلاقية

أجوبة عن أسئلة

سؤال/ الأخلاق: إنها مفهوم أشمل من الجنس (أخلاقياتنا ليست كأخلاقيات البرجوازية وهي تخضع للصراع الطبقي) كاسترو، من خلال انتمائنا الجذري للوطن والذود عنه بالدم والروح وكل ما نملك «الوطن أو الموت»، فإما تحرير فلسطين أو النار جيلاً بعد جيل، وبكلمات الشهيد عبد القادر الحسيني (سيظل شعب فلسطين يناضل جيلاً بعد جيل إلى أن تتحرر فلسطين). والفرح الحقيقي والحلم الحقيقي أن نرى وطننا محرراً، ودون ذلك فالحزن يجللنا، الحداد يكسونا، المرارة تفترسنا، وأي فرح لحظي، وأي انتعاش إنما نستخدمهما من أجل النضال فـ (السعادة في النضال) ماركس، النضال بأعلى قدر من الصدقية، و(لا يهمني أين ومتى أموت، فالمهم أن لا يعيش العالم على رفات البائسين) جيفارا، وجيفارا قوة مثالنا، والحكيم وعبد الله النديم ويوحنا المعمدان الذي تحدى العهد الروماني، أربعين سنة طريداً في الأغوار، ومحمد الأسود (جيفارا غزة) الذي قاد التنظيم في زمانه وحظي باحترام شعبي عارم وآثر الاستشهاد على مغادرة الوطن... ولينين مؤسس وقائد الحزب الثوري الذي صمم على إطاحة النظام وإرساء بدايات الاشتراكية... أي نفس المهام الكبرى الثلاث التي تواجهها الأمة العربية: الحزب الثوري القادر على إطاحة النظام وتوحيد الأمة وبناء التنمية والاشتراكية، وأبو ذر الغفاري الثوري المتقشف الذي رفض رشوة الحكم... هؤلاء الصادقون... الصدق في القول والعمل فأرذل القيم الكذب... فالعضو الحزبي كبطن الكف واضح صريح لا يخفي شيئاً على الحزب، ينأى عن المبالغة والغمغمة وتعويم الكلام، (فالصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال بالأفعال) لينين... الصدق في العمل، الدقة في العمل، الإنجازية في العمل، الإخلاص في العمل... فالعمل البشري هو الذي أنتج الحضارة الإنسانية... وسلسلة الأعمال هي التي أرست مداميك حزبنا، عمل تنظيمي، عمل فكري، عمل ميداني، وعمل في صفوف الجماهير... بما يصاحب ذلك من تفانٍ وتضحيات... فالتضحوية ركن ركين في أخلاقياتنا... تضحوية لتحرير الوطن وتحرير الشعب وتحرير الفقراء والعمال والمرأة والتخلص من شتى أشكال الاستغلال والاضطهاد... إننا ضد كل (صور الاستغلال والاضطهاد) لينين، الاضطهاد القومي، واضطهاد النساء والاضطهاد الديني، واستغلال الرأسمالية للعمال والطبقات الشعبية واستغلال الضعفاء والصعود على حسابهم... إننا نصطف بجانب المقهورين، وفي المقدمة شعبنا المقتلع من وطنه وأمتنا المجزأة المنهوبة وكل المقهورين في العالم... ونجسد ذلك في رؤيتنا الفكرية – السياسية وعلاقات حزبنا التي تشمل عشرات وعشرات الحركات الثورية في العالم،

العديد منها يتلقى مساعدات لوجستية وتدريبية وأحياناً مالية بسيطة بما يتلاءم مع محدودية إمكاناتنا، ومع العشرات من النظم الوطنية والاشتراكية والثورية.

... تنطلق أخلاقياتنا من الجماعة وفي سبيل الجماعة، فالجماهير صانعة التاريخ، وشعبنا جماعة وطنية وحزبنا جماعة سياسية، نخلص لهما ونناضل من أجلهما حتى نخاع العظم، ولا تناقض مستعصياً بين الفرد والفردية في خصائصهما الإيجابية والجماعة الثورية، فالفرد يخدم الجماعة والجماعة تخدم الفرد وتعترف بخصائصه على قاعدة (النظام الداخلي والبرنامج السياسي) لينين، وكلما نشأ تناقض أو تعارض إنما نستند لهما وللحوار الرفاقي البناء الذي يفضي لنتائج إيجابية وليس لحوار ساخن يوتر الأجواء ويوسع شقة «الخلاف»... ولنا تجربة ناجحة في الداخل على هذا الصعيد، بصرف النظر عن تناقضات وتكتلات وانقسامات حزبنا في سنين سابقة في الخارج... إننا مشغولون بالأولويات، أولويات النضال الجدي الضروس، النضال لإعادة بناء منظماتنا التي تتعرض للهجوم دورياً ويومياً، النضال لنشر رؤيتنا التحررية، العصرية، الاشتراكية، النضال لبناء كادرات تحمل على كاهلها هذه المهمة العظيمة، دون أية حسابات شخصية أو مصالح شخصية... التناقضات الداخلية تتفاقم ويتعذر تسويتها حينما توجهها المصالح الشخصية والتطلعات الفردية المنفصلة عن هموم ومصلحة المجموع...

كان لينين يدعو لحل التكتلات فوراً، هنا، لا نواجه مثل هذه الظاهرة فنظامنا الحزبي صلب وصنعه الجميع وفي المقدمة النشطاء والكادرات، أما المفاصل والهيئات والعضوية المركزية فهي في مقدمة الصفوف بإنجازاتها وتضحياتها وتفولذها، فهي تتبوأ مواقعها التي بنتها حجراً وراء حجر وسنة بعد سنة، بل معظم مسيرتها أمضتها في السجون دون زواج أو «أهملت» عوائلها أو هجرت تعليمها... فلا أولوية لها سوى أولوية الحزب والوطن وهي أكثر فقراً من أقرانها، فالتفرغ الحزبي المقلص بالكاد يغطي حاجاتها الأساسية، فلا مكتبية ولا رواتب ولا وفود لدول أجنبية ولا سيارات ولا ولا... فأكبر دمار يلحق بالحزب إذا تراخت وأفسدت قيادته...

إننا منحازون للعدالة وضد الظلم، ولن نتوانى في مقارعة أعداء التاريخ من إمبريالية وصهيونية وعنصرية ورجعية وبرجوازية مستسلمة، إننا طليعة من طلائع الناس الذين يسعون للتغيير وقلب التاريخ (فالنظريات القديمة جاءت لتفسير الواقع بينما المطلوب تغييره) ماركس، هذا هو موقعنا على الخارطة. ولتأدية هذا الدور علينا أن نحب وطننا ونحب شعبنا ونحب حزبنا ونحب رفاقنا ونحب أهلنا ونحب العدالة والحرية... وكان جيفارا يركز على الحب كقيمة أخلاقية عظيمة... ودون الحب والشغف بمن نحب من المتعذر أن نتفانى وأن نخلص وأن نضحي لمن نحب... فهيجل كتب «دون شغف عظيم لا إنجاز عظيم»، أما ماركس فأنشأ «المثل العليا تحول الحماسة لتراجيديا ثورية تاريخية».

ولأننا نحب وطننا وشعبنا وحزبنا ورفاقنا فإننا على استعداد للتضحية والموت في سبيلهم مرة ومرات.

أما أخلاقنا الجنسية فقد أسس لها كبار الاشتراكيين انجلز في «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» حيث ندين الزواج المدبر دون حب ومشاعر متبادلة، ونربأ أن تبيع المرأة نفسها بالجملة دون اختيار فتخضع

لسيطرة الرجل وتحكمه، وندين الحب الحر ونظرية كأس الماء وما كتبه لينين في هذا الميدان رايتنا، وندين العلاقات الجنسية دون مشاعر ولقاء سريعاً يتبدل بين يوم وآخر كأشكال للحب الليبرالي، ونربأ تماماً عن الدعارة والبغاء حيث تبيع بعض النساء أجسادهن لقاء المال لإعالة أسرهن أو فك ضائقة، وهنا لا تتعهر المرأة فقط بل الرجل الذي يتعهر معها أيضاً... وأول خطوة تنتصر لها الثورة الظافرة هي إعادة تأهيل هؤلاء النسوة وتوفير عمل لهن يقيهن هذا الشر الذي أوجدته الطبقات العليا بسبب إفقار الجماهير، واصطياد رفاهيتها من ضحاياها... فمنذ زمن بعيد انتهت ظاهرة ممارسة الجنس كأحد طقوس المعابد وحلت ظاهرة البغاء المنظم والمرخص الذي يحظى بإشراف طبي في المجتمعات الرأسمالية، وتغض النظر عنها أنظمة الخصي والعجز العربية، أما في الاشتراكية الموعودة فتندثر هذه الظاهرة التي تحط من شأن الإنسان امرأة كانت أم رجلاً، لأن العلاقة يشارك فيها الاثنان...

إننا مع (الحب المتبادل العميق، الذي يعني انفصاله مصيبة كبرى للطرفين، ومنزه عن الاعتبارات المالية والوجاهية) انجلز وتجمعه (أهداف مشتركة) فوتشيك، ويبتعد عن «نزق البرجوازية الصغيرة» انجلز، الذي يستنزف الحبيبين، ويتوج بالزواج أو يمكن أن يفضي للزواج...

ولأننا كهدف نهائي للاشتراكية نسعى لتأميم وسائل الإنتاج الرأسمالية التي ينجم عنها استغلال وحروب وإفقار وسوء تغذية ومياه ملوثة وو و... فالبرجوازية تروّج عنا أننا نسعى لتأميم النساء، مثل هذه السخافة لا تستحق الرد لأن الاشتراكية إنما تصنعها المرأة والرجل معاً وبغية تحريرهما معاً (فالثورات تنتصر بقدر مشاركة النساء فيها) لينين، بل إن المرأة تتحرر وتسترد كرامتها وإنسانيتها تماماً في الاشتراكية بعد أن تتحرر من جميع أشكال القهر الذكوري، حيث تحل العلاقات الإنسانية والسوائية الحقيقية بما يتجاوز كثيراً الخطاب الليبرالي عن المواطنة المتساوية والحقوق القانونية المتساوية، إذ إضافة لذلك إزالة الأسباب والعوامل الطبقية والثقافية التي تفضي لاستغلال المرأة والتعامل معها بدونية، بل تنظيم النساء للنضال والمشاركة في القضايا الكبرى وتحرير أنفسهن...

لقد جاءت الرأسمالية قفزة في التاريخ قياساً بالمجتمع الإقطاعي والتقليدي السابق، وتأتي الاشتراكية قفزة في التاريخ قياساً بالمرحلة الرأسمالية، وهذا ما يشهد التاريخ البشري بداياته وهمهماته.. فالرؤية الإقطاعية والدينية سادت قروناً وقروناً والرؤية الرأسمالية عمرها ثلاثة قرون أما الرؤية الاشتراكية فهي تتلمس طريقها منذ عقود وحسب...

وقد خلصت البشرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، من خلال الأمم المتحدة، إلى مواثيق وإعلانات لحقوق الإنسان، وهي بلا شك خطوة للأمام تكفل حرية التفكير والاختيار والحياة والتنقل... وتحريم التعذيب... الأمر الذي يشكل سلاحاً قانونياً في أيدينا، بما يملي علينا درس وفهم هذه المواثيق والإعلانات، والشيء نفسه يقال عن الحقوق النقابية وحقوق الجماعات وحقوق المرأة وحقوق الطفل... الخ، وهذه كلها تنتهك بفظاظة وحشية من قبل الاحتلال دون أن ننسى انتهاكها من الفئات المتخلفة والرجعية في مجتمعنا...

فالاحتلال والرجعية، كلاهما، معادٍ للمرأة، والاحتلال علاوة على اضطهاد شعبنا بأسره نسائه ورجاله،

هو يخلق الظروف التي تقهر المرأة ويمنع مجتمعنا من التطور والتحرر اللذين يشكلان ناصية انطلاق تحرر المرأة، فلا حرية للمرأة في مجتمع غير حر ولا حرية ومساواة للمرأة في مجتمع متخلف. أما الفئات الرجعية فهي تنظر بدونية للمرأة ولا تؤمن بحقها بالاختيار ومساواتها مع الرجل بل تشّرع أحياناً ضربها والتسلط عليها ومنع انطلاقها ناهيكم عن أنها تختزلها إلى مجرد جسد وماكينة تفريخ ورفض مساواتها قانونياً بالرجل واستعظام حركتها واختلاطها واختيارها وحرمانها من بعض الوظائف أو المساواة في الأجور...

سؤال الدين: القانون الذي نستند إليه في تفسير الوعي الاجتماعي بما في ذلك الدين، أي دين، هو ارتباط الوعي الاجتماعي، وهذا يشمل السيكلوجية الاجتماعية، بالوجود الاجتماعي، أي الواقع الاجتماعي – الاقتصادي وما يتصل به. ولأن الوجود الاجتماعي في صيرورة فمن الطبيعي أن يكون الوعي الاجتماعي في صيرورة يتبادلان التأثر والتأثير. فقد انتقد ماركس مادية فورباخ الميكانيكية كما لو كان الفكر انعكاساً للواقع وحسب، بل هو عنصر فاعل في الواقع أيضاً، أي ثمة علاقة ديالكتيكية بين الفكر والواقع، ومن هنا اكتشف قانون التوافق بين البناء التحتي والبناء الفوقي، مثلما اكتشف قانون التوافق بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. وكثرة كثيرة من بين صفوفنا قرؤوا المادية التاريخية بأقلام المفكرين والكتاب الماركسيين، بما يعفينا من الإسهاب هنا، ومؤلفات بليخانوف هامة... على هذا الصعيد...

... ولا حاجة لاستعراض الفلسفات القديمة والثقافات القديمة وارتباطها بظروفها وتفاعلها مع سواها... الكونفوشية والهندوسية والبوذية في جنوب شرق آسيا، والآمورية – الآشورية – الكنعانية – الفينيقية الفرعونية والزرادشتية في الشرق الأوسط، والإغريقية والرومانية في أوروبا، والإفريقية واللاتينية... وصولاً إلى اليهودية والمسيحية والإسلام...

أما الأكثر انتشاراً وقوة الآن فهي المنظومات الفكرية الرأسمالية، ومن بعدها المنظومات الفكرية الاشتراكية، وتحديداً الماركسية – اللينينية، حيث يقود كل منهما بلداناً متطورة في أوروبا وأمريكا واليابان، كما في الاتحاد السوفييتي والصين وو...

وثمة تحولات رأسمالية في أرجاء العالم من بناء صناعة رأسمالية ومدن عصرية مكونة من طبقات جديدة رأسمالية وعمالية وفئات وسطى... كما ثمة تحولات اشتراكية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية كما في فيتنام وقد تحرر جنوبها وتوحدت عام ١٩٧٥، وكوبا جزيرة الحرية بقيادتها الجذرية الكرزماتية، ونقاط مضيئة في اليمن الجنوبي وأنغولا وولايات هندية... ناهيكم عن حركة نقابية عمالية قوية وأحزاب شيوعية وماركسية في أربع جنبات العالم، وبشكل أخص في إيطاليا وفرنسا حيث يشكل اليسار قوة رئيسة... دون أن ننسى الحركات اليسارية المقاتلة في عدد من بلدان أمريكا اللاتينية وتركيا وإيران وسيرالانكا وزيمبابوي وجنوب أفريقيا وفلسطين.

إن العالم يمر بمخاض عظيم.

... كان سبينوزا الفيلسوف العربي (الذي قاطعته وفرضت المؤسسة الدينية اليهودية الحرمان عليه) قد قال

«إن قيمة الفكرة في حسابها العملي الأخلاقي» أي في نمط تأثيرها في الناس والحياة... أي أننا «نريد العنب لا مقاتلة الناطور» «فمن ثماركم نعرفكم» المسيح، وثمار الفكرة يكشفه طابع وطبيعة الفكرة.

«إن حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة» لينين، و(لا حركة ثورية دون نظرية ثورية) لينين الأمر الذي يفسره إلياس مرقص، بأن لا حركة تاريخية وعمليات تاريخية دون فكرة موجهة لها... وإن مراجعتنا لأية مرحلة تاريخية (المرحلة الإغريقية واكتساح أوروبا والشرق، الإمبراطورية الإسلامية تشكلها وتمددها وتفككها، أوروبا المرحلة الإمبريالية ونهبها للعالم، الثورات الاشتراكية هنا وهناك)، إلا ووجهتها رؤية فكرية، بل إن هذه المشروعات الضخمة إنما أنتجت وبلورت رؤيتها في جدلية الممارسة والفكر... لهذا لم يكن صدفة أن لا يولد أي فكر دفعة واحدة، بل مرتبطاً بالممارسة ومقتضيات الانتشار والبناء وقضايا الناس...

إن من يقرؤ الفكر القديم يلاحظ تداخله وتواشجه وتناسله، فالحضارة البشرية مترابطة، والثقافات مترابطة أيضاً، ونعثر على تشابهات كثيرة بين الثقافة الآسيوية والثقافة الشرق أوسطية، وجذوراً كثيرة للفكر الديني في الفكر الذي سبقه سيما الفرعوني والآشوري والكنعاني، أما الفكر الماركسي فقد استند إلى الإرث البشري سيما الفكر الرأسمالي. وكل فكر جديد إنما جاء ليستند لما سبقه ويعالج قضايا جديدة. إننا كالرحّالة ابن بطوطة في الفكر البشري، نقرأ ونستخلص ونغتني إلى أن وصلنا (للنظرية النقدية الكبرى) طرابيشي، الماركسية – اللينينة، العقل الذي تتكئ عليه وتتشرب به الطبقة العاملة والطبقات الشعبية والشعوب المقهورة في ثوراتها على الظلم الرأسمالي والاستعماري والتخلف من أجل بناء مجتمع إنساني لا استغلال ولا قهر ولا اغتراب ولا اضطهاد فيه... ونعرف تماماً أن الفكر البشري سلسلة متصلة في دراما الحياة، وما أضافته كل نظرية وكل دين وكل مقاربة...

وعليه، فإن القضايا الكبرى التي تواجهها البشرية هي «المسألة الطبقية/ المسألة القومية/ المسألة التنموية/ المسألة الديمقراطية/ مسألة المرأة/ المسألة العقلية ومسألة الكرامة الإنسانية» هذه هي مرآة التحدي لأي فكر ليتقدم بمساهمته ومقارباته للإجابة عليها، وللإنسان الفرد والإنسان كنوع، كجماعة بشرية، وللقوى الاجتماعية أن تختار. فلا أحد يستطيع منع المعرفة بتعليب الناس في كهوف مغلقة، ولا أحد يستطيع فرض المعرفة على عقول البشر رغم تأثيرات وسائل الإعلام والتعليم والقانون، ففي النهاية ثمة (ثقافة نقدية) غرامشي، ضد الثقافة المسيطرة، والفكر الاشتراكي رغم «الحرب الصليبية» عليه تشويهاً واختزالاً وتكفيراً، فهو تيار أساسي في أرجاء المعمورة، حتى أنه وصل مجتمعنا البسيط الذي لم يبلغ المرحلة الرأسمالية، وهذه حال العديد من الشعوب، فما بالكم باحتمالات المستقبل حيث يتمدد التحديث وتتمدد الحداثة، أي البنية التحتية والبنية الفوقية، لبلورة الطبقات والحركات النقابية وعلاقات الإنتاج الرأسمالية ومغادرة مخلفات (القرون الوسطى) لينين، وانتشار التعليم... فذلك من شأنه أن يؤمن البيئة للرؤى المعاصرة رأسمالية كانت أم اشتراكية، كما يهدينا الفكر الاشتراكي في فهم الرأسمالية والامبريالية والصهيونية، ويرشدنا في البناء الحزبي الثوري وتنظيم صفوف الشعب وفن التحالفات وحل التناقضات وربط التاكتيكي بالاستراتيجي وتسليحنا برؤية تنموية وتصليبنا عقائدياً... فالفكر الاشتراكي ليس مجرد مقولات يرددها بعض «الليبراليين» حتى لو زعموا أنهم ماركسيون،

بل روح تثوير وقتال لتغيير العالم. فهو مدرسة تسلحت بها الجماهير الروسية فأطاحت بالنظام وهذه حال حرب الشعب طويلة الأمد في الصين والثورة الفيتنامية، حتى أن كوبا الجزيرة الصغيرة التي لا يتعدى سكانها العشرة ملايين صمدت وأحرزت النجاحات بعد أن تلاحمت الثورة مع الفكرة من خلال الحزب الشيوعي بقيادة كاسترو... إن الغالبية العظمى من كبار المثقفين والمبدعين، والغالبية العظمى من كبار القادة والرموز، والغالبية العظمى من القيادات النقابية والنسوية في العالم إنما ينتمون للفكر الاشتراكي والحلم الاشتراكي...

وفي ثورتنا يتبوّؤ الحكيم وحواتمة وفؤاد نصّار وكنفاني ودرويش وقاسم وناجي العلي وبسيسو وليلى خالد وغيرهم منزلة مرموقة، والمستقبل مفتوح لبروز المزيد من القادة والمبدعين...

وعليه، فإن موقفنا من الدين (على كل واحد أن يتمكن من أن يقضي حاجاته الدينية والجسدية من دون أن يحشر البوليس أنفه فيها) ماركس، فهو مسألة ضميرية من الناحية الشخصية. بما يضمن للإنسان حرية المعتقد وأن يمارس طقوسه، سواء اتفقت مع الدين أم لم تتفق، بل إن الديانات متعددة وفهمها متعدد أكثر... على قاعدة القانون الناظم للمجتمع الذي يكفل التعددية وحرية المعتقد وعدم الاعتداء أو المساس بحرية الآخرين...

طبعاً إننا علمانيون، بمعنى فصل الدين عن الدولة، أي عدم اعتبار الدين مرجعاً لقوانينها، ونصاً ثابتاً ينظمها، بل الإرادة الشعبية والمؤسسات المنتخبة والعقل الإنساني الخلاق، فهي التي صنعت الحضارة المعاصرة التي نعيشها، ونحن أبناء هذا الزمان، بل (لا تعلموا أبناءكم ما تعلمتم فزمانهم ليس زمانكم) علي بن أبي طالب، ولأننا أبناء هذا الزمان فإننا نؤمن بالمواطنة دون تمييز ديني أو جنسي، وحزبنا لا يميّز بين الأصول الدينية والجنسية للأعضاء أي أننا ضد تقسيم طائفي للمجتمع وضد الطائفية، وهدفنا الاستراتيجي (فلسطين ديمقراطية دون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي) كما جاء في كراسة صدرت عام ١٩٧٠.

وبالتالي فالإنسان المناسب في المكان المناسب، وليس لأنه رجل دين أو مناهض للدين، امرأة كان أم رجلاً، فالدولة الدينية الثيوقراطية يقودها رجال الدين والنص الثابت، على غرار ثورة الخميني التي انتصرت في الأمس القريب أو ملوك السعودية الذين يستندون للمؤسسة الدينية في تشريع سياساتهم ونظم أمور المجتمع، وشتان بين ثورة الخميني والنظام السعودي من الناحية السياسية! وسيتضح مع الوقت إذا كان ثمة تباينات في الرؤية الاقتصادية أم لا وكذا التعاطي مع مكونات المجتمع والحريات السياسية، ولكن النظرة الدينية في الحقل السياسي/ الثقافي هي نظرة أوتوقراطية على امتداد التاريخ الإسلامي، ففريق يستأثر ويسحق غيره حتى من أهل دينه، وما أكثر الفتن والصراعات والمذابح في تاريخنا بدءاً بالصراع بين علي ومعاوية، ومروراً بالصراع بين الأمويين والعباسيين، وتعريجاً على الفاطميين وورثة صلاح الدين وأمراء الطوائف في الأندلس وو و...

ومن المهم أن نتابع سياسات نظام آيات الله مع الشعب الإيراني، وهل ستشرئب المذهبية من جديد بين شيعي وسني وبطبيعة الحال إسلامي ونصراني ومؤمن وغير مؤمن وإلغاء للتعددية... الخ، والنظام حتى اللحظة لا يعترف بالتعددية الفكرية والسياسية مثلما لا يعترف بحقوق الأكراد القومية، ناهيكم عن أن المرجعيات الدينية كلها من الشيعة ولا وجود لسنة، علماً أنه يوجد سنة في إيران...

إننا كفلسطينيين في غنى عن هذه التقسيمات، ونسعى بدأب لتوحيد شعبنا على برنامج وطني مناضل، بل إن تاريخنا الفلسطيني متسامح وقائم على التعددية منذ العهد الكنعاني وما بعده، حتى أن القرامطة حكموا فلسطين وجنوب سوريا، وهم الذين ألغوا الجزية والزكاة وأسسوا التعاونيات وأقاموا وجبة مجانية للجميع ولم يلزموا أحداً بالصلاة والصيام... بل إن ظاهر العمر الذي حرر نصف فلسطين أيام العثمانيين ألغى الجزية أيضاً وسبق الثورة الفرنسية في ذلك، بما هو قريب من المواطنة المتساوية...

والعلمانية لا تلغي الدين، فالقوانين إنما يشرعها المشرعون المنتخبون، بصرف النظر عن خلفياتهم الفكرية أو حضور الدين في تفكيرهم، فالعقل ينتج القوانين وحسب، أما الدين فيستمر في الوعي الاجتماعي، بين الناس، يمارسون طقوسهم كما يشاؤون، وهذا أحد منجزات الثورة البرجوازية في القرون الثلاثة الأخيرة، ومن الطبيعي أن تستند له الماركسية، فالماركسية لم تتخصص في نقد الدين أو المجتمع الإقطاعي وبناه الفكرية، فالذي تولى هذه المهمة هي الطبقة البرجوازية ومثقفوها التنويريون في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر... فهؤلاء هم الذين شرّحوا الديانات وأقاصيص الأنبياء والأبعاد الفلسفية بروح نقدية مهدت لرؤية فكرية كانت سلاحاً في أيدي الثورة البرجوازية ضد الإقطاع والملكية والكنيسة وما سبق المدينة المعاصرة والحريات الديمقراطية الليبرالية، أي ما انتصر في أوروبا واكتسح مناطق واسعة من العالم لاحقاً...

ومثلما تستند الاشتراكية لمنجزات الرأسمالية في حقول الصناعة والعلم والإدارة... فهي تستند إلى موروثها الفكري/ الثقافي التقدمي أيضاً. فقط إشارات سريعة كتبها ماركس أو لينين في هذا الميدان، ولكن في غمرة صراع الرأسمالية مع الاشتراكية عادت لتستخدم سلاح الدين ضد الاشتراكية...

أجاب لينين عن سؤال ما هي الاشتراكية: التعاونيات + كهربة البلاد... ذلك أن معظم روسيا لم يكن رأسمالياً ولم تصله الكهرباء... وقام لينين بحل مهمات ديمقراطية برجوازية منها توزيع الأراضي على الفلاحين ونشر التعليم وشبكة خدمية واسعة وتشجيع الناس على التفكير، وبطبيعة الحال إيقاف الحرب... جنباً إلى جنب مع مهمات اشتراكية (تحالف العمال والفلاحين بقيادة الحزب الشيوعي في السلطة + قطاع عام لدولة العمال والفلاحين + نشر الفكر الاشتراكي + التصنيع الاشتراكي...)

وعلى صعيد عربي تواجهنا مهمات برجوازية عجزت عن إنجازها برجوازيتنا العربية (تحرير فلسطين وأية بلاد عربية أخرى + توحيد الأمة في دولة قومية واحدة + تعميم التعليم + التخلص من بقايا القرون الوسطى + التنمية المتنوعة + مجانية العلاج والتعليم + إشراك المرأة + حل مسألة الأقليات...

إضافة إلى تأميم وسائل الإنتاج الكبيرة + تخفيف الاستغلال الطبقي على طريق اجتثاثه + مساواة المرأة في جميع الميادين + نشر الفكر الاشتراكي + نظام سياسي يقوده تحالف ثوري في قلبه الطبقة العاملة المنظمة...)

وفي سنوات سابقة صدرت مجلة عن حزب العمل الاشتراكي العربي تتناول هذا الموضوع، سوف نبحث عنه ونؤمنه لكم...

مرة أخرى، إننا لسنا أعداء للدين أو المتدينين، إننا نقديون وحسب، فالماركسية نقدية وهي أول ما تنقد نفسها بإزاحة كل ما هو شائخ أو ارتبط بزمان ومكان مضيا وبالتالي استيلاد أفكار ومقاربات تقرأ الجديد وتصطف في خندق التغيير الثوري. وهذا ينسحب على الفكر الديني والفلسفات القديمة والأوسع أهمية الفكر الرأسمالي/ الإمبريالي لأنه نافذ أكثر من سواه ونصطدم به في أرجاء المعمورة.

أما المتدينون كبشر، فهذا خيارهم وشأنهم، أما الحركات السياسية الدينية فإننا ننظر لها من زاوية سياسية، أي أين نتفق وأين نختلف شأن اليمين الفلسطيني، ومن زاوية الحساب الأخلاقي العملي لما تنشره من أفكار... فمسموعاتنا إيجابية عن حركة المحرومين بقيادة الصدر في لبنان، وهذا حال الأزهر حينما واجه المستعمر الفرنسي والإنجليزي، وكبوتشي وجرجوعي في فلسطين والحاج أمين الحسيني الذي مات دون أن يعترف بإسرائيل أو بضم الضفة الفلسطينية للأردن... وهناك تيارات كنسية تحررية في أمريكا اللاتينية... وحركة ناطوري كارتا لا تعترف بشرعية إسرائيل وترى فيها مقبرة جماعية لليهود وشيء مشابه «السمرة» في نابلس وحولون... ودعوة يوحنا المعمدان (يحيى) كما المسيح ثورية في زمانها وكذا الإسلام في بداية عهده إلى أن سيطرت عليه الأرستقراطية القبلية والتجارية وبات الحكم ملكياً وراثياً ومصدر حروب لها أول دون أن يكون لها آخر بين أهل الدين والنظام أنفسهم.

نتمنى أن ينتقل موقف الإخوان المسلمين وحزب التحرير في فلسطين من موقف مناوئ لمنظمة التحرير وفصائل المقاومة وبعض هؤلاء يشتمون الفدائيين وينظرون لشهدائهم كجيف... إلى موقف تحرري مقاوم للاحتلال... إن وزن هؤلاء محدودٌ، وأن يكونوا مع الثورة خير من أن يكونوا عليها... إذ ينبغي توسيع قاعدة الثورة وتضييق قاعدة الأعداء، وهذا قانون في التاكتيك، كما أن فلسطين لكل أهل فلسطين وعلى الجميع أن يقاتل ذوداً عنها... في الآونة الأخيرة برز اسم عكرمة صبري لعله يؤدي دوره وهناك تململات في غزة، وفي السجون ثمة تيار إسلامي في صفوف فتح، ومع الأسف لقد كان الأكثر تشدداً في عدائه لأفكارنا، ومن الناحية الدينية الصرفة ففلسطين أرض وقف إسلامي، أي أنها من ديار المسلمين وليس من حق أحد التفريط ببذرة رمل منها، ومن واجب جميع المسلمين القتال لتحريرها سيما القدس التي يجري زرع الأحزمة الاستيطانية فيها، ومجرد صلاة اليهود على حائط البراق (حائط هيكل سليمان كما يدعي اليهود دون أي إثبات علماً أن الحفريات في القدس منذ أواخر القرن التاسع عشر) أفضى إلى اشتباكات واسعة سقط فيها نحو ٧٠٠ قتيل في المدن الفلسطينية، وعدد قتلى اليهود أكثر من عدد قتلى العرب... إنها انتفاضة البراق في أواخر العشرينات التي سجلها التاريخ، ولكن فلسطين تحتل منذ عام ٤٨ وأصبح عمر احتلال ٦٧ زهاء عقد ونصف، والمسلمون في أرجاء العالم يكتفون بالخطابات والنواح على مسرى رسول الإسلام... والقدس ليس مجرد الحوض الديني بل ٩٠٪ من القدس الغربية أراض عربية وكذا القدس الشرقية التي كانت ٦ كم² فأصبحت بعد توسيعها من قبل سلطات الاحتلال ٧٦كم² حدودها تشارف على بيت لحم وتقترب من رام الله وجرى ضمها بعد احتلال عام ٦٧، وسن الكنيست قانوناً بذلك هذا العام ٨١.

ما أكثر خطاباتنا وما أقل فعلنا!!

إننا منفتحون على شتى الأفكار ونساجل أفكار غيرنا ولكننا نعترف بالتعددية السياسية والفكرية ونبحث عن قواسم وطنية للنضال. فالتحالفات عادة طابعها سياسي وليست تحالفات أيديولوجية... ومن المهم أن نتابع ما يدور في نيكاراغوا والسلفادور على هذا الصعيد... وللعلم فإن أغلبية اللجنة المركزية الأولى التي أسست فتح هي من الإخوان المسلمين، وفيما عدا القدومي (بعثي سابق) وخالد الحسن والشهيد أبو علي إياد (حزب تحرير) فالبقية بمن فيهم أبو عمار إخوان مسلمون... ولكنهم انخرطوا في أتون الكفاح الوطني ضد المشروع الصهيوني... والحزب الشيوعي الأردني بشقه الفلسطيني لم يفعل ذلك؟! ومحاولة البعض تحويل الشق الفلسطيني إلى حزب شيوعي فلسطيني لتأكيد الهوية الوطنية جرى قبرها مثلما دفنت من قبل محاولة تشكيل قوات الأنصار بعد ذبح البندقية في الأردن...

أي لا يكفي القول اشتراكي، ديني، برجوازي... وإنما يجب الانتقال للخطوة الثانية: ما أنت فاعل سياسياً... وما أنت فاعل في الكفاح المسلح الفلسطيني؟ وحسبنا القول إن علاقاتنا مع الحزب الشيوعي اللبناني هي أقوى من أية علاقات أخرى، فـ "الجورجين" يتلاحمان كما العظم واللحم...

وأعلاه أشرنا للقضايا الكبرى التي تواجه البشرية، وفي ضوء إجابة كل حركة وكل تنظيم تتحدد تمفصلاتنا معه أو افتراقنا عنه بالانشداد أولاً للمسألة الوطنية الفلسطينية ودور كل فصيل فيها ضمن قانون (الوحدة والتناقض).

وختاماً، لقد شرح ماركس ومن بعده لينين الموقف من المسألة اليهودية، في دعوة صريحة "للتمثل لا للانفصال" أي على اليهود أن يندمجوا في شعوبهم، لا أن ينفصلوا في حركة سياسية استعمارية (إسرائيل واقع استعماري) عنوان كتاب للمفكر (اليهودي) مكسيم رودنسون، كجزء من المشروع الاستعماري العالمي. وأدان لينين حزب البوند اليهودي في روسيا واعتبره حزباً رجعياً يفتت الطبقة العاملة، وأدان الصهيونية كحركة استعمارية... وبكلمات جورج طرابشي في (نصوص حول المسألة اليهودية). خاض لينين نضالاً دؤوباً (ضد بناء حزب العمال اليهودي في الإمبراطورية الروسية ودعا لحزب مركزي للعمال الاشتراكيين الديمقراطيين رافضاً النظر لليهود كأمة لها تنظيم خاص... وناضل ضد الاستقلال القومي الثقافي وبالتالي إنشاء أمة يهودية، ودعا لحق تقرير المصير القومي للأمم يندمج فيها اليهود، أي اندماج اليهود في القوميات التي يعيشون بين ظهرانيها وليس انفصالهم في قومية أو دولة... وبالتالي نقد لينين تعريف الأمة (رابطة ثقافية لا صلة لها بالأرض). ولينين لم ينظر لليهود كقومية بل كدين شأن غيرهم من الديانات ولا يمكن إقامة دولة قومية على أساس ديني، وأن المطالبة بذلك هو خطوة رجعية سافرة تعود بالتاريخ للوراء... وهاجم لينين اللاسامية التي كانت روسيا القيصرية الاستبدادية أبرز حصونها علاوة على اضطهاد اليهود في أوروبا في القرون الأخيرة. ولكنه اعتبر الصهيونية الوجه الآخر للاسامية بل تنشأ وتترعرع في تربة اللاسامية. ومن هنا دعوته لاندماج اليهود لأن العداء لليهود لا ينتهي إلا حينما يكف اليهود عن الانعزال في جسم غريب (غيتو) في قلب الأمة التي يحيون في أوساطها... ففي التحليل الأخير المسألة اليهودية تمثّل أم خصوصية، اندماج أم انفصال؟

من هنا دعا لاندماج اليهود لا للانفصال، واعتبر حزب البوند رجعياً وخائناً للاشتراكية... وجاء في قرارات المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا الذي صاغه لينين (انطلاقاً من الوحدة التامة والوثيقة للبروليتاريا المكافحة... ينبذ المؤتمر بحزم المبدأ الاتحادي في تنظيم الحزب...) وقد تم فصل البوند من الحزب لأنهم لم ينضبطوا لقرار المؤتمر بالاندماج وأصروا على الاستقلال الذاتي... ليس للمسألة اليهودية إلا حل واحد التمثل... وفكرة القومية اليهودية هي فكرة ذات طابع رجعي وهي تخلق نفسية الغيتو... والعداء لليهود لن يزول... إلا عندما يكف اليهود عن النظر لأنفسهم كعنصر غريب ويذوبون في جمهرة السكان... هذا هو الحل الوحيد). ونقرأ على جلود شعبنا آثار الصهيونية وقاعدتها المادية إسرائيل، مثلما نعرف أن عدد اليهود في أمريكا هو أكثر من عددهم في "إسرائيل"...

وهذا الطرح الماركسي – اللينيني إنما ينسجم تماماً مع قراءتنا للتاريخ وحقوق شعبنا وحل الصراع في إطار دولة ديمقراطية، وما الهدف المرحلي إلا خطوة على طريق الحل الاستراتيجي المقيم والأخلاقي... وهنا من الحاسم أن نتشبث برؤيتنا الأيديولوجية وأن نجذّر وعينا لها (إياكم والتنازل النظري، إياكم والمساومة على المبادئ) ماركس. فمن يفرّط بالحق الوطني ليس وطنياً ومن يفرّط بالموقف الماركسي – اللينيني ليس ماركسياً - لينينياً بصرف النظر عن التخريجات اللفظية البهلوانية.

سؤال جدلية الطبقي – الوطني – القومي – الأممي...

مفيد الانطلاق من كلمات ماوتسي تونغ في الصفحة الأولى من كتيّبه "في التناقض" (إن قانون التناقض في الأشياء، هو القانون الأساسي الأول في الديالكتيك) ويستطرد مسترشداً بلينين (إن الديالكتيك بمعناه الأصلي هو دراسة التناقض في صميم جوهر الأشياء). وهذا صحيح تماماً. فكل شيء مكون من متناقضات، أضداد، والصراع بينهما، التناقض فيما بينها يفضي إلى التراكمات الكمية ومنها إلى القفزة الكيفية وليس هنا مكان الإسهاب والشروحات...

فثمة تناقض طبقي على مستوى عالمي وعربي، وهذا واضح تماماً وانعكاس لعلاقات الإنتاج حيث تستأثر الأقلية بالاقتصاد والثروات والحكم والقرار فيما الأغلبية مستغلة وكادحة ومهمشة ومستلبة. وهذا يتجلى أيضاً في الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية: فـ "السياسة اقتصاد مكثف" كتب لينين و(الحرب سياسة بأشكال عنيفة) كلاوزفيتز، وكل الذين حازوا على بعض الثقافة في قلاع الأسر، عرفوا هذه اللغة ومعانيها. أما فلسطينياً فيبدو التناقض الطبقي وكأنه ملتبس.

فالطبقات تبدو غير مبلورة... فلا الرأسمالية الفلسطينية مبلورة في طبقة ولا العمال مبلورون في طبقة، أما الإقطاع فقد اندثر مع النكبة، والفلاح تقلص على نحو جذري، إذ كان أغلبية الشعب من الفلاحين قبل ٤٨ وبعد أن فقدت وسيلة إنتاجهم (الأرض) افتقدوا الأساس الاقتصادي، وبعد الـ ٦٧ تقلصت الزراعة في الضفة وغزة على نحو مريع من ثلثي الإنتاج إلى أقل من ١٥٪ من الإنتاج، وبالتالي تحول معظم الفلاحين إلى عمال في الورش اليهودية. صحيح أن منبتهم فلاحي ويعيشون في الريف، ولكنهم أصبحوا يعتمدون أولاً على بيع قوة

عملهم للمحتل، فهو يستغلهم طبقياً ويقهرهم قومياً وهذا تشوه طبقي عجيب أشبه بالتجربة الجزائرية وتجربة جنوب أفريقيا...

كما أن البرجوازيين أصحاب وسائل الإنتاج في الاقتصاد الوطني يستغلون العمال والعاملين إجمالاً، أي يستقطعون فائض القيمة مصدر ربحهم وتراكم ثرواتهم. وهذا الاستغلال وهذا التقسيم الطبقي هو المحرك الأول لولادة الرؤية الاشتراكية الماركسية من الناحية التاريخية.

إننا نصطف بجانب العمال، بل إننا جزء صميمي وطليعي للعمال، ولولا وجود قضية طبقية من هذا القبيل لما أصبحنا يساريين، وإن كان البرنامج اليساري أوسع من هذا البند. فاليسار العمالي جذري وصريح (إننا ضد كل استغلال طبقي أو اضطهاد قومي أو جنسي أو ديني) لينين. فرؤيتنا الطليقة إنما مرتبطة بتناقضات الواقع وحركة الواقع وهدفها الأساس حل هذه التناقضات لإحداث وثبة تنهي استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، الأمر الذي يقتضي إزالة كل أشكال الاستغلال والاضطهاد والظلم، وفي المقدمة منها على صعيد فلسطين تحرير وطننا وإقامة دولة ديمقراطية لا تمييز فيها وعدالة اشتراكية، وهذا يتحقق إذا تجذّر اليسار وتقوى وقاد المسيرة الوطنية.

فأحد تجليات الصراع الطبقي في فلسطين هو التناقض بين نهجنا اليساري ونهج اليمين، صحيح أن في صفوف فتح يساراً غير أن القيادة المتنفذة يمينية وفئوية، ومن أبرز تناقضاتنا معها في السنوات الأخيرة الانقسام حول مؤتمر جنيف الذي عقد جلسة يتيمة، وإن انضمام بعض "القوى اليسارية" لموقفها خلق التباساً... ولكن هذا الانقسام انتهى منذ سنوات. وعادت تباشير الوحدة الوطنية. وتشكلت لجنة التوجيه الوطني في الداخل، وفي لبنان ثمة صيغ وحدوية عسكرية وسياسية وشعبية، غير أن التفرد والاستئثار بالقرار والإمكانات المالية وترف بعض الأوساط القيادية (شارع الحمراء) والتباينات التاكتيكية السياسية، كلها تعكس تمظهرات للصراع الطبقي، ناهيكم عن الصراع الفكري، فانحيازنا حاسم للماركسية – اللينينية فيما القيادة اليمينية توليفة لنظرة دينية ونظرة قومية هي في محصلتها ليست الاشتراكية، بل مناوئة للاشتراكية ولها بعض الاتصالات بالرأسمالية العالمية، رغم أنها المستفيد الأول من منح ومساعدات الاتحاد السوفييتي والصين.

وعلى الأغلب أن تتسع تمظهرات الصراع الطبقي السياسي في قادم السنين، ارتباطاً بتبلور الشرائح القيادية وفكرها رغم سعينا الدائم للبحث عن الوحدة الوطنية. فالقانون الذي يحكم علاقتنا هو (الوحدة والصراع). وحول المسألة الوطنية:

تعرضت فلسطين لغزو استعماري استيطاني عنصري إجلائي. ونضالنا التحرري إنما يستهدف تحرير فلسطين، وأية مرحلية إنما هي خطوة على طريق الهدف الاستراتيجي، وهذا جلي في نظامنا الداخلي وميثاق منظمة التحرير الذي تلتف حوله جماهير الشعب الفلسطيني. وإننا الأكثر ثباتاً على الأهداف الوطنية في وقت نرى فيه بعض القوى والأوساط تتهيأ للاعتراف بإسرائيل. هذا الجسم الغريب بما يزيد السياسة الإسرائيلية تعنتاً وعنصرية. وتقرع طبول الحرب على لبنان لاجتثاث البندقية الفلسطينية وتمرير الحكم الذاتي الذي

اقترحه بيغن قبل عامين، ولا نستبعد أن تتجاوب أوساط فلسطينية مع ذلك، غير أن الأغلبية الوطنية والشعبية ستكون لها بالمرصاد.

إن أكثر النماذج التاريخية قرباً إلى التجربة الفلسطينية هي جنوب أفريقيا والجزائر، حيث أقلية استعمارية عنصرية أجنبية احتلت البلاد وهجّرت قسماً من الشعب الأصلي وأقامت نظاماً عنصرياً. غير أن العنصرية سقطت في ألمانيا النازية وسوف تسقط مرة أخرى بفعل النضال الضروس طويل المدى.

وأية اتفاقات أو افتراقات مع القوى الأخرى إنما أرضيتها النضال الوطني وهدف تحرير فلسطين، وهناك تحالفات تاكتيكية بداهة، ولكننا متشبثون بفلسطين من البحر إلى النهر، بكامل خارطة فلسطين، وإمكانات الأمة العربية هائلة وما يمنع انطلاقها هي أنظمة التبعية والعجز والقمع، ولكن هذا لا يدوم للأبد، ودللت حرب أكتوبر/٧٣ على إمكانية انتصار الجيش العربي، ولولا القرار السياسي المخصي لأمكن إحراز المزيد من الانتصارات. فالحرب كانت تحريكية وليست تحريرية... ومفيد هنا كتاب الرفيق هاشم علي محسن (الحرب الرابعة) الذي نشرناه في وقت سابق... كما مفيد قراءة كتابات عن تاريخ فلسطين. وفي كل الأحوال لا يجب أن ينتهك أي تاكتيك سياسي الإستراتيجية الوطنية والحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني.

وفي الجانب القومي، فإن جذورنا تعود لحركة القوميين العرب التي تأسست في بداية الخمسينات وتحولت لحزب العمل الاشتراكي في نهاية الستينات، وقد امتدت الحركة والحزب في عدة بلدان عربية، أهمها فلسطين ولبنان... ومنذ ثلاثة أعوام انسحبنا من حزب العمل ذلك أن أعباءه كبيرة ولا نقوى عليها سيما في ظل تعقيدات النضال الفلسطيني، ولكننا نحافظ على علاقات جيدة مع فروعه ومع قوى وأحزاب ماركسية عربية أخرى سيما الشيوعي اللبناني. والياس مرقص في كتابه عن (الحزب البروليتاري العربي) إنما يستند لتجربة لينين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي البلشفي، وهذا ضرورة سياسية على صعيد عربي... إذ لا مهرب من حاضنة عربية ونضال عربي لتحرير فلسطين ولا يكفي اللجان التي كان يقودها الشهيد كمال جنبلاط، إذ أن المطلوب حزب عربي ثوري على الطريقة اللينينية.

ونضالنا الوطني هو جزء لا يتجزأ من النضال القومي العربي وهدفنا في النهاية توحيد الأمة العربية في دولة قومية اشتراكية، كما جاء في (موضوعات حول الثورة والثوريين العرب) دون نسيان المهام الانتقالية وتواشجها مع الأهداف الإستراتيجية.

والمخطط الإمبريالي- الصهيوني – الرجعي الذي انخرطت به البرجوازية الساداتية إنما يسعى لحل التناقضات فيما بين أطرافه لتوحيد الجهود ضد حركة الشعوب العربية والثورة الفلسطينية والأنظمة القومية بهدف تعميم كامب ديفيد لترتيب المنطقة سياسياً – اقتصادياً – اجتماعياً – ثقافياً بما يخدم هذا المعسكر المعادي...

إن دورنا في الثورة الفلسطينية وعلاقاتنا العربية الشعبية والرسمية ونشاطنا الإعلامي إنما نوجهه ضد هذا

المعسكر... ولم نكن بتشكيلنا لجبهة القوى الرافضة أيام جنيف، ووثيقة طرابلس بعد ذلك، وزيارة الحكيم لموسكو حيث استقبل عدة أيام ودعمنا لحزب العمل الاشتراكي في الجزيرة وعلاقاتنا الوثيقة مع اليمين الديمقراطي... سوى إشارات على هذا النهج...

ويتجلى الأممي أكثر ما يتجلى في انتمائنا للفكر الاشتراكي وانخراطنا في الثورة العالمية تجسيداً لشعار لينين (يا عمال العالم وشعوبه المضطهدة اتّحدي) تطويراً لشعار ماركس (يا عمال العالم اتحدوا) ولنا علاقات قوية مع عشرات الحركات اليسارية في أمريكا اللاتينية وتركيا وإيران وأوروبا... ناهيكم عن علاقاتنا مع البلدان الاشتراكية وبشكل أخص كوبا... ونناضل معاً ضد الإمبريالية والرأسمالية والعنصرية والصهيونية، (فالإمبريالية موحدة وعلى الجبهة الثورية أن تتوحد) جيفارا... ومن البدهي أن لا تمسس أية تحالفات مع هذا البلد الاشتراكي أو ذاك ببرنامجنا... فهي تحالفات على المشترك، أما الخلاف سيما حول جوانب من القضية الفلسطينية والاعتراف بإسرائيل ونظرية الطريق الثالث (القطاع العام) والثورة المسلحة للوصول للسلطة فتستمر...

إننا ننتمي إل الأممية البروليتارية التي تعني النضال المشترك وتبادل العون مع الشعوب والأنظمة الثورية ضد معسكر الأعداء، مثلما تعني المساواة بين الشعوب وحقها في تقرير مصيرها واحترام طريق تطورها... ومؤلف لينين (حق الأمم في تقرير المصير) له أهمية خاصة. إذ أن النضال البروليتاري العالمي والنضال الوطني يتحدان في عملية ثورية واحدة، وقيمة حركة التحرر أنها تخدم هذه العملية، وفيما عدا ذلك فإنها تفتقد مضمونها التحرري... وهذا مهم للرد على التخريجات الأيديولوجية الصهيونية التي تخلط بين طائفة دينية وبين حركة قومية. فالصهيونية ترى في اليهودية قومية وفي اليهود شعباً واحداً بما يخالف حقائق التاريخ، فاليهودية دين ينتشر في بقاع واسعة شأن الديانات الأخرى التي تتوزع على شعوب وقوميات عديدة. لقد انهار عصر الإمبراطوريات الدينية وحل عصر القوميات التي تضم ديانات متعددة وأناساً غير متدينين وقوانين عصرية وعلمانية... كما يزعم قادة الأعداء أن الصهيونية حركة قومية والأصح أنها حركة استعمارية وجزء من المشروع الاستعماري الغربي وحظيت بدعم البلدان الاستعمارية، والمقولات والوثائق هنا أكثر من أن تحصى وقد عالجناها في تعاميم ومراسلات كثيرة.

وإسرائيل اليوم قاعدة متقدمة في المخططات الإمبريالية المعادية للاشتراكية وحركة التحرر العربية، وما كانت لتوجد إلا بعد طرد الشعب الفلسطيني ومصادرة أملاكه وسرقة وطنه. ونضالنا الوطني إنما يسعى لاسترداد حقوقنا وإيجاد حل للصراع من خلال دولة ديمقراطية شعبية على أساس المواطنة المتساوية دون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي أو معتقدي. وحركة الحياة سوف تنصف هذا الحل في نهاية الأمر، فلا تعايش مع الصهيونية ولا تعايش مع النكبة الفلسطينية ولا تعايش مع التجزئة العربية، ولا تعايش مع الأنظمة المستسلمة والبرجوازية التابعة، ولا تعايش مع النفوذ والإملاءات الإمبريالية، فحركة الثورة العربية سوف تكنس كل ذلك مهما طال الزمن واستطال.

ولا بأس أن نختلف مع بلدان اشتراكية حول الموقف من إسرائيل، وهنا يتوجب استدعاء كلمات المفكر الإيطالي الثوري غرامشي حينما اختلف مع رفقاء آخرين ومع قيادة الكومنتيرن (إن نقطة البدء والانطلاق هي قومية، ومن هذه النقطة يجب أن نبدأ)... إذ أن تحالفنا وتاكتيكنا ورؤيتنا.. كلها إنما تنبثق أولاً من قضيتنا وحقوقنا. فأهل مكة أدرى بشعابها ضمن قانون (التحالف والنقد).

- الملحق رقم ٢ -

رسالة قيادية إلى م.ن / أواسط ١٩٩٠

الرفيقات م.ن اللائي تستبق أفعالهن أقوالهن، تحياتنا الثورية الحارة في لحظة تتوطد فيها انجازاتنا وتحفزنا لمزيد من الانجازات نحو قفزة نوعية. فأين كنا وأين أصبحنا مسافة كبيرة. كما أن الجيشان الانتفاضي لم ين يتعمق ويتوسع. ومثلما ترمين بثقلكن فيه فهذا ينسحب علينا جميعا. فالجيشان هو الحلقة المركزية والمحور الأساس. ولا مدعاة للإسهاب هنا، فالرؤية الحزبية تصلكن أولا بأول، وهذه الرؤية أشبه بمرآة مقعرة تتكثف فيها اجتهادات ومناشطات مختلف الهيئات بما فيها م.ن إضافة لما ينبغي منهجته واغناؤه بما هو قريب من مقولة ماو (من المعرفة الحسية إلى المعرفة المنطقية ومن المعرفة المنطقية إلى الممارسة)، ولكن المعرفة المنطقية هنا ليست عملية ميكانيكية بل عملية إبداعية تتطلب الصهر والاستخلاص وابتكار الجديد، أي تجريد ما هو جوهري والارتقاء به ضمن جدلية علاقته بالواقع، وتحديداً الانتفاض.

لا زالت الحاجة ومتطلبات العمل تستدعيان انتداب كادر «ن» إلى «السياسية» بما يوفر إسهاماً مباشراً في القرار واكتساب خبرة جديدة. واضح لنا أولوياتكن التنظيمية وسعة المسؤولية وتشعبها كما حجم الانجاز الواعد والمبشر، ناهيكم عن الدور الميداني الجدي والرئيس، ولكن ما تراكم يسمح بالتمهيد، في العام المقبل، لانتداب كادرات «ن» لهيئات معينة... سياسية، فكرية، تنظيمية... على غرار الإطار الديموقراطي، بل من الضروري متابعة عمل الإطار ولوحته في علاقة تكاملية مع المرجعية الجماهيرية، فثمة تداخلات كبيرة هنا/ ونعلم علم اليقين أن الامتداد الحزبي في الإطار الديموقراطي وشتى الأطر الديموقراطية هو العمود الفقري والضمانة الحاسمة لوجود وتطور الأطر، فالحزبي والديموقراطي متواشجان، كلما كان الأول قويا وفاعلا كان الثاني قويا وفاعلا، والعكس صحيح، في تغذية متبادلة، وهذا نلحظه بالملموس والمعطيات في عشرات وعشرات المواقع. مثل هذا الاستخلاص النظري بداهة يفرض جدلية الأولويات التي قد تكون هنا في لحظة وهناك في لحظة أخرى ارتباطا بحركة الواقع والمهام...

الألوية واضحة في م.ن، وهذا لا غبار عليه بتاتا، بل تنسجم مع الأولوية الحزبية عموما، إذ ينبغي تكريس التقاليد الحزبية وتوسيع العضوية لرفع نسبتها في القوام الحزبي، والحال في الوطن أفضل من ناحية نسبة المرأة سواء في البنية الحزبية أو الديموقراطية وتكاد تكون ضعف نسبتها في الخارج، وهذا ما كان ليكون لولا مثابرة وتضحيات م.ن وكل الرفيقات. ونسمع قصصاً بطولية هنا، بصورة غير رسمية، عن ساعات نشاط على حساب الأطفال وتبرعات على حساب دخل العائلة، ومبادرات مميزة وانتشار جغرافي في بيئات محافظة وجرأة ميدانية لا تخلو من مخاطره وتضحيات... ونحني رؤوسنا للشهيدات والجريحات والمعتقلات واللواتي فقدن أجنتهن وتعرضن للضرب والبطش جراء الالتحام بجند الاحتلال في التظاهرات أو ساعدن في تخليص بعض «المعتقلين»... ومئات الأنشطة... هل يمكن تصور الانتفاض الشعبي دون المرأة الفلسطينية؟ لا. وبالفعل «تنتصر الثورات بقدر مشاركة النساء فيها» لينين، الذي كتب أيضا (يقاس تحرر الشعوب بقدر تحرر النساء)، وقبل

الفكر الاشتراكي كتب المفكر الانجليزي جون ستيوات ميل (إن المبدأ الذي ينظم العلاقات بين الجنسين القائم على إخضاع المرأة لسلطان الرجل واستكانتها لنواهية وأوامره لهو مبدأ خاطئ في جوهره، وفي هذا الخطأ يكمن الخطر عليها والعائق المنيع في طريق تقدم البشرية ورفاهتها ولهذا وجب إحلال المساواة التامة بين الجنسين، وهذه أكثر المشاكل صعوبة لأنه يتعين محاربة الشعور العام الذي رسخت جذوره في نفوس البشر والذي يقول: للرجل على المرأة حق الطاعة وإنهما ليسا متساويين) علما أن البشرية كانت تعبد الربة (عشتروت وايزيس...) قبل أن تعبد الرب منذ أربعة آلاف سنة، وقد سادت العائلة الأمومية التي تقودها النساء مئات آلاف السنين قبل ظهور الملكية الخاصة وانقلاب الرجل... وفي الاقليم تزامن ذلك مع التوراة. وما نشرته من منظورات. المهم إن المرأة الفلسطينية تكسر صدفة دونيتها وتؤكد مساواتها في ساحات الانتفاض الشعبي بما يتجاوز كثيراً المفردات الليبرالية... وبكلمات غرامشي (إن تشكيل شخصية نسائية جديدة هي من أهم القضايا التي يواجهها أي نظام أخلاقي ومدني... لتحقيق النساء طريقة جديدة في استيعاب أنفسهن ودورهن)، وها هي المرأة الفلسطينية تقتحم لحظة كبرى لصناعة التاريخ وتسهم بدورها في صنع نفسها وصنع التاريخ وصنع قاعدتها المنظمة أداة كفاحها الأهم...

ومن المؤكد أن الانتفاض قد دفع الوعي ودفع المجتمع لإطلاق أيدي المرأة للمشاركة في معركة كبرى، سيكون تاريخنا ما قبلها وما بعدها، بل إنها قد تبلور خلال عامين ونصف مئات الكادرات النسوية خبرة وجرأة وثقة بالنفس، وبإنصاف نقول إن كادراتنا النسوية، يقفن في الصف الأمامي... وهناك مشاركة واسعة ورئيسة في جميع تمظهرات الانتفاضة من إضرابات وصدامات وتظاهرات وو... ناهيكم عن التمايز في الجمعيات التعاونية والاقتصاد البيتي والخدمات الصحية... الخ، ولا ننسى أبدا الموقف الجماعي للأسيرات اللائي رفضن إطلاق سراح بعضهن واستبقاء البعض الآخر، وفتح البيوت لمئات المطاردين وآلاف الشبان الذين يعرجون على أي منزل عشوائيا إفلاتا من قبضة جنود الاحتلال المدججين بالسلاح والشراسة العنصرية...

وعلى شاشات التلفاز وفي الأزقة والشوارع نرى المرأة الفلسطينية تشمر عن ساعديها لإلقاء الحجارة على قوات الاحتلال وحمل أكوام الحجارة للشباب... إنها لوحة تنضح بالعنفوان والكرامة والتحدي والسوائية... وهذا موضوع تعبوي هام، إذ لا يجب أن نسمح بالغطرسة الذكورية والثقافة الذكورية والتقاليد البالية. هنا الوردة فاقفز هنا. لقد قفزت المرأة على الأشواك وقطعت حقولاً من الألغام وكسرت الكثير من القيود لتتبوأ هذه المنزلة الرفيعة في النضال، وهذا بطبيعة الحال لن يرضي الكثير من الرجال بل هناك كثرة تعمل ليل نهار لفرض النقاب ولباس معين على المرأة واختزالها إلى مجرد ماكينة تفريخ، ودرجة أدنى من الرجل، ومصادرة عقلها وإرادتها وحرية اختيارها بفرض وصاية ذكورية عليها، الأب، أو الأخ أو الزوج وحتى الابن، وكأنها منغولية لا عقل لها ولا شخصية قادرة على التصرف، وتكفير تفكيرها وعدم الاعتراف بكفاءتها، ويجن جنون الكثيرين إذا كانت مسؤولتهم في العمل أو... امرأة...

ومواقفنا واضحة والتعبئة بها جارية على قدم وساق، كما أن جهودنا لا تتوقف لبناء قاعدة نسوية منظمة، أي الجذع الحامل لأفكارنا التحررية والثورية والمساواتية...

هناك عشرات وعشرات الرفيقات اللائي عشن تجربة القواعد الفدائية في الأردن ولبنان، وهناك من اجترحن مآثر تتحدث عنها الصحافة لهذا اليوم، وهناك من قاتلن في حصار بيروت وحرب المخيمات... وهنا لدينا مئات الرفيقات وآلاف العاطفات ينخرطن في خندق الانتفاضة ببسالة، ويعمدن انتماءهن الوطني ورؤيتهن التحررية والمساواتية بالدم والسجن وسيل من المعانيات والتضحيات، فضلاً عن الأعباء التي تحال على المرأة بعد أن تفقد زوجها أو ابنها... فشفافية المرأة هنا تدفعها للاضطلاع بالمسؤولية قبل غيرها... لقد أصبح لدى شعبنا عشرات وعشرات آلاف الأمهات ممن خبرن تجربة الاحتكاك المباشر بجنود وشرطة الاحتلال أثناء ترددهن على السجون...

ودون إسهاب، فذاكرة الحزب حافلة بأسماء رفيقات ومهمات لا يقوى عليها ويتقنها إلا المرأة، ومهمات ينبري لها طلائعيات استثنائيات (وداد قمري في بدايات تأسيس الجبهة، ليلى وخطف الطائرات، والشهيدة شادية) وقائمة طويلة محفوظة في ذاكرة وعصب الحزب... كما إنكن مؤشر أيضا...

أيتها الرفيقات في م.ن نشد على أيديكن بقوة الثوار الذين يأبون التهاون والتردد، ويستمدون عزيمة من صلابتكن... فكتيبة الشعور الطويلة في الثورة الفيتنامية، كان لها سمعتها وهيبتها الاستثنائية، والنساء في مؤتمر البوليساريو حسمن ترددات وتناقضات الرجال، وفي فدائيي الشعب كن خير سنيد وشريك لتهدئة الحساسيات والتباينات بين الرفاق الإيرانيين وقد عشن حياة المطاردة في البيوت والأماكن السرية، أما رفيقاتنا في حزب العمال الكردي التركي فقد تجاوزن كل التجارب، والأمر ينطبق على الحركة الثورية في المكسيك...

والآن إلى النقاط المحددة المتصلة بالتقرير الأخير:

١- يثلج صدورنا جملة التقاليد التي تتكرس بتواتر سيما جماعية المستوى الأول والمستويات الأخرى، ونلاحظ إنتاجية وانتظامية م.ن وارتقاءه في سلم التطور بما هو ضمانة أن يقطر كل المنظمة بنفس الاتجاه، ولافت تماما الروح العملية وعدم تبديد الوقت في الشكلانيات، ونذكر دائما كادرنا في «م» التي تدوم «زيارتها» دقائق على الباب أو داخل البيت لتمرير موقف أو تلقي جواب، «فالزمن عامل العوامل» دوبريه، ونعترف بأننا نفتقر للترف الذي يسمح بتسرب الوقت من بين أصابعنا إذ ينبغي تكريسه لانجاز شيء ما... وجدولة الاجتماع والتعرض للبنود الواحد تلو الآخر دون إسهاب في بند على حساب بند آخر، والتركيز على البند الأساس، هو بلا ريب يساعد في استثمار الوقت وعدم تأجيل أي موضوع. إذا لا يجب التأجيل، تحسبا أن يعود ذلك بالضرر، إلا إذا كان طابع الموضوع يسمح بذلك، فالعمل سلسلة حلقات وأي استئخار أو خلل في حلقة إنما يجر أضراراً على سواها بما يشبه القول (المؤمنون كالجسد الواحد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)، والروح الجماعية تجلت بأعلى مستوى في بداية الدعوة المحمدية، ولكن هذا لم يصمد بعد تشكل الدولة/ الإمبراطورية وتبلور الطبقات وصراع مراكز النفوذ على السلطة وامتيازاتها... الأمر الذي كتب عنه ابن خلدون في مقدمته من ناحية عامة، وكتب عديدون عن الصراع بين المدينة والصحراء، المركز والأطراف، الارستقراطية وعامة الشعب، علي ومعاوية،... وبلا شك فإن اجتهادات

عمر وانجازاته صفحة خالدة في سجل التاريخ، أما علي فهو المعبر عن الطبقات الشعبية والفئات المظلومة، انه يسار زمانه وفقيه زمانه، وبذبحه وعائلته إنما ذبح اتجاه بأكمله، ولاحقا ذبح القرامطة بعد أن حكموا عدة ولايات بما فيها فلسطين، ومؤخرا ذبح اليسار المصري والسوداني، وعلى الأرجح إن تتوجه النبلة نحو اليسار الفلسطيني وقد اشتد ساعده في جغرافيا سياسية يمينية وبترو دولار متأمرك. ويكون علينا والحال هذه أن نحمي أنفسنا وان نضطلع بدورنا، وفي المقدمة الهيئات القيادية ناظمة وموجهة العمل...

كما لفتنا التوسع وزيادة العضوية كمرآة كاشفة لدينامية المنظمة وتفعيلها والتلاحم مع الناس والتواجد في صفوفهم ومناشطاتهم. فما تحقق هنا جيد جداً ويؤكد على إمكانية السير خطوة أخرى. إذ لا ينبغي السماح بوجود خلية دون سياج حلقي، أو خلية وسياج حلقي دون مهام في الإطار وأية مؤسسات أخرى، وانخراط الجميع في الميدان، فميدان الانتفاض هو المحور الذي ينبغي الالتفاف حوله وإدامة دورانه، وهذا المحور مستهدف تماما من إجراءات وبطش العدو (النواة الصلبة) والتحركات السياسية الأمريكية والوفود التي تتقاطر ليل نهار للوطن عساها تعثر على بوابة لاختراق قلعة الانتفاضة وإجهاضها.

يسبق كل ذلك بداهة سلامة المستويات الكادرية وتعزيزها فهي (الوسيط بين القيادة والقاعدة) غرامشي، وترميم أية ثغرة فوراً، ومن الواضح أن تنامي العملية التنظيمية يحمل معه تبلور وصعود كادرات جديدة (كادر رابطة أو مهام تعادل ذلك) بما يتصل بذلك من خبرات عملية ووعي فكري وسياسي وثقافي. فالكادرية ليست عملية شكلانية بل مضامين قبل أي شيء آخر، وأحد عوامل جفاف روح الحزب الشيوعي السوفييتي رغم انه ١٩ مليون عضو و٢٥ مليون كومو سمولي هو اوامرية القيادة وعدم تدريب الكادر على المشاركة والنقد والاحتجاج، فهو مسلوب الإرادة النقدية، الأمر الذي ساعد غورباتشوف على التحكم بدفة الحزب والنظام والانعطاف بهما ١٨٠ درجة، بصرف النظر عن تقييمنا للمرحلة السابقة.

من المفيد قراءة كتاب (فلسطين والاتحاد السوفييتي) للباحثين قطامش والنوباني الصادر عن "الزهراء".

وعليه، فإننا لا نتردد في الطلب منكن رفع صوت النقد (فمن يسكت صوت النقد عضو لم يفصل بعد) لينين، ونرحب بأية انتقادات في مختلف الميادين كما بأي اقتراح أو وجهة نظر، بل إن هذا ضرورة حزبية ذلك أننا نستند لما هو جوهري ومفيد، في انتقادات واقتراحات ووجهات نظر الرفاق والرفيقات، في صياغة التوجهات والقرارات وما يصدر من نشريات. إننا كالمصفاة وبكلمات ماو (من الجماهير إلى الوعي المجرد ومن المجرد إلى الممارسة) و(الجماهير وحدها القادرة على حماية القيادة) الحكيم، فما بالكن ب م.ن ورفقاء الحزب شركاء العمل والتضحيات والحلم؟

وبالمناسبة، يقضي توجهنا العام ترفيع كادرات ومفاصل لأعلى، إذ ثمة نقص هنا اتصالا بتوسع العمل وما تحصده الاعتقالات، والمناخ السائد، نريد شركاء لنا، بما هو عكس التراتب البيروقراطي الذي يحرص كل الحرص على الخانة/ الكرسي وامتيازاتها، فلا امتيازات لدينا سوى ساعات عمل أطول ومخاطر أكثر وإهمال العائلة والشأن الخاص وشهور أزيد في الزنازين، أما التفرغات فقد قلصنا الحقوق إلى الثلثين منذ

زمن دون أية امتيازات علاجية أو لوجستية للأعضاء المركزيين، فما يحركنا هو (الحافز الأخلاقي) جيفارا، وليس الحافز المالي وتجلياته، وبهذا إنما نتصرف وفق مبادئنا ونصون أنفسنا. فالمال قوة ومتطلب حياة ولكنه يفسد الضمائر ويثلم نصل الثوريين والثوريات إذا تحول لمهماز شخصي وهدف شخصي، فمنذ آلاف السنين يدور صراع بين المبادئ والمال، وقد اخترنا الأول، بل المبادئ كان لها دور الرافعة للتاريخ... فالمسيحية والإسلام والبوذية والكونفوشية والرأسمالية والاشتراكية... التي جاءت معبراً عن قضايا المجتمع والاقتصاد، في أزمانها، إنما لعبت دور الروح والدماء القانية لتغذية عضلات وخلايا جسد التاريخ... دون الإسهاب أكثر في علاقة الوعي والاقتصاد بالتاريخ، ونظريات الجابري وماركس ونقاشات لينين – تروتسكي – مندل – لوكاش... حول هذه المسألة.

في إحدى رسائل لينين لقيادة الحزب البلشفي تعليمات صريحة: نريد عاملين أو شابين للجنة المركزية، ونحن نقول نريد ٤ – ٥ كادرات نسوية لمهام قيادية ووظيفية، يمكن أن ينتقلن حزبيا أو وظيفيا وحسب... واختيار الوقت نتركه لتقديركن لتكون هذه الخطوة للأمام لا للوراء... والتفاصيل لاحقا.

إن موقفنا من المرأة ليس موقفا فكريا يساريا وأخلاقيا فقط، بل إضافة لذلك سياسيا، فالرفيقات ركن ركين في البنية والمرأة الفلسطينية ركن ركين في الانتفاض والنضال الفلسطيني بأسره. والاهم من الموقف أننا سكبنا جهودا مثابرة لتأسيس وبناء م.ن وإطار م، أي الفرع الذي يحمل أغصان الموقف، ناهيكم عن توفير المناخ والحاضنة لبلورة فريق من الكادرات اللواتي سيكون لبعضهن شان عام في المجتمع في مقبلات السنين.، بما يحيط بهذه الصيرورة من أجواء تحفيزية وعملية وسيكلوجية... على طريق تحرير المرأة ومساواتها وتحرير الوطن واستقلاله وتحرير العمال والشغيلة وإنهاء الاستغلال (إننا ضد كل استغلال طبقي وقومي وجنسي وديني) لينين، ونعمل بوحي هذه الكلمات للسير بقضية التحرر لأبعد مدى وفهم خصوصية المرأة وحقوقها وهمومها لأبعد مدى أيضا... وقد أحرزنا نجاحات ملموسة عكسها فيما عكسها تقريركن الأخير... وهذا يتجاوز كثيرا لعثمات الخطاب الليبرالي المبعثر من خلال أكاديميات وبرجوازيات درسن وعشن في العالم الغربي، مع الترحيب بأية تقاطعات على موقف واحد أو أكثر... أما برنامجنا فهو اشمل من هذه اللعثمات بكثير... انه يسعى لإرساء أدوات التغيير التاريخي بما يتطلبه من رؤية وتعبئة ونضال دؤوب... ولكن، على الأرجح، أن تتنامى هذه اللعثمات، مستقبلا، اتصالا بأساسها الاجتماعي، فثمة فئات وسطى تتسع في مجتمعنا وخريجات جامعيات من بينهن خريجات من جامعات أوروبية وأمريكية... ومن الاتحاد السوفييتي أيضا الذي نشهد هذه الأيام عملية تفككه وتأزمه...

واسمحن لنا بالتشديد مرة أخرى على حاجة الحزب والنضال والمنظمة النسوية على حد سواء، ثمة تناغم هنا، اجل ثمة حاجة لرفيقات قياديات، والقائد يبرر نفسه من خلال نجاحه في تأدية مهام قيادية على مستوى الوطن، بما يتجاوز كثيرا مهمة تنظيمية مناطقية أو مهمة محلية إعلامية أو أكاديمية أو... فالقائد يتولى مهامَّ أكثر تشعبا وأكثر اتساعا بما يتطلبه من سجايا واستجابات. وغرامشي كتب (إن المثقف الجديد لا يكون بالبلاغة التي هي محرك خارجي آني للعواطف، بل بالمشاركة النشطة في الحياة العملية كبنّاء ومنظّم... لا يوجد تنظيم

دون مثقفين ومنظمين وقادة...) هذا النمط هو المطلوب... ويخالجنا اعتقاد قوي أن من بين صفوف م.ن ستنهض رفيقات قياديات، وقد قطعن شوطا كبيرا، بما يشجع على المضي للأمام في تجشم المزيد من المهام والعمق في الثقافة والفكر وتنوع التجارب...

وفي العادة فإن بعض القادة من الرجال ينحرفون ويرتدون لأسباب عديدة ليس هنا مكان تعدادها، ولكننا لم نسمع عن قائدة نسوية انحرفت أو ارتدت حتى اللحظة، فالمرأة أكثر إخلاصا لقناعاتها وعواطفها... لهذا لم يكن صدفة أن يتبعن المسيح وان تصدق خديجة محمداً وان تتفانى كولونتالي في الحزب البلشفي وتتخلى عن حياتها الارستقراطية... وان تقتل روزا وتلقى جثتها في المجاري...

٢- لقد لاحظنا التفاوت بين منظمة حزبية وأخرى، وإضافة للتحسن في كل مكان، هناك تركيم اكبر في "٣" وضعف اكبر في "٨"، والأجواء في الأخيرة محافظة ودون تراث حزبي وطيد، وهذا وذاك يتركان أثرا، ولكننا لا نتوقف هنا، إذ ينبغي كسر الدائرة "المفرغة" بالمزيد من المتابعة والإسناد، حتى لو تطلب الأمر ذهاب كادر إلى هناك، كما على رفاقنا وضع ذلك كبند على أجندة أعمالهم، وان كنا نتوقع القليل فقط، فالقلة منهم يتشرب بموقف يساري وعصري في بيته في هذا الموضوع... لاحظن "٦" فمعظم الريف على هذا الصعيد أكثر تطورا من المدينة، وهذا شيء مغاير لقانون التاريخ، شأن بدو الجزيرة الذين هزموا مجتمعا زراعيا في بلاد الشام والعراق ومصر، في الفتوحات العربية الإسلامية، وشأن جنكيزخان الذي دحر أوروبا وأقام أوسع إمبراطورية في التاريخ... هذا يتطلب تحليلا مسهبا ليس هنا مكانه... ولكن الشهيد الجليل حسين مروة كتب في "النزعات المادية في الثقافة الإسلامية" حول ذلك، والمجلدان عظيمان حقا وسوف يكونان مرجعا للدارسين والباحثين عشرات ومئات السنين... شكرا له.

ومن العوامل المساعدة في الاستقطاب والتوسع: توزيع نشرياتنا + زيارة النساء المنخرطات في التظاهرات والتعليم الشعبي.. + توثيق الصداقات مع البعض... وفي كل الأحوال ليس كل رفيق أو رفيقة قادرين على الاستقطاب بيسر، فالشخصية المحبوبة واللطيفة والمحاورة التي تصغي وتستشعر هموم الناس، بل إن الملامح لها أهمية أيضا الوسامة للرجل والجمال للمرأة، وحسن المظهر... كلها عوامل مساعدة... فرفيق «نرفوز» ورائحة فمه كريهة من السجائر والإهمال... هذا لا يساعده في الاستقطاب... وأكذوبة ما يروجه البعض على لسان جيفارا (تعرف الثوري من رائحة فمه) فتجربته في السيرامايسترا في كوبا وبعدها في أدغال بوليفيا حيث استحم لأول مرة بعد ستة أشهر ارتباطا بظروف المعركة... وقبلئذ جولته في كولومبيا وغواتيمالا وسواهما... هي تجارب في غاية الصعوبة لا يقوى عليها إلا الأفذاذ... أما احد عناصر شهرة وجاذبية جيفارا فهو وسامته الطاغية ونظافته بطبيعة الحال، ولكنه رجل معركة واصطبار في زمن المعارك والقساوة...

ينبغي الانتباه إلى أن الكثير من نشيطات المرأة ينحدرن من البرجوازية الصغيرة وهؤلاء خريجات جامعيات ومن اسر لا باس بأوضاعها المعيشية، أي أنهن متحضرات ويرتدين ملابس جيدة... وهذا النمط لا يجتذبه أشكال رثة ورائحة معرورقة... فالمجتمع لا يعيش في قاعدة فدائية أو في السييراماسيترا أو في قرية زراعية

بدائية لكي تتساوى المعايير وتنخفض إلى مستوى المتطلبات الطبيعة فقط، فالحضارة أرست معايير إضافية لا يجوز الاستخفاف بها... وموجة الهيبز من الرجال والنساء في أوروبا الذين يفترشون الأرصفة ولا يعرفون الاغتسال والأناقة اندثرت ولم تتحول لمركز استقطاب، بينما نسعى لكيما نتحول لمركز استقطاب فاعل في التاريخ بما يتطلبه ذلك من اشتراطات، أحدها تصويب الفهم الخاطئ سالف الذكر... وربما أنكن سمعتن عن قول الموسيقار عبد الوهاب (انه لا يستطيع تصور المرأة دون كعب عالٍ) بالمعنى النسبي للكلمة، أي أننا لا ينبغي أن نبالغ في الشكلانية على حساب المحتوى، ولكن مشكلة أقسام من الرفاق والرفيقات ليس هنا، بل في إهمال الشكل بإهمال نسبي للاغتسال ونظافة اللباس وجهل الجوانب التجميلية... وهذا سلوك شخصي، ولكنه يحمل بعدا سياسيا أيضا، إذ أن أوساطا اجتماعية تنفر من هذا الإهمال... ومفارقة لها دلالة أن يزور احد الرفاق بيت عائلة رفاقيه: زوج وزوجة وطفلتهما، ونظرا لتأرقه ليلا فتح الثلاجة لعله يعثر على شيء يطفئ جوعه ليجد مجرد علب سجائر، أي لا يوجد حليب للطفلة، والفصل كان شتويا ورائحة الدخان تزكم الأنوف، أما العناية بالأسنان فهي ليست كما يجب... هل حقا أن هذين الكادرين يعكسان صورة اليساري... فلو كانا في قاعدة جبلية أو يشاركان في حرب لفهمنا ذلك واحترمنا شظف العيش وقساوة الموقف... بما يذكرنا بأيام الزنازين حيث يحرم المناضل من الاغتسال أو تبديل ثيابه أو استخدام معجون الأسنان، فيصبح اقرب إلى دب بري، بغية الضغط عليه، أما أن تتسرب العبثية إلى حياتنا، وبعدها يشكو هذا أو ذاك من فشل في استقطاب أوساط اجتماعية... فالخلل فيه... واحد مظاهر الخلل منظره المنفر... ولا ننسى عادة التدخين المنتشرة بين بعض الرفيقات، سيما في المدينة، وهذا سلوك شخصي بطبيعة الحال، الأمر الذي ينطبق على الرجل، ولكننا نسمح لأنفسنا باستدعاء كلمات الكواكبي (تتذمرون من التخلف وانتم تنفقون على السجائر أكثر مما تنفقون على التعليم). بما يستنزف الجيب ويستنزف الصحة والعمر ويجعل رائحة الفم كريهة وهلالة سوداء تحت الجفنين... ألا توجد أولويات أخرى لصرف مداخيلنا الفقيرة أصلا... أليس مزاولة الرياضة وطعام صحي أفضل من ذلك؟ هذا مجرد رأي شخصي من كاتب هذه الرسالة. ولان رفيقاتنا أو غالبيتهم طلائعيات الأمر الذي برهن عليه في سنوات النضال والتضحية ومخاطر الفعل الانتفاضي... نفضل إبعاد أي شر عنهن، بل إننا في وقت من الأوقات، ربما قبل عقد من السنين عممنا في «نشرة الرفاق» بعد ان رشح الينا شكوى بعض الرفيقات يواجهن صعوبة في الزواج، نظرا لميل غالب الرفاق للزواج «البراني» ونظرة بعض الأوساط الاجتماعية السلبية نحو المرأة المناضلة سيما اليسارية... لقد عممنا تشجيعا للزواج «الجواني» بناء على عاطفة واختيار شخصي بطبيعة الحال... «بنت عمك تحمل همك» حسب التعبير الشعبي، والرفيقة تتحمل الرفيق واحدهما يفهم الآخر ويفهم بواعث بعض التقصيرات العائلية والاعتقال... كما أننا جميعا بحاجة لمضاعفة القاعدة المنظمة في النضال... ودعونا نستدعي كلمات ماركس (إن علاقة الرجل بالمرأة هي العلاقة الأكثر طبيعية بين الإنسان والإنسان التي يظهر فيها إلى أي حد أصبح إنسانا) ذلك أنها تكشف في النهاية إلى أي مدى هي علاقة إنسانية، وإلى أي مدى تم تجاوز الاستلابات كافة.

ولا تفوتنا القاعدة، أن لدى الناس طاقة هائلة، والثورة تتطلب طاقات هائلة، لذا لن نتردد في مطالبتكن بالمزيد على صعيد كيفي يتصل بالتقاليد الحزبية والتثقيف والاحتراف... وكمي يتصل بالمزيد من المهمات

والتوسع والنشاط الخارجي... بما يضمن الحفاظ على موقع م.ن في الصفوف الحالية بل في الصفوف الأمامية... وهذا يتطلب خطة ملموسة في ٨ + ٥ + ٢ على وجه اخص، بل في كافة المواقع... ننتظرها في غضون شهر – شهرين بحيث تنجز إلى نهاية العام الحزبي، بالاستناد إلى مؤشرات الخطة العامة للحزب، مع تمايز وخصوصية هنا. والتمايز هو مزيد من العمل ومزيد من الانجاز... أي ليس فتح باب السيارة للمرأة أو إطراء تسريحة شعرها... رغم صوابية وأهمية ذلك في العلاقات الإنسانية.

من فضلكن فحص ما يدور في «٤» فالتقرير هنا ضبابي وربما مقلق... هل ثمة خلل ما؟ لا يحب استئخار معالجة أي خلل أو ترحيل أي مشكلة، ليعالج كل شيء أولا بأول دون استئخار.

٢- ربما معلوم، أو غير معلوم، أن أرشيف الداخل لدى المركز، من نشريات وتقارير ومراسلات... بما في ذلك بعض ما يصل منكن، هو متاح للاطلاع عليه، وهو مادة خصبة ومحفزة كما نسمع، وهذا ما لم يكن في سنوات سابقة. فانجازات الداخل والمستوى الذي بلغه هو الأساس الذي أفضى لذلك، وهنا يمكن أن نستذكر مبدأ الجزء والكل في المنهاج الديالكتيلي... ولعله يكون لدينا فعلا ما يدفع بنظام الكل للأمام وأعلى، أما الانتفاضة فقد وفرت الشرط الأساسي الموضوعي... و«اللعبة» الآن في العامل الذاتي... وهذا هو التحدي الأكبر. ومثلما كنا نتعلم في وقت سابق من تجربة المقاومة في الأردن قبل مجازر أيلول، وتجربة المقاومة في لبنان حتى أواسط الثمانينات حيث جذرت وجودها في تجمع فلسطيني محدود، وخاضت معارك وحروباً وتعرضت لمذابح شتى عنصرية إسرائيلية ومذهبية وكتائبية وو... «لقد وجدتم في لحظة خاطئة» قالها زعيم عربي، أي بدل تدعيمنا للعب دور طليعي أو تحريكي للركود العربي جرت محاصرتنا للعب دور طلائعي يسهل عزله وذبحه، ويبدو أنها باتت تتوافر لدينا هذه الأيام في الداخل ما يمكن أن تتعلم منه المقاومة والحزب على حد سواء.

ربما لن تكون سلسة هذه العملية... إذ ثمة خشية في تونس من استقلالية قرار الداخل وتهميش قيادة م.ت.ف، علما أننا في الداخل نسعى لكي تكون م.ت.ف أبانا وأمنا وجناحاً ثانياً للطائر، لأننا وحدنا لا نستطيع الطيران نحو الحرية والاستقلال. دون أن ننسى أن العقل الفصائلي بمجمله لم يعتد أن ينظر للداخل كشريك في التفكير والقرار والمراتب المركزية، وفيما عدا الحكيم الذي يفاخر بالداخل ويبني عليه آماله، حتى أن لديه تصوراً ما لمركز الحزب وأمينه العام المقبل، فثمة أمور تتوجب «تسوية» لكيما يسير مبدأ الجزء والكل بيسر... و«التسوية» نفهمها «بالعمل المتكلم» الذي يثبت نفسه في الميدان وفي الإنتاج الفكري على حد سواء... بل شغلنا الشاغل من الألف إلى الياء في الداخل هو الانتفاض وبناء الحزب حيث نتجشم أعباء عظيمة تتطلب كل رحيق جوارحنا ونبض قلوبنا وكل خلية في قشرتنا الدماغية... ولنترك لغيرنا أية اهتمامات أخرى... والمسالة بضبطها فهمنا للحلقة المركزية والأولويات... إذ لم تعرف مسيرتنا هنا ترف فائض الوقت والبطالة المقنعة بما يجعلنا ننشغل بالألقاب والمماحكات... بل إن أهم المفاصل ينفرون من ألقابهم المركزية. فجيفارا نموذجنا الذي تخلى عن لقب وزير ومدير البنك المركزي وذهب للقتال في الكونغو وبعدها إلى بوليفيا ليستشهد هناك... هذا نموذج حقيقي وقائد حقيقي، ودون تعميمه بدرجة أو بأخرى لا حزب ثوري ولا انتصار... فلا يمكن

في التنظيم الثوري السري

أن نهزم دولة تكنولوجية نووية بقيادات نصف موهوبة أو نصف كفوءة... لنتذكر التجربة الفيتنامية وتجربة الحزب البلشفي، والذي شاهد – هذه إضافة – فيلم «ناجي العلي» للفنان نور الشريف يبكي ويضحك ويحزن ويفرح في آن، بل إن هذه التداعيات تصلح مادة خاماً لرواية سيكولوجية، ولو كان ديستوفكي حياً لكتب جزءاً آخر للجريمة والعقاب!).

مرة أخرى ينبغي فحص إفرادي لعضوات الحلقات المميزات اللائي يمكن ترشيحهن للحزب بعد المرور بمرحلة انتقالية يشرح فيها النظام الداخلي وقضايا فكرية وسياسية عديدة تشكل ملخصاً لرؤيتنا البرنامجية، علاوة على تكليفهن بمهام عملية محددة سيما انتفاضية وفي «الإطار» والتأكد من انتظام اجتماعاتهن وتسديد الاشتراك... الخ، إذ لا ينبغي الهبوط بشروط العضوية. فالقاعدة مرآة للحزب، وكلما ارتخت والتبست إنما تكون مرآة لارتخاء قيادة الحزب والتباس خطه وتفكيره، ناهيكم عن صفات الصدق والشجاعة والتضحية والتمرد على التخلف... ومفيد التحدث عن:

٤- أمنياً: ١- منذ فترة رفع الحزب شعار (الاعتراف خيانة للحزب وتفريط بشرفه) بما ينطوي عليه ذلك من إجراءات توازي حجم الاعتراف، وهذا يشمل الفصل من الحزب أحيانا. وقد تم فصل «كادر» وهو في الزنازين بعد أن «وشى»، نعم فالاعتراف يعادل الوشاية أحيانا، برفاقه في لجنة كادرية، ولولا صمودها لتعرضنا لضربة موجعة، إلى درجة أن يعطي تقديراته عن أشخاص لا صلة حزبية له بهم... وكان هذا السلوك الذلول هو الاستثناء والشاذ إذ أننا منذ عقد ويزيد لم نعرف اعترافات وانكسارات في الصفوف الكادرية، بل لولا الصمود المشرف لما ارتفع صرح الحزب وراكم ما راكم، وهذا ينسحب على بعض الرفيقات أيضا...

فالصمود في الزنازين معيار أساسي في تقييم الكادر، والصمود لم يعد مسالة فردية فهناك المئات من رفاقنا الذين سجلوا مأثرة صمودية وتحديا نفاخر به، بل إننا نتمايز هنا على القوى الأخرى دون لبس أو إبهام، حتى أن ضباط مخابرات العدو يعترفون بذلك.

وثمة جوانب أخرى تساعد على صمود المرأة في الزنازين إذا تلقت التربية والإعداد المسبق، أي إضافة للقناعات الفكرية والسياسية والتثقيف الأمني الذي يشمل الجميع، هناك ١- حافز ذاتي يطيح بالنظرة الدونية للمرأة بأنها اقل صلابة أو اقل كرامة أو اقل إرادة... فهي لا تستسلم لهذا المنظور الرجعي الأمر الذي يحفزها على تأكيد إنسانيتها وصلابتها... ٢- نعتقد أن المرأة الفلسطينية أكثر صفاء وانسجاما، فلم تتطبع، وهي تجاهر برفضها للاحتلال والتمرد على ضباط مخابراته، فهي أشبه بالفرس البرية- معذرة على التشبيه- التي لم تعقل بلجام الاحتلال، ويندر احتكاكها المباشر بالاحتلال، بخلاف مئات آلاف الرجال الذين اضطروا للعمل في المشاريع اليهودية أو اعتقلوا مرة ومرات... ونعتقد أن هذا يجعلها اقرب للتكوين الفطري الذي ينزع للحرية بل هي أكثر شفافية في الرغبة «بالثأر» للرجل الذي يتعرض للتنكيل والمهانة، وقد قرأنا عن شيء من هذا القبيل في التجربة الفيتنامية.

المهم هو عدم الانصياع والتحدي مهما كان الثمن، سواء تعرضت الرفيقة للبطش والصفع، أو التهديد بالاعتداء الجنسي أو تشويه السمعة أو أو...

وقد بات لدينا عدد من الرفيقات الصامدات، مثلما أدنا دون مواربة تلكم الرفيقة التي هددها ضابط المخابرات بالاعتداء عليها بعد أن أراها صورة فاضحة ولامس فخذيها وصدرها، وكأن جسمها أهم من الوطن والنضال وأسراره... علما أن كادرين نسويين من رفيقاتنا تعرضتا للفظاعات حد تعرية إحداهن أمام والدها والضرب على أنحاء جسدها وهي عارية بما يصاحب ذلك من تحرشات، وأخرى تعرضت لما هو أكثر بإيلاج قضيب خشبي بما أذاها فعلا... لكنهما سجلتا موقفا مشرفا، كانت المرحلة فدائية صرفة... هذا هو النموذج الذي يحتذى ونطرزه على راياتنا... أما معظم اللواتي يتعرضن للاعتقال فالتعذيب يكون اقل قسوة.... والمضمون الجوهري ليس حجم القسوة بل حجم الصمود... فالكثير منا تعرضوا لقسوة فظيعة ولكن النتيجة هي ما نعبئ به اليوم ونتكئ عليه كمعيار ملزم لجميع الكادرات والرفقاء إجمالا...

علينا أن نتخلص من تخلفنا، فهو سلاح يستخدم ضدنا... وصادق جلال العظم في (النقد الذاتي بعد الهزيمة) أشار إلى أن احد أسباب النزوح من الوطن أثناء حرب ٦٧ هو «الشرف» وكأن شرف المرأة هو هذه الزاوية الضيقة، وليس شرفها الوطني وشرف الوطن والصمود في الوطن... وتم إسقاط العديدات لان العملاء صوروهن في علاقات مع «أحباء»، فضاع «الشرف» وضاع الشرف الوطني وو... بل استخدمن ثانية لإسقاط غيرهن، فيما نساء أخريات تمردن على هذه الصور وعلى التهديد بنشر الصور. (هذه مسالة شخصية ولا تهمني تهديداتكم)... وتلك الصبية من الشمال أقدمت على الانتحار بعد تهديدها بصورة...!!

صحيح أن للمرأة خصوصية، وصحيح أنها موضوع التهديد... ولكن صحيح أيضا أنها إنسان كامل الإنسانية وأنها وطنية كاملة الوطنية، ولديها القدرة على رفض اختزالها وتشويه إنسانيتها، ولديها القدرة على حماية وطنيتها فلا تنكسر أمام موقف من هذا القبيل...

هل قرأتن «فارس الأمل» لجورج أمادو أو «دعوني أتكلم» لدومتيلا او قوس قزح أو كتاب يوليوس فوتشيك... لقد طبعناها كلها في أوقات سابقة... فالمرأة كائن شفيف مرهف ولكنها متفولذة ومجالدة على نحو استثنائي أيضا... علينا التحرر من النظرة السطحية للمرأة... إننا طلاب ثورة بما تمليه علينا الثورة وما توجبه من تضحيات منسجمين ومتناغمين مع كلمات كاسترو (الوطن أو الموت) و(الم يحن الوقت لوضع حد لهذه البشاعة المزرية)، اجل (الاشتراكية أو البربرية) ماركس. وما نموذجكن سوى دليل على ذكاء كبير وثورية فوارة، يزكي ذلك منجزاتكن وما طرأ عليكن من تحولات جذرية تنسجم مع منظور لينين للمحترف الثوري، المحترف الثوري الذي يعطي الحزب عمره وطاقاته.

وقد لاحظنا في وقت سابق توتر العلاقة بين «إحداكن» ومرجعها، ونظن أن ذلك بات من الماضي. فطالما أن الحزب باعث للأمل الجماعي فينا وعلى صواب فمن الطبيعي أن نعطيه دمنا وحياتنا وكل وقتنا. أما التعارضات الجزئية فهي إلى زوال... والمهم أن يحل التناقض الثانوي بين الجزء والكل وبين أدنى وأعلى وبين الأفراد أو أية

نزعة أوامرية أو ذكورية... كما على الحزب أن يصحح أخطاءه أيضا.

حسبنا الفخر بإعداد متزايدة من النسوة اللواتي يشتبكن مع جند الاحتلال يوميا، وبالرفيقات اللاتي صمدن في معمعان النضال المديد سنوات وسنوات في شتى المهمات، وفي المقدمة م.ن، كما الرفيقات المشهود لهن بالبطولة في زنازين التحقيق... وكتاب «بطولات في أقبية التحقيق» شمل نصين لرفيقتين لم تستخدما لغة المؤنث لأسباب مفهومة، «والرفيقة» في الصورة...

ينبغي أن يكون جليا بحسم أن معايير الصمود تنطبق على الرفاق والرفيقات على حد سواء، والإدانة بنفس المقدار دون أية ظروف مخففة، فالمساواة تتجسد هنا أيضا، وليس فقط في المجالات الأخرى، تحدونا ثقة كاملة بان الرفيقات في «م.ن»» وسواه سيطرزن سطوراً من البطولة والصمود في زمن الحشر مثلما طرزتن صفحات من التضحيات والانجازات، والذي يبني شيئاً يحميه ولا يخدشه، والذي يقهرنا لانكافئه بالانحناء له وتقبيل حذائه. والشرف كل الشرف يتمظهر في التمرد على الظلم والإذلال.

جنبا إلى جنب مع التقيد بالضوابط الأمنية المعروفة بخصوص امن الاجتماع وامن الاتصال وامن التقارير وتفادي التعقب واجتناب الأخطاء... وان ترفع هامتها عاليا كل من تتعرض للاعتقال وان تنهي التحقيق وهي مرفوعة الهامة، فلا تنحني لأحد سيما قتلة الأطفال ومطلقي الرصاصات الحية والمطاطية على عيون النساء وبطون الحوامل... هؤلاء السفلة الذين لا تردعهم أخلاقيات الحرب. فللحرب أخلاقيات ايضا... فالذين يطلقون النار على النساء والأطفال، هؤلاء حثالة وليسوا جنودا علينا أن نحتقرهم، والذين يعذبوننا علينا أن نحتقرهم أيضا.

وماذا يتوقع هؤلاء الذين....

٥- يربكون الانتفاضة، بعد أن سرنا معاً في نضال مديد ومعارك ضروس (نحن نسير في جماعة متراصة في طريق وعر صعب... يطوقنا الأعداء من جميع الجهات... اتحدنا بغية مقارعة الأعداء لا للوقوع في المستنقع المجاور... وإذا البعض يأخذ بالصياح، هلموا إلى المستنقع) لينين. هذا حال بعض الأصوات اليوم... إن الانتفاضة في خطر، خطر تحريف مسارها، خطر انقسامها وتشظيها... عندما تباينا في «قوم» أصدرنا نداءاتنا الخاصة دون التشويش على نداءات غيرنا... وتذكرن نداء ١+٢+٣ إلى أن توافقنا وتحالفنا ثانية،وحينها كان التباين على أرضية الانتفاضة... أما اليوم فهو على الخط السياسي... المشروع الأمريكي الذي يمهد لسيرك وما ينجم عنه... هل (الرفاق حائرون، يتساءلون) بكلمات نزار التي يغنيها عبد الحليم حافظ.

ليس أمامنا سوى التشبث بحقوق شعبنا غير منقوصة، فهي ملك للشعب بأجياله السابقة واللاحقة، وليس ملكا لإفراد ونخب أو جيل بأكمله... وعلينا التشبث بالخط السياسي القومي التحرري المناهض للامبريالية والصهيونية والرجعية وليس سلخ الشعب عن انتمائه العربي فشعار «يا وحدنا» من شأنه عزلنا وإضعافنا، وهذا

عموما تتمناه معظم العواصم العربية... اذهب أنت وربك فقاتلا وخذوا معكم فتات أموالنا وصياح تصريحات الشجب منا...

أما خيارنا فهو الاستمرار في الميدان، في ساحات المواجهة مع المحتل عسانا نصون دينامية الانتفاضة واجتذاب الشارع والقوى لإدامة الاشتباك مع العدو، ناهيكم عن موقفنا الواضح الصريح من المسعى الأمريكي وجولات بيكر التي تمهد لمؤتمر هو «شاهد زور» لتصفية الانتفاضة والوثبة الوطنية المعاصرة...

قال مرة الحكيم، ما معناه، ((إننا نتحد مع القيادة اليمينية في مواجهة مؤامرات الذبح العسكري، ولكن المشكلة ما أن تلوح مبادرات سياسية، حينها يحصل الانقسام))، والانقسام الفلسطيني لا ينى يتعمق مع كل جولة جديدة لبيكر. وكان لنا تحليلنا وموقفنا المعلن في الداخل منذ جولته الأولى، وفي الجولة الثانية توحدنا في الداخل والخارج، وسوف ندأب على ذلك.

وفي التداولات هنا وهناك وفي الغرف المغلقة لا احد من الفلسطينيين يراهن على السياسة الأمريكية، وبهتت مقولة «تراجع أهمية إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية» بعد ضرب العراق... فثمة تحالف استراتيجي «بين الإدارة والكيان» بل إن النفوذ الصهيوني يتنامى داخل النظام الأمريكي... ولكن الحركة السياسية الواقعية لمراكز نافذة في القيادة الفلسطينية تسير، دون التفات يسارا أو يمينا، نحو البيت الأبيض وشعاراته الخادعة... وهذا هو الخطر الجديد على الانتفاضة بعد أن فشل الخطر الأول من إجراءات احتلالية وتكسير عظام وتقتيل واعتقال جماعي وحصار... الشعب قلعة لا تقتحم إلا من الداخل، والانتفاضة أثبتت قدرة على حماية نفسها من العدو الخارجي، أما أن تحمي نفسها من أوهام ورهانات قوى من داخلها؟ فهذا برسم المستقبل... ولسنا انتظاريين إذ نؤدي دورنا أيضا... وتدق رؤوسنا هذه الأيام كلمات مظفر النواب: صالح قادتنا الأعداء ونحن نحارب.

وختاما، ينبغي الحرص على م.ن وعلى المستويات الكادرية الأخرى والمنظمة الحزبية برمتها، إننا أمام امتحان مفصلي وانعطافي، ومثلما نجحنا في امتحان الانتفاض علينا أن ننجح في امتحان منع تصفية الانتفاض.

وسلاحنا في ذلك العقل والفعل. عقلنا الذي ينحاز للمنهاج العلمي، هذا الانجاز الذي نعتقده أهم انجاز عرفته البشرية، وبفضله بنت حضارتها في القرون الأخيرة، ولولاه لبقيت البشرية أسيرة تفسيرات السحرة وقارئي الفنجال والغيبيات، ولما بنت صناعتها وعلومها ومدينتها المعاصرة وإبداعاتها... أي كل ما نحلم فيه، أما فعلنا فهو ملموس وعلى الأرض... والى الأمام وأعلى مع المحبة والاحترام.

رفاقكم...

- الملحق رقم ٣-

الرفيق... المنظَّم الصاعد الذي يتقدم بسرعة مذهلة...

لقد لفتتنا منجزاتك والتوازن في شخصيتك وتعدد أبعادها سيما التنظيمية والفكرية، ناهيكم عن الروح الثورية الوثابة والاستعدادية العالية لكل المهام... هذه خصال يراهن عليها بلا أدنى شك، والحزب في مسيس الحاجة لها اليوم وغدا، وغدا أكثر من اليوم، وأية أبعاد أخرى إنما يكمن إكتسابها في غمرة الممارسة، والحاضنة الحزبية وتشعب وتنوع المهام كفيلان بالإضافة والاغناء. ونسمع أن طباعك صبورة وذكية وأنك تتقن الإصغاء، علاوة على الدماثة واستشعار هموم الآخرين... وهذه كلها مطلوبة.

طبعا لدينا رفاق يتميزون بأبعاد أخرى، وقد يعوزهم بعض خصالك كما يعوزك بعض خصالهم، وهذا طبيعي، والبراعة في خلق التكامل بين مزايا الرفاق المتنوعة وأحيانا المتباعدة.

اجتهادي الشخصي -أي الرفيق الذي يخاطبك- أن مواهب الحكيم المتعددة ومراسه العميق والغزير، وسجاياه العديدة... طبعا أنا لا أقوم بتقييم الحكيم، فأنا تلميذ صغير أمام قامته الشامخة، ولكنني أستخدم أنموذجة للتوصيل وحسب، فهو القائد المتسق، والحزب لم ينتج سواه كقائد عالي المستوى حتى اللحظة، بصرف النظر عن ثغرات محتملة يعتقدها بعض الرفاق أو الفهم الديالكتيكي له ولأي قائد مرموق (فيديل) هوتشي منه، لينين، جورج حنظل في السلفادور... جورج حاوي في لبنان... وذلك أن كل شيء في الكون مكون من متناقضات في نهاية الأمر.

الحكيم قدوتنا وبوصلتنا، وأتمنى لو أن في الساحة الفلسطينية حكيمين، لو أن لدى فتح حكيماً والديموقراطية حكيماً وو... ولدى الجبهة حكيماً ثانياً... فهذا يرقى بالمستوى الكيفي للقيادة ويساعد في تطوير العمل الفلسطيني، فلا اخطر من اختزال القيادة، أي الكفاءات القيادية... في فرد... فلذلك مخاطر كبيرة... وهذا ينطبق علينا في الداخل أيضا...

إذ لا يعني الحديث عن القيادة الجماعية للحزب أو الداخل أن المسألة تحصيل حاصل وان القيادة الجماعية قيادة جماعية حقا... إذ علينا أن نفحص مستوى وإنتاجية ومزايا أعضاء هذه القيادة الجماعية، وإن لم يكن ثمة مساحة كبيرة مشتركة، بين القائد الأول والبقية أو القبضة المتقدمة والبقية، فحينها، علينا أن نقلق. إذ كيف ستؤدي هذه القيادة دورها وتستجيب للمتطلب منها في غياب القائد الأول؟

لقد خسرت فتح أبو جهاد وهذا ترك فراغا وخسر حزبنا وديع وكنفاني وهذا ترك فراغا... وخسر الحزب الشيوعي فؤاد نصار وهذا ترك دمارا... هذا هو الفارق بين قائد وقائد...

وعليه ثمة خطورة أن يكون القائد فردا، والبعض يتساءل عن مصير كوبا بعد فيديل؟ اعتقد أن هذا القلق غير مشروع، فمن جهة: كاسترو فولاذي البنية وهو يعمل، ليس أقل من ١٦ ساعة يوميا في قيادة الحزب والدولة،

وساعتين رياضة... وأمامه سنين طويلة... كما أن الحزب راكم والدولة راكمت قدرة على الاستمرار رغم كرزمانية كاسترو... ولا يجب الظن أن شقيقه الذي شارك في الثورة والهجوم على قاعدة مونكادا منذ ٥٤ وأصبح وزيرا للدفاع ونائبا له، بل أنه أقدم من فيديل في الانحياز للماركسية- اللينينية، فراؤول قائد مرموق أيضا، مع الاحتفاظ بمنزلة فيديل الاستثنائية.

انظر لدولة العدو... فرئيس الأركان يخدم عامين ووزير الجيش يخدم أربعة تقريبا، ولكن ما راكمه الجيش من جنرالات يسمح له باستبدال رئيس الأركان ووزير الجيش دون اهتزازات... بل إن الكيان الصهيوني مجرد جيش له دولة. فحرس المستعمرات الذي تشكل عام ١٩٠٥ أصبح العمود الفقري لليشوف وبعدئذ الدولة فلولا قوة الهاجانا... لما حصلت نكبة ٤٨... طبعا أن الهاجانا قوية لأن الجيوش العربية هزيلة، أما الأكثر هزالا فهو الأنظمة السياسية.

كما يمكن الإشارة إلى أن غياب بيغين لم يربك الليكود اذ حل محله شامير، وغياب غولدا وبن غوريون لم يربك العمل إذ صعد رابين وبيرس، وقد عملا من قبل في مكتب بن غوريون...

فصارى القول، ماغرضي من هذه المعلومات المبعثرة غير المتسقة؟ غرضي أن تدرك وتتمثل بجوارحك الدور المنتظر منك في قادم السنين.

إنني احترم واثق تماما برفاق جايلوني عملت معهم عقدين أو أكثر، ولكني أراهن أيضا على كادرات شبابية صاعدة من طرازك. والمسألة هنا سياسية أكثر بكثير مما هي عاطفية. فقد استنزف العقدان السابقان بعض صحتنا وبعض كادراتنا الذين استشهدوا أو يمضون سنوات طويلة في السجون... أما جيلكم فشحمه ولحمه وعظمه في عزّ الشباب، ... وعلى الدوام بالجمع بين الجيلين على أساس القدرة الفعلية على الاستجابة للمهام (فمطلوب جهاز لتنفيذ سياسة لا سياسة لإرضاء جهاز) وأظن أن لدينا الجرأة لإعادة النظر) بأي كادر أو منصل إذا لم يستجب للمهام بصورة أكثر من جيدة... فقوتنا الأساس في السنوات الأخيرة: المتابعة + العمل التكلم... ومن يخل بهما لا يجب الإطالة والاستطالة في عزله، فهو قد يهدم ما تراكم في دائرة عمله، وربما أكثر...

أريد أن أفشي لك سراً، وهو خاص بك، أن بعض قرارات المكتب السياسي، واللجنة المركزية تحظى بتأييد ٦٠-٦٥٪ من الأصوات، وهذه قرارات ضعيفة بلا شك... والحال لدينا في الداخل أفضل بما لا يقاس، إذ أننا إما إن ننسجم تماماً أو أن نستخلص ما هو جوهري ويحظى بإجماع. يسهل علينا، أكثر من عامل ولكنه ليس كما قالت إحدى الندوات (وجود ديكتاتور أو عدم وجود جدل)، إذ أننا نشأنا في نفس التجربة وشمرنا عن سواعدنا بتفان لبنائها، وثمة تكامل حقيقي يبين المهام والشخوص... وهناك اعتراف معنوي بالمستوى المتقدم للرجل الأول...

لربما أن أحد عوامل ضعف قرارات م.س هو تراجع صحة الحكيم، الذي يرغب بإنهاء مهامه كأمين عام

والتفرغ لتأريخ تجربة الحركة والجبهة وأية أعمال فكرية أخرى... فالأمين العام تفصله مسافة عن الرجل الثاني وهو لا يستطيع بيسر توحيد تفكير وأمزجة وميول وخلق تكامل بين رفاق المركز... وكلما تراجع الوضع الصحي للحكيم تراجع مستوى العمل القيادي واللحمة داخل القيادة في الخارج...

في الداخل لا نشكو من ذلك، ولكن إن حصل شيء مشابه لما حصل في الخارج، فستقضي الأمور لنتائج مشابهة وربما أكثر حدة، ذلك أن عملنا يعتمد أولا على الشرط القيادي القادر على الحسم والمبادرة والسرعة في اتخاذ القرارات والمتابعة اللحوحة، وإن لزم الأمر المحاسبة... وأوضاعنا السياسية والأمنية غير مستقرة، والانتفاضة تخبو بتدرج، ودور الشرط القيادي حاسم جداً جداً في لحظات عدم الاستقرار والتراجع، فهو المغناطيس الجاذب والموحد والمعبئ والمسيطر على الأوضاع فلا تتفكك أو تتبعثر...

وعليه لا يجب أن تنظر لنفسك بتواضع الثوري فقط، بل ينبغي استشعار مسؤوليتك في مقبلات السنين حين تغدو في امتحان جديد، امتحان ليس تنفيذ القرارات وإحراز النجاحات، بل استخراج القرارات ومتابعة أقرانك لتنفيذها، ومعالجة الثغرات والتثاقل أولاً بأول، بل أحياناً قد تحشرك الظروف أو تحاصرك الإمكانات، فكيف ستتصرف بكبرياء قيادي لا يرتجف ولا يفصح عن ألمه بل يبعث الأمل في غيره؟ فالقيادي لا يستطيع أن يؤدي دوره إذا كان مهزوزاً أو نرفوزاً...

يشير اتجاه الحركة إلى أن ساحة الداخل سوف تكون الساحة الأولى لسنوات غير قليلة... وبالتالي على حزبنا أن ينهض في الداخل، لقد قفز عدة وَثْبات في السنوات الأخيرة، وبات الشأن الانتفاضي لا يسير دوننا، وبنيتنا الحزبية تضاعفت مرات وفرّخت مئات الكادرات وغدا الصمود في الزنازين تقليداً راسخاً... وهناك أقلام دعاوية وإعلامية تتشكل... الخ. وأنت أحد هؤلاء الذين نتوقع لهم مستقبلا ثوريا رائعا...

ونظنك في سنوات الكيس صادفت مقولة غرامشي (على الطبقة العاملة تكوين مثقفيها العضويين، لا يوجد تنظيم دون مثقفين، ومنظمين وقادة... مثقفين يؤمنون تجانسا ووعيا لطبقة في الحقول الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية... فالفيلسوف الحقيقي هو السياسي الذي يفهم واقعه ويسعى لتغييره..)

مطلوب منك في السنوات المقبلة أن تعزز الأبعاد الثلاثة في شخصيتك (مثقف، منظم، قائد)... فالعمل يستوجب ذلك.

وبلغة المسيح (روح الرب نازل علي لأنه أرسلني لأبشر الفقراء) بالنسبة لنا فإن قناعتنا الثورية وحوافزنا الأخلاقية بالانحياز لشعبنا والمظلومين تحفزنا... ولا نكتفي بالتبشير بل ننتقل للتنظيم والنضال وقيادة الجماهير أيضا... ولكننا نتفق مع المسيح بقوله (سهل على الجمل أن يدخل من ثقب إبرة على أن يدخل غني ملكوت السماوات) (فالويل لكم أيها الأغنياء فقد نلتم عزاءكم)... وكلمات القرآن التي تهدد الذين يكنزون الذهب والفضة بعذاب أليم في نار جهنم فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم... فمعظم «برجوازيتنا» مترفة ولا تحرق أصابعها في النضال وهي بعيدة عن الاقتصاد الإنتاجي، وان كانت أغلبيتها وطنية من ناحية الموقف،

وهي تشارك في الإضرابات العامة وو... ولكن برجوازيتنا سيما البيروقراطية العليا والكومبرادور هي الحجر الضعيف في جدار الثورة والشعب، والعدو يسعى دائما لاختراق هذه الثغرة.

علينا أن نسير مسافة مضاعفة على كل الصعد، كما ونوعاً، وشرطاً قيادياً، وإمكانية مالية، وقدرة ميدانية، وكل ما يتصل بالعملية الصراعية...

إننا نحمل هم الوطن والشعب، ولسنا مجرد مناضلين أو يساريين يتمتعون بنقاوة وتضحوية ولا امتيازات أو منافع تفسدنا... وفيما غيرنا يتسابق على المراتب وعلى رفع الراتب، لاحظ هنا أننا لا نستخدم اللفظة (راتب) فلسنا شركة نفطية أو... بل حزباً ثورياً، و(الرفيق الأفضل يكون حيث الظروف أكثر صعوبة) ماو، وهذا نسترشد به تماما دون أن نعبأ بمراتب وتفرغات... وأنت تعرف فلسفتنا...

إذ لم يكن صدفة أن تمنع الأحزاب الشيوعية الحاكمة أو جبهة التحرير الجزائرية بعد أن حكمت، الوزراء والقادة من أي عمل تجاري... فالمال ضرورة وقوة وو.. ولكنه مفسدة ومصدر للفساد إذا استخدم لأغراض الثراء والمصلحة الشخصية... وقد سمعنا بعض القصص عن شارع الحمراء في بيروت صورها ناجي العلي في لوحاته النقدية، كما سمعنا قصصاً عن القيادة الفلسطينية في تونس... مرة لفتنا قول قائد الثورة الجزائرية بن بيلا لأحد رفاقنا: لقد باتت الثورة الفلسطينية مرتعا للفساد والإفساد... أليس هذا مخجلا حد السكتة القلبية، وإلى أين سيقود هؤلاء الشعب والقضية؟...

إننا نفكر بالشهداء وعوائلهم والأسرى والجرحى وأحلام الذين امتشقوا البندقية في البدايات، وفي المخيمات البائسة التي احتضنتهم... وفي حقوق شعبنا وفي عروبة وطننا، وفي مستقبلنا... وبالتالي هل سيكون للفلسطينيين خانة ومنزلة في خارطة العالم؟

إن الكثير من الأمور يتوقف على أداتنا الحزبية وعلى الاتجاهات الوطنية الفلسطينية بشكل عام... وأنت ونحن والجميع هم الأمناء على الأداة الحزبية بحمايتها وتطويرها، وتفعيلها سياسيا... والعدو لن ينام في خطط وضربات مستمرة لكسر هامات حزبنا، الشيء الذي يقتضي حمايته بالدم، والحيلولة دون تسرب رياح معاكسة إلى صفوفه (فالحزب قلعة لا تقتحم إلا من الداخل) لينين، وقد رممنا بنيتنا ونهضنا بها بعد كل ضربة، وأغلقنا البوابات أمام البيرويسترويكا والجلاسنوست من خلال تحليلنا النظري النقدي لهما وما عممناه بهذا الصدد، بأكثر من شكل، وصنا الانتفاضة من الميول المغامرة والمنبطحة، وتوافرت لدينا إمكانية مالية ضمن الحد الأدنى أو الحد الذي لا نصاب به باختناقات... وصلبنا الروح المعنوية وسلّحنا الجميع بآمال محفزة... (أحمر وكفؤ) ماو، ليس (فجل أحمر من الخارج وأبيض من الداخل) لينين، فحزبنا بحاجة لأمناء عليه، وأمناء أكفاء، أكفاء يحمونه ويتقدمون به للأمام وأعلى، يذودون عن هيبته وينتزعون اعتراف الجماهير به... لقد أحرزنا بعض التقدم، بتضافر جهودنا، جهود جيلينا، جهود الخلص من كل الرفاق والرفيقات، علينا ان نحرز المزيد من التقدم والذي يصبح ثقالة على العربة او يؤذي العربة، ينبغي إزاحته دون إبطاء...

خيار الفشل، خارج كل حساباتنا، وهذا ينطبق عليك، فلا خيار فشل أمامك بتاتا، والذي يفشل ليس منا، بما يشبه قول محمد «من غشنا فليس منا» فالفشل يحمل فيما يحمل تهديداً لعملنا وما راكمه آلاف وآلاف الرفاق والرفيقات، وهذا يعادل معول هدم ويخدم سياسات الاحتلال بكل تأكيد، كنتيجة، بصرف النظر عن النوايا «وجهنم مبلطة بالنيات الحسنة».

ليس أمامنا سوى خيار النجاح، النجاح في مهامنا المنظورة والتي تنتظرنا، فالأمناء على مستقبل الحزب تناط بهم مسؤوليات مضاعفة أخلاقية وسياسية في آن. وأنت أحدهم.

ثمة قبضة، وبلغة لينين «المحترفون الثوريون» (هذا التعبير مقتبس من الثورة الفرنسية) وهؤلاء لا يجمعهم جامع بالتعويم الدارج لكلمة متفرغ، فالمتفرغون في الخارج يشملون فيما يشملون موظفي مكاتب وسكرتاريا ومناضلين عاديين... أما المحترف الثوري فهو نخاع الهيكل العظمي وعصبه وقوة الحياة فيه بما يمتلك من كفاءات وثورية ومزايا... فهو يمنح الحزب جماع شخصيته وجماع طاقته، وهدفه الأول والعاشر الحزب، ويضع أمام ناظريه قضيتين كبيرتين:١- بناء الحزب ٢- مقاومة المحتل، وهو يتماهى في هاتين المهمتين من الرأس إلى الكعب، فلهما الأولوية، وأي شيء آخر ينسجم معهما-علاقات اجتماعية... أهلا وسهلاً، وفي العادة فإن هذا الطراز العالي من الثوريين والثوريات يتركون عملهم وتعليمهم، وبقدر كبير تلفهم التقصيرات نحو عوائلهم (لأنهم مشغولون بالثورة) هوتشي مينه في رسالته لعائلته حين تعذر وجوده في بيت عزاء شقيقه، هذا قدرنا التاريخي وهذا هو النموذج الذي نجترحه في مواجهة «أنصاف الثوريين الذين يمنحون الحزب بضع سويعات» وفي مناهضة المرتشين والمرتزقة الذين باعوا ضمائرهم للشيطان... وبكل تأكيد فإن هذا الطراز على قدر عالٍ من القدرة والصدق، قدرة الإضطلاع بمهامه بكفاءة، وصدق والنأي عن أية مهمة لا يقوى عليها، فالمسألة ليست ترفا بل شرفا، وأحد أركان الشرف التنحي عن أية خانة لا يستطيع الاضطلاع باستحقاقاتها؟...

إن معايير النجاح واضحة، فثمة تراكمات يتعين تطويرها، وعكس التراكمات هو تراجع التراكمات وعدم الزيادة عليها وتعظيمها هو الفشل... والذي يتابع السينما الأمريكية يلاحظ إن كلمة فاشل من الاتهامات العظيمة... فاشل، فاشل بما يناظر عميلاً في بلادنا أو رجعياً قبل عام ٦٧... وإستراتيجية العدو تستهدف فيما تستهدف تفشيل نضالنا، وقد فشلنا في حماية البندقية في الأردن وها هي محاصرة ومهمشة في لبنان، وثمة جهود أمريكية- إسرائيلية لتفشيل الانتفاضة المجيدة، وبين ثنايا الشعب الفلسطيني هناك من يتقاطع بحسن أو سوء نية، مع هذا المسعى...

وفي مرحلة الجزر، يناط بالثوريين الناجحين، إعادة تنظيم الشعب وتهيئته لمرحلة الصدام المقبلة، للتحرر من دائرة الفشل والانتقال لدائرة النجاح... ويمكن القول إن الأوضاع في بعض مناطق الداخل في العام الأخير تتسم بالمراوحة وهذا يلقي على كاهلنا واجباً تاريخياً بالنهوض بأداتنا الحزبية للتصدي لمظاهر التراجع، وإذا ضعفت أداتنا الحزبية وتقهقرت فقدنا قدرتنا على تأدية مهامنا ودورنا... وعليه فالحفاظ على الحزب وتعظيم قواه هي مسألة حياة أو موت، ومأثورنا الشعبي يقول «مثل حراث الجمال» أي أن الجمل يدوس على الثلم الذي

بشقه في أديم الأرض، بينما المطلوب منا أن نحرث الأرض ونبذرها ونعشّبها ونحصد ثمارها... أما إذا أصبحنا نحرث كالجمال فثمة أخطاء إستراتيجية أهمها الخلل القيادي، فالقيادة هي العامل الأول في بناء الجيش الثوري، وقيادة معاركه الظافرة أو قيادته نحو الإخفاق والهلاك... «فمن ثماركم نعرفكم» المسيح. وثمار القيادة مرآة القيادة. فقد عرفت مسيرتنا قيادات ليست قيادات، حتى أنهم لم يصونوا، ناهيكم عن أنهم لم يطوروا ما بنوه.

من هذه الزاوية ينبغي أن تنظر لنفسك في السنوات المقبلة...

لقد أخذنا على عاتقنا الرهان على فريق صاعد، وأنت أحدهم، مستفيدين من قرار مماثل عام ٨٥، وشيء أكثر بساطة وبدائية عام ٧٨، وكانت النتائج مذهلة وناجحة بوتائر عالية...

وعلى وجه التحديد:

١- سوف تناط بك مسؤوليات إضافية، تناقش بها مباشرة.

٢- نتوقع منك المساهمة في كل النشريات الحزبية وأية مطبوعات علنية، وأن تتقدم بأوراق ومقترحات معللة حول موضوعات محددة لأعلى... فأنت شريك. ولا مدعاة للتأكيد على الإستزادة الثقافية والعلمية واستحثاث الرفاق على نفس الاتجاه والانضباط للتثقيف الداخلي والتعلم الذاتي، وهنا نستمزجك في اطروحه نظرية تقول إن ماركس كتب في "رأس المال" عن تعميم نمط الإنتاج الرأسمالي عالميا... كما لو كان دور الرأسمال تقدميا... بينما معلوماتنا عكس ذلك بأنه كتب عن العلاقة النهبية لمراكز رأس المال لشعوب المستعمرات... طبعا لينين أسهب في ذلك... ما رأيك بالعودة لطبعات "رأس المال". وهذا الفورباتشوف يتوقع من الرأسمالية أن تزوده بالتكنولوجيا. غباء مطلق. فهي غير مستعدة لانقاذ الاشتراكية أو بناء مركز رأسمالي منافس. ونشرت الاتحاد صفحة كاملة لمقالة كتبها غورباتشوف!! وسوف نرسل لك ورقتنا لل م. س التي نقدنا فيها البيروسترويكا.

٣- تفعيل طاقات الرفاق أكثر فأكثر (فلدى كل إنسان طاقة البناء الحكيمة) غوركي. وهنا ينبغي تشديد التطلب، أكثر فأكثر... فما يستخدم من الدماغ نسبة محدودة وما يستخدم من طاقاتنا نسبة محدودة... لنطلب المزيد... ولنتذكر كلمات دزريجنسكي مؤسس الكي.جي.بي. الذي رحل عن عمر ٣٩ سنة بعد حياة شاقة في السجون وحياة التخفي (أنتم تعرفون سر قوتي فأنا لا أضن بنفسي) وقد طبعنا كتابه في وقت سابق، في رده على رموز "يمينية" داخل الحزب البلشفي- الشيوعي... كان يعمل ٢٠ ساعة إلى أن مات في ردهات الكرملين من شدة الإعياء... وقصة أوستروفسكي "كيف سقينا الفولاذ"... وقد طبعناها أيضاً...

وما نسمعه عن الحكيم أن بعض الاجتماعات تمتد للفجر، وهذا حال عرفات الذي "ينام على الكرسي" وعبد الناصر كان يعمل ١٦-١٨ ساعة يومياً...

اجل ساعات عمل أطول ولكن بإنتاجية أعلى، والمعيار النتائج، أي ليس "حرث جمال" أو "أم

العروس""مشغولة فاضية" حسب التعبير الشعبي...

٤- لفظة نوعي، يجب أن تتحول لمعيار وزاوية نظر، لقد راكمنا الكثير على كل الصعد، والآن حان أوان النقلات النوعية، مهام نوعية، منظمات حزبية نوعية، كادرات نوعية، ثقافة نوعية، مقالة نوعية، صلابة نوعية، انطلاقة نوعية، انجازات نوعية، صمود نوعي، اصطبار نوعي، مجالدة عقلية نوعية، ذاكرة نوعية...

وعموماً فإننا نخصص تعميماً خاصاً للانجازات النوعية، وننتظر أن تملأ إنجازاتكم بعض سطوره....؟

دون أن ننسى التقاط الموهوبين، فهم حالات نوعية، ورعايتهم حزبياً وتنويع مهامهم وتطهريهم من عيوبهم، بما يمهد لدورهم القيادي، إذ غير معقول، بل لا يمكن أن تكون القيادة من أناس عاديين، أنصاف أذكياء، أنصاف منتجين، أنصاف ديناميكيين، أنصاف ثوريين.... فغالبية القيادة يجب أن تكون من الموهوبين الذين يتمتع كل واحد منهم بإبعاد استثنائية تضيف على أبعاد الآخرين.... بل إن الأغلبية يجب أن تكون وسيمة أو أقرب للوسامة والأناقة البسيطة، لنتذكر الحكيم- كنفاني وديع- أبو علي- صابر ومن قبله أبو شريف قبل المتفجرة وليلى ورفيقات أخريات.... أما مزايا ما دون الوسط فهي دلالة شيخوخة وموت....

فالعمل الحزبي الثوري معقد وله متطلبات، متطلباته تفوق بالتأكيد الأنصاف والمتوسطين، فهؤلاء ممتازون للصف الثالث والرابع، كما أن الجمهرة تنظر أول ما تنظر لمظهر وهيئة القائد، وليس صدفة أن تطبع بوسترات جيفارا مرات لا تحصى وان يشتهر الصحافي الذي التقط له صورته البيريه....وان تبهر قامة كاسترو الجمهور وان تجتذب ملامح الحكيم وخطابيته وصدقة، الجماهير....

مثلما يقوم الفرد بتحسين مواصفاته وتجميل نفسه، فالحزب أيضاً يقوم بتحسين وتجميل قياداته وكادراته وكل عناصره.... على صعيد المحتوى والشكل في آن، ولا حاجة للحديث المسهب في هاتين المقولتين وترابطهما.... أي المحتوى والشكل... الجوهر والمظهر...

هاك اللقطة التالية (استضافني مرة رفيق في بيته، ولأنني شخص متأرق ولا أستطيع النوم إلا بعد أن انجز معالجاتي من تقارير ومراسلات .....إلخ، تسلل الجوع إلي في ساعات الفجر، فتحت الثلاجة لأجد فيها علب سجائر فقط، كان الفصل شتوياً، والعائلة مكونة من زوج وزوجة- كلاهما يدخن- وطفلة، والنوافذ مغلقة.... الأمر الذي دفعني لتهوية حجرتي.... فكرت بالمشهد السريالي..... طفلة يحاصرها الدخان، لا حليب تشربه..... لقد تشاءمت، ثمة فارق بين الفقر والعبثية وجلافة المشاعر.....

٥- بات من الضروري الارتقاء بآلية اتخاذ القرار في الهيئات الحزبية، مثلاً:

أ. ان يعقد الاجتماع بناء على جدول محدد سلفا.

ب. أن يوجه المسؤول الأول رسالة تمهيدية تتضمن فيما تتضمن بنود جدول الاجتماع ووجهة نظر أولية حيال كل بند، وهذا معمول به في المستوى الأعلى منذ زمن.

ج. تكليف هذا الكادر أو ذاك المفصل بتحضير أو التقدم بورقة، تعمم سلفا تكون أرضية نقاش، حول موضوع له أهمية خاصة.

د. إفساح المجال للحوار في الاجتماع وتبادل وجهات النظر، قبل الخلوص لخلاصة أو التصويت على رأيين، على أن يفهم من الحوار الانفتاح واستيعاب ما هو إيجابي وليس التمسمر بما يخفي نزعة لاهوتية (أنا أحتكر الحقيقة) على طريقة السماء التي تحتكر الحقيقة وبالتالي من يمثلها الأرض.... ولو كان الأمر بهذه البساطة لشهدت البلدان التي قادها رجال السموات قفزات من التطور ولسادت مجتمعاتهم الحريات والرفاه الاجتماعي، بينما الثورة البرجوازية في القرنين ونصف الأخيرين، وهي نقدية للدين، هي التي بنت المدينة المعاصرة وأوروبا واليابان... بما يتصل بها من طبقات جديدة وعلوم جديدة ومنجزات هائلة جعلتها قيادة للبشرية رغم طابعها الاستغلالي وتحولها للمرحلة الامبريالية حسب التحليل الماركسي، ناهيكم عن منجزات الاشتراكية أو بصورة أدق التحولات الاشتراكية هنا وهناك في العقود الأخيرة.... بينما سيطرت الرأسمالية على أهم البلدان ثلاثة قرون تقريباً، والفكر الغيبي وقواه الاجتماعية قروناً وقروناً قبلئذ.... المهم الانفتاح في الحوار وتشجيع الحوار والإصغاء لآراء الآخرين واستخلاص كل ما هو إيجابي وصولاً إلى "الحقيقة" أو المقاربة الاصوب. وهذا بداهة أبعد ما يكون عن التوليفات والوسطية التي تفضي للانتهازية كما كتب المفكر الهنغاري لوكاش.... أي أننا ندعو للحوار بين ا+ب لتلد ج حسب المنطق الديالكتيكي.

كان لينين مرناً في الحوار وحازماً في آن، وصفات الحكيم مرشدة هنا فهو يتمتع بروح ديمقراطية هائلة وبصيرة عميقة وبعيدة المدى، ولولا ذلك لاصطدمنا منذ سنتين ب م.س ولنشأت توترات وانضباطات شلت المسيرة في الداخل، ولما أصبحت أنت أنت ولما أصبحنا نحن نحن.... لأننا جميعاً تكونا في أتون الممارسة الجارية فعلاً وانفعالاً في تبادلية التأثر والتأثير لمسيرة تطورت وطورناها وطورتنا بدأب وليس لقرارات او ترسيمات جاهزة. وفي كل الأحوال لا ينبغي إدانة أي شخص على إجتهاده، إذ عليه الانضباط لقرار الأغلبية وقرار اعلى وحسب، مع تشجيع الاجتهاد والمبادرة على الدوام. وربما تعرف قول رسول الإسلام، "للمجتهد إن أصاب جزاءان وان أخطأ جزاء واحد"، فهل تتوقع حالنا كعرب كما هي اليوم، مفعول به ومنهوب ومجزأ وتقريباً خارج التاريخ.... لو أفسح النظام العربي المجال للحوار والتعددية والانتخاب والسياسة (أي صراعات وتسويات بين القوى الاجتماعية) الأمر الذي يوجب وجودها أولاً بدل مبايعة الخلفاء والملوك والرؤساء الذين يحتكرون القرار ويفرضونه على المجتمع بالحديد والنار والسجون والتجويع..... إن الكثير من العقول العربية هاجرت من الوطن العربي بدل أن تحترم وتأخذ مكانها في صياغة المستقبل العربي...!!

أنت تعرف المدرسة السوفييتية إذ ما أسهل أن توزع الاتهامات (منحرفين، مرتدين...) أما لينين فقد استوعب تروتسكي وكامينيف وزينوفيف.... وهم نقائض وقد أثاروا الكثير من الزوبعات.... بل وظف طاقاتهم.....

إننا في الوطن على قدر عالٍ من الانسجام والتشابه رغم أية اجتهادات جزئية، فأحدهم مرة اقترب من

تأييد الحكم الذاتي، بما أثار قلقاً ولكن دون أي إجراء أو ... علماً انه يتبوأ خانة قيادية، وكادر دمج فلسطين وإسرائيل، وهو المعروف بفولاذيته، ومفصل دعا "لتحولنا لفصيلة مقاتلة فقط"، وكادر نسوي اعتبرت "العمل الجماهيري أهم من العمل الحزبي وكل أشكال النضال" ...

كل هذا وسواه وأضعافه لا يمسس بجوهرنا وخطنا طالما نصون بنيتنا وقيادتنا.... فالبنية القوية، تستوعب التناقضات الفرعية والقيادة قادرة على ترميم الثغرات.... وفي الذاكرة تجربة عمر بن الخطاب الذي عين معاوية والياً على بلاد الشام، ولكن هذا تصرف بطريقته بعد ذهاب عمر واصطرع مع علي وعائلته..... وتجربة عبد الناصر الذي عين السادات نائباً له فقاد نهجاً دمر إرث عبد الناصر بعد رحيله.... لا خوف هنا من احتمالات من هذا القبيل، فقبضة المفاصل القيادية ثورية وعمدت ذلك بالدم والتضحيات والمنجزات، أما الجانب الذي يتعين تكريس الجهود له فهو الارتقاء بأدائها وكفاءاتها من خلال تدويرها والتفاعل معها والتفاعل فيما بينهما.... "والزمن عامل العوامل" دويريه، التجربة برمتها والقيادة في مقدمتها بحاجة لـ ٥-٦ سنوات من التركيم الذي يمهد لقفزة نوعية، وحينها تتبدد التساؤلات ماذا لو غاب فلان أو علان... وتحل تساؤلات جديدة تتصل بمستوى العمل الجديد وظروف النضال الجديدة.... فصيرورة الحياة لا تتوقف، وثمة مخططات كبرى لتصفية النضال الفلسطيني، واحد شروط ذلك توجيه ضربات موجعة إن لم تكن قاصمة لحزبنا، وقد لاحظنا نذر الشر هذا العام... ولكننا احتوينا ذلك وانطلقنا للأمام....

٦- طبعاً إننا دعاة وحدة مع الفصائل اليسارية الأخرى، فالوحدة قضية وشعار عظيمان من أجل قضية العمال- ونحن نقول من اجل الوطن والعمال والشغيلة والجماهير- ولا بد من توحيد كل الماركسيين، ولكن هذا لا يشمل أعداء الماركسية- وهنا نضيف كيف يمكن التوحد مع برنامج سياسي معاكس لبرنامجنا سيما فيما يتصل بالاعتراف بإسرائيل والكفاح المسلح، وكيف يمكن التوحد مع يساريين هم في تاكتيكاتهم وإعلامهم سلاح علينا لا سلاح معنا، وأقرب إلى القيادة اليمينية.... ليس في مرحلة صعودها الوطني بل في مرحلة ضياعها الوطني؟

وعليه، من المبكر الحديث عن وحدة اليسار في حزب واحد وإنما يمكن إقامة تحالفات، أوسع التحالفات على قضايا مشتركة، وتخفيف وتيرة التناقضات وحسب..... وتاكتيك الانتفاضة هو أعظم قاسم مشترك بين قوى اليسار اليوم...

أما الجانب الذي ينبغي أن نتعبأ به نحن المؤتمنين فهو أن وحدة اليسار- هدف نسعى إليه، لكن دون قفزات في الهواء على غرار التحالف الديمقراطي في عدن والقيادة المشتركة بين الجبهتين....فمثل هذه القفزات لا تصمد أمام التباينات الجدية....

وفي اعتقادي الشخصي، أن اليسار الفلسطيني لن يتوحد إلا إذا تقدمت فصيلة يسارية الصفوف، بحجمها وفاعليتها وقياداتها وإعلامها وإنتاجها الفكري... وربما تقول: ولكننا كحزب تتوافر فينا هذه الشروط فنحن نترك الآخرين وراءنا بمسافات.... هذا صحيح.. .ولكن علينا أن نضاعف وجودنا كماً وكيفاً أولا، وهل تعلم أن

رفاق أبو النوف "طالبوا بمقاعد تساوي مقاعدنا في دورة انتخابية لمجلس طلبة إحدى الجامعات.... ولما تم الفرز تبين أننا عشرة أضعافهم.... ويرشح إليك تصريحات لهم عن قيادتهم للانتفاضة واجتراح شعارها (الحرية والاستقلال....) وهذا كله بعيد عن الصحة، وقد زودناكم من قبل بتعميم عن حجوم القوى وفعلها وعن الشعار الذي انتحلناه من الثورة الجزائرية في أواخر القرن التاسع عشر.... حينما عرض الفرنسيون الحكم الذاتي على عبد القادر الجزائري فقال: الحرية والاستقلال.

أما "الشيوعي" فهو يعتقد أنه شيوعي، أو شيوعي وحيد، رغم اضطرابه في زمن غوربا تشوف، دون أن يتعلم شيئا من المقاومة في أوكرانيا أو بيلاروسيا أو الثورة الفيتنامية.... وحتى من الثورة الفلسطينية التي قاتلت وراكمت وذبحت غير مرة دون مشاركة حقيقية للشيوعي فيها، رغم النبضة السريعة "لقوات الانصار" عام ٧٠....بل نتمنى أن ينخرط "تأتي لحظات في التاريخ إما أن تنخرط فيها أو تبقى في معزل" أنجلز، وهذا ما فعلته قيادته "اليمينية" بعد حزيران ٦٧. بما يذكرنا بتجربة الحزب الاشتراكي الكوبي (الشيوعي).

لا نتطلع لتحريض سلبي على رفقاء اليسار، بل نسعى للارتقاء بالجميع لبلوغ اللحظة التي تغدو فيها وحدة اليسار خطوة طبيعية تكلل مسيرة من الفعل والأدلجة والتقارب، بصرف النظر عن سيل الشتائم والاتهامات والتعبئة المثابرة ضدنا إذ على تعبئتنا أن تكون ايجابية دون تعويم للمسائل الخلافية.

٧. لم نعبأ يوماً بالترسيمات والشكلانيات....إنما بالتفكير الصائب المنبثق عن حركة الواقع والملموس (تحليل ملموس للواقع الملموس) لينين مبتعدين عن العبارات الخشبية والنهجية... ولكن هذا لا يعني الشطط بإدارة الظهر للمركزية الديمقراطية أو للتراتب التنظيمي أو لشروط العضوية وواجباتها.... بل أردنا القول علينا إعمال الفكر لاجتراح الخطوات الجزئية التي تعالج الملموس تمهيداً لإنضاج البنية ليسري فيها مفعول المركزية الديمقراطية والقيادة الجماعية والتزام الأقلية برأي الأغلبية وأدنى لأعلى بيسر.... فالقوانين الحزبية المتعارف عليها تسري في أوضاع حزبية، أما إذا كانت الأوضاع تأسيسية أو بدائية أو أقل نضجاً أو غير مستقرة بسبب الملاحقات الأمنية أو الحالة السياسية.... حينها يتعين إطلاق العنان للإبداع القادر على التعامل والفعل والانجاز في هذه الأوضاع وليس تقديس الكلام المحبّر.

لقد استحثثنا منذ سنوات على انتخاب المستوى للمسؤول الأول ومحاسبته أيضاً، لكننا لا نستطيع عقد مؤتمر علني وتقديم تقرير عن كل عضو مرشح لانتخابه للقيادة الجديدة.... ثمة ظروف... وفهد زعيم الحزب الشيوعي العراقي يعتبر الدعوة لذلك مثابة وشاية يستفيد منها الدرك لتصفية الحزب.... ويمكن أن نقول أكثر من ذلك....

ولينين تحدث عن الانضباط الحديدي في الحزب السري (مرض الطفولة) كما نتفاعل باستمرار مع مراتب أدنى بما يشكل مختبراً أو مستودعا نستند إليه في قراراتنا، ونشجع باستمرار بل نطالب، ونعتبر ذلك معياراً حزبياً، بالمبادرة، المبادرة في كل الاتجاهات (الكادر يبادر) جيفارا، ونشجع على الحوار الايجابي المنتج... ولا نتردد أبداً في التقاط، كادرات شبابية واحالة اوسع المهام والمسؤوليات عليها بما يفوق كثيراً التجديد والجمع بين الجيلين...

وأنت تعرف أن أهم معيار في تقييم الكادر هو (العمل المتكلم) جنباً إلى جنب مع الصمود في يوم الجلجلة.... وهذا ينطبق علينا جميعا، دون تهاون مع أحد والجمع بين أساليب العمل وأشكال النضال.... وعدم انتظار التعليمات من أعلى في حالة التدفق الميداني، والتعامل بمهارة مع توزيع الكادر وترفيع الكادرات الجيدة....

٨. (الصدق في السياسية مطابقة الأقوال بالأفعال) لينين، والصدق خصيصة أخلاقية في العمل الثوري، فالثوري كما الكف واضح أمام رفاقه لا مرواغة ولا تهرب ولا إسقاط ولا أنصاف حقائق ولا كل أمراض علم النفس.... يمكن تغيير الإنسان وإعادة صياغته، وهذه مسألة تناولها بعض الفلاسفة منذ زمن، وعلينا أن نفترض الإيجاب بعيداً عن الشحنة السلبية في النظر للرفاق، طالما أننا احسنا اختيارهم، ونقد عيوبهم ونواقصهم أيضاً، أما النوعيات الرديئة/ الغبية/ الفضائحية/ فلسنا بحاجة لها.... في التوسع الحزبي على الجميع أن يمر في الحلقات الصديقة قبل تحولهم لمرشحين، وعلينا استقطاب عناصر نشطة، ذكية، مجتهدة، مناضلة، وليس الطلبة الفاشلين او «قمامة» الناس، فهؤلاء ليسوا من أولوياتنا.... وإذا انحازوا لنا ليبقوا في التيار العاطف دون تحزيبهم رسمياً. فلقب عضو الحزب شرف لا يستحقه كل الناس.... ومنظمات القاعدة هي معمل للتثقيف والتربية وإعادة الصياغة.... ومنظمة القاعدة هي مؤسسة وليس مجرد خلية، أي ينبغي الارتقاء بها نوعيا، بحيث تحيط نفسها بسياج حلقي منضبط وحضور فاعل في «لمش» ومؤسسات المجتمع من نقابات أو لجان مرأة أو نوادٍ أو أو أو... ولها مهمات محددة ومتابعة لحوحة، وجمع تبرعات واشتراكات.... العملية التنظيمية تقاس بمعايير ثلاثة: أ. مستوى القيادة. ب. القدرة على تفريخ كادرات جديدة ج- انتظام وفاعلية القاعدة، ... وإذا اختل أي معيار فذلك إنما يعكس خللاً جوهريا يمس الدور السياسي للتنظيم.... بما يشي بمعانٍ سلبية تشكك بالعملية التنظيمية...

واستمراراً لمقولة الصدق: ليس أسوأ من كادر كاذب أو مخادع، سواء بوعي أو دون وعي، فتقييماته لدورنا وحجمنا وتأثيرنا يجب أن تكون دقيقة وان يختصر منها باستمرار. فلئن كان حجمنا ٥ درجات ليكتب انه ٤ درجات وهكذا دواليك.... أما إن رفع تقريراً عن حدث أو شخص أو موقف فعليه أن يستقي المعلومات من مصادرها بدقة كاملة، بعيداً من التخمينات والتقديرات، أي ليستند للمعطيات، الواضحة.... وكادر يخطئ غير مرة في تقييماته يلحق الضرر بالتفكير القيادي وتهتز ثقة القيادة في تقييماته....

فجزء من عمل الكادر هو عمل صحفي وعلم نفس وعلم اجتماع وعلم اقتصاد.... فهو يعكس السياسة بمحتوياتها وتداخلاتها مع العلوم الأخرى.... وفي رأسه وتجربته يجب ان تتوحد كل هذه العلوم.... وعليه أن يطمح ويتألق ويتفوق على أقرانه سيما المفاصل المرشحة لمواقع قيادية.... فهذه منافسة ثورية إيجابية.

لنتذكر قيادة «البلشفي» في ثورة أكتوبر... لينين القائد المرموق، المنظر في أكثر من ميدان والمنظم في آن. فهو زعيم وقائد في نفس الوقت. قائد للحزب وزعيم للجماهير. وستالين قائد العمل السري والتنظيمي، وكالينين بحر الحياة الفلاحية والأكثر قرباً من فهم المسألة الزراعية، وتروتسكي الذي التحق بالحزب بعد طول اشتباك (لم يثبت على موقف قط) لينين، ولكن المفكر والكفؤ الذي أسس الجيش الأحمر، ووو.... قيادة حقيقية لا

تقضي نصف وقتها في الولائم ولعب الزهر كما نسمع عن بعض «القيادات» الفلسطينية...... لنتذكر الحكيم -أبو علي- أبو ماهر اليماني ومن قبل الشهداء وديع وغسان وجيفارا غزة.... والذين دأبوا على بناء تجربتنا في الداخل..... إنهم رهبان.... محترفون ثوريون بحق.... ولكن لا يكفي.... إذ على الجميع أن يطور إمكاناته وان يكون جاهزاً- بكفاءاته وطاقته وموهبته....- لتولي المسؤولية الأولى.... لقد تقهقرنا في القطاع بعد استشهاد جيفارا، ورغم ما راكمنا في العقد الأخير فهو يعتوره نواقص جدية.... وهذا درس كبير... إذ لا يجب أن نطمئن لوجود الحكيم أو فلان أو علان، بل على البعض أن يقفز بمستواه، فقد يناديه المنادي وعليه إن يكون جاهزاً وإلا اهتز المقود وانحرف المسار....

ولا يجب أن ننسى أن الجمهرة تحاكمنا ليس بناء على مواقفنا السياسية فقط، بل بناء على فعلنا الميداني. فالذي يقاوم وينخرط في العملية الانتفاضية تحترمه الجماهير وتحترم تضحياته وتلتف حوله. انظر لفتح فما يغلب عليها هو المقولة العملية..... ولنتذكر تنظيراتها القديمة بأن اليسار هو العمل، وقد تفوقت علينا على هذا الصعيد وهذا حافز لنا بينما نتمايز عليها نظرياً وثقافياً، وهذا درس لها أيضاً. أما خللها الأساس فهو نزعتها البراغماتية، فهذه النزعة قد تتجاوز ما كتبه مؤسسو البراغماتية ديوي وجيمس، ليصل حد التفريط بالبرنامج والحقوق من اجل أن تكون في الحدث أو من اجل مكسب جزئي.... هذا خطير سياسياً إذا استبد بالعقل القيادي.... نريد أن نكون أصحاب مبادئ يتشبثون حتى النهاية بحقوق شعبهم غير المنقوصة وفي نفس الوقت مرنين تاكتيكيا وفعالين ميدانياً، ونتقدم الصفوف بجيش من الكادرات والنشطاء المتلاحمين مع الجماهير، حينها نكون يساراً ثورياً بحق وحقيق..... إننا نسير على هذا الدرب، ولكن علينا مضاعفة المسيرة التي أنجزناها.

على اقل تقدير ما أسلفناه تعززه المسلكية الثورية، النزاهة، الصدق، الاستقامة، احترام الناس، التضحوية، الجماعية، اتقان العمل، الصمود، المهارات المتنوعة..... هل تعلم أن مارجيلا قائد حرب العصابات المدينية في البرازيل اشترط ١٢ مهارة لعضوية رجل العصابات.... فالمهارات هامة جداً جداً، وهي وسيلتنا للتغلب على المصاعب ومواجهة المواقف وتنفيذ المهام.... المهارات. نعم المهارات.... فشيء يرقى إلى عداد المأساة أن نضرب يساراً يميناً من اجل أن نعثر على من يفهم الكمبيوتر أو الطباعة أو قيادة سيارة أو استخدام سلاح ناري أو بناء مخبأ سري أو يصل إلى الأرياف أو مدينة أخرى من طرق ملتوية أو يعبر الحدود أو يزيف هوية أو يتقن عدة لغات أو يصنع زجاجة فعّالة أو تركيباً كيماوياً... فالعمل الثوري ليس مجرد طلبة يدرسون على المقاعد ويجيبون عن أسئلة الامتحانات!!!

والكادرات على وجه أخص، وكجزء من كادريتهم، عليهم أن يتقنوا عدة مهارات، فهي مطلوبة لمهامهم المباشرة أو مهامهم التي يتابعونها....بل هناك الكثير من المهمات التي تتطلب مهارات مميزة، ودونها تصاب المنظمات الحزبية بالشلل وتصبح أقرب «لكيس بطاطا». فلهيب الثورة يشتعل بزيت المهارات وفي الممارسة والتحديات (في النشاط العملي) بلغة لينين. حيث يتم اكتشاف الناس وميولهم ومهاراتهم وسجاياهم، ونعترف أننا نهتم على نحو خاص بالكادرات وعلى نحو أخص بالكادرات النوعية التي تلبي خانات أكثر حساسية ومهارة،

بل نسعى على الدوام لتكوين كادرات إضافية وأحياناً احتياطية، علماً أن الأخيرة أكثر صعوبة، إذ لدينا نقص كادري في ضوء الجيشان الانتفاضي وتضحياته والقفزة التنظيمية ومتطلباتها.... وهذا يعالج بجهد مضاعف من بعض المفاصل، بحيث يؤدي الواحد مهام إثنين أو ثلاثة وربما أكثر أحياناً..... ولأن لدينا فريقاً من هذا القبيل أصبح للجسم التنظيمي عمود فقري قوي ورأس خلاق بهذا القدر أو ذاك بما يتخلله من انسجام يتعمد في نار النضال والانجاز، وهذا أساس ثقة المنظمات الحزبية والرفاق/ والرفيقات عموماً بالقيادة..... ولكن عليها أن ترتقي أكثر. ولم نواجه المحذور الذي كتب عنه لينين (إن رفض إطاعة المركز القيادي يعادل هدم الحزب)، فالقيادة تتسابق لدفع عربة الحزب للأمام وانجاز المزيد من المهمات الأمر الذي يؤكده دورنا في الانتفاضة ونهوض بنيتنا الحزبية.... أي اننا لا نكتب خطابات وشعارات، بل إن هذه من أخطر الأخطاء المهلكة، أن يحل الشعار محل الخطة وأن تحل الخطابات محل الانجازات.... كعلامة شيخوخة وموت.

وعلى ذكر التخطيط، فمنذ سنوات عديدة، بات لدينا برنامج سنوي وخطط محلية لتنفيذه، ووقفة مراجعة نصف سنوية وأخرى سنوية ككشف حساب لمسيرة عملنا بناء على هذا البرنامج. وهذا أهم معيار في تقييم القيادات المناطقية، هو أهم منصة لانطلاق كادرات جديدة....

وختاماً، لقد تعرض إعلامنا العلني لملاحقة وإغلاق صحف.... ولكننا على الدوام نجد مخارج، إذ من الصعب الحديث عن حزب بلا إعلام أو إعلام فعال وجماهيري....

رفيقنا: كتبنا لك هذه الرسالة على دفعتين، وقد تدفقت بسلاسة تجمع أفكارا منهجية وأخرى عرضية وعفو الخاطر.... ولم نراجعها، إذ قد تحمل بعض التكرار.... ....ننتظر رسالة منك لغاية التفاعل، أما العلاقة الحزبية والتقارير الحزبية الخاصة بك فلهما قناتهما....

والى الإمام.... ونشد على أيديكم بحرارة .

ملحوظة: المتابعة، ومرة أخرى المتابعة، ودائماً المتابعة (لأنها جوهر العمل الحزبي) لينين، متابعة المهام، متابعة القرارات، تفكير الرفاق، متابعة حاجات الجماهير، متابعة الشأن السياسي، متابعة الأخطاء، متابعة وتحفيز الجوانب الايجابية..... فالمتابعة هي التي تجعل من الكادر كادراً ومن القائد قائداً...

- الملحق رقم ٤ -

أواسط ١٩٩٠

الرفيق...

....

بعد المعالجات أعلاه، دعنا نفرد حيزاً للبعد التالي:

لو أردنا التطرق للنقاط الأمنية الأشد خطورة في مسيرتنا آخر عقدين يمكن تلخيصها بنقطتين اثنتين:

١- الاختراقات الأمنية... وأشدها خطورة في غزة بين ٧٠ – ٧٢، حيث جرت تصفيات واغتيالات لرفاقنا ونصب كمائن احتلالية أدت لإبادة مجموعات بأكملها وصولا لتصفية جيفارا ورفيقيه. دون الاستهانة بالاختراقات الأمنية في الضفة سيما رسل الخارج او عناصر جرى ترتيب من الخارج للاتصال بها في الداخل، فالعدو اشتغل جيداً على «اختراق» الخارج، والحال الأخطر في غزة ابو خوصة (لين بياو) وهو «فدائي» جاء الى غزة من الخارج. ولن تكل ولن تمل المخابرات في محاولة لاختراق صفوفنا في الداخل سيما أنها تراقب صعودنا الى درجة ان تعترف اننا الاكثر فاعلية في القدس وبيت لحم ورام الله... وقد عجزت تماما عن كسر ارادة محمود فنون وعدنان منصور وسواهما، وصدور كتابي «فلسفة المواجهة» و«بطولات في اقبية التحقيق» اللذين يحظيان بهجوم مضاد من المخابرات في الزنازين وعصافير العملاء المتعاونين معهم، كدليل على أهميتها ونجاعتهما...

لا يخفي على المراقب المحايد ان يرى ما بلغناه من قوة على الصعيدين الكمي والنوعي، وحجم فعلنا الانتفاضي بعد مرور عام ونصف.

المخابرات ترى ذلك، فهذه وظيفتها، مثلما ترى عجزها عن قطع سياق تطورنا، فهي تستسلم بعد محاولات شرسة وتعترف بصمود كادراتنا...

وهذا سيدفعها، لا محالة، لاتباع وسائل استخبارية لاختراقنا، بما يقتضي فحص تقارير الصمود كيلا يكون هناك صمود مزيف... سيما أن معايير الصمود في الزنازين هو أحد معايير الترفيع التنظيمي... وقد عرفنا حالة كادرية قبل اعوام (......) الذي تورط في صفقة كشفها لنا على الفور، وكانت محاولة منه «للتذاكي» بعد ان ضعف لعوامل لم تقنعنا بعد ان شرحها لنا، فحاسبناه. وقام الحزب بنسج فيلم متقن الى ان اخرجه من الوطن حيث استشهد في الشتات... الرفيق كادر جيد، غير انه اخطأ... ولو كان سيئا لامكن ان يوجه للعمل حينذاك ضربة قاضية تماما في ضوء اتصالاته بدائرة القرار...

كما هناك تعاون مكشوف بين جهازي المخابرات على جانبي النهر وهذا يوجب على «عمان» الحذر وحماية

الداخل، كما «الشام»، واي تسريب او اختراق يعود علينا بأبلغ الضرر...

صحيح ان الكثير من الامور مموهة، وصحيح ان المتراس الاول لا يمكن اختراقه، ولكن أية رياح سامة من شأنها اصابة العمل بعاهات وتشوهات، مرة تم مصادرة تقرير فصلي في الداخل... ولكن مفصلنا صمد، ومساحات من لغته مرمزة ولا يمكن فهمها، وهذا له أضرار بداهة، ولكنها لا ترقى الى مستوى الضربات الامنية، انها تساعد العدو على الدخول في تفكيرنا وحسب، وهذا خطر بلا شك، والحزب استخلص الدروس وقام بالإجراءات الممكنة...

٢- الانكسارات والانهيارات في الزنازين... وهي السبب الاساس للضربات الكبيرة، حتى لو كانت بدايتها اختراقاً أمنياً... فالانهيار الكادري والقيادي، رغم رموز الصمود، وعدم خوض معركة التحقيق بجذرية، وحماية الحزب بالدم، افضت لهدم تجاربنا سواء كانت بدائية وحلقية او حرفية ومركزية...

هذا لم يعد ممكنا منذ سنوات، والتجربة العملية قالت كلمتها... فالتعبئة من جهة وقوة المثال وتجذر الصفوف الكادرية والقيادية الى درجة التضحية بالحياة لا بالحزب، تحمي المسيرة من الضربات الموجعة، طبعا لا يمكن منع العدو من الاعتقالات العشوائية الواسعة، التي تصل احيانا بالمئات واكثر كما حصل عامي ٨٨ و٨٩... او استبقاء اكثر من ٣٠ ناشطاً بصورة دائمة من مخيم الدهيشة وحده، في السجن، تتبدل الاسماء ولكن الرقم ثابت تقريبا، لعل ذلك يبلبل ويشوش عملنا في ذاك الموقع أو في الوطن عموماً.

لكن هذا لم يجد أيضا...

من هنا نعود للنقطة الاولى الاختراق والاعتقال المتلبس، لعله يكسر ارادة هذا الكادر او ذاك القائد...

في لبنان نجحت المخابرات في تجنيد قيادي في بداية السبعينات، وفي الاردن نجحت المخابرات في كسر قيادي في الستينات. هذان النموذجان هما الاشد خطورة... أما الألاعيب الاخرى من طراز ما حصل في «الهدف» كاختراق سياسي من قبل القيادة اليمينية، او تغذية كما حصل ايام انشقاق الديموقراطية، او تلويث وبقرطة اوساط قيادية كما حصل بعد الحقبة النفطية في منظمة التحرير ومصر... فهذا غير متاح هنا.

اننا فريق متلاحم وامناء على الحزب ومشروعه التاريخي، أو هكذا يبدو لنا الأمر...

ان المعركة الامنية بجدية المعركة التنظيمية والمعركة السياسية والمعركة الانتفاضية... اننا نمضي للامام والرصاص يطلق علينا من كل الاتجاهات ولكننا اثبتنا قانون داروين (الاختيار الطبيعي) فالبقاء للافضل... علما ان الظواهر الاجتماعية اكثر تعقيداً من الظواهر الطبيعية...

فالعدو لن ينام ونحن علينا ان نبقى في حالة استنفار.

ومرة اخرى، نعود لما تبقى من مسائل

١- انت تردد كلمة علي «ليس الذي طلب الحق فأخطأ كالذي طلب الباطل فأصاب» هذا من ناحية المبدأ صحيح، علما ان مقولات الحق والباطل، الخير والشر، الصواب والخطأ، الخ من المقولات الدينية والفلسفية، ليست بدهية أو يسهل الاتفاق عليها...

كما ان لعلي بن أبي طالب مكانة خاصة في تاريخنا، فهو الاكثر ثورية وانحيازا للجماهير في زمانه، بل الاكثر اجتهاداً ايضا، لقد حاول ان يكون امتدادا لعمر بن الخطاب في الاجتهاد وثورة على الارستقراطية القرشية التي تمثلت في حكم معاوية في الشام من جانب آخر... التاريخ لم يعطه فرصة... فالتاريخ ظالم في كثير من الاحيان، رغم تطوره الصاعد وقدرته على «استحداث المشاكل وعلاجها» انجلز، في نهاية الامر... اما ان تكون الثورة الخمينية على هدى علي، فهذا برسم المستقبل. وان كنا نرى ارادتها الصلبة في مواجهة الامبريالية ودعم حزب الله... ولكننا نلاحظ ايضا ان «امتداداتها» الشيعية في العراق وتحديداً «الحكيم وقواته المتمركزة في إيران» المعاديان لنظام صدام، وهذا مفهوم سياسيا، ولكننا نخشى بعد هذا الحصار الخانق للعراق ان يتعاونوا مع الامريكان في ضوء ما تنشره الصحافة هنا وهناك، وخصوصا اذا صدقت بعض التحليلات عن عزم امريكا، اجتياح العراق واحتلال بغداد...

٢- يجب العودة للديالكتيك، فهو (النظرية التي تدرس كيف يمكن لضدين ان يكونا متحدين، ضدين حيين لا ميتين) لينين... ذلك (ان الطرفين المتناقضين في اية عملية هما متعارضان ومتصارعان ومتضادان) ماو...

وهذا ما جعل الحكيم يقول في محاضرة عن ازمة الثورة بعد «لعم» بقليل (يجب ان نرى التناقضات الداخلية قبل ان نرى العوامل الخارجية. هذا قانون في التناقضات).

ثمة تناقض تناحري بين الوطنية الفلسطينية ونضالنا التحرري والعنصرية الاسرائيلية واحتلالها الغاشم...

وثمة تناقض داخلي بين الخط الاكثر ثورية في الساحة الفلسطينية والخط الهزيل الذي يراهن على المشروع الامريكي ومقدماته لقاءات واشنطن. رغم تاريخه النضالي العظيم.

وثمة تناقضات بين النزعات التحررية النضالية لتيارات في فتح والنزعات المتعبة المستسلمة التي تسعى لالتقاط الفتات وكفى الله المؤمنين شر القتال، او بعد ان فقدت الثقة بالقتال...

انها جملة تناقضات... حية، متحركة، والمهم ان لا يرمي ابو عمار بيضاته في سل التساوق مع الوعود الامريكية. فشولتز كذاب وبيكر كذاب ولن يعطوه شيئا، اما اذا تساوق فحينها سوف يختل الوضع الفلسطيني برمته، في الانتفاضة والخارج، فابو عمار يقود الاتجاه الاقوى في الساحة وثمة عوامل عديدة تساعده لتمرير خياره...

سندافع عن الانتفاضة، وعن القضية، وتضحيات شعبنا، ولكن ان يخرج نصف المنتفضين ونصف الشعب...

فهذه تراجيديا لا نستطيع تخيل ابعادها الكاملة بعد...

لقد حصلت انقسامات سياسية من قبل، ولكن في اطار الاجتهاد الوطني تقريبا... ولقاء الحكيم -أبو جهاد للم الساحة ثانية... اما هذه المرة فثمة مشروع امريكي – اسرائيلي صريح بتصفية النضال وشطب الحقوق لقاء الفتات... والانقسام قد يطول ويستنزف الشعب ووو...

طبعا المسألة ليست اخلاقية فقط، بل سياسة ايضا...

ومهما يكن من امر... لنسعَ لتعزيز الوحدة الميدانية للانتفاضة، ولنتهيأ لصبّ الزيت على لهيبها من دمائنا...

ونتفق مع الآراء المتناثرة في رسالتكم ان الحزب لم يخرج من ازمته العسكرية، ففي الخارج لم ينفذوا شعار (دعم الانتفاضة بالنار) ويبدو ان مساهمتهم على هذا الصعيد لا تساوي شروى نقير، ولذلك اسباب وجذور، ولكنها غير مفيدة سياسيا، والداخل افقر من فار الكنيسة، علما ان المبادرة مفتوحة ولا قيد عليها الا الانضباط للخط السياسي والشروط الامنية سواء للخارج او السجون او المظمات الحزبية، كما تعلن الجبهة بين الحين والآخر مسؤوليتها عن هذه العملية او ذاك النشاط.

واي تنظيم قوي لديه مئات المقاتلين مرشح ان يقود الساحة في الداخل، سواء فتح او حماس او الشعبية، فهذه هي الفصائل الاكثر حضوراً وجماهيرية...

وان كوّعت فتح سياسيا ينفتح المجال للشعبية وحماس، وان لم تتقدم الشعبية، تتقدم حماس، وان لم تفعل هذه يدخل النضال الفلسطيني في ازمة عنوانها العجز الستراتيجي كما حال الانظمة العربية.

لقد اثبت شعبنا حتى اللحظة قدرة انتفاضية هائلة وبطولية، وهذا ينطبق على الحزب فبنيته انتفاضية وصمودية وجسورة اولا.

وبالتالي فنقدكم هنا في مكانه ولا مجال للاعذار او التبريرات. والسؤال يغدو: كيف. كيف يتم إزاحة الخلل؟

٣- لا يزال موقفنا على حاله بتأييد مقاطعة انتخابات الكنيست، اي تأييد التيارات التي تتبنى هذا الموقف، حفاظا على وحدة الشعب الفلسطيني ووحدة هويته واهدافه المشتركة وحماية شعبنا في ٤٨ من التكيف مع مخططات الدولة الصهيونية، وبالتالي فموقفنا السياسي واضح من «اسرائيل» ومؤسستها البرلمانية، وما خلقه قيامها من مأساة فلسطينية وتهجير وحروب...

ولا لمرة واحدة وافقنا على شعار الدولتين، واي هدف مرحلي، او تاكتيكي، انما نربطه بنيويا وبرنامجيا بالسير على طريق الهدف الستراتيجي والدولة الديموقراطية كما حددها الحزب في كراسته (الدولة الديموقراطية) عام ٧٠... فهذا هدف استراتيجي لا يتغير الا بانجازه...

اننا حملة مبادئ واخلاقنا تتشبث بالمبادئ، ولسنا من الطراز البراغماتي الذي يدوس على المبادئ ولا يتمسك بها مقابل كسرة خبز او رفع ضغط... (إياكم والتنازل النظري، إياكم والتنازل عن المبادئ) ماركس، ان هذا ما يميز حزبنا وقيادتنا...

اما ان تسمع تسريبات اخرى، على لسان هذا «القائد» او ذاك، فموقفنا الرسمي وموقف قيادتنا في الداخل، وخطابات الحكيم، ومواقف نائبه خير دليل على ما نقول... ولا مجال للاجتهاد هنا، فالبرنامج والنظام الداخلي هما الناظمان... اما اية اجتهادات اخرى فهي تبقى فردية وغير ملزمة... ولا يتبدل البرنامج والنظام الداخلي الا في المؤتمر الوطني العام...

وهذا موقف لينيني واضح وموقف حزبي قاطع..

انت تعرف من تجربتك اننا نمزج الفكر بالسياسة بالاخلاق، فالصدق حاسم، والاشتراكية حاسمة، والحقوق الوطنية حاسمة، ومصالح الشعب حاسمة، وانحيازنا للمخيمات والفقراء «والكتلة التاريخية» التقدمية والعمال والنساء والحرية والاستقلال والديموقراطية... كلها حاسمة... ولا نتلاعب بها سياسيا او كلما ضرب الكوز بالجرة... انظر ماذا يحدث في الاتحاد السوفييتي اقام «ديكتاتورية» قيادة الحزب... فهذا سمح لغورباتشوف وفريقه المساس بمنجزات النظام وسبيكة الدولة... والحبل على الجرار.

....

- الملحق رقم ٥ -

مساحات من رسالة قيادية من الداخل للخارج بشأن المؤتمر أوائل ١٩٩٠

....فيما تتصرف فروع الخارج لعقد مؤتمراتها لمراجعة مسيرتها وتسوية تناقضاتها وانتخاب قياداتها ورسم توجهاتها تمهيداً لانعقاد المؤتمر الحزبي العام....

نعترف أن ما يستغرقنا من الرأس إلى الكعب أولويات أخرى. فالتلاحم عالٍ جداً في الداخل، وأية تباينات هي ثانوية جداً جداً وتعكس الوجه الآخر للانسجام والتناغم حسب المنطق الديالكتيكي، إذ ثمة وحدة تناقضية في أية ماهية أو ظاهرة.... ومعروف لكم منطق هيجل- ماركس. أما القيادات، هنا فقد طارت على أجنحة إنجازاتها وهي تحظى بثقة مرؤوسيها وسيف الاعتقال يستنزفها باستمرار، ويندر أن يتمسك أحد بخانته إلا إن طلبته بالحاح، وأي تدوير إنما يتم بسلاسة، ولم نسمع عن احد يطالب بمرتبة مركزية أو يعبؤ بمرتبته المركزية، فهذه الثقافة غير موجودة هنا، بل عكسها هو السائد. والرؤية واضحة: بناء حزب ومقاومة المحتل، وحالياً حماية الانتفاضة وصب الزيت على لهيبها من خلال الفعل الميداني والاشتباك اليومي بما يوجبانه من تضحيات، وروح الفخر تكتسح الجوارح، وليس ثمة تذمرات أو علامات تعب، وهذا أساس تاكتيكنا الهجومي.... وبالتالي فإننا ننظر بفتور لما جاء في التقرير التنظيمي المركزي عام ٨٨ الذي يقيم سلباً عدم انعقاد المؤتمرات الفرعية، فرأينا أن انعقادها أو عدم انعقادها ليس بالشيء المحوري، بل تفعيل الفروع أو عدم تفعيلها هو الشيء المحوري، أي مضاعفة حجمها وإسناد الانتفاضة بالنار والتحركات الشعبية، وان انعقاد أي مؤتمر إنما يكتسب قيمته من تحقيق هذين المؤشرين وما يتصل بهما، فعلى سبيل المثال لقد عقد فرع سوريا مؤتمره منذ ١٩٨٤ دون أن يخدم المؤشرين أعلاه، وهذه حال فرع لبنان عام ٨٨، أما فرع الأردن فقد تبدد بعد أن تحولت الجبهة لحزب الوحدة ولم يتبق من عضويته سوى أقل من ٢٥٪، علماً أن الانفراجة الديمقراطية يفترض أن تسهل حركته وتوسعه.... وكان لنا موقفنا الاعتراضي على تحول الجبهة لحزب الوحدة منذ البدايات...

طبعاً أننا مع عقد المؤتمر من الناحية المبدئية، ولكن متى وما المغزى من ذلك وما المضامين....؟ أي أن المؤتمر ليس عملية تكنيكية إجرائية وحسب، وان كان على هذا النحو فمن شأنه تجويف المؤتمر والالتفاف عليه. (أمس لم يحن بعد وغداً يكون قد فات الأوان)، لينين عن ثورة أكتوبر، أي اللحظة المناسبة. ونعتقد أن الأولوية اليوم للانتفاض الشعبي وسكب الجهد في طواحينه. فقد رفعنا شعار حزب الانتفاضة والانتفاضة هي الحلقة المركزية وانتم رفعتم شعار الانتفاضة محور عملنا وإسناد الانتفاضة بالنار.

(هنا القلعة فلنقفز هنا)، فأين الاستحقاقات؟ أما تحبير الأوراق وإشغال الجميع في اجتماعات ومناقشات لمدة شهور، فلربما يرقى ذلك «إلى إضاعة اتجاه» وهو وبالتأكيد لن يساعدكم على تطبيق شعاركم، فما جئتم عليه حتى اللحظة متباعد ولا يغني ولا يسمن من جوع.

لو عدنا «إلى مسيرتنا الحزبية: كان الجدل بين الشهيد وديع وحواتمة في مؤتمر ٦٨ فيما كان الحكيم في

السجن السوري أن الأول اعتبر النضال منصة الانطلاق لبناء الحزب الثوري، وهكذا كان، فالانتفاضة فرصتنا في الخارج والداخل للنهوض بالحزب، وأنتم تعلمون أننا انخرطنا حتى نخاع العظم وحصدنا ثماراً وفيرة وطنياً وحزبياً، إذ أنهما وجهان لعملة واحدة ومتواشجان في آن،.... أما حواتمة فأسهب في الحديث عن التحليلات والفكر والأوراق... وكأن التاريخ يعيد نفسه، ولكن كما كتب ماركس (التاريخ يعيد نفسه مرة على شكل ملهاة ومرة على شكل مأساة).... وعليه دعونا نعمل معاً بوحي شعاراتنا الناظمة....

طبعاً، أننا نفهم أن أوضاعكم صعبة.... ولكن اختراقها لا يتم إلا بالانخراط في عملية إسناد منشعبة للانتفاضة، أما الاجتماعات بما يصاحبها من اتهامات وملاسنات فلن تفيد في شيء، سيما إننا نلاحظ حجم التباينات في الهيئات المركزية إلى درجة أن تحظى بعض القرارات بأقل من نسبة الثلثين.... كما نلاحظ انغماس م.س في اليومي على حساب الاستراتيجي، كما هروب كفاءات عديدة وقد «تحولت الهدف لمر وليس لمستقر» والكارثة التي أصابت فرعنا في الأردن، أما وقفة «لمع» حيال العمل العسكري بعد حرب ٨٢ فكانت مريرة ولكنها لم تعالج أسباب هذه المرارة لهذا اليوم، وما يقال عن إسناد الداخل هو جعجعة دون طحن،وهذا جرح نازف عمره سنين وسنين ولا يفيد معه أي تزيين أو هروب للأمام، وقد يكون العلاج العثور على أفراد من هنا وهناك، وليس بالضرورة المراتب العليا، على غرار النجاحات التي حققها وديع والقبضة من حوله وجيفارا غزة والقبضة من حوله وهذا ما حصل لاحقاً أيضاً... إذ مطلوب معالجة محددة وإجراءات محددة وليس تعويم الأمور في مؤتمرات..... وبصراحة سوف نتقدم باقتراح لمحاسبة الجهات المعنية.

وبكل تأكيد أننا مع الديمقراطية، ولكن كيف نفهمها؟ إن إشراك الجميع في مهمات يومية وإستراتيجية، أن «الانخراط في الممارسة»، والتعبير لماركس، هي المظهر الديمقراطي الأهم.... واللحظة مناسبة لانخراط الجميع في الممارسة سيما إسناد الانتفاضة، والديمقراطية هي إطلاق أيدي اللجان الحزبية للمبادرة والتحرك ومضاعفة حجم وفعل وتأثير الحزب، «فالجماهير يجب أن تبقى في الشارع» وليس مجرد «ذهابها كل أربعة أعوام لانتخاب ممثليها» ماركس، والديموقراطية بمضاعفة نسبة المرأة في الحزب وهيئاته وبذلك تتحقق «المواطنة المتساوية» داخل الحزب ونتجاوز لغة الخطاب الليبرالي إلى الفعل والنتائج الثورية، وهي حرية التفكير والتعبير والاجتهاد على صعيد داخلي لتعزيز ثقة العضو بنفسه وتنمية وعيه وخبرته بما هو نقيض الأبوية والبطريركية التي أسهب في شرحها هشام الشرابي.... كتب الكواكبي (يا قوم تشكون الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تنفقون على التدخين، تشكون من الفقر ولا سبب غير الكسل..... ترجون الفلاح ويخادع بعضكم بعضاً وتشكون الحكام ولا تسعون لإصلاحهم..... انتم السبب فيما انتم عليه) داعياً إلى الفصل بين السلطات..... ولا يعنينا هذا الاقتباس إلا من زاوية واحدة «أننا السبب فيما نحن فيه»، وان المخرج هو الانغماس من الرأس إلى الكعب في الانتفاض فهو قاعدة الانطلاق للتخلص من الأدران والمعيقات والتباطؤ وفي ضوء الاستجابة لها، والحركة الواقعية للمهام تفرض نفسها، يعاد تشكيل الهيئات واللجان، فيما المهمات هي المعيار والحكم، ودور الفرد في هذه العملية التي نسعى لكي تكون نمط حياة، وعلى الأقل أن تستمر سنوات، يحدد موقعه وليس المساجلات ورصف الصفحات... ومع ذلك سوف نتناغم مع قراركم النهائي، وسوف نساهم في أي مؤتمر وطني يعقده الحزب،

ومن جانبي سوف أساهم، إضافة لذلك، في التقرير التنظيمي والوثيقة الأيدلوجية كما طلب مني، ولكنني سوف أضيف رؤيتنا للانتفاض الشعبي ومآله ودور جناحي الحزب فيه بربط التحليل بالمهام والاستحقاقات العملية، باقتضاب، وسوف أناقش الرفاق هنا ونخلص لرأي جماعي.

من جهة أخرى هاكم رأيي الشخصي ريثما أناقش الأمر مع الرفاق.

أ. إسهامنا الحقيقي في المؤتمر أن نضاعف فعلنا في الانتفاض وان نضاعف حجمنا الحزبي في الوطن، ناهيكم عن أية إسهامات نظرية في التقارير والتوصيات.... ب. غير واضح إذا كان بوسعنا إيفاد كادرات هامة للمؤتمر..... وكادراتنا الألمع إما يعيشون وضعاً خاصاً أو داخل الأكياس الحجرية أو خريجو سجون الأمر الذي يمنعهم من السفر.... ولا نميل أن يمثلنا مستوى من الدرجة الثالثة أو الرابعة فهو لن يقوى على هذه المهمة الكبيرة التي ستحدد مستقبل الحزب، سيما أننا سمعنا الجدل العاصف بينكم حول البيروسترويكا والعلاقة مع قيادة المنظمة وسياستها وأزمة العمل العسكري والمسألة المالية..... الأمر الذي يستدعي أن نساهم بطريقة أخرى في هذه المسائل وليس مجرد كادر هامشي يتاح له السفر، عموماً لسنا في السويد لكيما يتاح لنا السفر والمساهمة الحية، رغم رغبتنا وشغفنا.

ج. سوف يعكس الداخل إرادته من خلال رسالة جماعية بعد مناقشتها وإقرارها، ومن المتوقع أن تشتمل كافة أوجه العمل: سياسياً، أيدولوجياً، تنظيمياً، جماهيرياً، مالياً، نضالياً، إعلامياً.... كما المساهمة في انتخاب القيادة الجديدة.... وللعلم لا احد يعبؤ هنا بأن يكون في «م.س» أو «لمع»، حتى الأعضاء الحاليون لا يعبؤون بذلك، ليس من باب الاستخفاف بل لأن اهتمامنا الوحيد أن نؤدي دورنا الثوري وحسب، وسواء كنا نصف م.س أو مجرد عضو واحد أو دون عضوية فهذا لا يشكل فارقاً لدينا، فالمهم أن ينخرط حزبنا في الانتفاض، وانتم من تجربتكم لاحظتم أننا منافحون صلبون عن قناعاتنا وما نعتقده في مصلحة الحزب والوطن، في غير موقف تنظيمي وسياسي وفكري، سواء كنا في هيئات مركزية أم لم نكن، ونعلم أنكم لم تقوموا بتجنيد أغلبية لإلزامنا، وهذا هو الشيء الذي يعنينا..... أي لنترك متسعاً كافياً للحوار وللحياة أن تقول رأيها.

د. مهما أحكمنا القبض على أوضاعنا في الداخل، فإنني أميل إلى عقد خمس حلقات لمؤتمر الداخل، أي مؤتمر لكل دائرة + «مج» على أن يسبقه مؤتمر لكل إطار، وهذا تحصيل حاصل، وفي ضوء النتائج نستخرج الآلية الملائمة التي ينبثق عنها قيادة للجناح، وهذا رأي شخصي أولي وحسب.

فالموضوع حساس، ويفيد تذكر كلمات القائد الشيوعي العراقي فهد (بأن كشف أسرار الحزب يعادل تصفيته)، بما يوجب مراعاة العامل الأمني بحزم، ولكنه حزم لا يمنع عقد المؤتمر بل استخراج الشكل الملائم له وحسب..... وأهم شيء بالنسبة للداخل هو حماية فريق المحترفين الثوريين وفي القلب منهم من ينغمسون في «الوضع الخاص» وحفنة المفاصل الصاعدة الذين يشكلون رديفا للأوائل، فهؤلاء هم الضمانة الأساس للعربة ومسيرتها، ولن نفرط بهم وبأمنهم أبداً، بل لن نفرط بأمن أحد، وهذا يقتضي منكم أيضاً الحرص فلا تتبعثر الأسرار في لجة الجدل حول المؤتمر والقيادة الجديدة.... وإذا كان أمننا يقتضي عدم تمثيل الداخل في الهيئات

المركزية، فلا ضير، ونشدد مرة أخرى على الذين يعيشون «الوضع الخاص»، فقد باتت تجربتنا غنية وتتقدم كثيراً على التجربة الفلسطينية وربما العالمية في هذا المجال، ولولا هؤلاء لما صمدت مسيرتنا الحزبية في وجه الحملات الاعتقالية، واسمحوا لنا أن نشدد عل ذلك بعد أن لاحظنا تسريباً لديكم منذ سنوات، سمعناه من رفيقنا في الساحة البعيدة.... فالمفاصل المذكورة هم «محترفون ثوريون» بالمعنى اللينيني للكلمة، فهم يعملون بجماع الشخصية ١٢-١٦ ساعة يومياً ولا هموم عائلية أو حياتية تشغلهم سوى موضوع واحد: الحزب، ودونهم تتبعثر التجربة وتتقهقر....

وخليق تذكر أن أوضاعنا هنا مغايرة لأوضاعكم، فأنتم تجربة علنية وحتى في الأردن أصبحنا علنيين، وأية جوانب سرية هي جزئية، أما تجربتنا فهي سرية موشحة ببعض العلنية، أو نصف العلنية وبالتالي فالرؤية تتباين بتباين الظروف، وليس صعباً عليكم أن تعقدوا مؤتمراً بضعة أيام في فندق أو سينما أو مكان ما.... أما نحن فاجتماعاتنا سرية فما بالكم بعقد مؤتمر يشارك فيه أعداد....

وبالمناسبة، ليس لدينا هنا قضايا خلافية أو قضايا معلقة تحتاج لحسم، فكل شيء يعالج أولاً بأول. ولا نقبل فلسفة الترحيل، كما لا توجد لجان وكادرات يتعين إزاحتهم أو إعادة النظر في مهامهم، فالذين يتولون الدفة محلياً ومركزياً أنتجتهم إنجازاتهم ومنظماتهم وأنشطتهم التي يقودونها، ولم يأت تعيينهم إجمالاً، بناء على قرارات فوقية، وأنتم تعلمون أننا فصلنا عضو م.س بثلاثة أسطر لأنه أدار ظهره لمهامه في وقت كانت اللحظة في مسيس الحاجة إليه، وقد حصل على هذا اللقب في السجن في المؤتمر السابق، بقرار منكم، كما تعلمون أن رفاقا مركزيين مرجعياتهم أقل مرتبة منهم، ولأنهم ثوار ومحترمون لا يزعجهم لقب مرجعهم، وهم أيضاً حصلوا على مراتبهم أثناء فترة اعتقالهم بقرار من المؤتمر السابق.... المقاييس هنا مختلفة نسبياً، فما يحدد الموقع الحزبي هو المهام والإنجازات. وبعضكم يتذكر الجدل حامي الوطيس عام ٨٥ بعد الاعتقالات، «بيننا» وبين «الخارج»، وحول هذا الموضوع تحديداً، المرتبة والمهام، وكيف تجاوزنا الألقاب المركزية، ولولا ذلك لما أصبحنا على ما نحن عليه، كما الجدل حول المنظمات المهنية والقطاعية، وفي العام الأخير حول الأطر «ولش»... ففي النهاية سارت الأمور في مجراها الصحيح، الأمر الذي أوجبه الملموس وليس الأفكار المجردة...

وبالعودة للتقرير التنظيمي، لافت تماماً الحديث عن الأرض المحتلة كفرع، فلسنا مجرد فرع، لقد بتنا جناحاً حسب توصيفات الجليل، والخارج بجميع فروعه جناحاً آخر، من ناحية الحجم والفعل بعد أن أصبحت الأرض المحتلة الساحة الأساسية سياسياً وتنظيمياً ونضالياً، بل إن حجم الداخل التنظيمي يفوق حجم الخارج وبالتالي فإن عقد المؤتمر الوطني قريباً، أو تأجيله لبعض الوقت، لا يجوز أن يتجاهل أوضاع الساحة الأساسية وأولوياتها... من فضلكم الانشاداد للحلقة المركزية وللمؤشرين أعلاه (دعم الانتفاضة ومضاعفة حجم وفعل الحزب) بحيث يكونان محور العمل، فهما (الحلقة المركزية التي تقطر الحلقات الأخرى) لينين.

في هذه اللحظات، ومنذ زمن جرى نقد تغليب العمل المكتبي والداخلي، فالقيمة النهائية للعمل المكتبي والداخلي أنهما يخدمان العمل الميداني والممارسة (فخطوة عملية واحدة أهم من دزينة برامج) ماركس، وفي

البراكسيس يتم تطوير الذات الفردية والجماعيه، أي في غمرة فعل الذات تتطور الذات، أما العمل المكتبي والداخلي فهذا الجانب هو الجانب الثانوي في الممارسة، وهذه مسائل، نظرية متعارف عليها ودون الميداني والخارجي تنطفئ الذات ويستقيل الحزب من وظيفته التاريخية. فالآلاف ينبغي تشغيلهم في الميدان والقلة في المكاتب. فروح الميدان ينبغي أن تكون هي الغالبة سيما في لحظة صناعة التاريخ، لحظة الانتفاض كعملية ميدانية متشبعة..... ألم نرفع من قبل شعار: اتبعوني، وألم يبهرنا النموذج الجيفاري والجنرال سعد الدين الشاذلي، ألم يتواجد الحكيم على خطوط القتال أثناء حصار وتدمير بيروت.... فاللحظة الراهنة هي لحظة قتال (الحرب السادسة) أسماها شامير، وعلى الجميع أن يشمر عن سواعده ويتموضع في خندقه، سيما أننا نتأهب ونعد العدة لرفع شعار التحول لقوة أولى في السنوات المقبلة وسوف نعلل ذلك ونبين اشتراطاته وهذا الشعار سوف يضع عليكم وعلينا استحقاقات جدية وفي مقدمتها شق طريق الميدان والحرث في الأرض، ودون إسنادكم الحي الدفاق يتبخر الشعار. إن الشعار يعتمد علينا ولكن دون عجلات وبنزين لن يسير....وهذا موضوع نفرد له حيزاً منفصلاً في ورقة مستقلة بعد عام أو أكثر ارتباطا بفعلنا الميداني وتعاظم قوتنا المنظمة ووضعية الانتفاضة...

معلوم أن لنا برنامجنا السنوي وخططنا المستقاة منه ووقفاتنا السنوية ونصف السنوية، علاوة على التقارير المتنوعة استنادا واتكاءً عليه. ولا شك أن الخطط تنظم عملنا وتشكل مهمازا لنا، ونتساءل: ما هي محركات وقفاتكم في زمن الانتفاضة وقد أفردتم لها حيزاً في التقرير التنظيمي.... ما هي معايير تقييم فرع معين أو هيئة قيادية أو دائرة مركزية....؟ هل يجوز تقييم أي شيء بمعزل عن الانتفاض؟ طبعاً الانتفاض ليس كل شيء، ولكنه الحلقة المركزية ومحور العمل...

ولشرح خلفية العبارات المكثفة أعلاه. أردف قائد تنظيمي (بالفعل لم نتقيد بالترسيمات الجامدة، فقوة المثال لدينا كانت فيديل وتشي والحكيم وكلماته «من يريد أن يفهمنا عليه أن يفهم أننا نفكر».

لقد حفزتنا متطلبات البناء والصمود وتفعيل الطاقات وما أمكن من النظام الداخلي. فالمشترك مع الجبهة هو «وما أمكن»، أما الخاص والملموس فهما المساحة الأوسع. إذ كان تعريف الجبهة هو السؤال الأول: هل الجبهة حزب سياسي مقاتل ماركسي- لينيني؟ أما السؤال الثاني فكان قانوني المركزية- الديمقراطية والقيادة الجماعية.

كان يشترط التعريف وجود الحزب لكيما يكون طابعاً معيناً، وبالتالي كان يتعين أولاً بناء الحزب، فالجهد المركزي صرف في البناء، أما مهارات البناء، صيغ البناء، شروط البناء، أدوات البناء، فكانت القض والقضيض سنوات وسنوات من العمل المثابر لخلق عملية تراكمية، وهذه من الألف إلى الياء عملية محلية تتعاطى مع الملموس، مع تحديات الخاص وأسئلة الملموس، تبتكر الإجابات وتؤمن المتطلبات، إنها صناعة محلية....

كما لم يشغلنا حجم المركزية وحجم الديمقراطية، فما كان يستولي على لبابنا هو إيجاد المؤسسين الذين يزرعون ويحصدون ويقودون وينجحون ويصمدون في الزنازين والنضال الشاق، أي «العمل المتكلم» وهذا تعبير إقتبسناه عن التوبا ماروس. لم تحظ أراء فلان أو علان بمساحة كبيرة بل إنجازاتهما. فالصدقية الثورية تتجلى

هنا ومصداق الرأي يتجلى هنا، ومن لا مصداقية له عليه أن ينتظر طويلاً إلى ان يجد آذانا صاغية. فالآذان والحواس والعقول والجهود كلها منغمسة في البراكسيس، نختبر آراءنا وتتطور آفاقنا وتجاربنا في الممارسة. والذين يتحررون من السجون لهم منزلة خاصة ولكنهم في وقت قياسي يندرجون في الأتون ويعرفون أن «العمل المنظم» هو مختبر ومعيار صوابية مقترحاتهم، ومعظمهم يندرج ويستجيب لمتطلبات المعمعان .....

والواقع كما هو معروف أكثر تعقيداً من التصورات النظرية، وما أن يكتسب الكادر الحس المرتبط بالواقع فإنه ينتقل من المجرد إلى الملموس، ويتعلم أن أهمية المجرد في الملموس والفعل فيه، ومن هنا جاءت كلمات ماركس «من المجرد العام... إلى الملموس الخاص».

فمثلاً تتجسد المركزية في الانغماس بجماع الشخصية في المهام وإزاحة الحجارة والعقبات من طريقها، والذي يتقدم الصفوف تصغي له الصفوف، ليس لأنه أعلى مرتبة بل لأنه يتقدم الصفوف ومع الوقت يتوج بالمسؤولية الأولى.

والحوار الديمقراطي غرضه الأساس استخلاص القرار الصحيح والبحث في أفضل السبل لتنفيذه، وفي الخلفية البرنامج السنوي الذي تستخلص منه الخطط المناطقية ويترك لأهل الشأن تنفيذ المهام. والعقل الجماعي يتبلور من خلال الحوار الجماعي الذي يثمر عن قرارات يتعيّن تنفيذها بحزم وليس مجرد نقاشات أكاديمية ولاهوتية. وقد جرت العادة منذ بداية الثمانينات، أن يعقد الاجتماع القيادي بناء على مسودة موزعة سلفاً، كأرضية نقاش، هي مستقاة من زبدة العقل الجماعي وخبرة العمل الجماعي والمستجدات، وينعكس فيها آراء أهم الكادرات والتجارب الناجحة وما تعكسه التقارير والتساؤلات والتفاعلات مع أعلى، ودروس الممارسة المجموعية كمعيار للصوابية، ومثل هذا العقل القيادي إنما تراكم سنة بعد سنة وخبرة تضاف لخبرة ومسيرة موقع تغني مسيرة موقع آخر....كل ذلك يخزّن وتقوم مصفاة بغربلته.... فهذا جوهر العقل القيادي وليس ما يدور في اجتماع قيادي فقط في لحظة معينة، بل سياق تراكمي طويل ساهمت فيه هيئات وكادرات ومنظمات قاعدية، معظمهم أصبح اليوم داخل قلاع الأسر وبعضهم في ذمة التاريخ. هذا العقل غير المرئي يكون الحاضر الأقوى في اجتماع الهيئة القيادية. ومقولة ماو مرشدة (من المعرفة الحسية إلى المعرفة المنطقية ومنها إلى الممارسة) فالمعرفة المنطقية عملية تراكمية تمخضت عن ووضعتها قائمة طويلة من رفقاء العمل وتجارب العمل. لكل واحد نبضة ولكل تجربة خبرة ولكل موقع خلاصة. زبدتها تتسم بقدر عالٍ من الاتساق، فهي النواة المكثفة للعقل القيادي..... جيفارا غزة وتجربته سطر، خبرة رام الله الحزبية سطر، العمل الديمقراطي- الجماهيري سطر، وتجربة وكادرات السجون سطور، ورموز العمل سطور أخرى.... وهكذا وإن كانت تتكثف كمرآة مقعرة لدى المسؤول بمزاياه ناهيكم عن أنه الحارس الأمين على امتداد التجربة.....

وبالتالي لم يكن صعباً استصواب أو تصويب رأي أو وجهة نظر أو احتضان وجهة نظر جديدة. إذ ثمة ميزان تكوّن في معمعان طويل وغزير، هذا الميزان المتواشج والناتج عن الممارسة واكثر الرفاق موهبة. إنما يفتح أذرعه لكل جديد صائب، ولا يوجد مصالح شخصية أو امتيازات أو تراتب بيروقراطي أو مماحكات أو نزعات ذاتية تعطله.

فالروح ثورية وطليعية وسيف الاعتقال يهدد الجميع وان استطالت الدورة التنظيمية في مرحلة العمل الحزبي، إذ كان يتعرض الكادر للاعتقال كل سنة أو سنتين فأصبح يصمد في الميدان خمس وسبع سنوات وسمحت بتنشئة كادرات ومراكمة امتدادت وإكتساب خبرات على طريق بناء فريق قيادي، ناهيكم عن التصليب الأمني والتجذير الأيدلوجي، وهذه خصيصة رئيسة من خصائص العمل الحزبي الثوري في الداخل، وإن لم تتوافر ليس ثمة حزب ولا ما يحزنون، وليس ثمة قيادة بطبيعة الحال لان الجسم التنظيمي في نهاية الأمر مرآة لها.

وبات الكادر الذي لا يحمي مرؤوسيه ومجال عمله في الزنازين يسقط دون رجعة، بل مجرد اعتقاله لا يحظى بترحاب، وان تماهل أو تثاقل يتم عزله وتبديل مهامه دون إبطاء، وان كف عن الإجابة عن أسئلة العمل وأسئلة الرفاق يكتشف من تلقاء نفسه أنه غير صالح لخانته ضمن مقولة (مطلوب جهاز لتنفيذ سياسة وليس سياسة لإرضاء جهاز) لينين، وبالتالي تكليفه بمهام قادر على النجاح فيها، فكلمة فشل مذمومة تماماً.

هذه حال قيادات المناطق والمنظمات المحيطة، فعلى أجندتها سلسلة مهام مستخرجة من الخطة والقرارات المستحدثة، منها الدائم ومنها المتصل بالمتغيرات. والمعيار هو إنجاز المهام ودرجات الانجاز. فلا تلم المرأة إن أخطأت أو قصرت، ناهيكم عن معيار المقارنة بين المنظمات واللجان حيث يتضح حجم المراس ومستوى الوعي والدافعية الثورية.... ومع مرور الزمن انتشرت مناخات تستوعب هذه المقاييس التي غدت القاضي الذي يصدر الحكم. وما المستوى الأعلى سواء كان هيئة أو مسؤول فرد سوى لسان حال هذه المقاييس، وهي تنسحب عليه قبل غيره مع تشديد في التطلب فالذي يقف في المقدمة يطالب بأكثر من سواه، إنجازات، تضحية، صموداً، استقامة، خلق مآثر وإبداعات..... وأية مرتبة حزبية مركزية تحاكم هنا حصراً، وأي تراخ هنا يفضي لا محالة إلى عد تنازلي يهدد وجود ودور الحزب، ولا امتيازات لها إلا المزيد من الانجازات. كانت المسؤولية شرفاً لا ترفاً، أما المرتبة فهي مجرد شكل ويحظى بأهميته حينما يقترن بمحتوى يناظره، أما رفقاء العمل فينظرون للمحتوى، إذ يندر الحديث عن المرتبة، فهي أقرب للسرية أو سرية ولا يعلن عنها أمام المرؤوسين وفي كثير من الأحيان لا يعلن عنها أمام نفس المستوى، فما يجمع المستوى هو المحتوى والمهام لا الألقاب، والأعضاء المركزيون غير معروفين إلا لدى المسؤول الأول. ولم يكن نادراً أن يتولى مفصل أدنى مرتبة مهام أوسع من مهامهم اتصالا بالحراك التنظيمي، سيما ان أغلبيتهم حظيت بعضويتها المركزية أثناء وجودها وراء جدران السجن، وليس اتصالا بمتطلبات العمل الحي الذي يملي حراكاً مختلفاً وسجايا مرتبطة به.

تجدر الإشارة إلى أن المهمات هي التي كانت تشغل بال المركزيين وليس ألقابهم، والمرؤوسون ينظرون لهم من خلال دورهم وليس مراتبهم، على خلاف العمل المكتبي والمشهدي الذي يظن أن له أهمية لان له مرتبة ومكتباً ويتحدث لوسائل الإعلام.... لقد جرى تخريب المقاومة بعد تغطيسها في العلانية والمهرجانية والمشهدية التي حلت بتدرج محل الأجسام التنظيمية والروح الثورية وابتعدت عن العمل الحقيقي، وكأننا أنجزنا مرحلة التحرر الوطني!!

لقد فهمنا الديمقراطية كمزيد من الحوار ومزيد من المشاركة في صناعة العمل وصناعة العقل الجماعي،

فالمهم هو بناء القاطرات، بما تتطلبه من مبادرات على أوسع نطاق واستقلالية نسبية للمستويات والمنظمات على أوسع نطاق ومتابعة لحوحه لتنفيذ القرارات وترميم الثغرات أولاً بأول ساعد على دوران العجلة بيسر نسبي توزيع العمل على تخصصات، كل لجنة وكل منظمة في ميدانها، ولأن المهام أكبر من طاقة الجميع كان يتمنى الجميع المزيد من الشركاء لحمل الأعباء كما يلزم الجميع بمضاعفة الجهد، والكل ملاحق دون استثناء لاجتراح المزيد من الأعمال حيث تتحقق السعادة (فالسعادة في النضال) ماركس، والانجاز هو المشاركة الديمقراطية الأهم، ولم نسمع أن أحداً ينافس على موقع آخر، وإن سمعنا كان لماماً والصوت خافتاً وخجولاً. إن سياسة توزيع الكادر كانت توظف الجميع، والجميع تستغرقه مهامه والمحاسبة صارمة وسريعة ما أن تحصل أية ثغرات. هذا في مرحلة متقدمة من التجربة).

وبالعودة للرسالة القيادية. بلا شك أن الصلاحيات تقترن بالانجازات، فعلى قاعدة الانجاز تتوسع الصلاحيات، وهذا تحصيل حاصل وليس نزعة ديمقراطية أو غير ديمقراطية، فالذي يؤسس أو يقود رابطة هذه هي صلاحياته، والذي يؤسس ويقود قطاعاً هذه هي صلاحياته، والذي نجح في امتحان تأسيس وقيادة نقابة عمالية أو لوائية للإطار العمالي هذه هي صلاحياته، ويتمثل تلقائياً في اللجنة التنفيذية الضيقة أو المجلس الأوسع كما حال (الصحي) فالشكل ينسجم مع المحتوى، ولو تقدم إطار بنفس الاتجاه سوف يحظى بالدعم والتسهيلات.... أما أن يقترح كادر في «٨» إلحاق إطار«م» بالمنظمة الحزبية، فهذا مخالف للمنطق ويعود بالضرر لان«٨»لم تنجح بعد حزبياً إلا في أضيق الحدود، وغير صائب توسيع صلاحياتها فيما محتواها فقير، إذ عليها أن تحرز نجاحات حزبية أولاً وحينها، وهذا مطلوب فعلاً، ترفيع وتوسيع صلاحيات أكثر من مفصل، إذ ثمة حاجة بإناطة مهام مركزية على مستوى الوطن، بما يتجاوز ٨، لغير مفصل في ٨ في الحقل التنظيمي والديمقراطي والسياسي والثقافي..... أما والحال هي الحال علينا تكريس جهود «٨» في «٨» بل إسنادها بمفاصل من خارجها وإزاحة الأطر عنها ضمن مرجعياتها الديمقراطية، فهذا يوسع آفاق الرفاق هناك ويدعمهم بإمكانات وطاقات غير متوافرة في «٨» حتى اللحظة.

إن القوام الحزبي في «٨» لا يتعدى نسبة ٢٠٪ من القوام في الوطن وعلى صعيد جماهيري أقل من ذلك وفي الميدان قريب من ذلك أو أكثر، وهذا غير صحي ويجب إحداث وثبة قياساً بالعامل الديموغرافي والإرث السياسي للحزب. فالجبل ضعف الساحل ديمغرافياً، أما الإرث سيما بين ٦٧-٧٢ فقد كان في الساحل أغنى وأكثر فاعلية من الجبل تاريخيا ومنذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، فلواء السبع هو الأكثر تخلفاً وتحيط به الصحراء من كل الجهات إلى درجة أن يظهر فيه مجرد مدينتين في العهد الكنعاني أو الروماني أو عهد السناجق الإسلامية..... ونسبة اللاجئين في قطاع غزة نحو ٧٠٪ من عدد السكان. أما في الضفة فنسبتهم أقل من ٣٠٪، وفي غزة أغلبيتهم الساحقة في المخيمات أما في الضفة فأغلبيتهم الساحقة في المدن.

عموماً فإن منارتنا الهادية هي متطلبات ومؤشرات الانجاز وليس بعثرة المعلومات والأسرار، كما أن الاطلاع على أسرار أكثر يتطلب ضمانات أكبر في الزنازين، وهذه زاوية لا يمكن تجاهلها، وبالتالي ينبغي الحذر فلا يتكرر ما حصل عام ٧٦ وجزئياً عام ٨٥. فلسنا منتدى اجتماعياً لتبادل الرأي بل سيلاً من المهام التي تتطلب

التنفيذ وحماية التركيم وعدم تبديده نتيجة عجز قيادي أو انكسار في الزنازين، وهذا ركن ركين في تفكيرنا الجماعي تمشياً مع كلمة لينين التي نكررها دائماً (مطلوب جهاز لتنفيذ سياسية،....) والذي لا يفهم هذه الزاوية لن يفهم كيف يدور الميكانيزم في الداخل،.... بل لا أحد خارج استحقاقات هذا التفكير بدءاً بـ..... نهاية بـ... وإن حصل أي تراخ أو تساهل إنما نضع أيدينا على قلوبنا ونستشعر من قبورنا أو من داخل الأكياس الحجرية أن ما تراكم مهدد بالتبديد وبالتالي تضيع الجهود الجمعية وتتبخر كلمة جيفارا (لا يهمني أين ومتى أموت، فالمهم أن لا يعيش العالم على رفات البائسين) وإن تبعثر تركيمنا سيكون في ذلك متعة كبيرة لجهاز المخابرات وراحة كبيرة لبعض الأوساط اليمينية الأكثر عفناً في الساحة الفلسطينية، بل بعض الأوساط «اليسارية» التي تعريها إنجازاتنا، وربما أيضاً بعض «الرفاق»، فالساحة لا تصفق للنجاحات بل تشتم الاخفاقات وأحياناً تحاصر الجديد وغير المألوف... فإننا منذ العصر الأموي في هزائم متتالية وباتت المقاييس مستقاة من الهزائم لا من الانتصارات.

وعليه، لا ينبغي تعظيم الشكلانية وإفقار المحتوى، والمرتبة يبررها مسؤولياتها، ولن تحوز مرتبة على ما تستحق إلا إن دفعت استحقاقاتها، ولن نتردد في إعادة النظر في أية مرتبة بناء على هذه القاعدة. أما البطالة المقنعة والألقاب المركزية الجوفاء فلا مكان لها هنا، فأكبر جيش لديه جنرالات هو الجيش اليوناني، غير أن الجيش التركي متوسط القوة دحره، وكبده غير هزيمة، وهذه حال عقدائنا في الساحة الفلسطينية فما أكثرهم- ومع ذلك رغم احترامنا الخاص لمسيرتهم الكفاحية كأفراد- ومع ذلك فهم لم يصونوا البندقية في الأردن ولم يؤسسوا أدوات سرية في لبنان، وما هو مطلوب منهم اليوم لإسناد الانتفاضة، بل لم يصنعوا مجرد مولوتوف فعال؟!

والأمر نفسه ينسحب على قيادات أخرى.... دون نسيان روايات النجاح التي حافظت على شلال الثورة... وهنا لا ينبغي الاكتفاء بالعبارات العامة الضبابية، إذ يتوجب فحص التفاصيل والإجابة عن تساؤلات الواقع. والسؤال الأهم اليوم هو سؤال الانتفاضة.... أين النجاحات وأين الإخفاقات والمحاسبة بناء على ذلك.... وأي من القياديين يمتلك (الطباع القيادية) ديمتروف، (والصدق في السياسة هو مطابقة الأقوال بالأفعال) لينين، وأيهم عكس ذلك وعدم انتظار انعقاد المؤتمر للمحاسبة، فثمة مهام يتعين إنجازها وتحديات يتعين مواجهتها اليوم وهي لا تقبل الانتظار، وإلا تركت قبضة الداخل تقاتل وحدها (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) أو إسناد الانتفاضة من «باب الخجل»، ولا نظن أن أياً منكم يفكر على هذا النحو. وكيما نضرب بقبضتين، قبضة الداخل وقبضة الخارج، وعلى الاقل تفعيل قبضة الخارج يتعين الوقفة الصارمة واتخاذ الإجراءات الضرورية فوراً، وبصراحة «العقل القيادي الجماعي» هنا الذي تراكم سنة بعد سنة لا يتردد في عزل أي مركزي أو مفصل ما أن يلوح شبح تقصيراته وإخفاقه.... فتقصيراته أو إخفاقاته من شأنها تدمير جهود سواه ومداميك سكبنا فيها تضحيات وعملاً، وهذا لا يمكن التهاون معه بل إن التهاون كفيل بتدمير ما راكمناه، التهاون أو عدم المحاسبة أو عدم الإمساك ببراعة بالحلقة المركزية أو الإطناب في أبواب الاجتماع دون التصدي للبند الأكثر سخونة وأهمية، أو عدم المتابعة الحازمة لأي خلل من هذه الاخلالات يكفي لبعثرة وتحلل البناء التنظيمي....

وهذا كله لا علاقة له بانهيار أو صمود التجربة السوفييتية أو ذبح أو عدم ذبح العراق، أو حملة اعتقالات قوية في الداخل أو.... فالخلل الداخلي هو المقتل (لأن الحزب قلعة لا تقتحم إلا من الداخل) لينين، (ولأن انتصار جيش على جيش آخر سببه أساساً ضعف الجيش المهزوم) ماو.....

وقد استغربنا تطرق التقرير التنظيمي للانضباط والديمقراطية .... دون التطرق للمبادرة، فهي أهم معلم ديمقراطي، وهي في سيل فاعلياتها تبرر وجود الحزب وتسمح له بتأدية وظيفته التاريخية ومضاعفة قواه، كما أنها تكشف عن نوعية عضو الحزب (فالكادر يبادر) جيفارا، ودون مبادرات يبهت الحزب وتفتر عزيمته، والكادر إن لم يوطن نفسه على المبادرة يعني انه ينتظر القرارات من أعلى، وبذلك يصدأ ما أن تتباطأ القيادة أو تغيب لأي سبب، وكادر مبادر أهم من عشرة انضباطيين ... ولماذا نذهب بعيداً....لنتذكر تجربة وديع وتجربة غسان وتجربة ناجي العلي.... بل تجربة الحكيم ومبادرته بتأسيس الجبهة... وتجربة «الرفيق» الذي بادر عام ٧٦. وعليه فإننا نقترح صب الزيت على شعلة المبادرات هنا وهناك وفي كل مكان....لتطلق أجنحة الجميع لكيما يجترحوا أمواجاً من المبادرات، ومطالبة الجميع بذلك، من وحي أفكارهم وإرادتهم وعندياتهم وبما يتوافق مع خط الحزب والحلقة المركزية اليوم، ولولا أننا اعتمدنا هذا التوجه منذ سنوات لما سمعتم وسمعنا عن العديد من الناشطات التي لا تقوى التراتبية التنظيمية على تجشمها.... فما يقوى عليه مبادر هنا أو هناك يتجاوز أحياناً ما يقوى عليه مسؤوله والأعلى منه.... ينبغي تحرير الأجنحة من القيود وحينها سوف نحلق عالياً.... ولو اتّبع الاتحاد السوفييتي ذلك لما تعفنت البيروقراطية ولما تباطأ الاقتصاد....

إن المبادرة هي كلمة السر، بل هي التي تكشف تثاقل وضعف بعض المراتب العليا حين ينجز المرؤوسون ما يعجز عنه المسؤولين فيشكل محاكمة علنية لها على طريقة مكارنكو في (قصيدة تربوية) بما يمهد للتجديد دون حساسيات بل يرسي أخلاقيات ثورية حقاً....

وعن النقد الذاتي لاحظنا تقييماً إيجابياً بأنه (أصبح تقليداً يدلل على جدية حزبنا ومصداقيته وأنه يمارس على كافة المستويات)، وهذا عنصر مطمئن تماماً، ولكننا نظن انه لم يتناول ما هو أساسي وجوهري: افتقاد الحزب لأية صيغة سرية في الأردن لإسناد الأرض المحتلة، بل تحولت منظمة الجبهة لحزب أردني، وسواء في مرحلة وجودها كمنظمة للجبهة أو تحولها لحزب أردني، ففي الحالتين لم نلمس إسنادا حقيقياً للأرض المحتلة وكأن شعبنا في الأردن معفى من المساهمة في النضال التحرري الفلسطيني، أو كأن النضال التحرري مجرد برنامج على ورق وليس مهمات وأفعالاً على الأرض، وكنا من قبل قد عرضنا رأينا حيال التحول لحزب أردني على أساس الصيغتين والقيادة المشتركة، ولا مدعاة للتكرار هنا.... وطالما يقال إن رئيس الوزراء يمكن أن يغض النظر عن أنشطة لنا فأين وصلنا بالأنشطة؟

والنقد أوسع من ذلك وأكثر جدية حيال وجودنا ودورنا في لبنان...فالتحليل السياسي جلي والمستجدات جلية.... لكن ماذا فعلنا للنفاذ من ذلك والاضطلاع بدورنا.... جاءت العلنية والمكتبية والمهرجانية مطلباً ومقتلاً للثورة في الأردن ولبنان، وكان يمكن أن تكون مطلباً دون أن تكون مقتلاً لو أنها اقترنت بالوجود السري

وثقافة الوجود السري وكادرات العمل السري القادرة والناجعة، غير أننا كسوانا غطسنا حتى نخاع العظم.... وها هي الأرض المحتلة تنتفض وحيدة مع إسناد هامشي من الخارج، دون القدرة على حسم التناقض مع المحتل سيما أنها محاصرة والسلاح فيها (أفقر من فأر الكنيسة) ماركس، في وصف أوضاعه حيث أمضى وعائلته أسبوعين على البطاطس. ففلسفة الضرب بقبضه الخارج مرة ومساهمة ضيقة في الداخل، والضرب بقبضة الداخل مرة ومساهمة موسمية هامشية في الخارج لن تفضي لأكثر من استمرار الاشتباك مع المشروع الصهيوني وتلقى ضربات قوية تجتث معظم التراكم كما حصل في الأردن ويحصل في لبنان... والدور على الانتفاضة.... إذ علينا إتقان الضرب بقبضتين وإعداد القوى لذلك، والمسألة في إعداد القوى وليس في التنظيرات، وهذا ينطبق بقدر أو بآخر على دور شعبنا في ٤٨، فهو حتى اللحظة يكاد ينحصر في مواجهة تجليات العنصرية ولا يذهب لجذور الكيان العنصري ودون الارتقاء إلى مستوى الاندراج الواعي في الكلية التحررية (ولم تثمر جهودنا أكثر من حضور سياسي محدود)، ولهذا ثمن بكل تأكيد، أي تجزئة الشعب طالما أنه دون هدف مشترك وقيادة مشتركة.... ذلك أننا نفتقد لسوقاً مشتركة واقتصاداً مشتركاً وجغرافيا مشتركة منذ النكبة والتطهير العرقي عام ٤٨.... وهذه إشكالية معقدة وعمرها عشرات السنين، ولكن علاجها الأولي يبدأ ببناء وجود سري في التجمعات الفلسطينية قادر على العمل في كل الظروف بما يستجيب لطابع التناقضات... وأن يضرب مجتمعاً...

ومن المفيد أيضاً التطرق لما جاء حول الرقابة، فمن الواضح، كما يشير التقرير أن لجان الرقابة تكرست، وهذه علامة إيجابية بلا شك، أن يغدو للحزب لجان رقابية متخصصة، فمثل هذا التطور الإداري إنما يتسق مع النظام الداخلي وشروط العمل الحزبي، رغم الملاحظات النقدية المتصلة بضعف الروح الميدانية والتأخير في الوقوف أمام نتائج الرقابة كما جاء في التقرير التنظيمي، ولكن هذا كله جانب إداري وفني، إذ لم نلحظ التعرض للمضامين الأشد أهمية: محدودية الحزب في الخارج+ تقهقر دوره النضالي+ تقهقره المريع في الأردن+ الاخلالات في عملنا الإعلامي سواء ارتباك «الهدف» أو تراجع بريقها بما لها من أهمية فهي لسان حال الحزب، فضلاً عن بهتان الناطق الرسمي، فباستثناء الحكيم لم تتقدموا بشخصية إعلامية متوهجة على غرار الشهيد كنفاني، فجامعات الدول الاشتراكية والرأسمالية مفتوحة فلماذا لا يتخرج كادر مهني كفؤ... ونظن أن إعلاماً غير متوهج يبهت ويغدو شاحباً قياساً بالإعلام المعادي الذي يقفز قفزات .... ولا بد أنكم سمعتم عن مقولة (الفلسطيني أسوأ محام لأعدل قضية) وقد لاحظنا من الوفود الأجنبية التي تزور الأرض المحتلة أن رسالتنا الإعلامية وصلت بإشراق ملحوظ بفعل صمود الانتفاضة وتحشداتها ومواجهة الرصاص الإسرائيلي بصدور عارية.... أي ليس بفعل نشاطنا الإعلامي رغم ما نفعله على هذا الصعيد سيما النبضات الدؤوبة في غزة والعاصمة وهنا وهناك... هذا خلل مشترك يتعين ردمه، وإن كنا نلحظ أن سلطات الاحتلال قد أغلقت لنا عدة منابر إعلامية حتى اللحظة ولكننا نلتف عليها دائماً باستحداث منبر جديد....

وقصارى القول، ينبغي أن تنتقل اهتمامات الرقابة من الجوانب الإدارية والبيروقراطية إلى ما يفضي إلى نتائج سياسية... بل إننا لم نسمع من الرقابة لماذا تحولت «الهدف» لمر وليس لمستقر، ولماذا انسحبت أهم المفاصل القيادية من الحزب في الأردن، ولماذا لم تتأسس مشروعات استثمارية إنقاذية في الخارج، ولماذا لم يلمع

قائد عسكري رغم سلسلة المعارك والحروب بما يتطلبه من تأهيل سنوات في فيتنام أو أو ....

ونعترف أننا هنا لم نصل بعد المستوى التركيمي والاستقرار الذي يسمح بتكوين لجان رقابية متخصصة، ولا يوجد فائض كادري، بل نقص يتصل بمضاعفة العضوية ٢٠٠٪ في العامين الأخيرين، فضلاً عن ما تحصده الاعتقالات بانتظام، الأمر الذي حدا بنا للتعاطي مع الرقابة، مرحلياً على النحو التالي: كل عضو في هيئة أو لجنة أو منظمة قاعدية هو رقيب على الأعضاء الآخرين، وبشكل أخص المسؤول الأول، وأعلى يتابع أدنى بكافة، إجمالاً، وباب الشكاوي مفتوح برسائل مغلقة لأعلى، وحرارة العمل في المستويات الكادرية والقيادية تكشف أول بأول أية برودة أو خلل، وكذا الحال بالنسبة للصدق، فالأخلاقية صادقة عموماً ولا تتقبل «اللفلفة»، وأنصاف الجمل والتغطية على العيوب... أما الرقيب الأكثر حضوراً فهو المتابعة لكافة أوجه العمل، حيث تكرس رفع تقارير المنظمات الأدنى جنباً إلى جنب مع التقرير الذي يرفعه المسؤول سيما التنظيمية والمالية.... فجنباً إلى جنب مع تقرير المنطقة يتم رفع تقارير القطاعات، بما ساعد في انكشاف أكثر من ثغرة، ناهيكم عن مخاطبة الكادرات الصاعدة والتفاعل المكتوب معها، وبين أيديكم نماذج عن ذلك.... ولا يخلو الأمر من إيفاد مفصل لمتابعة قضية متشابكة أو «مستعصية» أو محاورة كادر مميز، كجزء من عمل الرقابة ومعالجة الأمور بعد الاستماع لأهل الشأن والحصول على معلومات من منبعها مباشرة.... أما «الرفيق» فيصرف نصف طاقته في متابعة كل شيء (لأن المتابعة هي جوهر العمل الحزبي) لينين. طبعاً هذا كله لا يمنع ثغرات وسلبيات هنا وهناك كشفها يتطلب اجتماعات واسعة أو كونفرنسات ومتابعة من الجميع...

قد نحتاج لثلاثة أعوام أخرى وبعض الاستقرار النسبي ريثما نخصص جهازاً مستقلاً للرقابة، أما اليوم فالأولوية مختلفة، وشعارنا: الجميع إلى الميدان ما عدا الذين عليهم قيد، تماشياً مع استحقاقات الانتفاض الشعبي وتحولاته (فالسياسة جبر لا حساب) وفيها عنصر المجهول....

ونفس الشيء يقال عن ما جاء في التقرير من صفحات عن الانتساب والعضوية والفئات العمرية والدورات والتركيبة الطبقية.... فالجهود الكتابية والإحصاءات والأرقام وما جاء من استطرادات انما تحمل على الاعتقاد أن الدائرة التنظيمية تتملك وتسيطر على البنية الحزبية.... غير ان ذلك لا يعالج ما هو جوهري أتينا عليه سالفا.... وعلى وجه أخص مضاعفة حجم الحزب في الخارج، ودون مضاعفته سنبقى نلهث وراء القرار الفردي المرفاتي أو شهاد زور، كما تفعيل طاقات الحزب بإسناد الانتفاضة تماشياً مع شعاركم (الانتفاضة محور عملنا)، رغم الاعتراف ببعض النشاطية، ونضيف أيضاً الشرط الطبقي للهيئات القيادية، إذ يكاد يكون «م.س» دون عمال باستثناء الرفيق أبو ماهر ومسؤول الداخل، وقد كتبنا للأول بناء على طلب الجليل بعد أن أعلن تصميمه على الانسحاب من الهيئات القيادية، طبعاً هناك قياديون مسحوقون طبقياً وان انتموا للانتلجنسيا شأن النائب في الخارج والداخل،.... وعموماً فإن الهيئة في الوطن تنتمي للطبقات الأكثر فقراً فيما عدا مفصل واحد من أصول برجوازية ولكنه تضحوي ومثابر وصلب وغير متفرغ وجيبه مفتوح لشتى المساعدات الرفاقية، والفيئة أخرى تنتمي للفئات الوسطى، وهي غير متفرغة أيضاً بما تحمله من أعباء وتضحيات واختيارات صعبة وفريدة.... فعوائل الجميع معوزة وبالكاد يغطي التفرغ (ثلثي التفرغ منذ عقد ويزيد وبلا أية امتيازات أخرى

الحد الأدنى من المتطلبات الأساسية بما هو شبيه بأوضاع الطبقات علاجية وسواها، بناء على قرار محلي)، إذا لا يمكن الثقة بقيادة (يسارية) تنتمي للفئات الشعبية. وانتم تعلمون أن الموقع الطبقي ضمانة ثورية، فالمال يفسدها بتدرج، فالوجود الاجتماعية الميسورة أو تتلقى رواتب عالية فيما أغلبية الشعب يفترسهم الفقر، الطبقي يخلق وعياً طبقياً في نهاية المطاف، ولئن كانت المسالة معقدة وليست ميكانيكية، إذ يوجد قادة ثوريون من أصول برجوازية صغيرة (لينين، تشي، الحكيم.... وبرجوازية (كاسترو) وتولياتي في إيطاليا.... غير أن كل واحد من هؤلاء مر بمطهر وتجارب جذرت ثوريتهم وعمقتها بتضحيات هائلة، ناهيكم عن الحس الأخلاقي المرهف لديهم.... وعلى مستوى الأفراد ممكن، أما أن تتحول القيادة الحزبية لفريق من البرجوازيين الصغار أو المتوسطين، وقد ينحدر بعض هؤلاء من أصول طبقية برجوازية أو يتبوأ هؤلاء مناصب عليا تعود عليهم بامتيازات ومنافع (برجوازية بيروقراطية) فحينها تحصل الطامة الكبرى...

سؤال: ما هو الجذر الطبقي الذي قاد فريق غورباتشوف للانحراف؟ إنه الجذر البرجوازي الصغير والانبهار بالمشهدية الإعلامية.... أنظروا ما كتبه هيكل عن السادات بهذا الصدد.... وانظروا ما يفعل الإعلام الغربي والوفود الأجنبية بعرفات وسواه؟

إننا نؤكد على أن التجديد القيادي مبدأ صحيح، ولكنه تجديد لكيما يدفع المسيرة للأمام، أي يحمل مضموناً إيجابياً، وليس مجرد تجديد. فما يحتاجه حزبنا هو تجديد قيادي لكيما يتضاعف حجمه ويعيد الاعتبار لروحه الكفاحية، ويدعم القيادة بكفاءات إضافية ترمم ثغراتها، ويتجذر فكرياً وسياسياً، ويطور أداءه الإعلامي.... لا تجديد مزيف يبقى الحال على حالها أو يربكنا تحت تأثير رياح البيروسترويكا أو يثلم نصلنا السياسي أو يمعن في التيه في الأردن، أو يتركنا وحدنا في الأرض المحتلة... إذ دون أن يتضاعف حجمنا وفعلنا لن نقوى على حماية القضية الوطنية في مرحلة تتأرجح فيها السفينة الفلسطينية وتنهض علامات تشي بإمكانية انقسام وتشرذم الانتفاضة.

فالجهد الأمريكي مثابر لشق الانتفاضة وتشتيتها، وزيارات بيكر تمهد لهذا المسعى، كما أن الإسلام السياسي يحظى بدعم مالي كبير، ومن الصعب أن نعرف إذا كان خطه الأساسي مقاوم أم سيندفع لتوتير الساحة الداخلية، وحتى اللحظة مسيرته العامة إيجابية رغم ميله للعمل المستقل وتعبئته الأيديولوجية المتزمتة، وتاكيتكنا يقوم على توسيع قاعدة الانتفاضة. وغير واضح لنا الإمكانية المالية الفعلية للحزب، إذ نذكر حجب حقوقنا من م.ت.ف بعد تجريم الحكيم للاقتتال الفلسطيني- الفلسطيني وحجب المساعدة الليبية.... غريب أمر عرفات والقذافي إذ هل يتوقعان منا أن نخوض في الدماء الفلسطينية من أبناء المخيمات المنكوبة وفقراء شعبنا، بل شركاء البندقية، نعرف أن الأمور تفكفكت نسبياً بعد سنوات ونعرف عن المساعدة الشهرية الليبية للانتفاضة.... ولكن هذا غير مطمئن سياسياً، إذ ينبغي أن تكون لنا مصادرنا الذاتية، وهنا ليس لنا باع في الاستثمار وأوضاعنا «المقلقلة» لا تسمح لنا بمثل هذا التوجه الآن. يجب أن نلتقط أنفاسنا لكيما تتوافر أرادة للاستثمار.

ونلفت النظر لما جاء في التقرير حول الدورات النظرية ونسبتها التي تتراوح بين ٢٥-٥٥٪ لدى كادرات الخارج من رابطة فما فوق. السؤال: ما هو جوهر هذه الدورات؟ فلئن كانت المدرسة السوفييتية، فهذا يعتوره خلل كبيراً. فالدورات في المعسكر السوفييتي «ليست ذاتها الدورات في الثلاثينات والاربعينات حين كان هدفها تخريج قادة ثوريين» وجراثيم ثورية»، ماو، لإطلاق رياح التغيير في العالم. ما أجمل كتاب جورج أمارو (فارس الأمل) حول هذا الموضوع، بل نخشى أن تقوم دورات اليوم بثلم نصل الثورية «الفطرية» للرفاق وتحولهم لرجال مكتبيين منطفئين يناسبون جهاز دولة بيروقراطياً بينما المطلوب فلسطينياً النموذج الفيتنامي والنموذج الكوبي، وهذا اعترضنا عليه من قبل، أي لنترك «للشيوعي الفلسطيني» النموذج السوفييتي فهو يفيد جزئياً، ولنحافظ على نموذجنا ونجذره. أي النموذج الذي شقت طريقه فتح والشعبية في البدايات.... بل إن تعميم «النموذج الشيوعي» من شأنه أن ينهي الثورة ونستجيب لأحد شروط أمريكا (إسقاط البندقية) بعد اعتماد قرار ٢٤٢ في المجلس الوطني، واجتماعات الأكاديميين في أمريكا مؤشر إضافي، والبقرطة الفاسدة التي يصورها ناجي العلي في لوحاته تربة خصبة وما شاهدناه في فيلم ناجي العلي (نور الشريف) ينذر بالسوء.... وما معنى أن يقول عرفات في اجتماع اللجنة التنفيذية أنه صرف مبلغا لشراء ٤٠ ألف قطعة سلاح في الداخل، إن لم يكن هناك كثرة من اللصوص الذين يزينون له لصوصيتهم..... فالأرض المحتلة بلا سلاح تقريبا، ولا يوجد صفقات بهذا الحجم ولا ١٪ منها.

كما لا يجوز نسيان تجربة منظماتنا الحزبية في الأسر، فالادلجة والتثقيف عملية دائبة وتسير على قدم وساق رغم طابعها المدرسي وقد تخرج منها مئات ومئات الكادرات، وبعض النابهين والألمعين غاصوا في علوم الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والثقافات القديمة والفكر الرأسمالي....

وعموماً ينبغي رفع المستوى العلمي والثقافي للرفاق، إذ لا يمكن أن نتصور الانتقال من المنظورات البدوية والفلاحية إلى الماركسية والاشتراكية دفعة واحدة. فلا مهرب من دراسة العلوم الرأسمالية أو بعضها وتبني موقف نقدي بما يمهد للنظريات الماركسية- اللينينية. وغرامشي كتب عن المثقف الريفي وعيوبه، وعلينا أن ننسف مخلفات القرون الوسطى والمنظورات الغيبية.... إذ علينا العودة للعقلانية الإغريقية ومنطق أرسطو كمقدمة لمادية فورباخ وديالكتيك هيجل كمقدمة بالتالي لماركس ولينين وما أضافته التجارب الثورية الاشتراكية والتحررية....

إنني أتساءل لماذا لا يتحرك الحزب الشيوعي السوفييتي ومنظمة الكومسمول، والأول قوامه ١٩ مليونا والثاني ٢٥ مليونا، لماذا لا يتحرك مجرد بضعة ملايين يقولون لا.... هل السبب هي الاوامرية فقط، أم أن الناس منذ زمن لا يملكون تفكيراً نقديا ومستقلاً....

علينا تعميق الفكر النقدي والمستقل والحوار الداخلي، أي ما كتبه غرامشي، ودون ذلك فالقيادة ستقرر وأنني سينفذ، دون تفاعل ودون تصويب، بينما أذكر كلمات الحكيم أيام مذابح جرش وعجلون (إن الجماهير هي القادرة على حماية وتصويب القيادة) وعلى أقل تقدير أن تتفاعل معها وتختلف أحياناً، فهذا يخلق حيوية

وجدلاً وإمكانية تصويب أيضاً.... ولا بد أنكم لاحظتم أننا من النمط «غير البصيم» رغم انضباطنا، ونجادل ونجتهد وفي النهاية (إن الانضباط لقرار خاطئ أقل ضرراً من التمرد عليه) غرامشي طالما أن الحزب ثوري حقاً ونقدي حقاً وقادر على نقد نفسه وتصحيح أخطائه.... والمسألة التنظيمية تشمل فيما تشمل الجانب الإداري، ولكن التنظيم يبني كادرات وقيادات أيضاً ويلتحم بالجماهير، وفي إطار خلافات غرامشي مع قيادة الكومنتيرن أكد على أهمية حماية التقاليد الثورية (لأن مصير الثورة الايطالية معلق بإرساء الأسس التنظيمية للحزب).

ومرة أخرى لا يفيد حفظ الماركسية كمقولات مجردة، بل قراءة الملموس والإفادة من المجرد كمرشد وخلفية نظرية لأن (الماركسية لا تغنى على الربابة) فهد قائد الشيوعي العراقي.... ولا مهرب من الاطلاع ودراسة بعض العلوم الرأسمالية، إذ كيف سنؤسس جيشاً ثورياً دون علم عسكري أو إعلاماً فاعلا دون دراسة جامعية، أو إدارة بنية دون علم إداري...... فما بالكم بالقيادة التي ينبغي أن تتمثل كل ذلك وسواه...... بل العودة للفارابي والكندي وأبي ذر الغفاري والمعتزلة وابن رشد وابن خلدون.... لقد نصحنا الحكيم منذ وقت بدارسة ريكاردو وسميث قبل ماركس ووصلتنا نصوص حول الليبرالية الجديدة.... شكرا.

لقد أسهبنا نسبياً أعلاه لكيما نقول ما يلي: مرة أخرى، فيما يخص موضوع التحول: إننا نتفق معكم أن المؤتمر الوطني الرابع شكل محطة نوعية، ولكننا لا نتفق مع العبارة الطموحة (على صعيد استكمال التحول وبناء الحزب الطليعي) و(بات سائداً الفكر الماركسي على صعيد أيديولوجي)، (خاصة على الصعيد الكادري والقيادي) وان الجبهة على الصعيد الطبقي اقتربت من بناء نفسها على أساس الارتباط بمصالح العمال وعموم الكادحين بشكل واع.... وعلى صعيد تنظيمي الاحتكام للنظام الداخلي والمتطلبات اللينينية للبناء الحزبي....

وكمحصلة عامة فإننا نمثل حزباً يسترشد بالماركسية- اللينينية).

فهذه الخلاصات الطموحة الجريئة تتجاوز ما بلغناه وهي قفزة قدمها على الأرض والقدم الآخرى في الهواء، كما يبدو لنا.

فالخط التركيمي الذي أنجزناه، والذي يحظى بكل احترام، بل نحن شركاء فيه في الخارج والداخل، لم يصل لهذا المستوى. فقيادة (الحزب البلشفي في زمن لينين كانت من القادة المفكرين، وحالنا ليس كذلك. وحينما استوعب لينين مشاكسات تروسكي وأوكل له تأسيس الجيش الأحمر، أصبح للحزب في غضون عام جيش من خمسة ملايين اكتسح بهم معاقل التخلف في آسيا الوسطى، تصوروا المستوى القيادي لهيئة أركان جيش من هذا القبيل..... حتى لو برز قائد مرموق كالحكيم في الخارج أو في الداخل أو مثقف كغسان.... فهذه الحالات فردية علينا أن نستميت لتعزيزها بفريق قيادي قادر على حمل الراية بكفاءة عالية، أما الارتهان لأفراد فينطوي على خطورة كبيرة.... تذكروا أحوالنا في قطاع غزة بعد استشهاد جيفارا ورفيقيه العمصي والحايك على امتداد السنوات التالية.... فالقائد ليس لقباً مركزياً بل قدرة واقتدار على تأدية المهام القيادية وتطويرها....

وطالما يتحدث التقرير عن اللجان الاختصاصية، فلماذا إنتاجنا محدود في الخارج والداخل رغم الشوط

المنجز؟ وكيف نفسر الجدل حد العسكرة حول البيروسترويكا وإسقاطاتها فذلك لا نراه مجرد جدل إيجابي بل ارتهاناً لطروحات غير مؤكدة صحتها، ومن هنا نقدناها وعللنا نقدنا بورقة من دزينة صفحات أو أكثر.

أما الحديث المطمئن عن البعد الطبقي فهو لا يتوافق مع اكتساح العناصر من أصول برجوازية صغيرة للهيئات القيادية، رغم وجود عناصر عمالية بينها، أو كانت عمالية قبل أن تتفرغ، والمحذورات ليست اليوم (أي حينما ولّى عمر بن الخطاب، معاوية على الشام) بل بعدما غاب عمر.... ثمة ضمانات اليوم، ولكن علينا تعزيزها بضمانات أخرى للمستقبل، حينها يصبح للحديث المطمئن معنىً سياسي.

وبالتالي فالتناقض الأول اليوم ليس بين الطروحات اليسارية والطروحات القومية الضبابية..... بل بين مستوى القيادة الحالي والمطلوب منها لكيما تؤدي دورها القيادي بمضاعفة الحزب والتخلص من اخلالاته التي أتينا على نقاط مهمة منها....

وهذا يتطلب منا ١+٢+٣+٤+٥ وقبل كل شيء الخروج من أزمة العمل العسكري وتأمين استقلالية مالية.... وعلى أقل تقدير ينبغي إنجاز نقاط معينة تنهض بالحزب كماً ونوعاً، ودون ذلك فإننا مجرد تنظيم موشح بملامح يسارية متوسط الفعل والأداء والقيادة رغم وجود أعمدة يسارية وقيادية كفؤة هنا وهناك.

وبالمناسبة ليس لدينا في الداخل بنية فكرية- سياسية- تنظيمية قديمة، فاهم رموز القوميين العرب تحولوا ماركسيا ولعبوا دوراً تأسيسياً ومنظماً وعمدوا قناعاتهم بسنوات سجنهم الطويلة (الخيري، أبو غطاس، عدنان مثقال، علي جبر، غيث، ربحي حداد، دواني، جيفارا غزة، أبو ناصر البوريني، أديب عساف، يعقوب عودة، رسمية، وعائشة عودة، الشهيد خليل أبو خديجة، الشهيد اسحق مراغة، مصطفى الصافي، وغازي الصوراني) وسواهم: إذ لا يوجد بنية قديمة لاحظنا أنكم تسلطون سهام نقدكم عليها وتنسون أنها أسست حركة ثورية عربية وحزب عمل اشتراكياً بما يتجاوز عملنا الفلسطيني القطري!!! حتى أننا تساءلنا من قبل ولم نتفك نتساءل لماذا أنهينا تجربة حزب العمل الاشتراكي؟

وختاماً تبقى أربع نقاط سريعة ونترك الإسهاب لرسالة قادمة....

١. حول التركيب الجنسوي، أشار التقرير إلى أن نسبة المرأة في الحزب ككل ١٧٪ وأنها في الخارج ١٣٪ وأن ذلك نسبة مرضية. ولكننا نرى أن نفحص عدة زوايا.

. ما نسمعه أن غالبية الرفيقات هن زوجات وشقيقات للرفاق وهذا يجعلنا معزولين جماهيرنا. ب. فيما عدا الرفيقة ليلى وبقدر أقل سميرة لا يعرف الشارع عن رفيقاتنا. ج. يبدو أن التقرير لا يلم بصورة رفيقاتنا في الداخل فهن ٢٧٪ من العضوية، ويحيط بهن إطار ديمقراطي يناهز ٥ آلاف وتيار مماثل، ولهن دورهن الرئيس في الجيشان الانتفاضي وفي مهام متنوعة وحساسة.د. لم نشعر بتوجه مركزي دفاق يولي قضية المرأة الحد الأدنى من التوعية والمتابعة، وما أحرزناه في الداخل من موقف تعبوي على الصعيدين الفكري والاجتماعي إنما يرتبط بالموقف التقدمي للرفاق المسؤولين وبعض مقولات الحكيم. هـ. كنا نفترض أن

تكون نسبة المرأة في الخارج أعلى سيما أنكم تعملون في بيئات عربية أكثر تطوراً من فلسطين المحتلة....
ونذكر أن الرفيقات أيام الأردن، كن جزءاً من العمل الفدائي.... فهل نسير للوراء؟ ودلال المغربي تساوي عشرات الرجال والنساء وتنظيراتهم اليسارية والقومية والدينية....

٢. العمل السري: نقد الحزب نفسه في السنوات الأخيرة مرات لأنه لم يبن منظمات سرية في ساحات العمل العلني.... ولكننا لم نسمع عن أية محاسبة ولا عن أية معالجة ناجعة تؤتي أكلها... وهذا تدفع الانتفاضة ثمنه اليوم في وقت تستغيث لإسنادها.... وهنا كل الفصائل أفضل منا على صعيد إسناد الداخل بكادرات وإمكانات.... نرى أن يقول التقرير كلمات صريحة وقوية تمهد لإجراءات عملية، بل لم الانتظار، فالمركز يستطيع الاضطلاع بذلك اليوم قبل الغد.... كما على التقرير أن يفرد حيزاً للعمل السري في الأرض المحتلة، فما بلغه التراكم هنا والصمود في الزنازين يتجاوز كثيراً المسيرة الفلسطينية.....وسوف نساهم بقسطنا لاحقاً ببضع صفحات لتعميم التجارب الناجحة لعلها تكون روحاً محركة للحزب ككل.

٣. بالنسبة (.....) ب-

اختتم رسالتي بالتذكير بكلمات أحد الفنانين الفرنسيين (ليس المهم ما تفعل بل كيف تفعل). المقصود الجانب الفني والجمالي وما يتصل بالأداء... طبعاً يهمنا ماذا نفعل وكيف نفعل... وبالتالي ضرورة الانتقال للكيف، أي علينا جميعا أن نبحث عن الوسائل التي تمكننا من اجتراح أعمال نوعية، أي الانتقال من الكم إلى الكيف. فولادة المقاومة كيف وانطلاق الانتفاضة كيف وإبداعات غسان كيف وفيلم قاسم حول كيف... وهكذا دواليك.

ولفتني تماما ما كتبته الصحافية الكندية بعد أن طوّفها الرفاق هنا وهناك، مخيمات الدهيشة وجباليا ومدن... (بأن شباب اليسار شرهون في التدخين ويهملون وجبات الطعام...) إن هذا المظهر في عداد المظاهر العدمية، بما يذكرنا بكلمات الكواكبي (تشكون التخلف وأنتم تنفقون على السجائر أكثر ما تنفقون على التعليم...) وكان يفترض أن يكون اليسار نقديا، أي لا يغطس في العادات القبيحة، والأنكى من ذلك أنه لا يكف عن التغني بحرب الشعب والمقاتل الغواري بينما يستهلك صحته في التدخين. وبدل أن يدمن على الرياضة (كما كان يفعل لينين وهوتشي رغم نحافته وكاسترو بقامته العملاقة...) نرى الأغلبية الساحقة تدمن على السيجارة، وبالتالي فإنجندي إسرائيلي يتغلب على مجموعة بما يملكه من لياقة جسميه وقوة بدنية...

آن أوان تشجيع الثقافة الصحية والرياضة الصحية والإقلاع عن العادات السيئة... على الأقل معظمنا... إنني شخصياً رغم «وضعيتي الخاصة» التزم بما أكتب (فالصدق في السياسة مطابقة الأقوال بالأفعال). بل إن الأوساط الرياضية طاقة خصبة للنضال لأن (الرياضة تعزز الثقة بالنفس) لينين، وقد استفادت المخابرات الأمريكية من الرياضيين في انقلاب ١٩٥٦ للإطاحة بحكم مصدق التقدمي في إيران...

أشد على أيديكم بحرارة وإلى الأمام وأعلى

- الملحق رقم ٦ -

رسالة قيادية / أواخر ٩١

الرفقاء الأحباء... على عجل؛

ثمة ما يوجب اللقاء في منتصف الشهر لمدة يوم واحد...

فمن جهة، لقد أربك "مدريد" وما نجم عنه من انقسام سياسي، الجيشان الانتفاضي، وبات ملحوظاً تقلص رقعته وفعاليته. وأنتم شاهدتم "الاحتفالات" قوافل من السيارات التي تطلق أصواتها، وأغصان زيتون ترفع على دوريات الجيش، وكأن الاحتلال على أبواب الجلاء. شخصياً لقد آلمني وصدمني هذا المشهد. فمن قبل لم يكن نادراً أن تقام احتفالات دون انتصارات كأحد إخلالات الوعي والأخلاق، أما هذه المرة فالبهجة على المسرح فيما يكمن خلف الستارة خناجر في الظهر. ظهر المنتفضين، ظهر الذين ضحوا بالغالي والنفيس، ظهر الإعلام، ظهر ثقافة المقاومة ورفض التطبيع، والهجوم المعادي سوف يستهدف وحدة الشعب التي تكرست على أجمل ما يكون في سنوات الغليان، وسوف يستهدف ثقافة المقاومة والكفاح المسلح، وسوف يستهدف الإنسان الفلسطيني بغية تيئيسه، وبات ملحوظاً استياء الناس من بعض الأسماء "القيادية" من وضعهم ناطقين باسمنا؟ من عينهم؟ ما هي مؤهلاتهم وتضحياتهم...؟

وتحضر هنا كلمات الحكيم: عن الهزيمة السياسية والعسكرية اللتين يمكن التغلب عليهما، أما الهزيمة المعنوية فهي ثالثة الأثافي... وكلماته معروفة لكم.

العقل الإسرائيلي توراتي في أبعادٍ فيه وعصري عنصري رأسمالي في أبعاد أخرى... ومعروفة القصة التوراتية عن الحاخام والعائلة الفقيرة وكوخها ودجاجاتها وحمارها... من غير المستبعد أن يكون منطوقها هو الذي ينتظر "المفاوض الفلسطيني" ألم يقل شامير: حضرت لمدريد لكي أفاوض عشر سنوات...

حينها إما أن تنهض شعلة النضال وإما أن يعم الدمار...

علينا أن نستعد، فالتاريخ ألقى على كاهلنا ما تعجز الجبال عن حمله، في ظروف شديدة الصعوبة...

إن أبواق التفاوض أعلى من أصواتنا وإمكاناتهم أكبر من إمكاناتنا، ويسندهم معسكر دولي وإقليمي ضخم، ووسائل إعلام موجودة في كل بيت، وخاصة التلفزيون، وسوف يغطّسون شعبنا في أوهام ويبيعونه معسول الكلام، والهدف قطع رأس الانتفاضة ومنظمة التحرير... بل الخيار الانتفاضي والبندقية.

لقد نشر رابين مقالاً منذ وقت ينصح فيه الحكومة الإسرائيلية بقبول مؤتمر دولي طالما أن الفلسطينيين يقبلون الحكم الذاتي... فهذه هي أرضية وهدف وسقف المؤتمر وجولات بيكر. والحكم الذاتي تعبير فضفاض دون رأس أو قدمين، ولكنه لا يطرد احتلالاً ولا يعيد حقوقاً ويهدد بتحريف التناقض القومي والمسار الوطني برمته...

فما العمل؟ هذا السؤال القديم الجديد هو بند على جدول اجتماعنا...

ومقاربتي المكثفة على النحو التالي: لقد حصل ما كان الحكيم يحذّر منه في أواسط الثمانينات وقبلئذ، أيام "نعم" لمشروع ريغن وبعدئذ (البرجوازية جاهزة للانخراط في النهج الأمريكي ولكنها تنتظر اللحظة المناسبة) وتحت عنوان تثمير الانتفاضة شاركت في جولات بيكر واللقاءات التمهيدية وبعض الأكاديميين الفلسطينيين مهدوا لذلك... ولكن خيار القيادة اليمينية أبعد مدى من مجرد "تثمير الانتفاضة" إنه خيار طبقي/ سياسي/ فكري يرى أن لدى أمريكا "٩٩٪ من أوراق الحل" السادات، والسادات، أي البرجوازية الطفيلية الكومبرادورية البيروقراطية رسمت الطريق، وقيادتنا اليمينية تعتزم السير فيه، ولكن بعد عقد ونصف، بعد "عملية الليطاني" أي اجتياح الجنوب اللبناني وحرب ٨٢ وحرب المخيمات والانتفاضة الكبرى، أي بعد شلال غزير من الدماء والتضحيات... لو كان لدى برجوازيتنا بصيرة لملأت المقعد الذي كان مرفوعاً عليه علم فلسطين في مفاوضات الفندق عام ٧٧، طالما أنها تعتزم اللحاق بنفس النهج، فكامب ديفيد ٧٨ تحدّث عن حكم ذاتي وأشار للشعب الفلسطيني، أي نفس مقولات النهج التسووي اليوم، وبذلك تعفي شعبنا من الكثير من المعانيات...

أما بعد أن ضاعف الاحتلال مصادرة الأرض وذبح الشعب، فهذا لعمري يفتقر لأيّة بصيرة....

وبالنسبة لنا، فإن خيارنا واضح: خيار الكفاح العنيد من قبل ومن بعد، وسوف نجد الكثير من قواعد وكادرات القيادة اليمينية في نفس الخندق، وعلى الأقل لبعض الوقت.

والتناقض مستعص مع الاحتلال، والمفاوضات الحالية لن تقود لإعادة الحد الأدنى من الحقوق الوطنية، بل لن توقف الاستيطان الاستعماري والاعتقالات... وبالتالي سيتجدد الصراع. وشعبنا وطني ومطالبه عادلة وستكون المقاومة خياره. أي لن نكون معزولين من الناحية المستقبلية...

من هنا تأتي كلمات غرامشي (تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة) فالتحليل اليوم يبعث على التشاؤم، أما النظرة المستقبلية المشرّبة بإرادة الفعل فتبعث على التفاؤل.

كتب كيسنجر مرة، وقد قرأت ذلك وعمري لم يبلغ العشرين: إن مشكلتنا مع الفيتناميين أنهم يثقون بالمستقبل، فيما كان يفاوضهم في باريس إلى أن هرب سفيره بالمروحية من على ظهر السفارة تاركاً موظفيه!! انظروا لهذا البطل... لقد أنقذ فروة رأسه وحسب!

وتاكتيكياً، أي ما يتصل باللحظة اليوم، سوف ترشح مياه آسنة تكتم الأنفاس. وأعتقد أننا نستطيع مواجهة اللحظة بالتاكتيك التالي:

١. الاستمرار بالعملية الانتفاضية، فديناميتها حية رغم تراجعها والبلبلة السياسية في صفوف الشعب.

٢. تفعيل المواقع، المواقع الجماهيرية والجغرافية كافة، فالناس في القاعدة أكثر صفاء ونقاوة وطنية من "القيادات" المتعبة والتائهة، ونتكئ على علاقاتنا الإيجابية مع الآخرين في كل المواقع وفي المقدمة فتح،

لصب الزيت على نار الانتفاضة.

التقاطع هنا على قاعدة واحدة: الفعل الانتفاضي، نكون مع كل من يكون معنا في الفعل الانتفاضي بصرف النظر عن الخلفية الأيديولوجية أو الرؤية السياسية. هذا يتعدى التقاطع الميداني إلى التقاطع على الحلقة المركزية، فالانتفاضة اليوم هي الحلقة المركزية، بل إنها المستهدف الأول من النهج التفاوضي...

٢. التحريض الواسع إعلامياً وجماهيرياً، بكشف مخاطر مسار مدريد على وحدة الشعب، حقوق الشعب، انتفاضة الشعب... والمبادرة هنا مفتوحة، ولا ينتظرَنَّ أي موقع حزبي بيانات أو نشريات أو تعليمات... ليبادر الجميع دون انتظار. ولكن من البدهي ان تؤدي المرجعيات الحزبية دورها.

وبالتالي فضح الذين يساومون على القضية، ولا يفيد هنا حرق سيارة أو إطلاق نار، فالخلاف سياسي ويعامل ضمن هذا الإطار. وشخصياً إنني آسف على رجل العاصمة الذي وصل هذا المآل بالنظر لتاريخه وتاريخ عائلته وصدق وطنيته سيما أنه يمثل العاصمة المستهدف الأول في المشروع الصهيوني... فللمسار منطق موضوعي بصرف النظر عن المشاعر والنوايا...

أ) رهاننا الأول على منظماتنا، ومن المتوقع أن تزداد الهجمة الأمنية علينا سواء لتعبيد الطريق أمام مسار التسوية، أو لملاحقة امتداداتنا وضرب نشاطنا الانتفاضي. لقد كانت خسارتنا الكادرية ملموسة هذا العام، ولكن مثلما حافظنا على سريان آلياتنا في ضربات سابقة أوسع نطاقاً، فسوف نحافظ هذه المرة أيضاً. فالمهم الحفاظ على الرأس القيادي، رأس البنية ورأس ل.ت ورأس م.ج ورأس ورأس... فالرؤوس هي القادرة على إعادة اللملمة وضخ روح الانتظام من المستوى الذي وصلنا إليه، وهي القادرة على المتابعة، أما إن تهاونت المتابعة (المتابعة جوهر العمل الحزبي) لينين، أو ضعفت القيادة، فحينها يمكن أن يتدهور كل شيء.

على كل واحد منكم أن يحافظ على نفسه، فالمسألة سياسية وحزبية قبل أن تكون شخصية... كلنا يجب أن نبقى في الميدان نحرث ونبذر ونزرع... بل الحصاد مرهون بسلامتنا... فما تؤدونه يفوق دور الأفراد ويرقى إلى مستوى الإنقاذ. كتب بليخانوف عن دور الفرد في التاريخ، ونظن أن بعضكم قرأ كتابه بهذا الشأن (والفرد عظيم لأنه يعكس تطلعات الجماهير...) أما في بلادنا فدوره يتعدى ذلك... هل تستطيعون تصور الجبهة دون الحكيم... هل تستطيع الجبهة الاستمرار في الداخل دون قيادتها... لقد ذهبت أدراج الرياح بعد استشهاد جيفارا في غزة، ومحاولة إنعاشها في الثمانينات تهشمت هناك عام ٨٥، وهذه حالها في الضفة عام٧٦...

أما المحاولة الجديدة التي تجذّرت وتغلّظ ساقها وتفرّعت أغصانها، بجهود الآلاف وعشرات الآلاف، فهي لا تستمر إلا بتوافر شرطين حاسمين: الأول: الشرط القيادي الكفؤ... الثاني: الشرط المالي ولو ضمن الحدود الدنيا...

والثاني تلبية القيادة، والأول علينا، علماً أن "القيادة" في الخارج سربت بعض الأسرار، مع الأسف...

وعليه، على كل واحد أن يحرص على نفسه، وأن تبقى الإجراءات التحوطية، أما تحت الاضطرار فينتقل إلى "الوضع الخاص".

ب) انتظام الآلية من أعلى إلى أدنى، الاجتماع، التقرير، المهمات، المتابعات، المحاسبات، الاشتراكات، التقارير المالية، التثقيف... والصورة هنا أكثر من جيدة، وعلينا الحفاظ عليها، أما التفاصيل ففي الوقفة نصف السنوية...

ج) إطلاق سيل من المبادرات والفعاليات، موجة من المناشطات المتنوعة، استمراراً للخطة السنوية وتجاوباً مع اللحظة السياسية... يجب أن يفهم "العالم" أن الشعب ليس فريقاً تفاوضياً فقط، هذه النظرة الاستشراقية التحقيرية للشعوب التي تنظر لشعوب العالم الثالث أنها مجرد رؤساء دول وملوك... فللشعب إرادة ومطالب أيضاً...

د) توسيع السياج الحلقي "ولش" وتحزيب المزيد، ومؤشرات التحزيب تشير في الشهور الأولى من هذا العام إلى أنها تناهز ٢٥٪ رغم ما أصاب السوفييت ومسار مدريد وتراجع الانتفاض، وفقرنا المالي، وما نتعرض له من حملات اعتقالية...

هـ) علاقة أكثف واسناد اكبر لرأس "ن" ورأس "س" فهما ٤٠٪ من البنية الحزبية ولهما خصوصية، لقد دارت عجلتهما أفضل في العامين الأخيرين. وهناك فريق رائع من الرفيقات والرفاق...

إعلاميا:

١) إصدار نشرتنا العلنية باستمرار ومضاعفة توزيعها باليد، وتنظيم برنامج زيارات لكل موقع للأصدقاء والمقربين لوضعهم في صورة التحولات وتحليلنا ومواقفنا وتزويدهم بالنشرة وجمع التبرعات منهم... ولدينا نجاحات ملموسة في عدد من المواقع... والأمر نفسه ينطبق على بياناتنا السياسية...

٢) يمكن الكتابة المنتظمة في بعض الصحف. هنا ينبغي تحفيز بعض الأقلام واللجنة ذات الاختصاص وتزويد الخارج بالمستجدات...

أما على الصعيد الفكري والبحثي، لنستمر بإصداراتنا، في نفس الوقت الحفاظ على "ز" وإدخال إصداراته في التثقيف الداخلي، وينطبق عليه القول: جودة في الإنتاج وقلة في التكاليف...

مالياً:

١) ميزانيتنا محدودة لكن لا اختناقات لدينا، ومعظم الدوائر تطالب برفع "الشهرية"، ولكننا لم نألف أن نطلب من القيادة رفع الميزانية...

٢) تبرعاتنا واشتراكاتنا تغطي نحو ١٢٪ علاوة على مبالغ تصل "مج" لأنشطته المختلفة، وهذا يخفف من

التزاماتنا المالية حياله...

ويمكننا أن ننشط أكثر لرفع عوائد التبرعات والاشتراكات... وأنتم تعلمون أن تقليد الاشتراك راسخ في معظم البنية، وقد تصل نسبة التسديد بين ٦٥-٧٠٪ أما في "٨" فهم لم يسمعوا بالاشتراك بعد!! والاشتراك هو أحد معايير تحولنا لحزب يساري... وهو شرط من شروط العضوية بداهة...

وقد لاحظت أن بعض الرفيقات قد بادرن بالتبرع بمالهن الخاص ومصاغهن على طريق قصة "مشعل" التي أتقنت عرضها "الإبداعية" وقد شاهدت العرض بطريقتي...

٣) ليس أمامنا إلا استقطاع المزيد من حقوق المتفرغين، عند الضرورة، وهذا ليس جديداً علينا، ولم أسمع تذمراً واحداً من كل الرفاق الذين أحتك بهم، مثلما لم أسمع تذمرات من خلالكم... أعرف أننا نصرف ثلثي التفرغ منذ سنين...

ويلفتني أن الرفاق والرفيقات قاطبة لا يدرجون في تقاريرهم ولا يطالبون ببند: مصاريف مواصلات أو ضيافة أو... فهم يغطون من جيوبهم الفقيرة، ويندر وجود رفيق مقتدر "كالسياسي" الذي لا يبخل على الرفاق والأطر والمناسبات... بل ينقذنا كلما واجهنا "إفلاساً". وأنتم تعرفون أن أحد الأصدقاء من الخارج قد أرسل لنا مبلغاً ضخماً من قبل، علماً أنني شخصياً لم ألتقه، على السمعة وحسب، والقيادة لم تسدده رغم مضي عام ونيف وهو لم ينبس ببنت شفّة... وهناك "الرفيقة" باعت شقتها وآخر استدان على نحو محرج...

٤) المالية منضبطة ولا إشكاليات أو تلاعبات أو إساءة ائتمان، وإن حصل لم أسمع به، اللهم إلا مبلغاً بسيطاً قبل أكثر من عقد ويمكن افتراض وجود ثغرات الأمر الذي يتطلب أن يفتح الجميع عيونه، ولكن هناك ثغرات تتطلب ترميم في "٨" صرف أرقام دون شرح الحيثيات، كمظهر ثانوي وحسب...

ربما من المناسب الارتقاء النوعي بعملنا القيادي إلى الدرجة التي تسمح بوجود رقابة متخصصة... فالمسؤول الأول واللجان الجماعية تقوم بالرقابة حتى اللحظة... ناهيكم عن الرقابة من أعلى... في مختلف المستويات

٥) ليس لدينا سياسة استثمارية بعد، سواء لانشغالنا بأولويات أخرى، أو عدم توافر كادرات كفؤة بعيدة عن الاعتقال، أو لسبب أكثر وضوحاً: عدم توافر رصيد مالي للاستثمار... والمقترح الذي أرسلناه جاء رد صديقنا: هذا مشروع اجتماعي لا تجاري!

يبدو أننا لسنا رأسماليين حتى كوظيفة تخدم الاشتراكية والعمل الثوري، بخلاف التجربة الصينية في هونغ كونغ، وبعض المشاريع الناجحة للشيوعي الايطالي والشيوعي الفرنسي...

أذكر أن "السياسي" اقترح عليّ قبل سنوات استثمار مبلغ لأهداف ربحية... ولكنني لم أحرك ساكناً لنفس الأسباب أعلاه... ولكن خط الاستثمار يجب أن يتحول لخط حقيقي في السنوات المقبلة،وسنتابع الموضوع الذي اقترحناه على القيادة ومقترحات أخرى أقل شأناً...

إننا بحاجة لالتقاط أنفاسنا، "وصديقنا" على استعداد لتأهيل بعض رفاقنا... وقد نعثر على شركاء رأسماليين... ولكن علينا أن نلتقط أنفاسنا، فنحن تحت إطلاق نار... فمنذ شهور كان بيني وبينهم مجرد بضعة أمتار ولولا جذع زيتونة لحصل المحذور...

إن اللحظة كثيفة والأولويات واضحة... ولكن دعونا نضع هذا البند على جدول اجتماعنا المقبل لتكوين فهم، وبعدئذ نتابع القيادة، فهي التي لديها المال، ونعثر لاحقاً على "أهل المهنة" وحينها نعطي القوس باريها...

يضاف لما أسلفناه بند متفرقات وأية مقترحات من جانبكم... ولكنني حجبت موضوعات أعرضها مباشرة...

مع الاحترام، ولتبقَ القبضات مرفوعة...

× × ×

الرفاق الأعزاء... استطراداً للنقاط أعلاه... وأكتب هذه النقاط، وقد ألقيت محاضرة المساء، وضابط الأمن أصغى من وراء الباب، فمن الواضح أنهم يرصدون ويحصون حركاتي وسكناتي... وسألته: هل تريد الاستماع؟ أجاب: نعم. أردفت: اخلع ملابسك واستبدلها بملابس مدنية... فغادر، وهذا نفسه هو الذي ضخ الاوكسجين في رئتي أثناء إحدى إغماءاتي في "الحشر".

١) في غضون أسبوعين تصلكم "رسالة المؤتمر" وسوف يناقش المعنيون بها هنا... ويشغل بالي حقاً هذه الأيام بعد أن انفرجت أحوالي: أين الخلل؟ في شهور التحدي تفاديت هذا السؤال كيلا تتشت إرادتي ويتشوش تفكيري أما اليوم فالسؤال معلق على مقدمة جبيني. ما جرى هو تسريب صريح... أين... هل هو من "هنا"... فلو كان كذلك لما بقي حجرٌ على حجر/ ولتم رصد أحد الاجتماعات، أم إنه من خلل معيّن وصلني؟! أم يا ترى أنه من "هناك"... "وهناك" آلية تبدأ من عاصمة الجوار إلى عاصمة المركز... إنه من حجر سنمّار، أجل وأخشى أن أحاديث عن "لينين الداخل" والداخل ساحة مركزية، ونقل القرارات والأمين العام المقبل، قد هيجت بعض الخواطر في ساحة تتسابق على المراكز أو خلقت مناخات تساؤلية... سيما أن "اشتباكاتنا" مع البعض هناك منذ ٨١ معروفة، "ورسالتنا للمؤتمر" سوف تعلن دعمها لبعض الأسماء وحجبها الدعم عن أسماء أخرى برهنت على إخفاقات ممّضة...

وقد يكون الأمر مجرد خلل أمني... وشخصياً لقد دفعت ثمنه في مرحلة سابقة "اعتقالين" وسنوات في الكيس... فهل يتكرر ذلك (التاريخ يعيد نفسه مرة على شكل مأساة ومرة على شكل ملهاة) ماركس... وشيء مخجل حد العار أن أدفع ويدفع العمل ثمن خلل للمرة الثالثة.

فمن أين الخلل؟ هنا أم هناك... هذا يتطلب الفحص. وعموماً لقد كان حرص "هناك" هائلاً على امتداد "عقدين"، ولكن هل هناك عطب عليهم اكتشافه واجتثاثه قبل أن يتضاعف ضرره... وفي كل الأحوال لا يجب تزويدهم بالأسماء الصريحة للمؤتمرين والمركزيين المحتملين، إذ يكفي الحديث عن أرقام... والأمر نفسه

ينطبق "هنا" إذ لا يجب تعميم الأسماء... فلسنا في السويد. "وهمروجة" المؤتمر لا يجب أن تفضح أسرارنا وتعري أسماءنا... فأمامنا معارك طاحنة ولا يجب السماح بتعميم عقلية الخارج العلنية على الداخل. فمنذ أن سادت العلنية والمهرجانية عادت بالوبال على البندقية الفلسطينية إلى درجة العجز في زمن الانتفاضة وانتشار ثقافة المكاتب وروحها المخصية وكأننا استكملنا التحرير... بل انظروا ما فعل عدنان ياسين في تونس!! وفي المقابل انظروا للنهج الذي يتبعه الحزب الصاعد في لبنان (حزب الله)، واعترف أن معلوماتي عنه محدودة، ولكنها تؤكد أنه الحزب الفاعل في الجنوب... أين ذهب الحزب الشيوعي وأين ذهبت جبهة المقاومة التي كنا طرفاً فيها ذات يوم؟ ثمة ضباب يغطي هذه الصفحة الجميلة... وربما مؤامرة صمت مقصودة... يرجى تزويدي بمعلومات تساعدني على استخلاص تعميمات نظرية...

٢) ما كنا نخشاه أصبح دينامية سياسية... فمدريد انعقد وجولات واشنطن مستمرة، والاستعصاءات التي تشير لها وسائل الإعلام أحياناً، أظنها شكلانية ولحظية... فلن تعجز أمريكا عن تسوية التناقضات الكمية بين الوفد الفلسطيني والوفد الاسرائيلي... فرابين اكتشف مقتلنا (القبول الفلسطيني بالحكم الذاتي) وهذا ما كتب عنه سابقاً... تذكروا أحاديثنا بهذا الشأن، والحكم الذاتي هو مشروع بيغن منذ ٧٧ ونص عليه كامب ديفيد مع السادات، وشامير عرض ذلك مراراً في أواسط وأواخر عام ٨٨ لإجهاض الانتفاضة... "وعصلجات" الدكتور الشافي لا أهمية سياسية لها. ويا ليته أخذ بنصيحة الحكيم له حينما التقيا... إذ طالما أن "تونس" تؤيد المفاوضات فما أهمية أن يعترض، جزئياً، الشافي أو سواه؟ وقد سمعت سابقاً عن شتائم عرفات لحنان وعريقات... ومعروف أن عرفات غليظ اللسان، فهو ليس من مدرسة النبلاء، ولا مدرسة الحكيم الشفيفة، فتجاربه مريرة والأوساخ حوله كثيرة وبالتالي لن يتردد في "التلسين" وفحش الكلام...

وما يساق، وهذا أسمعه يومياً هنا، عن "دولة" هو الوهم بعينه... إذ طالما أن الوفد الفلسطيني ذهب على قاعدة "الحكم الذاتي" ووعود "الحكومة الذاتية" البيكرية التي لا يوجد ما يسندها تاريخياً أو قانونياً، ومن جانبنا (لا نعترف إلا بالتاريخ وعلم التاريخ) ماركس، وموازين القوى مختلة راديكالياً، وورقة الانتفاضة بهتت إلى حد الانطفاء، وساحة لبنان خسرناها وبتنا مجرد "مخيمات معاصرة"، والأمن اللبناني يقيم نقاط تفتيش على البوابات إلى درجة عدم القدرة على ترميم وإعمار ما هدمته حرب ٨٢ وحرب المخيمات... فماذا نتوقع سوى ذل المفاوضات. حاول عريقات أن يشاكس في مدريد بارتداء الكوفية، صحيح أن الكوفية رمز، ولكن هل تحدد الكوفية أرضية مدريد ونتائجه السياسية؟ وهذا ما يحصل مع الشافي اليوم...

فإما أن تنخرط في المسار التفاوضي على أرضية المشروع الأمريكي الإسرائيلي وتقبل النتائج أو تنأى عنه، أي ما كتبه هشام شرابي: أيها الفلسطينيون أنتم لستم في وضع الاختيار... ولا أتفق معه أبداً... إذ في مقدورنا أن نختار النأي عن هذا النهج وهذا المشروع السياسي... أي الاحتمال الثاني...

ولكن "قيادة تونس" انغمست في مسار مدريد، ولهذا نتائج... المهم أن نناهض ذلك بوضوح وحزم: هذا

نهجكم وهذا نهجنا... أي العودة للينين، وسوف أكتب تحليلاً مسهباً قريباً... وأن نحتمي بالخيار الشعبي، فثمة ميدان واسع للعمل والتحرك والنضال، كما علينا خفض إنفاقنا إلى الحد الذي يتحقق فيه الاكتفاء الذاتي، مداخلينا وإنفاقاتنا، في الخارج والداخل، ومن جديد أجدد اقتراحي بتقليص المتفرغين والمقاتلين في الخارج ودفع التعويضات الممكنة لهم كيما يؤمنوا فرص عمل و... نسبة التفرغ في الخارج أكثر من ٥٠٪ بينما هي في الداخل أقل من ٣٪، وإذا استمر نزيف "التفرغ" فسوف لن يبقى في صندوق الحزب ما يغطي مصاريفه... ولذلك محذورات سياسية، وسوف ترتفع أصوات "انتهازية يمينية" (أي إخضاع مصالح العمال للبرجوازية) بلغة لوكاش لاعتبارات مالية ومصالح شخصية، سيما أن الحزب في الخارج تقهقر وهو في الداخل تلقى ضربة على الرأس... أصوات تدعو للمرونة وتخفيض سقف التناقض مع الخيار السياسي للقيادة اليمينية، ومعروف أن أبا عمّار له علاقات مع أعضاء في المكتب السياسي!

وفي حالة أن تضعف القيادة ويضعف النظام الداخلي تتفلت النزعات السلبية، فالحزب في التحليل الأخير وحدة ديالكتيكية، تتضمن عناصر قوة وعناصر ضعف، إيجابيات وسلبيات، قيادات كفؤة متجذرة "وقيادات" نصف كفؤة ولا تخلو من رخاوة... فلئن ضعفت القيادة والنظام الداخلي تنامت النزعات السلبية على كل صعيد...

٣) التحالفات والتقاطعات... وتحديداً في الداخل... جلية تماماً اسقاطات جولات واشنطن ومؤتمر مدريد على الداخل... عقلي لم يصدق أن يلقي الشباب الفلسطيني أغصان الزيتون على دوريات جيش الاحتلال... فلو رحل الاحتلال فهذا شيء، وأن يجثم على صدورنا فشيء آخر... أما الفيتناميون فقد طاردوا القواعد العسكرية الامريكية والسفير الأمريكي إلى أن هرب بمروحية... السيناريو معروف... لقد ناضلنا مع فتح طويلاً، وعشنا معهم في السجون، وهناك ذاكرة جماعية ومناخات ثقافية نسبية تجمعنا... فهل يمكن أن نراهن على تيارات تتقاطع معنا في مناهضة مسار مدريد...؟

أما الاسلام السياسي، فقد تحول لقوة ذات شأن في سنوات الانتفاضة وأعدادهم تتزايد في السجون، ولم أصادف سوى مفصل واحد صمد في الزنازين...

وأذكر طرفة مع أحد ضباط التحقيق قال: أنت الماركسي تهددنا بأننا إلى زوال وتبشر بالاشتراكية، وذاك يقرأ علينا آيات قرآنية تهددنا بالإبادة ويبشر بالاسلام... لماذا لا تتفقان؟ أجبته أن كل شعبنا ضدكم، حتى الذي يفاوضكم...

في حدود معرفتي، إن الإسلام السياسي بجميع أطيافه، ضد مدريد، ومثلما نؤدلج موقفنا من المشروع الصهيوني على أساس الطرح اللينيني باندماج اليهود في قومياتهم وليس انفصالهم في دولة استعمارية، والحقوق الوطنية والقومية، فالاسلاميون يؤدلجون موقفهم على أساس الطرح الديني (فلسطين أرض وقف). طبعاً ثمة فوارق بين الطرحين وحل المسألة اليهودية... الخ.

أما في حقل التاكتيك السياسي فثمة تقاطعات... ولكن المناخات الثقافية متباعدة، وقد قرأت من قبل عن بعض التجديدات التي كتبها الغنوشي والترابي وحنفي والقرضاوي وسواهم، ولكني لم أقرأ عن مثل هذه التجديدات في الساحة الفلسطينية... والكادرات الإسلامية في وسط الضفة هم أكثر مرونة وتفاهم مع الآخر من غيرهم، وفي غزة فإن إسلاميي فتح الذين عرفتهم في السبعينات كانوا طبعة متزمتة فما بالكم بحماس غزة اليوم... ولذلك، بداهة، صلة، بمستوى التطور الاجتماعي، ودون أن ننسى مبادرة "الشيخ" بالقدوم من غزة بحثاً عن تحالفات... فهو بذلك إنما يغلّب السياسي على الأيديولوجي... وهذا طبيعي في العمل السياسي... والبحث عن التحالفات شيء والتزمت والانغلاقية شي آخر، فالتحالف يعني في نهاية المطاف الاعتراف بالتعددية، أما الانغلاقية والفئوية، أو بصراحة لقد ذقنا على جلود المسيرة الوطنية آثار فئوية فتح وفردانية قائدها، وبصراحة أكثر إن الفئوية والفردانية يفضيان للدمار مهما كانت لبوسهما، فأنا من أشد المعجبين بجيفارا وبالنهج اللينيني، ولكن "فردانية جيفارية" "ونهجية لينينة" من شأنهما قيادة الشعب إلى الهلاك، ذلك أن شعبنا متنوع وتراكيبه متعددة ويخضع لعوامل خارجية متناقضة، ولا ينقذه إلا التعايش أو التلاقي أو التحالف أو الوحدة الوطنية في مرحلة النضال التحرري، وحالياً الدفاع عن الوجود، والحقوق والصمود... وسوى ذلك سوف تنفلت التناقضات وتستشري المصالح الفئوية والشخصية، فما بالكم إذا ساد احتكار الحقيقة والمقدس!

في قادم الأيام قد تكون التقاطعات سيدة الموقف... تقاطعات سياسية أو ثقافية أو أو... على أن نسعى في العقود المقبلة لتكريس المواطنة والهوية الجامعة، فدونهما تتذرر الهوية ويتفكك المجتمع... ومن قبل تبنينا ثلاثة مستويات في التحالفات ١- تحالفاً سياسياً ٢- تحالفاً ميدانياً ٣- تحالفاً على موقف واحد... وهي لم تنفك صالحة... مع الإشارة أن المجتمع الفلسطيني يشهد مخاضاً جديداً، إما أن يلد العودة للوحدة الوطنية والنضال الوطني أو وليداً أمريكياً- إسرائيلياً غير شرعي عنوانه مدريد... وبناء على ذلك تتحدد تحالفاتنا وتقاطعاتنا...

إننا نمر بمرحلة انتقالية غاية في الغرابة وغير مألوفة، ولكنها لن تطول، فمفاوضات واشنطن سوف تفضي إلى شيء يتناسب مع أرضيتها والفاعلين فيها. وهذا مأزقنا الوطني والحزبي.

وبالنسبة للقوى اليسارية، ففريق حواتمة الذي انشق من على يسار الشعبية، أصبحت الجبهة الديمقراطية بما لها من وزن، تتوسط في تاكتيكات عديدة، بل في مسيرتها إجمالاً، بين الشعبية وفتح، أي أنه انشق «كأكثر يسارية وصار «أكثر وسطية»... ولم تنجح تجربة القيادة المشتركة والتحالف الرباعي... وعلى الأغلب أن نتمفصل معها ضد مسار مدريد ونتائجه، وهذه حال القوى اليسارية الأخرى... ولكن ماذا عن السنوات المقبلة؟ «حينما نصل الجسر نعبره» حسب المثل البريطاني، أي نقوم بتشخيص المعطيات ونحدد موقفنا بناءً على ذلك... ولكن مثلما «خبطت» البريسترويكا الأحزاب الشيوعية وأربكتها وشتتتها، فسوف تؤدي نتائج مدريد لشيء مشابه على الصعيد الفلسطيني... ويفيدنا أول ما يفيدنا شعار كاسترو (الاعتماد على الذات) فقد صمد النظام في كوبا رغم المصاعب الجمة. وتعرفون أن كاسترو اختلف مع غورباتشوف، وهذا الأخير لم يسمع في أوروبا الشرقية ما سمعه في هافانا... أجل العامل الذاتي... أولاً أن نحافظ على حزبنا ووزنه ونهجه المستقل وبعدئذ تأتي

التحالفات والتقاطعات والوظيفة السياسية... أما إن تضاءلنا وتراجع وزننا فسوف يتضاءل تأثيرنا.

إننا مقبلون على مشهد قيد التشكل، ومهما كان الخيال جامحاً، فمن المجازفة العملية، بل من الخطأ السياسي التخويض في أعمدته ومحاوره واصطفافات القوى... فقبل كل شيء إننا بحاجة لقدرة استيعابية لما هو في طريق الولادة...

أشد على أياديكم... واحرصوا على سلامتكم

فالتاريخ وضعكم في مقدمة الصفوف

ويجب أن تحموا ما تراكم...

اسمحوا لي أخيراً بالآتي... هذه تتمة للرسالة السابقة المغلقة التي كتبتها قبل أيام وكبسلتها وقد تتكرر بعض الأفكار.

الرفيق... أضع بين يديك ما يلي:

أ- لقد أثبت م.ن جدارة وأحرز تركيماً جيداً، غير أنه لم يبلغ المستوى الذي يطير بأجنحته دون إسناد. فهو يقود ربع البنية تقريباً علاوة على تأثيراته في «م»... وعليه، ولبضعة أعوام، ينبغي تعضيد جهده بمفصل رئيسي كمرجعية يتولى فيما يتولى معالجة التقارير المواقعية، أو على الأقل أهمها، بما يصل ٤٠-٥٠٪ من العمل القيادي، أما النصف الآخر والعمل الميداني بمجمله والمتابعات... فيضطلع بها م.ن على نفس الخط، وإن برز تمايز فهو بحدود، ولكن السجايا متعددة، صفة تنظيمية أكثر أو صفة قيادية أكثر أو صفة جماهيرية أكثر، أو قدرة أفضل على الحوار مع المركز... والتكتم وتجذر الانتماء والصلابة والشجاعة... مشتركة...

ب- كمحصلة تجريدية، ثمة نموذجان في الهيئة، نموذج المنظم ومن بين هؤلاء تتوالد شروط قيادية، ونموذج السياسي/الجماهيري ومن بين هؤلاء تتوالد شروط الزعامة السياسية. ومن الصعب الحديث الآن عن قائد/فكري/سياسي/تنظيمي، وهذا مصدر قلق نسبي، ولكن يمكن التغلب عليه بخلق التكاملية في الهيئة...

فالذي يمتلك سجايا المنظم يوظف هنا أساساً، والذي يمتلك سجايا سياسية وجماهيرية يوظف هنا أساساً، وحسب التجربة فبعض النموذج الأول نجح في مهام النموذج الثاني، أما النموذج الثاني فإن تولى مهام تنظيمية فسوف تتبعثر بين يديه دون قدرة على معالجة متطلباتها، وبالتالي إلحاق أضرار كبيرة بالعمل. عموماً نستطيع من "وضعنا الجديد" الاضطلاع بمهام أيديولوجية وإعلامية وما أمكن من مهام تنظيمية وكتابة تعميمات... إلخ بما يخفف عنكم ويضفر جهودكم... وعلى الدوام "المتابعة هي جوهر العمل الحزبي" بل لا ينبغي ترحيل أية قضية، إذ ينبغي التصدي للأمور أولاً بأول، وإلا تراكمت القضايا دون علاج وتسيبت الأمور، والتسيب خطرٌ

مميت كما هو معروف. وهذا يتطلب فيما يتطلب عنصرين أساسيين: الإمساك بالحلقة المركزية، ليس فقط الحلقة المركزية العامة، بل الحلقة المركزية في كل نشاط، والحلقة المركزية في كل اجتماع وفي كل قرار... فلا تعوم الأمور، ودون الإمساك بالحلقة المركزية والتقرير بشأنها وسكب الجهد ودحر أية تذبذبات أو تأاويات أو تماهلات أو ارتخاء أو تقصيرات يتبعثر العمل...

فمصدر نجاحنا في السنوات السابقة... عوامل عديدة، ولكن أهمها على الإطلاق الشرط القيادي القادر على الامساك بالحلقة المركزية والمتابعة الحازمة والمحاسبة دون تهاون على الثغرات والأخطاء... وبالتالي وضع الكادر المناسب في المكان المناسب، الأمر الذي خلق إلهاماً وحلماً ودافعية مبدئية لدى الجميع وأنتم عشتم معي معظم المسيرة وتفهمون ما أقصد... وهذا ينبغي ضخ الدماء في شرايينه اليوم حفاظاً على العمل الذي سناه بالدم فعلاً والصمود في أقسى الظروف، وهذا لا يشملني فقط بل يشملكم ويشمل كل الذين عبروا مطهّر داتني - أقبية الفاشيين العنصريين الذين يتفننون في انتهاك كرامة الانسان وإذلاله والطرب والاحتفال على كسر إرادته: لقد رأيتهم يرقصون بعد أن هزموا أحد المناضلين... وهذا لا يمكن أن نسمح به... علينا أن نقول: لن تمروا...

- الملحق رقم ٧-

رسالة قيادية / أواخر ٩٢...

الرفيق، الرفقاء الخلص... أشد على أيديكم بثبات وتصميم لتجاوز المرحلة اللعينة التي زُجّت فيها القضية الوطنية بعد مدريد...

ما كنا نخشاه ونعمل لقطع الطريق عليه بات يرسي وقائعه على الأرض، فالشعب ينقسم والانتفاضة تتطفئ والحزب يتلقى الضربات، وهذا أسوأ مسار نعبره في العقدين الأخيرين وربما منذ حزيران ٦٧...

في هذه العجالة سوف أتعرض لعدة نقاط، وفي الزيارة القادمة أرسل لكم «ورقة المؤتمر» تاركاً لكم إغناءها وتصويبها واستصوابها، ومن الضروري مناقشتها جماعياً، ضمن الشكل الملائم، لكيما تعكس بحق وحقيق إرادة جميع المؤتمرين وجناح الداخل. وإنني أرى مأزق تمثيلنا، فأهم المفاصل والأعمدة بل الأغلبية الساحقة من المؤتمرين غير متاح لهم السفر، فهم بين جدران السجون أو التحوطات أو الملفات الاعتقالية، إذ يندر وجود كادر في «المحتلة» لم يعرف تجربة الاعتقال، وهذا شرف لنا (لأننا نلنا حقد الأعداء) ماركس، فالوطن المحتل ليس السويد والذي يسّمنه الاحتلال ويسّهل حركته علينا التساؤل حوله، وبالتالي فرفاقنا كافة محرومون من السفر، الأمر الذي يضطرنا لخيار التفويض، تفويض عدد من قيادات الخارج الذين يمكن أن يتناغموا مع «ورقتنا للمؤتمر»، وتحديداً الجليل ونائبه وليلى وبعض مبعدينا، بنسب متفاوتة، أما ورقتنا فهي صوتنا التي علينا الإصرار على قراءتها ومناقشتها والتصويت عليها في المؤتمر. فهي ستتعرض لمسائل فكرية، سياسية، تنظيمية، نضالية، مالية، ودون أن تتردد في حجب الثقة عن أعضاء من م.س الذين يشهد تاريخهم على إخفاقاتهم في مهامهم ومراوغاتهم في التعاطي مع الداخل.

أنتم تعلمون أن وجودي في الكيس لم يكن صدفة، بل نتيجة تسريب، وقد تمظهر من قبل في غير حدث، ولكن «الضربة القاضية» كانت الأخيرة، وهذا سنتابعه معاً في قادم الشهور. أما المسألة الملحة اليوم فهي القاطرة: الحفاظ عليها، وهذا لا يكون إلا بتوافر العمود الفقري والرأس المفكر القادرين على حمل الجسم وتوفير العقل له ومتابعة قضاياه... وهنا الامتحان الحقيقي... فمن قبل نجحنا وهذه المرة علينا أن ننجح. فالقدر التاريخي وضع على كاهلكم هذا الشرف...

ودون حماية أداتنا لن نقوى على تأدية وظيفتنا السياسية – الثقافية... بل ومناط بنا اليوم أكثر من أي وقت مضى الذود عن المسيرة الوطنية والحقوق الوطنية، بعد أن تقلصت قاعدة الثورة. كنا على الدوام نحرص على توسيع قاعدة الثورة. وغير مستبعد إذا استمر هذا المسار أن نصل إلى كوارث. فالإمبريالية أذكى منا، أو من بعضنا، وقد رمت الطعم وسوف تصطاد بعض الأسماك بإفساد وتغرير بعض الأوساط (احنوا رأسكم) قال خالد الحسن في دورة الجزائر «لأنني أعرفكم بأنكم لستم من رجال النضال تحت الأرض»... علينا أن نمتشق الراية ومعنا كل الوطنيين. فغالبية هؤلاء تعمدوا في نار الكفاح في سجون الاحتلال ومعارك البندقية في الأردن ولبنان وبعض أهلهم نزفت دماؤهم أو استشهدوا، ولن يكون سهلاً استدارتهم ١٨٠ درجة...

أنتم في يوم الدينونة «الحساب والعقاب» وغير متوافر لكم ترف الخطأ أو ترف الإخفاق. احموا القاطرة فهي عنوان الاستقطاب الوطني في مقبلات السنين... وهي عنوان تلاحمنا أيضاً... وإلا ضعنا جميعاً.

أنتم تعلمون أن فريق السادات انقلب على ميراث عبد الناصر، وتعرضت المرحلة الناصرية لاستنزاف وتشويه لدرجة أن لا يحصل الحزب الناصري سوى على مقعد أو اثنين في البرلمان، وكذا الحال قام الخوارج باغتيال علي وقام معاوية بذبح العشرات من عائلته وسبي نسائه، وخروتشوف شوه ستالين دون أن يحقق منجزاته (قيادة الحرب لدحر النازية وإعادة بناء ما هدمته الحرب العالمية الثانية...) وغورباتشوف يجند بطارية لنقد منظّم للتجربة الاشتراكية دون أن يعالج أية مشكلة من مشكلاتها. وقد قلت في ورقتي قبل أعوام (سوف تفكك البيروستريكا سبيكة الدولة وتهدم النظام السياسي ومنجزاته الاجتماعية ولن تتهاون جوقة غورباتشوف في مسخ وذم كل المسيرة البلشفية...).

وليس غريباً أن يقوم بعض النبلاء الصينيين ومعهم الإمبراطور بعزل الجنرال تشي الذي بنى سور الصين ونفيه في قريته إلى أن مات مقهوراً لتقوم قبائل المغول باختراق المنافذ التي لم يسمح للجنرال باستكمالها واحتلال بكين... لمدة قرنين...

كما ليس صدفة أن يقوم جناح في الثورة الايرلندية باغتيال قائد الجناح الذي قاد معركة استقلال معظم أيرلندا... وليس صدفة أن تفضي خلافات ورثة صلاح الدين لعودة أوروبا لاحتلال معظم المناطق التي حررها صلاح الدين في فلسطين... وقد تساءلت مراراً لماذا لم يتم احتواء «تمردية» وديع حداد بمزاياه الاستثنائية، إلى درجة أن تروج قصص سلبية عنه وهو القائد المرموق بعد الجليل، ولماذا يجري تجاهل صبحي الطفيلي أمين عام حزب الله في وقت سابق وهو المنحاز لفقراء البقاع بامتياز والذي يعتبر فلسطين قضيته الأولى...؟؟ وأنتم تذكرون زيارة غورباتشوف لفرنسا فلم يقطعها للمشاركة في جنازة غورميكو الذي يعتبر أعظم دبلوماسي في التاريخ...

التاريخ ليس عادلاً دائماً وإن كان (يخلق المعضلات وحلولها في نهاية الأمر) أنجلز.

ولكيما لا تتفاقم الأخطاء في مرحلة انكماش المد الثوري الانتفاضي وتتكرر مأساة ثورة ٣٦، ولئلا يقوم أي كان بابتسار وتلطيخ منجزات مسيرتنا الحزبية، علينا حماية قلعتنا التي بنيناها مدماكاً مدماكاً وحجراً حجراً بضفر جهود الجميع وتضحيات الجميع... بل عوائلهم أيضاً.

إن هذا هاجسي الأول، وهو يتعاظم حينما استنتج أن ما أصابني ليس صدفة...

ففي بداية السبعينات كنا مخترقين في الأردن، وعام ٨٥ كنا مخترقين محلياً في الداخل، والصحافة نشرت عن اختراق قيادة أبو عمار في تونس... وأخشى أن ثرثرة ما حصلت في مكان ما، وتسربت. أو خلل ما حصل ودفعت الثمن، والمسألة ليست شخصية، إنني الآن مرتاح أكثر من السابق، بل هي سياسية تتعلق بدوري.

والآن إلى النقاط التالية...)

- الملحق رقم ٨-

أوائل/ ٨٧

الرفاق الأعزاء...

بعد المعالجات أعلاه، الخاتمة شظايا من مداخلة فكرية.

تعرفون مقولة لينين (تحليل ملموس للواقع الملموس) و(الماركسية مرشد وليست نظرية جامدة)، ورد ماركس على الاشتراكيين الفرنسيين الذين أرادوا تصنيم نظريته (كل ما أعرفه أنني غير ماركسي)..

فالمسألة منهجية هنا، ماركس أو لينين قاما بتحليل زمانهما وعلينا الاستناد إليهما وإلى شتى العلوم، لتحليل زماننا وأوضاعنا... فالعالم لا يتوقف (ولا يمكن أن تسبح في مياه النهر مرتين) قال ديموقريطس قبل ألفي عام ويزيد، فثمة الجديد دائما، والحياة حافلة بالمتغيرات...

انظروا لإضافات ماو وإضافات كاسترو وإضافات حركات التحرر الوطني وو و... بل ثمة إضافات لنا أيضاً، بصرف النظر عن حجمها: تحليلنا المبكر لتأثير البترودولار على «البرجوازيات القومية» ولحاقها بالمركز الامبريالي من خلال كامب ديفيد الذي بدأ مع نظام السادات ولم تتوقف مفاعيله، كما تحليلنا للوجود الصهيوني العنصري في فلسطين وسبل مقاومته، ومقاربتنا حول الطبقة العاملة الفلسطينية بأنها أقرب «لطبقة في ذاتها منها طبقة لذاتها» كما عرضها «الرفيق» في ورقة معللة منذ بداية الثمانينات، وما يتوجبه ذلك من نضال نظري ضد «بقايا القرون الوسطى» لينين، ونضال وتأطير وأدلجة اشتراكية وصيغ تنظيمية نقابية وحزبية ملائمة، ولهذا لم نتفق مع رأي المركز لبناء منظمات حزبية عمالية صرفة، بل قلنا منظمات جغرافية في الريف والمخيم وما أمكن من منظمات مهنية في المدينة، وهذا دفع عملنا. بل إن لنا إضافاتنا في العمل السري، وإلا ما معنى أن يعتقل رفيقان في وقت سابق عام ٨٥ بعد أن أمضيا سنوات في التخفي، إن هذا النموذج ضروري للنضال الوطني الجدي وهو مغاير للنموذج المكتبي والمرتخي في الخارج والداخل على حد سواء، والخشية أن يندحر النموذج الثوري في الداخل وأن تغطس أعداد أكبر في المساومة التي لا تتردد المخابرات في عرضها على الكثيرين (انشطوا فوق الطاولة ولن نتعرض لكم...).

وقصارى القول ليس ثمة نمذجة أو تقليد أعمى أو قوالب جامدة فالمطلوب هو الابتكار واستحثاث العقل وعدم الركون للكسل... وفي الداخل ليس لدينا خلل منهجي بل انتقدنا البيروستريكا منذ البدء في ورقة طويلة معللة ومسنودة بعشرات المراجع... فنزعتنا الثورية تحمينا، فالبيروقراطية لم تعرف طريقها إلينا لاسباب عديدة. والذين في المقدمة بإنجازاتهم وتضحياتهم وتفولذهم... نقطة ضعفنا أنه يتوجب عليهم أن يطوروا أنفسهم وأداءهم ليكونوا قادرين على حمل الراية ومتطلبات العمل القيادي في كل الظروف، بما في ذلك مرض أو غياب بعضهم... فمنذ وقت اقترح الحكيم على أحدهم مغادرة الوطن لبعض الوقت... وقد اعتذر لأنه أدرى

بالحال، فالعمل يتشعب ويطلب المزيد من الطاقات القيادية والكفاءات الملائمة، بل يطلب إسناد الخارج أيضا...

أبدع لينين في نظرية الانتفاضة ضمن الشروط الروسية وقد نجح، وديمتروف في بلغاريا استفاد من رؤية لينين وأسس الجبهة المعادية للفاشية وأفلح، وهوتشي منه في فيتنام استفاد من رؤية ماو وأفلح، والجزائر نجحت واليمن نجحت ورفاقنا قادوها هناك، المقصود فرع القوميين العرب الذي تحول مع فرق أخرى للحزب الاشتراكي اليمني الذي تصدع في الآونة الأخيرة...

كما نجح المهاتما غاندي وفلسفة السياتجراها في الهند ... فما هي نظريتنا الثورية؟ أي كيف نناضل؟

لقد أحرزنا بعض التركيم ونتهيأ لمزيد من التركيم، ولنا مساهماتنا المتنوعة في النضال الفلسطيني، بدءاً بالكفاح المسلح والعمليات الفدائية قبل عام ٦٧ أو على امتداد المسيرة كما أنتاجنا الفكري ونشاطنا الإعلامي، والشهيد كنفاني هو من أبرز المبدعين الفلسطينيين، ولنا بعض الحضور النقابي في الأردن والداخل، وبعض المناطق الحزبية تتقدم على صعيد التحرك الشعبي...

ولكن النضال في الوطن، حتى اللحظة، فصائلي، فهل من آليات وتصورات للانتقال به لنضال شعبي عارم؟ طبعاً لقد فشل العدو في مخططه لعزل خلايا وفصائل المقاومة عن الشعب، ونلاحظ بوضوح أن القاعدة المؤطرة قد تضاعفت أعوام ٨٣-٨٦ دون الأخذ بمبالغات التنظيمات حول حجومها النقابية والجماهيرية...

إننا نسير في طريق صحيح... تأطير، بناء طلائعي، تصليب كادري، ممارسات ميدانية، تعبئة وأدلجة دون تأثر يذكر بما يحدث في بلاد السوفييت، تخطيط... ولكن كيف ننتقل نوعياً؟ والنقطة الأخرى هي مزيج من الثقافة والفلسفة...

أنتم تعرفون كلمات ماركس (أي انقلاب تاريخي كبير في مجتمع يؤدي إلى إنقلاب في التصورات والأفكار)... فهل كفاحنا العنيد، والثورة المعاصرة، تقود فعلاً إلى انقلاب في التصورات والأفكار؟

إن انتشار الأفكار القومية والعقلانية والأفكار اليسارية والاشتراكية بل مأسستها في تنظيمات وتيارات هو متغير كبير في الساحة الفلسطينية، وهناك شيء مشابه في لبنان بالإضافة لنزعات ليبرالية واضحة لم تظهر في الساحة الفلسطينية إلا على شكل عناصر ونخب من بعض الدارسين في الجامعات الغربية... وأزمة النظام السوفييتي هذه الأيام سيكون لها اسقاطاتها العالمية، وعلى صعيد داخلي لقد تداركنا الأمر وروحنا الثورية مشدودة لثقافة الثورة لا لثقافة الدولة، بصرف النظر عن مآل السوفييت.

أحد مكوناتنا العقلية هو العلم والمزيد من العلم وحق العقل بالتفكير والمواطنة دون تمييز، وهذه كلها من منجزات البرجوازية تاريخياً ومقولات ليبرالية، ولكننا لا نتوقف هنا ونعبئ بالمنظورات الماركسية . اللينينية الثورية والنضال الوطني والأهداف الاشتراكية...

وتسود مجتمعنا البنى التقليدية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية التي ينخرها المنظورات الجبرية

والمقدس الذي يرفض الحوار، بينما منهجيتنا تقوم على الجدل، فكل شيء مكون من أ+ب والجدل بينهما يقود لولادة الجديد، بما لا يتوافق مع النصوص الجامدة... وسمعنا أن الرفاق في الخارج سينشرون مقالة عن ديالكتيك النظرية في «الحياة الجديدة» أو تعميماً منفصلاً، سوف نسعى للحصول عليه... فكل شيء يتطور، والتطور يحتفظ ببعض عناصر الماضي الإيجابية ولكنه يلد كيفيات جديدة (نفي ونفي النفي) بلغة الفلسفة... ومقتلنا أن نصاب بالجمود والتكلس. إننا ضد الأفكار والنصوص الأزلية المقدسة، فكل شيء في حركة لأن الحياة في حركة والماركسية عموماً منهج ثوري للتغيير، ولهذا قال ماركس (الفلسفات القديمة فسرت العالم بطرق مختلفة بينما المطلوب تغييره)، بل عبقريته أنه أكتشف قوانين التغيير وأسباب التغيير وقوى التغيير... وعلينا أن نثبت ذلك فلسطينياً لكيما نكون ماركسيين حقاً ولينينيين حقاً، بمعنى التعلم من لينين وقدرته على بناء حزب ثوري أطاح بالنظام وأرسى بدايات الاشتراكية، وعالج تناقضات الحزب ببراعة جمعت المركزية والديموقراطية، بل إنه عقد مؤتمرات الحزب بانتظام بما توافر فيها من حوارات ومبادرات أنتجت قيادة موهوبة وعبقرية وكادرات عمالية بسيطة أصبحت قيادات كفؤة في الجيش الأحمر والدولة... هذا حزب حقيقي نتعلم منه ونقرؤه انتقاديا...

فكم بالحرّي بالجبرية التي تعادي حق العقل بالتفكير والإنتاج، فهذا العقل أنتج أوروبا واليابان وبلاد السوفييت والصين، في جميع الحقول الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية والفنية... وفي المجمل هذه مرحلة مخالفة للنصوص والمرحلة القديمة...

منذ زمن دار جدل بين القدرية والجبرية، والقدرية بخلاف ما توحي اللفظة هي الانحياز للعقل تقريباً وقدرة البشر على صنع تاريخهم ومستقبلهم، أما الجبرية فهي تنظر للحياة بأنها مقررة سلفاً من السماء...

ومن هنا ظهر أيام ابن رشد وقبله المعتزلة والكندي وتعبير النقل أم العقل، وماذا لو تناقض العقل مع النقل...؟

وفسر ابن خلدون في مقدمته أسباب الحركة الاجتماعية بالعمران والحياة الاقتصادية وميول الناس... أي أن الأرض تصنع مصيرها... ولهذا اعتبر مؤسس علم الاجتماع...

المسألة ليست وقفاً على كلمات ماركس (لكل واحد أن يتمكن من أن يقضي حاجاته الدينية والجسدية دون أن يحشر البوليس أنفه فيها) فهي ضرورية وبدهية... ولكن في المنظورات التي تقمع وتحرم الأفكار الأخرى التي لا تتوافق مع منطوقها... مرة أنظمة قمعية ومرة أيدولوجيات قمعية ومرة نصوص تكفيرية...

تعجبنا كلمات الفلسطيني الشافعي (رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب)، وفولتير يتناغم معها تقريباً بالقول (أدفع حياتي لقاء حق آخر في التعبير عن رأي مختلف)...

لا توجد أفكار مطلقة الصحة ولا نظريات مطلقة الصحة ولا مجتمعات كاملة الأوصاف، فكل شيء في تناقض، والتناقض جذر الحياة، وما علينا سوى أن نتخندق في المعسكر الثوري الساعي للتغيير وفي غمرة

الممارسة إنما نغير أنفسنا ونغير واقعنا ونبتكر رؤانا ونستولد رؤى جديدة ... وهكذا دواليك....

لقد اخترنا النظريات الماركسية اللينينية لمنهجيتها ومقارباتها وطروحاتها وقوتها التغييرية، ولكنها هي ذاتها تتطور، «فالنظرية رمادية أما شجرة الحياة فخضراء»، وهي سلاح هام في الصراع مع المشروع الصهيوني الاستعماري والامبريالية النهبية والرجعيات المتخلفة والبرجوازية المستسلمة... وتساعدنا كثيراً في التعبئة والتحليل وسبل المقاومة وبناء الطليعة الثورية...

إذ لا يعقل أن نأخذ بالغزالي الذي رفض السببية المنطقية ليؤكد السببية الإلهية، فهل ما نعانيه بسبب السماء؟ لا بل بسبب البشر وتحديداً المشروع الاستعماري وأداته الصهيونية وأذنابه من العرب... هل تصدق أن عبد القادر الحسيني (والد فيصل الذي كان منا ذات يوم) قد طاف هنا وهناك واستقبلته الحكومة السورية وقدمت له مليون دولار... بمليون دولار عليه أن يواجه المشروع الصهيوني المدعوم بريطانياً وأمريكياً... فاختار أن يستشهد في القسطل... أنظمة جبانة وعاهرة...

جاء هيوم من القرن الثامن عشر كما نيوتن وفسرا حركة الكون على أساس السببية الميكانيكية، وكوبر نيكس الذي نسف فرضية دوران الكون حول الأرض، وديكارت الذي دعا لإطلاق العقل لمعرفة الطبيعة والمجتمع، والثورة الفرنسية بمنظوراتها المادية في تفسير الظواهر.

وبعدهم فورباخ وهولباخ وديدرو والتفسيرات المادية دون وضوح لدور البشر، إلى أن أتى ماركس وكشف عن الفاعلية التي يصنعها البشر وأطلق تعبيره الممارسة والبراكسيس... وأفرط الشاعر غوته بالقول «في البدء كان الفعل رداً على كلمة المسيح في البدء كانت الكلمة... وسبينوزا العربي «اليهودي» هو أو من قال (إن الأوهام الدينية سبب عبودية البشر)».

وتقدم ماركس بأطروحته في حقول الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة... استناداً إلى رؤية فلسفية مادية دياليكتيكية محكمة المنطق، وقد استفاد بداهة من الاشتراكية الطوبائية والفرنسية واقتصاد ريكاردو الانجليزي وفلسفة هيجل وفورباخ الألمانيين ومن نظرية داروين وتقاطع مع مورغان في استخلاصاته الانثروبيولوجية... والرواية متشعبة هنا...

ولكنه نقل الأيديولوجية إلى التاريخ واعتبر التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج صراع الطبقات والثورات المحرك الأساس للتاريخ...

وانحاز لمنظور أن العلم الواقعي الصحيح يفسر العالم بديلا لتفسيرات المنظورات الغيبية الدينية للعالم... والآن شاع هذا الفهم عالميا، فأهل العلم والممارسة الاجتماعية بأسرها هم مصدر المعرفة وما نتدارسه في الجامعات وو...

وهيجل هو الذي انتقد قصة إبراهيم الذي انعزل عن حياة مدينة اور العراقية الفاعلة المنتجة، وعقم الحياة

الرعوية دفعته للتوجه للحضارة الزراعية في مصر، وقال بعبودية الإنسان للسماء إلى درجة استعداده لذبح ابنه اسماعيل... ولاحقاً عرفت قصة الخلق التوراتية عن آدم وحواء وتغرير إبليس وطردهم من الجنة حيث أدينت حواء... أما في أسطورة جلجامش فقد انسنت المرأة انكيدو، أي جعلته انساناً بينما كان نصف حيوان ونصف انسان قبل أيامه مع فتاة المعبد، بل انفصل عن الطبيعة حيث عاش مع الحيوانات وانتج لباسا وزرعا وصادق الرعاة بعد تفاهمه مع جلجامش الذي يمثل الحياة الزراعية والبحث عن اجابات عن أسئلة الحياة والموت...

حكيم أنت يا انكيدو قيل في الأسطورة... أي عكس ما فعله إبراهيم تقريباً، سواء من ناحية الفعل والفاعلية، أو من ناحية الثقة بالنفس والقدرة على العمل أو من ناحية النظر للمرأة... حيث كان الناس يعبدون عشتروت «إلهة الآلهة والحكيمة خالقة الرحمة والجمال، التي تتلقى الضراعة وتستمع للشكوى وتزيل الاضطراب والعماء والمرض وخالقة السماء والأرض...» كما كتب على معابدها قبل نحو أربعة الآف عام... وهذا سبق عبادة الفراعنة لإيزيس «أقدم القدماء والربة التي نشأ منها كل شيء والسيدة الكبرى وسيدة السماء والحياة، الحكيمة والعظيمة...» مكتوب على تمثالها...

هذا بلا شك منظور للمرأة مناقض لمنظور التوراة لحواء التي غررت بآدم وسببت طرده من الجنة... والأمثال المعادية لها (أقلب الجرة على فمها تأتي البنت لأمها، وهذه العصا من تلك العصية وهل تلد الحية إلا الحية..) أو الأمثال الألمانية (ما لايقدر عليه الشيطان تقدر عليه المرأة) والشيطان بحاجة لعشر ساعات ليخدع رجلاً أما المرأة فيكفيها ساعة لتخدع عشرة رجال... أو المثل الاسباني: ثلاث بنات وأم اربعة شياطين...

هل تعتقد أن رفيقاتنا اللواتي ينخرطن بشجاعة في النضال الثوري ويعانين من أجل حرية شعبهن شيطانات... وماذا عن اللائي اعتقلن وسامتهن المخابرات شر العذاب إلى درجة إقحام قضبان في أجسادهن وسحق عظامهن بل إنهن اضطلعن بأخطر المهام...

إننا جميعا ننغمس في ممارسة ثورية شريفة وعادلة للإطاحة بالظلم الذي ألحق بشعبنا، معتمدين على إرادتنا المجموعية أولاً وعاشراً. كما فعلت الشعوب الحية الظافرة... وبانخراطنا في الجماعة الثورية (إنما وضعنا حداً لمرحلة واخترنا اتجاها جديداً) ماركس، أكثر إشراقا ومعنى ومشربة بأحلام عظيمة...

وختاماً، لا نعلم إذا مرت عليكم أطروحة فورباخ حول إبليس... وملخصها أنه كان ملاكاً تقياً... أمره الرب: اسجد... رد: لا أسجد لغير الله ... عاقبه.... فيما عرف بمأساة إبليس.

إبليس التقي الذي لم يشرك بالله أحداً على رأي الشهرستاني في «الملل والنحل» أثار أسئلة سبعة أو ستة حسب خيال فورباخ:

١- الله أعلم بي قبل خلقي وسلوكي فلماذا خلقني على هذا النحو؟

٢- خلقني حسب إرادته ومشيئته لماذا كلفني بالعكس بمعصية أن أسجد لآدم...

٣- لماذا لعنني فأنا لم أقل سوى: لن أسجد إلا لله وحده...

٤- ما الحكمة من طردي من الجنة كوسواس للبشر وأراهم وهم لا يرونني، ألم يكن أفضل تركهم على فطرتهم الطبيعية بدل أن أفسدهم؟

٥- لماذا خلقني لأصطاد آدم فيأكل من الشجرة المحرمة، لو تركني خارج الجنة لبقي آدم في الجنة خالداً مستريحاً وغير ضال...

٦- لماذا استمهلني، ألم يكن من الأفضل لو أنه أبادني على الفور بدل أن أفسد الأرض، أليس خير للبشر أفضل من نشر الشر فيهم؟

هذه ثرثرات وتسليات نختتمها بكلمات المعري(الناس صنفان دين بلا عقل وعقل بلا دين)... أما موقفنا الرسمي: فالدين مسألة ضميرية وبرنامجنا واضح في محاوره... وثمة تعميم قديم حول هذا الموضوع إن لم يصلك نرسله لك، والمهم أن نندفع بعزيمة فوارة في بناء أدوات النضال لمكافحة الاحتلال الفاشيستي...

مع المحبة والاحترام وإلى الأمام

- ملحق رقم ٩-

مداخلة فكرية

رسالة قيادية/ أواخر ٩٠

الرفقاء الخلص... تحية ثورية لكم في زمن عاصف بآلاف المبادرات الثورية المحلية التي تشكل التيار الجارف للانتفاض الشعبي، زمن الانعطاف الذي سيؤرخ لما قبله وما بعده، وهذا لا يجمعه جامع بالتعبير المنمق «العصف الفكري» المتداول في أواسط المنظمات غير الحكومية، التي تكاد تقول عن نفسها أنها المجتمع المدني الفلسطيني، علماً بأن أهم ركنين في المجتمع المدني هما الحركة النقابية العمالية والحركة النسوية بقاعدتهما الجماهيرية، ناهيكم عن الحركة الطالبية...الخ منفصلة عن الـ NGO's.

ولأن الانتفاضة تحظى بمثل هذه الأهمية، فمن الضروري تحليلها نظرياً والتعبئة بمضامينها ودروسها، وما تركته من إسقاطات على العمل السياسي الفلسطيني وعلى العملية التنظيمية بشقيها الفصائلي والشعبي، علاوة على تأثيراتها على الكيان الصهيوني والمنطلقات الفكرية الصهيونية، وعلى الشارع العربي وفكرة القومية العربية... وعلى الفكر النظري الاشتراكي.. الخ... وهذه العجالة إنما تتمحور حول مسائل تتصل بالعمل الإيديولوجي والإعلامي بغية التفاعل حولها ورسم توجهاتنا على هذا الصعيد.

على امتداد عقد ويزيد لم تنقطع الإصدارات الداخلية من تعاميم "ورفاق" "ومستمرة"، ناهيكم عن نفوذنا في عدد من الصحف والمجلات التي أغلقها العدو الواحدة تلو الأخرى... ومساهماتنا مع آخرين بإصدار غير مؤلف ودراسة... دون أن ننسى التثقيف الداخلي حيث تتكامل الأدلجة داخل السجن مع الأدلجة خارج السجن...

هذه الصيرورة تحتاج إلى تطوير، ورغم الغزارة النسبية لإنتاجنا الفكري والإعلامي غير أن اللجنة ذات الاختصاص غير مبلورة بعد، والسبب الأساس أن أبرز الأقلام الدعاوية تتجشم أعباء تنظيمية كبيرة، ولا مجال لحصر نشاطها في العمل الفكري والإعلامي...

إجمالاً:

لا مدعاة لتكرار كلمات لينين "هذا نهجنا وذاك نهجهم" أو تأكيد الصراع بين الأيديولوجية الاشتراكية الماركسية – اللينينية والأيديولوجية الرأسمالية، أو الثقافة الوطنية التحريرية والمنظورات الإمبريالية والصهيونية العنصرية... فالعمل الفكري برمته إنما ينبثق من هذا الجذر.

إننا نتسلح بنظريات متجددة ونقدية وتنقد نفسها أيضاً وتواكب متغيرات الحياة، وعلى الأقل هذا منهجنا، بعيداً عن الدوغمة والنصية والمقدس... وحقل الإبداع هنا رحب وعلينا أن نحرث ونزرع...

وبصراحة، لم نتزعزع هنا في الوطن بعد ردة البيروسترويكا وفشل يانابيف وانتقال غوربا تشوف... فأهم مفاصلنا تشربوا النظريات الماركسية – اللينينية ودرسوا تجارب الثورات، في سجون الاحتلال، كما لم نتحمس للبيروسترويكا منذ البدء، وكان لنا موقف نقدي منها أعلناه في ورقة لـ م.س وكانت هي الورقة الأهم لأنها استندت لأكثر من ستين نصاً لغوربا تشوف.

لقد زودتنا مرجعيتنا الفكرية بقوة معنوية هائلة وصوّبت تفكيرنا وساعدتنا في فهم قضايا عديدة بما فيها الإمبريالية – المشروع الصهيوني – "البرجوازية" العربية، سبل النضال، قوانين بناء الحزب... الخ، وخطابات الحكيم وتقارير مؤتمرات الحزب تشكل مادة خصبة لنا أيضاً.

والأكثر ألمعية منا يتابع المتغيرات العالمية وتأثيرها على الفكر النظري، وتأثيرات كامب ديفيد السادات على المنطقة العربية والعدوان الثلاثيني على العراق والتحولات التي طرأت على هياكل م.ت.ف بفعل البترودولار وحرب ٨٢ ... الخ.

والمقولة المهمة اليوم التي علينا استدعاءها من الفلسفة الديالكتيكية هي التحول، قانون التراكم الكمي، فأين وصلت التحولات بقيادتنا اليمينية؟ لا يجوز القول سادات فلسطين وبعدئذ وحدة وطنية، فاللجنة المركزية اقتربت من تخطئة الحكيم وقلة فهموا وانحازوا لتحليله. وها هي "برجوازيتنا" لا تفهم السياسة كما نفهمها، فهي أولاً ليست برجوازية أي برجوازية إنتاجية تنتج صناعة وزراعة ومدناً عصرية ومؤسسات وقانوناً وديمقراطية ليبرالية... ليتها كذلك لما ترددت في تأييدها وأنا الماركسي حتى النخاع، ولكن لاختلفت معها أيضاً. فبرجوازيتنا بيروقراطية وبعض عناصرها كومبرادور، تعتاش على البترودولار، فهي شريحة برجوازية من نوع معين، بل هناك تهامسات يرددها البعض سيما الحسن عن اقتصاد حر وسوق حرة لاسترضاء الليبرالية الجديدة تاتشر + ريغن + بوش، علماً بأن اقتصادنا ملحق وسوقنا متشظية وملحقة وأرضنا محتلة ومهوّدة فعن أي سوق حرة يتحدث؟ والتاكتيكات لدى "برجوازيتنا" أشبه بالبهلوانيات، تقفز هنا وهناك وتقول الشيء وعكسه خلال أيام، وتصل لوحدة وطنية وتخرقها في آن... فهل يوجد قائد وطني تحرري في الجزائر أو فيتنام أو أنغولا أو... أرضى السوفييت والصين والأنظمة العربية المتناقضة وتغازل أمريكا وأوروبا في نفس الوقت؟... لا أحد،سوى عرفات، فهو يتعاطى مع التاكتيك دون ضوابط واضحة أو خطوط حمراء... وإلا كيف يقول كادوك نقيضاً لكفاح مسلح عنيد خاضه سنوات وسنوات، وكيف يرسل كل الإشارات اللازمة للاعتراف بإسرائيل التي تحتل ٧٨٪ من وطنه... إنه يسعى للحصول على شيء وقد خذلته بل ذبحت الجغرافيا السياسية العربية البندقية الفلسطينية. غير أن الإمبريالية ليست بابا نويل لتوزيع الهدايا، وإسرائيل عنصرية حتى نخاع العظم ووجودها ومستقبلها نقيض وجودنا ومستقبلنا وهي ترفض تماماً الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وبالنكبة والتطهير العرقي عام ٤٨... مثلما رفضت منذ البدايات شعار الدولة الديمقراطية للجميع... واستشهاد أبو جهاد أفسح المجال لمزيد من التفرد لعرفات، وخروج وانشقاق انتفاضة فتح، سيما أبو صالح الذي كانت لديه اجتهادات فكرية وضوابط، ومن قبله استشهاد رئيس الإعلام الموحد في روما أبو شرار... أضعف أكثر فأكثر القيود على العقل الفردي، وشخصياً لا أعرف أين سيقود السفينة الفلسطينية، ومتى سيدير ظهره للمشروع الأمريكي

التسووي... ولكنني اعرف أنه يسير في هذا الرهان هذه الأيام، فجولات بيكر تستهدف الانتفاضة وزرع الشقاق في أواسط الشعب الفلسطيني.

مع ذلك علينا أن نقرأ بدقة محترسة وتيرة التحولات في القيادة اليمينية فلا نتطير ولا نتهاون، فهي لا تفهم التاكتيك كما نفهم وليس كل انحناءة سقوطاً سياسياً، وعلى الأغلب أن الساحة الفلسطينية تقترب من لحظة الحقيقة والفرز، ولنتذكر كلمات الحكيم وما جاء في تعميم م.س في السنوات الأخيرة (أن النضال الفلسطيني لن ينتصر تحت قيادة البرجوازية الفلسطينية ومثلما قلنا عن البرجوازية العربية – السقوط التاريخي...)، والأهم أن نتهيأ لأسوأ الاحتمالات وأن نمد أيدينا لقواعد فتح في كل مكان، فهذه عمّدت وطنيتها بالدم والتضحيات الجسام، وهناك الكثير من الكادرات التي لا يمكن أن تتساوق مع النهج التنازلي، ووجودنا أقوياء يقويها...

ينطلق كل عملنا الفكري والإعلامي من ربط الفكر بالسياسة والممارسة السياسية ونشر رؤيتنا في أوساط الجماهير ضمن متواليات لينين "تحريض، دعاوة، تنظيم" هذا الدور الذي دأبت عليه الآيسكرا في زمانه... لقد تعقدت الحياة ووسائط الاتصال الجماهيري منذئذ...

فالفكر ليس ترفاً أو للتسلية بل هو ركن ركين في الممارسة السياسية (الفكر يحدد والسياسة تحسم) الحكيم. ومن هنا كان لنا فهمنا ورؤيتنا للانتفاضة، كما دورها المتوقع منها، ومن هنا كان لنا فهمنا لطريقة بناء الحزب في الوطن وسكب الجهد المثابر في عملية البناء، وربط السياسة بالتنظيم، التاكتيك بالإستراتيجية، الفكر بالسياسة، وكلمات الجليل بوصلة (لا يجب أن تنتهك السياسة الايدولوجيا ولا أن ينتهك التاكتيك الإستراتيجية)...

إننا نحاول قراءة التحولات على الوضع الفلسطيني في الداخل، اقتصادياً، اجتماعياً، سياسياً، ثقافياً، أخلاقياً، والنتيجة أن طاقات الشعب لا تنضب وهو مستعد للاستمرار على أن لا تخذله القيادات... فجولات بيكر تمهد لمؤتمر دولي وهناك من يبث الأوهام بأن نضالنا انتصر وعلينا قطف الثمار، بينما ميزان القوى يقول غير ذلك، المطلوب إذكاء الانتفاضة لا إرباكها وإجهاضها.

وبصراحة فإننا أكثر ثباتاً من سوانا، وهذه إحدى صفات لينين، فلولا ثباته على التطويح بالنظام القيصري ومن بعده الحكومة المؤقتة التي استمرت بالحرب العالمية، لما ولد الاتحاد السوفييتي بما أداه من دور عظيم في القرن العشرين، وإن كنا نشهد عملية تقويض وهدم سبيكة الدولة هذه الأيام... وبلا شك أن استنادنا للماركسية – اللينينية وتجارب الثورات سيما الفيتنامية، الكوبية، الجزائرية... يعزز من نزعتنا الثورية وروحنا الثورية، وإننا لا نتأثر بمحاولات إخصاء الماركسية، فلينين كتب عنهم في "حرية الانتقاد"، ولا بالجمود العقائدي الذي يظن أن الحكمة تخرج من الكرملين، كأنه جوبيتر، فالمرجعيات الفكرية واضحة والإضافات واضحة وفهمنا لخصائص نضالنا واضح أيضاً "إننا نفكر" بلغة الحكيم، ولسنا "نهجيين" بلغة جيفارا ونترجم بحيوية كلمات لينين "تحليل ملموس لواقع ملموس".

إن ما ينتصب أمامنا هو الارتقاء بعقلنا النظري وعقلنا العلمي وثقافتنا وكفاءتنا وإعلامنا ومبادراتنا الفنية وقدرتنا القيادية على استخراج القرار الصحيح ومتابعة تنفيذه في كل الظروف... فبعد أن تعرض "رفيقنا" لمفارقة حقل الزيتون بتنا نتساءل... ومن قبل كاد الخرق الأمني أن يصل بوابته لولا صمود الرفاق.

إن منطلقاتنا الفكرية اليسارية عظيمة وتحت راياتها حققت البشرية انتصارات باهرة في القرن العشرين، وهي بحاجة لحامل تنظيمي عظيم لترجمة روحها وأهدافها التحررية، حامل تنظيمي يضيف عليها من عندياته، ودرس الانتفاضة هو اهم إضافاتنا على الفكر النظري، وربما بعض صفات العمل السري غير المكتوبة...

وتجربة الثورة في جنوب أفريقيا هي تجربة عظيمة علينا أن نتعلم منها على نحو خاص، فهي الأقرب إلى النموذج الفلسطيني، والكاتب المصري حماد خصص مؤلفاً رائعاً بهذا الشأن، ولكن علينا التقدم بمقاربات نظرية تعالج الملموس على قاعدة دمج الاقتصاد - بالاجتماع - بالسياسة، وتوجيه كل ذلك من قبل الفلسفة. فلسفتنا ليست كفلسفة الآخرين، والاستناد لها ينتج رؤية ونظريات ومقاربات مغايرة لرؤية الآخرين، بصرف النظر عن التقاطعات هنا وهناك، ولنا إنتاجاتنا على هذا الصعيد... إننا ننحاز للمنهج العلمي، أي أهم ما أنتجته البشرية في القرون الأخيرة الذي أهال التراب على الخرافة والسحر وقراءة الكف والنصوص الجامدة.

ولكن دعايتنا الحزبية ليست فاعلة بما يكفي أو بالحد المرضي، فالاحتلال يشهر سيفه ما أن تتوطد لنا وسيلة إعلامية، ولا إذاعة لنا ولا تلفزيون وغير متاح وإن كان بعض الطليان اليساريين اقترحوا علينا إذاعة متنقلة. ومحاولة رفاقنا لتأسيس إذاعة في لبنان أخفقت بعد حرب ٨٢، ولم نسمع عن توجههم لتأسيس تلفزيون، ولربما غير متاح، فالأنظمة العربية لا تسمح إلا بتلفزة رسمية حتى اللحظة.

كما على تعبئتنا الفكرية أن تصل للقواعد العمالية في الأرياف والمخيمات والاقتصاد الوطني... تعبئة وطنية وطبقية في آن. فالقاعدة العمالية في تنام وكوادرها في تزايد، ولنا "حصة" في ذلك. فإطارنا الديمقراطي قوي بالقياس النسبي وتجربتنا في "٣" متقدمة على سواها ليس لأن التمركز العمالي فيها أكثر من سواها، بل على العكس فهي مدينة غير صناعية، بل لا يوجد لدينا مدينة صناعية واحدة، فمنذ أن هزمت "تل أبيب حيفا" تكثيفاً للصراع بين المشروع الصهيوني وفلسطين، قطع السياق الذي يمكن أن يفضي إلى بناء مدينة صناعية، فما لدينا قرى صغيرة نسميها مدناً تجاوزاً، ولكنها مدن خدماتية، ومع ذلك ثمة قاعدة عمالية أوسع في ٢ + ٦ +٨ ومع ذلك فـ "٣" تتقدم الصفوف، ومَرَدُّ ذلك العامل الذاتي، حيوية وميدانية ومثابرة فريق من الكادرات العمالية، وفي المقدمة "العصامي" الذين يحرثون الأرياف والأحياء والمخيمات... "فالحزب قيادته أولاً". هذا استخلاص مفيد.

وعلينا التقدم أكثر في القطاع الشبابي، وكلمات لينين وأنجلز واضحة بهذا الشأن، وكلمات جيفارا وكالينين أيضاً، وكلمات ماو... كعصارة لتجارب تاريخية فذة، ويربطها تقاطعات مع واقع نضالنا لتغيير التاريخ والانطلاق به للأمام (فالمستقبل ملك الشباب) لينين، وهم (الأكثر تفانياً في النضال) أنجلز (وأول من يبادر) جيفارا، و(إقامة منظمة للشباب الكادح) ديمتروف، والذي يكسب الشباب يكسب المستقبل الفلسطيني (فحزبنا حزب

الشباب والمستقبل ملك الشباب) لينين. صحيح أن قاعدتنا المنظمة الحزبية والديمقراطية و"لش" شبابية، فالأغلبية الساحقة في العشرينات ونسبة أقل بكثير في الثلاثينات وضئيلة تماماً في الأربعينات والخمسينات، إلى درجة أن تسألني "الرفيقة" لماذا لا يوجد جيل أقدم لدينا؟ ومع ذلك علينا مضاعفة قاعدتنا الشبابية وتثقيفها وتربيتها أخلاقياً وتمريسها نضالياً. ولينين أوصى بتربية الشباب أخلاقياً والحكيم أولى الشباب المساحة الأكبر في دورات الكادر، ويا حبذا لو يتاح لنا إيفاد حفنة لدورات نوعية، فهذا شرط للمرحلة المقبلة... وعموماً فإن أغلبية شعبنا شبابية والقاعدة الطالبية في الثانويات والجامعات في اتساع، وهذه حال الذين ينضمون لقوة العمل. أي العمال وسواهم... بل إن هذا يمهد للتنويه لأهمية "أن يعطى القوس باريها" والشباب هم "باريها" بل أحد الأسباب الجوهرية – من وجهة نظري- لجمود النظام السياسي السوفييتي هو تمسمر الجيل الأقدم والعجائز في النسق الأعلى، الأمر الذي استخدمه غوربا تشوف (كلمة حق يراد بها باطل) فهدم النظام السابق دون أن يعالجه بل أطلق كل العفاريت والشياطين لتدمير "النظام الاشتراكي" أو "الاقتصاد الدولاتي" أو البيروقراطي... أو الانتقالي... أو ما شئتم... نعم للشباب ولكن الأكثر جذرية وموهبة وليس للهيبز الذين تظاهروا أمام الكرملين والمائعين والمخصيين... واحتفالات رأس السنة "الليبرالية" دون أي التزام بالوطن والوطنية...

وفي السجون علينا الانتقال من الشرح المدرسي إلى الإمساك بالجوهري والمنهجي اللذين يشكلان موجهاً للعقل والتحليل وفهم الملموس ومت غيراته... أي فهم الحياة موضوع الفكر...

وعلينا إيلاء مساحة أوسع للتثقيف بالحرب العصابية ومؤلفات جيفارا فهما يغنيان الرؤية اليسارية ويجذرانها كيلا يحدث معنا هنا ما شاع لدى رفاقنا في الخارج "المدرسة السوفيتية" من خريجي مدارس الكادر في أوروبا الشرقية... فظروفنا في الوطن المحتل مغايرة وتتطلب كادرات ومهارات مغايرة في كثير من النواحي.

كما علينا إتاحة مجال أوسع لاستقلالية الأطر الديمقراطية، فقد شبت عن طوق التدخل في تفاصيل عملها بما راكمته من هيئات وقاعدة ومناشطات... ولافت تماماً التعديلات الإدارية في رأس "الصحي"، ناهيكم عن خدماته، والمتابعة والمراسلات مع "مج" غزيرة... وهم يتقدمون بتتابع وعليهم المضي أكثر فأكثر... إن كنا نلاحظ تباطؤاً في رأس الزراعي، غير أنه مثابر ومن عائلة صلبة ولكنه سلحفائي أحياناً، الأمر الذي يقتضي المعالجة، وهذا نتركه لأهل الشأن ضمن القاعدة التي تسري على الجميع "سرعة الحركة وبطؤ الترتيبات".

طبعاً، سوف نعود لتحليل التحرك السياسي وأهدافه وآثاره التدميرية على الانتفاضة، والمعركة السياسية ستكون حامية الوطيس وأشد بأساً من معركة اتفاق عمان... فالثانية تغلبنا عليها بعد عامين تقريباً وجاء لقاء الحكيم – أبو جهاد تتويجاً بما مهد لتوحيد الإرادة الفلسطينية في الجيشان الانتفاضي، أما مسار مدريد، إن لم ينقطع، فسوف يدك ما راكمته الانتفاضة ويحدث شرخاً عميقاً وربما انقساماً مريراً...

غريب أمر القيادة الفلسطينية، الشعب يقتحم السماء ويراكم الانتصارات وهي تتيه في مسارب لا جدوى منها وتنحني لاشتراطات مذلة. مرة "كادوك" ومرة "الاعتراف" ومرة "وفد من الداخل"... وكما جاء في

بياننا أيام كامب ديفيد السادات "أن طريق التنازلات تبدأ ولا تنتهي ولا تحصد إلا خيبات" ويبدو أن الحلقة الفلسطينية تلحق بكامب ديفيد بعد عقد ونصف... فهل تصلح كلمات مظفر النواب "صالح قادتنا الأعداء ونحن نحارب".

فماذا نحن فاعلون؟ ماذا نحن فاعلون في وضع دولي يتفكك فيه الاتحاد السوفييتي، القطب الذي يقارع الإمبريالية الأمريكية، فيما يصعد الجبروت الأمريكي الحليف الاستراتيجي "لإسرائيل"، بل هناك لعثمات بدأت تتحدث عن عصر العولمة الأمريكية، ناهيكم عن الضربة القوية للعراق في إطار إعادة صياغة الشرق الأوسط؟

لقد بلغت عربدة الكيان الصهيوني الذروة باحتلال بيروت عام ٨٢ ولكن هذه العربدة تقهقرت بعض الشيء بالانكفاء في الشريط الحدودي، وساعد المقاومة لم ينكسر ولم يستسلم وأثبت مقدرته على إحراز انتصارات هامة أجبرت العدو على سحب قواته من الجبل وبيروت وصور وصيدا... والمعركة مفتوحة... وهذا يجب بل من الضروري أن ينعكس في تفكيرنا النظري وتعبئتنا وإعلامنا.

ومثلما كانت الانتفاضة جبهة قتال، يمكننا بذل كل جهدنا بالتلاحم مع القوى الحية وجماهير شعبنا لاستبقاء هذه الجبهة حية. فليس لشعبنا أية مصلحة أو فائدة في "إسكات المدافع" فقد انتفضنا وناضل شعبنا طويلاً لدحر الاحتلال واسترداد الحقوق الوطنية، وكان في المقدمة عندما خيمت الظلمة على سماء العرب، ولا خيار سوى هذا الخيار... ولكن دون نسيان درس لينين في انتفاضة موسكو عام ١٩٠٥ وانتفاضة شنغهاي عام ١٩٢٧... أي الابتعاد عن الانعزالية، ودون نسيان أيضاً أنه بالنضال نحمي مسيرة النضال وتضحيات النضال، والا جيّر نضالنا لخدمة المسار التفاوضي والمشروع الأمريكي...

لنتحوط على أداتنا الحزبية ولنقوِ دفاعاتها، فالهجوم علينا سيكون شرساً وأوسع بكثير من عام ٨٥... ولكننا لن نكون وحدنا في المعركة...

وختاماً، سوف اقترح لاحقاً نقاطاً محددة استكمل فيها هذا الفرش النظري، وإن كنت أزكي مقترح رفيقنا الداعي لإصدار نشرة توزع على أوسع نطاق، دون ترويسها باسم الحزب... كما سأقترح على الحكيم أن يقول كلمته من خلال لقاء صحفي أو خطاب، بما هو أكثر من الكلمة الشهرية، فهذه الأخيرة لم تعد مجدية هذه الأيام..

ملحوظة: لم تتطرق رؤوس الأقلام أعلاه لقطاع المرأة، فهو تحصيل حاصل وسياستنا جلية وحاسمة وما علينا سوى أن نغذ الخطى أبعد فأبعد... كما لم تتطرق لموضوعات عديدة، فهذا أتركه لمناسبة أخرى.)

- الملحق رقم ١٠ -

الرفيق...

الصفحات أعلاه من اجل الخلوص لما يلي:

١- أمر محكوم عليه بالفشل اللهاث وراء ٥ فقد تبعثرنا على نحو مريع بعد الهجمة الاعتقالية. فاللهاث لا يلملم ولا يؤسس ولا ينهض، وهو غير قادر على السيطرة...

وخطأ يفضي إلى ضياع الجهود وضياع الوقت تبني مفهوم اللهاث وراء فلول متوترة، مبعثرة، متشرطة، مشربة بروح عدم الثقة بالنفس والآخرين. فالضربة استولدت مناخات وفتتت بدايات، بصرف النظر عن الحجم والاتساع، بدايات على صعيد كيفي بما يتصل بالتقاليد الحزبية، فلم تترسخ التقاليد الحزبية، لكيما ترسم طريقا للقطار، أو مجرد حد أدنى، وإن توافرت كادرات ومفاصل حزبية جرفتها الضربة رغم صمودها الجذري أو النسبي. فرجل ٥ في غنى عن الشرح وقد أضاف صفحة مشرفة.

والأكثر لعنة ضياع الحلقة المركزية، أي عدم تحديد المهمة الأساس اليوم، وبالتالي سكب الجهد الأساسي فيها، ومتابعة ذلك بحزم، ودون ذلك ليس ثمة فرصة لبناء أي شيء أو انجاز أي شيء.

فقيادة لا تجيب إجابة صحيحة عن سؤال: كيف وبم نبدأ، أو تمسك بالحلقة المركزية أو لا تنفق ما يكفي من جهد ومتابعات وحزم، ليست قيادة وقد تتحول لمعول هدم لجهود الرفاق.

وعليه، إن الإجابة عن سؤال الحلقة المركزية هي: إعادة بناء المنظمة الحزبية، والإجابة عن سؤال كيف وبم نبدأ هي: الإمساك بحفنة من أفضل الكادرات والنشطاء الأكثر انسجاما مع الحلقة المركزية والأكثر تفاهماً مع بعضهم البعض على معايير حزبية ثورية، وليس طباع شخصية أو عواطف شخصية، رغم أهمية الطباع والعواطف... وبالتالي الشروع بإعادة التأسيس مدماكاً وراء مدماك بل حجراً وراء حجر... فهذا "الجديد" هو المحور وهو العمود الفقري والناظم للهيكل العظمي وعضلات الجسم. أي بدل اللهاث وراء "فلول" لا يمكن السيطرة عليها أو الإحاطة بها نظراً لمحدودية القدرة الكادرية، نبني المحور أولاً ونبني عليه لاحقا.

وهذه هي الإجابة الصحيحة الوحيدة في ضوء الملموس. ولكننا سوف نسعى من جانبنا لإيجاد صلات ولو تفاعلية أو تعاضدية أو فنية مع هذا "الجو" أو ذاك من فلول المنظمة السابقة، لتأمين ما أمكن من صلات وتخفيف ما أمكن من احتقانات وتوترات، وحتى تزويدها ببعض النشريات، ونضعك في صورة المستجدات.

لقد فقدنا الرأس والعمود الفقري قبل أن يتصلب الجسم وتتناغم أطرافه ومكوناته، فتفكك على نحو مؤسف مشفوعا بروح الانتماء السياسي ونقيضه، أي الملاسنات والحساسيات التي تعكس ميولا حلقية ومحليات وأمزجة شخصية.

ولكننا سوف نراهن على الانتماء السياسي، او العاطفة السياسية، وعلى الإرث النضالي والاستعدادات النضالية، للتغلب على تخلف التقاليد الحزبية التي وحدها تضمن تحزيب وجمعة البنية.

فالخلل في مستوى التحزيب، وليس في الإرث النضالي والروح العملية والعاطفة السياسية، بما يضاعف من أهمية الرأس القيادي الناظم والمحرك والممسك بزمام الأمور، الشيء الذي استقطعته الضربة الاعتقالية بما ترك لدينا مرارة حقيقية.

وعليه، وبصرف النظر عن التفاصيل والنواقص في المعالجة، علينا السير على خط بناء الأساس المتسق كعمود فقري وما عدا ذلك يأتي لاحقا... وقد نحتاج بين ٤ – ٦ شهور، وبعدئذ ننتقل لخطوات أخرى في ضوء التشخيص الجديد في تلك اللحظة.

أما بالنسبة للكبار والجيل الأقدم... فهم ليسوا اتجاه الضربة بالنسبة لك، سوف نعثر من جانبنا على طرائق للتجاوب مع ميولهم وتوظيف طاقاتهم...

٢- النقطة أعلاه اقرب للجانب التنظيمي والفني... أما النقطة التالية فهي اقرب للمضمون الفكري...

أنت تعرف مقولة ماركس "طبقة في ذاتها وليس طبقة لذاتها" التي نشرها في "بؤس الفلسفة"، يمكن بعد تحويرها لتناسب أوضاعنا الفلسطينية، القول: الجماهير أو الكتلة التاريخية في ذاتها والكتلة التاريخية لذاتها. فهذه الجماهير موجودة موضوعيا ولا مهرب من اكسابها الوعي والتنظيم ودفعها للنضال، وبذلك تحضر كلمات ماركس في البيان الشيوعي (كل تاريخ البشرية هو تاريخ صراع الطبقات) ضمن الخصائص الفلسطينية. وشعبنا مناضل منذ بدايات القرن ومرّ في محطات هامة في أوائل وأواخر العشرينات وثورة عارمة في أواسط الثلاثينات، وها هو يحمل بندقيته ويقاتل منذ عقدين... أي انه شعب مناضل ويخوض الصراع.

والتنظيم يأتي لتوحيد صفوف العناصر الطليعة وتوحيد صفوف الجماهير في نضال شاق مرير. وهذه عملية مزدوجة طلائعية وجماهيرية في آن، أي أننا لا نترك العضوية على عواهنها والجماهير على تبعثرها.

وفيما تتحدث الماركسية – اللينينية عن النضال النقابي الابتدائي يليه النضال السياسي العارم، فإننا نستخرج أدواتنا من أوضاعنا بخوض شتى أشكال النضال، إذ تجاوز شعبنا مرحلة التهيئة إلى مرحلة الممارسة، ولكن دون ارادوية أو مغامرة... إننا نسير مع الجماهير وفي مقدمتها، ونحاول تعميق دورنا أكثر فأكثر.

ومثلما اكتشف لينين قانون تفاوت التطور على صعيد عالمي فإننا نلحظ حضوره في واقعنا المعين، فثمة تفاوت بين الريف والمدينة، وبين غزة والضفة، بين الخليل ورام الله... الأمر الذي يقتضي فهم الفوارق بغية خلق وعي مشترك ونضال مشترك وحزب مشترك، دون مساومة لأية مظاهر تخلفية، إذ على الذي يسير في المقدمة أن يسحب الذي في المؤخرة، لا العكس، وهذه عملية صعبة ولا شك ولكن لا مناص منها لبناء إرادة حزبية واحدة وليس إرادات متفاوتة ومتناقضة. ويلعب هنا الإعلام الداخلي كما التثقيف الأيديولوجي والقيادة التي تقطر

في التنظيم الثوري السري

الجميع في قطار واحد دور العتلة للنهوض بالجميع... فالصيغة الحزبية الثورية هي أعلى شكل تنظيمي وعلى الجميع التجاوب مع اشتراطاتها ورؤيتها ومهامها... وتتم إعادة صياغة الجميع، والجميع يقوم بصياغة الحزب، في غمرة المسيرة، دون أي تسامح مع الهبوط أو الحلقية أو أية ميول غريبة على الحزب الماركسي – اللينيني، والحوار والعمل هما ناصيتا الانطلاق الأهم، بعيداً عن الممارسة السوفييتية (منحرف، مرتد، تروتسكي، ماوي...) فكلنا رفاق ورفيقات نتشرب من نفس النبع ونمضي في نفس المركب مع الاعتراف "بالموروث" الذي يحمله كل واحد منا وضرورة فحصه انتقاديا بما يتناغم مع الحزب ورؤيته وتطلبات العضوية فيه.

وعليه، علينا الانغماس بجماع الشخصية، من الرأس إلى الكعب في بناء منظمات الحزب كعملية شاملة بنائية ونضالية في آن والتهيؤ لمعارك كبرى. إذ لا يمكن أن يستمر «الزمن الرمادي» لينين، أو النضالات المتفرقة، إذ ثمة وتائر نضال جماهيرية وعنفية أعلى، بل إن أحد مبررات وجودنا وتضحياتنا أن نساهم في أعداد الجماهير لتلك اللحظات. فالاحتلال يكاد يتعايش مع الحالة القائمة ومن الضروري هز النسغ أو «الروتين» الحالي، بما يتطلبه ذلك من تعبئة وتنظيم للجماهير ومراكمة إمكانات لدى الأداة الطليعية.

الاحتلال أعطب منذ زمن آليات العامل الاقتصادي كأرضية لتطور المجتمع (أي المنظور الماركسي) أما الآلية الأكثر فعلا وتأثيراً في واقعنا الفلسطيني فهي الأرضية السياسية، العامل السياسي. أي ما تقوم به حركة المقاومة... وفي الجبهة المقابلة سياسات الاحتلال وتأثيرات الأردن التي لا يمكن الاستهانة بها في الضفة الفلسطينية وبقدر اقل في غزة... أي ما يسمى جماعات «الخيار الأردني» ولكن هؤلاء جيل أقدم ودون امتداد جماهيري أو شبابي، فالجمهرة مندفعة نحو م.ت .ف وفصائلها.

وبالتالي علينا أن نضطلع بدور طليعي بالأقوال والأفعال وان (تخلع علينا الجماهير لقب طليعة) لينين، وهنا امتحاننا حصراً في الأعوام المقبلة، بل ونجرؤ على الزعم أننا نتسلح ببعض عناصر هذا اللقب، أي ثمة أساس لطموحنا، بل إننا دون بلوغ هذا الطموح نفتقد صفة حزب طليعي، أي (مثل مصطافة الغور لا صيفاً صيفت ولا شرفها نابها) لماذا كل هذه التضحية إذن؟ لكيما نكون (جسر التوسط بين النظرية والتطبيق) لو كاش، و(الانتقال من ملكوت الضرورة إلى ملكوت الحرية) أنجلز، وبالتالي لعب دور رئيسي في توحيد الإرادة الشعبية المتصادمة مع الاحتلال في صراع تاريخي مديد إلى أن يتم كنسه وتحرير وطننا.

ومن الملاحظ أننا سرنا خطوات على صعيد بناء الأطر المحيطة والنشاط النقابي، ولنا نفوذنا القوي في المخيمات والجامعات وعدد من النوادي بما يشبه نقاط ارتكاز. وأنت تعلم أن فرونزه هو من شكل أول مجلس للسوفييت في روسيا إبان ثورة ١٩٠٥، وهذه البذرة غدت جوهر النظام السوفييتي في زمن لينين بعد ثورة أكتوبر... وشيء مشابه حصل في كوريا الشمالية والصين، أي إقامة سلطة الشعب من خلال اللجان الشعبية والكوميونات... أما بلادنا فلم يتحرر شبر واحد منها بعد، ولم تبلغ الحالة النضالية شأواً يسمح بإقامة سلطة ثورية... إننا كفصائل مقاومة نسري في المجتمع ونمارس تأثيرنا ولكننا لا نهيمن أو نحكم.

وعليه، فالحزب الثوري هو الصيغة التنظيمية الأعلى المؤهل قبل غيره للسير في المقدمة.

وعلينا الاعتراف بأن ثغرات ونواقص عديدة تعتور عملنا الحزبي، ولكنها أمراض وثغرات ما قبل النضج، أمراض وثغرات التأسيس وما قبل تصليب المنظمات الحزبية، وتأتي عادة الضربات الاعتقالية لتكشف عيوبنا وتعيدنا مسافات للوراء، ومن هنا أهمية حسم مسالة الصمود وحماية الشرف الحزبي...

وختاما...

رسالة غير مؤرخة... ولكن يمكن الاستنتاج أنها قبل انتفاضة ٨٧

- الملحق رقم ١١ -

قطفة من رسالة

أيها الرفاق...

كتب أنطونيو غرامشي في دفاتر السجن (كيف نعد القادة... يتعين أولاً عقب كل كارثة بحث مسؤولية القيادات بالمعنى الحرفي للكلمة) ( )

كانت ضربة ١٩٧٦ تصفوية إلى أبعد حد وسقط في الزنازين الشهيد محمد الخواجا مسؤول منظمة رام الله... فيما أفلت أحمد قطامش من الاعتقال بعد مداهمة بيت عائلته.

يتعين استخلاص الدروس. ومن النقاشات في السجن وبعد التحرر تباينت الآراء حول مدى توافر شروط العمل المركزي. رأي يقول بأن الشروط توافرت وإن الخلل في سلوك البعض في الزنازين، ورأي يقول إن لا خلاف على مبدأ مركزة العمل ولكن شروط ذلك لم تتوافر وأهمها الصلابة في الزنازين. وإن مجرد حصول ضربة اعتقالية متسلسلة تحولت لضربة قاضية دليل على عدم توافر الشروط المطلوبة.

ولكن الجميع أجمع على أهمية مغادرة الحلقية، والإبداع الذي يوفره عامل الزمن لتركيم البناء، والصمود الحاسم في الزنازين سيما القادة.

ومن الواضح أن الاستخلاصات الثلاثة تتصل بالشرط القيادي، فهو الذي يتعين عليه الإبداع والصمود والارتقاء بمستوى العمل الحزبي وتطلباته.

وهذه كانت معضلة حقيقية وأقرب إلى طلب لبن العصفور وقد احتاجت الكثير من الحنكة والبصيرة وبرودة التفكير والحرارة الثورية، ومساحة من الوقت، وقدرة على التأسيس وحماية ما يتراكم وامتلاك صفات وكفاءات وطباع القادة بتدرج، فكل شيء يبدأ من الصفر تقريباً...

أما حجم الضربة عام ٨٥ وإن كانت واسعة غير أنها لم تهدم البنيان، فالبنيان قوي وصموده وصمود أبرز أركانه دليل على أننا تجاوزنا ارتقائياً مرحلة السبعينات...

لنشمر عن سواعدنا، وإلى الأمام...

والآن إلى...

- الملحق رقم ١٢ -

لقاء مع مفصل تحول من فصيل آخر

لماذا؟

(من الناحية السياسية، الداخل ساحة صدام محتدم والجبهة في تلكم المرحلة كانت الأداة الأكثر وضوحا برنامجيا كما أن أدواتها فاعلة...

لم تكن الجبهة مجرد ظاهرة نخبوية بل حركة شعبية واسعة رغم أنها تتبنى رؤية فكرية غريبة ونقدية للوعي الشعبي التقليدي والديني، لكن صدق الممارسات السياسية والنضالية ووضوح موقفها انعكس إيجابا على النظرة إليها بما زادها تأييداً، بعكس القوى الأخرى التي افتقدت الصدقية الأخلاقية السياسية رغم رؤيتها الفكرية.

حتى في أكثر الأوساط تخلفاً كان الناس ينجذبون للمواقف السياسية والسلوكية للجبهة.

كما تميزت الجبهة بالوضوح في مسالة التحالفات، بتقديم الأساسي على الثانوي، مع قدر من المرونة بما يدلل على بصيرة سياسية ورؤية إستراتيجية لعملية الصراع، دون أن تلغي التباينات والتناقضات أو إيصال ذلك حد الصراع والاحتكام للعنف والسلاح... وذلك دليل نضج سياسي إضافة للجمع الجدلي بين أشكال وأساليب النضال، وتقديم شكل على آخر تبعاً لحركة التناقضات ومستواها.

وعلى صعيد فكري كان لدى الجبهة رؤية فكرية بمدلول طبقي واضح ترى في الماركسية مرشدا للعمل ومحدداً للخط السياسي. فالمجتمع الفلسطيني بحاجة لرؤية تعبر عن فهم صحيح للمكونات والكتل الطبقية، سيما في ظل تنامي الحركات السياسية البرجوازية والإسلام السياسي... أي التعبير الحقيقي عن الكتل الاجتماعية المستغلة والمهمشة وحاجة المجتمع للديموقراطية بمفرداتها، رؤية مناهضة للمركز الامبريالي العولمي وبعيدة أيضا عن الانغلاقية الأصولية والعودة بالمجتمع للوراء... وهذا عبرت عنه الجبهة حينذاك ليس بالرؤية فقط بل أيضاً ببناء الأدوات الحزبية والنقابية والنسوية... التي ساهمت في تأطير المجتمع والتأثير على ثقافته...

وهذه الأدوات أصبح لها حضور شعبي واسع بعيداً عن الإقصائية بل في حوار مع واعتراف بالآخر... إلى درجة أن تشارك الجماهير في جنازة قائد شيوعي...

أما على مستوى التثقيف بالرؤية الفكرية – السياسية فكان عمل الجبهة ممنهجاً بعيداً عن العفوية، فثمة برنامج تثقيفي متعدد الأبعاد والآليات في محصلتها تساهم في بناء إنسان جديد قادر على التفاعل والفعل والتغيير... مثلاً الكلاسيكيات الماركسية، تجارب حركات التحرر، اليمن، نيكاراغوا، فيتنام... كوبا... كلها أسهمت في صياغة هوية فكرية / سياسية / تنظيمية لا زالت آثارها لهذا اليوم رغم التفككات والأزمة البنيوية التي تعيشها الحركة السياسية الفلسطينية.

ولا تنسى التعبئة بالصمود وتجذير الصمود بما عكس نفسه في انتماء جذري للوطن والحزب وبالتالي خلق دافعية للمواجهة مع المشروع الاحتلالي سواء في الصراع اليومي أو الصمود في الزنازين. فالعضو كان يمثل قضية عادلة وإنسانية وأخلاقية ووطنية...

فالتوعية عمقت الرؤية التناقضية. فالمناضل/ة يمثلان الخندق الثوري ويدافعان عنه بنضال تضحوي منزه عن المصالح الشخصية وصمود جذري تحت صنوف التعذيب في الزنازين. بما يفوق الفصائل الأخرى.

لقد صممت الجبهة على بناء قوة النموذج، وهذا له أهمية كبيرة في مجتمع تقليدي متخلف في بنيته الاقتصادية والاجتماعية.

- الملحق رقم ١٣ -

مقابلة في السجن

أجل عشت طريداً بضع سنوات في الجبال والكهوف

حرصنا أن تكون الانتفاضة الكانونية شعبية تجمع النضال النخبوي والشعبي في آن

تحمل هذه المقابلة نكهة خاصة، سواء لأنها تعود بنا إلى مرحلة المد الثوري، أو بالنظر لطابع الشخص الذي انخرط في النضال فتياً واشتد ساعده في معمعان النضال وسنوات السجن الذي يغادره ليعود إليه... والعدو لم يكل في محاولة اعتقاله بعد أن صنفه كناشط في «النواة الصلبة للانتفاضة».

- هل حقاً أنك عشت في الجبال والكهوف؟

لقد عشنا مرحلة مشحونة بالفخر والنشوة والقناعة بالنضال ورفقاء النضال، رغم برد الشتاء والخوف من المفاجآت ووحوش البراري، وندرة الطعام.

لسعادة في النضال، فشرف أن يضحي المناضل في سبيل حرية شعبه.

- لكن حياة الجبل صعبة، سيما أن بلادنا دون غابات وطبيعتها فقيرة بالأشجار المثمرة.

عليك أن تعرف الجبل كما تعرف يدك، هذه نصيحة جيفارية قديمة أن تعرف الكهوف والنبع وسبل الدخول والخروج من الجبل. فقد تحاصر فجأة.

أنت تعتمد أولاً على حاسة السمع ليلاً، ومع الوقت أصبحنا نميّز بين جلبة الغزال وأي حيوان آخر أو الجندي. وحصل أن قام جنود الاحتلال بتمشيط جبال كنا نلجأ إليها، ولكننا كنا أكثر حنكة منهم في التواري في أماكن مستورة أو فتحات نغطيها بأشواك...

- هل عشت وحيداً؟

كنا مجموعة من مطاردي الانتفاضة، من عدة ألوان سياسية، نلتقي ونفترق حسب الضرورات وتنظيم الأنشطة، ولكن كان لنا مخبؤنا الخاص بنا. ونادراً كنت بمفردي. إذ أننا نتبادل الحراسة ونقوم بأنشطة مشتركة.

- كيف كنتم تتدبرون احتياجاتكم؟

ثمة آبار ونبعات فالماء متوافر للشرب، وبسطل ماء صغير كنت أغتسل سواء توافر صابون أو لا، وقد استخدمت الطين الأحمر بدل الصابون. ولدى كل واحد حقيبة تحوي ملابسه الضرورية. ونحصل على الطعام

من أي بيت نصادفه، مجرد رغيف وحبة بندورة، فهذا يكفي، وأحياناً لدينا معلبات، ولكن حصل أن فتك بنا الجوع مرات ومرات خصوصاً في فصل الشتاء حيث لا أشجار مثمرة أو موسم خضراوات.

كان يتكالب علينا الجوع والبرد ولكننا سعداء، إننا نؤدي مهمة نضالية، ونشعر بالانتصار على العدو كل يوم، بما ننجزه من مهام فيما يقف عاجزاً عن اعتقالنا... كما أن الناس يلتفون حولنا فهذه عجوز تعطيك بضعة أرغفة، وتلك امرأة تطلق أصوات محذّرة من دوريات الجيش ورب عائلة ثالث يعلمنا عن موقع حقله المثمر، وقرى بأكملها كانت تشارك بالتظاهرات وفي كل قرية المئات من الأسرى... إننا نتناغم مع شعبنا في صنع معجزة ثورية.

- ألم تشعلوا النار لطرد البرد؟

الحطب والأشواك كثيرة في الجبال، ولكننا كنا نتفادى اشعال النار، حتى إشعال سيجارة، إلا بحذر وبعد الاطمئنان أن المكان آمن، وخصوصاً في الليل. فالليل ساتر ولكنه يكشف اللهب وزهرة السيجارة، والعدو لديه أجهزة تساعده على الرؤية الليلية...

وأينما نتحرك نعرف المحيط والأهالي، ومجرد أن تتوقف سيارة أمام بيت دون نزول صاحبه، نعرف أن الركاب قوات خاصة.

- هل كانت حراستكم منتظمة؟

كان ثمة لجان حراسة في كل قرية، وكنا نوزع الحراسة فيما بيننا وكأننا في جيش نظامي، ونتفق بالإشارة أو بالصفير إذ لم يكن لدينا هواتف نقّالة، وهذه الهواتف تحولت لمصائد هذه الأيام إذ يسهل رصد الكلام والمكان... ولجان الحراسة كانت تقيم حواجز على مداخل القرى، وإذا حضر مواطن بسيارته فهو يرفع الحاجز ويعيده بعد أن يمرّ، وهذه تعليمات كان يتقيّد بها الجميع... وأحياناً يجري اتفاق بين مجموعات الفصائل كل منها يتولى حراسة شوارع وأحياء... ولم نكن نقبل أن يخترق العدو مناطقنا... مثلما لم نكن نسمح للعدو باختراقنا في الزنازين فالحذر والصمود شعارنا.

- ما هي أهم المهمات التي تولتها اللجان الشعبية في منطقتكم؟

الحفاظ على الحالة الانتفاضية وضخ المزيد من القوى في الميدان، سواء كنا رفاقاً منظمين أو من الطلبة الأصدقاء أو...

وحماية سلامة الناس من اختراق العملاء والتأكيد أننا الموجودون أي المقاومة وليس قوات الاحتلال، بما يشبه مناطق محررة.

وقمنا بتوزيع نداءات قيادة الانتفاضة وتنفيذ برنامجها النضالي من إضرابات وتظاهرات ومظاهر

عصيانية والتزام بعدم دفع الضرائب، كما تنظيف الحاويات والفضلات وقطف الزيتون ومساعدة الفلاحين في الزراعة... كما زرع المسامير وإتلاف مزارع المستوطنين والزجاجات الحارقة ورفع الاعلام... كل ذلك مهمات يومية لا تتوقف.

- هل ثمة اعتقالات وإصابات؟

العشرات اعتقلوا من أنصارنا وانصار الآخرين، وقد استشهد لنا رفيقان وهناك إصابات عديدة. كنا نحمل الجريح على الظهر ونتسلل عبر مسالك وصولاً إلى المدينة أو نحمله على حصان أو في سيارة، حسب التساهيل. لم يكن لدينا إمكانات طبية سوى تضميد الجرح كيفما اتفق...

والكمائن من الجنود والقوات الخاصة هي الأشد خطورة، والكثيرون وقعوا في هذه الكمائن.

وكان التضامن عالياً، فالناس يزورون أهل الأسير والجريح وينظمون جنازة مشرفة للشهيد، ويتبرعون بالزيت للأسرى والمطاردين... والنساء يلقين بالبصل أو المناديل المعطرة لاستخدامها للتغلب على قنابل الغاز... وفي بعض الأحيان كان بعضنا يشهق ويختنق من قنابل الغاز.

- هل كنتم تحوزون على رعاية من جهات سياسية؟

كل تنظيم يعتني بعناصره وأصدقائه، وهي رعاية تغطي الحد الأدنى من الأنشطة وبعض المصروفات الضرورية... إن مطالبنا الشخصية في غاية التواضع.

ففي الجبل تتساوى أبسط الأشياء مع أكثر الأشياء رفاهية... فالطعام مهما كان بسيطاً فهو كاف، واللباس مهما كان متواضعاً فهو كاف.

المهم أن نتمرد على الاحتلال ونرفض الامتثال والاعتقال... يؤلمني أن أرى الناس يتقبلون هذه الأيام الحواجز والاعتقال...

وبالبيان وبالشعار على الجدار، وبطبيعة الحال بالجيشان العظيم تفوقنا على وسائل إعلام العدو وكشفنا قباحة الاحتلال ووضعناه في حالة دفاعية.

وكنا نثق غاية الثقة بقيادتنا ونحترم كل كلمة وكل تصريح... ومع الأسف لقد تعرفنا على بعض هؤلاء الذين عادوا بعد أوسلو وقد صدمنا تماماً فتذكرنا كلمات الشاعر مظفّر: صافح قادتنا الأعداء ونحن نحارب... ولكنني استمررت بالحرب إلى أن عدت للسجن.

- هل يمكن أن تنبش ذاكرتك بأنشطة لافتة؟

أذكر أنه حصل أن ألقيت علبة دهان على زجاج جيب عسكري، فانتشر الدهان على الزجاج بما أفقد السائق

القدرة على الرؤية فاصطدم بشجرة وفي مرة أخرى انحرف الجيب وسقط بما أدى إلى إصابات...

وأذكر أن دورية من الجيش عجزت عن إنزال علم فلسطين عن مئذنة جامع، كنا قد رفعناه مستخدمين السلالم والحبال، وكرر الجنود المحاولة عدة أيام إلى أن أطلقوا النار على العلم غضباً وسط هزء الناس بهم...

وغير مرة رشقت النسوة الجنود بالماء والزيت والأحذية البالية وقمن بتخليص الشباب من بين أيدي الجنود رغم خشونتهم واستخدامهم للهروات، كن يتجمعن ولا يرجعن إلا وقد حررن الشاب.

ومرات ومرات نظمنا تظاهرات، ولم يكن لدينا من وسيلة سوى الاتصال المباشر بالنشطاء في القرية وهؤلاء يطوفون على البيوت، وفي اليوم التالي تندلع مظاهرات ومصادمات، وهناك مجموعات تلقي الحجارة والمولوتوف وأخرى تقيم المتاريس وثالثة ترفع الأعلام الفلسطينية وتحرق الأعلام الإسرائيلية، ورابعة تقدم الإسعاف للجرحى وتأمين وصولهم لمستشفى المدينة، وهناك من يكتب شعارات جدارية تمجد الانتفاضة والنضال...

كان ثمة توزيع للمهمات وتقسيم للعمل، والقرية كانت تهب عن بكرة أبيها... كان التلاحم عالياً والناس لا يخافون التضحية ولا يبحثون عن مكاسب شخصية...

وأكبر خلل كان هو افتقارنا للوسائل القتالية، وكان يثيرنا أن لدى مجموعات اخرى بعض الإمكانات، ولكننا كنا نسيطر على عدة قرى... وكان يمكن تطوير الانتفاضة ومد نفوذها لولا انحراف المسيرة... أما بالنسبة للسجن فهو محطة تحدٍ في الزنازين ومحطة صمود كذلك.

- الملحق رقم ١٤ -

قياديون يتحدثون عن الخطاب الفكري والتنظيمي...

(تسألني عن تجربتي في السبعينات لما كان لها من أثر على الخطاب الفكري للجبهة؟ هناك أفواج تعبأت وتثقفت في السجون، أما الذين تميزوا وانتقلوا لمرحلة الإنتاج الفكري فهم آحاد، لقد تأثرت بكلمات فهد الداعية للتشرب بالماركسية-اللينينية، وأن الماركسية ليست بالياذة تعزف على الرباب، واقتبست ذلك مراراً في كتاباتي، كما انحيازه لحرية الفكر بما ينسجم مع كلمات لينين عن التسامح الفكري رغم حزمه في السجال مع التيارات الفكرية الأخرى، وهذا أحالني إلى التجربة الكوبية وإبداعاتها وتطورها في غمرة الممارسة، ولفتني نفور جيفارا من النهجية، أي السير على أقوال الآخرين، وكنت فعلاً كالرحالة أتجول في عوالم الفكر وأغنتني باستمرار، وأستغرب كثيراً أن يحصر بعض الأسرى الأذكياء من الاتجاهات الفكرية الأخرى، قراءاتهم وأن يحفظوا ويرددوا كتاباً محدداً سنوات وسنوات. فعالم الفكر كالمحيط وهو باتساع البشرية وتاريخها، وعلى الأقل في الخمسة آلاف سنة الأخيرة، وأن الإلمام، ولو النسبي بذلك، يتيح معرفة جذور الأفكار وبيئتها وتطورها، وهذا أكسبني ليس ثقافة واسعة فقط، بل نقطة منهجية أيضاً، هي، جدلية الفكر وجدلية الفكر والواقع، وسحبت ذلك على شروط نضالنا. فالعقلانية الإغريقية حضرت في تفكيري، وقد استندت لهذه البذرة ولاحظت إسقاطاتها في أوروبا في العصر الحديث، بل لاحظت إبداعات الفكر العربي الذي عرض الكثير من صفحاته حسين مروة في (النزعات المادية) وإسهامات ابن رشد وابن خلدون وسواهما. وإلى جانب قراءاتي الواسعة للماركسية-اللينينية، قرأت الكثير من الطروحات والفلسفات السابقة بما في ذلك الفكر الديني. فالفكر الماركسي في نهاية الأمر إنما استند إلى مصادر فكرية سابقة، كالفلسفات المادية والمنهاج الديالكتيكي الهيجلي كما الاقتصاد السياسي والاشتراكية الطوبائية، وسيل من التراث البشري، كل ذلك اتكأ عليه ماركس لإنتاج نظريات هي (حجر الأساس) حسب تعبيره، وبالتالي جاءت إضافات لينين وسواه من الماركسيين، وهذه عملية تراكمية لا تتوقف، ترتبط بتغيرات الحياة ومستجداتها وخصوصيات الأمم والشعوب.

وتجربتنا الفلسطينية، رغم محدوديتها، ربما أضافت إلى التراث الماركسي والثوري خلاصات الانتفاض الشعبي في أواخر الثمانينات وبعض ملامح العمل السري، كما أكدت على الدور الكبير للفرد كما شرحه بليخانوف وربما بتشديد أكبر.ناهيكم عن التضحوية العالية للشعب رغم تبديد هذه التضحيات وانجازاتها لاحقاً.

وأذكر كتاباً ضخماً في بداية السبعينات بعنوان (المادية الديالكتيكية) لمجموعة من المؤلفين وهم يستحثون الاشتراكيين لقراءة الفكر الآخر ومساجلته. وأعجبتني رحلة أفلاطون إلى مصر طلباً للعلم في جامعة عين شمس القديمة التي كانت تدرس الفلسفة والسياسة والفن، ولم يكن صدفةً أن يطالب بحكومة فلاسفة، فهو قد اكتشف أهمية المزج بين السياسي والثقافي، وكان الرمز الذي يعكس ذلك من وجهة نظرنا هو الأمين العام جورج حبش أسوة بلينين وكاسترو وهوتشي منّهْ فكلهم قادة سياسيون ونظريون، بل سمعنا عن التناغم العالي بين الحكيم

والموهبة المتميزة غسان كنفاني الذي لم يعرف عنه حُبُّهُ للشكليات والاجتماعات الطويلة. وأول نشرة كتبتها كان عمري سبعة عشر عاماً، وكان تعليق الحكيم: لهذا الرفيق مستقبل رائع.

في سنوات السجن قرأت فيما قرأت الفلسفة الإغريقية، وأقنعتني انتقادات صادق جلال العظم لمنطق أرسطو، واحتجت لزمن وخبرات ريثما انتقل عقلي من المنطق الأرسطوي إلى المنطق الجدلي. وقرأت الكثير عن الفلسفات الهندوكية والصينية القديمة، وهما على قدرٍ عالٍ من الغنى والتشعب، شأن الثقافات الآرامية والكنعانية والفرعونية ... وهي أقدم من الكتب الدينية، وربما أن توينبي في كتابه الشهير «تاريخ البشرية» هو أول أوروبي ينفتح على الثقافات الشرقية واللاتينية ولا يحصر الفلسفة في أوروبا فيتجاوز، بهذا القدر أو ذاك، «المركزانية الأوروبية».

ولكنني اهتممت جداً بالأفكار النهضوية الأوروبية التي مهدت للثورة البرجوازية منذ قرنين أو ثلاثة، سيما أن الكثير منها لم ينفك يحتفظ براهنيته، ويجيب جزئياً عن بعض أسئلة الواقع العربي. لاحظت كيف سقطت الحكومات الثيوقراطية- الدينية والنظام الإقطاعي بعد مئات السنين من الحكم دون قدرة على إنتاج مدينة معاصرة وطبقاتها ومؤسساتها وعلومها، وبالتالي ولادة دول قومية أطاحت بالإمارات والمقاطعات في سلطة واحدة وسوق واحدة وعملة واحدة وأنظمة ديمقراطية لها سلطتها التشريعية التي ينتخبها الشعب وتسن القوانين، بديلاً لرجال الدين مع استمرار الدين كمسألة ضميرية في الوعي الاجتماعي.

لقد حلت المواطنة المتساوية أمام القانون دون تمييز ديني أو جنسي، ولاحقاً اشتركت المرأة في الانتخابات ... بما صاحب ذلك من قفزة في قوى الإنتاج والتعليم. وعبرت هذه المرحلة عن ثورة عارمة صنعها البشر بإرادتهم وعقولهم، وبالتالي علينا أن نصنع ثورة.

كنت قد قرأت عن النهضويين العرب في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، الكواكبي، الأفغاني، محمد عبده، سلامة موسى، شميل .. ولكن مأساتهم أن أفكارهم التجديدية بقيت دون حامل اجتماعي- سياسي لإطاحة الأنظمة البالية ومنظوراتها المتخلفة، فبقيت في المتحف، بل إن الكثير من هذه الأفكار لم تفقد راهنيتها كالوحدة العربية والمواطنة وحق الاختيار والعقل والنقل والحرية والمساواة...

لفتني ما قاله هوبز عن العقد الاجتماعي بين الناس، واعتبرته دعوة لعقد اجتماعي بين رفقاء النضال والشعب بما يتطلبه من انسجام متبادل وإنجاز جماعي وعدم التفريط بحقوق الجماعة.

وكتب روسو عن الإرادة العامة، ليس في حدود الإرادة الانتخابية وتشريع القوانين فقط، بل تفعيل الإرادة الشعبية في نضال ضروس ضد المحتل. كما تفعيل الطاقة الحزبية لجميع الأعضاء في نضال مشترك ضمن (الضمير الجمعي) لينين، وما قاله مونتسيكيو عن قدرة البشر على إحراز التقدم استناداً للعقل والتضحية بالأنانية من أجل الصالح العام ودعوته لتحريم البذخ وتوزيع الثروات بعدالة وفصل السلطات ... الخ.

هذا جعلني أُعيد الاعتبار لدور الإرادة الواعية، ولا أبالغ في تقدير الظرف الموضوعي وتبرير الأخطاء

والإخفاقات، إذ علينا أن نعمل بصورة أفضل (تشديد التطلب) لينين، أما عن البذخ وتوزيع الثروات بعدالة، فقد قرأت عن اجتهادات علي بن أبي طالب والقرامطة ومن قبل ثورة سبارتاكوس في روما، أما الرؤية الاشتراكية في الزمن المعاصر فهي لماركس...

ووجدت في كلمات غرامشي عن مثقف الخير العام، تطويراً لكلمات مونتسيكيو... ولكن لفتتني إدانة الأخير للمال السياسي وبيع الضمير بالمال، الأمر الذي كان له بدايات في الأوساط الفلسطينية، بل تعاظمت هذه البدايات في السبعينات والثمانينات وبعدئذ لكنني خلصت إلى أن الثوري يختار المبادئ لا المال وهو لا يرتهن للمال مهما كان السبب. فالجماعة الثورية تسقط ما لم تستقل مالياً...

والعقلانية والمواطنة والقانون وسلطة القضاء والفصل بين السلطات، كان لهذه المقولات وسواها الدور الناظم للمجتمعات المعاصرة، بل قبل أن تتحرر وتستقل فلسطين انخرطت القيادة الفلسطينية في مسار أوسلو الذي نتج عنه فيما نتج تراكيب سلطوية وأوضاع باتت تستدعي بإلحاح هذه المقولات.

ولأن الإسلام السياسي انغمس في الخيار المقاوم انحازت له قطاعات شعبية واسعة، لقد ملأ الفراغ الذي خلفته منظمة التحرير، بفصائلها، فأصبح يشكل نصف الخارطة السياسية بمنظوراته التي لا تتفق مع تلكم المقولات.

لقد تقهقر الخطاب الفكري المعاصر في الساحة الفلسطينية سواء كان يسارياً أو قومياً أو ليبرالياً في مرحلة أوسلو، ارتباطاً بتفكك وتقزّم اليسار وغياب قياداته من جهة، والتحولات اليمينية على فتح وصولاً إلى انخراطها في المشروع الأمريكي من جهة ثانية، أما التيار الليبرالي فهو لم يكن قوة منظمة في فلسطين، مجرد أصوات ونخب هي في معظمها لم تنخرط في مسيرة المقاومة، فضلاً عن المبهورين فيما تروجه وسائل الإعلام الغربية الرأسمالية، وبعض النافذين المتكسبين من المنظمات غير الحكومية.

ودون استرسال، كان لمسيرتي الفكرية بصماتها الدامغة على وعي الجبهة، نظراً لما أنيط بي من مهام واسعة على هذا الصعيد، سيما في سنوات انتظام الإصدارات الداخلية والإعلام الخارجي.)

أما قيادي آخر فقال (تطلب مني أن أعود عشرات السنوات للوراء، إلى مرحلة التأسيس بما فيها من سحر الأسئلة وسحر الأجوبة وسحر الاكتشاف والتجريب والتعليم...

لن أتحدث عن فترة ما قبل التجربة الحزبية، أي مرحلة العمل الفدائي ومحاولات البناء التنظيمي التي جرت تصفيتها عام ١٩٧٦، فغيري أفضل مني.

أعترف أنني اصطدمت بأسئلة جدية حينذاك. لماذا أخفقت، أو على الأقل جرى تصفية محاولات العمل الفدائي في الوطن المحتل؟ ولماذا جرى تصفية التجربة المركزية تحت ضربات التعذيب عام ٩٧٦؟

كان الجواب الأولي:

١- الروح التضحوية والدافع الوطني لا يكفيان لنجاح العمل الثوري.

٢- دون مهارة في تحصين البناء التنظيمي لن يصمد أمام الامتحانات الجدية.

٣- دون تفولذ القيادة لن تقوى على حماية التجربة.

وهذا كله يتطلب مزايا قيادية تتمتع بقدرة على البناء الصلب والتعبئة الأيديولوجية، وخط سليم يفهم الخاص، ومهارة تكتيكية لا تعوزها إرادة الإنجاز، فدون إنجاز كل شيء هراء وبلالين منفوخة بالهواء وشعارات بلاغية اعتبرها كريم مروة أحد أسباب فشل حركة التحرير العربية...

وجدت نفسي أبدأ من الصفر، فليس ثمة امتدادات أو نويات تنظيمية في الوطن وليس ثمة مرجعيات يمكن أن تعبئ وتوجه، ولا إمكانات جاهزة لطباعة بيان أو أية مهمة ميدانية، ناهيكم عن أنه لا يوجد مهارة كافية لكتابة بيان أو تعميم أو تحليل أو أو...

قلت لأذهب للبدايات:

كيف أفهم الفكر اليساري؟

كيف أفهم السياسة في الأرض المحتلة؟

كيف أبدؤ بتأسيس الخلية الأولى؟

كيف أبدؤ بتنظيم مناشطة ميدانية؟

كيف أؤمن بيتا سرياً؟

كيف أؤمن مبلغاً مالياً من ٥٠٠ دولار؟

كيف أبني كادراً؟

وعشرات الأسئلة الأخرى التي تتصل بمخاض الولادة.

كان لي اهتمامات فكرية وقراءات متنوعة ومحاولات كتابية وتحرير نشرات، غير أن روحي كانت قريبة إلى مناخات العمل الفدائي، مبهوراً بشخصية جيفارا ومؤلفاته، والثورة الجزائرية والثورة الفيتنامية، وكنت قد قرأت وشرحت بعض مؤلفات لينين سيما "ما العمل" و"خطوة للأمام وخطوتان للوراء" و"الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" و"خطتا الاشتراكية الديمقراطية" وسواها...

لقد أكسبني ذلك غريزة، غريزة البقاء السياسية، أما غريزة البقاء البيولوجية فهي موجودة. أي يتوجب أن أبقى في المعمعان لتأدية الدور السياسي، واكتسبت نزعة البحث عن أفكار واستنباط أفكار ملموسة لها صلة

بالعمل، فليس ثمة أفكار جاهزة، والتصميم على النجاح، فالنجاح يمنح الفرصة للانتقال للخطوة التالية والثالثة وصقل السمات الكادرية، أما الفشل فهو يهدم البدايات ويرسل الجميع للسجن...

لقد تعلمت في أتون الممارسة كيف أتفادى فخاخ المخابرات وكيف أصمد إذا اعتقلت، وكيف أكتب أول بيان وأول نشرة وكيف أصطفي الأعضاء الجدد، وكيف وكيف، مئات الكيفات... ورحت أتكون والتجربة تتكون، يسندها الذين يتحررون من جدران السجن. والتشديد كان على السرية والصلابة الأمنية سيما في أقبية التحقيق مستفيدين من صمود وانهيارات من سبقنا.

لقد أعجبتني صرامة داود بصرف النظر عن تحليلي لرواية التوراة، وحوارية ولطف عيسى وثورية وطموح محمد، وانفتاح الفلسفة الإغريقية وعلمانيتها، وإرادة جنكيزخان الذي أقام أوسع إمبراطورية في التاريخ وبدايته توحيد عشرات القبائل المتنافرة، وانتصار فيتنام الفلاحين على أمريكا الرأسمالية واعتماد ماو على نفسه بعد خلافه مع القيادة السوفييتية، واستخلصت من ذلك أن الإرادة الجماعية أقوى من التكنولوجيا...

وكان الحكيم يؤكد باستمرار على إرادة الانتصار.

ومنه تعلمت المعنى السلبي للديماغوجية، وضرورة الابتعاد عن الكذب والمبالغات، والإمساك بالدقة والأمانة والتعريف الصحيح للأشياء، والنفس الطويل والحس العملي بعيداً عن الأفكار المنمطة...

والحكيم يتميز بالحكمة، وأكثر دروس الحكمة نجدها في القيادة الفيتنامية، فالحكمة الفيتنامية هزمت الذكاء الأمريكي في نهاية المطاف.

وبتدرج استوعبنا كلمات جيفارا عن القائد ودوبريه عن التفاصيل، ولينين عن المتابعة، وهوتشي منَّه عن الخط السليم، ولولا هذه المفردات لما راكمنا حجراً على حجر ولما نهض صرح التنظيم في مرحلة العمل الحزبي.

تعلمنا من كل التجارب الثورية، من المعتزلة ونزعتهم العقلية، من الموحدين وشرط القيادة والتخصصات، ومن اختفاء قائد الثورة الكمبودية عشرات السنوات بما يذكرنا بقائد الحشاشين ومن قبله الفلسطيني يوحنا المعمدان.

وتعلمنا من الحزب البلشفي أهمية بناء فريق المحترفين الثوريين، والسري يقود العلني وإرساء التقاليد الحزبية...

ومن فهد العراق الذي تقاطع مع حبش فلسطين في أهمية الأدلجة والتثقيف والموقف الصلب من الصهيونية وتحرير فلسطين، ومن فرج الحلو لبنان في تربويته ولطافته ورحابة صدره، بما يتقاطع تماماً مع صفات الحكيم ...

ومن الانحياز الطبقي لعلي بن أبي طالب والقرامطة ولينين وفيديل والموقف التقدمي والتحرري للمرأة من

سلامة موسى وقاسم أمين ونوال السعداوي والفكر الاشتراكي عموماً.

وتعلمنا أن الكادر يبادر، وأن الثوري منجزات، والذي يخطئ يحاسب، والذي يفشل يتنحى، فلا شيء فوق العمل الثوري...

لقد وجد كل ذلك صداه وترجماته النسبية في عملية البناء...

بل ما أن تم الإخلال بهذه القواعد في مرحلة لاحقة تفككت الجبهة وتبخرت.)

وصرح قيادي ثالث: (كان شغلنا الشاغل تأسيس وتصليب المنظمات الحزبية. كنت أستشعر وجود تخصصات في المستويات العليا، فما أوكل لي هو بناء منظمة حزبية، بدأت خلية وتحولت رابطة على رأسها لجنة كادرية، فلا أحد يطير بأجنحة غيره، وقد تحدد لقبي التنظيمي (عضو قطاع) لأنني أقود رابطة من عشرات الأعضاء وحولهم نسيج حلقي بحجمهم أو أكثر منهم، علاوة على نشاطنا الجماهيري...

كنت أنشط في لجنة قطاعية، كل عضو فيها يقود رابطة ويقودنا عضو قيادة منطقة. وقد لاحظت أن رفيقاً قطاعياً يتولى منظمة حزبية سرية تماماً داخل الجامعة، أي لا تنشط في مجلس الطلبة ولا الإطار الديمقراطي المحيط، إنما تتولى مهام حزبية صرفة وأنشطة ميدانية لا يؤديها إلا الأعضاء الحزبيون... وخطنا التنظيمي برمته لا صلة له بالهياكل الوظيفية السياسية والإعلامية... كنا نقترح بعض الأفكار ونناقش بعض القضايا غير أن آلية اتخاذ القرار وصياغة المواقف والعلاقة مع الفصائل الأخرى هي من اختصاص لجان أخرى دون صلة مباشرة بنا.

أحياناً كان يطلب منا رفع تقييمات دقيقة عن نشطاء يتميزون بالصلابة والجرأة والروح العملية، وأحياناً تصلنا رسائل داخلية مغلقة لهذا الرفيق أو ذاك... وقد تعلمنا أن لا نسأل: ماذا ولماذا ومتى وأين... فأسئلة الصحافة الفضولية هذه لا تتماشى مع العمل السري، بل يكاد الكف الأيسر لا يعرف ما يدور في الكف الأيمن... نعرف بداهةً ما يتصل بمهامنا والموقف العام...

كان هناك منظمات قطاعية ومنظمات مهنية ومنظمات جغرافية، فثمة منظمات حزبية طالبية وأخرى في الريف أو المخيم أو امتدادات مهنية في ورشة أو مصنع... ورغم تكليفنا الدائم بتأليف حلقات نسوية عاطفة، لم أفهم أين يذهب من يصلح منها إلا بعد أن أصبحت مسؤول منطقة، فقد اكتشفت أن مسؤولنا يتولى قيادة القطاع النسوي الحزبي والجماهيري، قبل أن تقوده كادر من الرفيقات...

في المجمل كان هناك خط تنظيمي حزبي وخط حزبي جماهيري يتداخلان قيادياً وينفصلان قاعدياً، وهناك جهات تقوم بتوزيع القوى الكادرية وفق رؤية معينة، علاوة على لجان الاختصاص الوظيفية، وهذه الأخيرة لجان كادرية فحسب.

ولم أكتشف إلا في مرحلة حزبية متقدمة كيف يتوحد العمل الجماهيري والعمل الحزبي وما يتصل بهما في

الوطن المحتل.

أما أعمال المقاومة النوعية فهي منفصلة عن المنظمات السياسية، وتخضع لجهات خارجية.

كنا نتفاجأ أحياناً من بعض التداخلات التي تتكشف في زنازين التحقيق.

كان ثمة قواعد معممة، الأولى تقضي بفصل السياسي عن العسكري، والثانية تعبئة الجميع بالرؤية الشاملة للجبهة، والثالثة تشجيع المبادرة، والجمع بين هذه القواعد يحمل ايجابيات كثيرة، ولكنه كأية تركيبة متناقضة يكتوي ببعض السلبيات.

وفي الممارسة تحصل بعض التجاوزات أو المبادرات غير المحكمة أو المناقلات. فالحزب بنية وليس مجموعة أحزاب مستقلة تنظيمياً، والجبهة كانت متمايزة على هذا الصعيد، أي مستوى تطور بنيتها وخبرة كادراتها العليا وصولاً إلى التخصصات المتنوعة.

والمهام التنظيمية والجماهيرية والإعلامية والميدانية العامة تناط بالجميع دون استثناء، كل منظمة ضمن نطاق عملها، دون تمييز مهني أو جنسي أو قطاعي... يضاف لذلك بداهة المهام الخاصة المتصلة بطابع المنظمة، فثمة مهام إضافية للطلبة تتصل بالطلبة وبالعمال تتصل بالعمال وبالمرأة تتصل بالمرأة وبالمثقفين تتصل بالمثقفين...

كان يتم الجمع بين العام والخاص، وهذا مبدأ فلسفي هام له ترجماته التنظيمية والسياسية...

في بداية انتمائي الحزبي، كان يتمحور النشاط على الاستقطاب والنضال، أما التعبئة فهي محدودة. وقد تطور مفهوم الاستقطاب مع السنين فغدا بناء منظمات قاعدية وبعدها مناطقية وبعدها تزويد المناطق الأضعف بكادرات قوية، وبعدها بلورة السلسلة الكادرية، وفي سياق كل ذلك بناء الشرط القيادي.«فالقائد» المحلي هو الذي يبني «والقائد» المناطقي هو الذي يبني وصولا إلى «قائد» النشاط ومنه إلى قائد التنظيم، وهذا يتحقق في ظل تجربة مركزية مستقرة يتاح لها متسع كافٍ من الوقت.

لقد توسعت وتعمقت التعبئة الفكرية/ السياسية/ الأمنية/ كما اغتنت خبرة العمل ومهارات العمل وتشكلت السمات الكادرية، وصولا إلى انبثاق فريق المحترفين، وهذا احتاج سنوات وسنوات، بل حوالي عقدين من الزمن، الزمن بما فيه من مهام وتجارب وتضحيات...

والذي أتحدث عنه بسطور اليوم، هو في الممارسة مخاضات ومخاطرات وأحلام واعتقالات ومحاولات وجهود جماعية، فكل مفردة احتاجت لسنوات من العمل والنضال.

فجبلي لم ينتم لتنظيم قائم، بل لاسم تنظيم قيادته في الخارج أما في الداخل فعليه أن يحول الاسم لمسمى، أي لوجود وأدوات. فتأسيس خلية يحتاج لديناميكية صداقات وتعبئة وانتقاء وتأطير وتقاليد، وهذا يتطلب سنة

من النشاط المثابر، وتحويل الخلية لرابطة يحتاج لأكثر من ذلك، وكادر يتكون في رحم المكان والزمان ويجيب عن أسئلة كثيرة وتكون لديه مقدرة تربوية يحتاج للعديد من الشروط.

لم تكن المسيرة مبسطة، والخفة لا تساعد على فهمها. فأن تنتمي لتنظيم يساري في بلد تقليدي، يعني استحقاقات تتصل بالوعي والانضباط وتقاليد العمل، بل الصمود في الزنازين، أي ليس مجرد حافز وطني فقط، وإن كان الحافز الوطني هو محرك الانتماء اليساري في نهاية الأمر. فيسار لا يتعمد في لهيب النضال ضد المحتل ويدفع ثمن ذلك، ليس يساراً بل (فجل أحمر من الخارج وأبيض من الداخل) لينين.

ومنذ أواخر السبعينات تكرس خط الصمود في الزنازين، ونادراً أن انكسر كادر، أما قبلئذ فالصمود كان نادراً. ومثل هذا الصمود الجماعي لم يتحقق بطرفة عين، بل بالتربية الدؤوبة واجتراح قوة المثال، والتصليب الفكري...

ولم يتحقق إصدار صحيفة أو مجلة كضربة حظ أو من خلال أكاديميين درسوا في الجامعات، بل نتاج تراكمات وتراكمات، شأن الطفل الذي يغدو راشداً بعد مسيرة حياة، يعيش التجربة بنفسه ويكتسب الخبرة بنفسه...

إن عدد المرات التي تعرضنا فيها للضربات الاعتقالية لا تحصى، إنها بالمئات، وفي مرات عديدة كانت تصفوية تجرف الامتدادات التنظيمية عن آخرها، ورغم تزايد أعدادها في الثمانينات غير أن حجمها تقلص نتيجة صمود الكادرات والكثير من النشطاء.

لكن الضربات بعد عام ١٩٨٢ لم تعد تصفوية مهما كان حجمها، فقد اشتد ساعد التنظيم واتسعت صفوفه. وعلى سبيل المثال جرى اعتقال حوالي ٦٠٠ عام ١٩٨٥ ونحو ألفين عام ٨٨-١٩٨٩ غير أن ذلك لم يقصم ظهر التنظيم ولم يهشم هيكله العظمي، رغم الأضرار الموجعة والخسائر القاسية خصوصاً أنها أصابت بعض المفاصل والمستويات الكادرية.

وبتوافر الشرط القيادي على مستوى الوطن وأفواج من كادرات الصف الثاني في مختلف المناطق والدوائر واللجان، إنما توافرت قوة الضخ التي تكفل انتظام الآلية والمتابعة كشرطين حاسمين لاستمرار العمل وترميم الثغرات، فما أن ينتزع مفصل يحل آخر وما أن تزاح لجنة تتشكل أخرى على أساس «العمل المتكلم» والإنجاز والتجاوب مع المهمات، بصرف النظر عن الألقاب الرسمية.

لم تحصل أخطاء فكرية – سياسية تهدد المسيرة كما لم تحصل اختناقات مالية، بل تمايزنا في التحليل والتكتيك، كما أن سياسة التقشف المالي سمحت لميزانيات متواضعة بتغطية أنشطة واسعة.

ولا أملك معلومات وافية عن السياسة المالية وحجم المتفرغين، وغيري يجيب أفضل مني، ولكن الذي أعرفه أن نسبة التفرغ لم تزد عن ٣٪ ومبلغ التفرغ كان ينحصر في ثلثي ما تنص عليه اللائحة المالية وتتراوح بين

٢٠٠-٣٠٠ دولار، وآحاد فقط وصل تفرغهم ٤٠٠ دولار، دون الأخذ بالامتيازات العلاجية والمكتبية المعمول بها في الخارج.

كان تقديرنا أن متوسط دخل العامل الفلسطيني في فترة الثمانينات نحو ٢٠٠ دينار، وتفرغاتنا تعادل ذلك، لهذا كان المتفرغون فقراء في مجملهم. وهذا طبيعي.)

وقيادي آخر أضاف (أستطيع الإضافة إلى إجابة رفيقي ما يلي :

صحيح أن فريقاً واسعاً من الكادرات تميز بملكة فكرية، غير أن المنظّر الذي لمع اسمه في الإنتاج الداخلي وأنتج أكثر من سواه هو رفيق واحد، رغم وجود إسهامات من رفاق آخرين. وأظن أن الحال كانت كذلك في الخارج.

والتهمت سنوات الاعتقال الطويلة أعداداً من الكفاءات التي حاصرتها جدران السجن، فلم تتح لها فرصة التفاعل الحي مع قضايا المجتمع وتحولاته، ولولا عوامل مجافية عديدة لأمكن أن نرى مؤلفات ومقاربات عميقة وذكية مطرزاً عليها أسماء يعقوب دواني وربحي حداد وعدنان منصور وعطا الله أبو غطاس وفتحي البواب ومحمود الغرباوي...

وستنطلق إضافتي من زاوية الهوية الثقافية، التي فهمتها كائناً حياً وصيرورة، شأن الواقع الاجتماعي ومكوناته. وهويتنا الفكرية بدأت قومية وانتقلت إلى مواقع الماركسية- اللينينة في إطار قومي يتمثل الخصوصية الوطنية. وشخصياً قرأت مبكراً شذرات من الهوية الثقافية لشعوب المنطقة ما قبل الديانات، وقد لاحظت منشأ الأفكار ارتباطاً بالجغرافيا والتاريخ، فالديموغرافيا ووعيها الاجتماعي إنما يتواشجان مع شروط المكان والزمان.

وفي ثقافتنا العربية اليوم نجد عناصر من الثقافة الكنعانية والآرامية والآشورية والفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية ... وإقليم فلسطين بصرف النظر عن حدوده السياسية التي تحركت مرات، وعلى الأقل وجوده الاجتماعي، إنما تعرض لغزوات دامت آلاف السنين، من قبل قوى وإمبراطوريات، كلها تركت بصماتها على هويته الثقافية ومعتقداته....فلسطين جسر العبور إلى شمال إفريقيا والمشرق العربي، فمن يأتي من مصر إلى المشرق العربي يعبر الجسر، ومن يأتي من العراق وبلاد فارس يعبر الجسر إلى مصر وإفريقيا، وهذه حال الإغريق الذين سيطروا على الإقليم بعد سيطرتهم على أوروبا، ومن بعدهم الرومان، وصولاً إلى الفتح العربي الإسلامي. فالجغرافيا الفلسطينية لم تكن ممراً فقط، بل مستقراً لهذه الغزوات التي استمر بعضها قرنين أو ثلاثة أو ستة أو ألف سنة، أي عشرات وعشرات الأجيال، الأمر الذي ترك تأثيراته على فلسطين وثقافتها وهويتها، وشيء يقترب من المعجزة أننا لم نندثر، بما يعكس قدرة عجيبة على التأقلم. وهذا ألاحظه اليوم في قرية على رأس تل لم تصلها المياه « المركزية »، فتجد حلاً بحفر آبار تعتمد على أمطار السماء أو تنقل المياه من ينابيع بعيدة، وفي عجائز ورجال يجمعون المريمية من الجبال أو الحلزون من الشقوق الصخرية الرطبة في بلاد

تفتقر للرطوبة، أو حبات التين، يبيعون ذلك في المدينة بما يكفل بعض المال، حواجز الاحتلال التي تغلق طرق المواصلات المعبدة إلى عشرات القرى، فيعثر الناس على ممرات ترابية بين الروابي والجبال ... إنها قوة الحياة.

ورابين حين توعد الانتفاضة بالقضاء عليها في غضون أيام، إنما استمرت سنوات، فهو لم يفهم قدرتنا على الصمود والحياة، وأية قيادة فلسطينية تصاب بالوهن وترفع رايات الاستسلام إنما تفرط بأحد أهم أسلحتنا، قدرة الشعب على الاصطبار والصمود.

وكثوري أفنى معظم سنوات عمره في العمل الثوري دون أية منافع شخصية، بل إنني أكدح لكي أعيش، لا يهمني كثيراً بعض الجوانب الفلسفية التي تتصل بنشأة الكون والحياة، وكيف يتطور هذا الكون وكيف يزول، اتصالاً بما تعلمته في المدرسة من رؤية غيبية، فإنني أنحاز بداهةً للعلم، ولقدرة البشر على صنع تاريخهم، وأكثر ما يشغلني أن يتحرر شعبي والإنسان عموماً والحرية وحق الاختيار والعدالة. وأن الذي أفرد المساحات الكبيرة لنقض الدين ونقده هو الفكر التنويري والثورة الرأسمالية، أما الرؤية الاشتراكية فقد استندت لما سبقها ولم تعتبر الدين هدفاً للنقد...

وهي تنظر له كجزء من التراث الإنساني، وكل التراث الإنساني إنما يخضع للتمحيص والتقييم، بناءً على الحساب الأخلاقي العملي، أي انعكاساته ونتائجه على البشر، والبشر عادةً ينتجون منظومات متجددة لمعالجة قضاياهم ...

وأي معتقد في نهاية الأمر هو مسألة ضميرية.

وكانت لي إطلالات مبكرة على بعض المعتقدات القديمة حيث عبدت شعوب تلك المرحلة آلهة متعددة وصولاً إلى عبادة الرب الأنثى سواء عشتروت أوآيزيس أو نانا ... وتوصف هذه الإلاهات بصفات القدرة وخلق الكون والحكمة...

وهذه الأيام ثمة مراجع عديدة مدعومة بعلم الآثار والوثائق ... أما في بدايات الشباب فلم يتوافر سوى النزر اليسير.

والاعتقاد السائد أن الفراعنة هم الذين ابتكروا التحنيط ما قبل أخناتون وايمانه بآتون إله الآلهة، ولكن ثمة اكتشافات في فلسطين عمرها سبعة آلاف عام عن أجسام محنطة، بما يحمل على الاعتقاد بالعودة للحياة بعد الموت. طبعاً هذا لا يبلغ التصور الديني، ذلك أن البشر قبلئذ لم يعرفوا دفن الموتى، فهذا السلوك البشري عمره بضعة آلاف من السنين فقط، بعدما قال الناس إن الروح تسكن باطن الأرض بعد الموت مما اقتضى دفن الجسد لكي تعود له الروح.

واعتبر الملك الفرعوني أنه ابن الآلهة وقد تجمعت في يديه السلطة السياسية والسلطة الدينية، وشيءٌ من هذا القبيل انتشر لدى الآشوريين، بل لحاكمهم صلة بالآلهة، ونعثر على تشابه في الثقافة اليابانية والإمبراطور

بما يتقاطع جزئياً مع النظرات الدينية. وأذكر ما كتبته الدكتورة سلمى الخنساء (بأن قوانين حمورابي هي هدية تلقاها من الآلهة) ... أما زرادشت فدعا للتخلص من الخطأ عن طريق المعرفة وإلى التعاون لتغيير الأوضاع الفاسدة وقال بالخير والشر ... وبوذا اعتبر جميع الناس سواسية، قبل الثورة الفرنسية ورفاعة الطهطاوي، وكنفوشيوس الذي مجّد الإمبراطور كمصدر لتوازن المجتمع رفض توارث الحكم...

وما أكثر الإشارات للملائكة والشياطين والعفاريت وتقاليد الزواج والموت والعبادات في الثقافة الآرامية والكنعانية...

ومعروفةٌ ظاهرة السبي وتعدد الزوجات واتصال ذلك بالحروب والملكية الخاصة والاستئثار، أما اليوم فللأسير حقوق ولم تعد الاحتلالات تسبي النساء، وظاهرة تعدد الزوجات إلى اندثار، حتى في مجتمعنا البسيط التقليدي فهي لا تزيد عن ٥٪ أما العائلة التي تعولها إمرأة فـ ٩٪، والفلسفة الإغريقية أسست الكثير من المقولات الهامة في دعوتها للفضيلة وأولوية الدولة وضرورة القوانين الناظمة استناداً إلى العقل، من إضافات سقراط وأفلاطون وأرسطو، مروراً بشكل من أشكال المشاركة والديمقراطية، وربما يستغرب البعض حين يعلم أن أفلاطون هو أول من دعا لاقتصاد جماعي وحرمان أهل الحكم من الملكية الخاصة كيلا تفسدهم وتشغلهم كما منعهم من تشكيل عائلة لنفس السبب، بينما أرسطو نقد الحكومة الأرستقراطية والأوليجاركية التي تتحكم فيها الأقلية، وآثر الحكومة الدستورية ودعا إلى إعادة توزيع الثروات لتأمين استقرار سياسي... كل ذلك قبل ماركس بألفي عام...

أما شيشرون الروماني فدعا للمساواة بين الناس استناداً لقانون الطبيعة، قبل الثورة الفرنسية بألفي عام تقريباً... والقديس أوغسطين دعا لدولة دينية ثيوقراطية يحكمها رجال الدين.... أما القرامطة العرب فجمعوا عناصر من أفلاطون وأرسطو والمعتزلة...

والاسترسال هنا غير ضروري، فالأشد أهمية هي قضايا العصر الكبرى، وبالتالي قضايا الأمة العربية: ١. المسألة التنموية، ٢. المسألة القومية وتحرير فلسطين والعراق والأجزاء العربية الأخرى، ٣. المسألة الطبقية، ٤. المرأة وتحريرها ومساواتها ومشاركتها، ٥. الحريات وحقوق الإنسان والديمقراطية بمفهومها السياسي والاجتماعي...

وبالتالي فأي فكر إنما يقف أمام هذه التحديات، وعليه أن يثبت مقدرة على معالجتها نظرياً وعملياً...

فهل يشك أحد بأن لدى الصين، مثلاً، مشروعاً تنموياً ناجحاً، وهل يشك أحد بأن فرنسا قد نجحت قبل قرنين ويزيد في توحيد مقاطعاتها في دولة قومية وسوق مشتركة...، وهل يشك أحد بحقوق العاملين وتقليص الفوارق الطبقية وتوزيع الثروات على نحو معقول في فيتنام وكوبا والدول الاسكندنافية والخطوات الجريئة في فنزويلا...

ومكاسب المرأة وما أنجزته والدور الذي تؤديه في بلدان عديدة، وهذه حال الحريات وحقوق الإنسان

والديمقراطية. أي ليتقدم كل فكر برؤيته، سواء كان دينياً أو يسارياً أو برجوازياً قومياً أو ليبرالياً أو أية توليفات أخرى... لا يمكن التصدي لهذه الموضوعات الكبرى، وهي موضوعات تواجه العرب منذ قرنين أو أكثر، مع حجر الفكر على الناس، فالبشر في كل مكان قدحوا زناد تفكيرهم وساروا في طريقهم.

والمسألة تتطلب أول ما تتطلب، كما كتب الدكتور عادل ضاهر، إطلاق طاقات العقل وعدم تقييده بمرجعيات تصادره وتحد من إبداعيته. فالتحرر من سيطرة الكنيسة على العقل والسياسة أطلق طاقات أوروبا وسواها، أي ما يسمى العلمانية، وإن لم يكن دور الدين في المنطقة العربية تاريخياً كما حاله في أوروبا. فالدين في تاريخنا كان حاملاً ومحمولاً، وهو ركن ركين في الوعي الشعبي، ولكن كيف يحضر في السياسة اليوم، أو كيف تفهمه الحركات السياسية/ الدينية؟ ثمة فارق هائل بين تجربة حزب الله وتجربة الإخوان المسلمين في سوريا على سبيل المثال، «وإسلام النفط» حسب تعبير جابر عصفور شيء، وإسلام المقاومة شيء آخر، وإسلام يبني تنمية إنتاجية وإنساناً مستقبلياً شيء ويبدد الثروات على نزعة استهلاكية منفلتة شيء آخر. وإسلام حداثي بلغة محمد أراكون شيء وإسلام ماضوي سلفي شيء آخر... مستنداً إلى كتاب ابن رشد (فصل المقال ما بين الحكمة والشريعة).

إنني أسوة بمن جايلوني إنخرطنا في المسيرة التحررية بدافعية مبدئية، حلمنا الأول والأخير تحرير الشعب والوطن في انتماء جذري للأمة وهويتها ومركباتها، قد أصطدمنا بحقيقة ممّضة بأن استحقاقات وشعارات ومقولات النهضويين العرب منذ قرن ويزيد لم تنفك قائمة.

لقد كانت هذه المقولات والشعارات جزءاً من ثقافتي حين كت في بداية العشرينات، وقام الدكتور ماهر الشريف بنبش جذورها وتبويبها على نحو ممتاز في مؤلفه (رهانات النهضة في الفكر العربي).

إذ لا زلنا أمام الإشكالية التي أثارها محمد عبده عن علاقة الدين بالعقل، الإسلام بالعلم وضرورة الاجتهاد والثورة، العلاقة بين العرب والغرب كما أثارها بطرس البستاني، دور الثقافة والمثقفين، بل «أزمة المثقفين العرب» بلغة عبد الله العروي، بما يحيلنا إلى رفاعة الطهطاوي ودعوته للعلم والتربية السياسية، بل لقد تعاطى القائد السياسي أحمد عرابي بانفتاح وتفاعل مع المثقف محمد عبده والمثقف النديم على خلاف الكثير من القيادات السياسية العربية والدولة التسلطية. وأطروحة قاسم أمين عن إشكالية التراث والمعاصرة، ودعوته التحريرية للمرأة، وإشكالية العلاقة بين الإسلام والعروبة التي تطرق لها عبد الرحمن الكواكبي وصولاً إلى دعوته لفصل الدين عن الدولة، ووحدة العرب وإصلاح السياسة والدين ورفض الاستبداد، وسلامة موسى بمشروعه الفكري وبذرته التطورية المبنية على التناقض، والفيلسوف جمال الدين الأفغاني الذي أقر بالنزاع بين البحث الحر والعقيدة، داعياً إلى إسلام عقلاني ... إلخ

أما عن المرحلة الرأسمالية وإنجازاتها والتي بدات في أوروبا، وامتدت عالمياً، فثمة إضاءات كافية في متن الرسالة، والتناقض الأساس معها طبقياً حيث تسيطر احتكاراتها على الاقتصاد العالمي فتستغل الشغيلة من جهة وتنهب ثروات الشعوب وتسد الطريق أمام تطورهم من جهة أخرى، فهل يصدّقن أحد أن مئات الأشخاص يسيطرون على ٧٠٪ من السوق العالمية بيدهم قرار السلم والحرب والبذخ والجوع، حيث أكثر من مليار جائع

وأكثر منهم دون مياه صالحة للشرب! ناهيكم عن تبديد مبالغ طائلة على تجارة السلاح والتسابق على السلاح التي يفيد منها أول ما يفيد أصحاب الاحتكارات فيما يموت جرّاءها الفقراء والشغيلة.

ولا أنسى التنويه، أننا قرأنا بعض نظريات علم النفس من _بافلوف وعلم النفس المادي إلى المدرسة الكشطالية التي تربط الجزء بالكل، مروراً بالمدرسة التبادليةعن ارتباط التفكير والسلوك بالبيئة الاجتماعية وتشعباتها، والمدرسة العقلية التي تفترض ايجابية الإنسان وقدرته على تخطي عيوبه، وقرأنا فرويد ونظريته الاختزالية للحوافز والليبدو وتأثيرات الكبت، والمدرسة السلوكية ... إلخ

وكان علينا فهم دور واحتياجات وعواطف الناس وميولهم وتأثيرات ذلك فيما يسمى (علم النفس السياسي) واسقاطات الخلفية النفسية على سلوك القادة والناس عموماً.

مثلما درسنا في ميادين الإنثروبولوجيا والقانون والتاريخ وعلم الاجتماع لما لذلك من ارتباطات بعلم السياسة والتنظيم والنضال... ولكننا على الدوام بقينا مشدودين لعبارة ماركس (إذا كانت الظروف هي التي تصنع الإنسان علينا أن نصنع ظروفاً إنسانية) من خلال الثورة.

- الملحق رقم ١٥ -

أوراق متناثرة- ردود على تساؤلات

س١: هل كانت الجبهة منعطفا نوعيا في المسيرة الفلسطينية.

ينبغي الاعتراف ان النضال التحرري لم ينتصر، وان المجتمع لم ينتقل للحداثة، وان البعد القومي للنضال هو اقرب للشعار منه للحاضنة العربية... اما الارض فلم نمنع الاحتلال من مصادرتها... وبالتالي، يجوز القول إن الجبهة ولادة نوعية اسهمت في اطلاق الوثبة النضالية المعاصرة التي راكمت وحافظت على حالة الاشتباك مع المشروع الصهيوني، وبطبيعة الحال بنت أداة لها وزن رئيسي في الخارطة السياسية الفلسطينية، ليست اقل من ١٨٪، ونسبتها في الداخل اعلى وفي الخارج ادنى من ذلك، وقاعدتها المنظمة الجماهيرية ممتدة جنباً الى جنب مع امتداداتها الحزبية في عموم الوطن... وخاضت النضال بشتى صورة وصولا للانتفاضة الشعبية، وانتجت بعض الفكر وبعض الإبداع الفني والأدبي، وكوادرها يحظون باحترام شعبي وسمعة مالية لا تضاهيها سمعة نقاء ونظافة، وهي ليست مجرد تنظيم بل تيار شعبي يحيط بها أيضاً.

ولم تتنازل سياسياً وأحكمت قبضتها على الأهداف المرحلية والاستراتيجية دون نكوص.

ومسيرتها حافلة باضاءات مميزة وسباقة، منها ادخال التثقيف والانتظام للحركة الاسيرة في سنواتها الاولى، والنشر الواسع للفكر العقلاني بارقى صوره النقدية، الفكر الماركسي- اللينيني، دون المساس بروحه الثورية او بالموقف اللينيني من المسألة اليهودية والحركة الصهيونية، والتميّز على صعيد العمل السري في الوطن والصمود في أقبية التحقيق، ولها شركاء في ذلك، ولكنها تمايزت، ناهيكم عن توافر قيادات ثورية مرموقة.

بعد سنوات، وفي الزنازين رمت المخابرات شباكها «أنتم لستم جيوشا جرارة ولكنكم اخطر وتعملون ما تقررون دون تاثر من أحد... أنتم أذكى وتفوقتم سنوات وضحكتم علينا... إن قيادة الجبهة في الداخل... ما نريده من مؤتمركم بند واحد: الكفاح المسلح... استبدلوه بعبارة جميع أشكال النضال ونزيل كل العوائق من طريقكم ونعيد خمسة آلاف من الخارج ونفتح كل الصحف التي أغلقناها ونعيد كل مبلغ صادرناه منكم...»

ومع آخر قالت «توصلنا لسلام مع فتح ولكننا لم نصل لسلام مع الشعب الفلسطيني، نريد اتفاقا مع الجبهة الشعبية... نوقف التعذيب ونطلق سراحك ونسمح لك بالسفر للشام للاجتماع بالحكيم، نريد سلاما معكم...»

ومع ثالث قالت «انشطوا فوق الطاولة كما الآخرين ولن نعترض طريقكم، فقط ابتعدوا عن الحديد».

ولكن هذه المساومات لم تجد آذانا صاغية كمؤشر على عمق القناعات الوطنية والأيديولوجية.

س ٢: هل مسيرتنا قادرة على إعادة صياغة الأفراد والأفكار؟

من المفيد التذكير بمايلي:

كلمة ماركس الشهيرة «إذا كانت الظروف هي التي تصنع الانسان فعلينا أن نصنع ظروفاً إنسانية» أي أن الظروف قادرة، وعملنا الثوري، بلا شك، عامل كبير بالظروف، وعي جديد، قيم جديدة، مهمات، علاقات، أجواء، أحلام... ليتذكر كل واحد فينا أين كان وأين أصبح، ولنتذكر الدور التغييري الذي نقوم به في المجتمع...

بل إن ماركس يتحدث عن البراكسيس، أي عملية فعل وانفعال، تأثير وتأثر، ففي غمرة العمل، الناس يغيرون الواقع ويغيرون أنفسهم. ولكن هذا ليس بالمسألة البسيطة أو الأوتوماتيكية.، وإنما يشار لروحها وحسب. ولنتذكر كلمات كاسترو كيف تعلم وأصبح ماركسياً في الجبل، أي في السييرا مايسترا، بلا شك أن حياة العصابات في الأدغال بما يصاحبها من تدريبات وقتال وجماعية وتقشف والتحام بالقضية وتثقيف... هي الأسرع في إعادة صياغة المقاتلين وتفكيرهم...

أما فرويد، وإن قامت نظرياته على الليبدو واللاوعي، فقد أشار أيضاً إلى أن الفرد ما أن ينخرط في جماعة حتى يكتسب سمات خاصة لم تكن موجودة لديه، أو أنها موجودة ولكنه لا يبوح بها...

وصولاً إلى كلمات غوستاف لوبون عن دور القائد المحرّك للجمهور، وأن التحريض يذوّب الفرد في الجماعة، بصرف النظر عن آرائه حول لاعقلانية الجمهور ومحدودية أو لا جدوى التفكير النقدي في إقناع الجمهور...

فالمهم هنا هو القدرة على التأثير في الجمهور وتماهي الفرد، بما يصاحبه من تحولات، في شخصية الجماعة...

وهذه الآراء كلها تأسيسية لعلم النفس الذي قفز قفزات هائلة في القرن الأخير... وما يهمنا هو القول.

علينا المثابرة في تعبئة عناصرنا برؤية نقدية ثورية، وليس مجرد تهييج عاطفي، كما ينصح لوبون، وتلاحظون أن الحكيم كأبرز قائد قد لعب الدور الأساس في صياغة الاستراتيجية السياسية والتنظيمية التي أقرت عام ٦٩... بما كان لها من تأثيرات على إرساء الحزب على سكة العقلانية الثورية... وما تلاها من تقارير...

وخطاباته الجماهيرية أيضاً، تحتوي دائماً تحليلات ومواقف ومعطيات عقلانية ترفع من مستوى الوعي الجماهيري وتؤثر فيه باتجاهات معينة...

هذا نموذج للدور المنوط بنا، إذ لن نضيف شيئاً للتاريخ والوعي إذا اقتصر دورنا على التهييج الشعبوي، أو دعونا نقول، لنترك لسوانا هذا الدور، مع الأسف.

إذا لم يرتبط النضال الفلسطيني، بثقافة وطنية مسؤولة، قولوا على هذا النضال السلام، وإلا كيف نفسر قصف قواعدنا عام ٧٧ في لبنان، وكيف نفسر اقتتال فتح – فتح والآخرين في البقاع وطرابلس...

لنتذكر أن الحكيم منذ عام ٦٩ رفض ضرب انشقاق حواتمة المدعوم من فتح والصاعقة/ سوريا وبقدر ما السوفييت، لقد رفض إنهاء هذه الظاهرة بقوة السلاح.... هذه مسألة ثقافية، كما أن حسم التناقضات في معسكر الثورة بالسلاح هي مسألة ثقافية أيضاً...

إن كاتب السطور، شخصياً، رأى بأم العين، في سجون الاحتلال، قبيل نحو عشرين عاماً، حجم الغباء والدموية في حل التناقضات الداخلية، لقد تعرضنا للعدوان، واحد آثاره على وجه عضو المكتب السياسي ربحي حداد، كما تفجر العنف داخل صفوف فتح... فعدد من مسؤوليها عوقبوا جسدياً من قبل فتح نفسها في سجن السبع... ولولا حنكة قياديين بارزين من الشعبية وفتح، بشير الخيري وبسيسو، لسال الدم...

إنظروا أيضاً كيف تصرف قائد ميداني مرموق لفتح هو علي أبو طوق في مخيمات بيروت، حيث تم توحيد الموقف الفلسطيني للدفاع عن المخيمات وبندقيتها، بينما قيادات أخرى زجت العمل الفلسطيني في بحر من الدماء في البقاع والبداوي... هذه مسألة ثقافية – سياسية أيضاً...

المهم، كل شيء في وحدة تناقضية، من ناحية المنظور الفلسفي الديالكتيكي... فثمة صوابية ما في فرضيات فرويد ولوبون، وبطبيعة الحال ثمة نقص ما في منظور ماركس... إذ لا يوجد نظرية مطلقة، كاملة الأوصاف...

بما يوجب علينا القول... نعم للظروف تأثيرها، وهذا هو العامل الأهم، ولكن للأفراد سماتهم، وللجينات تأثيرها، كما للتربية البيتية في سن الطفولة... ولكن على الدوام إن السبب الأساس في حركة التاريخ هو الاقتصاد هذا بوجه عام، وهو ليس السبب الوحيد بكل تأكيد.

كل ذلك للقول، سنواصل مشروعنا التغييري والتعبوي، ولكن علينا أن نبدع أكثر على كل الصعد... بإنتاج فن أفضل وثقافة أرقى، وتحليلات سياسية أصوب، وتلاحم أعمق بالجماهير، ونضالات أبعد مدى، فالفكر يحدد والسياسة تحسم...

ومن المفيد هنا إعادة قراءة فرانز فانون وبول فريري... كما التجربة البلشفية من زاوية قدرتها على التغيير الثوري...

فمشروعنا هو تحرري تغييري وليس حفظ ما كتبه لينين أو ماركس أو جيفارا أو الحكيم... فالقيمة الأولى لهؤلاء القادة الكبار هو مساهمتهم ومساهمات رؤاهم في صنع الثورة وتحرير الإنسان من جميع الاستلابات... بل والإضافة إليهم أيضاً. فالحياة لا تتوقف، فهي شجرة خضراء أما النظريات فهي رمادية، ويتعين نقدها والإضافة إليها... ولكن علينا أن نتمثلها أولاً... وهذا ما نفعله بانتظام ونعبئ به بتواتر، لبناء حزب ثوري صورته المصغرة عضو ثوري...

أي أننا ننطلق من قدرتنا على التغيير، تغيير الأفراد، تغيير الجماعة السياسية، تغيير المجتمع، وتغيير الظروف في نضال مرير شاق ضد العنصرية الصهيونية وتجسيداتها المادية الاحتلالية التي حشرناها في موقف

دفاعي منذ اندلاع انتفاض كانون، رغم ما تملكه من تفوق تكنولوجي وقوة تدميرية هائلة...

لقد تفادينا استفزاز نقاط قوة العدو... فالجيشان شعبي من جهة والسلاح الناري محدود من جهة أخرى، وكل القوى مجمعة على ذلك، بعد أن تفادينا محاولة زج الأرض المحتلة في انتفاضة مسلحة أو عصيان مدني مفتوح، غير متوافر شروطهما قبل عامين... تصوروا لو حصل ذلك، لتم ذبح الشعب وانتهاء الانتفاضة منذ وقت... إننا نسعى لتحويلها لنمط حياة في نضال تاريخي مديد.

س ٣: أجل ثمة مؤتمنون، دون التخويض في الأمناء والمؤمنين والمؤتمنين، والفوارق بينهم. فهذا نتركه لأهل الفقه في الدين... أما بالنسبة لنا، فثمة تعابير صريحة واضحة المعنى.

قيادة، محترفون، مؤتمنون... وهؤلاء الأواخر، إذا جاز القول، هم زبدة سبقهم، الأكثر ثباتاً على الخط والأكثر وفاءً لتاريخ المسيرة، والأكثر إبداعاً أيضاً...

ويجب أن نعترف، أن ليس ثمة فوارق نوعية بين التصنيفات أعلاه، ولكن ان تكون مؤتمناً، يعني أن لا تسمح للعدو باعتقالك، وأن تحفظ أمنك لسنوات طويلة. وهذه الأيام وسيف الاعتقال «طالع واكل نازل واكل» ذهب بعض البارزين للسجن، وأقاموا في بيوتهم وبين ظهراني عوائلهم وبالقرب من زوجاتهم... هل يجوز لمؤتمن ذلك؟ كلا... فلو تصرفت بعض قيادة التجربة المركزية عام ٧٦ على النحو الذي تطالب به، لما جرى تصفية التجربة في الزنازين، أي لحفظ هؤلاء دورهم القيادي وطوروا التجربة وطوروا أنفسهم فلا ينكسرون في الزنازين... وبالتالي لأمكن تخيل أن تستمر التجربة ولما عرفنا سنوات قاحلة بعدئذ، وتجربة تبدأ من الصفر.

وراهنا الأمر أكثر حساسية، إذ راكم العمل ما راكم وامتدت البنية وباتت بحق جسماً كبيراً وقوياً، وفعالاً انتفاضياً على كل الصعد، وهذا يستدعي الحماية، وأول الحماة هم المؤتمنون، فهؤلاء عليهم أن يتحوطوا وأن لا يعتقلوا، لكيما يؤدوا دورهم، أما إن تقاطرت القيادة، الواحد تلو الأخر، للسجن، فمن سيحمي ويقود ويفعّل البنية؟!

في السنوات السابقة، توافر للحزب شرط قيادي مؤتمن، كان يضمن ديمومة المسيرة وارتقاءها التدريجي، وهذا يجب الحفاظ عليه اليوم، أكثر من السابق، إذ توسع وتعقد العمل التنظيمي والوضع السياسي، والانتفاضي، بما يقتضي حماية فريق من المؤتمنين، وليس مجرد فرد...

وهذا عليك أن تتمثله جيداً أيها الرفيق...

س ٤: نتفق معكم أن ثمة تقاطبات حادة في ساحة الوطن لدرجة تسييس كل شيء وتحزيب كل شيء، وهذا خطورته محدودة حتى اللحظة. ولكن ما معنى أن يذهب اتجاه أو أكثر لجولات واشنطن إن لم يكن اختزال الوطني لصالح الفئوي، هنا تتضاعف الخطورة...

إنكم تلاحظون توجهاتنا للانفتاح في أطرنا الديموقراطية، فهي وإن تؤيدنا بوجه عام، غير أن فيها بعض

التنوع، أي هناك من لا يتفق معنا تماماً أو يتقاطع جزئياً وحسب، في نشاط خدمي أو نسوي أو نقابي...

أي أننا لا نقوم بتسييس وتحزيب كاملين... فلا تنحصر فيمن معنا ويصفق لنا سياسياً ومنظم حزبياً، أو أن مصلحتنا الحزبية فوق مصلحة الوطن ومصلحة الطبقة ومصلحة المرأة ومصلحة حرية العقل...

إننا نتحرك... وعليكم أن تلاحظوا أن الكثير من اللجان الشعبية التي ننشط فيها أو نقودها فيها الآخرون أيضاً كما طاقات مستقلة تنظيمياً...

وهناك القوائم الانتخابية في المنظمات الشعبية كذلك، والفرق الفنية الأكثر شهرة وإبداعا... وشيء من هذا القبيل في الحقل الإعلامي والبحثي...

فليس كل من عمل معنا منا، كما ليس كل مرفق او مؤسسة تنفذنا فيهما هما صيغة حزبية...

ناهيكم عن أننا أكثر المدافعين، او على الأقل لا أحد يدافع أكثر منا عن الوحدة الانتفاضية واستمرار العملية الانتفاضية و«قوم» سواء المركزية أو المحليات... كأوسع صيغ وطنية وتخدم القضية الوطنية بحق.

هل تعلمون ان اتحاد المراة خاصتنا في أمريكا تقوده امرأة كفؤة ليست منا؟...

إننا ضد أن يكون المركز الأول في أي مؤسسة أو منظمة شعبية أو أو... من التنظيم الأكبر... فمحمود درويش أصبح رئيساً لاتحاد الكتاب وأنيس صايغ مديراً لمركز الدراسات وهما ليسا من التنظيم الأكبر وليسا من أي فصيل... هذا هو الخط الصحيح... وجبهة الفيتكونغ في فيتنام ابدعت وسجلت مأثرة على هذا الصعيد، ولولا ذلك لما ضمت اكثر من ٢٠ فصيلة سياسية وعرقية... وبالتالي هل يمكن أن تنتصر؟

اننا نناضل منذ عقدين ويزيد لتحويل منظمة التحرير لجبهة وطنية حقيقية فيها كل التلاوين السياسية وكل الفعاليات الاجتماعية وعلى رأسها قيادة جماعية حقا...

وبالتالي فإننا مع هذا الافق... أي لنفتح بوابات اطرنا ونوادينا ولجاننا للآخرين وللمستقلين... فلا خوف ان يخطف هؤلاء جهودنا... وهذا مقبول وضروري طالما ينطلق من مصلحة عامة ويخدم مصلحة عامة وليس مصلحة فئوية أو ضيقة. فماركس منذ زمن كتب أن الشيوعيين الثوريين يلتزمون بمصالح الطبقة العاملة ككل، أما البرجوازيون الصغار فينطلقون من مصالح فئة أو شريحة منها... وبالتالي علينا أن ننطلق من المصلحة الوطنية ككل والمصلحة الطبقية ككل.

طبعاً علينا ان نطور رؤيتنا عل هذا الصعيد، بالعودة لجذورنا، فعندما تاسست الجبهة الشعبية انما تاسست لكي تضم جميع القوى الفدائية حينذاك، بما فيها فتح... ولكننا لم ننجح، حتى ان فريق احمد جبريل انسلخ لاحقا، والديموقراطية انشقت وهؤلاء الأواخر منا اساساً أي قوميون وجبهة شعبية...

ما نستخلصه هنا، اننا دعاة صيغ مفتوحة ومتنوعة... اما الملموس، فسوف نتفاعل معكم ثانية في المستقبل...

وحول...

× × ×

وآخر أجاب عن الأسئلة التالية:

س١: تسألنا عن الموقف السياسي من الدولة المستقلة؟

كان الالتزام ببرنامج الجبهة حديدياً، وتم طباعة وتعميم ومناقشة تقرير المؤتمر الرابع ١٩٨١، وهو مجلد كبير وليس مجرد برنامج مكون من بضع صفحات كما التقليد اللينيني الذي دأب عليه الحزب الشيوعي السوفييتي...

نعم لم يرتفع أي صوت نقدي للبرنامج في الأرض المحتلة، فالثقة بلا حدود بالقيادة وما تمخض عن أوسع ورشة وأعلى سلطة حزبية، وكانت امتداداتنا محدودة في الوطن وأهم كادراتنا في أواسط العشرينات من العمر...

وقد انبهرنا بالتحليل للوضع الدولي والصيغ المقترحة على صعيد عربي، أما الروح الثورية فمتأججة في الداخل لتطويروجودنا وفعلنا.

لم يجر نقاش جماعي حول البرنامج المرحلي، أما بعد أن تقدم بريجنيف بمبادرته عن الدولتين، فقد تخندقنا ضدها.

أما البيان الذي صدر عن الجبهة في الداخل بعد إعلان الدولة في المجلس الوطني عام ٨٨ فإنه يوحي بعدم التناغم مع الإعلان بل سمعت همهمات حول شروط الدولة ومقوماتها إلى أن جاءت توضيحات الحكيم عن إعلان الدولة والشروط النضالية لتحقيقها. ولكن تبقّى شيء ما غامض نسبياً انعكس في الشعار الناظم لانتفاضة كانون الذي تحدد بالحرية والاستقلال دون إشارة صريحة للدولة...

يبدو أن نقاشات كانت تدور ولكن غير معلنة، وإلا كيف تفسر محاضرات قطامش في السجن حول حق العودة والدولة الديمقراطية في فلسطين ولاحقاً كتابه «التسوية الجارية إدارة أزمة أم حل أزمة» عام ٢٠٠٠ فهو واضح ويتشبث أولاً بحق العودة ويعتبره مدخلاً للتحرير وحل الصراع، وليس الدولة.

وهذه الأيام ثمة تيار فلسطيني سيما في أوساط المثقفين، يبني أطروحة حق العودة والدولة الديمقراطية على أطروحة فشل المسار التفاوضي في إقامة دولة وابتلاع الاحتلال لمعظم أراضي عام ٦٧ التي يفترض أن تكون جغرافية الدولة الفلسطينية.

كتب الدكتور ميعاري (من الواضح أن التطورات التي شهدتها القضية الفلسطينية منذ توقيع اتفاق أوسلو وحتى اليوم، المتمثلة بزيادة عدد المستوطنين اليهود في الضفة الفلسطينية وفي القدس ومحيطها، وإصرار

إسرائيل على الكتل الاستيطانية، وإبقاء القدس موحدة وإقامة الجدار الفاصل، وتحويل مدن الضفة إلى معازل تخترقها الطرق الالتفافية، وعزل غزة عن الضفة، تؤكد أن إقامة دولة فلسطينية مستقلة هو أمر غير قابل للتطبيق). - د. ميعادي، محمود. اتجاهات الفلسطينيين في الضفة وغزة. التراث والمجتمع، عدد ٤٨، ٢٠٠٨، إنعاش الأسرة.

والمهم التشبث بحق العودة كون المخطط المعادي يستهدفه أولاً، حيث رحّل في أوسلو واعتبر قراراً سيادياً إسرائيلياً في وثيقة جنيف، والآن مطلوب مقايضته بكيان هزيل... بل الأهم أن هذا الحق هو عملية نضالية طويلة وهذه حال الدولة الواحدة.

المسألة ليست حوارية ومؤتمرات أكاديمية بل صراعاً تاريخياً مريراً لتحطيم العنصرية ودحر الاحتلال وتحرير الوطن.

س ٢: ماذا عن حساسية نشأت بين الداخل والخارج أو بين الداخل والداخل؟ لم نلمس ذلك، فالتلاحم والنضال المشترك والإسناد المتبادل هو المظهر الرئيس والحاسم والتلاحم حقيقي والروابط رفاقية حقاً، وهذا انعكس في الترفيعات المركزية وفي قرار الانتفاضة والصلاحيات الواسعة للداخل، أما أن يكون لدى الداخل انزعاجات من الخارج فهذا يتصل بأضرار أمنية أصابت الداخل في سنين سابقة، وبعجز الخارج عن رفد الداخل كادريا بخلاف ما كانت عليه الحال في السنوات الأولى، وبمحدودية الميزانية المالية علماً أننا نربؤ بأنفسنا عن المطالبة بزيادتها، الأمر الذي جعل الداخل يلهث دائما ويقلّص المصاريف الضرورية وحقوق المتفرغين والمطاردين ويفوت فرص الاستثمار وشراء لوازم النضال، أما اللطمة الأخيرة فكانت القفز عن رسالة الوطن المحتل للمؤتمر الخامس، أي إدارة الظهر لجناح بأكمله، وفي حالة احتساب الحلقات يصبح أكثر من ثلثي الحزب، وينشط في الساحة الأساسية للنضال بما دفع الحزب في مسار غير متفق عليه...

وما عدا ذلك هي تباينات طبيعية حول العديد من القضايا أتى متن الكتاب على أهمها.

أما عن تناقض بين الداخل والداخل فالتوجيهات الحزبية صريحة، وتتضمن:

أ- ما يحدد المرتبة القوام والنشاط، إذ لا يوجد جنرالات دون جيش. والمراتب المركزية محدودة، والأغلبية الساحقة كانت زاهدة بها ويندر أن يتحدث أحد عن مرتبته، ولكن غير مستبعد أن تكون حالات فردية قد ظلمت أو نالت سخاء في المستويات الوسيطة، كما حصل بعض التنافس في السجون...

ب- كان ثمة احتجاج مستتر لدى كادرات وسيطة على تمركز الثقل القيادي والكادري في الوسط، وهذا له صلة بمركز القرار الحزبي والجماهيري والسياسي... إذ على الجغرافيا أن تكون عاملا مساعدا لا عائقا، ولكن كثرة من هؤلاء لم يقطنوا في نفس الموقع ولم ينحدروا من نفس المنطقة أيضا.

ج- كان ثمة تبرم بين فترة وأخرى في "س" عن دورها في الهيئات العليا وحجم ميزانيتها. كانت السياسة

الحزبية تقضي برفدها بما أمكن من طاقات وتلبية ما أمكن من احتياجات، وكان الصرف ١٥٠٪ من الحجم والفاعلية قياسا بسواها، أي يصرف لها أكثر من استحقاقها الرسمي، وفيما تقدمت الصفوف في السنوات الأولى تأخرت حزبياً على امتداد المسيرة...

أما المسألة التنموية، فليس لدى الحزب حل لها...هناك صحراء وهذا عامل جغرافي، واكتظاظ ديموغرافي، وهذا كان يتطلب خطة من منظمة التحرير ضمن قاعدة "بدل أن تعطيني كل يوم سمكة، علمني صيد السمك" أي تقديم القروض لخلق فرص العمل وليس الصرف الجاري والاستزلام السياسي وهذا لا نملك قراره...

س٣: ما أهم سمات الجبهة الشعبية في الوطن المحتل؟

هذا سؤال كبير، وفي رسالة حزبية يمكن إضاءة جوانب قليلة من الجواب وباقتضاب أيضاً.

عموماً إننا جزء صميمي في الجبهة الشعبية، جزء في كل، وما ينطبق على الكل جوهرياً ينطبق على الجزء، ولكن الجزء هنا في الوطن المحتل له خصائص تكونت في مسيرة كفاحية امتدت لأكثر من ربع قرن منذ احتلال حزيران/٦٧، وهي بلا شك خصائص متحركة. ولكن ما هو جوهري وراسخ:

١) أننا حزب ماركسي – لينيني وطني تحرري، سياسي – مقاتل.

فمن جهة نسترشد بالفكر الماركسي – اللينيني ولا نقدسه أو نسعى لتطبيقه، فهو مرشد وخلفية نظرية، بما يساعدنا على استخراج رؤيتنا وتحليلنا وبرامجنا وبناء حزبنا وو... من أجل نضالنا التحرري الوطني بأبعاده الطبقية والقومية. وقد نتقاطع مع السوفييت، ونوظّف تحالفاتنا بما يخدم نضالنا الوطني وليس العكس. في نضال مشترك ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية والبرجوازية الاستغلالية.

وطالما أن نضالنا تحرري فهو يستهدف تحرير فلسطين، كل فلسطين، ونربط التاكتيكي بالاستراتيجي، المرحلي بالتاريخي، دون مقايضة أو مساس بما هو استراتيجي وتاريخي، وإننا على خلاف مع التيارات أو المجموعات والقوى التي تعترف بشرعية إسرائيل، هذا الكيان الغريب الكولونيالي العنصري الذي استحدث المأساة/ القضية الفلسطينية وأدخل المنطقة في عدة حروب، ولكننا لسنا أعداء لليهود كبشر بل أعداء للصهيونية الاستعمارية التي احتلت وطننا وشرّدت شعبنا.

ونضالنا مديد وتاريخي لتحرير وطننا واسترجاع حقوقنا دون انتقاص أو تعويم...

وبطبيعة الحال كنا ضد جولات واشنطن ولم نشارك بها منذ البدء ورفضنا لقاء بيكر منذ جولته الأولى رغم خلافنا مع المركز في الخارج لأن بيكر يسعى لتمرير مشروع تصفوي للانتفاضة والقضية الوطنية، فهو حليف استراتيجي للعدوانية التوسعية الإسرائيلية.

٢) إننا حزب سري في مجمله، رغم بعض التظهرات نصف السرية أو الأقرب للعلنية، قيادة سرية، كادرات

سرية... بل إن التخفي ركن ركين في سرية الهيئات العليا، والضمان الأساس لبقاء الحزب وتطوره في الوطن، وبالتالي فإننا ننظر منذ وقت، بنقدية واستياء للمفصل الذي يسهل اعتقاله من بيته. إننا في مرحلة ثورية عاصفة، وعلى "أهل الشأن" الابتعاد عن تنورات زوجاتهم، فهذا قدرهم التاريخي، أما إذا اعتقل هؤلاء، فسوف يفقد الحزب "رأسه"، وهذا يعني طعنة في القلب والظهر...

والاحتلال منذ عقد ونصف تقريباً حاول من خلال بعض الكوادر اصطيادنا "اعملوا فوق الطاولة كالآخرين ولن نتعرض لكم" وعلنية القيادات تحت كشافات الاحتلال تعني اجهاضها وإخصاءها ضمن سقف الاحتلال وبالتالي عدم التصدي للمهام الجدية، وهذا المرض ينتشر في الساحة الفلسطينية... ولكننا لم نسمح بتفشيه في صفوفنا...

إننا حزب فدائي من ناحية الجوهر. والخضوع لشروط الاحتلال يعني التفريط بفدائيتنا وثوريتنا، أي أن تكف الجبهة عن أن تكون جبهة وتتحول لشيء آخر تفصّله اشتراطات الاحتلال. كما بعض الطبعات في الساحة الفلسطينية.

إننا نناضل ونضحي لحماية جوهر الجبهة وحماية وجودها، وأحد ضمانات ذلك أن يقود السري نصف السري وشبه العلني وأن تتوافر قيادة كفؤة ومقتدرة لهذا الاستحقاق، بل أن نرتقي بنضالنا الانتفاضي والتحرري.

إننا نربط بإحكام وطنيتنا بقوميتنا، طبقيتنا بوطنيتنا، وبكل ما هو أممي تقدمي، وكان لنا أوسع العلاقات على هذا الصعيد بما في ذلك رؤيتنا الحاسمة باستنفاد الدور التقدمي للمشروع القطري، وأنه دون نضال عربي مشترك لا مجال لحماية فلسطين أو أي منجزات عربية. بل إن لنا تقاطعات مع مجموعات يهودية يسارية تؤيّد أهدافنا بإقامة فلسطين ديمقراطية دون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي...

غير مؤرخة، ويعتقد أنها على فترتين ما قبل ١٩٨٩

- الملحق رقم ١٦ -

(الرفيق «المميز» الذي تفاءلنا بخروجه من «الكيس» وما رشح إلينا عن سنوات اعتقالك يزيدنا تفاؤلاً، لقد كنت رفيقاً وشقيقاً أكبر استشعر مسؤولياته بعد تجربة صمودية «اقتحمت السماء» على غرار رجال كومون باريس الذين ذبحوا مع عوائلهم ولم يكن بين أيديهم سوى سلاح الحجارة وبعض البنادق، على أيدي برجوازيتهم وبإسناد من البرجوازية الألمانية، عدوة الأمس. هل تصدق أن البرجوازية الفرنسية والألمانية اللتين احتربتا، حيث انتصرت الثانية وأسرت معظم جنود الأولى قد أطلقت سراحهم لتقوم البرجوازية الفرنسية بذبح أبناء جلدتها. فهي بطلة على العمال والفقراء الذين يطالبون بأودهم وكرامتهم وجبانة ومهزومة مع العدو القومي... لعل البرجوازيات العربية، وهي برجوازيات كومبرادورية - بيروقراطية في أغلبيتها، وليست برجوازية إنتاجية، أي أسوأ طبعات رأس المال بل مرتهنة بقدر كبير للمركز الإمبريالي، لعلها لا تصل إلى ما وصلت إليه البرجوازية الفرنسية.... انظر ماذا فعلت في أيلول الأردن والحرب الأهلية في لبنان وقمع انتفاضة الجوع في مصر التي أسماها السادات «انتفاضة الحرامية»، والسياسات الدموية لنظام بغداد، وتعاون أوساط أنظماتية في السودان ومصر وليبيا لذبح الحزب الشيوعي...

فبدل أن تؤدي برجوازيتنا العربية دورها المفترض في التنمية والمأسسة وتأمين قانون يحترم التعددية وحق التنظيم والإضراب والتظاهر... وبعض المكاسب الاجتماعية، أي ١٠٪ مما أنجزته البرجوازية الأوروبية أو سواها، نراها تتفنن في إقصاء المناخات التي تتيح ممارسة السياسة... والسياسة صراع وتسويات، الأمر الذي يتطلب وجود الآخر والاعتراف به وبحقوقه لكيما يتم الصراع والتسوية معه، أما في بلداننا العربية «فبرجوازيتنا» تتصرف بعقلية زعيم القبيلة الذي على القبيلة الانصياع له، أما أي شخص يعارض فمصيره القتل أو الطرد في الصحاري. فأسلحة برجوازيتنا القتل/السجون/التجويع/الاحتواء/التهجير خارج الوطن، حيث غالبية العقول العربية تعيش في المهاجر. وشيء يرقى إلى مستوى اللعنة أن يجد الكثير من الماركسيين في فرنسا والغرب فرصة عمل وحرية تعبير، أي في البلدان التي يناهضونها، فراراً من «ديموقراطية» أنظمتنا العربية ...!!

عرفات لا يفعل ذلك، فلم يصل به الأمر هذا الحد، صحيح أنه استخدم المدفعية عام ١٩٧٧ في لبنان لكتم أصوات قوى الرفض، ولكن الحكيم حينذاك عارض التقديرات التي قالها بعض قادة قوى الرفض أن عرفات قبض ثمن رؤوسهم ولن يتوقف... وقال الحكيم: مناورة وضربة محددة لإسكات الصوت المعارض.... وبالتالي علينا التمسك بصوتنا وتحريك الجماهير للاحتجاج.... وفعلاً تمت محاصرة نار الاقتتال الداخلي.

فوجود قائد ألمعي وأخلاقي كالحكيم إنما يجنب الساحة مزالق مرعبة. وهذا درس لنا. فمدرسة الحكيم هي مدرستنا، علماً أننا عانينا في السنوات الأولى وأخر السبعينات في سجون الاحتلال الكثير من التجاوزات والاعتداءات العنيفة والزعرنات التي انطلقت من قاعدتين: فهم خاطئ لدى مسؤولي فتح الذين ظنوا أنفسهم جبهة التحرير الجزائرية، وبالتالي على الجميع الانصهار فيهم، وقد احتاجوا لوقت ريثما أدركوا التعددية الفصائلية والفكرية والسياسية... وصدف أن اعتقل رجل محترم منهم (بسيسو) عقليته منفتحة

ووطنية ساعدت على ذلك. أما القاعدة الثانية فهي ضيق أفق وشراسة طباع وبساطة تفكير بعض مسؤوليهم الذين ظنوا أن الشفرة والمسمار والأداة الحادة والتهديد بالأغلبية كافية لتطويع الأقلية...

وفي الذاكرة أنهم قاطعوا رفاقنا بضعة شهور في سجن السبع، طبعاً كانت تدور أحاديث خاطفة وسلامات مستورة في القاعدة، إلى أن تمت تسوية الموقف... لقد كانت أعمار قيادات السجون في العشرينات وقتذاك، وهذا عامل له اسقاطات من الفجاجة والشراسة عليهم وعلينا.

طبعاً لسنا ملائكة، فنحن من نفس التربة الطبقية والوعي الاجتماعي، ولكننا أكثر إدراكاً لمعنى التعددية وتسوية التناقضات سلمياً، ونعرف أن العنف يستخدم فقط في التناقض التناحري بينما كان القانون الذي صاغه الحكيم في العلاقات الوطنية هو (وحدة وتناقض) والتناقص لا يحل بالعنف. كما أننا نقبل على الثقافة وقراءة الفلسفة والاقتصاد والتجارب الثورية بما نقلنا إلى مستويات فكرية أعلى من سوانا سيما على صعيد الكادرات... علماً أن تربة فتح مناضلة وشجاعة وتسبقنا على صعيد الكفاح المسلح، ولكن ثقافتها محدودة فيما عدا أفراد درسوا هنا وهناك، ولم يتعبؤوا بالصمود في الزنازين حيث يعتقلون أسراباً وجماعات، وبعض هؤلاء من أقاربنا وجيراننا أي يمكن تصليبهم وتجنيبهم ذل الانكسار في الزنازين بما ينتج عنه من أحكام عالية... وفيما لو طلبوا منا خبرتنا الأمنية لن نتردد في تزويدهم بها... بل إنهم طلبوا مرة العناية بمطاردين منهم ولم نتأخر.

ليكن جلياً، من منطلق وطني صرف وليس أخلاقياً فقط، أن أي ضعف في أي فصيل وطني هو ضعف لنا وأن أي قوة لأي فصيل وطني هو قوة لنا. إننا طلاب نضال في سبيل الوطن والشعب ولسنا طلاب نزاع وتعالٍ على الآخرين...

أي تناقض مع فتح أو سواها إنما هو حق مشروع، ضمن حرية الاختيار والاستقلال السياسي والفكري، ولكن أيضاً يجب أن يساعد على تطويرنا وتطوير فتح والآخرين. فهذا هو المنطق الديالكتيكي. وفي كثير من الأحيان كانت علاقتنا تحالفية وجيدة مع فتح والآخرين، وإننا نحرص على ذلك، فالجبهة الوطنية قانون أساسي وشرط من شروط الانتصار، ولكنها جبهة قائمة على «برنامج سياسي وطني وقيادة جماعية» كما صرح الحكيم غير مرة...

وهنا نواجه معضلة حقيقية... فعرفات فردي يذكي فرديته أن فتح أقوى منا، علاوة على صلاحيته التي تشمل فيما تشمل القرار المالي بل الصندوق القومي، وندرة الأصوات التي تعارضه داخل فتح إذا استثنينا أبو جهاد وصلاح خلف أحياناً ومن قبل الشهيد أبو علي إياد الذي سقط ببسالة في أحراش جرش وعجلون، ناهيكم عن أن بعض القوى اليسارية الفلسطينية هي أقرب سياسياً لخط عرفات، بل منذ البدايات مول عرفات «انشقاق الديموقراطية» طبعاً ليس مقصدنا نكأ جراح قديمة (دملها الزمن)، لكن رفاقنا في الديموقراطية يقفون بين كرسيين: كرسي الشعبية وكرسي فتح، ولو كان موقفهم يشكل طريق خلاص حينها يمكن النظر فيه، أما أن يجير لخدمة وتقوية نهج القيادة اليمينية، فحينها للحديث معنى آخر.

بداهة، إننا اليوم، نعضد بعضنا بعضاً، سياسياً في «قوم» وفي مئات المواقع الميدانية... ولكن أيدينا على قلوبنا فالحكيم صرح مرة أو أكثر «في المعارك نتحالف ولكن الخلاف ينشؤ ما أن تلوح مشروعات سياسية»، ويا ليت العقل القيادي الفلسطيني في الخارج يستمر في دعم الانتفاضة وينأى عن ضخ إرباكات سياسية إلينا، إذ لا زلنا نذكر الجهود التي بذلناها مع الخارج لإقناعه بعدم صوابية مقاربة العصيان المفتوح الشامل، كأقصر طريق لقبر الانتفاضة بعد أسابيع قليلة... لقد تجاوزنا ذلك الآن، ومن هنا خشيتنا... إذ حسبنا الاحتلال وإجراءاته وبطشه، أما إن رشحت مواقف يتولد عنها خلافات وانقسامات سياسية، فهنا ثالثة الأثافي.

الرفيق الغالي... إن عودتك لنا قوة جديدة للعمل في منطقتك وما هو أوسع من ذلك... نهنئك ونهنئ عائلتك ونهنئ أنفسنا. بصمودك وتحدي الفاشيست الذين يتلذذون بتعذيب شعبنا ويشربون الأنخاب ما أن يكتب لهم الفلاح في كسر إرادة مناضلينا.

لم يسبق أن التقيناك شخصيا، ونعرف أنك لم تتزوج بعد، وهذا موضوع شخصي، ولكننا نتمنى لك أفضل قدر من الحياة المتوازنة في إطار من الصراع الجذري مع العدو. «الحزب أولاً، الحزب عاشراً» هذا هو الشعار الذي تربينا جميعاً عليه وعمدنا ذلك بالدم والتضحيات، وأنت لك اسمك وتميزك هنا.

تجاوزت «الخامسة» قسم كبير من أزماتها في الأعوام الثلاثة الأخيرة، لقد اضطررنا للتعامل معها كخطوط وليس كمنظمة لبعض الوقت نظراً للحساسيات والتنافرات بعد أن خسرنا رجلها الأول، وكان بطاقة جيش في رجل واحد، بصرف النظر عن أحواله في الخارج هو وكوكبة رائعة كانوا كالسمك في بحر الداخل، أما بعد إخراجهم فقد عانوا ما عانوا بما يتصل بذلك من تشوشات. فأمثالنا لا يستطيعون العيش في مكتبية الخارج، كما أن أغلبيتنا لا تملك الكثير من مؤهلات البندقية في لبنان، بل لقد انحسرت البندقية وباتت في عد تنازلي... كما نظن أن رجالات الخارج سوف يواجهون صعوبات جمة فيما لو أتوا للداخل... ثمة تجربتان متباعدتان في جسم واحد... وما يرشح إلينا من فساد وامتيازات في الخارج في تراكيب م.ت.ف يزكم أنوفنا ويفور دمنا. ولا نعرف مدى صحة ما قيل على لسان القائد العسكري للثورة الفيتنامية: إن فتات الثورة الفلسطينية يصرف على الثورة الفيتنامية!... دون أن ننسى للحظة أن البندقية المقاتلة البطلة التي سالت لحمايتها دماء غزيرة في الأردن ولبنان، هي الباعث الأساسي للحلم الوطني، ودون البندقية تبهت القضية ويموت الحلم لجيل أو جيلين، وهذه البندقية إنما صنع هيكلها العظمي وعضلاتها شعبنا وقياداتنا في الخارج أولاً، رغم أي دور للداخل...

إننا لا نسعى لإقامة تعارض بين «الخارج» «والداخل» بل إننا من أصحاب نظرية الضرب بقبضتين معاً وضفر الجهود معاً... بل باتت هيئاتنا المركزية في م. س+ل.م خليطاً من الداخل والخارج، والحكيم يشجع تماماً تكريس قرار الانتفاضة في الداخل الذي بات الساحة الأساسية... وهذا يضع أعباء جديدة علينا، لكن دون أن يحرر الخارج من أعبائه، إذ عليهم إسناد الشعب المنتفض أكثر وإيجاد مخارج لمصاعب الإسناد...

في الداخل لا توجد تعقيدات كثيرة مع قيادتنا في الخارج، علماً أننا في بعض الأحيان نشعر «أننا نحفر في الصخر بأصابع عارية» ولكن دون أن تنكسر الأصابع أو الأظافر، وإنجازاتنا، وأنت أحد المشهود لهم بالإنجاز،

هي رصيدنا الأول، علماً أن بعض الرفقاء في الخارج لا يرتاحون للصقر الذي يطير بجناحيه ويصطاد الفرائس بمخالبه، ولكن «الداخل» شب على الطوق وبات شريكاً، ولا مهرب من التعامل معه كشريك... وهذه خطوة للأمام من الزاوية السياسية الإستراتيجية. ويسعدنا جداً جداً أن يكون كل رفاق الخارج، وعلى الأقل الذين يحتكون بالداخل، أكفأ منا وأكثر ثورية وإبداعية، بل نتمنى أن يساهموا في نشرياتنا وكراساتنا وصحافتنا، وأن يرفدونا بكادرات وقيادات من كل الطرز... بل إننا نتأهب لترسيم توجه كبير يتطلب منهم هذا الرفد، وهذا نكتب لك عنه لاحقاً، ربما بعد عام، بما يتجاوز كثيراً مقترحات جزئية لهذا الهامش أو ذاك، لا يصلنا إلا وتكون العربة قد تجاوزته وانتقلت لملعب آخر وحقل آخر... وأهم شيء أن يحرصوا أمنياً على الداخل وأن لا تتكرر تجربة فتح عام ٨٢...

أنك تلاحظ أيه الرفيق الغالي، أننا نكتب لك شذرات تتعدى مهامك المباشرة، وذلك ليس صدفة، إذ أننا «نستأنس فيك الخير» حسب تعبير لينين، مما يقتضي «تدوير مهامك» وتهيئتك لما هو أوسع. فأنت أحد الثقات الذين سيحملون مستقبل الحزب على كاهلهم... لا تكتفي «ببضع سويعات يومياً بل تعطي الحزب كل حياتك وطاقتك» لينين، فأنت محترف ثوري بالمعنى الراقي للكلمة، وليس مجرد موظف يتلقى راتباً على غرار ما هو سائد في الفصائل الفلسطينية، محترف على طريقة الحزب البلشفي في زمن لينين، وعلى طريقة أتباع محمد قبل أن يفسدهم الحكم المتوارث وبذخه في زمن الأمويين، وعلى الطريقة الجيفارية، تقشفاً وثورية بلا حدود وبراعة (الرفيق الأفضل يكون حيث الظروف الأكثر صعوبة) ماو... إن قبضة الثوريين المحترفين الذين يتكونون بتدرج وبمعايير عالية في الداخل هم العمود الفقري والرأس معاً لتجربتنا، وهنا ينبغي قطع شوط أكبر بل أشواطاً لكيما يتبلور الفريق ونتجاوز صيغة وجود فرد هنا ونصف فرد هناك، وما أصعب وأندر تبلور قائد جديد بما يملكه من سمات وخبرات ومهارات وطباع وفكر وطاقة إنتاجية... فالشعراء المتميزون أفراد وكذا الأدباء والقادة العسكريون والفلاسفة والقادة الحزبيون أيضاً... قد تعثر على زعيم سياسي أو قلم دعاوي أو مثقف أو منظم أو متفولذ أو إيثاري أو مرهف الشعور والأخلاق أو... أما أن تتبلور كل هذه الصفات أو معظمها في فرد، فهذا نادر أو نادر جداً، ولكنها ضرورية لقائد حقيقي، ولا يمكن بناء حزب ثوري أو الحفاظ على حزب ثوري دون قائد حقيقي...

على هذا النحو انظر لنفسك... أي أننا لا نذكي نرجسية أو نحرّض ذاتية، بل نضع بصمات كثيفة على خانة مطلوبة، دونها لا حزب نصونه ولا انتفاضة نحميها...

وبصراحة، إن مخاوفنا، في عد تصاعدي، على الانتفاض الشعبي الكاسح الذي يجتاح الوطن المحتل ٦٧ بطوله وعرضه وكل زاوية وزقاق فيه. إننا نسمع لأول مرة بأسماء عشرات وعشرات القرى، ورغم مبالغات إذاعة القدس، والمبالغة صفة فلسطينية تحاول استعواض والتغلب على ذاكرة الهزيمة التي تراكمت عقود أوعقوداً، بل إن العرب بمجملهم لم تقم لهم قائمة بعد انهيار العهد العباسي وتفكيك الإمبراطورية، وبعد أن غزونا أوروبا، والذين ينحازون لحق تقرير المصير أمثالنا لا ينحازون لأي غزو مهما كان، قامت أوروبا بغزونا مرة في عهد الفرنجة (الغزو الصليبي) الذي دحر معظمه صلاح الدين، وعاد واستوطن البلاد بعد التنازع بين شقيق

وأبناء صلاح الدين إلى درجة أن يستقووا بالأجنبي ضد بعضهم البعض، بل تكرر ذلك في الأندلس في أواخر العهد العربي، ومرة أخرى في العهد العثماني الذي استمر أربعة قرون حيث سيطروا على العرب وزادوهم تخلفاً وجهلاً بعد أن أهملوا التعليم والزراعة، أي العقل الاقتصادي في ذلك الوقت، هذا إذا اعتبرنا تركيا أوروبية، بصرف النظر عن التخريجات الدينية، وأخيراً الاستعمار الأوروبي الحديث الرأسمالي في القرنين التاسع عشر والعشرين وأحد نتائجه الغزو الصهيوني...

أما محاولات محمد على وعبد الناصر، وكل منها رفع لواء النهضة والوحدة القومية بطريقته، فأخفقت ولم يتبق منها إلا النزر اليسير، بل كان فشل البرجوازية القومية عاملاً أساسياً في اندفاع الإسلام السياسي الأقل تطوراً في رؤيته الفكرية «والديمقراطية» والاقتصادية من الرؤية القومية على علاتها وتشوهاتها... دون أن ننسى أن معظم الحركات الإسلامية تناهض كامب ديفيد السادات وجولات بيكر وهي تتململ في فلسطين... أما حزب الله فهو يقاتل ببطولة استثنائية تحوز على احترام الجميع خصوصاً أنه تجاوز مراهقاته في البداية عن الدولة الإسلامية... فلبنان متعدد الطوائف والقوى الاجتماعية...

ومع ذلك يفيد الاستماع لإذاعة القدس، فهي تغطي الأحداث أولاً بأول، ناهيكم عن الصحافة المحلية ونشريات الانتفاضة وما يصدر حزبياً من تحليلات أبعد مدى وعمقاً...

لا نخشى على الانتفاضة لأننا مصابون بالفوبيا، أو لا نثق باليمين الفلسطيني، فما يقرر تحليلنا معطيات أكثر ثباتاً... ونتمنى ان يكون تحليلنا خاطئاً.

إننا نلحظ ميولاً تساومية في الخارج والداخل، وفزعاً عرفاتياً جراء أزمة الأوضاع في الاتحاد السوفييتي والتهديدات الأمريكية للعراق... ولا خلاف على أثر ذلك على قضيتنا وانتفاضتنا، غير أن الفزع والمساومات لا يفضيان إلا إلى مزيد من الضرر، أما التاكتيك الأصوب فهو الثبات وتجذير الانتفاضة. ومؤخراً قال عرفات لوزير خارجية أوروبي «دون قلمي لا يسير شيء» وهذه قوة سلبية في السياسة، وهي صحيحة تماماً ولعله يستمر في هذا الموقف فلا يتعاطى مع زرافات الوفود التي تزوره يومياً في تونس بغية تطويعه وثلم نصله وتوريطه في أوهام سياسية. فميزان القوى حتى اللحظة، وهو العامل الحاسم، في تقرير أي مباحثات أو حلول سياسية، مختل جذرياً لصالح العدو الذي حشرته الانتفاضة في موقف دفاعي. ولكنه أقوى منّا، وهذا ليس الأهم، فأمريكا هُزمت في فيتنام وفرنسا هُزمت في الجزائر وهما أقوى من الفيتناميين والجزائريين، أما الأهم فالاحتلال لم ينفك قادراً على التعايش مع الانتفاضة فخسائره محدودة وأرباحه أكثر بكثير... فهو يستبيح الأرض الفلسطينية وينهب ثرواتنا المائية وما هو أكثر من «التبادل اللامتكافئ» سمير أمين، «ونهب المستعمرات» لينين، إنه يستبيحنا تماماً ويلحق اقتصادنا به تماماً ويستغل عمالنا بصورة مضاعفة، فأجرة الفلسطينيين بين ٥٠ - ٦٠٪ من أجرة اليهودي وو و...

أما غزل بعض الأوساط، أما اتصال بعض القيادات، بالبوابات الأجنبية، فهما ينطويان على مخاطر غير جلية بعد، ولكن الكتاب يعرف من عنوانه... وليس أمامنا إلا تفعيل الانتفاضة وتجذيرها، كما التحالف مع

كل من يتحالف معنا لحماية الانتفاضة وقطع الطريق على أي مسار تسووي، وبشكل أخص قواعد وكادرات فتح، فهؤلاء طينة وطنية مناضلة. ولا يظنن أحد أن خلافنا مع عرفات أو الوزير أو خلف أو... على الطابع النضالي والتضحوي فهؤلاء انصهروا منذ زمن، بينما كنّا أطفالاً، في معمعان النضال والتضحية، ولكن المشكلة في الطابع الفردي الذي يصيب أو يخيب وعدم استيعاب عرفات للحوار الذي يولد اتفاقاً لا يحمل بصمته، فهو لا يفهم الحوار الفلسفي الهيجلي... وقرار واحد خاطئ من قيادة الحزب الشيوعي الأندونيسي وكان قوامه عشرة ملايين حزبي وديمقراطي في الاتحادات العمالية والفلاحية... قرار يقضي بأن يستولي على السلطة، ترك الساحة لوزير الدفاع سوهارتو الذي قام بانقلابه عام ٦٥ وذبح قيادة النظام وقيادة الحزب ذبحاً جماعياً...

وقرار عبد الناصر، بما يمثله، فهو زعيم العرب، هذا اللقب الذي لم يحظ به أحد منذ قرون، حينما قام بتعيين السادات نائباً له أثناء سفره لأحد مؤتمرات القمة العربية، أتاح للسادات لاحقاً إقصاء «مراكز النفوذ» أي الناصريين واليساريين... والانقلاب على نهج الثورة المصرية... وصولاً إلى كامب ديفيد... هنا الخلاف. هنا الخطر.

مرارة تصل إلى حد نزف الدم من الروح والفؤاد والجسد، أن نخشى على الانتفاضة، من أهل البيت»»... هل قرأت كتاب «أهل البيت» لخالد محمد خالد... لقد فرم، نعم فرم، معاوية أبناء علي وعائلته... يالقباحتنا عندما نشهر السيوف في وجوه بعضنا بعضاً، واليوم نخشى على الانتفاضة من «سيوفنا» ومن رصاص العدو!!

كتب الحكيم مرة «للداخل» بما معناه «لو أبدت القيادة البرجوازية اليمينية مرونة تاكتيكية فهذا يمكن أن نتفهمه ولكن مرونتها تتحول لتنازلات، وهنا الخطورة». وهؤلاء الذين يحجون لتونس بمعرفة الاحتلال ودون أن يمنعهم وبعض المستشارين هم خطر على تفكير عرفات، يغذي هذا الخطر الوفود الأجنبية بنعومة ملمسها وعبارات التضخيم التي تكيلها عليه، وأحياناً تخويفه (السوفييت ينهارون، العراق في الطريق لمتحف التاريخ... الأرمن بددوا... أنقذ نفسك...) بما يشبه الكلمات التي سمعها «عمر المختار»... أنطوني كوين من صديق طفولته، الشيخ المتعاون مع الاستعمار الإيطالي...

وللعلم فإن الدبلوماسيين الأوروبيين والأمريكان، والوفود الأجنبية «الصديقة» عموماً يعرفون عن الشعور بالدونية لدى المتحدثين باسم شعبنا وهم لا يتورعون عن إسماع هؤلاء المتحدثين، حتى لو كانوا مجرد كوادر صغار، عبارات (أنت عبقري، ذكي، مكانك وزارة الخارجية...) لقد فعلوا ذلك مع أحد كادراتنا الذي لا تتعدى مؤهلاته التحدث بلغات أجنبية إضافة للقب أكاديمي... بينما هو حزبياً كادر قاعدي عادي... إنهم يشترون ذمم الناس بالمال والمساعدات والمؤامرات والكلمات المعسولة... وهذا يستحق المتابعة.

من باب التذكير لقد تدفقت الأموال الأجنبية أول ما قد تدفقت لمنظمات غير حكومية محسوبة على اليسار... وأوروبا ليست بابا نويل أو شؤوناً اجتماعية، وهذا حال أموال البترودولار التي تدفقت على قيادات المنظمة والقيادة المصرية والقيادة السورية... في الحقبة النفطية في السبعينات... فلذلك نتائج وعلينا أن لا نغمض عيوننا وأن لا نسد آذاننا...

حتى اللحظة، الانتفاضة تحت السيطرة، وهي قادرة على الثبات والاستمرار ولكنها كأية وحدة ديالكتيكية فيها تيارات إيجابية وأخرى سلبية، وتتأثر بعوامل خارجية إيجابية وأخرى سلبية... والصراع يدور هنا... وليس ثمة ضمانة لترسيخها وحمايتها إلا إن أصبحنا قوة أولى في بنيتنا التنظيمية وفعلنا الانتفاضي، بما يتطلبه ذلك من شرط قيادي جماعي كفؤ وبناء أدوات نضالية وإمكانية نضالية أفضل... اما الجوانب الأخرى فهي متوافرة، تقريباً، بحدها الأدنى... وهذا مشروعنا للسنوات المقبلة، وسنفرد وقفة خاصة لهذا الشأن في قادم الشهور.

الآن اسمح لنا، التطرق للملموس:

١. لقد تغلبت المنظمة «هـ» على كثير من إشكاليات ٨٥ – ٨٦، ولكننا نتفهم رأيك بالعمل «لتأسيس خط حزبي منفصل» على أن تحتكم للقواعد التالية:

أ) أولاً تأسيس هيكل كادري من رفاق جيدين لا صلة تنظيمية لهم بالوضعية القائمة. وهذا قد يستغرق ٦ – ٨ شهور.

ب) يتوزع الهيكل على خط تنظيمي وخط وظيفي، وذلك لسد ثغرات في المنطقة، وبناءً على المنجز تتحدد المهمات المستقبلية.

ت) الخط هو رديف للوضعية وليس بديلاً عنها ولا يثير أية احتكاكات معها.

ث) تستمر "مرجعيتك الكتابية" لبعض الوقت، فمراسلاتنا المتبادلة مغلقة، ريثما يتاح فرصة وترتيب آخر، ولا تقلق فالواسطة الفنية مؤتمنة.

هـ) من المنتظر منك ومن الخط الجديد الاضطلاع بدور أساسي في المنظمة بعد عام... أي لتبقى العلاقات إيجابية والمناخات النفسية ودية وحميمة مع الرفاق...

و) نقرر معاً لاحقاً، فيما إذا كان من الضروري بناء منظمات قاعدية أم لا.

لا شك أنك على دراية، أن مثل هذا الترتيب متاح لأننا نسمح به اتصالاً بقراءتنا لأوضاع المنطقة، وهذا السلوك لا نسلكه للمرة الأولى، بل بات لدينا بعض التراث الذي نتفادى معه بعض الأخطاء المحتملة، ولكنه ترتيب مؤقت ومن شأنه أن يثير اعتراض "قم" التي تشكلت مؤخراً... وإننا معنيون بتوطيدها، ورفدها بكادرات إضافية، في أقرب وقت... وهذا الخط الجديد هو أكبر داعم لها...

٤. من المفيد أن تحتك بهيئة الجامعة وبعض النوادي، فخلفيتك وشخصيتك تساعد على بناء نفوذ سريع، ولكن جهدك الأساسي في الخط التنظيمي أعلاه، بل ربما أن الاحتكاك يساعد على تغطية الجهد الأساسي...

٧. قد يكون ضرورياً العثور على رفيقة أو استقطاب رفيقة كتومة غير مقيدة في حركتها، لمساعدتك في أمور فنية أو متابعات جزئية، فأنت اليوم بت مكشوفاً، رغم صمودك، وحركتهم الظاهرة محسوبة عليك،والكادر

النسوي جيد كثيراً في الاتصالات المستورة... كما أن ذلك يغني تجربتها بما يفيد العمل لاحقاً... والأفضل زوجة رفيق صديق أو قريب بما يسهل اتصالك بها... وامرأة عصرية تتأهب للمهمة في أي وقت وليست امرأة "تخاف الهواء"!

٩. خد بالحسبان الحاجة للجنة وظيفية فنية تتولى مهمة الطباعة والتوزيع بما تتطلبه من مهارات وأمكنة... فالمنطقة فقيرة في ذلك وقد تسد ثغرة لاحقاً...

نكتب لك على أبواب ذكرى الانتفاضة وذكرى انطلاقة حزبنا، ومصادفة جميلة كان لها تأثيرات سياسية أن يحصل هذا التزامن. فقد كنا مستعدين لأحياء عيدنا، بما سمح لنا بتحويل المقود وحسب في خدمة العملية الانتفاضية.

لا مناص من التنويه، يجب عليك وعلى حفنة الكادرات من حولك عدم تصدر أية فعالية عامة، يمكنك المشاركة وحسب ولكن دون الظهور أو تقدم الصفوف، فليس هنا دوركم... وبصراحة أكثر ننتظر منك أن تقود "هـ" وربما الموقع المجاور أيضاً، ولكن بتدرج، فأنت الضمانة الوحيدة في الأعوام المقبلة للارتقاء النوعي بالموقعين، فغيرك لملم الصفوف وهيكل اللجان... ولكنه لا يملك القدرة المطلوبة. وأنت عشت تجربة حزبية أكثر رقياً وتعرف المقصود بهذه الكلمات القليلة...

والشيء الآخر لا نريد "منك" أية نشاطية تفوق الجهوزية، فما يحدد المهمات عملياً ليس قراءة التناقضات والمرحلة فقط، بل الجهوزية والنتائج المحتملة أيضاً، ودون هذا الفهم نقع في المغامرة...

ولا ننسى أن نقول أننا سمعنا تهامسات في منطقتكم عن نوايا للتصدي لشخوص منبطحين سياسياً، سوف نتابع عبر القنوات، ولكن ممنوع حزبياً التصدي الجسدي لمن يختلفون سياسياً معنا. فثمة فارق جوهري بين العمالة وبين الاجتهاد السياسي. ولهذا لم نؤيد من قبل قمع فتح للأكاديمي في بيرزيت، وهو محسوب عليها إجمالاً، ولا التصدي لرئيس "العصرية" ولا ما حدث في... فمثل هذه المبادرات أقرب للرعونة...

ولأننا نمثل الشرعية الحزبية، علينا أن نتقيد بالشرعية الثورية، وبالشرعية الأخلاقية، وشرعية الحكمة التي تتسلح برؤية صحيحة وقرارات صحيحة. هذا هو الحكيم، وهذه هي مدرستنا... وهذه هي الراية التي ستحملها من موقع قيادي مستقبلاً. وكتبنا من قبل أننا نخشى كثيراً من الخفة التي يتصرف بها البعض، إذ يسهل عليهم ضم قبضاتهم أو الضغط على الزناد، كما لو كان ذلك من موروثات العصر البدوي الذي لا يستوعب التناقضات وسبل حلها...

نشد على أيديكم بحرارة، ولعل مسيرة العمل تتيح لنا اللقاء الحي)

- الملحق رقم ١٧ -

بداية مفصل حزبي

بداياتي فدائية صرفة. سبقها كما حال العديدين تنظيم تظاهرات في المدارس وإلقاء الحجارة على جند الاحتلال. لم أكن قد أكملت الثانوية بعد. والعملية التي نفذتها مجموعة تابعة للشهيد وديع حداد في مطار عنتيبي بهرتني وشحنتني، وربما حددت ميولي ووطئت شغاف قلبي.

لقد تابعت العملية عبر وسائل الإعلام، وهنا ارتفع اسم الجبهة الشعبية عالياً. لم يكن قد نشر بعد أن الشهيد وديع حداد كان في ميدان المعركة وأنه اقترح توزيع الركاب على أماكن سرية خلافاً لرغبة رئيس الدولة عيدي أمين.

حفزتني هذه العملية إلى درجة توجهي لمنزل أحد الرفاق المحررين من السجون معرباً له عن ميولي واستعداداتي.

صادفت أحد نشطاء الجبهة (عاملاً من قطاع غزة) أصبح عنواناً لمجموعة من الشباب. وكان الانطباع لدي أن رفاق غزة هم نموذج جيفارا (محمود الأسود) الذي اكتسب شهرة كبيرة قبل استشهاده.

كان لدى أحد أعضاء المجموعة مسدس، شرح لنا كيفية استخدامه، تفكيكه، تلقيمه بالرصاص وإطلاق النار.

جرى اعتقالي بعد فترة قصيرة وأمضيت بضعة أشهر في السجن.

كان السجن منعطفاً بكل معنى الكلمة، حيث التقيت برفاق كان أهمهم «علي الجمال» رمز الصمود والتحدي في الزنازين الذي أمضى سنوات في الاعتقال الإداري. شرح لي بعض مفاهيم الديالكتيك، كما التقيت بالرفيق «علي القطاوي» الذي عرف بشجاعته الفدائية في قطاع غزة وتقدمه في صفوف التنظيم بعد ذلك. وفي اعتقال لاحق التقيت بالرفيق مخلص برغال ورفاقه وهم مجموعة فدائية من ال ٤٨ ومحكومياتهم بعشرات السنين، ومعروف عن برغال مزاياه القيادية والفولاذية وهو من عائلة مناضلة اعتقل معظم أفرادها.

زودني الرفاق في السجن بطائفة كراسات وتعاميم جذبتني إلى فكر الجبهة وعبّأتني ببعض خبرات العمل السري خصوصاً الأسماء المستعارة والنقاط الميتة والتمويه...

أقبلت على هذه النشريات والتهمتها كمتعطش، وبذلك بات انحيازي للجبهة واعياً.

ما أن أطلق سراحي، شرعت بتشكيل مجموعة نضالية اختبرت نفسها من خلال بعض أنشطة العنف الشعبي كإلقاء زجاجات حارقة وإلقاء حجارة وكتابة شعارات جدارية مستوحاة من رؤية الجبهة. لكن المسألة الأكثر أهمية كانت إيفاد رفاق للتدريب العسكري في لبنان...

وعدتنا القيادة في الخارج بتزويدنا بالعتاد، لكنها لم تف بوعدها إذ بقيت النقاط الميتة خالية.

كان لبنان هو ساحة البندقية العلنية، وكان علي تذليل بعض المصاعب الاجتماعية والسفر للخارج بغية الدراسة الجامعية.

ساعدني الرفاق في سوريا بتأمين هوية مزيفة استخدمتها في عبور الحدود اللبنانية. حظيت ببعض التدريبات النظرية والعملية.

شعرت بجدية الرفاق في القطاع العسكري... وكان تقييمهم أيجابياً لي.

عدت للوطن لزيارة الأهل، مع نهاية السنة الجامعية الثانية، وفي الرأس موال محدد.

تم رصد محطة لتحشد جنود الاحتلال، زرعت فيها العبوة...

هذه هي بداية تجربتي، والتي هي جوهر متكرر ونموذج لمئات الحالات من عناصر الجبهة...

ودون الاستطراد في مسيرة دامت أكثر من ثلاثة عقود، بت منذئذ أخرج من السجن لأعود إليه، ومن المتوقع أن يطلق سراحي قريباً.

(Footnotes)

١) بسمة أبوصوي وعودة شحادة، قراءات إحصائية، ص٤٩، ٥٢



أحمد قطامش...

ينحدر الكاتب من عائلة عمالية مقدسية من الريف الغربي(قرية المالحة) التي تعرضت للتهجير والتطهير العرقي عام ١٩٤٨.

- امضى عشرة اعوام ونصف في سجون الاحتلال اكثر من نصفها اعتقال اداري.
- عاش طريدا في الوطن المحتل ومتخفيا ١٧ عاماً.
- له اكثر من عشرة مؤلفات بما فيها تجربته في التحقيق المترجمة للايطالية والدولة الواحدة المترجمة للانجليزية علاوة على مئات المقالات.
- تولى ادارة مركز منيف البرغوثي الثقافي (عائلي) وصحيفة اتجاه والقى مئات المحاضرات الفكرية والسياسية.
- حاصل على درجة الدكتوراة في العلوم السياسية.

هذا الكتاب...

يتعرض الكتاب لقطع غير مسبوق (التنظيم السري) وقوانينيه ومقولاته الاهم، المستخرجة من جوهر الاشياء، والمتصلة بالممارسة الثورية، كنموذج مغاير لما هو سائد في الساحة الفلسطينية اليوم، في محاولة للكشف عن جدلية تحويل الذات وتحويل الظروف وعلاقة الذاتي بالموضوعي، لبناء الضمير الجمعي، جسر التوسط بين النظرية والتطبيق.

فالمسالة الاصعب هي بناء الحزب الطليعي وحماية مواقفه الثورية، حيث لا مساومة على المبادئ ولا يجب ان ينتهك التاكتيك الستراتيجية.

والكتاب هو اطروحة حوارية تسعى لحفز اقلام اخرى لنبش ذاكرة المقاومة وتوثيقها، فالتاريخ الذي لا يكتب ينسى، والصراع مديد "فمن يكتب حكايته يرث ارض الحكاية"